
الشوقيات
أحمد شوقي

الشوقيات

الشوقيات

تأليف
أمير الشعراء أحمد شوقي



الشوقيات

أمير الشعراء أحمد شوقي

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٩٣٨
تدمك: ١ ١٦٦ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات عربية للترجمة والنشر

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢ + **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

المحتويات

الجزء الأول

مقدِّمة الطبعة الأولى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

(١) كانت مصر إلى حين قدوم الحملة الفرنسوية إليها في سنة ١٧٩٨ بعيدة عن الاحتكاك بدول أوربا، خلا ما كان من مرور بعض التجَّار والمتاجر بأرضها في ذهابهم وعودتهم بين الغرب والشرق، وكانت بحكم خضوعها لاستبداد المماليك — تحت سيادة تركيا — تسود فيها الدسائس، ويعمل كل من أمرائها لما يجرُّ عليه النفع، وكانت الحركة العلمية والأدبية خامدة فيها خمودها في سائر بلاد الدولة العثمانية، وبلغ من ذلك أن تدنَّى علماء الفقه الإسلامي، الذين كانوا في مختلف العصور فخر مصر وزينتها، وفتر نشاطهم وفسد نتاجهم في ذلك العصر، فأمَّا الأدب من شعر ونثر فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة منذ امتدَّ سلطان الأتراك على مصر، وإنك لتعجب حين تقرأ كاتبًا كالجبرتي أو ابن إياس، لضعف تأليفه ولغته، ولسقم ما فيه من آثار الأدب شعرًا كانت هذه الآثار أم نثرًا.

فلمَّا جاء الفرنسيون إلى مصر، وتغلغلوا فيها، وسارت مع حملة الجنود حملة العلماء، رأى المصريون مظهرًا جديدًا من مظاهر الحياة لم يكن لهم في تاريخهم الأخير به عهد.

كان من بينهم الأطباء والمهندسون والصنَّاع والقوَّاد، ومن بينهم قام رفاعة بك رافع وتلاميذه يحيون عهد الأدب العربي في مصر، ولكنها كانت حياة تحيط بها ظلمات ماضٍ طويل؛ لذلك كان سريان نورها ضئيلاً قصير المدى، لكنها مع ذلك كانت بدءًا لما بعده، فلمَّا كان عهد إسماعيل سارت في سبيل النضج والقوَّة، ثم كانت الثورة العرابية وما تلاها من الحوادث مثارًا لشاعرية أكابر الشعراء من أمثال: سامي باشا البارودي، وإسماعيل

باشا صبري، ووحيًا لخيال شبان كان روح الشعر آخذًا بنفوسهم، متهيئًا ليفيض منها ما ينفخ في الأدب العربي روحًا وقوة.

وكانت الفترة التي انقضت ما بين الحملة الفرنسية في مصر سنة ١٧٩٨ واحتلال الإنكليز إيَّاها على أثر الثورة العرابية في سنة ١٨٨١ فترة تقلُّبات سياسية عجَّت بين الشرق والغرب والمسلمين والنصارى؛ فقد كانت تركيا من قبل ذلك التاريخ في عهد تدهوُّرها، وكانت محطَّ أطماع روسيا، فلم تكن تمرُّ حقبة من الزمن من غير أن تشبَّ بينهما حرب تنقص من أطراف المملكة العثمانية، وضعف تركيا هو الذي دفع محمد علي إلى غزوها، لكنه ما كاد يقترب من الآستانة حتى تألبت عليه إنكلترا وفرنسا وروسيا؛ مخافة أن يزعجهم قيامُه في عاصمة آل عثمان بين الدول الأوربية بعد ما كان من انتصاراته الباهرة في الشرق، ومن سعيه لتوطيد قوة السيف وقوة العلم في مصر، وكأن ما قامت به الثورة الفرنسية من نشر مبادئ حرية الرأي والعقيدة لم يغير من نفس تلك الدول التي جعلت من الإسلام والمسيحية والشرق والغرب خصمين لايتهادنان من غير أن تنطوي الضلوع على حفيظة.

فأمَّا المسلمون في أقطار الأرض فلم يشتد حقدهم على محمد علي؛ ذلك بأن الدول الأوربية كافة وروسيا خاصة، كانت لا تفتأ تشنُّ الغارة على الأتراك وتزيدهم ضعفًا على ضعفهم، فقد انتهت حروب الإمبراطورة كاترينا في سنة ١٨١٢ بمدِّ الحدود الروسية إلى الدنيستر، ثم تحالفت روسيا وإنكلترا وفرنسا في سنة ١٨٢٨، وسلخن اليونان من جسم الدولة العثمانية، وأقَمنَها مملكة مستقلة، وفي سنة ١٨٥٣ كانت حرب القرم، ولولا خوف إنكلترا وفرنسا من طغيان روسيا، ومن اكتساح الجنس السلافي أوربا، لَنال الروس من تركيا أكثر مما نالوا من قبل، ولنفذوا برنامجهم بإجلاء الأتراك عن أوربا.

وهذا الضعف والاضمحلال الذي أصيبت الدولة التركية به هو الذي جعل المسلمين لا يحقدون على محمد علي حين غزا الأتراك، متمسكين بقول الشاعر:

فإن كنتُ مأكولاً فكُنْ أنتَ آكِلِي وإلاَّ فأدركني ولَمَّا أمزَّق

على أن الحرب التي شبَّت نارها بين روسيا وتركيا في سنة ١٨٧٧ والتي خلَّد فيها الغازي عثمان باشا انتصار الترك بدفاعه المجيد عن (بلفنا) أحيَت في نفوس المسلمين آمالاً في دولة الخلافة التي كانت توشك أن تنهدم وتنهار.

ولقد كان المصريون إلى ذلك العهد يعطفون على تركيا عطف غيرهم من المسلمين، ولكنهم كانوا أبدًا يفكرون في استقلالهم عنها ويريدون تحقيقه، ولم يكن الأمل في ذلك بعيدًا بعد الفرمان الذي استصدره إسماعيل باشا في سنة ١٨٧٣ واستقلَّ فيه بإدارة الدولة، وبالتشريع لها، وبإنشاء الجيش الذي يقوم بحاجاتها ومطامعها؛ لذلك كان عطفهم على تركيا منبعثاً عن شعور ديني بحت لا أثر للتبعية السياسية فيه، فلمَّا حطمت إنكلترا وفرنسا آمال إسماعيل، وقضتا عليه باسم ديون مصر، ودفعتَا تركيا إلى خلعه، وانتهت إنكلترا باحتلال مصر بعد الثورة العرابية.

ونكثت بعد الاحتلال، وعُودها بالجلاء، وأحسَّ المصريون بتدخلها في شئونهم، اشتد عطفهم على تركيا، وضعُف تبرُّمهم بسيادتها عليهم، وثبت عندهم اليقين بأن دول النصرانية تطارد دول الإسلام، وقويت فيهم النزعة الدينية؛ وكان من ذلك ما زاد النشاط في بعث الحضارة الإسلامية والأدب العربي في مصر.

(٢) وسط هذه العوامل السياسية والاجتماعية وُجِدَ «أحمد شوقي»، وُلِدَ «بباب إسماعيل»، وشبَّ في جواره ونشأ في حماه؛ فكان طبيعيًا أن تتأثر نفسه بالبيئة الاجتماعية والسياسية، وأن تكون أكثر تأثرًا بها لقربها من المسرح الذي تشتبك فيه أصول هذه العوامل وأسبابها، وتضطرب فيه اضطرابًا يخفيه ما تقضي به حياة القصور، ثم تصدر إلى الحياة بعد أن تكون قد نُظِّمَت وهُذِّبَت، وشوقي خُلِقَ شاعرًا، والشاعر يتأثر أضعاف ما يتأثر سائر الناس؛ لذلك كان لكل هذه العوامل آثر بادٍ في شِعره وفي حياته.

ومع أن شوقي درس في مصر، ثم أتمَّ دراسته في أوربا وتأثر بالوسط الأوربي وبالحياة الأوربية وبالشعر الأوربي تأثرًا كبيرًا، فقد ظلَّ تأثره بالبيئة التي وصفنا ظاهرًا في حياته وفي شعره، كما ظلَّ تأثره بالبيئة الأوربية ظاهرًا فيهما كذلك.

وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه — بعد أن يتمَّ نشرها جميعًا — كأنك أمام رجلين مختلفين جدَّ الاختلاف لا صِلة بين أحدهما والآخر، إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر إلى عليا سماواته، وأن كليهما مصري يبلغ حبه مصر حدَّ التقديس والعبادة.

أمَّا فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر: أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان، مسلم يقدِّس أخُوة المسلمين، ويجعل من دولة الخلافة قدسًا تفيض عليه شئونه وحوادثه وحي الشعر وإلهامه، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال.. والآخر

رجل دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها، متسامح تسَعُ نفسُه الإنسانيةَ وتسع معها الوجودَ كله، ساخر من الناس وأمانيهم، مجدِّد في اللغة لفظًا ومعنى، وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر، وإن كان لتأثره بالقديم الغلَبة اليوم، وكانت آثار الرجل الآخر لا تظهر اليوم في شعر شوقي إلا قليلاً.

ولا تقل: إن الازدواج النفسي شأن الشعراء، وإن أبا نواس الذي كان يقول:

ألا فاسِقني خمرًا، وقل لي: هي الخمرُ ولا تسِقنى سِرًّا إذا أمكنَ الجهرُ

والذي كان يقول:

دَع عنك لومي: فإن اللومَ إغراءُ ودَاوِني بالتي كانت هي الداءُ

هو أبو نواس الذي كان يقول:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشَّفت له عن عدوَّ في ثياب صديق

فليس هذا من أبي نواس ازدواجًا في الروح، وما الحكمة الزاهدة عنده إلا فتور نفس أجهدتها اللذَّة فأضعفتها، فأخافها الضعف، فألجأها إلى حمى الحكمة والزهد، وإلى استغفار الله والتوبة؛ لذلك لا تلبث نفسه أن تعاودها القوة حتى تعود إلى نعيم الترف والإباحة، وذلك هو السرُّ في أنك لا ترى الزهد في شعر أبي نواس إلا عَرَضا واستثناءً، وذلك شأن الشعراء جميعًا إلا قليلاً منهم، وشوقي من هذا القليل؛ ففي شعره صورتان من صور الحياة تقوم كل منهما مستقلة، كأنما صاحبها غير الآخر، فأنت تقرأ:

حف كأسها الحبب فهي فضة ذهب

أو تقرأ:

رمضان ولَّى، هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فتراك في حضرة شاعر مغرم بالحياة وبمتاعها ونعمتها، شاعر تختلف روحه جدَّ الاختلاف عن صاحب نهج البردة التي مطلعها:

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعَلمِ   أحلَّ سفكَ دمي في الأشهُرِ الحُرمِ

وصاحب الهمزية الذي يقول:

وُلِدَ الهدى، فالكائناتُ ضياءُ   وفَمُ الزمانِ تبَسُّمٌ وثناءُ

وهذان الروحان، أو هاتان الصورتان من صور الحياة تتجاوران في نفس شوقي، وتصدران عنها وهي في كل قوتها وسلطانها؛ وأنت لذلك حين تقرأ القصيدتين الأوليين تمتلئ إعجابًا بالحياة ومتاعها ولذَّتها، وحين تقرأ الثانيتين تكون أشدَّ إعجابًا بكلمة الإيمان وروح الحق ورسالته، وأنت لا تشعر في أي الحالين بضعف نفساني عند الشاعر دفع به إلى لبوس روح غير روحه، بل أنت فيها جميعًا يبهرك شوقي بقوة شاعريته الممتلئة حياة وخيالاً، والتي تفيض بمتاع العيش فيضها بنور الإيمان.

كيف كان هذا الازدواج؟ كيف جمع شوقي في نفسه بين هذين الشاعرين: شاعر الحياة العربية بحضارتها الإسلامية وبما فيها من قِدَم وإيمان، وبين شاعر الحياة الغربية الخاضعة لحكم العِلم وما يكشف عنه كل يوم من جديد؟

مسألة تبدو للنظرة الأولى دقيقة معقدة؛ فقد تزدوج في نفس واحدة حياتان بينهما من الصَّلة ما يبيح الازدواج، فيكون الرجل الواحد فيلسوفًا وشاعرًا، كما كان المعرَّي أو كما كان فولتير، فأمَّا أن يكون الرجل شاعرًا وحدة حياته الشعر، ثم تكون نفسه مقسَّمة مع هذه الوحدة قسمة ازدواج على نحو شوقي؛ فذلك عجب في شاعر مطبوع يفيض عنه الشعر كما يفيض الماء من النبع، وكما ينهمل المطر من الغمام.

على أن لهذا الازدواج سببًا لم يكن مفرٌّ من أن يؤدي إليه، ذلك أن شوقي كان في طبع شبابه رسول الحياة، كان شاعرَ:

حف كأسها الحبب   فهي فضة ذهب

لكن هذا الشباب لم يكن في ملك نفسه؛ فقد بعث به الخديو توفيق باشا ليتمَّ علومه في أوربا، وكان من قبل ذلك شاعرًا متفوقًا، وكان في تفوُّقه ككل شاعر شاب يرسل القول

كما تلهمه إياه نفسه. فلمَّا عاد إلى مصر اتَّصل بالأمير الشاب عباس حلمي باشا وصار كلمته، ورأى يومئذ صنوًا له على العرش جعلته روحه الشابة مقدامًا لا يهاب، ومع ما فوجيء به أول ولايته في حادث عرض الجيش في السودان — مما اضطره للاعتذار — قد بقي شبابه يدفعه إلى ما كان يندفع إليه جدُّه إسماعيل من مغامرة، لكن قيام الاحتلال الإنكليزي في مصر جعل الخصومة بينه وبينهم وليست بينه وبين الأتراك، بل لقد كان منظورًا إليه أكثر الأحيان بشيء غير قليل من العطف في بلاد آل عثمان؛ لذلك كانت عواطفه متفقة وعواطف المسلمين الذين كانوا بعد انتصار الأتراك يرون في الخليفة المَوئِلَ الأخير لأمم الإسلام جميعًا.

اتَّصل الشاعر الشاب بالأمير الشاب، فحتَّم عليه ذلك أن يكون المعبِّر عن الميول والآمال الكمينة في نفوس المسلمين جميعًا، لا في نفوس المصريين وحدهم؛ وبذلك اجتمع في نفسه من أول حياته ميله للحياة، وحبُّه إياها، وحرصه على المتاع بها، مع إيمان المسلمين جميعًا وحرصهم على وحدتهم وعلى كيانهم، بإزاء الأمم الغربية التي تنظر إليهم بعين صليبية بحتَّة، وكانت هذه الناحية التي تمثِّلها نفسه من ظروف الحياة ومن البيئة المحيطة به، أكثر استيحاءً لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه؛ فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر، ويصبح جنديًا، وجنديًا باسلاً، ويتفوق في كل مواقف الحرب، ويصبح القائد الأعظم، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيته صديق النعمة، السعيد بها غاية السعادة.

(٣) وهذا الجزء الأول من ديوان شوقي فيه طائفة من شعره أوحي إليه بها على أنه ممثل المصريين والعرب والمسلمين، وأولى قصائده التي مطلعها:

همَّت الفُلكُ، واحتواها الماءُ وحَداها بمن تُقلُّ الرَّجاءُ

هي رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي، وقف فيها الشاعر وقفة مصري صادق العاطفة تفيض عليه ربَّة الشعر تاريخ بلاده منذ عرَفها التاريخ، أي منذ عرف الناس شيئًا اسمه التاريخ، وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ ممتلئ النفس فخرًا بمجد مصر حين يرتفع بها المجد إلى عليا ذُراه، آسفًا حزينًا حين تمرُّ بمصر فترات ظلم وذلة، مستفزًا للهِمم، حافزًا لعزائم أهل جيله والأجيال التي بعده؛ كي يعيدوا الماضي وعظمته.

وتراه في انتقاله من الفخر إلى الأسف إلى الاستفزاز يسير مع الحوادث متدفقًا، مندفعًا فوق موج الماضي، آتيًا من لا نهايات القِدَم، كأنما هو قيثارة آلهة ذلك الزمان البعيد، يدفع إليها كل جيل نسائمه، فتتغنى وتشدو بأهازيج النصر، وبترانيم المسرَّة طورًا، وبشجو الألم أحيانًا.[1]

وللقِدَم وللماضي على نفس الشاعر أثرٌ يذهب إلى أعماقها، وليس لمثل الآثار المصرية من القِدَم نصيب، فهذه الأهرام ما تزال تحتوي من الطلاسم ما يحار العقل في حَلِّه، وهذا أبو الهَول في مجثمه بين رمال الصحراء أكثر ثباتًا من الليل والنهار ومن الشمس والقمر، وهو في روعة صمته ينطق كل خط خطَّته الدهور على صحائف جثمانه، بما حوته من عبر أيسرها دوام انهيار الأشياء لدوام تجدُّدها، وهذا الملك الشاب «توت عنخ آمون» نبش قبره النابشون باسم العِلم فإذا فيه من طرف الفن ما يزري بكل فن وعِلم، وهذه وسواها من الآثار تثير في النفس — إلى جانب صورتها الظاهرة وما يدل عليه إبداع صنعها ودقَّة فنِّها من حضارة كملت لها كل أنواع الحضارة — صورة الماضي الذاهب في القِدم إلى أغوار الأزل، وتثير من شاعرية شوقي معاني بالغة الموعظة والعبرة مبلغها من السمُو والعظمة.

وأنت إذ تقرأ قصائده: على سفح الأهرام، وأبو الهول، وتوت عنخ آمون، يهزُّك الشعور بصورة هذا الماضي في قداستها ومهابتها، وتمتلكك نفس الشاعر فترفع بك من مستوى الحياة الدنيا إلى سماوات الخلد، ذلك بأن شوقي يهديك المعنى الذي كانت تلتمسه نفسك فلا تقع عليه، ويرسم أمامك — بوضوح، وقوة، وسمو خيال، ونبل عاطفة — كل ما ينبض به قلبك ويهتزُّ له فؤادك.

خلع القِدَم على هذه الآثار معنى البقاء والثبات؛ لذلك كان ما يفيض من الوحي إلى روح شاعر الشرق ثابتًا باقيًا، لا تزعزعه الحوادث، ولا تعصف به الغِيَرُ، فأمَّا ما سوى ذلك من شئون هذه العصور الحديثة فشوقي فيه هو كلمة الأمة، وفي هذه العصور الحديثة تغيَّر قدر الناس للحوادث إصغارًا وإكبارًا، بمبلغ رجائهم فيها، أو خشيتهم آثارها، وقد تعجب إذ ترى قصيدتين من أبدع قصائد شوقي وأحراها بالخلود متجاورتين في هذا الجزء الأول من الديوان: إحداهما في وداع لورد كرومر ومطلعها:

أيامكم أم عهد إسماعيلا   أم أنت فرعونٌ يسوس النيلا؟

والثانية في ارتقاء السلطان حسين كامل على أريكة مصر، ومطلعها:

المُلكُ فيكم آل إسماعيلا لا زال بيتكم يظلُّ النيلا

فترى الشاعر ينظر في كل من القصيدتين إلى الحوادث والأشخاص بغير ما ينظر إليها في الأخرى، ثم تجد مثل هذا في غير هاتين القصيدتين، وليس لذلك من علة إلا الاضطراب الذي أصاب العالم قبل الحرب وبعدها، والذي لا يزال عظيم الأثر على تفكير المُفكِّرين وكتابة الكُتَّاب وشِعر الشعراء.

على أن هذا التأثُّر بالحوادث في بعض الشئون التي لا يستقرُّ للناس فيها — عادة — رأيٌ قبل أن يصدر التاريخ عليها حكمًا خاليًا من الغرض، لا يؤثر بشيء في روعة القصائد التي كان فيها، وهو بعدُ لا يشغل من هذه القصائد إلا حيِّزًا ضيقًا، فإن شوقي لا يزيد في القصائد التي تقال لمناسبة حادث من الحوادث على أن يشير لهذا الحادث بأبيات خلال القصيدة وفي آخرها، فأمَّا أكثر أبيات القصيدة فحِكَمٌ غوالٍ، أو وصف رائع، أو ما سوى ذلك مما يلذُّ عقل شوقي أو خياله أن يفكر فيه أو يلهو به، وهذه الحِكم لم يتغير تقدير شوقي لها؛ فهو يرى أن الأمم لا تقوم على دعامة غير الإخلاق، فالعلم عنده حسنٌ وله فائدة، والغِنى حسن كذلك، وسائر أدوات الحضارة تصلح الأمم، لكنها جميعًا لا فائدة من رقيها وغزارتها إذا انحطَّت أخلاق الأمة، فأمَّا إن قويَت هذه الأخلاق فقليل من ذلك كله كافٍ ليرتفع بالأمة إلى ذروة المجد والسؤدد.

وليس معنى هذا أن شوقيًّا يحقر من شأن ما سوى الأخلاق، فله عن العلم والفن والعمل والترحال وغيرها آيات بيِّنات، لكنما معناه أن الأخلاق عنده في المحلِّ الأول، وهو لا يمَلُّ من أن يكرِّر الدعوة إلى الخُلُق الصالح على أنه قِوام حياة الأمم في قصيدة يقولها عن مصر أو عن غير مصر، وكثير من أبياته في هذا المعنى قد اصبح مثَلاً يتداوله كل كاتب، وكل أستاذ، وكل تلميذ، ويردِّده الجميع على أنه الحكمة لا يأتيها باطل من بين يديها ولا من خلفها، أوَلاَ ترى قوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقِيَت فإنْ همُوُ ذهَبت أخلاقهم ذهبُوا

قد بلغ من تواتره على الألسن أن أصبح الكثيرون لا يعرفون إن كان لشوقي أو لشعراء العصور الزاهرة في أيام العرب إلا لأنهم يريدون أن يكون فخر هذا البيت وغيره من مثله لهم، بنسبته لشاعر مصر والشرق في عصرهم.

(٤) إلى جانب مقام العاطفة الوطنية التي هي قوة متسلِّطة على نفس شوقي، تقوم عاطفة أخرى لا تقلُّ عنها قوة، وربما كانت أشدَّ أخذًا بهذه النفس وإثارة لشاعريتها، تلك هي العاطفة الإسلامية؛ فشوقي شاعر الإسلام والمسلمين، كما أنه شاعر مصر وشاعر الشرق، وعاطفة المسلم تتَّجه حتى العصور الأخيرة إلى جهتين، ثم إلى قومين: فهي تتجه صوب مكة مسقط رأس النبي ﷺ ومقام إبراهيم كعبة المسلمين وِقبلة أنظارهم، ومكة في بلاد العرب، والنبي عربي، والقرآن عربي، وهي تتجه — أو كانت تتَّجه — صوب الآستانة، مقرِّ الخلافة الإسلامية، ومقام الخليفة من آل عثمان، والآستانة عاصمة الترك، وخليفة المسلمين كان تركيًا، فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — إلى حين أُلْغِيَت الخلافة — نحو مكة ونحو الآستانة، يستمد من الأولى المَدد الروحي، ومن الثانية مَدد السيف والمِدفع.

إلى جانب ما يرجوه المسلم من أهل بلاد الشرق العربي في مكة من مَدَد روحي، تحرَّك نفسه إلى هذه الأنحاء عاطفةٌ أخرى هي العاطفة العربية، هي عاطفة هذه اللغة التي تربط اليوم أكثر من سبعين مليونًا، أكثرهم مسلمون، وكلهم خاضع لما يخضع له غيره من بطش القوة وسلطان التحكم، واللغة في حياة الأمم ليس شأنها هينًا؛ فأمة لا لغة لها لا حياة لها، ورقيُّ اللغة في أمة آية صادقة من آيات رقيها، وما دام العرب مصدر اللغة، وعلى رجل منهم هبط الوحي، وبينهم قام صاحب الشريعة، فلهم — عند المسلمين كافة وعند الذين يتكلمون العربية خاصة — حُرمة تدفعهم إلى التغني بآثارهم، والإشادة بقديم مجدهم، وتمني خير الأماني لهم.

لذلك كان العرب، ومكة، والوحي، والقرآن، والإسلام، والرسول، كلها معانٍ لها من الأثر في نفس شوقي ما ليس لسواها من آثار الماضي؛ ولذلك لم يكن شوقي يشيد بذكر المسلمين وبخلافتهم لغاية سياسة سرفة، بل إنه ليؤمن بهذه المعاني إيمانًا يتجلى في الكثير من قصائده على صورة تتركنا في حيرة: كيف يبلغ الإيمان من نفس هذا المحبِّ للحياة كل هذا المبلغ؟! فلا نجد لحيرتنا جلاءً إلا من الحديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

وبحسبك أن تقرأ الهمزية النبوية، ونهج البردة، وقصيدته في ذكرى المولد التي مطلعها:

سلُوا قلبي غداة سلا وثابا لعلَّ علَى الجمَالِ له عِتابا

لترى في غير إبهام أنه إنما أملَت هذه القصائد قوة غلَبت طبع الشاعر؛ هي قوة الإيمان!

لكنك قد يدهشك — مع تجلِّي الإيمان في هذه القصائد وغيرها — أن يكون شوقي أكثر تحدثًا عن الترك وعن الخليفة منه عن العرب وعن الرسول؛ فهذا الجزء الأول من ديوانه يشتمل على ثلاث قصائد عن العرب ومكة والرسالة، ويشتمل على ثماني عشرة قصيدة عن الخلافة وعن الترك، وأنت تلمَس في هذه القصائد الثماني عشرة جميعًا حسًّا أدقَّ من العاطفة، وفيضًا أغزر من الشِّعر، وقوة تكاد تعتقد معها أن شوقيًا إذ يتحدث عن الترك إنما يملي ما يكنُّه فؤاده، وإنما يندفع بقوة كمينة هي قوة دم الجنس، أو أن اتصاله بالبيت المالك في مصر كان قوي الأثر في نفسه إلى حدٍّ جعله يفيض من ذِكر الترك بما ينبض به قلب سلالة محمد علي.

وليس عليك إلا أن تقرأ أيًّا من قصائده التركية، لتقتنع بما نقول.. اقرأ قصيدته العظيمة العامرة عن الحرب العثمانية اليونانية التي مطلعها:

بسيفك يعلو الحق، والحق أغلَب ويُنصَرُ دِينُ الله أيَّانَ تضرِب

أو قصيدته في رثاء أدرنة، أو تحيته للترك أيام حرب اليونان، أقرأ أيًّا من هذه القصائد التي قِيلت قبل الحرب الكبرى، أو اقرأ غيرها مما قيل بعد الحرب على أثر انتصار الأتراك على اليونان، كقصيدته التي مطلعها:

الله أكبر، كم في الفتح من عَجب يا خالَد الترِك جَدِّد خالدَ العرَب

وإنك لَمؤمنٌ حقًا بأن هذه القصائد التركية هي أقوى قصائده عن الحوادث وأصدقها حسًّا وعاطفة.

ولعل مرجع ذلك أن قد اجتمعَت في الأتراك عوامل كثيرة كان لشوقي اتصال بها؛ فكانت لذلك تهزُّه أكثر ما تهزُّ سواه. فالترك — فوق أنهم كانوا مقر الخلافة وقِبلة المسلمين الزمنية، وأصحاب السيادة على مصر سيادة يشلُّها الاحتلال الانجليزي — يجري من دمِّهم في عروق الشاعر الكبير، ومنهم أصحاب عرش مصر — يومئذ الذين ببابِهم وُلِدَ شوقي وفي حماهم شبَّ ونشأ.

وقد بلغ من حبِّ شوقي للترك أن كان يعتبرهم مجموعة فضائل لا تشوبها نقيصة.

(٥) على أن شوقيًّا — وإن كان شاعر مصر، وشاعر العرب، وشاعر المسلمين، وكان فيه الازدواج بين حبِّ الحياة ومتاعها والإيمان ونعيمه — له ذاتيته التي لا تخفى فهو شاعر الحكمة العامة، وهو شاعر اللغة العربية السليمة، وإنك لَتَعجَب أكثر الأحيان حين ترى عنوان قصيدة من قصائده ثم لا تجد في القصيدة غير أبيات معدودة تدخل في موضوع العنوان، بينا سائرها حكمة أو غَزل أو وصف أو ما شاء لشوقي هواه، وما أحسب شاعرًا بالَغ في ذلك ما بالغ شوقي، ولستُ أضرب لك مثَلاً لذلك مما في هذا الجزء الأول من الديوان إلا بقصائد ثلاث: لجان التموين، والانقلاب العثماني، وبين الحجاب والسفور. هذا وإنك واجد في غير هذه القصائد الثلاث ما يظهر لك منه ما ألقينا به إليك، فشيطان شوقي أشدُّ حرصًا على متاعه بالشعر للشعر منه بموضوع خاص، أمَّا القصائد التي يملك موضوعها أبياتها جميعًا فهي القصائد التي مَلك موضوعُها شوقيًّا فأنساه نفسه، بما كان له في هذا الموضوع من لذة ومتاع، وما أفاضه على شاعريته من وحي وإلهام.

وحكمة شوقي، وما يصدرعنه من وصف وغَزل، وما يميز شعره جميعًا يبدو كأنه شرقي عربي لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار، وهذا طبيعي ما دام شوقي شاعر العرب والمسلمين، وما دام يجد في الحضارة الشرقية القديمة ما يغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية إلا بالمقدار الذي تحتاج إليه أمم الشرق في حياتها الحاضرة لسيرها في سبيل المنافسة العامة، ولقد ترى شوقيًّا يغلو في شرقيته وعربيته أحيانا، ولقد تراه يتعمَّد ذلك في لفظه ومعناه، وسبب ذلك هو ما يراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ما خلَّف السلف من تراث، والأخذ بكل ما ينبع به الحاضر من وراء الغرب.

وقد يكون غلُوُّ شوقي أكثر وضوحًا في جانب اللغة منه في جانب المعاني، فهو بمعانيه وصِوَرِه وخيالاته تحيط مما في الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقي وترضاه الحضارة الشرقية، أمَّا لغته فتعتمد على بعث القديم من الألفاظ التي نسيَها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها، ولعل سرَّ ذلك عند شوقي أن البعَثَ وسيلة من وسائل التجديد، بل لقد يكون البعث آكد وسائل التجديد نتيجة ما يوجد من أرباب اللغة، ممَنْ يفيضون على الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها، والبعث لها إلى جانب ذلك من المزايا أنه يصل ما بين مدنية دراسة ومدنية وليدة، يجب أن تتصل بها اتصال كل خلف بسلفه.

ومَنْ ذا ترَى من أرباب اللغة قديرًا قدرة شوقي على أن يبعث في الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها في الحاضر، وتفيض عليها من ثوب الشعر ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبلُ المعاني والأخيلة والصور؟ إن اليونانية لا تزال موضع دراسة العلماء واللغويين لأن هومير كتب بها إلياذته، واللاتينية ما تزال حياتها كمينة وإن تدثَرت بحَجب الماضي أن كتب بها فرجيل شعره، واللغة العربية هي حتى اليوم لغة التفاهم بين سبعين مليونًا من أهل هذا الشرق العربي، وهي حيَّة وستبقى أبدًا حيَّة، ولكن كمال حياتها يحتاج إلى أن يبعث الله لها أمثال شوقي؛ ليزيدوا تلك الحياة قوة وروعة وجمالاً.

وما أنا بحاجة إلى أن أدُلَّ على هذه القوة، وتلك الروعة، وذلك الجمال، فكل أديب أو متأدب يعرف منها ما أعرف، وها هي ذي مجلوَّة في هذا الديوان بكل ما لشوقي على اللغة والأدب والشعر من سلطان.

هوامش

(١) انظر الانتقال في هذه الأبيات التي اخترناها:

قل لبانٍ بنى فشاد فغالى — لم يجز مصر في الزمان بناء
أجفل الجنُّ عن عزائم فرعو — ن ودانت لبأسها الآباء
زعموا أنهَا دعائم شِيدت — بيد البَغي مِلؤها ظلماء
إن يكن غير ما أتوه فخار — فأنا منك — يا فخار — براء
لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيـ — ـز ولا طنطنت بك الأنباء
جيء بالمالك العزيز ذليلا — لم تزلزل فؤاده البأساء
بنت فرعون في السلاسل تمشي — أزعج الدهر عريَها والحفاء
والأعادي شواخص وأبوها — بيد الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعو — ن وفرعون دمعُه العنقاء

كبار الحوادث في وادي النيل[١]

هَمَّت الفُلكُ، واحتواها الماءُ ... وحدَاَها بمن تُقِلُّ الرجاءُ[١]

ضرب البحرُ ذو الغُبابِ حَوَالَيْـ ... ـهَا سماءً قد أكبرَتها السماءُ[٢]

ورأى المارقون من شَرَكِ الأر ... ضِ شِباكًا تمدُّها الدأْماءُ[٣]

وجبالاً موائجًا في جبالٍ ... تتدجَّى كأنها الظلماءُ[٤]

ودَوِيًّا كما تأهَّبَت الخيـ ... ـلُ وهاجَت حُماتَها الهَيْجاءُ

لُجَّةٌ عند لجةٍ عند أخرَى ... كهضابٍ ماجَت بها البَيداءُ

وسَفِينٌ طَورًا تَلوحُ، وحِينًا ... يتوَلَّى أشباحَهنَّ الخفاء[٥]

نازِلاتٌ في سَيرِها صاعِداتٌ ... كالهوادِي يَهُزُّهنَّ الحُداء[٦]

ربَّ، إن شِئتَ فالفضاءُ مَضيِقٌ ... وإذا شئتَ فالمَضِيقُ فضاءُ

فاجعل البحرَ عصمةً، وابعث الرحـ ... ـمةَ فيها الرياحُ والأنواءُ[٧]

أنتَ أُنسٌ لنا إذا بَعُدَ الأُنـ ... ـسُ، وأنتَ الحياةُ والإحياءُ

يتولَّى البحارَ — مهما ادلهمَّت — ... منك في كل جانبٍ لألْاءُ

وإذا ما عَلَت فذاك قيامٌ ... وإذا ما رَغَت فذاك دعاءُ[٨]

فإذا راعها جلالُك خَرَّتْ ... هيبةً، فهْيَ والبساطُ سواءُ

[١] قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة جنيف في سبتمبر سنة ١٨٩٤، وكان مندوبًا للحكومة المصرية فيه.

والعريضُ الطويل منها كتابٌ ... لك فيه تحيةٌ وثناءُ
يا زمانَ البحار، لولاك لم تُفْـ ... ـجَع بنُعمَى زمانها الوَجْناءُ[٩]
فقديمًا عن وَخْدِها ضاق وجهُ الـ ... ـأرضِ، وانقاد بالشَّراع الماءُ[١٠]
وانتهَت إمرةُ البحار إلى الشر ... قِ، وقام الوجود فيما يشاءُ
وبنَيْنا، فلم نُخَلَّ لِبانٍ ... وعلَونا، فلم يَجُزْنا علاءُ
وملَكْنا، فالمالكُون عبِيدٌ ... والبرايا بأسرِهم أُسَراءُ
قُل لبانٍ بنَى، فشادَ، فغالَى: ... لم يجُز مصرَ في الزمانِ بِناءُ
ليس في الممكناتِ أن تُنقلُ الأجبـ ... ـالُ شُمًّا، وأن تُنالَ السماءُ[١١]
أجْفل الجنُّ عن عزائم فرعو ... ن، ودانت لبأْسها الآناءُ[١٢]
شادَ ما لم يَشِدْ زمانٌ، ولا أنـ ... ـشأ عصرٌ، ولا بنَى بنَّاءُ
هيكلٌ تُنثَرُ الدياناتُ فيه ... فهي والناسُ والقرونُ هَباءُ
وقبورٌ تحَطُّ فيها الليالي ... ويُوارَى الإصباحُ والإمساءُ
تشفقُ الشمسُ والكواكبُ منها ... والجديدان، والبِلَى، والفناءُ[١٣]
زعموا أنهَا دعائمُ شِيدَت ... بَيدِ البَغْيِ، ملْؤها ظلماءُ
فاعذُرِ الحاسدين فيها إذا لاَ ... مُوا، فصعبٌ على الحَسودِ الثَّناءُ
دُمِّر الناسُ والرعيَّةُ في تشـ ... ـييدِها، والخلائقُ الأُسرَاءُ
أين كان القضاءُ، والعدلُ، والحكـ ... ـمةُ، والرأيُ، والنُّهَى، والذكاءُ
وبنُو الشمسِ من أعزَّةِ مصرٍ ... والعلومُ التي بِهَا يُستضاءُ
فادَّعوْا ما ادَّعَى أصاغرُ آثيـ ... ـنَا، ودَعواهُم خَنًا وافتراءُ[١٤]
ورَأَوْا للذين سادُوا وشادُو ... سُبَّةً أَن تُسخَّرَ الأعداءُ
إن يكن غيرَ ما أتوْهُ فخَارٌ ... فأنا منك — يا فخارُ — بَراءُ
ليت شِعري، والدهرُ حربُ بنيه ... وأياديه عنده أفياءُ[١٥]
ما الذى داخلَ اللياليَ مِنَّا ... في صبانا، والليالِي دهاءُ[١٦]
فَعَلاَ الدهرُ فوقَ علياءِ فرعو ... نَ، وهمَّت بمَلْكِه الأرزاءُ؟
أعلنَت أمرَها الذئابُ وكانُوا ... في ثيابِ الرُّعاةِ من قبلُ جاءُوا[١٧]
وأتَى كلُّ شامتٍ من عِدَا الملْـ ... ـكِ إليهم، وانضمَّت الأجزاءُ
ومضى المالكون، إلا بقايا ... لهُمُ في ثَرَى الصعيدِ الْتِجاءُ

فعلَى دولةِ البُناةِ سلامٌ وعلَى ما بنَى البناةُ العَفَاءُ
وإذا مصرُ شاةُ خيرٍ لراعِي السوءِ، تُؤذَى في نسلِها وتُساءُ
قد أذلَّ الرجالَ، فَهْيَ عبيدٌ ونفوسَ الرجالِ، فَهْيَ إماءُ
فإذا شاءَ فالرقابُ فداه ويسيرٌ إذا أراد الدماءُ
ولقومٍ نوالُه ورضاه ولأَقوامِ القِلَى والجَفاءُ[18]
ففريقٌ ممَتَّعُون بمصرَ وفريقٌ في أرضِهم غُرَباءُ
إن ملكتَ النفوسَ فابْغِ رضاها فلها ثورةٌ، وفيهَا مَضاءُ[19]
يسكن الوحشُ للوثوبِ من الأسرِ، فكيف الخلائقُ العُقلاءُ؟
يَحسَبُ الظالمون أن سَيسُودُونَ، وأن لن يُؤيَّدَ الضعفاءُ
والليالي جوائرٌ مثلَمَا جارُوا، وللدهرِ مثلَهم أهواءُ
لبِثَت مصرُ في الظلام، إلى أن قِيلَ: مات الصباحُ والأضواءُ
لم يكن ذاك من عمًى، كلُّ عينٍ حَجَبَ الليلُ ضوءَها عمياءُ
ما نراها دَعا الوفاءُ بَنِيهَا وأتاهم من القبورِ النداءُ
ليزيحوا عنها العدا، فأزاحوا وأزِيحَت عن جَفنِها الأقذاءُ
وأعِيدَ المَجدُ القديمُ، وقامَت في معالِي آبائِهَا الأبناءُ
وأتَى الدهر تائبًا بعظيمٍ من عظيمٍ، آباؤه عظماءُ
مَنْ كَرَمسيسَ في الملوكِ حديثًا ولِرَمسيسٍ المُلوكُ فِداءُ[20]
بايَعَته القلوبُ في صُلبِ سِيتِي يومَ أن شاقَها إليه الرجاءُ
واستعدَّ العُبَّادُ للمُولدِ الأكبرِ، وأزَّيَّنَت لَه الغَبرَاءُ
جَلَّ سيزوستريسُ عهْدًا، وجَلَّت في صباهُ الآياتُ والآلاءُ
فسمِعنا عن الصبِيِّ الذي يعَفُو، وطَبعُ الصِّبا الغشوم الإباءُ
ويرى الناسَ والملوكَ سواءً وهل الناسُ والمُلوكُ سواءُ؟
وأرانَا التاريخُ فرعونَ يَمشِي لم يَحُل دونَ بِشْرِه كبرياءُ

* * *

يُولدُ السيَّدُ المتوَّجُ غَضًّا طهَّرتْهُ في مهدها النَّعمَاءُ[21]
لم يغيَّرهُ يومَ ميلادِه بؤسٌ، ولا ناله وليدًا شقاءُ
فإذا ما المُملَّقون تولَّوْهُ تَوَلَّى طباعه الخيلاءُ[22]

وسرَى في فؤادِه زخرفُ القو ل، تراه مستعذَبًا وهو داءُ
فإذا أبيضُ الهديل غرابٌ وإذا أبلَجُ الصباحِ مَساءُ[٢٣]

***

جَلَّ رمسيسُ فِطْرَةً، وتغالَى شيعةً أن يقودَه السفهاءُ
وسمَا للعُلاَ، فنالَ مكانًا لَم يَنلْه الأمثالُ والنُّظَراءُ
وجيوشٌ يَنهَضْنَ بالأرضِ ملكًا ولواءٌ من تَحتِه الأحياءُ
ووجودٌ يُساسُ، والقولُ فيه ما يقولُ القضاةُ والحُكماءُ
وبناءٌ إلى بناءٍ، يَودُّ الخلْـ ـدُ لو نالَ عمرَه والبقاءُ
وعلومٌ تُحيِي البلادَ، وبنتَا هُورُ فخرُ البلادِ، والشعراءُ[٢٤]
إيه سيزوستريس، ماذا ينالُ الـ ـوصفُ يومًا، أو يبلغُ الإطراءُ
كبُرَت ذاتُك العليَّةُ أن تُحـ ـصِي ثَنَاهَا الألقابُ والأسمَاءُ
لك آمُونُ، والهِلالُ إذا يكـ ـبرُ، والشمسُ، والضُّحى، آباءُ[٢٥]
ولك الريفُ، والصعيدُ، وتاجَا مصرَ، والعرشُ عاليًا، والرداءُ
ولك المُنشَآتُ في كلِّ بَحرٍ ولك البَرُّ أرضُه والسمَاءُ
ليت لم يُبْلكَ الزمانُ، ولم يَبْـ ـلَ لِمُلْكِ البلادِ فيك رجاءُ
هكذا الدَّهرُ: حالةٌ ثم ضدٌّ ما لحال مع الزَّمانِ بقاءُ

***

لا رَعَاك التاريخُ يا يومَ قمبيـ ـزَ، ولا طَنْطَنت بك الأنباءُ[٢٦]
دارَت الدائراتُ فيك، ونالَت دارَت الدائراتُ فيك، ونالَت
فبمصر مما جنيتَ لِمصرٍ أيُّ داءٍ، ما إن إليه دواءُ[٢٧]
نكدٌ خالدٌ، وبؤسٌ مقيم وشقاءٌ يجدُّ منه شقاءٌ
يَوم مَنْفِيسَ، والبلادُ لكسرى والمُلوكُ المُطاعةُ الأعداءُ[٢٨]
يأمُر السيفُ في الرِّقابِ، وينهَى ولِمصرٍ علىَ القَذَى إغضَاءُ
جِيءَ بالملكِ العزيز ذليلاً لَم تُزلزِلْ فؤادَه البأساءُ
يُبصِرُ الآل إذ يُراحُ بهِم في موقفِ الذُّل عَنْوَةً، ويُجاءُ
بنت فرعونَ في السلاسلِ تمشي أزعجَ الدهرَ عُرْيُها والحفاءُ[٢٩]

فكأن لم ينهَضْ بهَوْدجَها الدهــ ــرُ، ولا سار خلفها الأمراءُ[٣٠]

***

وأبُوها العظيمُ ينظر لِمَا رُدَّيت مثلمَا تُردَّى الإماءُ[٣١]
أعطيَت جَّرةً، وقِيلَ: إليكِ النهــ ــرَ، قُومِي كما تقومُ النساءُ
فمشَت تُظهِرُ الإباءَ، وتحمِي الدَّمْــ ــعَ أن تَستَرِقَّه الضَّرَّاءُ[٣٢]
والأعادِي شواخصٌ، وأبوها بيَدِ الخَطبِ صخرةٌ صمَّاءُ[٣٣]
فأرادُوا لينظُروا دَمعَ فرعو نَ، وفرعونُ دمعُه العنقاءُ[٣٤]
فأرَوْهُ الصديقَ في ثوبِ فقرٍ يسألُ الجَمْعَ، والسؤالُ بلاءُ
فبكى رحمةً، وما كان مَن يَبــ ــكِي، ولكنَّما أرادَ الوفاءُ
هكذا الملكُ والملوكُ، وإن جا رَ زمانٌ، ورَوَّعَت بَلْواءُ

***

لا تسَلني: ما دولة الفرس؟! ساءَت دولةُ الفُرس في البلادِ، وساءُوا[٣٥]
أمَّةٌ همُّها الخَرائب تُبليــ ــهَا، وحَقُّ الخَرائبِ الإعلاءُ[٣٦]
سَلَبَتْ مصرَ عِزَّها، وكسَتهَا ذِلَّةً ما لهَا الزمانَ انقضاءُ
وارتوَى سيفُها، فعاجلَها اللهُ بسيفٍ ما إن له إرواءُ[٣٧]
طِلْبةٌ للعبادِ كانَت لإسكنــ ــدرَ في نَيْلها اليدُ البيضاءُ[٣٨]
شاد إسكندرٌ لَمصرَ بناءً لَم تَشِدْهُ المُلوكُ والأمرَاءُ
بلدًا يَرْحَلُ الأنامُ إليه ويحُجُّ الطُّلاَّبُ والحُكمَاءُ
عاش عُمرًا في البحرِ ثغرَ المعالي والمَنارَ الذي به الاهتداءُ
مطمئنًّا من الكتائبِ والكتُــ ــب بمَا ينتهي إليه العَلاءُ
يبعثُ الضوءَ للبلادِ، فتسرِي في سناهُ الفهومُ والفهماءُ
والجوارِي في البحرِ يُظهِرن عزَّ الــ ــمُلكِ، والبحرُ صَوْلةٌ وثراءُ[٣٩]
والرعايا في نعمةٍ، ولبَطْلَيْــ ــمُوسَ في الأرضِ دولةٌ علياءُ[٤٠]
فقضىَ الله أن تضيِّعَ هذَا المُــ ــلكَ أنثَى صَعبٌ عليها الوفاءُ[٤١]
تَخِذتْها رُوما إلى الشرَّ تمهيــ ــدًا، وتَمهيدُه بأنثَى بلاءُ
فتناهَى الفسادُ في هذه الأر ضِ، وجازَ الأبالِسَ الإغواءُ

ضيَّعَتْ قيصَر البريةِ أنثى ... يا لَرَبَّى ممَّا تجُرُّ النساءُ[٤٢]
فتنت منه كهف روما المُرَجَّى ... والحُسامَ الذي به الاتقاءُ[٤٣]
قاهرَ الخصمِ والجَحافِل مهما ... جدَّ هوْلُ الَوغَى وجدَّ اللقاءُ
فأتاها مَن ليس تمْلكه أنـ ... ـثَى، ولا تسترِقُّه هَيفَاءُ[٤٤]
بطَلُ الدولتين، حامِي حِمىَ رُو ... مَا، الذي لا تقودُه الأهواءُ[٤٥]
أخذَ المُلكَ، وهْيَ في قبضةِ الأفـ ... ـعَى عن المُلكِ والهوى عمياءُ[٤٦]
سلبتها الحياةَ، فاعجبْ لرَقْطا ... ءَ أراحَت منهَا الورَى رقطاءُ[٤٧]
لم تُصِب بالخِداعِ نُجْحًا، ولكن ... خدعوها بقولِهم: حسناءُ
قتلَت نفسهَا، وظنَّت فداءً ... صَغرَت نفسُها، وقَلَّ الفداءُ
سل كِلوبَترَةَ المكايِد: هلاَّ ... صدَّها عن ولاءِ روما الدَّهاءُ؟
فبِروما تأيَّدَت، وبِروما ... هي تشقَى، وهكذا الأعداءُ
ولروما المُلْكُ الذي طالمَا وَا ... فَاهُ في السرَّ نُصحُها والولاءُ
وتولَّت مصرًا يَمينٌ علَى المصـ ... ـرِيَّ من دون ذا الورَى عَشْراءُ
تُسمِعُ الأرضُ قيصرًا حين تدعو ... وعقيمٌ من أهلِ مصرَ الدعاءُ[٤٨]
ويُنيلُ الورَى الحقوقَ، فإن نا ... دَته مصرٌ فأذْنُه صَمَّاءُ
فاصبِري مصرُ للبلاءِ، وأنَّى ... لَكِ؟ والصبرُ للبلاءِ بلاءُ
ذا الذى كنتِ تَلتجِينَ إليه ... ليس منه إلى سواه التجاءُ

* * *

ربَّ، شُقتَ العبادَ أزمانَ لا كتـ ... ـبٌ بِها يُهتدَى، ولا أنبياءُ[٤٩]
ذهبوا في الهوَى مذاهبَ شتَّى ... جمَعتها الحقيقةُ الزهراءُ[٥٠]
فإذا لقَّبُوا قوِيًّا إلهًا ... فله بالقُوَى إليك انتهاءُ
وإذا آثرُوا جمِيلاً بتنْزِيـ ... ـهٍ، فإن الجمالَ منك حِبَاءُ[٥١]
وإذا أنشئوا التماثيلَ غُرًّا ... فإليك الرُّمُوزُ والإيمَاءُ[٥٢]
وإذا قدَّرُوا الكواكبَ أرْبَا ... بًا، فمنك السَّنَا ومنك السناءُ[٥٣]
وإذا ألهُوا النبَاتَ، فمن آ ... ثارِ نُعماك حُسْنُه والنَّمَاءُ
وإذا يمَّموا الجِبالَ سجُودًا ... فالمُرادُ الجَلاَلَةُ الشمَّاءُ[٥٤]
وإذا تُعْبَدُ البحَارُ معَ الأسـ ... ـماكِ، والعاصفاتُ، والأنواءُ

وسبـاعُ الـسـمـاءِ والأرضِ، والأر ... حـــامُ، والأمـــهـــاتُ، والآبـــاءُ
لِـعُـلاَك الـمُـذكَّـراتُ عِـبـيـدٌ ... خُـضَّـعٌ، والـمـؤنَّـثـاتُ إمـاءُ[٥٥]
جـمـع الـخـلْـقَ والـفـضـيـلـةَ سِـرٌّ ... شَـفَّ عنـه الـحِـجابُ فـهـو ضـيـاءُ

* * *

سجدَت مصرُ في الزمان لإيزيــ ... ــسَ الندَى، مَنْ لها اليدُ البيضاءُ[٥٦]
إنْ تَـلِ الـبَـرَّ، فـالـبـلادُ نُـضَـارٌ ... أو تَـلِ الـبحـرَ، فـالـرياحُ رُخـاءُ[٥٧]
أوائَلِ النفسَ، فهْيَ في كل عضوٍ ... أو تَـلِ الأفـقَ، فـهـيَ فـيـه ذُكـاءُ[٥٨]
قِـيـلَ: إيـزيـس ربَّـةَ الـكـونِ، لـولا ... أن تَـوَحَّـدْتِ، لـم تَـكُ الأشـيـاءُ
واتَّـخذتِ الأنـوارَ حُـجْـبًا، فـلـم تُـبــ ... ــصْـرِك أرضٌ، ولا رأتـكِ سـمَـاءُ
أنـتِ مـا أظـهَـرَ الـوجـودُ ومـا أخــ ... ــفَـى، وأنـتِ الإظـهـارُ والإخـفـاءُ
لـكِ آبـيـسُ، والـمُـحَـبَّـبُ أوزيــ ... ــريـسُ، وابـنَـاه، كـلُّـهـم أولـيـاءُ[٥٩]
مُـثـلَـت لـلـعـيـونِ ذاتُـكِ، والـتـمــ ... ــثـيـلُ يُـدنِـي مَـنْ لا لـه إدنـاءُ
وادَّعـاكِ الـيـونـان مـن بـعـد مـصـر ... وتــلاه فـــي حُـبِّــكِ الـقُـدمـاءُ
فـإذا قِـيـل: مـا مـفـاخـرُ مـصـر؟ ... قـيـلَ: مـنـهَـا إيـزيـسُـهَـا الـغـرَّاءُ

* * *

رَبَّ، هـذِي عـقـولُـنـا فـي صِـبـاهـا ... نالَـهـا الـخـوفُ، واستباها الرجاءُ
فعـشِـقـنـاكَ قـبلَ أن تـأتِـيَ الـرُّسْــ ... ــلُ، وقـامَـت بـحـبِّـكَ الأعـضـاءُ
ووصلنا السُّرى، فلولا ظلامُ الـ ... ـجَهل لم يَخطُنا إليكَ اهتداءُ[٦٠]
واتـخـذنـا الأسـمـاءَ شـتَّـى، فـلـمَّـا ... جـاءَ مـوسـى انـتـهَـت لـكَ الأسـمـاءُ
حَجَّنا في الزَّمانِ سحرًا بِسحرٍ ... واطمأنَّت إلى العصا السعداءُ[٦١]
ويـريـدُ الإلـهُ أن يُـكـرَمَ الـعَـقــ ... ـــلُ، وألا تُـــحَـــقَّـــرَ الآراءُ
ظـنَّ فـرعـونُ أنَّ مـوسـى لـه وا ... فٍ، وعـنـد الـكِـرامِ يُـرجَـى الـوفـاءُ
لـم يـكـنْ فـي حـسـابِـهِ يـومَ رَبَّـى ... أن سـيـأتِـى ضـدَّ الـجـزاءِ الـجـزاءُ
فـرأى الـلـه أن يـعـقَّ، ولِـلـهِ ... تَـفِـي — لا لـغـيـرِه — الأنـبـيـاءُ
مصر موسى عند انتِماءٍ، وموسى ... مـصـرُ إن كـان نـسـبـة وانـتـمِـاءُ
فَـبِـهِ فـخـرُهـا الـمـؤيَّـدُ، مـهـمـا ... هُـزَّ بـالـسـيِـد الـكـلـيـمِ الـلـواءُ[٦٢]

إن تكن قد جفته في ساعةِ الشكِّ فحظُّ الكبيرِ منهَا الجَفاءُ
خِلَّةٌ للبلادِ يَشقَى بهَا النا سُ، وتَشقَى الدَّيارُ والأبناءُ
فكبيرٌ ألا يُصانَ كبِيرٌ وعظيمٌ أن يُنْبَذَ العُظمَاءُ

* * *

وُلِدَ الرَّفقُ يومَ مولدِ عيسَى والمُروءَاتُ، والهُدَى، والحيَاءُ
وازدَهَى الكونُ بالوليد، وضاءَت بسَناهُ منَ الثَّرى الأرجاءُ
وسرَت آيةُ المَسيح، كما يسـ ـري من الفجرِ في الوجودِ الضياءُ
تملأُ الأرضَ والعوالِمَ نورًا فالثرى مائجٌ بَهًا، وَضَّاءُ
لا وعيدٌ، لا صولةٌ، لا انتقامٌ لا حُسامٌ، لا غَزوَةٌ، لا دِماءُ
مَلَكٌ جاوَرَ الترابَ، فلمَّا ملَّ نابَت عن الترابِ السَّماءُ[٦٣]
وأطاعَتهُ في الإلهِ شيُوخٌ خُشَّعٌ، خُضَّعٌ له، ضعفاءُ
أذعَنَ الناسُ والمُلوكُ إلى ما رسمُوا، والعقوُل، والعُقلاءُ
فلهم وقفةٌ على كلِّ أرضٍ وعلى كلِّ شاطِئٍ إرساءُ
دخلوا ثيبةُ فأحسنَ لُقيا هم رجالٌ بثيبةٍ حكمَاءُ[٦٤]
فَهِمُوا السرَّ حين ذاقُوا، وسهلٌ أن ينالَ الحقائقَ الفُهماءُ[٦٥]
فإذا الهيكلُ المُقدَّسُ دَيْرٌا وإذا الدَّيْرُ رَونَقٌ وبَهَاءُ
وإذا ثيبةٌ لعيسَى، ومنفيـ ـسُ، ونيلُ الثراءِ، والبطحاءُ[٦٦]
إنَّما الأرضُ والفضاءُ لربِّي ومُلوكُ الحَقيقةِ الأنبياءُ
لهُمُ الحُبُّ خالَصًا من رعايَا هم، وكُلَّ الهوَى لهُم والوَلاءُ
إنَّما ينكرُ الدياناتِ قومٌ هم بما ينكرونَه أشقياءُ
هرِمَت دولةُ القياصرِ، والدَّو لاتُ كالناسِ، داؤهُنَّ الفَناءُ[٦٧]
ليس تُغنِي عنهَا البلادُ ولا ما لُ الأقاليمِ إن أتاهَا النداءُ[٦٨]
نالَ روما ما نالَ من قبلُ آثِيـ ـنَا، وسيِمَتْهُ ثيبَةُ العَصماءُ[٦٩]
سُنَّةُ الله في المَمالكِ من قبـ ـلُ ومن بعدُ، ما لِنُعمَى بقاءُ

* * *

أظلمَ الشرقُ بعد قيصرَ والغر بُ، وعمَّ البرِيَّةَ الإدجاءُ[٧٠]

فالورَى في ضلاله مُتَمَادٍ — يفتكُ الجهلُ فيه والجُهلاءُ
عرَّفَ الله ضِلَّةً، فهو شخصٌ — أو شِهابٌ، أو صخرة صمَّاءُ[٧١]
وتولَّى على النفوسِ هوى الأوْ — ثانِ، حتى انتهَت له الأهواءُ
فرأى الله أن تُطَهَّرَ بالسَّيْـ — ـفِ، وأن تَغسِلَ الخطايا الدماءُ
وكذلك النفوسُ وهي مِراضٌ — بعضُ أعضائِها لبعضٍ فداءُ
لَم يُعادِ الله العبيدَ، ولكن — شَقِيَت بالغَباوَةِ الأغبياءُ
وإذا جلَّت الذُّنوبُ وهالَت — فمِنَ العدلِ أن يَهُولَ الجَزاءُ
أشرقَ النورُ في العوالِمِ لَمَّا — بشَّرتَهَا بأحمَدَ الأنباءُ
باليتيمِ الأمِّيِّ، والبشَرِ المُو — حَى إليه العلومُ والأسمَاءُ
قُوَّةُ اللهِ إن تولَّت ضعِيفًا — تِعبَت في مِرَاسِه الأقوياءُ[٧٢]
أشرَفُ المُرسَلين، آيتُه النطـ — ـقُ مُبينًا، وقومُه الفُصَحاءُ
لَم يَفُهُ بالنوابغِ الغُرَّ حتَّى — سبق الخلقَ نحوَه البُلَغاءُ
وأَتَتْهُ العقُولُ مُنقادَةَ اللـ — ـبِّ، ولبَّى الأعوانُ والنُّصَرَاءُ[٧٣]
جاءَ للناسِ، والسرائرُ فوضَى — لَمْ يؤلِّفْ شتَاتَهُنَّ لواءُ[٧٤]
وحِمَى اللهِ مُستباحٌ، وشرعُ اللهِ، — والحقُّ، والصوابُ وراءُ
فلجِبريلَ جيْئَةٌ، ورَوَاحٌ — وهبوطٌ إلى الثرى، وارتقاءُ
يُحسَبُ الأفْقُ في جناحيه نورٌ — سُلِبَتْهُ النجومُ والجَوزاءُ
تلك آيُ الفُرْقانِ، أرسلَها اللـ — ـهُ ضياءً يهَدي به مَن يشاءُ[٧٥]
نَسخَتْ سُنةَ النبيين والرُّسْـ — ـلِ، كما ينسَخُ الضياءَ الضياءُ
وحَماها غُرٌّ، كِرامٌ، أشدا — ءُ على الخَصِم، بينَهم رُحَماءُ
أمَّةٌ ينتهِي البيانُ إليْها — وتُئولُ العلُومُ والعلماءُ[٧٦]
جازَت النجمَ، واطمأنَّت بأفْق — مطمئنَّ به السَّنَا والسَّنَاءُ
كلَّما حثَّت الركابَ لأرضٍ — جاورَ الرُّشدُ أهلَهَا والذكاءُ[٧٧]
وعَلاَ الحقُّ بينهم، وسَمَا الفَضـ — ـلُ، ونالَت حقوقَها الضعفاءُ
تحملُ النجمَ، والوسيلةَ، والمِيـ — ـزانَ من دِينها إلى مَن تشاءُ
وتُنيلُ الوجودَ منه نظامًا — هو طبُّ الوجودِ، وهو الدواءُ
يرجعُ الناسُ والعصورُ إلى ما — سَنَّ، والجاحدونَ، والأعداءُ

فيه ما تشتهي العزائمُ إن هـ ـمَّ ذَوُوها ويشتهِي الأذكياءُ
فَلِمَنْ حاوَلَ النعيمَ نعيمٌ ولِمَنْ آثرَ الشقاءَ شقاءُ
أيَرى العُجْمُ مِن بَنِي الظلِّ والمَا ءِ عجيبًا أن تُنجِبَ البيداءُ[78]
وتُثيرُ الخيامُ آسادَ هَيجَا ءَ تراها آسادَها الهيجاءُ
ما أنافَت على السواعِد حتى الـ ـأرضُ طُرًّا في أسِرها والفضاءُ
تشهدُ الصيِّنُ، والبحارُ، وبغدا دُ، ومصرُ، والغربُ، والحمراءُ[79]
مَن كعَمرِو البلادِ، والضادُ ممَّا شادَ فيها، والمِّلةُ الغرَّاءُ؟
شادَ للمسلمين ركنًا جسَامًا ضافِيَ الظلِّ، دَأبُه الإيواءُ[80]
طالمَا قامَت الخلافةُ فيه فاطمأنَّت، وقامت الخُلفاءُ
وانتهىَ الدينُ بالرجاءِ إليه وبَنُو الدّينِ إذ هُمُ ضُعفاءُ
منْ يصنهُ يصنْ بقيَّة عزٍ غَيَّض التُّركُ صفوَه والثّواءُ[81]
فابكِ عَمرًا إن كنتَ مُنصِفَ عَمرِو إنَّ عَمْرًا لَنيِّرٌ وضَّاءُ
جاد للمُسلمين بالنيلِ، والنيـ ـلُ لِمَن يقتنِيه أفريقاءُ
فَهْيَ تعلُو شأنًا إذا حُرِّرَ النَّيـ ـلُ، وفى رِقِّهِ لهَا إزراءُ[82]

* * *

واذكُرِ الغُرَّ آل أيوبَ، وامدَحْ فَمِنَ المَدحِ للرجالِ جزاءُ[83]
هُمْ حُماةُ الإسلامِ، والنفرُ البيـ ـضُ، المُلوكُ، الأعزَّةُ، الصُّلحاءُ[84]
كلَّ يومٍ بالصالحيّةِ حِصنٌ وبِبُلْبُيْسَ قلعَةٌ شَمَّاءُ
وبَمصرٍ للعِلمِ دارٌ، ولِلضِّيفَانِ نارٌ عظيمَةٌ حَمراءُ
ولأعداءِ آل أيوبَ قَتلٌ ولإِسرَاهُمُ قِرًى وثَواءُ[85]
يعرفُ الدينُ مَنْ صلاحٌ؟ ويدري مَن هو المَسجدان والإسراءُ؟[86]
إنه حصنُه الذي كان حصنًا وحِماهُ الذي به الاحتماءُ
يوم سار الصليبُ والحاملُوه ومَشى الغربُ: قومُه، والنساءُ
بنفوسٍ تجُولُ فيهَا الأمانِي وقلوبٍ تثورُ فيهَا الدماءُ
يُضمِرون الدمارَ للحقِّ، والنا سِ، ودينِ الذين بالحقِّ جاءُوا
ويهدُّون بالتلاوَةِ والصُّلْـ ـبَانِ ما شادَ بالقنا البنَّاءُ
فتلَقَّتهُمُ عزائمُ صدقٍ نُصَّ للدَّينِ بينهُنَّ خِبَاءُ[87]

مَزَّقتْ جَمعَهم على كلَّ أرضٍ مثلَما مزَّقَ الظلامَ الضياءُ
وسَبَتْ أمْردَ المُلوكِ، فردَّتـ ـهُ وما فيه للرعايا رجاءُ[88]
ولو أنَّ المَليكَ هِيبَ أذاهُ لم يُخلِّصهُ مِن أذاها الفداءُ
هكذا المُسلمون، والعربُ الخا لُون، لا ما يقولُه الأعداءُ
فبهم في الزمانِ نِلنَا الليالي وبهم في الورَى لنا أنباءُ
ليس للذلِّ حيلةٌ في نفوسٍ يستوي الموتُ عندها والبقاءُ

* * *

واذكُرِ التُّركَ، إنهم لم يُطاعُوا فيرى الناسُ أحسنُوا أم أساءُا
حكَمَت دولةُ الجراكِسِ عنهم وَهْيَ في الدَّهرِ دولةٌ عَسرَاءُ[89]
واستبدَّت بالأمر منهم، فـ «باشا» التُّركِ في مِصَر آلهٌ صمَّاءُ
يأخذُ المَالَ من مواعيدَ ما كا نوا لهَا مُنْجِزين، فَهْيَ هَباءُ
ويسومونه الرضا بأمورٍ ليس يَرضَى أقلهَّنَّ الرضاءُ[90]
فيُدَارِي ليعصِمَ الغدَ منهم والمُدارةُ حِكمَة ودَهاءُ

* * *

وأتَى النَّسرُ ينهب الأرضَ نهبًا حوله قومُه، النسورُ ظِماءُ[91]
يشتهِي النيلَ أن يشيدَ عليه دولةً عرضُها الثرى والسمَاءُ
حلَمَت رُومةٌ بِهَا في الليالي ورآها القياصُر الأقوياءُ
فأتَت مصرَ رُسْلُهم تتوالَى وترامَت سوادنهَا العلماءُ[92]
ولِو اسْتَشْهَدَ الفرنسيسُ رُوما لأتَتْهم مِن رُومةَ الأنباءُ
عِلمَت كلُّ دولةٍ قد تولَّت أننَّا سمُّها، وأنَّا الوباءُ
قاهرُ العصرِ والممالكِ، نابلـ ـيونُ ولَّت قوَّادُه الكبراءُ
جاءَ طيشًا، وراح طيشًا، ومن قبـ ـلُ أطاشَت أناسَها العَلياءُ
سكتَتْ عنه يومَ عيرَّها الأهـ ـرامُ، لكنْ سكوتُها استِهزاءُ
فَهْيَ تُوحِي إليه: أنْ تلك «واتر لو»، فأين الجيوشُ؟ أين اللواءُ؟[93]

هوامش

(١) حدا الإبل، وحدا بها: ساقها وغنَّى لها.

(٢) العباب: ارتفاع السيل أو الموج.

(٣) مرق السهم من الرمية مروقًا: نفذ فيها وخرج من الجانب الآخر، فهو مارق، والمقصود هنا الهارب. الدأماء: البحر.

(٤) تدجَّى الليل: أظلم.

(٥) السفين: جمع سفينة.

(٦) الهوادي: أول رعيل من الإبل. الحداء: الغناء في أثر الإبل.

(٧) الأنواء: الأمطار.

(٨) رغا: ضجَّ في صوته.

(٩) الوجناء: الناقة الشديدة.

(١٠) وخدها: سيرها السريع وسعة خطوها.

(١١) الأجبال: جمع جبل. والشمُّ: جمع أشم، وهو المرتفع.

(١٢) أجفل: نفر وفرَّ خائفًا.

(١٣) الجديدان: الليل والنهار.

(١٤) الخنا: الفحش في الكلام.

(١٥) الأفياء: جمع فيء، وهو الغنيمة، والمراد أن الدَّهر لا يحسن إلى الناس إلا راغمًا، فكأنهم لا يظفرون منه بنعمة إلا كغنيمة حرب.

(١٦) أي تفعل فعل الدهاة.

(١٧) ملوك الرعاة أو الهكسوس: فاتحون من آسيا انتهزوا فرصة الضعف الذي حلَّ بالبلاد على أثر انقضاء عهد الأسرة الثانية عشرة، والتنازع الذي حدث على المُلك بين طبقة الأشراف؛ فغزوها في سنة ١٦٧٥ ق.م.

(١٨) القِلى: البغض.

(١٩) مضاء السيف: نفاذه في الضربة.

(٢٠) هو رمسيس الثاني ابن سيتي الأول: أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، وُلِّي عرش مصر وهو صغير، واستمرَّ حكمه من سنة ١٢٩٢–١٢٢٥ قبل الميلاد. ويُعْرَفُ برمسيس الأكبر؛ لما اكتسبه من الشهرة الفائقة التي جعلت كثيرًا من الناس يزعمون أنه

أعظم ملوك مصر، والذي كوَّن له هذه الشهرة الكبيرة تلك المباني العديدة التي شيَّدها في جميع أنحاء البلاد.

(٢١) الغضُّ: النضير.

(٢٢) الخُيلاء: العجب والكِبْر.

(٢٣) الهديل: ذكر الحَمَام. وبلج الصباح: أشرق وأنار.

(٢٤) بنتاهور: شاعر مصري قديم.

(٢٥) آمون إله الشمس في اعتقاد القدماء، وقد كان القدماء يعتقدون أن الملوك نسل الآلهة التي أشير إليها في هذا البيت بالشمس والقمر.

(٢٦) قمبيز: أحد ملوك الفرس، استولى على مصر سنة ٥٢٥ ق.م، وسلك في المصريين مسلك العسف والظلم، وخرب المعابد والهياكل، وقتل العجل أبيس إله المصريين وغير ذلك. ويوم قمبيز: هو اليوم الذي انتصرت فيه جيوشه على جيوش أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين في الفرما ومنف، والذي أُخِذَ فيه الملك أسيرًا فأذيق من الذلِّ ما سترى. وطنطن: صوَّت.

(٢٧) إن: هنا زائدة. وما: نافية، بمعنى ليس.

(٢٨) منفيس: هي منف التي ذكرناها وكانت العاصمة حينئذ. وكسرى: اسم لكل ملك من ملوك الفرس، والمراد به قمبيز.

(٢٩) الحفا (مقصورة ومُدَّت): المشي بلا خف ولا نعل.

(٣٠) الهودج: محمل النساء.

(٣١) ردَّاها أي ألبسها الرداء، وتردَّى: أصلها تتردى، أي تلبس الرداء.

(٣٢) استرقه: ملكه. والضَّرَّاء: الشدَّة

(٣٣) شواخص: جمع شاخص وهو الناظر بحيث لا تطرف عيناه.

(٣٤) العنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم، ويكنى به في الشيء البعيد المنال.

(٣٥) يعود الضمير هنا إلى الفرس أنفسهم.

(٣٦) الخربة: موضوع الخراب وجمعها خرائب، والغرض منها هنا بقايا الهياكل والآثار.

(٣٧) إن: زائدة. وما: نافية.

(٣٨) هو الإسكندر الأكبر المقدوني الذي افتتح مصر سنة ٣٣٢ ق.م وقضى على حكم الفرس وأنشأ مدينة الإسكندرية.

(٣٩) الجواري: السفن.

(٤٠) بطليموس: حاكم مصر بعد الإسكندر ومؤسس دولة البطالسة التي استمرَّت من سنة ٣٢٣ ق.م إلى سنة ٣٠٠ ق.م؛ إذ سقطت في عهد كليوباترا.

(٤١) الأنثى: المقصود بها كليوباترا، وهي آخر ملكة حكمت مصر من دولة البطالسة، وقد هام بها قيصران: «يوليوس» وهو الذي انتهت بموته الجمهورية الرومانية، وكانت صنيعة له، و«أنطونيوس» وهو الذي أنشأ — بالأشتراك مع أكتافيوس — الإمبراطورية الرومانية، وقد كان هيام الأخير بها سببًا لغزو أكتافيوس لمصر وانتصاره على كليوباترا، التي حاولت عبثًا أن تؤثر في قلبه بجمالها؛ فانتحرت بأن وضعت على صدرها حية، وانتحر أنطونيوس.

(٤٢) المقصود بقيصر هنا: أنطونيوس.

(٤٣) الكهف: الملجأ.

(٤٤) أكتافيوس قيصر.

(٤٥) الدولتان: دولة الغرب، ودولة الشرق.

(٤٦) هي: أي كليوباترا.

(٤٧) الرقطاء: الحيَّة التي يخالط بياضها نقط سوداء، أو العكس.

(٤٨) عقيم: أي لا خير وراءه.

(٤٩) شاقة الحب إليه: هاجه. والمراد بالكتب: الكتب الإلهية التي تنزلت على الأنبياء.

(٥٠) الحقيقة الزَّهراء: هي وجود الله وتوحيده، ولقد تنوَّعت ديانة قدماء المصريين، فكانوا في أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص، ثم رمزوا لصفات هذا الإله برموز صارَت بعدئذ معبودات، ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التي لها تأثير محسوس في حياتهم كالشمس والقمر والليل، ثم اعتقدوا بحلول الآلهة في أجساد الحيوان، فعبدوا العِجل (أبيس) والقط والكلب وما إلى ذلك.

(٥١) التنزيه: التقديس. والحباء: العطاء.

(٥٢) الرمز والإيماء: الإشارة.

(٥٣) السنا: الضوء. والسناء: الرفعة.

(٥٤) الشماء: الرفيعة.

(٥٥) المذكَّرات: ما كان من هذه الآلهة مذكرًا.

(٥٦) إيزيس: إلهة من آلهة القدماء.

(٥٧) النضار: الذهب. رخاء: لينة.

(٥٨) ذكاء: من أسماء الشمس.

(٥٩) آبيس: هو العِجل أبيس، معبود القدماء، كما قدَّمنا. وأوزيريس: هو إله الشمس في اعتقاد القدماء.

(٦٠) السرى: السير ليلاً. ولم يخطنا: لم يجاوزنا.

(٦١) حجَّه: غلبه بالحجة.

(٦٢) هز الكوكب: انقض، والمراد: مهما خذل.

(٦٣) يشير إلى رفعه إلى السماء.

(٦٤) ثيبة: عاصمة من عواصم مصر القديمة

(٦٥) السرُّ: أي سرُّ عبادة الله على دين المسيح.

(٦٦) البطحاء: مسيل الماء في دقيق الحصى.

(٦٧) دولة القياصر: الدولة الرومانية. والهرم: بلوغ أقصى الكِبَر.

(٦٨) النداء: نداء الفناء.

(٦٩) سامه الأمر: كلَّفه إياه، وأكثر ما يستعمل في الشر والعذاب.

(٧٠) الإدجاء: الظلام.

(٧١) ضلَّة: ضلال. والشهاب: شعلة من نار ساطعة، وقد يطلق على الكوكب.

(٧٢) المراس: هنا بمعنى المأخذ والمعالجة.

(٧٣) اللب: ذكاء من العقل.

(٧٤) الشتات: المتفرق.

(٧٥) الآي: جمع آية.

(٧٦) تئول: ترجع.

(٧٧) حثَّ الركاب: أي حضَّ الإبل على أن تسرع، والمراد كلَّما انتقلت لأرض.

(٧٨) أنجب الرجل: ولد ولدًا نجيبًا.

(٧٩) الحمراء: قصر مشهور بالأندلس.

(٨٠) الجسام: العظيم.

(٨١) الثواء: الإقامة.

(٨٢) أزرى عليه عمله: عابه.

(٨٣) يشير على الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي، وحكمت مصر من سنة ١١٧١ على سنة ١٢٥٠م.

(٨٤) الأبيض: السيف، أو النجم، والجمع بيض.

(٨٥) القرى: الضيافة. والثواء: الإقامة.

(٨٦) صلاح: صلاح الدين الأيوبي.

(٨٧) نصَّ الشيء: رفعه. والخباء: ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر، ويكون عمودين أو ثلاثة.

(٨٨) سبي العدو: أسره. وأمرد الملوك: لويس التاسع ملك فرنسا، وكان من أبطال الصليبيين، أسره توران شاه في موقعة المنصورة الفاصلة ثم فدى نفسه وبقية أهله وعساكره بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ فرنك.

(٨٩) الجراكس: المماليك. وعسراء: أي شديدة ظالمة.

(٩٠) سامه الأمر: كَّلفه إياه، وأكثر ما يكون في الشرِّ.

(٩١) النسر: نابليون بونابرت.

(٩٢) ترامى القوم: رمى بعضهم بعضًا.

(٩٣) واترلو «في ١٨ يونيو سنة ١٨١٥»: موقعة دارت رحاها بين نابليون وولنجتون القائد الإنكليزي الشهير، فانتصر الأخير بمساعدة بلوخر القائد الروسي، وكان من نتائج هزيمة نابليون في هذه الموقعه أسره ونفيه إلى جزيرة «سنت هيلانة» حيث قضى البقية من حياته.

الهمزية النبوية

وُلِدَ الهُدَى، فالكائناتُ ضياءُ ... وفَمُ الزَّمانِ تبَسُّمٌ وثناءُ

الرُّوحُ والمَلأُ المَلائِكُ حوْلَهُ ... لِلدِّينِ والدُّنيا به بشراءُ[1]

والعرشُ يَزهُو، والحظيرةُ تَزدَهِي ... والمُنتهَى، والسَّدْرَةُ العَصمَاءُ[2]

وحديقةُ الفُرقانِ ضاحكةُ الرُّبا ... بالترجمانِ، شَذيَّةٌ، غنَّاءُ[3]

والوَحْيُ يَقطُرُ سَلسَلاً مِن سَلسَلٍ ... واللَّوحُ والقلَمُ البديعُ رُواءُ[4]

نُظِمَت أسامِي الرُّسْل فَهْيَ صحيفة ... في اللوحِ، واسمُ مُحمدٍ طُغراءُ[5]

اسمُ الجلالةِ في بديعْ حروفِه ... ألِف هنالك، واسمُ (طه) الباءُ

***

يا خيرَ مَنْ جاءُ الوجودَ، تحية ... مِن مُرسَلين إلى الهُدى بك جاءُوا

بيتُ النبييِّن الذي لا يلتقي ... إلا الحنائِفُ فيه والحُنفاءُ[6]

خيرُ الأبَّوةِ حازَهم لَكَ «آدمٌ» ... دُونَ الأنامِ، وأحرزَت حَوَّاءُ

همْ أدرَكوا عِزَّ النبوَّةِ وانتَهت ... فيها إليكَ العِزَّةُ القعساءُ[7]

خُلِقَت لبيتكَ، وهو مخلوقٌ لها ... إنَّ العَظائمَ كُفؤُها العُظماءُ

بِكَ بشَّرَ اللهُ السماءَ فزُيِّنَت ... وتضوَّعَت مِسكًا بِكَ الغَبراءُ[8]

وبَدَا مُحَيَّاكَ الذي قسَماتُه ... حقٌّ، وغُرَّتُه هُدًى وحيَاءُ[9]

وعليه مِن نورِ النبُوَّةِ رَوْنَقٌ ... ومِنَ الخليلِ وهَديه سِيمَاءُ[10]

أثنَى «المسيحُ» عليه خلف سمائِه ... وتهللَت واهتزَّتِ «العذراءُ»[11]

يومٌ يتيهُ على الزمان صَباحُه   ومَساؤه «بمحمدٍ» وَضَّاءُ
الحقُّ عالِي الرُّكن فيه، مُظَفَّرٌ   في المُلكِ، لا يَعلُو عليه لواءُ
ذُعِرَت عروشُ الظالمين، فزُلزِلَت   وعَلَتْ على تِيجانِهم أصداءُ
والنارُ خاويةُ الجوانبِ حولَهُم   خَمَدَت ذوائِبُها، وغاضَ المَاءُ[١٢]
والآيُ تْترَى، والخَوارِقُ جَمَّةٌ   «جبريلُ» رَوَّاحٌ بِهَا غدَّاءُ[١٣]
نِعْمَ اليَتيمُ، بَدَت مخايلُ فَضلِه   واليُتمُ رزقٌ بعضُه وذَكاءُ[١٤]
في المَهدِ يُستَسقَى الحيَا برجائِه   وبقصدِه تُستَدفَعُ البَأساءُ[١٥]
بسوَى الأمانِة في الصَّبا والصدق لم   يعرِفْه أهلُ الصدقِ والأمناءُ
يا مَنْ له الأخلاق ما تَهوَى العُلا   منهَا وما يتعشَّقُ الكبراءُ
لَو لَم تُقِمْ دِينًا، لقامَت وحدَها   دينًا تُضِيءُ بنورِه الآناءُ
زانَتكَ في الخلقِ العظيمِ شمائلٌ   يُغرَى بهِنَّ ويُولَعُ الكُرماءُ
أمَّا الجمالُ، فأنتَ شمسُ سمائِه   وملاحةُ «الصَّدَّيقِ» منك أياءُ[١٦]
والحسنُ من كرمِ الوجوهِ، وخيرُه   ما أوتِيَ القُوَّادُ والزعَماءُ
فإذا سخَوْتَ بلَغتَ بالجودِ المدَى   وفعلتَ ما لا تفعلُ الأنواءُ[١٧]
وإذا عفَوتَ فقادِرًا، ومقدَّرًا   لا يَستَهينُ بعَفوِكَ الجُهلاَءُ
وإذا رحِمتَ فأنتَ أمٌّ، أو أبٌ   هذانِ في الدنيا هما الرُّحَماءُ
وإذا غَضِبتَ فإنَّما هِيَ غضبَةٌ   في الحقَّ، لا ضِغْنٌ ولا بَغضاءُ[١٨]
وإذا رضِيتَ فذاك في مرضاتِه   ورِضَى الكثيرِ تَحلُّمٌ ورِيَاءُ[١٩]
وإذا خطَبتَ فِللمنابرِ هزَّةٌ   تَعرُو النَّدِيَّ، وللقلوبِ بُكاءُ[٢٠]
وإذا قضيَتَ فلا ارتيابَ، كأنَّما   جاءَ الخصومَ من السمَاءِ قضاءُ
وإذا حمَيتَ المَاءَ لم يُورَدْ، ولو   أن القياصرَ والمُلوكَ ظِماءُ
وإذا أجَرتَ فأنتَ بيتُ اللهِ، لم   يَدخُلْ عليه المُستجيرَ عداءُ
وإذا ملَكتَ النفسَ قُمْتَ بِبِرَّها   وَلوَ أنَّ ما ملَكَت يداكَ الشاءُ
وإذا بنَيتَ فخيرُ زوجٍ عِشرةً   وإذا ابتنَيتَ فدُونكَ الآباءُ[٢١]
وإذا صَحِبتَ رأى الوفاءَ مُجسَّمًا   في بُردِك الأصحابُ والخُلطاءُ
وإذا أخذتَ العهدَ، أو أعطَيتَه   فجميعُ عَهدِكَ ذِمَّةٌ ووفاءُ
وإذا مَشيْتَ على العدا فغَضنفَرٌ   وإذا جرَيتَ فإنكَ النكباءُ[٢٢]

وتَمُدُّ حِلْمَكَ للسفيه مُدارِيًا حتَّى يضيقَ بعرضِكَ السفهاءُ
في كلِّ نفسٍ من سُطاكَ مَهابةٌ ولكل نفسٍ في نداكَ رجاءُ[٢٣]
فالرأيُ لم يُنضَ المهنَّدُ دُونهُ كالسيفِ لم تُضرَب به الآراءُ[٢٤]

***

يأيُّها الأمِّيُّ، حَسبُكَ رتبةً في العِلمِ أنْ دانَت بك العلماءُ[٢٥]
الذِّكرُ آيةُ ربكَ الكبرى التي فيهَا لباغي المعجزاتِ غَناءُ[٢٦]
صَدْرُ البيانِ له إذا التَقَت اللُّغَى وتقدَّمَ البُلغَاءُ والفُصَحاءُ[٢٧]
نُسِخت به التوراةُ وَهْيَ وضِيئةٌ وتخلَّفَ الإنجيلُ وَهْوَ ذكاءُ[٢٨]
لمَّا تمَشَّى في «الحجاز» حكيمُه فُضَّت «عكاظُ» به، وقام حِراءُ[٢٩]
أزرى بمَنطِق أهِله وبيانِهم وَحيٌ يُقَصِّرُ دُونه البُلغَاءُ[٣٠]
حسدوا، فقالوا: شاعرٌ، أو ساحرٌ ومِنَ الحسودِ يكونُ الاستهزاءُ
قد نال «بالهادي» الكريم و«بالهدى» ما لم تنَلْ من سُؤددٍ سَيْناءُ
أمسى كأنك من جلالك أمةٌ وكأنَّهُ من أنسِهِ بَيداءُ
يوحَى إليك الفوزُ في ظلماتِه متتابعًا، تُجلَى به الظَّلماءُ
دينٌ يُشيدُ آيةً في آيةٍ لَبِنَاتُه السُّوراتُ والأضواءُ
الحق فيه هو الأساسُ، وكيف لا واللهُ جلَّ جلالُهُ البَنَّاءُ؟
أمَّا حديثُكَ في العقولِ فَمَشْرَعٌ والعِلمُ والحِكَمُ الغوالي المَاءُ[٣١]
هو صِبغَةُ الفُرقانِ، نَفحَةُ قُدْسِه والسيَّنُ من سُوراتِه والراءُ[٣٢]
جرَتِ الفصاحةُ من ينابيعِ النُّهَى من دَوْحِهِ، وتفجَّرَ الإنشاءُ[٣٣]
في بحره للسابِحينَ به علَى أدَبِ الحياةِ وعِلمِها إرساءُ
أتَت الدُّهُورُ على سُلافَتِه، ولم تَفْنَ السُّلافُ، ولا سَلاَ النُّدماءُ[٣٤]

***

بكَ يا ابنَ عبدِ الله قامَت سَمحَةٌ بالحقِّ من مِلَلِ الهُدَى غَرَّاءُ[٣٥]
بُنيَت على التوحيدِ، وهيَ حقيقةٌ نادَى بهَا سُقرَاطُ والقُدماءُ
وجَدَ الزُّعافَ من السُّمومِ لأجلِها كالشهَّدِ، ثم تتابَعَ الشهُّدَاءُ
ومشىَ على وجهِ الزمانِ بنورِها كُهَّانُ وادِي النيلِ والعُرفاءُ[٣٦]

إيزيسُ ذاتُ المُلكِ حين توحَّدَت ... أخذَت قِوامَ أمورِها الأشياءُ[٣٧]
لمَّا دعَوْتَ الناسَ لبَّى عاقلٌ ... وأصمَّ مِنكَ الجاهلِين نِداءُ
أبَوُا الْخروجَ إليك من أوهامِهم ... والناسُ في أوهامِهم سُجناءُ
ومِنَ العقولِ جداولٌ وجَلامِدٌ ... ومِنَ النفوسِ حرائرٌ وإماءُ[٣٨]
داءُ الجماعةِ مِن أرسطالِيسَ لم ... يُوصَف له حتى أتَيتَ دواءُ
فرسَمْتَ بعدَك للعبادِ حكومةً ... لا سُوقةٌ فيهَا ولا أمَراءُ
الله فوقَ الخلقِ فيهَا وَحدَه ... والناسُ تحَتَ لِوائِها أكفاءُ
والدَّينُ يُسْرٌ، والخِلافةُ بَيعَةٌ ... والأمرُ شُورَى، والحقوقُ قضاءُ
الاشتراكيُّون أنتَ إمامُهم ... لولاَ دعاوَى القومِ والغُلَواءُ[٣٩]
داوَيتَ مُتئدًا، ودَاوَوْا طَفْرَةً ... وأخفُّ من بعضِ الدواءِ الداءُ[٤٠]
الحربُ في حقَّ لدَيك شريعةٌ ... ومِنَ السُّمومِ الناقعاتِ دَواءُ[٤١]
والبِرُّ عندكَ ذِمَّةٌ، وفريضةٌ ... لا مِنَّةٌ مَمنُونَةٌ وجَباءُ[٤٢]
جاءَت فوحَّدَتِ الزَّكاةُ سبِيلَه ... حتى التَقَى الكُرَماءُ والبُخلاَءُ
أنصَفْتَ أهلَ الفَقرِ من أهلِ الغنَى ... فالكلُّ في حقَّ الحياةِ سَوَاءُ
فَلَوَ أن إنسانًا تَخيَّرَ مِلَّةً ... ما اختارَ إلا دِينَكَ الفقرَاءُ

***

يأيُّها المُسرَى به شَرفًا إلى ... ما لا تنالُ الشمسُ والجَوْزاءُ[٤٣]
يتساءَلون — وأنتَ أطهرُ هيكلٍ: ... بالرُّوحِ أم بالهَيكَلِ الإسراءُ؟[٤٤]
بهِما سمَوْتَ مُطَهَّرينِ، كلاهما ... نورٌ، ورَيحانِيَّةٌ، وبَهَاءُ
فضلٌ عليكَ لِذي الجَلالِ ومِنَّةٌ ... واللهُ يفعَلُ ما يَرَى ويَشاءُ
تغشى الغُيوبَ من العوالِمِ، كلَّما ... طُويَت سمَاءٌ قُلِّدَتكَ سمَاءُ[٤٥]
في كلَّ مِنطَقَةٍ حواشِي نورِها ... نونٌ، وأنتَ النقطةُ الزهراءُ
أنتَ الجمالُ بِها، وأنتَ المُجتلى ... والكفُّ، والمِرآهُ، والحسناءُ
الله هَيَّأ مِن حظيرةِ قُدسِه ... نُزُلاً لذاتِكَ لَم يَجُزْهُ علاءُ
العَرشُ تحتكَ سُدَّةُ وقوائِمًا ... ومَناكبُ الروحِ الأمِينِ وطاءُ
والرُّسْلُ دُون العَرِش لَم يُؤذَنْ لهم ... حاشا لغَيرِكَ موعدٌ ولقاءُ

* * *

الـخـيلُ تـأبَـى غـيـرَ «أحـمـدَ» حـامـيًـا وبـهـا إذا ذُكِـرَ اسـمُـهُ خُـيَـلاءُ
شـيَـخ الـفَـوارسِ يـعـلَـمـونَ مـكـانَـه إنْ هَـيَّـجَـت آسـادَهـا الـهَـيـجـاءُ
وإذا تَـصـدَّى لـلـظُّـبـى فـمُـهَـنَّـدٌ أو لـلـرِّمـاحِ فـصَـعْـدَةٌ سـمـراءُ[٤٦]
وإذا رَمـى عـن قـوسِـه فـيـمـيـنُـه قَـدرٌ، ومـا تَّـرمِـي الـيَـمِـيـنُ قـضـاءُ
من كـل داعِـي الـحـقِّ هِـمَّـةُ سـيـفِـه فِـلـسَـيـفـه فـي الـرَّاسِـيـاتِ مَـضـاءُ[٤٧]
ساقِي الجريحَ، ومُطعمُ الأسرَى، ومَنْ أمِـنَـت سَـنـابِـكَ خَـيـلـه الأشـلاءُ
إنَّ الـشـجـاعـةَ فـي الـرجـالِ غـلاظـةٌ مـا لـم تُـزِنْـهَـا رأفَـةٌ وسـخَـاءُ
والحربُ من شرَف الشعوب، فإن بغوْا فـالـمَـجـدُ مـمَّـا يـدَّعـون بَـرَاءُ
والـحـربُ يـبـعَـثُـهـا الـقـوِيُّ تـجَـبُّـرًا ويَـنـوءُ تـحـتَ بَـلائِـهـا الـضُّـعـفـاءُ
كـم مِـن غَـزاةِ لـلـرسـولِ كـريـمَـةٍ فـيـهَـا رِضًـى لـلـحـقَّ أو إعـلاءُ
كـانَـت لـجُـنـد الـلـه فـيـهَـا شِـدَّةٌ فـي إثـرِهـا لـلـعـالـمِـيـن رَخـاءُ
ضـرَبُـوا الـضـلالـة ضـربـةً ذهـبَـت بـهَـا فـعَـلَـى الـجَـهـالِـة والـضـلالِ عـفَـاءُ
دَعَـمـوا عـلى الـحرب الـسلامَ، وطـالـمـا حـقَـنَـت دِمـاءً فـي الـزمـانِ دِمـاءُ

* * *

الـحـقُّ عِـرض الـلـه، كـلُّ أبَـيَّـةٍ بَـيـن الـنـفـوسِ جـمًـى لـه وَوِقـاءُ
هـل كـان حـولَ مـحـمـدٍ مـن قـومِـه إلاَّ صَـبِـيٌ واحـدٌ ونـسـاءُ؟
فـدَعَـا، فـلَـبَّـى فـي الـقـبـائـلِ عُـصـبـةٌ مُـسـتَـضـعَـفـون، قـلائـلٌ، أنـضـاءُ[٤٨]
رَدُّوا بـبَـأسِ الـعَـزمِ عـنـه مـن الأذَى مـا لاَ تَـرُدُّ الـصـخـرَةُ الـصـمَّـاءُ
والـحـقُّ والإيـمـانُ إن صُـبَّـا عـلَـى بـردٍ فـفـيـه كَـتِـيـبـةٌ خـرسـاءُ[٤٩]
نـسـفـوا بـنـاءَ الـشِّـركِ، فـهـو خـرائـبٌ واسـتـأصـلُـوا الأصـنـامَ، فـهـي هَـبـاءُ[٥٠]
يَـمـشـون تُـغـضِـي الأرضُ مـنـهـم هَـيـبـةً وبِـهـم حِـيـالَ نـعـيـمِـهـا إغـضـاءُ
حـتـى إذا فُـتِـحَـت لـهـم أطـرافُـهـا لـم يُـطِـغِـهـم تَـرَفٌ ولا نَـعـمـاءُ

* * *

يـا مَـنْ لـهُ عِـزُّ الـشـفـاعِـة وَحْـدَهُ وهُـو الـمـنَـزَّهُ، مـا لـه شُـفـعـاءُ

عرشُ الـقـيـامَـة أنـتَ تـحـت لـوائـه   والـحْـوضُ أنـتَ حِـيـالـهُ الـسَّـقـاءُ
تـروي وتـسـقـي الـصـالـحِـين ثوابَـهم   والـصـالـحـاتُ ذخـائـرٌ وجـزاءُ
ألمثل هذا ذُقتَ في الدنيا الطوَى   وانـشـقَّ مِـن خَـلَـقٍ عـلـيـك رِداءُ؟
لـي فـي مـديـحك يـا رسُولُ عرائسٌ   تـيـمْـنَ فـيـك، وشـاقـهـنَّ جَـلاءُ[٥١]
هُـنَّ الـحسانُ، فـإن قـبلتَ تكرُّمًا   فـمُـهـورُهُـنَّ شـفـاعَـةٌ حَـسـنـاءُ
أنـتَ الـذي نَـظَـم الـبـريَّـةَ ديـنُـهُ   مـاذا يـقـول وَيـنَـظـم الـشـعُّـراءُ؟
الـمُـصـلـحـون أصـابـعُ جُـمِـعت يَـدًا   هـي أنت، بَلْ أنت الـيَـدُ الـبـيـضـاءُ
مـا جـئـتُ بـابـكَ مـادحًـا، بـل داعـيًـا   ومـن الـمـديـح تـضـرُّعٌ ودُعـاءُ
أدعُوك عن قومي الـضَّـعـافِ لأزمـةٍ   فـي مـثـلـهـا يُـلْـقَـى عـلـيـك رَجـاءُ
أدَرى رسُـولُ الـلـهِ أنَّ نـفـوسَـهـم   رَكـبَـتْ هَـواهـا، والـقـلـوب هـواءُ؟
مُـتـفـكّـكـون، فـمـا تـضـمُّ نـفـوسَـهم   ثـقَـةٌ، ولا جَـمـع الـقـلـوبَ صـفـاءُ
رقَـدُوا، وغـرَّهُـمُ نـعـيـمٌ بـاطـلٌ   ونـعـيـمُ قـومٍ فـي الـقـيُـود بـلاءُ

* * *

ظـلـمُـوا شـريـعـتَـك الـتـي نـلـنـا بـهـا   مـا لـم يـنـل فـي رومـةَ الـفـقـهـاءُ
مشتِ الحضارةُ في سَناها، واهتدى   فـي الـدَّيـن والـدُّنـيـا بـهـا الـسـعـداءُ
صلى عليك الله ما صحِب الدُّجى   حـادٍ، وحَـنَّـت بـالـفـلا وَجْـنـاءُ[٥٢]
واستقبل الرَّضْوانَ في غُرفاتِهم   بـجِـنـان عَـدْنٍ آلُـك الـسُّـمـحـاءُ
خيرُ الوسائل، مَنْ يقع منهمُ على   سَـبـب إلـيـك فـحـسـبِـيَ «الـزهـراءُ»

هوامش

(١) الروح الأمين: لقب جبريل. والملأ: الأشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع بشير.

(٢) يزهو: يشرق. وسدرة المنتهى: يقال إنها شجرة نبق على يمين العرش.

(٣) الرُّبا: جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٤) الرواء: ماء الوجه وحسن المنظر.

(٥) الطغراء: ما يسميه العامة «طرة» وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.

(٦) الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام، وكل مَنْ كان على دين إبراهيم (عليه السلام)، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف.

(٧) القعساء: المنيعة الثابتة.

(٨) تضوَّع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.

(٩) القسمة ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسمات.

(١٠) الخليل: إبراهيم (عليه السلام).

(١١) العذراء: السيدة مريم.

(١٢) خمدت النار: سكن لهيبها، والذوائب: جمع ذؤابة، وهي أعلى كل شيء، والمراد بالذوائب هنا ألسنة اللهب.

(١٣) تترى: تتوالى. وروَّاح، غدَّاء، أي يروح ويغدو.

(١٤) المخيلة: المظنة.

(١٥) استسقى الرجل: طلب السقي. والحيا: المطر.

(١٦) أياء الشمس وآياتها: نورها وحسنها.

(١٧) النوء: المطر.

(١٨) الضغن: الحقد.

(١٩) التحلُّم: تكلُّف الحلم.

(٢٠) الندِيّ: النادي.

(٢١) بنى بأهله: زُفَّ إليهم.

(٢٢) غضنفر: أسد. والنكباء: ريح بين ريحين.

(٢٣) سطا: جمع سطوة.

(٢٤) نضا السيف من غمده: سلَّه. والمهنَّد: السيف المطبوع من حديد.

(٢٥) دان به: اتَّخذه دِينًا.

(٢٦) الباغي: الطالب. والغناء: ما يغني.

(٢٧) اللغى: جمع لغة.

(٢٨) ذكاء: من أسماء الشمس.

(٢٩) حراء: الغار الذي كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.

(٣٠) أزرى به: عابه.

(٣١) مشروع: مورد.

(٣٢) الصبغة النوع.
(٣٣) الدوح: الشجر العظيم المتِّسع.
(٣٤) السلاف والسلافة: أفضل الخمر.
(٣٥) السمحة: الملَّة التي ليس فيها ضيق.
(٣٦) العرَّاف: المنجم، والجمع عُرفاء.
(٣٧) إيزيس: من آلهة المصريين القدماء.
(٣٨) الجدول: النهر الصغير. والجلمود: الصخر.
(٣٩) الغلواء: الغلوُّ.
(٤٠) متئدًا: متأنيًا. وظفر: وثب.
(٤١) الناقعات: القاتلات.
(٤٢) البرُّ: الإحسان. وذمَّة: عهد، والمنَّة: العطيَّة، والمنونة: المتبوعة بالمَنِّ.
(٤٣) الإسراء: السير ليلاً.
(٤٤) الهيكل: الجسم والصورة والشخص.
(٤٥) غشي المكان يغشاه: أتاه.
(٤٦) الظبي: جمع ظبة، وهي حد السيف. والصعدة: القناة المستوية.
(٤٧) مضى السيف مضاء: قطع.
(٤٨) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.
(٤٩) الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.
(٥٠) الهباء: الغبار.
(٥١) شاقة الحبُّ: هاجه.
(٥٢) الوجناء: الناقة الشديدة.

صدى الحرب[1]

بسيفك يعلو الحقُّ، والحقُّ أغلَب ... ويُنصَرُ دينُ الله أيَّانَ تَضربُ
وما السيفُ إلا آيةُ المُلكِ في الورى ... ولا الأمرُ إلا للذي يتغلَّب
فأدِّبْ به القومَ الطُّغاةَ، فإنه ... لَنعمَ المُربِّي للطغاةِ المؤدِّب
وداوِ به الدُّولاتِ من كلَّ دائها ... فنعم الحسامُ الطبُّ والمُتطَبِّب[1]
تنامُ خطوبُ المُلك إن بات ساهرًا ... وإن هو نام استيقظت تتألَّب
أمنَّا الليالي أن نُرَاع بحادثٍ ... و(أرمينيا) ثكلى، و(حوران) أشيَبُ[2]
ومملكةُ (اليونانِ) محلولةُ العُرَى ... رجاؤك يعطيها، وخوفُك يسلب
هدَدْت أميرَ المؤمنين كيانَها ... بأَسْطَعَ مثلِ الصبح لا يتكذَّب[3]
وما زال فجرًا سيفُ (عثمان) صادقًا ... يُساريه من عالي ذكائكَ كوكب[4]
إذا ما صَدَعْتَ الحادثاتِ بحدِّه ... تكشَّفَ داجي الخطبِ وانجاب غيْهب[5]
وهاب العدا فيه خلافَتك التي ... لهم مأْربٌ فيها والله مأرب

[1] في وصف الوقائع العثمانية اليونانية.

هوامش

(١) المتطبب: المتعاطي علم الطب.

(٢) ثكلى مصابة ببنيها الذين نالهم صارم التأديب وتأديب الصارم. وأشيب: علاه الشيب، لكثرة ما أدب وأنب.

(٣) الخطاب للسلطان عبد الحميد. وكيانها: وجودها. وبأسطع: بسيف شديد السطوع.

(٤) معناه: لكل فجر كوكب يسايره ويصحبه، وفجر هذا السيف رأيك الوضاء، وما مُنِحت من نادر الذكاء.

(٥) الداجي: المظلم. وانجاب: انكشف. والغيهب: الظلام.

أبو أمير المؤمنين

سما بكَ يا (عبدَ الحميدِ) أبُوَّةٌ ثلاثون، حُضَّارُ الجلالة غُيَّب[1]
قياصرُ أحيانًا، خلائفُ تارةً خواقينُ طورًا، والفَخَار المقلَّب[2]
نجومُ سعودِ الملك، أقمارُ زُهْرِةٍ لو آن النجومَ الزُّهرَ يجمعُها أب
تواصَوْا به عصرًا فعصرًا، فَزَاده مُعَمَّمُهم من هَيبِةٍ والمُعصَّب[3]
همُ الشمسُ، لم تبرح سماواتِ عزِّها وفينا ضُحاها والشعاعُ المحبَّب

هوامش

(١) أبوة: آباء. وحضار وغيهب: جمع حاضر وغائب.

(٢) معناه: انفرادوا بأمر المسلمين فهم الخلفاء، واستوى عرشهم على الغرب والشرق فهم قياصر عظماء، وهم الخواقين (ملوك الترك).

(٣) معممهم: ذو العمامة منهم، وكذا المعصَّب هو أيضًا المتوَّج، والعمامة والعصابة والتاج مما لبس سلاطين آل عثمان.

الجلوس الأسعد

نهضتَ بعرشٍ ينهض الدهرُ دونه خشوعًا، وتخشاه الليالي وترهَب
مَكِينٍ على متن الوجود، مُؤَيَّدٍ بشمسِ استواءٍ ما لها الدهرَ مغرب[1]
ترَقَّت له الأسواءُ، حتى ارتقيتَه فقمتَ بها في بعضِ ما تتنكَّب[2]
فكنتَ كعين، ذاتِ جَرْيٍ، كمينةٍ تفيض على مرَّ الزمانِ وتعْذُب
موكَّلةٍ بالأرضِ، تنسابُ في الثرى فيحيا، وتجري في البلاد فُتخْصِب
فأحييتَ ميْتًا، دارسَ الرسم، غابرًا كأنك فيما جئتَ عيسى المقرَّب[3]
وشدْتَ منارًا للخلافةِ في الورى تشرَّقُ فيهم شمسُه، وتُغرَّب
سهرتَ، ونام المسلمون بغبطةٍ وما يزعجُ النوامَ والساهرُ الأب؟
فنبَّهَنا الفتحُ الذي ما بفجرِهِ ولا بك، يا فجرَ السلامِ، مُكذَّب

هوامش

(١) مكين: عظيم مرتفع. والمتن: الظهر.

(٢) الأسواء: جمع سوء، وهو كل ما يسوء. وتتنكب: تحمل.

(٣) الرسم: ما كان لاصقا بالأرض من آثار الدار. ودرس: أي بلى وعفا.

حلم عظيم وبطش أعظم

حُسامُك من سقراطَ في الخطب أَخْطَبُ ... وعودُك من عُود المنابر أَصْلَبُ[١]
وعزمُك من (هوميرَ) أمضى بديهةً ... وأجلى بيانًا في القلوب، وأعذب[٢]
وإن يذكروا (إسكندرًا) وفتوحَه ... فعهدُك بالفتح المحجَّل أقرب[٣]
ومُلكُك أرقى بالدليل حكومةً ... وأنفذُ سهمًا في الأمور، وأصوَب
ظهرتَ أميرَ المؤمنين على العدا ... ظهورًا يسوءُ الحاسدين ويُتعِب
سلِ العصرَ، والأيامَ، والناسَ: هل نَبا ... لرأيك فيهم، أو لسيفكَ مَضْرِب[٤]
همُ مَلئُوا الدنيا جَهامًا، وراءَه ... جهامٌ من الأعوان أهذَى وأكذب[٥]
فلمَّا استللْتَ السيفَ أَخْلَبَ برقُهم ... وما كنت، يا برقَ المنيَّةِ، تُخْلِب[٦]
أخذتَهُمُ، لا مالكين لحَوْضِهم ... من الذَّوْدِ إلا ما أطالوا وأسهبوا
ولم يتكلَّف قومُك الأسْدُ أهبةً ... ولكنَّ خُلْقًا في السباعِ التأهُّب
كذا الناسُ: بالأخلاق يبقى صلاحُهم ... ويذهبُ عنهم أمرُهم حين تذهب
ومِن شرف الأوطان ألا يفوتَها ... حسامٌ مُعِزٌّ، أو يَراعٌ مهذَّب

هوامش

(١) سقراط: خطيب اليونان وحكيمها المشهور.
(٢) هومير: أكبر شعراء اليونان الأقدمين.
(٣) المحجل: المضيء المشرق.
(٤) نبا السيف عن الضربة: كلَّ، وارتدَّ.

(٥) الجهام: السحاب العظيم الذي لا ماء فيه. وهذى في الكلام: أكثر منه في خطأ.
(٦) أخلب برقهم: بطل وعيدهم. وتخلَّب، أي تخدَّع.

معجزات الجنود على الحدود

ملكتَ سَبيلَيْهِمْ: ففى الشرق مَضْرِبٌ   لجيشك ممدودٌ، وفي الغرب مَضْرب[1]

ثمانون ألفًا أسدُ غابٍ ضَراغِمٌ   لها مِخْلبٌ فيهم، وللموتِ مخلب

إذا حَلمتْ فالشرُّ وسْنانُ حالمٌ   وإن غضبتْ فالشرُّ يقظانُ مُغضب

فَيالِقُ أفشى في البلاد من الضُّحى   وأبعدُ من شمس النهار وأقرب[2]

وتُصبِح تلقاهم، وتُمسي تصدُّهم   وتظهر في جِدَّ القتال وتلعب

تلوح لهم في كلَّ أفقٍ، وتعتلي   وتطلع فيهم من مكانٍ، وتغرب

وتُقدِم إقدامَ الليوثِ، وتنثني   وتُدبِرُ علمًا بالوغَى، وتُعَقِّب[3]

وتملكُ أطرافَ الشعاب، وتلتقي   وتأخذُ عفوًا كلَّ عالٍ، وتغصِب[4]

وتغشى أبيَّاتِ المعاقل والذُّرا   فثيبُهُنَّ البِكْرُ، والبكْرُ ثيَّب[5]

يقودُ سراياها، ويحمي لواءَها   سديدُ المرائي في الحروبِ، مُجرَّب[6]

يجيءُ بها حينًا، ويرجعُ مرةً   كما تَدفعُ اللجَّ البحارُ وتَجْذِب[7]

ويرمي بها كالبحر من كلُ جانبٍ   فكلُّ خميسٍ لجةٌ تتضرب[8]

وينُفذُها من كلَّ شعب، فتلتقي   كما يتلاقى العارضُ المتشعِّب[9]

ويجعلُ ميقاتًا لها تَنبري له   كما دار يَلْقَى عقرَبَ السَّيْرِ عقرب[10]

فظلت عيونُ الحرب حَيْرَى لما ترى   نواظرَ ما تأتي الليوثُ وتُغرِب[11]

تبالغ بالرامي، وتزهو بما رمى   وتعجَبُ بالقُوَّاد، والجنُد أعجب[12]

وتُثني على مُزْجِي الجيوشِ (بيلدزٍ)   ومُلْهِمِها فيما تنال وتكسِب[13]

وما الملك إلا الجيش شأنًا ومظهرًا   ولا الجيشُ إلا رَبُّهُ حين يُنسب

هوامش

(١) مضرب: فسطاط عظيم.

(٢) الفيلق: الجيش العظيم، والجمع فيالق.

(٣) أدبر: ولَّى. وتعقب: أي تعود.

(٤) الشعاب: جمع شعب، وهو الطريق في الجبل.

(٥) الأبيَّات: جمع أبيَّة، وهي التي لا ترضى الدنية كبرًا. والمعقل: الملجأ. والذرا. الأمكنة المرتفعة. والثيب: نقيض البكر.

(٦) السرايا: جمع سريَّة، وهي القطعة من الجيش. والمرائي: جمع مرأى، وهو المنظر.

(٧) اللج: معظم الماء.

(٨) الخميس: الجيش.

(٩) ينفذها: يسيرها. والشعب: الطريق في الجبل. والعارض المتشعب: السحاب المتفرق.

(١٠) انبرى له: اعترض.

(١١) أغرب الرجل: أتى بشيء غريب.

(١٢) زها: تاه وتكبَّر.

(١٣) أزجى الجيش: ساقه.

زينب بني عثمان

تُحذِّرني من قومِها التُّركِ زَيْنَبُ وتُعجِمُ في وصف الليوثِ وتُعرِبُ
وتُكْثِرُ ذكرَ الباسلين، وتنثني بعزٍّ على عزَّ الجمال، وتُعجب
وتسحبُ ذيلَ الكبرياءِ، وهكذا يتَيهُ ويختالُ القويُّ المغلَّب
وزينُب إن تاهت وإن هي فاخرت فما قومُها إلا العَشِيرُ المحبَّب[1]
يؤلِّف إيلامُ الحوادثِ بيننا ويجمعُنا في الله دينٌ ومذهب
نما الوُدُّ حتى مَهَّد السبْلَ للهوى فما في سبيل الوصل ما يُتصّعَّب
ودانى الهوى ما شاءَ بيني وبينها فلم يبق إلا الأرضُ، والأرضُ تقرب[2]

هوامش

(١) العشير: القبيلة.
(٢) دانى: قارب.

الحالة في بحر الروم

ركبتُ إليها البحرَ، وهو مَصِيدةٌ   تُمَدُّ بها سفْنُ الحديد، وتُنصَب[١]

تروح المنايا الزُّرْقُ فيه، وتغتدي   وما هي إلا الموجُ يأتي، ويذهب

وتبدُو عليه الفلكُ شتَّى، كأنها   بُئُوزٌ تراعيها على البعد أعقُب[٢]

حواملُ أعلامِ القياصِر، حُضرٌ   عليها سلاطينُ البريَّةِ، غُيَّب

تُجَارِي خُطاها الحادثاتِ وتقتفي   وتطفو حواليها الخطوبُ، وترسُب[٣]

ويوشِك يجري الماءُ من تحتها دمًا   إذا جَمَعَتْ أثقالَها تترقَّب

فقلت: أأشراطُ القيامة ما أرى   أم الحربُ أدنى من وَرِيد وأقرب؟[٤]

أمانًا أمانًا لُجَّةَ الرَّومِ للورى   لو آن أمانًا عند دأماءَ يُطلَب[٥]

كأني بأحداثِ الزمانِ مُلِمَّةً   وقد فاض منها حوضُكِ المتضرب

فأزْعِجَ مَغْبُوطٌ، ورُوِّع آمنٌ   وغالَ سلامَ العالمين التعصُّب

فقالت: أطلتَ الهمَّ، للخلق ملجأٌ   أبرُّ بهم من كلِّ بَرَّ وأحدب[٦]

سَلامُ البرايا في كلاءَةِ فَرْقَدٍ   (بيلدزَ) لا يغفو، ولا يتغيَّبُ[٧]

وإن أميرَ المؤمنين لوابلٌ   من الغوثِ، مُنْهَلٌ على الخلقِ، صَيِّب[٨]

رأى الفتنةَ الكبرى، فوالى انهمالَه   فبادت، وكانت جمرةً تتلهَّب[٩]

هوامش

(١) مصِيدة ومصيْدة: بمعنى واحد، وهي ما يصاد به.

(٢) بئوز: جمع باز. وأعقب: جمع عقاب، وكلاهما من جوارح الطير.

(٣) اقتفى أثره: تبعه.

(٤) الأشراط: جمع شرط، وهو العلامة.

(٥) لجة الروم: بحر الروم، والدأماء: البحر.

(٦) أحدب: من الحدب، وهو التعطُّف.

(٧) كلاءة: أي حفظ.

(٨) الغوث: الإسعاف. والوابل: المطر الشديد. والصيب: السحاب.

(٩) الانهمال: دوام الانسكاب.

منعة السواحل العثمانية

فما زلتُ بالأهوالِ حتى اقتحمْتُها … وقد تُرْكبُ الحاجاتُ ما ليس يُرْكَب[١]

أخوض الليالي من عُبابٍ، ومن دُجًى … إلى أفقٍ فيه الخليفةُ كوكب[٢]

إلى مُلكِ عثمانَ الذي دونَ حوضه … بناءُ العوالي المشمخِرُّ المُطَنَّب[٣]

فلاح يناغي النجمَ صَرْحٌ مثقَّبٌ … على الماءِ، قد حاذاه صَرْحٌ مُثقب

بروجٌ أعارتها المَنونُ عيونَها … لها في الجواري نظرةٌ لا تُخَيَّب

رواسي ابتداعٍ في رواسي طبيعةٍ … تكادُ ذراها في السحاب تغيَّب

فقمتُ أجيلُ الطَّرْف حيران قائلاً: … أهذي ثغورُ الترك أم أنا أحسب؟

فمثلَ بناءِ التركِ لم يَبْنِ مشرقٌ … ومثلَ بناءِ التركِ لم يَبْنِ مغرب

تَظَلُّ مَهولاتُ البوارج دونَهُ … حوائرَ، ما يدرين ماذا تخرَّب؟

إذا طاش بين الماءِ والصخر سهمُها … أتاها حديدٌ ما يطيشُ، وأسرب[٤]

يُسدَّده عزريلُ في زِيِّ قاذفٍ … وأيدي المنايا، والقضاءُ المُدرَّب

قذائفُ تخشى مُهْجَةُ الشمس كلَّمَا … عَلَتْ مُصْعِداتٍ، أنها لا تُصَوَّب[٥]

إذا صُبَّ حاميها على السفن انثنت … وغانمُها الناجي، فكيف المخيَّب؟

سلِ الرُّومَ: هل فيهنَّ للفلك حيلةٌ؟ … وهل عاصِمٌ منهنَّ إلا التنكُّب؟[٦]

تذبذبَ أسْطولاهُمُ فدعتهُما … إلى الرُّشدِ نارٌ ثَمَّ لا تَتَذبذب

فلا الشرْق في أسطوله مُتقي الحِمى … ولا الغرْبُ في أسُطوله مُتهيَّب

هوامش

(١) اقتحم الهول: رمى نفسه فيه بشدة.

(٢) الدجى: الظلمة.

(٣) العوالي: الرماح. والمشمخر: العالي. والمطنب. المشدود بالأطناب.

(٤) الأسرب: الرصاص.

(٥) معناه: إذا ارتفعت هذه القنابل خشيت الشمس أن تخطئ هدفها وأن تستمر صاعدة فتصيب مهجتها.

(٦) الضمير في «فيهن» و«منهن» راجع للقنابل. والتنكُّب: العدول والتجنُّب.

زينب المتطوِّعة في موقعة

وما راعَني إلاَّ لَواءٌ مُخضَّبٌ ... هنالك يَحميه بَنانٌ مُخَضَّب[1]

فقلتُ: من الحامِي؟ أليثٌ غضنفرٌ ... من الترْك ضارٍ، أم غزال مُربَّب؟[2]

أم الملكُ الغازي المجاهدُ قدْ بَدا ... أم النجمُ في الآرام، أم أنت زَينب؟

رفْعتِ بنات التركِ، قالت: وهل بنا ... بناتِ الضواري أن نَصول تَعَجُّب؟

إذا ما الديار استرخت بدرتْ لها ... كرائمُ منا بالقَنا تتنقَّب

تقرَّبُ ربَّاتُ البعُولِ بعولَها ... فإن لم يكُنْ بعْلٌ فنفسًا تُقَرَّب[3]

ولاحتْ بآفاقِ العدُوِّ سَرِيَّةٌ ... فوارسُ تبْدُو تارةً، وتَحجَّب

نواهضُ في حَزْنٍ كما تنهضُ القَطا ... رواكِضُ في سَهل كما انساب ثعْلب[4]

قليلون من بُعدٍ، كثيرون إن دنْوا ... لهم سَكَنٌ آنًا، وآنًا تَهيُّب

فقالت: شهدتَ الحرب أو أنتَ مُوشِك ... فَصِفْنَا، فأنتَ الباسلُ المتأدّب

ونادت، فلبَّى الخيلُ من كل جانبٍ ... ولبَّى عليها القَسْوَرُ المترقَّب[5]

خِفافًا إلى الداعي، سِراعًا، كأنما ... من الحرب داعٍ للصلاة مُثَوَّب

مُنيفين من حول اللواءِ، كأنهم ... له معِقلٌ فوق المعاقل أغلب

وما هي إلا دعوةٌ وإجابةٌ ... أن التحمت، والحربُ بَكْرٌ وتَغْلِب[6]

فأبصرتُ ما لم تُبصرا من مَشاهدٍ ... ولا شهدَت يومًا مَعَدّ ويَعْرُب

هوامش

(١) اللواء المخضَّب: هو الراية العثمانية الحمراء. ويحميه بنان مخضب: أي أنثى مخضوبة البنان.

(٢) ربب الصبي: ربَّاه حتى أدرك.

(٣) البعل: الزوج.

(٤) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٥) القسور: الأسد، والمراد به فارس الترك.

(٦) بكر وتغلب: قبيلتان لم تقف بينهما العداوة عند حدٍّ؛ فتشبيه المقاتلين بهما جيد.

مضيق ملونا

جبالَ (ملونا)، لا تخوري وتجزعي   إذا مال رأسٌ، أو تضعضع منكب
فما كنتِ إلا السيفَ والنارَ مركبًا   وما كان يستعصي على الترك مركَب
عَلَوْا فوق علياءِ العدوَّ، ودونه   مَضيقٌ كحلق الليث، أو هو أصعب
فكان صراط الحشر، ما ثَمَّ ريبةٌ   وكانوا فريقَ الله، ما ثَمَّ مُذنِب
يَمرُّونَ مَرَّ البرقِ تحت دُجُنَّةٍ   دُخانًا، به أشباحُهم تتجلبب[١]
حثيثين من فوق الجبال وتحتها   كما انهارَ طَوْدٌ، أو كما انهال مِذنَب[٢]
تُمِدُّهُمُ قُذَّافُهم ورُماتُهم   بنارٍ كنيران البراكين تدأب
تُذرَّى بها شُمُّ الذُّرا حين تعتلي   ويسفحُ منها السفْحُ إذ تتصبب[٣]
تُسمَّر في رأسِ القِلاع كُراتُها   ويسكن أعجازَ الحصونِ المُذَنَّب[٤]
فلمَّا دجى داجي العَوانِ وأطبقت   تبلَّج والنصرَ الهلالُ المحجَّب[٥]
ورُدَّت على أعقابها الرومُ، بعد ما   تناثر منها الجيش، أو كاد يذهب
جناحين في شِبه الشبَاكيْن من قنا   وقَلْبًا على حَرَّ الوغى يتَقلَّب
على قُلَل الأجبالِ حَيْرَى جموعُهم   شواخصُ، ما إن تهتدي أين تذهب؟[٦]
إذا صعدت، فالسيفُ أبيضُ خاطِفٌ   وإن نزلتْ، فالنارُ حمراءُ تَلهب
تطوَّعَ أسرًا منهمُ ذلك الذي   تَطَوَّع حربًا، والزمانُ تَقلُّب
وتمَّ لنا النصر المبين على العِدا   وفَتْحُ المعالي، والنهارُ المذهَّب
فجئتُ فتاةَ التركِ أجزي دِفاعَها   عن المُلكِ والأوطانِ ما الحقُّ يُوجِب
فقبَّلتُ كفًّا كان بالسيِف ضاربًا   وقبَّلتُ سيفًا كان بالكفِّ يضرب

وقلتُ: أفي الدنيا لقومِكِ غالِبٌ وفي مثل هذا الحِجْر رُبُّوا وهذَّبوا؟
رويْدًا بني عثمان في طلب العلا وهيهاتَ، لم يستبقَ شيءٌ فيُطلب
أفي كلَّ آنٍ تغرسون، ونجتني وفي كل يومٍ تفتحون، ونكتُب؟
وما زلتُمُ يسقيكمُ النصرُ خمرَهُ وتسقونه، والكلُّ نشوان مصأَب[٧]
إلى أن أحلَّ السُّكْرَ مَنْ لا يُحلُّه ومدَّ بساطَ الشَّربِ مَنْ ليس يشرَب

هوامش

(١) أي تحت ظلمة من الدخان تختفي بها أشباحهم.
(٢) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض، والمعنى: كما انقض جبل، أو انحط سيل.
(٣) تذرَّى: من التذرية، وهي الإطارة والإثارة. والذرا: جمع ذروة وهي أعلى الشيء. والشمُّ: جمع شمَّاء، وهو الارتفاع. ويسفح: ينصب. والسفح: عرض الجبل المضطجع.
(٤) المذنب: ذو الذنب من القنابل الكبيرة.
(٥) العوان: الحرب الشديدة.
(٦) القلة: أعلى الرأس.
(٧) المصاب: من شرب حتى ارتوى.

الحاج عبد الأزل باشا

وأشـمَـطَ سَـوَّاسِ الـفـوارسِ أشـيْـبُ يسيرُ به في الشَّعب أشمَطُ أشيبُ[1]
رَفـيـقـا ذهـابٍ فـي الـحـروب وجَـيـئـةٍ قد اصطحبا، والحُرُّ للحُرَّ يصحَب
إذا شـهـداهـا جـدَّدا هِـزَّة الـصِّـبـا كما يتصابَى ذو ثمانينَ يطرب
فـيـهـتـزُّ هـذا كـالـحـسـام، ويـنـثـنـي وينـفـر هـذا كـالـغـزال، ويـلـعـب
توالى رصاصُ المطلقين عليهما يُخضَّل من شيبهما ويُخضِّب
فـقـيـل: أنِـلْ أقـدامَـكَ الأرضَ، إنـهـا أبـرُّ جـوادًا إن فـعـلـتَ وأنـجـب
فـقـال: أيـرضـى واهـبُ الـنـصـر أنـنـا نموت كموتِ الغانياتِ ونعطَب؟
ذروني وشأني والوغَى، لا مباليًا إلى الموت أمشي، أم إلى الموت أركب؟
أيحملنِي عُمْرًا، ويحمي شبيبتي وأخـذُلُـه فـي وهْـنِـه وأخـيِّـب؟[2]
إذا نـحـن مـتـنـا فـادفـنـونـا بـبـقـعـةٍ يـظـلُّ بـذكـرانـا ثـراهـا يُـطـيَّـب
ولا تعجبوا أن تبسل الخيلُ، إنها لها، مثلُ ما للناسِ، في الموت مَشرَب[3]
فـمـاتـا أمـامَ الـلـهِ مـوتَ بـسـالـةٍ كـأنـهـمـا فـيـه مِـثـالٌ مـنـصَّـب[4]
ومـا شـهـداءُ الـحـربِ إلا عـمـادُهـا وإن شَيَّدَ الأحياءُ فيها وطنَّبوا[5]
مِدادُ سِجلِّ النصرِ فيها دِماؤهم وبالتَّبر من غالي ثَرَاهُم يُتَرَّب[6]
فهل من (ملونا) موقفٌ ومَسامِعٌ ومن جبليها منبرٌ لي فأخطب؟
فأسأل حِصْنيْها العجيبين في الورى ومدخلَها الأعصى الذي هو أعجب؟
وأسـتـشـهِـد الأطـوادَ شـمـاءَ، والـذرا بَواذِخَ، تُلْوِي بالنجوم وتجذب؟[7]
هـل الـبـأس إلا بـأسُـهـم وثـبـاتُـهـم؟ أو الـعـزمُ إلا عـزمُـهـم والـتـلـبُّـب؟[8]

أو الدينُ إلا ما رأت من جهادهم؟ أو المُلكُ إلا ما أعزُّوا وهَيَّبوا؟[٩]
وأيُّ فضاءٍ في الوَغى لم يُضَيِّقوا؟ وأيُّ مضيق في الورى لم يُرحِّبوا؟
وهل قبلهم مَنْ عانقَ النارَ راغبًا ولو أنه عَبَّادُها المترهِّب؟
وهل نال ما نالوا من الفخر حاضرٌ؟ وهل حُبِيَ الخالون منه الذي حُبوا؟[١٠]
سلامًا (ملونا)، واحتفاظًا، وعصمةٌ لمن بات في عالي الرضى يتقلب
وضِنَّي بعظمٍ في ثراك مُعظَّمٍ يُقرِّبه الرَّحمنُ فيما يُقرَّب

هوامش

(١) الأشمط: الذي يخالط بياض رأسه سواد، والمراد بالأول: الفارس وبالثاني: فرسه.

(٢) الوهن: الضعف، والمعنى: ليس من الوفاء، ولا من حسن الجزاء أن يكون نصيبه مني في شيبه الترك والخذلان، وقد كان نصيبي منه الصبر على الأهوال، والمعاناة على القتال.

(٣) تبسل: تشجع.

(٤) منصب: مرفوع.

(٥) طنب البيت: شدَّه بالأطناب، وهي الحبال.

(٦) السجل: كتاب العهد، أو الحكم. وترَّب الكتابة: وضع عليها التراب لتجف.

(٧) الشماء: المرتفعة. والبواذخ: من بذخ الجبل أي طال. وألوى بثوبه أو يده: أشار بها.

(٨) التلبُّب: من تلبب الرجل للحرب، أي تحزَّم وتشمَّر لها.

(٩) هيَّبه: صيَّره مهيبًا.

(١٠) حباه الشيء: أعطاه إياه.

هزيمة طرناو

و(طرناوُ) إذ طارَ الذهولُ بجيشها   وبالشَّعب فوضى في المذاهب يذهب
عَشِيَّةَ ضاقت أرضُها وسماؤها   وضاق قضاءٌ بين ذاك مُرَحَّب
خَلَتْ من بني الجيش الحصونُ، وأقفرت   مساكنُ أهليها، وعمَّ التخرُّب[١]
ونادى منادٍ للهزيمة في المَلا   وإنَّ مُنادي التُّركِ يدنو ويقرب
فأعرضَ عن قُوَّاده الجندُ شاردًا   وعلَّمه قُوَّادُه كيف يهرب
وطار الأهالي، نافرين إلى الفَلا   مئينَ وآلافًا تَهِيمُ وتسرُب[٢]
نَجَوْا بالنفوس الذاهِلاتِ، وما نَجَوْا   بغير يَدٍ صِفْر، وأخرى تقلب
وطالت يَدٌ للجمع في الجمع بالخنا   وبالسلبِ، لم يَمْدُدْ بها فيه أجنَب[٣]
يسير على أشلاءِ وِالده الفتى   ويَنْسَى هناك المُرْضَعَ الأمُّ والأب[٤]
وتمضي السرايا واطئاتٍ بخيلها   أراملَ تبكي، أو ثواكلَ تندب
فمِنْ راجلٍ تَهوي السَّنون برجِله   ومِنْ فارسٍ تمشي النساءُ، ويرَكب[٥]
وماضٍ بمالٍ قد مضى عنه وَأْلُهُ   ومُزْجٍ أثاثًا بين عينيه يُنهَب[٦]
يكادون من ذُعرٍ تفرُّ ديارهم   وتنجو الرواسي لو حَوَاهُنَّ مَشعب[٧]
يكاد الثرى من تحتِهم يَلجُ الثرى   ويَقضِم بعضُ الأرضِ بعضًا ويقضِب[٨]
تكادُ خُطاهم تسبق البرقَ سرعةً   وتذهب بالأبصار أيَّان تذهب
تكاد على أبصارهم تقطع المدى   وتنفذ مرماها البعيدَ وتحجُب[٩]
تكاد تمسُّ الأرضَ مَسًّا نِعالُهم   ولو وجدوا سُبْلاً إلى الجو نكَّبوا[١٠]
هزيمة من لا هازمٌ يستِحثُّه   ولا طاردٌ يدعو لذاك ويوجب

قعدنا، فلم يعدمْ فتى الروم فَيْلَقًا ... من الرعب يغزوه، وآخرَ يسلُب
ظفرنا به وجهًا، فظنَّ تعقُّبًا ... وماذا يزيد الظافرين التعقُّب؟
فولَّى، وما ولَّى نظامُ جنودِه ... ويا شؤْمَ جيشٍ للفرار يُرتِّب
يسوق ويَحْدو للنجاةِ كتائبًا ... له موكب منها، وللعار موكب
منظمة من حوله، بَيْدَ أنها ... تودُّ لو انشقَّ الثرى فتُغيَّب
مؤزرة بالرُّعب، ملدوغة به ... ففي كل ثوبٍ عقرب منه تَلْسِب[11]
ترى الخيل من كلّ الجهاتِ تَخَيُّلاً ... فيأخذ منها وهْمُها والتهيُّب
فمِن خلفِها طورًا، وحينًا أمامها ... وآونةً من كلَّ أوْبٍ تَألب[12]
فوارسُ في طولِ الجبالِ وعرْضِها ... إذا غابَ منهم مِقْنَبٌ لاح مِقْنَب[13]
فمهما تهِمْ يسنحْ لها ذو مُهنَّدٍ ... ويخرجْ لها من باطن الأرض مِحْرَب[14]
وتَنْزلْ عليها من سماءِ خيالِها ... صواعُق فيهنَّ الردى المُتَصبِّب
رُؤًى إن تكن حقًّا يكنْ من ورائِها ... ملائكةُ الله الذي ليس يُغلب[15]

هوامش

(١) بني: جمع بِنْيَة، بكسر الباء، وهي البنيان، والمراد بها هنا: القلاع والثكنات.

(٢) تسرَّب: من سرب الرجل في الأرض، إذا ذهب على وجهه فيها ومضى.

(٣) معناه: تعدَّى بعضهم على بعض بالفحش والسب. والأجنب: الأجنبي، والمراد: الترك.

(٤) أشلاء: جمع شلو، وهي أعضاء الإنسان بعد البلى والتفرُّق.

(٥) الراجل: الماشي على رجليه. وتهوي السنون برجله: أي تزلُّ به القدم من ثقل وطأة الهرم.

(٦) الوأل: الملجأ. مزج: من أزجاه، بمعنى ساقه ودفعه برفق. الأثاث: متاع البيت.

(٧) الذعر: الخوف الشديد. والرواسي: الجبال. والمشعب: الطريق.

(٨) يلج: يدخل. ويقضم ويقضب: يقطع.

(٩) مدى البصر: منتهاه وغايته. وتنفذ مرماها: تبلغه وتتجاوزه.

(١٠) نكبوا: مالوا.

(١١) أرزه: غطاه وقواه. وتلسب: أي تلدغ.

(١٢) تألب: من التأليب، وهو التجمُّع. والأرب: الناحية.

(١٣) أي يجسمها لهم الويل فيرونها كذلك. والمقنب: الجماعة من الخيل تجتمع للغارة.

(١٤) المحرب: الشجاع الشديد في الحرب.

(١٥) الرؤى: جمع رؤيا، وهي المنام.

التلاقي سهل فرسالا

و(فرسالُ) إذ باتوا وبتنا أعادِيًا   على السهل لُدًّا، يرقبون، ونرقب[1]

وقام فتانا الليلَ يَحْمِي لواءَه   وقامَ فتاهم ليلَه يتلعَّب

توسَّدَ هذا قائِمَ السيفِ يَتَّقي   وهذا على أحلامِه يتحسَّب[2]

وهل يستوي القِرنان: هذا مُنعَّمٌ   غَرِيرٌ، وهذا ذو تجاريبَ قُلَّب؟[3]

حمينا كِلانا أرض (فِرسالَ) والسما   فكلٌّ سبيل بين ذلك مَعْطَبُ[4]

ورُحنا يَنهُبُّ الشرُّ فينا وفيهمُ   وتَشْمُل أرواحُ القتال وتجنُب[5]

كأنا أسُودٌ رابضاتٌ، كأنهم   قطيعٌ بأقصى السهل، حيران، مُذنِب[6]

كأنا خيام الجيش في السهل أينُق   نواشِزُ، فوضى، في دجى الليل شُزَّب[7]

كأن السرايا ساكناتٍ موائجًا   قطائعُ، تعطىَ الأمنَ طورًا، وتُسْلَب[8]

كأن القَنا دون الخيام نوازلا   جداولُ، يُجريها الظلامُ، ويسكب[9]

كأن الدُّجى بحر إلى النجم صاعد   كأن السرايا موجهُ المتضرِّب

كأن المنايا في ضمير ظلامِه   همومٌ بها فاض الضمير المحجَّب

كأنَّ صهيل الخيل ناعٍ مبشرٌ   تراهنَّ فيها ضُحَّكًا وهي نُحَّب[10]

كأن وجوه الخيل غُرًّا وسيمةً   دَرارِيُّ ليل طُلَّعٌ فيه ثُقَّب[11]

كأن أنوف الخيل حَرَّى من الوغى   مجامرُ في الظلماءِ تهْدا وتلهب[12]

كأن صدور الخيل غُدْرٌ على الدُّجى   كأن بقايا النضح فيهن طُحْلُب[13]

كأن سَنى الأبواق في الليل برقُه   كأن صداها الرعدُ للبرق يصحب

كأن نداءَ الجيش من كل جانبٍ   دويُّ رياح في الدجى تتذأب[14]

كأن عيون الجيش من كل مذهب — من السهل جنٌّ جُوَّلٌ فيه جُوَّب[15]
كأن الوغى نارُ، كأن جنودنا — مجوسٌ إذا ما يَمَّموا النار قَربوا[16]
كأن الوغى نار، كأن الردَى قِرًى — كأن وراءَ النار حاتِمَ يأدِب[17]
كأن الوغى نار، كأن بنِي الوغى — فَراشٌ، له في ملمس النار مأرَب
وثبْنا يضيق السهل عن وثباتنا — وتقدُمُنا نارٌ إلى الروم أوْثَب
مشت في سراياهم، فحلَّت نظامَها — فلمَّا مشيْنا أدبرتْ، لا تُعقَّب

هوامش

(١) اللدُّ: جمع الألد، وهو الشديد الخصومة.
(٢) يتحسب: يتوسد.
(٣) القرن: النظير المقاوم. والغرير: العديم الخبرة. والقلب: المحتال البصير بتقلُّب الأمور.
(٤) معطب: مهلك.
(٥) تشمل: من شملت الريح، أي هبَّت شمالاً. وجنبت: هبَّت جنوبًا.
(٦) القطيع: الطائفة من الغنم. وأذأب القطيع: فزع من الذئب، فهو مذئب.
(٧) الأينق: جمع ناقة. ونواشز: مرتفعة. وشرب: متفرقة.
(٨) القطائع: جمع قطيعة، وهي هنا ما قُطِعَ من الجيش.
(٩) القنا: جمع قناة، وهي الرمح.
(١٠) نحَّب: أي منتحبات باكيات.
(١١) ثقب النجم: أضاء. والدراري: النجوم الثواقب.
(١٢) المجامر: جمع مجمر، وهو ما يوضع فيه الجمر.
(١٣) الغدر: جمع غدير. والطحلب: خضرة تعلو الماء المزمن. والنضح: رشاش الماء.
(١٤) تتذأب الريح: تجيء مرة كذا ومرة كذا.
(١٥) عيون الجيش: أرصاده وجواسيسه.
(١٦) قربوا الله: قدَّموا له القربان.
(١٧) القرى: ما قُرِي به الضيف، أي قدم له، وحاتم: هو حاتم الطائي المضروب به المثل في الجود.

غضب دوموقو

رأى السهلُ منهم ما رأى الوعرُ قبله … فيا قوم، حتى السهلُ في الحرب يصعبُ؟

وحصن تسامى من (دموقو)، كأنه … مُعَشَّش نسرٍ، أو بهذا يلقب

أشمٌّ على طَوْدٍ أشمَّ، كلاهما … مَنون المُفاجى، والحِمامُ المرحِّب

تكاد تقاد الغاديات لربَّه … فيُزْجِي، وتَنزَمُّ الرياحُ فيركب[١]

حمَته ليوثٌ من حديدٍ تركَّزت … على عَجَل، واستجمعتْ تترقب

تثور وتستأْني، وتنأى وتَدَّنتأَّبَى، … وتغدو بما تغدي، وترمي وتنشب[٢]

فظنَّ العالمونَ استحالةً … وأعيا على أوهامِهم، فتريَّبوا[٣]

فما في القوى أن السمواتِ تُرْتَقى … بجيشٍ، وأن النجم يُغْشى فيُغضب[٤]

سموتمْ إليه، والقنابلُ دونه … وشهبُ المنايا، والرصاص المُصَوَّب

فكنتم يواقيتَ الحروبِ كرامةً … على النار، أو أنتم أشدُّ وأصلَب[٥]

صعدتم، وما غيرُ القنا ثَمَّ مَصعدٌ … ولا سُلَّمٌ إلا الحديدُ المذرب[٦]

كما ازدحمتْ بيزان جَوٍّ بمَوْرِدٍ … أو ارتفعت تلْقىَ الفريسةَ أعقب[٧]

فما زلتمُ حتى نزلتم بُروجَه … ولم تحتضرْ شمس النهار فتغربُ

هنالك غالى في الأماديح مَشرقٌ … وبالغ فيكم آلَ عثمان مَغرِب

وزيدَ حمى الإسلام عزًّا ومَنْعةً … ورُدَّ جِماحُ العصر، فالعصر هَيَّب

رفعنا إلى النجم الرؤُوس بنصركم … وكنا بحكم الحادثاتِ نصوَّب

ومَنْ كان منسوبًا إلى دولةِ القنا … فليس إلى شيءٍ سوى العِزَّ يُنْسَب

هوامش

(١) الغاديات: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة. ويزجي: يسوق. وتنزمُّ: تزمُّ بزمام.

(٢) استأنى: انتظر. وأدنى: اقترب.

(٣) تأبى: امتنع. وتريبوا: تخوَّفوا.

(٤) يغضب (على البناء للمجهول): يصاب بالغضاب، وهو القذى في العين.

(٥) يقال: إن الياقوت لا يحترق بالنار.

(٦) الحديد المذرب: المسموم، وذرب السيف: حدُّه

(٧) البيزان: جمع باز. والأعقب: جمع عقاب، وهما من جوارح الطير.

أحلام اليونان

فيا قوم، أين الجيش فيما زعمتُمُ؟ وأين الجواري، والدفاعُ المركَّب؟[١]

وأين أميرُ البأسِ والعزمِ والحِجى؟ واين رجاءٌ في الأمير مُخيَّب؟

وأين تُخومٌ تستبيحون دَوْسَها؟ وأين عصاباتٌ لكم تتوثَّب؟[٢]

وأين الذي قالت لنا الصحْفُ عنكم واسند أهلوها إليكم فأطنبوا؟

وما قد روى بَرْقٌ من القولِ كاذبٌ وآخرُ من فعل المحبِّين فأكذب

وما شِدْتُمُ من دولة عرضُها الثرى يدين لها الجنسانِ: تُرْكٌ وصَقْلب[٣]

لها علمٌ فوق الهلال، وسُدَّةٌ تُنَصُّ على هام النجوم، وتُنصَب[٤]

أهذا هو الذُّود الذي تدَّعونه ونصرُ «كريدٍ»، والولا، والتحبُّب؟

أهذا الذي للمُلكِ والعِرضِ عندكم وللجار إن أعيا على الجار مَطلب؟

أهذا سلاحُ الفتح، والنصر والعلا؟ أهذا مطايا مَنْ إلى المجد يركب؟

أهذا الذي للذكر خلَّب معشرٌ على ذكرهم يأتي الزمانُ ويذهب؟

أسأتم، وكان السوءْ منكم إليكمُ إلى خير جار عنده الخيرُ يُطلَبُ

إلى ذي انتقامٍ، لا ينام غريمُه ولو أنه شخصُ المنام المحجَّب

شقيتم بها من حيلة مستحيلة وأين من المُحتال عنقاءُ مُغْرِب؟[٥]

فلولا سيوفُ التركِ جرَّبَ غيرُكم ولكن من الأشياءِ ما لا يجرَّب

هوامش

(١) الجواري: السفن.
(٢) التخوم: الحدود.
(٣) صقلب: الجنس السلافي.
(٤) تنصُّ: أي ترفع.
(٥) عنقاء مغرب: طائر من طيور الأساطير.

عفو القادر

فعفوًا — أميرَ المؤمنين — لأمَّةٍ دَعتْ قادرًا، ما زال في العفو يرغب
ضـربـتَ عـلـى آمـالِـهـا، ومـآلـهـا وأنتَ على استقلالها اليومَ تَضْرب
إذا خان عبدُ السوءِ مولاه مُعْتَقًا فما يفْعُل المولى الكريمُ المهذَّب؟
ولا تضربَنْ بالرأي مُنحَلَّ ملكِهم فما يفعلُ المولى الكريمُ المهذب؟
لـقـد فـنِـيَـت أرزاقُـهـم، ورجـالُـهـم وليس بفانٍ طَيْشُهم، والتقلُّب
فإن يجدوا للنفس بالعوْدِ راحةً فقد يشتهي الموتَ المريضُ المعذَّب
وإن همَّ بالعفوِ الكريم رجاؤهم فمن كَرَمِ الأخلاق أن لا يُخَيبَّوا
فما زلتَ جارَ البرِّ، والسيدّ الذي إلى فضِله من عدله الجارُ يهرب
يُلاقي بعيدُ الأهلِ عندكَ أهلَهُ ويمرحُ في أوطانه المتغرِّب

التماس القبول

أمولاي غنَّتك السيوفُ فأطربت ... فهل لِيراعي أن يُغني فيُطرب

فعندي، كما عند الظُّبا، لك نَغْمَةٌ ... ومختلِفُ الأنغامِ للأنس أجلب[١]

أُعرِّب ما تُنشي عُلاك، وإنه ... لفي لُطفه ما لا ينال المُعرِّب

مدحتك والدنيا لسانٌ، وأهلُها ... جميعًا لسانٌ، يمليان، وأكتب

أناول من شعر الخلافِة ربَّها ... وأكسو القوافي ما يدوم فيقشب[٢]

وهل أنت إلا الشمسُ في كل أُمةٍ؟ ... فكلُّ لسانٍ في مديحك طيِّب

فإن لم يَلقْ شعري لبابك مِدحةً ... فمُرْ ينفتِح بابٌ من العذرِ أرحَب

وإني لطيرُ النيل، لا طير غيرُه ... وما النيلُ إلا مِن رياضِك يُحسَب

إذا قلتُ شعرًا فالقوافي حواضر ... وبغدادُ بغدادٌ، ويثرب يثرب

ولم أعدم الظلَّ الخصيبَ، وإنما ... أجاذِبُكَ الظلَّ الذي هو أخصب

فلا زلتَ كهف الدين، والهاديَ الذي ... إلى اللهِ بالزُّلفَى له نتقرّب

هوامش

(١) الظبا: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف أو السنان.

(٢) يقشب الشيء: يجعله جديدًا.

انتصار الأتراك في الحرب والسياسة

اللهُ أكبر، كمْ في الفتح من عَجَب   يا خالدَ التُّركِ جدِّدْ خالدَ العَرَب[١]
صلحٌ عزيزٌ على حرب مُظَفَّرةٍ   فالسيفُ في غِمده، والحقُّ في النُّصُب[٢]
يا حُسنَ أُمْنِيَّة في السيفِ ما كذَبَت   وطيبَ أُمْنيَّةٍ في الرأي لم تَخِب
خُطاك في الحق كانت كلُّهَا كَرمًا   وأنتَ أكرمُ في حَقْن الدَّمِ السَّرب[٣]
خَذوتَ حربَ (الصلاحيَّين) في زَمَن   فيه القتالُ بلا شرع، ولا أدب
لم يَأت سيفُك فحشاءً، ولا هتكتْ   قناك من حُرمَةِ الرُّهبان والصُّلُب
سُئلْت سِلمًا على نصر، فجُدتَ بها   ولو سئِلتَ بغير النصر لم تُجِب[٤]
مَشيئَةٌ قَبِلَتها الخيلُ عاتبةً   وأذعن السيفُ مَطْويًّا على غَضَب
أتيتَ ما يشبه التقوى وإن خُلِقت   سيوفُ قومِك لا ترتاحُ للقُرُب[٥]
ولا أزيدُك بالإسلام مترفةً   كلُّ المروءَةِ في الإسلام والحسبِ
مَنَحْتَهُمُ هُدْنة من سيفك التُمِسَت   فهَبْ لهم هُدْنةً من رأيك الضَّرب[٦]
أتاهُمُ منك في «لوزان» داهيةٌ   جاءَت به الحربُ من حَيَّاتها الرُّقُب[٧]
أصَمُّ، يسمعُ سرَّ الكائدين له   ولا يضيق بجَهْر المُحْنَق الصَّخِب
لم تَفترِق شهواتُ القوم في أرَب   إلا قضى وَطرًا من ذلك الأرَب
تدرَّعَت للقاءِ السّلم «أنْقرةٌ»   ومهَّدَ السيفُ في «لوزان» للخُطَب
فقل لِبانِ بقولٍ رُكنَ مملكةٍ   على الكتائب يُبنَى المُلكُ لا الكُتب
لا تَلْتَمِسْ غَلَبًا للحقَّ في أمَمٍ   الحقُّ عندهُمُ مْعنًى من الغَلب
لا خيرَ في مِنبَر حتى يكون له   عُودٌ من السُّمْر، أو عودٌ من القُضُب[٨]

وما السلاحُ لقوم كلُّ عُدَّتِهم ... حتى يكونوا من الأخلاق في أُهُب[9]

لو كان في الناب دون الخُلقِ مَنْبَهَةٌ ... تساوت الأسْدُ والذُّؤبانُ في الرُّتَب

لم يُغنِ عن قادة اليونان ما حشدوا ... من السلاح، وما ساقوا من العُصَب

وتَركُهُم «آسيا الصغرى» مُدجَّجَةً ... كثُكْنة النحل، أو كالقُنْفُذ الخشب[10]

للتُّركِ ساعاتُ صبرٍ يومَ نَكْبِتهم ... كُتِبْنَ في صحف الأخلاق بالذهب

مغارمٌ، وضحايا ما صَرَخْنَ، ولا ... كُدّرن بالمنّ، أو أُفْسِدْنَ بالكذب

بالفعلِ والأثر المحمود تعرفها ... ولستَ تعرفها باسم ولا لقب

جُمعنَ في اثنين: مِن دينٍ ومِن وَطَنٍ ... جمعَ الذبائح في اسم الله والقُرَب[11]

فيها حياةٌ لشعبٍ لم يمُتْ خُلُقًا ... ومَطمعٌ لقَبيل ناهضٍ أرب

لم يَطْعَم الغُمْضَ جَفَنُ المسلمين لها ... حتى انجلى ليلُها عن صُبْحِه الشَّنِب[12]

كُنَّ الرجاءَ، وكُنَّ اليأسَ، ثم محا ... نورُ اليقين ظلامَ الشك والرِّيَب

تلمَّس التركُ أسبابًا، فما وجدوا ... كالسيف من سُلَّم للعزَّ، أو سَبب

خاضوا العَوَانَ رجاءً أن تُبَلِّغَهم ... عبْرَ النجاةِ، فكانت صخرةَ العَطب[13]

سفينةُ اللهِ لم تُقهر على دُسُر ... في العاصفات، ولم تُغلَبْ على خُشب[14]

قد أمَّن الله مجراها، وأبدلها ... بحسن عاقبةٍ من سوءِ مُنقلَب

واختار رُبَّانَها من أهلها، فنجت ... من كيْد حامٍ، ومن تضليل مُنْتَدَب

ما كان ماءُ «سَقاريّا» سوى سَقَرٍ ... طغت، فأغرقت الإغريقَ في اللهب[15]

لمَّا انبَرَتْ نارُها تبغيهُمُ حَطَبًا ... كانت قِيادَتُهم حَمَّالَةَ الحطب

سَعَتْ بهم نحوَكَ الآجالُ يومئذٍ ... يا ضلَّ ساعٍ بداعي الحَين مُنجذِب

مَدُّوا الجُسورَ، فحلَّ الله ما عقدوا ... إلا مسالكَ فِرعَونيَّة السَّرَب

كرْبٌ تغشاهم من رأي ساستهم ... وأشأمُ الرأي ما ألقاك في الكُرَب

هم حسَّنوا للسواد البُلْهِ مملكةً ... من لِبْدة الليث أو من غِيلِهِ الأشِب[16]

وأنشئوا نُزهةً للجيش قاتلةً ... ومَنْ تنزَّه في الآجام لم يَؤُب

ضَلَّ الأميرُ، كما ضَلَّ الوزيرُ بهم ... كلا السّرابَيْنِ أظَماهم، ولم يَصُب[17]

تجاذباهم كما شاءَا بمختلف ... من الأمانيِّ والأحلامِ مُختلِب

وكيف تلقى نجاحًا أمةٌ ذهبتْ ... حَزْبَيْنِ عند الحادث الحزب؟[18]

زحفتَ زحف أتِيٍّ غيرِ ذي شَفَق ... على الوِهاد ولا رِفقٍ على الهِضَب[19]

قذفَتهم بالرياح الهُوج مُسرَجةً يَحملن أسْدَ الشَّرى في البَيْضِ واليلَب[٢٠]
هَبَّت عليهم، فذابوا عن معاقلهم والثلجُ في قُلَل الأجبال لم يَذُب
لمَّا صدَعتَ جناحَيْهم وقَلْبَهُمُ طاروا بأجنحة شتى من الرُّعب
جَدَّ الفِرارُ، فألقى كلُّ معتقل قناتَهُ، وتخلَّى كل مُحتقِب[٢١]
يا حُسْنَ ما انسحبوا في مَنْطِق عَجَبِ تُدعى الهزيمةُ فيه حُسنَ مُنسَحَب
لم يَدْرِ قائدُهم لمَّا أحطْتَ به هبطتَ من صُعُدٍ أم جئت من صَبَب؟[٢٢]
أخذتَه وهو في تدبير خُطَّتهِ فلم تتمّ، وكانت خطةَ الهرب
تلك الفراسِخُ من سهل ومن جبل قرَّبْتَ ما كان منها غيرَ مقترِب
خَيْلُ الرسولِ من الفولاذ معدِنُها وسائر الخيل من لحمٍ ومن عصب
أفي ليالٍ تجوب الراسياتِ بها وتقطع الأرضَ من قُطْبٍ إلى قُطُب؟
سل الظلام بها: أيُّ المعاقل لم تَطفِر، وأيُّ حصونِ الروم لم تَثِب؟[٢٣]
آلت لئن لم تَرِد «أزميرَ» لا نزلتْ ماءً سواها، ولا حلَّت على عُشُب
والصبر فيها وفي فرسانها خُلُقٌ توارثوه أبًا في الروع بعد أب
كما وُلِدتُم على أعرافَها وُلِدَت في ساحة الحرب، لا في باحة الرَّحَب[٢٤]
حتى طلعتَ على «أزميرَ» في فلكٍ من نابه الذكر لم يَسمُك على الشُّهُب[٢٥]
في موكبٍ وقف التاريخ يَعرضه فلم يُكذِّب، ولم يذمِمْ، ولم يُرِب
يومٌ «كبدرٍ» فخيلُ الحق راقصةٌ على الصعيد، وخيل الله في السُّحُب
غُرٌّ، تظلِّلُها غرَّاءُ، وارفةٌ بَدريَّةُ العُودِ، والدِّيباجِ، والعَذب[٢٦]
نَشوى من الظفرَ العالي، مُرَنَّحةٌ من سَكْرة النصر، لا من سكرة النَّصَب
تذكَّر الأرض ما لم تنس من زيدٍ كالمِسك من جنبات (السَّكْب) مُنسكب[٢٧]
حتى تعالى أذانُ الفتح، فاتَّأدَت مَشْيَ المُجَلَّى إذا استولى على القصب

***

تحيةً — أيُّها الغازي — وتهنئةً بآية الفتح تبقى آية الحِقب
وقيِّمًا من ثناءٍ، لا كِفاءَ له إلا التعجبُ من أصحابك النُّجُب
الصابرين إذا حلَّ البلاءُ بهم كالليث عَضَّ على نابيْه في النُّوَب
والجاعلين سيوفَ الهند ألسنَهم والكاتبين بأطراف القنا السُّلُب[٢٨]
لا الصعبُ عندهمُ بالصعبِ مركبُه ولا المُحالُ بمستعصٍ على الطَّلب

ولا المصائبُ إذ يرمي الرجالُ بها ... بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَب
قُوَّاد معركةٍ، ورَّادُ مهلَكةٍ ... أوتادُ مملكةٍ، آسادُ مُحترب
بلوتهم، فتحدَّث: كم شَدَدْتَ بهم ... من مُضمَحِلَّ؟ وكم عمَّرت من خرب؟
وكم ثَلَمتَ بهم من مَعقِلٍ أَشِبٍ؟ ... وكم هزمتَ بهم من جَحْفَل لَجِب؟
وكم بنيتَ بهم مجدًا فما نبَسوا؟ ... في الهدم ما ليس في البنيان من صخب
مِنَ فَلَّ جيشٍ، ومن أنقاض مملكةٍ ... ومن بقية قومٍ جئتَ بالعجب[29]
أخرجتَ للناس من ذلَّ، ومن فشلٍ ... شعبًا وراءَ العوالي غيرَ مُنْشَعِب
لمَّا أتيتَ ببدرٍ من مطالعها ... تلفَّتَ البيتُ في الأستار والحجب
وهشَّت الروضةُ الفيحاءُ ضاحكةً ... إن المنوَّرة المسكيَة الترُب
وَمَسَّت الدارُ أزكى طيبِها، وأتت ... بابَ الرسول، فمسَّت أشرفَ العتب
وأَرَّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجازِ، وكم ... قضى اللياليَ لم يَنْعَمَ، ولم يَطِب
وأزَّيَّنتْ أمَهاتُ الشرق، واستبقت ... مهارجُ الفتحِ في المؤْشِيَّة القشُب
هَزَّت (دِمَشقُ) بني (أيوبَ)، فانتبهوا ... يهنئون (بني حمدانَ) في (حلب)
ومسلمو (الهند) و(الهندوسُ) في جَذَلٍ ... ومسلمو (مصر) والأقباطُ في طرب
ممالكُ ضمَّها الإسلامُ في رَحمٍ ... وشيجةٍ، وحواها الشرقُ في نسب[30]
من كل ضاحيةٍ ترمي بمكتحل ... إلى مكانكَ، أو ترمي بمختضب
تقول: لولا الفتى التركِّي حلَّ بنا ... يومٌ كيوم يهودٍ كان عن كَثَب

هوامش

(١) خالد الترك: يراد به الغازي مصطفى باشا كمال. وخالد العرب: هو خالد بن الوليد وله في الحروب الإسلامية صوت بعيد.

(٢) النصب: جمع نصاب، وهو الأصل والمرجع.

(٣) السرب: المسفوح.

(٤) الضمير في «بها»: للسلم بالكسر والفتح مؤنثة، بمعنى الصلح والسلام.

(٥) القرب: جمع قراب، وهو الغمد.

(٦) الضرب: القاطع.

(٧) الرقب: جمع رقيب، وهي الحيَّة الخبيثة. والمقصود بالداهية: عصمت باشا مندوب الترك في مؤتمر «لوزان»، والمشهور عنه أن في سمعه ضعفًا، لا تصل إليه إلا الأصوات العالية.

(٨) السمر: الرماح. والقضب: السيوف.

(٩) أهب: جمع إهاب.

(١٠) حينما ينكمش القنفذ ويتخشب يتسع ما بين شعراته من الانفراج بخلاف حالة الانبساط، فإن شعراته حينئذ تكون متضامة.

(١١) القرب: جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من أعمال البرِّ والطاعة.

(١٢) الشنب: الأبلج، من الشنب: وهو عذوبة الأسنان.

(١٣) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد أخرى. وعبر الوادي (بالفتح والكسر): شاطئه.

(١٤) دسر: جمع دسار، وهو المسمار، أو الخيط من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة.

(١٥) الإغريق: اليونان.

(١٦) اللبدة: شعر وبرة الليث، ويضرب بها المثل في المنعة، فيقال: أمنع من لبدة الأسد. والغيل: موضع الأسد. والأشب: الشائك المشتبك.

(١٧) لم يصب: من الصوب، أي المطر.

(١٨) الحزب: الشديد.

(١٩) الآتي: السيل.

(٢٠) الشرى: مأسدة يضرب بها المثل بجانب الفرات. والبيض: الخوذ. واليلب: الدروع.

(٢١) المحتقب: المدَّخر، ويقال: احتقب فلان الشيء، أي أدخره أو احتمله خلفه.

(٢٢) الصبب: ما انحدر من الأرض.

(٢٣) تطفر: من الطفور وهو الوثوب في ارتفاع، والطفرة كذلك: الوثبة.

(٢٤) الأعراف: جمع عرف، وهو شعر عنق الفرس.

(٢٥) لم يسمك: لم يرفع.

(٢٦) غرَّاء وارفة: يصف العلم «اللواء». والعذب. خرق الألوية.

(٢٧) السكب، فرس من أفراس النبي ﷺ.

(٢٨) السلب: جمع سلب، وهو الطويل.
(٢٩) الفل: واحد الفلول. وفلول السيف: كسور في حدِّه.
(٣٠) الرحم الوشيجة: المتَّصلة القرابة.

بعد المنفى[١]

أنادي الرسمَ لو ملك الجوابا وأجـزيـهِ بـدمـعـيَ لـو أثـابـا[١]

وقَلَّ لحقَّه العبراتُ تجري وإن كانت سَوادَ القلب ذابا

سبقنَ مُقبَّلاتِ التُّرْبَ عني وأدَّينَ التحيةَ والخطابا

فنثري الدمعَ في الدِّمن البوالي كنظمي في كواعبها الشَّبابا[٢]

وقفتُ بها كما شاءَت وشاءُوا وقوفًا عَلَّمَ الصبرَ الذّهابا

لها حَقٌّ، وللأحباب حقٌّ رشفتُ وصالَهم فيها حبابا[٣]

ومَنْ شكرَ المناجِمَ مُحسِناتٍ إذا التبرُ انجلى، شكر الترابا

وبين جوانحي وافٍ، أَلُوفٌ إذا لمح الديارَ مضى، وثابا

رأى مَيْلَ الزمان بها، فكانت على الأيام صحبتُه عتابا

* * *

وداعًا أرضَ أندلسٍ، وهذا ثنائي إن رَضيتِ به ثوابا

---

[١] كانت هذه القصيدة فاتحة شعر الشاعر بعد عودته من منفاه ببلاد الأندلس، وقد أشاد فيها بذكر تلك البلاد شكرًا لها وعرفانًا بجميلها، ثم انتقل إلى استقبال بلاده بعد تلك الغيبة الطويلة، وعرَّج على مسألة التموين التي كانت حينئذ شغل البلاد الشاغل، وقد أُنْشِدَت هذه القصيدة في اجتماع لجان التموين (بالأوبرا الملكية سنة ١٩٢٠).

وما أثنيتُ إلا بعد علمٍ ... وكم من جاهلٍ أثنى فعابا
تخِذْتُكِ موئلاً، فحللتُ أنْدَى ... ذرًا من وائلٍ، وأعزَّ غابا[4]
مُغرَّبُ آدمٍ من دار عَدْنٍ ... قضاها في حماكِ ليَ اغترابا[5]
شكرتُ الفُلكَ يومَ خَوَيْتِ رَحْلي ... فيا لمُفارِقٍ شَكَرَ الغُرَابا!!
فأنتِ أرحتِني من كل أنْفٍ ... كأنف الميْتِ في النَّزْع انتصابا
ومنظرِ كلَّ خوانٍ، يراني ... بوجه كالبَغِيِّ رمى النّقابا
وليس بعامرٍ بنيانُ قومٍ ... إذ أخلاقُهُم كانت خرابا

* * *

أحقٌّ كنتِ للزهراءِ ساحًا ... وكنتِ لساكن (الزاهي) رحابا؟
ولم تك (جورُ) أبهى منكِ وَرْدًا ... ولم تَكُ بابلٌ أشهى شرابا؟
وأن المجدَ في الدنيا رحيقٌ ... إذا طال الزمانُ عليه طابا؟
أولئك أمةٌ ضربوا المعالي ... بمشرقها ومغربها قِبابا
جرى كدرًا لهم صفوُ الليالي ... وغايةُ كلَّ صفو أن يُشابا
مُشيبَّةُ القُرون أُديلَ منها ... ألم تَرَ قَرْنَها في الجوِّ شابا؟[6]
مُعَلَّقةٌ تنَظَّرُ صولجانًا ... يخرُّ عن السماءِ بها لِعابا
تُعَدُّ بها على الأممِ الليالي ... وما تدري السنينَ ولا الحسابا

* * *

ويا وطني، لقيتُك بعد يأسٍ ... كأني قد لَقِيتُ بك الشبابا
وكلُّ مسافرٍ سَيَئُوبُ يومًا ... إذا رُزقَ السلامةَ والإيابا
ولو أني دُعيتُ لكنتَ دِيني ... عليه أقابل الحتمَ المُجابا[7]
أديرُ إليكَ قبلَ البيتِ وجهي ... إذا فهتُ الشهادةَ والمتابا
وقد سَبقتْ ركائبيَ القوافي ... مُقلَّدَةً أزِمَّتَهَا، طرابا
تجوبُ الدَّهرَ نحوكَ، والفيافي ... وتقتحمُ اللياليَ، لا العُبابا
وتُهديك الثناءَ الحرَّ تاجًا ... على تاجَيْكَ مُؤتلقًا عُجابا

* * *

هدانا ضوءُ ثغرِكَ من ثلاثٍ … كما تهدي (المنوَّرةُ) الركابا
وقد غَشِي المنارُ البحرَ نورًا … كنار (الطُّور) جَلَّلِت الشِّعابا[8]
وقيل: الثَّغْرُ، فاتَّأدتْ، فأرْست … فكانت من ثراكَ الطُّهرِ قابا
فصفحًا للزمان لصبحِ يومٍ … به أضحى الزمانُ إليَّ ثابا
وحيًّا الله فِتيانًا سِماحًا … كَسَوْا عِطْفيَّ من فخرٍ ثيابا
ملائكة إذا حفُّوكَ يومًا … أحبَّكَ كلُّ من تلَّقى، وهابا
وإن حملتْكَ أيديهم بحورًا … بلغتَ على أكُفِّهِمُ السحابا
تَلَقَّوْني بكل أغرَّ زاهٍ … كأن على أسِرَّته شهابا
ترى الإيمان مؤتلقًا عليه … ونورَ العلم، والكرمَ اللُّبابا[9]
وتلمحُ من وضاءَةِ صفحتَيْهِ … مُحيًّا مِصرَ رائعةٌ كَعابا[10]
وما أدبي لما أَسْدَوْه أهلٌ … ولكن مَنْ أحبَّ الشيءَ حابى
شبابَ النيل، إن لكم لصوتًا … مُلَبًّى حين يُرفعُ، مُستجابا
فهُزُّوا (العرشَ) بالدعوات حتى … يخفِّفَ عن كنانِته العذابا
أمِنْ حربِ البسوسِ، إلا غَلاءٍ … يكادُ يُعيدُها سبعًا صِعابا؟
وهل في القومِ يوسفُ يتَّقيها … ويُحسنُ حِسبةً، ويرى صوابا؟[11]
عبادكَ — رَبِّ — قد جاعوا بمصرٍ … أنيلاً سُقْتَ فيهم، أم سَرابا؟
حنانَكَ، واهدِ للحسنى تِجارًا … بها ملكوا المرافِقَ والرقابا
ورقِّقْ للفقير بها قلوبًا … مُحجَّرةً، وأكبادًا صِلابا
أمَنْ أكلَ اليتيمَ له عقابٌ … ومن أكل الفقيرَ فلا عقابا؟
أُصيبَ من التجار بكل ضارٍ … أشدَّ من الزمان عليه نابا
يكاد إذا غَذَاه، أو كساه … ينازعه الحشاشةَ والإهابا[12]
وتسمعُ رحمةً في كل نادٍ … ولستَ تحِسُّ للبرَّ انتدابا
أكلٌّ في كتاب الله إلاَّ … زكاةَ المال ليست فيه بابا؟
إذا ما الطامعون شَكَوْا وضجُّوا … فدعهمُ، واسمع الغرْثى السغابا[13]
فما يبكون من ثُكْلٍ، ولكن … كما تصفُ المعدِّدةُ المصابا
ولم أر مثل سوقِ الخيرِ كَسْبًا … ولا كتجارةِ السوءِ اكتسابا
ولا كأولئك البؤساءِ شاءً … إذا جرَّعتها انتشرَتْ ذئابا
ولولا البِرُّ لم يُبعثْ رسولٌ … ولم يَحمِلْ إلى قومٍ كتابا

هوامش

(١) الرسم: ما كان بالأرض من آثار الدار.

(٢) الدِّمن: آثار الديار. والكواعب من الجواري ناهدات الثدى، والمراد بها هنا: الديار قبل أن تستحيل إلى دمن.

(٣) رشف الماء: مصَّه بشفتيه. والحباب الحبب.

(٤) وائل: طلب النجدة. والموئل: الملجأ. ووائل: جبل، وسُمِّيت به قبيلة من العرب.

(٥) إن الله الذي أخرج آدم من الجنة ليجعل الأرض منفاه، قد قضى عليَّ أن يكون منفاي في جنة من حماك، وهذه مبالغة من الشاعر في تكريم هذه البلاد التي آوته وهو غريب.

(٦) أدال الله فلانًا من فلان: نزع الدولة من الثاني وحوَّلها إلى الأول، والكلام على الشمس.

(٧) دُعِيت إلى الموت: نوديت. والحتم المجاب: هو الموت.

(٨) جلل الشيء: غطاه.

(٩) اللباب: الخالص.

(١٠) الوضاءة: الحسن والنظافة.

(١١) الحسبة: الحساب.

(١٢) الحشاشة: بقية الروح في المريض.

(١٣) الغرثى: جمع غرثان، وهو الجائع. والسغاب: جمع ساغب، وهو الجائع أيضًا.

ذكرى المولد

سلُوا قلبي غداةَ سلا وثابا
لعلَّ على الجمالِ له عِتابَا

ويُسْألُ في الحوادثِ ذو صوابٍ
فهل ترك الجمالُ له صوابا؟

وكنتُ إذا سألتُ القلبَ يومًا
تولَّى الدمعُ عن قلبي الجوابا

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ
هما الواهي الذي ثكِلَ الشبابا[1]

تسرَّب في الدموعِ فقلتُ: ولَّى
وصفَّق في الضلوع، فقلتُ: ثابا[2]

ولو خُلقت قلوبٌ من حديد
لما حَملتْ كما حَمل العذابا

وأحبابٍ سُقيتُ بهم سُلافًا
وكان الوصلُ من قِصَرٍ حَبابا[3]

ونادَمْنا الشبابَ على بِساطٍ
من اللذات مختلفٍ شرابا

وكلُّ بساطِ عيشٍ سوف يُطوى
وإن طال الزمانُ به وطابا

كأن القلبَ بَعدهُم غريبٌ
إذا عادَتْه ذكرى الأهِل ذابا

ولا يُنْبِيكَ عن خُلُقِ الليالي
كمن فقد الأحِبَّةَ والصَّحابا

أخا الدنيا، أرى دنياكَ أفْعَى
تُبدّل كلَّ آونةٍ إهابا

وأن الرُّقْطَ أيْقَظُ هاجعاتٍ
وأَتْرعُ في ظلالِ السلم نابا[4]

ومِن عجبٍ تُشيِّب عاشِقيها
وتُفنيهم، وما بَرحت كَعابا[5]

فمن يغترّ بالدنيا فإني
لبستُ بها فأبليتُ الثيابا

لها ضَحِكُ القِيانِ إلى غَبيٍّ
ولي ضحكُ اللبيبِ إذا تغابى[6]

جنيتُ برَوْضِها وردًا، وشوكًا
وذقتُ بكأسِها شُهْدًا، وصابا

فلم أر غيرَ حكمِ الله حكمًا
ولم أرَ دون بابِ الله بابا

ولا عظَّمْتُ في الأشياءِ إلاَّ ... صحيحَ العلم، والأدبَ اللُّبابا[7]
ولا كرَّمتُ إلاَّ وجهَ حُرٍّ ... يُقلَّد قومَه المِننَ الرِّغابا[8]
ولم أر مثلَ جمعِ المال داءً ... ولا مثلَ البخيلِ به مُصابا
فلا تقتلْك شهوتُه، وزِنْها ... كما تزنُ الطعامَ أو الشرابا
وخُذْ لبنيك والأيامِ ذخرًا ... وأعطِ الله حِصَّتَه احتسابا[9]
فلو طالعتَ أحداثَ الليالي ... وجدتَ الفقرَ أقربَها انتِيابا[10]
وأن البرَّ خيرٌ في حياةٍ ... وأبقى بعد صاحبِه ثوابا
وأن الشرَّ يصدعُ فاعلِيه ... ولم أر خيِّرًا بالشرِّ آبا
فرِفقًا بالبنينِ إذا الليالي ... على الأعقاب أوقعتِ العقابا
ولم يتقلَّدوا شكرَ اليتامى ... ولا أدَّرعوا الدعاءَ المستجابا[11]
عجبتُ لمعشرٍ صلُّوا وصاموا ... عواهرَ، خشيةً وتُقَى كِذابا[12]
وتُلفيهم حِيالَ المالِ صُمًّا ... إذا داعِي الزكاةِ بهم أهابا[13]
لقد كتموا نصيبَ الله منهُ ... كأن الله لم يُحَصِ النَّصابا
ومَنْ يَعْدِلْ بحبَّ اللهِ شيئًا ... كحبَّ المالِ، ضَلَّ هوًى وخابا
أرادَ الله بالفقراءِ بِرًّا ... وبالأيتام حُبًّا وارتبابا[14]
فرُبَّ صغيرِ قومٍ علَّموه ... سَمَا وحَمى المُسوَّمَةَ العِرابا[15]
وكان لقومه نفعًا وفخرًا ... ولو تركوه كان أذًى وعابا[16]
فعلِّم ما استطعت، لعلَّ جيلاً ... سيأتي يُحدِثُ العَجَبَ العُجابا
ولا تُرهقْ شبابَ الحيَّ يأسًا ... فإن اليأسَ يخترمُ الشبابا[17]
يريد الخالقُ الرزقَ اشتراكًا ... وإن يكُ خصَّ أقوامًا وحابى[18]
فما حَرمَ المُجِدَّ جَنَى يديه ... ولا نِسَي الشقيَّ، ولا المُصابا[19]
ولولا البخلُ لم يَهْلِكْ فريقٌ ... على الأقدار تلقاهُم غِضابا
تعبتُ بأهله لَوْمًا، وقبلي ... دُعاةُ البِرَّ قد سئموا الخطابا
ولو أني خطبتُ على جمادٍ ... فَجَرْتُ به الينابيعَ العِذابا
ألم تَرَ للهواءِ جرى فأفضى ... إلى الأكواخ، واخترق القبابا؟[20]
وأن الشمسَ في الآفاق تَغشى ... حِمى كِسْرَى، كما تغشى اليبابا؟[21]
وأن الماءَ تروي الأسْدُ منهُ ... ويَشفِي من تَلَعْلُعِها الكلابا؟[22]

وسَـوَّى الـلـه بـيـنـكـمُ الـمـنـايـا   ووسَّـدَكُـم مـع الـرسْـلِ الـتـرابـا[٢٣]
وأرسَـلَ عـائـلاً مـنـكـم يـتـيـمًـا   دنـا من ذي الجلال فكانَ قابا[٢٤]
نـبـيُّ الـبـرِّ، بَـيَّـنَـهُ سـبـيـلاً   وسنَّ خِلالَه، وهَدى الشِّعابَا[٢٥]
تفرَّق بعدَ عيسى الناسُ فيه   فـلـمَّـا جـاءَ كـان لـهـم مَـتـابـا[٢٦]
وشافي النفسِ من نزَعاتِ شرٍّ   كشافٍ من طبائعها الذئابا[٢٧]
وكـان بـيـانُـه لـلـهـدْيِ سُـبْـلاً   وكـانـت خَـيْـلُـه لـلـحـق غـابـا
وعَلَّـمنـا بِـنـاءَ الـمـجْـدِ، حـتـى   أخـذنـا إمْـرَةَ الأرضِ اغـتـصـابـا
ومـا نـيـلُ الـمـطـالـب بـالـتـمـنِّـي   ولـكـن تـؤخَـذُ الـدنـيـا غِـلابـا[٢٨]
ومـا اسـتـعـصـى عـلـى قـومٍ مَـنـالٌ   إذا الإقـدامُ كـان لـهـم رِكـابـا

* * *

تـجـلَّـى مـولـد الـهـادي، وعـمَّـت   بـشـائـرُه الـبـواديَ والـقِـصـابـا[٢٩]
وأسـدَتْ لـلـبـريـةِ بـنـتُ وَهْـبٍ   يـدًا بـيـضـاءَ، طـوَّقـت الـرقـابـا[٣٠]
لـقـد وضـعـتـه وهَّـاجًـا، مـنـيـرًا   كـمـا تـلـدُ الـسـمـاواتُ الـشـهـابـا[٣١]
فـقـام عـلـى سـمـاءِ الـبـيـتِ نـورًا   يـضـيءُ جـبـالَ مـكـة والـنـقـابـا[٣٢]
وضـاعـت يَـثْـرِبُ الـفـيـحـاءُ مِـسْـكًـا   وفـاحَ الـقـاعُ أرجـاءً وطـابـا[٣٣]
أبـا الـزهـراءِ، قـد جـاوزتُ قـدري   بـمـدحـك، بَـيْـدَ أن لِـيَ انـتـسـابـا
فـمـا عـرفَ الـبـلاغـة ذو بـيـانٍ   إذا لـم يَـتَّـخِـذْكَ لـه كـتـابـا
مـدحـتُ الـمـالـكـيـن، فـزدتُ قـدرًا   فـحـين مـدحُـتكَ اقْـتـدْتُ الـسـحـابـا
سـألـتُ الـلـه فـي أبـنـاءِ ديـنـي   فـإن تـكـن الـوسـيـلـةَ لـي أجـابـا
ومـا لـلـمـسـلـمـيـن سـواكَ حـسـنٌ   إذا مـا الـضـرُّ مـسَّـهُـم ونـابـا
كأن النحسَ حين جرى عليهم   أطـارَ بـكـل مـمـلـكـةٍ غُـرابـا
ولـو حـفـظـوا سـبـيـلـك كـان نـورًا   وكان من النحوس لهم حجابا
بـنـيْـتَ لـهـم مـن الأخـلاق ركـنًـا   فخانوا الركن، فانهدم اضطرابا
وكـان جَـنـابُـهـم فـيـهـا مَـهـيـبًـا   ولَـلأخـلاقُ أجـدرُ أن تُـهـابـا
فـلـولاهـا لـسـاوى الـلـيـثُ ذئـبًـا   وساوى الصارمُ الماضي قِرابا[٣٤]
فـإن قُـرنـت مـكـارمُـهـا بـعـلـمٍ   تـذلَّـلـت الـعـلا بـهـمـا صـعـابـا
وفـي هـذا الـزمـان مَـسـيـحُ عـلـمٍ   يـردُّ عـلـى بـنـي الأمـم الـشـبـابـا

هوامش

(١) الواهي: الضعيف. وثكل الشباب: فقده. والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.

(٢) ثاب: رجع بعد ذهاب.

(٣) السلاف: خالص الخمر. وحباب الماء: نفاخاته التي تعلوه.

(٤) الرقط: جمع رقطاء، وهي الحية على جلدها سواد مشوب بالبياض. وأترع: أسرع إلى الشرِّ.

(٥) الكعاب: الجارية: الجارية الناهد.

(٦) القيان: جمع قينة، وهي الأَمَة المغنية.

(٧) اللباب: المختار الخالص.

(٨) الأرض الرغاب: التي لا تسيل إلا من مطر كثير.

(٩) احتسب عند الله أمرًا: قدَّمه.

(١٠) انتابه: أتاه مرَّة بعد أخرى.

(١١) ادَّرع: ليس الدرع.

(١٢) الكذاب: الكذب.

(١٣) أهاب به: دعاه.

(١٤) ارتبَّ الصبي ارتبابًا: ربَّاه حتى أدرك.

(١٥) الخيل المسوَّمة: المرعية. والخيل العراب: الكرائم.

(١٦) العاب: العيب.

(١٧) أرهقة طغيانًا: أغشاه إيَّاه. ويخترم الشباب: يستأصله.

(١٨) حاباه: اختصَّه ومال إليه.

(١٩) الجنى: ما نجني من الشجر.

(٢٠) أفضى: بلغ.

(٢١) اليباب: القفر.

(٢٢) تلعلع الكلب: دلع لسانه عطشًا.

(٢٣) سوى: جعلكم فيها سواءً.

(٢٤) عائلاً: فقيرًا. وقاب القوس: ما بين المقبض والسيَّة، والمراد أنه كان قريبًا.

(٢٥) الشعاب: الطرق.

(٢٦) الضمير في «فيه» يعود على البر.

(٢٧) النزغات: الوساوس.

(٢٨) غلابًا: قهرًا.

(٢٩) القصابا: جمع قصبة، وهي المدينة.

(٣٠) بنت وهب: السيدة آمنة، أمه ﷺ.

(٣١) الشهاب: الكوكب.

(٣٢) نقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الجبل.

(٣٣) ضاع المسك: تحرَّك فانتشرت رائحته.

(٣٤) الصارم: السيف. والقراب: الغمد.

مشروع ملنر[١]

اِثْنِ عنانَ القلبِ، واسْلَمْ به … من رَبرْبِ الرملِ، ومن سِرْبِهِ[١]

ومِن تثنِّي الغِيدِ عن بانِه … مُرتَجَّةَ الأردافِ عن كُثْبه[٢]

ظِباؤه المنكسِراتُ الظبَا … يَغْلِبْنَ ذا اللبَّ على لُبَّه[٣]

بيضٌ، رِقاق الحسن في لمحةٍ … من ناعم الدرَّ، ومن رَطْبِه

ذوابلُ النرجسِ في أصلِه … يَوانعُ الوردِ على قُضْبَه

زِنَّ على الأرض سماءَ الدُّجى … وزدْن في الحسن على شُهْبه

يمشين أسرابًا، على هِينةٍ … مشيَ القطا الآمِنِ في سِربه[٤]

من كلَّ وَسْنانٍ بغير الكرى … تنتبهُ الآجالُ من هُدْبه

جَفنٌ تلقَّى مَلَكا بابلٍ … غرائبَ السحرِ على غَرْبه[٥]

يا ظَبْيَةَ الرملِ، وُقِيت الهوى … وإن سعتْ عيناكِ في جَلبه

---

[١] في سنة ١٩١٩ ثارت البلاد في طلب استقلالها، وسافر الوفد المصري لعرض قضية البلاد في مؤتمر السلام في «فرساي»، وتلقَّى هناك دعوة من لورد «ملنر» وزير المستعمرات الإنكليزية إذ ذاك؛ ليتفق معه على مركز البلاد وتحديد علاقة إنكلترا بها، فتمخضت المحادثات بينهما عن مشروع قدَّمه لورد ملنر، واتفق مع الوفد على عرضه على البلاط لأخذ رأيهما فيه مع التزام الحيدة؛ فانتدب الوفد أربعة من أعضائه للقيام بهذه المهمة، وقد كانت الأفكار يومئذ متَّجهة إلى ان المشروع يصلح أساسًا للمفاوضة ببعض تعديلات.

ولا ذرَفتِ الدمع يومًا، وإن أسرفتِ في الدمع، وفي سكبه
هذي الشواكي النُّحْلُ صِدْنَ امْرًأ مُلْقَى الصِّبا، أعزلَ من غرْبه[٦]
صيَادَ آرام، رماه الهوى بشادنٍ لا بُرءَ من حُبَّه[٧]
شابٌ، وفي أضلُعه صاحبٌ خِلْوٌ من الشيب، ومن خَطبِه[٨]
واهٍ بجنبي، خافقٌ، كلَّما قلتُ: تناهَى، لَجَّ في وثبِه
لا تنثني الآرامُ عن قاعِه ولا بناتُ الشوْقِ عن شِعبه[٩]
حمَّلتُه في الحبِّ ما لم يكن ليحملَ الحبُّ على قلبه
ما خفَّ إلاَّ للهوى والعلا أو لجلال الوفد في رَكبه
أربعةٌ تجمعهم همةٌ ينقلُها الجيل إلى عَقبه[١٠]
قِطارُهم كالقَطر هَزَّ الثرى وزاده خِصبًا على خِصبه[١١]
لولا استلامُ الخلقِ أرْسانه شبَّ، فنال الشمسَ من عُجبه[١٢]
كُلُّهُمُ أغيرُ من وائلٍ على حِماه، وعلى شعبه[١٣]
لو قدَرُوا جاءُوكُمُ بالثرى من قُطبِه مُلكًا إلى قُطبه
وما اعتراضُ الحظِّ دون المنى من هفوةِ المُحْسِن أو ذنبه
وليس بالفاضلِ في نفسهِ من يُنكر الفضل على ربِّه
ما بالُ قومي اختلفوا بينهم في مِدحةِ المشروع أو ثَلبه؟[١٤]
كأنهم أسرى، أحاديثُهم في لَيَّن القيد، وفي صُلبه
يا قومِ، هذا زمنٌ قد رمَى بالقيْدِ، واستكبر عن سَحبه[١٥]
لو أنَّ قيدًا جاءَه من عَل خشيتُ أن يأبى على ربه
وهذه الضجةُ من ناسِه جنازةُ الرِّق إلى تُربه
من يخلع النَّيرَ يَعشْ بُرهةً في أثر النَّير، وفي ندبه[١٦]
يا نَشأَ الحيِّ، شبابَ الحِمَى سُلالةَ المشرق من نُخْبه[١٧]
بني الأول أصبحَ إحسانُهم دارت رحَى الفنّ على قطبه
موسى وعيسى نشآ بينهم في سَعَة الفِكر وفي رُحْبه
وعالجَا أولَ ما عالجا من عللِ العالَم أو طبَّه[١٨]
ما نَسيَتْ مصرُ لكم برَّها في حازِبِ الأمر وفي صعبه[١٩]
مزّقتمُ الوهْمَ، وألفتمُ أهلَّةَ الله على صُلبه

حتى بنيتمْ هرمًا رابعًا — من فِئةِ الحقِّ ومن حزبه
يومٌ لكم يَبقى (كبدرٍ) على — أنصار سعدٍ، وعلى صحبه[٢٠]
قد صارت الحالُ إلى جِدِّها — وانتبه الغافلُ من لعبه
اللَّيْثُ، والعالمُ من شرقه — في هيبة الليثِ إلى غربه[٢١]
قضى بأن نبني على نابه — مُلك بَنينا، وعلى خِلبه[٢٢]
ونبلُغَ المجدَ على عينه — وندخل العصرَ إلى جَنبه
ونصلَ النازلَ في سلمه — ونقطعَ الداخلَ في حربه
ونصرفَ النيلَ إلى رأيه — يَقْسِمُه بالعدل في شِرْبِه[٢٣]
يُبيحُ أو يَحمي على قُدْرةٍ — حقَّ القُرى والناس في عذبه
أمرٌ عليكم أو لكم في غد — ما ساءَ أو ما سَرَّ من غبِّه[٢٤]
لا تستقِلُّوه، فما دهرُكم — بحاتم الجود ولا كعبه[٢٥]
نسمعُ بالحقِّ، ولم نطَّلعْ — على قَنا الحقِّ، ولا قُضبْه[٢٦]
ينال باللين الفتى بعضَ ما — يعجز بالشدَّة عن غصبْه
فإن أنستم فليكن أنسُكم — في الصبر للدهر، وفي عَتبه
وفي احتشام الأُسْدِ دون القَذَى — إذا هي اضطُرَّت إلى شرُبِه[٢٧]
قد أسقط الطَّفرْةَ في ملكه — من ليس بالعاجز عن قلبه[٢٨]
يا رُبِّ قيدٍ لا تُحبّونه — زمانُكم لم يتقيَّدْ به
ومطلبٍ في الظنَّ مستبعدٍ — كالصبح للناظرِ في قربه
واليأسُ لا يجمُلُ من مؤمن — ما دام هذا الغيبُ في حُجْبه

هوامش

(١) الربرب: القطيع من بقر الوحش. والسرب (بكسر السين): جماعة الظباء أو النساء.

(٢) الغيد: جمع غيداء، وهي المرأة اللينة الأعطاف. والبان: شجر يُشبَّه به القدُّ لطوله. والكثب: جمع كثيب، وهو التل من الرمل، يُشبَّه به الردف.

(٣) الظبا: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف.

(٤) الهينة (بالكسر): السكينة والوقار.

(٥) هاروت وماروت: الملكان اللذان أنزل عليهما السحر. وغرب العين: مقدمها أو مؤخرها. والغرب: السيف: وعلى المعنى يكون المراد بالجفن: غمد السيف.

(٦) الشواكي: المسلحة. وغرب الشباب: حدَّته ونشاطه.

(٧) آرام: جمع رئم، وهو الظبي الخالص البياض. والشادن: ولد الظبية.

(٨) صاحب: يريد القلب.

(٩) القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام. والشعب (بالكسر): الناحية.

(١٠) يريد بالأربعة: الأعضاء المندوبين لعرض المشروع. والعقب الولد، وولد الولد.

(١١) القطر: المطر.

(١٢) أرسان: جمع رسن، وهو الزمام.

(١٣) وائل:قبيلة من العرب.

(١٤) ثلبه: عيبه وتنقصه.

(١٥) السحب: الجرُّ على الأرض.

(١٦) النير: الأخشبة المعترضة في عنق الثورين بأداتها، وتعرف عند العامة (بالناف). والندب: جمع ندبة، وهي أثر الجرح الباقي على الجلد.

(١٧) النجب: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب.

(١٨) الطب الشهوة، وهو أيضًا علاج الجسم والنفس.

(١٩) حازب الأمر: شديده.

(٢٠) بدر: أكبر وقعة انتصر فيها الإسلام على أعدائه.

(٢١) الليث: الأسد البريطاني، وهنا يبدأ الشاعر في سرد نقط المشروع الهامة.

(٢٢) الخلب (بالكسر): الظفر.

(٢٣) الشرب (بالكسر): النصيب من الماء.

(٢٤) الغب: العاقب.

(٢٥) حاتم طيئ وكعب بن مامة: من أجواد العرب.

(٢٦) القنا: الرماح. والقضب: السيوف.

(٢٧) احتشام: إحجام.

(٢٨) الطفرة: الوثبة في ارتفاع. وأسقط الطفرة: تركها. وقلب الملك: تبديله وتغيير نظامه.

مشروع ٢٨ فبراير

أُعِدَّت الراحةُ الكبرى لمَنْ تعبا … وفاز بالحقِّ من لم يألُهُ طلبا[١]
وما قضت مصرُ من كلٍّ لُبانتَها … حتى تجرَّ ذيولَ الغبطِة القُشبا[٢]
في الأمرِ ما فيه من جِدٍّ، فلا تقفوا … من واقع جزعًا، أو طائر طربا[٣]
لا تُثْبِتُ العينُ شيئًا، أو تُحقِّقه … إذا تحيَّرَ فيها الدمعُ واضطربا[٤]
والصبحُ يُظلم في عينيك ناصعُهُ … إذا سدلتَ عليكَ الشكَّ والريبا[٥]
إذا طلبتَ عظيما فاصبرنَّ له … أو فاحشدنَّ رماح الخطِّ والقُضُبا[٦]
ولا تعِدَّ صغيراتِ الأمورِ له … إن الصغائرَ ليست للعلا أهُبا[٧]
ولن ترى صحبةً تُرضى عواقبُها … كالحقِّ والصبرِ في أمر إذا اصطحبا[٨]
إن الرجالَ إذا ما أُلْجِئوا لَجَئُوا … إلى التعاون فيما جَلَّ أو حَزَبا[٩]
لا ريبَ أن خُطا الآمالِ واسعةٌ … وأن ليلَ سُراها صُبْحُهُ اقتربا[١٠]

* * *

وأن في راحتْى مصرٍ وصاحبها … عهدًا وعقدًا بحقٍّ كان مغتصبا[١١]
قد فتَّحَ الله أبوابًا، لعل لنا … وراءَها فُسَحَ الآمالِ والرحبا[١٢]
لولا يدُ الله لم ندفع مناكبَها … ولم نعالج على مصراعِها الأربا[١٣]
لا تعدمُ الهمةُ الكبرى جوائِزَها … سِيَّانِ من غَلَب الأيام أو غُلبا[١٤]
وكلُّ سَعْيٍ سيجزي الله سَاعيَهُ … هَيهاتَ يذهبُ سعْيُ المحسنين هَبا[١٥]
لم يُبرمِ الأمرَ حتى يستبينَ لكم … أساءَ عاقبةً، أمْ سَرَّ مُنقلبَا![١٦]

نـلـتـم جـلـيـلاً، ولا تـعـطـونَ خـردلـةً ... إلا الـذي دفـع الـدسـتـورُ أو جَـلـبـا[١٧]

تـمـهَّـدتْ عـقـبـاتٌ غـيـرُ هـيـنـةٍ ... تلقى ركابُ السُّرى من مثلها نصبًا[١٨]

وأقـبـلـتْ عـقـبـاتٌ لا يـذلـلـهـا ... في موقف الفصل إلا الشَّعبُ مُنتخبًا

لـه غـدًا رأيُـه فـيـهـا وحِـكـمـتُـه ... إذا تـمـهّـل فـوق الـشـوكِ أو وثـبـا[١٩]

كم صعَّب اليومُ من سهل هممتَ به ... وسهَّل الغدُ في الأشياءِ ما صعُبا[٢٠]

ضمُّوا الـجـهـودَ، وخـلـوهـا مـنـكَّـرةً ... لا تملَئوا الشَّدْقَ من تعريفها عجبا

أفـي الـوغـى ورحَـى الـهـيـجـاءِ دائـرةٌ ... تُحصون من مات أو تُحصون ما سُلبا؟[٢١]

خـلُّـوا الأكـالـيـل لـلـتـاريـخ، إن لـه ... يـدًا تـؤلِّـفـهـا دُرًّا ومـخـشَـلَـبـا[٢٢]

أمـرُ الـرجـالِ إلـيـه، لا إلـى نـفـرٍ ... مـن بـيـنـكـم سَـبـق الأنـبـاءَ والـكـتـبـا

أملى عليه الهوى والحقدُ، فاندفعت ... يـداه تـرتـجـلانِ الـمـاءَ والـلـهَـبـا[٢٣]

إذا رأيـتَ الـهـوى فـي أمّـةٍ حـكـمًـا ... فـاحـكـمْ هـنـالـك أن الـعـقـلَ قـد ذهـبـا

قـالوا: الـحـمـايـة زالـت، قلتُ: لا عجبٌ ... بل كان باطلُها فيكم هو العجبا

رأسُ الـحـمـايـة مـقـطـوعٌ، فلا عَـدِمَـتْ ... كـنـانـةُ الـلـه حـزْمًـا يـقـطـع الـذنَـبـا

لـو تـسـألـون (ألِـنْـبـى) يـوم جَـنْـدَلَـهـا: ... بـأيَّ سـيـفٍ عـلـى يـافـوخـهـا ضـرَبـا؟[٢٤]

أبـا لـذي جـرَّ يـومَ الـسـلّـمِ مُـتَّـشِـحًـا ... أم بـالـذي هـزَّ يـومَ الـحـربِ مُـخـتـضِـبـا؟

أم بـالـتـكـاتُـفِ حـول الـحـق فـي بـلـد ... من أربعين ينادِي الويلَ والحربا؟[٢٥]

يـا فـاتـحَ الـقـدس، خَـلِّ الـسـيـفَ نـاحـيـةً ... ليس الصليبُ حديدًا كان، بل خشبا

إذا نـظـرتَ إلـى أيـن انـتـهـت يـدُهُ ... وكـيـف جـاوز فـي سـلـطـانـه الـقُـطُـبـا

عـلـمـت أن وراءَ الـضـعـف مـقـدرةً ... وأنَّ لـلـحـق — لا لـلـقـوةِ — الـغـلـبـا

هوامش

(١) لم يأل: لم يقصِّر.. قال تعالى: ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ وهذا البيت من الحكم الغالية التي لا تتاح لغير أمير الشعراء، فكم وراء جهاد الحياة من راحة وكم وراء الضعف من قوة.

(٢) اللبانة: الحاجة. والقشب: جمع قشيب: الجديد. وفي هذا البيت استفزاز للهمم وبيان؛ لأن سبيل المجد طويل وميدانه متَّسع.

(٣) الجدُّ: الاجتهاد في الأمر. وفي هذا البيت نوع من البيان المربي للأمم في نهوضها، فكثيرًا ما يستفزُّ الطرب أناسًا فيطير بهم، أو يستحكم اليأس منهم فيرديهم.

(٤) تثبت العين: تصحح، وفي هذا البيت تصوير للتردُّد والذعر والهلع والشك الذي يصيب الإنسان من أموره فلا يستطيع الاهتداء، ولا يستبين طريق الصواب.

(٥) الريب: جمع ريبة، مثل سدرة وسدر: الظن. وكم من رجل تسدُّ أمامه كوى الحياة وتضيق عليه الأرض بما رحبت ولا سبب لهذا إلا الشكوك والأوهام.

(٦) الخطُّ: موضع باليمامة ينسب إليه على لفظه، فيقال: رماح خطية، والرماح لا تنبت به ولكنه ساحل للسفن التي تحمل القنا إليه وتعمل به. وقال الخليل: إذا جعلت النسبة اسمًا لازمًا قلت: خطية (بكسر الخاء) ولم تذكر الرماح وهذا كما قالوا: ثياب قبطية (بالكسر) فإذا جعلوه اسمًا حذفوا الثياب وقالوا قبطيًا (بالضم) فرقًا بين الاسم والنسبة، وما أحسن أن تنتشر هذه الحكم بين أفراد أمتنا الناهضة حتى تعرف حقوقها وواجباتها.

(٧) أهبك جمع إهاب ككتاب وكتب والإهاب: الجلد.

(٨) بيَّن في هذا البيت شاعرنا نوعًا من أنواع الصحبة هو خيرها وهو وحده المحمود عواقبه، وذلك النوع هو أن يصحب الحق — وهو السمح الكريم — صبر جميل على وثبات الباطل حتى يدمغه فإذا هو زاهق، والصبر من خير الفضائل التي هي جماع كل خير، ولهذا ذكر في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وروي أنه كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يوصي كل منهما أخاه بالصبر والحق.

(٩) أُلْجِئُوا: اضطروا وأكرهوا. ولجئوا: اعتصموا. وجل الشيء يجل (بالكسر) عظم، فهو جليل. وحزبهم الأمر يحزبهم من باب قتل أصابهم. ولعمري أن المفزغ الوحيد عند وثبات الأحداث إنما هو في الاعتصام بالتعاون والقضاء على التحزُّب.

(١٠) السرى: جمع سرية (بضم السين وفتحها)، يقال: سرينا سُرية من الليل، وسِرية.. قال أبو زيد: ويكون السرى أول الليل وأوسطه وآخره، وقد استعملت العرب سرى في المعاني تشبيهًا لها بالأجسام مجازًا واتساعًا، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. وكأن الشاعر أراد حفز الهمم وشحذ العزائم لاجتلاء صبح الآمال.

(١١) الراحة: بطن الكف، والجمع راحات وراح. قصد الشاعر في هذا البيت أن مصر أصبح بين يديها عهد جديد، وأن في يد مليكها عقدًا وثيقًا، ومظهر كله استقلال البلاد الذي أعلنه جلالة الملك بعد أن عدا العادي زمنًا طويلاً عليه.

(١٢) فسح: جمع فسحة، مثل غرفة وغرف. والرحب: جمع رحبة، مثل قصبة وقصب، وهي الساحة المنبسطة.

(١٣) يدُّ الله: قدرة الله. والمناكب: جمع منكب كمجلس، وهو مجتمع رأس العضد والكتف. وعالج الأمر: باشره بمشقة. والمصراع من الباب: الشطر. والأرب: الحاجة. ولقد شاء الشاعر أن يصوِّر جهاد الأمة وقد دجا ليل الحوادث، واستأسد العادي، والأمة تصابره، وتدافع الخطوب، وتلقي عنها نيرها، وتريد الإفلات من عنتها إلى حيث أبواب النصر.

(١٤) ما أحسن أن يودع الشاعر في ثنايا هذا البيت الأمل الواسع يدركه ذو الهمة الكبيرة ولو بعد حين.

(١٥) في هذا البيت شفاءٌ لما يصيب النفوس من ألم الإخفاق وصدمات الأيام، فلئن أعيا الإنسان شأن تلك الحياة فلن يعدل الخير العميم في دار النعيم؛ وبذلك يعدُّ المرء بإحدى الحسنيين، وأن يذهب العرف بين الله والناس.

(١٦) لقد شاء أن تقيس الأمة أمرها بمقياس صحيح حتى تتجاوز الخطل.

(١٧) وفي هذا البيت أراد أن يضع بين يدي الأمة كل دقيق وجليل من أمرها، حتى تستبين حقيقة أمرها، فقال: إن ما جد، وإن كان جليلاً، إلا أنه قليل إذا قيس بحقوق الأمة الكاملة، ثم شاء أن يضع على عواتق رجال الأمة الأمور الخطيرة في حاضرها ومستقبلها، فقال: إن الأمر للدستور يرفع ما شاء ويجلب ما نفع.

(١٨) الركاب (بالكسر): المطي، الواحد: راحلة، من غير لفظها والسرى: السير ليلاً، جمع سرية مثل مدية ومدى. ونصبًا: تعبًا. وقد صوَّر شاعرنا في هذا البيت ما قطعته الأمة من مراحل جهادها في سبيل حريتها.

(١٩) في هذين البيتين يبين الشاعر ما للآراء المجتمعة من تصريف الأمور وقيادة الأمم وتهوين الصعاب، وسبيل ذلك اصطفاء نخبة رجالها إذا جدَّ الجدُّ وحزب الأمر، فإن شاءوا بحكمتهم جاوزوا الصعاب وتخطَّوا شوك القتاد، وإن قعدت بهم هممهم وأعوزتهم حكمتهم، ذاقوا واذاقوا الأمة عذاب الهون، وقلَّبوها على جمر الغضا.

(٢٠) قصد الشاعر إلى أن يعيد النظر ليرى الدهر قلبًا، والأحداث لا تبقى سرمدًا، فلا يؤيسه الخطب الداهم، ويرجو في الغد ما أعجزه اليوم.

(٢١) يريد الشاعر أن يبيِّن ما يعتور الأمم في نهوضها فيثنيها عن غايتها، ويعوق وثوبها، ثم هو بعد يأمر أمته بأن تحاذر الوقوع في هذا الشرِّ، ورأس تلك الآثام الاعتداد بالنفس، والإعجاب بالعمل، وانتفاخ الأوداج صلفًا وكبرياءً، ثم شاء أن يضرب مثلاً بالجيش المقاتل، ينسى ما هو فيه من جلائل الأخطار، ويعمد إلى حطام فانٍ يحصيه

ويجمعه، فلا جرم أن يصيب هذا الجيش الفشل اللازم، ولقد أدَّب الله المؤمنين أدبًا عاليًا حينما خالفوا محمد ﷺ ولاح لهم النصر، فأخذوا يجمعون الغنائم ويحصون الأسلاب؛ ففشلوا وندموا، وذلك مفصَّل في سورة «آل عمران».

(٢٢) الأكاليل: جمع إكليل شبه عصابة تزين بالجوهر، ويُسمَّى التاج إكليلاً. والمخشلب: الزجاج.

(٢٣) ترتجلان: تبتدئان من غير تهيئة، وقد شاء الشاعر أن ينيى على أولئك الذين يضعون أنفسهم موضع التاريخ، فيكيلون الثناء، ويفحشون في الألقاب، ويخلطون بين المتناقضين.

(٢٤) جندلها: أرداها. واليافوخ: مقدِّم الرأس.

(٢٥) حرب، كفرح: كئب واشتد غضبه، فهو حَرِبٌ.

الله والعلم[١]

لمن ذلك الملكُ الذي عزَّ جانبُه؟ ... لقد وعظ الأملاك والناسَ صاحبُه[١]
أمُلْكُكَ يا (داودُ)، والملكُ الذي ... يَغار عليه، والذي هو واهبه؟[٢]
أراد به أمرًا، فجلَّتْ صُدورُه ... فأَتْبعه لُطفًا، فجلَّت عواقبه[٣]
رمى، واستردَّ السهمَ، والخلقُ غافلٌ ... فهل يتَّيه خلقُه أو يُراقبه؟[٤]
أيبطُل عيدُ الدهرِ من أجل دُمَّل ... وتخبو مجاليه، وتُطوَى مواكبه؟[٥]
ويرجع بالقلب الكسيرِ وفودُه ... وفيهم مصابيحُ الورى وكواكبه؟
وتسمو يد الدهر ارتجالاً ببأسها ... إلى طُنُب الأقواسِ، والنصرُ ضاربه؟[٦]
ويستغفر الشعبُ الفخورُ لربَّه ... ويجمع من ذيل المخِيلةِ ساحبه؟[٧]
ويُحجبُ ربُّ العيد ساعة عيده ... وتنقص من أطرافهن مآربه؟[٨]
ألا هكذا الدنيا، وذلك ودُّها ... فهلاَّ تأتَّي في الأمانيّ خاطبه؟[٩]
أعدَّ لها إدوردُ أعيادَ تاجِه ... وما في حساب الله ما هو حاسبه
مشَتْ في الثرى أنباؤها، فتساءَلت ... مشارقُه عن أمرها، ومغاربه[١٠]
وكاثر في البرَّ الحصى مَن يَجوبُه ... وكاثر مَوْجَ البحر في البحر راكبه[١١]
إلى موكب لم تُخرج الأرضُ مثلَه ... ولن يتهادى فوقها ما يقاربه[١٢]

[١] نُظِمَت هذه القصيدة بمناسبة حفلة تتويج الملك إدوارد السابع وتأجيل إقامة الحفلة لإصابة جلالته بدمل وذلك في سنة ١٩٠٢.

إذا سار فيه سارت الناسُ خلفه ... وشدَّت مغاويرَ الملوك ركائبُه[13]
تحيطُ به كالنَّمل في البرِّ خيلُه ... وتملأُ آفاقَ البحار مراكبه
نظامُ المجالي والمواكبِ حلَّهُ ... زمانٌ وشيكٌ ريبُه ونوائبه[14]
فبينا سبيلُ القومِ أمنٌ إلى المنى ... إذا هو خوفٌ في الظنون مذاهبه[15]
إذا جاءَت الأعياد في كل مسمع ... تجوبُ الثرى شرقًا وغربًا جوائبه[16]
رجاءٌ فلم يلبث، فَخَوْفٌ فلم يدم ... سل الدهْرَ: أيُّ الحادثين عجائبه؟[17]
فياليت شعري: أين كانت جنودُه؟ ... وكيف تراخت في الفداءِ قواضبه؟[18]
ورُدَّت على أعقابهن سفينُه ... وما ردَّها في البحر يومًا مُحارِبه؟[19]
وكيف أَفاتته الحوادث طِلْبةً ... وما عوّدْته أن تفوِّت رغائبه[20]
لكّ الملكُ يا من خَصَّ بالعزَّ ذاتَه ... ومَنْ فوقَ آراب الملوكِ مآربه[21]
فلا عرشَ إلا أنتَ وارثُ عِزَّه ... ولا تاجَ إلا أنت بالحق كاسبه[22]
وآمنتُ بالعلمِ الذى أنت نورُه ... ومنك آياديه، ومنكَ مناقبه[23]
تُؤامنُ مِن خَوفٍ به كلّ غالبٍ ... علىَ أمره في الأرض، والدّاءُ غالبه[24]
سلوا صاحب المُلكين: هل مَلك القُوى ... وأسدُ الشرى تعنو له وتحاربه؟[25]
وهل رفع الداءَ العُضالَ وزيرُه؟ ... وهل حجب البابَ الممنَّعَ حاجبه؟[26]
وهل قدَّمت إلا دعاةً شعوبُه ... وساعفَ إلاَّ بالصلاة أقاربه؟[27]
هنالك كان العلمُ يُبلِي بلاءَه ... وكان سلاح النفس تغني تجاربه[28]

* * *

كريمُ الظبُّا، لا يقرب الشرَّ حَدُّه ... وفي غيره شرُّ الورى وَمعاطبه[29]
إذا مرَّ نحوَ المرءِ كان حياتَه ... كأصبَع عيسى نحو مَيْتٍ يخاطبه
وأيسرُ من جُرح الصدودِ فعالُه ... وأسهل من سيف اللَّحاظ مَضاربه[30]
عجيبٌ!! يُرجَّى «مِشرطًا» أو يهابه ... مَن الغربُ راجيه، مَن الشرقُ هائبه؟[31]
فلو تُفتدى بالبيضِ والسُّمرِ فِدْيَةٌ ... لألْقَتْ قَناها في البلاد كتائبه[32]
ولو أن فوق العلم تاجًا لتوَّجوا ... طبيبًا له بالأمس كان يصاحبه[33]
فآمنتُ بالله الذي عزَّ شأنُه ... وآمنتُ بالعلم الذي عزَّ طالبه[34]

هوامش

(١) عزَّ جانبه: قوي. وعظ الأملاك والناس: نصحهم وذكَّرهم بالعواقب.

(٢) الملك الذي يغار عليه والذي هو واهبه: هو الله تعالى.

(٣) جلَّت صدوره: عظمت. وصدور الأمر: جمع صدر، وصدر كل شيء: أوله. وعواقبه: جمع عاقبة، وهي آخر كل شيء أيضًا، وأتبعه لطفًا: ألحقه. والمعنى أن الله الذي وهب هذا الملك قضى فيه بأمر عظيم، هو موت الملكة فيكتوريا ولكنه لطف في هذا القضاء بتتويج إدوارد، فكانت عواقب اللطف عظيمة، كما كانت أوائل الخطب عظيمة.

(٤) استردَّ السهم: ردَّه وأرجعه إليه، والألف والسين زائدتان. والغفلة: غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكُّره له، وقد غفل فهو غافل.

(٥) يبطل عيد الدهر: يتعطَّل. تخبو: تُطْفأ. ومجاليه: مواضعه، من جلا الأمر: وضح وانكشف. والمواكب: جمع موكب وهو القوم الراكبون للزينة.

(٦) تسمو: تعلو. وارتجل الأمر: ابتدأه من غير تهيئة قبل. والبأس: الشدَّة. والطنب: حبل الخباء.

(٧) المخيلة: الكبر.

(٨) يحجب: يمنع عن الناس. والمآرب: جمع مأربة، وهي الحاجة.

(٩) الودُّ (مفتوح الواو ومضمومها ومكسورها): هو المودَّة. تأنى في الأمر: ترفَّق وتنظر. والأماني: جمع أمنية، ما يتمناه المرء. الخاطب: الداعي إلى نفسه، من قولهم خطب المرأة دعا أهلها إلى تزويجها منه، والمراد أن مَنْ يطلب لنفسه مودة الدنيا ينبغي له أن يترفق في ذلك، فضمير خاطبه يرجع إلى «الودِّ».

(١٠) الثرى. التراب، والمراد الأرض. الأنباء: الأخبار، والضمير للأعياد. مشارقه ومغاربه: أي مشارق الأرض ومغاربها. وأمرها: أي الأعياد أيضًا، بمعنى أن أنباء تلك الأعياد ذاعت في أقطار الأرض فتساءلت عنها مشارقها ومغاربها.

(١١) كاثره: غالبه بالكثرة. والبرُّ: ضد البحر. والحصى: جمع الحصاة. وجاب البلاد يجوبها: قطعها، لكثرة المقبلين على تلك الأعياد صار مَنْ يجوبون منهم الأرض من الكثرة بحيث يغلبون الحصى إذا كاثروه، وكذلك راكبو البحر المقبلون عليها يغلبون موجه بالمكاثرة.

(١٢) يتهادى: يمشي مشيًا غير قوي متمايلاً. وما يقاربه: أي ما يدانيه.

(١٣) شدَّ الشيء: أوثقه، ومنه شدَّ الرحال. والمغاوير: جمع مغوار، وهو الكثير الهجوم على العدو لشجاعته. والركائب: جمع ركوبة، وهي كل ما رُكِبَ.

(١٤) نظام الشيء: ملاكه وطريقته التي عليها يستقيم، وهو أيضًا الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. والمجالي: جمع مجلى. ووشيك. قريب. والريب هنا: ما يكره من الحوادث. والنوائب: جمع نائبة، وهي ما يصيب الإنسان من مكروه.

(١٥) بينا: كبينما، ظرف زمان للمفاجأة، وقيل هما للابتداء، وعلى كل حال تقع بعدهما جملة اسمية أو فعلية، ويحتاجان إلى جواب يتمُّ به المعنى. والسبيل: الطريق. وأمن: مأمونة. والظنون: جمع ظن وهو غير اليقين. والمذاهب: الطرق والمسالك، جمع مذهب.

(١٦) المسمع: الأذن. وجاب الأرض يجوبها: قطعها، ومنه الجواب.

(١٧) الرجاء: الأمل. ولم يلبث: لم يمكث.

(١٨) شعري: علمي، من شعر بالشيء شعرًا إذا فطن إليه وعلمه، ويا ليت شعري: أي ليتني علمت. وتراخت: أبطأت. وقواضبه: سيوفه القواطع.

(١٩) ردَّت: أرجعت. وأعقاب: جمع عقب وهو مؤخر القدم، يقال: رجع على عقبه، ورجعوا على أعقابهم: أي على الطريق الذي كانوا يضعون فيه أقدامهم. والسفين: جمع سفينة.

(٢٠) أفاتته طلبته: أذهبتها عنه. والطلبة: الشيء المطلوب، وسكون اللام لضرورة الشعر والرغائب: جمع رغبة، وهي الأمر المرغوب فيه، والعطاء الكثير أيضًا.

(٢١) خصَّه بالشيء: جعله له دون سواه. والآراب: جمع أرب، وهو الحاجة.

(٢٢) العرش: سرير الملك. والتاج: أصله للعجم، يقال: تُوِّج إذا لبس التاج، كما تقول العرب: عُمِمَ إذا لبس العمامة، استعمل على وجه العموم. وكاسبه: نائله ورابحه.

(٢٣) أياديه: جمع يدٍّ، وهي هنا النعمة. ومناقبه: جمع منقبة، وهي الفعل الطيب.

(٢٤) تؤامن: أي تعطي الأمان. وكل غالب على أمره: أي لا يعجزه شيء.

(٢٥) القوى: جمع قوة، ضد الضعف. وتعنو: تخضع وتذلُّ.

(٢٦) الداء العضال: الشديد الذي يعيي الأطباء. والباب الممنع: الذي لا يرام.

(٢٧) ساعف: ساعد.

(٢٨) يبلي بلاءه: يجتهد اجتهاده. والتجارب: جمع تجربة، من جرَّبت الشيء إذا اختبرته مرة بعد أخرى.

(٢٩) كريم الظبا: من إضافة الصفة للموصوف، أي الظبا الكريمة، والظبا: جمع ظبة وهي حدُّ السيف أو السنان أو نحو ذلك، والمراد السيف أو نحوه ليستقيم المعنى فيكون مجازًا من إطلاق اسم الجزء على الكل. والمعاطب: المهالك، جمع معطب.

(٣٠) الصدود: الإعراض. وفعاله: جمع فعل. واللحاظ: جمع لحظ. ومضاربه: جمع مضرب.

(٣١) عجيب: صفة موصوف مقدَّر، أي أمر عجيب. ويرجَّى: أي يرجو. والمشرط: المبضع الذي يفتح به الطبيب الجراحات. ويهابه: يخافه. و«من» في «من الغرب راجيه.. إلخ»: فاعل «يرجى». يقول إنه لأمر عجيب أن هذا الملك الذي يرجوه الغرب ويخافه الشرق، يتعلق رجاؤه أو خوفه بمشرط الطبيب الذي يفتح له دمله.

(٣٢) تفتدي: تستنقذ بالفدية. والبيض والسمر: السيوف والرماح. والقنا: جمع قناة وهي الرمح. والكتائب: جمع كتيبة وهي الطائفة من الجيش مجتمعة.

(٣٣) توَّجوه: ألبسوه التاج.

(٣٤) عزَّ شأنه: قوي. وطالب العلم: محصِّله.

ذكرى كانارفون

في الموت ما أعيا وفي أسبابه   كل امرئ رهنٌ بطَيِّ كتابِه[1]

أَسَدٌ لَعَمْرُكَ، من يموتُ بُظُفره   عند اللقاء، كمن يموت بنابه[2]

إن نام عنك، فكلُّ طبٍّ نافعٌ   أو لم ينمْ، فالطبُّ من أذنابه

داءُ النفوس، وكلُّ داءٍ قبلَه   هَمٌّ نَسِينَ مَجيئَه بذَهابه[3]

النفسُ حربُ الموتِ، إلا أنها   أتتِ الحياةَ وشُغلَها من بابه[4]

النفسُ حربُ على طويل بلائها   وتضيقُ عنه على قصير عذابه[5]

هو منزلُ الساري، وراحةُ رائح   كثرَ النهار عليه في إتعابِه[6]

وشفاءُ هذي الروحِ من آلامها   ودواءُ هذا الجسم من أوْصابه[7]

من سرَّه ألا يموتَ، فبالعلا   خَلُدَ الرجالُ، وبالفعالِ النابِه[8]

ما مات مَنْ حاز الثرى آثارَه   واستولت الدنيا على آدابه[9]

قل للمُدِلِّ بمالِه وبجاهه   وبما يُجِلُّ الناسُ من أنسابِه[10]

هذا الأديمُ يَصدُّ عن حُضَّارِه   وينامُ مِلْءَ الجفن عن غُيَّابه[11]

ألاَّ فتًى يمشي عليه مُجدَّدا   ديباجَتَيْهِ، مُعَمَّرًا بخرابه[12]

صادت بقارعِة الصعيد بَعوضةٌ   في الجَوَّ صائدَ بازِه وعُقابه[13]

وأصاب خُرطومُ الذبابة صفحةً   خُلقتْ لسيف الهندِ أو لذُبابِه[14]

طارت بخافية القضاء، ورَأَرَأت   بكريمتيْه، ولامست بلُعابه[15]

لا تَسمعنَّ لُعصبةِ الأرواحِ ما   قالوا بباطل علمهم وكِذابه[16]

الروحُ للرحمنِ جلَّ جَلالُه   هي من ضنائن علمه وغيابه[17]

غُلِبوا على أعصابهم، فتوهَّموا أوهامَ مغلوبٍ على أعصابه

* * *

ما آبَ جَبارُ القُرونِ، وإنَّما يومُ الحساب يكون يومَ إيابه[١٨]
فذروه في بلد العجائب مُغْمَدًا لا تشهَروه كأمس فوق رقابه[١٩]
المستبدُّ يطاقُ في ناووسه لا تحت تاجيه وفوق وِثابه[٢٠]
والفردُ يؤمَن شرُّه في قبره كالسيفِ نام الشرُّ خلفَ قرابه[٢١]
هل كان (توتَنْخْ) تقمَّصُ روحُهُ قُمُصَ البعوض ومُسْتَخَسَّ إهابه؟[٢٢]
أو كان يَجزِيكَ الردى عن صُحبةٍ وهو القديم وفاؤه لصاحبه[٢٣]
تالله لو أهدي لك الهرمَيْنِ من ذهب، لكان أقلَّ ما تُجْزَى به
أنت البشير به، وقيِّمُ قصره ومُقدِّم النبلاءِ من حُجَّابه[٢٤]
أعْلَمْتَ أقوامَ الزمانِ مكانَه وحَشَدْتَهم في ساحِه ورحابه[٢٥]
لولا بَنانُك في طلاسِم تُربه ما زاد في شرف على أترابه[٢٦]

* * *

أخنىَ الحِمامُ على ابن هِمّةِ نفسِه في المجد، والباني على أحسابه[٢٧]
الجائب الصخرَ العتيدَ بحاجرٍ دبَّ الزمانُ وشبَّ في أسرابه[٢٨]
لو زايلَ الموتى مَحاجرَهم به وتلَّفتوا، لتحيَّروا كضِبابه[٢٩]
لم يَألُهُ صبرًا، ولم يَنِ هِمَّةً حتى انثنى بكنوزِه ورِغابه[٣٠]
أفضى إلى خَتْم الزمان ففضَّه وحبا إلى التاريخ في محرابه[٣١]
وطوى القرونَ القَهْقَرى، حتى أتى فرعونَ بين طعامه وشرابه[٣٢]
المَنْدَلُ الفيَّاحُ عودُ سريره واللؤلؤ اللمَّاحُ وشْيُ ثيابه[٣٣]
وكأن راحَ القاطفين فَرغْن من أثماره صُبحًا ومن أرطابه[٣٤]
جدثٌ حوى ما ضاق (غُمدانٌ) به من هالة المُلكِ الجسيمِ وغابه[٣٥]
بنيانُ عُمرانٍ، وصَرْحُ حضارةٍ في القبر يلتقيان في أطنابه[٣٦]
فترى الزمانَ هناك قبلَ مَشيبه مثلَ الزمانِ اليومَ بعد شبابه
وتحسُّ ثَمَّ العلمَ عند عُبابه تحت الثرى والفنَّ عند عجابه[٣٧]

* * *

يا صاحبَ الأخرى، بلغتَ مَحلَّةً هي من أخي الدنيا مُناخُ ركابه[38]
نُزُلٌ أفاق بجانبيه من الهوى من لا يُفيقُ، وجدَّ من تَلعابه[39]
نام العدوُّ لديه عن أحقادِه وسلا الصديقُ به هوى أحبابه[40]
الراحةُ الكبرى مِلاكُ أديمه والسلوةُ الطُّولَى قِوَامُ ترابه[41]

* * *

(وادي الملوك) بكتْ عليكَ عيونُه بمُرَقْرَق كالمزنِ في تَسكابه[42]
ألقى بياضَ الغيَم عن أعطافه حزنًا، وأقبل في سواد سحابه[43]
يَأسىَ على حرباءِ شمسٍ نهاره ونزيل قِيعَتِه، وجار سَرابه[44]
ويودُّ لو ألْبِست من بَرْدِيَّه بُرْدَيْنِ، ثم دُفنَت بين شعابه[45]
نوَّهتَ في الدنيا به، ورفَعته فوق الأديم، بطاحِه، وهِضابه[46]
أخرجتَ من قبرٍ كتابَ حضارةٍ الفنُّ والإعجازُ من أبوابه[47]
فصَّلته، فالبرقُ في إيجازه يُبنَى البريدُ عليه في إطنابه[48]
طلعا على (لوزانَ) والدنيا بها وعلى (المحيط) وما وراءَ عُبابه[49]
جئتَ الشعوبَ المحسنين بشافع مِنْ مثل مُتْقَنِ فنِّهم ولُبابه[50]
فرفعتَ رُكنًا للقضية، لم يكن (سَحبانُ) يرفعُه بسحر خطابه[51]

هوامش

(١) ما أعيا: أي ما أتعب وأعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطي كتابه: أي باق في الحياة كبقاء الرهن حتى ينتهي أجله.

(٢) لعمرك: يقول النحاة: إنه قسم، واللام فيه لتوكيد الابتداء، وهو مبتدأ خبره محذوف، أي لعمرك قسمي، أو ما أقسم به.

(٣) الدَّاء: العلة والمرض. ونسين: أي النفوس.

(٤) حرب الموت: أي حرب للموت، والمراد أنها تكرهه وتدافعه. أتت، جاءت، والضمير في «شغلها» للحياة، والضمير في «بابه» للموت.

(٥) بلاء الحياة: ما فيها من ألم وهمٍّ، أي أن النفس تسع الحياة وتحتملها مع ما فيها من هموم وآلام لا تنتهي، وتضيق عن الموت وتأباه وهو ليس فيه إلا شيء من الألم قصير.

(٦) هو: أي الموت. والساري: الذي يقطع الليل سيرًا. والرائح: الذاهب. وإتعاب: مصدر أتعب.

(٧) وشفاء هذه الروح، إلى آخر البيت: متَّصل بالبيت الذي قبله. والأوصاب: الأوجاع، جمع وصب.

(٨) العلا: إمَّا الرفعة والشرف، وإمَّا جمع عليا: وهي المنزلة الرفيعة. الفعال النابه: الفعل الشريف المذكور.

(٩) حاز الشيء ضمَّه إليه. والثرى: التراب الندي. والآثار: جمع أثر، وهو ما بقي من الشيء. واستولت على آدابه: غلبت عليها وتمكَّنت منها. والآداب: جمع أدب، وهو كل ما يتحلى به الإنسان من فضيلة.

(١٠) المدلل بماله.. إلخ: الذي يتيه به على أقرانه. والجاه: القدر والمنزلة. ويجلُّ: يعظم.

(١١) الأديم: الجلد المدبوغ، وقد يطلق على وجه الأرض، وهو المراد هنا. يصدُّ عن حضاره: يعرض عنهم، والحضار: جمع حاضر. وجفن العين: غطاؤها من أعلاها وأسفلها، والمراد العين نفسها. والغيَّاب: جمع غائب.

(١٢) الديباجتان: الخدَّان، أي إلا فتى يمشي على وجه الأرض يجدد خديه والمراد ما يكون له كالخدَّين لوجه الإنسان.

(١٣) القارعة: الشديدة من شدائد الدهر. والصعيد: بلاد مصر العليا. والباز والعقاب: من جوارح الطير، يقول: إن تلك البعوضة صادت في الجو مَنْ كان يصيد بازاته وعقبانه.

(١٤) الخرطوم: الأنف. والمراد بالذبابة: تلك البعوضة نفسها. وصفحة كل شيء: جانبه. وذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

(١٥) الخافية: واحدة الخوافي، وهي ما دون الريشات العشر من مقدِّم الجناح. والقضاء هنا: معناه الصنع والتقدير، والمراد به قضاء الله. ويقال: رأرأ بعينيه، إذا حدد النظر أو إذا أدارهما. والكريمتان: العينان. واللعاب: ما يسيل من الفم. والضمير في «طارت» يرجع إلى «الذبابة».

(١٦) العصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين، والمراد هنا الجماعة بغير عدد. والكذاب: الكذب.

(١٧) ضنائن علمه: أي خصائص علمه مما اختصَّ به نفسه فلا يعلم به سواه. وغيابه: إمَّا جمع غيب وهو ما غاب عنك من الأمر، وإمَّا مصدر غاب يغيب وهو كالغيب في معناه.

(١٨) آب: رجع. جبَّار القرون: يريد توت عنخ آمون. ويوم الحساب: اليوم الآخر.

(١٩) ذروه: اتركوه. بلد العجائب: الأقصر، لما فيها من عجائب الآثار. مغمدًا: أي باقيًا في قبره كما يبقى السيف في غمده. لا تشهروه (من شهر السيف إذا سله): يعني لا تخرجوه محمولاً على الرقاب كما كان يحمل على الرقاب التي يملكها وهو حي.

(٢٠) المستبد: من استبد بالشيء إذا انفرد به. يطاق: من أطاق الشيء إذا قدر عليه. والناووس: هو مقبرة النصارى خاصة، وقد يستعمل لتابوت الميت. الوثاب: السرير الذي لا يبرح الملك عليه.

(٢١) قراب السيف: قيل هو غمده، وقيل: هو وعاء يوضع فيه السيف بغمده، وقيل غير ذلك.

(٢٢) تقمَّص روحه قمص البعوض: أي لبسها، والقمص: جمع قميص. المستخس: الخسيس. الإهاب: الجلد الذي لم يدبغ.

(٢٣) يجزيك: يقضيه لك ويثيبك عليه. الردى: الهلاك. الوفاء: ضد الغدر. الصحاب: جمع صاحب.

(٢٤) البشير: المبشِّر بالخير، قيم القصر: سائس أمره. النبلاء: جمع نبيل وهو الذكي النجيب. الحجاب: جمع حاجب.

(٢٥) أقوام: جمع قوم. حشدتهم: جمعتهم. الساح: جمع ساحة وهي الموضع المتَّسع أمام الدار ونحوها. الرحاب جمع رحبة وهي الساحة.

(٢٦) البنان: أطراف الأصابع ومفردها بنانة. الترب: التراب. أترابه: لداته، جمع ترب وهم مَنْ ولدوا معه.

(٢٧) أخنى عليه: أهلكه. الحِمام: الموت. الأحساب: جمع حسب، وهو ما للرجل من مفاخر الآباء، أو هو دين الرجل أو ماله.

(٢٨) العتيد: الحاضر المهيأ. دبَّ: يقال دبَّ الصبي إذا مشى. شبَّ: أدرك شبيبته. الأسراب: جمع سرب وهو البيت تحت الأرض.

(٢٩) زايل: فارق. والموتى: جمع ميِّت. محاجرهم: النواحي التي اتخذت لهم من الأرض، أو هي القبور في الأرض المتحجِّرة، الضباب: جمع ضب.

(٣٠) لم يأله صبرًا: أي لم يقصر في حمله على الصبر. ولم ينِ همة: لم تضعف همته، من ونى في الأمر إذا ضعف عنه. انثنى: رجع. الكنوز: جمع كنز. الرغاب: جمع رغيبة، وهي هنا الشيء المرغوب فيه، وتكون أيضًا بمعنى العطاء الكثير.

(٣١) أفضى إلى ختم الزمان: وصل إليه. فضَّه: كسره. حبا إلى التاريخ: دنا منه. المحراب: صدر المجلس، وقيل: هو أشرف المجالس، ومنه محراب الصلاة.

(٣٢) طوى القرون: قطعها. والقرون: جمع قرن، وهو الجيل من الناس، مدَّته ثمانون سنة وقيل أكثر وقيل أقل. القهقرى: الرجوع، أي طوى القرون حتى رجع بها القهقرى.

(٣٣) المندل: العود المعروف بطيب رائحته. الفيَّاح: الفياض بنشره وطيبه. اللماح: الشديد اللمعان. وشي الثوب: نقشه وتحسينه. والضمير في «سريره» و«ثيابه» لفرعون.

(٣٤) الرَّاح: جمع راحة وهي الكف. القاطفين: جمع قاطف وهو من يجتني الثمر. أثمار. جمع ثمر. أرطاب: جمع رطب وهو ما نضج من البلح، والمراد بالأثمار والأرطاب: التحف والآثار الغالية التي وُجِدَت في قبر فرعون وهي لم تزل على جدتها كأنها مصنوعة الآن.

(٣٥) الجدث: القبر. حوى الشيء: أحرزه. غمدان: قصر كان مشهورًا، يرجحون أن يشرح بن الحارث بن صيفي بن سبأ جدُّ بلقيس ملكة اليمن هو الذي بناه، وجعل له أربعة وجوه: أحمر، وأبيض، وأصفر، وأخضر، وبنى داخله قصرًا بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعًا، وقيل: كان ارتفاع السقف مائتي ذراع. الهالة: دارة القمر. الغاب: الرماح، جمع غابة.

(٣٦) العمران: اسم لما يعمر به المكان وتحسن حاله. الصرح: القصر، وكل بناء مرتفع. الحضارة: الإقامة في الحضر. الأطناب: جمع طنب وهو الحبل الذي يشدُّ به السرادق، ويستعمل مجازًا في الناحية وهي المراد هنا.

(٣٧) تحسُّ العلم: تشعر به. ثمَّ ظرف مكان بمعنى هناك. العباب: ارتفاع السيل وكثرته. العجاب: ما جاوز حد العجب.

(٣٨) المحلَّة: المنزل. المُنَاخ: مبرك الإبل، ومحل الإقامة مجازًا. الركاب: الإبل والأخرى: يريد بها الآخرة، والخطاب للورد المرثي، يقول: بلغت منزلاً هو نهاية المسير لأهل الدنيا وهو القبر.

(٣٩) النزل: ما هيئ للضيف أن ينزل عليه. أفاق صحا واستيقظ. الهوى: إرادة النفس غير المحمودة. التلعاب: اللعب.

(٤٠) الأحقاد: جمع حقد وهو الغضب الثابت. سلا الشيء: نسبه وغفل عن ذكره. الهوى في هذا البيت: العشق.

(٤١) ملاك الشيء: قوامه. السلوة: السلو. الطولى: مؤنث الأطول، أي العظيمة الطول. القوام: ما يقوم به.

(٤٢) دمع مرقوق: أي دائر في حملاق العين. المزن: السحاب البيض، جمع مزنة. التسكاب: الانسكاب.

(٤٣) الغيم: السحاب، واحدته غيمة. الأعطاف: جمع عطف وهو جانب الشيء، وعطف الرجل جانبه من رأسه إلى وركيه.

(٤٤) الحرباء: اسم للذكر، والأنثى حرباءة، وهي حيوان اسمه «أم حبين» يستقبل الشمس ويدور معها كيف دارت ويتلوَّن بحرها ألوانًا مختلفة، وهو يضرب مثلاً في التقلُّب. القيعة: قيل جمع قاع وهو أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال، وقيل هي مفرد في معنى القاع. السراب: ما تراه نصف النهار من شدَّة الحر كأنه ماء يلصق بالأرض.

(٤٥) البردي: نبات تعمل منه الحصر، وهو ينبت كثيرًا في مناقع الماء. بردين مثنى برد وهو ثوب مخطط، والمراد هنا مطلق ثوب. الشعاب: جمع شعب وهو الطريق المنفرج بين جبلين. والضمائر في «برديه» و«شعابه» يرجع إلى وادي الملوك.

(٤٦) نوَّه. به: رفع ذكره وعظَّمه. الأديم: هنا وجه الأرض. البطاح: جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. الهضاب: جمع هضبة وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

(٤٧) الفنُّ: في الأصل النوع من الشيء، ثم توسَّعوا فأرادوا به الصناعة والعلم وما إليهما. والإعجاز: مصدر أعجز، وهو أداء المعنى بطريق لا قدرة لأحد عليها.

(٤٨) فصَّلته: بينته. والبرق: وميض السحاب، واستعمل الآن في نقل الرسالات بـ «التلغراف» مجازوًا لسرعة النقل، كأنه الوميض. البريد: المسافة التي يقطعها الرسول، والمراد به الآن نقل الرسالات بواسطة «البوستة». الإيجاز: اختصار الكلام. والإطناب: إطالته.

(٤٩) طلعا: أي البريد والبرق. لوزان: مدينة في سويسرة كان بها مجلس الدول الذي تمَّ فيه الصلح بين تركية واليونان سنة ١٩٢٢، وإلى هذا المجلس يشير بقوله (والدنيا بها). المحيط: البحر الذي يحيط باليابسة. وما وراء عبابه: بلاد أمريكا التي

يحيط بها المحيطان المتجمدان من الشمال والجنوب، والمحيطان الأطلسي والهادي من الشرق والغرب، والمعنى أن البرق والبريد طلعا على العالم المتحضر كله بخير تلك الآثار التي وجدت في القبر.

(٥٠) الشافع: مَنْ يعاونك عند غيرك أو يسعى لك في مطلبه. المتقن: المحكم. اللباب: المختار الخالص من كل شيء.

(٥١) الركن: الجانب الأقوى من الشيء. سحبان: رجل من وائل كان خطيبًا فصيحًا، ويضرب به المثل في ذلك، فيقال: «أخطب من سحبان».

أيها العمال

أيُّها العمالُ، أفنوا الـ	ـعمرَ كدًّا واكتسابا
واعمروا الأرضَ، فلولا	سعيُكم أمست يَبابا[1]
إن لي نصحًا إليكم	إن أذِنْتُم وعِتابا
في زمان غَبِيَ النا	صحُ فيه، أو تغابى
أين أنتم من جدود	خلَّدوا هذا الترابا؟
قَلَّدوه الأثرَ المُعْـ	ـجِزَ، والفنَّ العُجابا
وكَسَوْهُ أبدَ الدهـ	ـرَ من الفخر ثيابا
أتْقَنوا الصنعَةَ، حتى	أخذوا الخُلْدَ اغتصابا
إن للمتقينِ عند	الله والناسِ ثوابا
أتْقِنُوا، يُحْبِبْكُمُ اللهُ،	ويرفْعكم جنابا
أرضيتم أن تُرى (مصـ	ـرُ) من الفن خرابا؟
بعد ما كانت سماءً	للصناعاتِ وغابا؟

* * *

أيها الجمعُ، لقد صر	تَ من المجلس قابا[2]
فكنِ الحُرَّ اختيارًا	وكن الحُرَّ انتخابا
إن للقوم لعيْنًا	ليس تَألوكَ ارتقابا
فتوقع أن يقولوا:	مَنْ عن العمالِ نابا؟

لـيـس بـالأمـر جـديـرًا كلُّ مَنْ ألـقَـى خـطـابا
أو سخـا بـالمال، أو قدَّ م جـاهًـا وانـتـسـابـا
أو رأى أُمَّـيَّـةً، فـاخـــ تلـب الـجـهـلَ اخـتـلابا
فـتـخـيَّـرْ كلَّ من شبَّ علـى الـصدق وشـابـا
واذكرِ الأنـصـارَ بـالأمـــ ــس، ولا تَنْسَ الصِّحابا
أيـهـا الـغـادون كـالـنحـــ ــلِ ارتـيـادًا وطـلابـا
فـي بكور الطـير للرز قِ مـجـيـئًـا وذهـابـا
اطـلـبـوا الـحـقّ بـرفـق واجـعـلـوا الـواجبَ دابا[3]
واستقيموا يفتحِ اللهُ لـكـم بـابًـا فـبـابـا
اهجروا الخمر تطيعوا اللهَ أو تُـرضـوا الـكـتـابـا
إنـهـا رجسٌ، فـطُـوبَـى لامــرئٍ كـف وتـابـا
تُرعِشُ الأيدي، ومن ير عش من الصناعِ خابا
إنـمـا الـعـاقـلُ مَنْ يجـــ ــعلُ لـلـدهـر حـسـابـا
فـاذكـروا يـومَ مَـشِـيـبٍ فـيـه تَبـكـون الـشـبـابـا
إن لـلـسـنِّ لـهـمًّـا حـيـن تـعـلـو وعـذابـا
فـاجـعـلـوا من مـالـكـم للشيب والضعف نِصابا
واذكروا في الصحة الدا ءَ إذا مـا الـسُّـقـمُ نـابـا
واجـعـلـوا الـمـال لـيـومٍ فـيـه تَلْقَوْن اغـتـصـابـا
قد دعـاكـم ذنبَ الـهـيـــ ــئـــةِ داع فـأصـابـا
هـي طـاووسٌ، وهل أحـــ ســنُـه إلا الـذُّنـابَـى؟

هوامش

(١) الأرض اليباب: الخراب.
(٢) يريد بالمجلس: دار النيابة.
(٣) أي دأبا، وخففت للضرورة.

نجاة[١]

هنيئًا أميرَ المؤمنين، فإنَّما ... نجاتُك للدِّين الحنيف نجاةُ[١]

هنيئًا لطه، والكتابِ، وأمةٍ ... بقاؤكَ إبقاءٌ لها وحياة[٢]

أخذتَ على الأقدار عهدًا ومَوْثِقًا ... فلستَ الذي تَرقى إليه أذاة[٣]

ومن يكُ في بُرْدِ النبيَّ وثوبِه ... تَجُزْهُ إلى أعدائه الرَّمَيّات[٤]

يكاد يسيرُ البيتُ شكرًا لربه ... إليكَ، ويسعى هاتفًا عرفاتُ[٥]

وتستوهب الصفحَ المساجدُ خُشَّعًا ... وتبسط راحَ التَّوْبة الجُمعات[٦]

وتستغفرُ الأرضُ الخصيبُ وما جنت ... ولكنْ سقاها قاتلون جناة[٧]

وتُثْنِي من الجرحى عليك جراحُهم ... وتأتي من القَتْلى لكَ الدعوات[٨]

ضحكتَ من الأهوال، ثم بكيتَهم ... بدمع جرتْ في إثره الرَّحمات[٩]

تُثابُ بغاليه، وتُجزَى بطُهْرِه ... إلى البعث أشلاءٌ لهم ورُفات[١٠]

وما كنتَ تُحييهم، فكِلْهُم لربهم ... فما مات قومٌ في سبيلك ماتوا[١١]

رمتهم بسهم الغدر عند صَلاتهم ... عصابةُ شرٍ للصلاة عداة[١٢]

تبرَّأ عيسى منهمُ وصِحَابه ... أأتْباعُ عيسى ذي الحنانِ جُفاة؟[١٣]

---

[١] أُلْقِيَت على جلالة الخليفة قذيفة في سبتمبر سنة ١٩٠٥، ثم شاء الله أن يكتب له النجاة من شرِّها؛ فكتب الشاعر يهنئه.

يُعادونَ دِينًا، لا يُعادون دولةً … لقد كذبت دعوى لهم وشكاة[١٤]
ولا خيرَ في الدنيا، ولا في حقوقها … إذا قيل: طُلَّابُ الحقوقِ بُغاة[١٥]
بأيِّ فؤادٍ تَلتقي الهولَ ثابتًا … وما لِقلوبِ العالمين ثَبات؟[١٦]
إذا زُلزلتْ من حولك الأرضُ؛ رادها … وقارُك حتى تسكنَ الجَنَبات[١٧]
وإن خرجت نارٌ فكانت جهنما … تُغذَّى بأجساد الورَى وثُقات[١٨]
وترتجُّ منها لُجَّةٌ، ومدينةٌ … وتَصلَى نواحٍ حَرَّها، وجِهات[١٩]
تمشيتَ في بُرْدِ الخليل، فخضتَها … سلامًا وبردًا حولك الغَمَرات[٢٠]
وسرتَ ومِلءُ الأرض حولك أذْرُعٌ … ودرعُك قلبٌ خاشعُ وَصَلاةُ[٢١]
ضحوكًا، وأصنافُ المنايا عَوابسٌ … وقورًا، وأنواعُ الحُتوفِ طُغاة[٢٢]
يحوطك إن خان الحُماةَ انتباهُهُم … ملائكُ من عند الإله حُماة[٢٣]
تشير بوجهٍ أحمديًّ، مُنوَّرٍ … عيونُ البرايا فيه مُنحسرات[٢٤]
يحيِّي الرعايا، والقضاءُ مُهلِّل … يحييه، والأقدارُ معتذِرات[٢٥]
نجاتُكَ نُعْمَى للإله سنِيّةٌ … لها فيك شكرٌ واجبٌ وزكاة[٢٦]
فصيَّر أميرَ المؤمنين ثناءَها … مَآثِرَ تُحيي الأرضَ وهي موات[٢٧]
إذا لم يُفتنا من وجودك فائت … فليس لآمالِ النفوس فوات[٢٨]
بَلوْناكَ يقظانَ الصوارمِ والقَنا … إذا ضَيَّعَ الصَّيدَ الملوكَ سُبات[٢٩]
سهِرتَ، ولذَّ النومُ — وهوَ مَنيَّةٌ — … رَعايا تولَّاها الهَوى ورُعاةُ[٣٠]
فلولاكَ مُلكُ المسلمين مُضيَّعٌ … ولولاكَ شملُ المسلمين شَتات[٣١]
لقد ذهبت راياتُهم غير رايةْ … لها النصرُ وَسْمٌ، والفتوحُ شِيات[٣٢]
تَظلُّ على الأيام غَرَّاءَ، حُرَّةً … مُحجَّلةً في ظلِّها الغزَوات[٣٣]
حَنيفيَّةً، قد عزَّها، وأعزَّها … ثلاثون مَلْكًا، فاتِحون، غُزاة[٣٤]
حماها، وأسماها على الدهر منهمُ … ملوكٌ على أملاكه سَرَوات[٣٥]
غمائمُ في مَحْل السنين، هواطلٌ … مصابيحُ في ليل الشكوكِ، هُداة[٣٦]
تهادت سلامًا في ذُراك مطيفةً … لها رغباتُ الخلقِ، والرهبات[٣٧]
تموتُ سِباعُ الجوِّ غَرْثَى حِيالَها … وتحيا نفوسُ الخَلقِ والمُهجات[٣٨]
سننْتَ اعتدالَ الدهر في أمر أهله … فبات رَضِيًّا في دَراكَ، وباتوا[٣٩]
فأنتَ غمامٌ، والزمانُ خميلةٌ … وأنتَ سِنانٌ، والزمانُ قَنَاة[٤٠]

وأنتَ مِلاك السلم إن مَادَ رُكنُه   وأشفقَ قُوَّام عليه ثقات[٤١]
أكان لهذا الأمر غيرك صالحٌ   وقد هَوَّنَتْه عندك السنوات؟[٤٢]
ومَن يَسُسِ الدنيا ثلاثين حِجَّةً   تُعِنْهُ عليها حكمةٌ، وأناة[٤٣]
ملكتَ — أميرَ المؤمنينَ — ابنَ هانئ   بفضلٍ، له الألبابُ مُمْتلَكاتُ
وما زلتُ حَسَّانَ المقام، ولم تزل   تليني، وتسري منكَ لي النفحاتُ[٤٤]
زَهدتُ الذي في راحتيك، وشاقني   جوائزُ عند الله مُبْتَغياتُ[٤٥]
ومَن كان مثلي أحمدَ الوقتِ، لم تجُزْ   عليه — ولو من مثلك — الصدقاتُ[٤٦]
ولي دُرَرُ الأخلاق في المدح والهوى   وللمُتنبي دُرَّةٌ، وحَصاة[٤٧]
نجت أمةٌ لمَّا نجوتَ، ودُوركت   بلادٌ، وطالت للسرير حياة[٤٨]
وصِينَ جلالُ الملك، وامتدَّ عزُّه   ودام عليه الحسنُ والحسنات[٤٩]
وأمَّنَ في شرق البلادِ وغربها   يتامى على أقواتهم، وعُفاة[٥٠]
سلامِيَ عن هذا المقامِ مُقصِّر   عليكَ سلامُ الله والبرَكات[٥١]

هوامش

(١) أتاك الشيء هنيئا، وهو هنيء لك: أي سائغ ثابت لا مشقَّة فيه.

(٢) طه: من أسماء النبي محمد ﷺ. الكتاب: القرآن الكريم. والأمة: المسلمون جميعًا.

(٣) الأقدار: جمع قدر وهو ما يقدِّره الله من قضائه، ويعرفه بعضهم بأنه تعلُّق إرادة الله بالأشياء. العهد: هنا بمعنى الضمان. الموثق: العهد. ترقى إليه: تصعد. الأذاة: المكروه.

(٤) البرد: ثوب مخطط. تجزه: تتعداه إلى غيره. الرميات: جمع رمية.

(٥) البيت: الكعبة. عرفات: مكان على مقربة من مكة، الوقوف به ركن من أركان الحج.

(٦) تستوهب الصفح: تطلب هبته. والصفح: الإعراض عن الذنب. خُشَّعًا: جمع خاشع. الراح: جمع راحة وهي الكف.

(٧) تستغفر: تطلب المغفرة. الأرض الخصيب: الكثيرة العشب، كناية عن كثرة خيرها. و«ما» في «ما جنت» للنفي.

(٨) تثني عليك: تمدحك. الجرحى: جمع جريح. والجراح: جمع جُرح. القتلى: جمع قتيل.

(٩) الأهوال: جمع هول، وهو الخوف من الأمر لا يدري الإنسان ما يهجم عليه منه. بكيتهم: أي الجرحى والقتلى. الرحمات: جمع رحمة.

(١٠) تثاب: تجازى. بغاليه وبطهره: الضمير فيها للدمع. البعث: هنا من بعث الموتى، أي نشرهم يوم القيامة. الرُّفات: الحطام وكل ما تكسَّر وبلي. أشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفرُّق.

(١١) كِلْهم لربهم: من وكل إليه الأمر، أي تركه له وفوَّضه إليه. في سبيلك: أي من أجلك وبسببك.

(١٢) الغدر: الخيانة وعدم الوفاء. الجماعة: قبل العشرة، وقيل ما بين العشرة والأربعين. العداة: جمع عدوٍّ، والمراد نصارى الأرمن الذين دبَّروا حادث القنبلة.

(١٣) تبرأ منه: تخلَّص منه وأنكره. عيسى: ابن مريم النبي (عليه السلام). صحاب: جمع صاحب. أتباع جمع تابع، والهمزة للاستفهام. الحنان: الرحمة. الجفاة: جمع جافٍ وهو الغليظ الخُلُق.

(١٤) الشكاة: الشكوى وهي التظلُّم.

(١٥) الطلاب: جمع طالب. البغاة: جمع باغٍ وهو الظالم.

(١٦) الفؤاد: القلب. تلتقي الهول: تستقبله. الهول: المخيف المفاجئ. الثبات: الاستقرار، والخطاب لأمير المؤمنين.

(١٧) زلزلت الأرض: أرجفت. راد الأرض: تفقَّدها ليرى هل تصلح للنزول بها. الوقار: الحلم والرزانة. والجنبات: النواحي، جمع جنبة.

(١٨) تغذى، من غذَّاه: أي أطعمه. أجساد: جمع جسد. الورى: الخلق. تُقات: من قاته، أعطاه قوتًا وهو ما يؤكل ليمسك الرمق.

(١٩) ترتَّج: تضطرب. لجَّة الماء: معظمه. تصلى حرَّها: تجده وتحسُّه. النواحي: جمع ناحية. الجهات: جمع جهة. والمراد: يرتج منها البرُّ والبحر، وتخترق بها جهات الأرض ونواحيها، أي أنها نار عامة عظيمة.

(٢٠) تمشيت: مشيت. البرد. الثوب. الخليل: هو النبي إبراهيم (عليه السلام)، وقصة خوضه النار التي أوقدها له النمروذ مشهورة. سلامًا: أي سلامة. وبردًا: أي لا حرًّا. الغمرات: الشدائد والمكاره.

(٢١) ملء الشيء: ما يملؤه. أدرع جمع درع، وهي ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس في الحرب؛ للوقاية من سلاح العدوِّ.

(٢٢) الضحوك: الكثير الضحك. المنايا: جمع منيَّة وهي الموت. عوابس: كوالح الوجوه متجهمات. الوقور: الحليم الرزين. الحتوف: جمع حتف وهو الموت أيضًا. طغاة: جمع طاغٍ وهو الظالم المسرف في ظلمه.

(٢٣) يحوطك: يحفظك ويتعهَّدك. الحماة: جمع حام. الانتباه: اليقظة للأمر. والملائك: الملائكة.

(٢٤) وجه أحمدي: منسوب إلى أحمد وهو النبي ﷺ نسبة تشريف وتبعية. منوَّر: مضيء. منحسرات: يريد حسيرات، والعين الحسيرة الكليلة التي ينقطع بصرها من طول المدى.

(٢٥) يحيي الرعايا: يسلم عليها. ورعايا الملك: القوم الخاضعون له، جمع رعيَّة. القضاء هنا: تقدير الله. مهلل: من التهليل وهو رفع الصوت بلا إله إلا الله. والأقدار: جمع قدر.

(٢٦) النعمى، كالنعمة: ما أنعم به عليك. سنيَّة: رفيعة عظيمة.

(٢٧) صيِّر: أي اجعل. مآثر: جمع مأثرة وهي المكرمة. أرض موات: لا ينتفع بها.

(٢٨) فاته الشيء: أعوزه وذهب عنه فلم يدركه. الآمال: جمع أمل وهو الرجاء.

(٢٩) بلوناك: جرَّبناك واختبرناك. اليقظان: المتنبه المستيقظ. الصوارم: جمع صارم وهو السيف القاطع. القنا: جمع قناة وهي الرمح. الصيد. جمع أصيد وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا ولا شمالاً، والأصل أنه الجمل الذي لا يستطيع الالتفات من داء الصيد. السُّبات: النوم والراحة.

(٣٠) سهرت: أرقت فلم تنم. لذَّ النوم رعايا ورعاة: أي صار لذيذًا لهم. والرعاة: جمع راعٍ وهو الوالي.

(٣١) مضيَّع: مهمل أو مفقود. الشمل: ما اجتمع من الأمر وما تفرَّق منه، يقال: جمع الله شملهم أي ما تشتت من شملهم، وفرَّق الله شملهم أي ما اجتمع منه. الشتات: المشتت المتفرق.

(٣٢) الراية: العلَم، جمعها رايات. الوسم: الأثر والعلامة. الفتوح: جمع فتح وهو النصر. الشيات: جمع شية وهي العلامة.

(٣٣) تظل: تبقى، والمراد الراية. الغرَّاء: مؤنث الأغرِّ، وهو الفرس بجبهته بياض قدر الدرهم، والأبيض من كل شيء، والكريم الفعال، الواضحها، ومن المجازم: يومٌ أغرٌّ

محجَّل، ومثله: راية غرَّاء محجَّلة. المحجَّلة: من التحجيل وهو بياض في قوائم الفرس، والمراد أن بها بياضًا كأنه التحجيل. الغزوات. جمع غزوة: وهي الواحدة من الغزو، وهو المسير إلى قتال العدو.

(٣٤) الحنيفية: المائلة إلى الإسلام الثابتة عليه، وهو وصف للراية أيضًا. عزَّها: قواها. وأعزَّها: أجلَّها. ملكًا: لغة في ملك. غزاة: جمع غازٍ.

(٣٥) حماها: دافع عنها. أسماها: أعلاها. سروات: سادات ورؤساء، وضمير «حماها» و«أسماها» للراية.

(٣٦) غمائم: سحائب وهي جمع غمامة. المحل: الجدب ويبس الأرض من الكلأ لانقطاع المطر. الهواطل: جمع هاطلة وهي السحابة التي يتتابع مطرها. مصابيح: جمع مصباح وهو السراج. هداة. جمع هادٍ وهو المرشد الدال على الطريق.

(٣٧) تهادت: من التهادي وهو أن يمشي الرجل وحده مشيًا غير قوي متمايلاً، والضمير عائد إلى الراية. الذرا: أعالي الأشياء، واحدتها ذروة. مطيفة: من أطاف بالشيء ألَّمبه وقاربه أو حام حوله أو أحاط به. الرغبات جمع رغبة وهي إرادة الشيء والحرص عليه. الرهبات: جمع رهبة وهي الخوف.

(٣٨) السباع: جمع سبع وهو المفترس من الحيوانات مطلقًا، والمراد بسباع الجو سباع الطير. غرثى: جمع غرثان وهو الجائع. حيالها: أي قبالتها وإزاءها. المهجات: جمع مهجة وهي الدم، أو هي دمُّ القلب، يقال: سالت مهجته والنفس، ويقال: بذلت له مهجتي، والخالص من كل شيء.

(٣٩) سننت: أبنت وصوَّرت. والاعتدال: الاستقامة. ورضيًا: راضيًا. والذرا: الملجأ.

(٤٠) الغمام: السَّحاب. والخميلة: الشجر الكثير الملتف حيث كان، وهي أيضًا الموضع الكثير الشجر. السنان: نصل الرمح. القناة: الرمح.

(٤١) ملاك السلم: قوامه الذي يملك به. والسلم السلام والأمان. وماد: تحرَّك واضطرب. وقوَّام: جمع قائم. وثقات: جمع ثقة، يقال هو ثقة أي موثوق به.

(٤٢) هوَّنته: سهلته وخففته. والسنوات: جمع سنة.

(٤٣) يسس: من ساس الشيء دبَّره وقام بأمره. يعنه: يساعده ويظاهره. والحكمة: العدل، والعلم، ووضع الأمر في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الرفق، وهي الحلم أيضًا.

(٤٤) ما زلت حسَّان المقام: أي ما زلت قائمًا منك مقام حسَّان من النبي ﷺ، وهو حسَّان بن ثابت الشاعر والصحابي، تليني: تدنو مني. تسري: تتسلسل. النفحات: العطايا.

(٤٥) زهدت الشيء: تركته ورغبت عنه. الراحتان: الكفَّان. شاقني جوائز: هيجتني. الجوائز: جمع جائزة وهي العطيَّة. مبتغيات: مطلوبات.

(٤٦) لم تجز: لم تكن جائزة. الصدقات: جمع صدقة وهي العطيَّة، يُرَاد بها الثواب.

(٤٧) الدرر: جمع درة وهي اللؤلؤة العظيمة. المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين المشهور. الحصاة: الحجر الصغير، يريد أن للمتنبي الجيد والرديء من الشعر، أمَّا هو فله الجيد دائمًا.

(٤٨) نجت: خلصت. ودوركت: فعل المجهول من داركه إذا لحقه. السرير: سرير الملك.

(٤٩) صين: حُفِظَ. الجلال: التناهي في عظم القدر ورفعة الشأن. والعزُّ: القوة وعدم الذلِّ. والحسن: الجمال. والحسنات: جمع حسنة وهي ضد السيئة.

(٥٠) أمن: أعطى الأمان. يتامى: جمع يتيم وهو مَنْ مات أبوه. أقوات: جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. العفاة: طلاَّب المعروف، جمع عافٍ.

(٥١) مقصِّر: من قصر عن الأمر إذا تركه ولم يقدر عليه.

إلى عرفات

إلى عرفاتِ اللهِ يا خيرَ زائرٍ ... عليك سلامُ الله في عرفاتِ[١]
ويومَ تُولِّي وجهةَ البيت ناضرًا ... وسيمَ مجالي البشر والقسمات[٢]
على كلِّ أفقٍ بالحجاز ملائكٌ ... تزُفُّ تحايا الله والبركات[٣]
إذا حُدِيَتْ عيسُ الملوك، فإنسهم ... لِعيسك في البيداءِ خيرُ حُداة[٤]
لدى (الباب) جبريلُ الأمين، براحِهِ ... رسائلُ رحمانيَّةُ النَّفحَات[٥]

* * *

وفي الكعبة الغرَّاءِ ركنٌ مُرَحَّبٌ ... بكعبةِ قُصَّادٍ، ورُكْنِ عُفاة[٦]
وما سكب الميزابُ ماءً، وإنما ... أفاض عليك الأجرَ والرَّحمات[٧]
(وزمزمُ) تجري بين عينيْك أعينًا ... من الكَوْثرِ المعسولِ مُنفجِرات[٨]
ويرمون إبليسَ الرجيمَ، فيصطلي ... وشانِيكَ نيرانًا من الجمَرات[٩]
يُحيِيّكَ (طه) في مضاجع طُهره ... ويعلم ما عالجتَ من عقبات[١٠]
ويُثني عليك (الراشدون) بصالحٍ ... ورُبَّ ثناءٍ من لسان رُفات[١١]
لك الدينُ يا ربَّ الحَجِيج، جمعَتهم ... لبيتٍ طَهورِ السّاجِ والعَرصات[١٢]
أرى الناسَ أصنافًا، ومن كل بقعةٍ ... إليك انتهوْا من غُربَةٍ وشتات[١٣]
تساوَوْا، فلا الأنسابُ فيها تفاوتٌ ... لديك، ولا الأقدارُ مختلفات
عَنَتْ لك في التُّرْب المقدِّسِ جبهةٌ ... يَدينُ لها العاتي من الجبهات[١٤]
مُنَوَّرَة كالبدر، شَمَّاءُ كالسُّها ... وتُخفَض في حَقٍّ، وعند صلاة[١٥]

ويارِبِّ، لو سخَّرتَ ناقةَ (صالحٍ) لعبدك، ما كانت من السَّلسات[١٦]
ويا ربِّ، هل سيارة أو مطارةٌ فيدنو بعيدُ البيدِ والفَلَوات؟[١٧]
ويا ربِّ، هل تُغني عن العبد حَجَّةٌ وفي العمر ما فيه من الهفوات؟[١٨]
وتشهدُ ما آذيتُ نفسًا، ولم أضِرْ ولم أبْغِ في جَهري، ولا خطراتي[١٩]
ولا غلبتني شِقوةٌ أو سعادةٌ على حكمةٍ آتيتَني وأناة[٢٠]
ولا جال إلا الخيرُ بين سرائري لدى سُدةٍ خيريَّةِ الرغبات[٢١]
ولا بتُّ إلا كابن مريم، مشفقًا على حُسَّدي، مستغفرًا لعداتي[٢٢]
ولا حُمِّلَتْ نفسٌ هًوى لبلادها كنفسيَ، في فِعلي، وفي نفَثاتي[٢٣]
وإني — ولا منٌّ عليك بطاعة — أُجِلُّ، وأُغلي في الفروض زكاتي[٢٤]
أبالغُ فيها وهي عدل ورحمة ويتركها النُّسَّاك في الخلوات[٢٥]
وأنت وليُّ العفو، فامحُ بناصعٍ من الصفح ما سوَّدتُ من صفحاتي[٢٦]
ومَنْ تضحَكِ الدنيا إليه فيغْتَرر يمتْ كقتيل الغيد بالبسمات[٢٧]
وركب كإقبالِ الزمان، مُحجَّل كريمِ الحواشي، كابر الخطوات[٢٨]
يسيرُ بأرض أخرَجتْ خيرَ أمَّة وتحت سماءِ الوحي والسورات[٢٩]
يُفيض عليها اليُمْنَ في غدواته ويُضفِي عليها الأمنَ في الرّوحات[٣٠]

* * *

إذا زرتَ — يا مولايَ — قبرَ محمدٍ وقبَّلتَ مثوَى الأعظمِ العَطِرات[٣١]
وفاضت مع الدَّمع العيونُ مهابةً لأحمدَ بين السِّتر والحُجرات[٣٢]
وأشرق نورٌ تحت كلِّ ثَريَّةٍ وضاع أريجٌ تحت كل حَصاة[٣٣]
لمُظهر دينِ الله فوق تَنُوفَيةٍ وباني صروح المجِد فوق فلاة[٣٤]
فقل لرسولِ الله: يا خَيْرَ مُرسَل أبثُّك ما تدري من الحسرات[٣٥]
شعوبكُ في شرقِ البلادِ وغربَهَا كأصحابِ كهفٍ في عميق سُبات[٣٦]
بأيْمَانهم نورانِ: ذِكرٌ، وسُنَّةٌ فما بالُهم في حالِكِ الظلمات[٣٧]
وذلك ماضي مَجِدهم وفّخارِهم فما ضرُّهم لو يعملون لأتي؟[٣٨]
وهذا زمانٌ، أرضُه وسماؤه مجالٌ لمِقدامٍ كبيرِ حياة[٣٩]
مشى فيه قومٌ في السماءِ، وأنشئوا بوارجَ في الأبراج ممتنِعات[٤٠]
فقل: ربَّ وَفِّق للعظائم أمتي وَزَيِّنْ لها الأفعالَ والعزمات[٤١]

هوامش

(١) عرفات: اسم موضع وقوف الحاج على مقربة من مكة، وهو اسم واحد في صورة الجمع.

(٢) تولِّي وجهة البيت: تستقبلها. والوجهة: المكان الذي يستقبله الإنسان. ناضرًا من النضرة: وهي الحسن. وسيم: جميل مجالي البشر، والمراد الوجه. والبشر: طلاقة الوجه. القسمات: جمع قسمة وهي الوجه، وقيل: ما بين الوجنتين والأنف.

(٣) الأفق: الناحية. ملائك: جمع ملك. التحايا: جمع تحية.

(٤) حديت: من الحدُّاء وهو سوق الإبل والغناء لها. والعيس: الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة. والبيداء: المفازة. الحداة. جمع حاد

(٥) جبريل: هو أمين الوحي (عليه السلام). والراح: جمع راحة وهي الكف.

(٦) مرحب: من رحَّب به أي قال له مرحبًا. وقُصَّاد: جمع قاصد. وعفاة: جمع عافٍ وهو طالب المعروف.

(٧) سكب الماء: صبَّه. الميزاب (ويقال له مئزاب ومرزاب ومزراب): ما يسيل منه الماء من مكان عالٍ، قالوا: ومنه ميزاب الكعبة أي مصب ماء المطر من فوقها، وهو المراد هنا. أفاض: أفرغ.

(٨) زمزم: بئر عند الكعبة. والكوثر: نهر في الجنة، والكثير من الماء، والمعسول: الحلو.

(٩) إبليس: علَم جنس للشيطان. والرجيم: هو المطرود، والملعون، والمرجوم بالحجارة ويصطلي نيرانًا: يحترق بها. والشاني: المبغض، والجمرات: الحصيات، واحدتها جمرة.

(١٠) يحييك: من حيَّاه إذا قال له: حيَّاك الله، أي أطال عمرك. وطه: اسم النبي ﷺ ومضاجع: جمع مضطجع وهو مكان الاضطجاع. العقبات: واحدتها عقبة وهي الطريق الصعب في أعلى الجبل، والمراد هنا صعاب الأمور.

(١١) يثني عليك الراشدون: يذكرونك بخير. والراشدون: الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ. والرفات: ما بلي من جسم الإنسان بعد موته.

(١٢) الحجيج: جمع حاج وهم الحجاج. والساح: جمع ساحة وهي ساحة الدار. والعرصات: جمع عرصة وهي البقعة من بين الدور ليس فيها بناء.

(١٣) الأصناف: الأنواع. والغربة: الاغتراب. والشتات: التفرُّق.

(١٤) عنت لك: خضعت وذلَّت. والترب: التراب. ويدين لها: يطيعها. والعاتي من الجبهات: أي الجبهة العاتية التي تجاوزت الحدَّ في الاستكبار والجبروت والخطاب لله تعالى، يريد أن جبهة الممدوح عنت الله، وهي التي أطاعها العتاة المتكبرون.

(١٥) منوَّرة: صفة للجبهة في البيت السابق. وشمَّاء: مرتفعة، صفة للجبهة أيضًا. والسها: كوكب من بنات نعش الصغرى. وتخفض: من الخفض ضد الرفع.

(١٦) سخرت: من التسخير، وهو تذليل الدابة وركوبها بغير أجرة. والسلسات: جمع سلسة وهي المنقادة.

(١٧) السيَّارة: صيغة مبالغة من السير، جعله المتأدبون اسمًا (للأتومبيل). المطارة: سمِّي بها المركبة التي تطير في الجو بالوسائل الصناعية. يدنو: يقرب. والبيد: جمع بيداء. والفلوات: جمع فلاة.

(١٨) هل تغني عن العبد حجة: أي هل تنفعه حجة في مهم أمره عند الله. والهفوات: الزَّلات.

(١٩) وتشهد أنت يا رب ما آذيت نفسًا: أي لم أصل إليها بأذى. ولم أضر: لم أفعل ما يضرُّ. ولم أبغ: لم أرتكب البغي. والجهر: العلانية. والخطرات: واحدتها خطرة وهي ما يلوح للإنسان في فكره.

(٢٠) الشقوة: ضد السعادة. والحكمة: العدل، والحلم، وقيل: ما يمنع الجهل، وقيل: هي كل كلام واقع الحق، وقيل: هي وضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الحلم.

(٢١) جال: طافٍ غير مستقر. والسرائر: جمع سريرة وهي ما أسرَّه الإنسان من أمره. والسدَّة الباب.

(٢٢) ابن مريم: عيسى (عليه السلام). ومشفقًا على حسدي: حريصًا على صلاحهم. والحُسَّد: جمع حاسد. مستغفرًا لعداتي: طالبًا المغفرة. والعداة: جمع عدوٍّ.

(٢٣) الهوى: الحب. والنفثات: جمع نفثة، تطلق على الشعر مجازًا فيقال: ما أحسن نفثات فلان، أي ما أحسن شعره.

(٢٤) المنُّ: الامتنان بتعداد الصنائع. وأجلُّ زكاتي: أعظمها. وأغليها أجعلها غالية والفروض: ما فرضه الله من العبادات الخمس، والزكاة أحد هذه الفروض.

(٢٥) أبالغ فيها: من بالغ في الأمر أي اجتهد فيه ولم يقصر. والنُسَّاك: جمع ناسك وهو العابد المتزهِّد. في الخلوات: متعلق بالنُسَّاك.

(٢٦) وليُّ العفو: أي متوليه وصاحبه، والعفو: ترك العقوبة والإعراض عن المؤاخذة. امح: أزل. الناصع: الخالص الصافي. والصفح: ترك الشيء والإعراض عنه.

(٢٧) يغترُّ: يخدع بالشيء ويظنُّ به الأمن فلا يتحفظ. والغيد: جمع غيداء، وهي المرأة الطويلة العنق، والتي تنثني لينًا، والتي لطفت بشرتها وكمل حسنها، والبسمات: واحدتها بسمة وهي الضحكة من غير صوت.

(٢٨) المحجَّل من الخيل: ما في قوائمه بياض، والمعنى ركب مطاياه محجَّلة، أو محجل، ويكون المراد مشرق مضيء على سبيل المجاز، كقولهم: يوم أغرٌّ محجَّل. والحواشي الجوانب والنواحي والكابر: رفيع الشأن.

(٢٩) يسير بأرضٍ: يريد أرض الحجاز، ويريد بخير أمة العرب خاصة والمسلمين عامة. والوحي: أصله كل ما ألقيته إلى غيرك، ثم غلب على ما يلقى للأنبياء من عند الله. والسورات: هي سورات القرآن، جمع سورة.

(٣٠) يفيض: يسيل. واليمن: الخير والبركة. والغدوات: جمع غدوة وهي المرة من الغدوِّ. ويضفي عليها الأمن: يسبغه عليها. والروحات: جمع روحة وهي المرة من الرواح. والغدوُّ والرواح على إطلاقهما: الذهاب والمجيء في أي وقت. وضمير «عليها» للأرض في البيت السابق.

(٣١) إذا زرت يا مولاي: الخطاب للخديو. والمثوى: المقام. والأعظم: جمع عظم. والعطرات: المتطيبات بالعطر.

(٣٢) فاضت: سأل ماؤها. والمهابة: الخوف والتوقير. وأحمد: اسم النبي ﷺ أيضًا. الستر: ما يستر به. والحجرات: جمع حجرة وهي البيت الصغير في الدار.

(٣٣) الثنية: طريق العقبة. وضاع: فاح. والأريج: الرائحة الطيبة.

(٣٤) مظهر دين الله: معلنه والجاهر به. والتنوفة: المفازة وهي الأرض الواسعة البعيدة الأطراف. والصروح: جمع صرح وهو القصر، وكل بناء عالٍ. والفلاة: أي الصحراء القفر الواسعة.

(٣٥) أبثك: أطلعك. وما تدري: ما تعلم. والحسرات: جمع حسرة وهي أشد التلهُّف على الفائت.

(٣٦) شعوبك: جمع شعب وهو القبيلة العظيمة من الناس. والكهف: البيت الواسع المنقور في الجبل. والعميق: البعيد الغور. والسبات: النوم.

(٣٧) أيمانهم: جمع يمين، وهي الجهة المضادة لليسار والجارحة أيضًا، وهي المرادة هنا، والمعنى معهم نوران.. إلخ. والذكر: القرآن. والسنة: الشريعة، وقد تطلق

عند الفقهاء على جملة أحاديث النبي ﷺ والبال. الحال والشأن، أي ماذا غيَّر حالهم حتى ساروا في الظلمات الحالكة؟ والحالك: الشديد السواد. والظلمات: جمع ظلمة، وهي ذهاب النور.

(٣٨) المجد: العزُّ والرفعة. والفخار: المباهاة بالمناقب والمكارم.

(٣٩) المجال: مكان الجولان وهو الطواف في غير استقرار. المقدام: أصله الكثير الإقدام على العدوِّ، والمراد هنا الكثير الإقدام على عظائم الأمور.

(٤٠) مشى فيه: أي في هذا الزمان. وأنشئوا: أحدثوا. وبوارج: جمع بارجة وهي سفينة كبيرة للقتال. والأبراج جمع برج وهو في السماء بابها، وقيل منزلة القمر، وقيل الكوكب العظيم. وممتنعات: محتميات، والمعنى أن قومًا بلغوا من العزَّة في هذا الزمان أن مشوا في جوِّ السماء، يريد طاروا فيه وأنشئوا طيارات ترتفع حتى تكاد تصل إلى السماء.

(٤١) وفق للعظائم أمتى: ألهمها إياها. والعظائم: جمع عظيمة وهي ما عظم من الأمور. وزين لها الأفعال: اجعلها زينة عندها أي غير مشينة. والعزمات: جمع عزمة وهي الثبات والصبر فيما يعزم عليه.

مصر تجدد نفسها بنسائها المتجددات[1]

قمُ حيَّ هذي النَّيَّراتِ حَيَّ الحسانَ الخيَّرات
واخفض جبينَك هَيبةً للخُرَّد المتخفِّرات[1]
زيْنِ المقاصِر والحِجا لِ، وزيْن محرابِ الصلاة[2]
هذا مقامُ الأمهاتِ، فهل قدرت الأمهات؟
لا تَلْغُ فيه، ولا تقل غيرَ الفواصلِ مُحْكَمات[3]
وإذا خطبتَ فلا تكن خَطْبًا على مِصَر الفتاة
اذكرْ لها اليابانَ، لا أممَ الهوى المتهتِّكات
ماذا لَقِيتَ من الحضارة يا أخيَّ التُّرَّهات[4]
لم تلقَ غيَر الرقِّ من عُسْرٍ على الشرقِّي عات
خُذ بالكتابِ، وبالحديثِ، وسيرةِ السلَف الثِّقات[5]
وارجع إلى سنن الخليقةِ، واتَّبِعْ نُظمَ الحياة
هذا رسولُ الله، لم يُنْقص حقوقَ المؤمنات
العلمُ كان شريعةً لنسائه المُتفقِّهات[6]
رُضْنَ التجارَةَ، والسياسةَ، والشئونَ الأخريات[7]

---

[1] أُلْقِيَت هذه القصيدة في جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية.

ولـقـد عـلـت بـبـنـاتـهِ لُـجَـج الـعـلـوم الـزاخـرات
كانت سُكَيْنَةُ تملأُ الدنيـا، وتـهـزأُ بـالـرُّواة[8]
روت الـحـديـثَ، وفـسَّـرتْ آيَ الـكـتـاب الـبـيِّـنـات
وحـضـارةُ الإسـلام تـنـ ـطقُ عن مكان المسلمات
بـغـدادُ دارُ الـعـالـمَـا تِ، ومـنـزلُ الـمُـتـأدِّبـات[9]
ودِمـشـقُ تـحـتَ أمَـيَّـةٍ أمُّ الـجـواري الـنـابـغـات[10]
وريـاضُ أنـدلـسٍ نَـمَـيْـ ـنَ الهاتفاتِ الشاعرات[11]

* * *

ادْعُ الـرجـالَ لـيـنـظـروا كـيـف اتـحـادُ الـغـانـيـات؟
والـنـفـعَ كـيـف أخـذن فـي أسـبـابـه مـتـعـاونـات؟
لـمَّـا رأيـن نَـدى الـرَّجـا لِ تـفـاخُـرًا، أو حبَّ ذات[12]
ورأيـن عـنـدهُـمُ الـصـنـا ئعَ والـفـنـونَ مُـضـيَّـعـات
والـبـرَّ عـنـد الأغـنـيـا ءِ من الـشـئـون الـمـهـمَلات
أقـبـلـن يَـبـنـيـن الـمـنـا ئِـرَ لـلـنـجـاح مُـوفَّـقـات

* * *

لـلـصـالـحـاتِ عـقـائـلِ الـ ـوادي هوًى في الصالحات[13]
الـلـه أنـبـتـهـنَّ فـي طـاعـاتـه خـيـرَ الـنـبـات
فـأتـيـنَ أطـيـبَ مـا أتـى زَهَـرُ المناقِب والصَّفات[14]
لـم يـكـفِ أن أحـسـنَّ حـتَّـى زِدْنَ حَـضَّ الـمـحـصـنـات؟[15]
يـمـشـيـن فـي سـوقِ الـثـوا بِ، مـسـاوِمـاتٍ، رابـحـات
يَـلـبَـسْـن ذُلَّ الـسـائـلا تِ، وما ذَكرن البائسات[16]
فـوجـوهُـهُـنَّ ومـاؤهـا سِـتْـرٌ عـلـى الـمـتـجـمِّـلات[17]
مـصـرٌ تُـجـدِّد مـجـدَهـا بـنـسـائـهـا الـمـتـجـدِّدات
الـنـافـرات مـن الـجُـمـو د، كـأنـه شَـبَـحُ الـمـمـات[18]
هـل بـيـنـهـنَّ جـوامـدًا فـرقٌ وبـيـن الـمُـومِـيـات؟[19]
لـمـا حـضـنَّ لـنـا الـقـضـيَّـةَ كـن خـيـر الـحـاضِـنـاتِ[20]

غـذَّيْـنَـهـا فـي مـهـدهـا بـلـبـانِـهِـنَّ الـطـاهـرات
وسبقْن فيها المُعْلَميـ ـنَ إلى الكريهة مُعْلمات[21]
يَنْفُثْنَ في الفِتيات من رُوح الشجاعة والثَّبات[22]
يَهْوَيْنَ تقبيل المُهنَّد أو مُعانقةَ القناة[23]
ويَريْن حتى في الكرى قُبَلَ الرجال مُحرَّمات

هوامش

(١) الخرَّد: العذارى. والمخفرات: المستحييات.

(٢) الزين: ضد الشين. والمقاصر: جمع مقصورة وهي إمَّا الدار الواسعة المحصنة، أو الحجرة من حجر الدار. والحجال: جمع حجل وهو الخلخال.

(٣) لا تلغُ: لا تقل باطلاً عن غير رويَّة وفكر. والفواصل: جمع فاصلة وهي من السجع بمنزلة القافية من الشعر.

(٤) التُرَّهات: الطرق الصغار تتشعب عن الجادة، واحدتها تُرْهة، ثم استعيرت للباطل.

(٥) الثقات: جمع ثقة وهي الموثوق به، ويوصف به المفرد وغير المفرد، والمذكر والمؤنث.

(٦) المتفقِّهات: من تفقَّه أي تعلَّم الفقه وتعاطاه، والفقه هو علم الدين، أو من تفقَّه في العلم إذا تعلَّمه.

(٧) رضن: من راض الشيء أي ذلَّله وجعله مطيعًا.

(٨) سكينة، هي بنت الحسين بن الإمام عليٍّ (رضى الله عنه) وحفيدة الرسول ﷺ.

(٩) بغداد: مقرُّ مُلْك العباسيين بالعراق. والمتأدِّبات: المتعلمات الأدب.

(١٠) دمشق: مقرُّ الأمويين في الشام. والجواري: جمع جارية وهي الفتاة.

(١١) أندلس: بلاد في غرب أوربا، هي الآن مملكة إسبانيا أو بعضها، وكانت قديمًا مقرَّ ملك إسلامي عظيم، أوَّل مَنْ دخلها ونقل إليها حضارة وأنشأ بها ذلك الملك هو عبد الرحمن الداخل الأموي المسمَّى «صقر قريش». ونمين الهاتفات: من قولهم نمته عشيرته، أي رفعته بالانتساب إليها.

(١٢) الندى: الجود.

(١٣) الصالحات: ذوات الصلاح من النساء. والعقائل: جمع عقيلة وهي الكريمة المخدَّرة. والصالحات — في آخر البيت — صفة لمحذوف، أي والأفعال الصالحات.

(١٤) المناقب: المفاخر.

(١٥) الحضُّ: مصدر حضَّه على الأمر إذا حمله عليه.

(١٦) البائسات: الشديدات الحاجة.

(١٧) المتجمِّلات: الفقيرات اللاتي لم يظهرن ذلَّ الفقر.

(١٨) الجمود: التيبس.

(١٩) الموميات. واحدتها موميا، وهي يونانية معناها حافظ الأجسام، وتطلق اليوم على الأجسام المحنَّطة.

(٢٠) القضية: هي قضية استقلال وادي النيل.

(٢١) المعلمون: الفرسان لهم علامة في الحرب لبطولتهم.

(٢٢) ينفثن: من قولهم: نفث الله الشيء في القلب أي ألقاه.

(٢٣) المهنَّد: السيف. والقناة: الرمح.

خلافة الإسلام[١]

عادت أغاني العرسِ رَجْعَ نُواحِ ... ونُعيتِ بين معالم الأفراحِ[١]
كُفِّنتِ في ليلِ الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تبلُّج الإصباح[٢]
شُيِّعتِ من هَلَعٍ بعَبْرةِ ضاحكٍ ... في كلِّ ناحيةٍ، وسكرةِ صاح[٣]
ضجَّتْ عليكِ مآذنٌ، ومنابرٌ ... وبكت عليك ممالكٌ، ونواح
الهندُ والهةٌ، ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليك بمدمعٍ سَحَّاحِ[٤]
والشامُ تسألُ، والعراق، وفارسٌ ... أمَحَا من الأرض الخلافةَ ماح؟
وأتت لك الجُمَعُ الجلائلُ مأتمًا ... فقعدن فيه مَقاعدَ الأنواح[٥]
يا لَلرّجال لحُرَّة مَوءُودة ... قُتلت بغير جريرة وجُناح[٦]
إنَّ الَّذين أسَتْ جراحَكِ حربُهم ... قتلتْكِ سلمُهمو بغير جراحِ[٧]
هتكوا بأيدِيهم مُلاءَةَ فخرِهِم ... مَوْشِيَّةً بمواهب الفتاح[٨]
نزعوا عن الأعناق خيرَ قِلادة ... ونَضَوْا عن الأعطاف خير وِشاح[٩]
حَسَبٌ أتَى طولُ الليالي دونَه ... قد طاح بين عشيةٍ وصباح[١٠]

[١] ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة، ذلك النصر الحاسم، الذي كان حديث الدنيا، والذي تمَّ على يدِّ مصطفى باشا كمال في سنة ١٩٢٣، حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة، ونفى الخليفة من بلاد الأتراك، فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة، وينبِّه ممالك الإسلام إلى إسداء النصح للغازي، لعله يبني ما هُدِمَ وينصف مَنْ ظُلِمَ.

وعَلاقَةٌ فُصِمَت عُرَى أسبابها ... كانت أبرَّ علائقِ الأرواح
جَمَعَت على البرَّ الحُضورَ، وربَّما ... جمَعتْ عليه سرائرَ النُّزَّاح[11]
نظمت صفوفَ المسلمين وخَطْوَهم ... في كلَّ غُدوةِ جُمعةٍ ورواح
بكت الصلاةُ، وتلك فتنةُ عابثٍ ... بالشرع، عِرْبيد القضاءِ، وَقاح[12]
أفتى خُزَعْبِلَةً، وقال ضلالةً ... وأتى بكفر في البلادِ بواح[13]
إنَّ الذين جرى عليهم فقهُهُ ... خُلقوا لِفقه كتيبة وسلاح
إن حدَّثوا نطقوا بخُرْسِ كتائبٍ ... أو خوطبوا سمِعوا بضُمَّ رِماح
أستغفرُ الأخلاقَ، لستُ بجاحدٍ ... مَنْ كنتُ أدفعُ دونَه وألاحي[14]
ما لي أطوِّقُهُ الملامَ وطالما ... قلَّدتُه المأثورَ من أمداحي؟
هو ركنُ مملكة، وحائطُ دُولةٍ ... وقريعُ شهباءٍ، وكبشُ نِطاح[15]
أأقولُ مَنْ أحيا الجماعةَ مُلحِدٌ ... واقولُ مَنْ ردَّ الحقوقَ إباحي؟
الحقُّ أولى من وليَّك حرمةً ... وأحقُّ منك بنصرةٍ وكِفاح
فامدح على الحقِّ الرجالَ ولُمْهُمو ... أو خلَّ عنك مَواقفَ النُّصَّاح
ومِن الرجالِ إذا انبريتَ لهدمهم ... هرمٌ غليظُ مناكِبِ الصُّفاح[16]
فإذا قذفتَ الحق في أجلاده ... ترك الصراعَ مُضعْضَعَ الألواح[17]
أدُّوا إلى الغازي النصحيةَ يَنتصحْ ... إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماح[18]
إن الغرورَ سقى الرئيسَ بِراحِه ... كيف احتيالُك في صريع الراح؟
نقل الشرائعَ، والعقائدَ، والقرى ... والناسَ نقلَ كتائبٍ في الساح[19]
تركتهْ كالشبح المؤلَّهِ أمَّةٌ ... لم تَسْلُ بعدُ عبادةَ الأشباح
هُم أطلقوا يده كقيصَر فيهمو ... حتى تناول كلَّ غيرِ مباح
غرَّته طاعاتُ الجُموعِ، ودولةٌ ... وجد السوادُ لها هَوَى المُرتاح
وإذا أخذتَ المجدَ من أمِّيةٍ ... لم تُعطَ غيرَ سَرابِه اللمَّاح[20]
منْ قائلٌ للمسلمين مقالةً ... لم يوحها غيرَ النصيحة واح؟
عهدُ الخلافِة فِيَّ أوّلُ ذائدٍ ... عن حوضها ببراعة نضَّاح[21]
حبٌّ لذاتِ اللهِ كان، ولم يزل ... وهوًى لذاتِ الحقَّ والإصلاح
إني أنا المصباحُ، لست بضائع ... حتى أكونَ فراشةَ المصباح[22]
غزواتُ (أدهم) كُلِّلَت بذوابِلٍ ... وفتوحُ أنورَ فُصِّلت بِصفاحِ[23]

ولَّتْ سيوفُهما، وبان قناهُما وشبا يَراعي غيرُ ذاتِ بَراح[٢٤]
لا تَبذلوا بُرَدَ النبي لِعاجزٍ عُزُلٍ، يدافَعُ دونَه بالرَّاح[٢٥]
بالأمس أوهى المسلمين جراحةً واليوم مدّ لهم يَدَّ الجرَّاح[٢٦]
فلتَسمَعُنَّ بكل أرضٍ داعيًا يدعو إلى (الكذَّابِ) أو لسَجاح[٢٧]
ولتشهدُنَّ بكل أرض فِتنةً فيها يباعُ الدَّين بيعَ سَماح
يُفتَى على ذهبِ المُعزَّ وسيفِه وهوى النفوس، وحِقْدِها المِلْحاح[٢٨]

هوامش

(١) الأغاني: جمع أغنية وهي ما يترنم به ويتغنى فيه من شعر ونحوه. والرجع: ما يردُّ في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته. والمعالم: جمع معلم وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده.

(٢) تبلُّج الإصباح: إشراقه وإنارته.

(٣) الهلع: الجزع الشديد. والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض، وقيل: هي تحلب الدمع.

(٤) الوالهة: الحزينة أو التي ذهب عقلها حزنًا. وسحاح: كثير السحِّ وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.

(٥) الجُمَع: واحدتها جمعة وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم. والأنواح: النائحات.

(٦) الموءودة: التي تُدْفَنُ حيَّة في التراب. والجناح: الإثم.

(٧) أست جراحك: داوتها. السلم: الصلح، والسلام أيضًا.

(٨) يقال: هتك الستر ونحوه: خرقه، أو جذبه فقطعه من موضعه، أو شق منه جزءًا فبدا ما وراءه. وموشية: منقوشة منمنمة. والفتَّاح: من أسماء الله تعالى.

(٩) نضوا: خلعوا. والأعطاف: جمع عطف وهو الجانب من كل شيء. والوشاح: شبه قلادة ينسج من جلد عريض ويرصَّع بالجواهر فتشدُّه المرأة بين عاتقها وكشحيها.

(١٠) طاح: ذهب.

(١١) البرُّ: الصلة والرفق. والنُّزَّاح: البعيدون، جمع نازح.

(١٢) العربيد: الشرير، والكثير العربدة، وهي سوء الخلق من السكر. والوقاح: ذو الوقاحة وهي قلَّة الحياء.

(١٣) الخزعبلة: الفكاهة والمزاح، أمَّا الباطل فهو الخزعبيل والخزعبل. ويقال: جاء بالكفر بواحًا أي بيِّنا، وقيل: جهارًا.

(١٤) أدفع دونه: أردُّ عنه بالحجَّة. ألاحي: من الملاحاة وهي الملاعنة.

(١٥) القريع: الغالب في المقارعة، وهي أن يضرب الأبطال بعضهم بعضًا. والشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح.

(١٦) المناكب هنا: الجوانب والنواحي، والصفاح: حجارة عريضة رقيقة.

(١٧) الأجلاد والتجاليد: جسم الإنسان وبدنه.

(١٨) الغازي: مصطفى كمال، وهو أيضًا المراد بالرئيس في البيت الثاني.

(١٩) الساح: جمع ساحة، والمراد ساحة الحرب.

(٢٠) اللمَّاح: اللمَّاع.

(٢١) الذائد: الحامي الدافع. والنضَّاح: الدافع أيضًا.

(٢٢) الفراشة: حيوان ذو جناحين يطير ويتهافت على السراج حتى يحترق.

(٢٣) الذوابل. صفة للرماح. والصفاح: جمع صفح وهو عرض السيف. وأدهم وأنور: هما القائدان التركيان الكبيران. والمراد بالرماح والسيوف هنا الأقلام.

(٢٤) القنا: جمع قناة. والشبا: جمع شباة وهي حدُّ كل شيء، البراح: الزوال.

(٢٥) العاجز العزل: حسين بن علي شريف الحجاز، يريد أنه طامع في الخلافة، فالأتراك إذا أصروا على خروجها منهم، كانوا بذلك قد بذلوها لهذا العاجز الذي لا يملك لحمايتها إلا يدًا خالية. والراح: جمع راحة وهي بطن الكف.

(٢٦) بالأمس أوهى.. إلخ: الموصوف بهذا العمل هو حسين بن علي أيضًا، وهو إشارة إلى خروجه على المسلمين وموالاته أعدائهم في الحرب الكبرى.

(٢٧) يريد أن تنحي الأتراك عن الخلافة أطمع فيها مَنْ لا يصلح لها، وجعل الدعاة لهؤلاء الطامعين يظهرون بكل مكان. والمراد بالكذَّاب: مسيلمة الكذَّاب. وسجاح: امرأة كانت تدَّعي النبوَّة.

(٢٨) المراد بذهبه وسيفه: المال الذي كان يبذل لَمَنْ أطاعوه، والعقاب الذي كان يصيب مَنْ خالفوه.

تكريم[1]

بأبي وروحي الناعماتِ الغيدا ... الباسماتِ عن اليتيمِ نضِيدَا[1]

الـرانـيـاتِ بـكـلِّ أحـورَ فـاتـرٍ ... يذرُ الخلِيَّ من القلوب عميدا[2]

الـروايـاتِ مـن الـسُّـلاف مـحـاجـرًا ... الـنـاهـلاتِ سـوالـفًـا وخـدودا[3]

اللاعباتِ على النسيم غدائرًا ... الراتعات مع النسيم قُدودا[4]

أقْبَلْن في ذهب الأصيلِ ووشْيِه ... مِلْءَ الغلائلِ لؤلؤًا وفريدا[5]

يَحدِجْنَ بالحدَق الحواسِدِ دُمْيَةً ... كِظباءِ وجْرةَ مُقْلَتيْنِ وجيدا[6]

حَوَتِ الجمالَ فلو ذهبتَ تزيدُها ... في الوهمِ حُسنًا ما استطعتَ مزيدا

لو مرَّ بالولدان طَيْفُ جمالها ... في الخلدِ خرُّوا رُكَّعًا وسُجودا

أشهى من العودِ المرنَّم منطقًا ... وألـذُّ مـن أوتـارِه تـغـريـدا

لو كنتَ سعدًا مُطلِقَ السجناءِ، لم ... تُطلْقِ لساحِرِ طْرفِها مصفودا[7]

ما قصَّر الرؤساءُ عنه، سعى له ... سعدٌ، فكان مُوفَّقا ورشيدا

يا مصرُ، أشبالُ العَرينِ ترعرعت ... ومشتْ إليك مِن السجون أسودا

---

[1] في وزارة سعد زغلول باشا سنة ١٩٣٤ أطلق سجناء، كانت المحاكم العسكرية الإنجليزية قد أدانتهم في مؤامرة شاع يومئذ أنها مبالغ فيها، وقد احتفل شباب البلاد بنجاة إخوانهم، فرجوا صاحب الديوان أن يشاركهم في هذا الاحتفال؛ فنظم هذه القصيدة، مشيرًا فيها إلى أهم ما كان يشغل بال الناس في ذلك العهد من الحوادث.

قاضي السياسِة نَالَهمْ بعقابِه   خَشِنَ الحكومةِ في السباب عَتيدا[٨]

أتَتِ الحوادثُ دون عقدِ قضائه   فانهار بيّنةً، ودُكَّ شهيدا[٩]

تقضي السياسةُ غيرَ مالكةٍ لِما   حكمتْ به نقضًا ولا توكيدا

قالوا: أتنْظمُ للشباب تحيةً   تَبْقى على جيدِ الزمان قصيدا؟

قلتُ: الشبابُ أتمُّ عِقدَ مآثرٍ   من أن أزيدهمو الثناءَ عقودا

قَبِلَتْ جُهُودَهُم البلادُ، وقبَّلتْ   تاجًا على هاماتهمْ معقودا[١٠]

خرجوا، فما مدُّوا حناجِرَهم، ولا   مَنُّوا على أوطانهم مجهودا

خَفِي الأساسُ عن العيون تواضعًا   من بعد ما رفع البناءَ مشيدا

ما كان أفطنَهم لكل خديعةٍ   ولكلَّ شرَّ بالبلاد أريدا

لما بنى الله القضيةَ منهمُ   قامت على الحقِّ المبينِ عَمُودا[١١]

جادوا بأيام الشبابِ، وأوشكوا   يتجاوزون إلى الحياةِ الجودا

طلبوا الجلاءَ على الجهادِ مَثُوبةً   لم يطلبوا أجْرَ الجهادِ زهيدا[١٢]

واللهِ: ما دون الجلاءِ ويومِه   يومٌ تُسميهِ الكِنانةُ عيدا

وجَدَ السجينُ يدًا تُحَطِّمُ قيْدَهُ   من ذا يُحطِّمُ للبلاد قيودا؟

ربحت من (التصريح) أن قيودها   قد صِرْنَ من ذهبٍ، وَكُنَّ حديدا[١٣]

أوَما تَروْن على (المنابع) عُدَّةً   لا تنجلي، وعلى الضّفاف عديدا؟[١٤]

يا فِتيةَ النيل السعيدِ: خذوا المدى   واستأنِفوا نَفَسَ الجهادِ مَديدا

وتنكَّبوا العدوان، واجتنبوا الأذى   وقفوا بمصرَ الموقِف المحمودا[١٥]

الأرضُ أليقُ منزلاً بجماعة   يبغون أسبابَ السماءِ قُعودا

أنتم غدًا أهلُ الأمور، وإنما   كنَّا عليكم في الأمور وُفُودا

فابنوا على أسُس الزمان وروحِه   رُكنَ الحضارة باذخًا وشديدا

الهدمُ أجملُ من بناية مُصْلح   يَبْني على الأسُسِ العتاقِ جديدا

وجْهُ الكنانةِ ليس يُغْضِبُ ربَّكم   أن تجعلوه كوجهه معبودا

ولُّوا إليه في الدُّروس وُجُوهَكم   وإذا فرغتُم، واعبدوه هُجودا[١٦]

إنَّ الذي قسمَ البلادَ حباكمُ   بلدًا كأوطان النجومِ مَجيدا[١٧]

قد كان — والدنيا لُحُودٌ كُلُّها —   للعبقريةِ والفنونِ مُهودا

مجدُ الأمور زوالُه في زَلَّةٍ   لا تَرْجُ لِإسْمكَ بالأمور خلودا

الـفـردُ بـالـشُّـورى، وبـاسـم نَـديَّـهـا لُفظَ (الخليفةُ) في الظلام شريدا[١٨]
خلعتهُ دون المسلمينَ عصابةٌ لم يجعلوا للمسلمين وجودا
يـقـضـون ذلـك عـن سـوادٍ غـافـلٍ خُلِق السوادُ مُضلَّلا وَمَسودا[١٩]
جعلوا مشيئتَهُ الغبيَّةَ سُلَّمًا نحو الأمور لِمَنْ أراد صعودا
إني نظرتُ إلى الشعوب فلم أجدْ كالجهل داءً للشعوب مُبيدا
الـجـهـلُ لا يـلـدُ الـحـيـاةَ مـواتُـهُ إلاَّ كما تَلدُ الرَّمامُ الدودا[٢٠]
لم يخلُ من صُوَرِ الحياةِ، وإنما أخطاُه عُنصرُها، فمات وليدا[٢١]
وإذا سبى الفردُ المُسلَّطُ مجلسًا ألفيتَ أحرارَ الرجال عبيدا
ورأيت في صدر النَّدىِّ مُنَوَّمًا في عُصبْةٍ يتحرَّكون رُقودا
الـحـقُّ سـهـمٌ، لا تـرِشْـهُ بـبـاطـلٍ ما كان سهمُ المُبْطِلين سديدا[٢٢]
والـعـبْ بـغـيـر سـلاحـه، فـلَـربَّـمـا قتلَ الرجالَ سلاحُهُ مردودا

هوامش

(١) بأبي وروحي: أي أفتدي بهما. والغيد: جمع غيداء وهي الجارية اللينة الأعطاف. واليتيم من كل شيء: ما لا نظير له، والمراد هنا الأسنان. والنضيد: المنضود المتَّسق.

(٢) الرانيات: اللاتي يُدِمْن النظر بطرف ساكن. والأحور: من الحور وهو شدَّة سواد العين في شدَّة بياضها. والعميد من القلوب: ما هدَّه العشق.

(٣) السلاف: أطيب الخمر، ويراد به هنا سحر العيون. والناهل: الريَّان. والسوالف: صفحات الأعناق.

(٤) الغدائر: جمع غديرة وهي الذؤابة من الشعر. والقدود: جمع قدٍّ وهو القامة.

(٥) الوشي: النمنمة والتحسين. والغلائل: الأثواب الرقيقة. والفريد: الدُّر المنظوم.

(٦) حدجه بنظره: حدد النظر إليه. والحدق: الأحداق. والدمية: الصورة المنقَّشة المزينة، فيها حمرة كالدَّم، ويضرب بها المثل في الحسن، ويراد بها هنا الحسناء. ووجرة: موضع بين مكة والبصرة تسكنة الظباء والوحوش، والمراد في هذا البيت أن أولئك الجميلات على ما أسبغ الله عليهن من نعمة الجمال، وقفن ينظرن إلى هذه الحسناء التي

ابتدأ الشاعر في وصفها، يحسدْنها على ما أوتيت من سحر؛ ويدلك هذا الحسد على أن حظها من الحسن عظيم.

(٧) المصفود: الموثق المغلل، وهنا يتخلص الشاعر من هذا الغزل الرقيق؛ ليسوق إليك ما أراد من تعزية السجناء عما نالهم من ظلم، وتهنئتهم بما أتيح لهم من نجاة، ثم شكر المحسنين إلى هؤلاء السجناء.

(٨) خشن الحكومة: أي قاسيًا. والعتيد: الجسيم، وهو هنا الجسيم من الظلم.

(٩) الشهيد: الشاهد. وانهيار البينة: ثبوت بطلانها. وسقوط الشهود: ثبوت تزويرهم.

(١٠) الهامات: الرءوس.

(١١) القضية: السياسة المصرية.

(١٢) يريد بالجلاء جلاء الجنود الإنجليزية المحتلَّة عن أرض البلاد.

(١٣) تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢.

(١٤) منابع النيل.

(١٥) تنكَّبوا العدوان: أي تجنَّبوه.

(١٦) الهجود: جمع هاجد وهو النائم أو المصلي بالليل.

(١٧) حباه: أعطاه. وأوطان النجوم: كناية عن السماء.

(١٨) الندى: المجمع. ولفظه: رمى به وطرحه.

(١٩) سواد الناس: عامتهم.

(٢٠) موات الجهل: الخراب الذي يحدث بسببه. والرمام: جمع رمَّة وهي العظام البالية، والمراد بها هنا الجيفة. ومعنى البيت أن الجاهل ميت، والميت بطبعه لا يلد ولا يأتي بعظيم، فإن ولد فكالجيفة المستحيلة لا ينشأ منها إلا الدود.

(٢١) الإشارة إلى الدود في البيت السابق.

(٢٢) راش السهم يريشه: ألصق عليه الريش حتى يكون أكثر نفاذًا.

على سفح الأهرام[1]

قِـف نـاجِ أهـرامَ الـجـلالِ، ونـادِ: هـل مـن بُـنـاتِـكَ مـجـلـسٌ أو نـاد؟[1]
نشكو، ونَفزعُ فيه بين عيونهم إن الأبـــوَّةَ مـــفـــزعُ الأولاد[2]
ونـبـثُّـهـم عـبـثّ الـهـوى بـتُـراثـهـم مـن كـل مُـلـقٍ لـلـهـوى بـقـيـاد[3]
ونُـبـيـنُ كـيـف تـفـرَّقَ الإخـوانُ فـي وقـتِ الـبـلاءِ تـفـرُّقَ الأضـداد[4]
إن الـمـغـالِـطَ فـي الـحـقـيـقـةِ نـفـسَـه بـاغٍ عـلـى الـنـفـسِ الـضـعـيـفـةِ عـاد[5]

***

قـل لـلأعـاجـيـبِ الـثـلاثِ مـقـالـةً مـن هـاتـفٍ بـمـكـانـهـن وشـاد[6]
لـلـه أنـتِ، فـمـا رأيـتُ عـلـى الـصـفـا هـذا الـجـلالَ ولا عـلـى الأوتـاد[7]
لـكِ كـالـمـعـابـدِ روعـةٌ قـدسـيّـةٌ وعـلـيـك روحـانـيَّـةُ الـعُـبَّـاد[8]
أسـسْـتِ مـن أحـلامِـهـم بـقـواعـد ورُفـعـتِ مـن أخـلاقـهـم بِـعـمـاد[9]
تـلـك الـرمـالُ بـجـانـبـيـكِ بـقـيـةٌ مـن نـعـمـةٍ، وسـمـاحـةٍ، ورمـاد[10]
إن نـحـن أكـرمـنـا الـنـزيـلَ حِـيـالَـهـا فـالـضـيـفُ عـنـدك مـوضِـعُ الإرفـاد[11]
هـذا (الأمـيـن) بـحـائـطـيـكِ مـطـوِّفًـا مـتـقـدِّمَ الـحُـجَّـاجِ والـوُفَّـاد؟[12]

[1] أمين أفندي الريحاني أديب من أدباء سوريا، وفد على مصر فأقام له بعض الأدباء حفلاً على سفح الأهرام، شاطرهم إيَّاه صاحب الديوان.

إن يعدُه منكِ الخلودُ، فشعرُه باقٍ، وليس بيانُه لنفاد[١٣]

* * *

إيه (أمينُ)، لمستَ كلَّ مُحجَّبٍ في الحسن من أثر العقول وبادي[١٤]
قم قبِّل الأحجارَ والأيدي التي أخذَتْ لها عهدًا من الآباد[١٥]
وخُذ النبوغَ عن الكنَانة، إنها مَهدُ الشموسِ، ومَسْقَطُ الآراد[١٦]
أمَّ القِرى — إن لم تكن أمَّ القُرى — ومثابةُ الأعيان والأفراد[١٧]
ما زال يغشى الشرقَ من لمحاتها في كل مُظلِمةٍ شُعاعٌ هادى[١٨]
رفعوا لكَ الريحان كاسمك طيِّبًا إن العَمارَ تحيَّةُ الأمجاد[١٩]
وتخيَّروا للمِهرجان مكانَه وجعلتُ موضعَ الاحتفاءِ فؤادي[٢٠]
سلف الزمان على المودَّة بيننا سنواتُ صحو بل سناتُ رقاد[٢١]
وإذا جمعتَ الطيباتِ رددتها لعتيقِ خمرٍ أو قديم وداد[٢٢]
يا نجمَ سوريًّا — ولست بأولٍ — ماذا نَمَتْ من نيِّرٍ وقاد؟؟[٢٣]
اطْلُعْ على يَمَنٍ بيُمنك في غدٍ وتجلَّ بعد غدٍ على بغداد
وأجِلْ خيالَك في طُلولِ ممالِكٍ مما تجوبُ، وفي رُسُومِ بلاد[٢٤]
وسل القبورَ — ولا أقول سل القُرى — هل من ربيعة حاضرٌ أو بادي[٢٥]
سترى الديار من اختلافِ أمورها نطَقَ البعيرُ بها، وعَيَّ الحادي[٢٦]

* * *

قضَّيْتَ أيامَ الشباب بعالم لبس السنين قشيبةَ الأبراد[٢٧]
ولدَ البدائعَ والروائعَ كلها وعَدَتْهُ أن يَلدَ البيانَ عوادي
لم يخترع شيطانَ حسَّان، ولم تُخرج مصانعُه لسانَ زياد[٢٨]
الله كرَّم بالبيان عصابةً في العالمينَ عزيَزةَ الميلاد
(هوميرُ) أحدثُ من قرونٍ بعدَه شعرًا، وإن لم تخلُ من آحاد[٢٩]
والشعرُ في حيث النفوسُ تَلَذُّه لا في الجديد، ولا القديم العادي
حقُّ العشيرة في نبوغِك أوَّلاً فانظر، لعلك بالعشيرَة بادي[٣٠]
لم يَكفِهم شطرُ النبوغِ، فزدهُمُ إن كنت بالشطرين غيرَ جواد
أو دَعْ لسانَك واللغاتِ، فربّما غنَّى الأصيلُ بمنطِقِ الأجداد

إن الـذي مـلأ الـلـغـاتِ مـحـاسـنًـا　　جـعـلَ الـجـمـالَ وسـرَّه فـي الـضـاد[٣١]

هوامش

(١) ناج: من المناجاة وهي المسارة. والجلال: التناهي في عظم القدر. والبناة: جمع بانٍ. المجلس: مكان الجلوس. والنادي: اسم للمجلس حين يجتمع فيه القوم ليتحدثوا، فإذا تفرَّقوا فليس ناديًا.

(٢) نشكو: نعلن الشكوى. ونفزع: نستغيث، وضمير «فيه» للمجلس أو النادي. بين عيونهم: أي أمامهم. والأبوة: كون الرجل أبًا.

(٣) نبثُّهم: نكاشفهم. والعبث: اللعب. والهوى: إرادة النفس، وهو غالب في الشرِّ. القياد: في الأصل حبل يقاد به.

(٤) نبين: مضارع أبان الشيء أي أوضحه. والبلاء: الغمُّ يبلي الجسم.

(٥) المغالط نفسه: مُوقعها في الغلط. باغٍ: ظالم. عادٍ. ظالم أيضًا.

(٦) الأعاجيب الثلاث: يريد بها الأهرام الثلاثة، وإنما كانت أعاجيب؛ لأن الإنسان يستعظمها، فتعتريه روعة عند ذلك وهذا هو العجب، والمفرد أعجوبة وهي اسم لما يكون العجب منه. هاتف: مادح، من هتف به أي مدحه. شاد: من شدا الشعر أي غنى به وترنَّم.

(٧) الصفا: جمع صفاة وهي الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت. الأوتاد: الجبال.

(٨) الروعة: الفزعة، والمسحة من الجبال، والعبَّاد: جمع عابد.

(٩) الأحلام: العقول، جمع حلم. وعماد الشيء: ما يسند به. والخطاب في هذا البيت والبيتين قبله للأعاجيب الثلاث.

(١٠) السماحة: موافقة الرجل على ما يراد منه، وهي الجود والعطاء أيضًا. والرماد: ما يبقى من المواد المحترقة بعد احتراقها، وقد كنَّى به عن الكرم كما يقولون: فلان كثير الرماد أي كريم؛ لأنه يكثر من إيقاد النار لكثرة صنع الطعام للآكلين من الأضياف.

(١١) النزيل: الضيف. وحيالها: قبالتها. الإرفاد: الإعطاء.

(١٢) مطوِّفًا: دائرًا حولهما. والحجَّاج: القُصَّاد. والوُفَّاد: جمع وافد، من وفد إذا قدم.

(١٣) إن يعده: أي إن يجاوزه ويفته. والخلود: الدوام والبقاء، والمراد خلود الذكر لا خلود الشخص. والنفاد: الذهاب والانقطاع.

(١٤) إيه: اسم فعل معناه زدني من حديثك. المحجَّب: المستور. البادي: الظاهر.

(١٥) الآباد: جمع أبد وهو الدَّهر.

(١٦) النبوغ: الإجادة. والكنانة: مصر. والآراد: جمع راد، والمراد الضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس، وانبساط الضوء في الخمس الأول من النهار.

(١٧) القِرى: الضيافة، أو ما قُرِي به الضيف. والقُرى: جمع قرية. والمثابة: مجتمع القوم بعد تفرُّقهم. والأعيان: جمع عين وهو كبير القوم وشريفهم. أفراد الناس: كبارهم، ولا يقال للإنسان الواحد فرد، بل يقال له فريد.

(١٨) يغشى الشرق: يغطيه. واللمحات: جمع لمحة وهي النظرة الخفيفة بالعجلة. والشعاع: ما ينتشر من ضوء الشمس.

(١٩) الريحان: نبات طيِّب الرائحة. والأمجاد: جمع مجيد وهو الكريم الشريف.

(٢٠) المهرجان: هو عيد الفرس، وكان يوافق أول الشتاء، ثم صار في الخريف، والمراد به هنا الاحتفال. والاحتفاء: المبالغة في الإكرام وإظهار السرور والفرح.

(٢١) سلف: مضى. والسنوات: جمع سَنَة. والسنات: جمع سِنَة وهي النعاس. والرقاد: النوم.

(٢٢) رددتها: أي أرجعت نسبتها. والعتيق: القديم.

(٢٣) ولست بأولٍ: احتراس من الإطلاق، أي وإن كنت نجم سوريا فلست الأول من نجومها، الأوَّل سواك، أو لست أول نجم لها، فقد سبقك أوائل آخرون. وماذا نمت: أي كم ذا رفعت بالانتساب إليها.

(٢٤) الطلول: جمع طلل وهو ما شخص من آثار الدار. والرسوم: جمع رسم وهو الأثر.

(٢٥) ربيعة: قبيلة من العرب. والحاضر: مَنْ ينزل الحضر. والبادي: مَنْ يذهب إلى البادية.

(٢٦) عيَّ الحادي: لم يستطع البيان والإفصاح.

(٢٧) قضيت: خطاب للريحاني. والعالم الذي قضى به أيام شبابه هو أمريكا التي قام بها. قشيبة الأبراد: جديدتها. والأبراد: جمع برد.

(٢٨) لم يخترع.. إلخ: يريد أنه عالم لم يرتق في اختراعه إلى حيث يبتدع البلاغة اللسانية التي كرَّم الله بها العرب. وحسَّان: الشاعر الصحابي المعروف. وزياد: هو زياد بن أبي سفيان، كان من أخطب العرب.

(٢٩) هومير: شاعر يوناني قديم، كان شعره قصصًا يضمِّنه وصف الأبطال والإشادة بذكرهم، وهو صاحب الإلياذة، يريد أن شعره — على أنه قديم — أجود من شعر الذين جاءوا بعده، وإن كانت أيامهم لم تخل من شعراء مجيدين هم آحاد في عددهم.

(٣٠) حق العشيرة.. إلخ: في هذا البيت والأبيات بعده أمور أخذ بها الريحاني في رفق ولين، فهو يقول له: إن كانت معانيك في كتابتك جيدة، فألفاظك فيها رديئة؛ لأنك أهملت جانب اللغة العربية، وهي الشطر الثاني من شطري النبوغ، وأيضًا يقتضي الوفاء لعشيرتك وقومك أن تحسن لغتهم حتى تغني بها.

(٣١) الضاد: اللغة العربية، وإنما سميت كذلك؛ لأن الضاد لا توجد في لغة سواها، ولا يقوى أهل اللغات الأخرى على النطق بها.

المطرية تتكلَّم[١]

يا ناشرَ العلم بهذا البلادْ ... وُفِّقتَ، نشرُ العلم مثلُ الجهاد

بانيَ صَرْحِ المجدِ، أنتَ الذي ... تبني بيوتَ العلم في كل ناد

بالعلم ساد الناسُ في عصرهم ... واخترقوا السبعَ الطِّباقَ الشِّداد[١]

أيطلب المجدَ ويبغي العلا ... قومٌ لسوقِ العلم فيهم كساد؟

نَقَّادُ أعمالك مُغْلٍ لها ... إذا غلا الدرُّ غلا الانتقاد[٢]

ما أصعبَ الفعلَ لمَنْ رامه ... وأسهلَ القولَ على مَنْ أراد

سمعًا لشكوايَ، فإن لم تجد ... منك قبولاً، فالشكاوى تُعاد[٣]

عدلاً على ما كان من فضلكم ... فالفضلُ إن وُزِّع بالعدلِ زاد[٤]

أسمعُ أحيانًا، وحينًا أرى ... مدرسةً في كلَّ حيًّ تُشاد

قَدَّمْتَ قبلي مدنًا أو قُرى ... كنتُ أنا السيفَ، وكنَّ النِجاد[٥]

أنا التي كنت سريرًا لمَنْ ... ساد (كإدّورْدَ) زمانًا وشاد[٦]

قد وحَّد الخالقَ في هيكلٍ ... من قبل سقراطَ ومن قبل عاد[٧]

وهذَّب الهندُ دياناتِهم ... بلك خافٍ من رموزي وباد[٨]

ومن تلاميذي موسى الذي ... أوحِيَ مِنْ بعدُ إليه فهاد[٩]

---

[١] أحسَّ صاحب الديوان أيام كان يسكن «المطرية» بحاجة هذا البلد إلى مدرسة تهذِّب أبناءه فناشد وزير المعارف يومئذ «سعد زغلول باشا» على لسان المطرية أن يقوم بإنشاء هذا الأثر الجليل.

وأُرْضعَ الحكمةَ عيسى الهدى — أيامَ تُربِي مهدُه والوساد[١٠]
مدرستي كانت حياضَ النُّهى — قرارةَ العرفان، دارَ الرشاد[١١]
مشايخُ اليونان يأتونها — يُلقون في العلم إليها القِياد
كنا نُسمِّيهم بصِبيانه — وصِبيتي بالشيب أهلُ السداد[١٢]
ذلك أمسِي، ما به ريبةٌ — ويوميَ (القبةُ) ذات العِماد[١٣]
أصبحتُ كالفردوسِ في ظلها — من مِصرَ للخنكا لِظِلي امتداد
لولا جُلَى زيتونيَ النَّضْرِ، ما — أقسمَ بالزيتونِ ربُّ العباد[١٤]
الواحةُ الزَّهراء ذات الغنى — تُربِي التي ما مثلها في البلاد[١٥]
تُريكَ بالصبح وجُنحِ الدُّجى — بدورَ حسن، وشموسَ اتقاد

* * *

بَنِيَّ — يا سعدُ — كُزغْبِ القَطا — لا نقَّص الله لهم من عِداد[١٦]
إن فاتكَ النسلُ فأكْرِمْ بهم — ورُبَّ نَسلٍ بالندى يُستفاد
أخشى عليهم من أذًى رائحٍ — يجمعهم في الفجر والعصر غاد[١٧]
صفيرُهُ يَسلُبني راحتي — ويمنعُ الجفنَ لذيذَ الرقاد[١٨]
يعقوبُ من ذئب بكى مُشفِقًا — فكيفَ أنيابُ الحديد الحِداد؟[١٩]
فانظرْ — رعاك الله — في حاجهم — فنظرةٌ منكَ تُنيلُ المراد[٢٠]
قد بسطوا الكفَّ على أنهم — في كرم الراح كصوْب العِهاد[٢١]
إن طُلب (القسط) فما منهمُ — إلا جوادٌ عن أبيه الجواد

هوامش

(١) ساد الناس: مجدوا وجلوا. والسبع الطِّباق: السموات السبع، وهي طباق أي مطابقة بعضها بعضًا.

(٢) النُّقَّاد: مبالغة من النقد، وهي في الكلام: إظهار ما به من العيوب، وفي غير الكلام: النظر إلى الشيء لمعرفة جيده من رديئه. ومغلٍ لها: من أغلى الشيء أي جعله غاليًا.

(٣) سمعًا لشكواى: أي اسمعها سمعًا.

(٤) عدلاً: أي أطلب عدلاً زائدًا على ما حصل من فضلكم.

(٥) النِّجاد: حمائل السيف.

(٦) السرير: تخت الملك. وساد: صار سيِّد قومه متسلطًا عليهم. وإدورد: ملك الإنجليز قبل الملك جورج القائم حينذاك. وشاد: رفع البناء.

(٧) الهيكل: بيت الأصنام. وسقراط: حكيم من حكماء اليونان. وعاد: اسم رجل من العرب الأولى سُمِّيت به قومه، وهم الذين أرسل إليهم هود نبي الله (عليه السلام).

(٨) هذَّب الشيء: خلَّصه مما يشينه وطهَّره من العيوب. والخافي: المستتر. والبادي: الظاهر.

(٩) موسى: النبي (عليه السلام). وأوحي إليه: أنزل الله عليه الوحي. وهاد: رجع إلى الحق.

(١٠) الحكمة: صواب الأمر، ووضع الشيء في موضعه، والعلم، والعدل، والحلم. وعيسى: ابن مريم (عليه السلام). والترب: التراب. والمهد: الموضع يهيأ للصبي. والوساد: المتكأ وكل ما يتوسَّد به من قماش وغيره، أي أيام أن كان ترابي مهده ووساده.

(١١) مدرسة المطرية القديمة: إحدى مدارس العلم الكبرى عند المصريين القدماء، وكان يقصدها الطلاب من بلاد اليونان وغيرها. القرارة: القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر.

(١٢) وصبيتي بالشيب: أي وتسمَّى صبيتي بالشيب.

(١٣) القبَّة: ناحية من ضواحي القاهرة، بها قصر عظيم بناه الخديو عباس حلمي، وقد غلب اسمها على هذا القصر. والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكَّر وتؤنَّث، مفردها عمادة.

(١٤) الزيتون: شجر مثمر معروف، وثمره يُسمَّى زيتونًا أيضًا، وتسمَّى به ضاحية أخرى من ضواحي القاهرة مجاورة للقبة.

(١٥) الواحة الزَّهراء: هي واحة عين شمس، والواحة: وادٍ متسع منخفض في الصحراء.

(١٦) الزغب: جمع أزغب وهو ما له شعر أو ريش صغير. القطا: جمع قطاة وهي طائر في حجم الحمامة.

(١٧) رائح: غادٍ، يريد قطار البخار الذي يركبه الأبناء إلى المدارس في القاهرة.

(١٨) صفيره: أي صفير القطار.

(١٩) يعقوب: النبي أبو يوسف (عليه السلام)، بكى على يوسف حين رجع إليه أبناؤه إخوة يوسف (عليه السلام) فأخبروه أن الذئب أكله، وقد كان يخاف عليه هذا من قبل، وقصة ذلك مبسوطة في كتب التاريخ الديني.

(٢٠) الحاج: جمع حاجة.

(٢١) كصوب العهاد: أي كنزول المطر. والعهاد: جمع عهد، والمطر ينزل متعاقبًا فيدرك آخره أوله.

الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد

سلْ «يَلْدِزًا» ذاتَ القصورِ   هل جاءَها نبأ البدور؟[1]
لو تستطيعُ إجابةً   لبكتْك بالدَّمع الغزير
أخنى عليها ما أنا   خ على الخَوَرْنَق والسَّدير[2]
ودها الجزيرةَ بعد إسماعيل   والملكِ الكبير[3]
ذهب الجميعُ، فلا القصو   رُ تُرى، ولا أهلُ القصور
فلكٌ يدورُ سعودُه   ونحوسُه بيد المدير
أين الأوانسُ في ذُرا   ها من ملائكة وحور؟[4]
المترَعاتُ من النعيـ   ـمِ، الرواياتُ من السرور[5]
العاثراتُ من الدلا   لِ، الناهضاتُ من الغرور
الآمراتُ على الولا   ةِ، الناهياتُ على الصدور[6]
الناعماتُ، الطيبا   تُ العَرْفِ، أمثالُ الزهور[7]
الذاهلاتُ عن الزما   نِ بنشوة العيشِ النضير
المشرفاتُ — وما انتقلـ   ـن — على الممالكِ والبحور
من كل بلقيسٍ على   كرسيِّ عِزَّتِها الوثير[8]
أمضى نفوذًا من زُبَيْـ   ـدَةَ في الإمارةِ والأمير[9]
بين الرَّفارف، والمشا   رفِ، والزخارف، والحرير[10]
والروضِ في حجم الدنا   والبحرِ في حجم الغديرِ

والـدرِّ مـؤتـلـقِ الـسـنـا والـمـسـكِ فـيَّـاحِ الـعـبـيـر
فـي مـسـكـنٍ فـوق الـسَّـمـا كِ، وفـوق غـاراتِ الـمـغـيـرِ[11]
بـيـن الـمـعـاقـل، والـقَـنـا والـخـيـل، والـجـمَّ الـغـفـيـر
سَـمَّـوْهُ (يَـلْـدِزَ)، والأفـو لُ نـهـايـةُ الـنـجـمِ الـمـغـيـر
دارت عـلـيـهـنّ الـدَّوا ئرُ في المخادع والخدور[12]
أمـسـيْـن فـي رِقِّ الـعـبـيـل وبـتْـنَ فـي أسـرِ الـعـشـيـر[13]
مـا يـنـتـهـيـن مـن الـصـلا ةِ ضـراعـةً ومـن الـنـذور
يـطْـلُـبـن نُـصـرةَ ربِّـهـن، وربُّـهـن بـلا نـصـيـر[14]
صـبـغ الـسـوادُ حَـبـيـرَهُـنَّ وكـان مـن يَـقـقِ الـخُـبـور[15]
أنـا إن عـجـزتُ فـإن فـي بُـرْدَيَّ أشـعـرَ مـن (جَـريـر)
خَطْبُ الإمامِ على النّظيـ ـم يـعـزُّ شـرحًـا والـنـثـيـر
عـظَـةُ الـمـلـوك، وعِـبْـرةُ الـ أيـام فـي الـزمـنِ الأخـيـر
شـيـخُ الـمـلـوكِ وإن تـضـعـ ـضع في الفؤادِ وفي الضمير
نـسـتـغـفـرُ الـمـولـى لـه والـلـه يـعـفـو عـن كـثـيـر
ونـراه عـنـد مُـصـابـه أولـى بـبـاكٍ أو عَـذيـر
ونـصـونُـه، ونُـجِـلُّـه بـيـن الـشـمـاتَـةِ والـنـكـيـر
عبدَ الحميد، حسابُ مثـ ـلِكَ في يِد الملكِ الغفور
سُـدْتَ الـثـلاثـيـنَ الـطـوا لَ، ولسْنَ بالحُكم القصير[16]
تـنـهـى وتـأمـر مـا بـدا لك في الكبير وفي الصغير
لا تـسـتـشـيـرُ وفـي الـحِـمـى عددُ الكواكب من مُشير
كـم سـبَّـحـوا لـك فـي الـروا ح، وألَّـهـوكَ لـدى الـبُـكـور
ورأيـتَـهـم لـك سـجـدًا كسجود موسى في الحضور[17]
خـفـضـوا الـرءُوسَ ووتَّـروا بـالـذلِّ أقـواسَ الـظـهـور[18]
مـاذا دهـاك مـن الأمـو ر وكـنـتَ داهـيـةَ الأمـور؟
مـا كنتَ إن حدثَتْ وجلَّتْ بـالـجـزوعِ ولا الـعَـثـور
أيـن الـرَّوِيَّـةُ، والأنـا ةُ، وحكمةُ الشيخ الخبير؟
إنَّ الـقـضـاءَ إذا رمـى دكَّ الـقـواعـد مـن (ثَـبـيـر)[19]

دخلوا السرير عليكَ يحـ ـتكمون في ربِّ السرير[٢٠]
أعْظِمْ بهم من آسريـ ـنَ وبالخليفةِ من أسير
أسدٌ هَصورٌ أنشبَ الـ ـأظفارَ في أسدٍ هَصور[٢١]
قالوا: اعتزل. قلتَ: اعتزلـ ـتُ. والحكمُ لله القدير
صبروا لدولتكَ السنيـ ـن، وما صبرتَ سوى شهور
أوذيتَ من دُستورهم وحننتَ للحكم العسير
وغضبتَ كالمنصورِ أو هارون في خالي العصور[٢٢]
ضَنُّوا بِضائعِ حقِّهم وضننتَ بالدنيا الغرور
هلاَّ احتفظتَ به احتفا ظَ مُرحَّبٍ فرِحٍ قرير؟
هو حِلْيَةُ المَلِك الرشيـ ـدِ، وعِصْمَةُ المَلك الغرير
وبه يُبارَك في المما لكِ والملوكِ على الدُّهور

* * *

يأَيُّها الجيشُ الذي لا بالدَّعِيِّ، ولا الفَخور
يخفَى، فإن رِيعَ الحمى لفتَ البريَّةَ بالظهور[٢٣]
كالليث، يسرفُ في الفِعا لِ، وليس يُسرف في الزئير[٢٤]
الخاطب العلياءِ بالـ ـأرواح غاليةِ المهور
عند المُهيمن ما جرى في الحقِّ من دَمِكَ الطَّهور
يتلو الزمانُ صحيفةً غَرًّا مُذهَّبةَ السُّطور
في مدح (أنورَكَ) الجري ءِ، وفي (نِيازِيكَ) الجسور
يا (شوكت) الإسلام، بل يا فاتحَ البلدِ العسير[٢٥]
وابنَ الأكارم من بني (عُمَرَ) الكريمِ على (البشير)[٢٦]
القابضين على الصَّليـ ـل كجَدِّهم، وعلى الصَّرير[٢٧]
هل كان جدُّك في ردا ئك يوم زحفك والكرور؟
فقنصت صيَّادَ الأسود د، وصِدتَ قنَّاص النسور
وأخذتَ (يَلدزَ) عَنوةً ومَلكت عنقاءَ الثغور[٢٨]

* * *

الـمـؤمـنـون (بـمـصـر) يُـهــ	ــدون الــسـلامَ إلـى الأمـيـر
ويُـبـايـعـونـك يـا (مـحـمــ	ـدُ) في الضمائر والصدور[٢٩]
قــد أمَّــلــوا لــهــلالــهــم	حـظ الأهـلـةِ فـي الـمـسـيـر
فــابــلــغْ بــه أوْجَ الــكــمــا	ل بـقـوةِ الـلـهِ الـنـصـيـر
أنــت الــكــبــيــرُ، يُــقَــلَّــدو	نَكَ سيفَ (عثمانَ) الكبير
شـيـخُ الـغُـزَاةِ الـفـاتـحـيــ	ـنَ، حُسامُه شيخُ الذكور[٣٠]
يـمـضـي ويـغـمـد بـالـهـدى	فـكـأنـه سـيـف الـنـذيـر[٣١]
بُــشــرى الإمــام مــحــمــد	بـخـلافـة الـلـه الـقـديـر
بُـشـرى الـخـلافـةِ بـالإمـا	م الـعـادِلِ الـنـزهِ الـجـديـر
الـبـاعـثِ الـدسـتـورَ فـي الــ	ــإسلام من حُـفَـرِ الـقـبـور
أوْدَى «مـــعـــاويـــةٌ» بـــه	وبـعـثَـتـه قـبـل الـنُّـشـور[٣٢]
فـعـلـى الـخـلافـة مـنـكـمـا	نــورٌ تــلألأ فــوق نــور[٣٣]

هوامش

(١) يلدز: في لغة الترك: اسم نجم، وقد سُمِّي به قصر عظيم في الآستانة، كان يسكنه السلطان عبد الحميد أيام ملكه، والمخاطب بقوله (سل.. إلخ) هو هذا السلطان.

(٢) أخنى عليه الدهر: أتى عليه وأهلكه. والخورنق: قصر كان في الحيرة بالعراق للملك النعمان الأكبر أحد ملوك بني المنذر. والسدير: قصر كان بالحيرة أيضًا للمناذرة.

(٣) دهاه الأمر: أصابه. والجزيرة: هي جزيرة الروضة في النيل شرقي القاهرة، وكان بها قصر عظيم من قصور الخديو إسماعيل، وهو المراد.

(٤) الأوانس: جمع آنسة وهي الطيبة النفس. والحور: جمع حورية وهي المرأة البيضاء الناعمة.

(٥) المترعات: جمع مترعة، من أترع الإناء أي ملأه.

(٦) الولاة: جمع والٍ. الصدور: جمع صدر، ويقال له الصدر الأعظم، وهو كبير وزراء السلطان في الدولة التركية.

(٧) العرف: الرائحة الطيبة.

(٨) بلقيس: ملكة سبأ من أرض اليمن، وقصتها مع الملك سليمان مبسوطة في كتب التاريخ الديني. والوثير: اللين الموطئ.

(٩) زبيدة. زوجة الخليفة هارون الرشيد.

(١٠) الرَّفارف: جمع رفرف، وهو الفراش. والمشارف: جمع مشرف، وهو الموضع يشرف منه، ومشارف الأرض: أعاليها.

(١١) السِّماك: كوكب.

(١٢) الدوائر: جمع دائرة وهي النائبة من صروف الدهر. والمخادع: جمع مخدع (بضم الميم وكسرها) بيت يكون في البيت الكبير يحرز فيه الشيء.

(١٣) العبيل: الضخم الغيظ.

(١٤) ربهن: سيدهن وهو السلطان عبد الحميد.

(١٥) الحبير: الناعم الجديد. اليقق: الشديد البياض.

(١٦) الثلاثين الطوال: الأعوام التي مضت له وهو سلطان.

(١٧) كسجود موسى في الحضور: أي حضوره حين تجلَّى له الله فكلَّمه.

(١٨) وتَّروا بالذلِّ أقواس الظهور: أي جعلوا الذلِّ وترًا لأقواس ظهورهم، يعني أن الذلَّ قوَّس ظهورهم كما يفعل الوتر بالقوس إذا شُدَّ عليها.

(١٩) ثبير: جبل معروف.

(٢٠) يحتكمون في ربِّ السرير: يتصرَّفون فيه وفق مشيئتهم.

(٢١) أنشب أظفاره في الشيء: أعلقها فيه.

(٢٢) أبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد: من الخلفاء العباسيين.

(٢٣) ريع الحمى: أي راعه شيء وأفزعه.

(٢٤) الزئير: صوت الأسد.

(٢٥) أنور، ونيازي، وشوكت: كانوا من كبار القوَّاد في الجيش العثماني، وكانوا على رأس الحركة التي قام بها هذا الجيش لحمل السلطان عبد الحميد على إعادة الدستور وجعله أساس الحكم في البلاد التركيَّة.

(٢٦) عمر: هو الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، كان شوكت باشا من سلالته. والبشير: من أسماء النبي محمد ﷺ.

(٢٧) الصليل: الصوت يسمع عند المقارعة بالسيوف. الصرير: صوت القلم عند الكتابة به.

(٢٨) أخذ الشيء عنوة: أي قهرًا. العنقاء: طير معروف الاسم مجهول الجسم، يُضْرَبُ مثلاً لكل عزيز ممتنع، والمراد أنه ملك ثغر الآستانة الذي يشبه العنقاء في عزَّته وامتناعه.

(٢٩) محمد: هو السلطان محمد رشاد الخامس الخليفة بعد السلطان عبد الحميد.

(٣٠) الذكور: جمع ذكر وهو السيف.

(٣١) النذير: من أسماء النبي ﷺ.

(٣٢) أودى به: ذهب به وأضاعه. ومعاوية بن أبي سفيان: أول ملوك الدولة الأموية، وكان حكم الخلفاء الراشدين قبله شورى بين المسلمين، وهي معنى حكم الدستور، فلمَّا أخذ معاوية الملك استقلَّ فيه برأيه.

(٣٣) منكما: أي من الخليفة، ومن الدستور.

انتحار الطلبة[1]

ناشئٌ في الوَرْدِ من أيامِهِ   حسبُهُ الله، أبالوَرْدِ عثر؟[1]
سدَّد السهمَ إلى صدرِ الصبَّا   ورماه في حَوَاشِيه الغُرَر[2]
بيدٍ لا تعرفُ الشرَّ، ولا   صَلحَتْ إلا لتلهُو بالأكر[3]
بُسِطَتْ للسمِّ والحبل، وما   بُسِطت للكأس يومًا والوتَر
غفرَ الله له، ما ضرَّه   لو قضى من لذَّةِ العيشِ الوَطر؟
لم يُمَتَّع من صِبا أيامِهِ   ولياليه أصيلٌ وسَحر[4]
يَتمنى الشيخُ منه ساعةً   بحجابِ السمع، أو نورِ البصر[5]
ليسّ في الجنةِ ما يشبهه   خِفَّةً في الظلَّ، أو طيبَ قِصر
فصِبا الخلدِ كثيرٌ دائمٌ   وصِبا الدنيا عزيزٌ مخْتَصَر

* * *

كل يوم خبر عن حَدثٍ   سئم العيشَ، ومَنْ يَسأمْ يَذَر[6]
عاف بالدنيا بناءً بعد ما   خَطب الدُّنيا، وأهدَى، ومَهر[7]
حلَّ يومَ العُرسِ منها نفسَه   رحِمَ الله العَرُوسَ المخْتَضرَ[8]

[1] رأى صاحب الديوان ذلك المفزع الوبيء، الذي يفزع إليه صغار الطلبة في مصر بعد سقوطهم في الامتحانات؛ فنظم لهم هذه القصيدة، يقطع عليهم فيها سبيل اليأس، ويبسط لهم سبيل الأمل.

ضـاقَ بـالـعـيـشـةِ ذَرْعًـا، فـهَـوى ... عن شَفا اليأسِ، وبئسَ المُنحدَر[٩]
راحـلاً فـي مـثـلِ أعـمـارِ الـمـنـى ... ذاهـبًـا فـي مـثـلِ آجـالِ الـزَّهـر
هـاربًـا من سـاحـةِ الـعـيش، ومـا ... شـارَفَ الـغَـمرةَ مـنـهـا والـغُـدُر[١٠]
لا أرى الأيــامَ إلاَّ مَــعْــرَكًــا ... وأرى الصَّنديدَ فيهِ من صَبر[١١]
ربَّ واهـي الـجـأْشِ فـيـه قَـصَـفٌ ... مات بـالـجبنِ، وأودَى بـالـحذرَ[١٢]

* * *

لامــه الــنــاسُ، ومــا أظــلــمَــهــم ... وقــلــيــلٌ مَــنْ تَــغــاضَــى أو عــذَر
ولــقــد أبــلاكَ عــذرًا حــســنًــا ... مُرتدي الأكفانِ مُلقًّى في الحُفر
قــال نــاسٌ: صَــرْعَــةٌ مــن قــدر ... وقــديــمًــا ظَــلــم الــنــاس الــقّــدر
ويــقــول الــطــبُّ: بــل مــن جِــنَّــةٍ ... ورأيتُ العقلَ في الناسِ نَدَر[١٣]
ويــقــولــون: جــفــاءٌ راعَــه ... من أبٍ أغلظَ قلبًا من حَجر[١٤]
وامــتــحــانٌ صَــعَّــبــتــهُ وَطْــأةٌ ... شدَّها في العلم أستاذٌ نَكِر[١٥]
لا أرى إلاَّ نِــظــامًــا فــاســدًا ... فَـكَّكَ الـعـلـمَ، وأودى بـالأُسَـر؟
مِن ضَحاياه — وما أكثرها! — ... ذلك الكارِهُ في غَضِّ العُمُر[١٦]
ما أرى في العيش شيئًا سَرَّهُ ... وأخـفُّ الـعـيـش مـا سـاءَ وسَـر
نـزل الـعـيشَ، فـلـم يـنـزِل سـوى ... شـعـبـةِ الـهـمَّ، وبَـيْـداءِ الـفِـكـر[١٧]
ونــهــارٍ لــيــس فــيــهِ غــبــطــةٌ ... ولــيــالٍ لــيــس فــيــهــن سَــمــر[١٨]
ودروسٍ لــم يُــذلَّــل قــطــفَــهــا ... عـالـمٌ إن نطقَ الدرس سَـحـر[١٩]
ولـقـد تُـنِـهـكـه نـهـكَ الـضَّـنَـى ... ضَـرَّةٌ مـنـظـرُهـا سُـقْـمٌ وضُـر[٢٠]
ويــلاقــي نَــصَــبًــا مــمــا انــطــوَى ... في بني العَلاَّتِ من ضِغْنٍ وشر[٢١]
إخــوةٌ مــا جَــمــعــتــهــم رَحِــمٌ ... بعضُهم يمشون للبعض الخَمر[٢٢]
لـم يـرفـرِفْ مَـلـكُ الـحُـبِّ عـلـى ... أبـوَيـهـم أو يُـبـاركْ فـي الـثَّـمـر
خَـلَـقَ الـلـه مـن الـحُـبِّ الـورَى ... وبـنـى الـمُـلـك عـلـيـه وعـمَـر

* * *

نـشَـأَ الـخـيـرِ، رويـدًا، قـتـلُـكـم ... في الصَّبا النفسَ ضَلالٌ وخُسُر[٢٣]
لـو عـصـيـتُم كـاذبَ الـيـأسِ، فـمـا ... في صِباها ينحرُ النفسَ الضَّجَر[٢٤]

تُضمرُ اليأسَ من الدنيا وما ... عندها عن حادثِ الدُّنيا خبَر
فيم تجنون على آبائِكم ... أَلَمَ الثُّكل شديدًا في الكبر؟
وتعقّوَن بلادًا لم تَزَل ... بين إشفاق عليكم وحذر؟
فمصابُ المُلك في شُبَّانه ... كمصاب الأرضِ في الزرع النضِر
ليسَ يدري أحدٌ منكم بما ... كان يُعطى لو تأنى وانتظر
رُبَّ طفلٍ برَّحَ البؤْسُ به ... مُطِرَ الخيرَ فَتيّا ومطر[25]
وصبيٍّ أزْرَت الدُّنيا به ... شبَّ بين العزِّ فيها والخطر[26]
ورفيعٍ لمْ يُسوِّدْهُ أب ... مَنْ أبو الشمس، ومن جدُّ القمر؟
فلكٌ جارٍ، ودُنيا لم يدُم ... عندها السعدُ، ولا النحسُ استمرَّ
روَّحوا القلبَ بلذَّات الصَّبا ... فكفى الشيبُ مجالاً للكدر[27]
عالجوا الحكمةَ، واستشفوا بها ... وأنشدوا ما ضلَّ منها في السِّير[28]
واقرءُوا آدابَ مَنْ قبلكم ... ربّما علَّمَ حيًّا مَنْ غبر[29]
واغنموا ما سخَّر الله لكم ... من جَمال في المعاني والصُّوَر[30]
واطلبوا العلم لذات العلم، لا ... لشهاداتٍ وآراب أُخَر[31]
كَمْ غُلامٍ خامل في درسه ... صار بحَر العلم، أستاذَ العُصُر
ومُجِدٍّ فيه أمسى خامِلاً ... ليس فيمن غابَ أو فيمن حَضر

* * *

قاتلُ النفس — ولو كانت له — ... أسخطَ الله، ولم يُرضِ البشر
ساحةُ العيش إلى الله الذي ... جعلَ الوِرْدَ بإذنٍ والصَّدَر[32]
لا تموتُ النفسُ إلاَّ باسمه ... قامَ بالموتِ عليها وقهَر
إنما يسمحُ بالروح الفَتَى ... ساعةَ الرَّوْع إذا الجمعُ اشتجر[33]
فهناك الأجرُ والفخرُ معًا ... مَنْ يَعِشْ يُحمَدْ، ومن ماتَ أُجِر

هوامش

(١) حسبه الله: أي كفاه الله.

(٢) الصبا: الميل إلى جهالة الفتوة. والحواشي: الجوانب.

(٣) الأكر: جمع أكرة، وهي الكرة.

(٤) الأصيل: وقت ما بعد العصر إلى المغرب، والسحر: قبيل الصبح.

(٥) منه: أي من صبا الأيام.

(٦) الحدث: الشاب. ويذر: يترك.

(٧) عاف: كره. وبناء: من قولهم: بنى بأهله أي زُفَّت إليه. خطب: من خطبة الزواج. أهدى: أعطى الهدية. مهر: أعطى المهر.

(٨) المختضر: أي الميت في صباه، من اختضار الكلأ أي قطعه وهو أخضر.

(٩) ضاق بالشيء ذرعًا: ضعفت عنه طاقته ولم يجد مخلصًا من مكروهه. والشفا: حرف كل شيء.

(١٠) شارف الشيء: قاربه ودنا منه. وغمرة الشيء: شدَّته ومزدحمه. والغدر: جمع غدير وهو النهر أو القطعة من الماء يغادرها السيل.

(١١) الصنديد: السيِّد الشجاع.

(١٢) الواهي: الضعيف المتداعي إلى السقوط. الجأش: نفس الإنسان أو هو رواع القلب عند الفزع. والقصف: الخور والضعف. أودى: هلك.

(١٣) لجنة: الجنون.

(١٤) الجفاء: غلظة العشرة.

(١٥) النكر: الفطن.

(١٦) غضُّ العمر: أي العمر الغضِّ الناضر.

(١٧) شعبة الهمِّ: الطائفة منه.

(١٨) الغبطة: حسن الحال. والسمر: الحديث في الليل.

(١٩) يذلل: من ذلل الشيء: جعله هيِّنًا. وقطف الثمر: جنيه وجمعه، وقطف الشيء: أخذه بسرعة.

(٢٠) تنهكة: تضنيه. والضنى: المرض والهزال. وضرَّة المرأة: امرأة زوجها، وهما ضرَّتان، وهن ضرائر.

(٢١) بنو العلات (بفتح العين): هم بنو أمهات شتى من رجل واحد. والضغن: الحقد.

(٢٢) بعضهم يمشون للبعض. الخمر (بفتح الخاء): أي يختلونهم، ومنه قولهم: هو يدبُّ له الضرَّاء ويمشي له الخمر.

(٢٣) نشأ الخير: أي يا نشأ الخير. والنشأ (بفتح الشين): جمع نشء، و(بسكونها): تعني النسل. ورويدًا: أي مهلاً لتسمعوا ما أقول. والخسر (بضم السين): الخسران.

(٢٤) لو عصيتم كاذب اليأس: حضٌّ معناه: اعصوا كاذب اليأس.

(٢٥) برَّح به: جهده وآذاه. ومطر الخير (بضم الميم): أي أصابه كما يصيب المطر الارض. ومطر (بفتح الميم): أي صدر عنه الخير كالمطر.

(٢٦) أزرت به: تهاونت.

(٢٧) روِّحوا القلب: أي أنعشوه وطيِّبوه.

(٢٨) الحكمة: صواب الأمر وسداده ووضع الشيء في موضعه. السير (بكسر السين): جمع سيرة وهي للإنسان طريقة سلوكه بين الناس.

(٢٩) مَنْ غبر: مَنْ مضى.

(٣٠) اغنموا: من غنم الشيء أي فاز به من غير مشقَّة وأخذه بغير بذل.

(٣١) آراب: جمع أرب وهو الحاجة.

(٣٢) الورد: بلوغ الماء. والصدر: الرجوع عنه.

(٣٣) الروع: الفزع، ويأتي بمعنى الحرب، وهو المراد هنا.

عبث المشيب

ظلمَ الرجالُ نساءَهم وتعسَّفوا ... هل للنساءِ بمصر من أنصار؟[١]
يا معشرَ الكُتَّاب، أين بلاؤكم ... أين البيانُ وصائبُ الأفكار؟[٢]
أيهمُّكم عبثٌ، وليس يهمُّكم ... بنيانُ أخلاق بغير جدار؟[٣]
عندي على ضيم الحرائر بينَكم ... نبأ يثيرُ ضمائرَ الأحرار[٤]
مما رأيتُ وما علمتُ مسافرًا ... والعلمُ بعضُ فوائدِ الأسفار
فيه مجالٌ للكلام، ومذهبٌ ... ليَراعِ «باحثةٍ» و«سِتِّ الدار»[٥]

* * *

كثُرت على دارِ السعادة زُمْرَةٌ ... من مصر، أهلُ مَزراعٍ ويَسار[٦]
يتزوَّجون على نساءٍ تحتَهم ... لا صاحباتِ بُغًى، ولا بشرار[٧]
شاطرنهم نِعَمَ الصِّبا، وسقينْهم ... دهرًا بكأسِ للسُرورِ عُقار[٨]
الوالداتُ بَنيهُم وبناتِهم ... الحائطاتُ العِرْضَ كالأسوار[٩]
الصابراتُ لضرَّة ومضرَّة ... المحيياتُ الليلَ بالأذكار

* * *

مِنْ كُلَّ ذي سبعين، يكتمُ شَيْبَهُ ... والشيبُ في فَّوْدَيْه ضوءُ نهار[١٠]
يأْبى له في الشيب غيرَ سفاهة ... قلبٌ صغيرُ الهمِّ والأوطار[١١]
ما حلَّه عَطْفٌ، ولا رِفْقٌ، ولا ... برٌّ بأهل، أو هوًى لديار
كم ناهدٍ في اللاعبات صغيرةٍ ... ألْهته عن حَفَدٍ بمصر صغار[١٢]

مهما غدا أو راح في جولاته ... دفعته خاطبةٌ إلى سمسار[13]
شُغل المشايخ بالمتاب، وشغلُه ... بتبدُّلِ الأزواج والأصهار[14]
في كلَّ عامٍ همُّه في طَفْلَةٍ ... كالشمس، إن خُطِبتْ فللأقمار[15]
يرشو عليها الوالدين ثلاثة ... لم أدر أيُّهمُ الغليظُ الضاري؟
المالُ حلَّل كلَّ غيرِ محلَّلٍ ... حتى زواج الشَّيب بالأبكار
سَحَر القلوبَ، فربُّ أمٍّ قلبُها ... من سحره حجرٌ من الأحجار
دفعت بُنَيَّتها لأشأم مضجَعٍ ... ورَمَتْ بها في غُربة وإسار[16]
وتَعَلَّلَتْ بالشرع، قلت: كذبتِهِ ... ما كان شرعُ الله بالجزار[17]
ما زُوِّجت تلك الفتاةُ، وإنما ... بِيعَ الصِّبا والحسنُ بالدينار
بعضُ الزواج مُذمَّمٌ، ما بالزنا ... والرقِّ إن قِيسا به من عار
فتشتُ لم أرَ في الزواج كفاءَةً ... ككفاءَة الأزواجِ في الأعمار
أسفي على تلك المحاسنِ كلَّما ... نُقِلت من (البالي) إلى الدَّوّار
إن الحجابَ على (فروقٍ) جنةٌ ... وحجابُ مصرَ وريفِها من نار
وعلى وجوهٍ كالأهلَّةِ، رُوِّعَتْ ... بعد السفور ببرقع وخِمار[18]
وعلى الذوائب وهي مِسْكٌ خولطت ... عند العناق بمثل ذَوْبِ القار[19]
وعلى الشفاه المُحييات، أماتها ... ريحُ الشيوخ تهبُّ في الأسحار
وعلى المجالس فوق كل خَميلةٍ ... بين الجبالِ وشاطئ مِجبار[20]
تدنو الزوارقُ منه، تُنزلُ جؤذَرًا ... بقلادة، أو شادِنًا بسوار[21]
يرفُلن في أُزُرِ الحرير تنوَّعتْ ... ألوانُه، كالزَّهر في آذار[22]
الطاهراتُ اللَّحظِ، أمثالُ المها ... الناطقاتُ الجرْس كالأوتار[23]
الدَّهرُ فرَّقَ شملهن، فمُر به ... يا ربَّ تجمعُه يدُ المقدار

هوامش

(١) تعسَّفوا: ظلموا أو لم ينصفوا.
(٢) البلاء: الاختبار.
(٣) العبث: اللعب. الجدار: الحائط.
(٤) الحرائر: جمع حرَّة. الضمائر: جمع ضمير وهو قلب الإنسان وباطنه.

(٥) باحثة: هي المرحومة ملك ناصف، وكانت قد اتخذت لنفسها اسم «باحثة البادية» تذيل به مقالات كانت تذيعها بواسطة الصحف في شئون اجتماعية ونسوية. وست الدار: اسم كانت تذيل به مقالات في الصحف أيضًا.

(٦) دار السعادة: هي الآستانة. الزمرة: الجماعة متفرقة. اليسار: الغنى.

(٧) البغي والبغاء (مقصور وممدود): الزنى.

(٨) شاطرنهم: من شاطره الشيء أي ناصفه إيَّاه. والعقار: الخمر؛ لأنها تعقر العقل، أو لأنها تعاقر البدن أي تلازمه.

(٩) الوالدات: أي اللاتي هن والدات أبنائهن وبناتهن. والحائطات: من حاط الشيء أي حفظه وتعهَّده. والعرض: هو ما يصونه الإنسان من نفسه، أو سلفه، أو مَنْ يلزمه أمره، أو هو محلُّ المدح والذمِّ من الإنسان. والأسوار: جمع سور.

(١٠) الفودان: تثنية فود، وهو معظم الرأس مما يلي الأذن، وقيل هو ناصية الراس.

(١١) الهمُّ: ما يهمُّ به الإنسان في نفسه، ويقال: رجل همٌّ أي ذو همة يطلب معالي الأمور. الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة.

(١٢) الناهد: الجارية ارتفع ثديها. والحفد (بفتح الفاء): جمع حافد وهو ولد الولد كالحفيد.

(١٣) الخاطبة: مَنْ تتوسط في تزويج الرجال من النساء.

(١٤) المشايخ: أي مَنْ أدركتهم الشيخوخة. والمتاب: التوبة.

(١٥) الطفلة (بفتح الطاء): الرخصة الناعمة.

(١٦) أشأم مضجع: أي أشدُّ المضاجع شؤمًا. والإسار: الأسر.

(١٧) تعلل بالشيء: تلهى به واكتفى. وكذبته: أي كذبت عليه.

(١٨) وعلى وجوه: أي وأسفي على وجوه. والأهلَّة: جمع هلال. والخمار (بكسر الخاء): ما تغطي به المرأة رأسها.

(١٩) الذوائب: جمغ ذؤابة وهي الناصية. والقار: قيل: هو ما يُسمَّى بالزفت.

(٢٠) الخميلة: الشجر الكثيف الملتف، وقيل: الموضع الكثير الشجر. والمحبار: الأرض السريعة النبات الحسنة.

(٢١) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه. والشادن: ولد الظبية.

(٢٢) يرفلن: من رفل في ثيابه، أي أطالها وجرَّها متبخترًا. والأزر: جمع إزار وهو كل ما سترك. وآذار: الشهر الثالث من السنة الميلادية (شهر مارس).

(٢٣) المها: جمع مها وهي البقرة الوحشية. والجرس: الصوت.

أبو الهول[١]

أبا الهَوْلِ، طالَ عليكَ العُصُرْ وبُلِّغْتَ في الأرَضِ أقصى العُمُرْ[١]

فيا لدةَ الدَّهر، لا الدَّهرُ شَبَّ، ولا أنت جاوزتَ حدَّ الصِّغَر[٢]

إلامَ ركوبُكَ متنَ الرما لِ لِطيَّ الأصيل وَجَوْبِ السحر؟[٣]

تُسافر منتقلاً في القرو نِ، فأيان تُلقِى غبارَ السفر؟

أبينكَ عَهدٌ وبين الجبا لِ، تزولان في الموعد المنتظر؟[٤]

أبا الهول، ماذا وراءَ البقا ءِ — إذا ما تطاول — غيرُ الضجَر؟[٥]

عجبْت لِلُقمانَ في حِرصه على لُبَدٍ والنُّسور الأُخَر[٦]

وشكوى لبيدٍ لطولِ الحيا ة، ولو لم تَطُلْ لتَشكَّى القِصَر[٧]

ولو وُجِدَتْ يا بنَ الصَّفا ةِ لحَقتَ بِصانِعكَ المقتدر[٨]

فإن الحياةَ تفُلُّ الحديـ ـدَ إذا لبستْهُ، وتُبْلي الحجَر[٩]

أبا الهول، ما أنتَ في المُعضِلا تِ؟ لقد ضلَّت السُّبْلَ فيكَ الفِكَر![١٠]

تحيَّرَتِ البدوُ ماذا تكو نُ؟ وضلَّتْ بِوادي الظنونِ الحضر[١١]

فكنتَ لهم صورةَ العُنْفُوا ن، وكنت مِثالَ الحِجَى والبصر[١٢]

وسِرُّكَ في حُجْبه كلَّما أطلَّتْ عليه الظنونُ استتر[١٣]

---

[١] رُفِعَ الستار في مسرح حديقة الأزبكية يوم افتتاحه عن تمثال أبي الهول، يناجيه رجل بهذه القصيدة.

وما راعهم غيرُ رأْس الرجا ... لِ على هيكلٍ من ذوات الظُّفُر
ولو صُوَّروا من نواحي الطَّبا ... ع تَوالَوْا عليك سِباعَ الصُّوَر[١٤]
فيا رُبَّ وجهٍ كصافي النميرِ ... تشابَه حامِلُه والنَّمِر[١٥]
أبا الهول وَيْحَكَ لا يُستقلـ ... ـلُ مع الدَّهر شيءٌ ولا يُحتقَر[١٦]
تهزَّأتَ دهرًا بديك الصبا ... ح فنقَّرَ عينيك فيما نقَر[١٧]
أسال البياضَ، وسَلَّ السَّوَادَ ... وأوْغل مِنقارُه في الحفَر
فعُدْتَ كأنك ذو المَحْبِسَيـْ ... ـنِ، قطيعَ القيام، سَليبَ البصر[١٨]
كأن الرِّمال على جانِبَيْـ ... ـكَ وبين يديك ذنوبُ البشر
كأنك فيها لواءُ الفضا ... ءِ على الأرضِ، أو دَيدبانُ القدَر[١٩]
كأنكَ صاحبُ رملٍ يَرى ... خَبايا الغيوبِ خِلالَ السَّطَر[٢٠]

***

أبا الهول، أنت نديُم الزما ... نِ، نَجِيُّ الأوانِ، سميرُ العُصُر[٢١]
بسطت ذراعيْك من آدمٍ ... وولَّيتَ وجهَكَ شَطرَ الزُّمَر[٢٢]
تُطِلُّ على عالَمٍ يستهِـ ... ـلُّ وتُوفِي على عالَم يُحْتَضَر[٢٣]
فعينٌ إلى مَنْ بدا للوجو ... دِ، وأخرى مشيَّعةٌ من غَبَر[٢٤]
فحدَّث، فقد يُهتدى بالحديـ ... ـثِ، وخبِّر، فقد يؤتَسَى بالخبَر[٢٥]
إلى الشمس مُعتزيًا والقمر؟ ... إلى الشمس مُعتزيًا والقمر؟[٢٦]
ظليلَ الحضارةِ في الأوَّليـ ... ـنَ، رفيعَ البناءِ، جليلَ الأثر[٢٧]
يؤسَّسُ في الأرض للغابريـ ... ـنَ، ويغرِسُ للآخرين الثَّمر[٢٨]
وراعك ما راعَ من خيْلِ قَمْبيـ ... ـزَ، ترمي سَنابكُها بالشرَر[٢٩]
جوارفُ بالنارِ تغزو البلا ... دَ، وآونةً بالقنا المشْتجِر
وأبصرْتَ إسكندرًا في المَلا ... قَشيبَ العلا في الشباب النَّضِر[٣٠]
تبلَّجَ في مِصرَ إكليلُه ... فلم يَعْدُ في الملْك عُمْرَ الزَّهَر[٣١]
وشاهدتَ قيصرَ، كيف أستـ ... ـدَّ، وكيف أذلَّ بمصرَ القَصَر؟[٣٢]
وكيف تجبَّرَ أعوانُه ... وساقوا الخلائقَ سوْقَ الحُمُر؟
وكيف ابتُلوا بقليل العديـ ... ـدِ من الفاتحين كريم النفَر؟
رمَى تاجَ قيصرَ رَمْيَ الزُّجا ... ج، وفَلَّ الجموعَ، وثلَّ السُّرُر[٣٣]

فـدعْ كـلَّ طـاغـيـةٍ لـلـزمـا ... نِ، فـإن الـزمـانَ يُـقيـم الـصَّـعَـر[٣٤]
رأيـتَ الـدِّيـانـاتِ فـي نـظْـمِـهـا ... وحـيـنَ وَهَـى سِـلـكُـهـا وانـتـشـر[٣٥]
تُـشـادُ الـبـيـوتُ لـهـا كـالـبـرو ... ج، إذا أَخَذَ الطرْفُ فيها انحسر[٣٦]
تَـلاقـى أسـاسًـا وشُـمَّ الـجـبـا ... لِ، كما تتلاقى أصولُ الشجر[٣٧]
وإيـزيـسُ خـلْـفَ مـقـاصـيـرِه ... تـخـطَّـى الـملـوكُ إلـيـهـا الـسُّـتُـر[٣٨]
تـضـيء عـلـى صـفـحـات الـسـمـا ... ءِ، وتُشرقُ في الأرض منها الحُجَر[٣٩]
وآبـيـسُ فـي نِـيـره الـعـالَـمـو ... ن، وبـعـضُ الـعـقـائدِ نيرٌ عـسِـر[٤٠]
تُـسـاس بـه مُـعْـضِـلات الأمـو ... ر، ويُرجى النعيمُ، وتُخشَى سقر
ولا يـشـعُـرْ الـقـومُ إلاّ بـه ... ولـو أخـذتْـه الـمُـدى ما شـعـر
يَـقِـلُّ أبـو الـمـسـكِ عَـبـدًا لـه ... وإن صـاغَ أحـمـدُ فـيـه الـدُّرَر[٤١]
وآنـسـتَ مـوسـى وتـابـوتَـه ... ونـورَ الـعـصـا، والـوصـايـا الـغُـرَر[٤٢]
وعـيـسـى يَـلُـمُّ رداءَ الـحـيـا ... ءِ، ومـريـم تـجـمـع ذيـلَ الـخَـفَـر[٤٣]
وعـمـرو يـسـوقُ بـمـصـرَ الـصَّـحـا ... بَ، ويُزْجِي الكتابَ، ويحدو السُّور[٤٤]
فـكـيـف رأيـتَ الـهُـدى، والـضَّـلا ... لَ، ودنيا الملوكِ، وأخرى عُمَر؟[٤٥]
ونـبْـذَ الـمُـقَـوْقـسِ عـهـدَ الـفُـجـو ... ر، وأخذَ المقوقسِ عهدَ الفجر[٤٦]
وتـبـديـلَـه ظـلـمَـاتِ الـضـلا ... لِ بـصـبـح الـهـداية لـمَّا سَـفـر[٤٧]
وتـألـيـفَـه الـقِـبَـطَ والـمـسـلـمـيـ ... ـن كـمـا أُلِّـفَـتْ بـالـولاءِ الأُسَـر[٤٨]
أبـا الـهـول، لَـو لـم تـكـن آيـةً ... لـكـان وفـاؤك إحـدى الـعِـبـر[٤٩]
أطـلـتَ عـلـى الـهـرمـيـن الـوقـو ... فَ، كـثـاكـلـةٍ لا تَـريـم الـحـفـر[٥٠]
تُـرجِّـي لـبـانـيـهـمـا عـودةً ... وكيف يـعـودُ الـرميم الـنَّـخِـر؟[٥١]
تـجـوس بـعـيـنٍ خِـلاَلَ الـديـا ... رِ، وترمي بأخرى فضاءَ النهر[٥٢]
تـرومُ بـمـنـفِـيـس بـيـضَ الـظُّـبـا ... وسُـمْـرَ الـقـنـا، والـخـمـيسَ الدثر[٥٣]
ومَـهْـدَ الـعـلـومِ الـخـطـيـرَ الـجـلا ... لِ، وعـهـدَ الـفـنون الـجـليلَ الـخَـطر
فـلا تـسـتـبـيـن سـوى قـريـةٍ ... أجَـدُّ مـحـاسـنـهـا مـا انـدثـر[٥٤]
تـكـاد لإغـراقـهـا فـي الـجـمـو ... دِ إذا الأرض دارت بـهـا لـم تَـدُر
فـهـل مَـنْ يـبـلِّـغ عـنَّـا الأصـو ... لَ بأن الفروع اقتدت بالسِيَر؟[٥٥]
وأنَّـا خَـطـبـنـا حِـسـانَ الـعـلا ... وسـقـنـا لـهـا الـغـالـيَ الـمـدَّخَـر

وأنَّــا ركــبــنــا غــمــارَ الأمــو   رِ، وأنَّـا نـزلـنـا إلـى الـمـؤتـمـر[٥٦]
بــكــل مُــبــيــنٍ شــديــد الــلــدا   د، وكـل أريـبٍ بـعـيـد الـنـظـر[٥٧]
تــطــالــب بــالــحــق فــي أمــة   جـرى دَمُـهـا دونـه وانـتـشـر[٥٨]
ولــم تــفــتــخــر بــأســاطــيــلــهــا   ولـكـن بـدسـتـورهـا تـفـتـخـر[٥٩]
فـلـم يـبـقَ غـيـرُك مـنْ لـم يَـجِـف   ولـم يـبـقَ غـيـرُك مَـنْ لـم يَـطـر
تـحـرَّكْ أبـا الـهـول، هـذا الـزمـا   نُ تـحـرَّك مـا فـيـه، حـتـى الـحـجـر
فـهـل مَـنْ يـبـلِّـغ عـنَّـا الأصـو   لَ بأن الفروع اقتدت بالسِيَر؟[٦٠]
وأنَّــا خَـطـبـنـا حِـسـانَ الـعـلا   وسـقـنـا لـهـا الـغـالـيَ الـمـدَّخَـر
وأنَّــا ركــبــنــا غــمــارَ الأمــو   رِ، وأنَّـا نـزلـنـا إلـى الـمـؤتـمـر[٦١]
بــكــل مُــبــيــنٍ شــديــد الــلــدا   د، وكـل أريـبٍ بـعـيـد الـنـظـر[٦٢]
تــطــالــب بــالــحــق فــي أمــة   جـرى دَمُـهـا دونـه وانـتـشـر[٦٣]
ولــم تــفــتــخــر بــأســاطــيــلــهــا   ولـكـن بـدسـتـورهـا تـفـتـخـر[٦٤]
فـلـم يـبـقَ غـيـرُك مـنْ لـم يَـجِـف   ولـم يـبـقَ غـيـرُك مَـنْ لـم يَـطـر
تـحـرَّكْ أبـا الـهـول، هـذا الـزمـا   نُ تـحـرَّك مـا فـيـه، حـتـى الـحـجـر

«فلمَّا أتمَّها أجابه آخر كان يختفي وراء التمثال وينطق بلسانه»:

نـجـيَّ أبـي الـهـول آن الآوا   نُ، ودان الزمانُ، ولان القدر
خبأْتُ لقومك ما يستقو   ن، ولا يَخبأُ العذبَ مثلُ الحجر
فـعـنـدي الـمـلـوكُ بـأعـيـانـهـا   وعندَ التوابيتِ منها الأثر
محا ظلمةَ اليأْس صُبحُ الرجا   ءِ، وهذا هو الفَلُقُ المنتظر

«ثم انشقَّ صدرُ أبي الهول عن فتى وفتاة، مَثَلا أمامَه، وأنشَدا النشيد»:

اليوم نَسود بوادينا   ونُعيد محاسنَ ماضينا
ويشيدُ العزَّ بأيدينا   وطنٌ نَفديه ويَفدينا
وطنٌ بالحقِّ نُؤيِّدُه   وبعين الله نشيِّده
ونحسِّنُه، ونزيِّنُه   بمآثرنا ومساعينا

سرُّ التاريخ، وعُنصرُه وسريرُ الدهرِ ومِنبُره
وجِنانُ الخلد، وكوثُره وكفى الآباءُ رياحينا
نتَّخذُ الشمسَ له تاجا وضُحاها عرشًا وهاجا
وسماءَ السُّؤدَدِ أبراجا وكذلك كان أوالينا
العصرُ يراكُمْ، والأمم والكرنك يلحظُ، والهرمُ
أَبني الأوطان ألا هِمَمُ كبناءِ الأولِ يبنينا؟
سعيًا أبدًا، سعيًا سعيًا لأثيل المجد وللعَلْيا
ولنجعلْ مصرَ هي الدنيا ولنجعل مصر هي الدنيا

هوامش

(١) «طال عليك العصر» العَصر والعُصر والعِصر والعَصَر: الدَّهر، فالعصر هنا مفرد لا جمع، ومعنى طول الدهر على أبي الهول: أنه عمَّر أعمارًا طوالاً، وقد أوضح ذلك مع زيادة في التوكيد بقوله: وبلغت في الأرض أقصى العمر، والعُمُر (بضم العين والميم) لغة في العمر.

(٢) فيا لدَّة الدَّهر: فيا أخا الدَّهر وقرينه، فكأنك والدَّهر توأمان، خلقتما معًا في أوان، والبيت كما ترى آية في الإبداع وروعة البيان. ولا أنت جاوزت حدَّ الصغر: أي برغم أنك بلغت في الارض أقصى العمر.

(٣) إلام ركوبك: «إلى» من حروف الجر دخلت على «ما» الاستفهامية فبُنِيَت بناء كلمة واحدة، وسقطت الألف من «ما» طلبًا للخفة واعتدادًا بإلى الموصولة بها، وكذلك يفعلون في بمَ وفيمَ ومِمَّ، ولا يفعلون ذلك بما الخبرية، ومن العرب مَنْ يقف على مثل هذا بالهاء، فيقولون، في بمَ وفيمَ ومِمَّ، ولا يفعلون ذلك بما الخبرية، ومن العرب مَنْ يقف على مثل هذا بالهاء، فيقولون: إلامه وعمه وفيمه ولَمه.. هذا وإنه لتصوير شعري بديع رائع، تصوير أبي الهول راكبًا متن الرمال، يطوي الليل والنهار، ويسافر متنقلاً في القرون والأدهار. وجَوْب: في معنى طيٍّ.

(٤) في الموعد المنتظر: يوم يزول كل شيء، أي في اليوم الآخر.

(٥) ماذا وراء البقاء: يقول: ما وراء البقاء المتطاول غير السأم.. قال زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومَنْ يَعِش ثمانين حَوْلاً لا أبا لك يسأم

(٦) لقمان: هو لقمان بن عادياء، وتزعم العرب أنه الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم ليستقي لها، فلمَّا أهلكوا، خُيِّر لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر، من أظب عفر، في جبل وعر، لا يمسها القطر، أو بقاء سبعة أنسر، كلَّما أهلك نسر خلف بعده نسر؛ فاستحقر الأبقار وآثر النسور، فلمَّا لم يبق غير السابع قال ابن أخ له: يا عم! ما بقي من عمرك إلا عمر هذا، فقال لقمان: هذا لبد (ولبد بلسانهم: الدَّهر)، قالوا: وكان يأخذ فرخ النسر، فيجعله في حوبة في الجبل الذي هو في أصله، فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه، حتى هلكت كلها إلا السابع، أخذه فوضعه في ذلك الوضع وسمَّاه لبدًا، وكان أطولها عمرًا؛ فضربت العرب به المثل فقالوا: «طال الأبد على لبد».. قال الأعشى:

وأنت الذي ألهيت قيلا بكأسه ولقمان إذ خيَّرت لقمان في العمر
لنفسك أن تختار سبعة أنسر إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
فعمَّر حتى خال أن نسوره خلودٌ وهل تبقى النفوس على الدَّهر؟

فعاش لقمان — كما زعموا — ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة.. وقال النابغة:

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وهذا لقمان بن عادياء، غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم.

(٧) وشكوى لبيد: أي وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة.. إلخ، وهو لبيد بن ربيعة، الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم، صاحب المعلقة المشهورة التي أوَّلها:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

كان لبيد من المعمرين، روي أنه مات وهو ابن مائة وأربعين، وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومائة أول خلافة معاوية، أمَّا شكواه التي ألمع إليها، فذلك حيث يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

يقول: إذا لم يكن وراء البقاء المتطاول إلا الضجر، فإني أعجب للقمان في حرصه على أن تطول حياته. وللبيد الذي إن مل الحياة وسئم من طولها، فإنه لا محالة كان أكثر شكاة إذا هي لم تطل؛ لأن حبَّ الحياة جبلة مركوزة في الطباع.

(٨) وُجِدَت: أي الحياة. يا بن الصفاة: هي الحجر الصلد الذي لا ينبت شيئًا، وفي المثل: فلان ما تندى صفاته، وفي الحديث: لا تقرع لهم صفاة، أي لا ينالهم أحد بسوء، وأبو الهول ابن الصفاة؛ لأنه من الحجر. لحقت.. إلخ: أي لأدركك الموت.

(٩) فإن الحياة: من المعاني المبتكرة التي لا نظن صاحب الديوان قد سُبِقَ إليها على هذا الوجه.

(١٠) ما أنت في المعضلات: خبِّرني أي معضلة أنت في المعضلات وأي معمى؟!

(١١) تحيَّرت: يقول: حار الناس قاطبة في أمرك حاضرهم والبادي.

(١٢) صورة العنفوان لما ينطوي عليه جسمك الذي صُوِّر على صورة الأسد من معاني القوة. مثال الحجى والبصر: لما ينم عنه وجهك ورأسك المصوَّران على صورة وجه الإنسان من معاني الفطنة والبصر بالأمور.

(١٣) يقول: ومع ذلك لا يزال سرك مكتنًا في حجبه والناس من أمرك في ظلام.

(١٤) ولو صوَّروا: أي ما كان ينبغي أن يروِّع الناس منك أن كان رأسك على هيكل من ذوات الظفر؛ لأن الناس لو صوَّروا من نواحي شيمهم وطباعهم لتوالوا عليك كأنهم وحوش، وهذا معنى حسن بديع، وقد زاده حسنًا وأكدَّه بقوله: فيا ربَّ وجه كصافي النمير.

(١٥) النمير: الماء الناجع في الري، أو النامي، أو الكثير، والنمر: هو ذلك الحيوان المعروف بمكره وخبثه وشراسته، وهذا البيت من جوامع الكلم وروائع الحكم، ولا يخفي ما فيه من الجناس بين النمير وبين النمر.. وللشعراء فيما يتصل بهذا المعنى ويقاربه ما يخطئه العدُّ والإحصاء، فمن ذلك ما يقول القائل:

لا يغرَّنك ما ترى من أناس إن تحت الضلوع داء دويًّا

ويقول الأبيوردي:

يلقاك، والعسل المصفى يجتنى   من قوله، ومن الفعال العلقم
يبدي الهوى ويثور — إن عرضت   له فرص — عليك كما يثور الأرقم

ويقول الشريف الرضي:

لا تجعلنَّ دليلَ المرءِ صورتَه   كم مخبر سمج عن منظر حسن

ويقول:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه   أبَى بعد طول العمر أن يتقوَّما
تقبلت منه ظاهرًا متبلجًا   وأدمج دوني باطنًا متجِّهما
ولو أنني كشفته عن ضميره   أقمت على ما بيننا اليوم مأتما

وقال آخر:

يعطيك ودًّا صادقًا بلسانه   ويجن تحت ضلوعه ألوانا

وقال أبو فراس:

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم   ذئابًا على أجسادهن ثياب

وقال آخر:

ظننت بهم خيرًا فلمَّا بلوتهم   نزلت بوادٍ منهم غير ذي زرع

ويقول أبو تمام:

إن شئت أن يسود ظنك كله   فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرًا   متبسمًا عن باطن متجهم

(١٦) لا يستقل: لا يُعدُّ قليلاً، وهذا البيت كالتمهيد لما بعده.

(١٧) ديك الصباح: يريد الزمن، والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحية صياحها فيه معروفة، وإنه لَتَخيل شعري جميل، ومن بارع حسن التعليل أن جعل سبب عبث الدهر بأبي الهول وتشويهه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسلَّ سوادهما، هو هزء أبي الهول به، وسخريته منه، وعدم اكتراثه، ثم تعبيره عن الدَّهر بديك الصباح. هذا، ولمناسبة ذكر ديك الصباح نقول: إنه ورد في بعض الآثار: «لا تسبوا الديكه فإنها تدعو إلى الصلاة».. ولابن المعتز:

بشَّر بالصبح هاتفٌ هتفا هاج بالليل بعد ما انتصفا
مذكِّر بالصبوح هاج بنا كخاطب فوق منبر وقفا
صفق إمَّا ارتياحة لسنا الـ ـفجر وإمَّا على الدَّجى أسفا

وللمعري:

أيا ديك، عدت من أياديك صيحة بعثت بها ميت الكرى وهو نائمٌ
هتف، فقال الناس: أوس بن معبر أو ابن رباح بالمحلة قائمٌ

إلى أن يقول:

عليك ثياب خاطها الله قادرًا بها رئمتك العاطفات الروائم
وتاجك معقود، كأنك هرمز يباهي به أملاكه ويوائم
وعينك سقط ما خبا عند قرة كلمعة برق ما لها الدهر شائم
وما زلت للدين القويم دعامة إذ قلقت من حامليها الدعائم

أوس بن معبر: هو مؤذن رسول الله ﷺ بمكة بعد الفتح. وابن رباح: هو بلال، كان يؤذن لرسول الله ﷺ سفرًا وحضرًا. ورئمتك: عطفت عليك ولزمتك. ويوائم: يوافق ويلائم. والسقط: ما سقط من النار بين الزندين قبل استحكام الوري. والقرة: البرد.

(١٨) المحبسين: المحبس هو الموضع الذي يحبس فيه، وكان يقال عن أبي العلاء المعري: رهين المحبسين أي رهين عماه وبيته، فكأنه من عماه في محبس، وكذلك أبو الهول، عدَّه شاعرنا بعد أن نقر ديك الصباح عينيه كأنه من عماه وسكونه في محبسين.

(١٩) ديدبان: فارسية معرَّبة أصلها ديده بان، ومعنى ديده: العين، وبان: ذو أي الرقيب والعين، ومعناها الخاص: الجندي المكلَّف بالحراسة.

(٢٠) السَّطَر: السطْر وهو الصف من الكتاب والشجر ونحوهما، ومعنى البيت ظاهر.

(٢١) نجيُّ الأوان: النجى (بوزن فعيل) هو الذي تسارِّه، وفي الحديث: «اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيك»، وهو الناجي المحدِّث للإنسان.

(٢٢) من آدم: أي من قديم الزمان. والزمر: جمع زمرة وهي الجماعة من الناس، والمراد هنا الناس جميعًا.

(٢٣) يستهل: يعني يقدم على الدنيا، من استهل الصبي بالبكاء أي رفع صوته وصاح عند الولادة. ويحتضر: حضر فلان واحتضر إذا نزل به الموت.

(٢٤) وأخرى مشيِّعة مَنْ غبر: مَنْ مضى، وإن هذا البيت لمشبع من الروعة والجلال.

(٢٥) فحدِّث: هذا البيت هو كالمدخل لما بعده.

(٢٦) ألم تبلُ فرعون: بلاه يبلوه بلوًا وابتلاء أي جرَّبه واختبره. وفرعون: لقب يطلق على كل مَنْ ولي مُلك مصر، كالنجاشي لملوك الحبشة، وقيصر لملوك الرومان، وفرعون أصلها في الهيروغليفية مركبة من «بي» وهي أداة التعريف كأل، و«راع» أي الشمس، فتكون كلمة واحدة، وراع أو راهو: معبود قوي وحاكم جبار يقاتل احتفاظًا بالحياة وإبقاءً على الكون، ومن هنا كان العتوِّ والجبروت وما في معناهما من مدلولات كلمة فرعون عند العرب، وإذن لا يقصد بفرعون فرعونًا معينًا، ولكن جميع فراعنة مصر، وقد ابتلاهم أبو الهول. إلى الشمس معتزيًا: تقول: ألم تبلُ يا أبا الهول فرعون وهو في عزِّه، حتى لكأنه من العزِّ والمنعة بحيث يناطح الشمس والقمر؛ لأن مَنْ اعتزى إلى شيء قاربه وشاكه، وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صورة أوزيريس الشمس، وإيزيس القمر؛ لأنهما من أصنامهم فلعله يشير إلى هذا مع إرادة معنى العزِّ والمنعة.

(٢٧) ظليل الحضارة: مكان ظليل أي ذو ظلٍّ دائم يستظلُّ به، يريد أن حضارة فرعون كانت من الكمال بحيث تظلُّ الناس، ويرتعون في ذراها وكنفها، والحضارة (بكسر الحاء وفتحها): الإقامة في الحضر. والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البدو والبادية، وهي المدن والقرى والريف؛ سمِّيت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار.. قال القطامي:

فمَنْ تكن الحضارة أعجبته ... فـأي رجـال بـاديـة تـرانـا

وقال المتنبي:

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية ... وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

ولكن الحضارة هنا بمعنى التمدين.

(٢٨) للغابرين: الغابر من الأضداد، فيكون بمعنى الباقي، ويكون بمعنى الماضي، ومن ثَمَّ يكون معنى البيت: إمَّا أن فرعون يخلِّد ذكر الماضين بإقامة الآثار لهم والتماثيل ويغرس للأتين ما يجنون ثمره من دور العلم والعرفان وما إليها، وإمَّا أن فرعون يؤسس ويغرس لهم كل ما يجدي ويثمر.

(٢٩) قمبيز: هو ابن كورش الأكبر الذي أسس دولة الفرس العظيمة، ومعلوم أن الفرس من الدول التي غزت مصر واستولت عليها حينًا من الدهر، قال المؤرخون: أخذ الفرس في غزو مصر أزمان الأسرة السادسة والعشرين، وذلك حين ولي الملك «أبسمتيك الثالث» أحد ملوك هذه الأسرة؛ فأعدَّ الفرس لهذه الغزاة المعدَّات الكبيرة، وجاء ملكهم «قمبيز» بجيش جرَّار، لفتح البلاد التي طالما تاقت نفس أبيه «كورش» إلى إخضاعها، وكانت مصر إذ ذاك حصينة غاية في المنعة.. يقول مؤرخو الإغريق: إن أحد الجنود اليونانية، هو الذي خان مصر والمصريين، ودلَّ الفرس على أسهل الطرق التي يمكنهم بواسطتها أن يدخلوا البلاد، فهوجمت مدينة «بلوز» (الفرما) بحرًا، وزحفت الجنود الفارسية على مصر برًا، وبعد مقاومة عنيفة جهتي بلوز ومنف، سقطت البلاد، وأخذ قمبيز أبسمتيك أسيرًا، وكان ذلك سنة ٥٢٥ ق.م، ثم سار قمبيز أوَّل أيامه سيرة حسنة، وعامل المصريين معاملة طيبة، يحترم ديانتهم وتقاليدهم، ولكنه بعد ذلك لبس لهم جلد النمر، وحنق على البلاد ومَنْ فيها، فكرَّ على المعابد والهياكل فهدمها، وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة، وعند عودته إلى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق.م، ولمَّا ولي ملك فارس «دارا الأول» زار مصر، واراد أن يصلح ما أفسده قمبيز، فأبدى احترامًا كبيرًا لديانة المصريين ومعبوداتهم، وشيَّد هيكلاً عظيمًا للمعبود آمون بواحة سيوة الكبرى، وعضَّد التجارة، وشيَّد كثيرًا من المدارس، وفتح الخليج الموصِّل ما بين النيل والبحر الأحمر، ورأى المصريون آخر أيامه ما لحقه من الخسائر في واقعة «مرتون» في حربه مع الإغريق؛ فخرجوا عن طاعته، وطردوا الفرس من البلاد بقيادة

أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق.م، ثم غزا الفرس مصر ثانية، وما زالوا بها حتى طردهم المصريون سنة ٤٠٥ ق.م.

(٣٠) إسكندر: هو الإسكندر الأكبر المقدوني الفاتح العظيم، قال المؤرخون: بعد أن هزم الإسكندر الفرس في واقعة أسوس، زحف على مدينة صور فأخذها عنوة؛ وبذلك تم استيلاؤه على الشام، ثم قدم إلى «بلوز» (الفرما) سنة ٣٣٢ ق.م؛ رحَّب به المصريون، لما سمعوه عن عدالة حكمه، ولما لاقوه من الذل والهوان في حكم الفرس، ففتحت له مصر أبوابها ودخلها دون عناء، حتى أن الوالي الفارسي لم يجرؤ على مقاومته وقابله في منف بترحاب؛ ومن ثَمَّ سار الإسكندر إلى واحة آمون الكبرى، ودخل معبد آمون، ولقَّبه الكهنة بابن آمون، فاحترم ديانة المصريين وقدَّم القرابين لمعبوداتهم، ولم يهمل مع ذلك التقاليد الإغريقية، فأدخل منها في مصر الموسيقى ووالألعاب النظامية. ولَمَّا رأى الإسكندر أن قرية «راقودة» — وهي قرية صغيرة كانت بقرب الإسكندرية — ذات موقع بحري موفق، أنشأ بجوارها حاضرة جديدة له هي الإسكندرية، وبعد أن استوثق الأمر للإسكندر في مصر خرج إلى فتوحاته الأخرى في المشرق، وكانت وفاته سنة ٣٢٣ ق.م، وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنه ونيفًا، لم يقم بمصر — كما ترى — إلا قليلاً، فذلك حيث يقول في البيت التالي:

فلم يعد في الملك عمر الزهر

وخلف الإسكندر على مصر البطالسة، وما زالوا بها إلى أن استولى الرومان عليها.

(٣١) إكليله: تاجه.

(٣٢) قيصر: أسلفنا أن قيصرًا هذا لقب ملوك الرومان، قال المؤرخون: ما كادت دولة الرومان تظهر بين ممالك الأرض، حتى أخذت العلائق تنشأ بينها وبين البطالسة في مصر، ولبثت بين الدولتين مدَّة طويلة من أيام مجد البطالسة إلى انقراضهم، تطوَّرت أثناءها في عدَّة أطوار: ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة، ثم انتقلت إلى حمايتهم لهم، ثم السيطرة عليهم، ثم انتهت باستيلائهم على مصر سنة ٣٠ ق.م في عهد أغسطس، ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها في عهد خمول سياسي طويل، امتد نحوًا من ٦٧ سنة، لم يكن لها فيها شيء يذكر في التاريخ، بل كانت كحقل لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية لسدِّ أهم جزء من الخراج، وما زال الرومان بمصر حتى أدال الله منهم بالعرب

سنة ٦٤١ م على يدِّ عمرو بن العاص، فذلك حيث يقول «وكيف ابتلوا بقليل العديد.. إلخ». القصر: أي الأعناق.. قال الشاعر.

لاتدلك الشمس إلا حذو منكبه   في حومة تحتها الهامات والقصر

(٣٣) رمى: أي هذا النفر القليل، وهم أصحاب عمرو بن العاص. وفلَّ الجموع: هزمها وثلَّ السرور: كسرها. والسرر: جمع سرير، والمراد هنا العروش التي يجلس عليها القياصرة.

(٣٤) الصعر: ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقين، وقد صعَّر خدَّه أي أماله من الكبر، قال المتلمس:

وكنا إذا الجبار صعَّر خدَّه   أقمنا له من ردئه فتقوما

والزمان يقيم الصعر: يعدل الطغاة: يقال: أقمت الشيء فقام أي استقام.

(٣٥) في نظمها وحين وهى سلكها: في حالتي قوتها وضعفها.

(٣٦) انحسر: كلَّ، والبصر يحسر عند أقصى بلوغ النظر.

(٣٧) تلاقى: تتلاقى، بحذف إحدى التاءين، يريد أنها راسخة رسوخ الجبال.

(٣٨) إيزيس: هي من معبودات قدماء المصريين، وهي أخت أوزيريس وزوجته في الوقت نفسه، وأم عوروس وهاريوقراط ... يرى قدماء المصريين، أن إيزيس هذه وليت أمر مصر مع أخيها وزوجها أوزيريس حينًا من الدهر ازدهرت فيه الزراعة، ويؤخذ من تقاليد إيزيس أنها عندهم رمز للقمر، وأوزيريس رمز للشمس، ومن هنا يريد بـ «إيزيس» القمر، وقوله «تخطى» أي تتخطى، بحذف إحدى التاءين.

(٣٩) قوله «تضيء على صفحات السماء» أي إيزيس بمعنى قمر السماء الحقيقي. وقوله «وتشرق في الأرض منها الحجر» أي القمر بمعنى المعبود في الأرض، وعلى ذلك يكون في الكلام استخدام، وهو عند علماء البيان أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثم يراد بضميره الآخر، أو يراد بأحد ضميرين أحدهما، ثم بالآخر الآخر، فالأول كقول معوِّذ الحكماء:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه، وإن كانوا غضابا

فإنه أراد بالسماء الغيث، وبضميره النبت.. والثاني كقول البحتري:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب

فإنه أراد بضمير الغضا في قوله «والساكنيه» المكان، وفي قوله «شبوه» أي أوقدوا الشجر. والحجر: جمع حجرة كغرفة وغرف.

(٤٠) وآبيس: هو العجل أبيس.. رووا أن تيفون إله الشر تغلَّب أخيرًا على أوزيريس إله الخير وقتله؛ فتقمَّصت روحه جسد عجل، وكان هذا العجل عندهم يمثل الخصب والتوليد الخلقي، وكانوا يعتقدون أن العجل الذي تقمَّصته روحه هو ابن بقرة حملت به بواسطة شعاع من الشمس وشعاع من القمر، وله علامات ظاهرة في جسده، فإنه يكون أسود اللون، وفي جبهته سمة بيضاء مربعة أو مثلثة، وصورة نسر على ظهره، وصورة خنفساء تحت لسانه، وكان الكهنة عندما يجدون العجل بعد موت سلفه، يركبون مركبة حربية ويسيرون به باحتفال عظيم إلى هليوبوليس، وكانوا يضعونه فيها في هيكل يتركونه مفتوحًا للعبادة أربعين يومًا، وكان الأهالي عند موته ينوحون ويلبسون ثوب الحداد، ويضعونه في تاووس ثمين جدًا، وكانوا يقومون بالاحتفال بأيامه المقدَّسة كل سنة عند ارتفاع النيل، وذلك بإقامة الولائم والأفراح وكانوا يطرحون في ذلك الوقت إناءً من الذهب في النيل لإخماد غضب التماسيح.. في نيره: النير هو الخشبة المعترضة على عنق الثورين المقرونين بالحراثة بأداتها، وهم يقولون: فلان تحت نير فلان، يريدون الخضوع والاستخذاء.

(٤١) أبو المسك: كافور الإخشيدي. وأحمد: ابو الطيب المتنبي.

(٤٢) التابوت الذي وُضِعَ فيه موسى وقُذِفَ به في النيل. وعصا موسى وما كان منها من الآيات، والوصايا العشر، كل أولئك معروف فلا حاجة بنا إلى الإفاضه فيه.

(٤٣) «وعيسى يلمُّ رداء الحياء» يقول: وشاهدت عيسى وهو المثل الأعلى للحياء، ومثله في ذلك العذراء.

(٤٤) «وعمرو» يقول: وقد رأيت عمرو بن العاص إذا يسوق المسلمين لفتح مصر، ويزجي كتاب الله وآياته.

(٤٥) «فكيف رأيت»، يقول: خبرني يا أبا الهول كيف رأيت فرق ما بين هدي المسلمين وأخرى عمر، أي دنياه التي كأنها الأخرى في الإصلاح وما إليه من كل ما كان ماثلا أيام الفاروق (رضى الله عنه) وأرضاه، وما بين الضلال ودنيا الملوك من القياصرة والفرس والروم ومن إليهم.

(٤٦) المقوقس: هو سيروس، بطريق الطائفة الملكانية بالإسكندرية، والحاكم الإداري بمصر من قبل الرومان، والذي فتح عمرو بن العاص مصر في عهده، وفي المقريزي: أنه يُسمَّى المقوقس بن قرقفت، ولعله محرَّف عن سيروس. عهد الفجور: عهد الانحراف عن الصراط السوي، عهد الإسراف في المعاصي والآثام، عهد الرومان الذي استبدل به المقوقس. عهد الفجر: أي عهد الخير العميم، عهد النور، عهد التلقي والإسلام، عهد الإسلام، إذا مالأ المسلمين وعبَّد لهم طريق الفتح.

(٤٧) وتبديله: في معنى البيت قبله. لَمَّا سفر: سفر الصبح وأسفر أي أضاء.

(٤٨) وتأليفه: أي المقوقس. والأسر: جمع الأسرة، وأسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون.

(٤٩) إحدى العبر: إحدى الآيات.

(٥٠) أطلت.. إلخ: بيان لوفاء أبي الهول. كثاكلة: يقول إنك في إطالتك الوقوف على الهرمين وفاءً منك، كثاكلة ولدها لا تبرح قبره ولا تزايله، والثاكلة هي التي فقدت ولدها. ولا تريم: أي لا تبرح. والحفر: جمع حفرة وهي ما يحفر في الأرض؛ والمراد بها هنا القبر.

(٥١) لبانيهما: أي لباني الهرمين.

(٥٢) تجوس: تطوف وتتخلل. والنَّهَرَ والنهر: واحد الأنهار، يعني نهر النيل.

(٥٣) تروم: تنشد وتطلب. ومنفيس: منف، وموضعها اليوم البدرشين وميت رهينة: هي عاصمة ملك الفراعنة، والذي بناها هو «مينا» مؤسس الأسرة المالكة، وكانت كما قال شاعرنا:

ومهد العلوم الخطير الجلا ل، وعهد الفنون الجليل الخطر

ولا يخفى ما في هذا البيت من العكس، والعكس هذا من المحسِّنات البديعية، وهو أن تقدِّم في الكلام جزءًا، ثم تعكس فتقدِّم ما أخرَّت وتؤخِّر ما قدَّمت، مثل قول الحماسي:

فردَّ شعورهن السود بيضا ورَدَّ وجوههنَّ البيض سودا

وقول أبي الطيب:

فلا مجد في الدنيا لمَنْ قال ماله ولا مال في الدنيا لمَنْ قال مجده

وقول الآخر:

إن الليالي للأنام مناهيل تطوى وتنشر دونها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

الخميس الدثر: الجيش الكثير، يقول: إنك يا أبا الهول لأوفى الأوفياء، إذ كأني بك وقد فقدت تلك الحضارة الباهرة، والمدنيَّة الزاهرة، التي تحليت بها حينًا من الدَّهر، وشاهدت عصرها الذهبي، ثم ذهبت وذهب أهلوها، وأصبحت منفردًا وحيدًا.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر، فأبى عليك وفاؤك إلا أن تطيل الوقوف على الهرمين، شأن الثكول فقدت وحيدها فأبى عليها وجدها أن تريم قبره، وكأنك في وقوفك هذا ترجى لباني الهرمين عودة تعود معها تلك المعاني الساميات، وتنشد بمنفيس — وهي منك عن كثب — عهد القوة والعظمة والسلطان، وعهد العلوم والعرفان، وعهد الفنون الخطير الجلال مما رأيت في الزمن الخالي، فلا تصيب شيئًا من ذلك، ولا تقع عينك من منفيس هذه إلا على قرية قد اندثرت، ودمنة قد عفت، تكاد لإغراقها في الجمود، إذا الأرض دارت بها لم تدر.. فترى في هذه الأبيات صورة أبي الهول في وقوفه هذا، صورة شعرية آية في الإبداع والتخيُّل الشعري، ثم ترى فيها وصف عظمة المصريين، وأن مصر كانت عهد الحضارة والتمدين، ولا جرم فقد أمَّها وجاور فيها للاستفادة أمثال ليكرغ وصولون من كبار المتشرعين، وفيثاغورس وأفلاطون وإقليدس من شيوخ الفلسفة، كما تؤمُّ اليوم بلاد الغرب للمجاورة فيها والإفادة منها، ومن هنا قال بعد ذلك «فهل مَنْ يبلِّغ عنَّا الأصول»

(٥٤) «أجد محاسنها ما اندثر» يقول: إن طلولها الدوارس ورسومها المندثرة البوالي أجدَّت محاسنها، وهو معنى دقيق عجيب، ولعله ينظر إلى قول أبي نواس:

لمن دمن تزداد حسن رسوم   على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما   لبسن على الأقواء ثوب نعيم

هذا ويجوز أن يكون «أجدُّ» مبتدأ وما اندثر «خبر»، أي أن أجدَّ ما بقي من هذه القرية وأجلَّه، هو آثارها الدوراس.

(٥٥) الأصول: أصولنا وآباؤنا الذين وصف. الفروع: نحن المصريين أبناء هذا الجيل. واقتدت بالسِيَر: حذت حذو أصولها، إذ كان منَّا في هذه الآونة ما قصَّه بعد.

(٥٦) غمار الأمور: شدائدها، جمع غمرة. المؤتمر: مؤتمر الصلح الذي عقد على أثر انتهاء الحرب الأوروبية العامة سنة ١٩٢٠ الذي فزعنا إليه في شخص الوفد المصري.

(٥٧) الشديد اللداد: أي الشديد الخصومة والجدل الذي لا يغلب. والأريب: العاقل البعيد النظر.

(٥٨) تطالب: أي الفروع. ودونه: دون هذا الحق.

(٥٩) ولم تفتخر: أي أنها مع ذلك لم تعتز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك، ولكنها تعتز بحقها الطبيعي الذي ليس إلا به كيانها.

(٦٠) الأصول: أصولنا وآباؤنا الذين وصف. الفروع: نحن المصريين أبناء هذا الجيل. واقتدت بالسِيَر: حذت حذو أصولها، إذ كان منَّا في هذه الآونة ما قصَّه بعد.

(٦١) غمار الأمور: شدائدها، جمع غمرة. المؤتمر: مؤتمر الصلح الذي عقد على أثر انتهاء الحرب الأوروبية العامة سنة ١٩٢٠ الذي فزعنا إليه في شخص الوفد المصري.

(٦٢) الشديد اللداد: أي الشديد الخصومة والجدل الذي لا يغلب. والأريب: العاقل البعيد النظر.

(٦٣) تطالب: أي الفروع. ودونه: دون هذا الحق.

(٦٤) ولم تفتخر: أي أنها مع ذلك لم تعتز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك، ولكنها تعتزُّ بحقها الطبيعي الذي ليس إلا به كيانها.

مملكة النحل

مملكةٌ مُدَبَّرَهْ   بامرأةٍ مُؤَمَّره

تحملُ في العمال والصناع عبءَ السيطره

فاعجب لعمال يُولُّون عليهم قَيْصَره

تحكمهم راهبةٌ   ذكَّارةٌ مُغبَّرهْ[1]

عاقدةٌ زُنَّارَها   عن ساقها مُشمِّره

تلَثمت بالأرجوا   نِ، وارتدته مئزره

وارتفعت كأنها   شرارةٌ مُطيَّره

ووقعت لم تختلج   كأنها مُسمَّره[2]

***

مخلوقةٌ ضعيفةٌ   من خُلُق مُصوَّره

يا ما أقلَّ ملكَها   وما أجلَّ خطره

قف سائل النحلَ به   بأيِّ عقل دبَّره؟

يُجبكَ بالأخلاقِ وهـ   ـيَ كالعقولِ جوهره

تغني قوى الأخلاق ما   تغني القوى المفكَّره

ويرفعُ الله بها   مَن شاءَ، حتى الحشره

***

أليس في مملكة النحلِ لقومٍ تَبْصِره؟

مُلكٌ بناه أهلُه ... بهمةٍ ومَجْدَره[3]

لو التمست فيه بطَّالَ ... اليدين، لم تَره

تُقتلُ، أو تنفى الكُسا ... لَى فيه غيرَ مُنْذَره

تحكم فيه قيصره ... في قومها موقَّره

من الرجالِ وقيو ... دِ حُكمِهِم موقَّره

لا تورثُ القومَ ولو ... كانوا البنينَ البَرره

الملكُ للإناثِ في الدّستور ... لا للذكره[4]

نيِّرةٌ تنزلُ عن ... هالتها لنيِّرهْ

فهل تُرى تخشى الطَّما ... عَ في الرجال والشَّرَه؟[5]

فطالما تلاعبوا ... بالهَمَج المصيَّره

وعبروا غفلتها ... إلى الظهور قنطره

وفي الرجال كرمُ ... الضعِف، ولوْمُ المقدره

وفتنةُ الرأي، وما ... وراءَها من أثَرَه

أنثى، ولكن في جنا ... حَيْها لَبَاةٌ مُخدِرَه[6]

ذائدةٌ عن حوضِها ... طاردةٌ مَن كدَّره

تقَلَّدتْ غبرتَها ... وادَّرعتْ بالحبَرَه

كأنها تُركيَّة ... قد رابطت بأنقرَه

كأنها (جاندرك) في ... كتيبةٍ مُعسكِره

تَلقى المُغير بالجنو ... دِ الخُشُن المنمَّره

السابغين شِكَّةً ... البالغين جَسَرَه[7]

قد نَثرتهم جُعبةٌ ... ونفضتهم مِئبره[8]

مَن يَبن مُلكا أو يذُد ... فبالقنا المجرَّره

إن الإمورَ هِمَّةٌ ... ليس الأمورُ ثرثره

ما الملكُ إلا في ذرى الـ ... ـألوية المُنشَّره

عرينُ مُذْ كان لا ... يحميه إلا قَسوَره[9]

رَبُّ النيوب الزُّرْقِ، والـ ... ـمخالبِ المذكَّره

***

مالكةٌ، عاملةٌ ... مُصلحةٌ، مُعمِّره
المالُ في أتباعها ... لا تَستبينُ أثره
لا يعرفون بينهم ... أصلاً له من ثمره
لو عَرفوه عرفوا ... من البلاءِ أكثرَه
واتَّخذوا نقابةً ... لأمرهم مسيَّره
سبحان مَنْ نزَّه عنـ ... ـهُ ملكهم وطهَّره
وساسه بحُرَّةٍ ... عاملةٍ، مسخَّره
صاعدةٍ في معملٍ ... من معملٍ مُنحدِره
واردةٍ دَسْكَرةً ... صادرةٍ عن دسكره[١٠]
باكرةٍ، تستنهضُ الـ ... ـعصائب المبكره[١١]
السامعين، الطائعيـ ... ـنَ، المحسنين المَهرَه
من كلِّ من خطَّ البنا ... ءَ، أو أقام أسْطُره
أوشدَّ أصلّ عقدِهِ ... أو سدَّه، أو قّوَّره[١٢]
أو طاف بالماءِ على ... جدرانه المجدَّره[١٣]

***

وتذهب النحلُ خِفا ... فًا، وتجيءُ مُوقَره
جوالبَ الشمع من الـ ... ـخمائلِ المنوَّره
حوالب الماذِيَّ من ... زهر الرياض الشيِّره[١٤]
مشدودةٌ جيوبُها ... على الجَنى مُزرَّره
وكلُّ خُرطومٍ أدا ... ةُ العسلِ المُقطَّره
وكل أنف قانيءٍ ... فيه من الشُّهد بُرَه[١٥]
حتى إذا جاءَت به ... جاست خلالَ الأدوره[١٦]
وغيبتْه كالسُّلا ... ف في الدَّنانِ المحضره[١٧]
فهل رأيتَ النحلَ عن ... أمانةٍ مُقصَّره؟
ما اقترضت من بَقلةٍ ... أو استعارت زَهَره
أدَّت إلى الناس به ... سُكَّرَةً بسكره

هوامش

(١) التغبير: ترديد الصوت بالقراءة.
(٢) الاختلاج: الاضطراب.
(٣) يقال: هذا الأمر مجدرة ذلك، أي جدير به.
(٤) الذكرة: الذكور.
(٥) الطماع: الطمع.
(٦) اللباة: اللبؤة.
(٧) الشكة: السلاح. والجسرة: الجسارة.
(٨) المئبرة: بيت الإبرة.
(٩) القسورة: الأسد.
(١٠) الدسكرة: القرية.
(١١) العصائب: جمع عصابة.
(١٢) قور الشيء: قطعه من وسطه خرقًا مستديرًا.
(١٣) المجدَّرة: أي المشيَّدة.
(١٤) الماذي: العسل. والشيرة: الجميلة الحسنة.
(١٥) البرة: الحلقة في الأنف.
(١٦) الأدورة: الديار، يُرَادُ بها الخلايا هنا.
(١٧) السُّلاف: أفضل الخمر.

في سبيل الهلال الأحمر

جبريلُ، هلِّلْ في السماءِ، وكبِّرِ ... واكتبْ ثوابَ المحسنينَ وسطِّرِ

سلْ للفقيرِ على تكرُّمِهِ الغني ... واطلب مزيدًا في الرخاءِ لمُوسِرِ

وادع الذي جَعَل الهلالَ شِعَارَه ... يفتحْ على أمَمِ الهلالِ وينصرِ

وتولَّ في الهيجاءِ جندَ محمَّد ... واقعدْ بهم في ذلك المستمطَر

يا مِهرجانَ البرَّ، أنت تحيةٌ ... الله من ملأٍ كريمٍ خيِّر

هم زيَّنوكَ بكلِّ أزهر في الدُّجى ... والله زانَكَ بالقَبولِ الأنور

حسُنتْ وجوهُك في العيون وأشرقتْ ... من كلِّ أبلجَ في الأكارمِ أزهر

كُثرتْ عليك أكفُّهم في صَوْبها ... فكأنها قَطَعُ الغمامِ المُمطِر

لو يعلمون (السوقَ) ما حسناتُها؟ ... بِيع الحصى في السوقِ بَيْعَ الجوهر

جبريلُ يَعرضُ، والملائكُ باعةٌ ... أينَ المساوِمُ في الثوابِ المشترى؟

ومجاهدين هناكَ عند مُعسكرٍ ... ومن المهابِة بين ألفِ معسكر

مُوفين للأوطانِ بين حياضِها عَربٌ ... لا يسمحون بها وبين الكوثر[١]

على دينِ الأبوَّة في الوغى ... لا يطعنون القِرْن ما لم يُنْذَر[٢]

أَلِفوا مصاحبةَ السيوفِ، وعُوِّدوا ... أخذَ المعاقلِ بالقنا المتشجِّر[٣]

يمشون من تحت القذائف نحوَها ... لا يسألونَ عن السعيرِ الممطِر

في أعيُنِ الباري، وفوق يمينه ... جَرْحَى نُجِلُّهُم، كجرحى خَيْبَر

من كلِّ ميمون الضمَّادِ، كأنما ... دمُ أهل بدرٍ فيه، أو دمُ حَيْدَر[٤]

جذلانُ، هَيِّنةٌ عليه جِراحهُ ... وجِراحهُ في قلبِ كلِّ غضنفر

ضُمِدَتْ بأهدابِ الجفونِ، وطالما ضُمدتْ بأعراف الجياد الضُّمَّر[٥]
عُـوَّادُه يـتـمـسَّـحـون بـرُدْنـه كالوفد مَسَّحَ بالحطِيم الأطهر[٦]
وتـكـادُ مـن نـور الإلـه حِـيـالـه تـبـيـضُّ أَثـنـاءُ (الـهـلالِ الأحـمـر)

هوامش

(١) أي لا يسمحون بالكوثر بديلاً منها لو خيِّرو بين حياض نيلها وبينه.

(٢) القرن: الكفء والنظير.

(٣) القنا: الرمام. والمتشجِّر: المشتبك.

(٤) الحيدر: الأسد، ولقب من ألقاب الإمام علي بن أبي طالب (رضى الله عنه). والضماد: عصابة الجرح.

(٥) الضمَّر: جمع ضامر، وهو من الخيل القليل اللحم الدقيق. والأعراف: جمع عرف، وهو شعر عنق الفرس.

(٦) الردن: أصل الكم.

الأزهر[1]

قمْ في فَمِ الدُّنيا وحَيِّ الأزهرَا ... وانثُرْ على سَمْعِ الزَّمانِ الجوهَرا
واجعل مكانَ الدرِّ — إن فصَّلته ... في مدحِهِ — خَرَزَ السماءِ النيِّرا
واذكرْه بعد المسجِدْين، مُعظِّمًا ... لمساجِدِ الله الثلاثة مُكْبِرا[1]
واخشع مَليًا، واقضِ حقَّ أئمَّةٍ ... طلعوا به زُهْرًا، وماجوا أبحُرا
كانوا أجلَّ من الملوكِ جلالةً ... وأعزَّ سلطانًا، وأفخمَ مَظْهرَا
زمنُ المخاوِفِ كان فيه جَنابُهم ... حَرَمَ الأمان، وكان ظِلُّهمُ الذَّرا[2]
من كلَّ بحرٍ في الشريعة زاخرٍ ... ويُريكَهُ الخُلُقُ العظيمُ غضنفرا
لا تَحْذُ حذْوَ عِصابةٍ مفتونةٍ ... يجدون كل قديم شيءٍ منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... مَنْ مات من آبائِهم أو عُمَّرا
من كلِّ ماضٍ في القديم وهَدْمِهِ ... وإذا تقدَّم للبناية قصَّرا
وأتى الحضارةَ بالصناعةِ رَثَّة ... والعلمِ نَزْرًا، والبيانِ مُثَرْثِرا[3]

* * *

يا معهدًا أفنى القرونَ جِدارُه ... وطوَى الليالِيَ رَكنُهُ والأعْصُرا
ومشى على يَبَسِ المشارقِ نُورُه ... وأضاءَ أبيضَ لُجَّهَا والأحمرا

[1] قيلت هذه القصيدة بمناسبة إصلاح الأزهر الشريف والبدء فيه في سنة ١٩٢٤.

وأتى الزمانُ عليه يحمِي سُنةً ... ويذُودُ عن نُسُكٍ ويمنع مَشْعَرا[٤]
في الفاطميين انتمى ينبوعُه ... عذبَ الأصول كجدِّهم متفجَّرا[٥]
عينٌ من الفرقان فاض نَميرُها ... وحيًا من الفصحى جَرَى وتحدَّرا[٦]
ما ضرَّني أن ليس أفقُكَ مَطلعي ... وعلى كواكبِهِ تعلَّمتُ السُّرَى
لا والذي وكَلَ البيان إليكَ، لم ... أكُ دون غاياتِ البيانِ مُقصَّرا
لمَّا جرى الإصلاحُ قمت مُهنِئًا ... باسم الحنيفةِ بالمزيد مُبشرا[٧]
نبأ سَرَى، فكسا المنارةَ حَبْرَةً ... وزها المُصلَّى، واستخفَّ المِنبَرا[٨]
وَسَما بأَرْوِقِة الهُدى، فأحلَّها ... فرعَ الثُّرَيَّا، وهي في أصل الثرى
ومشى إلى الحلقاتِ، فانفرجَتْ له ... حلقًا كهالاتِ السماءِ مُنَوَّرا
حتى ظنَنَّا الشافِعيَّ، ومالكًا ... وأبا حنيفةَ، وابنَ حنبل حُضرَّا
إنَّ الذي جعل العتيقَ مثابةً ... جعل الكنانِيَّ المباركَ كوثرا[٩]
العلمُ فيه مناهَلاً ومجانيًا ... يأتي له النُّزاعُ يبغون القِرى[١٠]

* * *

يا فِتيةَ المعمورِ، سار حديثُكم ... نَدًّا بأفواهِ الركاب وَعَنبَرا[١١]
المعهدُ القدسِيُّ كان نديُّه ... قطبًا لدائرة البلاد ومِحْورا
وُلِدَتْ قضيَّتُها على محرابه ... وَحَبَتْ به طفلاً، وشبَّتْ مُعصِرا[١٢]
وتقدَّمت تُزجِي الصفوفَ، كأنها ... (جانْدَرْكُ) في يدها اللواءُ مُظَفَّرا

* * *

هُزُّوا القرى من كهفِها ورَقِيمِها ... أنتم — لعْمرُ اللهِ — أعصابُ القرى
الغافِلُ الأمِّيُّ عندكم ... كالببَّغاءِ، مردِّدًا، ومُكرِّرا
يُمسِي ويصبحُ في أوامِر دينهِ ... وأمور دنياه بكم مُستبصِرا
لو قلتم: اختَرْ للنيابة جاهلاً ... أو للخطابةِ باقلاً، لتخيَرا[١٣]
ذُكِرَ الرجالُ له، فألَّهَ عصبةً ... منهم، وفسَّق آخرينَ، وكفَّرا[١٤]
آباؤكم قَرءُوا عليه، ورَتَّلوا ... بالأمس تاريخَ الرَجال مُزوَّرا
حتى تلقَّتَ عن محاجر رومةٍ ... فرأى (عرابى) في المواكب قَيْصَرا
ودعا لمخلوقٍ، وألَّه زائلاً ... وارتدَّ في ظُلَمِ العصور القهقرى

وتَفَيَّئوا الدستورَ تحت ظِلالِه كنفًا أهَشَّ من الرّياض وأنضرا
لا تجعلوه هوًى، وخُلْقًا بينكم ومَجَرَّ دنيا للنفوسِ، ومَتْجَرا
اليومَ صَرَّحَتِ الأمورُ، فأظهرتْ ما كان من خُدَع السياسة مُضمرَا
قد كان وَجْهُ الرأي أن نبقى يدًا ونرى وراءَ جنودِها إنكلترا
فإذا أَتتنا بالصفوف كثيرةً جئنا بصفٍّ واحدٍ لن يُكسَرا
غضِبتْ، فغضَّ الطرفَ كلُّ مُكابرٍ يلقاكَ بالخدَّ اللطيم مُصعَّرا
لم تلقَ إصلاحًا يُهابُ، ولم تجِد من كُتلةٍ ما كان أعيا مِلْنَرا[15]
حَظٌّ رجونا الخيرَ من إقبالِه عاث المُفرَّقُ فيه حتى أدبرا
دار النيابة هيئت درجاتُها فليرْق في الدرَج الذوائبُ والذَّرا[16]
الصارخون إذا أسيءَ إلى الحِمَى والزائرون إذا أُغير على الشَّرى
لا الجاهلون العاجزون، ولا الأُلى يمشون في ذَهَب القيود تبَخْتُرا

هوامش

(١) المسجدان: المسجد الحرام، والمسجد الاقصى.
(٢) الذرا: الملجأ.
(٣) النزر: القليل. والمثرثر: المخلط.
(٤) النسك: العبادة. والمشعر: موضع من مناسك الحج.
(٥) جدُّ الفاطميين: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضى الله عنه)، وقد كان مضرب المثل في التبحُّر في العلوم.
(٦) الفرقان: القرآن. والحيا: المطر. والفصحى: اللغة العربية.
(٧) الحنيفة: الشريعة.
(٨) المنارة: المئذنة. والحبرة: السرور.
(٩) العتيق: المسجد الحرام. والمثابة: مجمع الزمر.
(١٠) النزاع: القصاد. والقرى: الضيافة.
(١١) المعمور: الأزهر.
(١٢) طفلاً: أي طفلة. والمعصر: الفتاة المدركة.
(١٣) باقل: عربي يضرب به المثل في العي والفهاهة.

(١٤) فسقه: رماه بالفسق. وكفَّره: نسبه إلى الكفر.

(١٥) المراد بالكتلة: الأمَّة مجتمعة. واللورد ملنر: هو أحد الوزراء الإنجليز، وكان قدم إلى مصر في جماعة من قومه سنة ١٩٢٠ ليتقصوا رغائبها وآمالها، فقاطعتهم البلاد وأحالتهم على الوفد المصري الذي كانت وكلته في الدفاع عن حقها إذ ذاك.

(١٦) المُراد بالذوائب والذُّرا: علية القوم وأكفاهم.

وداع فروق

تجلَّد للرحيل، فما استطاعا وداعًا جَنَّةَ الدنيا وداعا[1]
عسى الأيامُ تجمعني، فإني أرى العيشَ افتراقًا واجتماعا
ألا ليتَ البلادَ لها قلوبٌ — كما للناسِ — تنفطرُ الْتِياعا[2]
وليتَ لدى (فروقٍ) بعضَ بَثِّي وما فعل الفراقُ غداةَ راعا[3]
أما واللهِ، لو عِلمتْ مكاني لأنطقت المآذنَ والقلاعا
حَوَتْ رِقَّ القواضب والعَوالي فلمَّا ضفتُها حوت اليَراعا[4]
سألتُ القلبَ عن تلك الليالي أكُنَّ لياليًا أم كُنَّ ساعا؟[5]
فقال القلبُ: بل مرَّ عِجالاً كدقَّاتي لذاكرها سِراعا
أدارَ (محمد) وتراثَ (عيسى) لقد رَضِياكِ بينهما مشاعا[6]
فهل نبذ التعصُّبَ فيكِ قومٌ يمدُّ الجهلُ بينهم النِّزاعا؟
أرى الرحمنَ حصَّنَ مسجديه بأطولِ حائط منكِ امتناعا
فكنتِ لبيته المحجوجِ ركنًا وكنتِ لبيِته الأقصى سِطاعا[7]
هواؤكِ والعيونُ مُفجَّرات كفى بهما من الدنيا متاعا[8]
وشمسُكِ كلَّما طلعتْ بأفْقٍ تخطَّرَتِ الحياةُ به شُعاعا
وغيدُك، هنَّ فوق الأرض حورٌ أوانسُ، لا نقابَ ولا قِناعا
حَوالَيْ لُجَّةٍ من لازَوَرْدٍ تعالى الله خَلْقًا وابتداعا
يروح لُجَيْنُها الجاري وَيغدو على الفِردوسِ آكامًا وقاعا[9]

هوامش

(١) تجلَّد: تكلَّف الجلد وأظهره. والجلد: قوة الصبر.

(٢) تنفطر: تنشق. والالتياع: احتراق القلب من الهمِّ أو الشوق.

(٣) فروق: الآستانة. والبث: أشدُّ الحزن. راع: أفزع.

(٤) القواضب: السيوف القاطعة، مفردها قاضب. والعوالي: جمع عالية، وهي من الرمح أعلى رأسه، أو نصفه الذي يلي السنان، أو ما دخل منه تحت السنان إلى ثلثه.

(٥) الساع: جمع ساعة.

(٦) المشاع (بفتح الميم وضمها): المشترك غير المقسوم.

(٧) السطاع: عمود البيت.

(٨) لجينها: أي اللجنة، واللجين: الفضة. والآكام: التلال. والقناع: أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام.

(٩) العيون: هي عيون الماء.

رحلة الشرق[1]

أَقِدمْ، فليس على الإقدام مُمتنع ... واصنع به المجدَ، فهو البارعُ الصَّنَعُ[1]

للناس في كل يومٍ من عجائبِه ... ما لم يكن لامرئٍ في خاطر يقع

هل كان في الوهم أن الطير يخلُفها ... على السماءِ لطيفُ الصنع، مُخْتَرع؟

وأن أَدراجَها في الجوِّ يسلكها ... جنٌّ، جُنودُ سليمانٍ لها تَبَع؟

أعيا العُقَابَ مَداهُم في السماءِ، وما ... راموا من القُبَّة الكبرى، وما فَزعوا[2]

قل للشباب بمصر: عَصْرُكم بَطَلٌ ... بكل غايةٍ إقدامٍ له وَلَع

أسُّ الممالك فيه هِمَّةٌ وحِجًى ... لا الترَّهاتُ لها أسٌّ، ولا الخدع

يُعطي الشعوبَ على مقدار ما نبغوا ... وليس يبخَسُهم شيئًا إذا برعوا

ماذا تُعدُّون بعد البرلمان له ... إذا خِيارُكمُ بالدُّولة اضطلعوا؟[3]

البَرُّ ليس لكم في طوله لُجُمٌ ... والبحر ليس لكم في عرضه شُرُع[4]

هل تنهضون عساكُم تلحقون به؟ ... فليس يلحق أهلَ السير مُضطَجِع

لا يُعجبنَّكمُ ساعٍ بتفرقةٍ ... إن المِقصَّ خفيفٌ حين يقتطع

قد أشهدوكم من الماضي وما نبشت ... منه الضغائنُ ما لم تشهد الضَّبُع

---

[1] بعد رحلة طويلة شاقة في صحراء ليبيا، استطاع الرحالة المصري الكبير أحمد حسنين أن يسدي إلى العلم يدا بيضاء، وأن يكشف للناس عن مجاهل هذه البيداء، فلمَّا عاد قابلته البلاد بالحفاوة والترحاب، واحتفل به القوم احتفالاً فخمًا ألقيت فيه هذه القصيدة.

ما للشباب وللماضي تمُرُّ بهم فيه على الجيف الأحزابُ والشيَع؟
إن الشبابَ غدٌ، فليهدِهم لغدٍ وللمسالكِ فيه الناصحُ الوَرِع
لا يَمنعنَّكُمُ برُّ الأبوَّةِ أن يكون صُنعكُم غيرَ الذي صنعوا
لا يعُجبنَّكُمُ الجاهُ الذي بلغوا من الولاية، والمالُ الذي جمعوا
ما الجاهُ والمالُ في الدنيا وإن حَسنُنَا إلاَّ عواريُّ حظٍّ ثم تُرتجَع[٥]
عليكُمُ بخيال المجد، فأْتَلِفوا حِيالَهُ، وعلى تِمثاله اجتمعوا
وأجْمِلوا الصبرَ في جِدٍّ وفي عمل فالصبر ينفعُ ما لا ينفعُ الجزَع
وإن نَبَغتُمْ ففي علم، وفي أدب وفي صناعات عصر ناسُه صُنُع
وكلُّ بنيان قومٍ لا يقوم على دعائم العصرِ من رُكنيهِ، مُنصَدِع
شريفُ مكة حُرٌّ في ممالِكه فهل تُرى القومُ بالحرِّية انتفعوا؟

* * *

كم في الحياة من الصحراءِ من شَبهٍ كلتاهما في مُفاجاة الفنى شَرَع[٦]
وراءَ كلِّ سبيلٍ فيهما قَدَرٌ لا تعلمُ النفسُ ما يأتي وما يَدَع
فلستَ تدري، وإن كنتَ الحريصَ، متى تهُبُّ رِيحاهما، أو يَطلعُ السبعُ؟
ولستَ تأمنُ عند الصحو فاجئةً من العواصف فيها الخوفُ والهَلَع
ولست تدري، وإن قدَّرتَ مجتهِدًا، متى تحُطُّ رحالاً؟ أو متى تَضَع؟
ولست تمْلكُ من أمر الدليل سوى أنَّ الدليلَ — وإن أرداك — مُتَّبَع
وما الحياةُ إذا أظْلمَت، وإن خَدَعت إلاَّ سرابٌ على صحراءَ يلتمِع

* * *

أكبرتُ من (حَسَنْينٍ) هِمَّةً طمَحَتْ تروِمُ ما لا يرومُ الفِتيةُ القُنُع
وما البطولةُ إلاَّ النفْسُ تدفعها فيما يبلِّغُها حَمْدًا، فتندفع
ولا يُبالي لها أهلٌ إذا وصلوا طاحوا على جنَباتِ الحمدِ أم رجَعوا
رَحَّالةَ الشرق، إنَّ البيدَ قد علمتْ بأنك الليثُ لم يُخلَق له الفَزَع
ماذا لقيتَ من الدوِّ السحيق، ومِن قَفْرٍ يضيقُ على الساري، ويتسع؟[٧]
وهل مررْتَ بأقوامٍ كفِطرتِهم من عهد آدمَ لا خُبْثٌ ولا طَبَع؟[٨]
ومن عجيبٍ لغير اللهِ ما سجدوا على الفَلا، ولغير اللهِ ما رَكعوا

كيف اهتدى لهمُ الإسلامُ، وانتقلتْ إليهمُ الصلواتُ الخمسُ والجُمع؟
جزَتْكَ مصرُ ثناءً أنتَ موضِعُه فلا تذُبْ من حياءٍ حين تستمِعُ
ولو جزَتْك الصحاري جِئتَّنا مَلِكًا من الملوك، عليك الريشُ والوَدَع[9]

هوامش

(١) الصنع: الحاذق.

(٢) فرع الجبل: صعده.

(٣) اضطلعوا: أي نهضوا بها.

(٤) الشرع: جمع الشراع، والمراد بها هنا السفن، من إطلاق الجزء على الكل. واللجم، والشرع: يُراد بها قوَّة البرِّ، وقوَّة البحر.

(٥) العواري: جمع عارية وهي العطبة بلا عوض.

(٦) شرع: أي سواء.

(٧) الدو: المفازة.

(٨) الطبع: الشين، والعيب، والدنس.

(٩) الريش والودع: عنوان العظمة في أواسط أفريقيا.

براءة[1]

الـنـاسُ لـلـدنـيـا تـبَـع ولـمـن تُـحـالِـفُـه شِـيَـع
لا تـهـجـعـنَّ إلـى الـزمـا ن، فقد يُنَبَّه مَنْ هجع[1]
واربأ بـحـلْمكَ فـي النوا زلِ أن يُلِمَّ بـه الـجـزع
لا تـخـلُ مـن أمـلٍ، إذا ذهب الزمانُ فكَمْ رجَع
وانـفـع بـوسِـعـك كـلـه إن الـمـوفَّـقَ مَـنْ نـفـع

***

مصر بَنَتْ لقضائها ركنًا على النجمِ ارتفع
فيه احتمى استقلالُها وبـه تـحـصَّـن وامـتـنـع
فـلـيـهِـنـهـا، ولـيـهِـنـنـا أَن القضاءَ به اضطلع[2]
الـلـه صـان رجـالَـه مـمـا يُدنِّسُ أو يَـضـع
سـاروا بـسـيـرة مـنـذرٍ وأبِي حنيفة في الورَع
وكـأن أيـام الـقـضـا ءِ جميعها بهمُ الجُمَع
قـل لـلـمُـبـرَّإِ مُـرْقُـص: أنت النقيُّ من الطَبع[3]

---

[1] حُرم الأستاذ مرقص فهمي حِينًا من الاشتغال بالمحاماة، ثم برَّأه القضاء من تلك التهمة التي عُزِيَت إليه؛ فاحتفل بعودته إلى المحاماة احتفالاً أُلْقِيت فيه هذه القصيدة.

هذا القضاءُ رماك بالـ ـيُمنَى، وباليسرى نزع
هذا قصاءُ اللهِ مُمـ ـتَثلُ الحكومِة، مُتَّبَع
عُد للمحاماة الشريـ ـفةِ عَوْدَ مشتاقٍ وَلِع
والبسْ رِداءَك طاهرًا كرداءِ مرقصَ في البِيَع[4]
وادفع عن المظلوم والـ ـمحرم أبلغَ مَنْ دفع
واغفر لحاسِدِ نعمةٍ بالأمسِ نالك أو وقع[5]
ما في الحياةِ لأن تعا تِبَ أو تُحاسِبَ، مُتَّسَع

هوامش

(١) الهجوع: النوم.
(٢) اضطلع: قوي.
(٣) الطبع: الشين والعيب.
(٤) البِيَع: جمع بيعة وهي متعبَّد النصارى.
(٥) وقع فلان في فلان: سبَّه وعابه.

الصحافة[1]

لــكــلِّ زمــانٍ مــضــى آيــةٌ وآيـةُ هـذا الـزمـانِ الـصُّـحُـف
لسـانُ البـلادِ، ونـبـضُ الـعـبـاد وكهفُ الحقوق، وحربُ الجنَف[1]
تسيرُ مسيرَ الصحى في البلاد إذا العلمُ مزَّق فيها السَّدف[2]
وتـمـشـي تُـعـلِّـمُ فـي أمـةٍ كـثـيـرةٍ مَـنْ لا يـخُـطُّ الألـفِ!
فيا فتيةَ الصحْف، صبرًا إذا نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
فـإنَّ الـسـعـادةَ غـيـرُ الـظـهـو رِ، وغيرُ الثراءِ، وغيرُ الترف
ولـكنـها فـي نـواحـي الـضـمـير إذا هـو بـالـلـؤم لـم يُـكـتـنـف
خذوا القصدَ، واقتنعوا بالكفاف وخلوا الفضولَ يغلْها السَّرف[3]
وروموا الـنـبـوغَ، فـمـن نـالـه تلقَّى من الحظِّ أسنى التحَف
ومـا الـرزقُ مـجـتـنـبٌ حِـرْفَـةً إذا الحظُّ لم يهجر المحترِف
إذا آختِ الـجـوهـريَّ الـحـظـوظُ كفلنَ اليتيمَ له في الصَّدف[4]
وإن أعرضت عنه لم يحلُ في عيونِ الـخـرائد غيرُ الـخـزف[5]

* * *

رعـى الـلـه لـيـلـتَـكـم، إنـهـا تلت عنده ليلةَ المنتصَف[6]

[1] أَلَّف أصحاب الصحف العربية نقابة تجمع كلمتهم، وقد أُلْقِيت هذه القصيدة في الاحتفال بإنشائها.

لقد طلع البدرُ من جُنْحها وأوما إلى صُبحِها أن يقف
جلوتم حواشِيَهَا بالفنون فمن كل فنَّ جميل طَرف
فإن تسألوا: ما مكانُ الفنون؟ فكم شرفٍ فوق هذا الشرف[7]
أريكةُ (موليير) فيما مضى وعرضُ (شِكسبيرَ) فيما سلف
وعودُ (ابن ساعدةٍ) في عُكاظَ إذ سأل خاطره بالطُّرَف[8]
فلا يَرْقَيَنْ فيه إلاَّ فتًى إلى درجات النبوغ انصرف
تُعلِّمُ حكمتُه الحاضرين وتُسْمِعُ في الغابرين النُّطف[9]

* * *

حمدنا بلاءَكُم في النضالِ وأمسِ حمدنا بلاءَ السلف
ومَنْ نِسيَ الفضلَ للسابقين فما عرف الفضلَ فيما عرف
أليس إليهم صلاح البناءِ إذا ما الأساس سما بالغرف؟
فهل تأذنون لذي خَلَّةٍ يَفضُّ الرياحين فوق الجيف؟
فأين (اللواءُ)، وربُّ اللواءِ إمامُ الشباب، مثالُ الشرف؟[10]
واين الذي بينكم شِبْلُه على غاية الحق نِعْمَ الخلف؟
ولا بدّ للغرس من نقله إلى مَنْ تعهَّد، أو مَنْ قطف
فلا تجحدنَّ يدَ الغارسين وهذا الجَنى في يديك اعترف
أولئك مَرُّوا كدود الحرير شجاها النَّفاعُ وفيه التلف[11]

هوامش

(١) الجنف: الحيف.

(٢) السدف: الظلام.

(٣) الفضول: فضلات المال الزائدة عن الحاجة. وغالها السرف بقولها: أتى عليها.

(٤) اليتيم: اللؤلؤ المنقطع النظير.

(٥) الخرائد: العذارى.

(٦) المنتصف: منتصف شعبان.

(٧) الشرف (أولاً): العلو والمجد. والشرف (ثانيًا): الموضع العالي، وهو هنا المسرح.

(٨) عود ابن ساعدة: أي منبر قسٍّ بن ساعدة، وهو أخطب خطباء الجاهلية.
(٩) الغابرين: الآتين. والنظف: جمع نطفة وهي أصل النسل.
(١٠) ربُّ اللواء: المرحوم مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء.
(١١) النفاع: النفع.

عيد الفداء[1]

أمَّـا الـعـتـابُ، فـبـالأحـبَّـة أخـلَـقُ ... والـحبُّ يصلُحُ بالـعتاب ويصدُق
يا مَنْ أحِبُّ، ومَنْ أجِلُّ، وحسْبه ... فـي الغِـيدِ مـنـزلـةً يُجَلُّ ويُـعشَـق
الـبُـعْـدُ أدنـانـي إلـيـكَ، فـهـل تُـرى ... تـقسـو وتـنـفـرُ، أم تـلـيـن وتـرفُـق؟
في جاهِ حسِنك ذِلَّتي وضراعتي ... فاعطِف، فذاك بجاهِ حُسنكَ أليق!

* * *

خَـلُـقَ الـشـبـابُ، ولا أزال أصـونُـه ... وأنـا الـوفـيُّ، مَـوَدَّتـي لا تَـخـلُـق[1]
صـاحـبـتـه عـشـريـن غـيـرَ ذمـيـمـةٍ ... حـالـي بـه حـالٍ، وعَـيْـشِـيَ مُـونِـق[2]
قـلـبـي، ادَّكـرتَ الـيـوم غـيـر مُـوَفَّـقٍ ... أيـامَ أنـتَ مـع الـشـبـابِ مـوفَّـق
فخفقتَ من ذكرى الشبابِ وعهدِه ... لـهـفـي عـلـيك! لـكـل ذكـرى تـخـفُـق
كم ذُبتَ من حُرَقِ الجوَى، واليوم من ... أسِـفٍ عـلـيـه وحـسـرةٍ تـتـحـرَّق
كنتَ الشبَّاكَ، وكان صيدًا في الصِّبا ... مـا تـسـتـرقُّ مـن الـظـبـاءِ وتُـعـتِـق
خـدَعـتْ حـبـائـلـك الـمِـلاحَ هُـنـيـةً ... والـيـومَ كـلُّ حِـبـالـةٍ لا تَـعـلَـق

[1] كان لهذه القصيدة يوم نُشِرَت ضجَّة هائلة، ولعلها استمدَّت معظمها من تلك الأبيات التي تنطق فيها ذكرى الشباب، والتي قلَّما وُفِّق إلى مثلها شاعر، ولقد نُظِمَت هذه القصيدة معارضة لأخرى من رويِّها للمرحوم إسماعيل صبري باشا.

هـل دون أيـام الـشـبـيـبِـة لـلـفـتـى صـفـوٌ يـحـيـطُ بـه، وأُنـسُ يُـحـدِق؟

هوامش

(١) خلق الشيء: بلي.
(٢) الحالي: الحلو، أو المزين.

نكبة بيروت[1]

يا ربُّ، أمرُك في الممالكِ نافذٌ — والحكمُ حكمُك في الدمِ المسفوك
إن شئتَ أَهرِقْهُ، وإن شئتَ أحمِه — هو لم يكن لسواك بالمملوك
واحكم بعدلِكَ، إن عدلَك لم يكن — بالمُمترَى فيه، ولا المشكوك
أَلِأَجل آجال دنت وتهيَّأت — قدَّرتَ ضربَ الشاطئ المتروك؟
ما كان يحميه، ولا يُحمَى به — فُلكان أنْعَمُ من بواخر «كوك»[1]
هذي بجانبِها الكسيرِ غريقةٌ — تهوي، وتلك بركنها المدكوك

* * *

بيروتُ، مات الأُسْدُ حتفَ أنوفِهم — لم يُشهروا سيفًا، ولم يحموك
سبعون ليثًا أُحْرِقُوا، أو أُغْرِقُوا — يا ليتهم قُتِلوا على «طبروك»
كلٌّ يصيد الليثَ وهو مقيَّدٌ — ويعزُّ صيد الضيَّغَمِ المفكوك
يا مضرِبَ الخِيَم المنيفة للقِرى — ما أنصف العُجمُ الأُلي ضربوك[2]
ما كنتِ يومًا للقنابل موضعًا — ولو أنها من عسجد مسبوك
بيروتُ، يا راحَ النزيلِ، وأُنسَهُ — يمضي الزمانُ عليَّ لا أسلوك
الحسنُ لفظٌ في المدائنِ كلِّها — ووجدتُه لفظًا ومعنًى فيك

---

[1] قيلت على أثر ضرب الأسطول الإيطالي مدينة بيروت.

نادمتُ يومًا في ظِلالِكِ فتيةً ... وسَمُوا الملائكَ في جلالِ ملوك[3]
يُنسون (حسانًا) عصابة (جِلَّقٍ) ... حتى يكاد بجلق يفديك[4]
تالله ما أحدثتِ شرًّا أو اذًى ... حتى تُراعِي، أو يُراعَ بَنوك
أنتِ التي يحمي ويمنع عِرضَها ... سيفُ الشريف، وخِنجرُ الصعُّلوك
أن يجهلوكِ، فإنَّ أمَّك سوريا ... والأبلقَ الفردَ الأشمَّ أبوك[5]
والسابقين على المفاخر والعُلا ... بَلْهَ المكارمَ والندى أهلوك
سالت دماءٌ فيكِ حول مساجدٍ ... وكنائسٍ، ومدارسٍ و«بُنوك»
كنا نؤمِّل أن يُمَدَّ بقاؤْها ... حتى تَبِل صدَى القنا المشبوك
لكِ في رُبَى النيلِ المبارَك جِيرةٌ ... لو يقدِرون بدمعهم غسلوك

هوامش

(١) أي لم تكن تستطيع حمايته هاتان السفينتان الصغيرتان اللتان أعدَّتا به للرياضة والتنعم لا للحرب والقتال.

(٢) القرى: الضيافة.

(٣) واسمه في الحسن فوسمه: أي غلبه فيه.

(٤) حسَّان بن ثابت: شاعر النبي ﷺ وعصابة جلق: هم ملوك غسان. وجلق: هي دمشق.. وكان حسَّان بن ثابت كثيرًا ما يفد على آل غسان ويمدحهم، وينال منهم، فمما يناسب هذا المقام قوله.

لله درُّ عصابة نادمتهم ... يومًا بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردي يصفق بالرحيق السلسل
بيض الوجوه، كريمة أحسابهم ... شمُّ الأنوف، من الطراز الأوَّل
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

(٥) الأبلق: جبل لبنان.

تكليل أنقرة وعزل الآستانة

قُمْ نـاد (أَنـقـرةً) وقـل: يَـهـنـيـك ... مُـلْـكٌ بَـنَـيْـتِ عـلـى سيوفِ بَنِيكِ

أَعطيتِه ذوْدَ اللبَاةِ عن الشرى ... فـأخـذْتِـه حُـرًّا بـغـيـرِ شـريـك[١]

وأقمتِ بالدَّم جانبيْه، ولم تزلْ ... تُبنى الممالكُ بالدمِّ المسفوك

فعقدتِ تاجَكِ من ظُبًى مسلولة ... وحللت عرشك من قنًا مشبوك[٢]

تــاجٌ تــرى فــيــه إذا قــلَّــبــتــه ... جهدَ الشريفِ، وهِمةَ الصُّعلوك[٣]

وترى الضحايا من معاقد غاره ... وعلى جوانب تِبْرِهِ المسبوك[٤]

وتراه في صَخَب الحوادث صامتًا ... كالصخر في عَصْفِ الرياح النُّوك[٥]

خـرزاتُـه دَمُ أمَّـةٍ مـهـضـومـة ... وجهودُ شعب مُجهَدٍ منهوك

بالواجب التمس الحقوقَ، وخاب مَن ... طلب الحقوقَ بواجب متروك

لا للفردُ مَسَّ جبينَكِ العالي، ولا ... أعـوانُـه بـأكـفِّـهِـم لـمَـسـوك[٦]

لمَّا نفرْتِ إلى القتال جماعةً ... أصلَوْك نارَ تلصُّصٍ وفُتوك[٧]

هدروا دماءَ الأُسْدِ في آجامها ... والأُسْدُ شارعةُ القَنا تحميك[٨]

يا بنت (طوروسَ) الممرَّدِ طأْطأَتْ ... شُمُّ الجبال رءُوسَها لأبيك[٩]

أمْعنتُما في العزِّ، واستْعصَمْتُما ... هو في السحاب، وأنت في أهليك[١٠]

نحتَ الشعوبُ من الجبال ديارَهم ... والقومُ من أخلاقِهم نحتوك

فلو آنّ أخلاقَ الرجالِ تَصَوَّرتْ ... لرأيتِ صخرتَها أساسًا فيك

إنَّ الذين بَنَوْكِ أشبهُ نيَّةً ... بشباب (خيبْرَ)، أو كهولِ (تَبُوك)[١١]

حَلفوا على الميثاق، لا طَعموا الكرى ... حتى تذوقي النصرَ، هل نصروك؟[١٢]

زَعموا (الفرنسيَّ) المحجَّل صورةً — في حلْبةِ الفرسان من حاميك[13]
(النسرُ) سَلَّ السيفَ يبَنْي نفسَه — وفتاكِ سَلَّ حسامه يَبنيك[14]
والنسرُ مملوكٌ لسلطان الهوى — ووجدتُ نسرَكِ ليس بالمملوك
يا دولةَ الخلق التي تاهت على — ركن السِّماكِ بركنِها المسموك[15]
بيني وبينك ملَّةٌ وكتابُها — والشرق يَنميني كما يَنميك
قد ظنني اللاحي نطقتُ عن الهوى — وركِبتُ متَن الجهلِ إذ أطريك[16]
لم يُنقِذِ الإسلامَ أو يرفعَ له — رأسًا سوى النفرِ الأُلي رفعوك
رَدُّوا الخيالَ حقيقةً، وتطلعوا — كالحق حَصْحَصَ من وراءِ شكوك[17]
لم أكذِبْ التاريخَ حين جعلتُهم — رُهبانَ نسْك، لا عجولَ نسيك[18]
لم ترضَني ذَنبًا لنجْميكِ همَّني — إن البيان بنجمه يُنبيك[19]
قلمي — وإن جهِل الغبيُّ مكانَه — أبقى على الأحقاب من ماضيك[20]
ظفرتْ بيونانَ القديمِة حكمتي — وغزا الحديثة ظافِرًا غازيك

***

مني لَعَهدِك يا (فروقُ) تحيَّةٌ — كعيونِ مائك، أو رُبَى واديك[21]
أو كالنسيم غدا عليك، وراح من — فُوفِ الرياضِ، ووَشْيِها المحبوك[22]
أو كالأصيل جرى عليك عقيقُه — أو سالَ من عِقْيانه شاطيك[23]
تلك الخمائلُ والعيونُ، اختارها — لك من رُبَى جنَّاتِه باريك[24]
قد أفرَغت فيك الطبيعةُ سحرها — مَنْ ذا الذي من سحرها يَرْقيك؟
خلعت عليكِ جمالَها، وتأمَّلت — فإذا جمالُكِ فوق ما تكسوك
تالله ما فَتَنَ العيونَ ولذَّها — كقلائد الخُلجانِ في هاديك
عن جِيدكِ الحالي تلفَّتتِ الرُّبَى — واستضحكتْ حُورُ الجِنانِ بفيك
إن أنسَ لا أنسَ الشبيبةَ، والهوى — وسوالفَ اللذاتِ في ناديك[25]
وليالِيًا لم ندر أين عِشاؤُها — من فجرها لولا صياحُ الديك
وصَبُوحَنا من «بَنِدلاَر» وشِرْشر — وغَبُوقَنا «بتَرابِيا» و«بُيوك»[26]
لو أن سلطانَ الجمالِ مخلَّدٌ — لمليحة، لعذلتُ مَنْ عذلوك
خلعوكِ من سلطانهم، فسليهمُ — أمن القلوبِ ومُلكِها خلَعوك؟
لا يَحزُنَنَّكِ من حُماتِكِ خطةٌ — كانت هي المُثلى، وإن ساءُوك

أيُقالُ: فتيانُ الحمى بك قصَّروا — أو ضيَّعوا الحرماتِ، أم خانوك؟
وهمُ الخفافُ إليك، كالأنصار إذا — قلَّ النصير، وعزَّ مَنْ يفديك
المشتَروكِ بمالِهم، ودمائِهم — حين الشيوخُ بجُبَّة باعوك
هدروا دماءَ الذائدين عن الحمى — بلسان مفتي النارِ، لا مفتيك[27]
شربوا على سرَّ العدوَّ، وغرَّدوا — كالبُومِ خلف جِدارك المدكوك[28]
لو كنتِ (مَكَّةَ) عندهم لرأيتِهم — (كمحمدٍ) و(رفيقِه) هجروك[29]

* * *

يا راكب الطامي يجوبُ لجاجَه — مِن كل نيَّرة وذات حُلوك[30]
إن جئتَ (مرمرةً) تحثُّ الفُلْكَ في — بَهج، كآفاق النعيم، ضحوك[31]
وأتيت (قرن التبر) ثَمَّ تحفُّهُ — تُحفُ الضحى من جوهرٍ وسلوك[32]
فاَطلع على (دار السعادة)، وابتهل — في بابها العالي، وأدِّ ألوكي[33]
قُلْ للخلافةِ قولَ باكٍ شمسَها — بالأمس لمَّا آذنت بُدلوكِ[34]
يا جذوةَ التوحيد، هل لك مُطفِئٌ — والله جلَّ جلالُه، مُذكيك؟[35]
خلتِ القرونُ، وأنت حربُ مُمالكٍ — لم يغفُ ضدُّك، أو يَنَم شانيكِ[36]
يرميكِ بالأممِ الزمانُ، وتارةً — بالفرد واستبداده يرميك
عودي إلى ما كنتِ في فجر الهدى — عُمَرٌ يسوسُك، (والعتيقُ) يليك[37]
إن الذين توارثوكِ على الهوى — بعد (ابنِ هندٍ) طالما كذبوك[38]
لم يلبسوا بُردَ النبي، وإنما — لبِسوا طقوسَ الروم إذ لبِسوك
إني أعيذُكِ أن تُرَيْ جبارةً — كالبابَوِيَّة في يَديْ (رُدريك)
أو أن تَزُفَّ لك الوِراثةُ فاسقًا — (كيزيدَ)، أو كالحاكم المأفوك[39]
فُضَّي نُيوبَ الفردِ، ثم خذي به — في أيِّ ثَوْبَيْه به جاءُوك[40]
لا فرق بين مُسَلَّطٍ متتوِّج — ومُسَلَّط في غير ثوب مليك
إني أرى الشورى التي اعتصموا بها — هي حبلُ ربِّكِ، أو زمام نَبِيكِ

هوامش

(١) الذود: مصدر ذاده عن الشيء أي دفعه عنه. واللباة: أنثى الأسد. والشرى: مكان في جانب الفرات، تكثر فيه الأسود ويضرب به المثل في ذلك.

(٢) الظبى: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف والسنان ونحوهما.

(٣) الجهد (بضم الجيم وفتحها): الطاقة، وقيل المشقة.

(٤) المعاقد: مواضع الانعقاد. والغار: شجر عظيم واحدته غارة، وكان الإغريق الأقدمون والرومان أيضًا يضفرون منه أكاليل لأبطالهم المنتصرين في الحروب. والتبر: الذهب غير المضروب. المسبوك: المذوب المفرغ في القالب.

(٥) الصخب. الصوت شديدًا. وعصف الرياح: اشتدادها. والنوك: نوكاء وهي الحمقاء.

(٦) لا الفرد. أي لا الفرد المستبد بالحكم، والخطاب لأنقرة، ويريد بالفرد السلطان محمد وحيد الدين. أعوانه: وزراؤه الذين أرادوا أن يخمدوا حركة الأناضول ضد اليونان والإنجليز.

(٧) نفرت إلى قتال: ذهبت إليه مسرعة. وأصلوك: أحرقوك، أي أولئك الأعوان. والتلصص: أن يصير الإنسان لصًا، وأن يتخلق بأخلاق اللصوص. والفتوك: مصدر فتك أي بطش، وفتك فلان في الخبث إذا بالغ فيه.

(٨) الأجمة: الشجر الكثير الملتف، جمعها أجم بفتح الجيم، وجمع الجمع آجام وهو الوارد في البيت، وهو يشير إلى فتوى شرعية كانت حكومة الآستانة قد أذاعتها في أول أمر الفاتحين في الأناضول تحلِّل بها قتالهم.

(٩) طوروس: جبل عظيم في آسيا الصغرى. والممرد: المطول المملس.

(١٠) أمعنتما: أبعدتما. واستعصمتما: امتنعتما.

(١١) خيبر: اسم مكان كان به سبعة حصون غزاه النبي ﷺ. وتبوك: أرض بين المدينة والشام نسبت إليها غزوة من غزوات النبي ﷺ أيضًا.

(١٢) الميثاق: أمور كان القائمون بدعوة القتال قد أخذوا على أنفسهم أن يقاتلوا حتى تتمَّ للأمة.

(١٣) الفرنسي: نابليون بونابرت.

(١٤) النسر: لقب نابليون. يريد بفتاك (في هذا البيت) وبحاميك (في البيت قبله) مصطفى كمال.

(١٥) السماك: كوكب معروف. والمسموك: المرفوع.

(١٦) اللاحي: اللائم. متن الجبل: ظهره

(١٧) حصحص الحق: بان بعد كتمانه.

(١٨) النسيك: الذهب والفضة.

(١٩) ينبيك. يخبرك.

(٢٠) الأحقاب: جمع حقب (بضم الحاء)، قيل: هو ثمانون عامًا، وقيل: هو الدَّهر.

(٢١) فروق: هي الآستانة.

(٢٢) فوف الرياض: زهرها، تشبيهًا لها بفوف الثياب وهي نوع من برود اليمن. والوشي: نمنمة الثوب وتحسينه، وهو أيضًا نوع من الثياب الموشية، تسمية لها باسم المصدر. والمحبوك، من حبك الحائك الثوب أي حسَّن أثر الصنعة فيه.

(٢٣) الأصيل: هو ما بعد العصر إلى المغرب. والعقيان: الذهب الخالص.

(٢٤) الخمائل: جمع خميلة؛ وهي الشجر الكثير الملتف.

(٢٥) إن أنس لا أنس: أي إن نسيت شيئًا فلست أنسى الشبيبة.. إلخ.

(٢٦) الصبوح: شراب الصباح. والغبوق: شراب العشي. وبندلار وترابيا وبيوك: أسماء أمكنة في الآستانة.

(٢٧) الذائدين عن الحمى: جمع ذائد وهو المدافع. ومفتي النَّار: شيخ الإسلام الذي أفتى بقتالهم.

(٢٨) شربوا: أي الشيوخ.

(٢٩) عندهم: عند فتيان الحمى الذين اشتروك بمالهم ودمائهم.

(٣٠) الطامي: البحر. واللجاج: جمع لجة. من كل نيرة: أي كل لجة نيرة بيضاء، يكنِّي بذلك عن البحر الأبيض المتوسط. وذات حلوك: أي ومن كل لجة سوداء ذات حلوك، يكنِّي بذلك عن البحر الأسود.

(٣١) مرمرة: هو بحر مرمرة تدخله من مضيق الدردنيل، ويصله بالبحر الأسود مضيق البسفور.

(٣٢) قرن التبر: هو القرن الذهبي، وهو جزء من البسفور.

(٣٣) دار السعادة: هي الآستانة. والألوك: الرسالة.

(٣٤) الدلوك: غروب الشمس.

(٣٥) مذكيك: موقدك.

(٣٦) لم يغف: لم ينم. والشانئ: المبغض.

(٣٧) يشير إلى ترك الملك المحصور في أسرة واحدة، والرجوع إلى جعله حقًا يتولاه من تبايعه الأمة، كما كان لعهد الخلفاء الراشدين.

(٣٨) ابن هند: هو معاوية بن أبي سفيان أوَّل الخلفاء من بني أمية.

(٣٩) يزيد: هو يزيد بن الوليد، من ملوك بني أمية، كان من أصحاب الدعارة والفسوق. والحاكم: هو الحاكم بأمر الله أحد الملوك الفاطميين في مصر، كان فاسقًا مختبلاً، وكانت له بدع وضلالات يحمل الناس عليها قسرًا.

(٤٠) فضي نيوب الفرد: انثريها، ومنه قولهم فضَّ الله فمَّ فلان أي نثر أسنانه. والنيوب: جمع ناب.

عيد الدهر وليلة القدر[١]

الملكُ بين يديكَ في إقباله   عوَّذتُ مُلكَك بالنبي وآله[١]

حُرٌّ وأنت الحرُّ في تاريخِه   سمحٌ، وأنت السمحُ في أقياله[٢]

فِيضا على الأوطانِ من حُرِّيةٍ   فكِلاكما المفتكُّ من أغلاله[٣]

سِعدَت بعهدكما المباركِ أمةٌ   رَقَّت لحالِكَ حقبةً، ولحاله[٤]

يَفديكَ نصرانيُّه بصليبه   والمنتمي (لمحمدٍ) بهلاله

وفتى الدروزِ على الحُزُون بشيخه   والموسَويُّ على السهولِ بماله[٥]

صَدقوا الخليفةَ طاعةً ومحبة   وتمسَّكوا بالطُّهر من أذياله

يجدون دولتَك التي سَعِدوا بها   من رحمِة المولى، ومن أفضاله

جدَّدت عهد (الراشدين) بسيرةٍ   نسجَ (الرشادُ) لها على مِنواله

بُنيت على الشورى كصالح حكمهم   وعلى حياةِ الرأي واستقلاله

حقٌّ أعزَّ بك المهيمنُ نصرَه   والحقُّ منصورٌ على خُذَّاله[٦]

شرُّ الحكومِة أن يُساسَ بواحدٍ   في الملك أقوامٌ عِدادُ رماله

مُلْكٌ نُشاطِرُه ميامنَ حالِه   وترى بإذن الله حُسنَ مآله[٧]

أخذتْ حكومتُكَ الأمانَ لظبيه   في مُقفرات البيدِ من رِئباله[٨]

---

[١] قيلت في احتفال بالمولد النبوي الشريف.

مكَّنتَ للدستور فيه، وحُزتَه ... تاجًا لوجهك فوقَ تاج جلاله[٩]
فكأنك (الفاروقُ) في كرسيَّه ... نَعِمَتْ شعوبُ الأرضِ تحت ظلاله[١٠]
أو أنت مثلُ (أبِي ترابٍ)، يُتقى ... ويهابُه الأملاكُ في أسماله[١١]
عهدُ النبيَّ هو السماحةُ والرضى ... (بمحمد) أولى وسَمحِ خلاله
بالحق يحملُه (الإمامُ)، وبالهدى ... في حاضر الدستورِ، واستقباله
يا بْنَ الخواقينِ الثلاثيَن الأُولَى ... قد جمَّلوا الإسلام فوق جَماله[١٢]
المبلغين الدِّين ذروةَ سعدِه ... الرافعين الملكَ أوجَ كماله[١٣]
الموطِئين من الممالك خيلَهم ... ما لم يفُز (إسكندرٌ) بوصاله[١٤]
في عدلِ (فاتحهم) و(قانونيِّهم) ... ما يَحتذي الخلفاءُ حذوَ مثاله[١٥]
أمَّا الخلافةُ فهي حائطُ بيتكم ... حتى يُبين الحشرُ عن أهواله
أُخِذَت بحدِّ المشرفيِّ، وحازها ... لكمُ القنا بِقصاره وطِواله[١٦]
لا تسمعوا للمُرجفين وجهلِهم ... فمصيبةُ الإسلامِ من جُهَّاله[١٧]
طمعُ القريبِ أو البعيد بِنَيْلِها ... طمعُ الفتى من دهرِهِ بمحاله
ما الذئبُ مُجترِئًا على ليثِ الشَّرى ... في الغابِ مُعتديًا على أشباله[١٨]
بأضلَّ عقلاً — وهي في أيْمانكم — ... ممَّنْ يُحاول أَخذَها بشماله

* * *

رضي المُهيمنُ، والمسيحُ، وأحمدٌ ... عن جيشكِ الفادي، وعن أبطاله
الهازئين من الثرى بسهوله ... الدائسين على رءُوس جِباله
القاتلين عدوَّهم في حصنه ... بالرأي والتدبير قبل قتاله
الآخذين الحصَن عزَّ سبيلُه ... مثلَ السها أو في امتناعِ مَناله[١٩]
المعرضين — ولو بساحة يَلْدزٍ — ... في الحربِ عن عِرْضِ العدوِّ وماله
القارئين على (عليٍّ) علمها ... وعلى الغزاةِ المتَّقين رجاله[٢٠]
الملكُ زُلزِلَ في (فروقٍ) ساعةً ... كانوا له الأوتادَ في زلزاله
لولا انتظامُ قلوبهم ككفوفِهم ... لنثرتُ دمعي اليومَ في أطلاله[٢١]
والمرءُ ليس بصادقٍ في قولِه ... حتى يؤيِّدَ قولَه بِفعاله
والشعبُ إن رامَ الحياةَ كبيرةً ... خاض الغمارَ دمًا إلى آماله[٢٢]
شكرُ الممالك للسَّخيِّ بروحه ... لا للسخيِّ بِقيله أو قاله

إيهٍ (فروق) الحسن نجوى هائم ... يسمو إليك بجدِّه وبخاله[٢٣]
أخرجتِ للعربِ الفِصاحِ بيانَه ... قبسًا يُضيءُ الشرقَ مثلَ كماله[٢٤]
لم تُكثر (الحمراءُ) من نظرائِه ... نَسْلاً، ولا (بغدادُ) من أمثاله[٢٥]
جعل الإلهُ خيالَهُ (قيسَ) الهوى ... وجُعلتِ (ليلى) فِتنةً لخياله[٢٦]
في كلِّ عامٍ أنتِ نزهةُ روحِه ... ونعيمُ مهجته، وراحةُ باله
يَغشاكِ قد حنَّت إليكِ مَطيُّه ... ويَثوبُ، والأشواقُ ملءُ رِحاله
أفراحُه لمَّا رآكِ طليقةً ... أفراحُ (يوسفَ) يوم حلِّ عقاله[٢٧]
وسرورُه بك من قيودك حرَّةً ... كسرورِ (قيس) بانفلاتِ غزاله[٢٨]
الله صاغَكِ جنتين لخلقه ... محفوفتين بأنعمِ لِعياله
لو أنَّ لله أتخاذَ خميلةٍ ... ما اختار غيرَك روضةً لجلاله[٢٩]
فكأنما الصفتان في حسنيهِما ... ديباجتَا خدٍّ يتيهُ بخاله[٣٠]
وكأنما (البسفورُ) حوضُ (محمدٍ) ... وسطَ الجنان وهنَّ في إجلاله[٣١]
وكأن شاهقةَ القصور حيالَه ... حُجراتُ (طه) في الجِنان وآله[٣٢]
وكأن عيدَكِ عيدُها لمَّا مشى ... فيها البشيرُ ببشره وجماله[٣٣]
تِيهي بعيدِك في الممالك، واسلمى ... في السلمِ للآلاف من أمثاله
واستقبلي عهدَ الرشادِ مُجمَّلاً ... بمحاسن الدستور في استهلاله
دارُ السعادة أنتِ، ذلك بابُها ... شُلَّت يدٌ مُدَّت إلى إقفاله

هوامش

(١) الملك بين يديك: الخطاب للخليفة محمد رشاد الخامس.

(٢) حرٌّ: أي الملك، يريد أنه غير مقيد بسلطة الفرد المستبد. وأنت الحرُّ في تاريخه: لأن الخليفة محمد رشاد أول خليفة دستوري. وسمح: يقال رجل سمح أي ذو سماحة وعطاء. والأقيال: جمع قيل وهو الملك.

(٣) كلاكما: أي أنت والملك. والمفتكُّ: المطلق. والأغلال: جمع غُل بضم الغين، وهو طوق من حديد يجعل في العنق.

(٤) الحقبة: المدَّة من الدهر.

(٥) الحزون: جمع حَزن بفتح الحاء، ما غلظ من الأرض.

(٦) الخذال: جمع خاذل وهو الذي لا ينصرك.

(٧) الميامن: جمع ميمنة وهي اليمن والبركة.

(٨) الرئبال: الأسد.

(٩) مكَّنت للدستور: أي جعلته مكينًا ثابتًا. والدستور: هو القانون الذي ينظم حكم الشورى.

(١٠) الفاروق: لقب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

(١١) أبو تراب: كنية علي بن أبي طالب(رضى الله عنه). والأسمال: الثياب البالية واحدها سمَل (بفتح الميم).

(١٢) الخواقين: جمع خاقان وهو اسم لكل ملك من ملوك التُّرك.

(١٣) الأوج: العلو.

(١٤) إسكندر: هو المقدوني الفاتح العظيم.

(١٥) فاتحهم وقانونيهم: لقبان أولهما للسطان محمد الفاتح، لُقِّب به لأنه أول ملك في الإسلام استطاع أن يفتح القسطنطينية ويقضي على كل سلطة للروم بها. وثانيهما للسلطان سليمان القانوني، لُقِّب به لأنه أول واضع لقانون الدولة التركية.

(١٦) المشرفي: السيف، نسبة إلى موضع في اليمن كانت تصنع به السيوف.

(١٧) المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة ليوقعوا الناس في الاضطراب.

(١٨) الأشبال: جمع شبل وهو ولد الأسد.

(١٩) السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

(٢٠) علي: هو علي بن أبي طالب (رضى الله عنه)، والضمير للحرب.

(٢١) الأطلال: ما شخص من آثار الديار.

(٢٢) الغمار (بضم الغين وفتحها): لفيف الناس.

(٢٣) إيه: اسم فعل للاستزادة من الحديث. والنجوى: المسارة بالكلام، وهي السرُّ ايضًا، الهائم: المحبُّ، والذاهب من العشق، أو غيره لا يدري أين يتوجَّه، يريد نفسه، أي أنه هائم بحب فروق — وهي الآستانة — لما بها من حسن ومعنى «يسمو إليك بجده وبخاله» أنه من أصل تركي من ناحية أبويه.

(٢٤) أخرجت: الخطاب لروق، والضمير للهائم في البيت قبله.

(٢٥) الحمراء: هي مدينة غرناطة بالأندلس. وبغداد: حاضرة العراق.

(٢٦) قيس: هو ابن الملوح، وقيل هو قيس بن معاذ المعروف بالمجنون. وليلى: هي محبوبته التي جُنَّ بها، يقول: إن الله صرف خياله في الشعر على الآستانة، فهو يجيد المعاني في وصفها، حتى شغف بها كشغف قيس بليلى.

(٢٧) يقول: إنه فرح لها كما فرح يوسف (عليه السلام) بخروجه من السجن.

(٢٨) يشير بقوله «كسرور قيس بانفلات غزاله» على ما قيل من المجنون رأى ظبية في حبالة صيادين فسألهما أن يطلقاها ويضع مكانها شاة من غنمه، ففعلا.

(٢٩) الخميلة: الشجر الكثير الملتف. والروضة: ما اجتمع من الحدائق.

(٣٠) الديباجتان: تثنية ديباجة وهي الوجه، يقال: فلان يصون ديباجته، والديباجتان أيضًا، الخدَّان. والخال: شامة في الخدِّ.

(٣١) حوض محمد: يريد الحوض المورود يوم القيامة. ومحمد: هو النبي ﷺ

(٣٢) حياله: أي قبالته وإزاءه. والحجرات: جمع حجرة وهي الغرفة. وطه: اسم من أسماء النبي ﷺ أيضًا.

(٣٣) البشير: من أسماء النبي ﷺ أيضًا.

وداع اللورد كرومر

أيـامُـكـم، أم عـهـدُ إسـمـاعـيـلا؟ ... أم أنت فرعونٌ يسوسُ النيلاَ؟[1]

أم حاكم في أرض مصر بأمره ... لا سائلاً أبدًا ولا مسئولا؟

يا مالكًا رِقَّ الرقاب ببأسه ... هلاَّ اتَّخذتَ إلى القلوب سبيلا؟[2]

لمَّا رحلتَ عن البلادِ تشهَّدت ... فكأنكّ الداءُ العياءُ رحيلا

أوسعتَنا يومَ الوداعِ إهانةً ... أدبٌ لعمرك لا يُصيبُ مثيلا

هلاَّ بدا لك أن تجاملَ بعدما ... صاغ الرئيسُ لك الثَّنا إكليلا؟[3]

انظر إلى أدب الرئيس ولطفِه ... تجد الرئيسَ مُهذَّبا، ونبيلا

***

في ملعبٍ للمُضحكات مُشيَّدٍ ... مثَّلتَ فيه المُبكياتِ فصولا[4]

شهد (الحسينُ) عليه لعَن أصوله ... ويُصَدَّر (الأعمى) به تطفيلا[5]

جُبنٌ أقلَّ وحطَّ من قدرَيْهما ... والمرءُ إن يَجْبُن يَعِشْ مَرذولا

لمَّا ذكرت به البلادَ وأهلها ... مثَّلت دورَ مماتها تمثيلا[6]

أنذرتَنا رِقًّا يدوم، وذِلَّةً ... تبقى، وحالاً لا تَرى تحويلا

أحسِبت أن الله دونكَ قدرةً؟ ... لا يملكُ التغييرَ والتبديلا؟

الله يحكم في الملوكِ، ولم تكن ... دولٌ تنازعة القُوى لتَدولا[7]

فرعونُ قبلك كان أعظم سطوة ... وأعزَّ بين العالمين قبيلا[8]

اليوم أخلفَت الوعودَ حكومةٌ ... كنا نظنُّ عهودَها الإنجيلا

دخلَتْ على حكمِ الوداد وشرعه … مصرًا، فكانتْ كالسُّلالِ دخولا[9]
هدَمتْ معالمَها، وهدَّت رُكنَها … وأضاعت استقلالها المأمولا[10]
قالوا: جلبتَ لنا الرفاهة والغنى … جحدوا الإلهَ، وصُنعَه، والنيلا[11]
كم مِنَّةٍ موهومةٍ أتبعتَها … منًّا على الفَطِنِ الخبير ثقيلا[12]
في كلِّ تقرير، تقولُ: خلقتكم … أفهل ترى تقريرَك التنزيلا؟[13]
هل من نداك على المدارس أنها … تذرُ العلومَ، وتأخذ (الفُوتبولا)؟[14]
أم من صِيانتِك القضاءَ بمصر أن … تأتي بقاضي دِنْشِوايَ وكيلا؟[15]
أم هل يَعُدُّ لك الإضاعةَ منةً … جيشٌ كجيش الهند، بات ذليلا؟
انظر إلى فِتيانِه، ما شأنُهم؟ … أوَ ليس شأنًا في الجيوش ضئيلا؟
حرَّمتهم أن يبلُغوا رتبَ العُلا … ورفعتَ قومَك فوقهم تفضيلا
فإذا تطلعتِ الجيوشُ، وأمَّلت … مستقبلاً، لم يملكوا التأميلا
من بعد ما زَفُّوا لإدْوَرْدَ العُلا … فتحًا عريضًا في البلادِ، طويلا[16]
لو كنتُ من حُمْرِ الثياب، عبدتُكم … من دونِ عيسى، مُحسِنًا، ومُنيلا[17]
أو كنتُ بعضَ الإنكليز، قبلتُكم … مَلِكًا، أُقطعُ كفَّه تقبيلا
أو كنتُ عضوًا في (الكلوب)، ملأته … أسفًا لفرقتكم، بُكًا، وعويلا[18]
أو كنتُ قسيسًا يَهيمُ مُبشِّرًا … رتّلتُ آيةَ مَدْحِكم ترتيلا[19]
أو كنتُ صرَّافًا بلندن دائنًا … أعطيتُكم عن طيبةٍ تحويلا
أو كنتُ (تيمسكم)، ملأت صحائفي … مدحًا، يُردَّد في الورى موصولا[20]
أو كنتُ في مصرٍ نزيلاً جاهدًا … سبَّحتُ باسمك بُكرةً وأصيلا
أو كنتُ (سِريونًا)، حلفتُ بأنكم … أنتم حَيَوْتُم بالقناةِ الجيلا[21]
ما كان من عقباتِها، وصِعابِها … ذللتموه بعزمكم تذليلا
عهدُ الفرنج — وأنت تعلم عهدَهم — … لا يبخسون المحسنين فَتيلا
فارحل بحفظِ الله جلَّ صنيعُه … مستعفيًا إن شئتَ، أو معزولا
واحمل بساقك ربطة في لندن … واخلف هناك غِرايَ أو كمبيلا[22]
أو شاطر المَلِكَ العظيمَ بلادَه … وسُسِ الممالك، عرضَها والطولا
إنَّا تمنينا على الله المنى … والله كان بنيلهنَّ كفيلا
مَنْ سبَّ دينَ محمدٍ؛ فمحمدٌ … متمكن عند الإله رسولا[23]

هوامش

(١) إسماعيل: هو الخديو إسماعيل باشا. وفرعون: لقب كل ملك من ملوك مصر الأقدمين.

(٢) رقَّ الرقاب: استعبادها. والبأس: الشدَّة والقوَّة.

(٣) الرئيس: هو مصطفى باشا فهمي كانا رئيس مجلس الوزراء لعهد اللورد كرومر، وهو الذي أقام له حفلة توديع في دار الأوبرا يوم خروجه من مصر، وخطب له يودعه ويثني عليه، ثم خطب اللورد فأهان الأمة، وأهان الخديو إسماعيل في وجه الأمير حسين كامل «السلطان حسين»، ولم يراعِ شيئًا من الأدب ولا المجاملة.

(٤) يريد ملعب دار الأوبرا.

(٥) الحسين: هو السلطان حسين كامل. والأعمى: هو الشيخ عبد الكريم سلمان، وكان قد ضعف بصره وكاد يكف.

(٦) لمَّا ذكرت به: أي بذلك الملعب.

(٧) لتدول: لتظهر على غيرها ويحالفها إقبال الحظ.

(٨) القبيل: الجماعة من أصل واحد.

(٩) السلال (بضم السين): هو داء السل.

(١٠) المعالم: جمع معلم، وهو موضع الشيء الذي يظن الناس فيه وجوده.

(١١) قالوا جلبت: الخطاب للورد كرومر.

(١٢) المنُّ: أن تعدَّ لغيرك ما فعلته معه من الصنائع، كأن تقول: فعلت لك كذا وأعطيتك كذا، وهو قبيح مذموم.

(١٣) كان اللوود كرومر يضع كل سنة تقريرًا مطولاً عن الحالة العامة في مصر والسودان، وكان في كل تقرير يدَّعي لنفسه من وجوه الإصلاح في مصر ما يكذِّبه الواقع.

(١٤) الندى: الكرم. تذر: تترك. والفوتبول: كلمة من لغة الإنكليز معناها كرة القدم.

(١٥) قاضي دنشواي: هو أحمد فتحي زغلول باشا، كان قاضيًا في المحكمة المخصوصة التي عاقبت أهل دنشواي بالشنق والجلد والسجن، جعله اللورد كرومر بعد هذه المحاكمة وكيلاً لوزارة الحقانية، وقد كان رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية.

(١٦) يشير إلى فتح السودان، وأن الجيش المصري هو الذي قام بعبئه كله، ولم يكن لجنود الإنكليز فيه من أثر يذكر. وإدوارد، هو ملك الإنكليز.

(١٧) حمر الثياب: هم الإنكليز، يقول: لو كنت إنكليزيًا لعبدتك ولم أعبد عيسى؛ لأنك أنلت الإنكليز وأحسنت إليهم بما لا مثيل له من إنالة وإحسان، والخطاب للورد كرومر.

(١٨) الكلوب: دار ندوة في القاهرة، يشترك في الإنفاق عليه كل مَنْ يشاء من السراة المصريين وكبار الموظفين الإنكليز.

(١٩) ذلك لأن اللورد كرومر كان يؤيد التبشير بالمسيحية في مصر، ويحمي القسوس القائمين به.

(٢٠) أو كنت تيمسكم: أي لو كنت جريدة التيمس الخاصة بكم.

(٢١) المسيو دي سريون: مدير شركة قناة السويس.

(٢٢) واحمل بساقك ربطة: يشير إلى نشان عند الإنكليز يُسمَّى نشان ربطة الساق، قيل يوم عزل كرومر أنعم عليه به. وغراي وكمبيل: وزيران من وزراء الإنكليز.

(٢٣) كان اللورد كرومر قد طعن على الدين الإسلامي في تقريره سنة ١٩٠٦، فزعم أنه دين لا يصلح لهذا العصر. فشاعرنا يشير إلى ذلك بقوله: مَنْ سبَّ دينَ محمدٍ.. إلخ.

بين الحجاب والسفور

صدَّاحُ، يا ملكَ الكَنا ... رِ، ويا أميرَ البُلبلِ[١]
قد فزتُ منك (بمعبد) ... ورُزقتُ قربَ (الموصلي)[٢]
وأتيحَ لي (داودُ) مِز ... مارًا، وحسن ترتُّل[٣]
فوق الأَسرَّةِ والمنا ... بر قطُّ لم تترجَل[٤]
تهتزُّ كالدينار في ... مُرْتَجَّ لَحْظِ الأحوال[٥]
وإذا خطرتَ على الملا ... عبِ، لم تدع لممثِّل[٦]
ولك ابتداءَاتُ (الفرز ... دقِ)، في مقاطع (جرول)[٧]
ولقد تَخِذْتَ من الضُّحى ... صُفرَ الغَلائل والحلِى[٨]
ورويتَ في بيض القلا ... نسِ عن عذارى الهيكل[٩]

* * *

يا ليتَ شعريَ يا أسيـ ... ـرُ، شَجِ فؤادُك، أم خَلي؟[١٠]
وحليفُ سهدٍ، أم تنا ... مُ الليلَ حتى ينجلي؟[١١]
بالرغم مني ما تُعا ... لجُ في النحاس المقفَل[١٢]
حرصي عليك هوًى، ومَنْ ... يُحْرِزْ ثمينًا يبخل
والشحُّ تُحدثُه الضرو ... رةُ في الجوادِ المُجزِل[١٣]
أنا إن جعلتُكَ في نُضا ... ر بالحرير مُجلَّل[١٤]
ولففتُه في سَوسنٍ ... وحففتُه بقَرنُفل[١٥]

وحرقتُ أزكى العودِ حو لَيْه، وأغلى الصنَّدل
وحملتهُ فوقَ العيو نِ، وفوق رأْس الجدول[١٦]
ودعوتُ كلَّ أغرَّ في مُلك الطيورِ محجَّل
فأتتك بين مُطارحٍ ومحبِّذٍ، ومدلِّل[١٧]
وأمرت بابني فالتقا كَ بوجهه المتهلِّل[١٨]
بيمينه فالوذَجٌ لم يُهدَ (للمتوَكِّل)[١٩]
وزجاجةٌ من فضة مملوءَةٌ من سَلسل[٢٠]
ما كنتُ يا (صدَّاحُ) عنـ ـدكَ بالكريم المُفضل
شْهدُ الحياةِ مشوبةً بالرِّق، مثلُ الحنظل[٢١]
والقيدُ لو كان الجما نَ منظمًا لم يُحمَل[٢٢]
يا طيرُ، لولا أن يقو لوا: جُنَّ، قلتُ: تعقَّل
اسمع، فرُبَّ مُفصَّل لك، لم يفدك كمجمِل
صبرًا لما تشقى به أو ما بدا لك فافعل
أنت ابنُ رأْي للطبيـ ـعة فيك غيرِ مُبدَّل
أبدًا مَروُعٌ بالإسا ر، مهدَّدٌ بالمقتل[٢٣]
إن طرتَ عن كنفي وقعـ ـتَ على النسُّور الجُهَّل[٢٤]

* * *

يا طيرُ، والأمثالُ تضربُ للَّبيب الأمثل[٢٥]
دنياك من عاداتِها ألاَّ تكونَ لأعزل[٢٦]
أو للغبي، وإن تعلَّل بالزمان المقبل
جُعِلَتْ لِحُرَّ يُبتَلى في ذي الحياةِ ويَبتلي
يَرمي، ويُرْمَى في جها دِ العيشِ غيرَ مغفَّل
مُستجمعٍ كالليثِ، إن يُجهَل عليه يَجهل[٢٧]
أسمعتَ بالحكّمَيْن في الـ إسلامِ يومَ (الجْندَل)؟[٢٨]
في الفتنة الكبرى، ولو لا حكمةٌ لم تُشعَل[٢٩]
رَضِيَ الصحابةُ يومَ ذ لِك بالكتاب المُنزَل[٣٠]
وهمُ المصابيحُ، الروا ةُ عن النبي المرسل

قالوا: الكتابُ، وقام كل — مفسرٍ ومؤوَّل
حتى إذا وَسِعتْ (معاويةً)، وضاق بها (علي)[31]
رجعوا لظلم كالطبائع في النفوس مؤصَّل
نزلوا على حكم القويِّ، وعند رأي الأحيل[32]
صدَّاحُ، حق ما أقول، حفِلتَ، أم لم تحفل
جاورتَ أندى روضةٍ وحللتَ أكرمَ منزل
بين الحفاوةِ من حُسَيْنٍ، والرعايةِ من علي
وحنانِ (آمنةٍ) كأمِّك في صباكَ الأول[33]
صِحْ بالصِّباح، وبشِّر الأبناءَ بالمستقبل
واسأل لمصرَ عنايةً تأتي وتهبطُ من عَلِ
قل: ربنا افتح رحمةً والخير منك فأرسل
أدرك كنانتَك الكريمةَ — ربَّنا — وتَقبَّل

هوامش

(١) الصدَّاح: الصيَّاح الرفيع الصوت. والكنار: الكناري وهو طائر حسن الصوت، وريشه أبيض يضرب إلى الصفرة، وقوادم جناحيه طويلة تميل إلى الخضرة، وينسب إلى جزائر كناريا، وهي الجزائر الخالدات. والبلبل: طائر صغير سريع الحركة، يُضْرَبُ به المثل في طلاقة اللسان.

(٢) معبد: مغنٍ مشهور كان أيام الدولة الأموية. والموصلي: يُطْلَقُ على إسحاق الموصلي وابنه إبراهيم، وكانا مغنيين وكان لهما ذلك فقه وأدب.

(٣) داود: النبي. ومزاميره: ما كان يترنم به من الأدعية والأناشيد.

(٤) الترجُّل: أن ينزل المرء عن ركوبته ويمشي.

(٥) الأحول: مَنْ في عينه حول.

(٦) لم تدع لممثل: أي لم تترك له ما يجيده من التمثيل والغناء لأنك أجود صوتًا وفنًا من كل مغنٍ وممثِّل.

(٧) الفرزدق: لقب همَّام بن صعصعة الشاعر المشهور، كان في صدر الدولة الأموية. وجرول: اسم الحطيئة وهو شاعر أدرك الجاهلية والإسلام. والابتداءات: أوائل القصائد. والمقاطع: جمع مقطع وهو آخر بيت من القصيدة.

(٨) الغلائل: واحدتها غلالة (بكسر الغين) وهي شعار يلبس تحت الثوب، يشير بهذا المجاز إلى أن طائره الصدَّاح أصفر اللون.

(٩) القلانس: جمع قلنسوة وهي نوع من لباس الرأس. والعذارى: جمع عذراء وهي البكر. والهيكل: معناه هنا الموضع في صدر الكنيسة، يقرب فيه القربان كما تزعم النصارى، وفي هذا البيت أنواع من المجاز، ثم كناية عن المعنى المقصود، وهو يريد أن طائره أبيض الرأس كأنه يلبس قلنسوة بيضاء، كالعذارى الراهبات المنقطعات لخدمة الهيكل.

(١٠) الشجي: المشغول. والخلي: الخالي من الهم.

(١١) الحليف: كل شيء لزم شيئًا آخر فلم يفارقه. والسهد: الأرق وعدم النوم. وينجلي: يمضي.

(١٢) ما تعالج: أي ما تزاول وتمارس. والمراد بالنحاس المقفل: القفص الذي حُبِسَ فيه الطائر.

(١٣) الجواد: الكريم. والمجزل: المكثر من العطاء.

(١٤) النضار: الذهب. والمجلل: المغطى.

(١٥) السوسن (بفتح السين الأولى وضمها): نبات طيب الرائحة.

(١٦) العيون هنا: عيون الماء. والجدول: النهر الصغير.

(١٧) المدلل (بفتح اللام): المرفه.

(١٨) المتهلل: المتلألئ.

(١٩) الفالوذج: حلواء من دقيق وعسل وماء.

(٢٠) السلسل: الخمر اللينة.

(٢١) الشهد (بضم الشين وسكون الهاء): العسل.

(٢٢) الجمان: اللؤلؤ.

(٢٣) الإسار: الأسر.

(٢٤) الكنف: الجانب والناحية.

(٢٥) الأمثل: الأفضل.

(٢٦) الأعزل: مَنْ لا سلاح عنده.

(٢٧) المستجمع: مَنْ يبذل غاية إمكانه. ويجهل عليه: يتسافه عليه.

(٢٨) الحكمان: هما أبو موسى الأشعري، ارتضاه الإمام عليٌّ حكَمًا له، وعمرو بن العاص، اختاره معاوية حَكمًا له، وقصة هذا التحكيم مشهورة. ويوم الجندل: وهو أحد أيام الحرب بين عليٍّ ومعاوية. والجندل: اسم مكان.

(٢٩) ولولا حكمة: أي ولولا حكمة أرادها الله تعالى لم تشعل تلك الفتنة.

(٣٠) رضي الصحابة.. إلخ: ذلك أن أصحاب معاوية لمَّا رأوا أن الهزيمة ستكون لهم، رفعوا المصاحف على أطراف الأسنَّة، ونادوا عليًّا وأصحابه أن ينزلوا وإيَّاهم على كتاب الله، فأمر عليٌّ أصحابه أن يكفُّوا عن الحرب.

(٣١) حتى إذا وسعت معاوية: أي حتى إذا وسعت ولاية الأمر معاوية بسبب أن الحيلة التي فعلها عمرو بن العاص جازت على أبي موسى الأشعري رجعوا لظلم. إلى آخر ما في البيتين التاليين.

(٣٢) الأحيل: الأكثر حيلة.

(٣٣) حسين، وعلي، وآمنة: أبناؤه.

العلم والتعليم، وواجب المعلم[1]

قُمْ للمعلِّم وفِّه التبجيلا | كاد المعلمُ أن يكون رسولا
أعلمتَ أشرَفَ، أو أجلَّ مِن الذي | يبني، ويُنشِئ أنفُسًا وعقولا؟
سبحانك اللَّهُمَّ خيرَ مُعلِّم | علَّمتَ بالقلم القرونَ الأولى
أخرجتَ هذا العقل من ظلماتِه | وهديتَه النورَ المبينَ سبيلا
وطبعتَه بيدِ المعلِّم تارةً | صِدئ الحديد، وتارةً مصقولا[1]
أرسلتَ بالتَّوراةِ موسى مُرشِدًا | وابنَ البتولِ فعلَّم الإنجيلا[2]
وفجَرتَ يَنبوعَ البيان محمدًا | فسقى الحديثَ، وناولَ التنزيلا[3]
علَّمتَ يونانًا ومصرَ، فزالتا | عن كل شمسٍ ما تُريد أفولا
واليومَ أصبحنا بحالِ طُفولةٍ | في العلمِ، تلتمسانِه تطفيلا[4]
من مَشرِق الأرضِ الشموسُ تظاهَرتْ | ما بالُ مغرِبِها عليه أُديلا[5]
يا أرضُ، مُذ فقدَ المعلِّمُ نفسَه | بين الشموسِ وبين شرقِك حيلا
ذهب الذين حَمَوْا حقيقةَ علمِهم | واستعذبوا فيها العَذابَ وَبيلا
في عالَمٍ صحِبَ الحياةَ مقيَّدًا | بالفردِ، مخزومًا به، مغلولا[6]
صرعته دنيا المستبد، كما هوتْ | من ضربةِ السمسِ الرؤُوسُ ذهُولا

---

[1] أُلْقِيَت هذه القصيدة في حفل قام به نادي مدرسة المعلمين العليا.

سُقراطُ أعطى الكأسَ وهي مَنِيَّةٌ شفتي محِبٍّ يشتهي التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهي غباوةٌ فأبى، وآثر أن يموت نبيلا[٧]
إن الشجاعة في القلوبِ كثيرةٌ ووجدتُ شجعانَ العقولِ قليلا

* * *

إن الذي خلق الحقيقةَ عَلْقَمًا لم يُخل من أهل الحقيقةِ جيلا
ولربما قتل الغرامُ رجالَها قُتِل الغرامُ، كم استباحَ قتيلا
أوَ كُلُّ مَنْ حامى عن الحقِّ اقتنى عند السوادِ ضغائنًا وذُحولا؟[٨]
لو كنتُ أعتقدُ الصَّليبَ وخَطْبه لأقمتُ من صَلْبِ المسيح دليلا

* * *

أمُعلَّمي الوادي، وساسةَ نَشْئِه والطابعينَ شَبابَه المأمولا
والحاملينَ — إذا دُعوا ليُعلِّموا — عبءَ الأمانة فادحًا مسئولا
كانتْ لنا قدمٌ إليه خفيفةٌ وَرِمَتْ بدنلوبٍ فكان الفيلا[٩]
حتى رأينا مصرَ تخطو إصبَعًا في العلم، إن مشِت الممالك ميلا
تلك الكفورُ — وَحَشْوُها أمِّيّةٌ — من عهد «خوفو» لم تر القنديلا
تجدُ الذين بنى «المسلَّةَ» جدُّهم لا يُحسنون لإبرةٍ تشكيلا
ويُدَلَّلون إذا أُريدَ قِيادُهم كالبُهْم تأنسُ إذ ترى التدليلا
يتلو الرجالُ عليهمُ شهواتِهم فالناجحون أَلَدُّهم ترتيلا
الجهلُ لا تحيا عليه جماعةٌ كيف الحياةُ على يَدَيْ عِزريلا؟
واللهِ لولا ألسُنٌ وقرائحٌ دارت على فِطَنِ الشباب شَمولا[١٠]
وتعهَّدتْ من أربعين نفوسَهم تغزو القنوطَ، وتغرِسُ التأميلا
عرفتْ مواضعَ جدبهم، فتتابعتْ كالعينِ فيضًا، والغمامِ مسيلا
تُسدي الجميلَ إلى البلاد، وتستحي من أن تُكافأ بالثناءِ جميلا
ما كان دنلوبٌ، ولا تعليمُه عند الشدائد، يُغنيان فتيلا

* * *

رَبُّوا على الإنصافِ فتيانَ الحِمَى تجدوهُمُ كهفَ الحقوقِ كهولا

فهو الذي يبني الطباعَ قويمةً ... وهو الذي يبني النفوسَ عُدولا
ويقيمُ منطقَ كلِّ أعوجِ منطقٍ ... ويُريه رأيًا في الأمور أصيلا
وإذا المعلِّمُ لم يكن عدلا، مشى ... روحُ العدالةِ في الشباب ضئيلا
وإذا المعلِّم ساءَ لحظَ بصيرةٍ ... جاءَت على يده البصائرُ حُولا[١١]
وإذا أتى الإرشادُ من سبب الهوى ... ومن الغرورِ، فسمِّه التضليلا
وإذا أصيبَ القومُ في أخلاقهم ... فأقِمْ عليهم مأتما وعويلا
إني لأعذُركم وأحسبُ عِبْئَكم ... من بين أعباءِ الرجال ثقيلا
وجد المساعدَ غيرُكم، وحُرِمْتمُ ... في مصرَ عون الأمهاتِ جليلا
وإذا النساءُ نشأن في أمِّية ... رَضَع الرجالُ جهالةً وخمولا
ليس اليتيمُ من انتهى أبواهُ من ... همَّ الحياةِ، وخلَّفاه ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما ... وبحسن تربيةِ الزمانِ بديلا!
إنَّ اليتيم هو الذي تَلقى له ... أُمًّا تخلَّتْ، أو أبًا مشغولا[١٢]

* * *

مصرٌ إذا ما راجعتْ أيامَها ... لم نلقَ للسَّبت العظيم مثيلا[١٣]
(البرلمانُ) غدًا يُمدُّ رواقُه ... ظلاًّ على الوادي السعيدِ ظليلا
نرجو إذا التعليم حرَّكَ شجوَهُ ... ألا يكون على البلاد بخيلا
قل للشباب: اليومَ بُورك غرسُكم ... دنت القطوفُ، وذُلِّلَتْ تذليلا
حيُّوا من الشهداء كلَّ مغيَّبٍ ... وضعوا على أحجاره إكليلا
ليكون حظُّ الحيَّ من شُكرانكم ... جمًّا، وحظُّ الميْتِ منه جزيلا
لا يلمسُ الدستورُ فيكم روحَه ... حتى يرى جنديَّه المجهولا[١٤]
ناشدتُكم تلك الدِّماءَ زكيةً ... لا تبعثوا للبرلمان جَهولا
فلْيسألَنَّ عن الأرائكِ سائلٌ ... أحملَن فضلاً، أم حملنَ فُضولا؟
إنْ أنتَ أطلعتَ الممثِّل ناقصًا ... لم تلق عند كماله التمثيلا
فادعوا لها أهلَّ الأمانة، واجعلوا ... لأولي البصائرِ منهم التفضيلا
إن المقصِّرَ قد يَحُولُ، ولن ترى ... لجهالةِ الطبع الغبيَّ محيلا
فلرُبَّ قولٍ في الرجالِ سمعتمُ ... ثم انقضى، فكأنَّه ما قيلا
ولكم نصرتم بالكرامة والهوى ... مَنْ كان عندكمُ هو المخذولا

كرمٌ وصفحٌ في الشبابِ، وطالما كَرُمَ الشبابُ شمائلاً وميولا
قوموا اجمعوا شُعَبَ الأبوةِ، وارفعوا صوتَ الشباب مُحبَّبًا مقبولا
ما أبعدَ الغاياتِ!! إلا أنني أجدُ الثباتَ لكم بهنَّ كفيلا
فَكِلوا إلى اللهِ النجاحَ، وثابروا فاللهُ خيرٌ كافلاً ووكيلا

هوامش

(١) طبع السيف. صاغه. وصدئ الحديد: أي غير مجلوٍ ولا مصقول.

(٢) البتول: لقب السيدة مريم عليها السلام.

(٣) التنزيل: القرآن.

(٤) التطفيل: التطفُّل.

(٥) أديل المغرب على المشرق: أي فاقه وانتزع منه الدولة.

(٦) مخزومًا به: أي مسخَّرًا له.

(٧) النبل: الذكاء.

(٨) الذحول: جمع ذحل وهو الثأر.

(٩) الفيل: ورم يصيب الساق. ودنلوب: مستشار إنجليزي منيت به نظارة المعارف المصرية فأساء إلى العلم والتعليم.

(١٠) الفطن: جمع فطنة، وهي الحذق والذكاء. والشمول: الخمر.

(١١) الحول: جمع حولاء، والحولاء، مَنْ في عينها حَول، والحَول. إقبال الحدقة على الأنف، وهو عيب.

(١٢) أمًّا تخلت عن تربيته، وأبًا مشغولا عن العناية به وتهذيبه.

(١٣) السبت: ١٥ مارس سنة ١٩٢٤، وهو اليوم الذي افتتح فيه (البرلمان) الأول، وقد كان هذا اليوم قريبًا من يوم الاحتفال.

(١٤) يريد بالجندي المجهول: مَنْ يعمل في غير جلبة ولا ضوضاء، وفي غير انتظار مكافأة أو جزاء.

بنك مصر[1]

قِفْ بالممالكِ، وانظرْ دولةَ المالِ … واذكرْ رجالاً أدالوها بإجمال

وانقلْ ركابَ القوافي في جوانبها … لا في جوانب رسمِ المنزلِ البالي

ما هيكلُ الهرم الجيزِّ من ذهبٍ … في العين، أزينَ من بُنيانِها الحالي

علا بها الحرصُ أركانًا، وأخرجها … على مثالٍ من الدنيا، ومِنوال

فيها الشقاءُ لقومٍ، والنعيمُ لهم … وبؤسُ ساعٍ، ونُعمَى قاعدٍ سالي

والمالُ — مُذْ كان — تمثالٌ يطافُ به … والناسُ — مُذ خُلقوا — عُبَّادُ تمثال

إذا جفا الدورَ، فَانْعَ النازلين بها … أو الممالكَ، فانْدُبْها كأطلال

يا طالبًا لمعالي الملك مجتهدًا … خُذْها من العلم أو خُذْها من المال

بالعلمِ والمالِ يَبني الناسُ مُلْكَهُمُ … لم يُبْنَ ملكٌ على جهلٍ وإقلال

سراةَ مصرَ، عهدناكم إذا بُسطتْ … يدُ الدعاءِ سراعًا غيرَ بُخَّالِ

تبيَّنَ الصدقُ من بينِ الأمور لكم … فامضوا إلى الماءِ، لا تَلْوُوا على الآل[1]

لا يذهبِ الدَّهُر بين التُّرَّهاتِ بكم … وبين زَهْرٍ من الأحلام قتَّال

هاتوا الرجال وهاتوا المال، واحتشدوا … رأيًا لرأيٍ، ومِثْقالاً لمثقال

هذا هو الحجرُ الدرِّيُّ بينكم … فابنوا بِنَاءَ قريش بيتَها العالي

---

[1] قِيلت هذه القصيدة في الاحتفال بإنشاء بنك مصر بدار «الأوبرا» الملكية.

دارٌ إذا نـزلـتْ فـيـهـا ودائـعـكُـم أودعـتـم الـحَـبَّ أرضًـا ذاتَ إغـلال
آمـالُ مـصـرَ إلـيـهـا طـالـمـا طـمـحـتْ هـل تـبـخـلـونَ عـلـى مـصـر بـآمـال؟
فـابـنـوا عـلـى بـركـات الله، واغـتـنـمـوا مـا هـيَّـأَ الـلـهُ مـن حـظٍّ وإقـبـال

هوامش

(١) الآل: السراب.

مرحبًا بالهلال[١]

العامُ أقبلَ، قُمْ نُحَيَّ هلالا … كالتاج في هامِ الوجود جلالا

طُغَرَى كتابِ الكائناتِ لقارئٍ … يزِنُ الكلامَ، ويَقدُرُ الأقوالا

مَلَكَ السماءَ، فكان في كُرْسيِّهِ … بين الملائكِ والملوكِ مِثالا

تتنافسُ الآمالُ فيه، كأنَّه … ثغرُ العنايةِ ضاحَكَ الآمالا

والشَّمسُ تُزلِف عيدَها، وتزُفُّه … بشرَى بمطلعهِ السعيدِ، وفالا[١]

عيدُ المسيح، وعيدُ أحمد، أقبلا … يتباريان وضاءَةً وجمالا

ميلادُ إحسانٍ، وهجرةُ سُؤدَدٍ … قد غيَّرا وجه البسيطةِ حالا

* * *

قمْ للهلالِ قيامَ مُحتفِلٍ به … أثنى، وبالغ في الثناءِ، وغالى

نورُ السبيلِ هَدَى، لكلَّ فضيلةٍ … يَهدي الحكيمُ لها، وسَنَّ خِلالا

ما بينَ مولِدِه وبين بلوغه … ملأ الحياةَ مآثرًا وفعالا

متواضعٌ، والله شرَّف قدرَه … بالشمسِ ندًّا، والكواكب آلا[٢]

متودَّدٌ عند الكمالِ، تخالُه … في راحتَيْكَ، وعَزَّ ذاك مَنالا

وافٍ لجارةِ بَيْته، يرعى لها … عهدَ السَّمَوْءَلِ، عُرْوَةً، وحِبالا[٣]

---

[١] قيلت هذه القصيدة في رأس سنة ١٣٢٩ الهجرية.

عَونُ السُّراة على تصاريِف النوى — أَمِنوا عليه وحَشَةً، وضلالا[٤]
ويُصانُ من سرِّ الصبابِة عندَه — ما باتَ عند الأكثرين مُذالا[٥]
ويُشَكُّ فيه، فلا يكلِّف نفسَه — غيرَ الترفُّع والوقار نِضالا
ساءَت ظنونُ الناس حتى أحدثوا — للشكِّ في النور المبين مجالا
والظنُّ يأخذ في ضميرك مأْخذًا — حتى يُريكَ المستقيمَ محالا
ومن العجائبِ عند قِمَّةِ مجدِه — رام المزيدَ، فجدَّ فيه، فنالا
يطوي إلى الأَوْج السماواتِ العُلا — ويشدُّ في طلب الكمالِ رِحالا
ويَفُلُّ من هُوج الرياحِ عزائمًا — ويّدُكُّ من موْج البحار جبالا
ويُضيءُ أثناءَ الخمائل والرُّبَى — حتى تَرى أسحارَها آصالا
ويَجُولُ في زُهْرِ الرياضِ، كأنه — صْيبُ الربيعِ، مشى بهنَّ، وجالا

***

أُممَ الهلالِ، مقالةً من صادِقٍ — والصدقُ أليقُ بالرجال مقالا
متلطِّفٍ في النصحِ، غيرِ مُجادِلٍ — والنصحُ أضيعُ ما يكون جدالا
من عادة الإسلام يرفعُ عاملا — ويسوِّدُ المِقدامَ، والفَعَّالا
ظلمتْه أَلسنةٌ تؤاخذُه بكم — وظلمتموه مُفرَّطين، كسالى
هذا هلالُكمُ تكفَّلَ بالهُدى — هل تعلمون مع الهلال ضلالا؟
سرَتِ الحضارةُ حقبةً في ضوئه — ومشى الزَّمانُ بنورِه مختالا
وبنى له العربُ الأجاوِدُ دُولة — كالشمس عرشًا، والنجومِ رجالا
رفعوا له فوق السماكِ دعائمًا — من عِلْمِهمْ ومن البيانِ، طوالا
الله جلَّ ثناؤه بلسانهم — خلقَ البيانَ وعلَّم الأمثالا
وتخيَّرَ الأخلاقَ أحسنهَا لهم — ومكارِمُ الأخلاقِ منه تعالى
كالرُّسِل عَزْمًا، والملائِك رحمةً — والأُسْدِ بأسًا، والغيوثِ نوالا
عَدلوا، فكانوا الغيثَ وقعًا، كلَّما — ذهبوا يمينًا في الورى، وشمالا
والعدلُ في الدُّولاتِ أسٌّ ثابتٌ — يُفني الزمانَ، ويُنفِد الأجيال
أيامَ كان الناسُ في جَهلاتهم — مثلَ البهائمِ، أُرْسِلت إرسالا
من جهلِهم بالدين والدنيا معًا — عبدوا الأصمَّ، وألَّهوا التمثالا
ضلُّوا عقولا بعد عرفانِ الهدى — والعقلُ إن هو ضلَّ كان عِقالا[٦]

حتى إذا انقسموا تقوَّضَ ملكهم والـمـلـكُ إن بـطـلَ الـتـعـاونُ زالا
لـو أن أبـطـالَ الـحـروب تـفـرَّقـوا غلب الجبان على القَنا الأبطالا

هوامش

(١) تزلُّفه: أي تقرُّبه.
(٢) الندُّ: النظير. والآل: الأهل.
(٣) جارة بيته: هي الزهرة التي تلازمه ًدائما. وبيته، هو الهالة التي تحيط به.
(٤) السراة: السائرون ليلاً.
(٥) السرُّ المذال: الذي لايكتم.
(٦) العقال: في الأصل يُشدُّ به البعير، وهنا بمعنى القيد.

يا شباب الديار[١]

غالِ في قيمةِ ابن بُطْرُسَ غالي ... علم الله ليس في الحقِّ غالي[١]

نحتفي بالأديب، والحقُّ يقضي ... وجـلالُ الأخـلاق والأعـمـال

أدبُ الأكـثـريـن قـولٌ، وهـذا ... أدبٌ فـي الـنـفـوس والأفـعـال

يُظهرُ المدحُ روْنَقَ الرجلِ الما ... جِدِ، كالسيفِ يزدهي بالصّقال[٢]

رُبَّ مدحٍ أذاع في الناس فضلا ... وأتـاهـم بـقُـدوةٍ ومِـثـال

وثـنـاءٍ عـلـى فـتـى عـمَّ قـومًـا ... قيمةُ العِقْدِ حُسنُ بعضِ اللآلي

إنـمـا يـقـدُرُ الـكـرامَ كـريـمٌ ... ويـقـيـمُ الـرجـالُ وزنَ الـرجـال[٣]

وإذا عـظَّـمَ الـبـلادَ بَـنـوهـا ... أنـزلـتـهـم مـنـازلَ الإجـلال

تـوَّجـتْ هـامَـهـم كما تـوَّجـوهـا ... بـكـريـم مـن الـثـنـاءِ وغـالـي

إنـمـا (واصـفٌ) بـنـاءٌ مـن الأخـ ... ـلاق، في دولةِ المشارق عالي

ونـجـيـبٌ، مـهـذَّبٌ، مـن نـجـيـبٍ ... هـذَّبـتْـه تـجـاربُ الأحـوال

[١] قيلت هذه القصيدة في تكريم واصف غالي باشا سنة ١٩٠٦ (واصف غالي بك يومئذ) ولعلها كانت أوَّل دعوة إلى اتحاد عنصريْ هذه الأمة الكريمين، ولعل صاحب الديوان كان يتكشف له الغيب، فيرى خيال هذا الاتحاد، ويدعو إليه، والناس عنه عمون. وحديث المؤتمرين ما زال يومئذ ملء الأفواه والأسماع، ولقد شاء الله أن يستجيب دعاءه، وأن يربط بين الأخوين برباط مقدس، كان لصاحب الديوان فضل الخيط الأول في نسيجه.

واهبُ المالِ والشبابِ لما يَنـ ـفع، لا للهوى، ولا للضلال
ومذيقُ العقول في الغرب مما عَصَرَ العُرْبُ في السنينَ الخوالي
في كتابٍ حوى المحاسنَ في الشّـ ـعر، وأَوعى جوائزَ الأمثال[٤]
من صفاتٍ، كأنها العينُ صدقًا في أداءِ الوجوه والأشكال
ونسيب، تحاذِرُ الغِيدُ منه شَرَك الحُسنِ أو شباكَ الدلال
ونظامٍ، كأنه فَلَكُ الليـ ـلِ إذا لاحَ وهو بالزَّهر حالي
وبيانٍ، كما تجلَّى على الرُّسْـ ـل تجلَّى على رعاةِ الضال[٥]
ما علِمنا لغيرهم من لسان زال أهلوه، وهْو في إقبال
بلِيتْ هاشمٌ، وبادتْ نزارٌ واللسانُ المبينُ ليس ببالي
كلَّما همَّ مجدُه بزوالٍ قام فحلٌ، فحالَ دون الزَّوال

***

يا بني مصرَ، لم أَقلْ أمَّةَ الـ ـقبطِ، فهذا تشبُّثٌ بمحال
واحتيالٌ على خيال من المجـ ـدِ، ودعوى من العِراض الطوال
إنما نحنُ مسلمينَ وقبطًا أمةٌ وُحَّدَتْ على الأجيال
سبق النيلُ بالأبوَّةِ فينا فهو أصلٌ، وآدمُ الجدُّ تالي
نحن من طينِه الكريم على اللهِ ومن مائِه القَراح الزُّلال[٦]
مَرَّ ما مَرَّ من قرونٍ علينا رُسَّفًا في القيود والإغلال
وانقضى الدَّهر، بينَ زَغْردةِ العر سِ، وحَثْوِ التراب، والإعوال
ما تَحلَّى بكم يسوعُ، ولا كُنَّا لِطَه ودينِه بجَمال
وتُضاعُ البلادُ بالنومِ عنها وتضاعُ الأمورُ بالإهمال
يا شبابَ الديار، مصرُ إليكم ولواءُ العرين للأشبال
كلَّما رُوِّعت بشبهةِ بأْسٍ جعلتكم معاقِلَ الآمال
هَيِّئوها لما يليقُ بمنفٍ وكريمِ الآثارِ، والأطلال
وانهضوا نهضةَ الشعوبِ لِدُنيا وحياةٍ كبيرةِ الأشغال
وإلى اللهِ مَنْ مشى بصليبٍ في يديهِ، ومَنْ مشى بهلال

هوامش

(١) غالِ في المدح: بالغ فيه. وغالي (الثانية) إمَّا أن يراد بها الأمر، أو يراد بها اسم والد المكرَّم المرحوم بطرس باشا غالي.

(٢) صقل السيف صقالاً: جلاَّه.

(٣) قدَّره: عظَّمه.

(٤) يشير إلى كتاب فرنسي ألَّفه واصف باشا وكان موضع تكريمه.

(٥) الضال: نوع من الشجر، والمراد: رعاة ما يأكل الضال من الحيوان، أي رعاة الإبل.

(٦) الماء القراح: الصافي.

نهج البردة

ريمٌ على القاعِ بين البانِ والعَلَمِ
أَحَلَّ سفْكَ دمي في الأشهر الحُرُم[١]
رمِي القضاءُ بعْيني جُؤذَر أسدًا
يا ساكنَ القاعِ، أدرِكْ ساكن الأجم[٢]
لمَّا رَنا حدثتني النفسُ قائلةً
يا وَيْحَ جنبِكَ، بالسهم المُصيب رُمِي[٣]
جحدتها، وكتمت السهمَ في كبدي
جُرْحُ الأحبه عندي غيرُ ذي ألم[٤]
رُزِقتَ أسمح ما في الناس من خُلق
إذا رُزقتَ التماس العذْر في الشيَّم[٥]
يا لائمي في هواه — والهوى قدَرٌ —
لو شفَّك الوجدُ لم تَعِذل ولم تلم[٦]
لقد أنلْتُك أذْنًا غير واعيةٍ
ورُبَّ منتصتٍ والقلبُ في صَمم[٧]
يا ناعس الطرفِ، لا ذقْتَ الهوى أبدًا
أسهرْتَ مُضناك في حفظِ الهوى، فنم[٨]
أفديك إلفًا، ولا آلو الخيالَ فِدًى
أغراك بالبخل مَنْ أغراه بالكرم[٩]

سَرى، فصادف جُرحًا داميًا، فأسا
ورُبَّ فضلٍ على العشاقِ للحُلُم[10]
مَن الموائسُ بانًا بالرُّبى وَقَنا
اللاعباتُ بُروحي، السافحات دِمي؟[11]
السافِراتُ كأمثالِ البُدور ضُحًى
يُغِرْنَ شمسَ الضُّحى بالحَلْى والعِصَم[12]
القاتلاتُ بأجفانٍ بها سَقَمٌ
وللمنيةِ أسبابٌ من السّقم
العاثراتُ بألبابِ الرجال، وما
أقِلنَ من عثراتِ الدَّلِّ في الرسَم[13]
المضرماتُ خُدودًا، أسفرت، وَجَلتْ
عن فِتنة، تُسلِمُ الأكبادَ للضرَم[14]
الحاملاتُ لواءَ الحسنِ مختلفًا
أشكالُه، وهو فردٌ غير منقسمِ[15]
من كلَّ بيضاء أو سمراءَ زُيَّنتا
للعينِ، والحُسنُ في الآرامِ كالعُصُم[16]
يُرَعْنَ للبصر السامي، ومن عجبٍ
إذا أشَرن أسرن الليثَ بالعَنم[17]
وضعتُ خدَّ، وقسَّمتُ الفؤادَ رُبًى
يرتَعنَ في كُنُسٍ منه وفي أكم[18]
يا بنت ذي اللَّبَدِ المحميَّ جانِبُه
ألقاكِ في الغاب، أم ألقاكِ في الأطُم؟[19]
ما كنتُ أعلم حتى عنَّ مسكنُه
أن المُنى والمنايا مضرِبُ الخِيم[20]
مَنْ أنبتَ الغصنَ مِنْ صَمصامةٍ ذكرٍ؟
وأخرج الريمَ مِن ضِرغامة قرِم؟[21]
بيني وبينِكِ من سُمْرِ القَنا حُجُب
ومثُلها عِفَّةٌ عُذرِيةُ العِصَم[22]

لم أغش مغناكِ إلا في غضونِ كِرًى
مَغناك أبعدُ للمشتاقِ من إرَم[٢٣]
يا نفسُ، دنياكِ تُخْفي كلَّ مُبكيةٍ
وإن بدا لكِ منها حُسنُ مُبتسَم[٢٤]
فُضَّي بتقواكِ فاهًا كلَّما ضَحكتْ
كما يُفضُّ أذَى الرقشاءِ بالثَّرَم[٢٥]
مخطوبةٌ — منذُ كان الناسُ — خاطبَةٌ
كم أوَّلِ الدهر لم تُرْمِل، ولم تَئم[٢٦]
يَفنى الزَّمانُ، ويبقى من إساءَتِها
جرْحٌ بآدم يَبكي منه في الأدم[٢٧]
لا تحفلي بجناها، أو جنايتها
الموتُ بالزَّهْر مثلُ الموت بالفَحَم[٢٨]
كم نائمٍ لا يَراها، وهي ساهرةٌ
لولا الأمانُّي والأحلامُ لم ينم[٢٩]
طورًا تمدُّك في نُعْمَى وعافيةٍ
وتارةً في قَرار البؤس والوَصَم[٣٠]
كم ضلَّلتكَ، وَمَن تُحْجَبْ بصيرتُه
إن يلقَ صابًا يَردِ، أو عَلْقمًا يَسُم[٣١]
يا ويلتاهُ لنفسي! راعَها ودَها
مُسْوَدَّةُ الصُّحْفِ في مُبْيَضَّةِ اللّمَم[٣٢]
ركَضْتها في مَرِيع المعصياتِ، وما
أخذتُ من حِمْيَةِ الطاعات للتُّخَم[٣٣]
هامت على أثَرِ اللَّذاتِ تطلبُها
والنفس إن يَدْعُها داعي الصِّبا تَهم[٣٤]
صلاحُ أمرِكَ للأخلاقِ مرجعُه
فقوِّم النفسَ بالأخلاقِ تستقم

والنفسُ من خيرِها في خيرِ عافيةٍ
والنفسُ من شرِّها في مَرْتَعٍ وَخِم[٣٥]
تطغى إذا مُكِّنَتْ من لذَّةٍ وهوًى
طَغْيَ الجيادِ إذا عَضَّت على الشُّكُم[٣٦]
إنْ جَلَّ ذَنبي عن الغُفران لي أملٌ
في اللهِ يجعلني في خيرِ مُعتصَم[٣٧]
ألقي رجائي إذا عزَّ المُجيرُ على
مُفرَّج الكرب في الدارينِ والغمَم[٣٨]
إذا خفضتُ جَناحَ الذُّلِّ أسأله
عِزَّ الشفاعِة، لم أسأل سوى أَمَم[٣٩]
وإن تقدَّم ذو تقوى بصالحةٍ
قدَّمتُ بين يديه عَبْرَةَ الندَم[٤٠]
لزِمتُ بابَ أمير الأنبياءِ، ومَنْ
يُمْسِكْ بمِفتاح باب الله يغتنِم[٤١]
فكلُّ فضلٍ، وإحسانٍ، وعارفةٍ
ما بين مستلم منه ومُلتزم[٤٢]
علقتُ من مدحِه حبلاً أعزُّ به
في يوم لا عِزَّ بالأنسابِ واللُّحَم[٤٣]
يُزرِي قّريضِي زُهَيْرًا حين أمدحُه
ولا يقاسُ إلى جودي لدَى هَرِم[٤٤]
محمدٌ صفوةُ الباري، ورحمُته
وبغيَةُ الله من خَلْقِ ومن نَسَم[٤٥]
وصاحبُ الحوض يومَ الرُّسْلُ سائلةٌ
متى الورودُ؟ وجبريلُ الأمين ظَمي[٤٦]
سناؤه وسناهُ الشمسُ طالعةً
فالجِرمُ في فلكٍ، والضوءُ في عَلَم[٤٧]
قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوَّتُه
من سؤددٍ باذخ في مظهَرٍ سَنِم[٤٨]

نُمُوا إليهن فزادوا في الورى شَرفًا
ورُبَّ أصلٍ لفرع في الفخارِ نُمي[٤٩]
حَوَاه في سُبُحاتِ الطُّهرِ قبلهم
نوران قاما مقام الصُّلبِ والرَّحِم[٥٠]
لمَّا رآه بَحيرا قال: نعرِفُه
بما حفظنا من الأسماءِ والسيَّم[٥١]
سائلْ جِراءَ، وروحَ القدس: هل عَلما
مَصونَ سرًّ عن الإدراكِ مُنْكَتِم؟[٥٢]
كم جيئةٍ وذهاب شُرَّفتْ بهما
بَطحاءُ مكة في الإصباح والغَسَم[٥٣]
ووحشةٍ لابنِ عبد الله بينهما
أشهى من الأُنس بالأحباب والحشم[٥٤]
يُسامِر الوحَي فيها قبل مهبِطه
ومَن يبشَّرْ بسِيمَى الخير يَتَّسِم[٥٥]
لمَّا دعا الصَّحْبُ يستسقونَ من ظماءٍ
فاضتْ يداه من التسنيم بالسَّنِم[٥٦]
وظلَّلتْه، فصارت تستظلُّ به
غمامةٌ جذَبَتْها خِيرةُ الدِيَم[٥٧]
محبةٌ لرسولِ اللهِ أُشرِبَها
قعائدُ الدَّيْرِ، والرُّهبانُ في القِمم[٥٨]
إنَّ الشمائلَ إن رَقَّتْ يكاد بها
يُغْرَى الجَمادُ، ويُغْرَى كلُّ ذي نَسَم
ونودِيَ: اقرأْ، تعالَى الله قائلُها
لم تتصلْ قبل مَنْ قيلتْ له بفم
هناك أَذَّنَ للرحمنِ، فامتلأت
أسماعُ مكَّةَ مِن قُدسيَّةِ النَّغم[٥٩]
فلا تسْل عن قريشٍ كيف حَيْرتُها؟
وكيف نُفْرتُها في السهل والعَلم؟[٦٠]

تساءَلوا عن عظيمٍ قد ألمَّ بهم
رمَى المشايخَ والولدانَ باللَّمم[٦١]
يا جاهلين على الهادي ودعوتِه
هل تجهلون مكانَ الصادِقِ العَلم؟[٦٢]
لقَّبتموهُ أمينَ القومِ في صِغرٍ
وما الأمينُ على قوْلٍ بمتَّهَم
فاق البدورَ، وفاق الأنبياءَ، فكمْ
بالخُلْق والخَلق مِن حسْنٍ ومِن عِظم
جاءَ النبيون بالآيات، فانصرمت
وجئتنا بحكيمٍ غير مُنصَرم[٦٣]
آياتُه كلَّما طالَ المدَى جُدُدٌ
يَزِينُهنّ جلالُ العتِق والقِدم[٦٤]
يكاد في لفظةٍ منه مشرَّفةٍ
يوصِيك بالحق، والتقوى، وبالرحم
يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً
حديثُك الشَّهدُ عند الذائقِ الفَهِم
حَلَّيتَ من عَطَلٍ جِيدَ البيانِ به
في كلِّ مُنتَثِرٍ في حسن مُنتظِمِ[٦٥]
بكلِّ قولٍ كريمٍ أنت قائلُه
تُحْيي القلوبَ، وتُحْيي ميِّتَ الهِمم
سَرَتْ بشائِرُ بالهادي ومولِده
في الشرق والغرب مَسْرى النور في الظلم
تخطَّفتْ مُهَج الطاغين من عربٍ
وطيَّرت أنفُسَ الباغين من عجم[٦٦]
رِيعت لها شُرَفُ الإيوان، فانصدعت
من صدمة الحق، لا من صدمة القُدم[٦٧]

أتيتَ والناسُ فَوْضَى لا تمرُّ بهم
إلاَّ على صَنم، قد هام في صنم
والأرض مملوءةٌ جورًا، مُسَخَّرَةٌ
لكلِّ طاغيةٍ في الخَلْق مُحتكمِ
مُسَيْطِرُ الفْرسِ يبغي في رعيّتِه
وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ
يُعذِّبان عبادَ اللهِ في شُبهٍ
ويذبَحان كما ضحَّيت بالغَنَم
والخلقُ يَفْتِك أقواهم بأضعفِهم
كاللَّيث بالبَهْم، أو كالحوتِ بالبَلَم[٦٨]
أسَرى بك الله ليلاً، إذ ملائكُه
والرُّسْلُ في المسجد الأقصى على قدَم[٦٩]
لمَّا خطرتَ به التفُّوا بسيِدهم
كالشُّهْبِ بالبدرِ، أو كالجُند بالعَلم
صلَّى وراءَك منهم كلُّ ذي خطرٍ
ومن يَفُزْ بحبيبِ الله يأتمِ[٧٠]
جُبْتَ السماواتِ أو ما فوقهن بهم
على منوَّرةٍ دُرِّيَةِ اللُّجُم[٧١]
رَكوبة لك من عزٍّ ومن شرفٍ
لا في الجيادِ، ولا في الأَيْنُق الرسُم[٧٢]
مَشِيئةُ الخالق الباري، وصنَعتُه
وقدرةُ الله فوق الشك والتُّهَم
حتى بلغتَ سماءً لا يُطارُ لها
على جناحٍ، ولا يُسْعَى على قَدم
وقيل: كلُّ نبيٍّ عند رتبِته
ويا محمدُ، هذا العرشُ فاستلم

خطَطت للدين والدنيا علومَها
يا قارئَ اللوح، بل يا لامِسَ القَلم[٧٣]
أحطْتَ بينهما بالسرِّ، وانكشفتْ
لك الخزائنُ من عِلْم، ومن حِكم[٧٤]
وضاعَفَ القُربُ ما قُلَّدْتَ من مِنَنٍ
بلا عِدادٍ، وما طُوَّقتَ من نِعم[٧٥]
سلْ عصبةَ الشِّركِ حولَ الغارِ سائمةً
لولا مطاردةُ المختار لم تُسم[٧٦]
هل أبصروا الأثر الوضَّاءَ، أم سِمعوا
همْسَ التسابيِح والقرآن من أمَم؟[٧٧]
وهل تمثَّل نسجُ العنكبوتِ لهم
كالغابِ، والحائماتُ الزُّغْبُ كالرخم؟[٧٨]
فأدبروا، ووجوهُ الأرضِ تلعنُهم
كباطلٍ من جلالِ الحق منهزِم[٧٩]
لولا يدُ اللهِ بالجارَيْنِ ما سِلما
وعينُه حولَ ركنِ الدين، لم يقم[٨٠]
تَوارَيا بَجناح اللهِ، واستترَا
ومن يضُمُّ جناحُ الله لا يُضَم[٨١]
يا أحمدَ الخْيرِ، لي جاهٌ بتسْمِيَتي
وكيف لا يتسامى بالرسولِ سِمي؟[٨٢]
المادحون وأربابُ الهوى تَبَعٌ
لصاحبِ البُرْدِةِ الفيحاءِ ذي القَدَم[٨٣]
مديحُه فيك حبٌّ خالصٌ وهوًى
وصادقُ الحبَّ يُملي صادقَ الكلم[٨٤]
الله يشهدُ أني لا أعارضُه
من ذا يعارضُ صوبَ العارضِ العَرِم؟[٨٥]
وإنَّما أنا بعض الغابطين، ومَن
يغبِطْ وليَّك لا يُذمَمْ، ولا يُلَم[٨٦]

هـذا مـقـامٌ مـن الـرحـمـنِ مُـقـتَـبـسٌ
تَـرمـي مَـهـابـتُـه سَـحْـبـانَ بـالـبَـكـم[٨٧]
الـبـدرُ دونـكَ فـي حـسـنٍ وفـي شـرفٍ
والـبـحـرُ دونـك فـي خـيـرٍ وفـي كـرم
شُـمُّ الـجـبـالِ إذا طـاولـتَـهـا انـخـفـضـت
والأنـجُـمُ الـزُّهـرُ مـا واسـمـتَـهـا تـسِـم[٨٨]
والـلـيـثُ دونـكَ بـأْسًـا عـنـد وثـبِـتـه
إذا مشيتَ إلى شاكي السلاح كَمِي[٨٩]
تـهـفـو إلـيـكَ — وإن أدمـيـتَ حـبَّـتَـهـا
في الـحـربِ — أفئدةُ الأبطالِ والبُهَم[٩٠]
مـحـبَّـةُ الـلـهِ ألـقـاهـا، وهـيـبـتُـه
عـلـى ابـن آمـنـةٍ فـي كلِّ مُـصـطَـدَم[٩١]
كـان وجـهَـك تـحـت الـنَّـقْـع بـدرُ دُجًـى
يـضـيءُ مُـلْـتَـثِـمًـا، أو غـيـرَ مُـلـتِـثـم[٩٢]
بـدرٌ تـطـلَّـعَ فـي بـدرٍ، فـغُـرَّتُـه
كغُرَّةِ الـنـصـر، تـجـلـو داجـيَ الـظـلَـم[٩٣]
ذُكِـرْت بـالـيُـتْـم فـي الـقـرآن تـكـرمـةً
وقـيـمـةُ الـلـؤلـؤ الـمـكـنـونِ فـي الـيُـتـم[٩٤]
الـلـه قـسـمَ بـيـن الـنـاسِ رزقَـهُـمُ
وأنـت خُـيِّـرْتَ فـي الأرزاق والـقِـسـم[٩٥]
إن قلتَ في الأمر: «لا» أو قلتَ فيه: «نعم»
فـخـيـرَةُ الـلـهِ فـي «لا» مـنـك أو «نـعـم»
أخـوك عـيـسـى دَعَـا مـيْـتًـا، فـقـام لـهُ
وأنـت أحـيـيـتَ أجـيـالاً مِـن الـزَّمـم
والـجـهْـل مـوتٌ، فـإن أوتـيـتَ مُـعْـجـزةً
فابعثْ من الجهل، أو فابعثْ من الرَّجَم[٩٦]
قـالـوا: غـزَوْتَ، ورسْـلُ الـلـهِ مـا بُـعـثـوا
لـقـتْـل نـفـس، ولا جـاءُوا لـسـفـكِ دم

جـهـلٌ، وتـضـلـيـلُ أحـلامٍ، وسـفـسـطـةٌ
فـتـحـتَ بـالـسـيـفِ بـعـد الـفـتـح بـالـقـلـم
لـمَّـا أتـى لـكَ عـفـوًا كـلُّ ذي حَـسَـبٍ
تـكـفَّـلَ الـسـيـفُ بـالـجُـهَّـالِ والـعَـمَـم[٩٧]
والـشـرُّ إن تَـلْـقَـهُ بـالـخـيـرِ ضِـقـتَ بـه
ذَرْعًـا، وإن تَـلْـقَـهُ بـالـشـرَّ يَـنـحـسِـم
سَـل الـمـسـيـحـيَّـةَ الـغـرَّاءَ: كـم شِـربـت
بـالـصَّـاب من شَـهـوات الـظـالـم الـغَـلِـم[٩٨]
طـريـدةُ الـشـركِ، يـؤذيـهـا، ويـوسـعُـهـا
فـي كلِّ حـيـنٍ قـتـالاً سـاطـعَ الـحَـدَم[٩٩]
لـولا حُـمـاةٌ لـهـا هـبُّـوا لـنـصـرَتِـهـا
بالسيف، ما انتفعتْ بالرفق والرُّحَم[١٠٠]
لـولا مـكـانٌ لـعـيـسـى عـنـد مُـرسِـلِـه
وحُـرمَـةٌ وجـبـتْ لـلـروح فـي الـقِـدَم[١٠١]
لـسُـمَّـرَ الـبـدَنُ الـطُّـهـرُ الـشـريـفُ عـلـى
لَـوْحَـيْـن، لـم يـخـشَ مـؤذيـه، ولـم يَـجِـم[١٠٢]
جـلَّ الـمـسـيـحُ، وذاقَ الـصَّـلـبَ شـانِـئـهُ
إن الـعـقـابَ بـقـدرِ الـذنـبِ والـجُـرُم[١٠٣]
أخُـو الـنـبـي، وروحُ الـلـهِ فـي نُـزل
فـوقَ الـسـمـاءِ ودون الـعـرشِ مُـحـتـرَم[١٠٤]
عـلَّـمْـتَـهـم كـلَّ شـيءٍ يـجـهـلـون بـه
حـتـى الـقـتـالَ ومـا فـيـه مـن الـذِّمَـم[١٠٥]
دعـوتَـهـم لِـجِـهـادٍ فـيـه سـؤددُهُـمْ
والـحـربُ أسُّ نـظـامِ الـكـونِ والأمـم
لـولاه لـم نـر لـلـدولاتِ فـي زمـن
مـا طـالَ مـن عـمـد، أو قـرَّ مـن دُهُـم[١٠٦]
تـلـك الـشـواهِـدُ تَـتْـرى كـلَّ آونـةٍ
في الأعصُر الغُرِّ، لا في الأعصُر الدُّهُم[١٠٧]

بـالأمـس مـالـت عـروشٌ، واعـتـلـت سُـرُرٌ
لـولا الـقـذائـفُ لـم تـثْـلَـمْ، ولـم تـصـم[١٠٨]

أشـيـاعُ عـيـسـى أعَـدُّوا كـلَّ قـاصـمـةٍ
ولـم نُـعِـدّ سِـوى حـالاتِ مُـنـقـصِـم[١٠٩]

مـهـمـا دُعِـيتَ إلـى الـهْـيجَـاء قـمـت لـهـا
تـرمـي بأسْـدٍ، ويـرمـي الـلـهُ بـالـرُّجُـم[١١٠]

عـلـى لِـوَائِـكَ مـنـهـم كـلُّ مُـنـتـقِـمٍ
لـلـه، مُـسـتـقِـتـلٍ فـي الـلـهِ، مُـعـتـزِم[١١١]

مُـسـبِّـحٍ لـلـقـاءِ الـلـهِ، مُـضـطـرِمٍ
شـوقًـا، على سابحٍ كالبرقِ مضطرِم[١١٢]

لـو صـادفَ الـدهـرَ يَـبـغِـي نـقـلـةً، فـرمـى
بـعـزمِـه فـي رحـالِ الـدَّهـرِ لـم يَـرم[١١٣]

بيضٌ، مَـفـالـيلُ من فـعـلِ الـحـروبِ بـهـم
من أسْيُفِ الـلـه، لا الـهـنـدِيـة الـخُـذُم[١١٤]

كـم فـي الـتـرابِ إذا فـتَّـشـت عـن رجـلٍ
مَنْ ماتَ بالعهدِ، أو مَنْ مات بالقسَم[١١٥]

لـولا مـواهـبُ فـي بـعـضِ الأنـام لـمـا
تـفـاوت الـنـاسُ فـي الأقـدار والـقِـيَـم[١١٦]

شـريـعـةٌ لـك فـجَّـرت الـعـقـول بـهـا
عـن زاخـرٍ بـصـنـوفِ الـعـلـم مـلـتـطـمِ

يـلـوحُ حـولَ سـنـا الـتـوحـيـدِ جـوهُـرهـا
كـالـحلْـي لـلسيف أو كـالـوشْـي لـلـعَـلـم[١١٧]

غـرَّاءُ. حـامـت عـلـيـهـا أنـفـسٌ، ونُـهـىً
ومَنْ يَجدْ سَلسَلاً من حكمةٍ يَحُم[١١٨]

نـورُ الـسـبـيـل يـسـاس الـعـالَـمـون بـهـا
تـكـفَّـلـتْ بـشـبـاب الـدَّهـرِ والـهَـرَم[١١٩]

يـجـري الـزمَـانُ وأحـكـامُ الـزمـانُ عـلـى
حُـكـم لـهـا. نـافـذٍ فـي الـخـلـق، مُرْتَـسِـم

لمَّا اعتلت دولةُ الإسلامِ واتَّسَعت
مشتْ ممالِكُهُ في نورِها التَّمم[١٢٠]
وعلَّمتْ أمةً بالقفر نازلةً
رعْيَ القياصرِ بعد الشَّاءِ والنَّعَم
كم شّيَّد المصلحُون العاملون بها
في الشرق والغرب مُلكًا باذِخَ العِظَم
للعِلم. والعدلِ. والتمدين ما عزموا
من الأمور، وما شدُّوا من الحُزُم[١٢١]
سرعان ما فتحوا الدنيا لِملَّتهم
وأنهلوا الناسَ من سَلسالها الشَّبِم[١٢٢]
ساروا عليها هُداةَ الناس، فَهْي بهم
إلى الفلاحِ طريقٌ واضحُ العَظَم[١٢٣]
لا يهدِمُ الدَّهْر رُكنًا شاد عدلُهُمُ
وحائط البغي إن تلمسْهُ ينهدِم
نالوا السعادةَ في الدَّارين، واجتمعوا
على عميم من الرضوان مقتسم
دعْ عنك روما، وآثينا، وما حَوَتا
كلُّ اليواقيت في بغدادَ والتُّوَم[١٢٤]
وخلِّ كِسرى، وإيوانًا يدلُّ به
هوى على أثّرِ النيران والأيُم[١٢٥]
واتْرُكْ رعمسيسَ، إن الملكَ مَظهرُه
في نهضة العدل، لا في نهضة الهَرم[١٢٦]
دارُ الشرائع روما كلَّما ذُكِرَتْ
دارُ السلام لها ألقتْ يدَ السَّلَم[١٢٧]
ما ضارَعَتها بيانًا عند مُلْتَأَم
ولا حكَتها قضاءً عند مُختصَم[١٢٨]
ولا احتوت في طِرازٍ من قياصرها
على رشيدٍ، ومأمونٍ، ومُعتصِم[١٢٩]

مـن الـذيـن إذا سـارت كـتـائـبُـهـم
تـصـرَّفـوا بـحـدود الأرض والـتُـخـم[١٣٠]
ويـجـلـسـونَ إلـى عـلـمٍ ومَـعـرفـةٍ
فـلا يُـدانُـوْن فـي عـقـل ولا فَـهَـم
يُطأْطئ العلماءُ الهامَ إن نَبَسوا
من هيبةِ العلْم، لا من هيبة الحُكُم
ويمُطِرون، فما بالأرضِ من مَحَلٍ
ولا بمَنْ بات فوق الأرضِ من عُدُم[١٣١]
خـلائـفُ الـلـه جـلُّـوا عـن مـوازنـةٍ
فـلا تـقـيـسـنَّ أمـلاك الـورى بـهـم[١٣٢]
مَنْ في البرية كالفاروق مَعْدَلَةً؟
وكابن عبد العزيز الخاشعِ الحشم؟[١٣٣]
وكـالإمـام إذا مـا فَـضَّ مـزدحـمًـا
بمدمع في مآقي القوم مزدحم[١٣٤]
الزاخر العذْب في علْم وفي أدبٍ
والناصر النَّدْب في حرب وفي سلم؟[١٣٥]
أو كـابـن عـفّـانَ والـقـرآنُ فـي يِـدِهِ
يحنو عليه كما تحنو على الفُطُم[١٣٦]
ويـجـمـع الآي تـرتـيـبًـا ويـنـظـمُـهـا
عقدًا بجيد الليالي غير منفصِم[١٣٧]
جُرحان في كبدِ الإسلام ما التأما
جُرْحُ الشهيد، وجرحٌ بالكتاب دمي[١٣٨]
ومـا بـلاءُ أبـي بـكـر بـمـتَّـهـم
بعد الجلائل في الأفعال والخِدم
بالحزم والعزم حاطَ الدِّين في محنٍ
أضلَّت الحلم من كهلٍ ومحتلم[١٣٩]
وحِدْنَ بالراشد الفاروق عن رشدٍ
في الموت، وهو يقينٌ غير منبَهم[١٤٠]

يــجــادِلُ الــقــومَ مُــسْــتَــلاًّ مــهــنَّــدَه
في أعظم الرسْلِ قدرًا، كيف لم يدم؟
لا تــعــذلــوه إذا طــاف الــذهــولُ بــه
مات الحبيبُ، فضلَّ الصَّبُّ عن رَغَم

* * *

يــا ربَّ صَــلَّ وســلِّــم مــا أردتَ عــلــى
نــزيــل عــرشِــك خــيــرِ الــرسْــل كــلّــهــم
مُــحــيــي الــلــيــالــي صلاةٌ، لا يــقــطِّــعُــهــا
إلاَّ بــدمــعٍ مــن الإشــفــاق مُــنــســجــم
مــســبَّــحًــا لــك جُــنْــحَ الــلــيــل، مــحــتــمــلاً
ضُــرًّا مــن الــسُّــهــد، أو ضُــرًّا مــن الــورَم
رضــيَّــة نــفــسُــه، لا تــشــتــكــي ســأمًــا
ومــا مــع الــحــبَّ إن أخــلــصــت مِــن سَــأم
وصــلِّ ربَّــي عــلــى آلٍ لــهُ نُــخَــبٍ
جــعــلــتَ فــيــهــم لــواءَ الــبــيــتِ والــحــرم[١٤١]
بيضُ الوجوه، ووجهُ الدهر ذو حَلَكٍ
شُمٌّ الأنوف، وأنفُ الحادثات حمي[١٤٢]
وأهــدِ خــيــرَ صــلاةٍ مــنــك أربــعــةً
في الصحب، صُحبتُهم مَرْعِيَّةُ الحُرَم
الــراكــبــيــن إذا نــادى الــنــبــيُّ بــهــم
ما هال من جَلَلٍ، واشتدَّ من عَمَم[١٤٣]
الــصــابــريــن ونــفــسُ الأرضِ واجــفــةٌ
الضاحكين إلى الأخطار والقُحَم[١٤٤]
يــا ربِّ، هــبَّــتْ شــعــوبٌ مــن مــنــيّــتــهــا
واســتــيــقــظــت أمَــمٌ مــن رقْــدة الــعــدم
ســعــدٌ، ونــحــسٌ، ومُــلــكٌ أنــت مــالِــكــه
تُــديــلُ مِــنْ نِــعَــمٍ فــيــه، ومِــنْ نِــقَــم

رأى قـضـاؤك فـيـنـا رأيَ حـكـمِـتـه
أكـرِمْ بـوجـهـك مـن قـاضٍ ومـنـتـقـم
فـالـطُـفْ لأجـلِ رسـولِ الـعـالـمـين بـنـا
ولا تـزدْ قـومَـه خـسـفًـا، ولا تُـسـم
يـا ربِّ. أحـسـنـت بَـدءَ الـمـسـلـمـين بـه
فتمَّم الفضلَ. وامنحْ حُسنَ مُخْتَتَم١٤٥

هوامش

(١) الرئم (بالهمزة ويخفف بقلب الهمزة ياء): الظبي الخالص البياض. والقاع: الأرض السهلة المطمئنة. والبان: جمع بانة، ضرب من الشجر. والعلم: الجبل. والأشهر الحرم: أربعة، ثلاثة متتابعة هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، وكانت العرب لا تستحلُّ فيها القتال، وفي الشطر الثاني طباق بين قوله «أحلَّ» وقوله «الحرم»، ولا يذهب عن القارئ ما في البيت من براعة الاستهلال.

(٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. والأجم: جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف، وهو مسكن الأسد، يريد بالجؤذر: المحبوبة التي شبهها في البيت السابق «بالريم» تشبيهًا لها بالجؤذر في جمال عينيه واتساعهما. ويريد «بالأسد»: نفسه. وفي الشطر الثاني يستغيث بالمقتول للقاتل — لا منه — ويستنجد للأسد بالغزال، وهو بديع.

(٣) رنا: أدام النظر مع سكون الطرف. ويا ويح: كلمة تقال لِمَنْ وقع في الشدَّة والمكروه، يستنجد له بالرأفة والرحمة مما وقع فيه.

(٤) جحدتها: الجحود هو الإنكار مع العلم.

(٥) الشيم: جمع شيمة وهي الخلق والطبيعة.

(٦) شفَّه الوجد: أهزله وانحل جسمه.

(٧) انتصت: سكت سكوت مستمع. وفي الشطر الثاني من البيت طباق بين قوله: «منتصت»، وقوله: «في صمم».

(٨) الناعس: الوسنان. والطرف (بالفتح): العين. والمضنى: الذي أثقله المرض. ومضناك: الذي أضنيته بما لحقه من الوله عليك. وفي الشطر الثاني طباق بين قوله: «أسهرت»، وقوله: «فنم».

(٩) الألو: هنا بمعنى المنع والتقصير. وأغراه بالشيء: زيَّنه له وحرضه عليه.

(١٠) السرى: المشي في الليل. وأسا الجرح يأسوه: داواه.

(١١) الموائس: جمع مائسة وهي المتبخترة. والبان: ضرب من الشجر، واحدتها: بانة، يشبَّه القوام بأغصانها للدونتها. والقنا: جمع قناة وهي الرمح. وسفح الدم: سفكه وأساله.

(١٢) يقال: سفرت المرأة: أي كشفت عن وجهها. والحلي: ما تزيَّن به المرأة من مصوغ المعادن وكريم الحجارة. والعصم: القلائد، جمع عصمة كعنب وعنبة.

(١٣) العثرة: الزلة والسقطة. وأقاله من عثرته: أنهضه منها. والدلُّ: قريب المعنى من الهدى، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك. والرسم: حسن المشي.

(١٤) الضرم: اشتعال النار.

(١٥) اللواء: العلَم، وحمل لواء الحسن: كناية عن نهاية الحسن فيه.

(١٦) العصم: جمع أعصم، الذي فيه العصمة (بالضم)، وهي بياض اليدين، والعصماء من المعز: البيضاء الذراعين وسائرها أسود أو أحمر، وحرَّك الصاد إتباعًا لحركة العين قبلها.

(١٧) يرعن: يخفن. والعنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبَّه بها البنان المخضوبة. وفي البيت جناس بين قوله: «أشرن»، وقوله: «أسرن».

(١٨) وضع الخد: هنا كناية عن الخضوع والاستسلام. والكنس (بضمتين): جمع كناس وهو مستقرُّ الظباء في الشجر. والأكم: جمع أكمة وهي الموضع يكون أشدُّ ارتفاعًا مما حوله.

(١٩) اللبد: جمع لبدة وهي الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. والغاب: جمع غابة وهي الشجر المتكاثف. والأطم: القصر، وكل حصن مبني بالحجارة.

(٢٠) عنَّ الشيء: بان وظهر. والمنايا: جمع المنيَّة وهي الموت. يريد ب «المنى»: محبوبته أو لقائها، وبـ «المنايا» أباها أو لقاءه، مبالغة. ومضرب الخيم: المكان الذي تضرب فيه وتقام؛ أي حيث تنزل تلك المحبوبة في جوار أبيها. وفي البيت جناس.

(٢١) الصمصامة: السيف. والضرغامة: الأسد. والقرم: شديد الشهوة إلى اللحم، وهنا كناية عن شدَّة البأس والافتراس. وأراد ب «الغصن» و «الريم» معشوقته، وبـ «الصمصامة» و«الضرغامة» أباها. يتعجب كيف يولد لمثل هذا الرجل، الشبيه بالسيف

في صلابته ومضائه، مثل هذه المعشوقة، التي هي كالغصن في اللدونة ولطف التثني؟! وأيضًا كيف يكون لِمَنْ يشبه الأسد في قوته وسطوته وبأسه، مثل هذه التي تشبه الغزال في رقته وضعفه؟!

(٢٢) العفة العذرية: نسبة لقبيلة بني عذرة، اشتهر شبابها بالعشق والعفاف. والعصم: جمع عصمة وهي المنع والحفظ.

(٢٣) غشي المكان: وافاه. والمغنى: المنزل الذي غني به أهله. والكرى: النوم. وإرم: هي إرم ذات العماد. التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

(٢٤) المبتسم: بمعنى المصدر أي الابتسام، ويجوز أن يراد به الموضع أي الثغر، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف.

(٢٥) الرقشاء من الحيَّات: المنقَّطة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سمُّها. والثرم: كسر السن من أصلها.

(٢٦) أرملت المرأة: إذا مات عنها زوجها. وآمت المرأة تئيم، والأيم: التي لا زوج لها، سواءً أكانت بكرًا أم كان لها زوج فقدته.

(٢٧) الأدم: الجلد، يقول: مع أن حالها وحال الناس ما ذكرنا، فإن إساءتها ما تنتهي، حتى أن آدم (عليه السلام) لا ينسى كيدها إلى آخر الزمان. وفي البيت جناس بين آدم والأدم.

(٢٨) الجنى: ما يُجْتَنَى من الشجرة ويُقْطَفُ من ثمرها.

(٢٩) يريد بالنائم: المغترُّ بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيرها.

(٣٠) الوصم (بالتحريك): الألم والمرض، يقال: وصمته الحمى فتوصم أي آلمته فتألم.

(٣١) الصاب: جمع صابة وهو شجر مرٌّ، والعلقم، والحنظل. ويسم: من سام يسوم أي رعى يرعى.

(٣٢) دها: أي دهاها. اللمم: جمع لمة وهي الشعر يجاوز شحمة الأذن. مسودَّة الصحف: كناية عن العمل السيئ. ومبيضة اللمم: الشيب، والإضافة فيها من إضافة الصفة للموصوف.

(٣٣) ركضتها: أصل الركض تحريك الرِّجل، ويقال: ركضت الفرس برجلي إذا استحثثته ليعدو، والمراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها في طريق غوايتها، وفيه تشبيه النفس بالسائمة تشبيهًا مضمرًا في النفس على سبيل الاستعارة المكنيَّة. والمريع:

الخصيب. ومريع المعصيات: من إضافة المشبه به للمشبه، أي المعصيات التي هي شبيهة بالمرعى المريع تستطيبه الدابة؛ ففيه تشبيه ضمني لَمْنْ يرسل نفسه في المعاصي بالبهيم الذي يستطيب المرعى ويسترسل فيه. وحمية الطاعات: كذلك من إضافة المشبه به للمشبه، أي الطاعات التي شبيهة بالحمية، وفيها أيضًا تشبيه ضمني لَمْنْ يتعفف عن مساورة المعاصي بمَنْ يمسك نفسه أن ينال ما يهيضه من ألوان الطعام.. والتخم: جمع تخمة، قيل: هي فساد الطعام بالمعدة، وقيل: فساد المعدة بالطعام. وقوله «التخم» أي للتحرُّز عن التخم.

(٣٤) هامت الناقة على وجهها: ذهبت ترعى. وداعي الصبا: اللهو والشباب.

(٣٥) المرتع: من رتعت الماشية ترتع رتوعًا أي أكلت ما شاءت. والمرتع: موضع الرتوع. والوخم: الرديء الوبي.

(٣٦) الشكم: جمع شكيمة وهي الحديدة المعترضة في لجام الفرس.

(٣٧) عصمة الله العبد: حفظه مما يوبقه ويهلكه، والمعتصم: الموضع منها، أو بمعنى المصدر أي الاعتصام.

(٣٨) الغمم: جمع غمة وهي الهمُّ والحزن. والمجير: هنا بمعنى المنقذ. إذا عزَّ المجير: أي يوم القيامة. ومفرج الكرب في الدارين: هو الرسول الأمين صلوات الله وتسليماته عليه؛ لأنه أخرج في الدنيا من ظلمة الغواية إلى نور الهداية، وهو في الآخرة صاحب الشفاعة العظمى.

(٣٩) الأمم: اليسير. وخفض جناح الذلِّ: كناية عن شدَّة التواضع والانكسار.

(٤٠) العبرة: تحلب الدمع.

(٤١) أمير الأنبياء: هو محمد ﷺ. ولزوم بابه: كناية عن الالتجاء إلى كرمه، وعدم الانحراف عن التوسُّل به في قضاء الطلبات.

(٤٢) العارفة: المعروف.

(٤٣) اللحم: جمع لحمة وهي القرابة.

(٤٤) يزري: يعيب. والقريض: الشعر. وزهير: هو زهير بن أبي سلمى المزني، كان سيدًا، غنيًا في الجاهلية، معروفًا بالحلم والحكمة، شاعرًا فحلاً. وهرم (بكسر الراء): هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المُرِّي، مدح زهير هرمًا فأحسن، ووصله هرم فأجزل الصلة وبالغ في العطاء.

(٤٥) النسم: جمع نسمة وهي النفس، أو هي الإنسان

(٤٦) وجبريل الأمين ظمي: الملائكة لا تظمأ، فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه وهو الطلب أي للناس، بمعنى أن حاله تقتضي ذلك إشفاقًا على حالها، لِمَا يرهقهم من شدَّة الظمأ وحرج الموقف.

(٤٧) سناؤه: رفعته. وسناه: نوره. والعلم: هنا بمعنى العالم.

(٤٨) السؤدد: السيادة. والباذخ: العالي. والسنم (ككتف). المرتفع. وأبوَّته: أي ذوو أبوَّته، والأبوة: المعنى المأخوذ من الأب كالأخوَّة والبنوَّة.

(٤٩) نموا: نسبوا.

(٥٠) السبحات (بضمتين): مواضع السجود. سبحات وجه الله: أنواره.

(٥١) السيم: كعلب، جمع سيمة وهي العلامة. وبحيرا (بفتح الباء وكسر الحاء): الراهب النصراني المشهور.

(٥٢) حراء: جبل بمكة فيه غار كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ قبل الرسالة. وروح القدس: جبريل (عليه السلام)، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف، أي الروح القدس، والقدس: الطهر. ومصون سرٍّ: من إضافة الصفة للموصوف أي السرُّ المصون. وقوله «منكتم»: وصف مؤكد للسرِّ المصون، لأن السرَّ لا يكون إلا كذلك: وتنكير «سرُّ» للتعظيم.

(٥٣) البطحاء: المسيل الواسع فيه دقاق الحصى. والغسم: الإمساء وظلمة الليل. الإصباح والغسم: أي من كل مرة كان يطلب فيها النبي ﷺ حراء لا كل صباح وكل غسم، فإنه ﷺ كان يتزوَّد، فيقيم في حراء الليالي والأيام.

(٥٤) ابن عبد الله: هو النبي ﷺ. والحشم: الخدم الخاصون بمولاهم. والوحشة: الخلوة والهمُّ، والمراد بها هنا مجرَّد الخلوة والانقطاع عن الناس.

(٥٥) مهبطه: هنا بمعنى هبوطه

(٥٦) التسنيم: ماء بالجنة يجري فوق الغرف، وسنم الإناء تسنيمًا: فكأنه أراد بالسنم هنا الإناء المملوء. والأحاديث الواردة في نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كثيرة.

(٥٧) الديم: جمع ديمة وهي المطر الدَّائم.

(٥٨) القعائد: جمع قعيدة، وقعائد الدين: ملازموه من متنسكة النصارى. والقمم: جمع قمة وهي أعلى الرأس من كل شيء، والمراد بها هنا أعالي الجبل.

(٥٩) أذن للرحمن: أي دعا إلى الله. وقوله «من قدسية النغم»: ترشيح لتشبيه الدعاء إلى الله تعالى بالصوت الجميل. وقدسية النغم: النغم المطهَّرة المنزَّهة عن تطريب الغناء بتكبير الألفاظ واعتصار الحناجر وإيقاع الأصوات.

(٦٠) فلا تسل: يعني أن الأمر واضح غني عن السؤال، يقال عند ظهور الأمر ووضوحه: لا تسأل. العلم: الجبل.

(٦١) ألمَّ: نزل. واللمم (محرَّكة): الجنون، والمعنى أنه قد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الأمر العظيم الذي نزل بهم، وهو أن يقوم رجل ليس له ما لهم من البأس والمنعة يزعجهم عما كان يعبد آباؤهم — وهم سادات قريش وجباهها — ويأخذهم عما ألفوا من عاداتهم وأخلاقهم المغروزة فيهم، دهشوا لهذا واستعظموه، حتى جُنَّ منه شيبهم وشبابهم.

(٦٢) العلم: الظاهر المشتهر. والجاهلون على الهادي: المتعنتون، والاستفهام في قوله «هل تجهلون»: استنكاري.

(٦٣) انصرمت: انقطعت. منصرم: منقطع. الحكيم: القرآن، وقد وصفه الله تعالى بالحكيم في مواضع منه.

(٦٤) جدد: جمع جديد كسرر وسرير.

(٦٥) يقال: عطلت المرأة عطلاً إذا لم يكن عليها حلي.

(٦٦) مهج: جمع مهجة وهي دمُّ القلب.

(٦٧) ريعت: ذُعِرَت وخافت. وشُرَف: جمع شرفة وهي ما يوضع على القصور ونحوها. والقدم: جمع قدوم، روي أن شُرَفَ الإيوان — وهو مأوى سلطان الأكاسرة — ارتجَّت وهوت ليلة مولده ﷺ، لم تعمل فيها المعاول ولم تهدمها القدم، بل تداعت من صدمة الحق.

(٦٨) البهم: جمع بهمة وهي ولد الضأن والمعز. والبلم: صغار السمك.

(٦٩) المسجد الأقصى: بيت المقدس. وعلى قدم: قائمون محتشدون.

(٧٠) ذي خطر: ذي قدرة ومنزلة. ويأتمم: أي يأتم، والأصل: ومَنْ يأتم بحبيب الله يفز، ولكنه قلب للمبالغة والمبادرة بذكر الفوز.

(٧١) بهم: أي بملابسة بعضهم فيها، فإنه ورد أنه مر ببعضهم في السموات لا كما هو المتبادر من قوله إنهم صاحبوه حين جاب السموات. ويريد بقوله «منورة درية اللجم»: البراق.

(٧٢) «من» في قوله «من عز ومن شرف»: للتعليل، أي لأجل عزك وشرفك. والأينق الرسم: النوق الشديدة الوطء لقوتها، حتى كأنها ترسم في الأرض بمشيها آثار ظاهرة. والرسم: واحدها رسوم. والجياد: جمع جواد وهو الفرس الرائع البين الجودة.

(٧٣) خطه علوم الدين والدنيا: كناية عن تعليمها الناس وبثها فيهم. وقراءة اللوح ولمس القلم: كناية عن اطلاع الله له على ما أطلعة عليه من الغيوب.

(٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنه انه ﷺ قال: «علمنى ربي ليلة الإسراء علوما شتى: علم أخذ على كتمانه، وعلم خيرني فيه، وعلم أمرني بتبليغه»

(٧٥) يجوز أن يكون «القرب» فاعلا لــ «ضاعف»، و«ما» وما بعدها مفعولا به، والمعنى أن قربه من الله تعالى قد أربى على جميع ما وليه ﷺ من النعم التي لا يدركها العد، فكانت بإضافة القرب غليها أضعاف ما كانت قبله، ويجوز أن يكون مفعولا، والفاعل «ما» وما بعدها، والمعنى أن ما تجلى الله تعالى عليه به من النعم التي لا تعد وأولاه من الفضائل التي لا تحصى قد زاد قربه، لأنه قرب على قرب، والأول أولى.

(٧٦) عصبة الشرك: أي عصبة من أهل الشرك الذين ذهبوا يطلبونه ﷺ يوم هجرته. والغار: كالثقب بجبل أسفل مكة. سائمة: راعية.

(٧٧) مَنْ أمم: مَنْ قرب.

(٧٨) الغاب: الشجر الكثير المتكاثف. والحائمات الزُّغب: الحمام. والرخم: جمع رخمة وهي طائر على شكل النسر إلا أنه منقط السواد والبياض.

(٧٩) شبَّه إدبارهم ونكوصهم على أعقابهم خائبين بدمغ الباطل وإدحاضه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجاز عقلي، واللاعن: مَنْ فيها من المسلمين والملائكة، أو المراد وجوه أهلها أي أعيانهم وأفاضلهم.

(٨٠) الجاران: الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق (رضى الله عنه). والمراد باليد: النعمة. وعينه: عنايته، وحرف الشرط مقدَّر في الجملة الثانية.

(٨١) جناح الله: لطفه وستره. ويضم: يلحق به الضيم.

(٨٢) من أسمائه ﷺ أحمد، وقد سُمِّي الشاعر به تيمنًا باسم الرسول الأكرم. ويتسامى: يتعالى، والاستفهام في البيت إنكاري.

(٨٣) تبع: أخبر بالمصدر مبالغة، وأفرده لأنه يستوي فيه الواحد والجمع، أو على تقدير مضاف، أي ذوو تبع، أي مقتدون به. والقدم: التقدُّم والمنزلة. وصاحب البردة: هو الإمام البوصيري.

(٨٤) مديحة حب: أي ناشئ من الحب، أو ذو حب أي دال عليه.

(٨٥) الصوب: الانصباب، ومجيء السماء بالمطر. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والعرم: يريد المطر الشديد.

(٨٦) الغابط: الذي يتمنى مثل ما للغير، وليس هذا القدر بمذموم. ويذمم: يذم.

(٨٧) البكم: الخرس. وسحبان: هو سحبان وائل من بني باهلة، كان يُضْرَبُ بفصاحته المثل.

(٨٨) يقال: واسمه في الحسن فوسمه أي غلبه فيه. انخفاض الجبال: كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره ﷺ وعلو شأنه.

(٨٩) الكمي: لابس السلاح.

(٩٠) تهفو هفا الظبي في المشي يهفو هفوًا وهفوانًا: أسرع وخفَّ فيه، والمراد هنا شدَّة ميل القلوب له وانجذابها إليه ﷺ. وحبَّة القلب: سويداؤه. والمبهم: جمع بهمة وهو الشجاع.

(٩١) مصطدم: بمعنى المصدر أي الاصطدام، أو الموضع أي موضع الاصطدام وهو ميدان الحرب.

(٩٢) النقع: غبار الحرب.

(٩٣) بدر: موضع بين الحرمين الشريفين، وفيه كانت الغزوة المشهورة التي دمغ الله فيها الشرك وأعزَّ الإسلام.

(٩٤) اليتم في الناس: فقدان الأب، وهو في الأشياء: التفرُّد وعدم وجود نظائر لها. واللؤلؤة اليتيمة: التي لا نظير لها في العقد. ذُكِرت باليتم في القرآن: يشير إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، وحرَّك التاء إتباعًا لحركة الياء قبلها في قوله «اليتم»، ولا يخفى ما فيه من حسن التعليل.

(٩٥) روى الترمذى عنه ﷺ أنه قال: «عرض عليَّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا».

(٩٦) والجهل موت: كالترشيح للاستعارة في البيت السابق، وهو تشبيه بليغ. وأوتيت: خطاب لغير معين. والرجم: القبر.

(٩٧) العمم: اسم جمع للعامة.

(٩٨) الغلم: الهائج الثائر.

(٩٩) الحدم (بالتحريك): شدَّة احتراق النار.

(١٠٠) الرُّحم:ًالرقة والمغفرة والتعطُّف. لم يكن استعمال القوة في إقامة الدعوة للدين شأن الدين الإسلامي وحده، وهذه الديانة المسيحية الموصوفة بديانة الرهبنة والسلام. لم تبدأ الدعوة إليها حتى أصاب أهلها ما أصابهم، من الطرد والقتل والتعذيب

والتشريد والتمثيل، بأيدي الجبابرة الطغاة من الملوك والقياصرة، بل بأيدي الشعوب والأمم، وتاريخ المسيحية بين أهل رومية مما تشيب له الولدان، فترى الدين المسيحي دين الرهبنة والسلام ما دخل البلاد إلا على رءوس الأسنة، ولا حُمِلَ إلى الأمم إلا على متون السيوف.

(١٠١) المكان: المكانة بمعنى القرب وارتفاع المنزلة؛ لأن الله تعالى منزَّه عن المكان والجهة. ووجبت: ثبتت له من القدم؛ لأن الله تعالى علم الأشياء وأرادها أزلاً فصارت واجبة، بمعنى أنها لم تتخلف أبدًا، والخبر محذوف في قوله «مكان» و«حرمة»: أي ثابتان.

(١٠٢) لسمر: جواب الشرط في البيت السابق. والطهر: الطاهر من أدران المعاصي، ووصف بالمصدر مبالغة. واللوحان: الصليب الذي أُعُدَّ له (عليه السلام). والمراد بالتسمير الصلب. لم يجم: لم يفزع.

(١٠٣) جلَّ المسيح: تنزَّه عما رماه به اليهود من كاذب التُّهم وباطل الأقاويل، وعما زعموا من أنهم صلبوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وشانئه: مبغضه. وحرَّك الراء في قوله «والجرم» إتباعًا لحركة الجيم قبلها.

(١٠٤) أخو النبي: أي في الرسالة. روح الله: أي روح منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾؛ وسُمِّي روحًا لإحيائه الموتى بإذن الله، ولأنه نفخة من جبريل، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾، ونسبة النفخ إلى الله تعالى مجاز، و«من» في الآية للابتداء. فوق السماء: أي السماء الدُّنيا. محترم: صفة لقول «نزل» بضمتين، وهو في الأصل المنزل، وما هيئ للضيف أن ينزل عليه.

(١٠٥) الذمم: جمع ذمَّة، وهي العهد والأمان، والحق.

(١٠٦) عمد: جمع عمود. وقرَّ: ثبت ودعم، جمع دعام وهو عماد البيت، والدعم هنا كناية عما يستقيم به نظام الممالك، ويرتفع به شأن الأمم.

(١٠٧) الغرُّ: جمع أغرَّ: صفة لذي الغرَّة، وهي بياض في الجبهة، والأعصر الغرُّ: التي ساد فيها العلم وعمَّت أسباب العدل. الدُّهم: المظلمة التي شاع في أهلها الجهل وفشا فيهم الظلم.

ما زالت الغلبة للقوة، ولا زالت معتمد الدول ومستند الأمم، في رفع عماد الملك، وتثبيت دعامة الحكم، استوت في ذلك الأزمان السالفة التي يظنونها أزمان تأخر وتقهقر، والأيام الحاضرة التي يزعمونها أيام تقدُّم وتنوُّر. وفي البيت الطباق.

(١٠٨) اعتلت: علت.

(١٠٩) قاصمة: كاسرة: ومنقصم: منكسر. في هذا البيت مقارنة بين أهل الديانة المسيحية، وأهل الديانة الإسلامية، فذكر أن المتشيعين اليوم إلى الدين المسيحي «دين الهدوء والسلام» هم أهل القوة الحربية، الدائبون على إعداد المهلكات في الحروب، حتى كأنهم أصبحوا، ولم يبقَ لهم من شغل يشغلهم، إلا استخراج الذهب من بطون الأرض، وإنفاقه على مصانع الحديد والفولاذ لطبع آلات الحرب في طول الأرض وعرض البحر، وقد افتنوا في أسباب الإهلاك والتدمير، ولم يكفهم أن يدمدموا على الناس، ويأخذوهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم، حتى قاموا على تسخير الرياح، ليرموهم من فوق رءوسهم بكل دهياء، على حين أن أهل الديانة الإسلامية، الذين يتهمهم الظالمون بحبِّ الفتح والجهاد ويشينون سمعتهم بحبِّ الطعن والجلاد، والولوع في دماء العباد، هم القوم أهل السكينة والسلام، وهيهات أن يدانوا أهل الديانة المسيحية في حبِّ الفتوح والحروب، أو يشاكلوهم في ادخار آلات الحرب واستعداد معدات الكفاح.

(١١٠) الهيجاء: الحرب. الرجم: النجوم التي يرمي بها. رجع إلى خطابه ﷺ وشبَّه أصحابه بالأسود؛ لما لهم من شجاعتهم وبأسهم. ورميه بهم: كناية عن ندبه إيَّاهم للجهاد، وتقديمهم إلى مواطن الطعن والجلاد. والرمي بالرَّجم يكون للشياطين؛ ففيه استعارة مكنية، أي أنهم كالشياطين يرمون بالرَّجم.

(١١١) على لوائك: أي منضوٍ تحت لوائك. استعارة العلو للتحتية استعارة تمليحية.

(١١٢) الاضطرام: توقُّد النار وتأججها. سابح: جواد، شبَّه حميَّتهم ونشاطهم في الحرب وجولاتهم فيها باضطرام النار: وهو توقُّدها، وتأججها، وأخذها يمينًا وشمالاً، واستعار الاضطرام لذلك المعنى، ثم اشتق منه مضطرم، على سبيل التبعية.

(١١٣) يبغى: يريد. وشبه العزم بالسهم، بجامع المضاء والنفوذ في كل وشبه الدهر بذى رحال، بجامع التحول في كل، وحذف المشبه به، ورمز إليه بلازمه — وهو الرحال — على طريقة الاستعارة المكنية — لم يرم: لم ينتقل ولم يتحول.

(١١٤) مفاليل: الفل الثلم في السيف. والهندية: نسبة إلى الهند كانت مشتهرة بطبع السيوف. والخذم: جمع خذم، ككتف السيف القاطع. بيض: أي سيوف بيض. شبههم بالسيوف لإزهاقهم نفوس الأعداء وهو تشبيه بليغ. ومفاليل ترشيح للتشبيه بالسيوف.

(١١٥) بالعهد: أي احتفاظا بما عاهدوا الله ورسوله عليه من نصرته للرسول. من: تفصيل الحال الرجل، أو تفصيل لمعنى «كم».

(١١٦) أشار في هذا البيت إلى أن ما ناله أصحاب الرسول ﷺ، من الفوز بالسعادة، وارتفاع الدرجة عند الله تعالى، إنما كان بما تقدم لهم من الفضائل، والبلاء في نصرة الدين، وتعرضهم للقتل والطعن في سبيل الله تعالى، ولولا ذلك ما كان لهم فضل على سائر الناس، ولا عدت درجتهم منزلة غيرهم من العالمين.

(١١٧) الوشى: النقش.

(١١٨) حامت: عطفت ومالت. ونهى: جمع نهية وهي العقل. والسلسل: الماء العذب.

(١١٩) نور السبيل: لأنها يهتدى بها إلى غاية النجاح والفلاح في الدنيا، والفوز والسعادة في الآخرة. وشباب الدهر والهرم: كناية عن أوَّله وآخره، أو عن حالتي إقباله وإدباره. وتكفُّلها بشباب الدهر.. إلخ: أي تكفُّلها بما يعلي أهلها، ويصلح من شأنهم على كل حال من الأحوال، بلا تغيير في أحكامها ولا تبديل لنصوصها.

(١٢٠) التمم: التام.

(١٢١) الحزم: جمع حزام.

(١٢٢) سرعان: اسم فعل، يستعمل خبرًا محضًا، وخبرًا فيه معنى التعجُّب يقال: سرعان ما فعل كذا: أي ما أسرعه. والنهل: أوَّل الشرب، تقول: أنهلت الإبل إذا شربت من أوَّل الورد. والسلسال: الماء العذب. والشيم: البارد.

(١٢٣) ساروا عليها: أخذوا بها وجروا على أحكامها. هداة الناس: أي حالة كونهم هادين للناس. فهي: أي الملة بهم: أي بسبب قيامهم بها ونشرهم لها.

(١٢٤) روما: هي المدينة المعروفة الآن بهذا الاسم، قاعدة لمملكة إيطاليا، وكانت في الزمن السابق قاعدة لملكة الرومان المشهورة. وأثينا: قاعدة مملكة اليونان الآن، وكانت من أكبر مدن الأمَّة اليونانية في العصور السابقة. وبغداد: قاعدة الخلافة الإسلامية في دولة بني العباس، والتوم: جمع تومة، وهي الحبَّة من الفضَّة تُعْمَلُ على شكل الدرَّة.

(١٢٥) كسرى: لقب لكل مَنْ يلي ملك فارس. والنيران: لعله يريد بها نيران فارس، التي خبت ليلة مولد النبي ﷺ، وكان ذلك أيام كسرى أنوشروان. والأيم: الدخان.

(١٢٦) الهرم: الأهرام في مصر كثيرة وأشهرها أهرام الجيزة الثلاثة. وأكبرها أشهرها وأعجبها، حتى إذا ذُكِرَ لفظ الهرم صُرِفَ إليه، و رعمسيس اسم بعض الفراعنة «ملوك مصر القدماء»، وقد تسمَّى بهذا الاسم غير واحد منهم، ولعل الشاعر يريد أولئك الفراعين — على الجملة — الذين ينتسب مجدهم إلى مثل هذا العمل الخطير، وإن كان باني الهرم ليس رعمسيس بعينه.

(١٢٧) دار السلام: بغداد. والسلم: التسليم.

(١٢٨) ملتأم: مجتمع. مختصم: بمعنى المصدر: أي اختصام. كما اشتهرت (روما) بقضائها وقوانينها قد اشتهرت بخطبائها وشعرائها، وكان من عادة الرومانيين أنهم إذا نزل بهم الأمر العظيم، نفروا إلى بعض أماكنهم العامة، فخطبهم الخطباء، وأنشدهم الشعراء، الذين كان لفصاحة ألسنتهم في الناس تأثير عجيب، ومع هذا فما دانوا في قضائهم شأو بغداد، التي كان يُقْضَى فيها بدين الله، وهو أجلُّ من أن يقاس به غيره، ويوازن به ما سواه، ولا بلغوا في فصاحتهم شأن فصحاء الدولة العباسية، الذين قالوا في كل باب، فهزُّوا النفوس وخلبوا الألباب.

(١٢٩) الطراز: علم الثوب، والجيد من كل شئ. ولا احتوت على رشيد. إلخ، أي على أمثالهم في الفضل والعدل والحزم. ورشيد: هو هارون الرشيد. ومأمون: هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور. ومعتصم: هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولي الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون.

(١٣٠) الكتائب: جمع كتيبة. وهي الجيش. والتخم، كعنق: جمع تخوم وهي الفواصل بين الأرضين من معالم الحدود.

(١٣١) المحل: الجدب. والعدم: فقدان المال.

(١٣٢) خلائف الله: هذا قول مستأنف عام لجميع الخلفاء المتقدِّمين والمتأخرين وذكر الخلفاء الراشدين بعده من ذكر الخاص بعد العام؛ اهتمامًا بشأنهم، وورعه، وتشبه بهم، واقتدائه في عبد العزيز (رضى الله عنه)، لشدَّة فضله وورعه، وتشبُّهه بهم. واقتدائه في حكومته بحكومتهم، فكان حقيقًا أن يذكر فيهم، ويلحق بهم.

(١٣٣) المعدلة: العدل.

(١٣٤) الإمام: هو الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه. ومآقي العيون: أطرافها مما يلي الأنوف، وهي مجاري الدمع.

(١٣٥) يقال: رجل ندب، أي خفيف في الحاجة سريع ظريف نجيب.

(١٣٦) بن عفان: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه). والفطم: جمع فطيم، وهو الصبى المفصول عن الرضاع.

(١٣٧) وجرح بالكتاب دمي: أي وجرح دمي به الكتاب، وقلب للمبالغة. وذلك أن قتلة عثمان (رضى الله عنه) دخلوا عليه الدار، وخبطوه بالسيوف وهو صائم والمصحف في حجره، وهو يقرأ فيه؛ فوقع المصحف من يده وسال الدمُّ عليه.

(١٣٨) يشير إلى حروب الردَّة بعد وفاة النبي ﷺ، وانتصاره على المرتدِّين.

(١٣٩) يقول: ما ظنك بتلك المحن التي تنحرف بعمر (رضى الله عنه) عن الرشد وله ما تعلم من كمال الرشد، ووفور العقل، وصدق اليقين، وتذهله عن إدراك أمر من أظهر البديهيات لديه، هو أن يدرك الموت رسول الله ﷺ.

(١٤٠) وذلك أنه لمَّا قُبِضَ رسول الله ﷺ، وقال الناس: مات رسول الله، أسرع عمر إلى سيفه وتوعَّد مَنْ يقول ذلك، وقال إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم، فلمَّا حضر ابو بكر، وأُخْبِرَ الخبر، كشف عن وجه رسول الله ﷺ، ثم أكبَّ عليه، فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجعل الله عليك موتتين، أمَّا الموتة التي كتبت عليك فقد متها، ثم خرج إلى الناس، وقال: ألا مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت.

(١٤١) النخب: جمع نخب. وهو الرجل المختار.

(١٤٢) الحلك (محرَّكة)ً: شدة السواد. والشمم في الأنف: ارتفاع القصبة وحسنها، وهو هنا كناية عن الحميَّة وشرف النفس. وأنف الحادثات حمي: كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر.

(١٤٣) هاله الأمر هولاً: أفزعه. والجلل، هنا: الأمر العظيم. والعمم: التام العام من كل أمر، يقال: أمر عمم، أي تام عام.

(١٤٤) القحم: جمع قحمة بالضم، ومن معانيها، الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحد، وهو المراد هنا.

(١٤٥) لا يخفى ما في (حسن مختتم) من حسن الختام.

خاتمة رياض[١]

كبيرَ السابقين من الكرام … برغمي أن أنالكَ بالملام[١]

مقامُك فوق ما زعموا. ولكن … رأيتُ الحقَّ فوقك والمقام[٢]

لقد وجدوكَ مفتونًا. فقالوا … خرجت من الوقار والاحتشام[٣]

وقال البعضُ: كيدُكَ غيرُ خافٍ … وقالوا: رميةٌ من غير رام[٤]

وقيل: شططْتَ في الكفران، حتى … أردتَ المُنْعِمين بالانتقام[٥]

غمرتَ القومَ إطراءً، وحمدًا … وهم غمروك بالنِّعم الجِسام[٦]

رأوا بالأمس أنفَك في الثريا … فكيف اليوم أصبح في الرَّغام؟[٧]

أما والله ما علموك إلا … صغيرًا في ولائك، والخصام

إذا ما لم تكن للقول أهلاً … فما لك في المواقف والكلام؟

خطبتَ. فكنتَ خَطْبًا — لا خطيبًا — … أضيفَ إلى مصائبنا العِظام

لَهِجْتَ بالاحتلال وما أتاه … وجُرحُك منه — لو أحْسَسْتَ — دامي[٨]

وما أغناهُ عمَّنْ قال فيه … وما أغناك عن هذا الترامي[٩]

أحبَّتك البلادُ طويلَ دهرٍ … وذا ثمنُ الولاءِ والاحترام

حَقَرْتَ لها زمامًا كنتَ فيه … لَعُوبًا بالحكومة والذمام[١٠]

---

[١] قيلت بعد خطبة المرحوم رياض باشا في مدرسة محمد علي الصناعية في ٨ يونيو سنة ١٩٠٤.

مـحـاسـنُـه غِـراسُـك والـمـسـاوي لـك الـثـمـرانِ: مـن حـمـدٍ، وذام[11]

فـهـلاَّ قـلـت لـلـشـبـان قـولاً يـلـيـقُ بـحـافـل الـمـاضـي الـهـمـام؟

يَـبُـثُّ تـجـاربَ الأيـامِ فـيـهـم ويـدعـو الـرابـضـيـن إلـى الـقِـيـام[12]

خـطـبـتَ عـلـى الـشـبـيـبـةِ غـيـرَ دارٍ بـأنَّـكَ مـن مَـشـيـبـك فـي مـنـام

ولـولا أن لـلأوطـان حـبًّـا يُـصِـمُّ عـن الـوِشـايـة كـالـغـرام

جـنـيـتَ عـلـى قـلـوبِ الـجـمـع يـأسًـا كـأنـكَ بـيـنـهـم داعـي الـحِـمـام[13]

أراعَـكَ مـقـتـلٌ مـن مـصـرَ بـاقٍ فـقـمـت تـزيـدُ سـهـمًـا فـي الـسـهـام؟[14]

وهـل تـركـتْ لـك الـسـبـعـون عـقـلاً لـعـرفـانِ الـحـلالِ مـن الـحـرام؟

ألا أنـبـيـك عـن زمـنٍ تـولَّـى فـتـذكـرَه ودمـعُـكَ فـي انـسـجـام؟[15]

سـل «الـحـلـمـيـةَ» الـفـيـحـاءَ عـنـه وسـل دارًا عـلـى «نـور الـظـلام»[16]

وسـل مَـنْ كـان حـولـك عـبـدَ جـاهٍ يُـريـكَ الـحـبَّ، أو بـاغـي حُـطـام[17]

رأوا إرثًـا سـيـذهـب بـعـد حـيـنٍ فـكـانـوا عُـصْـبـةً فـي الاقـتـسـام

ونـالـوا الـسـمـعَ مـن أذُنٍ كـريـمٍ فـنـالـوا مـنـه أنـواعَ الـمـرام[18]

هُـم حـزبٌ، وسـائـرُ مـصـرَ حـزبٌ وأنـت أصـمُّ عـن داعـي الـوئـام[19]

وكـيـف يـنـالُ عـونَ الـلـهِ قـومٌ سـراتُـهُـمُ عـوامـلُ الانـقـسـام[20]

إذا الأحـلامُ فـي قـومٍ تـولَّـتْ أتـى الـكـبـراءُ أفـعـالَ الـطَّـغـام[21]

فـيـا تـلـك الـلـيـالـي، لا تَـعـودي ويـا زمـنَ الـنـفـاقِ، بـلا سـلام[22]

أحـبُّـكِ مـصْـرُ، مـن أعـمـاقِ قـلـبـي وحـبُّـكِ فـي صـمـيـم الـقـلـبِ نـامِـي[23]

سـيـجـمـعُـنـي بـكِ الـتـاريـخُ يـومًـا إذا ظـهـر الـكـرامُ عـلـى الـلـئـام[24]

لأجـلـكِ رحـتُ بـالـدنـيـا شـقـيًّـا أصـدُّ الـوجـهَ، والـدنـيـا أمـامـي

وأنـظـرُ جَـنَّـةً جـمـعـتْ ذِئـابًـا فـيـصـرُفُـنـي الإبـاءُ عـن الـزحـام[25]

وهـبـتُـكِ — غـيـرَ هـيـابٍ — يَـراعًـا أشـدَّ عـلـى الـعـدوَّ مـن الـحـسـام[26]

سـيـكـتـبُ عـنـكِ فـوقَ ثَـرَى ريـاضٍ وفـي الـتـاريـخ صـفـحـة الاتـهـام

أفـي الـسـبـعـيـن، والـدنـيـا تـولَّـت ولا يُـرْجَـى سـوى حـسـنِ الـخـتـام

تكون — وأنت أنت رياض مصرٍ — عـرابـي الـيـوم فـي نـظـر الأنـام؟

هوامش

(١) الخطاب في هذا البيت لمصطفى رياض باشا، وكان قد خطب في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية، التي أنشأتها في الأسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤، وكان اللورد كرومر عميد الدولة المحتلَّة حاضرًا هذا الافتتاح؛ فتملَّقه الخطيب بكلام، كقربه نعمة مصر وأصحاب عرشها.

(٢) رأيت الحق فوقك والمقام: أي وفوق مقامك.

(٣) الوقار: الرزانة. والحلم والاحتشام: الاستحياء.

(٤) الكيد: المكر والخبث وإرادة ضرر الغير خفيَّة. ورميَّة من غير رام: يريد أنه لم يقصد الكيد بما قاله، وأصل المثل: رُبَّ رمية من غير رام، وهو يقال لِمَنْ يصيب في أمر وعادته أن يخطئ.

(٥) شططت: أفرطت.

(٦) غمرت القوم، من قولهم: غمرت فلانًا بالمعروف والفضل، أي بالغت في الإحسان إليه.

(٧) الثريا: سبعة كواكب في عنق البرج المعروف بالثور. والرَّغام (بفتح الراء): التراب.

(٨) لهجت بالاحتلال، من قولهم: لهج بالشيء، إذا أغري به فثابر عليه. والدامي: الذي يسيل دمه.

(٩) وما أغناه.. إلخ: أي ما أغنى الاحتلال عنك، وما أغناك من أن تترامى على أصحابه بمثل ما قلت.

(١٠) حقرت (بفتح القاف مخففة): استصغرت. الزمام (بالزاي): ملاك الأمر. والذمام (بالذال): الحقُّ والحرمة.

(١١) محاسنه: الضمير للزمام أي أنت الذي غرست ما لهذا الزمام من المحاسن والمساوئ، فلك ما يثمر من حمدٍ وذمٍ.

(١٢) يبثُّ: ينشر ويذيع. والتجارب: جمع تجربة، وهي اختبار الشيء مرَّة بعد مرَّة والرابضين: جمع رابض، وهو مَنْ يأوي إلى المكان فلا يفارقه.

(١٣) يقول: لولا أن الذين سمعوك يحبُّون بلادهم حبًا يمنعهم من القعود عن العمل لإنقاذها من الاحتلال، لأصابهم اليأس والقنوط بسبب كلامك.

(١٤) أراعك: أي أأفزعك. والمقتل: العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم. يقول: هل أفزعك أن رأيت بعض مقاتل مصر سليمة لم تصب فزدت سهمًا ليصيبها.

(١٥) أنبيك: أخبرك. والانسجام: سيلان الدمع.

(١٦) الحلمية: حيٌّ من أحياء القاهرة. ونور الظلام: اسم شارع بهذا الحي فيه دار رياض.

(١٧) الباغي: الطالب. والحطام: المال، قلَّ أو كثر.

(١٨) رجل أذن (بضم الذال): إذا كان يسمع مقال كل أحد ويقبله.

(١٩) الوئام: الوفاق.

(٢٠) السراة: جمع سري، وهو السيد الشريف السخي.

(٢١) الأحلام: العقول. والطغام (بفتح الطاء): أوغاد الناس.

(٢٢) بلا سلام: أي اذهب بلا سلام.

(٢٣) في صميم القلب: أي في القلب. والصميم: الخالص من الشيء.

(٢٤) إذا ظهر الكرام على اللئام: أي إذا غلبوهم.

(٢٥) الإباء: الكبر والنخوة.

(٢٦) اليراع: القلم. والحسام: السيف.

ضجيج الحجيج[١]

ضجَّ الحجازُ، وضجَّ البيتُ والحرمُ ... واستصرخت ربَّها في مكَّةَ الأمُم[١]

قد مسَّها في حماك الضُّر، فاقض لها ... خليفةَ الله، أنتَ السيدُ الحكم

لك الربوعُ التي رِيع الحجيجُ بها ... أللشريفِ عليها أم لكَ العلم؟[٢]

أُهِينَ فيها ضيوفُ الله. واضطهدوا ... إن أنت لم تنتقم فالله مُنتقم

أفي الضُّحَى — وعيونُ الجند ناظرةٌ — ... تُسبَى النساءُ. ويُؤذَى الأهلُ والحشم؟

ويُسفك الدمُ في أرضٍ مقدّسةٍ ... وتستباحُ بها الأعراضُ والحُرَم؟[٣]

يدُ الشريف على أيدي الولاةِ علتْ ... ونَعْلُه — دونَ رُكْن البيتِ — تُستَلم[٤]

«نيرونُ» إن قيس في باب الطُّغاةِ به ... مبالغٌ فيه. و«الحجاجُ» مُتَّهَم[٥]

أدِّبْهُ أدِّبْ — أميرَ المؤمنين — فما ... في العفو عن فاسق فضلٌ ولا كرم

لا ترجُ فيه وقارًا للرسول. فما ... بين البُغاة وبين المصطفى رَحِم[٦]

ابنُ الرّسولِ فتًى فيه شمائلُه ... وفيه نخوتُه، والعهد، والشمَم[٧]

ما كان طه لرهطِ الفاسقين أبًا ... آل النبي بأعلام الهدى خُتِموا[٨]

خليفةَ الله. شكوى المسلمين رقَت ... لسُدَّةِ الله هل ترقى لك «الكلم»[٩]

الحجُّ ركنٌ من الإسلام نُكْبِره ... واليومَ يوشك هذا الركنُ ينهدم[١٠]

[١] رُفِعَت إلى السلطان عبد الحميد استصراخًا من الشريف وأعوانه في ١٤ إبريل سنة ١٩٠٤.

من الشريف ومن أعوانِه فعلت   نُعمى الزيادة ما لا تفعل النقم
عزَّ السبيلُ إلى طه وتربتِه   فمَنْ أراد سبيلا فالطريقُ دم[١١]
محمدٌ رُوِّعت في القبر أعظمُه   وبات مستأمنًا في قومه الصنم[١٢]
وخان «عونُ الرفيقُ» العهدَ في بلدٍ   منه العهودُ أتتْ للناس والذمم[١٣]
قد سال بالدم مِن ذِبْحٍ ومن بَشَرٍ   وأحمرَّ فيه الحمى والأشهرُ الحرم[١٤]
وفُزِّعَتِ في الخدورِ الساعياتُ له   الداعياتُ وقرب اللهِ مُغتنَم[١٥]
آبتْ ثكالَى أيامَى بعدما أخذَتْ   مِنْ حَوْلِهنّ النَّوَى والأَيْنُقُ الرَّسُم[١٦]
حُرِمْنَ أنوارَ خيرِ الخلقِ من كثبٍ   فدمعُهنَّ من الحرمان منسجم[١٧]
أيُّ الصغائرِ في الإسلام فاشية   تودَى بأيسرها الدولاتُ والأمم[١٨]
يجيشُ صدري، ولا يجري بها قلمي   ولو جرى لبكى واستضحك القلم[١٩]
أغضَيْتُ ضنًّا بعرضي أن أَلمَّ به   وقد يروق العمى للحرِّ والصمم[٢٠]
موَّه على الناسِ، أو غالطهمُ عبثًا   فليس تكتمهم ما ليس ينكتم[٢١]
من الزيادةِ في البلوى وإن عَظُمتْ   أن يعلم الشامتون اليومَ ما علموا
كلُّ الجراح بآلامٍ، فما لمستْ   يدُ العدوّ فثمَّ الجُرحُ والألم
والموتُ أهونُ منها وهي داميةٌ   إذا أساها لسانٌ للعدِى وفم

***

ربَّ الجزيرةِ، أدرِكْها، فقد عَبثَتْ   بها الذئابُ، وضلَّ الراعيَ الغنم[٢٢]
إن الذين تولُّوْا أمرَها ظلموا   والظْلمُ تصحبُه الأهوالُ والظُّلَم[٢٣]
في كلَّ يومٍ قتالٌ تقشعرُّ له   وفتنةٌ في ربوع اللهِ تضطرم[٢٤]
أزرى الشريفً وأحزابُ الشريف بها   وقسَّموها كإرثِ الميْتِ، وانقسموا[٢٥]
لا تجزهم عنك حلمًا، وأجزهم عَنَتًا   في الحلم ما يسمُ الأفعالَ أو يَصِم[٢٦]
كفى الجزيرةَ ما جرُّوا لها سفهًا   وما يحاولُ من أطرافِها العجم[٢٧]
تلك الثغورُ عليها — وهي زينتُها —   مناهلٌ عَذُبت للقوم، فأزدحموا[٢٨]
في كلّ لجٍّ حوالَيْها لهم سفُنٌ   وفوق كل مكان يابسٍ قدم[٢٩]
والاهُمُ أمراءُ السوءِ. واتفقوا   مع العداة عليها، فالعداة هُمُ
فجرِّد السيف في وقتٍ يُفيد به   فإن للسيف يومًا، ثم ينصَرمِ[٣٠]

هوامش

(١) ضجَّ: فزع من شيء خافه فصاح. الربوع: جمع ربع، وهو الدار.

(٢) والحجيج: جمع الحاج.

(٣) الحرم: جمع حرمة، وهي ما لا يحل انتهاكه.

(٤) تستلم: من استلام الحجر وركن البيت الحرام وغيره، وهو لمسه باليد أو بالقبلة.

(٥) نيرون: طاغية روماني قديم. والحجاج: طاغية عربي كان واليًا على العراق لعبد الملك بن مروان أحد الخلفاء الأمويين.

(٦) لا ترجُ: لا تخف، من رجا، بمعنى خاف. والوقار هنا: العظمة. وفي القرآن الكريم: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾: أي لا تخافون الله عظمة.

(٧) الشمائل: جمع شِمال بكسر الشين وهو الطبع. والنخوة. الحماسة والمروءة. والعهد: الوفاء والأمانة. والشمم: التكبُّر.

(٨) طه: من أسماء النبي ﷺ. والرَّهط: من ثلاثة إلى عشرة. ولا تكون فيهم امرأة.

(٩) رقت: صعدت. والكلم، اسم جنس جمعي لكلمة.

(١٠) نكبره: نعظمه، ويوشك: يقارب.

(١١) عزَّ السبيل، من قولهم عزَّ الشيء، إذا قلَّ فلا يكاد يوجد ولا يقدر عليه.

(١٢) الصنم: صورة أو تمثال يتَّخذ للعبادة، وقيل: هو كل ما عُبِدَ من دون الله.

(١٣) عون الرفيق: اسم الشريف الذي اقترف تلك المظالم. والذمم: جمع ذمة، وهي العهد والأمان.

(١٤) الأشهر الحرم، أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرَّم، ورجب؛ سميت كذلك لأن العرب كانت تجعل القتال فيها حراما: ما عدا بني خثعم وطيء. والضمير في (سال) و(فيه): للبلد في البيت المتقدِّم. واحمرار الحمى والأشهر الحرم: كناية عن اقترافه القتل فيهما.

(١٥) فزعت: خوفت. والخدور: البيوت. والساعيات له: أي لذلك البلد.

(١٦) الثكالى: جمع ثكلى: وهي مَنْ فقدت ولدها، والأيامى: جمع أيم، وهي من لا زوج لها. والنوى: البعد. والأينق: جمع ناقة. والرسم: جمع رسوم، وهي الناقة تؤثر أخفافها في الأرض من شدَّة الوطء.

(١٧) من كثب: أي من قرب. والمنسجم: السائل.

(١٨) الصغائر: جمع صغيرة، وهي من الذنوب أخفُّ من الكبيرة في حكم الشرع. وتودي: تهلك. والدولات جمع دولة.

(١٩) يجيش صدري: يغلي غيظا. استضحك: بمعنى ضحك.

(٢٠) أغضيت: أي صبرت وأمسكت. وضنًا: بخلاً. وألمَّ به: أي بما يؤذيه، من قولهم: ألمَّ بالذنب إذا فعله. ويروق العمى: من راقه الشيء أعجبه.

(٢١) موَّه على الناس: أي زخرف لهم الأخبار وزوَّرها عليهم.

(٢٢) ربُّ الجزيرة: أي صاحب الجزيرة، وهي جزيرة العرب.

(٢٣) الأهوال: جمع هول، وهو المخافة من الأمر لا يعرف الإنسان ما يهجم منه. والظلم: جمع ظلمة.

(٢٤) تضطرم: تشتعل.

(٢٥) أزرى بها: تهاون.

(٢٦) العنت: الشدَّة والهلاك. وما يسم: أي ما يكون سمه وعلامة. وما يصم: أي ما يكون وصمة وعيبًا.

(٢٧) العجم، هنا: أهل الغرب، ممَنْ كانوا يحفدون على الدولة التركية وجودها.

(٢٨) المناهل: جمع منهل، وهو المورد. والمراد بالقوم: أولئك العجم.

(٢٩) اللج: معظم الماء.

(٣٠) جرَّد السيف: سلَّه. وينصرم: يمضي.

استقبال

يا راكبَ الريح، حيَّ النيلَ والهرَما وعظِّمِ السفَح من سيناءَ، والحرما[١]
وقف على أثرٍ مرَّ الزمانُ به فكان أثبتَ من أطوادِه قِمما[٢]
واخفض جناحَك في الأرض التي حَمَلَت موسى رضيعًا، وعيسى الطهر منفطما
وأخرَجَت حكمةَ الأجيالِ وبيَّنت للعبادِ السيفَ والقلما[٣]
وشُرِّفَت بملوكٍ طالما اتَّخذوا مطيَّهم من ملوك الأرض والخدما[٤]
هذا فضاءٌ تُلِمُّ الريحُ خاشعةً به. ويمشي عليه الدَّهرُ محتشما[٥]
فمرحبًا بكما من طالعيْن به على سوى الطائر الميمونِ ما قدِما[٦]

***

عاد الزمانُ، فأعطى بعدما حَرَما وتاب في أُذُنِ المحزونِ، فابتسما
فيارَعى اللهُ وفدًا بين أعيننا ويرحم الله ذاك الوفد ما رَحِما[٧]
هم أقسموا لتَدِينن السماءُ لهم واليوم قد صدَّقوا في قبرِهم قسما[٨]
والناسُ باني بناءٍ، أو مُتمِّمُه وثالث يتلافى منه ما انهدَما
تعاونٌ لا يحلُّ الموتُ عُرْوّتَه ولا يُرَى بيَدِ الأرزاءِ منفصما[٩]

***

يا صاحِبىْ (أدرميدٍ)، حسبُها شرفًا أن الرياحَ إليها ألقت اللُّجما[١٠]
وأنها جاوزتْ في القدس مِنْطَقةً جرى البساطُ فلم يجتز لها حَرما[١١]
مشت على أفقٍ مرَّ البُراقُ به فقبَّلتْ أثرًا للخُفِّ مُرتَسِما[١٢]

ومسَّحَت بالمُصلَّى، فاكتست شرفًا ... وبالمغار المعلَّى، فاكتست عِظما[١٣]

وكلَّما شاقها حادٍ على أفق ... كانت مزاميرُ داودٍ هي النغما[١٤]

جشَّمتماها من الأهوالِ أربعةً ... الرعدَ، والبرقَ، والإعصارَ، والظلما[١٥]

حتى حوتها سماءُ النيل فانحدرت ... كالنسر أعيا، فوافى الوَكْرَ، فاعتصما[١٦]

***

يا آل عثمانَ أبناءَ العمومةِ. هل ... تشكون جرحًا ولا نشكو له ألما؟[١٧]

إذا حزِنتم حزَنَّا في القلوب لكم ... كالأمِّ تحملُ من همِّ ابنها سَقما

وكم نظرنا بكم نُعمى فجسَّمها ... لنا السرورُ، فكانت عندنا نِعما[١٨]

ونبذل المال لم نُحمَل عليه، كما ... يقضي الكريمُ حقوقَ الأهل والذِّمما[١٩]

صبرًا على الدَّهر إن جلَّت مصائبُه ... إن المصائب مما يُوقظُ الأمَما

إذا المقاتلُ من أخلاقِهم سلمتْ ... فكلُّ شيءٍ على آثارها سلما

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن تَوَلَّتْ مضوْا في إثرِهَا قُدُما[٢٠]

نمتم على كلِّ ثارٍ لا قرار له ... وهل ينامُ مُصيبٌ في الشعوبِ دما؟

فنال من سيفكم من كان ساقيَه ... كما تنالُ المُدامُ الباسلَ القَدَما[٢١]

قال العذولُ: خرجنا في مَحَبَّتِكم ... من الوقارِ، فيا صدقَ الذي زعما

فما على المرء في الأخلاق من حرج ... إذا رعى صِلَةً في الله، أو رَحِمَا

ولو وهبتُم لنا عُليَا سيادِتكم ... ما زادنا الفضلُ في إخلاصنا قدما

نحنو عليكم، ولا ننسى لنا وطنًا ... ولا سريرًا، ولا تاجًا، ولا عَلما

هذي كرائمُ أشياءِ الشعوب، فإن ... ماتت فكلُّ وجود يشبهُ العدَما

هوامش

(١) السفح: عرض الجبل المضطجع. والحرم: ما لا يحلُّ انتهاكه.

(٢) الأطواد: الجبال. والقمم: واحدتها قمة، وهي أعلى كل شيء.

(٣) الحكمة: صواب الأمر وسداده. والأجيال: جمع جيل، وهم أهل الزمن الواحد. والخالدة: الدائمة الباقية.

(٤) طالما اتَّخذوا مطاياهم وخدمهم من ملوك الأرض، أولئك هم ملوك مصر الأقدمون، حين كانوا يأسرون في حروبهم ملوك الأقطار الأخرى.

(٥) المحتشم: المستحي.

(٦) على الطائر الميمون: مأخوذ من قولهم في الدعاء للمسافر: سر على الطائر الميمون.

(٧) كانت الدولة العليَّة قد ندبت للقيام برحلة جوية بين الآستانة والقاهرة اثنين من ضبَّاطها الطيارين؛ فسقطت طيارتهما في الطريق وماتا، فندبت الدولة غيرهما، فوصلا سالمين وإلى هذا يشير بالوفدين في البيت.

(٨) لتدينن: أي لتخضعن وتذلَّن.

(٩) العروة: كل ما يوثق به. والمنفصم: المنقطع

(١٠) أدرميد: اسم الطيارة التي ركباها إلى مصر.

(١١) القدس: مدينة بيت المقدس في الشام. والبساط: هو بساط سليمان (عليه السلام). وفي التاريخ الديني: أنه كان يتَّخذ مع الريح بساطًا يجريه حيث يشاء.

(١٢) البراق في اللغة الدينية: دابة كان يركبها الأنبياء، وقد ركبها النبي محمد ﷺ ليلة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس. والخفُّ: أي خفِّ الرسول ﷺ، ويقال: إن أثره مرتسم هناك.

(١٣) المصلى: مكان الصلاة. والمغار — بفتح الميم وضمها —: الكهف. والمعلَّى: المرفوع.

(١٤) شاقها: هاجها وشوَّقها. والحادي: سائق الإبل الذي يغني لها. ومزامير داود: ما كان يرتله في صلاته من الأناشيد والترانيم.

(١٥) جشَّمتماها: كلَّفتماها. والأهوال: جمع هول، وهو المخافة من أمر لا يُعْرَفُ ما ينجم منه على الإنسان. والإعصار: ريح بتراب بين السماء والأرض، أو تستدير كأنها عامود. و«الظلم»: جمع ظلمة.

(١٦) حوتها: أي حازتها. وانحدرت: هبطت. والنسر طائر من الجوارح وكلها تخافه، وهو حادُّ البصر، وأشدُّ الطيور ارتفاعًا، وأقواها جناحًا. وأعيا: تعب. ووافى الوكر: أتاه، والوكر: عشُّ الطائر أينما كان في شجر أو في غيره. فاعتصم به: أي لزمه.

(١٧) العمومة. مصدر من العمِّ. كالخؤولة من الخال.

(١٨) النُعمى: ما أنعم به.

(١٩) الذمم: جمع ذمَّة، وهي العهد.

(٢٠) القدم (بضم القاف والدال): أي يمضي الإنسان فلا يعرج على شيء ولا ينثني.

(٢١) المدام: الخمر. والباسل: البطل الشجاع. والقدم (بفتح القاف والدال): الشجاع أيضًا.

أرسططاليس وترجمانه[١]

علَّمتَ بالقلمِ الحكيم — وهديتَ بالنَّجم الكريم

وأتيتَ من محرابه — بأرسططاليسَ العظيم

مِلكِ العقول، وإنها — لنهاية المُلْكِ الجسيم

شيخُ ابن رشد، وابن سيـ — ـنا، وابن بَرقينَ الحكيم[١]

من كان في هَدْي المسيـ — ـح، وكان في رُشْدِ الكليم

وغدا وراح موحِّدًا — قبل البَنِيَّةِ والحَطيم[٢]

صوت الحقيقة بين رعـ — ـدِ الجاهلية والهزيم[٣]

ما بين عاديةِ السَّوا — م وبين طُغيان المسيم[٤]

يبني الشرائعَ للعصو — ر بناءَ جبَّارٍ رحيم

ويفِصَّل الأخلاقَ للـ — أجيال تفصيل اليتيم[٥]

في واضح لحْبِ الطريـ — ـق من المذاهب مستقيم[٦]

ورسائلٍ مثلِ السُّلا — فِ إذا تمشَّت في النديم

قدسيةِ النفحاتِ، تُسـ — ـكِر بالمذاقِ، وبالشَّميم

---

[١] ترجم الأستاذ أحمد لطفي باشا السيد كتاب أرسططاليس في علم الأخلاق إلى العربية؛ فكتب إليه صاحب الديوان هذه التهنئة.

***

يا لطفِ، أنت هو الصَّدى | من ذلك صوت الرخيم
أَرجُ الرياضِ نقلتَه | ونسخته نَسْخَ النسيم
وسريتَ من شِعبِ الألَمْـ | ـبِ به إلى وادي الصَّريم[7]
فتجارتِ اللغتان للـ | ـغايات في الحَسِب الصميم
لغةٌ من الإغريق قيَّـ | ـمةٌ، وأُخرى من تميم
وأتيتَنا بمُفَصَّلٍ | بالتبر، عُلويَّ الرَّقيم
هو ضِنةُ المُثرِي من الـ | ـأخلاق، أو مالُ العديم[8]

***

مَشَّاءَ هذا العصرِ، قف | حدَّث عن العُصُر القديم[9]
مَثِّلْ لنا اليونان بيـ | ـنَ العلم والخُلق القويم
أخلاقها نورُ السبيـ | ـلِ، وعِلْمها نورُ الأديم
وشبابُها يتعلمو | ن على الفراقد والنجوم
لمسوا الحقيقةَ في الفنو | ن، وأدركوها في العلوم
حلَّتْ مكانًا عندهم | فوق المعلِّم والزعيم[10]
والجهلُ حظُّك إن أخذ | تَ العلمَ من غير العليم
ولَرُبَّ تعليمٍ سرى | بالنشِء كالمرضِ المُنيم[11]
يتلَّبسُ الحُلُمَ اللذيـ | ـذُ عليه بالحُلُمِ الأليم
ومدارس لا تُنْهِضُ الـ | ـأخلاقَ دارِسَة الرُّسوم
يمشي الفسادُ بنبْتها | مشيَ الشرارةِ بالهشيم
لمَّا رأيتُ سوادَ قو | مي في دُجى ليلٍ بهيم
يُسْقَوْنَ من أُمِّيَّةٍ | هي غُصَّةُ الوطن الكظيم
وسراتُهم في مُقعِد | من مطلَبِ الدنيا مُقيم
يَسعَوْن للجاه العظيـ | ـم، وليس للحق الهضيم
وبَصُرْتُ بالدستور يُزْ | هَق وهو في عُمْر الفطيم
لم يَنجُ من كيدِ العَدو | له، ومن عبثِ الحميم

أيقنتُ أن الجهلَ عِلَّـ ـةُ كلِّ مجتمع سقيم
وأتيتُ — يا ربَّ النثيـ ـرِ — بما تُحبُّ من النظيم
أجزِ اجتهادَكِ في جَني الثمراتِ للنَّشَأ النهيم[12]
من روضةِ العلم الصحيـ ـح، وربوةِ الأدب السليم
العاشقينَ العلمَ، لا يألونه طلبَ الغريم
المعرضينَ عن الصغا ئر، والسعاية، والنميم

* * *

قسمًا بمذهبك الجميـ ـلِ، ووجهِ صُحْبَتك القسيم
وقديمِ عهدٍ، لا ضئيـ ـلٍ في الوداد، ولا ذميم
ما كنتَ يومًا للكِنا نِة بالعدُوِّ ولا الخصيم
لمَّا تلاحى الناسُ لم تنزلْ إلى المرعى الوخيم[13]
كم شاتمٍ قابلتَه بترفُّع الأسدِ الشتيم[14]
وشغلْتَ نفسك بالخصيـ ـب من الجهودِ عن العقيم
فخدمْتَ بالعلم البلا دَ، ولم تزلْ أوْفَى خَديم[15]
والعلمُ بنَّاءُ المآ ثِر والممالكِ من قديم
كسروا به نِيرَ الهوا نِ، وحطَّموا ذُلَّ الشكيم

هوامش

(١) برقين: بلدة المترجِم لطفي باشا السيد.
(٢) البنية: الكعبة.
(٣) الهزيم: صوت الرعد.
(٤) السوام: المرعية. والمسيم: الراعي.
(٥) اليتيم: اللؤلؤ.
(٦) الطريق اللحب: الواسع.
(٧) الألب: جبل من جبال اليونان. والصريم: وادٍ من أودية العرب.
(٨) الضنة: الشيء الذي يضنُّ به.

(٩) المشاءون: تلاميذ أرسطاليس.

(١٠) هذه إشارة إلى قول أرسطاليس المشهور: أفلاطون حبيب إليَّ ولكنَّ الحقيقة أحبُّ إليَّ منه.

(١١) المرض المنيم: المنوِّم.

(١٢) النهيم: الذي لا يشبع.

(١٣) تلاحى الناس: تلاعنوا.

(١٤) الشتيم: العابس.

(١٥) الخديم: الخادم.

شهيد الحق[1]

إلامَ الـخُـلْـفُ بينكُمُ؟ إلا ما؟ وهذي الضجَّةُ الكبرى علاما؟

وفيمَ يكيدُ بعضُكُمُ لبعض وتُبدون العداوةَ والخِصاما؟

وأين الفوزُ لا مصرُ استقرَّتْ على حالٍ، ولا السودانُ داما؟

وأين ذهبتُمُ بالحقِّ لمَّا ركبتم في قضيتِه الظلاما؟

لقد صارتْ لكمُ حكمًا وغُنمًا وكان شِعارُها الموتَ الزُّؤاما

وثِقتم واتهمتم في الليالي فلا ثقةً أدَمْنَ، ولا اتهاما

شببتم بينكم في القُطر نارًا على مُحْتَلِّه كانت سلاما

إذا ما راضَها بالعقل قومٌ أجدَّ لها هوى قومٍ ضِراما

ترامَيْتُم، فقال الناسُ: قومٌ إلى الخذلانِ أمرُهُم ترامَى

وكانت مصرُ أوَّل مَنْ أصبتم فلم تُحصِ الجراحَ ولا الكِلاما[1]

إذا كان الرِّماةُ رماةَ سوءٍ أحَلُّوا غيرَ مرماها السهاما

أبعدَ العُرْوةِ الوُثْقى وصَفًّ كأنياب الغضنفر لن يُراما

[1] نظمها صاحب الديوان بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر، وأشار إلى تصريح ٢٨ فبراير وموقف بعض الزعماء حياله، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى فقيد البلاد المرحوم مصطفى كامل فوفَّاه حقَّه، واستطرد من ذلك إلى البحث فيما تحتاج إليه البلاد من وسائل الإصلاح.

تباغيتم كأنكمُ خلايا | من السرطانِ لا تجدُّ الضَّماما؟[٢]
أرى طيَّارَهم أوفى علينا | وحلَّق فوق أرؤسنا وحاما
وأنظرُ جيشَهم من نصف قرنٍ | على أبصارنا ضرَب الخياما
فلا أمناؤنا نقصوه رمحًا | ولا خُوَّانُنا زادوا حساما
ونُلقى الجوَّ صاعقةً ورعدًا | إذا قصرُ الدبارةِ فيه غاما
إذا انفجرت علينا الخيلُ منه | ركبنا الصمتَ، أو قُدْنا الكلاما[٣]
فأُبْنا بالتخاذل والتلاحي | وآب بما ابتغى منَّا وراما[٤]

***

ملكنا مارِنَ الدنيا بوقتٍ | فلم نُحسن على الدنيا القياما[٥]
طلعنا — وهْي مقبلةٌ — أُسودًا | ورحنا — وهْي مدبرةٌ — نَعاما
ولِينا الأمرَ حزبًا بعد حزبٍ | فلم نَكُ مصلحين ولا كِراما
جعلنا الحُكمَ توليةً وعزلاً | ولم نَعْدُ الجزاءَ والانتقاما
وسُسْنا الأمرَ حين خلا إلينا | بأهواءِ النفوس، فما استقاما
إذا التصريحُ كان براحَ كفرٍ | فَلِمْ جُنَّ الرجالُ به غراما؟[٦]
وكيف يكون في أيدٍ حَلالاً | وفي أخرى من الأيدي حراما؟
وما أدري غداةَ سُقِيتموه | أَتِرْياقًا سُقِيتُم، أم سِماما؟[٧]

***

شهيدَ الحقَّ، قُمْ تره يتيمًا | بأرضٍ ضُيِّعَت فيها اليَتامى
أقام على الشفاه بها غريبًا | ومرَّ على القلوب، فما أقاما[٨]
سَقِمتَ، فلم تَبِتْ نفسٌ بخيرٍ | كأن بمهجةِ الوطن السَّقاما
ولم أر مثلّ نعشِك إذ تهادى | فغطَّى الأرضَ، وانتظم الأناما[٩]
تحمَّلَ هِمَّةً، وأقلَّ دِينًا | وضمَّ مروءَةً، وحوى زماما[١٠]
وما أنساكَ في العشرينَ لمَّا | طلعتَ حِيالها قمرًا تماما
يُشَار إليك في النادي وتُرْمَى | بعَيْنَيْ مَنْ أحبَّ ومَنْ تعامى
إذا جئتَ المنابرَ كنتَ قُسًّا | إذا هو في عُكاظَ على السَّناما[١١]
وأنت أَلَدُّ للحق اهتزازًا | وألطفُ حين تنطقه ابتساما

وتحملُ من أديمِ الحقّ وجهًا   صُراحًا، ليس يتَّخذ اللِّثاما[١٢]
أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً   سهرنا عن معلمهم وناما؟[١٣]
مِهارُ الحق بغَّضنا إليهم   شكيمَ القيصرِية واللجاما[١٤]
لواؤْكَ كان يسقيهم بجامٍ   وكان الشعرُ بينَ يَدَيَّ جاما[١٥]
من الوطنيةِ استبقوا رحيقًا   فضضْنا عن مُعنَّقِها الختاما[١٦]
غرسنا كَرْمَها، فزكا أصولاً   بكلِّ قَرارةٍ، وزكا مُداما[١٧]
جمعتهمُ على نبراتِ صوتٍ   كنفخ الصُّور حرَّكت الرَّجاما[١٨]
لك الخُطَبُ التي غَصَّ الأعادي   بسَوْرتِها، وساغت للندامى[١٩]
فكانت في مرارتها زائيرًا   وكانت في حَلاوتها بُغاما[٢٠]
بك الوطنيةُ اعتدلتْ، وكانت   حديثًا من خرافة أو مَناما[٢١]
بنيتَ قضيَّةَ الأوطانِ منها   وصيَّرتَ الجلاءَ لها دِعاما[٢٢]
هزَزت بني الزَّمان به صبيًّا   ورُعتَ به بني الدُّنيا غلاما

هوامش

(١) الكلام (بكسر الكاف): الجروح.

(٢) الضمام: ما ضممت به شيئًا آخر. والسرطان: ورم سوداوي تظهر عليه عروق حمر وخضر متشعبة.

(٣) ركبنا الصمت: أي وجدناه خيرًا. وقدنا الكلام: استرسلنا فيه.

(٤) التلاحي: التلاعن والتلاوم.

(٥) المارن: الأنف أو ما لان منه، والمراد بمارن الدنيا: ذروتها وأعلاها.

(٦) البراح: الصراح، والتصريح: تصريح ٢٨ فبراير، يشير إلى موقف بعض الزعماء منه.

(٧) السمام: جمع سمٍّ. والترياق: ما يدفع السموم من الدواء.

(٨) أي تلفظه الأفواه ولا تحسُّ به القلوب.

(٩) تهادى: تمايل على الأعناق.

(١٠) زمام القوم: مقدِّمهم وصاحب أمرهم.

(١١) قسُّ: هو قسُّ بن ساعدة الإيادي، ويُضْرَبُ به المثل في بلاغة الخطباء، ويروى عنه أنه كان يخطب الناس في عكاظ وهو على ظهر بعير.

(١٢) الأديم: الوجه والصفحة.

(١٣) سهرنا عن معلمهم: أي تركنا هذا المعلم ينام، وقمنا نحن على تهذيبهم وإنشائهم.

(١٤) المِهَار: جمع مهر، والمراد بالمِهَار هنا الشباب. والشكيم: جمع شكيمة، وهي من اللجام حديدة تعترض فم الفرس، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها: قسوة الاحتلال وجبروته.

(١٥) الجام: إناء من فضة. والمعنى: أنك كنت تغذوهم بما كنت تنشر عليهم من لوائك من ثمر الأدب، وكنت أنا أيضًا أغذوهم بما أُزجي لهم من زهور الشعر والبيان.

(١٦) استبقوا الرحيق: تسابقوا إليه. والرحيق: الخمر. والمعتَّق: القديم، وقِدَم الخمر يحسِّنها ويزيد لذَّة شاربها. وفضضنا الختام: فتحناه.

(١٧) الكرم: العنب. وزكا: نما. والمدام: الخمر.

(١٨) الرجام: القبور.

(١٩) السورة: الحدَّة والشدَّة. وغصَّ بالشيء: اعترض في حلقه فمنعه التنفُّس. والمراد بغصَّة الأعادي: غضبهم. والندامى: جمع ندمان وهو نديم الشَّراب، والمراد بهم الشيعة والأصدقاء.

(٢٠) البغام: صوت الظبي.

(٢١) خرافة: رجل عذري اختطفته الجن فيما زعموا، ثم رجع إلى قومه، وأخبر بما رأى منها؛ فكذَّبوه، وأصبح حديثه مثلاً لكل حدث باطل.

(٢٢) الدِعام: العماد.

تحيَّة للترك

الدَّهرُ يقظانُ، والأحداثُ لم تنمِ   فما رقادُكم يا أشرف الأُمَمِ؟
لعلكم من مِراسِ الحرب في نَصَبٍ   وهذه ضجعةُ الآساد في الأجَم[1]
لقد فتحتم فأعرضتم على شِبَعٍ   والفتح يعترض الدُّولات بالتُّخم[2]
هبُّوا بكم وبنا للمجدِ في زمنٍ   مَنْ لم يكن فيه ذئبًا كان في الغنم
هذا الزمانُ تناديكم حوادثُه   يا دولةَ السيف، كوني دولةَ القلم
فالسيفُ يهدم فجرًا ما بُنِي سَحَرًا   وكلُّ بنيانِ علم غيرُ منهدم[3]
قد مات في السَّلم مَنْ لا رأيَ يَعصمُه   وسوَّت الحرب بين البَهْم والبُهَم[4]
وأصبح العلمُ ركنَ الآخذين به   مَنْ لا يُقِمْ ركنَه العرفانُ لم يَقُم
الناسُ تسحبُ فضفاضَ الغِنى مرحًا   ونحن نلبسُ عنه ضيقةَ العُدُم[5]
يا فتيةَ الترك. حيًّا الله طلعتَكم   وصانكم. وهداكم صادقَ الخِدَم[6]
أنتم غدُ الملكِ والإسلامِ، لا برحا   منكم بخيرِ غدٍ في المجدِ مبتسم[7]
تُحِلُّكم مصرُ منها في ضمائرِها   وتعلن الحبَّ جمًّا غيرَ متَّهَم[8]
فنحن — إن بعدتْ دارٌ وإن قربتْ —   جاران في الضاد، أو في البيتِ والحرَم[9]
ناهِيك بالسببِ الشرقيَّ من نسبٍ   وحبذا سببُ الإسلام من رحِم[10]
شملُ اللغات لدى الأقوامِ ملتئمٌ   والضَّاد فينا بشمل غير ملتئمٌ[11]
فقرِّبوا بيننا فيها وبينكم   فإنها أوثقُ الأسباب والذِّمم
وكلُّنا إن أخذنا بالفلاح يدٌ   وسعينا قدم فيه إلى قدَم
فلا تكونُنَّ «تركيا الفتاة»، ولا   تلك العجوزَ، وكونوا تركيا القِدَم

فسيفُها سيفُها في كل معترك　　وعدُلها طوَّق الإسلامَ بالنِّعم

هوامش

(١) مراس الحرب: مزاولتها. والنصب: التعب. والضجعة: الرقدة. والآساد: جمع أسد. والأجم (بفتح الجيم): جمع أجمة، وهي الشجر الملتف.

(٢) فتحتم: تغلَّبتم على البلاد التي حاربتموها حتى ملكتموها، والتخم: جمع تخمة، وهي ثقل الأكل.

(٣) يهدم فجرًا.. إلخ: أي يهدم وقت الفجر ما يكون قد بناه وقت السحر، والمعنى: أن بنيان السيف لا دوام له.

(٤) السلم: ضد الحرب. ويعصمه: يحفظه ويقيه. والبهم (بفتح الباء وسكون الهاء) جمع بهمة (بفتح الباء وسكون الهاء أيضًا): وهي أولاد الضأن والمعز والبقر. والبهم (بضم الباء وفتح الهاء): جمع بهمة (بضم الباء وسكون الهاء) وهي الرجل الشجاع.

(٥) الفضفاض: الواسع. والمرح: التبختر والاختيال. والضيقة (بفتح الضاد وكسرها): سوء الحال. والعدم (بضم العين والدال وتُسَكَّن داله أيضًا): الفقر.

(٦) صادق الخدم: أي الخدم الصادقة، وهي جمع خدمة.

(٧) أنتم غد الملك والإسلام، أي أنتم الذين تهيئون لهما غدهما، والمراد مقبل حالهما.

(٨) جمًا: كثيرًا. وغير متهم: أي غير مشكوك في صدقه.

(٩) الضاد: تُطْلَقُ اسمًا للغة العربية؛ وذلك أن حرف الضاد لا يوجد في لغة سواها ولا يقوى عليه إلاَّ أهلها.

(١٠) ناهيك: كلمة استعظام وتعجُّب وتأويلها في الكلام: أن هذا الشيء هو غاية فيما تطلبه، حتى إنه ينهاك عن طلب غيره، فمعنى البيت: أن السبب الشرقي هو ما يطلب من النسب بيننا وبينكم، فلا تطلبوا نسبًا سواه. وحبذا: كلمة مدح.

(١١) الشمل: ما تفرَّق من الأمر وما اجتمع منه، يقال: جمع الله شملهم، وفرَّق الله شملهم. وملتئم: منضم وملتصق.

الأسطول العثماني[١]

هزَّ اللواءَ بعزِّك الإسلامُ … وعَنَتْ لقائم سيفِك الأيام[١]

وانقادت الدنيا إليك، فحسبُها … عذرًا قيادٌ أسلسَت وزِمام[٢]

ومشى الزَّمانُ إلى سريرك تائبًا … خَجِلاً، عليه الذُّلُّ والإرغام

عرشُ النبي محمدٍ جَنَبَاتُه … نورٌ، ورَفْرَفُهُ الطَّهورُ غمام[٣]

لمَّا جلستَ سما وعزَّ، كأنما … هارونُ وابناه عليهِ قِيام[٤]

البحرُ محشودُ البوارج دونه … والبرُّ تحت ظِلالِه آجام[٥]

نَعَمَ الرعيةُ في ذَراكَ، ونَضَّرتْ … أيامَهم في ظِلكَ الأحكام[٦]

في كل ناحيةٍ، وكل قبيلةٍ … عدلٌ، وأمنٌ مُورِفٌ. ووِئام[٧]

حمل (الصليبُ) إليكَ من فتيانه … جندًا، وقاتلَ دونكَ (الحاخام)[٨]

والدِّينُ ليس برافعٍ ملكًا إذا … لم يَبْدُ للدُّنيا عليه نظام

بالله قد دان الجميعُ، وشأنُهم … بالله ثم بعرشِك، استِعصام[٩]

* * *

[١] كان صاحب الديوان في الآستانة، وشاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العليَّة من ألمانيا؛ فأخذته هزَّة الطرب، وعزَّ عليه أن يرى المسلمين في أقطار الأرض قاعدين عن إعانة أسطول الدولة؛ فجرى لسانه بهذه القصيدة.

يا ابنَ الذين إذا الحروبُ تتابعت ... صَلَّوْا على حَدِّ السيوف، وصاموا[10]
المظهرِينَ لنورِ «بَدْرٍ» بعد ما ... خِيفَ المحاقُ عليه والإظلام[11]
عشرون خاقانًا نَمَوْك وعَشْرةٌ ... غرُّ الفتوح خلائفٌ أعلام[12]
نسبٌ إذا ذُكِر الملوكُ فإنه ... لِرَفيع أنسابِ الملوكِ سَنَام[13]
لا تحفلنَّ من الجِراح بقيةً ... إن البقيةَ في غدٍ تلتام[14]
جرت النحوس لغاية فتبدَّلت ... ولكل شيءٍ غايةٌ وتمام
تعِبت بأُمَّتِك الخطوبُ فأقصرَت ... والدَّهرُ يُقصر والخطوب تنام[15]
لبثَت تَنُوشهمُ الحوادثُ حقبةً ... وتصدُّها الأخلاقُ والأحلام[16]
ولقد يُدَاس الذئبُ في فلواته ... ويُهابُ بين قيوده الضِرغام[17]
زدْهم أميرَ المؤمنين من القُوَى ... إن القُوَى عزٌّ لهم وقوام
الملكُ والدُّولاتُ ما يَبني القنا ... والعلمُ، لا ما تَرفعُ الأحلام[18]
والحقُّ ليس — وإن علا — بمؤَيَّدٍ ... حتى يُحَوَّطَ جانبيْه حسام[19]
خطَّ النبيُّ براحتيهِ خَندقًا ... ومشى يُحيط به قنًا وسهام[20]

***

يا بربروسُ، على ثراكَ تحيةٌ ... وعلى سَمِيِّكَ في البحارِ سلام[21]
أعَلِمتَ ما أهدى إليك عصابةٌ ... غرُّ المآثر من بنيك كرام؟[22]
نشروا حديثَك في البريَّة بعدما ... همَّت بطيَّ حديثِك الأيام
خصُّوك من أسطولِهم بدعامةٍ ... يُبنى عليها ركنُه ويقام[23]
شمَّاءُ في عرضِ الخِضَمِّ، كأنها ... برجٌ بذات الرجع ليس يرام[24]
كانت كبعض البارجات، فحفَّها ... لمَّا تحلَّت باسمِك الإعظام
ما مات من نبل الرجال وفضلهم ... يحيا لدى التاريخ وهو عظام
يمضي ويُنسىَ العالَمون، وإنما ... تبقى السيوفُ، وتَخْلُدُ الأقلام[25]
وتلاك (طرغودُ) كما قد كنتُما ... جَنبًا لجنبٍ والعُبابُ ضِرام[26]
أَرسى على بابِ الإمام كأنه ... للفُلك من فرط الجلال إمام[27]
جمعتكما الأيامُ بعد تفرُّق ... ما للقاءِ وللفراق دوام
سيشدُّ أزرَك والشدائدُ جُمةٌ ... ويُعِزُّ نصَرك والخُطوبُ جِسام[28]
ما السُّفنُ في عدد الحصى بنوافع ... حتى يهزَّ لواءَها مِقدام

لما لمحتُكما سكبْتُ مدامعي فرحًا، وطال تشوُّفٌ وقِيام[٢٩]
وسألتُ: هل من (لؤلؤ) أو (طارقٍ) في البحر تخفُقُ فوقَه الأعلام؟[٣٠]

* * *

يا معشرَ الإسلامِ، في أسطولِكم عزٌّ لكم، ووقايةٌ، وسلام
جودوا عليه بمالِكم، واقضوا له ما توجبُ الأعلاقُ والأرحام[٣١]
لا الهندُ قد كرُمت، ولا مصرٌ سخت والغربُ قصَّر عن ندًى، والشام
سيلُ الممالكِ جارفٌ من شدَّةٍ وقُوًى، وأنتم في الطريق نِيام[٣٢]
حبُّ السيادة في شمائِل دينكم والجِدُّ روحٌ منه والإقدام[٣٣]
والعلمُ من آياته الكبرى إذا رجعت إلى آياتِه الأقوام[٣٤]
لو تقرِئون صِغارَكم تاريخَه عرف البنون المجدَ كيف يُرام
كم واثقٍ بالنفس، نَهَّاضٍ بها ساد البريَّةَ فيه وهو عِصام[٣٥]

هوامش

(١) عنت: خضعت وذلت، والخطاب في هذا البيت والبيتين بعده للخليفة محمد رشاد.

(٢) القياد: ما يُقَادُ به، ويستعمل بمعنى الطاعة. وأسلست: جعلته سلسًا، أي سهلاً لينًا، والزمام: مقود البعير.

(٣) الجنبات: النواحي، مفردها جنبة. والرفرف: كل ما فضل فثني.والطهور هو الطاهر في نفسه والمطهر غيره.

(٤) سما: ارتفع. وهارون: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وابناه: هما الأمين، والمأمون.

(٥) البوارج: سفن القتال الكبيرة واحدتها: بارجة. والآجام: جمع أجم والأجم: جمع أجمة: وهي الشجر الكثير الملتف، والأُسود تتخذها مأوى لها. والضمير في «دونه» و«ظلاله» للعرش في البيت المتقدِّم، يعني أنه مصون، تحميه سفن القتال المحشودة في البحر، والجيوش المقيمة في البرِّ كأنها الأُسود في آجامها.

(٦) نعم الرعية: رفهوا وأخصبوا. والذرا: الملجأ. ونضَّرت أيامهم الأحكام: جعلها ناضرة. والناضرة: الحسنة.

(٧) مورف: مُتَّسع وممتد.

(٨) حمل الصليب.. إلخ: يريد أن رعاياك من النصارى واليهود مخلصون، يقاتلون من دونك لِمَا أظللتهم به من العدل والأمن.

(٩) بالله قد دان الجميع: أي آمنوا به. والاستعصام: الاستمساك.

(١٠) صلوا على حدِّ السيوف وصاموا: أي لزموها كما يلزم المتعبِّد صلاته وصيامه.

(١١) بدر: اسم الغزوة المشهورة في صدر الإسلام، سُمِّيت باسم المكان الذي وقعت فيه. والمحاق (مثلث الميم): قيل: هو آخر الشهر حيث يمحق نور القمر، وقيل: هو ثلاث ليالٍ من آخره.

(١٢) الخاقان: هو كل ملك من الأتراك. ونموك: أي رفعوك بالانتساب إليهم، وعشرة غرُّ الفتوح: أي ونماك أيضًا عشرة خواقين، امتازوا بالفتح والتوسُّع في الملك، فاختصوا بوصف الفاتحين، فلا يقال هذا الوصف لغيرهم من سلاطين آل عثمان. وخلائف: جمع خليفة.

(١٣) السنام: اللحم المرتفع على ظهر البعير.

(١٤) لا تحفلن بقية: أي لا تبال بها. فهي ستبرأ وتلتحم، يشير بذلك إلى حوادث كانت تشغل الدولة التركيَّة يومئذ.

(١٥) أقصرت: أي انتهت وأمسكت عنها.

(١٦) تنوشهم: تناولهم. وتصدُّها أي تصدُّ الحوادث. والأحلام: العقول.

(١٧) الضرغام: الأسد.

(١٨) القنا: الرماح. والأحلام هنا: جمع حلم، وهو ما يراه النائم.

(١٩) يحوط جانبيه، بواو مشدَّدة: أي يحفظهما ويتعهدهما. والحسام: السيف.

(٢٠) الخندق: حفير حول أسوار المدينة.

(٢١) بربروس: هو خير الدين بربروس من أبطال العثمانيين، جعلت الحكومة التركية اسمه علمًا لبارجة هي الأولى في الأسطول العثماني.

(٢٢) عصابة غرُّ المآثر: هم رجال الحكومة العثمانية الذين أوجدوا البارجة بربروس.

(٢٣) الدعامة: عماد البيت.

(٢٤) شمَّاء: مرتفعة عظيمة. والخضم: البحر. والبرج: واحد بروج السماء. وذات الرجع: هي السماء. والرجع: المطر بعد المطر.

(٢٥) وإنما تبقى السيوف: أي يبقى ما تفعله السيوف ويخلد ما تسطره الأقلام.

(٢٦) تلاك: أي جاء تاليًا لك. وطرغود: هو أيضًا من أبطال البحر العثماني، جعلت الحكومة التركيَّة اسمه كذلك علمًا لبارجة أخرى. والعباب: كثرة السيل وارتفاعه. والمراد به هنا كثرة ماء البحر. والضرام اشتعال النار؛ والمعنى: أن البارجة التي سُمِّيت باسم طرغود، هي مع البارجة المُسمَّاة باسمك، فهما في البحر كما كنتما فيه من قبل، حين كانت تشتعل نار القتال فوق عبابه.

(٢٧) أرسى: وقف وثبت. والفلك: السفن، يستعمل للمفرد وللجمع بلفظ واحد، وفي البيت إشارة إلى أن مرسى البارحتين كان أمام قصر الخليفة.

(٢٨) الأزر: الظهر. والجمَّة: الكثيرة. والجسام: العظام، جمع جسيم.

(٢٩) سكبت: صببت. والتشوُّف: التطلُّع.

(٣٠) لؤلؤ: هو حسام الدين لؤلؤ، أمير الأسطول المصري في الحروب الصليبية، وطارق هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور.

(٣١) الأعلاق: نفائس الأشياء.

(٣٢) جارف، من جرف الشيء: ذهب به كله أو أكثره.

(٣٣) الجدُّ: الاجتهاد في الأمر. وروح منه، أي من دينكم.

(٣٤) والعلم من آياته: أي من آيات الدِّين.

(٣٥) النَهَّاض: مبالغة من النهوض، وهو القيام. وهو عصام: أي كعصام، وهو رجل شرف بنفسه وعمله، لا بنسبه وآبائه، حتى قيل فيه: «نفس عصام سوَّدت عصامًا» فضُرِبَ به المثل في ذلك.

الأندلس الجديدة

يا أختَ أندلسٍ عليكِ سلامُ — هَوَت الخلافةُ عنكِ، والإسلام[1]

نزل الهلالُ عن السماءِ فليتها — طُوِيَتْ، وعمَّ العالمين ظلام

أزرى به، وأزاله عن أوْجِهِ — قدَرٌ يَحُطُّ البدرَ وهو تمام[2]

جُرحان تمضي الأمتان عليهما — هذا يسيل، وذاك لا يلتام[3]

بكما أصيبَ المسلمون. وفيكما — دُفِنَ اليراعُ، وغُيِّب الصَّمصام[4]

لم يُطوَ مأتمُها. وهذا مأتمٌ — لبسوا السوادَ عليكِ فيه وقاموا[5]

ما بين مَصرِعها ومصرعِكِ انقضت — فيما نُحِبُّ ونكره الأيام

خلت القرونُ كليْلةٍ. وتصرَّمت — دولُ الفتوحِ كأنها أحلام[6]

والدهرُ لا يألْو الممالكَ مُنذرًا — فإذا غفلنَ فما عليهِ مَلام[7]

***

مقدونيا — والمسلمون عشيرةٌ — — كيف الخئولةُ فيكِ والأعمام؟[8]

أتريْنهم هانوا، وكان بعزِّهم — وعلَّوهم يتخايلُ الإسلام؟[9]

إذا أنتِ نابُ الليثِ، كلُّ كتيبة — طلعت عليكِ فريسةٌ وطعام[10]

ما زالت الأيامُ حتى بُدِّلَت — وتغيَّرَ الساقي، وحالَ الجام[11]

أرأيتِ كيف أُديلَ من أسْدِ الشَّرَى — وشهدتِ كيف أبيحتِ الآجام؟[12]

زعموكِ همًّا للخلافةِ ناصبًا — وهل الممالكُ راحةٌ ومنام[13]

ويقول قومٌ: كنتِ أشأمَ مَوْرِدٍ — وأراكِ سائغةً عليكِ زِحام

ويراكِ داءَ المُلك ناسُ جَهالة ... بالمُلك منهم علةٌ وَسَقام
لو آثروا الإصلاح كنتِ لعرشِهم ... رُكنًا على هام النجوم يُقام[14]
وهْمٌ يقيَّدُ بعضُهم بعضًا به ... وقيودُ هذا العالَمِ الأوهام
صورُ العمى شتَّى، وأقبحُها إذا ... نظرتْ بغير عيونِهنّ الهام
ولقد يُقام من السيوفِ، وليس من ... عثراتِ أخلاقِ الشعوبِ قيام

***

ومُبَشِّرٍ بالصلحِ قلت: لعله ... خيرٌ عسى أن تصدقَ الأحلام[15]
ترك الفريقان القتالَ، وهذه ... سِلْم أمرُّ من القتال عُقام[16]
ينعى إلينا الملكَ ناعٍ لم يطأ ... أرضًا، ولا انتقلت به أقدام[17]
برق جوائبُه صواعقُ كلُّها ... ومن البروقِ صواعقٌ وغمام[18]
إن كان شرٌّ، زار غيرَ مفارقٍ ... أو كان خيرٌ، فالمزارُ لِمام[19]
بالأمس (أفريقا) تولَّتْ. وانقضى ... مُلكٌ على جيدِ الخِضمِّ جسام[20]
نظمَ الهلالُ به ممالكَ أربعًا ... أصبحنَ ليس لعقدِهن نظام[21]
من فتحِ هاشم أو أميَّةَ، لم يُضِعْ ... آساسَها تَترٌ ولا أعجام[22]
واليومَ حكمُ الله في مقدونِيا ... لا نقضَ فيه لنا ولا إبرام
كانت من الغرب البقيةُ. فانقضت ... فعلى بَني عثمانَ فيه سلام!.

***

أخذَ المدائنَ والقُرى بخناقها ... جيشٌ من المتحالفين لُهام[23]
غطَّت به الأرضُ الفضاء وجوَّهَها ... وكست مناكِبَها به الآكام[24]
تمشي المناكرُ بين أيدي خَيله ... أنَّى مَشى. والبغيُ، والإجرام[25]
ويحثُّه باسم الكتاب أقِسَّةٌ ... نَشطوا لما هو في الكتابِ حرام[26]
ومسيطرونَ على الممالك. سُخِّرت ... لهم الشعوبُ، كأنها أنعام[27]
من كل جزّار يروم الصدرَ في ... نادي الملوكِ، وجَدُّه غنَّام[28]
سِكِّينه، ويمينُه، وحزامه ... والصولجانُ، جميعُها آثام[29]

***

«عيسى» سبيُلك رحمةٌ، ومحبةٌ ... في العالمين، وعصمةٌ، وسلام
ما كنتَ سفَّاك الدماءِ، ولا أمرأ ... هانَ الضِّعافُ عليه والأيتام[٣٠]
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورَى ... كثُرَت عليه باسمك الآلام[٣١]
أنت الذي جعل العبادَ جميعَهم ... رَحِمًا، وباسمك تُقطَع الأرحام
أتت القيامةُ في ولايةِ يوسفٍ ... واليومَ باسمك مرتين تقام[٣٢]
كم هاجَه صيدُ الملوك وهاجهم ... وتَكافأَ الفُرسانُ والأعلام[٣٣]
البغيُ في دين الجميع دنيَّةٌ ... والسَّلمُ عهدٌ، والقتالُ زِمام
واليومَ يهتفُ بالصليبِ عصائبٌ ... هم للإله وروحِه ظلَّام[٣٤]
خلَطوا صليبكَ والخناجرَ والمُدى ... كلٌّ أداةٌ للأذى وحمام[٣٥]
أوَما تراهم ذبَّحوا جيرانهم ... بين البيُوت كأنهم أغنام؟
كم مُرضَعٍ في حِجْر نعمته غدًا ... وله على حَدِّ السيوف فطام[٣٦]
وصبيَّةٍ هُتِكت خميلةُ طُهرها ... وتناثرت عن نَوْرِه الأكمام[٣٧]
وأخي ثمانين أسْتبيحَ وقارُه ... لم يُغنِ عنه الضعفُ والأعوام
وجريحِ حربٍ ظامئ وأدُوه. لم ... يعطفْهم جرحٌ دمٍ وأُوام[٣٨]
ومهاجرين تنكَّرت أوطانُهم ... ضلُّوا السبيلَ من الذهول وهاموا[٣٩]
السيفُ إن ركبوا الفِرارَ سبيلُهم ... والنَّطْعُ إن طلبوا القَرار مُقام[٤٠]
يتلفتون مودِّعين ديارَهم ... واللحظُ ماءٌ، والديارُ ضِرام[٤١]

* * *

يا أمة (بفروقَ) فرَّق بينهم ... قَدَرٌ تطيشُ إذا أتى الأحلام[٤٢]
فيم التخاذُل بينكم ووراءَكم ... أمم تُضاع حقوقُها وتُضام؟[٤٣]
الله يشهدُ لم أكن متحزِّبًا، ... في الرُّزءِ لا شِيعٌ ولا أَحزام[٤٤]
وإذا دعوتُ إلى الوِئامِ فشاعرٌ ... أقصى مُناهُ محبَّةٌ ووِئام[٤٥]
مَنْ يضجر البلوى فغايةُ جهدِه ... رُجعَى إلى الأقدار واستسلام[٤٦]
لا يأخذنَّ على العواقبِ بعضُكم ... بعضًا، فقِدْمًا جارت الأحكام
تَقضي على المرءِ الليالي، أوْ له ... فالحمدُ من سلطانها، والذَّام[٤٧]
من عادة التاريخ ملءُ قضائِه ... عدل وملءُ كِنانَتَيْهِ سِهام[٤٨]
ما ليس يدفعه المهنَّدُ مصلَتًا ... لا الكتبُ تدفعه. ولا الأقلام[٤٩]

إن الأُلى فتحوا الفتوحَ جلائلاً دخلوا على الأُسْدِ الغِياضَ وناموا[٥٠]
هذا جناه عليكم آباؤكم صبرًا وصفحًا، فالجناةُ كرام[٥١]
رفعوا على السيفِ البناءَ. فلم يدم ما للبناءِ على السيوف دوام
أبقى الممالكَ ما المعارفُ أُسُّه والعدلُ فيه حائطٌ ودِعام[٥٢]
فإذا جرى رُشدًا ويُمنًا أمرُكم فامشوا بنورِ العلم. فهو زِمَام
ودعوا التفاخرَ بالتُّراث وإن غلا فالمجدُ كسبٌ. والزمانُ عِصام
إنَّ الغرورَ إذا تملَّك أمةً كالزَّهر يُخفي الموتَ وهو زؤام[٥٣]
لا يعدلنَّ الملكُ في شهواتكم عرَضٌ من الدنيا بدا وحُطام[٥٤]
ومناصب في غير موضِعها. كما حلَّت محلَّ القدوة الأصنام[٥٥]
الملك مرتبةُ الشعوب. فإن يفتْ عزُّ السِّيادة فالشعوبُ سَوام
ومن البهائم مشبَعٌ ومُدلَّلٌ ومن الحرير شكيمةٌ ولجام
وقف الزمانُ بكم كموقِف «طارق» اليأسُ خلفٌ، والرجاءُ أمام[٥٦]
الصبرُ والإقدامُ فيه إذا هما قُتلا فأقتلُ منهما الإحجام
يُحصي الدليلُ مدى مطالبه، ولا يحصي مدى المستقبلِ المِقدام
هذي البقيةُ — لو حرصتم — دولةٌ صال الرشيد بها، وطالَ هِشام[٥٧]
قِسْم الأئمة والخلائف قبلكم في الأرض لم تُعدَل به الأقسام[٥٨]
سرت النبوَّةُ في طَهور فضائِه ومشى عليه الوحيُ والإلهام
وتدفَّق النهران فيه، وأزهرت بغدادُ تحت ظلاله، والشام[٥٩]
أثْرَتْ سواحلُه، وطابت أرضُه فالدرُّ لُجٌّ، والنُّضارُ رَغام[٦٠]

* * *

شرفًا أدرنةُ! هكذا يقفُ الحمى للغاصِبين، وتثبتُ الأقدام[٦١]
وتُرَدُّ بالدم بقعةٌ أخذت به ويموتُ دون عرينِه الضِرغام[٦٢]
والملكُ يؤخذ، أو يُرَدُّ، ولم يزل يرثُ الحسامَ على البلاد حسام[٦٣]
عِرْضُ الخلافةِ ذاد عنه مجاهدٌ في الله. غازٍ في الرسول. همام[٦٤]
تستعصم الأوطانُ خلف ظُباته وتَعزُّ حول قناتِه الأعلام[٦٥]
(عثمان) في بُرْدَيْه يمنعُ جيشَه (وابنُ الوليد) على الحِمى قَوَّام[٦٦]
علم الزمانُ مكانَ (شكري) وانتهى شكرُ الزمان إليه والإعظام[٦٧]

* * *

صـبـرًا أدرنــةُ! كـلُّ مـلـكٍ زائـلٌ   يومًـا. ويـبـقـى الـمـالك الـعـلاَّم[٦٨]
خَـفَـتَ الأذانُ. فـمـا عـليـكِ مُـوحِّـد   يسعى. ولا الجُمَعُ الحِسانُ تُقام[٦٩]
وخبتْ مساجدُ كنَّ نورًا جامعًا   تـمـشــي إلـيــه الأُسْـدُ والآرام[٧٠]
يَدْرُجْنَ في حَرَمِ الصلاةِ قوانتًا   بـيـضَ الإزارِ كـأنـهـن حَـمـام[٧١]
وَعَفَتْ قبورُ الفاتحين. وفُضَّ عن   حُـفَـر الـخـلائـفِ جَـنْـدَلٌ ورِجام[٧٢]
نُبِشَتْ على قَعساءِ عِزَّتِهَا. كما   نُبشتْ على استعلائها الأهرام[٧٣]
فـي ذمَّـةِ الـتـاريخ خـمسـةُ أشـهـر   طـالـت عـلـيـكِ. فـكـلُّ يـوم عـام[٧٤]
الـسـيـفُ عـار، والـوبـاءُ مُـسـلَّـطٌ   والسيلُ خوفٌ، والثلوجُ رُكام[٧٥]
والـجـوعُ فـتَّـاك، وفـيـه صـحـابـةٌ   لو لم يجوعوا في الجهادِ لصاموا
ضَنُّوا بعرضِكِ أن يُباعَ ويشترى   عِرْضُ الحرائر ليس فيه سُوام[٧٦]
ضـاق الـحـصـارُ كـأنـمـا حـلـقـاتُـه   فـلَـك، ومـقـذوفـاتُـهـا أجـرام[٧٧]
ورمى العِدَى، ورميتهم بجهنمٍ   مـمـا يـصـبُّ الـلــه لا الأقــوام
بِعْـتِ الـعـدوَّ بـكـل شـبـر مـهـجـةً   وكـذا يُـبـاعُ الـمـلـكُ حـيـن يُـرام[٧٨]
ما زال بينكِ في الحصارِ وبينَه   شُـمُّ الـحـصـونِ، ومـثـلُـهن عِـظـام[٧٩]
حـتـى حـواكِ مـقـابـرًا، وحـويـتـه   جُـثَـثًـا، فـلا غَـبْـنٌ ولا اسـتِـذمـام[٨٠]

هوامش

(١) يا أخت أندلس: يخاطب مدينة أدرنة: وقد كانت من أمهات المدن العثمانية في مقدونية، وبها مقابر كثيرين من سلاطين آل عثمان، جاءت الأنباء بغلبة البلغار عليها في الحرب سنة ١٩١٢ بعد أن أبلت حاميتها في الدفاع بلاءً حسنًا.

(٢) أزرى له: وضع من شأنه. والأوج: العلوِّ.

(٣) جرحان: أحدهما خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني خروج الأندلس من أيديهم، والأمتان: هما العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

(٤) اليراع: القلم. والصمصام: السيف.

(٥) لم يطو مأتمها: أي مأتم الأندلس.

(٦) خلت: مضت. وتصرَّمت: انقضت.

(٧) لا يألوا: لا يقصر ولا يبطئ.

(٨) مقدونيا: اسم الإقليم الذي تقع فيه أدرنة. والعشيرة: قبيلة الرجل. والخئولة النسبة إلى الخال، كالعمومة، وهى النسبة إلى العمِّ.

(٩) يتخايل: يتبختر.

(١٠) إذا أنت ناب الليث: أي مثل ناب الليث، في أنه مخوِّف لا يمكن الوصول إليه. والكتيبة: الجيش، وقيل القطعة منه. والمعنى أن الإسلام كان يتخايل بعزِّ أبنائه في مقدونيا، حينما كانت ممتنعة على العدو كامتناع ناب الليث على مَنْ يريده، وحينما كانت تفنى دونها جيوش الأعداء.

(١١) حال: تحوَّل من حال إلى حال. والجام: إناء من فضة تسقى فيه الخمر.

(١٢) الشرى: مكان تكثر فيه الأسود. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الملتفُّ تألفه الأسود أيضًا.

(١٣) الهمُّ الناصب: المتعب.

(١٤) لو آثروا الإصلاح: أي لو اختاروه. والهام: جمع هامة، وهي رأس كل شيء.

(١٥) ومبشر بالصلح: يشير إلى ما كان قد جاء من الأنبياء بأن الصلح سيتمُّ بين المتحاربين.

(١٦) يقال: داء عقام، أي لا يُرْجَى البرء منه، وحرب عقام: أي شديدة، وكلا المعنيين صالح هنا. ويشير بقوله: هذه سلم. إلخ، إلى ما كان من ممالأة الدول الأوربية الكبرى، لدول البلقان الصغيرة على تركيا، وإرهاقها بشروط الصلح.

(١٧) ينعي إلينا.. إلخ: يشير إلى الأنباء البرقية التي تنقل شروط الصلح الظالم. والناعي الذي لم يطأ أرضًا.. إلخ: هو سلك البرق.

(١٨) الجوائب: الأخبار الطارئة. جمع جائبة.

(١٩) اللمام: جمع لمة وهي المرَّة، يقال: أنت ما تزورنا إلا لمامًا: أي من حين إلى حين.

(٢٠) الجيد: العنق. والخضم: البحر. وجسام: عظام جمع: عظيم.

(٢١) ممالك أربعًا، هنَّ: مصر، وطرابلس، وتونس، والجزائر.

(٢٢) من فتح هاشم أو أميَّة: أي هذه الممالك الأربع مما فتحه بنو هاشم وبنو أميَّة في عصر الإسلام الأول. والآساس (بالمدِّ): جمع أساس.

(٢٣) المتحالفون: هم دول البلقان: اليونان، ورومانيا، والبلغار، والصرب، تحالفوا على حرب الدولة التركيَّة. واللهام بضم اللام: الجيش العظيم، كأنه يلتهم كل شيء.

(٢٤) مناكبها: نواحيها. والآكام: التلال. وقيل: هي الحجارة المجتمعة في أمكنة واحدة.

(٢٥) المناكر: جمع منكر، وهو كل قول أو فعل ليس فيه رضاء الله، وأنى مشى: أي كيف مشى.

(٢٦) الأقسة: جمع قسيس. ونشطوا: خفُّوا وأسرعوا.

(٢٧) ومسيطرون: أي ويحثه مسيطرون. والمسيطر: المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله؛ والمراد بهم ملوك دول البلقان.

(٢٨) يروم الصدر: يطلبه. والصدر — هنا — معناه أعلى أمكنة النادي.

(٢٩) الصولجان: المحجن، وهو عصا منعطفة الرأس.

(٣٠) سفَّاك الدماء: مريقها بكثرة.

(٣١) يشير بقوله: يا حامل الآلام، إلخ إلى ما يعتقده النصارى من أن السيد المسيح (عليه السلام) صُلِبَ ليحمل عن بني آدم خطيئتهم الأولى، أي حامل الآلام فيما يزعمه هؤلاء السفَّاكون الذين يزعمون أنهم على طريقك.

(٣٢) يوسف: هو السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي، قامت في أيامه قيامة الصليبيين على المسلمين؛ فحاربهم ونصره الله عليهم.

(٣٣) هاجه: أثاره، والضمير ليوسف. وصيد الملوك: جمع أصيد، وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا ولا شمالاً، كالبعير الذي أصيب بداء الصيد في عنقه فلا يلتفت.

(٣٤) العصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، وقيل ما بين العشرة والأربعين. وظُلَّام: جمع ظالم.

(٣٥) خلطوا صليبك: أي الصليب الذي ينسبونه إليك. والحِمَام: الموت.

(٣٦) كم مرضع: أي طفل ترضعه أمه. والفِطَام: فصله عن الرضاع.

(٣٧) الخميلة، هنا: الدِّثار، من المخمل، وهو ثوب له وبر كالهداب، أو هي الشجر الكثير الملتف، والنور: هو الزَّهر الأبيض. والأكمام: جمع كم — بكسر الكاف — وهو غطاء النور.

(٣٨) وأدوه: أي قتلوه، كما تقتل البنت بالوأد، وهو دفنها حية. وجرح دم: أي يقطر منه الدم. والأوام: العطش ودوار الرأس.

(٣٩) هاموا: ذهبوا على وجوههم من الظلم، فلا يدرون أين يتوجهون.

(٤٠) النطع: بساط من الجلد يُفْرَشُ لَمَنْ يُضْرَبُ عنقه، والقرار: المكان الذي يقرُّ فيه الإنسان، أو هو الثبات في المكان والسكون فيه.

(٤١) والديار ضرام: أي مشتعلة نارًا.

(٤٢) فروق: الآستانة. والأحلام: العقول.

(٤٣) التَّخاذل: التَّدابر وأن يخذل بعضهم بعضًا.

(٤٤) الرزء: المصيبة. والشيع: جمع شيعة، وهي أتباع الرجل وأنصاره. والأحزام: الأحزاب.

(٤٥) الوئام: الوفاق.

(٤٦) رجعى إلى الأقدار: أي رجوع إليها.

(٤٧) الذَّام: الذمُّ.

(٤٨) الكنانتان: تثنية كنانة، وهي جعبة السهام، من الجلد أو من الخشب.

(٤٩) المهنَّد: السيف.

(٥٠) الغِياض: جمع غيضة، وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء، وهي أيضًا الأجمة، والمعنى: إن أسلافكم قنعوا من البلاد التي فتحوها بمجرد الفتح والغلبة، ولم يلتفتوا إلى أن أهلها يضمرون لهم العداوة، ويتربصون بهم الدوائر.

(٥١) هذا: أي ما أنتم فيه من عداوة.

(٥٢) الدِعام: عماد البيت.

(٥٣) كالزهر يخفي الموت: ذلك أن الزهر يتنفس فيفسد الهواء في الأمكنة الضيِّقة؛ فيحدث الاختناق. والزؤام: السريع من الموت.

(٥٤) عرض الدنيا: ما لا دوام له منها. وحطامها: ما فيها من مال كثير أو قليل.

(٥٥) مناصب جمع منصب. بكسر الصاد، وهو في كلام المولدين ما يتولاه الرجل من العمل وأصله المقام. والأصنام: جمع صنم، وهو تمثال إنسان أو حيوان يتَّخذ للعبادة.

(٥٦) طارق: هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور. يروي بعض المؤرخين أنه لَمَّا عبر بجيشه البحر ليقاتل الأعداء: أمر فأحرقت السفائن، ثم خطب في الجيش: أن البحر وراءه والعدوُّ أمامه، فإذا نكص عن القتال وقع بين عدوَّين ليس منهما غير الهلاك.

(٥٧) هذي البقية: أي ما بقي للأتراك من البلاد بعد حرب البلقان. ولو حرصتم: أي لو حرصتم عليها. والرشيد: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وهشام: هو ابن عبد الملك أحد خلفاء بني أميَّة.

(٥٨) القسم (بكسر القاف): النصيب.

(٥٩) النهران: دجلة والفرات، وبغداد: حاضرةُ العراق.

(٦٠) أثرت: كثر فيها الغنى والمال. فالدرُّ لجَّ: أي كثير كاللج. والنضار: الذهب. والرغام: التراب؛ أي أنه لكثرته صار كالتراب.

(٦١) شرفًا أدرنة: أي لقد شرفت شرفًا. والحمى: ما يُحْمَى من الشيء.

(٦٢) العرين: مأوى الأسد. والضِرغام: الأسد.

(٦٣) الحسام: السيف.

(٦٤) العِرض: جانب الرجل الذي يصونه من نفسه أو سلفه، وهو موضع المدح والذمِّ منه. وذاد عنه: طرد عنه العدوَّ ودفعه.

(٦٥) تستعصم: تلجأ وتمتنع. الظبات: جمع ظبة — بضم الظاء، وهي حدُّ السيف. وتعزُّ: تصير عزيزة مكرمة.

(٦٦) ابن الوليد: هو خالد بن الوليد، قائد عظيم من الصحابة.

(٦٧) شكري: هو بطل أدرنة، وقائد حاميتها الذي تولَّى الدفاع عنها أثناء شهور الحصار.

(٦٨) صبرًا أدرنة: أي اصبري صبرًا.

(٦٩) خفت: سكن وانقطع. والموحِّد: مَنْ يعتقد أن الله واحد لا شريك له ولا ولد. والجمع: هي صلوات الجمع الأسبوعية.

(٧٠) خبت: سكنت. والأُسْدُ: هم الرجال الذاهبون إلى المساجد. والآرام: النساء الذاهبات إليها. والرئم: الظبي الأبيض.

(٧١) يدرجن: يمشين، والضمير للآرام في البيت المتقدِّم. والقوانت: جمع قانتة، من القنوت، وهو الطاعة والدعاء.

(٧٢) عفت: اضمحلت وامَّحت. وفُضَّ جندل ورجام: أي كُسِرَ متفرقًا. والجندل: الحجارة. والرجام: ما يبنى عليه البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو.

(٧٣) العزَّة القعساء: المنيعة الثابتة.

(٧٤) خمسة أشهر: هي مدة حصار أدرنة.

(٧٥) السيف عارٍ: أي مجرَّد من غمده كما يتجرَّد الإنسان من ثيابه، والمراد أن القتال مستمرٌّ. والوباء مسلط: هو الوباء الذي يحدث عادة في كل مكان يكثر فيه القتال ويكون محصورًا من الخارج. والسيل خوف: أي مخيف. والثلوج ركام: أي متراكم بعضها فوق بعض.

(٧٦) الحرائر: جمع حرَّة. والسوام (بضم السين): أن تُعْرَضَ السلعة ويُذْكَرَ ثمنها.

(٧٧) الفلك: مدار النجوم. والأجرام: هي الأجسام التي في الفلك.

(٧٨) المهجة: الروح أو دمُّ القلب. أي أن العدوَّ لم ينلك إلا بعد أن بذل في كل شبر من أرضك رجلاً من رجاله.

(٧٩) شمُّ الحصون: أي الحصون العالية.

(٨٠) حواك: ملكك. والاستذمام. فعل ما يقتضي الذم. والمعنى: أن الحصون بقيت ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون، فلم يأخذك إلا بعد أن صرت مقابر لرجاله جثثا هامدة؛ وبهذا لم تفعلي ما فيه غبن ولا ما يقتضي الذمَّ.

ضيف أمير المؤمنين[١]

رضيَ المسلمون والإسلامُ ... فَرْعَ عثمانَ، دُمْ، فِداك الدوامُ[١]

كيف نحصي على عُلاكَ ثناءُ؟ ... لك منك الثناءُ والإكرام

هل كلامُ العبادِ في الشمسِ إلاَ ... أنها الشمس ليس فيها كلام؟

ومكانُ الإمام أعلى، ولكن ... بأحاديثه يَتِيهُ الأنام[٢]

إيه «عبدَ الحميد»، جلَّ زمانٌ ... أنت فيه خليفةٌ وإمام[٣]

ما رأت مثلَ ذا الذي تَبتني الأقـ ... ـوامُ مجدًا، ولن يَرى الأقوام

دولةٌ شاد ركنَها ألفُ عام ... ومئاتٌ، تعيدها أعوام[٤]

وأساسٌ من عهدِ عثمان يُبنى ... في ثمانٍ ومثلهن يُقام

حكمةٌ حال كلُّ هذا التجلِّي ... دونها أنْ تنالها الأفهام

يسأل الناسُ عندها الناسَ: هل في ... الناس ذو المقلةِ التي لا تنام؟[٥]

أم مِن الناسِ — بعدُ — مَنْ قولُه وحْـ ... ـيٌ كريمٌ، وفعلُه إلهام؟[٦]

صدق الخلقُ، أنت هذا، وهذا ... يا عظيمًا ما جازه إعظام[٧]

شرفٌ باذخٌ، وملكٌ كبيرٌ ... ويمينٌ بُسطٌ، وأمرٌ جسام[٨]

(عُمَرٌ) أنتَ. بَيْدَ أنك ظلَّ ... للبرايا، وعصمةٌ، وسلام[٩]

---

[١] نزل صاحب الديوان بالآستانة، فبُلِّغ أنه ضيف أمير المؤمنين ما أقام بها.

ما تتوجتَ بالخلافة حتى ... تُوِّجَ البائسون والأيتام

وسرى الخِصْبُ والنماءُ، ووافى الـ ... ـبِشرُ، والظلُّ، والجَنى، والغَمام[10]

وتلقَّى الهلالَ منك جبينٌ ... فيه حسنٌ، وبالعُفاةِ غَرام[11]

فسلامٌ عليهمُ وعليه ... يومَ حيَّتهمُ به الأيام

وبدا الملكُ ملكُ عثمانَ من عَلْـ ... ـياكَ في الذِّرْوَة التي لا تُرام[12]

يهرعُ العرشُ، والملوكُ إليه ... وبنو العصر، والولاةُ الفِخام[13]

هكذا الدَّهرُ: حالةٌ. ثم ضدٌّ ... ما لحالٍ مع الزمان دوام

ولأنت الذي رعيتُّهُ الأُسْـ ... ـدُ، ومَسْرَى ظلالها الآجام[14]

أمة التُّركِ، والعراقُ، وأهلو ... ه، ولبنانُ، والرُّبى، والخيام

عالمٌ لم يكن ليُنْظَم، لولا ... أنك السَّلمُ وَسْطَهُ والوئام[15]

هذَّبته السيوفُ في الدَّهر، واليو ... مَ أتمتْ تهذيبَه الأقلام[16]

أيقولون: سَكرةٌ لن تَجلَّى ... وقعودٌ مع الهوى، وقيام؟[17]

ليدوقُنَّ للمُهلهِلِ صَحْوًا ... تَشُرف الكأْسُ عنده والمُدام[18]

وضع الشرقُ في يديك يديه ... وأتت من حُماتِه الأقسام[19]

بالولاءِ الذي تُريد الأيادي ... والولاءِ الذي يريد المقام[20]

غيرَ غاوٍ. أو خائن. أو حسود ... برئت من أولئك الأحلام[21]

كيف تُهدَى لما تشيد عيونٌ ... في الثرى ملؤها حصىً ورغام؟[22]

مُقَلٌ عانت الظلامَ طَويلاً ... فعماها في أن يزولَ الظلام[23]

قد تعيش النفوسُ في الضيم حتى ... لترى الضيمَ أنها لا تضام[24]

أيها النافرون. عودوا إلينا ... ولِجُوا البابَ، إنه الإسلام[25]

غرضٌ أنتمُ. وفي الدَّهر سهمٌ ... يومَ لا تدفعُ السهامَ السهام[26]

نِمتمُ. ثم تطلبون المعالي ... والمعالي على النيامِ حرام[27]

شَرُّ عيشِ الرجال ما كان حُلْمًا ... قد تسيغ المنيَّةَ الأحلام[28]

ويبيت الزمانُ أندلسيًّا ... ثم يُضحِي وناسُه أعجام[29]

* * *

عاليَ البابِ. هَزَّ بابُك مِنَّا ... فسعينا. وفي النفوسِ مَرام[30]

وتجلَّيتَ، فاستلمنا، كما للنـ ... ـاسِ بالركن ذي الجلالِ استلام[31]

نستميحُ الإمامَ نصرًا لمصرٍ   مثلَما ينصرُ الحسامَ الحسام[٣٢]
فلمصرٍ — وأنت بالحبِّ أدرى —   بكَ — يا حاميَ الحمى — استعصام[٣٣]
يشهدُ الله، للنفوسِ بهذا   وكفانا أن يشهدَ العلاَّم
وإلى السيدِ الخليفةِ نشكو   جورَ دهرٍ، أحرارُه ظُلاَّم[٣٤]
وعدوها لنا وعودًا كبارًا   هل رأيت القُرى علاها الجهام؟[٣٥]
فمللنا، ولم يكُ الداءُ يحمي   أن تملَّ الأرواحُ والأجسام[٣٦]
يمنعُ القيدُ أن تقوم. فهل تا   جٌ؟ فبالتاج للبلاد قيام
فارفع الصوتَ: إنها هي مصرٌ   وارفع الصوتَ: إنها الأهرام
وارعَ مصرًا ولم تزل خيرَ زارعٍ   فلها بالذي أرتكَ زِمام
إن جهد الوفاءِ ما أنت آتٍ   فليقم في وقائك الخدَّام[٣٧]
وليصولوا بمَنْ له الدَّهرُ عبدٌ   وله السعدُ تابعٌ وغلام[٣٨]
فاللواءُ الذي تلقَّوْا رفيعٌ   والأمورُ التي تولَّوْا عِظام
مَنْ يُردْ حَقَّهُ فللحق أنصا   رٌ كثيرٌ، وفي الزمانِ كرام
لا تروقنْ نومةُ الحقِّ للبا   غي، فللحقِّ هبَّةٌ وانتقام
إنْ للوحش — والعظامُ مناها —   لمنايا أسبابُهن العظام[٣٩]
رافعَ الضادِ للسُّها، هل قَبولٌ   فيُباهي النجومَ هذا النظام؟[٤٠]
قامت الضادُ في فمي لك حُبًّا   فَهْي فيه تحيةٌ وابتسام
إن في «يلدز» الهوى لَخلال   أَنا صَبٌّ بلُطفها. مُستَهام[٤١]
قد تجلَّت لخير بدرٍ أقلَّت   في كمالٍ بدت له أعلام[٤٢]
فالزم التمَّ أيها البدرُ دومًا   والزم البدرَ أيهذا التمام[٤٣]

هوامش

(١) فرع عثمان: هو السلطان عبد الحميد.

(٢) يتيه: يتكبَّر.

(٣) إيه: اسم فعل، معناه الاستزادة من الحديث.

(٤) شاد ركنها ألف عام ومئات: أي رفع ركنها ألف عام ومئات، وهي دولة الإسلام منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام. تعيدها أعوام: أي ترجعها إلى مثل قوتها أعوام معدودة، هي التي توليت فيها أمرها.

(٥) يسأل الناس عندها: أي عند هذه الحكمة، والمعنى أن بعضهم يسأل بعضًا: هل فيهم مَنْ هو مثلك ساهر على الملك فلا تنام عليه؟

(٦) أم من الناس: أي يسألون أيضًا: أمنهم مَنْ يكون له ذكر بعدك، أنت الذي يصدر عنك القول صادقًا مطاعًا كأنه الوحي، ويصدر عنك العمل صوابًا كأنه إلهام من الله.

(٧) صدق الخلق: أي صدقوا في الحالين، فأنت الذي لا تنام عينك، وأنت القائل المصدق، والفاعل الصواب.

(٨) شرف باذخ: طويل، ويمين بسط (بضم الباء): أي مبسوطة مطلقة، كناية عن الجود والسخاء. أمر جسام. بضم الجيم: عظيم ضخم.

(٩) عمر أنت: أي أنت كعمر بن الخطاب في عدله وتقواه.

(١٠) الخصب: رغد العيش. والجنى: ما يجنى من الشجر.

(١١) وبالعفاة غرام: أي وفيه غرام العفاة. والعفاة: جمع عافٍ وهو طالب الفضل والرزق.

(١٢) من علياك. والعلياء: ما علا من الشيء.

(١٣) يهرع: يمشي إليه بسرعة. والفخام: جمع فخم. وهو العظيم القدر.

(١٤) المسرى، السريان، كما يسري الماء أو السير عامة الليل. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الكثير الملتف.

(١٥) ينظم: أي ينتظم. والسلم: ضد الحرب. والوئام: الوفاق.

(١٦) هذَّبته: أصلحته.

(١٧) لن تجلى: أي لن تنجلي، تنفرج وتنكشف.

(١٨) ليذوقنَّ: هنا قسم، أي والله ليذوقن. والضمير في هذا الفعل للجماعة، يرجع إلى القائلين الذين يدلُّ عليهم قوله «أيقولون» في البيت المتقدِّم، والمهلهل بكسر الهاء الثانية: هو عدي بن ربيعة، أخو كليب بن ربيعة، وكليب هذا كان من الرؤساء في الجاهلية، قتله جسَّاس أخو امرأته وخبرهما مشهور في أيام العرب وحروبهم، وكان المهلهل صاحب شراب وقمار ونساء، فلمَّا علم بقتل أخيه هجر النساء والغزل، وحرَّم القمار والشراب، وشغل عن هذا كله بالحرب وطلب الثأر. وإلى هذا يشير بقوله: ليذوقنَّ للمهلهل صحوا. إلخ: أي ليذوقنَّ صحوًا كصحو المهلهل، وحربًا كالحرب التي أثارها.

(١٩) الحماة: جمع حامٍ، وهو المانع الدافع. والأقسام: الأيمان: جمع قسم.

(٢٠) الذي تريد الأيادي.. إلخ أي أتوا يحثُّهم الولاء الذي تقتضيه أياديك عليهم — جمع يدٍّ. وهي النعمة — والولاء الذي يستوجبه مقامك الرفيع.

(٢١) برئت من أولئك: أي من هذه الأصناف الثلاثة. والأحلام: العقول.

(٢٢) لما تشيد: لما تبني. والثرى: التراب، وكذلك الرغام.

(٢٣) مقلٌ: جمع مقلة، وهي العين.

(٢٤) الضيم: الظلم والقهر.

(٢٥) النافرون: المتفرِّقون المتباعدون. لجوا: ادخلوا.

(٢٦) الغرض: الهدف الذي يرمي إليه.

(٢٧) المعالي: جمع معلاة (بفتح الميم) وهي الرفعة والشرف.

(٢٨) الحلم (بضم الحاء): ما يراه النائم. جمعه أحلام.

(٢٩) أندلسيًا: أي كزمان الأندلس أيام عزِّ العرب والإسلام فيها.

(٣٠) عالي الباب: أي يا من بابك العالي. هزَّ بابك منا: أي هزَّنا. وفي النفوس مرام: مطلب.

(٣١) تجلَّيت: ظهرت. والركن: ركن الكعبة. والاستلام: اللمس إمَّا بالقبلة أو باليدِّ.

(٣٢) نستميح: نسأل. والحسام: السيف.

(٣٣) الحمى: ما حُمِي من شيء. استعصام: استمساك.

(٣٤) الجور: الظلم. وظُلاَّم: جمع ظالم.

(٣٥) القرى: جمع قرية. والجهام (بفتح الجيم): السحاب لا ماء فيه، يعني أن تلك الوعود كانت كالسحاب الذي لا خير فيه.

(٣٦) ولم يك الداء ييمى.. إلخ: أي لم يكن من شأن الداء أن يمنع الأرواح والأجسام من أن تملَّه وتسأمه.

(٣٧) إن جهد الوفاء: أي غاية الوفاء. ما أنت آتٍ: أي آتيه وفاعله.

(٣٨) وليصولوا: أي وليسطوا بأمرك على مَنْ ظلموا مصر حتى يقهروهم.

(٣٩) العظام: جمع عظم. ومناها: جمع أُمنيَّة. ومنايا: جمع مَنيَّة، أي أنَّ الوحوش تجد منيتها في العظام وهي تطلبها للأكل والغذاء.

(٤٠) الضاد: اللغة العربية. والسُّها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. هذا النظام: أي الشعر.

(٤١) يلدز: قصر السلطان عبد الحميد في الآستانة.

(٤٢) أقلَّت: حملت.

(٤٣) التمُّ والتمام: الكمال.

ذكرى دنشواي[1]

يا دِنشوايَ. على رُباكِ سلامُ ... ذهبتْ بأُنسِ رُبُوعِكِ الأيامُ
شهداءُ حُكمِك في البلاد تفرَّقوا ... هيهاتَ للشملِ الشتيت نظام
مرَّت عليهم في اللحود أهلَّةٌ ... ومضى عليهم في القيودِ العام
كيف الأراملُ فيكِ بعد رجالِها؟ ... وبأيِّ حالٍ أصبح الأيتام؟
عشرون بيتًا أقفرت، وانتابَها ... بعد البشاشةِ وحشةٌ وظلام
يا ليت شعري: في البروج حمائمٌ ... أم في البروج منيَّةٌ وحِمام؟
«نيرونُ»، لو أدركتَ عهدَ «كرومرٍ» ... لعرفتَ كيف تُنفَّذ الأحكام!
نوحي حمائمَ دنشوايَ، وروِّعي ... شعبًا بوادي النيل ليس ينام
إن نامت الأحياءُ حالتْ بينه ... سَحرًا وبين فراشِه الأحلام
متوجِّع، يتمثَّلُ اليومَ الذي ... ضجَّتْ لشدَّةِ هَوله الأقدام
السوطُ يعملُ، والمشانقُ أربعٌ ... متوحِّدات والجنودُ قيام
والمستشارُ إلى الفظائع ناظرٌ ... تَدْمَى جلودٌ حوله وعِظام
في كل ناحيةٍ وكلِّ محلَّةٍ ... جزعًا من الملأ الأسيف زحام
وعلى وجوهِ الثاكلين كآبةٌ ... وعلى وجوهِ الثاكلات رغام

[1] قيلت بعد مرور عام على حادثة هذه القضية في سبيل طلب العفو عن سجنائها.

الهلال الأحمر[١]

يا قَومَ عثمان — والدنيا مداوَلةٌ —
تعاونوا بينكم يا قومَ عثمان١

كونوا الجدارَ الذي يقوى الجدارُ به
فالله قد جعل الإسلامَ بنيانا٢

أمسى السبيل لغير المحسنين دمًا
فشأنكم وسبيلاً نورُهُ بانا

البِرُّ مِنْ شُعبِ الإيمان أفَضلُها
لا يقبل اللهِ دون البرِّ إيمانا٣

هل ترحمون — لعل الله يرحمُكم —
بالبيد أهلاً، وبالصحراء جيرانا؟

في ذمَّةِ الله — أوْفَى ذمةٍ — نَفَرٌ
على طرابُلُسٍ يقضون شجعانا٤

إن سال جرحاهُمُ من غُربةٍ ووغَى
باتوا على الجمرِ أرواحًا وأبدانا٥

---

[١] كانت جماعة الهلال الأحمر المصرية قد أحيت ليلة تجمع بها التبرعات؛ لإعانة المقاتلين في طرابلس الغرب من الجيش العثماني، حين أغارت إيطاليا عليها، فقال في ذلك هذه القصيدة.

هذا يَحنُّ إلى البسفور مُحْتَضَرًا
وذاك يبكي الغَضَا، والشيح، والبانا[٦]
يُودُعون على بعدٍ ديارَهُمُ
وينشدون بُنَيَّاتٍ وصِبيانا[٧]
أذَنْبُهم عند هذا الدَّهر أنهمُ
يحمون أرضًا لهم دِيست وأوطانا؟
ماتوا، وعِرضُهم الموفورُ بعدهم
والعِرضُ لا عزَّ في الدنيا إذا هانا[٨]
قَوْمي — وجلَّت وجُوهُ القوم — مصرُ بكم
ألقت على كرماءِ الدَّهر نسيانا[٩]
لا تسألون عن الأعوان إن قعدوا
وتنهضون إلى الملهوف أعوانا[١٠]
أكلَّما هَزَّكُم داعٍ لصالحةٍ
قمتم كُهولا إلى الداعي وفتيانا؟[١١]
لو صُوَّر الشرق إنسانًا أخا كرم
لكنتمُ الروحَ، والأقوامُ جثمانا[١٢]
إذا هُزِزتم تلاقى السيفُ منصِلتاً
والريحُ مُرْسَلةً، والغيثُ هتَّانا[١٣]
إذا المكارمُ في الدنيا أُشيِدَ بها
كانت كتابًا، وكنَّا نحن عُنوانا[١٤]
إنَّ الحياةَ نهارٌ أو سحابتُه
فعِشْ نهارَك من دنياك إنسانا
أرى الكريمَ بوجدانٍ وعاطفةٍ
ولا أرى لبخيل القومِ وجدانا[١٥]

* * *

هذا الهلالُ الذي تُحيون ليلتَه
أبهى الأهلَّةِ عند اللهِ ألوانا[١٦]

أراه مـن بـيـن أعـلامِ الـوغَـى مَـلَـكًـا
ومـا سـواه مـن الأعـلامِ شـيـطـانـا[17]
فـانٍ، فـقـيـه مـن الـجَـرْحَـى مُـشـاكـلـةٌ
حتى إذا قيل ماتوا اخضرَّ رَيْحانا[18]
لـحـامـلـيـه جـلالٌ مـنـه مـقـتـبَـسٌ
كـأنـمـا رفـعـوا لـلـنـاسِ قُـرآنـا[19]
كـأن مـا احـمـرَّ مـنـه حـول غُـرَّتِـه
دمُ الـبـريء ذَكِـيِّ الـشـيَّـبِ عُـثـمـانـا[20]
كـأن مـا ابـيـضَّ فـي أثـنـاءِ حُـمـرتـه
نـورُ الـشـهـيـد الـذي قـد مـات ظـمـآنـا[21]
كـأنـه شـفـقٌ تـسـمـو الـعـيـون لـه
قـد قَـلَّـدَ الأفَـق يـاقـوتًـا ومَـرجـانـا
كـأنـه مـن دم الـعُـشـاق مـخـتـضَـبٌ
يُـثـيـرُ حـيـثُ بـدا وجـدًا وأشـجـانـا[22]
كـأنــه مــن جــمــال رائــع وهُــدًى
خـدودُ يـوسـفَ لـمَّـا عَـفَّ وَلْـهـانـا[23]
كــأنــه وردةٌ حــمــراءُ زاهــيــةٌ
في الخُلدِ قد فُتحت في كفِّ رضوانا[24]

هوامش

(١) مداولة: من داول الله الأيام بين الناس، أي صرفها بينهم.

(٢) الجدار: الحائط.

(٣) البرُّ: الخير والعطاء. والشعب: جمع شعبة، وهي غصن الشجرة، أو هي الطائفة من الشيء.

(٤) يقضون: يموتون.

(٥) جرحاهم: أي الجرحى منهم. والوغى: الحرب.

(٦) هذا يحنُّ إلى البسفور.. إلخ: أي مَنْ كان منهم تركيًا يحنُّ إلى بلاده التي كنَّى عنها بالبسفور، ومَنْ كان عربيًا بكى فرقة بلاده التي كنَّى عنها بالغضا والبان، وهما نوعان من الشجر ينبتان في بلاد العرب، والشيح: هو نبات طيب الرائحة. والمحتضر: مَنْ حضرته الوفاة.

(٧) ينشدون بنيات ... إلخ: يطالبونها ويسألون عنها، أي ينشدون بنياتهم وصبيانهم.

(٨) ماتوا وعرضهم الموفور: أي ماتوا في سبيل صيانة عرضهم، فتركوه عزيزًا موفورًا.

(٩) قومي: أي يا قومي. وجلَّت وجوه القوم: أي وجوهكم، وهذه جملة معترضة بين المنادى وما كان من أجله النداء، وهو الإخبار بأنهم لمَّا جاءوا بالخبر العظيم نُسِي سواهم من الكرماء في غير مصر، فلم يعد لهم ذكر.

(١٠) لا تسألون: أي أنتم لا تسألون. وتنهضون: تقومون. والملهوف: المظلوم المستغيث.

(١١) أكلَّما: الهمزة للاستفهام، وكلما هي لفظ «كل» مضافة إلى «ما» المصدرية الظرفية، وهي حينئذ تفيد التكرار. ولصالحة: أي فعلة صالحة. والكهول: جمع كهل، وهو الرجل من أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين.

(١٢) الجثمان: الجسم.

(١٣) السيف المنصلت: المجرَّد من غمده: والهتَّان: المنصب.

(١٤) أشيد بها: أي ذُكِرَت بالثناء عليها.

(١٥) الوجدان والعاطفة: من استعمالات المولدين؛ يراد بهما الشعور القلبي.

(١٦) الهلال: اسم لراية الدولة التركية، وهي حمراء اللون في وسطها رسم الهلال بلون أبيض.

(١٧) أراه من بين أعلام الوغى: أي من بين الأعلام المنشورة في الحرب. ومَلكا: أي كالملك في تنزُّهه وطهارة عمله، وهو واحد الملائكة.

(١٨) المشاكلة: المشابهة.

(١٩) الجلال: التناهي في عظم القدر. ومقتبس: متَّخذ ومستفاد.

(٢٠) الغرَّة: بياض في جبهة الفرس قدر الدرهم. شبَّه بها رسم الهلال لأنه أبيض. وعثمان: هو الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه).

(٢١) الأثناء: تضاعيف الشيء ومطاويه، واحدها ثني، بكسر الثاء.

(٢٢) مختضب: ملون. والوجد: الحبُّ. والأشجان: الأحزان والهموم.

(٢٣) الجمال الرائع: يروع الرائي، أي يعجبه. ويوسف: هو يوسف الصديق (عليه السلام). وعفَّ: كفَّ عما لا يحلُّ. والولهان: الحزين، أو الذي ذهب عقله حزنًا.

(٢٤) رضوان: من الملائكة، وهو — كما يقول رجال الدين — موكل بأبواب الجنة.

رومة[1]

صديقي المحترم:

صدرتُ[1] عن باريس وكأنها بابلُ ذات البرج والجسرِ وهى في دولتها، أو طيبةٌ[2] في الزمن الأول، إلا أنها مدينة الشمس، وباريس مدينة النور، أو روميةُ[3] مقرُّ القياصِر، وموحدمُ الأجناسِ والعناصر، وهي في رِفعة مُلْكِها الفاخِر، تموج بالأمم كالبحر الزاخر، أو الإسكندريةُ[4] ذاتُ المسلة — والمسلَّة في باريس — وهي في ذروة سعدها وأوج كمالها، تُغيرُ الشمس في سرير مجدها بجلالها وجمالها، أو «بغدادُ»[5] في إبَّان إقبالها، وسلطان أقيالها، وأيمنِ أمرها، وأسعدِ حالها، فسبحان المنعم، أعطى «مدينة المعرِضِ» الأسماءَ كلَّها، وجلَّت قُدرتُه، بعث المدائن في واحدة.

رحلتُ عنها في اليوم الذي أسفر صباحُه عن ليلةِ الاحتفال بتوزيع الجوائز على العارضين، وقد نالها منهم ستون ألفًا أو يزيدون، كلهم من مشهوري الصنَّاع، وكبار المخترعين، شيعوا في ذلك جنازة القرن التاسع عشر ومشى الخلائق فيها حتى دفناه، وكأنه نهار مرَّ، أو ليلة تقضَّت بالسمر،[6] ثم انقلبنا ننفض الأنامل من ترابه، ونذكر من محاسنه أنه جيلٌ واضح الغُرر والتحجيل،[7] يذكره التاريخُ بالتعظيم والتبجيل، قام العلمُ فيه على أمتن بُنيات، ورُفِعت الحجب بين الحقائق والإنسان، ضُربت له أطولُ سماءٍ من ضروب

[1] نظم صاحب الديوان هذه القصيدة، وقدَّمها بكتاب إلى صديقه المؤرِّخ الأستاذ إسماعيل بك رأفت.

العرفان، واستمدَّ من القادر[٨] مبالغ الإمكان، فاقتاد البَرَّ بشعرة، وزمَّ البحر بإبرة،[٩] وفرَق[١٠] الأرض وبلغ الجبال، وأوشك أن يمدَّ إلى السماءِ بحبال، ونفذَ على النجم المدى، ووجد على القطب هدى، وغاص على الحروب الماء، وركب إلى الوقائع الهواءَ، وكسر شِرَّة الدَّاءِ[١١] وقتل قَتَّاله وراض العياء، ودخل بصرهُ على الجسم الأحشاء، وأنطق الآلة الصمَّاء، ونقل الحديث من فضاءٍ إلى فضاء، على انقطاع الصلَّةِ بين النطق والإصغاء، وحرَّك الصُّوَر وهي هباء، إذا رأيتها حسبتها جماعة الأحياء، ونال سرائر الحوْباء،[١٢] وخاض في الطبائع[١٣] والأهواء؛ فانكشف له الغِطاء وبرح الخفاء،[١٤] ونشرَ فكاد يوحَى إليه في الإنشاء، ونظم فلم يدعْ من آية في الأرض ولا في السماء.

كل هذا أيها الأستاذ عرضته (باريسُ) للناس في خير معرضٍ أخرجِ لهم، فواهًا[١٥] له من سوق ثم ينفضُّ، ويا أسفًا على بنيانه يومَ ينقضُّ.

برحتُها وهي تجرُّ الذيلَ على المدائن الكُبَر،[١٦] وتزري بالحضارات ما حضر منها وما غبر،[١٧] وقصدت إلى رومةَ لعلي أردُّ النفسَ إلى الخشوع. وأداوي الفؤاد من نشوة اغتراره بما رأى، فبلغتها وإذا أنا بين أثر يكاد يتكلَّم، وحجرٍ كاد لكرامته يُستلم،[١٨] فوقفت أتأمل ذا الجدارَ وذا الجدار[١٩] وأنشد[٢٠] ذلك القصر وتلك الدَّار، إلى أن ثار الشعر — والشعر ابن أبوين: «التاريخ، والطبيعة» — فنظمت، وكأني بها في يديك تقرأ.

أحبُّ التوفيق إليَّ — أيها الأستاذ — إكرام العَالِم، وإجلال الصديق، وأنت لي — بحمد الله — هذان كلاهما، فهل تمنُّ بقبول هديَّة هي إلى التاريخ أدنى منها إلى الشعر؟

قِفْ بروما، وشاهد الأمرَ، واشهد	أن للمُلك مالكًا سبحانَه
دولةٌ في الثرى، وأنقاضُ مُلكٍ	هدَمَ الدَّهرُ في العُلا بنيانه[٢١]
مَزَّقت تاجَه الخطوبُ، وألقت	في الترابِ الذي أرى صولجانه[٢٢]
طللٌ، عند دِمْنةٍ، عند رسمٍ	ككتابٍ مَحا البِلى عُنوانه[٢٣]
وتماثيلُ كالحقائقِ، تزدا	دُ وضوحًا على المدى وإبانه[٢٤]
مَنْ رآها يقولُ: هذي ملوكُ	الدَّهر، هذا وقارُهم والرزانه[٢٥]

وبقايا هياكلٍ وقصورٍ   بين أخذِ البِلى ودفع المتانه[٢٦]

عبثّ الدَّهر بالحواريِّ فيها   و«بيليوس» لم يَهب أرجوانه[٢٧]

وجرت هاهنا أمورٌ كبارٌ   واصل الدهرُ بعدها جَريانه

راح دينٌ، وجاءَ دينٌ، وولَّى   مُلكُ قومٍ، وحلَّ مُلكٌ مكانه[٢٨]

والذي حصَّلَ المجدون إهرا   قُ دماءٍ خليقةٍ بالصيانه[٢٩]

ليتَ شعري: إلامَ يقتتل النا   سُ على ذي الدَّنِيَّه الفتانه؟[٣٠]

بلدٌ كان للنصارى قتادًا   صار ملْكَ القُسوس، عرش الديانه[٣١]

وشعوبٌ يمحون آيةَ عيسى   ثم يُعلون في البريَّةِ شانه

ويُهينون صاحبَ الروح ميْتًا   ويُعِزُّون بعدَه أكفانه[٣٢]

عالمٌ قُلَّبٌ، وأحلامُ خَلْقٍ   تتبارى غباوةً وفطانه[٣٣]

رومة الزهوِ في الشرائعِ، والحكـ   ـمة في الحُكم، والهوى، والمجانه[٣٤]

والتناهي، فما تعدَّى عزيزًا   فيكِ عِزٌّ، ولا مَهينًا مهانه[٣٥]

ما لحيٍّ لم يُمْسِ منكِ قبيلٌ   أو بلادٌ يُعدُّها أوطانه[٣٦]

يصبحُ الناس فيك مولى وعبدًا   ويرى عبدُكِ الورع غِلمانه[٣٧]

أين مُلكٌ في الشرقِ والغربِ عالٍ   تحسُدُ الشمسُ في الضحى سلطانه؟[٣٨]

قادرٌ، يمسخُ الممالكَ أعما   لاً، ويعطي وَسِيعَها أعوانه[٣٩]

أين مالٌ جَبَيْتِهِ، ورعايا   كلُّهم خازنٌ، وأنتِ الخزانه؟[٤٠]

أين أشرافُكِ الذين طَغَوْا في الدَّهـ   ـرِ حتى أذاقهم طغيانه؟[٤١]

أين قاضيكِ؟ ما أناخ عليه؟   أين ناديك؟ ما دَهى شيخانه؟[٤٢]

قد رأينا عليكِ آثارَ حزنٍ   ومن الدُّور ما ترى أحزانَه

أقصِري، واسألي عن الدَّهر مصرًا   هل قضتْ مَرَّتَيْن منه اللُّبانه؟[٤٣]

إنْ مَنْ فرَّق العبادَ شعوبًا   جعل القِسط بينها ميزانه[٤٤]

هبْكِ افنيتِ بالحدادِ الليالي   لن تَردِّي على الورى رومانه[٤٥]

هوامش

(١) صدرت عن باريس: رجعت وانصرفت. وبابل: مدينة قديمة بناها بختنصر في آسيا الصغرى، وكان بها بناء عظيم ذو طبقات بعضها فوق بعض، وهو ما يُسمَّى برجًا، وقالوا في صفته: إنه كان ذا طبقات، طول كل من جوانب الطبقة الأولى بلغ ٢٧٢ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وفوقها طبقة ثانية طول كل من جوانبها ٢٣٠ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا. كانت مائلة فوق الطبقة الأولى إلى الطرف الجنوبي الغربي، وكانت الطبقات الباقية موضوعة هذا الوضع، وكان طول الثالثة ١٨٨ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وكان طول الرابعة ١٤٦ والخامسة ١٠٤. والسادسة ٦٢. والسابعة ٢٠، وكان ارتفاع كل من هذه الطبقات الأربع الأخيرة ١٥ قدمًا، وأمَّا جسر بابل فيذكرون عنه أنه كان هناك نهر يشقُّ المدينة من الشمال إلى الجنوب، وكان على كل من جانبي النهر سور له باب عند منتهى كل سوق من أسواق المدينة، وكان فوق النهر جسر واحد، وهو الجسر المنسوب إلى بابل، ويذكرون لها عجائب أخرى؛ كالبساتين المعلقة وسواها.

(٢) طيبة: مدينة مصرية قديمة كانت مقرَّ الملك في بعض الأزمنة. وكانت بها عبادة الشمس؛ ولهذا سمَّاها مدينة الشمس.

(٣) رومة: عاصمة الدولة الإيطالية في هذا الزمن، وكانت مقرَّ الرومان في الزمن القديم. والقياصر: جمع قيصر، وهو لقب لكل ملك من ملوك الروم.

(٤) الإسكندرية: المدينة الثانية في الدولة المصريَّة، مشهورة في التاريخ القديم بمسلاتها العجيبة، والمسلَّة التي في باريس نقلها الفرنسيون حين أغاروا على البلاد المصرية منذ نحو قرن.

(٥) بغداد: عاصمة العراق العربي، كانت مقرَّ ملك الدولة العباسية. وسلطان أقيالها: قوَّة ملوكها. وأيمن أمرها: أي أتمُّ أمرها يمنًا وبركة.

(٦) السمر: حديث الليل.

(٧) الغرر: جمع غرَّة، وهي بياض قدر الدرهم في جبهة الفرس. والتحجيل: بياض في قوائم الفرس أيضًا.

(٨) القادر: اسم من أسماء الله تعالى.

(٩) زمَّ البحر. من قولهم زمَّ الشيء، إذا شدَّه وجمعه.

(١٠) فرق الأرض، بتخفيف الراء: فصلها وأبان مسالكها.

(١١) الداء العياء: الذي لا برء منه.

(١٢) السرائر: جمع سريرة، وهي السرُّ الذي يكتم. والحوباء: النفس.

(١٣) الطبائع: جمع طبيعة، وهي السجيَّة التي جُبِلَ عليها الإنسان، وقيل: هي القوة السارية في الأجسام، التي بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعي.

(١٤) برح الخفاء: أي وضح.

(١٥) واهًا: كلمة للتعجُّب من طيب كل شيء. أي ما أطيبه، وتكون للتلهُّف، وللتفجُّع أيضًا، يقال: واهًا على ما فات.

(١٦) الكبر: جمع كبرى.

(١٧) تزري: تضع منها أو تصغر شأنها. وما غبر: ما مضى.

(١٨) استلم الحجر: لمسه بالقبلة أو باليدِّ.

(١٩) الجدار: الحائط.

(٢٠) أنشد ذلك القصر.. إلخ: اسأل عنه، أو اطلبه.

(٢١) الثرى: التراب. والأنقاض: جمع نقض، بضم النون، وهي ما انتقض من البنيان. والعلا: الرفعة والشرف.

(٢٢) الصولجان: هو المحجن، وهو عصا منعطفة الرأس.

(٢٣) الظلل: ما شخص من آثار، والدمنة: آثار الدِّيار أيضًا. والرسم: ما كان لاصقًا بالأرض من آثار الدار.

(٢٤) تماثيل: جمع تمثال: بكسر التاء. والإبانة: الإيضاح.

(٢٥) الوقار والرزانة: بمعنى واحد، وهو الحلم والعظمة.

(٢٦) هياكل: جمع هيكل، وهو هنا إمَّا البناء المرتفع، وإمَّا بيت الأصنام:

(٢٧) الحواري: الناصر، والناصح أيضًا. ويليوس: هو يليوس قيصر أحد قياصرة الرومان الأقدمين. والأرجوان: صبغ أحمر، وقيل هو الحمرة من الألوان، والمراد به هنا الدمُّ لحمرته، كناية عن القوَّة التي يستحلُّ صاحبها سفك الدماء.

(٢٨) راح دين: ذهب، وهو دين الرومان قبل النصرانية. وجاء دين: وهو النصرانية. وولَّى ملك الرومان الأقدمين، وحلَّ مكانه ملك الغالبين بعد ذلك التاريخ.

(٢٩) والذي حصَّل المجدُّون.. إلخ! أي أن أولئك الذين سعوا بالحرب والقتال؛ ليحلوا في رومة دينًا بدل دين، ويقيموا ملكًا جديدًا على أنقاض ملك ذاهب، لم يجنوا من ذلك كله ثمرة إلاَّ إراقة دماء البشر التي تستحق الصيانة والحفظ.

(٣٠) الدنيَّة الفتَّانة: هي الدنيا.

(٣١) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر، والمراد أن وصولهم إليه كان صعبًا شاقًا، كالمشقَّة التي يجدها الإنسان من القتاد في خرطه وإشاكته.

(٣٢) المعنى في هذا البيت والبيت الذي قبله أنهم يخالفون شريعة عيسى، بينما يدَّعون تعظيمه.

(٣٣) القلَّب — بتشديد اللام: المحتَّل.

(٣٤) الزهو: المنظر الحسن والكبر، والتيه: الفخر. والمجانة: الهزل.

(٣٥) التناهي: بلوغ النهاية. فما تعدى عزيزًا.. إلخ أي إنك بلغت النهاية في كل شيء، فمَنْ كان فيك عزيزًا لم يفته شيء من أسباب العزِّ، ومَنْ كان مهينًا لم يفته شيء من موجبات المهانة.

(٣٦) أي لم يكن لغير أهلك عشيرة يعتزُّون بها، ولا بلاد يتَّخذونها وطنًا يلجئون إليه؛ لأنك أسقطت العشائر والعصبيات، وغلبت الجميع على أوطانهم.

(٣٧) يصبح الناس فيك. إلخ: يعني أن أهلك كانوا سادة وعبيدًا، وكان للعبيد على الأجانب عزُّ السادة وسلطانهم.

(٣٨) سلطانه: قوته.

(٣٩) قادر: وصف للملك في البيت المتقدِّم. ويمسخ الممالك أعمالاً: أي يحولها أعمالاً. والأعمال ما تكون من البلاد تحت حكم المملكة ومضافًا إليها.

(٤٠) جبيته: جمعته.

(٤١) الأشراف: جمع شريف، وكان في رومة لعهدها القديم طائفة الأشراف تسوَّدت على مَنْ عداها؛ ونشأ بذلك في الشعب فريقان منفصلان: هما فريق السادة المسيطرين، وفريق العامة المسخَّرين.

(٤٢) أين ناديك: المراد به دار ندوة الرومان، وكانت هي ما نُسمِّيه الآن في النظم الدستورية مجلس الشيوخ. وما دهى: ما أصاب. وشيخانه: جمع شيخ، وهو الرجل تتألف منه ومن سواه جماعة المجلس.

(٤٣) أقصري: أي انتهي عند هذا الحدِّ وأمسكي عن الاسترسال. واللبانة: الحاجة.

(٤٤) القسط: العدل.

(٤٥) هبك: اسم فعل، أي افرضي أنك أفنيت ... إلخ.

على قبر نابليون

قِف على كنزٍ بباريسَ دفينْ … من فريد في المعاني وثمين

وافتقد جوهرةً من شرف … صَدَفُ الدَّهر بِتربَيْها ضنين[1]

قد توارت في الثرى، حتى إذا … قَدُم العهدُ توارت في السنين

غرَّبَت حتى إذا ما استيأست … دنتِ الدارُ، ولكن لاتَ حين

لم تُذِبْ نارُ الوغى ياقوتَها … وأذابته تباريحُ الحنين[2]

لا تلوموها، أليست حُرَّةً … وهوى الأوطانِ للأحرار دين؟

* * *

غيَّبتْ باريسُ ذخرًا، ومضى … تُرْبُها القيِّمُ بالحرزِ الحصين[3]

نزلَ الأرضَ، ولكن بعدما … نزلَ التاريخَ قبرَ النابغين

أعظُمُ الليثِ تلقَّاها الثَّرى … ورفاتُ النسرِ حازته الوكون[4]

وحوَى الغِمدُ بقايا صارمٍ … لم تُقلِّب مثلَه أيدي القُيون[5]

شيَّد الناسُ عليه، وبَنوْا … حائطَ الشكِّ على أُسِّ اليقين[6]

لستَ تُحصِي حولَه ألوِيةً … أُسِرَت أمسِ، وراياتٍ سُبين[7]

نامَ عنها وهي في سُدَّتِهِ … ديْدَبانٌ ساهِرُ الجَفْنِ أمين

وكأيَّ من عدوًّ كاشِحٍ … لك بالأمس هو اليومَ خَدين[8]

ووليٌّ كان يسقيك الهوى … عسلاً قد بات يسقيك الوزين[9]

فإذا استكرمتَ وُدًّا فاتَهم … جوهرُ الودِّ — وإن صَحَّ — ظنين[10]

***

مَـرْمَـرٌ أَضْـجِـعَ فـي مـسـنـونِـهِ حَـجـرُ الأرض وضِـرغـامُ الـعَـريـن[١١]
جـلَّـلـتْـه هـيـبَـةُ الـثـاوي بـه رَوعةَ الحكمةِ في الشعر الرصين[١٢]
هـل دَري الـمـرمـرُ مـاذا تـحـتـه من قُوَى نفسٍ، ومن خَلق متين؟
أيـهـا الـغـالـون فـي أجـداثـهـم ابحثوا في الأرض: هل عيسى دفين؟[١٣]
يـمَّـحِـي الـمـيْـتُ، ويـبـلَـى رمسُـه ويَـغـولُ الـربـعَ مـا غـالَ الـقـطـين[١٤]
حـصَّـنـوا مـا شـئـتـمُ مـوتـاكُـم! هل وراءَ الموتِ من حصنٍ حصين؟
ليس في قبرٍ — وإن نال السُّها — مـا يـزيـد الـمـيـتَ وزنًـا ويـزيـن[١٥]
فـانـزل الـتـاريـخَ قـبـرًا، أو فـنـمْ في الثرى غُفْلاً كبعضِ الهامدين[١٦]
واخـدَع الأحـيـاءَ مـا شـئـتَ، فـلـن تـجـدَ الـتـاريـخ فـي الـمـنـخـدعـين!

***

يـا عـصـاميًـا حـوى الـمـجـد سـوَى فَضلةٍ قد قُسِّمت في المُعرقين[١٧]
أُمُّـكَ الـنـفـسُ قـديـمًـا أكْـرَمـتْ وأبـوكَ الـفـضـلُ خـيرُ المُـنجـبين[١٨]
نَـسـبُ الـبـدرِ أو الـشـمـسِ — إذا جِـيءَ بـالآبـاءِ — مـغـمـورٌ رهـيـن
وأصـولُ الـخـمـر مـا أزكـى عـلـى خُـبْـثِ مـا قـد فـعـلَـت بـالـشـاربـين
لا يـقـولَـنَّ أمْـرُؤ: أصْـلِـي، فـمـا أصلُـه مـسـكٌ وأصـل الـنـاس طـين
قـد تـتـوجْـتَ، فـقـالـت أمَـم: ولَـدُ الـثـورةِ عـقَّ الـثـائـريـن
وتـزوَّجـتَ، فـقـالـوا: مَـالَـه ولـحـورٍ مـن بـنـات الـمـلْـكِ عِـين؟[١٩]
قـسـمًـا لـو قـدَروا مـا احـتـشـمـوا لا يَـعِـفُّ الـنـاسُ إلا عـاجـزين

***

أرأيـتَ الـخـيـرَ وافـى أمَّـةً لم ينالوا حظَّهم في النابغين؟
يـصـلُـحُ الـمـلْـكُ عـلـى طـائـفـةٍ هم جمالُ الأرض حينًا بعد حين
مَـلَـئـوا الـدنـيـا، عـلـى قِـلَّـتـهـم وقـديـمًـا مُـلـئـتْ بـالـمـرسَـلـين
يـحـسُـنُ الـدَّهـرُ بـهـم مـا طـلـعـوا وبـهـم يـزدادُ حـسـنًـا آفـلـين[٢٠]
قـد أقـامـوا قـدوةً صـالـحـةً ومـضـوْا أمـثـلـةً لـلـمـحـتـذِيـن

إنما الأسوةُ — والدنيا أسًى — سببُ العُمران، نظمُ العالَمين[٢١]
يا صريعَ الموتِ ندمانَ البِلى كلُّ حيٍّ بالذي ذُقت رهين[٢٢]
كِدْتَ من قْتل المنايا خبرةً تعلمُ الآجالَ أيَّانَ تحين؟[٢٣]
يا مبيدَ الأُسْدِ في آجامها هل أبادت خيلُكَ الدودَ المهين؟
يا عزيز السجن بالبابا، إلى كم تردَّى في الثرى ذلَّ السجين؟[٢٤]
رُبَّ يومٍ لكَ جَلَّى وانثنى سائلَ الغُرَّةِ ممسوحَ الجبين[٢٥]
أحرز الغايةَ نصرًا غاليًا لفرنسا، وحوى الفتحَ الثمين
قيصرا الأنسابِ فيه نازَلاَ قيصَر النفسِ عصامَ المالكين[٢٦]
مُجلِسَ التاج على مفرِقه بيديه، لا بأيدي المُجلسين[٢٧]
حولَ (استرلتزَ) كان المنتقى واصطدامُ النَسرِ بالمستنسِرين[٢٨]
وُضِع الشطرنْجُ، فاستقبلْتَه ببنانٍ عابث باللاعبين
فإذا المَلْكان: هذا خاضعٌ لك في الجمعِ، وهذا مُستكين[٢٩]
صِدْتَ شاهَ الروسِ والنمسا معًا مَنْ رأى شاهَيْنِ صِيدا في كمين؟

***

يا مُلَقَّى النصر في أحلامِه أين من وادي الكرى (سنِت هلين)؟[٣٠]
يا مُنيلَ التاجِ في المهد ابنَه ما الذي غرَّك بالغيبِ الجنين؟[٣١]
اتَّئِدْ في أمَّةٍ أرْهَقتَها إنها كالناسِ من ماءٍ وطين
أتعبَ الريحَ مَدَى ما سَلكتْ من سُهولٍ وأجازت من حُزون[٣٢]
من أديم يَهْرَأُ الدبَّ، إلى فلواتٍ تُنضِجُ الضَّبَّ الكنين[٣٣]
لك في كلِّ مُغارٍ غارةٌ وعليها الدمعُ فيه والأنين[٣٤]
ومن المكرِ تَغنِّيك بها هل يُزَكِّي الذَّبحَ غيرُ الذابحين؟[٣٥]
سُخِّرَ الناسُ وإن لم يشعروا لقوَّي، أو غنيَّ، أو مُبين
والجماعاتُ ثنايا المرتقى في المعالي، وجُسورُ العابرين

***

يا خَطيبَ الدَّهرِ، هل مال البِلى بلسان كان ميزانَ الشئون؟
تُرْجَحُ السلمُ إذا حرَّكتَه كِفَّةْ، أو تُرْجَحُ الحربُ الزَّبون

خُطَبٌ لا صوتَ إلاَ دونَها ... في صداها الخيلُ تجري والسنين
من قَصيرِ اللفظِ، في مكرِ النُّهى ... وطويلِ الرُّمح، في كيدِ الوتين
غيرَ وضَّاعٍ، ولا واشٍ، ولا ... مُنكرِ القولِ، ولا لغو اليمين
سِرْن أمثالاً، فلو لم يُحيهِ ... سيفُهُ أحْيينَه في الغابرين[٣٦]

* * *

قُمْ إلى الأهرام، واخشعْ، واطَّرحْ ... خَيْلَةَ الصيَّدِ، وزهوَ الفاتحين[٣٧]
وتمهَّلْ، إنما تمشي إلى ... حَرَمِ الدَّهر ومحرابِ القرون
هو كالصخرةِ عند القبط، أو ... كالحَطِيم الطُّهْرِ عند المسلمين
وتسنَّم مِنْبَرًا من حَجَرٍ ... لم يكنْ قبلَكَ حظَّ الخاطبين
وادْعُ أجيالاً تولَّتْ يسمعوا ... لك، وابعث في الأوالي حاشرين
وأَعِدْها كلماتٍ أربعًا ... قد أحاطت بالقرون الأربعين[٣٨]
ألهبت خيلاً، وحضَّت فَيْلَقًا ... وأحالت عسلاً صابَ المَنون
قد عَرَضْتَ الدهرَ والجيشَ معًا ... غايةٌ قصَّرَ عنها الفاتحون
ما علمنا قائدًا في موْطِنٍ ... صَفحَ الدَّهرَ، وصفَّ الدارعين[٣٩]
فترى الأحياءَ في معتَرِكٍ ... وترى الموتى عليهم مُشرِفين
عظةٌ قومي بها أولى وإن ... بُعد العهدُ، فهل يعتبرون؟
هذه الأهرامُ تاريخُهمُ ... كيف من تاريخهم لا يستحون؟

* * *

يا كثيرَ الصيَّدِ للصِّيد العُلا ... قُمْ تأمَّلْ: كيف صادتْك المَنون؟
قمْ تَرَ الدنيا كما غادرتَها ... منزلَ الغدر وماءَ الخادعين
وتَرَ الحقَّ عزيزًا في القنا ... هيَّنًا في العُزَّل المستضعفين[٤٠]
وترَ الأمرَ يدًا فوق يدٍ ... وترَ الناسَ ذئابًا وضئين[٤١]
وترَ العزَّ لسيف نَزِقٍ ... في بناء الملك، أو رأي رزين
سننٌ كانت، ونَظْمٌ لم يزلْ ... وفسادٌ فوق باعِ المصلحين

هوامش

(١) التِّرب: اللِّدة والنظير، والتثنية هنا في معنى الإفراد.

(٢) تباريح الشوق: توهُّجه، على أنه جمع لا مفرد له، أو هو جمع تبريج.

(٣) الحرز: الموضع الحصين.

(٤) الشرى: مأسدة بجانب الفرات يُضرب بها المثل. والوكون: جمع وكن، وهو عشُّ الطائر في جبل أو جدار.

(٥) الصارم: السيف القاطع. والقيون: جمع قين وهو صانع الحديد. والشرى والوكون والغمد: كلها في هذين البيتين كنايات عن باريس.

(٦) حائط الشكِّ: كناية عن القبر. وأُسُّ اليقين: هو الموت الذي يتمثل فيها ضمُّ القبر من رفات.

(٧) يشير إلى تلك الأعلام التي غنمها نابليون في حروبه، ثم وُضِعَت على قبره، رمزًا لما نال في هذه الحروب من نصر وتوفيق.

(٨) العدو الكاشح: هو الباطن العداوة. والخدين: هو الصاحب والحبيب.

(٩) الوزين: حَبُّ الحنظل المطحون.

(١٠) الظنين: المتهم.

(١١) المرمر المسنون: المصقول. وحجر الأرض: كناية عن محورها، والمراد به نابليون. والضرغام: الأسد.

(١٢) الثاوي: المقيم.

(١٣) الغالون: جمع غالٍ، وهو المسرف.

(١٤) يمحي: أي يزول. والرمس: القبر. والقطين: السُكَّان.

(١٥) السُّها: كوكب من بنات نعش الصغرى، يُضْرَبُ به المثل في السمو والارتفاع.

(١٦) غفلاً: أي مجهولاً.

(١٧) الفضلة: البقية من كل شيء. والمعرَّق: العريق الأصل.

(١٨) أكرمت: أي ولدت كرامًا.

(١٩) يشير إلى زواجه من ماري لويز ابنة إمبراطور النمسا.

(٢٠) أفول النجم: غروبه، والمراد به هنا الموت.

(٢١) الأسوة: القدوة وجمعها أُسى.

(٢٢) الندمان: النديم على الشراب وندمان البلى: كناية عن الميت.

(٢٣) يشير إلى قول نابليون: «إنَّ الرصاصة التي تخرق هذا الصدر لم تخلق بعد» يقول: إنك لكثرة ما اختبرت المنايا بقتل أعدائك أصبحت تعرف متى تحين الآجال.

(٢٤) يشير إلى ما فعل نابليون بالبابا.

(٢٥) جلى: سبق، والغرَّة — في جبين الفرس: بياض. ومسح الجبين: عادة لسوَّاس الخيل يأتونها بعد سبق جيادهم في حلبة الرهان. ولا يخفى ما في البيت كله من مراعاة النظير.

(٢٦) يريد بقيصري الأنساب: ملكي الروسيا والنمسا، وقد ولدا للملك والسلطان. وقيصر النفس نابليون، وهو الذي سوَّد نفسه ولم تسوِّده الأنساب.

(٢٧) الإشارة إلى نابليون، يشير إلى أنه هو الذي توَّج نفسه بيده يوم قُدِّم إليه التاج، ولم ير لأحد ممَنْ قدَّموه له حقًا في هذا العمل.

(٢٨) استرلتز: موقعة من المواقع التي انتصر فيها نابليون.

(٢٩) الملك: بتسكين اللام، هو الملك.

(٣٠) سانت هيلين: الجزيرة التي نُفِي إليها نابليون.

(٣١) يشير إلى قول نابليون يوم بُشِّر بولي عهده أو كما سمَّاه «ملك روما» المستقبل لي.

(٣٢) الحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض.

(٣٣) الأديم هنا: سطح الأرض. وهرأ اللحم: أنضجه. والكنين: المستور في جحره.

(٣٤) المغار: الغارة على الأعداء. والغار: ورق الكروم، وقد كان يُتَّخذُ منه إكليل للفاتح المنصور عند القدماء.

(٣٥) التزكية: المدح. والذبح: ما يذبح.

(٣٦) الغابر: الماضي والآتي، من أسماء الأضداد.

(٣٧) الصيد: الملوك.

(٣٨) يشير إلى تلك الجملة المشهورة التي قالها وهو على قمة الهرم يشجِّع جنوده البواسل: «أيها الجنود: أنَّ أربعين قرنًا تنظر إليكم من قمة الأهرام».

(٣٩) صفح الكتاب: قلب صفحاته.

(٤٠) القنا: جمع قناة، وهي الرمح.

(٤١) الضئين: الغنم.

تكريم[1]

وطـنٌ يـرفُّ هـوًى إلـى شُـبَّـانـه　　كـالـرَّوض رِفَّـتـه عـلـى رَيـحـانـه[1]
هـم نَظْمُ حِـلـيِـتـه، وجَـوهـرُ عِـقـدهِ　　والـعِـقـد قـيـمـتُـه يـتـيـمُ جُـمـانـه[2]
يـرجـو الـربـيـعَ بـهـم ويـأمـلُ دولـةً　　مـن حـسِـنـه، ومـن اعـتـدالِ زمـانـه[3]
من غاب منهم لم يغب عن سَمعِه　　وضـمـيـرِه، وفـؤادِه، ولـسـانـه
وإذا أتـاه مـبـشـرًّ بـقـدومِـهـم　　فـمـن الـقـمـيـص ومـن شـذى أردانـه[4]
ولـقـد يـخُـصُّ الـنـافـعـين بـعـطـفِـه　　كـالـشـيـخ خَـصَّ نـجـيـبَـه بـجـنـانـه[5]
هـيـهـات يـنـسَـى بـذلَـهـم أرواحَـهـم　　فـي حـفـظِ راحـتِـه وجـلـب أمـانـه
وقـفـوا لـه دون الـزمـانِ ورَيـبِـه　　ومـشـت حـداثـتُـهـم عـلـى حـدَثـانـه[6]
فـي شـدَّةٍ نُـقـلَـتْ أنـاةُ كُـهـولِـه　　فـيـهـا، وحـكـمـتُـهـم إلـى فـتـيـانـه[7]

***

قُمْ يا خطيبَ الجمع، هات من الحلى　　مـا كـنـتَ تـنـشـرُه عـلـى آذانـه
فـلـطـالـمـا أبـدى الـحـنـيـنَ لـقـسَّـه　　واهـتـزَّ أشـواقًـا إلـى سَـحـبـانـه[8]
نـادِ الـشـبـابَ، فـلـم يـزلْ لـك نـاديًـا　　والـمـرءُ ذو أثـر عـلـى أخـدانـه[9]

[1] نظم صاحب الديوان هذه القصيدة الاجتماعية في احتفال تكريمي أقيم للأساتذة: عبد الملك حمزة، وإسماعيل كامل، وعوض البحراوي، في فندق شبرد.

أُمْدُدْ حُداءَك في النَّجائبِ تنصرفْ   بهوى أعنَّتِهَا إلى تحنانه[10]
أَلْقِ النصيحةَ غيرَ هائبِ وقعِها   ليس الشجاعُ الرأْيِ مثلَ جبانه
قُلْ للشباب: زمانُكم مُتحرِّك   هل تأخذون القسطَ من دورانه؟[11]
قمتم على الأحلامِ تلتزمونَها   كالعالمِ الخالي على أوثانه[12]
وتُنازِعون الحيَّ فضلَ ثيابه   والميْتَ ما قد رثَّ من أكفانه
ولقد صدقتم هذه الأرضَ الهَوى   والحرُّ يصدُق في هَوى أوطانه
أملٌ بذلتم كلَّ غالٍ دونَه   وفقدتمُ ما عزَّ في وجدانه[13]
الليثُ يدفعكم بشدَّةِ بأسه   عنه، ويطعِمُكم بفرط لِبانه[14]
يريد هذا الطيرَ حرًّا مطلقًا   لكن بأعْيُنِه وفي بُستانه

* * *

أوفدتمُ وفدًا، وأوفد ربُّكم   معه العنايةَ، فهْي من أعوانِه
العصرُ حرٌّ، والشعوبُ طليقةٌ   ما لم يَحُزْها الجهلُ في أرسانه[15]
فاضَ الزَّمانُ من النبوغِ، فهل فتى   غمَرَ الزَّمانَ بعلمه وبيانه؟
أين التجارةُ وهي مضمارُ الغنى؟   أين الصناعةُ وهي وجهُ عَنانه؟[16]
أين الجوادُ على العلوم بماله؟   أين المشاركُ مصرَ في فدانه؟[17]
أين الزراعةُ في جنانٍ تحتكم   كخمائل الفردوس أو كجِنانه؟[18]
أئذا أصاب القطنَ كاسدُ سوقِه   قمنا على ساقٍ إلى أثمانه؟
يا مَنْ لشعبٍ رزؤه في مالِه   أنساه ذكرَ مصابِه بكيانه؟[19]
الملكُ كان، ولم يكن قطنٌ، فلم   يُغلَب أُبوَّتُنا على عُمرانه[20]
(الفاطميةُ) شيَّدت من عزِّهِ   وبَنَى (بنو أيوبَ) من سلطانه[21]
بالقطنِ لم يرفعْ قواعدَ مُلكه   فرعونُ، والهرمان من بنيانه
لكن بأوَّلِ زارعٍ نقض الثَّرى   بذكائه، وأثاره ببنانه[22]
وبكلِّ مُحسنِ صنعةٍ في دهرِه   تتعجبُ الأجيالُ من إتقانه
وبهمةٍ في كلِّ نفسٍ حلَّقت   في الجوِّ. وارتفعت على كيوانه[23]
ملكٌ من الأخلاقِ كان بناؤه   من نحت أوَّلكم ومن صَوَّانه[24]
فأْتوا الهياكلَ إن بنيتم، واقبسوا   من عرشه فيها، ومن تِيجانه

هوامش

(١) يرف هوى إلى شبَّانه: يرتاح إليهم. والرَّوض: الأرض المخضرَّة بالنبات. جمع روضة.

(٢) نظم حليته: جمعها وضم بعضها إلى بعض. واليتيم: الثمين الذي لا نظير له. والجُمان: اللؤلؤ. واحدته: جمانة.

(٣) يرجو الربيع.. إلخ: أي إن هذا الوطن يرجو أن يكونوا له مثل الربيع، وهو خير فصول السنة، ويأمل أن تقوم له دولة منهم، لها من الحسن والاعتدال ما يكون منها للربيع وزمنه.

(٤) وإذا أتاه مبشِّر.. إلخ: أي إذا أتى الوطن مبشر بأنهم قادمون عليه من غيبتهم، كان تأثير هذه البشرى فيه كتأثير قميص يوسف في أبيه يعقوب. والشَّذى: قوة ذكاء الرائحة. والأردان: جمع ردن، وهو أصل الكم.

(٥) يخصُّ النافعين بعطفه: يفردهم به. والنجيب: الولد كرم حسبه وحمد رأيه أو قوله أو فعله.

(٦) الحداثة: صغر السن. والحدثان (بفتح الدال): نوائب الدَّهر.

(٧) الأناة: الحلم والوقار.

(٨) قسُّ بن ساعدة: خطيب عربي من نجران يُضْرَبُ المثل ببلاغته. وسحبان: خطيب كذلك، وهو من وائل، والضمير فيها للوطن.

(٩) الشباب: جمع شاب. والأخدان: الأصدقاء، جمع خدن.

(١٠) الحُداء: الغناء للإبل لتنشط في مسيرها. والنجائب: النياق الكريمة. والأعنَّة: جمع عنان، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة. والتحنان: الحنين.

(١١) القسط: النصيب.

(١٢) الأحلام: جمع حلم، وهو ما يراه النائم. والخالي: الماضي. والأوثان: جمع وثن: وهو ما يتخذ للعبادة من حجر ونحوه.

(١٣) وجدان الشيء: إدراكه والظفر به.

(١٤) اللبان: اللبُّ.

(١٥) الأرسان: جمع رسن، وهو الزمام يكون على أنف الدابة.

(١٦) العنان (بفتح العين): السحاب.

(١٧) الجواد: الكريم الكثير الجود.

(١٨) الجنان: جمع جنة. والخمائل: جمع خميلة، وهي الشجر الكثير الملتف. والفردوس: الجنة أو نعيمها.

(١٩) يامن لشعب.. إلخ: كان قد لحق القطن كساد عظيم؛ فارتاع له المصريون جميعًا. وكاد يشغلهم أمره عن الجهد في قضية الاستقلال، فهو يشير إلى ذلك.

(٢٠) أبوتنا: آباؤنا.

(٢١) الفاطميَّة: أي الخلفاء الفاطميون، أو الدولة الفاطمية، وهي إحدى الدول التي قامت في مصر بعد الإسلام، ومؤسسها المعزُّ لدين الله، قدم من بلاد المغرب ففتح مصر، وكانت دولتهم عزيزة الجانب مرهوبة السلطان. وبنو أيوب أيضًا: مؤسسو الدولة الأيوبية، وكان أعظمهم شأنًا السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي.

(٢٢) الثرى: التراب، والمراد به الأرض. ونقضها: أي شقُّها للزرع. والبنان: أطراف الأصابع.

(٢٣) حلَّقت: من حلَّق الطائر، إذا ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة. وكيوان: اسم زحل بالفارسية.

(٢٤) الصَوَّان (بفتح الصاد وتشديد الواو): ضرب من الحجارة شديد.

اعتداء[1]

نـجَـا وتَـمَـاثَـلَ رُبَّـانُـهـا ودقَّ الـبـشـائـرَ رُكْـبـانُـهـا[1]

وهـلَّـل فـي الـجـوِّ قـيْـدومُـهـا وكـبَّـر فـي الـمـاءِ سُـكَّـانـهـا[2]

تـحـوَّل عـنـهـا الأذى، وانـثـنـى عُـبـابُ الـخـطـوبِ وطـوفـانـهـا

نجا (نوحُها) من يدِ المعتدي وضـلَّ الـمـقـاتـلَ عُـدْوانـهـا[3]

يـدٌ لـلـعـنـايـةِ، لا يـنـقـضـي — وإن نَفد العُمرُ — شُكرانها

وقـى الأَرضَ شـرَّ مـقـاديـرِه لـطـيـفُ الـسـمـاءِ ورَحْـمَـانـهـا[4]

ونـجَّـى الـكـنـانـةَ مـن فـتـنـةٍ تـهـدَّدتِ الـنـيـلَ نـيـرانـهـا[5]

يـسـيـلُ عـلـى قـرنِ شـيـطـانـهـا عـقـيـقُ الـدِّمـاءِ وعِـقـيـانـهـا[6]

فيا (سعدُ)، جُرحُك ساءَ الرجالَ فـلا جُـرحَـتْ فـيـك أوطـانـهـا

وقَـتْـكَ الـعـنـايـةُ بـالـرَّاحَـتـيـنِ وطَـوَّقَ جـيـدَك إحـسـانـهـا[7]

مـنـايـا أبـى الـلـه إذ سـاورتـكَ فـلـم يُـلْـقِ نـابْـيـه ثُـعـبـانـهـا[8]

[1] اعتزم سعد زغلول السفر إلى إنجلترا للمفاوضة مع حكومتها، وكان على رأس الوزارة المصرية يومئذٍ؛ فترصَّد له شابٌ وأطلق عليه النار، ولكن الله أنجى حياته، ووقى البلاد شرَّ فتنةٍ كادت تعصف بين الأحزاب؛ فنظم صاحب الديوان هذه القصيدة تهنئة له، ونصيحة لأهل النزق والطيش من الشبان، وحضًا على الإصلاح العملي، وتذكيرًا بمنزلة السودان وقناة السويس، اللذين هما من مصر بمنزلة الرُّوح من الجسد.

حَوَتْ دَمكَ الأرضُ في أنفِها زكيًّا، كأنك (عثمانها)[٩]
ورقَّت لآثاره في القميص كأن قميصَك قرآنها
ورِيعَتْ كما ريعت الأرضُ فيك نواحي السماءِ وأعنانها[١٠]
ولو زُلتَ غُيَّبَ (عَمْرُو) الأمورِ وأخلى المنابرَ (سَحبانها)[١١]

* * *

رماكَ على غِرَّةٍ يافِعٌ مُثارُ السريرةِ غضبانها[١٢]
وِقْدمًا أحاطت بأهلِ الأمورِ ميولُ النفوسِ وأضغانها[١٣]
تلمَّسَ نفسَك بين الصفوفِ ومن دونِ نفسِكَ إيمانها[١٤]
يريدُ الأمورَ كما شاءَها وتأبى الأمورُ وسلطانها
وعند الذي قهر القَيْصَرَيْنِ مصيرُ الأمور وأحيانها[١٥]
ولو لم يسابق دروسَ الحياةِ لبصَّره الرُّشدَ لقمانها[١٦]
فإن الليالي عليها يَحُول شعورُ النفوس ووجدانها[١٧]
ويختلف الدَّهرُ حتى يَبينَ رُعاةُ العهودِ وخُوَّانها[١٨]

* * *

أرى مصرَ يلهو بحدَّ السلاح ويلعبُ بالناب ولدانها[١٩]
وراح بغير مجال العقول يُجيل السياسةَ غلمانها
وما القتلُ تحيا عليه البلاد ولا همةُ القولِ عمرانها
ولا الحكمُ أن تنقضي دولةٌ وتُقبِلَ أخرى وأعوانها
ولكن على الجيش تقوى البلادُ وبالعلم تشتدُّ أركانها
فأين النبوغ؟ وأين العلوم؟ وأين الفنون وإتقانها؟
وأين من الخُلْق حظُّ البلادِ إذا قتل الشيبَ شبانها؟[٢٠]
وأين من الرّبح قسطُ الرجال إذا كان في الخُلْقِ خسرانها؟
وأين المعلِّمُ؟ ما خطبُه؟ وأين المدارسُ؟ ما شأنها؟
لقد عبثت بالنيَّاق الحداةُ ونام عن الإبْل رُعيانها[٢١]
إلى الخُلْقِ أَنظرُ فيما أقول وتأخذُ نَفسَي أشجانها

* * *

ويا (سعدُ) أنت أمينُ البلاد　　قد امتلأت منك أَيْمَانها[22]
ولن ترتضي أن تُقدَّ القناة　　ويُبْتَرَ من مصرَ سوادنها[23]
وحُجَّتُنا فيهما كالصباح　　وليس بمُعييك تبيانها[24]
فمصرُ الرِّياضُ، وسوادنها　　عيون الرِّياضِ وخلجانها[25]
وما هو ماءٌ، ولكنَّه　　وريدُ الحياةِ وشِريانها[26]
تُتمِّمُ مصرَ ينابيُعه　　كما تممَ العينَ إنسانها[27]
وأهلوه منذ جرى عذْبُه　　عشيرة مصرَ وجيرانها
وأمَّا الشريكُ فِعلاَّته　　هي الشَّركاتُ وأقطانها
وحربٌ مَضَتْ نحن أوزارُها　　وخيلٌ خَلَتْ نحن فرسانها[28]
وكم مَنْ أتاك بمجموعة　　من الباطل، الحقُّ عنوانها
فأين من (المَنشِ) بحرُ الغزالِ　　وفيض (نيانزا) وتهتانها؟[29]
وأين التماسيحُ من لُجَّةٍ　　يموتُ من البردِ حيتانها![30]
ولكنْ رءُوسٌ لأموالهم　　يحرِّك قَرْنَيه شيطانها
ودعوى القويِّ كدعوى السباع　　من النابِ والظفْرِ بُرهانها

هوامش

(١) تماثل العليل: أقبل وقارب البرء. والرَّبَّان: مجري السفينة.
(٢) هلل: قال لا إله إلا الله. وقيدومها: صدرها. وسكانها — بضم السين — ذنبها.
(٣) المقاتل: جمع مقتل: وهو العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم.
(٤) المقادير: جمع مقدور، وهو الأمر المحتوم. والضمير للطيف السماء وهو الله تعالى.
(٥) الكنانة: مصر.
(٦) العقيان: الذهب، أي الدِّماء التي تشبه في حمرتها العقيق والعقيان.
(٧) الراحتان: تثنية راحة. وهي الكفُّ. والجيد: العنق.
(٨) المنايا: جمع منيَّة، وهي الموت. وساروتك: وثبت عليك.
(٩) عثمانها: يريد الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ثالث الخلفاء الراشدين، قُتِلَ وهو جالس يتلو القرآن وفي حجره المصحف.

(١٠) ريعت: فزِّعت، بتشديد الزاي. وأعنان السماء: نواحيها.

(١١) عمرو الأمور: أي مصرِّف الأمور بحذقه وفطنته، وهو عمرو بن العاص (رضى الله عنه)، وسحبان: خطيب عربي مشهور من بني وائل.

(١٢) اليافع: مَنْ راهق العشرين، أو مَنْ ترعرع وناهز البلوغ. والسريرة: ما يسرُّه الإنسان من أمره.

(١٣) الأضغان. الأحقاد.

(١٤) تلمس نفسك: تطلبها مرة بعد أخرى

(١٥) مصير الأمور: مرجعها. وأحيانها: جمع حين، وقالوا: إنه وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طالت أو قصرت. والقيصران: ملك الروم وملك الفرس حين الفتح الإسلامي والله تعالى هو الذي قهرهما.

(١٦) لقمانها، أي مَنْ هو كلقمان، وهو يُضْرَبُ به المثل.

(١٧) عليها يحول: أي يتحوَّل ويتبدَّل. والمراد أن ما يكون للنفوس من ميول ووجدان يتغير بمضي الزمن.

(١٨) رعاة العهود: الحافظون لها، جمع راعٍ. وخوانها: جمع خائن.

(١٩) الولدان: الصبيان، جمع وليد.

(٢٠) الخلق: المروءة والدِّين والسجيَّة، ويغلب الآن على السجية الفاضلة والمعنى أنه إذا كان شبان البلاد يقتلون شيبها فلا حظَّ لها من الخلق النافع.

(٢١) الحداة: جمع حادٍ، وهو مَنْ يغني للإبل لتنشط في سيرها.

(٢٢) أيمانها: جمع يمين، وهي إحدى يدي الإنسان، والمراد أنها تأكَّدت فيما بلغ إليه حسن ظنها أنك أمين عليها، كما يتأكَّد الإنسان مما يكون في يده.

(٢٣) القدُّ والبتر، هنا: بمعنى الضياع.

(٢٤) وليس بمعييك: أي بمعجزك.

(٢٥) الرِّياض: أي كالرِّياض في نضرتها وجمالها. والسودان: كالعيون والخلجان التي تستقي منها ماءها، فكما تجفُّ الرِّياض وتقفر إذا انقطعت عنها العيون والخلجان، كذلك تقفر مصر وتبور إذا فُصِلَ عنها السودان.

(٢٦) الوريد: عرق في العنق من الأوردة التي ترتبط بها الحياة. والشريان: العرق الذي يحمل الدمَّ من القلب.

(٢٧) الينابيع: عيون الماء، وأحدها ينبوع. وإنسان العين: الدائرة التي ترى في سوادها.

(٢٨) أوزارها: أسلحتها، جمع وزر، وهو السلاح.

(٢٩) المنش: بحر في الشمال الغربي لأوربا، بين إنجلترا شمالاً وفرنسا جنوبًا. وبحر الغزال: أحد فروع النيل الأبيض في السودان. ونيانزا: إحدى البحيرات الثلاث التي يخرج منها النيل.

(٣٠) وأين التماسيح.. إلخ: أي إن مسافة التقاطع وعدم الاتصال بعيدة جدًا بين السودان وبلاد الإنكليز، بقدر التناقض بين طبيعتهما؛ فهذا تعيش التماسيح في مائه، وتلك تموت الحيتان في مائها.

توت عنخ آمون

قِفِي – يا أختَ (يوشَعَ) – خبِّرينا   أحاديثَ القرونِ الغابرينا[١]
وقُصَّي من مصارِعهم علينا   ومن دُولاتهم ما تعلمينا[٢]
فمثلُك من روى الأخبارَ طرًّا   ومن نسب القبائل أجمعينا[٣]
نرى لكِ في السماءِ خضيبَ قَرْنٍ   ولا نُحصي على الأرض الطعينا[٤]
مشيتِ على الشباب شواظَ نارٍ   ودرتِ على المشيبِ رحًى طحونا[٥]
تُعينينَ الموالد والمنايا   وتبنين الحياة وتهدمينا[٦]
فيا لكِ هِرَّةً أكلت بنيها   وما وَلدوا وتنتظر الجنينا[٧]

* * *

أَأُمَّ المالكينَ بني (أمونٍ)   لِيهْنِكِ أنهم نزعوا (أمونا)[٨]
ولدتِ له (المآمين) الدواهي   ولم تلدِي له قطُّ (الأمينا)[٩]
فكانوا الشُّهبَ حين الأرضِ ليلٌ   وحين الناسُ جِدُّ مُضَلَّلينا
مشتْ بمنارهم في الأرض (روما)   ومن أنوارهم قَبستْ (أثينا)[١٠]
ملوكُ الدهر بالوادي أقاموا   على (وادي الملوك) مُحجّبينا[١١]
فرُبَّ مصفًّد منهم، وكانت   تُساقُ له الملوكُ مُصفَّدينا[١٢]
تقيَّد في التراب بغير قَيْد   وحلَّ على جوانبه رهينا
تعالى الله، كان السحرُ فيهم   أليسوا للحجارة مُنْطِقينا؟[١٣]
غدَوْا يبنون ما يبقى، وراحوا   وراءَ الآبداتِ مُخلَّدينا

إذا عَمدوا لمأثرةٍ أَعدُّوا | لها الإتقان والخلقَ المتينا
وليس الخلدُ مرتبةً تُلَقَّى | وتُؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن مُنتهى هِمَمٍ كبارٍ | إذا ذهبتْ مصادِرُها بقينا
وسرُّ العبقرية حين يسري | فينتظمُ الصنائعَ والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تناهتْ | إلى التاريخ خيرُ الحاكمينا
وأَخذُك من فمِ الدنيا ثناءً | وتركُك في مسامعها طنينا[١٤]
فغالِي في بنيك الصيدِ غالي | فقد حُبَّ الغلوُّ إلى بنينا[١٥]
شبابٌ قُنَّعٌ لا خيرَ فيهم | وبُورِك في الشبابِ الطامحينا[١٦]
فناجيهم بعرشٍ كان صِنْوًا | لعرشك في سبيبَته سَنينا[١٧]
وكان العزُّ حليتَه، وكانتْ | قوائمُهُ الكتائبَ والسفينا[١٨]
وتاجٍ من فرائده (ابنُ سيتي) | ومن خرزاته (خوفو) و(مينا)[١٩]
عَلاً خَدًّا به صَعَرٌ، وأنفًا | ترفَّع في الحوادث أن يدينا[٢٠]
ولستُ بقائلٍ: ظلموا، وجاروا | على الأُجراءِ، أو جلدوا القطينا[٢١]
فإنا لم نُوَقَّ النقصَ حتى | نُطالبَ بالكمالِ الأولينا[٢٢]
وما (البستيلُ) إلا بنت أمسٍ | وكم أكلَ الحديدُ بها صحينا[٢٣]
ورُبَّة بيعةٍ عَزَّتْ وطالتْ | بناها الناسُ أمس مُسخَّرينا[٢٤]
مُشَيَّدةٍ لشافي العُمْيِ (عيسى) | وكم سَمَلَ القسوسُ بها عيونا[٢٥]

* * *

(أخا اللوردات)، مثلُك مَنْ تحلَّى | بحليةِ آله المُتطوَّلينا[٢٦]
لك الأَصل الذي نَبَتتْ عليه | فروعُ المجد من (كرنارفونا)[٢٧]
ومالُكَ لا يُعدُّ، وكلُّ مالٍ | سَيَفْنَى، أو سَيُفْني المالكينا[٢٨]
وجدتَ مذاق كلَّ تليدِ مجدٍ | فكيف وجدْت مجدَ الكاسبينا؟[٢٩]
نشرتَ صفائحًا، فجزتكَ مصرٌ | صحائفَ سؤددٍ لا ينطوينا
فإن تكُ قد فتحتَ لها كنوزًا | فقد فتحتْ لك الفتحَ المبينا[٣٠]
فلو (قارون) فوق الأرض إلاَّ | تمنَّى لو رضيتَ به قرينا[٣١]
سبيلُ الخلد كان عليك سهلاً | وعادتُه يكدُّ السكالينا
رأيتَ تنكُّرًا، وسمعت عتبًا | فعذرًا للغضاب المحنقينا[٣٢]

أبُـوَّتُـنـا وأعْـظُـمُـهـم تُـراثٌ نـحـاذرُ أن يـئـول لآخـريـنـا[٣٣]
ونـأبـى أن يَـحُـلَّ عـلـيـه ضَـيْـمٌ ويـذهـبَ نـهـبـةً لـلـنـاهـبـيـنـا[٣٤]
سَـكَـتَّ، فـحـام حـولَـك كـلُّ ظـنٍّ ولـو صَـرَّحـتِ لـم تُـثر الظـنـونـا[٣٥]
يـقـول الـنـاسُ فـي سـرٍّ وجـهـرٍ ومـالكَ حيلـةٌ في الـمـرجـفـيـنـا[٣٦]
أمَـن سـرقَ الـخـلـيـفـةَ وهـو حـيٌّ يَـعِـفُّ عـن الـمـلـوك مـكـفَّـنـيـنـا؟[٣٧]

* * *

خـلـيـلـيَّ اهـبـطـا الـوادي، ومـيـلا إلـى غُـرف الـشـمـوس الـغـاربـيـنـا[٣٨]
وسـيـرا فـي مـحـاجـرِهـم رويـدًا وطُـوفـا بـالـمـضـاجـع خـاشـعـيـنـا[٣٩]
وخُـصَّـا بـالـعـمـار وبـالـتـحـايـا رفـاتَ الـمـجـدِ مـن (تـوتـنـخـمـيـنـا)[٤٠]
وقـبـرًا كـاد مـن حـسـنٍ وطـيـبٍ يـضـيءُ حـجـارةً، ويـضـوعُ طـيـنـا[٤١]
يُـخـال لـروعـةٍ الـتـاريـخ قُـدَّتْ جـنـادلُـه الـعـلا مـن (طـور سـيـنـا)[٤٢]
وكـان نـزيـلُـهُ بـالـمَـلْـكِ يُـدعَـى فـصـار يُـلـقَّـبُ الـكـنـزَ الـثـمـيـنـا[٤٣]
وقُـومـا هـاتـفَـيْـن بـه، ولـكـن كـمـا كـان الأوائـلُ يـهـتـفـونـا[٤٤]
فـثَـمَّ جَـلالـةٌ قَـرَّتْ ورامـت عـلـى مـرِّ الـقـرون الأربـعـيـنـا[٤٥]
جـلالُ الـمـلـك أيـامٌ وتـمـضـي ولا يـمـضـي جـلالُ الـخـالـديـنـا[٤٦]
وقـولا لـلـنـزيـل قـدوم سـعـد وحـيَّـا الـلـه مَـقْـدِمَـك الـيـمـيـنـا[٤٧]
سـلامٌ يـومَ وارتـك الـمـنـايـا بـواديـهـا، ويـومَ ظـهـرتَ فـيـنـا[٤٨]
خرجتَ من القبور خروجَ عيسى عـلـيـكَ جـلالـةٌ فـي الـعـالـمـيـنـا[٤٩]
يجوب البرقُ باسمك كلَّ سهلٍ ويـختـرقُ الـبُـخارُ بـه الـحـزُونـا[٥٠]
وأقسمُ كنتَ في (لوزانَ) شُغْلاً وكـنـتَ عـجـيـبـةَ الـمـتـفـاوضـيـنـا[٥١]
أتـعـلـمُ أنـهـم صَـلـفُـوا، وتـاهـوا وصَـدُّوا البـابَ عـنـا مـوصِـديـنـا؟[٥٢]
ولـو كـنـا نـجـرُّ هـنـاك سـيـفًـا وجـدنـا عـنـدهـم عـطـفًـا ولـيـنـا[٥٣]
سـيـقـضـي (كـرزنٌ) بـالأمـر عـنَّـا وحـاجـاتُ (الـكـنـانِـة) مـا قُـضـيـنـا[٥٤]

* * *

تـعـالَ الـيـومَ خـبـرَّنـا: أكـانـت نـواكَ سِـنـاتِ نـومٍ، أم سـنـيـنـا؟[٥٥]
ومـاذا جـبـتَ مـن ظـلـمـاتِ لـيـلٍ بَـعيـدِ الصبح، يُـنضِـي المُدْلجينا؟[٥٦]

وهل تبقى النفوسُ إذا أقامت ... هياكلُها، وتبلى إن بلينا؟
وما تلك القبابُ؟ وأين كانت؟ ... وكيف أضلَّ حافرُها القرونا؟[٥٧]
مُمرَّدة البناءِ، تُخالُ برجًا ... ببطن الأرض محطوطًا دفينا[٥٨]
تغطَّى بالأثاث فكان قصرًا ... وبالصورِ العِتاق فكان زونا[٥٩]
حملتَ العرشَ فيه، فهل تُرجَّى ... وتأملُ دولةً في الغابرينا؟[٦٠]
وهل تلقَى المهيمنَ فوق عرشٍ ... ويلقاه الملا مُتَرجلينا؟[٦١]
وما بالُ الطعام يكاد يَقدى ... كما تركته أيدي الصانعينا؟[٦٢]
ولم تكُ أمس تصبرُ عنه يومًا ... فكيف صبرتَ أحقابًا مئينا؟[٦٣]
لقد كان الذي حَذِرَ الأوالي ... وخاف بنو زمانك أن يكونا[٦٤]
يحبُّ المرءُ نبشَ أخيه حيًّا ... وينبشه ولو في الهالكينا
سُلِلتَ من الحفائر قبل يوم ... يَسُلُّ من التراب الهامدينا[٦٥]
فإن تكُ عند بعثٍ فيه شكٌّ ... فإنَّ وراءَه البعثَ اليقينا[٦٦]
ولو لم يعصموكَ لكان خيرًا ... كفى بالموت معتصَمًا حصينا[٦٧]
يُضَرُّ أخو الحياةِ، وليس شيءٌ ... بضائره إذا صحبَ المنونا[٦٨]

* * *

زمانُ الفرد — يا (فرعونُ) — ولَّى ... ودالتْ دولة المتجبرِّينا[٦٩]
وأصبحت الرعاةُ بكل أرضٍ ... على حكمِ الرَّعيَّةِ نازلينا

هوامش

(١) الخطاب للشمس، وقد أشار إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس، فقد روي أن يوشع قاتل الجبَّارين يوم الجمعة، فلمَّا أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم، ويدخل السبت فلا يحلُّ له قتالهم فيه، فدعا الله تعالى، فردَّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم، وقد لَمَّح ابن مطروح إلى هذه القصة بقوله:

وما أَنس لا أنس المليحة إذا بدت ... دجى، فأضاء الأفق من كل موضع

فحدَّثت نفسي أنها الشمس أشرقت وأنــي قــد أوتــيــت آيــة يــوشــع

القرون الغابرة: الأجيال الماضية.

(٢) قصِّي: حدِّثي، ومنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. ومصارعهم: مهالكهم. ودولاتها: جمع دولة، بضم ففتح، وهي الدَّاهية، يقال: جاء الدَّهر بدولاته، أي بدواهيه.

(٣) طرًا: جميعًا من دون أن تترك منها شيئًا. ونسب القبائل: ذكر أنسابها.

(٤) الخضيب: الملوَّن بالخضاب. والقرن: حاجب الشمس. والطعين: المطعون.

(٥) (بالضم والكسر): دُخان النار.

(٦) المنايا: جمع منيَّة، وهي الموت.

(٧) الهرَّة: القطَّة، ويقال في المثل: «أعق من الهرَّة»؛ لأنها تأكل أولادها. والجنين: الولد ما دام في الرحم.

(٨) نزع أباه: أشبهه. إشارة إلى أُمِّ (آمون). واختلف المؤرخون: هل كانت أمُّه زوجة شرعية لأبيه أو إحدى سراريه؟ وكان من عادتهم أن لا يتولى الملك إلا مَنْ كانت أمُّه زوجة شرعية لأبيه، إلاَّ أن (توت عنخ آمون) تولَّى الملك بواسطة زواجه بابنة الملك خون آتون.

(٩) إشارة للخليفتين: الأمين والمأمون، وقد اختار المأمون؛ لأنه كان أفضل بني العباس حزمًا، وحلمًا، وعلمًا، ورأيًا، ودهاءً، وهيبة، وشجاعة، أي ولدت له أبناء صاروا ملوكًا، وكانت صفاتهم في الملك كالصفات التي عرفناها في المأمون.

(١٠) روما: عاصمة إيطالية. وقبست: أخذت. وأثينا: عاصمة اليونان. وفيه إشارة إلى ما أخذته الأمم الغابرة عن المصريين من العلوم والحضارة.

(١١) وادي الملوك: هو إلى الشاطئ الغربي للنيل بالأقصر على مسير نصف ساعة تقريبًا، وهو هضاب صلبة بها مقابر الملوك فراعنة مصر من الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها. وقد كانوا يبالغون في العناية بها وإتقانها إلى حدٍّ يفوق الوصف.

(١٢) مصفَّدين: مقيدين، يصف فراعنة مصر في مقرِّهم الأخير. وهو مقام يتساوى فيه الملوك والسوقة.

(١٣) منطقين: أي أليسوا هم الذين أنطقوا الحجارة؟ ويريد أنهم أنشئوا من الأبنية ما يدلُّ على عظمة شأنهم دلالة النطق على معناه، وأشهر الأبنية الهرمان القائمان بجانب الجيزة، وهما من أعجب ما بنى البُناة، وفيهما دليلٌ على أن المصريين القدماء

كانوا أعلم الأمم قاطبة بفنِّ العمارة وهندستها، وقد توالى الدَّهر عليها فلم ينل منهما مرُّ الحوادث وعصف الرياح وهطل السحاب، قال أحد الحكماء: «كل شيء يُخْشَى عليه الدَّهر إلا الأهرام، فإن الدَّهر يُخْشَى عليه منها».

(١٤) الطنين: صوت الذُّباب والطست والناقوس ونحو ذلك.

(١٥) الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل يرفع رأسه كبرًا وعجبًا ولا يلتفت من زهوه يمينًا وشمالاً.

(١٦) شباب قُنَّع: أي قانعون لا يطلبون شيئًا وراء ما بلغوا. والطامحون: المتفانون في طلب المعالي.

(١٧) الصنو: الأخ الشقيق والابن. والسنين (بفتح السين) مَنْ يكون في سنك.

(١٨) الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجيش.

(١٩) ابن سيتي، هو رمسيس الثاني المعروف بسيزوستريس، ويُلقَّب بالأكبر؛ لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة، وطالت مدَّة حكمه، وكثرت فيها الآثار المصرية، وتزايدت العمارات، حتى لا يكاد يوجد بوادي النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر المشهورة إلا وعليه اسمه ورسمه. وولي الملك صغيرا في حياة والده، وقد تربَّى على الشجاعة والحماسة، وأراد أبوه أن يعلِّمه اقتحام الأهوال؛ فأرسله في جيش إلى بلاد الشام، وكان عمره عشر سنين، فغزاها حتى أدخلها تحت الطاعة، وله حروب عظيمة، ثم حارب في جملة فتوح وبخاصة في آسيا الشمالية، وكان في أيامة بنتاءور الشاعر المصري، وله فيه عدَّة مدائح يصف بها شجاعته وإقدامه. «خوفو» و«مينا»: من الملوك الفراعنة الذين بلغت مصر في عهدهم شوطًا بعيدًا في المدنيَّة، ومن آثارهما الخالدة الأهرامات.

(٢٠) علا خدًّا: أي ذلك التاج: والصعر: أن يميل الرجل بخدِّه عن النظر إلى الناس تهاونًا وكبرًا.

(٢١) القطين: الخدم، أي أنه لا يجاري بعض المؤرخين الذين يزعمون أن الملوك الفراعنة كانوا يظلمون الأُجراء، ويجلدون الخدم ليسخروهم في إنشاء تلك الأبنية.

(٢٢) لم نوق النقص: أي لم نحفظ منه.

(٢٣) البستيل: سجن يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد شارل الخامس ملك فرنسا سنة ١٤٦٩، وفي هذا السجن ذاق رجالات العلم والفضل في فرنسا أشدَّ أنواع العذاب أيام الاستبداد، فكم هلك فيه فيلسوف عظيم، وفني بين جدرانه المظلمة مصلح كبير، وكم من سياسي جنى عليه عمله الخير بلاده فدخله حيًا وفارقه ميتًا. وقد ذكر الفرنسيون

«البستيل»، واسم «البستيل» وعدُّوه مستقرَّ الظلم، ومعهد العسف والقسوة، فلم يكادوا يثورون على حكومتهم حتى كان أول غرضهم «البستيل»؛ فهدموه، واقتلعوا أصوله، وأخذت فتات أحجاره فجعلها النسوة عقودًا يتحلين بها في أمكنة اللآلئ؛ إشارة لغلبة الأمَّة على الظلم وانتقامها من الظالمين، وكان أخذه في ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩، وقد أقيم اليوم مكان هذا البناء تمثال الحرية، ولا يزال الفرنسيون يحتفلون بذكره على الآن.

(٢٤) البيعة «بكسر الباء»: معبد النصارى، ومسخَّرين: أي كلِّفوا عملهم بلا أجرة.

(٢٥) سمل العين: فقأها بحديدة محماة وقلعها.

(٢٦) المخاطب اللورد كارنارفون الذي اهتدى إلى الكنوز، وكانت وفاته بالقاهرة في سحر ليلة الخميس ٥ إبريل سنة ١٩٢٣ بفندق الكونتنتال، وكانت قد عضَّته بعوضة، فطُبِّب خمسة عشر يومًا حتى أخذت تزول أعراض التسمم الذي أصابه من هذه العضة، ولكنه لم يقوَ على احتمال ذات الرئة التي أصيب بها، فأودت به. المتطولين: أصحاب الغنى والسعة.

(٢٧) لك الأصل.. إلخ: وذلك أنه من بيوتات إنجلترا القديمة في المجد.

(٢٨) ومالك لا يُعدُّ.. إلخ: فهو يملك في بلاد الإنجليز ألف فدان.

(٢٩) وجدت مذاق.. إلخ: إشارة إلى استمراره في أعمال الحفر والتنقيب في وادي الملوك، فقد بدأها منذ ست عشرة سنة، ولم يزل حتى اهتدى إلى أعظم أثر بين الآثار التي عثر عليها العلماء منذ قرن من الزمن، وقد ضمن له هذا العمل الجليل خلود اسمه، ورفعة ذكره، وكان اهتداؤه إلى هذا الكنز الثمين في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٣، وفي مدافن ملوك طيبة، تحت مدفن رعمسيس السادس. والصفائح: حجارة القبور.

(٣٠) إشارة على ما حواه هذا الكنز العظيم من التحف الثمينة النادرة المثال، والآلئ: الغالية القليلة الوجود.

(٣١) قارون: رجل كان صاحب كنوز عظيمة يضرب به المثل في الغنى.

(٣٢) التنكُّر: تغيُّر الرجل عن حال تسرُّه إلى حال يكرهها، وفي الأساس تنكَّر لي فلان: لقيني لقاءً بشعًا. والمحنقون: الذين ملأهم الغيظ.

(٣٣) أبوتنا: أي آباؤنا. والتُّراث: الميراث، وفيه إشارة إلى ما قيل يومئذ ونشرته الصحف، من أن اللورد كرنارفون، أخذ خفية أغلى ما في الكنز من تحف، بينها تاج الملكة وعقدها.

(٣٤) الضيم: الظلم. أي نأبى أن يظلم ذلك التُّراث بذهابه نهبًا كما روت الأنباء البرقية في ذلك الحين.

(٣٥) سكت فحام حولك.. إلخ، أي إن الذي قيل وشاع لاقى منك سكوتًا عن نفيه؛ فلحقتك الشبهات بسبب سكوتك.

(٣٦) المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة.

(٣٧) أَمَنْ سرق الخليفة.. إلخ هذا ما يقوله الناس، وذلك أن إنجلترا هي التي نقلت الخليفة وحيد الدين من قصره في الآستانة. وألجأته إلى المدرَّعة البريطانية «مالايا» هربًا من الكماليين؛ فذهبت به إلى مالطة في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢١، فإذا كانت هذه الدولة تفعل ذلك بالملوك الأحياء، فلا يبعد على رجالها أن يفعلوه بالملوك الأموات، وبما في قبورهم من جواهر ودرر، وقد ذكرت الأنباء في إثبات ذلك: أن اللورد كرنارفون أهدى إلى ابنة ملك الإنكليز عقدًا مصريًا قديمًا له قيمة عظيمة، وأنها لَّما علمت بوفاته وأن بعوضة من القبر عضته. نزعت من عنقها ذلك العقد خوفًا من انتقام توت عنخ آمون الذي نسبت إليه يومئذ وفاة اللورد.

(٣٨) يريد بالشموس الغاربين: ملوك الفراعنة. وغرفهم: مدافنهم.

(٣٩) المحاجر: ما يحميه الملوك حول منازلهم، ومنها محاجر أقيال اليمن، وهي أحماؤهم، أي ما كان يحميه كل واحد منهم.

(٤٠) العمار: التحيَّة. وهو أيضًا الريحان يزيَّن به مجلس الشَّراب، واستعماله هنا على الإطلاق؛ إذ لا يليق أن يكون مقيدًا بتزيين هذا المجلس. التحايا: جمع تحية. والرُّفات: كل ما تكسَّر وبلي.

(٤١) يضوع: يتحرَّك وينتشر. أي كادت حجارته تضيء حسنًا، وكادت تنتشر رائحته الطيِّبة الزكيَّة.

(٤٢) الروعة: المسحة من الجمال. والجنادل: جمع جندل. وهو الحجارة. وطور سينا: هو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى (عليه السلام).

(٤٣) النزيل: الضيف.

(٤٤) هاتفين به: أي بالملك الذي هو نزيل القبر، وليكن هتافكما كما كانوا يهتفون له أيام حياته.

(٤٥) فثمَّ: فهناك. والجلالة: عظم القدر. ورامت: أقامت. والقرون الأربعون: هي التي مضت منذ عهد توت عنخ آمون.

(٤٦) أي أن الجلال الصحيح ما خلد به صاحبه في التاريخ، أمَّا جلال الملك فلا بقاء له.

(٤٧) اليمين: المبارك، وهو من اليمن.

(٤٨) وارتك: أخفتك.

(٤٩) خروج عيسى: أي كما خرج عيسى من القبر على رأي النصارى، وصاحب الديوان لا يعتقد ذلك، وإنما ينظر فيه إلى رأيهم.

(٥٠) يجوب: يقطع. والبرق: اسم منقول من معناه الأصلي للتلغراف. والبخار: اسم منقول كذلك للوابور، أو هو من باب تسمية الشئ باسم المؤثر فيه. والحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض.

(٥١) لوزان: إحدى مدن سويسرة، وقد عُرِفَت بمؤتمر الدول الذي اجتمع بها للنظر فيما بينهن من الخلاف، ولتقرير الصلح بين التُّرك واليونان، وقد وافق اجتماع المؤتمر ظهور قبر الملك توت عنخ آمون ومعرفة ما فيه.

(٥٢) صلفوا: تمدَّحوا بما ليس فيهم، وادَّعوا فوق ذلك إعجابًا وتكبُّرا. وصدُّوا الباب عنا: منعوه عنا، أي لم يفتحوه لنا. وموصدين: من أوصد الباب، أطبقه وأغلقه.

(٥٣) أي لو كانت لنا قوة من السلاح لعاملونا باللين والمودة؛ لأنهم يدارون الأقوياء ويمالئونهم.

(٥٤) كرزن: وزير إنكليزى مشهور، كان هو مندوب إنكلترا في مؤتمر لوزان. والكنانة: هي مصر.

(٥٥) تعال اليوم.. إلخ: الخطاب لتوت عنخ آمون. ونواك: بعدك. والسِّنات: جمع سنة، بكسر السين، وهي النعاس.

(٥٦) ينضي: يهزل. والمدلجون: الذين يسيرون من أول الليل.

(٥٧) وما تلك القباب.. إلخ: أي وخبرنا ما تلك القباب جمع قبة: وهي ما ظهر من أبنية المقبرة الفخمة. والقرون: جمع قرن، وهو مائة عام.

(٥٨) ممرَّدة البناء: مملسته.

(٥٩) تغطى: أي هذا البناء تغطى.. إلخ والأثاث: متاع البيت. والصور: جمع صورة، يريد بها الرسوم التي تحاكي صور الأشياء. والعتاق: جمع عتيق، وهو القديم، أو النجيب من الخيل، والجارح من الطير. والزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.

(٦٠) في الغابرين: في الباقين، وفي القرآن الكريم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، ويكون أيضًا بمعنى الماضين، فهو من الكلمات التي تُسْتَعْمَلُ للأضداد.

(٦١) المهيمن: من أسماء الله تعالى. والمترجِّلون: الذين ينزلون عن ركائبهم ويمشون على أرجلهم.

(٦٢) ما بال الطعام: ما حاله. ويقدى: من قدى الطعام، أي طاب طعمه ورائحته.

(٦٣) الأحقاب: جمع حقب. بضم الحاء. وهو الدَّهر. والمئين: جمع مائة.

(٦٤) لقد كان: أي لقد حصل الذي حذر الأوالي. والأولي: جمع أول، والمعنى: أن ما كنتم تخافونه، وتحذرون وقوعه من نبش قبوركم، قد حصل، ولم تمنعه مبالغتكم في الوقاية منه.

(٦٥) سللت: أخرجت منها برفق. الحفائر: جمع حفيرة. واليوم الذي يسل الهامدين من التراب: هو يوم القيامة.

(٦٦) فإن تك عند بعث.. إلخ: أي فإن تكن الآن تشكُّ في هذا البعث الذي خرجت به من قبرك فلا محالة سيأتي البعث الذي لا تشكُّ فيه؛ وهو بعث يوم القيامة.

(٦٧) يعصموك: يمنعوك من المكروه، أي لو أنهم تركوك فلم يتخذوا لك هذه العصمة لما أصابك مكروه؛ لأن الموت يمنع الأذى أن يصل إليك، وجلاء هذا المعنى في البيت الثاني.

(٦٨) يضرُّ: بضم الياء وفتح الضاد.

(٦٩) زمان الفرد: أي زمان حكم الفرد. ودالت: انقلبت من حال إلى حال. والمتجبرون: المتكبرون.

تحية المؤتمر الجغرافي

هل تهبط النيَّراتُ الأرضَ أحيانا؟ وهل تَصوَّرُ أفرادًا وأعيانا؟[١]

نزلنَ أولَ دارٍ في الثرى رَفعَت للشمس مُلكًا، وللأقمارِ سلطانا[٢]

تفننت قبل خلق الفن، وانفجرت عِلمًا على العُصُرِ الخالي وعِرفانا[٣]

أبوَّةٌ لو سكتنا عن مفاخرهم تواضعًا صخرًا وصَوَّانا[٤]

هم قلَّبوا كرَة الدنيا فما وجدَتْ أقوى على صولَجانِ الملك أيمْانا[٥]

وصيَّروا الدَّهرَ هزءًا يسخرون به حتى ينال لهم بالهدمِ بنيانا[٦]

لم يَسلكِ الأرضَ قومٌ قبلهم سُبُلا ولا الزواخرَ أثباجًا وشُطَّانا[٧]

تقدَّم الناسَ منهم محسنون مضَوا للموتِ تحت لواءِ العِلم شجعانا

جابوا العُباب على عودٍ وساريةٍ وأوغلوا في الفَلا كالأُسْدِ وِحْدانا[٨]

أزمانَ لا البرُّ «بالوابور» منتهَبًا ولا «البخارُ» لبنت الماءِ رُبَّانا[٩]

هل شيَّع النشءُ رَكْبَ العلم، واكتنفوا لعبقريةٍ أحمالاً وأظعانا؟[١٠]

وسايروا الموكبَ المرموقَ مُتَّشِحًا عِزَّ الحضارة أعلامًا وركبانا؟[١١]

يسيرُ تحت لواءِ العلم مؤتلفًا ولن ترى كجنودِ العلم إخوانا

العلمُ يجمعُ في جنسٍ، وفي وطنٍ شتى القبائلِ أجناسًا، وأوطانا[١٢]

ولم يِزدْكَ كرسِم الأرض معرفةً بالأرض دارًا، وبالأحياءِ جيرانا[١٣]

علمٌ أبان عن الغبراءِ، فانكشفتْ زَرعًا، وضرعًا، وإقليمًا، وسُكانا[١٤]

وقسَّم الأرض آكامًا، وأوديةً وفصَّل البحرَ أصدافًا، ومرجانا[١٥]

وبيَّن الناسَ عاداتٍ وأمزجةً وميَّز الناسَ أجناسًا وأديانا

وفدَ الممالكِ، هزَّ النيلُ مَنكبَه ... لمَّا نزلتم على أوديه ضِيفانا[١٦]
غدا على الثغرِ غادٍ من مواكبِكم ... فراح مبتسمَ الأرجاءِ جذلانا[١٧]
جرت سفينتُكم فيه، فقلَّبها ... على الكرامِة قَيْدومًا وسكانا[١٨]
يلقاكُمُ بسماءِ البحر ضاحيةً ... وتارةً بفضاءِ البَرِّ مُزدانا[١٩]
ولو نزلتم به والدَّهرُ معتدلٌ ... نزلتمُ بعَروسِ المُلكِ عُمرانا[٢٠]
إذ (الفنارُ) وراءَ البحر مؤتلقٌ ... كأَّنه فلقٌ من خِدره بانا[٢١]
أناف خلف سماءِ الليل متقدًا ... يُخال في شُرَفات الجوَّ (كِيوانا)[٢٢]
تَطْوِي الجواري إليه اليمَّ مُقْبلَةً ... تجري بوارجَ أو تناسب خُلجانا[٢٣]
نورُ الحضارة لا تبغي الركابُ له ... لا بالنهار ولا بالليل برهانا
يا موكبَ العلم، قِفْ في أرض مْنفَ به ... يُناج مَهْدًا، ويذكُرْ للصَّبا شانا[٢٤]
بكى تمائمَهُ طفلاً بها، ويبكي ... ملاعبًا من رُبَى الوادي وأحضانا[٢٥]
أرض ترَعْرَع لم يصَحبْ بساحتها ... إلاَّ نبيين قد طابوا، وكُهَّانا
عيسى ابنُ مريم فيها جرَّ برُدَته ... وجرَّ فيها العصا موسى بنُ عِمرانا
لولا الحياءُ لناجتْكم بحاجتِها ... لعل منكم على الأيام أعوانا
إذا تفرَّقْتُمُ في الغربِ ألسنةً ... ليَّنتُمُ كلَّ قلبٍ لم يكن لانا

هوامش

(١) النِّيرات: الكواكب، واحدها نيِّر، بالياء المشدَّدة. وتصوَّر: تتصوَّر. والأعيان: جمع عين، وهو شريف القوم. يقول: إن هؤلاء العلماء الذين أقبلوا من البلاد الأخرى ليحضروا المؤتمر في مصر، هم الكواكب المنيرة، ولكنهم مع ذلك أفراد من الناس، وأعيان شرفاء في أقوامهم. فهل الكواكب تهبط الأرض وتكون كذلك؟

(٢) نزلن: أي هذه النيرات. وأول دار.. إلخ: هي مصر، وذلك كناية عن أنها سبقت العالم إلى العلم والمدنية. حتى رسخت قدمها فيهما.

(٣) تفننت: تنوعت فنونها، أو أخذت في فنون كثيرة. والعُصُر. بضمتين: الدَّهر. والخالي: الماضي.

(٤) أبوَّة: جمع أبٍّ، أي لنا أبوَّة أو أولئك أبوَّة. والمفاخر: جمع مفخرة، بفتح الخاء وضمها، وهي المأثرة. أو ما يفتخر به. والصوَّان: نوع من الحجارة.

(٥) الصولجان: عصا منعطفة الرأس، والأيمان: جمع يمين، وهي اليدُّ، أي ما وجد أيمانًا أقوى على صولجان الملك من أيمانهم.

(٦) حتى ينال لهم بالهدم بنيانا: أي وهو لا ينال ذلك فهم يسخرون به أبدًا.

(٧) لم يسلك الأرض.. إلخ: وذلك أن المصريين القدماء هم أوَّل من طاف الأرض برًّا وبحرًا. والسبل: جمع سبيل. والزواخر: البحار، مفردها زاخر. والأثباج: جمع ثبج، وهو معظم البحر. والشطآن: جمع شطٍّ، وهو الشاطئ.

(٨) جابوا: طافوا، والعباب: أكثر السيل، والمراد البحر. والعود: الخشب، والمراد به السفينة. والسارية: عمود ينصب في وسط السفينة ليعلق القلع به. والفلا: جمع فلاة، وهي الصحراء الواسعة، وقيل: المفازة لا ماء فيها. والوحدان: جمع واحد.

(٩) أزمان: أي فعلوا ذلك من أزمان لم يكن بها الوابور ينهب البر، ولا البخار يجري السفن. والربان: مَنْ يُجْرِي السفينة. وجوب الأرض على هذه الحال يستدعي عزائم قوية، ويؤدي إلى مخاطر عظيمة.

(١٠) هل شيع النشء.. إلخ: أي هل خرجوا مع ركب العلم يودعونهم. والنشء: جمع ناشئ: وهو الغلام جاوز حدَّ الصغر. وركب العلم: هو العلماء الذين جاءوا فحضروا المؤتمر، ثم رجعوا إلى بلادهم. واكتنفوا أحمالاً وأظعانا: أحاطوا بها. والعبقرية: أصلها نسبة عبقر، وهو موضع كانت العرب تزعم أنه كثير الجن، وقد جعله المعاصرون اسمًا وأرادوا به التناهي في حذق الشيء وإتقانه. والأحمال: الهوادج، واحدها: حمل — بكسر الحاء وفتحها — والأظعان: الهوادج أيضًا.

(١١) المرموق: الذي ينظر إليه طويلاً. ومتشحًا: لابسًا.

(١٢) شتى القبائل: أي القبائل المتفرِّقة.

(١٣) كرسم الأرض: يريد العلم الذي يعرف به رسم الأرض، وهو علم الجغرافيا.

(١٤) أبان عن الغبراء: أوضحها. والغبراء: الأرض.

(١٥) الآكام: التلال، وقيل: ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد. والأودية: جمع وادٍ، وهو المنفرج بين جبلين أو تلين. والأصداف: جمع صدف، وهو غشاء الدُّر. والمرجان: عروق حمر، تطلع من البحر.

(١٦) المنكب: هو من الحيوان مجتمع رأس الكتف والعضد، ومن غير الحيوان ناحية كل شيء وجانبه، والمراد المعنى الأول؛ كناية عن نهوضه لإكرامهم.

(١٧) غدا: أقبل. والثَّغر: هو ثغر الإسكندرية. والمواكب: جمع موكب، وهو الجماعة ركبانًا أو مشاة. والأرجاء: النواحي. والجذلان: الفرحان.

(١٨) الكرامة: العزازة. والقيدوم: الصدر. والسكان — بالضم —: ذنب السفينة.

(١٩) ضاحية: بارزة منكشفة؛ وهو كناية عن صفائها.

(٢٠) ولو نزلتم به: أي بالثغر. ومعتدل: مستقيم، أي ليس منحرفًا ولا معوَّجًا عن أنصافنا.

(٢١) إذ الفنار: أي إذ يكون الفنار.. إلخ. والفنار: هو منارة السفن تقام عالية في الميناء ليهتدي الربابنة في الليل بنورها. ومؤتلق: لامع. والفلق: الصبح، أو ما انفلق من عموده. والخدر: الستر، وقيل: هو كل ما واراك من بيت ونحوه.

(٢٢) أناف: طال وارتفع. وشرفات: واحدتها شرفة، وهي ما أشرف من بناء القصر. وكيوان: اسم فارسي لكوكب زحل.

(٢٣) الجواري: السفن، جمع جارية. واليمُّ: البحر. والبوارج: جمع بارجة. وهي سفينة كبيرة للقتال. وتنساب: تجري وتتدافع. والخلجان: جمع خليج، وهو شرم من البحر.

(٢٤) أرض منف: هي الأرض المصرية. ومنف: مدينة مصرية قديمة، بناها الملك «مينا» مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية، وجعلها مقرَّ ملكه، وبقيت مقرًا للملك حتى زالت الأسرة الثامنة. ويناج، من ناجاه: سارَّه. والمهد: الموضع يهيأ للصبي ويوطأ. يقول: قف بالعلم في الأرض التي نشأ فيها؛ ليناجي مهده الأول، ويذكر عهد صباه.

(٢٥) بكى: أي العلم. وتمائمه: جمع تميمة، وهي العوذة التي تعلَّق للأطفال مخافة العين. والملاعب: جمع ملعب، وهو مكان اللعب، والرُّبى: جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض.

الصليب الأحمر

سر يا (صليبَ) الرِّفقِ في ساح الوغى ... وانشر عليها رحمةً وحنانا[1]
وادخل على الموت الصفوف مُواسياً ... وأعِنْ على آلامه الإنسانا
والمسْ جراحاتِ البريَّةِ شافيًا ... ما كنت إلا للمسيح بنانا[2]
وإذا الوطيسُ رمى الشبابَ بنارِه ... خُضْ (كالخليل) إليهُم النيرانا[3]
واجعل وسيلتَك المسيحَ وأُمَّه ... واضرَع، وسلْ في خلقِه الرّحمانا[4]
الله جارُك في عوانٍ لم تهب ... اللهِ لا بِيَعًا ولا صُلبانا[5]
وسلمتَ يا «حرمَ المعارك» من يدٍ ... هَدَمتْ لِسلم العالمين كيانا[6]

***

يا أهلَ مصر، رمى القضاءُ بلطفِه ... وأراد أمرًا بالبلاد فكانا
إن الذي أمرُ الممالك كلَّها ... بيديه، أحدَث في «الكنانة» شانا
أبقى عليها عرشَها في بُرهَةٍ ... ترمي العروشَ وتنثُر التيجانا[7]
وكسا البلادَ سكينةً من أهلها ... ووقى من الفتنِ العبادَ. وصانا
أومَا ترون الأرضَ خُرِّب نصفُها ... وديارُ مصرٍ لا تزال جِنانا؟[8]
يرعى كرامَتها، ويمنع حوضَها ... جيشٌ يعاف البغيَ والعُدوانا[9]
كجنود (عَمْرٍو) أينما ركزوا القنا ... عَفُّوا يدًا. ومُهنَّدًا. وسِنانا[10]
إن الشجاعَ هو الجبانُ عن الأذى ... وأرى الجريءَ على الشرور جبانا

***

أمَـمَ الـحـضـارةِ. أنـتـمُ آبـاؤنـا ... مـنـكـم أخـذنـا الـعـلـمَ والـعـرفـانـا
رقَّت لـكـم منَّـا الـقـلـوبُ. كـأنّـمـا ... جَـرحـاكُـمُ يـومَ الـوغـى جَـرجـانـا
ومن المروءَةِ — وهْى حائطُ دِيننا — ... أن نـذكـرَ الإصـلاحَ والإحـسـانـا[11]
ولـئـن غـزاكـم مـن ذويـنـا مـعـشـرٌ ... فـلـرُبَّ إخـوانٍ غَـزَوْا إخـوانـا
حـتـى إذا الـشـحـنـاءُ نـامـت بـيـنـهـم ... لـم يـعـرفـوا الأحـقـاد والأضـغـانـا[12]

هوامش

(١) الساح جمع ساحة. والوغى: الحرب.

(٢) الجراحات: جمع جراحة. والبنان: أطراف الأصابع: مفردها بنانة.

(٣) الوطيس: شدَّة الحرب. والخليل: هو إبراهيم (عليه السلام)، وقصة إلقائه في النار مشهورة.

(٤) الوسيلة: ما يتقرَّب به إلى الغير. واضرع. من ضرع إليه: خضع وذلَّ. والرحمن: اسم من أسماء الله تعالى.

(٥) العوان: الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى. والبيع، بكسر الباء: جمع بيعة، بكسرها أيضًا، وهي متعبَّد النصارى.

(٦) السلم: ضدُّ الحرب. وكيان الشيء: وجوده أو طبيعته.

(٧) البرهة: قطعة من الزمن طويلة. وتنثر التيجان: ترميها متفرِّقة.

(٨) الجنان: جمع جنة.

(٩) يعاف: يكره.

(١٠) كجنود عمرو: هو عمرو بن العاص فاتح مصر وواليها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب. وركزوا القنا: غرزوها في الأرض. والقنا: الرِّماح: جمع قناة. عفُّوا: تركوا الشهوات. والمهنَّد: السيف. والسنان: نصل الرمح.

(١١) الحائط: الجدار، أي وهي من ديننا كالحائط من الدار.

(١٢) الشحناء: عداوة امتلأت منها النفوس. والأضغان: الأحقاد.

تحيَّة للتُّرك[١]

بـحـمـدِ الـلـهِ ربِّ الـعـالـمـيـنـا　　وحـمـدِك يـا أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنـا
لـقـيـنـا فـي عـدوِّكَ مـا لـقـيـنـا　　لقينا الفتحَ والـنـصـرَ المبينا

* * *

هُمُ شـهـروا أذًى، وشـهـرتَ حربا　　فـكـنـتَ أجـلَّ إقـدامًـا وضـربـا
أخـذت حـدودَهـم شـرقًـا وغـربـا　　وطـهَّـرْتَ الـمـواقـعَ والـحـصـونـا

* * *

وقبل الـحـربِ حربٌ منك كانت　　نـتـائـجُـهـا لـنـا ظـهـرت وبـانـت
ألـنْـتَ الـحـادثـاتِ بـهـا، فـلانـت　　وغـادرت الـقـيـاصَـر حـائـريـنـا

* * *

جمعتَ لنا الممالكَ والشعوبا　　وكـانـت فـي سـيـاسـتِـهـا ضـروبـا

[١] قيلت في الحرب بين اليونان والأتراك سنة ١٣١٤ هجرية، وقلَّما نالت قصيدة في العالم العربي بأجمعه ما نالته هذه القصيدة أيام ظهورها من حفاوة وانتشار؛ وذلك لما ورد فيها من وصف وتهكُّم صادفا هوًى في النفوس.

فلمَّا هبَّ (جُورجِيهم) هبوبا تلفَّتَ لا يصيبُ له مُعِيْنَا[1]

* * *

رأى كيف السبيلُ إلى كريد وكيف عواقبُ الطيش المزيد
وكيف تنامُ يا عبدَ الحميد وتغفل عن دماءِ العالمينا؟

* * *

ولا واللهِ والرسْلِ الكرام وبيتِك خيرِ بيت في الأنام
لما كانوا — وسيفُك ذو انتقام — يعادلُ جَمعُهم منا جنينا

* * *

رأيتَ الحلمَ لمَّا زاد غَرَّا وجرَّأ مَلْكَهم حتى تجرَّا[2]
فجاءَتك الدعاوى منه تتْرَى وجاءَته جنودُك مبطلينا

* * *

بخيْلٍ في الهضابْ. وفي الروابي ونارٍ في القلاع. وفي الطوابي
وسيفٍ لا يلينُ، ولا يحابي إذا الآجالُ رجَّت منه لينا

* * *

وجيشٍ من غُزاةٍ عن غزاةِ همُ الأبطالُ في ماضٍ وآتي
ومن كرمٍ أذلْوا كل عاتي وذَلُّوا في قتال المؤمنينا

* * *

أبعد بلائِهم في كلِّ حربٍ وضربٍ في الممالك أيِّ ضربٍ
تحاولُ صبيةٌ في زيِّ شعبٍ وتطمع أن تدوسَ لهم عَرِينا؟

* * *

جنودٌ للجراحِ الدَّهرَ مِرهَمْ يدبِّرها البعيدُ الصيتِ أدهمْ
فأنجدَ في تساليةٍ وأَتْهَمْ وكانت للعدا حصنًا حصينا[3]

* * *

أروتـرُ، لا تـدسَّ الـسـم دسّـا　　ومهلاً في التهوِّس يا (هَوَسا)[٤]
سِل اليونانَ: هل ثبتت (لرِسَّا)　　وهل حُفِظَ الطريقُ على أثينا[٥]

* * *

مـعـاذَ الـلـه، كَـلاَّ، ثـم كَـلاَّ　　هـمُ الـبـحـارةُ الـغـرُّ الأجِـلا!
ومـا أسـطولُـهـم فـي الـبـحـر إلا　　(شخاشِخُ) ما يَرُحنَ وما يجينا![٦]

* * *

وكم بعثوا جيوشًا من أماني　　أتـت دارَ الـسـعـادة فـي أمـان
ومـا سـارت سـوى يَـوْمَـيَ زمـان　　فـأهـلاً بـالـغـزاة الـفـاتـحـيـنـا!

* * *

وكـم بـاتـوا عـلـى هَـرْج ومَـرْج　　وقالوا: المالُ مبذولٌ لجورجي[٧]
وكلُّ الـمـال مـن دخْلٍ وخَـرْجِ　　ديـونٌ لا تـقـدِّرهـا ديـونـا![٨]

* * *

وكم فتحوا الثغورَ بلا تواني　　وبـالأسـطـولِ جاءُوا من موانـي
ولـلـبـسـفـورِ طـاروا فـي ثـوانـي　　فـأهـلاً بـالأوزِّ الـعـائـمـيـنـا[٩]

* * *

وفي الآستانة انتصروا انتصارا　　وبـطـرسـبـرجَ دكُّـوهـا حـصـارا
فـيـا لـلـمـسـلـمـيـن ولـلـنـصـارى　　وقـيـصَـر والـمـلـوكِ الآخـريـنـا!

* * *

ويـا غـلـيـومُ، أيـن لـك الـفِـرارُ　　إذا جـورجـي وعـسـكرُه أغـاروا؟
فـضـاقـت عـن سـفـيـنـهـمُ الـبـحـارُ　　وضـاق الـبـرُّ عـنـهـم واجـفـيـنـا!

* * *

أمورٌ تضحكُ الصبيانُ منها ... ولا تدري لها العقلاءُ كُنها
فَسلْ روترْ، وسَلْ هافاسَ عنها ... فإن لديهما الخبرَ اليقينا

* * *

ويومَ مَلونَ إذ صحنا، وصاحوا ... ذكرنا الله من فرح، وناحوا
ودارتْ بينهم بالرَّاح راحُ ... ودارتْ راحةُ الإيمان فينا[10]
على الجبلين قد بتنا، وباتوا ... وقُتناهم منيَّتهم، وفاتوا
وقد متنا ثباتًا، واستماتوا ... وما البُسلاءُ كالمستبسلينا

* * *

خسفنا بالحصون الأرضَ خسفا ... تزيد تأبِّيًا فنزيد قذفا
بنار تنسُف الأجيالَ نسفا ... وتلقَفُ نارَهم والمطلقينا

* * *

مدافعُ ما تئوبُ بغير زادِ ... براكينٌ تصوبُ بلا نفاد[11]
نصبناها لهم في كل وادي ... فكنَّ الموتَ، أو أهدى عيونا

* * *

جعلنا الأرضَ تحتَهمُ دماءَ ... وصيَّرنا الدُّخانَ لهم سماءَ
وإذ راموا من النار احتماءَ ... حَمَتْ أسيافْنا منهم مئينا

* * *

ورُبَّ مجاهدٍ شيخٍ مُبَجَّل ... ترجَّلتِ الجبالُ وما ترجَّلْ
أراد ليركب الموتَ المحجَّل ... إلى أجدادِه المستشهَدينا

* * *

وفى لجوادِه، وحنا عليه ... فخوطبَ في النزول، فما أجابا

وصابَ رصاصُها يُدْمِي يديه هنا فليطلبِ المرءُ المَنونا

* * *

وقد زاد البسالَة من وقارِ هِزبرٌ من ليوثِ التُّرك ضاري
تقدَّم نحو نارْ أي نارِ ليسبِقَ نحوَ خالِقه القرينا

* * *

جرى، فأذلَّ هاتيكَ الألوفا وزحزح عن مواضعها الصفوفا
فخاض إلى مكامِنها الحُتوفا وما هاب الرُّماةَ مسدِّدينا

* * *

دعا لله في وجه الأعادي كليثٍ زائرٍ في بطن وادي
فلبَّتْ الفيالقُ والأرادي ودارَ هلالُ رايتنا يمينا[١٢]

* * *

فلمَّا أذعنوا أنَّا المنايا وأنَّا خيرُ مَنْ قاد السرايا[١٣]
تفرَّق جمعُهم إلاَّ بقايا على قُلَل الجبالِ مُجندَلينا

* * *

صلاةُ الله ربي والسلامُ على قتلى بفرسالو أقاموا[١٤]
هم الشهداءُ، حول الله حاموا فأدناهم، وكانوا الفائزينا

* * *

أنالوا الملك فتحًا أيَّ فتح وشادوا للخلافةِ أيَّ صرحِ
وجاءُوا ربَّهم منهم بذبْح تَقَبَّلَه، وكان به ضنينا[١٥]

* * *

سلامًا سفحَ فرسالو سلاما وكنْ خيرَ المُقامِ لمَنْ أقاما
وضنَّ بها وإن بليتْ عظاما تطيف بها الملائك حائمينا

* * *

أَأَدْهَمُ. هكذا تُقْنَى المعالي وتُقْنَى بالقواضِب والعوالي[١٦]
لقد بيَّضْتَ للملْك الليالي بسيفٍ يفضح الفجرَ المبينا

* * *

أخذتَ النصرَ بالجبلين غصبا وكنتَ الليثَ تخطارًا ووثبا
حملْتَ. فماجتْ الحُمْلانُ رُعْبا يظنُّهمُ الجهولُ مقاتلينا

* * *

وفي فرسالَ قد جئتَ العُجابا بسطتَ الجيش تقرؤه كتابا
وقد أحصيتَه بابًا فبابا وكانوا عن كتابك غافلينا

* * *

ثبتَّ مؤمَّلا منك الثباتُ توافيكِ الرسائلُ والسُّعاةُ
وحولَكَ أهلُ شوراك الثقاتُ تسوسون الجيوش مظَفَّرينا

* * *

هناك الصحْفُ سارت حاكياتِ وطيَّرتِ البروقُ محدِّثات
وحدَّثتِ الممالكُ آخذاتِ علومَ الحربِ عنكم والفنونا

* * *

بني عثمانَ، إنَّا قد قَدَرنا فتوحَكُم الكِبَارَ وقد شكرنا
سألنا الله نصرًا، فانتصرنا بكم، والله خيرُ الناصرينا

هوامش

(١) جورجي: ملك اليونان يومئذ.

(٢) تجرًّا: مخفف تجرَّأ.

(٣) تسالية: موقعة من مواقع هذه الحرب. وأنجد وأتهم: نزل نجدًا وتهامة، والمراد أنه أتى على كل ما فيها ما ارتفع منه وانخفض.

(٤) هوسا: المراد به هافاس، وهي الشركة البرقيَّة المعروفة.

(٥) لرسا: موقعة من مواقع هذه الحرب.

(٦) شخاشخ: جمع (شخشيخة) وهي لعبة معروفة للأطفال.

(٧) الهرج والمرج: الفتنة والاختلاط.

(٨) لا تقدِّرها ديونا: أي لضآلتها، والمراد في كل هذه الأبيات التهكُّم باليونان.

(٩) وصف الأوزِّ بجمع المذكر، قد يُرَادُ به العظيم.

(١٠) ملون: موقعة، والراح الأولى: الأكفُّ، والثانية: الخمر.

(١١) تصوب: أي يسقط حممها كالمطر.

(١٢) الأرادي: جمع أردى، وهو الجيش.

(١٣) السرايا: جمع سريَّة، وهي القطعة من الجيش.

(١٤) فرسالو: موقعة.

(١٥) الذبح: ما يذبح.

(١٦) القواضب: السيوف. والعوالي: الرماح.

الدستور العثماني

بشرى البريَّةِ قاصيها ودانيها حاطَ الخلافةَ بالدستور حاميها[1]
لـمَّـا رآهـا بـلا ركـنٍ تـداركـهـا بعد (الخليفة) بالشورى، وناديها[2]
وبالأبـيَّـــيـن مـن قـومٍ أمـاتـهـم بُـعـدُ الـديـارِ، وأحـيـاهـم تـدانِـيـهـا[3]
حنُّوا إليها كما حَنَّتْ لهم زمنًا وأوشك البينُ يُبليهم، ويُبليها[4]
مُشتَّتين على الغبراءِ، تحسبُهم رحَّالَةَ البَدْو هاموا في فيافيها[5]
لا يقربُ اليأسُ في البأْساءِ أنفسَهم والنفسُ إن قَنَطَتْ فاليأْسُ مُرْديها[6]

* * *

أسدى إلينا (أميرُ المؤمنين) يدًا جلَّت، كما جلَّ في الأملاكِ مُسديها[7]
بيضاءَ، ما شابَها للأبرياءِ دمٌ ولا تـكـدَّر بـالآثـامِ صـافـيـهـا[8]
وليس مُستعظَمًا فضلٌ، ولا كرمٌ من صاحب (السكة الكبرى) ومُنشيها[9]
إن الندَى والرضَى فيه وأُسرتِ والله للخير هاديه وهاديها
قوم على الحبِّ والإخلاص قد ملكوا وحسبُ نفسك إخلاصٌ يزكيها[10]
إذا الخلائفُ من بيتِ الهدى حُمِدَتْ أعلى الخواقينَ منْ عثمانَ ماضيها[11]
خلافةُ الله في أحضانِ دولتهم شابَ الزمانُ، وما شابت نواصيها
دروعُها تحتمي في النائباتِ بهم من رمح طاعنها، أو سهمِ راميها

* * *

الرأيُ رأيُ «أمير المؤمنين» إذا حارتْ رِجالٌ وضلَّتْ في مرائيها[12]

وإنما هي شُورى الله، جاءَ بها | كتابُه الحقُّ، يُعليها، ويُغليها
حقَنتَ عند مناداةِ الجيوش بها | دمَ البريَّةِ إرضاءً لباريها[١٣]
ولو منعت أريقت للعباد دِمًا | وطاحَ من مُهَج الأجناد غاليها[١٤]
وَمَنْ يَسُسْ دولةً قد سُسْتَها زمنًا | تهُنْ عليه من الدُّنيا عواديها[١٥]
أتى ثلاثون حوْلاً لم تذُقْ سِنة | ولا استخفَّكَ للَّذاتِ داعيها
مُسَهَّد الجفنِ، مكدودَ الفؤادِ بما | يُضني القلوبَ، شجيَّ النفس، عانيها[١٦]
تكادُ من صُحبةِ الدُّنيا وخِبْرتِها | تسيءُ ظَنَّك بالدُّنيا وما فيها

* * *

أما ترى المُلك في عرسٍ وفي فرحٍ | بدولةِ الرأيِ والشورى وأهليها؟
لمَّا استعدَ لها الأقوامُ جئتَ بها | كالماءِ عند غليل النفسِ صاديها؟[١٧]
فضلٌ لذاتك في أعناقِها، ويدٌ | عند الرعيَّةِ من أسنى أياديها[١٨]
خلافةُ اللهِ جرَّ الذيلَ حاضرُها | بما منحتَ، وهزَّ العِطفَ باديها[١٩]
طارت قناها سرورًا عن مراكزِها | وألقت الغِمد إعجابًا مواضيها[٢٠]
هبَّ النسيمُ على «مقدونيا» برَدًا | من بعد ما عَصَفَتْ جمرًا سوافيها[٢١]
تغلي بساكنِها ضِغنًا ونائرةً | على الصدور إذ ثارت دواعيها[٢٢]
عاثت عصائبُ فيها كالذِّئاب عَدَتْ | على الأقاطيعِ لمَّا نام راعيها[٢٣]
خَلا لها من رسُوم الحكم دارسُها | وغَرَّها من طلول المُلك باليها[٢٤]
فسامَرَ الشرَّ في الأجبالِ رائحُها | وصبَّح السهلَ بالعدوانِ غاديها[٢٥]
مظلومةٌ في جوار الخوفِ، ظالمةٌ | والنفسُ مؤذيةٌ مَنْ راحَ يؤذيها
رثتْ لها وبكتْ من رقَّةٍ دولٌ | كالبوم يبكي رُبُوعًا عزَّ باكيها[٢٦]
أعلامُ مملكةٍ في الغرب خائفةٌ | لآل عثمانَ كادَ الدَّهرُ يطويها
لمَّا مُلئنا قنوطًا من سلامتها | تَوَثَّبَتْ أُسْدُ الآجام تحميها[٢٧]
من كل مستبسلٍ يرمي بمهجتِه | في الهول إن هي جاشت لا يراعيها[٢٨]
كأنها — وسلامُ الملك يطلبها — | أمانةٌ عند ذي عهدٍ يؤدِّيها

* * *

الدينُ لله، من شاءَ الإلهُ هَدَى | لكل نفسٍ هَوًى في الدين داعيها

ما كان مُخْتلِفُ الأديانِ داعيةً إلى اختلافِ البرايا، أو تعاديها
الكُتْبُ، والرسْلُ، والأديانُ قاطبةً خزائنُ الحكمةِ الكبرى لِواعيها
محبَّةُ اللهِ أصلٌ في مراشِدها وخَشيةُ اللهِ أسٌّ في مبانيها[29]
وكل خيرٍ يُلقَّى في أوامرها وكل شرٍّ يوقَّى في نواهيها
تسامُحُ النفسِ معنًى من مروءَتها بل المروءَةُ في أسمى معانيها
تخلَّقِ الصفحَ تسعدْ في الحياةِ به فالنفسُ يسعدها خُلْقٌ ويُشقيها[30]
الله يعلمُ ما نفسِي بجاهلةٍ مَنْ أهلُ خِلَّتها ممَنْ يُعاديها؟[31]
لئن غدوتُ إلى الإحسانِ أصرفها فإن ذلك أَجرى من معاليها
والنفسُ إن كبرت رقَّتْ لحاسدِها واستغفرت كرمًا منها لشانيها[32]

* * *

يا شعبَ عثمانَ من تركٍ ومن عرب حيّاكَ مَنْ يبعثُ الموتى ويُحييها
صبرتَ للحقِّ حين النفسُ جازعةٌ والله بالصبر عند الحقّ موصيها
نِلْتَ الذي لم ينله بالقنا أحدٌ فاهتفْ (لأنورها) واحمدْ (نيازيها)[33]
ما بين آمالِك اللائي ظِفرْتَ بها وبين (مصر) معانٍ أنتَ تدريها

هوامش

(١) حاط الخلافة: حفظها وتعهَّدها. وحاميها: هو الله تعالى.
(٢) الشورى: التشاور في الأمر، والمراد الرجوع في الحكم إلى رأي الأمة.
(٣) الأبيون: جمع أبي من الإباء، وهو الكبر والنخوة.
(٤) البين: الفرقة.
(٥) البدو: الصحراء. ورحالة البدو: أي الرحالة من أهل البدو. وهاموا: ذهبوا لا يدرون أين يتوجهون. والفيافي: جمع فيفاء، وهي المكان المستوي، أو المفازة لا ماء فيها.
(٦) اليأس: أن يقطع الإنسان أمله من الشيء، وهو القنوط أيضًا.
(٧) أسدى: أحسن. وأمير المؤمنين: هو السلطان عبد الحميد. واليدُّ: النعمة، والمراد الدستور. وجلَّت: عظمت. والأملاك: الملوك.
(٨) بيضاء.. إلخ: وذلك إنه لم تكد أمة تستخلص الحكم من الملك المستبد به، وتعيده إلى رأيها، إلا بعد حرب تقع بينه وبينها، ولكن السلطان عبد الحميد لم يكد يعلم

أن الجيوش زاحفة لتستخلص الحكم الشوري حتى رضيه وأقرَّه؛ فلم تقع يومئذ حرب، ولا أريقت دماء، وإن كانت قد حدثت بعد ذلك فتنة أُرِيدَ بها إرجاع الاستبداد، وانتهت بخلع السلطان.

(٩) السكة الكبرى: هي السكة الحديدة الحجازية، وقد أنشأتها الدولة في أيامه.

(١٠) يزكيها: يطهِّرها.

(١١) الخلائف: جمع خليفة. وبيت الهدى: هو بيت النبوة. والخواقين: جمع خاقان، وهو اسم لكل ملك من الترك. وعثمان: هو مؤسس الدولة التركية.

(١٢) المرائي: الآراء، جمع مرأى.

(١٣) حقنت دمَّ البرية: منعته أن يسفك. والبرية: الخلق. والباري: الخالق.

(١٤) أريقت، من أراق الماء: صبَّه. والدما: جمع دم. وطاح، هلك. والمهج: الأرواح. والأجناد: العسكر، جمع جند.

(١٥) عواديها: جمع عادية من عدا عليه: ظلمه، أي العوادي التي تصيبه منها.

(١٦) مسهَّد الجفن: من سهَّده، بالتشديد جعله يسهد. أي لا ينام. ومكدود الفؤاد: متعبه. ويضني القلوب: يثقلها. وشجي النفس: مشغولها. والعاني: الأسير.

(١٧) الغليل: شدَّة العطش. وغليل النفس: أي مغلولها، من غلَّ الرجل بضم الغين: اشتدَّ عطشه. والصادي: الشديد العطش أيضًا.

(١٨) اليدُّ هنا: النعمة.

(١٩) الحاضر: المقيم في الحضر. والبادي: المقيم في البادية.

(٢٠) مراكزها: جمع مركز، من ركز القناة، إذا غرزها في الأرض. والغمد: جفن السيف. والمواضي: السيوف.

(٢١) مقدونيا: هي إقليم البلقان، من تركية أوربا، والبرد: حبُّ الغمام. والعصف: اشتداد الريح. والسوافي: الرياح تذري التراب، جمع سافية.

(٢٢) تغلي: أي مقدونيا. والضغن: الحقد. والنائرة: يقال: نارت في الناس نائرة، أي هاجت هائجة، ودواعي الصدور: همومها.

(٢٣) عانت: أفسدت. والعصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، قيل: العشرة، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. عدت: وثبت. والأقاطيع: جمع قطيع، وهو الطائفة من الغنم.

(٢٤) الرسم الدارس: العافي القديم. والطلول: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار.

(٢٥) فسامر الشرَّ: من المسامرة، وهي الحديث ليلاً. وصبَّح، بتشديد الباء: أتاه صباحًا.

(٢٦) رثت لها: رحمتها. وهذا البيت والأبيات قبله وصف الحالة مقدونيا، وذلك أن أوربا كانت دائمًا تدبِّر المكايد للدولة التركية، وكانت تجد مقدونيل أصلح مكان لمكايدها؛ لما بين أهلها من اختلاف كثير في الجنس والدين واللغة، وكانت الدولة العليَّة لا تكاد تطفئ فتنة في ناحية منها حتى تشبَّ فتنة في ناحية أخرى، وكلَّما كانت تتذرع بالقوة وإظهار الحزم في القضاء على أصحاب الثورات كان يشتدُّ خوف الناس في هذا الإقليم.

(٢٧) يريد بأسد الآجام: رجال الجيش الذين طلبوا من السلطان عبد الحميد إعلان الدستور فأذعن لهم.

(٢٨) المستبسل: المستقتل. والمهجة: الروح. والهول: الخوف من الأمر لا يدري ما يهجم عليه منه. وجاشت: اضطربت.

(٢٩) المراشد: مقاصد الطرق.

(٣٠) تخلَّق الصفح: أي اجعله خلقًا لك. والصفح: الإعراض عن ذنوب الغير.

(٣١) الخلفة (بكسر الخاء): المصادقة والإخفاء.

(٣٢) شانيها: مبغضها.

(٣٣) القنا: الرماح، جمع قناة، وأنور ونيازي: هما بطلا الدستور العثماني المشهوران.

الهلال والصليب الأحمران

(جبريل)، أَنت هدى السما ... ءِ، وأنت برهانُ العِنايه[1]
ابْسُطْ جَنَاحَيْكَ اللذيْـ ... ـن هما الطهارةُ والهدايه
وزدِ (الهلالَ) من الكرا ... مةِ، و(الصليبَ) من الرعايه
فهما لربِّك رايةٌ ... والحربُ للشيطان رايه
لم يخلق الرحمن أكـ ... ـبر منهما في البِرَّ آيه
الأحمران عن الدم الـ ... ـغالي وحرمتِه كنايه[2]
الغادِيان لنجدة ... الرائحان إلى وقايه[3]
يتألَّقان على الوَغى ... رشدًا تَبيَّن من غوايه[4]
يقفان في جنب الدِّما ... كالعُذْرِ في جنب الجنايه
لو خَيَّما في (كربلا) ... لم يُمْنع (السَّبْطُ) السّقايه[5]
أو أدركا يوم المسيـ ... ـح لعاونا على النكايه[6]
ولناولاه الشهدَ، لا الـ ... ـخَلَّ الذي تصِفُ الرواية[7]
يأيها (اللادي) التي ... ألقت على الجَرْحَى حِمايه[8]
أَبلَيْتِ في نزع السها ... م بلاءَ دَهْرِكِ في الرمايه[9]
ومررتِ بالأسرى، فكنـ ... ـتِ نسيمَ واديهم سِرايه[10]
وبناتُ جنسكِ إن بَنَيْـ ... ـنَ البِرَّ أحْسَنَّ البنايه
بالأمس لاديب (لوثرٍ) ... لم تألُ جِيرتَها عنايه[11]
أسْدَتْ إلى أهل الجنو ... دِ يدًا، وغالت في الحفايه[12]

ومُـحـجَّـبـاتٍ هـنَّ أطـــ	ــهرُ عند نائبةٍ كفايه[١٣]
يـسْـعِـفـن ريًّـا، أو قِـرًى	كنساءِ طَيٍّ في البدايه[١٤]
إن لـم يـكـنَّ مـلائكَ الرَّ	حمـن كُنَّ هُـمُ حِـكـايـه[١٥]
لَـبـيْـنَ دعـوتَـكِ الـكـريــ	ــمةَ، واستبقن البرَّ غايه[١٦]
الـمـحـسـنـون هـمُ الـلـبـا	بُ، وسائرُ الناسِ النفايه[١٧]
يـا أيـهـا الـبـاغـون. رُكـا	بَ الـجـهـالـة والـغَـمـايـه
الـبـاعـثـونَ الـحـربَ حُـبّـــ	ــًا لـلـتـوسُّـع فـي الـولايـه
الـمـدَّعـون عـلـى الـورى	حـقَّ الـقـيـامـةِ والـوصـايـه
الـمـثِـكـلـون، الـمـوتِـمـو	ن، الـهادِمون بلا نـهـايـه[١٨]
كـلُّ الـجِـراح لـهـا الـتـئـا	م مـن عـزاءٍ أو نِـسـايـه[١٩]
إلاَّ جــراحَ الــحــقِّ فـــي	عصر الحصافة والدراية[٢٠]
ســتــظــلُّ دامــيــةً إلـــى	يوم الـخـصـومـة والـشـكـايـه

هوامش

(١) جبريل: من الملائكة مختصٌّ بالوحي.

(٢) الأحمران.. إلخ: أي اللذان جُعلا أحمرين ليُكنَّى بهما عن الدمِّ وحرمته.

(٣) النجدة: الإعانة.

(٤) يتألقان: يلمعان ويضيئان.

(٥) كربلا: مدينة في العراق بها قبر للحسين بن علي رضي الله عنهما. والسبط: ولد الولد والحسين سبط النبي ﷺ. يشير بذلك إلى مقتل الحسين، وما قيل من أن قتلته منعوا عنه الماء حين طلبه وهو في النزع.

(٦) يوم المسيح: أي اليوم الذي يزعم النصارى أن المسيح (عليه السلام) صُلِبَ فيه.

(٧) ولناولاه الشهد.. إلخ: وذلك أن النصارى تدَّعي أن المسيح (عليه السلام) طلب وقت شدَّة الصلب ماءً فأعطوه خلاً.

(٨) اللادي: لقب عام لزوجات لوردات الإنكليز، وهي هنا زوجة المعتمد البريطاني في مصر أثناء الحرب الكبرى؛ وذلك أنها قامت تجمع المال إعانة للصليب الأحمر، وتدعو إلى ذلك.

(٩) أبليت، من أبلى في الحرب: أظهر بأسه حتى اختبره الناس وامتحنوه.

(١٠) السراية: مصدر سرى، أي تسلل.

(١١) لادي لوثر: إنكليزية أخرى. ولوثر: اسم زوجها. والجيرة: الجيران.

(١٢) الحفاية: الحفاوة، وهي أن تتلطف بالرجل وتبالغ في إكرامه وتظهر السرور به.

(١٣) ومحجبات: أي ورُبَّ نساءٍ محجباتٍ لسن سافرات مثلكن. والكفاية: ما يحمل به الاستغناء والقناعة.

(١٤) الري: (بكسر الراء وفتحها): أي تشرب الماء حتى تشبع. والقرى: ما قُرِي به الضيف. وطي: قبيلة من العرب مشهورة بالكرم.

(١٥) الملائك: جمع ملك، بفتح اللام.

(١٦) لبينَّ: أجبن. واستبقن البرَّ: جاوزنه.

(١٧) اللباب: المختار الخالص من الشيء. والنفاية (بضم النون وفتحها): ما نفيته من الشيء لرداءته.

(١٨) المثكلون، من أثكلها ولدها: أماته. والموتمون: الذين يجعلون الأبناء يتامى بقتل آبائهم في الحرب.

(١٩) النسايه: النسيان.

(٢٠) الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأي.

الجزء الثاني

باب الوصف

آيةُ العَصْر فِي سَمَاءِ مِصْرَ

نظمت عند قدوم (فدرين) و(يونيه) طائرين من باريز إلى مصر سنة ١٩١٤

يا فرنسا، نِلْتِ أسبابَ السماءْ وتملَّكتِ مقاليدَ الجِواءْ[١]
غُلِبَ النسَّرُ على دولته وتنحَّى لك عن عرشِ الهواءْ
وأتتْكِ الريحُ تمشي أَمَةً لكِ يا بلقيْسُ — من أوفى الإماءْ[٢]
رُوِّضتْ بعدَ جِماحٍ، وجرتْ طوعَ سُلطانَيْنِ: علمٍ، وذَكاءْ
لكِ خَيْلٌ بجناحٍ أشبهت خَيْلَ جبريلَ لنصرِ الأنبياء
وبَريدٌ يسحبُ الذيلَ على بُرُد[٣] في البرِّ والبَحْرِ بطاءْ[٤]
تطلعُ الشمسُ، فيَجْري دُونها فوقَ عُنْق الريَّحِ، أو متْنِ العَمَاء[٥]
رِحلةُ المشرقِ والمغربِ ما لبثتْ غيرَ صَبَاحٍ وَمَساء
بُسلاءُ الإنسِ والجِنِّ فِدىً لِفريقٍ من بَنيكِ البُسلاء
ضاقت الأرضُ بهم، فاتَّخَذُوا في السمَّوات قبورَ الشهداء
فِتيةٌ يُمْسون جِيرانَ السُّها سُمَرَاءَ النجْمِ في أوج العَلاْء[٦]
حُوَّمًا فوقَ جبالٍ لم تكن للرياحِ الهُوجِ يومًا بِوِطاء
لِسليمانَ بِساطٌ واحِدٌ ولهم أَلفُ بساطٍ في الفضاء
يركبُون الشُّهْبَ والسُّحْبَ إلى رِفْعَةِ الذكرِ، وعَلياءِ الثناء
يا «نسورًا» هَبطوا «الوادي» على سالِف الحُبِّ، ومَأثورِ الوَلاء
دارُكم مصرُ، وفيها قومُكم مرحبًا بالأقربينَ الكُرَماء

طِرتُمُ فيها، فطارت فرحًا ... بأعزَّ الضيفِ خيْرِ النزلاء[7]
هَل شجاكم في ثَرى أهرامِها ... ما أرَقْتُمْ من دُموع ودماء؟
أين نَسرٌ قد تلقَّى قبلكم ... عِظة الأجيالِ من أعلى بِناء؟[8]
لو شِهدتم عصَره! أضحى له ... عالمُ الأفلاكِ معقُودّ اللواء
جَرَحَ الأهرامَ في عِزَّتها ... فمشى للقبر مجروحَ الإباء
أَخَذَتْ تاجًا بتاجٍ ثأرَها ... وَجَزَتْ من صَلفٍ بالكبرياء[9]
وتمنَّت لو حَوَت أعْظُمَه ... بين أبناءِ الشموسِ العُظماء

* * *

جلَّ شأنُ الله هادي خَلْقِه ... بهُدَى العِلم، ونورِ العلماء
زفَّ من آياته الكبرى لنا ... طِلْبةً طال بها عَهدُ الرجاء
مركبٌ لو سلف الدَّهرُ به ... كان إحدى مُعجزاتِ القدَماء
نصفُه طيرٌ، ونصفٌ بشرٌ! ... يا لها إحدى أعاجيب القضاء!
رائعٌ، مرتفعًا أَو واقعًا، ... أنْفُسَ الشجعانِ قبلَ الجبناء
مُسرَجٌ في كلِّ حين، مُلجَمٌ ... كامِلُ العُدَّة، مَرموقُ الرُّواء[10]
كبِساطِ الريحِ في القدرة، أو ... هُدْهُدِ السيرةِ في صِدق البلاء
أو كحُوت يرتمي الموج به ... سابح بين ظُهورٍ وخَفاء
راكب ما شاءَ من أطرافه ... لا يُرَى من مركب ذي عُدَوَاء[11]

* * *

ملأ الجوَّ فعالاً، وغدا ... عَجَبَ الغربانِ فيه والحِداء
وترى السُّحْبَ به راعِدةً ... من حديدٍ جُمِّعت، لا من رَوَاء[12]
حمل الفولاذَ ريشًا، وجرى ... في عنانْين له: نارٍ، وماء
وجَنَاحٍ غيرِ ذي قادِمةٍ ... كجَناح النحل مصقولٍ سَواء[13]
وذُنابَى، كلُّ ريحٍ مسَّها ... مسَّهُ صاعقةٌ من كهرُباء
يتراءَى كوكبًا ذا ذَنَب ... فإذا جَدَّ فَسَهمًا ذا مَضاء
فإذا جاز الثريَّا للثرى ... جرَّ كالطاوُوس ذيلَ الخُيَلاء
يملأ الآفاقَ صوتًا وصدىً ... كعزيف الجنِّ في الأرض العَرَاء

أرسلتْه الأرضُ عنها خبرًا ... طَنَّ في آذانِ سكَّانِ السَّماء

* * *

يا شبابَ الغدِ، وابنَاي الفِدَى ... لكُمُ. أكْرِمْ وأعزِزْ بالفِداء

هل يمدُّ الله لِي العيشَ، عسى ... أن أراكم في الفريقِ السُّعَداء؟

وأرى تاجَكُمُ فوق السُّها ... وأرى عرشَكُمُ فوق ذُكاء؟[١٤]

مَنْ رآكم قال: مصرُ استرجعتْ ... عِزَّها في عهد «خوفو» و«مِناء»

أمَّةٌ للخلد ما تبني، إذا ... ما بنى الناسُ جميعًا للعَفاء[١٥]

تَعْصِمُ الأجسامَ من عادي البلا ... وتَقِي الآثارَ من عادي الفناء

إن أسأْنا لكُمُ، أو لم نُسِئْ ... نحن هَلْكَى، فلكم طولُ البقاء

إنما مصرُ إليكمْ وبكمْ ... وحُقوقُ البرَّ أوْلى بالقضاء

عَصرُكم حرٌّ، ومُستقبَلُكم ... في يمين الله خيرِ الأمناء

لا تقولوا: حطنَّا الدَّهرُ، فما ... هو إلاَّ من خيالِ الشعراء

هل علمتمْ أمةً في جَهلها ... ظهرتْ في المجد حسناءَ الرِّداء؟

باطِنُ الأمةِ من ظاهِرِها ... إنما السائلُ مِن لونِ الإناء

فخُذوا العلمَ عَلى أعلامه ... واطلبوا الحكمةَ عندَ الحكماء

واقرءُوا تاريخَكم، واحتفظوا ... بفصيح جاءَكمْ من فصحاء

أنزلَ اللهُ على ألسنُهِم ... وَحْيَه في أعْصُرِ الوَحْي الوِضاء[١٦]

واحكموا الدنيا بسلطانٍ، فما ... خُلِقتْ نَضْرَتُها للضعفاء

واطلبوا المجد على الأرض، فإن ... هي ضاقت فاطلبوهُ في السماء

شِيكِسْبِير

أعْلى الممالكِ ما كرسيُّه الماءُ ... وما دِعامتُه بالحقِّ شَمَّاءُ[١٧]

يا جيرةَ (المَنْشِ)، حَلاَّكم أُبُوَّتُكم ... ما لم يُطَوَّقْ به الأبناءَ آباءُ

مُلكٌ يطاول ملكَ الشمس، عِزَّتُه ... في الغرب باذخةٌ، في الشرق قَعْساءُ[١٨]

تأوي الحقيقةُ منه والحقوقُ إلى ... رُكنٍ بَناهُ من الأخلاق بَنَّاءُ

أعلاه بالنظرِ العالي، ونطَّقه ... بحائط الرأْي أشياخٌ أجِلاَّءُ
وحَاطَهُ بالقَنا فِتيانُ مملكةٍ ... في السلم زَهرُ رُبًى، في الروع أرزاءُ
يُستَصْرخون، ويرُجَى فضلُ نَجدتِهم ... كأنهم عربٌ في الدَّهر عَرباءُ[١٩]
ودولةٌ لا يراها الظنُّ من سَعَة ... ولا وراءَ مداها فيه عَلْياءُ
عصماءُ، لا سببُ الرحْمنِ مُطَّرَح ... فيها، ولا رَحِمُ الإنسانِ قَطْعاءُ
تلك (الجزائرُ) كانت تحتَهم رُكُنًا ... وراءَهُنَّ لباغي الصَّيدِ عَنْقَاءُ[٢٠]
وكان وُدُّهُم الصافي ونُصْرتَهُم ... للمسلمين وراعيهم كما شاءُوا

* * *

دستورُهُم عجبُ الدنيا، وشاعرُهُم ... يَدٌ على خلقِه لله بيضاءُ
ما أنجبتْ مثلَ (شيكسبيرَ) حاضرَةٌ ... ولا نَمتْ من كريم الطيرِ غَنَّاءُ[٢١]
نالتْ به وَحْدَه (إنكلترا) شرفًا ... ما لم تنلْ بالنجوم الكُثْرِ جَوْزاءُ[٢٢]
لم تُكْشَف النفسُ لولاهُ، ولا بُلِيت ... لها سرائرُ لا تُحصَى وأهْوَاءُ[٢٣]
شِعرٌ من النَّسَق الأعلى، يُؤيَّدُه ... من جانب الله إلهامٌ وإيحاءُ
من كلّ بَيْتٍ كآيِ الله، تسْكنُه ... حَقيقةٌ من خَيَال الشَّعر غرَّاءُ[٢٤]
وكلَّ معنىً كعيسى في محاسنه ... جاءَتْ به من بناتِ الشعر عَذراءُ
أو قِصَّةٍ ككتابِ الدَّهر جامعةٍ ... كِلاهُما فيه إضحاكٌ وإبكاءُ
مهما تُمثَّلْ تُرَ الدنيا مُمَثَّلةً ... أو تُتْلَ فهي من الإنجيل أجْزاءُ

* * *

يا صاحبَ العُصُرِ الخالي. ألا خَبَر ... عن عالَمِ الموْتِ يرْوِيه الألِبَّاءُ[٢٥]
أمَّا الحياةُ، فأمْرٌ قد وصفتَ لنا ... فهل لِمَا بعدُ تمثيلٌ وإدناءُ؟[٢٦]
بمَنْ أماتك قل لي: كيف جُمجمةٌ ... غبراءُ في ظُلمات الأرض جَوْفاءُ؟[٢٧]
كانتْ سماءَ بيانٍ غيْرَ مُقْلعةٍ ... شُؤبُبها عَسَلٌ صافٍ وصهباءُ[٢٨]
فأصبحت كأصيِص غير مُفتقَد ... جفَتْه ريحانة للشعر فَيْحاءُ[٢٩]
وكيف بات لِسَانٌ لم يدع غرضًا ... ولم تَفتْه من الباغين عوْراءُ[٣٠]
عفا، فأمْسَى زُنابَى عقربِ بَلِيَتْ ... وسُمُّها في عروقِ الظلم مشَّاءُ
وما الذي صنعتْ أيدي البلى بِيَدٍ ... لها إلى الغيب بالأقلامِ إيمَاءُ؟

فـي كل أَنْمُلـة مـنـهـا إذا انْبَجَسَتْ ... بَــرْقٌ، وَرَعْــدٌ، وأرواحٌ، وأنــواءُ[٣١]
أمسَتْ من الدُّودِ مثلَ الدُّودِ في جَدَثٍ ... قُـفَّـازُهـا فـيـه حَـصـبـاءٌ وبَـوغـاءُ[٣٢]
وأيْنَ تـحـت الـثـرى قـلـبٌ جَـوَانـبُـه ... كـأنــهــن لــوادي الــحــقِّ أرْجَــاءُ؟
تُـصْـغـي إلـى دَقِّـه أذْنُ الـبـيـان، كـمـا ... إلـى الـنـواقـيـس لـلـرُّهـبـانِ إصْـغـاءُ
لـئـن تـمشَّـى الـبلـى تـحـت الـتراب بـه ... لا يُـؤْكَـلُ الـلـيـثُ إلا وهْـوَ أشـلاءُ[٣٣]

* * *

والـنـاسُ صِـنْـفَـان: موتَـى فـي حَـيَـاتِـهُـمُ ... وآخَــرُون بــبــطــنِ الأرضِ أحْــيَــاءُ
تـأبَـى الـمـواهـبُ، فـالأحـيـاءُ بـيـنـهُـمُ ... لا يــســتَــوُون، ولا الأمــواتُ أكـفـاءُ
يـا واصِـفَ الـدَّم يـجـري هـهـنـا وهُـنـا ... قُـمِ انْـظـر الـدَّمَ، فـهْـو الـيـومَ دَأْمَـاءُ[٣٤]
لامُـوكَ فـي جَـعْـلِـكَ الإنـسـانَ ذِئـبَ دَمٍ ... والـيـومَ تـبـدو لـهـم مـن ذاك أشـيـاءُ
وقـيـل: أَكْـثَـرَ ذكـرَ الـقـتـل، ثـم أتـوْا ... مــا لــم تَــسَــعْــهُ خــيــالاتٌ وأنــبــاءُ
كـانـوا الـذئـابَ، وكـان الـجـهـلُ داءُهُـمو ... والـيـومَ عِـلـمُـهُـمُ الـراقـي هـو الـداءُ
لـوْمُ الـحـيـاةِ مَـشـىَ فـي الـنـاس قـاطـبـةً ... كــمــا مَــشــىَ آدمٌ فــيــهــم وحَــوَّاءُ
قـمْ أيِّـدِ الـحـقَّ فـي الـدنـيـا، ألـيـس لـه ... كـتـيـبـةٌ مـنـكَ تـحـت الأرضِ خَـرْسـاءُ؟
وأيـن صـوتٌ تَـمِـيـدُ الـراسـيـاتُ لـه ... كـمـا تـمـايَـدَ يـومَ الـنـاس سَـيـنـاءُ؟[٣٥]
وأيـن مـاضـيـةٌ فـي الـظـلـم، قـاضـيـةٌ؟ ... وأيـن نـافـذةٌ فـي الـبَـغْـي، نَـجْـلاءُ؟
أيـتـركُ الأرضَ جـانـوهـا ولـيـس بـهـا ... صـحـيـفـةٌ مـنـك فـي الـجـانـيـن سـوداءُ؟
تـأوي إلـيـهـا الأيَـامَـى، فـهْـيَ تـعـزِيَـةٌ ... ويَـسْـتـريـحُ الـيـتـامَـى، فـهْـي تـأسَـاءُ[٣٦]

أَثَرُ الْبَالِ فِي الْبَال

في وصف ليلة راقصة أقيمت في قصر عابدين

حَـفَّ كـأسَـهـا الـحَـبـبُ ... فـهـي فِـضـة ذَهَـبُ[٣٧]
أو دوائـــــرٌ دُرَرٌ ... مـائـجٌ بـهـا لـبَـبُ[٣٨]
أو فـمُ الـحـبـيـبِ، جـلا ... عن جُمانِهِ الشَّنَب[٣٩]
أو يَـدٌ، وبـاطـنُـهـا ... عـاطِـلٌ ومـخـتـضِـب

أو شَـقـيـقٌ وجـنـتِـه — حـينَ لـي بـه لـعِب[٤٠]
راحـةُ الـنفوسِ، وهَل — عـنـد رَاحـةٍ تـعَـب
يـا نـديـمُ، خِـفَّ بـهـا — لا كَـبـا بـكَ الـطـرب
لا تـقـلْ: عـواقـبُـهـا — فـالـعـواقـبُ الأدب
تـنـجِـلـي ولـي خُـلُـق — يـنـجـلـي ويـنـسـكِـب
يـرقُـب الـرفـاقُ لـه — كـلَّـمـا سَـرَى شَـرِبـوا
شـاعـرُ الـعـزيـز، ومـا — بـالـقـلـيـل ذا الَّـلـقـب
لـيـلـةٌ لـسـيِّـدِنـا — فـي الـزمـان تُـرتَـقـب
دونـهـا الـرشـيـدُ، ومـا — أخـلَـدتْ لـه الـكُـتـب
يُـهْـرَعُ الـنـزيـلُ لـهـا — والـرَّعـيَّـةُ الـنُّـخَـبُ[٤١]
فـالـسـرايُ جَـوْهـرةٌ — لـلـعُـقـول تَـخْـتَـلِـب
أو كـبَـاقـة زهْـرَا — لـلـعِـيُـون تـأْتـشِـب[٤٢]
الـجَـلالُ قـبَّـتُـه — والـسَّـنـا لـهُ طُـنُـب[٤٣]
ثـابـتٌ، وذِرْوتُـهُ — في الفضاءِ تضطرب
أشـرقـتْ نـوافِـذهُ — فـهْـيَ مَـنـظـرٌ عـجَـب
واسْـتـنـارَ رفـرَفـهُ — والسُّجوفُ، والحُجُب[٤٤]
تـعـجَـب الـعـيـونُ لـه — كيف تَسكنُ الشُّهُب؟[٤٥]
أقبلتْ شموس ضُحىً — مـا لـهـن مُـنـتـقَـب[٤٦]
الـظـلامُ رَايـتُـهـا — وهْـيَ جَيْشُهُ اللَّجِب[٤٧]
فـي هَـوَادجٍ عَـجَـلاً — بـالـجـيـادِ تـنـسَـحِـب
قـامَ دونُـهـا سَـبـبٌ — واسـتـحـثَّـهـا سـبـب[٤٨]
فْـهـيَ تـارةً مَـهَـلٌ — وهْـيَ تـارةً خَـبَـب[٤٩]
تَـرْتـمـي بـهـنَّ حِـمـىً — لا يَـجـوزُه رَغـب[٥٠]
بـابُـه لـدِاخِـلـهِ — جَـنَّـةٌ، هـي الأرَب
قـامـتِ الـسُّـراةُ بـه — والـمـعِـيَّـةُ الـنـجُـبُ[٥١]
وانـبـرَى الـنـسـاءُ لـه — عُـجْـمُـهُـنّ، والـعـرَبُ
الـعـفـافُ زيـنـتُـهـا — والـجـمـالُ، والـحـسَـب

أنْجُمٌ، مَطالِعُهَا   عابدينُ والرَّحَب[52]
سيَّدي لها فلَكٌ   وهْيَ منه تقترب
عنْد رُكنِ حُجْرَتِه   بَدْرُه لنا كَثَب[53]
يزدهي السَّريرُ به   والمطارِفُ القُشُب[54]
حَوْلَ عَرْشِه عَجَمٌ   حوْل عرشِه عَرَب
رُتبةُ الجُدُودِ له   تستوي بها الرُّتَب
شُرَّفْت به وسَما   تالِدٌ، ومُكْتَسَب[55]
الليوثُ ماثِلةٌ   والظباءُ تنسَرِب
الحريرُ ملبَسُها   واللُّجَيْنُ، والذَّهب[56]
والقصورُ مَسْرَحُها   لا الرِّمالُ، والعُشُب
يستفزُّها نَغَمٌ   لا صدىً، ولا لجَب[57]
يُستعادُ مُرْقِصُه   تارةً ويُقْتَضَب
فالقدودُ بانُ رُبىً   بَيْدَ أنها تثِب[58]
يلعبُ العِناقُ بها   وهْوَ مُشْفِقٌ حَدِب[59]
فهْيَ مَرَّةً صُعُدٌ   وهْيَ مرَّةً صَبَب[60]
وهْيَ ههنا، وهُنا   تَلتقي، وتَصْطحِب
مِثلما التقتْ أسَلٌ   أوْ تعانقتْ قُضُب[61]
الرءُوسُ مائلةٌ   في الصدور تحتجِب
والنُّحورُ قائِمةٌ   قاعدٌ بها الوَصَب[62]
والنُّهودُ هامِدةٌ   والخدودُ تلتهب
والخصورُ واهيةٌ   بالبنان تَنْجَذِب
سالتِ الأكفُّ بها   فهْيَ أغْصُنٌ نُهب[63]
الخوانُ دائِرةٌ   المَلاَ لها قُطُب[64]
للوفودِ مائدةٌ   منه أينما انقلَبوا
والطريقُ مُتَّصلٌ   نحوَه، ومُنشعِب
والطعامُ حاضِرهُ   والمزيدُ مُنْتَهَب
باردٌ، ومِن عَجَبٍ   يُشتهَى ويُطَّلب

سائغٌ لِذِي سَغبٍ   سائغٌ ولا سَغَب[٦٥]
حاضرٌ لدّى طَلب   حاضرٌ ولا طلب
والمُدامُ أكؤُسُها   ما تغيضُ والعُلَب[٦٦]
وهْيَ بيننا سَلَبٌ   والنُّهَى لها سَلَب[٦٧]
شَرُفتْ منافِحُها   واعتلى بها العِنب
حَوْلَها الحوائمُ، ما   ينقضي لها قَرَب[٦٨]
يغتبِطْنَ في حَرم   لا تناله الرِّيَب
ما سِوى الحديث به   يُبتغى ويُجتذَب
هكذا الكرامُ، كرا   مٌ «وإن همو طَربوا»
ليلةٌ علَتْ، وغلَتْ   ليتَ فجْرَها كَذِب
يكفلُ الأميرُ لنا   أن تعِيدَها الحِقب[٦٩]
عاش للندَى مَلكٌ   سيَّدٌ لنا، وأبُ
حاتمُ الملوكِ إذا   ضاق بالنَّدَى النَّشَب[٧٠]
السرورُ أَنْعُمُه   والهناءُ ما يَهب
والنَّدَى سجيَّتُه   والحنانُ، والحَدبَ[٧١]
يا عزيزُ، دام لنا   رَوْضُ عِزِّك الأشِب[٧٢]
هذه عروسُ نُهىً   في القبول تَرتغِب[٧٣]
زفَّها لكم، وجَلا   شاعرُ الحِمَى الأرِب
احتفى الحضورُ بها   واكتفى بها الغَيَب[٧٤]
أنتم الظلالُ لنا   والمنازلُ الخُصُب
لو مَدَحْتُكم زَمَنِي   لم أقم بما يَجب

مَرْقصْ

نُظِمَت هذه القصيدة في وصف مرقص أُقِيم بسراي عابدين سنة ١٩٠٤

مالَ واحتجبْ   وادَّعَى الغضبْ

لـيـت هـاجـري   يـشـرحُ الـسـبـب
عَـتْـبُـه رضـىً   لـيـتـه عـتـب
عـلَّ بـيـنـنـا   واشـيًـا كـذب
أو مـفـنِّـدًا   يـخـلُـقُ الـرَّيَـب[75]
مَـنْ لِـمُـدْنَـفٍ   دمـعُـه سُـحُـب؟[76]
بـات مـتـعَـبًـا   هَـمُّـهُ الـلـعِـب
يـسـتـوي خَـلٍ   عـنـدَه وَصَـب
ذقـتُ صـدَّه   غـيـرَ مـحـتـسِـب
ضـقـتُ فـيـه بـالـ   ـرُّسْـلِ والـكـتـب
كـلَّـمـا مَـشـى   أخـجـل الـقُـضُـب
بـيْـن عَـيـنـه   والـمـهـا نـسـب
مـاءُ خـدَّه   شـفَّ عـن لَـهـب
سـاقـيَ الـطَّـلا   شُـرْبُـهـا وجـب[77]
هـاتِـهـا مَـشَـتْ   فـوقـهـا الـحِـقـب[78]
بـابِـلـيَّـةً   تـنـفـثُ الـحـبَـب[79]
إنَّ كَـرْمَـهـا   آدمُ الـعِـنَـب
هُـذِّبَـتْ، فـفـي   دَنِّـهـا الأدب
اِسْـقِـهـا فـتـىً   خـيـرَ مَـنْ شـرِب
كـلَّـمـا طـغـى   راضَـهـا الـحـسـب
(عـابـديـنُ) أمْ   هـالـةٌ عـجـب؟[80]
أسُّـهُ الـهـدَى   والـعُـلا طُـنُـب[81]
مُـشـرفُ الـذرى   مـائـجُ الـرَّحَـب
قـام ربُّـه   يـرفـع الـحـجُـب
عـنـد عـرشِـه   عَـرشِ (مِـنْـحُـتـب)
دون عِـزَّه   (تُـبَّـعُ) الـغَـلـب
الـسُّـراةُ مـن   وفـده الـنُّـخَـب
حـول سُـدَّةٍ   حَـقُّـهـا الـرَّغَـب
طـابَ عِـنـدَهـا الـ   ـعُـجْـمُ والـعَـرَب

وارتــضــى الـمَـلا   من بنـي الصُّـلُـب
مِـن جِـسـانِـهـم   سِــربٌ انـــســرَب
بـــيـــن كـــوكـــبٍ   يَـسـحَـب الـذَّنـب
عـــنـــد جُـــؤْذَرٍ   فـاتـنِ الـشـنـب[٨٢]
عـــنـــد شـــادنٍ   حـاسِـر الـلَّـبَـب[٨٣]
تَـذهـبُ الـنُّـهَـى   أيــنــمــا ذهــب
يَـلْـفِـتُ الـمـلا   كــلَّــمــا وثــب
فـــي غـــلائـــلٍ   سُـنـدسٍ قُـشُـب[٨٤]
دونـــــهـــــنَّ لا   يـثـبـت الـيَـبلَـب[٨٥]
قـــرَّ نَـــهْـــدُه   عِـطْـفه اضـطـراب
خـصـرهُ هـبـا   صــدره صــبَــب
يُـرْكِـضُ الـنُّـهَـى   مَـشْـيُـهُ الـخَـبَـب
رائـــعًـــا كـــمـــا   شـاءَ فـي الـكـتـب
آنـــسًـــا إلـــى   شِـبـهِـه انـجـذب
يـــســـتـــخِـــفُّـــه   أيـنـمـا انـقـلـب
مُـطـربٌ مـن الْـــ   ـــلَـحْـنِ مُـنـتَـخَـب
يَـجـمَـعُ الـمَـلا   يُـحـضِـر الـغَـيَـب
مـا حـدا الـمـهـا   قـــبـــلَـــه طـــرِب

* * *

يـا ابـنَ خـيـر أب   يـا أبـا الـنُـجُـب
أنـــت (حـــاتـــمٌ)   لـلـقِـرَى انـتـدب
فـــي خِـــوانِـــه   كُـلُّ مـا يـجـب
لـم تـقْـم عـلـى   مِـثِـلـه الـقُـبَـب
أنـــهـــلَ الـــبـــرا   يـا ومـا نـضـب
أطـــعـــم الـــورى   لـم يـقـل جـدب
مـا بـهـمْ صـدًى   مـا بـهـم سـغـب[٨٦]
قـــمْ أبـــا (نـــوا   سٍ) انظر النَّشب[٨٧]

ما الخصيبُ؟ ما الْـ ـبحرُ ذو الغُبُب؟
هـل عـهـدتَـه يُمطِرُ الذَّهب؟
ذا هو الجنا بُ الذي خصب
ظلَّلَ الورى روضُه الأشِب[88]
خيرُ مَنْ دعا خيرُ مَنْ أَدَب[89]

* * *

(رَبَّ مصر)، عِشْ وابْلُغِ الأرب
لم تزل ليا ليك تُرتَقب
مثلَ صفوِها الـ ـدَّهرُ ما وهب
أحيِها لنا عِدَّةَ الشُّهب
هاكَ مِدْحة الشـ ـاعر الأرِب[90]
زفَّها إلى خيرِ مَنْ خَطب
فارسِيَّةً بزَّتِ العَرَب
لم يجِئْ بها شاعرٌ ذهب
إن تُراعِها تسمَعِ العَجَب[91]
بيدَ أنها بعضُ ما وجَب

تَحْلِيَةُ كِتَاب

(قيلت بمناسبة تأليف كتاب فتح مصر الحديث لحافظ بك عوني) صفة الكتاب — صفة التاريخ — صفة الجبرتي — واقعة الأهرام

أنا مَنْ بدَّل بالكتَبِ الصَّحابَا لم أجد لي وافيًا إلا الكتابا
صاحبٌ — إن عِبتَه أو لمْ تعِبْ — ليسَ بالواجد للصاحبِ عابا
كلَّما أخلقتُه جَدَّدَني وكساني من حلى الفضل ثيابا
صُحبةٌ لم أشْكُ منها رِيبةً ووِدادٌ لم يُكلِّفني عتَابا
رُبَّ ليلٍ لم نُقصِّر فيه عن سَمَرٍ طالَ على الصمت وطابا

كـان مـن هـمَّ نـهـاري راحـتـي ... ونـدامَـايَ. ونَـقْـلـي. والـشَّـرابـا[٩٢]
إن يَـجِـدْنـي يـتـحـدَّثْ، أو يَـجِـدْ ... مَـلـلاً يَـطـوي الأحـاديثَ اقـتـضـابـا
تـجـدُ الـكُـتْـبَ عـلـى الـنـقـدِ كـمـا ... تـجـدُ الإخـوانَ صِـدقًـا وكِـذَابـا
فـتَـخَـيَّـرْهـا كـمـا تـخـتـاره ... وادَّخِر في الصَّحْب والكُتْبِ اللُّبابا
صـالـحُ الإخـوانِ يـبـغـيكَ الـتُّـقـى ... ورشـيـدُ الـكـتْـب يَـبـغـيك الـصـوابـا

* * *

غالِ بالتاريخ، واجعل صُحْـفَه ... مِن كتابِ الله في الإجلال قابا
قلِّب الإنجيلَ، وانظر في الهدَى ... تَـلـقَ لـلـتـاريـخ وزنًـا، وحِـسـابـا
رُبَّ مَـنْ سـافـر فـي أسـفـارِه ... بـلـيـالـي الـدَّهـرِ والأيـامِ آبـا
واطـلـب الـخـلْـدَ، ورُمْـهُ مَـنـزلاً ... تـجـدْ الـخُـلـدَ مِـن الـتـاريـخ بـابـا
عـاشَ خَـلْـقٌ، ومَـضـوْا، مـا نَـقـصـوا ... رُقـعَـةَ الأرضِ، ولا زادوا الـتُّـرابـا
أخـذَ الـتـاريـخُ مـمـا تـركـوا ... عـمـلاً أحـسـنَ، أو قـولاً أصـابـا
ومـن الإحـسـانِ، أو مـن ضِـدَّهِ ... نـجَـح الـراغـبُ فـي الـذِّكـر، وخـابـا
مَـثَـلُ الـقَـوْمِ نَـسُـوا تـاريـخَـهُـم ... كلقيطٍ عَيَّ في الناس انتسابا
أو كـمـغـلـوبِ عـلـى ذاكِـرة ... يشتكي من صِلِة الماضي انقضابا[٩٣]

* * *

يـا أبـا «الـحُـفَّـاظِ» قـد بـلَّـغـتـنـا ... طِـلْـبـةً، بَـلَّـغـك الـلـهُ الـرَّغـابـا
لـكَ فـي الـفـتـح وفـي أحـداثِـهِ ... فَـتـحَ الـلـه حـديـثًـا وخـطـابـا
مَـنْ يُـطـالـعُـه، ويـسْـتـأنِـس بـه ... يـجِـد الـجِـدَّ، ولا يَـعـدَم دِعـابـا
صُـحُـفٌ أَلَّـفْـتَـهَـا فـي شِـدَّةٍ ... يـتـلاشـى دونـهـا الـفـكـرُ انـتـهـابـا
لـغـة «الـكـامـل» فـي اسـترسـالـه ... «وابـنِ خَـلْـدُون» إذا صحَّ وصـابـا
إنَّ لـلـفـصـحَـى زِمـامًـا ويَـدًا ... تَجنِب السهلَ، وتقتادُ الصِّعابا[٩٤]
لـغـةُ الـذكـرِ، لـسـانُ الـمُـجْـتـبـى ... كـيـف تـعْـيـا بـالـمُـنـادِيـن جـوابـا؟
كـلُّ عَـصْـرٍ دارُهـا إن صـادفـت ... مـنـزلاً رحْـبًـا، وأهـلاً، وجَـنـابـا[٩٥]
إئـتِ بـالـعُـمـرانِ رَوْضًـا يـانـعًـا ... وادْعُـهـا تـجـرِ يَـنـابـيـعَ عِـذابـا
لا تـجِـئـهـا بـالـمـتـاع الـمُـقْـتَـنـى ... سَـرَقًـا مـن كـلِّ قـوم ونِـهـابـا

سَل بـهـا أنـدَلُـسًـا: هـل قَـصَّـرت دون مضمارِ العُلى حين أهابا؟
غُـرِسَـتْ فـي كـلِّ تُـرْبٍ أعْـجَـمٍ فزَكتْ أصلاً، كما طابت نِصابا
ومَـشَـتْ مِـشْـيَـتَـهـا، لـم تـرتـكِـبْ غيرَ رِجْلَيْهَا، ولم تحجل غُرابا[٩٦]

* * *

إنَّ عَـصـرًا تـجـلـوه لـنـا لـبِـس الأيـامَ دَجْـنـا وضَـبـابـا[٩٧]
الـمـمـالـيك تَـمـشَّـى ظـلْـمُـهـم ظُلماتٍ، كدُجى الليل حِجابًا
كلُّـهـم كـافـورُ، أو عـبـدُ الـخَـنَـا غيرَ أن المتنبي عنه خابا؟[٩٨]
ولـكـلٍّ شِـيـعـةٌ مـن جـنـسِـه إن لـلـشـرِّ إلـى الـشـرِّ انـجـذابـا
ظـلـمـاتٌ لا تـرى فـي جُـنْـحِـهـا غيرَ هذا الأزهرِ السمْحِ شِهابا[٩٩]
زيـدتِ الأخـلاق فـيـه حـائـطًـا فـاحـتـمـى فـيـهـا رِواقًـا وقـبـابـا
وتـرى الأعـزَالَ مـن أشـيـاخِـه صَـيَّـروه بـسـلاح الـحـقِّ غـابـا[١٠٠]
قـسَـمًـا لـولاه لـم يـبـقَ بـهـا رَجُـلٌ يـقـرأ أو يَـدري الـكـتـابـا
حَـفِـظَ الـديـنَ مَـلِـيًّـا، ومـضـى يُنقِذُ الدنيا، فلم يَملِك ذَهابا[١٠١]
أُوذِيَـتْ هَـيْـبَـتُـه مِـن عَـجـزه وقُـصَـارَى عـاجـزٍ أن لا يُـهـابـا
لـم تـغـادر قـلـمًـا فـي راحـة دَوْلَـةٌ مـا عَـرَفَـتْ إلا الـحِـرابـا
أقـعـدَ الـلـه (الـجـبـرتـيَّ) لـهـا قـلـمًـا عـن غـائـب الأقـلام نـابـا[١٠٢]
خَـبَّـأ (الـشـيـخُ) لـهـا فـي رُدْنِـه مِرقمًا أدهى من الصِّلِّ انسيابا[١٠٣]
مَـلـكٌ لـم يُـغْـضِ عـن سَـيِّـئـةٍ يا له من مَلَكٍ يَهْوَى السبَّابا[١٠٤]
لا يـراه الـظُّـلـمُ فـي كـاهِـلِـه وهـو يكوي كاهلَ الظلم عِقابا
صُـحُـفُ (الـشـيـخِ)، ويَـوْمـيَّـاتُـه كزمان الشيخ سُقمًا واضطرابا
مـن حـواشٍ كـجَـلـيـدٍ لـم يـذبْ وفـصـولٍ تـشـبِـه الـتـبَّـرَ الـمُـذابـا
و(الـجـبـرتـيُّ) عـلـى فِـطـنَـتِـهِ مَـرَّةٌ يَـغْـبَـى، وحـيـنًـا يـتـغـابَـى[١٠٥]
مُـنـصـفٌ مـا لـم يَـرُضْ عـاطـفـةً أو يُعالج لهوى النفسِ غلابا[١٠٦]
وإذا الـحـيُّ تَـوَلَّـى بـالـهـوى سيرةَ الحيَّ بَغَى فيها وحابَى

* * *

وقـعَـةُ الأهـرامِ جـلَّـتْ مَـوْقِـعًـا وتعالت في المغازي أن تُرابا[١٠٧]

عِظَةُ الماضي، ومُلقَى دَرْسِه … لعقولٍ تجعلُ الماضي مَثابا[١٠٨]
من بناتِ الدَّهرِ، إلا أنها … تَنشرُ الدَّهر وتطويه كَعَابا[١٠٩]
ومن الأيام ما يَبقى وإن … أَمْعَن الأبطالُ في الدَّهر احتجابا
هي من أيِّ سبيلٍ جئْتَها … غايةٌ في المجد لا تدنو طِلابا
انظُر الشرقَ تَجدها. صَرَّفتْ … دولةَ الشرقِ استواءً وانقلابا
جلبتْ خيرًا وشرًّا، وسَقتْ … أمَمًا في مهدِهم شُهدًا وصابا[١١٠]
في (نصيبين) لبسْنَا حُسنَها … وعلى التَلِّ لبسناها مَعابا[١١١]
إن سِربًا زَحفَ (النَّسرُ) به … قطعَ الأرضَ بِطاحًا وهِضابا[١١٢]
إن ترامتْ بلدًا عِقبانُه … خَطفتْ تاجًا، واصطادت عُقابا[١١٣]
شَهِد (الجيزيُّ) منهم عُصْبةً … لبسوا الغارَ على الغار اعتصابا[١١٤]
كذئابِ القفرِ من طول الوغى … واختلاف النَقع لونًا وإهابا[١١٥]
قادَهم للفتح في الأرض فتىً … لو تأنَّى حظَّه قادَ السحابا
غَرَّت الناسَ به نكبتُه … جَمَعَ الجُرحُ على الليثِ الذُّبابا
بَرَزت بالمنظرِ الضاحي لهم … فيلق كالزَّهر حُسْنًا والتهابا؟[١١٦]
حُلِّيَ الفُرسانُ فيها جوهرًا … وجِلالُ الخيلِ دُرًّا وذَهابا[١١٧]
في سلاح كحُليِّ الغِيد، ما … لمسَت طَعْنًا، ولا مَسَّتْ ضِرابا
طرِحَت مصرٌ، فكانت (مُومِيَا) … بين لِصيْن أراداها جُذابا
نالها الأعرضُ ظُفرًا منهما … من ذئاب الحربِ، والأطولُ نابا
وبنو الوادي رِجالاتُ الحِمَى … وقفوا من ساقة الجيش ذُنابى
موقفَ العاجز من حلفِ الوغى … يَحْرُسُ الأحمالَ، أو يسقي مُصابا

الرَّبِيعُ وَوادِي النِّيلِ

إلى (هول كين) الكاتب الروائى الشهير

آذارُ أقبلَ، قُمْ بنا يا صاحِ … حيِّ الربيعَ حديقةَ الأرواحِ
واجمعْ نَدامى الظَّرفِ تحت لوائه … وانشرْ بساحتِه بساطَ الرَّاح

صفوٌ أتِيحَ، فخذْ لنفسِكِ قِسطَها ... فالصفوُ ليس على المدَى بمُتاح
واجلس بضاحكة الرياض مُصَفِّقًا ... لـتـجـاوُبِ الأوتـارِ والأقـداح
واستأْنِسَنَّ من السُّقاةِ برُفقَةٍ ... غُرًّ، كأمثال النجوم، صِباح
رقَّتْ كنُدمان الملوك خلالُهُم ... وتجمَّلوا بمروءَةٍ وسَماح
واجعل صَبوحَك في البكور سَلِيلةً ... للمنجِبَيْنِ: الكرْمِ والتفاح[118]
مهما فضضتَ دِنانَها فاستضحكت ... مُلِيءِ المكانُ سَنىً، وطيبَ نُقاح
تطغى، فإن ذكرتْ كريمَ أصولها ... خلعت على النشوان حِلْيَةَ صاحي
(فرعونُ) خبَّأها ليومِ فُتوحه ... وأعدَّ منها قُرْبَةً (لفتاح)[119]
ما بين شادٍ في المجالي أيْكُهُ ... ومُحجَّباتِ الأيْكِ في الأدواح[120]
غَرِدٌ على أوتارِه، يُوحي إلى ... غَرِدٍ على أغصانه، صَدَّاح
بِيضُ القلانِس في سواد جَلابِبٍ ... حُلِّينَ بالأطواق والأوضاح
رَتَّلْنَ في أوراقهن مَلاحِنًا ... كالرَّاهباتِ صبيحةَ الإفصاح
يخطرن بين أرائكٍ ومنابرٍ ... في هيكلٍ من سُندسٍ فيَّاح

* * *

مَلِكُ النبات، فكلُّ أرضٍ دارُه ... تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورَةٌ أعلامُه، من أحمرٍ ... قانٍ، وأبيضَ في الرُّبَى لمَّاح
لبِستْ لمقْدَمه الخمائلُ وَشْيَها ... ومَرَحْىَ في كنَف له وجناح
يغشى المنازلَ من لواحظ نرجس ... آنًا، وآنًا من ثغور أقاح[121]
ورءُوس «منثورٍ» خَفَضْنَ لعزَّه ... تيجانَهنَّ عواطرَ الأرواح
الوردُ في سُرُر الغصونِ مُفتَّحٌ ... متقابل يُثني على الفَتَّاح
ضاحِي المواكب في الرياض، مُمَيَّزٌ ... دون الزهور بشَوْكةٍ وسلاح
مرَّ النسيمُ بصفحتيه مُقبِلاً ... مرَّ الشِفَاه على خدود ملاح
هتكَ الردى من حسنِه وبهائه ... بالليل ما نسجتْ يدُ الإصباح
ينبيك مصرعُه — وكلُّ زائلٌ — ... أن الحياة كغُدوةٍ ورَواح
ويقائق النَّسْرِينِ في أغصانها ... كالدُّرَّ رُكِّب في صدور رماح[122]
و«الياسَمينُ»، لَطيفُه ونَقيُّه ... كسريرة المتنزَّه المِسماح
مُتألِّقٌ خَلَل الغصون، كأنه ... في بُلجْة الأفنانِ ضوءُ صباح[123]

و«الجُلَّنَارُ» دمٌ على أوراقِه   قاني الحروفِ، كخاتَم السفاح
وكأن مخزونَ «البنفسَج» ثاكلٌ   يَلْقَى القضاءَ بخشية وصلاح
وعلى «الخواطرِ» رِقَّةٌ وكآبةٌ   كخواطر الشُّعراءِ في الأتراح[124]
والسَّرْوُ في الحِبَرِ السوابغ كاشفٌ   عن ساقِه كمليحة مِفْراح[125]
و«النخلُ» ممشوقُ العُذُوقِ، مُعصَّبٌ   متزيِّنٌ بمناطق ووِشاح
كبناتِ فرعونٍ شهدنَ مواكبًا   تحتَ (المراوح) في نهارٍ ضاح
وترى الفضاءَ كحائط من مَرْمَر   نُضِدَتْ عليه بدائعُ الألواح
الغَيَمُ فيه كالنَّعام: بَدينةٌ   بركتْ، وأخرى حَلَّقتْ بجَناح
والشمسُ أبهى من عروسٍ بُرقعتْ   يوم الزَّفاف بعسجَد وضَّاح
والماءُ بالوادي يُخالُ مَساربًا   من زئبق، أو مُلقَياتِ صِفاحِ[126]
بعثتْ له شمسُ النهار أشعَّةً   كانت حُلى (النَّيْلُوفَرِ) السباح
يزهو على ورِق الغصون نثيرُها   زَهْوَ الجواهِرِ في بطون الرَّاح
وجرت سواقٍ كالنَّوادب بالقُرى   رُعْنَ الشجيَّ بأنَّةٍ ونُوَاح
الشاكياتُ وما عَرَفْنَ صبابةً   الباكياتُ بمَدْمَع سحَّاح
من كلِّ باديةِ الضلوع غليلةٍ   والماءُ في أحشائها، مِلواح[127]
تبكي إذا رَتَبَتْ، وتَضحكُ إن هَفَتْ   كالعِيس بين تَنَشُّط ورَزاح[128]
هي في السلاسل والغلو، وجارُها   أعمى، ينوءُ بنِيرِه الفدَّاح

* * *

إني لأذكرُ بالربيع وحسنِه   عهدَ الشباب وطِرفِه المِمراح[129]
هل كان إلاَ زهرةً كزهورِه   عجلَ الفناءُ لها بغير جُناح؟

* * *

(هول كين)، مصرُ رواية لا تنتهي   منها يدُ الكُتَّاب والشُّراح
فيها من البَرْدِيَّ، والمُزْمور، والـ   ـتوراةِ، والفرقان، والإصحاح[130]
(ومِنَا)، و(قمبيزٌ)، على (إسكندرٍ)   فالقيصَرين، فِذي الجلال (صلاح)
تلك الخلائقُ والدُّهورُ خزانةٌ   فابعثْ خيالَكَ يأتِ بالمفتاح
أُفقُ البلاد — وأنت بين رُبوعها —   بالنجم مزدانٌ وبالمصباح

مَسْجدُ أيَا صُوفْيَا

كنيسةٌ صارت إلى مسجِدِ   هديَّةُ السيَّدِ للسيَّدِ
كانت لعيسىَ حرمًا، فانتهت   بنُصرة الرُّوح إلى أحمد
شيَّدَها الرومُ وأقيالُهُم   على مثالِ الهَرمِ المُخْلَد[١٣١]
تُنبئُ عن عزٍّ، وعن صَولةٍ   وعن هوًى للدين لم يخمُد
مَجَامِرُ الياقوتِ في صَحْنها   تملؤهُ من نَدَّها المُوقَد[١٣٢]
ومثل ما قد أودِعَتْ من حُلىً   لم تتَّخذْ دارًا ولم تُحشَد
كانت بها العذراءُ من فضَّةٍ   وكان روحُ الله من عسجد
عيسى من الأمَّ لدى هالةٍ   والأمُّ من عِيسى لدَى فَرْقد
جَلاَّهُما فيها، وحلاَّهُما   مصوَّرُ الروم القديرُ اليد
وأودعَ. الجدرانَ من نقشه   بدائعًا من فنَّه المفردِ
فمن ملاكٍ في الدُّجَى رائحٍ   عند ملاكٍ في الضُّحى مغتدي
ومن نبات عاش كالبَبَّغا   وهْوَ على الحائط غَضٌّ نَدِي
فقلْ لمَنْ شادَ، فهَدَّ القُوَى   قوَى الأجيرِ، المُتْعَبِ، المُجهَد
كأنه فرعونُ لمَّا بنى   لربِّه بيتًا، فلم يَقصِد:[١٣٣]
أيُعبدُ الله بسوْمِ الوَرَى   ما لا يُسام العَيْرُ في المِقْود؟[١٣٤]
كنيسةٌ كالفَدَنِ المعتِلى   ومسجِدٌ كالقصر من أصْيدِ[١٣٥]
والله عن هذا وذا في غنىً   لو يعقِلُ الإنسان أو يهتدي
قد جاءَها (الفاتحُ) في عُصْبةٍ   من الأُسُود الرُّكَّع، السُجَّد
رمى بِهم بنيانَها، مثلَما   يصطدِمُ الجلْمَدُ بالجلْمَد[١٣٦]
فكبَّروا فيها، وصلَّى العِدا   واختلط المشهدُ بالمشهد
وما توانى الرومُ يَفْدُونَها   والسيف في المفْدِيِّ والمفتدِي
فخانها من قيصرٍ سعدُه   وأُيِّدتْ بالقيصرِ الأسعد
بفاتحٍ، غازٍ، عفيفِ القَنا   لا يحملُ الحقدَ، ولا يعتدي
أجار مَنْ ألقى مقاليدَه   منهم، وأصفى الأمنَ للمرتدي
وناب عمّا كان من زُخرفٍ   جلالةُ المعبود في المعَبد

فـيـا لـثـأْرٍ بـيـنـنـا بـعـده   أقـام، لـم يـقـرُبْ، ولـم يـبـعُـد
باقٍ كثأْر (القدس) من قبله   لا نـنـتـهـي مـنـه، ولا يـبـتـدي
فـلا يـغـرَّنْـك سـكـونُ الـمـلا   فـالشرُّ حولَ الصَّارمِ المُغْمَد
لـن ن يـتـركَ الرومُ عباداتِهم   أو يـنـزلَ الـتـركُ عـن الـسُّؤدَد
هـذا لـهـم بيت عـلـى بـيـتِـهـم   مـا أشـبـه الـمـسـجدَ بـالـمـسـجـد
فـإنْ يُـعـادوا فـي مـفـاتـيـحِـه   فـيـا لـيـومٍ لـلـورَى أُسـود
يَشيب فيه الطفلُ في مهدِه   ويُـزعَـج الـمـيْـتُ مـن الـمـرقـد
فـكـنْ لـنـا الـلـهـمَّ فـي أمـسـنـا   وكـن لـنـا الـيـومَ، وكـنْ فـي غـد
لـولا ضـلالٌ سـابـقٌ لـم يـقـمْ   مـن أجـلـكَ الـخـلـقُ ولـم يَـقْـعُـد
فـكـلُّ شـرًّ بـيـنـهـم أو أذى   أنـت بَـراءٌ مـنـه طُـهْـرُ الـيـد

غَابُ بُولونيَا[١]

يـا غـابَ بـولـون، ولِـي   ذمَـمٌ عـلـيـك، ولـي عُـهـودْ
زمـنٌ تـقـضَّـى لـلِـهـوَى   ولـنـا بِـظلِّكَ، هل يعود؟
حُـلُـمٌ أريـدُ رجـوعَـه   ورجـوعُ أحـلامـي بـعـيـد
وهَـبِ الـزَّمـانَ أعـادَهـا   هل للشبيبةِ مَنْ يُعيد؟
يـا غـابَ بـولـونَ، وبـي   وجْـدٌ مـع الـذكـرى يَـزيـدْ
خَـفَـقَـتْ لـرؤيـتكَ الـضـلـو   عُ، وزُلْزِلَ القلبُ العَميد[١٣٧]
وأراكَ أقـسـى مـا عَـهِـدْ   تُ، فـمـا تَـمـيلُ، ولا تَـمـيد
كـم يـا جـمـادُ قـسـاوَةً؟   كـم؟ هـكـذا أبـدًا جُـحـود؟
هـلاَّ ذكـرتَ زمـانَ كـنَّـا   والـزَّمـانُ كـمـا نـريـد؟
نطوِي إليك دُجى الليا   لـي، والـدُّجَـى عـنَّـا يَـذود

[١] غاب بولونيا: متنزَّه مشهور في باريس.

فنقولُ عندكَ ما نقو	لُ، وليس غيرُك مَنْ يُعيد
نُطْقي هوًى وصبابةٌ	وحديثُها وَتَرٌ وعُود
نَسْرِي، ونَسرحُ في فضا	ئِكَ، والرِّياحُ به هُجودْ
والطيرُ أقعدَها الكرى	والناسُ نامت والوجود
فنبيتُ في الإيناس يغـ	ـبطنا به النجمُ الوحيد
في كلِّ رُكْنٍ وقفةٌ	وبكلِّ زاويةٍ قُعود
نَسقي، ونُسقي، والهوى	ما بين أعيننا ولِيد
فِمن القلوب تمائم	ومن الجُنوبِ له مُهود
والغصنُ يسجُدُ في الفضا	ءِ، وحبَّذا منه السجود
والنجمُ يلحظنا بعيْـ	ـن ما تَحُولُ ولا تحيد
حتى إذا دَعت النَّوى	فتبدَّد الشملُ النضيد
بِتنا، ومما بيننا	بحر. ودون البحر بيد
لِيلي بمصرَ، وليلُها	بالغرب، وهو بها سعيد

المرأةُ العُثمانِيَّةُ

يا مَلَكًا تعبَّدا	مُصَلِّيًا موحِّدا
مباركًا في يومه	والأمسِ، ميمونًا غدا
مُسَخَّرًا لأمَّةٍ	من حقها أن تَسْعَدا
قد جعلْته تاجَها	وعِزَّها، والسُّوْددا
وأَعرضتْ حيث مشى	وأَطرقَتْ حيث بدا
تُجِلُّه في حسنه	كما تُجِلُّ الفَرْقَدا
أنت شُعاعٌ من عَلٍ	أنزله اللهُ هُدَى
كم قد أضاءَ منزلاً	وكم أنار مسجدًا
وكم كسا الأسواقَ من	حُسْنٍ، وزانَ البلدا
لولا التُّقَى لقلتُ: لم	يَخْلُقْ سواك الولدا

إن شئت كان العَيْرَ، أو ... إن شئت كان الأسدا
وإن تُـرِدْ غَـيًّـا غَـوَى ... أو تـبـغِ رُشْـدًا رَشَـدا
والبيتُ أنت الصوتُ فيـ ... ـه، وهو للصوت صَدَى
كـالـببَّـغـا فـي قـفـص ... قِـيـل لـه، فـقـلَّـدا
وكالقضِيب اللَّدنِ، قد ... طاوع في الشكل اليدا
يـأخَـذ مـا عـوَّدتَـه ... والـمـرءُ مـا تـعـوَّدا
مما انفردتَ في الورَى ... بـفـضـلـه وانـفـردا
وكلُّ لـيـثٍ قـد رَمَـى ... بـه الإمـامُ فـي الـعـدا
أنـتَ الـذي جـنَّـدتَـه ... وسُـقْـتَـه إلـى الـردى
وقلتَ: كنْ لله، والسـ ... ـلطانِ، والتركِ، فِدى

الْهِلاَلُ

سـنـونٌ تُـعـادُ، ودهـرٌ يـعـيـدْ ... لَعَمْرُكَ ما في اللَّيالِي جديد
أضـــاءَ لآدمَ هـــذا الـــهـــلالُ ... فكيف تقولُ: الهلالُ الوليد؟
نـعـدُّ عـلـيـه الـزَّمـانَ الـقـريـبَ ... ويُحْصِي علينا الزمانَ البعيد
على صفحتْيه حديثُ القُرى ... وأيـامُ (عـادٍ)، ودنـيـا (ثـمـود)
و(طِـيـبـةٌ) آهـلـةٌ بـالـمـلـوك ... (وطيبةٌ) مُقْفِرَةٌ بالصعيد
يـزول بـبـعـض سـنـاه الـصَّـفـا ... ويفنى ببعض سناه الحديد[١٣٨]
ومن عجَبٍ وهْوَ جَدُّ الليالي ... يُبيد الليالِيَ فيما يُبيد!!

* * *

يقولون يا عامُ: قد عدتَ لي ... فيا ليت شعري بماذا تعود؟
لقد كنتَ لي أمسِ ما لم أُرِدْ ... فهل أنت لي اليومَ ما لا أريد؟
ومَنْ صابَر الدَّهرَ صبري له ... شكا في الثلاثين شكوى (لَبِيد)[١٣٩]
ظمِئتُ، ومثلي بِرِيٍّ أحقُّ ... كأني حسينٌ، ودهري يَزيد[١٤٠]
تغابيتُ حتى صحِبتُ الجهولَ ... وداريتُ حتى صحبتُ الحسود

منظر الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة

لِمَنْ غُرَّةٌ تَنجلي من بعيد بمرْأى كما الحُلْم ضاحٍ سعيد؟
تَهُزُّ الوجودَ تباشيرُها كما هزَّ مِنْ والديه الوليد
ويغشى الدُّنا من حُلاها سَنىً أضاءَ لنا كلَّ حالٍ نضيد[١٤١]
من الموج مُلْتَمِعٌ، مثلما تَحَلَّتْ نحورُ الدُّمى، بالعقودْ[١٤٢]
أتتنا من الماءِ مُهتزَّةً منوَّرةً، تَعتلي للوجود
وتصْعَد من غير ما سُلَّمٍ فيا للمصوَّر هذا الصعود!
وهذا المنيرُ القريبُ القريب وهذا المنيرُ البعيدُ البعيد
وهذا المنير الذي لن يُرى وهذا المنير وكلٌّ شهيد
وهذا الجُسامُ الخفيفُ الخُطا وهذا الجُسامُ الذي ما يَميد
ويا للمصوَّر آثارها بكل بحارٍ، وفي كل بيد!!
وتقليلها كلَّ جمَّ السنا وتصغيرها كلَّ عالٍ مَشِيد
من النار، لكنَّ أطرافَها تدورُ بياقوتة لن تَبيد
من النار، لكنَّ أنوارَها إلهيَّةٌ، زُيِّنَتْ للعبيد
هي الشمسُ، كانت كما شاءَها مماتُ القديمِ، حياةُ الجديد
تَردُّ المياهَ إلى حَدِّها وتُبلي جبالَ الصفا والحديد[١٤٣]
وتطلُعُ بالعيشِ، أو بالرَّدى على الزرعِ: قائِمِه، والحَصِيد
وتسعى لذا الناسِ مهما سعتْ بخيرِ الوعودِ، وشرَّ الوعيد
وقد تتجلَّى إذا أقبلتْ بنُعْمى الشقيَّ وبؤسى السعيد
وقد تتولَّى إذا أدبرتْ وليست بمأمونة أن تعود
فما للغروب يَهيجُ الأسى وكان الشروقُ لنا أيَّ عيد؟
كَذا المرءُ ساعةَ مِيلادِه وساعةَ يدعو الحِمامُ العنيد
وليس بجارٍ ولا واقعٍ سوى الحقِّ مما قضاه المُريد

مَنْظَرُ طُلُوعِ الْبَدْرِ مِن سَفِينَةٍ

مَلِكَ السماءِ، بَهَرت في الأنوار فـفـداك كلُّ مُـتـوَّجٍ مـن ساري
لمَّا طلعتَ على المياه تُنيرها سكنتْ، وقد كانت بغير قرارِ
وزَهَتْ لناظرِها السماءُ، وقرّ ما في البحر من عُبُب، ومن تيَّار[١٤٤]
وأهـلَّ لـلـهِ الـسُّـراةُ، وأزلَـفـوا لك فـي الـكمـال تـحـيَّةَ الإكبار
وتـأمَّـلـوك، فـكـل جـارحـةٍ لـهـم عـيـنٌ تُـسـامِـر نـورَهـا وتُـسـاري
والبدر منكَ على العوالم يَجتلِي بِـشْـرَ الـوجـوه وزحـمـة الأبـصـار
مُـتقدَّمٌ فـي النُّور، مـحـجوبٌ بـه مُـوفٍ عـلـى الآفـاق بـالأسـفـار
يـا دُرَّةَ الـغـوَّاصِ أخـرَج ظـافـرًا يُـمـنـاه يـجـلـوهـا عـلـى الـنُّـظـار
مُتَهَلِّلا في الماءِ، أبدَى نصفَه يسْمُو بها، والنصفُ كاسٍ عار
وافى بك الأُفُقُ السماءَ، فأسفرتْ عن قُفْل ماسٍ، في سِوارٍ نُضَار
ونهضتَ، يزهو الكونُ منكَ بمنظر ضاحٍ، ويـحـملُ منك تاجَ فخَار
الـمـاءُ والآفـاقُ حـولـك فِـضَّـةٌ والـشُّـهْـبُ ديـنـارٌ لـدى ديـنـار
والفلكُ مشرقةُ الجوانبِ في الدُّجَى يـبـدو لـهـا ذيـلٌ مـن الأنـوار
بيْنَا تَخَطَّرُ في لُجَيْنٍ مائجٍ إذ تَـنـثـنِـي فـي عـسـجـدٍ زَخَّـار
وكـأنـهـا والـموجُ مـنـتـظـم وقـد أَوفـيـتَ ثـم دنـوتَ كـالـمُـحـتـار
غَـيْـداءُ لاهـيـةٌ، تَـخُـطُّ لأغْـيَـدٍ شِـعْـرًا لـيـقـرأه، وأنـتَ الـقـارى
فليهْنِ بدرَ الأرضِ أنكَ صِنوُهُ ونـظـيـرُه قُـرْبًـا وبُـعْـدَ مَـزار
وحـلاكُـمـا، مـا الـبـدُر إلاَّ أنـتـمـا وسـواكـمـا قـمـرٌ مـن الأقـمـار
أنت الكريمُ على الوجود بوجهه وهي الضنينةُ بالخيالِ الساري
هـيـفـاءُ أهـواهـا، وأعـشـقُ ذكـرَهـا لـكـن أداري، والـمـحـبُّ يُـداري
لي في الهوى سِرٌّ أبيتُ أَصُونه والـلـه مُـطَّـلِـعٌ عـلـى الأسـرار

بَلْدَةُ الْمُؤْتَمَرِ لنَاظِرِهَا في بَهْجَةِ مَناظِرِها

جنيف وضواحيها

لا السُّهْدُ يُدنيني إليه، ولا الكرى   طَيْفٌ يزورُ بفضله مهما سرى

تَخِذَ الدُّجى، وسماءَه، ونجومَه   سُبُلاً إلى جفنيك، لم يرضَ الثرى

وأتاكَ موفورَ النعيم، تخالُه   مَلكًا تنمُّ به السماءُ، مُطهرا

علِم الظلامُ هبوطَه، فمشتْ له   أهدابُه يأخذْنه مُتحدَّرا

وحَمى النسائمَ أن تروحَ وأن تَجِي   حَذَرًا وخوفًا أن يُراع ويُذعَرا

ورقدْتَ تُزْلِف للخيال مكانَه   بين الجفون. وبين هُدبِك، والكرى

فهَنِئتَهُ مثلَ السعادةِ شائقًا   متصوِّرًا ما شئتَ أن يتَصوَّرا

تَطوى له الرُّقباء منصورَ الهوى   وتَدوس ألسنةَ الوشاةِ مظفَّرا

لولاَ امتنانُ العين يا طيفَ الرضا   ما سامحت أيامَها فيما جرى

بانت مُشوَّقةً، وبات سوادها   زُونَا بتمثال الجمال منوَّرا

تُعطَى المنى، وتنيلهنَّ خليقةً   بك أن تُقدِّم في المنى وتؤخِّرا

وتعانِق القمرَ السَّنِيَّ عزيزةً   حتى إذا ودَّعتَ عانَقَت الثرى

في ليلةٍ قَدِم الوجودَ هلالُها   فدنت كواكبُها تُعلِّمه السُّرى

وتريه آثارَ البدورِ ليقتفي   ويرى له الميلادُ أن يتصدَّرا

ناجيتُ مَن أهوى، وناجاني بها   بين الرياض، وبين ماءِ (سُوَيْسِرا)

حيث الجبالُ صِغارُها وكبارُها   من كل أبيضَ في الفضاءِ وأخضرا

تَخِذَ الغمامُ بها بيوتًا، فانجلت   مشبوبةَ الأجرام، شائبةَ الذُّرَى

والصخرُ عالٍ، قام يشبه قاعدًا   وأناف مكشوفَ الجوانبِ مُنذِرا

بين الكواكب والسَّحابِ، ترى له   أُذُنًا من الحجر الأصمِّ ومِشفَرا[١٤٥]

والسفحُ من أيِّ الجهاتِ أتيتَه   ألفيته دَرَجًا يَموج مُدوَّرا

نثَر الفضاءُ عليه عِقدَ نجومِه   فبدا زَبَرْجَدُه بهنَّ مجوهرا

وتنظَّمتْ بِيضُ البيوت، كأنها   أوكارُ طيرٍ، أو خَمِيسٌ عسكرا[١٤٦]

والنجمُ يبعث للمياه ضياءَه   والكهرباءُ تضيءُ أثناءَ الثرى

هام الفراشُ بها، وحام كتائبًا   يحكي حوالَيْها الغمامَ مسيَّرا

خُلِقت لرحمته، فباتت نارُه   بَرْدًا، ونار العاشقين تَسَعُّرا
والماءُ من فوق الدِّيار، وتحتَها   وخِلالها يجري، ومن حول القرى
مُتصوِّبًا، مُتصعِّدًا، مُتمهِّلاً   مُتسرِّعًا، مُتسلسِلاً، مُتعثِّرا
والأرضُ جِسْرٌ حيث دُرْت ومَعْبَرٌ   يصلان جِسرًا في المياه ومعبرا
والفُلكُ في ظلِّ البيوت مواخِرًا   تطوي الجداولَ نحوها والأنهُرا
حتى إذا هَدأ المَلا في ليله   جاذبتُ لَيْلِي ثوبَه متحيِّرا
وخرجت من بين الجسور، لعلَّني   أستقبِل العَرْفَ الحبيبَ إذا سرى
آوِي إلى الشجرات، وهْيَ تهزُّني   وقد اطمأنَّ الطيرُ فيها بالكرى
ويهزُّ مني الماءُ في لمعانه   فأَميلُ أنظر فيه، أطمعُ أن أرى
وهنالك ازْدَهَت السماءُ، وكان أن   آنَستُ نورًا ما أتمَّ وأبهرا!!
فسريتُ في لألائِه، وإذا به   بدرٌ تسايره الكواكبُ خُطَّرا
حُلُمٌ أعارتني العنايةُ سمعها   فيه، فما استتممْتُ حتى فُسَّرا
فرأيتُ صفوي جَهرةً، وأخذتُ أنـ   ـسى يقظةً، ومُنايَ لَبَّتْ حُضَّرا
وأشرت: هل لُقْيا؟ فأُوحِيَ: أنْ غدًا   بالطَّود أبيض من جبال (سُوَيْسِرا)
إن اشرقت زهراءَ تسمو للضحى   وإذا هوت حمراءَ في تلك الذُّرى
فشروقُها منه أتمُّ معانيًا   وغروبُها أجلى وأكملُ منظرًا
تبدو هنالك للوجود وَلِيدةً   تهْنا بها الدُّنيا، ويغتبط الثرى
وتضيءُ أثناءَ الفضاءِ بغُرَّةٍ   لاحَت برأسِ الطَّوْدِ تاجًا أزهَرا
فسمَتْ، فكانتْ نصفَ طارٍ، ما بدا   حتى أنافَ، فلاحَ طارًا أكبرا
يعلو العوالمَ، مُسْتَقِلا، ناميًا   مُستعصيًا بمكانه أن يُنْقَرا
سالت به الآفاقُ، لكنْ عسجدًا   وتغطَّت الأشباحُ، لكنْ جوهرا
واهتزَّ، فالدُّنيا له مُهتزَّةٌ   وأنار، فانكشف الوجودُ منوَّرًا
حتى إذا بلغ السُّمُوُّ كمالَه   أذنِت لداعي النقصِ تهوي القهقرى[١٤٧]
فدنت لناظرِها، ودان عنانُها   وتبدَّل المستعظمُ المستصغرا
واصفرَّ أبيضُ كلِّ شيءٍ حولَها   وأحمرَّ بُرْقُعُها وكان الأَصفرا
وسما إليها الطَّودُ يأخذُها، وقد   جعلتْ أعالِيَهُ شريطًا أحمرا
مسَّته، فاشتعلت بها جَنَباته   وبدتْ ذُراه الشُّمُّ تحمل مِجْمرا

فكأنما مدَّتْ به نيرانَها ... شَرَكًا لتصطادَ النهارَ المدْبِرا
حرقته، واحترقت به، فتولَّيا ... وأتى طلُولَهما الظلامُ فعسكرا
فشروقُها الأملُ الحبيبُ لمَنْ رأى ... وغروبُها الأجلُ البغيضُ لمَنْ درى
خَطبانِ قاما بالفناءِ على الصَّفا ... ما كان بينهما الصفاءُ ليعمُرا
تتغير الأشياءُ مهما عاودا ... والله عزَّ وجلّ لن يتغيرا
أنهارنا تحت (السليف)، وفوقَه ... ولدى جوانِبه، وما بين الذُّرى
رَجْلاً، ورُكْبانًا، وزَحْلَقَةً على ... عَجلٍ هنالك كهربائيَّ السَرى
في مركبٍ مُستأنسٍ، سألت به ... قُضُبُ الحديدِ، تعرُّجًا وتحدُّرا
ينساب ما بين الصخور تمهُّلاً ... ويخفُّ بين الهُوَّتين تَخطُّرا
وإذا اعتلى بالكهرباءِ لذروةٍ ... عصماءَ، همَّ معانقًا متسوِّرا
لما نزلنا عنه في أُمَّ الذُّرى ... قمنا على فرع (السليف) لننظرا
أرضٌ تموجُ بها المناظرُ جَمَّةٌ ... وعوالمٌ نِعْمَ الكتابُ لمَنْ قرا
وقُرىً ضَرَبْن على المدائنِ هالةً ... ومدائنٌ حَلَّيْنَ أجيادَ القُرَى
ومزارعٌ للناظرين روائعٌ ... لَبس الفضاءُ بها طرازًا أخضرا
والماءُ غُدْرٌ ما أرقَّ وأغْزَرا!! ... وجداولٌ هنَّ اللُّجَيْنُ وقد جرى
فحشون أفواهَ السهولِ سبائكًا ... وملأنَ أَقبالَ الرواسخِ جوهرا[١٤٨]
قد صغَّر البعدُ الوجودَ لنا، فيا ... لله ما أحلى الوجودَ مَصغَّرا!!

(وقال يصف مشاهد الطبيعة في طريقه إلى الآستانة قادمًا من أوربا:)

تلك الطبيعةُ، قِف بنا يا ساري ... حتى أريكَ بديعَ صُنْعِ الباري
الأرضُ حولك والسماءُ اهتزَّتا ... لروائع الآياتِ والآثار
من كلِّ ناطقةِ الجلال، كأنها ... أُمُّ الكتاب على لسان القاري[١٤٩]
دَلَّتْ على مَلِكِ الملوكِ، فلم تَدَعْ ... لأدلَّة الفقهاءِ والأحبار[١٥٠]
مَنْ شَكَّ فيه فنظرةٌ في صُنْعِه ... تمحو أثيمَ الشكَّ والإنكار

***

كشف الغطاء عن (الطرول) وأشرقت ... منه الطبيعةُ غيرَ ذاتِ سِتار

شَبَّهْتُهَا (بلقيسَ) فوق سريرها ... في نَضْرَةٍ، ومواكبٍ، وجواري
أو (بابن داوُدٍ) وواسعِ مُلكه ... ومعالمٍ للعزِّ فيه كبار[١٥١]
هُوجُ الرَّياح خواشعٌ في بابه ... والطيرُ فيه نواكسُ المِنقار[١٥٢]

* * *

قامت على ضاحي الجنان كأنها ... رضوانُ يُزجي الخُلد للأبرار[١٥٣]
كم في الخمائل وهي بعض إمائها ... من ذاتِ خلخالٍ، وذاتِ سوار[١٥٤]
وحَسِيرَةٍ عنها الثيابُ، وبَضَّةٍ ... في الناعماتِ تجرُّ فضلَ إزار[١٥٥]
وضَحوكِ سنٍّ تملأُ الدنيا سنًى ... وغريقةٍ في دمعها المِدْرار
ووحيدةٍ بالنجدِ تشكو وحشةً ... وكثيرةِ الأتراب بالأغوار[١٥٦]

* * *

ولقد تمرُّ على الغدير تخاله ... والنبْت مرآة زهتْ بإطار[١٥٧]
حلو التسلْسُل موجُهُ وجريرُه ... كأنامل مرَّت على أوتار
مدَّت سواعد مائه وتألَّقت ... فيها الجواهر من حَصًى وجِمار[١٥٨]
ينساب في مُخضلَّةٍ مُبتلَّةٍ ... منسوجةٍ من سُندُسٍ ونُضار[١٥٩]
زهراءَ عَوْنِ العاشقين على الهوى ... مختارةِ الشعراءِ في آذار
قام الجَليدُ بها وسالَ، كأنه ... دَمعُ الصبابةِ بلَّ غضن عذار
وترى السماءَ ضحىً وفي جنحِ الدُّجى ... مُنشقَّةً من أنهرٍ وبحار[١٦٠]
في كلِّ ناحيةٍ سلكتَ ومذهبٍ ... جبلانِ من صخر وماءٍ جاري
من كلِّ مُنهمرِ الجوانبِ والذُّرى ... غَمْرِ الحضيضِ، مُجلَّلٍ بوقار[١٦١]
عقد الضريبُ له عمامةَ فارعٍ ... جَمَّ المهابةِ من شيوخ نِزَار[١٦٢]
ومكذَّبٍ بالجنِّ ريع لصوتها ... في الماءِ منحدرًا وفي التيار
مَلأ الفضاءَ على المسامع ضجَّةً ... فكأنما ملأ الجهاتِ ضَواري
وكأنما طوفانُ نوحٍ ما نرى ... والفلكُ قد مُسِخَتْ حثيثَ قِطار
يجري على مثل الصرِّاط، وتارةً ... ما بين هاويةٍ وجُرْفٍ هاري

* * *

جاب الممالكَ حزْنَها وسهولَها وطوى شِعابَ (الصرب) (والبلغار)[١٦٣]
حتى رمى برحالنا ورجائنا في ساحِ مَأمولٍ عزيز الجار
مَلِكٌ بمَفْرَقِه إذا استقْبلتَه تاجان: تاجُ هُدًى، وتاجُ فَخارِ
سكَنَ (الثريَّا) مُستقرَ جلالِه ومشت مكارمُه إلى الأمصار
فالشرقُ يُسقَى دِيمةً بيمينه والغرب تمطره غيوثُ يَسار[١٦٤]
ومدائنُ البرَّيْنِ في إعظامه وعوالمُ البَحْرَيْنِ في الإكبار
الله أيَّده بآساد الشَّرى في صورة المُتَدجِّج الجرَّار
الصاعدين إلى العدوَّ على الظُّبى النازلين على القنا الخطَّار[١٦٥]
المشترين الله بالأبناءِ، والـ ـأزواجِ، والأموالِ، والأعمار
القائمين على لواءِ نبيَّه المنزَلين منازلَ الأنصار

***

يا عرشَ (قسطنطينَ)، نلت مكانةً لم تُعطَها في سالفِ الأعصار
شُرَّفتَ بالصَّدِّيقِ، والفاروق، بل بالأقربِ الأدْنى من المُختَار
حامي الخلافةِ مجدِهَا وكِيَانِها بالرأيِ آونةً وبالبَتَّار[١٦٦]

***

تاهَتْ (فروقُ) على العواصم، وازدَهت بجلوسِ أصْيَد باذِخِ المقدار[١٦٧]
(جَمَّ الجلالِ، كأنما كرسيُّه جُزءٌ من الكرسيِّ ذي الأنوار)
أخذت على (البوسفور) زُخْرفَها دُجًى وتلألأتْ كمنازِلِ الأقمار
فالبدرُ ينظر من نوافِذِ منزلٍ والشمسُ ثَمَّ مُطِلَّةٌ من دار
وكواكِبُ الجوزاء تَخْطُر في الرُّبَى (والنَّسْر) مطلعُه من الأشجار
واسم الخليفة في الجهاتِ منوِّر تَبدو السبيلُ، به ويهدي السَّاري
كتبوه في شُرَفِ القصور، وطالما كتبوه في الأسماع والأبصار

***

يا واحدَ الإسلام غيرَ مُدافَعٍ أنا في زمانك واحدُ الأشعار
لي في ثنائِك — وهو باقٍ خالدٌ — شعرٌ على الشَّعْرَى المنيعةِ زاري[١٦٨]
أخلصتُ حبي في الإمام ديانةً وجعلته حتى المماتِ شِعاري

لم ألتمس عَرضَ الحياةِ، وإنما أقرضْتُهُ في الله والمُختار
إن الصنيعةَ لا تكون كريمةً حتى تُقَلِّدَها كريمَ نِجار
والحبُّ ليس بصادق ما لم تكن حَسَنَ التكرُّمِ فيه والإيثار
والشعر إنجيلٌ إذا استعملتَه في نَشْرِ مَكْرُمَةٍ وسَتْرِ عَوار
وثنَيْتَ عن كدَرِ الحِياضِ عِنانَه إنَّ الأديبَ مُسامحٌ ومُدارِي
عند العواهِلِ من سياسة دهرهم سِرٌّ، وعندك سائرُ الأسرار
(هذا مُقام أنت فيه محمدٌ أعداءُ ذاتك فِرقةٌ في النار)
(إن الهلالَ — وأنتَ وحدَك كهفُه — بين المعاقِل منك والأسوار)
لم يبقَ غيرك مَنْ يقول: أصونُه صُنْه بحولِ الواحدِ القهَّار

الْبُسْفُورُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ

على أيِّ الجنانِ بنا تَمُرُّ؟ وفي أيِّ الحدائق تَستقِرُّ؟
رويدًا أيها الفُلْكُ الأبرُّ بلغتَ بنا الربوعَ، فأنتَ حُرُّ؟[١٦٩]

* * *

سهرتَ ولم تنم للركبِ عَيْنُ كأن لَّمْ يُضْوِهم ضَجَرٌ وأَيْنُ[١٧٠]
يَحُثُّ خُطاكَ لُجٌّ، بل لُجَينُ بل الإبريزُ، بل أفقٌ أغرّ[١٧١]

* * *

على شِبه السهول من المياه تُحيط بك الجزائرُ كالشِّياه
وأنت لهنَّ راعٍ ذو انتباه تَكرُّ مع الظلام ولا تَفِرُّ

* * *

يُنيف البدرُ فوقك بالهَباءِ رفيعًا في السموِّ بلا انتهاءِ[١٧٢]
تَخالكُما العيونُ إلى التقاءِ ودون المُلتقى كوْنٌ ودهرُ

* * *

إلى أن قيل: هذا (الدردنيلُ) فسِرتَ إليه. والفجرُ الدليلُ
يُجيزكَ، والأمانُ به سبيلُ إذا هو لم يُجزْ فالماءُ خمر

* * *

تَمرُّ من المعاقلِ والجبالِ بعالٍ، فوقَ عالٍ، خلفَ عالي
إذا أَومَأن وقَّفَتِ الليالي وتحمي الحادثات، فلا تمرُّ

* * *

مدافِعُ، بعضها متقابلاتُ ومنها الصاعداتُ النازلاتُ
ومنها الظاهِرات وأُخرياتُ تَوارى في الصخور وتستسرُّ

* * *

فلو أنَّ البحارَ جرتْ مِئينا وكان اللُّجُّ أجمعُه سفينا
لِتَلْقى منفذًا، لَلقِينَ حَيْنا ولمَّا يمْسَسِ (البوغازَ) ضُرُّ

* * *

وبَعْدَ الأرخبيل وما يليه وتِيهٍ في العيالم أيَّ تيه[١٧٣]
بدا ضوءُ الصباح فسِرتَ فيه إلى (البسفور) واقترب المَقَرُّ

* * *

تُسايِرُكَ المدائنُ والأَناسِي وفُلْكٌ بين جَوَّالٍ وراسي[١٧٤]
وتحضُنك الجزائرُ والرَّواسي وتجري رِقَّةً لك وهي صخر

* * *

تسير من الفضاءِ إلى المَضِيق فآنًا أنتَ في بحر طليق
وآونةً لدى مَجْرًى سحيق كما الشلالُ قام لديه نهر

* * *

وتأْتي الأفْقَ تطويه سِجِلا لآخَرَ كالسَّرَّابِ إذا أضَلاَّ

إذا قلنا: المنازلُ، قيل: كلاَّ　　فدُونَ بلوغها ظُهرٌ وعصْرُ

* * *

إلى أن حلَّ في الأوْج النهارُ　　ولِلرَّائي تبيَّنت الدِّيارُ
فقلنا: الشمسُ فيها أم نُضار　　وياقوتٌ، ومَرْجانٌ، ودُرُّ؟

* * *

ودِدنا لو مَشيتَ بنا الهُوَينا　　وأين لنا الخلودُ لديك؟ أينا؟
لِنَبهَجَ خاطرًا ونَقَرَّ عينا　　بأحسنِ ما رأى في البحر سَفْرُ

* * *

بلَوْحِ جامع الصُّور الغَوالي　　وديوانٍ تفرَّد بالخيال
ومِرآةِ المناظر والمجالي　　تمرُّ بها الطبيعةُ ما تمرُّ

* * *

فضاءٌ مُثِّلَ الفِردوسُ فيه　　ومَرْأىَ في البحار بلا شبيه
فإيهٍ — بابناتِ الشعرِ — إيه　　فمالَكِ في عقوقِ الشعر عُذرُ

* * *

لأجلكِ سِرْتُ في برًّ وبحرِ　　وأنتِ الدَّهرَ أنتِ بكل قُطْرِ
حننتِ إلى الطبيعة دون مصرِ　　وقُلتِ لدى الطبيعة: أين مصرُ؟

* * *

فهلاَّ هزَّكِ التِّبرُ المذابُ　　وهذا اللَّوحُ، والقلمُ العُجاب
وما بيني وبينهما حجابُ　　ولا دوني على الآيات ستر؟

* * *

جهاتٌ، أمْ عذارى حالياتُ؟　　وماءٌ، أم سماءٌ. أم نباتُ؟
وتلك جزائرُ، أم نيِّراتُ؟　　وكيف طلوعُها والوقت ظهرُ؟

* * *

جلاها الأفق صُفْرًا وهْيَ خُضْرُ   كزَهـرٍ دونَـه فـي الـروض زهـرُ
لـوى بـحـرٌ بـهـا، والـتـفَّ بـحـرُ   كما ملَكت جهاتِ الدَّوْحِ غُدْر[١٧٥]

* * *

تلـوحِ بـهـا الـمـسـاجـدُ باذخـاتِ   وتـتَّـصـل الـمـعـاقـلُ شـامـخـاتِ
طِباقًا في العلى، متفاوتات   سـمـا بَـرٌّ بـهـا، وانـحـطَّ بـرُّ

* * *

وكـم أرضٍ هـنـالـك فـوق أرضِ   وروضٍ، فوق روضٍ، فوق روض
ودُورٌ بعضُـهـا من فوق بعـض   كسَطرٍ في الكتاب علاه سطر

* * *

سُـطـورٌ لا يـحـيـط بـهـنَّ رَسـم   ولا يُـحـصـي مـعـانـيـهـنَّ عِـلـم
إذا قُـرِئَـتْ جـمـيـعًـا فـهْـيَ نَـظْـم   وإن قُـرِئَـت فُـرَادى فـهْـيَ نـثـر

* * *

تـأَرَّجُ كـلَّـمـا اقـتـربـت وتـزكـو   ويـجـمـعـهـا من الآفـاق سِـلـك[١٧٦]
تشاكل ما به، فالقصرُ فُلْكُ   عـلـى بُـعْـدٍ لـنـا، والـفُـلْـكُ قـصـرُ

* * *

ونـونٌ دونـهـا فـي الـبـحـر نـونُ   من البسفور نقَّطها السَّفين
كـأنَّ الـسُّـبْـلَ فـيـه لـنـا عـيـون   وإنـسـانُ الـسـفـيـنـة لا يَـقِـرُّ

* * *

هنالك حفَّت النُّعْمى خُطانا   وحاطتنا السلامةُ في حمانا
فـألـقـيـنـا الـمـراسِـيَ. واحـتـوانـا   بـنـاءٌ لـلـخـلافـةِ مُـشْـمَـخِـرُّ

* * *

فيا مَنْ يطلب المرأى البديعا ويعشقه شهيدًا أو سميعا
رأيت محاسنَ الدنيا جميعًا فهنَّ الواوُ، والبسفورُ عمرو

الرِّحْلَةُ إلى الأنْدَلُسِ

لَمَّا وضعت الحربُ الشُّؤْمى أوزارها،[١٧٧] وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارَها،[١٧٨] ورمَّ لهم ربوعَ السِّلم، وجدَّد مَزارَها،[١٧٩] أصبحتُ وإذا العوادي[١٨٠] مُقصرة! والدواعي غير مقصَّرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجِدِّ، والبخار المشتدِّ، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط،[١٨١] فبلغتْ النفس بمرآه الأرب، واكتحلت العينُ في ثراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرِّقة المطالِع، في ذلك الفلكِ الجامع، يسرِي زائرُها من حرَم، كمن يُمسِي بالكرنك ويُصبح بالهرم، فلا تقاربَ غيرَ العِتق والكرم: (طُلَيْطِلة) تُطِلُّ على جسرها البالي، و(أشبيلية) تُشبِل[١٨٢] على قصرها الخالي، و(قرطبة) منتبذةٌ ناحية بالبيعةِ[١٨٣] الغرَّاءِ، و(غرناطة) بعيدة مَزارِ الحمراءِ. وكان «البحتري» رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال. فإنه أبلغُ مَنْ حَلَّى الأثر، وحيًّا الحجر، ونشر الخبر، وحشرَ العِبَر، ومَنْ قام في مأْتم على الدول الكُبَر، والملوك البهاليل الغُرر، عطف على (الجعفري) حين تَحمَّل[١٨٤] عنه الملا، وعطل منه الحُلى، ووُكِل بعد (المتوكل) للبِلى. فرفع قواعَده في السَّير، وبنى رُكنَه في الخبر، وجمع معالمه في الفِكَر، حتى عاد كقصور الخُلدِ امتلأت منها البصيرةُ وإن خلا البَصر، وتكفَّل بعد ذلك (لكسرى) بإيوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه. وسينيَّتُه المشهورةُ في وصفه، ليست دونه وهو تحت (كسر) في رصَّه ورَصْفه[١٨٥] وهي تُريك حُسْنَ قيامِ الشعرِ على الآثار، وكيف تتجدَّد الديار في بيوته بعد الاندثار. قال صاحب الفتح القُسي، في الفتح القدسي، بعد الكلام: «فانظروا إلى إيون كسرى وسينيةِ البحتري في وصفه، تجدوا الإيوانَ قد خرَّت شَعَفاته، وعُفَرت شرفاته، وتجدوا سينية (البحتري) قد بَقِي بها (كسرى) في ديوانه، أضعاف ما بَقي شخصُهُ في (إيوانه)».

وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صنت نفسي عما يُدنِّسُ نفسي ... وترفَّعت عن ندى كل جبس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والمنايا مواثل وأنوشر ... وان يُزجي الجيوش تحت الدَرَفس

فكنت كلَّما وقفتُ بحجر، أو أطفتُ بأثر، تمثَّلتُ بأبياتها، واسترحتُ من مَواثِل العبر إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وعظ البحتريَّ إيوانُ كسرى ... وشفتني القصورُ من عبد شمس

ثم جعلتُ أروض القولَ على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المُهلهلة، وأتممت هذه الكلمةَ الريِّضة. وأنا أعرضها على القُرَّاءِ راجيًا أن يلحظوها بعين الرضاءِ، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاءِ، وهذه هي:

اختلافُ النَّهارِ والليل يُنسي ... اذكرا لى الصِّبَا، وأيامَ أنسي

وصفا لي مُلاوةً من شباب ... صُوِّرت من تصوُّرات ومَسِّ[١٨٦]

عصفتْ كالصَّبا[١٨٧] اللعوبِ ومرَّت ... سِنةً[١٨٨] حُلوةً، ولذَّةَ خَلْس[١٨٩]

وسلا مصرَ: هل سلا القلبُ عنها ... أو أسا[١٩٠] جُرحَه الزمان المؤسّي؟

كلَّما مرَّت الليالي عليه ... رقَّ، والعهدُ في الليالي تُقسِّي[١٩١]

مُستَطارٌ[١٩٢] إذا البواخِرُ رنَّتْ[١٩٣] ... أولَ الليلِ، أو عَوَتْ بعد جَرْس[١٩٤]

راهبٌ[١٩٥] في الضلوع للسفن فَطْن[١٩٦] ... كلَّما ثُرْنَ شاعَهن بَنقس[١٩٧]

يا ابنَةَ اليمَّ،[١٩٨] ما أبوكِ بخيلٌ ... ما لَه مولَعًا بمنعٍ وحبس؟

أحرامٌ على بلابله الدَّوْ ... حُ، حلالٌ للطير من كلٍّ[١٩٩] جنس

كلُّ دارٍ أحقُّ بالأهل، إلا ... في خبيثٍ من المذاهب رِجْس

نَفَسي مِرجَلٌ،[٢٠٠] وقلبي شِراعٌ ... بهما في الدموع سِيرِي وأرسي

واجعلي وجهَكِ (الفنارَ)، ومجرا ... كِ يدَ (الثغرِ) بين (رملٍ) و(مكس)

وطني لو شُغِلتُ بالخلدِ عنه … نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهفا[٢٠١] بالفؤاد في سلسبيلٍ … ظمأٌ للسواد من (عين شمس)[٢٠٢]

شهِد الله، لم يَغِب عن جفوني … شخصُه ساعةً، ولم يخلُ حِسِّي

يُصبح الفكرُ و(المسلَّةُ) ناد … يه، و(بالسَّرحة الزكيَّة) يُمسي

وكأني أرى الجزيرةُ أيْكًا[٢٠٣] … نَغَمَتْ طَيْرُه بأرخم جَرس[٢٠٤]

هي (بلقيسُ) في الخمائل صْرحٌ[٢٠٥] … من عُبابٍ،[٢٠٦] وصاحبٌ غيرُ نِكس[٢٠٧]

حَسْبُها أن تكونَ للنيل عِرْسًا … قبلها لم يُجنَّ يومًا بعرس

لبستْ بالأصيل حُلَّةَ وَشْيٍ … بين صنعاء[٢٠٨] في الثياب وقَسٍّ[٢٠٩]

قدَّها النيلُ، فاستحتْ، فتوارتْ … منه بالجسرِ بين عُرْيٍ ولُبس

وأرى النيلَ (كالعقيق)[٢١٠] بوادي … ـه وإن كان كوثرَ المتحسِّي[٢١١]

ابنُ ماء السماءِ ذو الموكب الفخم … الذيَ يَحسرُ العيونَ ويُخسي[٢١٢]

لا ترى في ركابه غيرَ مُثْنٍ … بخَميلٍ، وشاكرٍ فضلَ عرس

وأرى (الجيزة) الحزينة ثَكْلَى … لم تُفِقْ بعدُ من مَناحة (رمسي)[٢١٣]

أكثرتْ ضجّةَ السواقي عليه … وسؤالَ اليراع عنه بهَمْس[٢١٤]

وقيامَ النخيل ضَفَّرْنَ شعرًا … وتجرَّدْنَ غَيْرَ طَوقٍ وسَلْس[٢١٥]

وكأنَّ الأهرامَ ميزانُ فرعو … نَ بيومٍ على الجبابر نَحْس

أو قناطيرُه تأنَّق فيها … ألفُ جَابٍ[٢١٦] وألفُ صاحبِ مَكْس[٢١٧]

روْعةٌ في الضحى، مَلاعِبُ جِنٍّ … حين يغشَى الدُّجى حماها ويُغسي[٢١٨]

و(رهينُ الرمال) أفطسُ، إلاَّ … أنه صُنْعُ جِنَّةٍ غير فُطْس[٢١٩]

تتجلَّى حقيقةُ الناس فيه … سَبُعُ الخَلْقِ في أسارير إنسي

لِعبَ الدَّهرُ في ثراه صبيًّا … والليالي كواعبًا غيرَ عُنْس[٢٢٠]

ركِبتْ صيَّدُ[٢٢١] المقادير عينيه … لنَقْدٍ، ومِخْلَبَيْهِ لفَرْس[٢٢٢]

فأصابت به الممالكَ: (كسرى) … (وهِرقْلاً)، (والعبقريَّ الفرنسي)

يا فؤادي، لكلِّ أمرٍ قرارٌ … فيه يبدو وينْجلِي بعدَ لَبْس

عَقَلتْ[٢٢٣] لُجَّةُ الأمورِ عقولاً … طالتْ الحوتَ طُولَ سَبْح وَغَسٍّ[٢٢٤]

غَرِقتْ حيثُ لا يُصاحُ بطافٍ … أو غريقٍ، ولا يُصاخُ لِحِسٍّ

فلَكٌ يِكسِفُ الشموسَ نهارًا … ويسومُ البدورَ ليلةَ وكْس[٢٢٥]

ومواقيتُ للأمورِ، إذا ما   بَلغْتْهَا الأمورُ صارتْ لِعَكْس

دُوَلٌ كالرجالِ، مرتهناتٌ   بقيامٍ من الجُدُّودِ وتَعْس

وليالٍ من كلِّ ذاتِ سِوارٍ   لطَمَتْ كلَّ رَبٍّ (رُومٍ) (وفُرْس)

سدَّدتْ بالهلالِ قوسًا، وسلَّتْ   خِنْجَرًا يَنْفُذان من كل تُرس

حكَّمتْ في القرون (خوفو) و(دارا)   وعفت[٢٢٦] (وائلا) وأَلْوَتْ (بعَبْس)

أين (مروانُ): في المشارق عرشٌ   أَمَوِيٌّ، وفي المغارب كرسي؟[٢٢٧]

سِقِمتْ شَمْسُهم، فردَّ عليها   نورَها كلُّ ثاقبِ الرأى نَطْس[٢٢٨]

ثم غابتْ، وكلُّ شمسٍ سِوَى هاتِيـ   نكَ تَبْلَى، وتَنطوي تحتَ رَمْس[٢٢٩]

وعظ (البحتريَّ) إيوانُ (كسرى)   وشَفَتْنِي[٢٣٠] القصورُ من (عبد شمس)

رُبَّ ليلٍ سريتُ والبرقُ طِرْقِي   وبساطٍ طويْتُ والريحُ عَنْسى[٢٣١]

أَنْظِمُ الشرقَ في (الجزيرة) بالغر   بِ، وأطْوِي البلادَ حَزْنًا[٢٣٢] لَدهس[٢٣٣]

في ديارٍ من الخَلائف[٢٣٤] دَرْسٍ   ومنار[٢٣٥] من الطوائف طمس

ورُبىً كالجنانِ، في كنفِ الزيتو   نِ خُضْرٍ، وفي ذَرا الكَرْمِ طُلْس[٢٣٦]

لم يَرُعْني سوى ثَرىً قُرْطُبِيَّ   لمستْ فيه عِبْرَةَ الدَّهر خَمسي

يا وقَى الله ما أُصَبَّحُ منه   وسَقَى صَفْوَةَ الحيَا ما أُمَسيِّ

قَرْيَةٌ لا تُعَدُّ في الأرض، كانت   تُمسِكُ الأرضَ أن تَميدَ وتُرْسي

غَشِيتْ ساحلَ المحيط، وغطَّتْ   لُجَّةَ الرُّومِ من شراعٍ وقَلْسِ[٢٣٧]

رِكِب الدَّهرُ خاطري في ثراها   فأتى ذلك الحِمَى بعد حَدْس[٢٣٨]

فتجلَّتْ لِي القصورُ ومَنْ فيـ   ـها من العزِّ في منازلَ قُعْس[٢٣٩]

ما ضفتْ[٢٤٠] قَطُّ في الملوكِ على نَذْ   لِ المعالي، ولا تردَّتْ بنَجْس

وكأني بلغتُ للعلمِ بيتًا   فيه ما للعقولِ من كل دَرس

قُدُسًا في البلادِ شرقًا، وغربًا   حَجَّهُ القومُ من فقيهٍ وقَسِّ

وعلى الجمعةِ الجلالةُ، و(النا   صُر) نورُ الخميس تحت الدَّرَفس[٢٤١]

يُنزلُ التاجَ عن مفارقِ (دُونٍ)   ويُحَلِّي به جبينَ (البرنس)

سِنَةٌ من كرًى، وطيفُ أمانٍ   وصحا القلُب من ضلالٍ وهَجْس[٢٤٢]

وإذا الدارُ ما بها من أنيسٍ   وإذا القومُ ما لَهم من مُحسِ[٢٤٣]

ورقيقٌ من البيوت عتيقٌ   جاوز الألفَ غيرَ مذموم حَرْس[٢٤٤]

أثَرٌ من (محمَّدٍ)، وتُراثٌ ... صار (للروح) ذي الولاءِ الأَمَسِّ[٢٤٥]

بَلَغَ النَّجمَ ذِرْوَةً، وتناهى ... بينَ (ثَهْلاَنَ)[٢٤٦] في الأساس و(قُدس)[٢٤٧]

مَرْمَرٌ تسبَحُ النواظرُ فيه ... ويطول المدى عليها فتُرسي

وسَوارٍ[٢٤٨] كأنها في استواءٍ ... أَلِفاتُ الوزيرِ في عَرْضِ طِرْس[٢٤٩]

فَتْرَةُ الدَّهر قد كست سَطَرَيْها[٢٥٠] ... ما اكتسى الهدبُ من فتورٍ ونعس

وَيْحَهَا! كَمْ تزيَّنتْ لعليمٍ ... واحِدِ الدَّهْرِ، واستعدَّت لخَمس[٢٥١]

وكأن الرفيفَ[٢٥٢] في مسرح العيـ ... ـن مُلاءٌ مُدَرَّاتُ الدَّمَقس[٢٥٣]

وكأن الآياتِ في جانبيه ... يتنزَّلن في معارج قُدس[٢٥٤]

مِنبرٌ تحت (مُنذرٍ)[٢٥٥] من جلال ... لم يزل يكتسيه، أو تحتَ (قُسَّ)

ومكانُ الكتاب يُغريكَ رَيَّا ... وَرْدِه غائبًا، فتدنو لِلَمْس[٢٥٦]

صَنْعَةُ (الدَّاخِل)[٢٥٧] المباركِ في الغر ... ب، وآلٍ له مَيامِينَ شُمْس[٢٥٨]

***

مَنْ (الحمراءَ) جُلِّلَتْ بغُبار الـ ... ـدَّهْرِ، كالجُرح بين بُرْءٍ ونُكس

كسَنا البرقِ، لو محا الضوءُ لحظًا ... لمحتها العيونُ من طول قَبْس

حِصْنُ (غرناطة)، ودارُ بني (الأحـ ... ـمر): من غافلٍ، ويقظانَ نَدْس[٢٥٩]

جَلَّلَ الثلجُ دونَها رأسَ (شِيرى) ... فبدا منه في عصائبَ بِرس[٢٦٠]

سَرْمَدٌ شَيْبُهُ، ولم أرَ شَيْبًا ... قبلَه يُرجى البقاءَ ويُنسى

مَشَت الحادثاتُ في غُرَف (الحمـ ... ـراءِ) مَشْيَ النَّعِيِّ في دار عرس

هَتَكَتْ عِزَّةَ الحجاب، وفضَّت ... سُدَّةَ الباب من سمير وأنس

عَرَصاتٌ تخلَّت الخيلُ عنها ... واستراحت من احتراسٍ وعَسِّ[٢٦١]

ومَغانٍ على الليالي وِضاءٌ ... لم تجد للعَشِيِّ تكرارَ مَسَّ

لا ترى غيرَ وافدين على التا ... ريخ، ساعِينَ في خشوع ونكس

نقَّلوا الطرفَ في نضارَةِ آسٍ ... من نقوش، وفي عُصارة وَرْس[٢٦٢]

وقِبابٍ من لازَوَرْدٍ وِتبرٍ ... كالرُّبى الشُّمَّ بين ظلٍ وشمس

وخطوطٍ تكفَّلَتْ للمعاني ... ولألفاظها بأزين لِبْسِ

وترى مجلسَ السباع خَلاءً ... مُقْفِرَ القاعِ من ظِباءٍ وخنس

لا (الثُّريَّا)، ولا جواري الثريا ... يتنزَّلْنَ فيه أقمارَ إنْس

مرْمَرٌ قامت الأسودُ عليه — كَلَّةَ الظُّفرِ. ليِّنَاتِ المَجَسِّ
مرَمرٌ الماءَ في الحياض جُمانًا — يَتنزَّى على ترائبَ مُلس
آخرَ العهدِ بالجزيرة كانت — بعد عَركٍ من الزمان وضَرس[٢٦٣]
فتراها، تقول: رايةُ جيشٍ — بادَ بالأمس بين أسرٍ وحَسٍّ[٢٦٤]
ومفاتيحُها مقاليدُ مُلكٍ — باعها الوارثُ المُضِيعُ بِبَخْسِ
خرج القومُ في كتائبَ صُمٍّ — عن حفاظ، كموكب الدَّفْن خُرْس[٢٦٥]
ركِبوا بالبحار نَعْشًا، وكانت — تحت آبائهم هي العرش أمسِ
رُبَّ بانٍ لهادمٍ، وجَمُوعٍ — لمُشِتٍّ، ومُحْسِنٍ لمُخْسِّ
إمْرةُ الناسِ هِمَّةٌ، لا تَأَتَّى — لجبانٍ، ولا تسَنَّى لجِبس[٢٦٦]
وإذا ما أصاب بنيانَ قومٍ — وهْيُ خُلْقٍ، فإنه وَهْيُ أسِّ
يا ديارًا نزلتُ كالخُلد ظِلاًّ — وَجَنىً دانيًا، وسَلْسَالَ أنس
مُحسِناتِ الفُصولِ، لا ناجِرٌ[٢٦٧] فيـ — ـها بِقَيْظٍ، ولا جُمادَى بِقرس[٢٦٨]
لا تَحِشَّ العيونُ فوق رُباها — غيرَ حُورٍ حُوَّ[٢٦٩] المراشف،[٢٧٠] لُعْس[٢٧١]
كُسِيَتْ أَفْرُخي بظلِّكِ ريشًا — وَرَبا في رُباكِ واشتدَّ غَرْسي
هم بنو مصرَ، لا الجميلُ لديهم — بُمضاعٍ، ولا الصنيعُ بمَنسي
من لسانٍ على ثنائكِ وَقْفٌ — وجَنانٍ على ولائكِ حَبْس
حَسبْهُم هذه الطلولُ عِظَاتٍ — من جديدٍ على الدهور ودَرْس
وإذا فاتك التفات إلى الما — ضي فقد غاب عنك وجهُ التأسِّي

كُوكْ صُو

قال يصف (كوك صو) وهو موقع جميل في الآستانة العليَّة. ومعنى اللفظين اللذين سُمِّي بهما (ماء السماء)

تحيَّةُ شاعرٍ يا ماءَ (جَكْسو) — فليس سواك للأرواح أنْسُ
فدَتك مياهُ (دِجلَةَ) وهي سَعدٌ — ولا جُعلتْ فداءَك وهي نحسُ
وجاءَكَ ماءُ (زمزمَ) وهو طُهْرٌ — وأَمونٌ على الأردُنَّ قُدْس

وكان (النيلُ) يُعرِس كلَّ عامٍ   وأنت على المدى فَرْحٌ وعُرس
وقد زعموه للغادات رَمْسًا   وأنت لِهَمِّهِنَّ الدَّهرَ رَمسُ
ورَدنكَ كوثرًا، وسَفَرنَ حُورًا   وهل بالحور إن أسفرنَ بأس؟
فقل للجانحين إلى حجاب   أتُحجَبُ عن صنيع الله نَفسُ؟
إذا لم يَسترِ الأدبُ الغواني   فلا يُغني الحريرُ، ولا الدِّمقس
تأمل. هل ترى إلاَّ جلالاً   تُحِسُّ النفسُ منه ما تحس؟
كأن الخُود[٢٧٢] (مريمُ) في سُفور   ورائيها حوارِيٌّ وقسُّ
تهيَّبها الرجالُ، فلا ضميرٌ   يهمُّ بها، ولا عينٌ تُجِسُ
غَشِيتُك والأصيلُ يفيض تبرًا   ويَنسجُ للرُّبى حُللاً ويكسو
وتذهب في الخليج له وتأتي   أناملُ تَنْثر العِقيانَ[٢٧٣] خَمْس
وفي جِيد الخميلةِ[٢٧٤] منه عِقدٌ   وفي آذانها قُرْطٌ وسَلس[٢٧٥]
ولألأت الجبالُ فضاءَ سَفْحٍ   يَسُرُّ الناظرين، ونارَ رأس
عل فُلكٍ تسير بنا الهُوَيْنى   ومِنْ شعري نديمٌ لي وجِلس
تُنازِعُنا المذاهبَ حيثُ مِلْنا   زَوارقُ حولنا تجري وترسو
لها في الماءِ مُنسابٌ كطير   تُسِفُّ[٢٧٦] عليه أحيانًا وتَحسو
صغارِ الحجم، مُرْهَفَةِ الحواشي   لها عُرفٌ[٢٧٧] إذا خطرت وجَرْس[٢٧٨]
إذا المِجدافُ حَرَّكها اطمأنَّت   وإنْ هو لم يُحَرَّكْ فَهْيَ رعس[٢٧٩]
وَإنْ هوَ جَدَّ في الماءِ انسيابا   فكُلٌّ طريقه وَتَرٌ وقَوْس
حَملْنَ اللؤلؤ المنثورَ عِينًا[٢٨٠]   كما حَمَلَتْ حَبابَ الراحِ كأس
كأن سوافِرَ[٢٨١] الغاداتِ فيها   مَلائكُ هَمُّها نَظَرٌ وهَمْس
كأن براقعَ الغاداتِ تهفو   على وجناتها غَيْمٌ وشمس
كأن مآزرَ[٢٨٢] العِينِ انتسابا   زهورٌ لا تُشَمُّ، ولا تُمَسُّ
إذ نُشِرتْ، فريحانٌ ووَرْدٌ   وإن طُويت، فنَسْرينٌ ووَرْس
عجبتُ لهنَّ يجمعُهنَّ حسنٌ   ولكنْ ليس يجمعُهنَّ لُبس
فكان لنا بظلِّكَ خيرُ وقتٍ   وخيرُ الوقتِ مالَك فيه أنس
نمتِّع منكَ (يا جكسو) نفوسًا   بها من دهرها هَمٌّ وبُؤس
على أن بان سِرُّك فانثنينا   وقد طُوِيَ النهارُ، ومات أمس

وقال في كلاب الآستانة وكان يُضْرَبُ بها المثلُ في الكثرة والقذارة:

قالوا (فروقُ) الملكِ دارُ مَخاوفٍ لا ينقضي لنزيلها وسْواسُ
وكلابُها في مأمنٍ، فاعجب لها أَمِنَ الكلابُ بها، وخاف الناسُ

أنَسُ الوُجُود

إلى المستر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة

أتأذن لرجلٍ تعوَّد أن يخرجَ عن دائرةِ (الموظف) كلَّما عرضَت حال يخدم الوطنَ فيها الرجالُ يرفع لشعرِه ذكره، ويشرِّفَ قدرَه، مهديًا إليكَ منه هذه القصيدة في لغة (الضاد)، وهي مما قلتُ في (أنس الوجود) ذلك الأثر المحتضر، الذي جمع العِبَر، ومحاه الدهر أو كاد وكان إحدى آياته الكبر، هياكل «لفرعون» و«بطليموس»، تَورَاثها عن «الكهنة» «القسوس». ثم لا تكون عَشية أو ضُحاها حتى يهوي في الماءِ كلُّ حجر كان يُقبَّل (كالأسْوَد)،[٢٨٣] وكل ركن كان يُستلم «كالحطيم»[٢٨٤] شهدتُ على «أنس الوجود» ما يُعلم الإنسانَ — ولو أنه (روزفلت) علمًا وحكمة وأدبًا — كيف يَحتقرُ الدنيا ويحترم الدين جميعًا. دخلتُه ذات يوم وكان «الدوق أوف كونوت» لديه يتمشى في ظِلالِه، ويتنقلُ بين رسومِه وأطلالِه، عيناه ونفسه في إكباره وإجلاله، فكانت مني التفاتة فرأيت «فلاَّحا» أقبلَ ثم ألقى عباءَته وتوجَّه يصلي «العصر» غيرَ مُلقٍ بالاً «لفرعون» كيف كان يعبد ويُعبد، ولا «لبطليموس» كيف كان يُعظَّم ويُمجَّدْ، ولا للمسيحية السمحِة كيف دخلت على «الوثنية» المَعْبَد، ولا «للملكِ إدوارد» الذي تحتل جنودُه الآن مصر وهو في ثياب أخيه «الدوق» يرفع البصرَ ويُسِدله ممتلئًا من آيات الدَّهر مهابة وإعجابًا، مشتغِلا بالتاريخ القائم المجسَّم، يقرؤه كتابًا كتابًا. دين سهل سَمْح يَسَر، وإله واحد يُعبَد حيث وُجِد العابد، على العَرَاءِ كما في الهياكل، والكنائس والمساجد.

التاريخ — أيها الضيفُ العظيم — غابر متجدِّد، قديمه مِنوال، وحاضره مِثال. والغدُّ بيد الله المتعال، وأنت اليوم تمشي فوق مَهد الأعصرُ الأوَل، ولحد قواهر الدول، أرض اتَّخذها «الإسكندر» عرينًا، وملأها على أهلها «قيصر»

سفينًا، وخلَّف «ابن العاص» فيها لسانًا وجنسًا ودينًا، فكان أعظَم المستعمرين حقيقة وأكبرهم يقينًا، وهو الذي لم يعلم عليه أن بغى أو ظلم أو سفك الدمَ، أو نهى، أو أمر، إلا بين الرجاءِ والحذر؛ من عدل «عمر»، الذى تنبيك عنه السِّير.

قمتَ — أيها الضيف العظيم — في السودان خطيبًا فأنصت العصر، والتفتت مصر، وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءَلون: «كيف خالف الرئيس سُنَّة الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك أمثاله، فطارد الشعور وهو يهبُّ، والوجدان وهو يشبُّ، والحياة وهي تدِبُّ، في هذا الشعب؟! ومَنْ حرمة العواطف السامية، ألا تطارد كأنها وحوش ضارية، على صحراء أو بادية، كما طاردتَ السباع بالأمس نقمًا من طبائعها الجافية».

المصريُّ — أيها الضيف العظيم — سمح كريم التجاوز، فقد ظفِرت بمَنْ مهَّد عذرك، ونفى الظن عن كرمك، وادَّخر ودَّك الذي تخطبه الأمم المستضعفة، والشعوب المتلهِّفة، المتشوَّفة، إذ قيل: إنما أراد الرئيس أن يمدح دينًا من حقه أن يمدح بكل لسان، وفي كل مكان، فكيف به في بعض معاهده في السودان؟! وأراد كذلك أن يحذِّر من الفتنة في الجيوش، وينهى عن إيقاظها، ويذكر للمحسن من الحكام ما رأى أو سمع من حسناته، ويدعو هذه الأمة التي حركتُها المستقبلة في السكون، إلى العملِ في ظلِّ الحقِّ والصبر بإذن الله مضمون، ومستقبل بمشيئة الله مأمون، وقديمًا فاز بالصبر الصابرون.

فإن كان ذلك — أيها الضيف العظيم — وهو ما لانعتقد غيره — فمثلك مَنْ نصحَ للأمم، وبعث العزائمَ والهمم. وعلم باللسان والقلم.

على أننا نرجو أن ستذكرنا عند قومك الكرام الأحرار بما أنتم جميعًا أهله، وأن ستعطينا عهدك، وتصفينا ودَّك، وتملأ من أجمل الظنون وأحسِنها بردَك. يوم تقلُّ السفينة عظمتك ومجدَك، وتنقل من أقصى البروج إلى أقصاها سعدَك.

على يد الله تجري إن هي اندفعت وفي حِمى الله — لا في الماءِ — تحتجب

* * *

أيها المنتحي (بأسوان) دارًا ... كالثريَّا تريد أن تنقضا
اخلع النعلَ، واخفِض الطرفَ، واخشع ... لا تحاول من آيةِ الدَّهر غَضًّا
قف بتلك (القصورِ) في اليَمِّ غرقى ... مُمسكًا بعضُها من الذُّعر بعضا
كعذارى أخْفَيَن في الماءِ بَضًّا[٢٨٥] ... سابحاتٍ به، وأبْدَيْنَ بضًّا
مُشرفاتٍ على الزوالِ، وكانت ... مشرفات على الكواكب نهضا
شابَ من حولها الزمانُ وشابت ... وشبابُ الفنونِ ما زال غضًّا
رُبَّ «نَقْشٍ» كأنما نفض الصا ... نعُ منه اليَدَيْنِ بالأمس نفضا
و«دهانٍ» كلامع الزيت، مرَّت ... أعصرٌ منه بالسراج والزيت وَضَّا[٢٨٦]
و«خُطوطٍ» كأنها هدب ريمٍ[٢٨٧] ... حَسُنَتْ صنعةً، وطولاً، وعرضا
و«ضحايا» تكاد تمشي وترعى ... لو أصابتْ من قدرَةِ الله نبضا
و«محاريَب» كالبروج، بَنتها ... عزماتٌ من عزمة الجنِّ أمضى[٢٨٨]
شيَّدتْ بعضَها الفراعينُ زُلْفَى[٢٨٩] ... وبنَى البعضَ أجنبٌ يترضَّى[٢٩٠]
و«مقاصيرُ» أُبْدِلَت بفُتاتِ الـ ... ـمسكِ تُرْبًا، وباليواقيت قضًّا[٢٩١]
حظُّها اليومَ هَدَّةٌ، وقديمًا ... صُرِّفتْ في الحظوظ، رفعًا وخَفضا
سَقَتِ العالمينَ بالسعد والنحـ ... ـس، إلى أن تعاطت النحس محضا[٢٩٢]
صنعةٌ تُدْهِشُ العقولَ، وفنٌّ ... كان إتقانُه على القوم فرضا

***

يا قصورًا نظرتُها وهْيَ تقضي[٢٩٣] ... فسكبتُ الدموعَ، والحقُّ يُقضي
أنتِ سَطرٌ ومصرَ كتابٌ ... كيف سامَ البِلى كتابَك فضًّا؟
وأنا المحتفي بتاريخ مصرٍ ... مَنْ يَصُنْ مجدَ قومه صان عرضا
رُبَّ سرًّ بجانبيك مُزالٍ ... كان حتى على «الفراعين» غمضا
قل لها في الدُّعاءِ لو كان يجدي: ... يا سماءَ الجِلالِ، لا صِرْتِ أرضا
حارَ «فيكٌ» المهندسون عقولاً ... وتولَّت عزائمُ العِلمِ مَرضى
أين ملكٌ حيالَها وفريد ... من نظام النعيمِ أصبح فضا؟[٢٩٤]
أين «فرعونُ» في المواكب تَتْرَى ... يركض المالكين كالخيل ركضا؟
ساق للفتح في الممالِك عَرضًا ... وجلا للفخارِ في السِلم عَرضا
أين «إيزيس» تحتها النيل يجري ... حكمت فيه شاطئَين وعَرضا؟

أَسْدَلَ الطرفَ كاهنٌ ومليكٌ — في ثراها، وأَرسل الرأسَ خَفضا
يُعَرَضُ المالكون أسْرَى عليها — في قيود الهوانِ، عانِينَ، جرَضَى[295]
ما لها أصبحت بغيرِ مُجيرٍ — تشتكي من نوائب الدَّهر عضًّا؟
هي في الأسْرِ بين صَخْرٍ وبحرٍ — مَلكة في السجون فوق حَضوضَى[296]
أين «هوروسُ» بين سيف ونِطْعٍ؟ — أبهذا في شرعهم كان يُقْضَى؟
ليت شعري: قضى شهيدَ غرامٍ — أم رَماه الوشاةُ حقدًا وبغضًا؟
رُبَّ ضَربٍ من سَوْطِ فرعونَ مَضٍّ[297] — دونَ فعلِ الفِراقِ بالنفس مَضًّا
وهلاكٍ بسيفه وهْوَ قانٍ — دون سيفٍ من اللواحظ يُنْضَى[298]
قتلوه، فهل لذاك حديثٌ؟ — أين راوي الحديثِ نثرًا وقرضا؟

* * *

يا إمامَ الشعوبِ بالأمس واليو — م، ستُعطَى من الثناءِ، فَترضى
(مصر) بالنازلين من ساحِ (معنٍ)[299] — وحِمى الجود (حاتم) الجود أفضى
كن ظهيرًا[300] لأهلها ونصيرًا — وابذل النصحَ بعد ذلك مَحضا
قل لقومٍ على (الولايات) أيقا — ظٍ إذا ذاقت البَرِيَّةُ غُمضا
شيمةُ (النيل) أن يفي، وعجيب — أخرجوه، فضيَّع العهدَ نقضا
حاشه[301] الماءُ، فهْوَ صيدٌ كريمٌ — ليت بالنيل يوم يسقط غيضا[302]
شِيْدَ والمال والعلوم قليل — أنقذوه بالمال والعلم نقضا[303]

النفس

قال الرئيس ابن سينا:

هبطتْ إليك من المحل الأرفعِ — ورقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتمنُّع
محجوبةٌ عن كلِّ مُقْلَةِ عارفٍ — وهي التي سَفَرَتْ ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك، وربما — كرِهت فراقَك وهْيَ ذاتُ تفجُّع
أَلِفت وما سكنت، فلَّما واصلت — أَلِفت مجاورةَ الخرابِ البَلْقَع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى — ومَنازِلاً بفراقها لم تَقنع

حتى إذا اتصلت بهاءِ هبوطها ... عن ميم مركزها بذات الأَجرَع
عَلِقت بها ثاءُ الثقيل، فأصبحت ... بينَ المعالمِ والطُّلولِ الخُضَّع
تبكي وقد ذكرت عهودًا بالحمى ... بمدامع تَهْمِي، ولمَّا تُقْلِع
... ... إلـخ إلـخ إلـخ

وقد قال المقتطف في الشاعرين بعد كلام طويل: «والاثنان جريا مجرى أفلاطون، في حسبان النفس روحًا كانت عند الخالق، ثم هبطت ودخلت جسم الإنسان، إلاَّ أن أفلاطون تصوَّرها فرسًا مجنَّحة، غذاؤها الجمال والحكمة والصلاح، فلمَّا هبطت فقدت جناحيها ودخلت جسم الإنسان. والفلاسفة يشعرون بشيءٍ لا يستطيعون معرفته فيصفونه كما يتصوَّرونه، ويجاريهم الشعراءُ في التصوُّر، ويفوقونهم في الوصف».

ضُمَّي قِناعَك يا سُعادُ، أو ارْفَعِي ... هَذِي المَحَاسِنُ ما خُلِقْنَ لُبْرقُع[٣٠٤]
الضاحياتُ، الضاحكاتُ، ودونَها ... سِترُ الجلالِ، وبُعْدُ شَأْو المطْلَعِ[٣٠٥]
يا دُمْيَةً لا يُستزاد جمالُها ... زيديه حُسْنَ المُحْسِن المتبرَّع
ماذا على سلطانِه من وقفة ... للضَّارِعين، وعَطْفةٍ للخُشَّع؟
بل ما يضركِ لو سمحتِ بجَلْوَة؟ ... إنّ العروسَ كثيرةُ المتطلَّع
ليس الحجابُ لمَنْ يَعِزُّ مَنالُه ... إنّ الحجابَ لِهيَّنٍ لم يمنع
أنتِ التي اتَّخذ الجمالَ لعزَّه ... مِنْ مَظْهرٍ، ولسرَّه مِن مَوضع[٣٠٦]
وهو الصَّناعُ، يَصوغ كلَّ دَقيقةٍ ... وأدقَّ منكِ بَنانُه لم تَصْنَع[٣٠٧]
لمستكِ راحتُه، ومسَّكِ روحُه ... فأتى البديعُ على مِثال المُبْدِع
الله في الأحبار: مِنْ مُتهالكٍ ... نِضْوٍ، ومَهْتوكِ المُسوحِ مُصَرَّع[٣٠٨]
من كلّ غاوٍ في طَوِيَّةِ راشدٍ ... عاصي الظواهرِ في سريرةِ طَيِّع
يَتَوَهَّجون ويَطفأون، كأنهم ... سُرُجٌ بِمُعْتَرَكِ الرِّياحِ الأربع
عِلِموا، فضاق بهم وشَقَّ طريقُهم ... والجاهلون على الطريق المَهْيَع
ذهب (ابنُ سينا)، لم يَفُز بكِ ساعةً ... وتَوَلَّت الحكماءُ، لم تَتَمَتَّع
هذا مَقامٌ، كلُّ عِزٍّ دونَه ... شمسُ النهارِ بمثله لم تَطْمَع
(فمحمدٌ) لكِ و(المسيحُ) تَرَجَّلا ... وترجَّلَتْ شمسُ النهار (لِيُوشَع)[٣٠٩]
ما بالُ (أحمدَ) عَيَّ عنكِ بيانُه؟ ... بل ما (لعيسى) لم يَقُلْ أو يَدَّع؟

ولسانُ (موسى) انحلَّ، إلا عقدةً — مِنْ جانبيك، عِلاجُها لم يَنْجَعِ؟
لمَّا حلَلْتِ (بآدم) حلَّ الحِبا — ومشى على الملأ السُّجودِ الرُّكَّعِ[310]
وأرى النبوَّةَ في ذَراكِ تكرَّمَتْ — في (يوسفٍ)، وتكلَّمت في المُرْضَعِ[311]
وسَقَتْ (قريشَ) على لسان (محمدٍ) — بالبابليَّ من البيان المُمْتِعِ[312]
ومَشَتْ (بموسى) في الظلام مُشَرَّدًا — وحدَتْه في قُلَلِ الجبالِ اللُّمَّعِ[313]
حتى إذا طُوِيَتْ ورِثتِ خِلالَها — رُفِعَ الرَّحِيقُ وسِرُّه لم يُرْفَعِ[314]
قَسَمَتْ مَنازِلَكِ الحُظوظُ: فمنزِلاً — أُتْرِعنَ منكِ، ومنزلاً لم تُتْرعِ
وخَلِيَّةً بالنحل منك عَمِيرةً — وخليَّةً مَعمورةً (بالتُّبَعِ)[315]
وحَظيرةً قد أُودِعَت غُرَرَ الدُّمَى — وحَظيرةً محرومةً لم تودَعِ[316]
نظر (الرئيسُ) إلى كمالِك نظرةً — لم تَخْلُ من بَصَرِ اللبيبِ الأرْوَعِ
فرآه منزلةَ تعرَّضَ دُونَها — قِصَرُ الحياةِ، وحالَ وَشْكُ المصْرَعِ
لولا كمالُكِ في (الرئيس) ومِثْلِه — لم تَحْسُنِ الدُّنيا، ولم تَتَرَعْرَعِ[317]
اللهُ ثبَّت أرضَه بدعائمٍ — هم حائطُ الدُّنيا، وركنُ المجمعِ
لو أن كلَّ أخِي يراعٍ بالغٌ — شأوَ (الرئيسِ) وكلَّ صاحب مِبضَعِ
ذهب الكمالُ سُدًى، وضاعَ مَحلُّه — في العالَمِ المتفاوِتِ المتنوِّعِ

***

يا نفسُ، مثلُ الشمس أنتِ: أشِعَّةٌ — في عامرٍ، وأشِعَّةٌ في بَلْقَعِ
فإذا طوى اللهُ النهارَ تراجَعَتْ — شتَّى الأشعةِ، فالتَقَتْ في المرجِعِ
لمَّا نُعِيتِ إلى المنازل غُودِرَتْ — دَكًّا، ومِثْلُكِ في المنازل ما نُعي
ضَجَّتْ عليكِ معالمًا ومعاهدًا — وبكَتْ فراقكِ بالدُّموع الهُمَّعِ[318]
آذَنْتِها بنوًى، فقالت: لَيْتَ لَمْ — تَصِلِ الحبالَ، وليتها لم تَقْطعِ
ورداء جُثمانٍ لبِستِ مُرَقَّمٍ — بيد الشباب على المشيبِ مُرَقَّعِ
كم بِنْتِ فيه، وكم خَفِيتِ، كأنه — ثوبُ الممثِّل، أو لباسُ المَرْفعِ؟[319]
أسَئِمت من دِيبَاجِهِ، فنزعْتِه؟ — والخَزُّ أكفانٌ إذا لم يُنْزَعِ
فزِعَتْ وما خفِيَتْ عليها غايَةٌ — لكنَّ مَنْ يَرِدِ القيامةَ يَفْزعِ[320]
ضرَعَتْ بأدمُعِها إليك، وما دَرَتْ — أنّ السفينةَ أقلعت في الأدمعِ
أنتِ الوفيَّةُ، لا الذِّمامُ لديكِ مَذْ — مومٌ، ولا عهدُ الهوى بمُضيَّعِ

أزْمَعتِ، فانهَّلتْ دموعُكِ رِقَّةً ولو استطعتِ إقامةً لم تُزْمِعي
بان الأحبةُ يومَ بَيْنِكِ كلُّهم وذَهبتِ بالماضي وبالمتوَقَّع

مَيْدَانُ الكُونكُورد

ميدان الكونكورد (الوفاق) بباريز، وهو الذي أُعْدمَ فيه الملك لويس السادس عشر في أيام الثورة الفرنساوية

أمَيدانَ الوفاقِ، وكنتَ تُدعى بميدان العداوةِ والشِّقاقِ
أتدرِي: أيُّ ذنبٍ أنتَ جَانٍ؟ وأيُّ دمٍ ذهبتَ بِه مُراقِ؟
هَوَى فيك السريرُ ومَنْ عليه ومَاتَ الثائرون، وأنتَ باقِ
أصابوا، واستراح (لويسُ) منهم لذا سُمِّيتَ مَيْدانَ الوفاق

أيُّها النِّيلُ

إلى الأستاذ مرجليوت مدرِّس اللغة العربية في جامعة أُكسفورد
أيها الأستاذ الكريم:

تذكَّرتُ «أثينا» مدينةَ الحكمة في الدُّهور الخالية، وأيامًا غنمناها على رسومها العافِية، وأطلالها البالية، فكأني أنظر إلى المؤتمر، علماؤه الهالة، وأنت القمر، أو زُمَرُ الحجيج وأنت حادي الزُّمَر، وأرى الملوكَ في الحفر، بُنيانهم مصدوعُ الجُدر، وبيانهم نور البشر، نزلنا بهم فإذا الدول خبر، وإذا الممالك أثر، والطولُ شُغْلُ الفؤادِ والبَصر، منَّا العبرات ومنها العِبَر، صَمَت الإنسان ونَطقَ الحجر، فسبحان العزيز المقتدر القاهرِ فوق عبادِه بالقدَر. كان ذلك والحوادث أجنة، والأمور في أحسن الأَعنَّة، والأرض بالسلم مطمئنة، مغتبطة بسلامةِ الشبابِ، منبسطة بتلاقي الأحباب، والصَّفْوُ في الدار والأكدارُ بالباب، ثم أخذ الله الأمَمَ بذنوبهم فرماهم بعَوانٍ في الماءِ، ضَروسٍ في الأرض والسماءِ، مَنهومةٍ بالأموال مُدمِنةٍ للدِّماءِ، نزلتْ بالبريَّة فعصفتْ بأحسن شبابها ونباتها، ونَقضت موفورَ أمنها وأقواتها، وهتكتْ في الثَرى مَصونَ رُفاتها، وخلطتْ في الخنادقِ أحياءَها

بأمواتها، وعدَت على الوحشِ في فلواتِها، وعلى الطيرِ في وكناتِها، وعلى الرِّياح في مخترقاتها، وعلى بَلَمَ[٣٢١] البحار وأخواتها، وهَوامَّ القِفَار وحشراتها. وعلى بيوت الله في ستراتها، والنواقيس في قِبابها، والمآذن في سماواتها، فسبحان الملك الأكبر، الذي يَقهر ولا يُقهر، ويُغَيِّر ولا يَتغيَّر، والذي يقيم القيامة في مِيقاتها.

الشعر كالأحلامِ، تدخل على المسرور الكرى، وتَكثر على المحزون في السُّرى. وقريحة الشاعر كَعين صاحب الأيام، عندها للحزن عَبرة، وللسرور عِبرة، وهذه أيها — الأستاذ الكريم — كلمة قيلت والهموم سارية، والأقدار بالمخاوف جارية، والدُّموع متبارية، وذِئاب البشر يقتتِلون على الفانية، نظمتها تَغنِّيًا بمحاسن الماضي، وتقييدًا لمآثر الآباءِ، وقضاءً لحق «النيل» الأسعد الأمجد، ونسبتها إليك، عِرفانًا لفضلك على لغة العرب، وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياءِ علومها، ونشر آدابها، وإلقائها كلَّما طلعت الشمس خلف الضَّباب دروسًا نافعة على أنبل شباب العصر، في أعظم جامعات العالم، فلعلها تقع إليك، فنتذاكر على النوى تلك الأيام، ونتنادم من بعد على بِساط الأدب والكلام، ونسأل الله أن يحقنَ الدماء، ويقيم جِدارَ السلام.

مِـنْ أيِّ عَـهـدٍ فـي الـقُـرَى تـتَـدَفَّـقُ؟
وبـأيِّ كَـفٍ فـي الـمـدائـن تُـغْـدِقُ؟

ومـن الـسـمـاءِ نـزلـتَ أم فُـجِّـرتَ مـن
عـلْـيـا الـجِـنـان جَـداوِلاً تـتَـرقـرق؟

وبـأيِّ عَـيْـنٍ، أم بـأيَّـة مُـزْنَـةٍ[٣٢٢]
أم أيِّ طُـوفـانٍ تـفـيـض وتَـفْـهَـق؟[٣٢٣]

وبـأيِّ نَـوْلٍ[٣٢٤] أنـتَ نـاسـجُ بُـرْدَةٍ
لـلـضـفَّـتْـيـن، جَـدِيـدُهـا لا يـخـلـق؟[٣٢٥]

تَـسْـوَدُّ دِيـبـاجًـا إذا فـارقـتـهـا
فـإذا حـضـرتَ اخْـضَـوْضَـرَ الإسْـتْـبرَق[٣٢٦]

فـي كـلِّ آونـةٍ تُـبـدِّل صِـبـغـةً
عـجـبًـا، وأنـت الـصـابـغُ الـمُـتَـأنِّـق

أتَت الدُّهورُ عليكَ. مَهْدُكَ مُتْرَعٌ[٣٢٧]
وحِياضُكَ الشُّرق[٣٢٨] الشهيَّةُ دُفَّق
تَسْقِي وتُطْعِمُ، لا إناؤكَ ضائِقٌ
بالواردين، ولا خوانُك يَنفُق[٣٢٩]
والماءُ تَسْكُبُه فيُسْبَكُ عَسْجَدًا[٣٣٠]
والأرضُ تُغْرِقها فيحيا المُغْرَق
تُعيي مَنابِعُك العقولَ، ويستوي
مُتخبِّطٌ في علمِها ومُحقِّق
أَخْلَقْتَ راووقَ[٣٣١] الدُّهورِ، ولم تزل
بكَ حَمْأةٌ[٣٣٢] كالمسك، لا تتَروَّق[٣٣٣]
حمراءُ في الأحواض، إلاَّ أنها
بيضاءُ في عُنُق الثرى تَتألَّق
دِينُ الأوائِل فيك دِينُ مُروءَة
لِمَ لا يؤَلَّه مَنْ يَقُوتُ ويَرزُق؟
لو أن مخلوقًا يُؤَلَّه لم تكن
لِسواكَ مَرْتبةُ الأُلوهَةِ تَخْلُق[٣٣٤]
جعلوا الهوى لك والوَقارَ عبادةً
إنَّ العبادةَ خشيةٌ وتعلُّق
دانوا ببحرٍ بالمكارِم زاخرٍ
عَذْبِ المشارِعِ، مَدُّهُ لا يُلْحَق
مُتقيِّدٌ بعهودِه ووُعودِه
يَجري على سنَنَنِ الوفاءِ ويَصدُق[٣٣٥]
يَتقبَّلُ الوادي الحياةَ كريمةً
من راحَتِيْكَ عَميقةً تتدفَّق
متقلِّب الجنبيْن في نَعْمائه
يَعْرَى ويُصبَغُ في نَداك فيُورِق

فيبيتُ خِصْبًا في ثَراه ونِعْمة
ويعُمُّه ماءُ الحياةِ الموسِق[٣٣٦]
وإليك – بَعْدَ اللهِ – يَرجع تحته
ما جَفَّ، أو ما مات، أو ما يَنْفُق[٣٣٧]

* * *

أين الفراعنةُ الأولى استذرى[٣٣٨] بهم
(عيسى)، و(يوسفُ) و(الكَلِيمُ) المُصْعَقُ؟
المُورِدونَ الناسَ مَنْهَلَ[٣٣٩] حكمةٍ
أفْضَى إليه الأنبياءُ ليَستقوا
الرافعون إلى الضحى آباءَهم
فالشمسُ أصلُهُم الوَضِيءُ المُعْرِق[٣٤٠]
وكأنما بين البِلى وقبورِهم
عهدٌ على أن لا مِساسَ، ومَوْثِق
فحجابُهم تحت الثرى من هَيْبَةٍ
كحجابهم فوق الثرى لا يُخرَق
بلغوا الحقيقةَ مِنْ حياة علمُها
حُجُبٌ مُكَثَّفَةٌ، وسِرٌّ مُغلَق
وتبيَّنوا معنى الوجودِ، فلم يَرَوْا
دونَ الخلودِ سعادةً تتحقَّق
يَبنون للدُّنيا كما تَبنِي لهم
خِرَبًا، غرابُ البَيْن فيها يَنْعَق
فقصورُهم، كُوخٌ، وبيتُ بَداوةٍ
وقبورُهم، صرْحٌ أشَمُّ، وجَوْسَق[٣٤١]
رفعوا لها مِنْ جَنْدَلٍ وصفائحٍ
عَمدًا، فكانت حائطًا لا يُنتَق[٣٤٢]
تتشايعُ الدَّاران فيه: فما بدا
دُنْيا، وما لم يَبْدُ أُخرى تَصْدُق

لــلــمــوتِ سِــرٌّ تــحــتَــه، وجِــدارُه
سُــورٌ عــلــى الــسـرَّ الــخــفــيِّ، وخَــنْــدَق
وكــأن مــنــزلــهــم بــأعــمــاقِ الــثــرى
بــيــن الــمــحــلَّــةِ[٣٤٣] والــمــحــلَّــةِ، فُــنْــدُقُ
مَــوْفــورةٌ تــحــت الــثــرى أزْوَادُهــم[٣٤٤]
رَحْــب بــهــم بــيــن الــكــهــوف الــمُــطْــبِــق[٣٤٥]

***

ولِـمَـنْ هـيـاكـلُ قـد عـلا الـبـانـي بـهـا
بــيــن الــثُّــريَّــا والــثَّــرى تــتــنَــسَّــق؟[٣٤٦]
مــنــهــا الــمُــشــيَّــدُ كــالــبــروجِ، وبــعــضُــهــا
كــالــطَّــوْدِ مُــضــطَّــجِــعٌ أشَــمُّ مُــنَــطَّــق[٣٤٧]
جُــدُدٌ كــأوَّلِ عــهــدهــا، وجِــيــالَــهــا
تــتــقــادَمُ الأرضُ الــفــضــاءُ وتَــعْــتُــق[٣٤٨]
مِــنْ كــلَّ ثــقْــلٍ كــاهــلُ الــدُّنــيــا بــه
تَــعِــبٌ، ووَجْــهُ الأرضِ عــنــه ضــيَّــق
عــالٍ عــلــى بــاع الــبِــلــى، لا يَــهــتــدِي
مــا يَــعــتِــلــى مــنــه ومــا يَــتــسلَّــق
مُــتــمــكَّــنٌ كــالــطــودِ أصــلاً فــي الــثــرى
والــفــرعُ فــي حَــرمِ الــســمــاءِ مُــحــلِّــق
هــي مــن بــنــاءِ الــظــلــمِ، إلا أنــه
يَــبــيَــضُّ وجــهُ الــظــلــمِ مــنــه ويُــشْــرِق
لــم يُــرْهِــقِ الأمَــمَ الــمــلــوكُ بــمــثــلــهــا
فــخــرًا لــهــم يَــبْــقَــى وذكــرًا يَــعْــبَــق
فُــتِــنَــتْ بــشــطَّــيْــكَ الــعِــبَــادُ، فــلــم يــزل
قــاصٍ يَــحُــجُّــهُــمَــا، ودانٍ يَــرْمُــق

وتـضـوَّعَـتْ مِـسْـكَ الـدُّهـورِ، كـأنـمـا
فــي كــلِّ نــاحــيــة بَـخــورٌ يُــحْــرَق
وتقابلتْ فيها على السُّرُرِ الدُّمى[٣٤٩]
مُـسْـتَـرْدِيـات[٣٥٠] الـذلِّ لا تَـتَـفَـنَّـق[٣٥١]
عَطلَتْ،[٣٥٢] وكان مكانُهنّ من العُلى
(بِلْقِيسُ) تَقْبِسُ من حلاهُ وتَسْرق
وعَـلا عـلـيـهـن الـتـرابُ، ولـم يـكـن
يَزْكُو بِهنَّ سوى العبير[٣٥٣] ويَلبَق[٣٥٤]
حُـجُـراتُـهـا مَـوْطـوءَةٌ، وسـتـورُهـا
مَـهـتـوكـةٌ، بـيـد الـبِـلـى تَـتـخـرَّق
أوْدَى بـزيـنـتـهـا الـزَّمـانُ وحَـلْـيـهـا
والـحـسـنُ بـاقٍ والـشـبـابُ الـرَّيِّـق[٣٥٥]
لــو رُدَّ فِــرعــونُ الــغــداةَ، لــراعــه
أنّ الـغَـرانـيـق[٣٥٦] الـعُـلَـى لا تَـنـطـق
خـلـع الـزمـانُ عـلـى الـورى أيـامَـه
فـإذا الـضُّـحـى لـكَ حِـصَّـةٌ والـرَّوْنَـق
لـكَ مــن مــواســمــه ومــن أعــيــاده
مـا تَـحْـسِـرُ[٣٥٧] الأبـصـارُ فـيـه وتَـبْـرَق
لا (الـفـرسُ) أوتـوا مـثَـلـه يـومًـا، ولا
(بغدادُ) في ظلِّ (الرشيد) و(جِلَّق)[٣٥٨]
فَتْحُ الممالك، أو قيامُ (العِجْلِ)، أو
يـومُ الـقـبـور، أو الـزفـافُ الـمُـونِـق؟
كـم مـوكـبٍ تَـتـخَـايـلُ الـدُّنـيـا بـه
يُجْلَى كما تُجْلَى النجومُ ويُنْسق!
(فرعونُ) فيه من الكتائبِ مُقبلٌ
كالسُّحْب، قَرْنُ الشمس منها مُفتِق[٣٥٩]
تَـعْـنـو[٣٦٠] لـعـزَّتِـه الـوجـوه، ووجـهـهُ
لـلـشـمـسِ فـي الآفـاق عـانٍ مُـطـرِق

آبـتْ مـن الـسـفـرِ الـبـعـيـدِ جـنـودُه
وأتـتْـه بـالـفـتـحِ الـسـعـيـدِ الـفَـيْـلَـق[٣٦١]
ومَـشـى الـمـلـوكُ مُـصـفَّـدِيـن، خـدودُهـم
نـعـلٌ لـفـرعـونَ الـعـظِـيـم ونُـمْـرُق[٣٦٢]
مـمـلـوكـةٌ أعـنـاقُـهـم لـيـمـيـنـهِ
يَـأْبَـى فَـيَـضْـربُ، أو يَـمُـنُّ فَـيُـعـتِـق
ونـجـيـبـةٍ بـيـن الـطـفـولـةِ والـصِّـبـا
عـذراءَ، تَـشْـرَبُـهـا الـقـلـوبُ وتَـعـلَـق
كـان الـزفـافُ إلـيـكَ غـايـةَ حَـظِّـهـا
والـحـظُّ إن بـلـغ الـنـهـايـةَ مُـوبِـق[٣٦٣]
لاقَـيْـتَ أعـراسًـا، ولاقَـتْ مَـأْتَـمًـا
كـالـشـيـخِ يَـنْـعَـمُ بـالـفـتـاةِ وتُـزْهَـق
فـي كـلِّ عـامٍ دُرَّةٌ تُـلْـقَـى بِـلا
ثـمـنٍ إلـيـكَ، وحُـرَّةٌ لا تُـصَـدق[٣٦٤]
حَـوْلٌ[٣٦٥] تُـسـائِـل فـيـه كـلُّ نـجـيـبـةٍ
سَـبـقَـتْ إلـيـك: مـتـى يـحـولُ فَـتَـلـحـق؟
والـمـجُـد عـنـد الـغـانـيـاتِ رَغـيـبـةٌ
يُـبْـغَـى كـمـا يُـبْـغَـى الـجـمـالُ ويُـعْـشَـق
إن زوَّجـوكَ بـهـنَّ فَـهْـيَ عـقـيـدةٌ
ومـن الـعـقـائـدِ مَـا يـلَـبُّ[٣٦٦] ويَـحْـمُـق
مـا أجـمـلَ الإيـمـانَ!! لـولا ضَـلَّـةٌ
فـي كـلِّ دِيـنٍ بـالـهـدايـةِ تُـلْـصَـق
زُفَّـتْ إلـى مـلـكِ الـمـلـوكِ يَـحُـثُّـهـا
دِيـنٌ، ويَـدْفـعـهـا هَـوًى وتَـشَـوُّق
ولـرُبَّـمـا حَـسَـدَتْ عـلـيـكَ مَـكـانَـهـا
تِـربٌ[٣٦٧] تَـمَـسَّـحُ بـالـعـروس وتُـحْـدِق
مَـجْـلُـوَّةٌ فـي الـفُـلْـكِ يَـحـدو[٣٦٨] فُـلْـكَـهـا
بـالـشـاطـئـيْـن مُـزَغْـرِدٌ ومُـصـفِّـق

فــي مِــهْــرِجَــانٍ هَــزَّتْ الــدُّنــيــا بــه
أعـطـافَـهـا، واخـتـالَ فـيـه الـمـشْـرق
فــرعــونُ تــحــتَ لــوائِــه، وبَــنــاتُــه
يَجري بـهـنَّ عـلـى الـسـفـيـنِ الـزَّوْرَق
حـتـى إذا بـلـغـتْ مـواكـبُـهـا الـمَـدَى
وجـرى لـغـايـتـه الـقـضـاءُ الأَسـبْـق
وكـسـا سـمـاءَ الـمِـهـرِجـانِ جـلالـةً
سيفُ الـمـنـيـة وهـو صَـلْـتٌ[369] يـبـرقُ
وتَـلـفَّـتـتْ فـي الـيَـمِّ كـلُّ سـفـيـنـةٍ
وانـثـال[370] بـالـوادي الـجـمـوعُ وحـدَّقـوا
ألـقـتْ إلـيـكَ بـنـفـسـهـا ونـفِـيـسـهـا
وأتــتــكَ شــيَّــقــةً حــواهــا شَــيِّــق
خـلـعَـت عـلـيـكَ حـيـاءَهـا وحـيـاتَـهـا
أَأَعــزُّ مــن هــذيــن شــيءٌ يُــنــفَــق؟
وإذا تَــنــاه الــحــبُّ واتَّــفـقَ الـفِـدى
فـالـروحُ فـي بـابِ الـضـحـيَّـة أَلْـيَـق
مـا الـعَـالـمُ الـسُّـفِـلـيُّ إلاَّ طِـيـنَـةٌ
أزلـيَّـةٌ[371] فـيـه تُـضـيءُ وتَـغـسِـق[372]
هـي فـيـه لـلـخَـصْـبِ الـعـمـيـمِ خـمـيـرةٌ
يَـنْـدَى بـمـا حـمـلـتْ إلـيـه، ويَـبـثُـق[373]
مـا كـان فـيـهـا لـلـزيـادةِ مَـوْضِـعٌ
وإلـى حـمـاهـا الـنـقـصُ لا يـتـطـرَّق
مُـنـبـثَّـةٌ فـي الأرضِ، تَـنـتـظـمُ الـثَّـرى
وتـنـالُ مِـمَّـا فـي الـسـمـاءِ، وتـعْـلَـق
مـنـهـا الـحـيـاةُ لـنـا، ومـنـهـا ضِـدُّهـا
أبـدًا نَـعـودُ لـهـا، ومـنـهـا نُـخْـلَـق
والـزَّرعُ سُـنْـبُـلُـه يـطـيـبُ، وحَـبُّـه
مـنـهـا، فـيـخـرج ذا، وهـذا يُـفـلَـق

وتَشدُّ بيتَ النحلِ، فهو مُطنَّبٌ
وتمدُّ بيتَ النمل، فهو مروَّق
وتظلُّ بين قوى الحياةِ، جوائلاً
لا تستَقِرُّ، دوائِلاً لا تُمْحَق[٣٧٤]
هي كِلْمَةُ الله القديرِ، ورُوحُه
في الكائنات، وسرُّه المستغِلق
في النَّجم والقمرين مظْهرُها، إذا
طلعَتْ على الدُّنيا، وساعةَ تَخفُق
والذَّرُّ[٣٧٥] والصَّخَراتُ مِمَّا كَوَّرَتْ
والفيلُ مما صَوَّرَتْ، والخِرْنِق[٣٧٦]
فتنتْ عقولَ الأولين، فألَّهوا
من كلّ شيءٍ ما يَرُوع ويَخرُق
سجَدوا لمخلوق، وظنُّوا خالقًا
مَنْ ذا يُمَيِّزُ في الظلام ويَفْرُق؟
دانت (بآبيسَ) الرعيَّةُ كلُّها
مَنْ يستغلُّ الأرضَ، أو مَنْ يَعزق
جاءُوا من المرعى به يمشي، كما
تمشي وتَلْتَفِتُ المهاةُ وترْشقُ
داجٍ كجنح الليل زان جبينهُ
وَضَحٌ عليه من الأهلَّة أَشْرَق[٣٧٧]
العسجد[٣٧٨] الوهَّاجُ وشْيُ جلالِه
والوردُ مَوْطِئُ خُفِّه، والزَّنْبق[٣٧٩]
ومن العجائِب بَعْدَ طولِ عبادةٍ
يُؤتَى به حوضَ الخلودِ فيُغْرَق
يا ليت شعري: هل أضاعوا العهدَ، أم
حَذِروا من الدُّنيا عليه وأشفقوا؟

قــومٌ وقــارُ الــدِّيــن فــي أخــلاقــهــم
والــشــعــبُ مــا يَــعــتــاد أو يــتــخَــلَّــق
يَـدْعُـون خـلـفَ الـسِّـتـر آلـهـةً لـهـم
مــلأوا الــنَّــدِيَّ جــلالــةً، وتَــأبَّــقــوا[380]
واسـتـحـجـبـوا[381] الـكُـهَّـانَ، هـذا مُـبـلـغٌ
مــا يــهــتِــفــون بــه، وذاك مُــصــدَّق
لا يُــســألــون إذا جــرت ألــفــاظُــهــم
مِــنْ أيــن لــلــحــجــر الــلــســانُ الأذلَــقُ؟
أو كـيـف تـخـتـرق الـغـيـوبَ بـهـيـمـةٌ
فــيــمــا يَــنــوب مــن الأمــور ويَــطْــرُق؟
وإذا هـمـو حَـجُّـو الـقـبـورَ حـسـبـتـهـم
وَفْـدَ (الـعـتـيـقِ)[382] بـهـم تَـرَامَـى الأَيْـنُـق[383]
يـأتـون (طـيـبـةَ) بـالـهَـدِيِّ[384] أمـامَـهـم
يـغـشـى الـمـدائـنَ والـقـرى ويُـطـبِّـق
فـالـبـرُّ مـشـدودُ الـزَّواحـلِ مُـحْـدَجٌ[385]
والــبــحــرُ مــمــدودُ الــشِّــراعِ مُــوَسَّــق
حـتـى إذا ألْـقَـوْا بـهـيـكـلـهـا الـعـصـا
وَفُّــو الــنــذورَ، وقَــرَّبــوا، واصَّــدَّقــوا
وجَـرَتْ زوارقُ بـالـحـجـيـج، كـأنـهـا
رُقْــطٌ تَــدافــعُ، أو ســهــامٌ تَــمْــرُق[386]
مـن شـاطـئ فـيـه الـحـيـاةُ لـشـاطـئ
هـو مُـضْـجَـعٌ لـلـسـابـقـيـن ومِـرفـق[387]
غَـربـوا غـروبَ الـشـمـسِ فـيـه، واسـتـوى
شــاهٌ ورُخٌّ[388] فــي الــتــرابِ وبَــيْــدق[389]
حـيـثُ الـقـبـورُ عـلـى الـفـضـاءِ كـأنـهـا
قِطَعُ السَّحابِ، أو السَّرابُ الدَّيْسَق[390]
لــلــحــقِّ فــيــه جَــوْلــةٌ، ولــه سَــنًــا
كــالــصــبــح مــن جَــنَــبَــاتِــهــا يَــتَــفَــلَّــق

نـزلـوا بـهـا فـمـشـى الـمـلـوكُ كـرامـةً
وجـثـا الـمُـدِلُّ بـمـالـه والـمُـمْـلـق[٣٩١]
ضـاقـت بـهـم عَـرَصـاتُـهـا. فـكـأنـمـا
رَدَّتْ ودائـعَـهـا الـفـلاةُ الـفَـيْـهَـقُ[٣٩٢]
وتَـنـادم الأحـيـاءُ والـمـوتـى بـهـا
فـكـأنـهـم فـي الـدَّهـر لـم يـتـفـرَّقـوا

* * *

أصـلُ الـحـضـارةِ فـي صَـعـيِدكَ ثـابـتٌ
ونَـبـاتُـهـا حَـسَـنٌ عـلـيـك مُـخـلَّـق[٣٩٣]
وُلِـدَتْ. فـكـنـتَ الـمـهـدَ، ثـم تـرعـرعَـتْ
فـأظـلَّـهـا مـنـكَ الـحَـفِـيُّ الـمُـشْـفِـق
مـلأتْ ديـارَك حـكـمـةً، مـأْثـورُهـا
فـي الـصـخـر والـبَـرْدِي الـكـريـمِ مُـنَـبَّـق[٣٩٤]
وَبَـنَـتْ بـيـوتَ الـعـلـم بـاذخـةَ الـذُّرَى
يـسـعـى لـهـنَّ مُـغَـرَّبٌ ومُـشَـرَّق
واسـتـحـدثـتْ دِيـنًـا، فـكـان فـضـائـلاً
وبِـنـاءَ أخـلاقٍ يـطـول ويَـشـهَـق[٣٩٥]
مَـهَـدَ الـسـبـيـلَ لـكـلِّ دِيـنٍ بـعـدَه
كـالـمـسـك رَيَّـاه بـأخـرى تُـفْـتَـق[٣٩٦]
يـدعـو إلـى بِـرًّ، ويـرفـعُ صـالِـحًـا
ويَـعـافُ مـا هـو لـلـمـروءَة مُـخْـلِـق
لـلـنـاس مـن أسـرارِه مـا عُـلِّـمـوا
ولـشُـعْـبِـة الـكَـهَـنـوت مـا هـو أعْـمـق
فـيـه مـحـلٌّ لـلأقـانـيـم[٣٩٧] الـعُـلـى
ولـجـامـع الـتـوحـيـدِ فـيـه تَـعَـلُّـق
تـابـوتُ مـوسـى، لا تـزال جـلالـةٌ
تـبـدو عـلـيـك لـه، ورَيَّـا تُـنْـشَـق[٣٩٨]

وجـمـالُ يـوسُـفَ، لا يـزال لـواؤهُ
حَـوْلَـيـك فـي أفُـق الـجـلال يُـرنَّـق[399]
ودمـوعُ إخـوتـه، رسـائـلُ تـوبـةٍ
مَـسْـطُـورُهُـنَّ بـشـاطـئـيْـك مُـنـمَّـقُ
وصـلاةُ مـريـم، فـوقَ زرعـك لـم يـزل
يَـزكـو لـذكـراهـا الـنـبـات ويَـسـمُـق[400]
وخُـطَـى الـمسيـحِ عـليـك روحًـا طـاهـرًا
بـركـاتُ ربِّـك، والـنـعـيـمُ الـغَـيْـدَق[401]
وودائـعُ (الـفـاروقِ)[402] عـنـدك، ديـنـه
ولـواؤُه، وبـيـانُـه، والـمـنـطِـق
بـعـث الـصـحـابـةَ يَـحـمـلـون مـن الـهـدى
والـحـقَّ مـا يُـحـيـى الـعـقـولَ ويَـفـتـق
فَـتْـحُ الـفـتـوح، مـن الـمـلائـك رَزْدَق[403]
فـيـه، ومـن (أصـحـاب بـدرٍ) زَرْدَق
يـبـنـون لـلـه الـكـنـانـةَ بـالـقـنـا
والـلـه مـن حـول الـبـنـاءِ مُـوَفِّـق
أحـلاسُ[404] خـيـلٍ، بَـيْـدَ أن حـسـامَـهـم
فـي الـسـلـم مـن حـذرِ الـحـوادثِ مُـفْـلَـق
تُـطَـوي الـبـلادُ لـهـم، ويُـنْـجِـدُ جـيـشُـهـم
جـيـشٌ مـن الأخـلاقِ غـازٍ مُـورِق[405]
فـي الـحـقِّ سُـلَّ وفـيـه أُغْـمِـد سـيـفُـهـم
سـيـفُ الـكـريـم مـن الـجَـهـالـة يَـفْـرَق[406]
والـفـتـحُ بَـغْـيٌ لا يـهَـوَّن وَقْـعَـه
إلا الـعـفـيـفُ حـسـامُـه، الـمـتـرفِّـق
مـا كـانـت «الـفـسـطـاطُ» إلاَّ حـائـطًـا
يـأوي الـضـعـيـفُ لـركـنـه والـمُـرْهَـق
وبـه تـلـوذُ الـطـيـرُ فـي طـلـبِ الـكـرَى
ويـبـيـتُ «قـيـصـرُ» وهْـو مـنـه مُـؤَرَّق

«عَمْرٌو» على شطبِ[٤٠٧] الحصير مُعصَّبٌ[٤٠٨]
بقلادةِ اللهِ العَليِّ مطَوَّق
يدعو له «الحاخامُ» في صلواته
(موسى). ويسأل فيه عيسى البَطْرَقُ
يا نيلُ، أنتَ بطيب ما نَعَتَ «الهدى»
وبمدْحةِ (التوراةِ) أحْرَى أخْلَق
وإليك يُهْدِي الحمدَ خَلْقٌ حازهم
كنَفٌ على مَرَّ الدُّهورِ مُرَهَّق[٤٠٩]
كَنَفٌ «كَمَعْنٍ»، أو كساحة «حاتم»
خَلْقٌ يُوَدِّعُه، وخَلْقٌ يَطْرُق
وعليك تُجلَى من مَصونات النُّهَى
خُودٌ، عرائسُ. خِدْرُهنَّ المُهرَق[٤١٠]
الدرُّ في لَبَّاتهنّ[٤١١] مُنَظَّمٌ
والطيبُ في حَبراتهنَّ مُرَقْرَق
لي فيكَ مدْحٌ ليس فيه تكلُّفٌ
أملاه حُبٌّ ليس فيه تَمَلُّق
مما يُحمِّلنا الهوى لكّ أفْرُخٌ
سنطير عنها، وهي عندك تُرزَق
تَهْفُو إليهم في التُّراب قلوبُنا
وتكاد فيه بغير عِرْقٍ تَخْفُق
تُرْجَى لهم، واللهِ جلَّ جلالُه
منا ومنك بهم أبَرُّ وأرفق
فاحفظ ودائعَك التي استُودِعْتَها
أنت الوفيُّ إذا أؤتمنتَ الأصدق
للأرضِ يومٌ، والسماءِ قيامةٌ
وقيامةُ «الوادي» غداةَ تحلِّق[٤١٢]

نَكْبَةُ دِمَشْق

قِيلت في حفلة أقيمت لإعانة منكوبي سوريا بتياترو وحديقة الأزبكية في يناير سنة ١٩٢٦

سلامٌ من صَبا (بَرَدَى)[٤١٣] أرقُّ ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دِمَشْقُ
ومعذِرة اليَرَاعةِ والقوافي جلالُ الرُّزْءِ[٤١٤] عن وَصْفٍ يَدقُّ
وذكرى عن خواطِرها لقلبي إليكِ تلفُّتٌ أبدًا وخَفْق[٤١٥]
وبي مما رَمَتْكِ بِه الليالي جراحاتٌ لها في القلب عُمْق
دخلتكِ والأصيلُ له ائتلاقٌ[٤١٦] ووجهُك ضاحكُ القسماتِ طَلْق
وتحت جِنانِك الأنهارُ تجري ومِلْء رُباك أوراقٌ ووُرْق[٤١٧]
وحولي فتيةٌ غُرٌّ صِباحٌ لهم في الفضلِ غاياتٌ وسَبْق
على لهواتهم[٤١٨] شعراءُ لُسْنٌ[٤١٩] وفي أعطافِهم خُطباءُ شُدْق[٤٢٠]
رُواةُ قصائدِي، فاعجبْ لشعرٍ بكلِّ محلَّةٍ يَرْوِيه خَلْق
غَمزتُ إباءَهم حتى تلظَّتْ أُنوفُ الأُسْدِ واضطرَم[٤٢١] المَدَّق[٤٢٢]
وضجَّ من الشّكيمةِ[٤٢٣] كلُّ حُرٍّ أَبِيٍّ من أُمَيَّةَ فيه عِتْق[٤٢٤]

* * *

لحاها الله أنباءً توالتْ على سَمْعِ الوليِّ بما يَشُقّ[٤٢٥]
يُفصِّلها[٤٢٦] إلى الدنيا بَرِيدٌ ويُجْمِلُها إلى الآفاق بَرْقُ[٤٢٧]
تكادُ لروعةِ الأحداثِ[٤٢٨] فيها تخال من الخُرافةِ وَهْي صِدْق
وقيل: معالمُ التاريخ دُكَّت وقيل: أصابها تلفٌ وحَرق
ألستِ — دمَشقُ — للإسلام ظِئْرًا[٤٢٩] ومُرْضِعَةُ الأُبُوَّةِ لا تُعَقّ؟
صلاَحُ الدِّين، تاجُك لم يُجَمَّل ولم يُوسَم بأزين منه فَرْق
وكلُّ حضارةٍ في الأرض طالتْ لها من سَرْحِكِ العُلْوِيِّ عِرْق[٤٣٠]
سماؤكِ من حُلَى الماضي كتابٌ وأرضُك من حلى التاريخ رقّ[٤٣١]
بنيْتِ الدولةَ الكبرى ومُلْكًا غبارُ حضارتَيْه لا يُشَقّ
له بالشامِ أعلامٌ وعُرْسٌ بشائرهُ بأندلُسٍ تدَق

***

رباعُ الخلدِ — وَيحْكِ — ما دَهاها؟ ... أحقٌّ أنها دَرَسَتْ؟ أحَقٌّ؟

وهل غُرَفُ الجِنانِ مُنضَّداتٌ[٤٣٢]؟ ... وهل لنعيمهن كأمسِ نَسْقُ؟

وأين دُمَى[٤٣٣] المقاصِر[٤٣٤] من حِجالٍ ... مُهَتَّكَةٍ، وأستارٍ تُشَقُّ

يَرزْنَ وفي نواحي الأيْكِ نارٌ ... وخَلفَ الأيكِ أفراخٌ تُزَقُّ

إذا رُمْنَ السلامةَ من طريق ... أتتْ من دونه للموت طُرْق

بلَيْلٍ للقذائفِ والمنايا ... وراءَ سمائِه خَطْفٌ، وصَعْقُ

إذا عصفَ الحديدُ، احْمَرَّ أفْقٌ ... على جنباتِه، واسودَّ أفْق

سَلِي مَنْ راعَ غِيدَكِ بعدَ وَهْنٍ[٤٣٥] ... أبَيْنَ فؤادِه والصخرِ فَرْق؟

وللمستعمرين — وإن ألانوا — ... قلوبٌ كالحجارةِ، لا تَرِقُّ

رماكِ بطَيْشِه، ورمى فرنسا ... أخو حربٍ، به صَلَفٌ، وحُمْق

إذا ما جاءَه طُلاَّبُ حَقٍّ ... يقول: عصابةٌ خرجوا وشَقُّوا

دَمُ الثُّوارِ تعرفُه فرنسا ... وتعلم أنه نورٌ، وحَقّ

جرى في أرضِها، فيه حياةٌ ... كمُنْهَلِّ السماءِ، وفيه رزقُ[٤٣٦]

بلادٌ ماتَ فِتيَتُها لتِحْيا ... وزالوا دونَ قومِهمُ ليبقوا

وحُرِّرَت الشعوبُ على قَناها ... فكيف على قناها تُسْتَرَق؟[٤٣٧]

بني سوريَّةَ، اطَّرِحوا الأماني ... وألْقُوا عنكمُ الأحلامَ، ألْقُوا

فمِنْ خِدَعِ السياسة أن تُغَرُّوا ... بألقاب الإمارةِ وهْيَ رِقُّ[٤٣٨]

وكم صَيَد[٤٣٩] بدا لك من ذليل ... كما مالت من المصلوب عُنْق

فُتُوق الملكِ تَحْدُثُ ثمّ تمضي ... ولا يمضي لمختلِفين فَتْق

نَصَحْتُ ونحن مختلفون دارًا ... ولكنْ كلُّنا في الهمَّ شرق

ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ ... بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطْق

وقفتم بين موتٍ أو حياةٍ ... فإن رمْتم نعيمَ الدَّهر فاشْقوا

وللأوطانِ في دَمِ كلِّ حُرٍّ ... يَدٌ سلفتْ ودَيْنٌ مُستحِق

ومَنْ يَسقي ويَشربُ بالمنايا ... إذا الأحرارُ لم يُسقوا ويَسقوا؟

ولا يبني الممالكَ كالضحايا ... ولا يُدني الحقوقَ ولا يُحِقُّ

ففي القتلى لأجيالٍ حياةٌ ... وفي الأسْرَى فِدًى لهمو وعِتْق[٤٤٠]
وللحريَّةِ الحمراء بابٌ ... بكلِّ يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
جزاكم ذو الجلالِ بني دِمَشقٍ ... وعزُّ الشرقِ أوَّلُهُ دِمَشْقُ
نصرتم يومَ مِحنتهِ أخاكم ... وكلُّ أخٍ بنصرِ أخيه حق
وما كان الدُّروزُ قَبيلَ[٤٤١] شَرٍّ ... وإن أخِذوا بما لم يَستحِقُّوا
ولكنْ ذادَةٌ،[٤٤٢] وقُراةُ ضيفٍ ... كينبوعِ الصَّفا خَشُنوا ورَقُّوا
لهم جبلٌ أشمُّ له شِعافٌ ... موارد في السَّحاب الجُونِ بُلْق
لكلِّ لبَوءَةٍ، ولكلِّ شِبْلٍ ... نِضالٌ دونَ غايِته ورَشْق
كأن مِن السَّمَوْألِ[٤٤٣] فيه شيئًا ... فكل جِهاتِه شرفٌ وخلْق

رَمَضَانُ وَلَّى

الأبيات التي بين قوسين ترجمتها جريدة الطان بقلم المرحوم عثمان باشا غالب

رمضانُ وَلَّى، هاتِها يا ساقي ... مُشتاقةً تسعى إلى مُشتاق
ما كان أكْثَره على أُلَّافِها ... وأَقلَّهُ في طاعةِ الخَلَّاق!!
اللهُ غفَّارُ الذُّنوبِ جميعِها ... إن كان ثَمَّ من الذنوب بَواقي
بالأمس قد كُنَّا سَجِينَيْ طاعةٍ ... واليومَ مَنَّ العيدُ بالإطلاق
ضحِكتْ إليَّ مِن السرور، ولم تزل ... بنتُ الكُرومِ كريمةَ الأعراق
هاتِ اسِقنيها غيرَ ذاتِ عواقبٍ ... حتى نُراعَ لصَيْحَة الصَّفَّاق[٤٤٤]
صِرفًا مُسَلَّطةَ الشُّعاعِ، كأنما ... من وَجْنَتَيْكَ تُدارُ والأحداق
حمراءَ أو صفراءَ، إنَّ كريمَها ... كالغِيد، كلُّ مَليحةٍ بمذَاق
وحَذارِ من دَمِها الزكِيَّ تُريقُهُ ... يَكفيك — يا قاسِي — دَمُ العشاق
لا تَسقِنِي إلا دِهاقًا[٤٤٥] إنني ... أُسْقَى بكأْسٍ في الهموم دِهاق
فلعلَّ سلطانَ المدامِة مُخْرِجي ... مِن عالَمٍ لم يَحْوِ غيرَ نِفاق
(وطني، أسِفْتُ عليكَ في عيد المَلا ... وبكيتُ من وَجْدٍ، ومن إشفاق)
(لا عيدَ لي حتى أراك بأمَّةٍ ... شَمَّاءَ راويَةٍ من الأخلاق)

(ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم وبقِيتُ في خَلَفٍ بغير خَلاق)
(أيظلُّ بعضُهمُ لبعضٍ خاذلاً ويقال: شعبٌ في الحضارة رَاقِي)؟
(وإذا أراد اللهُ إشقاءَ القُرَى جعلَ الهُدَاةَ بها دُعاةَ شِقاق)

***

العيدُ بينَ يَدَيْكَ يا ابْنَ محمدٍ نَثَرَ السُّعودَ حُلىً على الآفاق
وأتى يُقبِّل راحَتيْكَ، ويَرتجي أن لا يفوتكما الزمانَ تَلاقِ
قابلْتَه بسُعودِ وجهك والسَّنا فازداد من يُمْنٍ، ومن إشراق
فاهنأْ بطالعِهِ السعيدِ، يَزينُه عيدُ الفقير، وليلةُ الأرزاق
يتنزَّلُ الأجْرانِ[٤٤٦] في صُبحيْهما جَزْليْن عن صَوْمٍ وعن إنفاق
إني أجِلُّ عن القتالِ سرائر إلاَّ قِتالَ البؤسِ والإملاق[٤٤٧]
وأرى سُمومَ العالَمين كثيرةً وأرى التعاونَ أنجعَ التِّرياق[٤٤٨]
قسَمتْ بَنِيها، واستبدَّتْ فوقَهم دُنيا تَعُقُّ، لَئيمةُ الميثاق
والله أتعبها، وضلَّل كيدَها من راحتيْك بوابلٍ غَيْداق[٤٤٩]
يَأْسُو جِراحَ اليائسين من الورى ويُساعِدُ الأنفاسَ في الأرْماق[٤٥٠]
بلغ الكرامُ المجدَ حين جَرَوْا له بسوابقٍ، وبَلغْتَه (بِبُراق)
ورأوْا غُبارَك في السُّها، وتَراكَضُوا مَنْ للنجومِ، ومَنْ لهم بلَحاق؟
مَوْلايَ، طِلْبَةُ مصرَ أن تَبْقَى لها فإذا بَقِيتَ فكلُّ خيرٍ باق
سبق القريضُ إليك كلَّ مُهَنِّئٍ مِن شاعرٍ، مُتَفَرِّدٍ، سَبَّاق
لم يَدَّخِرْ إلاَّ رِضاكَ، ولا اقتنَى إلاَّ وَلاءَك أنْفَسَ الأعلاق[٤٥١]
إن القلوبَ — وأنتَ ملءُ صَميمها — بَعَثَتْ تَهَانِيهَا من الأعماق
وأنا الفتى (الطَّائيُّ)[٤٥٢] فيك. وهذه كَلِمي هَزَزْتُ بها أبا إسحاق[٤٥٣]

مِصْر

قال وقد كان أعدَّ وليمة إلى الكاتب الإنجليزي المستر هول كين

أيُّها الكاتبُ المصِّورُ، صَوَّرْ   مصرَ بالمنظر الأنيق الخليق
إن مصرًا روايةُ الدَّهرِ، فاقرأ   عِبرَةَ الدَّهرِ في الكتاب العتيق
مْلعبٌ مَثَّل القضاءُ عليه   في صِبا الدَّهر آيةَ (الصَّدِّيق)[٤٥٤]
وامَّحاءَ[٤٥٥] (الكَليمِ)[٤٥٦] آنسَ نارًا   والتجاءَ (البَتُولِ)[٤٥٧] في وقت ضيق
ومنايا (مِنا)، (فكسرى)، فِذي (القَرْ   نَيْنِ)، فالقَيْصَريْنِ، (فالفاروق)[٤٥٨]
دُوَلٌ لم تَبدْ، ولكنْ توارت   خَلْفَ سِتْرٍ من الزمان رَقيق
رَوْضَتي ازَّيَّنَتْ، وأبدَتْ حُلاها   حين قالوا: رِكابُكم في الطريق
مثلَ عَذْراءَ من عجائِزِ (روما)   بشَّروها بزَوْرَةِ البطريق
ضَحِكُ الماءِ، والأقاحي[٤٥٩] عليها   قابلَتْه الغصونُ بالتصفيق
زُرْتَها والربيعُ فَصْلاً، فخفَّت   نحوَ رَكْبَيْكُما خُفوفَ المشوق
فانزلا في عيون نرجِسها الغضِّ   صِبيانًا، وفوق خَدِّ الشقيق[٤٦٠]

الْبَحْرُ الأَبْيَضُ الْمُتَوَسَّطُ

أيُّ الممالكِ؟ أيُّها   في الدَّهرِ ما رفعتْ شِراعَك؟
يا أبيضَ الآثارِ، والصَّـ   ـفَحَاتِ، ضُيِّعَ مَنْ أضاعَك
إنَّ البيانَ، وإنَّ حُسـ   ـنَ العقلِ، ما زالا متاعَك
أبدًا تُذكِّرنا الذيـ   ـن جَلَوْا على الدنيا شُعاعك
وبَنَوْا منارَك عاليًا   مُتَألِّقًا، وبَنَوْا قِلاعك
وتحكَّموا بك في الوجو   دِ، تَحَكُّمًا كان ابتداعَك
حتى إذا جئتَ الأنا   مَ بأهل حكمِته أطاعَك
واليومَ عَقَّ، كأنما   ينسى جميلَكَ واصطناعَك
فابْلَغْ — فَدَيْتُكَ — كلَّ ما   ئك، فالملا ينوي ابتلاعك

(وقال عندما زار قسم الأزهار والثِّمار في المعرض بباريس سنة ١٩٠١):

رزق الله أهلَ باريسَ خيرًا   وأرى العقلَ خيرَ ما رُزِقُوه

عندهم للثِّمارِ والزَّهرِ ممَّا   تُنجِب الأرضُ مَعْرِضٌ نَسقوه

جنَّةٌ تَخلِب العقولَ، وروضٌ   تجمع العينُ منه ما فرقوه

مَنْ رآه يقول: قد حُرموا الفر   دوسَ، لكنْ بسحرهم سرقوه

ما ترى الكَرْم قد تشاكلَ، حتى   لو رآه السُّقَاةُ ما حقَّقوه؟

يُسْكِرُ الناظرين كَرْمًا، ولمَّا   تَعْتصِرْهُ يَدٌ، ولا عَتَّقوه

صوَّروه كما يشاءُون، حتى   عَجبَ الناسُ: كيف لم يُنْطِقُوه؟

يجدُ المُتَّقي يدَ الله فيه   ويقول الجَحودُ: قد خَلقَوه

بَارِيسُ

جَهْدُ الصبَّابةِ، ما أكابدُ فيكِ   لو كان ما قد ذُقْتُه يكفيك

حتَّامَ هِجرانِي؟ وفيمَ تَجنُّبي؟   وإلامَ بي ذُلُّ الهوى يُغرِيكِ؟

قد مُتُّ من ظَمَإٍ، فلو سامَحْتنِي   أن أَشتهي ماءَ الحياةِ بِفِيكِ!!

أجِدُ المنايا في رضاكِ هي المُنَى   ماذا وراءَ الموتِ؟ ما يُرْضيك؟

يا بنتَ مَخضوبِ الصوارمِ والقنا   بَرِئتْ بَنانُكِ من سلاح أبيك

فخضابُ تلك؛ من العيونِ وِقايةٌ   وخضابُ ذاك من الدمِ المسفوك

جْفناكِ، أيُّهما الجريءُ على دمي؟   بأبي هُمَا مِنْ قاتلٍ وشَريك!!

بالسَّيفِ، والسِّحر المُبينِ، وبالطَّلَى   حَمَلا عَليَّ، وبالقَنا المَشبوك[٤٦١]

بهما وبي سقمٌ، ومِنْ عَجَب الهوى   عُدْوَانُ مُنْكَسِرٍ على مَنْهوك

رِفقًا بمسْبِلَة[٤٦٢] الشئونِ[٤٦٣] قريحةٍ[٤٦٤]   تسلو عن الدُّنيا ولا تَسْلوك

أبكيتِها، وقعدتِ عن إنسانِها[٤٦٥]   يا للَرِّجالِ لِمُغْرَق متروك

ضَلَّت كَرَاها[٤٦٦] في غَياهِب[٤٦٧] حالكٍ   ضَلَّ الصباحَ لِمُغْرَق متروك

رقَّ النسيمُ على دُجاه لأِنَّتي   ورَثَى لحالي في السماءِ أخوك[٤٦٨]

قاسيتُه، حتى انجلى بالصبح عن   سِرِّي المَصُونِ، ومَدْمَعِي المهتوك

سُلَّت سيوفُ الحيَّ، إلاَّ واحدًا … إفْرِنْدُه[٤٦٩] في جَفْنِه يَحْميك

جَرَّدْتِه في غيرِ حقًّ، كالأُلَى … سَلُّوا سيوفَهمُ على أهليك

طلعتْ على حَرمِ الممالكِ خيلُهم … نارًا سَنابِكُها[٤٧٠] على (البلجيك)

البأْسُ والجبروتُ في أَعْرافِها[٤٧١] … والموتُ حولَ شَكيمها[٤٧٢] المعْلوك[٤٧٣]

عَرتْ (لياجَ) عن الحصونِ، وَجَرَّدَتْ … (نامورَ) عن فُولاذِها المشكوك[٤٧٤]

تمشي على خَطِّ الملوكِ وخَتْمِهم … وعلى مَصُونِ مَواثِقٍ وصُكُوك[٤٧٥]

والحربُ لا عقلٌ لها فتسومها … ما يَنبغي من خُطَّةٍ وسلوك

دَكَّت حصونَ القوم إلاَّ مَعْقِلاً … من نَخْوَةٍ، وحَمِيَّةٍ، وفُتوك

وإذا احتمى الأقوامُ باستقلالهم … لاذوا بركنٍ ليس بالمدْكوك

ولقد أقول وأدمُعي مُنْهَلَّةٌ: … (باريزُ)، لم يعرفْكِ مَنْ يَغْزوكِ

ما خِلْتُ جَنَّاتِ النعيم ولا الدُّمَى[٤٧٦] … تُرْمَى بمشهود النهار[٤٧٧] سَفوك

زعموكِ دارَ خلاعةٍ، ومَجانةٍ … ودَعارةٍ: يا إفْكِ ما زعموك!

إن كنتِ للشهواتِ رِيًّا، فالعُلا … شَهَواتُهُنَّ مُرَوَّيَاتٌ فيك

تلِدِينَ أعلامَ البيانِ، كأنهم … أصحابُ تيجانٍ، ملوكُ أريك

فاضت على الأجيال حكمةُ شِعرِهم … وتفجَّرَتْ كالكوثر المعْروك[٤٧٨]

والعلمُ في شرقِ البلادِ وغربها … ما حجَّ طالبُه سوى ناديك

العصرُ، أنتِ جمالُه، وجلالُه … والركنُ من بُنْيَانِه المَسْمُوك[٤٧٩]

أخذَتْ لواءَ الحقِّ عنكِ شُعوبُه … ومشَتْ حَضارتُه بنور بَنيك

وخِزانَةُ التاريخِ، ساعةُ عَرْضِها … للفَخْرِ، خيرُ كنوزِها ماضيك

ومن العجائِبِ أن واديك الشَّرَى[٤٨٠] … ومَراتع الغزلانِ في واديك

يا مكتبي قبلَ الشبابِ، ومَلْعبي … ومَقِيلَ أيامِ الشباب النُّوك[٤٨١]

ومراحَ لذَّاتي. ومَغْداها على … أُفُقٍ كجّناتِ النعيم ضَحُوك

وسَماءَ وَحْيِ الشَّعر من مُتدفَّقٍ … سَلِسٍ على نَوْلِ[٤٨٢] السماءِ مَحُوك[٤٨٣]

لمَّا احتملتُ لكِ الصَّنيعةَ، لم أجد … غيرَ القوافي ما به أجزيك

إن لَم يَقُوكِ بكل نفسٍ حُرَّةٍ … فاللهُ جلَّ جلالُه واقيك

لنا صاحبٌ قد مُسَّ إلا بقيَّة … فليس بمجنون، وليس بعاقل

له قَدَمٌ لا تستقرُّ بموضع … كما يتنزَّى[٤٨٤] في الحصى غيرُ ناعل

إذ ما بدا في مجلسٍ ظُنَّ حافلاً ... من الصَّخَب العالي، وليس بحافل
ويُمطرنا من لفظِهِ كلَّ جامدٍ ... ويُمطرنا من رَيْله[485] شرَّ سائل
ويُلقِي على السُّمَّارِ كفًّا دِعابُها ... كعَضَّةِ بَرْدٍ في نواحي المفاصل
(محجوبُ)، إن جئتَ «الحجا ... زَ»، وفي جوانحك الهوى له
شوقًا، وحبًا بالرسو ... ل، وآلِهِ أزكى سُلالهْ
فلَمحتَ نَضْرَةَ (بانِه) ... وشمعتَ كالرَّيْحان (ضالَه)
وعلى (العتيق)[486] مَشَيْتَ تنـ ... ـظر فيه دمعَك وانهماله
ومضى السُّرى بك حيثُ كا ... ن الرَّوحُ يسري والرَّساله
وبلغتَ (بيتًا) بالحجا ... ز، يُبارك الباري حِياله
اللهُ فيه جلا الحرا ... مَ لخلقه، وجلا حلاله
فهناك طِبُّ الروحِ، طِـ ... ـبُّ العالَمين من الجهاله
وهناكَ أطلالُ الفصَا ... حةِ، والبلاغةِ، والنَّباله
وهناك أزكى مسجَدٍ ... أزكى البريَّة قد مشى له
وهناك عُذْرِيُّ الهوى ... وحديثُ (قَيْسٍ)[487] والغزاله
وهناك مُجْرِي الخيل، يجري ... في أعنتها خياله
وهناك مَنْ جمعَ السماحةَ ... والرَّجاحة، والبسالة[488]
وهناك خَيَّمَت النُّهَى ... والعلمُ قد ألقى رِحاله
وهناك سَرْحُ حضارةٍ ... الله فَيَّأَنا ظِلالَه
إنّ الحسينَ بنَ الحسـ ... ـينِ أميرَ مَكَّةَ والإياله
قمرُ الحجيجِ إذا بدا ... دارُ الحجيج عليه هاله
أنتَ العليلُ، فلُذ به ... مُستشفيًا، واغْنَمْ نَواله
لا طِبَّ إلا جَدُّه ... شافي العقولِ من الضَّلاله
قَبِّل ثراه، وقُلْ له ... عني، وبالِغْ في المقاله
أنا يا ابنَ أحمدَ بعدَ مَدْ ... حي في أبيك بخير حاله
أنا في حِمَى الهادي أبيـ ... ـك، أُحِبُّهُ، وأُجِلُّ آله
شوقي إليك على النَّوى ... شوقُ الضرير إلى الغزالة[489]
يا ابنَ الملوك الراشديـ ... ـن، الصالحين، أولِي العَداله

إن كــان بــالــمــلــك الــجــلا لــةُ، فــالــنــبــيُّ لــكــم جــلالــه
أَوَلــيــس جــدُّكُــم الــذي بــلــغَ الــوجــودُ بــه كــمــالــه؟

طُوكْيُو

وصف نكبة اليابان الأخيرة بالزلزال الشهير

قِف (بطوكيو)، وطُف على (يو كاهامَه) وسلْ القريتْين: كيف القيامه؟
دنت الساعةُ التي أُنْذِرَ النا سُ، وحَلَّتْ أشْراطُها[٤٩٠] والعلامه
قِفْ، تأمّلْ مَصارعَ القوم، وانظُرْ هل ترى من ديار عادٍ دِعامه؟
خُسِفَت بالمساكن الأرضُ خَسْفًا وطَوى أهلُها بِسَاطَ الإقامه[٤٩١]
طَوَّفَتْ بالمدينتين المنايا وأَدارَ الردَى على القومِ جامَه[٤٩٢]
لا تَرى العينُ منهما أين جالت غيرَ نِقْضٍ،[٤٩٣] أو رِمَّةٍ، أو حُطامه[٤٩٤]
حازَهم من مراجِل[٤٩٥] الأرض قبرٌ — في مدى الظَّنِّ — عُمْقُه ألفُ قامه
تحسبُ الميْتَ في نواحيه يُعيي نفخَةَ الصُّور أن تَلُمَّ عِظامه
أصبحوا في ذَرا الحياة، وأمسَوْا ذهبَتْ رِيحُهم وشالوا نَعامه[٤٩٦]
ثِقْ بما شئتَ من زمانكِ، إلاَّ صحبةَ العيشِ، أو جِوارَ السلامه
دولةُ الشرق وهي في ذِرْوَة العزِّ تَحارُ العيونُ فيها فخامه
خانها الجيشُ وهْوَ في البرَّ دِرْعٌ والأساطيلُ وهْيَ في البحر لامه[٤٩٧]
لو تأمَّلْتَها عشيَّةَ جاشتْ خِلْتَها في يد القضاءِ حمامه
رجَّها رجَّةً أكبَّتْ على قَرْنَيْهِ (بوذا)، وزلزلتْ أقدامه
استعذنا بالله من ذلك السَّيْـ ـلِ الذي يكسحُ البلادَ أمامه
مَنْ رأى جَلْمَدًا يَهُبُّ هُبوبًا وحميمًا[٤٩٨] يَسُحُّ سحَّ الغمامه؟
ودخانًا يَلُفُّ جُنْحًا بجُنْحٍ[٤٩٩] لا ترى فيه مِعْصَميها اليَمامه؟[٥٠٠]
وهَزِيمًا كما عَوى الذئبُ في كـ ـلِّ مكانٍ، وزَمْجَرَ الضَّرغامه؟

***

أتَت الأرضُ والسماءُ بطوفا نٍ يُنَسيَّ طوفانَ نوحٍ وعامه

فترى البحرَ جُنَّ، حتى أجاز[٥٠١] الـ ـــبرَّ، واحتلَّ مَوْجُه أعلامه
مُزْبِدًا، ثائرَ اللُّجاجِ، كجيشٍ قوَّضَ العاصفُ الهَبوبُ خِيامه
فُلْكُ نوحٍ تعوذُ منه بنوحٍ لو رأته، وتستجير زِمامه
قد تخيَّلْتُهم متابيلَ سحرٍ من قراعِ القضاءِ صَرْعَى مُدامه
وتخيَّلتُ مَنْ تخلَّف منهم ظَنَّ ليلَ القيامِ ذاك، فنامه
أبراكينُ تلكَ، أم نَزَواتٌ[٥٠٢] من جراحٍ قديمةٍ مُلْتامه؟
تجدُ الأرضُ راحةً حيثُ سالتْ راحةُ الجسم من وراءِ الحِجَامه[٥٠٣]
ما لها لا تَضِجُّ مما أقلَّتْ من فساد، وحُمِّلَت من ظُلامه؟
كلَّما لُبِّسَتْ بأهل زمانٍ شهِدَتْ من زمانهم آثامه
استووا بالأذى ضِرِيًّا، وبالشـ ـــرَّ وُلوعًا، وبالدِّماءِ نَهامه
لبَّسَتْ هذه الحياةُ علينا عالَمَ الشَّرَّ: وَحْشَه، وأنامه
ذاك من مُؤنساتِه الظُّفْرُ والنّا بُ، وهذا سلاحُه الصَّمْصَامَه
سَرَّهُ من أسامةَ البَطْشُ والفتـ ـــكُ، فسَمَّى وليدَه بأسامه[٥٠٤]
لَؤُمَتْ منهما الطباعُ، ولكن وَلَدُ العاصِيَيْنِ شرٌّ لآمه![٥٠٥]

طَابَعُ الْبَريد

العيد الفضي — ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٠ — لطابع البوستة في جنيف — سلام على لسان البريد

أنا من خمسة وعشرين عاما لم أُرِحْ في رِضاكمُ الأقْداما
أركبُ البحرَ تارةً، وأجوبُ الـ ـــبَرَّ طَوْرًا، وأَقطعُ الأيّاما
ويُوافى النفوسَ مِنَّى رسولٌ لم يكن خائنًا، ولا نَمّاما
يَحمِلُ الغِشَّ والنصيحةَ، والبغضا ءَ والحُبَّ، والرِّضَى والمَلاما
ويَعِي ما تُسِرُّه من كلامٍ ويُؤدِّي كما وعَاهُ الكلاما
ولقد أضْحِكُ العَبْوسَ بيومٍ فيه أبْكِى المُنعَّمَ البسَّاما
وأُهنِّي على النوَى وأُعزِّي وأفِيدُ الحِرْمانَ والإنعاما

وجزَائِي عن خدمتي ووَفائي ... ثـمـنٌ لا يُـكـلِّـف الأقـوامـا
رُبَّ عبدٍ قد اشتراني بمالٍ ... وغُلامٍ قد ساقَ مِنِّي غُلاما
عرفَ القومُ في (جنيفا) مَحلِّي ... وجَزَوْني عن خدمتي إكراما
جامَلوني إذ تَمَّ لي رُبْعُ قَرْنٍ ... مِثْلَما جامَلوا الملوكَ العِظاما
ويوبيلُ الملوكِ يَلْبَثُ يومًا ... ويوبيلي يدوم في الناس عاما

الطَّيَّارُونَ الْفَرَنْسِيُّون

قُمْ (سليمانُ)، بِساطُ الريح قاما ... مَلكَ القومُ من الجوِّ الزِّماما
حينَ ضاقَ البرُّ والبحرُ بهم ... أسْرَجوا الريحَ، وساموها اللِّجاما[٥٠٦]
صارَ ما كان لكم مُعْجِزةً ... آيةً للعلم آتاها الأَنَاما
قدرةٌ كنتَ بها مُنْفَرِدًا ... أصبحَتْ حِصَّةَ مَنْ جَدَّ اعتزاما
(عينُ شمسٍ) قام فيها ماردٌ ... من عفاريتكَ يُدْعَى (شاتهاما)
يملأُ الجَوَّ عَزيفًا كُلَّمَا ... ضرب الريحَ بسَوْطٍ والغَماما
مَلِكُ الجوِّ تليه عُصْبَةٌ ... جمعتْ شَهْمًا، ونَدْبًا، وهماما[٥٠٧]
اسْتَوَوْا فوقَ «مناطيدهُم» ... ما يُبالونَ: حياةً، أم حِمَامَا
وقبورًا في السَّمواتِ العُلا ... نزلوا، أم حُفَراتٍ ورَغاما[٥٠٨]
مُطْمَئِنِّين نفوسًا، كلَّما ... عبَسَت كارثةٌ زادوا ابتساما
صهوةَ العِزِّ اعتلوْا، تحسبهم ... جَمْعَ أملاكٍ على الخيل تَسامى
رفعوا «لَوْلَبَها»، فاندفعَتْ ... هل رأيتَ الطيرَ قد زَفَّ وحاما؟[٥٠٩]
شال[٥١٠] بالأذناب كلٌّ، وَرَمَى ... بجَناحَيْهِ كما رُعْتَ النَّعاما
ذهبتْ تَسْمُو، فكانت أعْقُبًا[٥١١] ... فنسورًا، فصقورًا، فَحماما
تَنْبَرِي في زَرَقِ الأُفْقِ، كما ... سبحَ الحُوتُ بدَأمَاءٍ، وعاما[٥١٢]
بعْضُها في طلبِ البعضِ، كما ... طاردَ «النَّسرُ» على الجوِّ القُطاما[٥١٣]
ويراها عالَمٌ في زُحَلٍ[٥١٤] ... أرسلتْ من جانب الأرضِ سِهاما
أو نجومًا ذاتَ أذنابٍ بدتْ ... تُنْذِرُ الناسَ نُشورًا وقِياما[٥١٥]

أترى القوَّة في جُؤجُؤِه[٥١٦] ... وهو بالجؤجؤ ماضٍ يَترامى؟

أَم تراها في الخوافي[٥١٧] خَفِيَتْ ... أم مَقَرُّ الحَوْلِ[٥١٨] في بعض القُدَامى؟[٥١٩]

أَم ذُناباه إذا حرَّكه ... يَزِنُ الجسَم هُبوطًا وقِياما؟

أَم بعينيه إذا ما جالتا ... تكشفان الجوَّ غيثًا أم جَهاما؟[٥٢٠]

أَم بأظفارٍ إذا شبَّكها ... نفذت في الريح دفْعًا واستلاما؟

أَم أَمدَّتْهُ بروحٍ أمُّه ... يوم ألقته وما جاز الفطاما؟

فتلقَّاه أبٌ، كم من أبٍ ... دونَه في الناس بالوُلْدِ اهتماما!

فَلَكِيٌّ هو، إلاَّ أنه ... لم يَنَلْ فَهْمًا، ولم يُعْطَ الكَلاما

طِلْبةٌ قد رامها آباؤنا ... وابتغاها من رأى الدَّهرَ غُلاما

أسقطَتْ «إيكارَ» في تَجْرِبَةٍ ... «وابنَ فِرْناسٍ»، فما اسْطاعا قِياما

في سبيلِ المجدِ أَوْدَى نَفَرٌ ... شهداءُ العلمِ أعلاهُمْ مَقاما

خلفاءُ الرُّسْلِ في الأرض همو ... يَبْعَثُ اللهُ بهم عامًا فعاما

قطرةٌ من دمهم في مُلْكه ... تملأُ الملكَ جمالاً ونظاما

***

رَبِّ، إن كانت لخيرٍ جُعِلَتْ ... فاجعل الخيرَ بناديها لزاما

وإن اعتزَّ بها البشرُ غدًا ... فتعالَتْ تُمْطِرُ الموتَ الزُّؤاما

فاملأ الجوَّ عليها رُجُمًا ... رحمةً منكَ، وعدلاً، وانتقاما

***

يا «فرنسا»، لا عَدِمنا مِنَنًا ... لكِ عند العلم والفنِّ جُساما

لَطف اللهُ «بباريسَ»، ولا ... لَقِيَتْ إلاَّ نعيمًا وسلاما

رَوَّعَتْ قلبي خُطوبٌ رَوَّعَتْ ... سامِرَ الأحياءِ فيها والنِّياما

أنا لا أدعو على «سِينٍ» طَغى ... إنَّ «للسَّينِ» — وإن جار — ذِماما

لستُ بالناسي عليه عِيشَةً ... كانت الشهدَ، وأحبابًا كرامًا

اجعلوها رُسْلَكم أهلَ الهوى ... تحملُ الأشواقَ عنكم والغراما

واستعيروها جَناحًا طالما ... شَغف الصَّبَّ وشاقَ المستَهاما

يحمِلُ المُضْنَى إلى أرض الهوى ... «يَمَنًا» حَلَّ هَوَاهُ، أَم «شَآما»

***

أَركَـبُ الـلـيـثَ، ولا أركـبُـهـا ... وأرى لَـيْثَ الـشَّـرَى أوفـى ذِمـامـا
غَـدَرَتْ «جـيـرونَ»، لـم تَـحْـفِـلْ بـه ... ربـمـا حـاوَلَ مِـنْ فَـوْزٍ وِرامـا
وقـعـتْ نـاحـيـةً، فـاحـتـرقـت ... مِثْلَ قُرْصِ الشمَّسِ بالأفْقِ اضطراما
راضَـهـا بـالـيُـمْـنِ مِـنْ طَـلْـعَـتِـه ... خيرُ مَنْ حَجَّ، وَمَنْ صَلَّى، وصاما
كـخـلـيـلِ الـلـه، فـي حَـضْـرتـه ... خَـرَّتِ الـنـارُ خُـشُـوعًـا واحـتـرامـا

***

مـا (لـروحـي) صـاعـدًا مـا يـنـتـهـي؟ ... أتُـراه آثَـرَ الـجـوَّ، فَـزَامـا؟
كـلَّـمـا دارَ بـه دوْرَتَـه ... أبـدَت الـريـحُ امْـتـثِـالا وارْتِـسـامـا
أنـا لـو نِـلْـتُ الـذي قـد نـالـه ... ما هَـبطْتُ الأرضَ أرضاها مُقاما
هـل تـرى فـي الأرضِ إلا حَـسَـدًا ... وريـاءً، ونِـزَاعًـا، وخِـصـامـا؟

***

مُـلْـكُ هـذا الـجـوَّ فـي مَـنْـعَـتِـه ... طـالـما لـلنَّجـمِ والطَّيْرِ اسـتـقـامـا
حَـسَـدَ الإنـسـانُ سِـرْبَـيْـهِ[٥٢١] بـمـا ... أوتِـيـا فـي ذرْوَةِ الـعـزِّ اعـتـصـامـا
دخـلَ الـعُـشَّ عـلـى «أنْـسُـرِهِ» ... أتُرى يغشى من النَّجم السَّنَاما؟[٥٢٢]
أيُّـهـا الـشـرق، انْـتَـبِـهْ مـن غـفـلـةٍ ... ماتَ مَنْ في طُرُقاتِ السيَّل ناما
لا تـقـولَـنَّ: عِـظـامِـيٌّ أنـا ... فـي زمـانٍ كـان لـلـنـاسِ عِـصـامـا
شـاقـت الـعـلـيـاءُ فـيـه خَـلـقًـا ... لـيـس يَـأْلُـوهـا طِـلابًـا واغـتـنـامـا
كـلَّ حـيـنٍ مـنـهـمـو نـابـغـةٌ ... يـفـضـلُ الـبـدرَ بـهـاءً وتـمـامـا

***

خـالِـقَ الـعُـصْـفـورِ، حَـيَّـرْتَ بـه ... أمَـمًـا بـادوا ومـا نـالـوا الـمـرَامـا
أفْـنَـوُا الـنَّـقْـدَيْـنِ فـي تـقـلـيـدِه ... وهـو كـالـدَّرهـم ريـشًـا وعِـظـامـا

وَصْفُ مَرْقَصٍ

وقال يصف «البال» الخديوي الذي أُقِيم سنة ١٩٠٣ بسراي عابدين

طال عليها القِدَم ... فهي وجودٌ عَدَمْ
قد وُئِدَتْ في الصِّبا[٥٢٣] ... وانبعثَتْ في الهَرَم
بالغَ فِرعونُ في ... كَرْمتِها من كَرم
أَهرَق عُنقودَها ... تَقْدِمةً للصنم
خَبَّأها كاهِنٌ ... ناحِيةً في (الهَرَم)
اكتُشِفَتْ فامَّحَتْ[٥٢٤] ... غيرَ شَذًا[٥٢٥] أو ضَرَم[٥٢٦]
أو كخيال لها ... بعد متابٍ أَلَمَّ[٥٢٧]
نَمَّ بها دَنُّها ... وهْيَ عليه أَنَمّ
بي رَشَأٌ ناعمٌ[٥٢٨] ... ما عرف العمرَ هَمَّ
أخرجها اللهُ كالـ ... ـزَّهرة، والحسنُ كِمٌّ[٥٢٩]
تخطرُ عن عادلٍ ... لم يُرَ إلاَّ ظَلَم
تَبْسِمُ عن لؤلؤٍ ... قَدَّرَه مَنْ قَسَم
كرَّمه في النَّوَى ... هذَّبه في اليتم[٥٣٠]
مُضطهَدٌ خَصْرُها ... جانِبُه مُهْتَضَم
طاوعَ مِنْ صَدْرِها ... أَيَّ قَوِيٍّ حَكَم
حَمَّله ثِقْلَه ... ثُمَّ عليه ادَّعم[٥٣١]
تسأل أترابَها ... مُومِئةً بالعَنم[٥٣٢]
أيُّ فتىً ذلِكُـ ... ـنَّ العربي العَلَم؟
يشربها ساهرًا ... ليلتَه لم يَنَم
قُلْنَ: تجاهَلْتِه ... ذلك ربُّ القلم
شاعرُ مصرَ الذي ... لو خَفِيَ النَّجمُ لَم
قلتُ لها: ليتَ لم ... نُرْمَ وفي نُتَّهَم
عاذلَتِي في الطِّلى[٥٣٣] ... لو أنصفتْ لم أُلَم
إن عَبس العيشُ لي ... عُذْتُ بها فابتسم

يـشـربُـهـا كـابـرٌ[٥٣٤] بـيـن ضـلـوعـي أشَـمّ
يـبـذلُ، إلاَّ الـنُّـهَـى يَـهـتِـك، إلاَّ الـحُـرَم
يُـكْـسِـبُـهـا خُـلْـقَـه يَـمـزجُـهـا بـالـشـيِّـم
يَـمـنـعـهـا حـلـمَـه إن دفـعـتْـه احـتـشـم
تلك شموسُ الدُّجَى أم ظَـبـيـاتُ الـخِـيَـم؟
تُـقـبِـلُ فـي مـوكـبٍ شَـقَّ سـنـاه الـظُّـلَـم
خِـلْـتُ بـأنـواره قَـرْنَ ذُكـاءٍ نَـجَـم[٥٣٥]
مـقـصِـدُهـا سُـدَّةٌ آل إلـيـهـا الـعِـظَـم
حـيـث كـبـارُ الـمَـلا بـعـضُ صـغـارِ الـخدم
قـد وقـفـوا لـلـمَـهـا فانسربتْ[٥٣٦] من أَمَم[٥٣٧]
تـخْـطِـر مِـن جـمـعـهـم بـيـن لـيـوثٍ بُـهَـم[٥٣٨]
خـارجـةً مِـن شَـرىً داخـلـةً فـي أَجَـم
نـاعِـمـةً لـم تُـرَعْ لاهـيـةً لـم تَـجِـم
انـتـثـرت لـؤلـؤًا في الـمُـهَـجاتِ انتظم
تَـمـرَح فـي مَـأْمَـنٍ مـثـلَ حَـمَـامِ الـحَـرَم
مُـؤتـلِـفٌ سِـربُـهـا حـيـث تـلاقـى الْـتـأم
مـنـدفـعـاتٌ عـلـى مـخـتـلـفـاتِ الـنَّـغـم
بـيـن يَـدٍ فـي يَـدٍ أو قَـدَم فـي قَـدَم
تـذهـب مَـشْـيَ الـقـطـا تـرجـع كَـرَّ الـنَّـسَـم
تـبـعـث أنَّـى بَـدَتْ ضـوءَ جـبـيـنٍ وفَـم
تعُجْل خطوًا تَنِي[٥٣٩] فـاتـنـة بـالـرَّسَـم[٥٤٠]
تـجـمـع مِـنْ ذَيـلـهـا تـتـركـه لَـمْ يُـلَـمّ
تـرفُـل فـي مُـخْـمَـلٍ نَـمَّ ولـمَّـا يَـنِـمّ
تَـتـبـعُ. إلاَّ الـهـوى تَـقْـرَبُ، إلاَّ ألـتُّـهَـم
فـاجـتـمـعتْ فـالـتـقـتْ حـولَ خِـوانٍ نُـظـم
مُـنْـتَـهَـبٍ كـلَّـمـا ظُـنَّ بـه الـنـقـصُ تَـمّ
مـائـدةٌ مَـدَّهـا بـحـرُ نـوالٍ خِـضَـمٌ

تـحـسَـبـهـا صُـوَّرَتْ　　مـن شـهـوات الـنَّـهـم
لـم تْـرَ فـي (بـابـلٍ)　　مـا عُـهِـدتْ فـي (إرَم)
(حـاتِـمُ) لـو شـامَـهـا　　أقـلـعَ عـمـا زَعَـم
(مَـعْـنُ) لـو انـتـابـهـا　　أدركَ مـعـنـى الـكـرم
أشـبَـهُ بـالـبـحـر، لا　　يُـحـرِجُـهـا مُـزْدَحَـم
قـام لـديـهـا الـمَـلا　　يـبـلـغ أَلـفـيـن ثَـم
مـقـترحًـا مـا اشـتـهـى　　مـلـتـقـيًـا مـا رَسَـم
لـو طَـلَـب الـطـيرَ مـن　　أيـكـتِـه مـا احـتـرم[٥٤١]
يـا مـلِـكًـا لـم تـضِـق　　سـاحـتُـه بـالأمَـم
تَـجـمـعُ أشـرافَـهـا　　مـن غَـرَبٍ أو عَـجَـم
تُـخْـطِـر مَـنْ أُمِّـهـا　　بـيـن صـنـوف الـنِّـعَـم
سـادةُ أفـريـقـيـا　　لُـجَّـتِـهـا والأكَـم
أنـت رشـيـدُ الـعُـلَـى　　في المَلأَيْنِ احْتَكِم[٥٤٢]
لـيـلـتُـكـم قـدْرُهـا　　فـوقَ غـوالـي الـقِـيَـم
مُـشـرِقـةٌ، مـثـلُـهـا　　فـي زمـنٍ لـم يَـقُـم
لا بـرح الـصـفـوُ فـي　　ظِـلِّـكـمـو يُـغْـتَـنَـم
مـا شـربـوهـا ومـا　　طـال عـلـيـهـا الـقِـدَم

تُوت عَنْخ آمُونَ وحضَارَةُ عَصْرِه

دَرَجَتْ على الكنزِ القُرونْ　　وأتتْ على الدَّنِّ السُّنونْ[٥٤٣]
خيرُ السيوفِ مضى الزما　　نُ عليه في خيرِ الجفون[٥٤٤]
في منزلٍ كمُحَجَّب الـ　　ـغَيْبِ اسْتَسَرَّ عن الظنون[٥٤٥]
حتى أتى العلمُ الجسو　　رُ ففضَّ خاتَمَه المَصون
والعلم (بَدْرِيٌّ)،[٥٤٦] أحِـ　　ـلَّ لأهله ما يصنعون
هتك الحِجالَ[٥٤٧] على الحضا　　رةِ، والخُدورَ على الفنون

واندسَّ كـالـمِـصـبـاح فـي ... حُفَرٍ مِنَ الأجْداثِ جُون[٥٤٨]
حُـجِـرٌ مُـمَـرَّدَةٌ[٥٤٩] الـمـعـا ... قِل في الثَّرى، شُمُّ الحُصون
لا تـهـتـدي الـريـحُ الـهَـبو ... بُ لـهـا، ولا الـغـيـثُ الـهَـتون
خـانـت أمـانـةَ جـارِهـا ... والـقـبْـرُ كـالـدُّنـيـا يَـخـون

* * *

يـا ابنَ الـثـواقـبِ مـن (رَعٍ) ... وابنَ الزَّواهِرِ من (أمُونْ)[٥٥٠]
نَـسَـبٌ عـريـقٌ فـي الـضُّـحـى ... بَـذَّ الـقـبـائـلَ والـبُـطـون
أرأيـتَ كـيـف يَـئُـوب مـن ... غَمْرِ القضاءِ المُغْرَقون؟
وتَـداولُ آثـارُ الـقُـرو ... ن، على رَحَى الزَّمِن الطَّحون؟
حُـبُّ الـخـلـودِ بَـنَـى لـكـم ... خُـلُـقًـا بـه تَـتـفـرَّدون
لـم يـأْخـذِ الـمـتـقـدِّمـو ... ن بـه، ولا الـمـتـأخِّـرون
حـتـى تـسـابـقـتـم إلـى إلإ ... حـسـان فـيـمـا تـعـمَـلـون
لـم تَـتـركـوه فـي الـجـلـيـ ... ـلِ ولا الحقيرِ من الشئون
هـذا الـقـيـامُ، فـقـل لـنـا: الـ ... ـيَوْمُ الأخيرُ متى يكون؟
الـبـعـثُ غـايـةُ زائـلٍ ... فـانٍ، وأنـتـم خـالـدون
الـسَّـبْـقُ مِـن عـاداتِـكـم ... أتُرى الـقـيـامةَ تـسِـبـقـون؟
أنـتـم أسـاطـيـنُ الـحـضـا ... رةِ والـبُـنـاةُ الـمـحـسِـنـون
الـمـتـقـنـون، وإنـمـا ... يُـجـزَى الـخـلـودَ الـمـتـقـنـون

* * *

أَنَـزَلْـتَ حُـفـرةَ هَـالـكٍ ... أم حـجـرةَ الملكِ المَكينْ؟
أم فـي مـكـانٍ بـيـنَ ذ ... لـكَ يُـدهـشُ الـمـتـأمّـلـيـن؟
هـو مـن قـبـور الـمُـتْـلَـفـ ... ـين، ومن قصور المُتْرَفين
لـم يـبـقَ غـالٍ فـي الـحـضـا ... رةِ لـم يَـحُـزْهُ، ولا ثَـمـيـن
مـيْـتٌ تُـحـيـط بـه الـحـيـا ... ةُ، زمـانُـه مـعـه دَفـيـن
وذخـائـرٌ مـن أعْـصُـرٍ ولَّـ ... ـتْ، ومـن دُنـيـا وديـن
حـمـلَـتْ عـلـى الـعَـجَـبِ الـزَّمـا ... نَ وأهـلَـه الـمـسـتـكـبِـريـن

فتلفَّتَتْ (باريسُ) تَحْـ — ـسَبُ أنها صنعُ البنين

***

ذهبٌ ببطنِ الأرضِ لم — تذهبْ بلَمْحَتِه القُرون
استحدثتْ لك جَنْدَلاً — وصفائحًا منه القُيُون[551]
ونَواوِسًا[552] وَهَّاجَةً — لم يتَّخذها الهامدون
لو يفطنُ الموتى لها — سَرَحوا الأناملَ يَنبشُون
وتنازعوا الذهبَ الذي — كانوا له يتَفاتَنون

***

أكفانُ وَشْيٍ فُصَّلتْ — برقائق الذَّهب الفَتِينْ[553]
قد لفَّها لَفَّ الضَّما — دِ مُحَنَّطٌ آسٍ رَزين
وكأنهنَّ كمائمٌ — وكأنكَ الوردُ الجَنين
وبكلِّ رُكنٍ صورةٌ — وبكلِّ زاويةٍ رَقِين[554]
وترى الدُّمَى، فتخالها انْـ — ـتَثَرَتْ على جَنباتِ زُون[555]
صُوَرٌ تُريكَ تَحَرُّكًا — والأصلُ في الصُّورِ السُّكون
ويمرُّ رائعُ صَمْتِها — بالحِسِّ كالنُّطق المُبين
صحبَ الزمانَ دِهانُها — حينًا عهيدًا بعدَ حين[556]
غَضٌّ على طول البِلَى — حَيٌّ على طول المَنُون
خَدَعَ العيونَ ولم يَزلْ — حتى تَحَدَّى اللاَّمِسين
غِلمانُ قَصْرِك في الرِّكا — بِ يُناولونَ، ويَطْرَدون[557]
والبوقُ يهتِفُ، والسِّها — مُ تَرِنُّ، والقوسُ الحَنون
وكلابُ صيدِكَ لُهَّثٌ — والخيلُ جُنَّ لها جُنون
والوحشُ تَنْفِرُ في السُّهو — لِ، وتارةً تَثِبُ الحُزُون
والطيرُ تَرسُفُ في الجِرا — حِ، وفي مَناقِرِها أنين
وكأنَّ آباءَ البريَّـ — ـةِ في المدائن مُحضَرون
وكأنَّ دُولةَ (آلِ شمـ — ـسٍ) عن شِمالكَ واليَمين[558]

***

مـلِـكَ الـمـلـوكِ، تـحـيَّـةً   ووَلاءَ مُـحـتـِفـظ أمـيـن
هـذا الـمـقـامُ عـرفـتُـه   وسـبـقـتُ فـيـه الـقـائِـلـيـن
ووقـفـتُ فـي آثـارِكـم   أزِنُ الـجـلالَ وأسْـتـبـيـن
وبـنـيـتُ فـي الـعـشـرينَ من   أحـجـارِهـا شِـعْـرِي الرَّصين
سـالـتْ عـيـونُ قـصـائـدي   وجَرى من الحجَر المَعين
أَقْـعَـدتْ جِـيـلاً لـلـهـوى   وأَقـمـتُ جِـيـلاً آخـريـن
كـنـتـمْ خـيـالَ الـمـجـدِ يُـرْ   فُـع لـلـشـبـابِ الـطـامِـحـيـن
وكـم اسـتـعـرتَ جـلالَـكـم   لـمـحـمَّـدٍ والـمـالـكـيـن[٥٥٩]
تـاجٌ تـنَـقَّـلَ فـي الـخـيـا   لِ، فما استقرَّ على جَبين
خَـرَزاتُـه الـسـيـفُ الـصـقـيـ   ـلُ يَـشـدُّه الـرمـحُ الـسَّـنـين

***

قـلْ لـي: أحـيـنَ بـدا الـثَّـرى   لكَ، هل جزعتَ على العَرِين؟
آنـسْـتَ مُـلْـكًـا لـيـس بـالـشـا   كـي الـسَّـلاحِ، ولا الـحَـصـيـن
الـبَـرُّ مـغـلـوبُ الـقـنـا   والـبـحـرُ مَـسـلـوبُ الـسِـفـيـن
لـمَّـا نـظـرتَ إلـى الـديـا   رِ صدَفتَ بالقلب الحزين[٥٦٠]
لـم تـلـقَ حـولـكَ غـيـرَ (كُـر   تَـرَ)، والـنَّـطـاسِـيَّ الـمُـعـيـن!
أقـبـلـتَ مـن حـجْـبِ الـجـلا   لِ عـلـى قـبـيـلٍ مُـعـرِضِـيـن
تـاجُ الـحـضـارة حـيـن أشـر   قَ لـم يـجـدْهـم حـافِـلـيـن
والـلـهُ يـعـلـم لـم يَـرَوْ   هُ مـن قـرونٍ أَربـعـيـن

***

قَـسَـمًـا بـمَـنْ يُـحـيـي الـعـظـا   مَ، ولا أزيـدُكَ مـن يَـمـيـن
لـو كـان مِـنْ سَـفَـرٍ إيـا   بُـكَ أمـسِ، أو فـتـحٍ مُـبـيـن
أو كـان بـعـثُـكَ مـن دبـيـ   ـبِ الـرُّوح، أو نَـبْـضِ الـوَتِـين
وطـلـعـتَ مـن وادِي الـمـلـو   كِ، عـلـيـكَ غـارُ الـفـاتـحـيـن

الـخـيـلُ حـولَـك فـي الـجِـلا ... لِ الـعَـسْـجَـدِيَّـةِ يَـنْـثـنـيـن[٥٦١]
وعـلــى نِـجـادِكَ هــالـتــا ... نِ مـن الـقَـنَـا، والـدَّارعـيـن
والـجـنـدُ يـدفـعُ فـي رِكـا ... بِكَ بـالـمـلـوكِ مُـصَـفَّـديـن
لـرأيـتَ جِـيـلاً غـيـرَ جـيـ ... ـلـك، بـالـجـبـابـرِ لا يَـدِيـن
ورأيــتَ مـحـكـومِـيـن قـد ... نـصـبـوا، ورَدُّوا الـحـاكـمـيـن
روحُ الــزَّمــانِ ونَـظْـمُـه ... وسـبـيـلُـه فـي الآخـريـن
إن الـــزمـــانَ وأهـــلَـه ... فـرَغـا مـن الـفـردِ الـلـعـيـن
فــإذا رأيـتَ مَـشـايـخًـا ... أو فِـتـيـةً لـك سـاجـديـن
لاقِ الـزمـانَ، تَـجِـدْهـمـو ... عـن رَكْـبِـه مُـتـخـلِّـفـيـن
هـمْ فـي الأواخـرِ مَـوْلِـدًا ... وعـقـولُـهـم فـي الأَولـيـن!

دِمَشْق

قم ناجِ جِلَّقَ،[٥٦٢] وانْشُدْ رسمَ مَنْ بانوا ... مَشَتْ على الرَّسم أحداثٌ وأزمان
هـذا الأديـمُ[٥٦٣] كـتـابٌ لا كِـفـاءَ لـه ... رَثُّ الـصـحـائـفِ، بـاقٍ مـنـه عُـنـوان
الـدِّيـنُ والـوَحْـيُ والأخـلاقُ طـائـفـةٌ ... مـنـه، وسـائـرهُ دُنْـيـا وبُـهـتـان
مـا فـيـه إن قُـلِّـبَـتْ يـومًـا جـواهـرُهُ ... إلاَّ قـرائـحُ مِـن رادٍ وأذهـان[٥٦٤]
بـنـو أُمَـيَّـةَ لـلأنـبـاءِ مـا فـتـحـوا ... ولـلأحـاديـثِ مـا سـادوا ومـا دانـوا[٥٦٥]
كانوا ملوكًا، سَريرُ الشرقِ تَحْتَهُمُ ... فهل سأَلتَ سريرَ الغرب: ما كانوا؟
عالِينَ كالشمسِ في أطراف دولتِها ... فـي كلِّ نـاحـيـةٍ مُـلـكٌ وسـلـطـان
يا ويحَ قلبِيَ! مهما انتاب أَرْسُمَهُم ... سَرى بـه الـهـمُّ، أو عـادتُـه أشـجـان
بالأمس قمتُ على (الزَّهراءِ)[٥٦٦] أندُبُهم ... واليومَ دمعي على (الفَيْحَاءِ) هَتَّان[٥٦٧]
في الأرضِ منهم سماواتٌ، وألْوِيَةٌ ... ونـيِّـراتٌ، وأنـواءٌ، وعـقـبـان
معادنُ العزِّ قد مال الرَّغام[٥٦٨] بهم ... لو هانَ في تُرْبِهِ الإبْريزُ ما هانوا
لولا دِمَشْقُ لَما كانت (طُلَيْطلةٌ) ... ولا زَهتْ ببني العبّاسِ بَغدان[٥٦٩]
مَررتُ بالمسجدِ المَحْزونِ أسألُه ... هل في المُصَلَّى أو المحرابِ (مَرْوان)؟

تَغيَّرَ المسجدُ المحزونُ، واختلفَتْ ... على المنابرِ أحرارٌ وعِبدان
فلا الأذانُ أذانٌ في منارته ... إذا تعالى، ولا الآذانُ آذان

***

آمنتُ بالله، واستثنيتُ جَنَّته ... دمشقُ رَوْحٌ، وجَنَّاتٌ، ورَيْحان
قال الرفاقُ وقد هبَّتْ خمائلُها: ... الأرضُ دارٌ لها (الفيحاءُ) بستان
جَرَى وصفَّقَ يلقانا بها (بَرَدَى)[570] ... كما تلقَّاك دونَ الخُلْدِ رضوان
دخلتُها وحواشيها زُمُرُّدَةٌ ... والشمسُ فوق لُجَين الماءِ عِقْبان[571]
والحورُ في (دُمَّر)،[572] أو حولَ (هامَتها) ... حورٌ[573] كَوَاشِفُ عن ساقٍ، وولدان
و(رَبْوَةُ) الوادِ في جِلبابِ راقصةٍ ... الساقُ كاسِيَةٌ، والنحرُ عُريان
والطيرُ تَصدح من خلف العيونِ بها ... وللعيون كما للطَّير ألحان
وأقبلتْ بالنَّبات الأرضُ مُختلِفًا ... أفوافُه، فَهوَ أصباغٌ وألوان[574]
وقد صَفَا (بَرَدَى) للرِّيح، فابترَدَتْ[575] ... لدى ستورٍ، حَواشيهنَّ أفنان
ثم انثنت لم يزل عنها البلال،[576] ولا ... جفَّتْ من الماءِ أَذيالٌ وأردان[577]
خَلَّفتُ (لُبنانَ) جنَّاتِ النعيم، وما ... نُبِّئْتُ أن طريقَ الخلدِ لُبنان
حتى انحدرتُ إلى فيحاءَ وارفةٍ ... فيها النَّدَى، وبها (طَيٌّ) (وشَيْبان)[578]
نزلتُ فيها بفِتْيَانٍ[579] جَحَاجِحَةٍ ... آباؤهم في شبابِ الدَّهرِ غَسَّان[580]
بِيضُ الأَسِرَّةِ،[581] باقٍ فيهُمُ صَيَدٌ[582] ... من (عبد شمسٍ)[583] وإن لم تَبْقَ تِيجان
يا فتيةَ الشام، شكرًا لا انقضاءَ له ... لو أن إحسانَكم يَجزيه شُكران
ما فوقَ راحاتِكم يومَ السماحِ يَدٌ ... ولا كأوطانكم في البشر أوطان
خميلةُ الله وشَّتْها يَدَاهُ لكم ... فهل لها قيِّمٌ منكم وجَنَّان؟[584]
شِيدُوا لها الملكَ، وابنوا ركنَ دَولتها ... فالملكُ غرسٌ، وتجديدٌ، وبنيان
لو يُرجعُ الدَّهرُ مفقودًا له خَطرٌ ... لآبَ بالواحد المبْكِيِّ ثَكلان
المُلكُ أنْ تعملوا ما اسطَعْتُمو عملاً ... وأن يَبِينَ على الأعمالِ إتقان
الملكُ أن تُخرَجَ الأموالُ ناشِطةً ... لمطلبٍ فيه إصلاحٌ وعُمران
الملكُ تحتَ لسانٍ حوله أَدبٌ ... وتحتَ عقلٍ على جَنْبَيْهِ عِرفان
الملكُ أن تتلاقَوْا في هوى وطنٍ ... تفرَّقت فيه أجناسٌ وأديان

***

نـصـيـحـةٌ مِـلْـؤهـا الإخـلاصُ، صـادِقـةٌ والـنُّـصـحُ خـالـصُـه ديِـنٌ وإيـمـان
والشِّـعـرُ ما لـم يـكـن ذكرى وعـاطـفـةً أو حـكـمـةً، فـهـو تـقـطـيـع وأوزان
ونحن في الشرق والفُصحى بنو رَحم ونــحــن فــي الــجُـرح والآلام إخــوان

أختُ أمينَة

(وقال وقد رأى في الفلك وهي ترجع به إلى مصر طفلةً فيها من كريمته أمينة مشابهة):

هـذه نـورُ الـسـفـيـنـه هـذه شِـبْـهُ (أمـيـنـهْ)
هـذه صـورتُـهـا مُـنْــ ــبئةٌ عنـهـا مُـبـيـنـه
هــذه لــؤلــؤةٌ عــنــ ــدي لها مِثْلٌ ثمينه
من بناتِ الرومِ، لكن لم تكن عندي مَهينه
أنا مَنْ يترك للديَّــ ــان في الدُّنيا شُئونه
يا مَلاكَ الفُلْكِ، لي صِنْـ ـوُكِ في تلك المدينة[٥٨٥]
أنتِ فـي الـفُـلْـك بَـهـاءٌ وهْوَ في (حُلْوَانَ) زِينه
ناجِه، واذكرْ له وجْــ ــدَ أبـيـه، وحَـنِـيـنَـه
وأفِدْهُ: إنـنـي فـي الــ ــبحر مذْ دُسْتُ عَرِينه
لستُ بالنفس ضَنينًا وبه نفسي ضَنينه
أسأل الرحمنَ يُرْعِيــ ــكَ وإيَّــاهُ عُـيـونَـه

أنْدَلُسِيَّةٌ

نظمها في منفاه بأسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيرًا من مشاهده ومعاهده

يا نائح (الطلْحِ)،[٥٨٦] أشباهٌ عَوَادِينا[٥٨٧] نَـشْـجى لِـوَادِيـكَ، أم نَـأْسَـى لـوادينـا؟

مـاذا تـقُـصُّ عـلـيـنـا غـيـرَ أنَّ يـدًا … قصَّتْ جَناحك جالت في حواشينا؟
رمـى بـنـا الـبـينُ أَيْـكًا غـيـرَ سـامِـرنـا … — أخـا الـغـريـب — وظِـلاًّ غـيـرَ نـاديـنـا
كلٌّ رَمَتْه النَّوى: رِيشَ[٥٨٨] الفِراقُ لنا … سَـهْـمًـا، وسُـلَّ عـلـيكَ الـبـينُ سِـكِّـيـنـا
إذا دعـا الـشـوقُ لـم نَـبرحْ بِـمُنْصَـدِعٍ … مـن الـجـنـاحـيـن عـيٍّ لا يُـلَـبِّـيـنـا
فإن يَكُ الـجنسُ يا ابنَ الطَّلْحِ فرَّقنا … إنَّ الـمـصـائـبَ يـجـمعْـنَ الـمُـصـابـيـنا
لـم تـألُ مـاءك تَـحْـنـانًـا، ولا ظـمـأً … ولا ادِّكـارًا[٥٨٩] ولا شـجْـوا أَفـانـيـنـا[٥٩٠]
تَـجُـرُّ مـن فَـنـنٍ[٥٩١] سـاقًـا إلـى فَـنَـنٍ … وتـسـحـبُ الـذيـلَ تـرتـادُ الـمؤاسـيـنـا
أسـاةُ[٥٩٢] جسمِكَ شتَّى حين تطلبهم … فمَنْ لروحك بالنُّطْس[٥٩٣] المُدَاوينا؟

* * *

آهـا لـنـا نـازِحَـيْ أيْـكٍ[٥٩٤] بـأنـدَلُـسٍ … وإن حَـلَـلْـنَـا رفـيـقًـا[٥٩٥] مـن رَوَابـيـنـا!!
رَسْـمٌ وقـفـنـا عـلـى رَسْـمِ الـوفـاء لـه … نَـجـيـش بـالـدَّمـع، والإجـلالُ يَـثـنـيـنـا
لِـفِـتْـيَـةٍ لا تـنـال الأرضُ أدمُـعَـهـم … ولا مَـفـارقَـهـم إلاَّ مُـصَـلِّـيـنـا[٥٩٦]
لو لم يسودوا بدينٍ فيه مَنْبَهةٌ[٥٩٧] … لـلـنـاسِ، كـانـت لـهـم أَخـلاقُـهـم ديـنـا
لـم نَـسْـرِ مـن حـرَمٍ إلاَّ إلـى حَـرَمٍ … كالخمر من (بابلٍ) سارت (لدارينا)[٥٩٨]
لمَّا نبَا الخلدُ نابت عنه نُسْختُه … تَماثُلَ الورْدِ (خِيريًّا) و(نسْرينا)[٥٩٩]
نـسْـقِـي ثـراهُـمْ ثَـنَـاءً، كـلَّـمـا نُـثِـرتْ … دمُـوعُـنـا نُـظـمـتْ مـنـهـا مـراثـيـنـا
كـادت عـيـونُ قـوافـيـنـا تُـحَـرِّكُـه … وكدْنَ يوقِظْنَ في التُّرْبِ السلاطينا
لكنَّ مصرَ وإن أغضتْ على مِقَةٍ[٦٠٠] … عَيْنٌ من الخُلْدِ بالكافور تَسقينا
عـلـى جـوانـبِـهـا رَفَّـتْ تَـمَـائِـمُـنَـا … وحولَ حافاتِها قامتْ رَواقينا[٦٠١]
مـلاعِـبٌ مَـرِحَـتْ فـيـهـا مَـآرِبُـنـا … وأَربُـعٌ أَنِـسَـتْ فـيـهـا أمـانـيـنـا
ومَـطْـلَـعٌ لِـسُـعـودٍ مـن أَوَاخِـرنـا … ومَـغْـرِبٌ لـجُـدُودٍ مـن أَوَالـيـنـا[٦٠٢]
بِنَّا، فلم نَخْلُ من رَوْحٍ[٦٠٣] يُراوِحُنا … مـن بَـرِّ مـصـرَ، وَرَيْـحَـانٍ يُـغـادِيـنـا
كأمِّ موسَى، على اسمِ الله تكْفُلُنا … وباسمهِ ذهبتْ في اليَمِّ تُلقينا[٦٠٤]
ومصرُ كالكَرْمِ ذي الإحسان: فاكهةٌ … لـحـاضِـريـنَ، وأكـوابٌ لـبَـاديـنـا

* * *

يا ساريَ البرقِ يَرمِي عن جوانِحنا … بعدَ الهدوءِ، ويهمِي عن مآقينا

لمَّا تَرقرق في دمع السماءِ دمًا — هاج البكا، فخضبْنَا الأرضَ باكِينا
الليلُ يشهد لم نَهتِك دَيَاجيَهُ — على نيامٍ، ولم نهتِف بسالينا
والنَّجمُ لم يَرَنا إلاَّ على قدمٍ — قيامَ ليل الهوى، للعهد راعِينا
كزفْرَةٍ في سماءِ الليل حائرةٍ — ممَّا نُرَدَّدُ فيه حين يُضْوِينا
بالله إن جُبتَ ظلماءَ العُبابِ على — نَجائبِ النُّورِ مَحْدُوًّا (بجرينا)
تَرُدُّ عنك يداه كلَّ عاديةٍ — إنْسًا يَعِثْنَ فسادًا، أو شياطينا
حتى حَوَتْكَ سماءُ النيلِ عاليةً — على الغيوث، وإن كانت مَيامينا
وأحرزتكَ شُفوفُ الَّلازوَرْدِ على — وَشْيِ الزَّبَرْجَدِ من أَفْوَافِ وادينا[٦٠٥]
وحازكَ الرِّيفُ أرجاءً مُؤَرَّجَةً — رَبَتْ خمائِلَ، واهتزَّت بساتينا
فقِف إلى النيل، واهتف في خمائِله — واتزل كما نزل الطلُّ الرَّياحينا
وآسِ ما بَاتَ يَدْوِي من منازلنا — بالحادثات، ويَضوَى من مغانينا

* * *

ويا مُعطِّرَةَ الوادي سَرتْ سَحَرًا — فطابَ كلُّ طُروحٍ من مرامينا
ذكِيَّة الذَّيل، لو خِلْنَا غِلالتها — قميصَ يوسفَ لم نُحْسَبْ مُغالينا
جَشِمت شَوْكَ السُّرى حتى أتيْتِ لنا — بالوَرْدِ كُتْبًا، وبالرَّيَّا عناوينا
فلو جزيناكِ بالأرواح غاليةً — عن طيب مَسْراك لم تنهضْ جَوازينا
هل من ذيولكِ مِسْكيٌّ نُحَمَّلُه — غرائبَ الشوق وَشْيًا من أمالينا؟
إلى الذين وجدنا وُدَّ غيرِهمُ — دُنْيَا، وودَّهمو الصافي هو الدينا

* * *

يا مَنْ نَغارُ عليهم من ضمائرنا — ومن مَصون هواهم في تناجِينا
ناب الحنِينُ إليكم في خوَاطِرنا — عن الدَّلال عليكم في أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا — في النائبات، فلم يأْخذ بأيدِينا
وما غُلبنا على دمعٍ، ولا جَلَدٍ — حتى أتتنا نَواكُمْ من صَياصِينا[٦٠٦]
ونابِغيٍّ[٦٠٧] كأنَّ الحشرَ آخرُه — تُميتُنا فيه ذكراكم وتُحيِينا
نَطوي دُجَاه بجُرحٍ من فراقِكمو — يكاد في غَلس الأسحار يَطوِينا
إذا رَسا النَّجمُ لم ترْقأْ مَحاجِرُنا — حتى يزولَ، ولم تهدأ تراقِينا

بتنا نُقاسِي الدَّواهي من كواكِبه ... حتى قعدنا بها حَسْرَى تُقاسِينا
يبدو النهارُ فيخفيه تجلُّدُنا ... للشامتين، ويَأسُوه تأَسِّينا

***

سَقْيًا لعهدٍ كأكنافِ الرُّبَى رِفةً[٦٠٨] ... أنَّى ذهبنا، وأعطافِ الصَّبا لِينا
إذِ الزمانُ بنا غَيْناءُ زاهِيةٌ ... تَرِفُّ أَوقاتُنا فيها رَيَاحينا
الوصلُ صافِيَةٌ، والعيشُ ناغِيَةٌ ... والسعدُ حاشيةٌ، والدَّهرُ ماشينا
والشمسُ تَختال في العِقْيان، تَحْسبُها ... (بِلقيسَ) تَرْفُلُ في وَشْي اليمانِينا
والنيلُ يُقبِل كالدُّنيا إذا احتفلتْ ... لو كان فيها وفاءٌ للمُصافِينا
والسَّعدِ لوْ دامَ، والنُعمَى لوِ اطَّردتْ ... والسيلِ لَو عَفَّ، والمقدارِ لَوْ دِينا
أَلقى على الأرض — حتى ردَّها ذَهبًا — ... ماءً لَمسنا به الإكْسِيرَ، أو طِينا
أعداه من يُمْنِه (التابوتُ)، وارتسَمَتْ ... على جوانبه الأنوارُ من سِينا
له مَبالغُ ما في الخُلْقِ من كَرمٍ ... عهدُ الكرامِ، وميثاقُ الوفِّيينا
لم يَجرِ للدَّهرِ إعذارٌ[٦٠٩] ولا عُرُسٌ ... ألاَّ بأيَّامِنا، أو في ليالينا
ولا حوى السعدُ أطْغَى في أعِنَّتِه ... مِّنا جِيَادًا، ولا أرْحَى ميادِينا
نحن اليواقيتُ، خاض النارَ جَوهَرُنا ... ولم يهُنْ بيَدِ التَّشْتيتِ غالِينا
ولا يَحُول لنا صِبْغ، ولا خُلُقٌ ... إذا تلوَّن كالحِرْباءِ شانِينا
لم تنزل الشمسُ ميزانًا، ولا صعدَتْ ... في مُلْكِها عرشًا مثلَ وادينا
ألم تُؤَلَّهْ على حافاتِه، ورأتْ ... عليه أبناءَها الغُرَّ المياميِنا؟
إن غازلتْ شاطئيه في الضحى لبِسا ... خمائلَ السُّنْدُسِ المَوشِيَّةِ الغينا[٦١٠]
وبات كلُّ مُجاج[٦١١] الوادِ من شَجرٍ ... لوافِظَ القزِّ بالخيطان ترمِينا
وهذه الأرضُ من سَهْلٍ ومن جبلٍ ... قبل (القياصر) دِنَّاها (فراعينا)
ولم يَضَعْ حجَرًا بانٍ على حجرٍ ... في الأرضِ إلاَّ على آثار بانِينا
كأن أهرامَ مصرٍ حائطٌ نهضت ... به يَدُ الدَّهرِ، لا بنيانُ فانِينا
إيوانُه الفخمُ من عُليا مقاصرِه ... يُقْنِي الملوك، ولا يُبقي الأواوينا[٦١٢]
كأنها ورمالاً حولها التطَمتْ ... سفينةٌ غَرِقتْ إلاَّ أَساطينا[٦١٣]
كأنها تحت لألاءِ الضُّحَى ذَهبًا ... كنوزُ (فرْعوْنَ) غَطَّيْنَ الموازينا

***

أرضُ الأُبُـوةِ والـمـيـلادِ طـيَّـبـهـا — مَرُّ الصِّبا في ذيول مَنْ تصابينا
كـانـت مُـحَـجَّـلـةً فـيـهـا مـواقِـفُـنـا — غُرًّا مُـسَـلْـسَـلَـةَ الـمَـجْـرَى قـوافـيـنـا
فـآبَ مِـنْ كُـرَةِ الأيـامِ لاعِـبُـنـا — وثـابَ مِـنْ سِـنَـةِ الأحـلامِ لاهِـيـنـا
ولـم نَـدَعْ لـلـيـالـي صـافـيًـا، فـدَعـتْ — (بـأن نـغَـضَّ، فـقـالُ: آمـيـنـا)
لو استطعنا لخُضْنا الجوَّ صاعِقةً — والبرَّ نارَ وَغىً، والبحرَ غِسْلِينا[٦١٤]
سَعْيًا إلى مصرَ نقضِي حقَّ ذاكرنا — فـيـهـا إذا نَـسِـيَ الـوافـي، وبـاكِـيـنـا
كَـنْـزٌ (بـحُـلـوانَ) عـنـدَ الـلـهِ نـطـلـبُـهُ — خيرَ الودائِع من خير المؤَدِّينا[٦١٥]
لـو غـاب كـلُّ عـزيـز عـنـه غَـيْـبَـتَـنـا — لـم يَـأْتِـه الـشـوقُ إلاَّ مـن نـواحـيـنـا
إذا حـمَـلْـنـا لـمـصـرٍ أو لـه شَـجَـنـاً — لـم نـدْرِ: أيُّ هـوَى الأمَّـيْـن شـاجِـيـنـا؟

وَصْفُ الْغَوَّاصَة ونَكبَةُ الباخِرةِ لُوزِيَتانْيا

(قال في حادثة نسف غواصة ألمانية للباخرة لوزيتانيا):

رأيتُ على لَوْحِ (الخيال)[٦١٦] يتيمةً — قـضـى يـومَ (لـوسـيـتـانـيـا) أبَـواهـا
فـيـا لـك مـن حـاكٍ أمـيـنٍ مُـصَـدَّقٍ — وإن هـاج لـلـنـفـس الـبُـكـا وشَـجَـاهـا
فـوَاهًـا عـلـيـهـا، ذاقَـت الـيُـتْـمَ طِـفـلـةً — وقُـوِّضَ رُكْـنـاهـا، وذَلَّ صِـبـاهـا
وليت الذي قاست من الموت ساعة — كـمـا راح يَـطْـوي الـوالـديْـن طـواهـا
كـفَـرْخٍ رمـى الـرامـي أبـاهُ فـغـالـهُ — فـقـامـت إلـيـه أمُّـهُ فـرمـاهـا
فـلا أبَ يَـسـتَـذْرِى[٦١٧] بـظـلِّ جـنـاحـهِ — ولا أُمَّ يَـبـغـي ظِـلَّـهـا وذَراهـا[٦١٨]
ودبَّـابـةٍ[٦١٩] تـحـتَ الـعُـبـاب بـمَـكـمَـنٍ — أمـيـنٍ، تَـرى الـسـاري ولـيـس يَـراهـا
هي الحوتُ، أو في الحوت منها مَشابِهٌ — لـو كـان فـولاذًا لـكـان أَخـاهـا
أبَـثُّ لأصـحـابِ الـسَّـفـيـن غـوَائِـلا — وألأَمُ نـابًـا حـيـنَ تَـفْـغـرُ فـاهـا
خَتُـونٌ إذا غاصتْ، غدورٌ، إذا طَفت — مُـلـعَّـنـةٌ فـي سَـبْـحـهـا وسُـراهـا
تُبَيَّتُ[٦٢٠] سُفْنَ الأبرياءِ من الوغى — وتَجني على مَنْ لا يخوض رَحاها

فلو أدركت تابوت موسى لسَلَّطتْ عليه زُباناها،[٦٢١] وحرَّ حُمَاها
ولو لم تُغَيَّبْ فُلْكُ نُوحٍ وتحْتَجِبْ لما أمِنَتْ مَقذوفَها ولَظَاها
فلا كان بانيها، ولا كان رَكْبُها ولا كان بحرٌ ضمَّها وحواها
وأُفٍّ على العلم الذي تَدَّعونه إذا كان في علم النفوس رَدَاها

جِسْرُ الْبُسْفُور

هذه القصيدة اهتمَّ بها المغفور له السلطان عبد الحميد وطلبها وقرأها باهتمام

أميرَ المؤمنين، رأيتُ جِسرًا أمرُّ على الصراطِ، ولا عليْهِ
له خشبٌ يجوع السوسُ فيه وتمضي الفأْرُ لا تَأْوِي إليه
ولا يتكلَّفُ المِنْشارُ فيه سوى مرَّ الفطِيمِ بساعدَيْه
وكم قد جاهد الحيوانُ فيه وخَلَّف في الهزيمة حافِريْه
وأَسمجُ منه في عيني جُباةٌ[٦٢٢] تراهم وَسْطَه وبجانِبَيْه
إذا لا قيتَ واحِدَهم تَصدَّى كعِفْريتٍ يُشيرُ براحتَيْه
ويمشي (الصدرُ)[٦٢٣] فيه كلَّ يوم بموكِبه السَنِيَّ وحارِسَيْه
ولكن لا يمرُّ عليه إلاَّ كما مرَّتْ يَداه بعارِضَيْه
ومن عجبٍ هو الجسرُ المُعلَّى على البسفور يجمع شاطِئَيْه
يُفيدُ حكومةَ السلطانِ مالاً ويُعطيها الغِنَى من مَعْدِنَيه
يجود العالَمون عليه، هذا بعَشْرتِه، وذاك بعَشْرَتَيْه
وغايةُ أمرِه أنَّا سمِعنا لسانَ الحال يُنشِدُنا لديه
(أليس من العجائب أنَّ مثلي يَرَى ما قلَّ مُمتِنعا عليه)؟
(وتؤخذ باسمه الدُّنيا جميعًا وما من ذاك شيءٌ في يديه)؟

كتاب بعث به إلى المرحوم حسين واصف باشا، يستهديه لكرمة ابن هاني بالمطريَّة شجيراتٍ، وكان مشهورًا باقتناءِ الرياحين والعناية بتربيتها:

إلى حسينٍ حاكمِ القَنالِ مثالِ حُسْنِ الخُلْق في الرِّجال

أُهْدِي سلامًا طيّبًا كخُلْقِه   مع احترامٍ هو بعضُ حَقِّه
وأحفظ العهدَ له على النَّوَى   والصدقَ في الودِّ له وفي الهوى
وبَعدُ فالمعروفُ بين الصَّحبِ   أنّ التهادِي من دواعي الحبِّ
وعندك الزَّهُر بين الصَّحبِ   كلاهما فيما يقال نَدْوُ
وقد سَمعتُ عنك من ثِقاتٍ   أنك أنتَ مَلِكُ النباتِ
زهرُك ليس للزهور رَوْنَقُه   تكادُ من فَرْطِ اعتناءٍ تَخلُقه
ما نظرتْ مثَلك عينُ النرجسِ   بعد ملوك الظرف في الأندلسِ
ولي من الحدائق الغنَّاءِ   رَوْضٌ على (المطْرِيَّةِ) الفيْحاءِ
أتيتُ أستهدي لها وأسألُ   وأَرتضي النَّزْر ولا أُثَقِّلُ
عشرَ شُجيْرَاتٍ من الغوالي   تَندُر إلاَّ في رياض الوالي
تزكو وتزهو في الشتا والصيف   وتجمع الألوانَ مثلَ الطيْفِ
تُرسلها مُؤَمِّنًا عليها   إن هَلكَتْ لي الحقُّ في مِثْليها
والحق في الخرطوم أيضا حقِّي   والدَّرسُ للخادم كيف يَسقي
وبعد هذا لي عليك زورَهَ   لكي تدور حول روْضِي دوْرهْ
فإن فعلت فالقوافي تفعلُ   ما هو من فعل الزهور أجملُ
فما رأيت في حياتي أزْينا   للمرء بين الناس من حُسْنِ الثَّنَا

هوامش

(١) أسباب السماء: مراقيها، أو طرقها، أو نواحيها، أو أبوابها.

(٢) الأَمَة: المملوكة. وبلقيس: صاحبة نبي الله سليمان (عليه السلام) الذي سُخِّرَت له الريح.

(٣) بُرُد: جميع بريد.

(٤) بطاء: جمع بطيء.

(٥) العماء: السحاب المرتفع، أو الكثيف، أو الممطر، أو الرقيق.

(٦) السُّها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

(٧) الضيف: النزيل على غيره ويكون للواحد والجمع؛ لأنه في الأصل مصدر.

(٨) يريد به نابليون الأول.

(٩) الصَّلف: مجاوزة قدر الظرف.

(١٠) الرُّواء: حسن المنظر.

(١١) مركب ذي عدواء: أي ليس بمطمئن.

(١٢) الرَوَاء: الماء العذب.

(١٣) القادمة: واحدة القوادم، وهي عشر ريشات في مقدِّم الجناح، وهي كبار الريش.

(١٤) ذُكاء: اسم للشمس.

(١٥) العفاء: الدروس والهلاك والفناء.

(١٦) الوضاء: المشرقة الحسنة.

(١٧) الدعامة أو الدعام: عماد البيت.

(١٨) قعساء: أي ثابتة.

(١٩) العرباء من العرب: الصُّرحاء الخلص.

(٢٠) العنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم.

(٢١) الروضة الكثيرة العشب.

(٢٢) الجوزاء: برج في السماء.

(٢٣) بليت: امتحنت.

(٢٤) غرَّاء: ناصعة.

(٢٥) الألباء: العقلاء، جمع لبيب.

(٢٦) أدنى الشيء: قرَّبه إليه.

(٢٧) جوفاء: فارغة.

(٢٨) مقلعة: ذاهبة. والشؤبوب: الدفعة من المطر.

(٢٩) الأصيص: نصف الجرَّة يُزْرَعُ فيها الرياحين.

(٣٠) العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة.

(٣١) انبجست: أي انفجرت.

(٣٢) الحصباء: الحصى، الواحدة حصبة، والبوغاء: ما يثور من الغبار ودقائق التراب.

(٣٣) أشلاء واحدها شلو: العضو والجسد من كل شيء.

(٣٤) الدأماء: البحر

(٣٥) يريد النار التي ظهرت لموسى الكليم وهو سائر بأهله شطر طور سيناء.

(٣٦) أيامى: جمع أيم، وهي المرأة التي تفقد زوجها، أو الرجل الذي يفقد امرأته. وتأساء: تعزيه وتسلية.

(٣٧) الحبب: الفقاقيع التي تعلو الخمر.

(٣٨) اللبب، موضع القلادة من الصدر.

(٣٩) جلا: أي كشف. والجمان: اللؤلؤ. والشنب: عذوبة الأسنان

(٤٠) الشقيق: أحد شقائق النعمان، وهي أزاهر حمراء فيها بقع سوداء.

(٤١) النخب: جمع نخبة وهي المختار من كل شيء.

(٤٢) ائتشب الشجر: التفَّ. والزهرا: الزهراء.

(٤٣) السنا هنا مقصور من السناء: بمعنى الرفعة. والطنب: الوتد، أو الحبل الذي يشدُّ به سرادق البيت.

(٤٤) الرفرف: الرقيق من ثياب الديباج. والسجوف: الستور جمع سجاف.

(٤٥) يشبِّه مصابيح القصر بشهب ثابتة.

(٤٦) المنتقب: النقاب.

(٤٧) الجيش اللجب: ذو الكثرة والضجيج.

(٤٨) السبب: الحبل، ويشير به أولاً إلى زمام الدَّابة، وثانيًا إلى سوط السائق.

(٤٩) الخبب: سرعة عدو الجياد.

(٥٠) ترتمي: بمعنى ترمي. والرغب: الابتهال، والمعنى أنها تذهب بهنَّ إلى ملجأ هو وحده غاية الراجي وكعبة الضارع.

(٥١) السراة: جمع سري، وهو السيد الشريف في سخاء ومروءة. والنجب: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب.

(٥٢) الرحب: جمع رحبة، وهي الأرض المتسعة.

(٥٣) الكثب: القريب.

(٥٤) المطارف: أردية من خزٍّ. والقشب: الجدد.

(٥٥) التالد: القديم

(٥٦) اللجين: الفضة.

(٥٧) اللجب: الضجيج.

(٥٨) البان: شجر سبط القوام لين ويشبَّه به القدُّ لطوله.

(٥٩) الحدب: العطوف.

(٦٠) الصعد: جمع صعد بكسر العين وهو المرتفع. والصبب: المنحدر.

(٦١) الأسل: الرماح. والقضب: السيوف.

(٦٢) الوصيب: التعب.

(٦٣) النهب: جمع نهبة، وهي المنهوب.

(٦٤) الخوان — بكسر الخاء وضمها —: يوضع عليه الطعام. والقطب بتسكين الطاء ويخفف: سيد القوم.

(٦٥) السغب: الجوع.

(٦٦) العلب: نوع من الأقداح الضخمة.

(٦٧) السلب: ما يسلب وينهب.

(٦٨) الحوائم: العطاش. والقرب: سير الليل لورد الغد.

(٦٩) الحقب: جمع حقبة وهي هنا بمعنى السنة.

(٧٠) الندى: الكرم. والنشب: العقار أو المال.

(٧١) الحدب: العطف والإشفاق.

(٧٢) الروض الأشب: الملتفُّ.

(٧٣) ارتغب في الأمر: رغب فيه.

(٧٤) الغيب: جمع غائب.

(٧٥) مفند: مكذب.

(٧٦) المدنَّف: الذي أثقله المرض.

(٧٧) الطلاء: الخمر.

(٧٨) الحقب: جمع حقبة، وهي السنة.

(٧٩) الحبب: الفقاقيع التي تعلو الماء والخمر.

(٨٠) الهالة: دارة القمر.

(٨١) الطنب: حبل طويل يشدُّ به سرادق البيت أو الوتد.

(٨٢) الشنب: ماء ورقة وعذوبة في الأسنان.

(٨٣) الشادن: ولد الظبية. واللبب: المنحر، وموضع القلادة من الصدر.

(٨٤) قشب: جمع قشيب وهو الجديد، والقشيب أيضًا: الأبيض والنظيف.

(٨٥) اليلب: الترسة أو الدروع اليمانية من الجلود وقيل جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس، واليلب: الفولاذ، واليلب: خالص الحديد.

(٨٦) السغب: الجوع، وقيل لا يكون إلا مع تعب.

(٨٧) النشب: المال والعقار.

(٨٨) الأشب: الملتفُّ.

(٨٩) أدب: أقام المأدبة.

(٩٠) الأرِب: الماهر البصير.

(٩١) تراعها: تصغي إليها.

(٩٢) النقل بالفتح: ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما.

(٩٣) انقضابا: انقطاعًا.

(٩٤) تجنب: تنحى.

(٩٥) الجناب: الفناء.

(٩٦) لم تحجل غرابًا: كناية عن أنها لم تقلد كما قلَّد الغراب الطاووس.

(٩٧) الدجن: إلباس الغيم الأرض.

(٩٨) كافور: هو كافور الأخشيدي ممدوح المتنبي. وعبد الخنا: أي كافور.

(٩٩) الأزهر: يعني به معهد الأزهر.

(١٠٠) الأعزال: الذين لا سلاح لهم.

(١٠١) لم يملك ذهابًا: أي لم يستطع.

(١٠٢) الجبرتي: المؤرِّخ المعروف.

(١٠٣) الشيخ يعني به الجبرتي. والردن: أصل الكم، وكانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير. والمرقم: القلم. والصِّل: الثعبان.

(١٠٤) السباب: السبُّ.

(١٠٥) يتغابى: يتغافل.

(١٠٦) غلابا: أي مغالبة.

(١٠٧) المغازي: وقائع الحروب والمعاني. ترابا، أي يشكُّ في قيمتها بالنظر لعظيم أثرها في مستقبل الشرق.

(١٠٨) مثابا: أي مرجعًا.

(١٠٩) بنات الدَّهر: أي شدائده. وكعاب: أي وهي صبية لم تكبر.

(١١٠) الصاب: عصارة شجر مرٍّ.

(١١١) نصيبين: أكبر الوقائع وأشهرها بين إبراهيم بن محمد علي وبين الأتراك. التل: واقعة التلِّ الكبير المشهورة التي جرَّت على مصر الاحتلال الإنجليزي.

(١١٢) النسر: يعني به نابليون.

(١١٣) عقبان: واحدها عقاب؛ وهو طائر من الجوارح.

(١١٤) الجيزي: يعني به هرم الجيزة. واعتصب: تتوَّج.

(١١٥) النقع: الغبار. والإهاب: الجلد.

(١١٦) الضاحي: البارز. والزَّهر: يعني بها النجوم.

(١١٧) الجلال: واحدها جل وهو للدابة كالثوب للإنسان تصان به.

(١١٨) الصبوح: ما أصبح عند القوم من الشراب فشربوه.

(١١٩) أحد آلهة قدماء المصريين.

(١٢٠) الأيك: الشجر الكثيف الملتفُّ وقيل الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.

(١٢١) أقاح: واحدها أقحوانة وهو نبات له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء.

(١٢٢) يقائق: جمع يقق، وأبيض يقق أي شديد البياض ناصعه. والنسرين: ورد أبيض عطري قوي الرائحة.

(١٢٣) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر.

(١٢٤) الخطر: نبات يُجْعَلُ ورقه في الخضاب الأسود يُخْتَضَبُ به.

(١٢٥) الحبر: جمع حبرة بالتحريك ضرب من برود اليمن، وملاءة سوداء تلبسها نساء مصر.

(١٢٦) صفاح. واحده صفح وهو عرض السيف.

(١٢٧) الملواح: السريع العطش.

(١٢٨) رزحت الناقة رزوحًا: ألقت نفسها إعياءً وهزالاً.

(١٢٩) الطرف: هو الكريم من الخيل.

(١٣٠) المزمور: واحد المزامير وهي الأناشيد والأدعية التي كان يترنَّم بها داود (عليه السلام).

(١٣١) أقيالهم: ملوكهم.

(١٣٢) مجامر الياقوت: جمع مجمرة وهو اسم ما يُجْعَلُ فيه الجمر.

(١٣٣) لم يقصد: لم يعدل.

(١٣٤) المقود: ما يقاد به من حبل أو غيره.

(١٣٥) الفدن: القصر المشيد.

(١٣٦) الجلمد: الصخر.

(١٣٧) العميد: الذي هزَّه العشق.

(١٣٨) الصَّفا: الصَّخر.

(١٣٩) لبيد: هو لبيد بن أبي ربيعة أحد المعمِّرين.

(١٤٠) حسين: هو الحسين بن علي بن أبي طالب. ويزيد: هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

(١٤١) السنا: الضوء: وحليت المرأة. لبست حليها؛ أي ما تتزين به. ونضيد: أي متسق.

(١٤٢) الدُّمى: واحدتها دمية وهي الصورة المنقشة المزينة.

(١٤٣) الصَّفا: الصَّخر.

(١٤٤) العبب: الماء المتدفق.

(١٤٥) المشفر: الشفة من الإنسان.

(١٤٦) الخميس: الجيش.

(١٤٧) أذنت: أنصتت.

(١٤٨) أقبال الجبال: أي وجوهها.

(١٤٩) أمُّ الكتاب: فاتحته.

(١٥٠) الأحبار: جمع حَبْرٍ وهو العَالِم، وقيل الصالح من العلماء.

(١٥١) المعالم: جمع معلم وهو ما يستدلُّ به على الطريق من أثرٍ ونحوه.

(١٥٢) هوج: جمع هوجاء، والريح الهوجاء التي تستوي في هبوبها وتقلع البيوت.

(١٥٣) الضاحي: المكان البارز. ويزجي: يسوق ويستحثُّ.

(١٥٤) الإماء: الجواري.

(١٥٥) الإزار: الملحفة وكل ما ستر.

(١٥٦) النجد: ما ارتفع من الأرض. والغور: القعر من كل شيء.

(١٥٧) إطار الشيء: كل ما أحاط به.

(١٥٨) الجمار: جمع جمرة، وهي الحصى.

(١٥٩) اخضل الشيء: صار نديًا بليلاً. والنضار: الذهب.

(١٦٠) الدُّجى: الظلمة، أو سواد الليل.

(١٦١) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

(١٦٢) الضريب: الثلج. والفارع: المرتفع الهيئ الحسن.

(١٦٣) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(١٦٤) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعدٍ ولا برق.

(١٦٥) الخطَّار: المضطرب.

(١٦٦) البتَّار: السيف القاطع.

(١٦٧) الأصيد: الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا وشمالاً.

(١٦٨) الشعرى: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدَّة الحر. وزرى عليه فعله: عابه.

(١٦٩) الفلك: السفينة، يؤنث ويذكر.

(١٧٠) الأين: الإعياء.

(١٧١) اللجين: الفضة.

(١٧٢) الهباء: الغبار أو ما يشبه الدُّخان.

(١٧٣) العيالم: جمع عيلم وهو البحر.

(١٧٤) الأناسي: جمع إنسي.

(١٧٥) الدَّوح: جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة المتَّسعة من أي شجرة كانت.

(١٧٦) تأرَّج: أي فاح.

(١٧٧) أوزار الحرب: آلاتها.

(١٧٨) الإزار: الملحفة.

(١٧٩) المزار. الزيارة.

(١٨٠) العوادي: العوائق.

(١٨١) البسيط: الأرض الواسعة.

(١٨٢) أشبل عليه: أي عطف، والمرأة تشبل على أولادها: أقامت عليهم بعد وفاة زوجها ولم تتزوج.

(١٨٣) البيعة: متعبَّد النصارى.

(١٨٤) تحمَّل: ارتحل.

(١٨٥) رصف الحجارة رصفًا: ضم بعضها إلى بعض.

(١٨٦) الملاوة: البُرْهة من الدَّهر.

(١٨٧) الصَّبا: ريح مهبها من مطلع الثريَّا إلى بنات نعش.

(١٨٨) السنة: النعاس.

(١٨٩) خلس الشيء: أخذه في نهزة ومخاتلة.

(١٩٠) أسا الجرح: داواه.

(١٩١) قساه تقسية: أي صيَّره قاسيًا.

(١٩٢) مستطار: استطير الشيء: طير وانتشر.

(١٩٣) رنَّ: أي صاح ورفع صوته بالبكاء.

(١٩٤) الجرس: الصوت.

(١٩٥) الراهب: هو مَنْ تبتل

(١٩٦) فطن للشيء: أي حذق به.

(١٩٧) النقس: ضرب النواقيس.

(١٩٨) اليمُّ: البحر.

(١٩٩) الدوح: جمع دوحة: وهي الشجرة العظيمة.

(٢٠٠) المرجل: القدر من الحجارة والنحاس.

(٢٠١) هفا: أي أسرع.

(٢٠٢) السواد: ما حول البلدة من القرى.

(٢٠٣) الأيك: الشجر الكثير الملتف، وقيل: الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.

(٢٠٤) الجرس: الصوت، أو خفيه.

(٢٠٥) الصَّرح: القصر، وكل بناءٍ خالٍ.

(٢٠٦) العباب: كثرة الماء، والعباب: معظم السيل، والعباب: ارتفاعه وكثرته.

(٢٠٧) النكس: الرجل الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه.

(٢٠٨) صنعاء: قصبة بلاد اليمن، وقرية بباب دمشق.

(٢٠٩) ثوب قسي وتكسر قافه، منسوب إلى قسٍّ وهو موضع بين العريش والفرما، من أرض مصر.

(٢١٠) العقيق: كل ما شقَّه ماء السيل فأنهره ووسَّعه، ويعني بالعقيق هنا عقيق المدينة، وهو معروف.

(٢١١) المتحسي: أي الشارب.

(٢١٢) يخسي: من خسا البصر. كلَّ وأعيا.

(٢١٣) رمسي: أي رمسيس.

(٢١٤) اليراع: القصب.

(٢١٥) سلسلت النخلة سلسًا: ذهب كريهًا.

(٢١٦) جابٍ: الجابي الذي يجمع الخراج.

(٢١٧) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية.

(٢١٨) يغسي: يظلم.

(٢١٩) فطس الرجل: تطامنت قصبة أنفه وانتشرت في وجهه، فهو أفطس. والجمع فُطْس.

(٢٢٠) عنس: جمع عانس، وهي الجارية التي طال مُكْثُها في أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.

(٢٢١) صيد: واحدها صائد.

(٢٢٢) الفرس: الافتراس.

(٢٢٣) عقلت: قيدت.

(٢٢٤) غسَّ في البلاد غسًا: دخل فيها ومضى قدمًا.

(٢٢٥) ليلة لوكس: أي ليلة دخول القمر في نجمٍ منحوس.

(٢٢٦) عفت: درست ومحت.

(٢٢٧) كرسي: أي عرش.

(٢٢٨) نطس: أي عالم.

(٢٢٩) الرمس: القبر.

(٢٣٠) شفتني: أي وعظتني هي أيضًا وعظًا شافيًا.

(٢٣١) العنس: الناقة.

(٢٣٢) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٢٣٣) الدَّهس: المكان السهل ليس برملٍ ولا تراب.

(٢٣٤) الخلائف: جمع خليفة.

(٢٣٥) المنار: العلم يُجْعَلُ للطريق.

(٢٣٦) طلس: واحدها أطلس، وهو ما لونه أسود تخالطه غبرة.

(٢٣٧) القلس: حبل السفينة.

(٢٣٨) الحدس: السير على غير هداية.
(٢٣٩) القعس: العزُّ الثابت.
(٢٤٠) ضفت: من ضفا: سبغ واتَّسع.
(٢٤١) الخميس: الجيش. والدرافس: العلم الكبير.
(٢٤٢) الهجس: كل ما وقع في خلد الإنسان.
(٢٤٣) محس: أي حاس بهم.
(٢٤٤) الحرس: الدَّهر.
(٢٤٥) الأمس: الأقرب.
(٢٤٦) نهلان: جبل بالعالية.
(٢٤٧) قدس: جبل عظيم بنجد.
(٢٤٨) السواري: واحدتها سارية، وهي الأسطوانة (العمود).
(٢٤٩) الوزير: يعني به ابن مقلة المشهور بجودة الخط.
(٢٥٠) سطريها: صفيها.
(٢٥١) ويحها كم تزينت لعليم: أي لمدرس عالم واستعدَّت لإقامة الصلوات الخمس.
(٢٥٢) الرفيف: السقف.
(٢٥٣) الدَّمقس: الحرير.
(٢٥٤) المعارج: واحدها معرج، وهو السلم والمصعد.
(٢٥٥) منذر. هو قاضي الأندلس منذر بن سعيد المعروف بالعدل والزهد.
(٢٥٦) ريا ورده: أي رائحة ورده.
(٢٥٧) الدَّاخل: هو «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام» مؤسس الدولة الأمويَّة بالأندلس.
(٢٥٨) الشمس: الأباة.
(٢٥٩) الندس: الفهم.
(٢٦٠) عصائب برس: أي بيض كالقطن.
(٢٦١) العسُّ: احتراس الليل.
(٢٦٢) الورس: نبات أحمر اللون.
(٢٦٣) الضرس؛ من ضرس الزمان القوم: اشتدَّ عليهم.
(٢٦٤) الحس: القتل.

(٢٦٥) الحفاظ: الذبُّ عن المحارم.
(٢٦٦) الجبس: الجبان.
(٢٦٧) شهر رجب، أو صفر، أو شهر من شهور الصيف.
(٢٦٨) بقرس: ببارد.
(٢٦٩) حو المراشف: أي سمر الشفاه، وهو مستملح من النساء.
(٢٧٠) المراشف: الشفاه.
(٢٧١) اللعس: سوادٌ مستحسن في الشفة.
(٢٧٢) الخود: جمع خودة وهي المرأة الشابة.
(٢٧٣) العقيان: الذَّهب الخالص.
(٢٧٤) الخميلة: الموضع الكثير الشجر.
(٢٧٥) السلس: الخيط الذي ينظم به الخرز الأبيض تلبسه الإماء، وقيل القرط من الحلي.
(٢٧٦) أسف الطائر: على وجه الأرض.
(٢٧٧) العرف: لحمة مستطيلة في أعلى رأس الديك.
(٢٧٨) الجرس: الصوت، أو خفيِّه.
(٢٧٩) رعس: من رعس الرجل إذا مشى مشيًا ضعيفًا.
(٢٨٠) العين: جمع عيناه، وهي المرأة التي عظم سواد عينها في سعة.
(٢٨١) سوافر: جمع سافرة، وهي المرأة التي كشفت عن وجهها.
(٢٨٢) مآزر: جمع إزار، وهو الملحفة.
(٢٨٣) الأسود: هو الحجر الأسود الذي بمكة.
(٢٨٤) الحطيم: جدار حجر الكعبة، وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام.
(٢٨٥) البضُّ: الرخص الجسد.
(٢٨٦) وضا: وضاء.
(٢٨٧) ريم: غزال.
(٢٨٨) أمضى: أحدُّ.
(٢٨٩) زلفى: تقربًا.
(٢٩٠) يترضى: يطلب الرضا.
(٢٩١) قضا: حصى.

(٢٩٢) محضًا: خالصًا.

(٢٩٣) تقضى: تفنى.

(٢٩٤) فضًا: مفضوضًا.

(٢٩٥) جرضى: مغمومين.

(٢٩٦) حضوضى: جبل في البحر.

(٢٩٧) مضٌّ: موجع.

(٢٩٨) ينضى: يُسَلّ

(٢٩٩) معن: هو معن بن زائدة أحد كرماء العرب.

(٣٠٠) ظهيرًا: نصيرًا.

(٣٠١) حاشه، من حاش الصيد: أحرجه في كل مكان.

(٣٠٢) غيضًا، من غاض الماء غيضًا: نقص أو غار فذهب في الأرض.

(٣٠٣) نقضًا: ما انتقض من البناء، أي انتكث.

(٣٠٤) الخطاب للنفس: خاطبها كما يخاطبها فيلسوف، علم بدائعها، وبحث عن حقيقتها؛ فرآها تزيد غموضًا كلَّما زاد بحثًا، مع أنها أقرب ما يكون إليه.

(٣٠٥) الضاحيات: الطاهرات البارزات، وصف بها محاسن النفس، وقال: إنها مع ذلك، مطلعها بعيد وجلالها مستور.

(٣٠٦) «من» زائدة، والمعنى: أن النفس اتَّخذها الجمال مظهرًا لعزه، وموضعًا لسره.

(٣٠٧) الصناع: الماهر في الصناعة.

(٣٠٨) نصب اسم الجلالة على الاستغاثة، والكلام في الأبيات الخمسة بعده وصف لما عاناه الأحبار والفلاسفة من البحث عن حقيقة النفس، فشق طريقهم كلَّما زادوا بحثًا، أمَّا الجاهلون ففي راحة سائرون في المهيع، أي الطريق الواسع البين.

(٣٠٩) الضمير في ذلك يرجع إلى النفس، أراد بها الجوهر الإلهي.

(٣١٠) حلَّ الحبا: نهض، والمقصود هنا تقديس الروح العالي الذي نفخ الله في آدم (عليه السلام).

(٣١١) أراد بيوسف: يوسف الصديق، ومعنى تكرُّم النبوَّة فيه أنها سمت بنفسه وبلغت بها الكمال لَّما عفَّ، وأراد بالمرضع: السيد المسيح (عليه السلام).

(٣١٢) أراد بالبابليِّ: السحر إشارة إلى قوله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا».

(٣١٣) إشارة إلى العليقة الملتهبة.

(٣١٤) فاعل طويت يعود على النبوة. والخلال: الصفات والمزايا التي يبقى أثرها كما يبقى أثر الخمر بعدما تزول.

(٣١٥) التبع: يعسوب النحل الأعظم، وهو ما يسمُّونه الملكة.

(٣١٦) الدُّمى: الصور، أو التماثيل الجميلة، أشار بما في الأبيات الثلاثة المتقدِّمة إلى تفاوت النفوس في الناس.

(٣١٧) أي لولا كبار النفوس لما ارتقى العالم وصلحت الأنام، والمقصود من الكمال هنا: بلوغ النفس الكمال في النبوَّة، أو ما يقرب من الكمال في بعض العبقريين من الناس، والرئيس منهم.

(٣١٨) فاعل ضجت عائد إلى المنازل أي الأجسام، ومعالم ومعاهد منصوبتان على التمييز. أراد بالمعالم: ذوي النفوس الصغيرة، وبالمعاهد: ذوي النفوس الكبيرة.

(٣١٩) المرفع: الكرنفال الذي يلبس الناس فيه ثيابًا مزوَّقة.

(٣٢٠) فزعت: تأهبت أو استجارت، والضمير عائد إلى أجسام. وأراد بالقيامة: ساعة الموت.

(٣٢١) البلم: صغار السمك.

(٣٢٢) المزنة: هي هنا السحابة الممطرة.

(٣٢٣) تفهَّق: فهق الإناء امتلأ حتى صار يتصبب.

(٣٢٤) النول: خشبة الحائك ينسج عليها.

(٣٢٥) يخلق: يبلى.

(٣٢٦) الإستبرق: الحرير.

(٣٢٧) مترع: ممتلئ.

(٣٢٨) الشُّرق: الغرقى.

(٣٢٩) تنفق: يفنى ويقلُّ.

(٣٣٠) العسجد: الذهب.

(٣٣١) الراووق: المصفَّاة.

(٣٣٢) الحمأة: الطين الأسود.

(٣٣٣) تتروَّق، من روق الشراب: صفَّاه.

(٣٣٤) تخلق: أي تكون خليقة وجديرة.

(٣٣٥) السنن: النهج.

(٣٣٦) الموسق: اسم فاعل من أوسق، والهمزة فيه للتعدية، وثلاثيه وسق من وسقت الشاة ونحوها بمعنى لقحت، أو من وسقت الشيء إذا حملته.

(٣٣٧) ينفق، من نفق الرجل والدابة: ماتا، يعني ما مات من الإنسان، وما هلك من الحيوان.

(٣٣٨) استذرى بفلان: التجأ إليه، واستذرى بالشجرة: أي استظلَّ بها.

(٣٣٩) المنهل: المورد.

(٣٤٠) المعرَّق: العريق في النسب.

(٣٤١) الجوسق: القصر.

(٣٤٢) ينتق: يزعزع.

(٣٤٣) المحلة: المنزل.

(٣٤٤) الأزواد: جمع زاد وهو الطعام يُتَّخذ للسفر.

(٣٤٥) المطبق: السجن تحت الأرض.

(٣٤٦) تتنسق: تنتظم.

(٣٤٧) منطق: مرتفع لا يبلغ السحاب رأسه.

(٣٤٨) تعتق: من عتق الشيء؛ قدم.

(٣٤٩) الدُّمى: جمع دمية، وهي الصورة المُنقَّشة.

(٣٥٠) مسترديات: لابسات.

(٣٥١) تتفنق: تتنعم.

(٣٥٢) عطلت: من عطلت المرأة لم يكن عليها حلي.

(٣٥٣) العبير: أخلاط من الطيب.

(٣٥٤) يلبق: يليق.

(٣٥٥) الريق من كل شيء: أوله وأصله.

(٣٥٦) الغرانيق: جمع غرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل، ويقصد التماثيل.

(٣٥٧) تحسَّر: من حسر البصر؛ كلَّ لطول مدى البصر.

(٣٥٨) جلق: دمشق.

(٣٥٩) مفتق: من فتق قرن الشمس أصاب فتقا من السحاب فبدا منه.

(٣٦٠) تعنو: تخضع وتذل.

(٣٦١) الفيلق: الكتيبة العظيمة.

(٣٦٢) النمرق: الوسادة الصغيرة.

(٣٦٣) موبق: مهلك.

(٣٦٤) تصدق: من أصدق الرجل المرأة أى سمَّى لها صداقها.

(٣٦٥) الحول: السنة.

(٣٦٦) يلبُّ: من لبَّ أي صار لبيبًا.

(٣٦٧) الترب: مَنْ وُلِدَ معك.

(٣٦٨) يحدو: من حدا الإبل؛ ساقها وغنى لها.

(٣٦٩) الصَّلت: السيف الصقيل الماضي.

(٣٧٠) انثال: أي انصب.

(٣٧١) أزليَّة: الأزل: القدم.

(٣٧٢) تغسق: تظلم.

(٣٧٣) يبثق: من بثق السيل موضع كذا: خرقه وشقَّه.

(٣٧٤) تمحَّق: من محقه أهلكه.

(٣٧٥) الذرُّ: الهباء المنبعث في الهواء، الواحدة ذرَّة.

(٣٧٦) الخرنق: الفتى من الأرنب.

(٣٧٧) الوضح: الغرَّة، والوضح: التحجيل في القوائم.

(٣٧٨) العسجد: الذهب.

(٣٧٩) الزئبق: نبات له زهر طيب الرائحة.

(٣٨٠) الندى: الندى.

(٣٨١) استحجبوا الكُهَّان: أي ولُّوهم الحجابة، وهي خطة الحاجب أي البواب.

(٣٨٢) العتيق: الكعبة.

(٣٨٣) الأينق: جمع ناقة.

(٣٨٤) الهدى: ما يهدى إلى الحرم من النعم، وقيل هو جمع الهدى، واحدتها هدية.

(٣٨٥) محدَّج. من حدج الأحمال: شدَّها ووسقها.

(٣٨٦) رقط: واحدتها رقطاء وهي الحيَّة.

(٣٨٧) المرفق: المتكأ.

(٣٨٨) الرخُّ: قطعة شطرنج يلعب بها.

(٣٨٩) البيدق: قطعة شطرنج يلعب بها.

(٣٩٠) الديسق: بياض السَّراب وترقرقه، وهو اسم للسَّراب أيضًا، ويطلق كذلك على كل شيء ينير ويضيء.

(٣٩١) المملق: الفقير.

(٣٩٢) الفيهق. الواسع من كل شيء.

(٣٩٣) مخلق: متطيب.

(٣٩٤) منبق: مسطر.

(٣٩٥) يشهق، من شهق الجبل: ارتفع.

(٣٩٦) تفتَّق: من فتق المسك بغيره استخرج رائحته بشيء يدخله عليه.

(٣٩٧) الأقانيم: جمع أقنوم وهو الأصل والشخص.

(٣٩٨) تنشق: تشم.

(٣٩٩) يرنق: يخفق ويتحرَّك.

(٤٠٠) يسمق: سمق النبات أي طال وعلا.

(٤٠١) الغيدق: من غيدق المطر؛ كثر.

(٤٠٢) الفاروق: عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

(٤٠٣) الرزدق: الصفُّ من الناس.

(٤٠٤) أحلاس خيل: أي ملازمون ظهورها.

(٤٠٥) مورق: هو هنا بمعنى غانم.

(٤٠٦) يفرق: يحذر.

(٤٠٧) الشطب: السعف الأخضر الرَّطب من جريد النخل.

(٤٠٨) معصب: متوَّج.

(٤٠٩) المرهق: مَنْ يغشاه الناس والأضياف كثيرًا.

(٤١٠) المهرق. الصحيفة.

(٤١١) لباتهن: واحدتها لبة وهي النحر.

(٤١٢) تحلق: تجفُّ، من حلقت الإبل إذا ارتفع لبنها وجفَّ.

(٤١٣) بردى: نهر دمشق.

(٤١٤) الرزء: المصيبة.

(٤١٥) خفق: خفوق.

(٤١٦) ائتلاق: من ائتلق لمع وأضاء.
(٤١٧) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.
(٤١٨) لهوات: جمع لها، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.
(٤١٩) لسن: من لسن الرجل فصح، أو تناهى في الفصاحة والبلاغة.
(٤٢٠) شدق: جمع أشدق، أي بليغ مفوه كريم.
(٤٢١) اضطرم. من اضطرمت النار: اشتعلت.
(٤٢٢) المدَّق: قصبة الأنف.
(٤٢٣) الشكيمة من اللجام: الحديدة المعترضة في فمِّ الفرس.
(٤٢٤) العتق: الكرم وخلوص الأصل.
(٤٢٥) الولي: المحبُّ والصديق.
(٤٢٦) فصَّل: بيَّن.
(٤٢٧) يجمل، من أجمل الكلام: فصَّله وبيَّنه.
(٤٢٨) الأحداث: المصائب.
(٤٢٩) الظئر: المرضعة.
(٤٣٠) السرح: الشجر العظام.
(٤٣١) الرَّق: جلد رقيق يكتب فيه.
(٤٣٢) منضَّد: منسَّق.
(٤٣٣) الدُّمى: واحدتها دمية، وهي الصورة المنقَّشة.
(٤٣٤) المقاصير: واحدتها مقصورة وهي الحجر.
(٤٣٥) الوهن: نصف الليل، أو بعده بساعة.
(٤٣٦) منهل السماء: أي قطره.
(٤٣٧) تسترق: تستعبد.
(٤٣٨) الرِّق: العبودية.
(٤٣٩) الصيد: ميل العنق وهو يضرب للكبر.
(٤٤٠) العتق: الحريَّة.
(٤٤١) القبيل: جمع قبيلة وهي العشيرة.
(٤٤٢) الذادة: جمع ذائد وهو الحامي.
(٤٤٣) السموأل: هو السموأل بن عادياء اليهودي صاحب القصيدة التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنِّس من اللؤم عرضه   فــكــل رداء يــرتــديــه جــمــيــل

(٤٤٤) الصَّفَّاق: الديك.

(٤٤٥) الدِّهاق من الكئوس: الممتلئة.

(٤٤٦) الأجران: مثنَّى أجر أي زكاة الفطر والصوم.

(٤٤٧) الإملاق: من أملق الرجل؛ أنفق ماله حتى افتقر.

(٤٤٨) التِّرياق: دواء مركَّب بدفع السموم.

(٤٤٩) الغيدق: الكريم، الجواد، الواسع الخلق، الكثير العطيَّة.

(٤٥٠) الأرماق: جمع رمق؛ وهو بقية الحياة.

(٤٥١) الأعلاق. جمع علق؛ وهو النفيس من كل شيء.

(٤٥٢) الطائي: أبو تمَّام الطائي الشاعر.

(٤٥٣) أبو إسحاق: المعتصم بالله.

(٤٥٤) الصِّدِّيق: يوسف (عليه السلام).

(٤٥٥) امِّحاء: صعق.

(٤٥٦) الكليم: موسى (عليه السلام).

(٤٥٧) البتول: مريم العذراء عليها السلام.

(٤٥٨) الفاروق: عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

(٤٥٩) الأقاحي: جمع أقحوانة وهو نباتٌ له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء.

(٤٦٠) الشقيق: زهر.

(٤٦١) الطلى: الخمر.

(٤٦٢) مسبلة: من أسبل الدمع، أي أرسله.

(٤٦٣) الشئون: الدموع.

(٤٦٤) قريحة: أي ذات قرحة، وهي الجرح.

(٤٦٥) إنسانها: إنسان العين، وهو المثال يرى في سوادها.

(٤٦٦) كراها: نومها.

(٤٦٧) غياهب: جمع غيهب؛ وهو الظلمة.

(٤٦٨) أخوك: يعني البدر.

(٤٦٩) الإفرند: جوهر السيف ووشيه.

(٤٧٠) سنابكها: جمع سنبك، وهو طرف الحافز.

(٤٧١) أعرافها: الواحد عرف، وهو شعر عنق الفرس.

(٤٧٢) شكيمها: جمع شكيمة، وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس.

(٤٧٣) المعلوك، من علك الفرس اللجام: لاكه وحرَّكه في فمه.

(٤٧٤) المشكوك: أي المشدود.

(٤٧٥) أي إنها انتهكت المعاهدات.

(٤٧٦) الدُّمى: جمع دمية. وهي الصورة المنقَّشة.

(٤٧٧) يعني الحرب.

(٤٧٨) ماء معروك: أي مزدحم عليه.

(٤٧٩) الممسوك: المرتفع.

(٤٨٠) الشرى: مأسدة بجانب الفرات يُضْرَبُ بها المثل.

(٤٨١) النوك: جمع أنوك، وهو الأحمق، وقيل: العاجز الجاهل.

(٤٨٢) النول: خشبة الحائك يُنْسَجَ عليها.

(٤٨٣) محوك: من حاك أي نسج.

(٤٨٤) يتنزى: يثب.

(٤٨٥) الريل: اللعاب. من رال الصبى ريلاً؛ أي جرى لعابه.

(٤٨٦) العتيق: الحرم المكي.

(٤٨٧) هو قيس بن الملوَّح المعروف بمجنون بني عامر، وله أحاديث يرجع إليها في الأغاني، ومنها حديث الغزالة الآنفة.

(٤٨٨) البسالة: الشجاعة.

(٤٨٩) الغزالة: الشمس.

(٤٩٠) الأشراط، المفرد شرط: العلامة.

(٤٩١) أي ارتحلوا.

(٤٩٢) الجام: الكأس.

(٤٩٣) النقض: اسم البناء المنقوض.

(٤٩٤) الحطامة: ما تحطَّم من الشيء المحطوم، أي ما تكسَّر منه.

(٤٩٥) مراجل: جمع مرجل، وهو القدر من الحجارة والنحاس.

(٤٩٦) أي ارتحلوا وتفرَّقوا.

(٤٩٧) اللامة: الدرع.

(٤٩٨) الحميم: الماء الحار.

(٤٩٩) جنح الليل: طائفة منه.

(٥٠٠) هي زرقاء اليمامة المشهورة بقوَّة البصر.

(٥٠١) أجاز الموضع: سلكه.

(٥٠٢) نزوات الجرح: سوراته ونزفاته.

(٥٠٣) الحجامة: الفصد.

(٥٠٤) أسامة: الأسد

(٥٠٥) العاصيين: آدم وحواء.

(٥٠٦) سام: من سام فلانًا الأمر: كلَّفه إياه.

(٥٠٧) الندب: الخفيف في الحاجة، الظريف، النجيب؛ لأنه إذا ندب إليها خفَّ لقضائها.

(٥٠٨) الرغام: التراب.

(٥٠٩) زفَّ الطائر: رمى بنفسه أو بسط جناحيه.

(٥١٠) شالت الناقة بذنبها: رفعته.

(٥١١) أعقبا: جمع عقاب، وهو طائر من الجوارح.

(٥١٢) الدأماء: البحر.

(٥١٣) القطاما: الصقر.

(٥١٤) زحل: كوكب من الخنس، سُمِّي به لبعده وتخنيسه.

(٥١٥) نشورًا، من نشر الله الموتى: أحياهم.

(٥١٦) الجؤجؤ من الطائر: الصدر.

(٥١٧) الخوافي: رشات إذا ضمَّ الطائر جناحية خفيت، وقيل: هي الأربع اللواتي بعد المناكب.

(٥١٨) الحول: القوَّة والقدرة على التصرُّف.

(٥١٩) القدامى: جمع قادمة، وهي عشر ريشات في مقدم الجناح.

(٥٢٠) الجِهَام: السَّحاب الذي لا ماء فيه.

(٥٢١) السرب: القطيع من الظباء والنساء وغيرها.

(٥٢٢) السنام: حدبة في ظهر البعير.

(٥٢٣) وئدت: من وأد ابنته؛ دفنها في القبر وهي حيَّة.

(٥٢٤) امحى الشيء: ذهب أثره.

(٥٢٥) الشذا: قوَّة ذكاء الرائحة.

(٥٢٦) الضرم: الاشتعال.

(٥٢٧) أي كخيال الخمر إذا ألمَّ بالتائب عنها.

(٥٢٨) رشا: الرشا ولد الظبية الذي قد تحرَّك ومشى.

(٥٢٩) الكم: غطاء النور.

(٥٣٠) اليتم: مصدر؛ يقال: درَّة يتيمة أي ثمينة لا نظيرلها.

(٥٣١) ادَّعم: ارتكز.

(٥٣٢) العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يُشبَّه بها البنان المخضوب.

(٥٣٣) الطلى: الخمر.

(٥٣٤) الكابر: الكبير، والكابر: الرفيع الشأن والشرف.

(٥٣٥) ذكاء: الشمس.

(٥٣٦) انسربت: يقال انسرب الظبي إذا دخل في سربه.

(٥٣٧) من أمم: أي من قريب.

(٥٣٨) بهم: واحدها بهمة وهو الشجاع.

(٥٣٩) تني: تتأنى.

(٥٤٠) الرسم: حسن المشي.

(٥٤١) احترم الشيء: معه.

(٥٤٢) الملأين: العرب والعجم.

(٥٤٣) الدَّن: باطية الخمر.

(٥٤٤) الجفون: الأغماد.

(٥٤٥) استسرَّ: توارى.

(٥٤٦) بدري: نسبة إلى بدر، وفي الأثر أن أهل بدر مغفورة لهم هفواتهم.

(٥٤٧) الحجال: جمع حجلة وهو ستر العروس في جوف البيت.

(٥٤٨) جون: سود.

(٥٤٩) ممرَّدة: مطولة.

(٥٥٠) رع وآمون: معبودان مصريان قديمان.

(٥٥١) القيون: الصُّنَّاع.

(٥٥٢) نواوس: توابيت.

(٥٥٣) الفتين: المحرق.

(٥٥٤) الرَّقين: الرَّقيم وهو الكتاب.

(٥٥٥) الزون: معرض الأصنام.

(٥٥٦) العهيد: القديم.

(٥٥٧) يطردون: يزاولون الصيد.

(٥٥٨) آل شمس: الفراعنة.

(٥٥٩) الخديو محمد توفيق الأول.

(٥٦٠) صدفت: أعرضت.

(٥٦١) الجلال: جمع جلٌّ وهو غطاء الفرس.

(٥٦٢) جلق: دمشق.

(٥٦٣) الأديم: الأرض.

(٥٦٤) الرَّاد: الراديوم.

(٥٦٥) ما دانوا: ما غلبوا من الأمم وقهروا.

(٥٦٦) الزَّهراء: قصر خلفاء بني أُميَّة بالأندلس.

(٥٦٧) الفيحاء: دمشق.

(٥٦٨) الرَّغام: التراب.

(٥٦٩) بغدان: إحدى لغات كثيرة في بغداد.

(٥٧٠) بردى: نهر دمشق.

(٥٧١) العقيان: الذَّهب الخالص.

(٥٧٢) دمر: ضاحية دمشق.

(٥٧٣) الحور: شجر عظيم يشبه السرو.

(٥٧٤) أفوافه: جمع فوف بالضم، نوع من الثياب؛ والمراد هنا الزَّهر.

(٥٧٥) ابتردت: اغتسلت.

(٥٧٦) البلال: أي البلل.

(٥٧٧) أردان: جمع ردن؛ وهو الكم.

(٥٧٨) طي وشيبان: قبيلتا حاتم ومعن.

(٥٧٩) جحاجح: جمع جحجح وهو السيد المسارع إلى المكارم.

(٥٨٠) غسَّان: أبو قبيلة باليمن، منهم ملوك غسَّان وكانوا ملوكًا للشام.

(٥٨١) الأسرة: الوجوه.

(٥٨٢) الصيد: رفع الرأس كبرًا.

(٥٨٣) عبد شمس: يعني بني أمية.

(٥٨٤) جنَّان: بستاني.

(٥٨٥) الصنو: الأخ.

(٥٨٦) الطلح: نوعٌ من الشجر، سُمِّي به وادٍ بظاهر إشبيليا كان ابن عبَّاد شديد الولع به.

(٥٨٧) عوادينا: عوادي الدَّهر النازلة بنا؛ وهي مصائبه.

(٥٨٨) ريش: من راش السهم ألصق عليه الريش.

(٥٨٩) الفنن: الغصن المستقيم.

(٥٩٠) الأساة: الأطباء.

(٥٩١) ادِّكارًا: تذكرًا.

(٥٩٢) أفانين: أجناس.

(٥٩٣) النطس: الأطباء الحُذَّاق.

(٥٩٤) الأيك. الشجر الكثيف الملتَّف.

(٥٩٥) الرفيف: الخصب.

(٥٩٦) يقصد بهم ملوك الأندلس.

(٥٩٧) منبهة: أي شرف ورفعة.

(٥٩٨) بابل ودارينا: مدينتان مشهورتان بجودة الخمر.

(٥٩٩) خيريًا ونسرينًا: نوعان من الزهر.

(٦٠٠) المقة: المحبَّة.

(٦٠١) الرواقي: واحدها راقية، وهي التي ترقي الصبي إذا كان به سحر.

(٦٠٢) الجدود: الحظوظ.

(٦٠٣) الروح: الرحمة والرزق.

(٦٠٤) شبَّه مصر — حين ضاقت به على الرغم منها فركب البحر وخرج إلى المنفى — بأم موسى (عليه السلام) حين ألقته في اليمِّ صبيًا وسألت الله أن يكفله.

(٦٠٥) الشفوف: واحدها شفٌّ: الثوب الرقيق. واللازورد: حجر صافٍ شفاف أزرق. والأفواف: يريد بها الخمائل.

(٦٠٦) الصياصي: الحصون وكل من امتنع به.

(٦٠٧) يريد به الليل الذي ملؤه الهمِّ والأرق أشار إلى قول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب وليل أقاسية بطيء الكواكب

(٦٠٨) الرفة: النضرة.

(٦٠٩) الإعذار: طعامٌ يتخذ لسرور حادث.

(٦١٠) الغين: واحدها أغين: الخضر.

(٦١١) المجاج: ما تمجُّه الأرض من شجرٍ وغيره؛ أي ما تخرجه.

(٦١٢) جمع إيوان.

(٦١٣) الأساطين: واحدتها أسطوانة، وهي السارية.

(٦١٤) الغسلين: الصديد.

(٦١٥) إشارة إلى المرحومة والدة الناظم.

(٦١٦) الخيال: السينما توغراف.

(٦١٧) يستذري: يستظل.

(٦١٨) الذرى بالفتح: الفناء.

(٦١٩) الدبابة: يعني بها الغواصة.

(٦٢٠) يقال: بين العدو إذا أوقع به ليلاً من دون أن يعلم.

(٦٢١) زُبانا العقرب: قرناها.

(٦٢٢) جباة: جمع جابي وهو المحصل.

(٦٢٣) يريد به الصدر الأعظم، وهو كبير الوزراء.

باب النسيب

خدَعُوها

خـدعـوهـا بـقَـولـهـم: حـسـنـاءُ　　والـغـوانـي يَـغُـرُّهـن الـثَّـنـاءُ
أتُـراهـا تـنـاسـت اسـمِـيَ لـمَّـا　　كـثُـرت فـي غـرامِـهـا الأسـمـاءُ؟
إن رأتـنـي تـمـيـل عـنـي، كـأن لَّـم　　تـكُ بـيـنـي وبـيـنـهـا أشـيـاءُ!
نـظـرةٌ، فـابـتـسـامـةٌ، فـسـلامٌ　　فـكـلامٌ، فـمـوعـدٌ، فـلـقـاءُ
يومَ كُنا — ولا تسلْ: كيف كُنَّا؟ —　　نـتـهـادَى مـن الـهـوى مـا نـشـاءُ
وعـلـيـنـا مـن الـعَـفـافِ رقـيـبٌ　　تَـعِـبَـتْ فـي مِـراسـه الأهـواءُ
جاذبتني ثوبي العَصِيَّ وقالت:　　أنـتـمُ الـنـاسُ أيُّـهـا الـشـعـراءُ
فـاتـقـوا الـلـهَ فـي قـلـوبِ الـعـذارَى　　فـالـعـذارى قـلـوبُـهـنّ هـواءُ

أخذ البيت الرابع فزاد قوله:

نظرةٌ، فابتسامةٌ، فسلامٌ　　فكلاٌ، فموعدٌ، فلقاءُ
فقراقُ يكون فيه دواءٌ　　أو فراقٌ يكون منه الدَّاءُ

وقال:

لا السُّهْدُ يَطويه ولا الإغضاءُ　　لَـيْـلٌ عِـدادُ نُـجُـومِـه رُقَـبـاءُ
داجِي عُبابِ الجُنْحِ، فَوْضَى فُلْكُه　　مـا لـلـهـمـوم ولا لـهـا إرْسـاءُ

أغزالة الإشراق، أنتِ من الدُّجى ومن السُّهادِ إذا طلعْتِ شِفاءُ
رفقًا بجفْنٍ كلَّما أبْكَيْتِهِ سال العَقيقُ[١] به، وقام الماءُ
ما مَدَّ هُدْبَيْهِ ليصطادَ الكرى إلاَّ وطيفُكِ في الكرى العَنْقَاءُ
مَنْ لي بهنَّ لياليًا نَهِل[٢] الصَّبا مما أَفَضْنَ وَعَلَّت[٣] الأهواءُ؟
أَلَّفْنَ أوطاري، فعَيْشِيَ والمُنَى في ظلِّهنّ الكأسُ والصَّهباءُ

وقال:

سُوَيْجعَ النيلِ، رِفْقًا بالسُّوَيْداءِ فما تُطيق أنينَ المفردِ النائي[٤]
لله وادٍ كما يَهْوَى الهوى عَجَبٌ تركتَ كلَّ خَليٍّ فيه ذا داء
وأنتَ في الأسْرِ تشكو ما تُكابده لصخرةٍ من بني الأعجام صَمَّاء
اللهَ في فَنَنٍ تلهو الزمانَ به إنما هو مشدودٌ بأحشائي
وفي جوانحك الَّلاتي سمحْت بها فلو ترفَّقْت لم تسمح بأعضائي
ماذا تريد بذي الأنَّاتِ في سهري؟ هذي جفونِيَ تَسْقِي عهدَ إغفائي
حَسْبُ المضاجِع مني ما تعالج من جَنْبي، ومن كَبِدٍ في الجَنْب حَرَّاء
أُمْسِي وأُصْبِحُ مِنْ نَجْواك في كَلَفٍ حتى لَيعْشَقُ نُطقي فيك إصغائي
الليلُ يُنهضني من حيث يُقعِدني والنَّجمُ يَملأُ لي، والفكرُ صَهبائي
آتي الكواكبَ لم أنقل لها قَدَمًا لا ينقضي سهري فيها وإسرائي
وألحظُ الأرضَ، أطْوِي ما يكون إلى ما كان مِنْ آدمٍ فيها وحَوّاء
مُؤَيَّدًا بكِ في حِلِّي ومُرْتَحَلِي وما هما غيرُ إصباحي وإمسائي
تُوحِي إليَّ الذي تُوحِي، وتسمع لي وفي سماعك بعد الوحي إغرائي

قال أبو نواس:

يا ويْحَ أَهْلِيَ، أبْلَى بينَ أعيُنِهم على الفراشِ، ولا يَدْرُون ما دائي

وطُلِبَ إليه تشطير هذا البيت فقال:

يا ويحَ أهليَ، أبلَى بين أعينهم ... ويَدْرُجُ الموتُ في جسمي وأعضائي
وينظرون لجنْبٍ لا هدوءَ له ... على الفراشِ، ولا يدرون ما دائي

وقال:

منكَ يا هاجرُ دائي ... وبكفَّيْكَ دَوائي
يا مُنَى روحي، ودنيا ... يَ، وسُؤْلي، ورَجائي
أنتِ إن شئتَ نعيمي ... وإذا شئتَ شقائي
ليس مِنْ عُمْرِيَ يومٌ ... لا ترى فيه لِقائي
وحياتي في التَّداني ... ومماتي في التَّنائي
نَمْ على نسيان سُهدي ... فيك، واضحكْ من بُكائي
كلُّ ما ترضاه يا مَوْ ... لايَ يرضاه وَلائي
وكما تعلم حُبَّي ... وكما تدري وَفائي
فيك يا راحة روحي ... طال بالواشي عَنائي
وتوارَيْتُ بدمعي ... عن عيون الرُّقَباءِ
أنا أهواكَ، ولا أرْ ... ضَىَ الهوى مِن شُرَكائي
غِرتُ، حتى لَترى أر ... ضِيَ غَيْرَى من سمائي
ليتني كنتُ رِداءً ... لك، أو كنت رِدائي
ليتني ماؤك في الغُـ ... ـلَّةِ، أو لَيْتَكَ مائي

وقال:

لقد لامني يا هندُ في الحب لائمٌ ... مُحِبٌّ إذا عُدَّ الصِّحابُ حبيبُ
فما هو بالواشي على مذهب الهوى ... ولا هو في شَرع الوداد مُريب
وصفتُ له منْ أنتِ، ثم جرى لنا ... حديثٌ يَهُمُّ العاشقين عجيب
وقلت له: صبرًا، فكلٌّ أخِي هَوى ... على يَدِ مَنْ يَهْوى غدًا سيتوب

وقال:

على قدرِ الهوى يأْتي العِتابُ ... ومَنْ عاتبتُ يَفْدِيه الصَّحابُ
أَلومُ مُعذِّبي، فألومُ نفسي ... فأُغْضِبها ويُرضيها العذاب
ولو أني استطعتُ لتبتُ عنه ... ولكنْ كيف عن روحي المتاب؟
ولي قلب بأن يهْوَى يُجازَى ... ومالِكُه بأن يَجْنِي يُثاب
ولو وُجِد العِقابُ فعلتُ، لكن ... نِفارُ الظَّبْي ليس له عِقاب
يلوم اللائمون وما رأوْه ... وقِدْمًا ضاع في الناس الصَّواب
صَحَوْتُ، فأنكر السُّلْوان قلبي ... عليَّ، وراجع الطَّرَب الشباب
كأنَّ يَدَ الغرامِ زِمامُ قلبي ... فليس عليه دون هَوًى حِجاب
كأنَّ روايةَ الأشواقِ عَوْدٌ ... على بَدءٍ وما كمل الكتاب
كأني والهوى أَخَوا مُدامٍ ... لنا عهدٌ بها، ولنا اصطحاب
إذا ما اعْتَضْتُ عن عشقٍ بعشقٍ ... أُعِيدَ العهدُ، وامتد الشَّراب

وقال:

أريدُ سُلوَّكم، والقلبُ يأْبَى ... وأعتِبُكم، وملءُ النفس عُتْبَى
وأهجركم، فيهجرني رُقادي ... ويُضْوِيني الظلامُ أسىً وكرْبا[٥]
وأذكركم برؤيةِ كلِّ حُسْنٍ ... فيصبو ناظري، والقلبُ أصْبَى[٦]
وأشكو من عذابي في هواكم ... وأجزيكم عن التعذيبِ حُبًا
وأعلمُ أن دَأْبكُمُ جفائي ... فما بالي جعلتُ الحبَّ دأبا؟
ورُبَّ مُعاتَبٍ كالعيش، يُشكى ... وملءُ النفس منه هَوًى وعُتْبى
أتَجزيني عن الزُّلْفَى نِفارًا؟ ... عَتَبْتكَ بالهوى، وكفاك عَتبا
فكلُّ ملاحةٍ في الناس ذنبٌ ... إذا عُدّ النِّفارُ عليكَ ذنبا
أخذتُ هواك عن عيني وقلبي ... فعيني قد دَعَتْ، والقلبُ لَبى
وأنتَ من المحاسن في مِثال ... فديتكَ قالَبًا فيه وقَلْبا
أحِبُّكَ حين تثنى الجِيدَ تِيهًا ... وأخشى أن يصيرَ التَّيهُ دَأْبا
وقالوا: في البديلِ رضًا ورَوْحٌ ... لقد رُمْتُ البديلَ، فرمتُ صَعْبا

وراجعتُ الرشادَ عَساى أسلو فما بالي مع السُّلوانِ أصْبى؟
إذا ما الكأْسُ لم تُذْهِبْ همومى فقد تَبَّتْ يدُ الساقى، وتَبّا
على أني أعَفُّ من احتساها وأكرمُ مِنْ عَذارَى الدير شربا
ولي نفسٌ أرَوِّيها فتزكو كزهر الورد نَدَّوْهُ فهبَّا

وقال:

رَوّعوه، فتَولَّى مُغْضَبا أعلِمتم كيف ترتاعُ الظِّبا؟
خُلِقت لاهِيةً ناعمة رُبَّما رَوَّعها مرُّ الصَّبا
لي حبيبٌ كلَّما قيل له صَدَّقَ القولَ، وزكَّى الرِّيَبا
كذب العُذَّالُ فيما زعموا أمَلِى في فاتِنى ما كذبا
لو رَأوْنا والهوى ثالثُنا والدُّجى يُرْخِى علينا الحُجُبا
في جِوار الليل، في ذمَّتِه نذكر الصبحَ بأنَّ لا يقربا
مِلءُ بُرَدْينا عفافٌ وهوى حفظ الحسنَ، وصنتُ الأدبا
يا غزالاً أهِلَ[7] القلبُ به فلبىَ السَّفْحُ وأحْنى ملْعبا
لك ما أحببتَ مِنْ حَبَّتِه مَنهلاً عَذبًان ومَرْعىً طَيبًا
هو عندَ المالكِ الأوْلَى به كَيف أشكو أنه قد سُلِبا؟
إن رأى أبَقى على مملوكه أو رأى أتلفه، واحتسبا
لكّ قدٌّ سجدَ البانُ له وتمنَّتْ لو أقلَّتْه الرُّبى
ولِحاظٌ، من معاني سحره جمع الجفنُ سهامًا وظُبى[8]
كان عن هذا لقلبى غُنَيةٌ ما لقلبي والهوى بعد الصَّبا؟
فِطرتي لا آخُذ القلبَ بها خُلِقَ الشاعِرُ سَمحًا طَرِبا
لو جَلَوْا حُسْنَكَ أو غَنَّوْا به «للَبيدٍ» في الثمانينَ صبَا[9]
ايها النفسُ، تجدّين سُدًى هل رأيتِ العيشَ إلا لَعِبا؟
جَرَّبى الدنيا تَهُنْ عندك، ما أهونَ الدنيا على من جرّبا!!
نلتِ فيما نِلْتِ من مَظهرها ومُنِحْتِ الخلدَ ذكْراً، ونَبَا

وقال والمعنى لشاعر تركي:

ما تلكَ أهدابى تَنَظَّــ ـمَ بينها الدمعُ السَّكوبْ
بل تلك سُبحةُ لؤلؤٍ تُحْصَى عليكَ بها الذنُوب

وقال:

لا والقوامِ الَّذِى، والأعينِ اللاَّتي ما خُنْتُ رَبَّ القَنا والمَشْرَفيَّاتِ
ولا سَلوْتُ، ولم أهْمُمْ، ولا خطرَتْ بالبالِ سَلْوَاكِ في ماضٍ ولا آت
وخاتَمُ الملكِ للحاجات مُطَّلَبٌ وثَغْرُكِ المتمنَّى كلُّ حاجاتي

وقال:

لَحظها لحظها، رُوَيْدًا رُويْدا كم إلى كم تَكيد للروح كيْدا؟
كُفَّ أو لا تكُفَّ، إنّ بجبنبى لَسِهامًا أرْسَلْنَها لن تُرَدّا
تصِلُ الضربَ ما أرىِ لك حدّا فاتّقِ اللهَ، والتزِمْ لك حدّا
أو فصُغ لي من الحجارة قلبا ثم صُغ لي من الحدائدِ كِبْدا
واكفِ جَفْنَيَّ دافقًا ليس يْرقا واكْفِ جَنْبَيَّ خافِقا ليس يَهْدا
فمن الغَبْنِ أن يصير وعيدا ما قطعتُ الزمانَ أرجوه وعْدا

وقال:

الرُّشْدُ أجملُ سِيرة يا أحمدُ ودُّ الغواني مِنْ شَبابِكَ أبعدُ
قد كان فيكَ لِوُدَّهنّ بقِيَّةٌ واليومَ أوْشَكَتِ البقيةُ تَنْقّدُ
«هاروتُ» شِعْرِكَ بعدَ «ماروتِ» الصبا أعيا، وفارقه الخليلُ المُسعِد
لما سَمِعْنَكَ قُلْنَ: شعرٌ أمْردٌ يا ليت قائلَهُ الطَّريرُ الأمرَدُ
ما للَّوَاهى الناعماتِ وشاعرٍ جعل النسيبَ حبالةً يتصيَّد؟
ولكَمْ جمعتَ قلوبهن على الهوى وخدَعْتَ مَنْ قَطَعَتْ ومَنْ تتودّد
وسَخِرْتَ من واشٍ، وكِدْتَ لعاذِلٍ واليومَ تنْشُدُ من يَشِى ويُفَنَّد

أئذا وَجَدْت الغِيدَ ألهاكَ الهوى   وإذا وجدت الشَّعْرَ عزَّ الأغيد؟

وقال:

إن الوُشاةَ — وإن لم أحْصِهم عَددا —   تعلموا الكَيْدَ من عينيك والفَنَدَا[١٠]
لا أخْلفَ اللهُ ظنَّى في نواظِرهم   ماذا رأتْ بَى ممّا يبعثُ الحسدا؟
هم أغضبوكَ فراح القدُّ مُنْثَنيًا   والجفنُ مُنكسرًا، والخدُّ مُنَّقدا
وصادفوا أذُنا صَغْواءَ ليَّنةً   فأسمعوها الذى لم يُسمِعوا أحدا
لولا احتراسِىَ من عينَيْك قلتُ: ألا   فأنظر بعينك، هل أبقَيْت لي جَلدَا؟
اللهَ في مُهْجَةٍ أيْتَمْتَ واحدَها   ظلمًا، وما أتَّخذَتْ غيرَ الهوى ولدا
ورُوحِ صبَّ أطالَ الحبُّ غُرْبَتَها   يخافُ إن رَجَعَتْ أن تُنكرَ الجسدَا
دع المواعِيدَ، إنى مِتُّ مِنْ ظمَإٍ   وللمواعيدِ ماءٌ لا يَبُلُّ صَدى
تدعو، ومَنْ لِىَ أن اسعى بلا كَبِدٍ؟   فمن مٌّعِيرِىَ من هذا الورى كَبدا؟

وقال:

بثثْت شكواى، فذابَ الجليدُ   وأشفق الصخرُ، ولان الحديدْ
وقلبُك القاسى على حاله   هيهاتَ! بلْ قَسْوَتُه لي تَزيد

وقال:

يَمُدُّ الدُّجى في لَوْعتى ويَزيدُ   ويُبْدِئُ بَثَّى في الهوى ويُعيدُ
إذا طال واستعصى فما هي ليلة   ولكنْ ليالٍ ما لهنّ عَدِيدُ
أرِقْتُ وعادتنى لذكرى أحِبَّتى   شُجونٌ قِيامٌ بالضلوع قُعودُ
ومَنْ يَحْمِلِ الأشواقَ يتعب، ويَختلفْ   عليهِ قديمٌ في الهوى، وجديد
لِقيتَ الذى لم يَلْقَ قلبٌ من الهوى   لكَ اللهُ يا قلبى، أأَنت حديد؟
ولم أخْلُ من وجدٍ عليك، ورِقَّةٍ   إذا حلَّ غِيدٌ، أو ترحَّل غِيدُ
وروْضٍ كما شاءَ المُحِبُّون، ظِلُّهُ   لهم والأسرارِ الغرامِ مَدِيدُ
تُظلَّلُنا والطيرَ في جَنَبَاتِه   غصونٌ قيامٌ للنسيم سجود

تمِيل إلى مُضْنَى الغرامِ، وتارةً ... يعارضها مُضْنَى الصَّبا فتَحيد
مَشىَ في حوَاشِيها الأصيلُ، فذُهِّبَتْ ... ومارتْ عليها الحلْىُ وهْىَ تَميد
وقامت لديها الطَّيْرُ شتَّى، فآنِسٌ ... بأهلٍ، ومَفقودُ الأليفِ وَحيد
وباكٍ ولا دمعٌ، وشاكٍ ولا جوًى ... وجَذْلانُ يَشْدُو في الرُّبَى ويُشيد
وذى كبْرَةٍ لم يُعْطَ بالدهر خِبْرَةً ... وعُرْيان كاسٍ تَزْدَهيه مُهود
غَشِيناهُ والأيَّامُ تَنْدَى شَبِيبَةً ... ويَقْطُر منها العيشُ وهْوَ رَغيد
رَأَتْ شفقًا يَنْعَى النهارَ مُضَرَّجًا ... فقلتُ لها: حتى النهارُ شَهيد
فقالت: وما بالطير؟ قلتُ: سكينةٌ ... فما هي ممّا نبتغي ونَصيد
أجِلَّ لنا الصيدان: يومَ الهوى مَهًا ... ويومَ تُسَلُّ المُرْهَفاتُ أسودُ
يُحَطَّم رُمْحٌ دوننا وَمُهَنَّدٌ ... ويَقْتُلنا لَحْظٌ، ويأْسِر جِيدُ
ونحكم حتى يقبلَ الدهرُ حُكْمَنا ... ونحن لسلطان الغرام عبيد
أقول لأيام الصّبا كلَّما نأَتْ: ... أما لكَ يا عهدَ الشباب مُعيد؟
وكيف نَأَتْ والأمسُ آخرُ عهدِها؟ ... لأمْسُ كباقي الغابراتِ عهيد[11]
جَزِعْتُ، فراعتنى من الشَّيْبِ بَسْمةٌ ... كأني على دَرْبِ المشيبِ (لَبيد)
ومن عبَث الدنيا وما عبثت سدًى ... شَبَبْنا وشِبنَا والزَّمانُ وَليدُ

وقال:

هام الفؤادُ بشادنٍ ... ألِفَ الدَّلالَ على المَدى
أبْكِى، فيضحكُ ثَغْرُه ... والكِمُّ يفتحه النَّدى[12]

وقال عن شاعر تركي:

للعاشقين رِضاطَ والْـ ... ـحُسنَى، ولى هَجْرٌ وصدُّ
ذُكِروا، فكانوا سُبْحَةً ... وأنا العلامةُ، لا تُعدّ

وقال:

في مقلتيك مَصارعُ الأكبادِ ... الله في جنْبٍ بغير عِماد
كانت له كَبِدٌ، فحاق بها الهوى ... قُهِرتْ، وقد كانت من الأطواد
وإذا النفوسُ تطَوَّحَتْ في لذَّةٍ ... كانت جنايتُها على الأجسَاد
نَشْوى، وما يُسْقيْنَ إلاَّ راحتى ... وَسْنَى، وما يَطْعَمْن غير رُقادى
ضَعْفى، وكم أبْلَيْنَ من ذى قوة ... مَرْضَى، وكم أفْنَيْنَ من عواد
يا قاتلَ اللهُ العيونَ، فإنها ... في حَرِّ ما نَصْلَى الضعيفُ البادى
قاتلنَ في أجفانهنّ قلوبَنا ... فصَرَعْتَها، وسلِمْنَ بالأغماد
وصبَغْنَ من دمها الخدودَ تَنَصُّلاً ... ولِقين أرباب الهوى بسَواد

وقال:

قفْ باللَّواحظِ عندَ حّدَّكْ ... يكفيكَ فتنةُ نارِ خَدَّك
واجْعلْ لِغِمْدِكَ هُدْنَةً ... إن الحوادثَ مِلءُ غِمْدِك
وصُنِ المحاسن عن قلو ... ب لا يَدَيْنِ لها بُجنْدِك
نظرتْ إليكَ عن الفُتو ... رِ، وما اتَّقَتْ سَطَواتِ حَدَّك
أعلى رِواياتِ القَنَا ... ما كان نِسْبتُه لقّدَّك
نال العواذلُ جهدَهم ... وسمعْتَ منهم فوق جهْدك
نقلو غليكَ مقالةً ... ما كان أكْثرُها لعبدك
قسمًا بما حمَّلتنى ... فحملتُ من وَجْدِى وصَدَّك
ما بى السهامُ الكُثْر من ... جَفْنَيْكَ، لكنْ سهمُ بُعِدك

وقال:

مُضْناك جفاهُ مَرْقَدُه ... وبَكاه ورَحَّمَ عُوَّدُهُ
حيرانُ القلبِ مُعّذَّبُهُ ... مَقْروحَ الجَفْنِ مُسهَّدُه
أودَى حَرَقًا إلا رَمَقًا ... يُبقيه عليك وتُنْفِدهُ
يستهوى الوُرْق تأوُّهه ... ويُذيب الصخرَ تَنهُّدهُ

ويُناجى النجمَ ويُتعبه   ويُقيم الليلَ ويُقْعِدهُ

ويُعلِّمُ كلَّ مُطَوَّقَةٍ   شَجَنًا في الدَّوحِ تُرَدِّدهُ

كم مدّ لِطَيْفِكَ من شَرَكٍ   وتأدَّب لا يتصيَّدهُ

فعساك بغُمْضٍ مُسعِفهُ   ولعلّ خيالَك مُسعِدهُ

الحسنُ، حَلَفْتُ بيُوسُفِهِ   (والسُّورَةِ) إنك مُفَردهُ

قد وَدَّ جمالَك أو قَبَسًا   حوراءُ الخُلْدِ وأمْرَدُه

وتمنَّت كلٌّ[١٣] مُقطَّعةٍ   يَدَها لو تُبْعَثُ تَشهدُهُ

جَحَدَتْ عَيْنَاك زَكِيَّ دَمِى   أكذلك خدُّك يَجْحَدُه؟

قد عزَّ شُهودِى إذا رمَتا   فأشَرْتُ لخدَّك أشْهِدُه

وهَممتُ بجيدِك أشرَكُه   فأبَى، واستكبر أصْيَدهُ

وهزَزْتُ قَوَامَك أعْطِفهُ   فنَبا، وتمنَّع أمْلَدُه

سببٌ لرضاك أمَهِّده   ما بالُ الخصْرِ يُعَقِّدهُ؟

بينى في الحبَّ وبينَك ما   لا يَقدِرُ واشٍ يُفْسِدُه

ما بالُ العاذِلِ يَفتح لي   بابَ السُّلْوانِ وأوصِدُه؟

ويقول: تكاد تُجَنُّ به   فأقول: وأوشِكُ أعْبُده

مَوْلاىَ ورُوحِى في يَده   قد ضَيَّعها سَلِمتْ يَدُه

ناقوسُ القلب يَدُقُّ لهُ   وحنايا الأضْلُعِ مَعْبَدُه

قسماً بثنايا لؤلؤها   قسم الياقوت مُنَضَّدُه

ورُضابٍ يُوعَدُ كَوْثَرهُ   مَقتولُ العِشْقِ ومُشْهَدُه

وبخالٍ كاد يُحَجُّ له   لو كان يُقبَّل أسْوَدُه

وقَوامٍ يَرْوى الغُصْنُ له   نسَبًا، والرُّمْحُ يُفَنَّدُه

وبخَصْرٍ أوْهَنَ مِنْ جَلَدِى   وعَوَادِى الهجر تُبدَّدُه

ما خُنْتُ هواكَ، ولا خطرَتْ   سَلْوَى بالقلب تُبَرَّدُه

وقال:

بالله يا نَسَماتِ النيل في السَّحَرِ
هل عندَكُنَّ عن الأحباب مِنْ خَبرِ؟

عـرفـتـكُـنَّ بـعَـرْفٍ لا أكَـيِّـفُـه
لا فـي الـغَـوَالـى، ولا فـي الـنَّـوْرِ والـزَّهَـر

من بعض ما مسح الحسنُ الوجوهَ به
بيـنَ الـجـبيـنِ، وبيـنَ الـفَـرْقِ والـشَّـعَـر

فـهـل عَـلِـقْـتُـنّ أثـنـاءَ الـسُّـرى أرَجًـا
مـن الـغـدائـرن أو طـيـبـا مـن الـطُّـرَر؟

هِـجْـتُـنَّ لـى لَـوْعـةُ فـي الـقـلـبِ كـامـنـةً
والـجُـرْحُ إنْ تـعْـتَـرِضْـه نَـسْـمَـةٌ يَـثُـر

ذكـرتُ مـصـرَ، ومَـنْ أهـوى، ومـجـلـسَـنـا
عـلـى الـجـزيـرة بـيـن الـجـسـر والـنَّـهَـر

والـيـومُ أشْـيَـبُ، والآفـاقُ مُـذْهَـبـة
والـشـمـسُ مُـصْـفـرَةٌ تـجـرى لـمُـنْـحَـدَر

والـنـخـلُ مُـتَّـشِـحٌ بـالـغـيـم، تـحـسـبُـهُ
هِـيـفَ الـعـرائِـسِ فـي بـيـضٍ مـن الأزُر

ومـا شـجـانـىَ إلاَّ صـوتُ سـاقـيـةٍ
تـسـتـقـبـل الـلـيـلَ بـيـن الـنَّـوْح والـعَـبَـر

لـم يـتـرك الـوجـدُ مـنـهـا غـيـرَ أضْـلُـعِـهـا
وغـيـرَ دَمـعٍ كـصَـوْب الـغَـيْـثِ مُـنْـهَـمِـر

بـخـيـلـة بِـمـآقـيـهـا، فـلـو سُـئـلـتْ
جَـفْـنًـا يُـعـيـن أخـا الأشـواقِ لـم تُـعِـر

فـي لـيـلـة مـن لـيـالـي الـدهـر طـيـبـةٍ
مـحـابـهـا كـلَّ ذنـبٍ غـيـرِ مُـغْـتَـفَـر

عَـفَّـتْ، وعـفَّ الـهـوى فـيـهـا، وفـاز بـهـا
عَـفُّ الإشـارةِ، والألـفـاظِ، والـنـظـر

بـتْـنَـا، وبـاتَـتْ حَـنـانًـا حـولَـنـا ورِضًـا
ثـلاثـةٌ بـيـن سـمْـعِ الـحـبَّ والـبـصـر

لا أكـذِبُ الـلـهَ، كـان الـنـجـمُ رابـعَـنـا
لـو يُـذْكـرُ الـنـجـمُ بـعـد الـبـدر فـي خـبـر

وأنـصـفَـتْـنـا، فـظُـلـمٌ أن نُـجـازِيَـهـا
شكوى من الطول، أو شكوى من القِصَر

دَعْ بـعـدَ رِيـقَـةِ مَـنْ تـهـوَى ومَـنْـطِـقِـه
ما قيل في الكأْس، أو ما قيل في الوتر

ولا تُـبـالِ بـكـنـزٍ بـعـد مَـبْـسِـمِـه
أغـلـى الـيـواقـيـت مـا أَعْـطِـيـتَ والـدُّرَر

ولـم يَـرُعْـنِـيَ إلاَّ قـولُ عـاذِلـةٍ
مـا بـالُ أحـمـدَ لـم يَـحـلُـمْ ولـم يَـقِـر؟

هـلا تـرفَّـع عـن لَـهْـوٍ وعـن لَـعِـبٍ؟
إن الـضـغـائـرَ تُـغْـرِى الـنـفـسَ بـالـصَّـغَـر

فـقـلـتُ: لـلـمـجـد أشـعـارى مُـسَـيَّـرة
وفي غوانى العُلا — لا في المَها — وَطَرى

مـصـرُ الـعـزيـزةُ، مـا لـي لا أودِّعُـهـا
وداعَ مُـحـتـفـظٍ بـالـعـهـد مُـدَّكِـرِ

خلَّفْتُ فيـهـا القَطا ما بين ذى زَغَـبٍ
وذى تـمـائـمَ لـم يـنـهـض ولـم يَـطِـرِ

أسـلـمـتـهُـم لـعـيـون الـلـه تـحـرسُـهـم
وأسـلـمـونـى لـظـلَّ الـلـه فـي الـبـشـر

وقال:

عَرضوا الأمانَ على الخواطرْ — واستعرضوا السُّمْرَ الخواطر[١٤]
فـوقـفـتُ فـي حَـذَر، ويـأْ — بَـى الـقـلـبُ إلا أن يُـخـاطِـر
يـا قـلـب شـأْنـك والـهـوى — هـذى الـغـصـونُ وأنت طـائـر
إن الـتـى صـادتْـك تـسـ — ـعـى بالقلوب لـهـا النواظر
يـا ثـغـرهـا، أمـسـيـتُ كـالـ — ـغـوَّاص، أحْـلُـم بـالـجـواهـر
يـا لـحـظَـهـا، مَـنْ أمُّـهـا؟ — أو مَـنْ أبـوهـا فـي الـجـآذِر؟
يـا شـعـرَهـا، لا تَـسْـعَ فـي — هـتـكـى، فـشـأْنُ الـلـيـلِ سـاتـر

يـا قّـدَّهـا، حـتَّـام تـغـــ ـــدو عـاذِلاً وتـروح جـائـر؟
وبـأيَّ ذنـبٍ قـد طـعـنـــ ـــتَ حَشايَ يا قدَّ الكبائر؟

وقال:

فـي ذى الجفونِ صوارمُ الأقدار — راعـى الـبـريّةَ يا رَعاكِ الـبـارى
وكفى الحياةُ لنا حوادثَ، فافْتِنى — مَـلأَ الـنـجـومِ وعَـالَـمَ الأقـمـار
ما أنتِ في هذى الحلى إنْسِيَّة — إنْ أنتِ إلا الـشـمسُ فـي الأنـوار
زهـراء بـالأُفُـق الـذى مـن دونـه — وثْبُ النُّهـى، وتـطَـاوُلُ الأفـكـار
تتهتّكُ الألبابُ خَلْفَ حجابها — مهما طلَعتِ، فكيف بالأبصار؟
يا زينة الإصباحِ والإمساءِ، بل — يـا رَوْنَـقَ الآصـال والأسـحـار
ماذا تحاول من تنائينا النَّوى؟ — أنتِ الدُّنى وأنا الخيالُ السارى
ألقى الضُّحى ألفاكِ، ثم من الدّجى — سـبُـلٌ إلـيـك خَـفـيَّـةُ الأغـوار
وإذا أنِسْتُ بـوحـدتـى فـلأنـهـا — سببى إليكِ، وسُلَّمِن ومَنارى
إيهٍ زمانى في الهوى وزمانَها — ما كنتما إلا النَّميرَ الجارى
مُتسَلسلا بين الصبابة والصبَّا — مُـتـرَقـرِقًـا بـمـسـارحِ الأوْطـار
نظر الفراقُ إليكما، فطواكما — إن الـفـراق جَـهَـنَّـمُ الأقـدار

وقال:

لـك أن تـلـومَ، ولـي مـن الأعـذار — إن الـهـوى قَـدَرٌ مـن الأقـدار
ما كنتُ أسْلَمُ للعيون سلامتى — وأبـيـحُ حـادثـةَ الـغـرام وَقـارى
وطَرٌ تَعَلَّقَه الفؤادُ وينقضى — والـنـفـسُ مـاضـيـةٌ مـع الأوطـار
يا قلبُ، شأْنَك، لا أَمُدُّك في الهوى — أبـدا، ولا أدعـوك لـلإقـصـار
أمرى وأمرُك في الهوى بيدِ الهوى — لـو أنـه بـيَدِى فـككْتُ إسـارى
جارِ الشبيبةَ، وأنتفع بجوارها — قبلَ المشيب، فما له من جار
مَثَلُ الحياة تُحَبّ في عهد الصبَّا — مَثَلُ الرياضِ تـحَبُّ فـي آذار[١٥]
ابدًا (فروقُ) من البلاد هي المنى — ومـنـايَ مـنـهـا ظـبـيـةٌ بـسِـوار

ممنوعةٌ إلا الجمالَ بأَسْره — محجوبةٌ إلاَّ عن الأنظار
خُطُواتُها التقوى، فلا مَزْهُوَّةٌ — تمشى الدَّلال، ولا بذات نِفار
مرّتْ بنا فوق الخليج، فأسفرتْ — عن جَنّة، وتلفتت عن نار
في نِسْوَةٍ يُورِدْنَ مَنْ شِئْن الهوى — نظرًا، ولا ينظرْن في الإصدار
عارضتُهنّ، وبين قلبى والهوى — أمرٌ أحاول كتْمَه وأدارى

وقال:

أتغلبنى ذاتُ الدلالِ على صبرى؟[١٦] — إذن أنا أولى بالقناع وبالخِدْر
تتِيهُ، ولى حِلمٌ إذا ما ركِبتُه — رددتُ به أمرَ الغرامِ إلى أمرى
وما دَفْعِىَ اللُّوّامَ فيها سآمةٌ — ولكنّ نفسَ الحرّ أزجرُ للحرّ
وليلٍ كأنّ الحشْرَ مطلعُ فجرِه — تراءَتْ دموعي فيه سابقةَ الفجر
سرَيْتُ به طيفًا إلى مَنْ أحِبُّها — وهل بالسُّها في حُلَّةِ السُّقمِ من نُكر
طرقْتُ حِماها بعدَ ما هبّ أهلُها — أخوضُ غِمارَ الظنَّ والنظرِ الشزْر
فما راعنى إلاَّ نساءٌ لَقينَنى — يبالِغن في زَجْرى، ويُسر فن في نَهرى
يقلْن لمن أهوى وآنَسْنَ ريبةً: — نرى حالةً بين الصَّبابة والسّحر
إليكنّ جاراتِ الحمى عن ملاَمتى — وذَّرْنَ قضاءَ الله في خَلْقه يجرى
وأحْرَجنى دمعى، فلما زجرتُه — رددتُ قلوبَ العاذِلاتِ إلى العُذْر
فساءَلْنها: ما اسمى؟ فسَّتْ، فجئننى — يَقُلْنَ: أمانًا للعذارى من الشَّعر
فقلتُ: اخافُ الله فِيكُنَّ، إننى — وجدتُ مقالَ الهُجْر يُزْرَى بأن يُزْرِى
أخذتُ بحَظٍّ من هواها وبينِها — ومَنْ يَهْوَ يَعْدِلْ في الوصال وفي الهجر
إذا لم يكن للمرءِ عن عيشةٍ غِنىً — فلا بدّ من يُسر، ولا بد من عُسر
ومن يخبُرِ الدنيا ويشربُ بكأْسها — يجدْ مُرَّها في الحلو، والحلوَ في المرّ
ومن كان يغزو بالتَّعِلاّت فقرَه — فإنى وجدتُ الكَدَّ أقتلَ للفقر
ومن يستعنْ في أمرِه غيرَ نفسه — يَخُنْه الرفيقُ العون في المسلك الوعْر
ومن لم يُقم سترًا على عيبِ غيره — يعِش مستباحَ العِرْضِ، مُنْهَتِكَ السّتر
ومن لم يُجمَّل بالتواضع فضلَه — يَبِنْ فضلُه عنه، ويَعْطَلْ من الفخر

وقال:

قلبٌ يذوب، ومدمعٌ يجرى   ياليلُ، هل خبرٌ عن الفجر
حالت نجومُك دون مطلعه   لا تبتغى حِوَلاً، ولا يسرى
وتطاولَتْ جُنْحًا، فخُيَّل لى   أن الصباحَ رهينةُ الحشر
ارسيتَها وملكتَ مذهبَها   بدُجُنَّةٍ كسريرة الدّهر
ظُلُمٌ تَجئُ بها وتُرجعُها   والموجُ منقلبٌ إلى البحر
ليت الكرى (موسى) فيُوردَها   (فِرْعَون) هذا السُّهد والفِكر

* * *

ولقد أقول لهاتفٍ سحرًا   يَبكى لغير نَوًى ولا أسْر
والروضُ أخرسُ غيرَ وسوسةٍ   خَفَقَ الغصونِ، وجِرْية الغُدْر
والطيرُ ملْءُ الأيْكِ، أرؤُسُها   مثلُ الثمار بدت من السَّدْر
ألقى الجناحَ، وناءَ بالصدر   ورَنا بصَفْرَاويْن كالتَّبر
كلَم السهادُ بيوتَ هدْبهما   وأقام بين رُسومِها الحُمْر
تهدَا جوانِحه، فتحسبهُ   من صَنْعة الأيدى أو السَّحْر
وتثور، فهْوَ على الغصون يَدٌ   عَلِقتْ أنامِلُها من الجمر

* * *

يا طيرُ، بُثَّ أخاك ما يَجرى   إنَّا كِلانا مَوْضِعُ السَّر
بى مثلُ ما بِك من جَوًى ونوًى   أنا في الأنام، وأنتَ في القُمْر[١٧]
عَبث الغرامُ بنا وروّعنا   أنا بالمَلام، وأنت بالزّجْر
يا طيرُ، لا تجزَعْ لحادثةٍ   كلُّ النفوسِ رهائنُ الضرّ
فيما دهاك لو أطّلعتَ رضًى   شرٌّ أخفُّ عليك من شَرّ
يا طيرُ، كَدْرُ العيشِ لو تدرى   في صفوه، والصْفوُ في الكَدْر
وإذا الأمورُ استصعِبتْ صَعُبَتْ   ويهون ما هوّنتَ من أمْر
يا طيرُن لو لُذنا بمصْطَبَرٍ   فلعلّ رُوحَ اللهِ في الصَّبْر
وعسى الأمانُّى العِذابُ لنا   عونٌ على السلوان والهجر

وقال:

بَدَأَّ الطيفُ بالجميلِ وزّارا ... يا رسولَ الرِّضى وُقِيتَ العِثارا
خذ من الجفن والفؤاد سبيلا ... وتَيَمَّمْ من السُّوَيْداءِ دارا
أنت إن بتَّ في الجفون فأهلٌ ... عادةُ النورِ ينزل الأبصارا
زار، والحربُ بين جفني ونومي ... قد أعدّ الجُّجى لها أوزارا
حَسَنٌ يا خَيالُ صُنْعُك عندي ... أجملُ الصنعِ ما يُصيبُ افتقارا
ما لربَّ الجالِ جارَ على القلـ ... ـبِ، كأن لم يكن له القلبُ جارا؟
وأرَى القلبَ كلما ساءَ يَجزيـ ... ـه عن الذنب رقَّةً واعتذارًا
أجريحُ الغرامِ يطلب عطفًا ... وجريحُ الأنام يطلب ثارا؟
أيها العاذلون، نِمتم، ورام السُّـ ... ـهدُ من مقلتيَّ أمرًا، فصارا وأذى النصحِ
آفةُ النُّصحِ أن يكونَ لَجاجًا ... أن يكون جِهارا
ساءَلْتني عن النهار جفوني ... رحِمَ الله يا جفوني النهارا
قلن: نَبكيه؟ قلت: هاتي دموعًا ... قلْن: صبرًا، فقلت: هاتي اصطبارا
يا ليالِيَّ، لم أجِدْكِ طِوالاً ... بعد ليلى، ولم أجِدْك قِصارا
إن مَنْ يحملُ الخطوبَ كِبارًا ... لا يُبالي بحملهن صِغارا
لم نُفِقْ منك يا زمانُ فنشكو ... مُدْمنُ الخمر لا يُحِسِ الخُمارا
فاصرف الكأْسَ مُشفِقًا، أو فواصِلْ ... خرج الرشدُ عن أكُفَّ السُّكارى

وقال:

أبثُّك وَجْدي يا حَمامُ، وأودِعُ ... فإنك دونَ الطَّيرِ للسرَّ مَوْضِعُ
وأنت مُعينُ العاشقين على الهوى ... تئِنُّ فُنصْغِي، أو تحنُّ فنَسْمَع
أراك يَمانِيّا، ومصرُ خميلتي ... كلانا غريبٌ، نازحُ الدارِ، مُوجَع
هما اثنان: دانٍ في التغرُّب آمنٌ ... وناءٍ على قربِ الديار مُرَوع
ومن عجبِ الأشياءِ أبكي وأشتكي ... وأنت تُغَنَّى في الغصونِ وتَسْبجَع
لعلك تُخفي الوجدَ، أو تكتُم الجَوى ... فقد تُمْسِك العينان والقلبُ يَدْمَع
شجاكَ صِغارٌ كالخُمانِ ومَوْطِنٌ ... نَدٍ مثلُ أيامِ الحَداثَةِ مُمْرِعُ

إذا كان في الآجال طولٌ وفسحةٌ ... فـمـا الـبـيـنُ إلا حـادثٌ مُـتَـوَقَّـع

ومـا الأهـلُ والأحـبـابُ إلاَّ لآلِـىءٌ ... تُـفـرَّقُـها الأيامُ، والسَّـمْطُ يـجـمـع

أمُنـكِرَتـى، قـلـبى دلـيل وشـاهـدى ... فـلا تُـنـكـريـه، فـهْـو عـنـدَكِ مُـودَع

أسيُرِكِ، لو يُفْدَى فَدَتْه يجمعها ... جـوانـحُ فـي شـوقٍ إلـيـه وأضْـلُـع

رماه إليكِ الدهرُ من حالِقِ الهوى ... يُذالُ على سفح الهوانِ ويُوضَـع

ومن عجبٍ، يأْسَى إذا قلت: مُتْعَبٌ ... ويطرَبُ إن قلت: الأسيرُ المُمنَّـع

لـقـيـتِ عـلـيمًا بـالـغـوانـي، وغـنـمـا ... هو القلبُ، كالإنسانِ يُغرَى ويُخْدَع

وأعلم أن الغدرَ في الناس شائعٌ ... وأن خـلـيـلَ الـغـانـيـاتِ مُـضـيَّـع

وأن نِـزاعَ الـرُّشـد والـغَـىَّ حـالـةٌ ... تـجـىءُ بـأحـلامِ الـرَّجـال وتَـرْجـع

وأنَّ أمـانـىَّ الـنـفـوسِ قـواتـلٌ ... وكثرتُها من كثرة الزَّهرِ أصْرَع

وأن دُعاةَ الخير والحقَّ حربُهم ... زمانٌ بهم من عهد سُقْراطَ مُولَع

وقال:

تـأْتِـى الـدَّلالّ سـجـيَّـةً وتـصـنُّـعـا ... وأراك فِـى حـالَـىْ دَلالِـكَ مُـبْـدِعـا

تِهْ كيف شئت، فما الجمالُ بحاكم ... حتى يُطاع على الدلال ويُسْمَعا

لك أن يُرَوِّعَك الوشاةُ من الهوى ... وعـلـىّ أن أهـوى الـغـزالَ مُـروَّعـا

قالوا: لقد سَمِع الغزالُ لمن وشَى ... وأقول: ما سَمع الغزالُ، ولا وعَى

أنا مَنْ يحبُّك في نِفارك مؤنسًا ... ويُحبُّ تِيهَكَ في نِفاركَ مطمعا

قـدّمـتُ بـيـن يـدىَّ أيـامَ الـهـوى ... وجـعـلـتُـهـا أمـلاً عـلـيك مُـضـيَّـعـا

وصدقتُ في حبَّى، فلست مُباليًا ... أن أمْـنَـحَ الـدُّنـيـا بـه أو أمْـنَـعـا

يا مَنْ جرى من مُقلتيْهِ إلى الهوى ... صرِفًا، ودار بوَجنتيْه مُشَعْشَعًا[١٨]

الـلـه فـي بـكـدٍ سَـقَّـيـتَ بـأربَـع ... لو صبَّحوا (رضْوى) بها لتصدّعا[١٩]

وقال:

رُدَّت الروحُ على المُضْنَى معكْ ... أحـسـنُ الأيـام يـومٌ أرجَـعَـك

مَـرَّ مـن بُـعـدِك مـا رَوَّعَـنـى ... أتُرى يا حُلْوُ بُعدى روّعك؟

كم شكوتُ البيْن بالليل إلى	مَطلع الفجر عسى أن يُطْلِعَك
وبعثتُ الشوقَ في ريح الصبَّا	فشكا الحُرقةَ مما اسْتودَعك
يا نعيمي وعذابي في الهوى	بعذولي في الهوى ما جَمَعَك؟
أنت روحي. ظَلَم الواشى الذي	زَعَم القلبَ سَلا، أو ضيَّعَك
مَوْقِعى عندَك لا أعلمُه	آهِ لو تعلمُ عندى موقِعَك!!
أرْجفوا أنك شاكٍ مُوجَعٌ	ليت لي فوق الضَّنا ما أوجعك
نامت الأعينُ. إلا مُقلة	تسكُب الدمَع، وترعى مضجَعك

وقال مشطَّرًا حيث اجتمع بعض الأدباءِ في مجلس، فذكر أحدهم بيتًا للبَهاءِ زهير وهو:

يقول أناسٌ: لو وصفت لنا الهوى	فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف؟

فقال:

يقول أناسٌ: لو وصفت لنا الهوى	لعل الذي لا يعرفُ الحبَّ يَعرف
فقلت: لقد ذُقْتُ الهوى، ثم ذُقْتُهُ	فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف؟

وقال:

علَّموه كيفَ يجفو جفا	ظالمٌ لا قيْتُ منه ما كفى
مسرفٌ في هجرِهِ ما ينتهى	أتُراهم علَّموه السَّرَفا؟
جعلوا ذنبى لديَّه سَهَرى	ليتَ بَدْرِى إذ دَرَى الذنبَ عفا
عرف الناسُ حقوقى عنده	وغريمي ما درى، ما عَرفا
صحّ لي في العمرِ منه موعِدٌ	ثم ما صدَّقتُ حتى أخلفا
ويرى لي الصبَر قلبٌ ما دَرى	أنّ ما كلفنى ما كلفا
مُستهامٌ في هواه مُدْنَفٌ	يترضَّى مستهامًا مُدنَفًا
يا خليلىّ، صِفا لي حيلة	وأرى الحيلةَ أن لا تَصِفا
أنا لو ناديتُه في ذِلَّةِ	هي ذي روحي فخذها، ما احتفى

وقال:

جـئْـتَـنَـا بـالـشـعـورِ والأحـداقِ وقسمن الحظوظَ في العشاقِ
وهَـزَزْنَ الـقَـنـا قُـدودًا، فـأَبـلـى كل قلبٍ مُستضعَفٍ خَفَّاقِ
حبذا القسمُ في المحبين قِسمى لو يلاقون في الهوى ما أُلاقى
حيلتى في الهوى وما أتمنى حيلة الأذكياءِ في الأرزاق
لو يُجازَى المحبُّ عن فَرْطِ شوْقٍ لَجُزيتُ الكثيرَ عن أشواقي
وفتاةٍ ما زادها في غريبِ الـ ـحسن إلا غرائب الأخلاق
ذقت منها حلوًا ومرًّا، وكانت لذّةُ العشق في اختلاف المذَاق
ضربَتْ موعدًا، فلما التقينا جانبتني تقول: فِيَم التلاقي؟
قلت: ما هكذا المواثيقُ، قالت: ليس للغانياتِ من ميثاق
عَطَفتْها نَحافتي، وشجاها شكافعٌ بادرٌ من الآماق
فأرتني الهوى، وقالت: خَشِينا والهوى شُعبةٌ من الإشفاق
يا فتاةَ العراقِ، أكتُم مَنْ أنـ ـتِ، وأكنِى عن حبَّكم بالعراق
لي قوافٍ تَعِفُّ في الحبٌ إلا عنْكِ، سارت جوائَب الآفاق
لا تَمنَّى الزمانُ منها مزيدًا إن تمنيتُ أن تفكَّى وَثاقي
حمليني في الحبَّ ما شئتِ إلاَّ حادثَ الصدٌ، أو بلاءَ الفراق
واسمحي بالعناق إ رضى الدّلُّ وسامحت فانيًا في العناق

وقال:

مُضْنًى وليس به حَراكْ لكنْ يخِفُّ إذا رآكْ
ويَميل من طربٍ إذا ما مِلْتَ يا غصنَ الأراك
إن الجمالَ كساك من ورَق المحاسن ما كساك
ونبَتَّ؟ بين جوانحى والقلبُ من دَمِه سقاك
حُلوَ الوعودِ، متى وفاك؟ أتُراكَ مُنْجزَها تُراك؟
من كلَّ لفظٍ لو أذِنـ ـتَ لأَجله قبَّلتُ فاك
أخذَ الحلاوةَ عن ثَنا ياك العِذَاب، وعن لَمَاك

ظلمًا أقول: جَنَى الهوى — لـم يـجْـنِ إلا مُـقـلْـتـاك
غـدَتـا مـنِـيَّـةَ مَـنْ رَأيْــ — ـتَ، ورُحْتَ مُنْيَةَ منْ رآك

وقال:

فـدَاتْكَ الـجـوانـحُ مـن نـازلِ — وأهـلاً بـطـيْـفـكَ مـن واصـلِ
بَذلت له الجفنَ دون الكرى — ومَنْ بالكرى للشجِى الباذِل؟
وقـلـت: أراك بـرغـم الـعـذول — فـنـابَ الـسُّـهـادُ عـن الـعـاذل
فوَيْحَ المتيَّمِ!! حتى الخيالُ — إذا زارَ لـم يَـخْـلُ مـن حـائـل
يَـحِـنُّ غـلـيـك ضـلـوعٌ عَـفَـتْ — من البيْن في جَسَدٍ ناحل
وقـلـبٌ جَـوٍ عـنـدهـا خـافـقٌ — تـعَـلَّـقَ بـالـسَّـنـدِ الـمـائـل
ومِنْ عَبَثِ العشقِ بالعاشقين — حـنـينُ الـقـتـيل إلـى الـقـاتـل
غفلتُ عن الكأْسِ حتى طغت — ولـى أدبٌ لـيـس بـالـغـافـل
وشَفَّتْ، وما شفَّ منى الضميرُ — وأيـن الـجـمـاد مـن الـعـاقـل؟
يَـظَـلُّ نَـدِيـمـىَ يُـسْـقَـى بـهـا — ويشربُ من خُلُقى الفاضل
أبــدّدُهــا كــرمًــا كــلــمــا — بـدَتْ لَـى كـالـذهـب الـسـائـل

وقال:

لامَ فـيـكـم عـذولُـه وأطـالا — كمْ إلى كمْ يُعالج العُذَّالا؟
كلّ يوم لـهـم أحـاديثُ لَوْمٍ — بـدأتْ راحـةً، وعـادتَ مَـلالا
بعثت ذكرَكم، فجاءَتِ خِفافًا — واقتضت هجَركم، فراحت ثقالا
أيـهـا الـمُـنـكِـرُ الـغـرامَ عـلـيـنـا — حَسْبُكَ اللهَ، قد جَحدت الجمالا
آيـةُ الـحـسـن لـلـقـلـوب تـجلَّـت — كيف لا تعشق العيون أمتثالا؟
لكَ نُصحى، وما عليكَ جِدالى — آفةُ النصحِ أن يكون جدالا
وهَـب الـرشـدَ أنـنـى أنـا أسـلـو — ما من العقل أن تَروم محالا

وقال:

بات المعنَّى والدجى بيتلى والبَرْحُ لا وانٍ وما مُنجَلى
والشُّهْبُ في كلَّ سبيلٍ له بموقف اللوَّام والعُذَّل
إذا رعاها ساهيًا ساهرًا رَعيْنَهُ بالحَدَق الغُفَّل
يا ليلُ، قد جُرْتَ، ولم تعدِلٍ وما أنت يا أسودُ إلاَّ خَلِي
تالله لو حُكِّمْت في الصبح أن تفعل أحجمْتَ فلم تفعل
أوشِمَتَ سيفًا في جيوش الضحى ما كنتَ للأعداءِ ما أنت لي
ابِيتُ أسقَى ويُدير الجوى والكأْسُ لا تفْنى ولا تمتلى
الخّدُّ من دمعى ومن فَيضه يشرب من عين ومن جَدْول
والشوقُ نارٌ في رَماد الأسَى والفكرُ يُذكِى، والحشَا يَصطلى
والقلب قَوّامٌ على أضْلُعي كأنه الناقوسُ في الهيكل

وقال:

أنا إن بذلتُ الروحَ كيف ألامُ لمّا رَمَتْ فأصابَتِ الآرامُ؟
عَمَدَتْ إلى قلبى بسهمٍ نافذٍ فيه لمحتومِ القضاءِ سِهام
يا قلبُ، لا تجزع لحادثة الهوى واصبِر، فما للحادثاتِ دَوام
عرَفَتْ قلوبُ الناس قبلكَ: ما الجوى؟ وأذاقَها قدرٌ له أحكام
تجرى العقولُ بأَهلها، فإذا جرى كبَتِ العقولُ وزلَّتِ الأحلام
ما كنتُ أعلمُ — والحوادثُ جَمَّةٌ — أن الحوادثَ مُقْلَةٌ وقَوام
جَنيَا على كبدى وما عرَّضتُها كبدى، عليكِ من البرئ سلام
ولقد أقولُ لمن يَحُثّ كُنُوسَها قعدتْ كُئُوسُك والهمومُ قِيام
لم تجرِ بين جوانحى إلاَّ كما جرَتِ الدِنان بها وسال الجَام

وقال:

هل تَيَّمَ البانُ فؤادَ الحَمام فناح فاستْبكى جفونَ العمام؟
أم شَفَّه ما شفَّنى فانثنى مُبَلْبَلَ البالِ شريدَ المنام؟

يَـهُـزُّه الأيـكُ إلـى إلـفـه ... هَزَّ الفِراشِ المُدْنَفَ المستهام
وتُـوقِـدُ الـذكـرى بـأحـشـائـه ... جمرًا من الشوق حثيثَ الضَّرام
كذلك الـعـاشـقُ عند الدجـى ... يا لـلـهوى مما يثير الظلام!
لـه إذا هـبَّ الـجـوى صَـرْعـةٌ ... من دونها السحرُ وفعلُ المدام
يا عـادِيَ البينِ، كفى قسوةً ... روّعتَ حتى مُهجات الحَمام
تلك قلوب الطيرِ حَمَّلْتَها ... ما ضعفتْ عنه قلوبُ الأنام
لا ضرب المقدورُ أحبابنَا ... ولا أعادينا بهذا الحُسام
يا زمنَ الوصل، لأنت المنى ... ولـلـمُنى عِقْد، وأنت النظام
لله عيشٌ لي وعيشٌ لها ... كنتَ به سمحًا رخِيَّ الزِّمام
وأنسُ أوقاتٍ ظفرنا بها ... في غلفة الأيام، لو دُمْتَ دام
لكنه الدهرُ قليلُ الجَدَى ... مُضيعُ العهدِ، لئيمُ الذِّمام
لو سامَحَتْنا في السلام النَّوَى ... لطال حتى الحشرِ ذاك السلام
ولا نْقضَى العمران في وقفة ... نسلو بها الغمضَ ونسلو الطعام
قالت وقد كاد يَميد الثرى ... من هَدَّةِ الصبر وهَوْلِ المقام
وغابت الأعينُ في دمعها ... ونالت الألسن إلاَّ الكلام:
يا بينُ، وَلَّى جَلدى فاتَّئِدْ ... ويا زماني، بعضُ هذا حرام
فقلت والصبرُ يجارى الأسى ... واللبُّ مأخوذٌ، ودمعي انسجام:
إن كان لي عندك هذا الهوى ... بِأَيَّمَا قلت كتمت الغرام

وقال:

صريعُ جفنيك ينفى عنهما التهما ... فما رميت ولكن القضاءَ رمى
الله في روح صَبٍّ يَغشيان بها ... مَوارِدَ الحتْفِ لم ينقل لها قدما
وكُفَّ عن قلبه المعمودِ نَبْلَهما ... أليس عهدُك فيه حبَّةً ودما؟
سلو غزالاً غزا قلبى بحاجبه ... أما كفى السيفُ حتى جرّد القلما؟
واستخبِروه: على كم نارُ جَفْوَتِه؟ ... أما كفى ما جنت نارُ الخدودِ أما؟
واستوهبوه يدًا في ا لعمر واحدةً ... ومَهَّهوا عُذْرَه عنى إذا حرما
ولا تَروْا منه ظلمًا أن يُضيَّعني ... من ضيَّع العَرَ المملوكَ ما ظلما

وقال:

ذاد الكرى ن مقلتيك حمامُ — لبّاه شوقٌ ساهرٌ وغرام
حيرانُ، مشبوبُ المضاجِع، ليلُه — حربٌ، وليلُ النائمين سلام
بين الدّجى لكما وعاديةِ الدّجى — مهجٌ تُؤلَّفُ بينها الأسقام
تتعاونان، وللتعاون أمَةٌ — لا الدهرُ يخذلها ولا الأيام
يا أيها الطيرُ الكثيرُ سميرهُ — هل ريشةٌ لجناحه فيُقام؟
عانقت أغصانًا، وعانقتُ الجوى — وشكوتَ، والشكوى عليَّ حرام
أمُحَرَّمَ الأجفانِ إدناءَ الكرى — يَهْنِيكَ ما حرَّمتْ حين تنام
حاوَلْن منه إلى خيالك سُلَّما — لو سامَحَتْ بخيالك الأحلام
فأْذَنْ لِطَيْفِك أن يُلِمَّ مُجامِلاً — ومُؤمَّلٌ من طيفك الإلمام

وقال:

شغلَتْه أشغالٌ عن الآرام — وقضى اللُّبانةَ من هوًى وغرامِ
ومَضَى يجرُّ على الهوى أذيالَه — ويلومُ حاملَه مع اللوَّام
ويذُمُّ عهدَ الغانياتِ كناقِةٍ — بعد الشِفاءِ يذمُّ عهدَ سَقام
لا تعجلَنَّ وفي الشباب بقيَّةٌ — إن الشبابَ مَزَلَّة الأحلام
كانت إنابتُك المُريبَةُ سَلْوة — نسجَتْ على جْرحٍ بجنبك دامى
إن الذي جعل القلوبَ أعِنَّةً — قاد الشبيةَ للهوى بزمِام
يا قلبَ أحمدَ — والسَّهامُ شديدةٌ — ماذا لقِيتَ من الغزال الرامي؟
تَدْرى، وتسألني تجاهلَ عارفٍ: — أرَنَا بعينٍ أم رمَى بسهام؟
ما زلتَ تركَبُ كلَّ صعبٍ في الهوى — حتى ركبْتَ إلى هواك حِمامى
وإذا القلوبُ استرسلت في غَيَّها — كانت بليَّتُها على الأجسام

وقال:

به سِحْرٌ يُتَيَّمُهُ — كلا جَفْنَيْكَ يَعْلَمُهُ
هما كاد لمهجتهِ — ومنكَ الكيدُ مُعظَمُه

تـعـذَّبـه بـسـحـرهـمـا وتُـوجِـدُه، وتُـعِـدمـه
فـلا هَـارُوتَ رَقَّ لـه ولا مَـارُوتَ يَـرْحَـمُـه
وتَـظلِـمُـه فـلا يـشـكـو إلـى من لـيس يَظلِـمه
أسـرَّ، فـمـاتَ كـتـمانًـا وبـاح، فـخـانـه فـمُـه
فويْحَ المُدنَفِ المعمـ ـودِ حتى البثُّ يُحرَمه
طويلُ الليل، ترحمُه هـواتِـفُـه وأنـجُـمـه
إذا جـدّ الـغَـرامُ بـه جَرى فـي دَمعِه دمُه
يكاد لطول صحبتِه بعادِى السُّقْم يُسقُمه
ثَـنَـى الأعـنَـاقَ عُـوَّدُه وألـقـى الـعـذرَ لُـوَّمُـه
قضى عشقًا سوى رَمَقٍ إلـيـكَ غـدًا يـقـدِّمـه
عسى إن قيل: ماتَ هوًى تـقـول: الـلـه يـرحـمُـه
فـتـحـيـا فـي مَراقِـدها بـلـفـظٍ منـكَ أعْـظُـمُـه

* * *

بروحي البانُ يومَ رَنا عن المقدورِ أعْصَمُه
ويومَ طُعِنْتُ من غُصُن مُـعَـلَّـمُـه مُـنَـعَّـمُـه
قـضـاءُ الـلـه نـظـرتُـه ولـطـفُ الله مَبْسِمُه
رمى، فاستهدفَتْ كبدى بَـى الـرّامـي وأسْـهـمُـه
لـه مـن أضـلُـعـي قـاعٌ ومـن عَـجَـبٍ يـسـلـمـه
ومـن قـلـبـى وحَـبَّـتِـه كِـنـاسٌ بـات يَـهْـدِمُـه
غزالٌ في بدايه التَّيـ ـهُ بينَ الغِيدِ يَقْسِمُه

وقال:

مَنْ صَوَّرَ السَّحْرَ المُبينَ عيونا وأحـلَّـه حَـدقًـا لـهـا وجـفـونـا؟
نَظرتْ، فحُلْتُ بجاني، فاستهدفَتْ كبدى، وكان فؤادى المغْبونا
ورَمَتْ بسـهـم جال فيه جَوْلَةً حتى استقرّ، فَزَنَّ فيه رَنينا
فلَمَسْتُ صدرى مُوجسًا ومُرَوَّعًا ولَمَستُ جَنْبى مُشْفِقًا وضَنِينا

يا قلبُ، إن من البَواتر أعْيُناً سُوادًا، وإنّ من الجآذِر عِينا
لا تأخذنّ من الأمور بظاهرٍ إنّ الظواهرَ تَخْدعُ الرائينا
فلكم رَجَعتُ من الأسِنّة سالمًا وصدرْتُ عن هِيفِ القدودِ طَعِينا
وخَميلةٍ فوق الجزيرة مَسَّها ذَهَبُ الأصيلِ حواشيًا ومتُونا
كالتَّير افْقًا، والزَّبرْجدِ رَبْوَة والمِسْكِ تُرْبًا، واللُّجَيْن معِينا
وقف الحيا من دونها مُسْتَأْذَناً ومشى النسيمُ بظلَّها مأْذونا
وجرى عليها النيلُ يَقْذفُ فضَّة نثرًا، ويَكسِر مَرْمَرًا مَسْنونا
يُغرى جواريَهُ بها، فَيجئْنها ويُغِيرُهُنَّ بها، فيَستَعْلِينا
راع الظلامُ بها أوانسَ تَرْتَمِي مثلَ الظباءِ من الرُّبى يَهوينا
يخطرُن في ساح القلوب عواليًا ويَملْنَ في مَرْأى العيون غصُونا
عِفْنَ الذيولَ من الحرير وغيره وسَحَبْنَ ثَمَّ الآسَ والنَّسْرينا
عارضتُهن ولي فؤادٌ عُرْضةٌ لهوى الجآذرِ دانَ فيه ودِينا
فنظرن لا يَدرين: أذْهبُ يَسْرَةً فيَجِدْنَ عَنّى، أم أميلُ يمينا؟
ونَفَرْنَ من حَوْلي وبينَ خبائلي كالسَّرب صادفَ في الرَّواح كَمِينا
فجمعتُهن إلى الحديثِ بداتُه فغضبن، ثم أعدته فرضينا
وسمعتُ من أهوى تقول لِترْبها: أحْرَى بأحمدَ أن يكون رزينا[٢٠]
قالت: أراه عندَ غايةِ وَجْدِه فلعلَّ ليلى ترحمُ المجنونا

* * *

أذْعنَ للحُسن عَصِيُّ العِنانْ وحاولتْ عيناك أمْرًا فكان
يعيش جفناك لَبثَّ المُنى أو الأسى في قلب راحٍ وعان
يا مُسرفًا في التَّيهِ ما ينتهى أخافُ أن يَفْنى علينا الزمان
ويا كثيرَ الدَّلّ في عِزَّه لا تنس لي عزَّى قُبَيْلَ الهَوان
ويا شديدَ العُجْبِ، مهلاً، فما مِنْ مُنكرٍ أنك زينُ الحِسان

وقال:

يا حسنَه بين الحِسانْ في شكله إن قيل: بانْ

كالبدرِ تأخذه العيو   نُ وما لهنّ به يَدان
مَلك الجوانحَ والفؤا   دَ ففي يديه الخافقان
ومناىَ منه نظرةٌ   فعسى يُشير الحاجبان
فعَسى يُزَكَّى حُسْنَه   مَنْ لا لَه في الحسن ثان
فدعوه يَعْدِلُ أو يَجو   رُ، فإنه مَلكَ العِنان
حَقَّ الدلالُ لمن له   في كل جارحة مكان

وقال:

يا ناعمًا رقدت جُفونُه   مُضناكَ لا تهدا شُجونُه
حملَ الهوى لك كلَّه   إن لم تُعنْه فَمَنْ يُعِينُه؟
عُدْ مُنْعِمًا، أو لا تَعُدْ   أوْدَعْتَ سرَّكَ مَنْ يصُونُه
بيني وبينكَ في الهوى   سببٌ سيجمعُنا مَتينه
رشأ يُعابُ الساحرو   ن وسحرهُم، إلاَّ جفونُه
الروحُ مِلْكُ يمينه   يَفدِيه ما مَلَكَتْ يَمِينهُ
ما البانُ إلاَّ قدُّه   لو تَيَّمَتْ قلبًا غصونُه
ويزينُ كلَّ يتيمة   فمُه، وتحسبُهَا تَزينُه
ما العمرُ إلا ليلةٌ   كان الصباحَ لها جَبيُنه
بات الغراُ يَدينُنا   فيها كما بتنا ندينه
بين الرقيب وبيننا   وادٍ تُباعدُه حُزونُه
نَغْتَابُه، ونقول: لا   بَقِى الرقيبُ ولا عيونُه

وقال:

صحا القلبُ، إلاَّ من خُمارِ أمانى   يجاذبُني في الغِيدِ رَثَّ عِناني
حَنانيْكَ قلبى، هل أعيدُ لك الصبَّا؟   وهل للفَتى بالمستحيل يَدان؟
تحنُّ على ذاكَ الزمانِ وطيبِه   وهل أنتَ غلا من دم وحَنان؟
إذا لم تصُن عهدًا، ولم تَرعَ ذمةً   ولم تدَّكِرْ إلْفا، فلستَ جَناني

أتذكر إذ نُعْطِى الصَّبابة حقَّها ... ونشربُ من صرفِ الهوى بِدنان؟
وأنتَ خَفوقٌ، والحبيبُ مباعدٌ ... وأنت خفوقٌ، والحبيبُ مدان؟
وأيامَ لا آلو رِهانًا مع الهوَى ... وأنتَ فؤادي عند كل رِهان
لقد كنتُ أشكو من خُفوقِك دائبًا ... فولَّى، فيا لهفي على الخفقان
سقاكَ التَّصابي بعد ما علَّك الصَّبَا ... فكيف ترى الكأسين تختِلفان؟
وما زلتُ في رَيْعِ الشباب، وإنما ... يشيبُ الفتى في مصرَ قبلَ أوان
ولا أكذبُ البارى، بني الله هيكلى ... صنيعة إحسانٍ، ورِقَّ حِسان
أدينُ إذا اقتادَ الجمالُ أزمّتى ... وأعنو إذا اقتادَ الجميلُ عِنانى

وقال:

اللهَ في الخلق من صَبٍّ ومن غانِى ... تفنى القلوبُ ويَبقى قلبُكِ الجاني
صونِى جمالَكِ عنّا إنَّنا بَشَرٌ ... من التراب، وهذا الحسنُ روحاني
أو فابتِغى لَلَكا تأْوينَه مَلَكًا ... لم يتَّخِذ شَرَكًا في العالم الفاني
يَنساب في النور مَشغوفًا بصورته ... مُنعَّمًا في بديعاتِ الحُلَى هاني
إذا تبسّم أبدى الكونُ زينتَه ... وإن تنفّس أهدى طِيبَ رَيْحان
وأشرقى من سماءِ العزِّ مُشْرِقةً ... بمنظَرٍ ضاحكِ اللآلاء فَتَّان
عسى تَكُفُّ دموعٌ فيكِ هامَيةٌ ... لا تطلعُ الشمسُ والأنداءُ في آن[٢١]
يا مَنْ هجرتُ إلى الأوطان رؤيتَها ... فرُحْتُ أشوقَ مُشتاقٍ لأوطان
أتذكرين حنيني في الزمان لها ... وسَكْبِىَ الدّمعَ من تذْكارِها قانى؟
وغَبْطِىَ الطيرَ ألقاه اصِيحُ به: ... ليت الكريمَ الذي أعطاك أعطاني؟

وقال:

قلبٌ بوادى الحمى خلَّفْته رَمِقًا ... ماذا صنعْتِ به يا ظبيةَ البان؟
أحنى عليكِ من الكُثبان، فاتَّخذى ... عليه مَرْعاكِ من قاعٍ وكُثْبان
غَرَّبْته، فَوَهَى جَنْبى لفُرقته ... وحَنَّ للنازح المأْسورِ جُثْمانى
لا ردّه اللهُ من اسْرٍ، ومن خَبَلٍ ... إن كان في ردّه صَحْوِى وسُلْوانى

دلَّهِتـه بـعـزيـزٍ فـي مَـحـاجِـره ماضٍ، له من مُبين السَّحرِ جَفنان
رمى فضجَّتْ على قلبي جوانحُه وقلن: سهمٌ، فقال القلبُ: سهمان
يا صورةَ الحُورِ في جِلباب فانَيةٍ وكوكبَ الصبحِ في أعطاف إنسان
مُرى عَصِيَّ الكرى يَغشَى مُجامَلَةً وسامِحى في عناق الطيفِ أجفاني
فحسبُ خَدَّيَّ مِنْ عَيْنَيَّ ما شربا فمثل ما قد جرى لم تلقَ عينان

وقال:

قـالـوا لـه: رُوحـى فِـداه هـذا الـتـجـنَّـى مـا مَـداه؟
أنـا لـم أقُـم بـصـدودِه حـتـى يُـحـمَّـلَـنـي نَـواه
تـجـرى الأمـور لـغـايـةٍ إلاَّ عـذابـى فـي هـواه
سـمُّـيـتُـه بـدرَ الـدُّجـى ومـن الـعـجـائِـب لا أراه
ودعـوتُـه غـصـنَ الـرّيـا ضِ، فلم أجِدْ رَوْضًا حواه
وأقـولُ عنـه: أخـو الـغـزا لِ، ولا أرى إلاَّ أخـاه
قـال الـعـواذلُ: قـد جـفـا ما بالُ قلبِك ما جفاه؟
أنا لو أطعتُ القلبَ فيـ ـه لـم أزِدْه عـلـى جَـواه
والـنُّـصـحُ مُـتَّـهَـمٌ وإن نَـثَـرَتْـهُ كـالـدُّرّ الـشـفـاه
أذُنُ الـفـتـى فـي قـلـبـه حينًـا، وحينًـا في نُـهاه

وقال:

مقاديرُ من جَفْنِيْكِ حولْنَ حاليا فذُقْتُ الهوى من بعد ما كنتُ خاليا
نفذْن عليَّ اللبَّ بالسهم مُرْسلاً وبالسَّحر مَقْضِيًّا، وبالسيف قاضيا
وألبَسْنَنى ثوبَ الضَّنى فلبستهُ فأحْبِبْ به ثوبًا وإن ضمّ باليا
ومـا الـحـبُّ إلاَّ طـاعـةٌ وتـجـاوزٌ وإن أكثروا أوصافَه والمعانيا
وما هو إلا العينُ بالعين تلتقي وأن نـوّعـوا أسـبـابَـه والـدَّواعِـيـا
وعندي الهوى، موصوفُه لا صفاتُه إذا سألوني: ما الهوى؟ قلتُ: ما بيا
وبى رَشَأٌ قد كان دنيايَ حاضِرًا فـغـادَرَنـى أشـتـاقُ دُنـيـايَ نـائـيـا

سمحتُ برُوحي في هواه رخيصةً ... ومَنْ يَهْوَ لا يُوثِره على الحبَّ غاليا
ولـم تَـجْـرِ ألـفـاظُ الـوشـاة بـريـبـةٍ ... كهذى التي يجرى بها الدّمعُ واشِيا
أقول لمن وَدَّعْتُ والركبُ سائرٌ: ... بـرغـم فـؤادى سـائـرٌ بـفـؤاديـا
أمانًا لقلبى من جفونِكِ في الهوى ... كفكى بالهوى كأسًا، وراحًا، وساقيا
ولا تجْعِليه بين خدَّيْكِ والنوى ... من الظلم أن يغدو لنارَيْن صالِيا
ولم يَنْدملْ من طعنة القَّدَّ جُرحُه ... فرفقًا به من طعنة البيْن داميا

وقال:

أهلَ القُدودِ التي صالت عَوَاليها ... الـلـه فـي مُـهـجٍ طاحـت غَـوَالـيـهـا
خُذْن الأمانَ لها لو كان ينفعها ... وارْدُدْنـهـا كَرمًا لو كان يُـجديـهـا
وانظرنَ ما فعلَتْ أحْداقُكُنّ بها ... ما كان من عَبَثِ الأحداقِ يكفيها
تعرّضت أعينٌ مِنَّا، فعارَضَنا ... على (الجزيرة) سْربٌ من غَوَانيها
ما تُرْن من كُنُس[22] إلاَّ كُنُسٍ ... من الجوانح ضَمَّتْها حَوَانيها
عَنَّتْ لنا أصُلاً، تُغْرِى بنا أسَلاً ... مَهزوزةً شكَلاً، مشروعةً تِيها[23]
وأرْهَفَتْ أعْيُنًا ضَعْفَى حمائلُها ... نَشْوَى مَناصِلُها، كَحْلَى مَواضِيها
لنا الحبائلُ تُلْقِيها نَصِيدُ بها ... ولم نَخَلْ ظَبَيَاتِ القاعِ تلْقِيها
نصَبْنها لكَ من هُدْبٍ ومن حَدَقٍ ... حتى أنثنيْتَ بنفسٍ عزَّ فاديها
من كلّ زهراءَ في إشراقها ضحَكَت ... لَبّاتُها عن شبيه الدُّرَّ مِن فيها
شمسُ المحاسنِ يُسْتَبْقَى النهارُ بها ... كأن يُوشَعَ مفتونٌ يُجاريها
مَشت على (الجسر) رِيمًا في تلفُّتها ... للناظرين، وبانًا في تَثَنَّيها
كأَن كلَّ غوانيه ضرائرُها ... عُجْبًا، وكلَّ نواحيه مَراثِيها
عارَضْتُها وضميرى من محارمها ... يَزْوَرُّ عن لحظاتي في مَساريها
أعِفُّ من حَلْيها عمّا يُجاورهُ ... ومن غلائلها عمّا يُدانيها
قالت: لعلّ أديبَ النيلِ يُحرجُنا ... فقلت: هل يُحرجُ الأقمارَ رائيها
بينى وبينك أشعارٌ هتفتُ بها ... ما كنتُ أعلم أن الرَّيم يرويها
والقولُ إن عفّ أو ساءَت مواقِعُه ... صدى السريرةِ والآدابِ يَحكيِها

وقال:

أدارى العيونَ الفاتراتِ السَّواجيا وأشكو إليها كَيْدَ إنسانِها لِيا
قتلنَ ومنَّين القتيلَ بألْسُنٍ من السحر يُبْدِلْنَ المنايا أمانيا
وكلَّمْنَ بالألحاظِ مَرْضَى كَليلةً فكانت صِحاحًا في القلوب مَواضِيا
حَبَبْتُكِ ذاتَ الخالِ، والحبُّ حالةٌ إذا عرَضت للمرءِ لم يَدْرِ ماهيا
وإنك دُنيا القلب مهما غَدَرْتِه أتى لكِ مملوءًا من الوجْد وافيا
صدودُك فيه ليس يألوه جارحًا ولفظُكِ لا ينفَكُّ للجرح آسِيا
وبين الهَوى والعَذْلِ للقلب موقِفٌ كخالِكِ بينَ السيفِ والنارِ ثاويا[٢٤]
وبين المُنى واليأْسِ للصبر هِزَّةٌ كَخَصْرِكِ بينَ النَّهْدِ والرَّدْفِ واهيا
وعرّض بي قومي، يقولونَ: قد غوى عدِمتُ عذولى فيكِ إن كنتُ غاويا
يَرمونَ سُلوانًا لقلبى يُريحُهُ ومن لِيَ بالسُّلْوانِ أشريه غاليا؟
وما العشقُ إلا لذةٌ ثم شِقوةٌ كما شَقِيَ المخمورُ بالسُّكر صاحيا

هوامش

(١) العقيق: كناية عن الدَّم.
(٢) نهل، من نهلت الإبل: شربت أول الشرب.
(٣) علَّت، من علَّ الرجل: شرب شربة ثانية.
(٤) سويجع: تصغير ساجع. والسويداء: حبة القلب.
(٥) يضوينى: يضعفني، من أضواه الأمر: أضعفه.
(٦) والقلب اصبى: أي أشد صبوة.
(٧) أهل به: عمر.
(٨) الظبى: جمع ظبة وهي حد السيف.
(٩) هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة:

أن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(١٠) الفند: الكذب وكفر النعمة.

(١١) العهيد: القديم.

(١٢) الكم بكسر الكاف: الغلاف الذي ينشق عن الثمر.

(١٣) يعنى بكل مقطعة يدها إلخ. صواحبات يوسف الصديق اللواتي ورد ذكرهن في السورة.

(١٤) السمر: الرماح. والخواطر: المهتزات، يقال: خطر الرمح إذا اهتز، وهي هنا كناية عن القدود.

(١٥) آذار: شهر مارس وهو أول فصل الربيع.

(١٦) هذا الشطر من المطلع للمرحوم محمود سامي باشا البارودي، نظمه ثم أمسكه، فأكمله الشاعر وأضاف إليه هذه الأبيات.

(١٧) القمر: جمع قمرية وهي ضرب من الحمام.

(١٨) المشعشع: الشراب يمزج بالماء.

(١٩) رضوى: اسم جبل.

(٢٠) الترب بالكسر: وما ولد معك، وأكثر ما يستعمل في المؤنث، يقال هذه ترب فلانه إذا كانت على سنها.

(٢١) الأنداء: الأمطار.

(٢٢) الكنس: جمع كناس، وهو بيت الظبى.

(٢٣) يقال: شكلت المرأة شكلا: كانت ذات شكل أي غنج ودلال وغزل.

(٢٤) يعني الشاعر بهذه التورية أن خالها بين نار الخد — وهي كناية عن الحمرة — وبين سيف اللحظ وهو معروف.

متفرقات

مَصَايرُ الأيَّامِ:

ألا حَبَّذا صُحبةُ المكتَبِ
وأحبِبْ بأيّامه أحببِ!

ويا حبّذا صِبيةٌ يَمرحو
ن، عِنانُ الحياةِ عليها صَبى

كأنهمو بَسماتُ الحيا
ةِ وأنفاسُ ريْحانِها الطيَّب

يُراحُ ويُغدَى بهم كالقَطيـ
ـع على مشرِق الشمس والمَغرب

إلى مَرْتَعٍ ألفوا غيرَه
وراعٍ غريبِ العصا أجنبي

ومُستقَبلٍ من قيود الحيا
ةِ شديدٍ على النفس مُستصعَب

فراخٌ بأيكٍ: فمن ناهضٍ
يَروضُ الجناحَ، ومن أزْغَب

عصافيرُ عند تهجّى الدرو
س،[1] مِهارٌ عرابيدُ في المَلعَب

خَلِيُّون من تَبِعات الحيا
ةِ، على الأمَّ يُلقونها والأب

جنونُ الحَدَاثَةِ من حولهم
تضيقُ به سعَةُ المذهب

عدا فاستبدّ بعقل الصبىَّ
وأعدى المؤدّبَ حتى صَبى!

لهم جَرٌ مُطْربٌ في السرا
ح، وليس إذا جَدّ بالمطربِ

تَوارتْ به ساعةٌ للزما
ن على الناس دائرةُ العَقرب

تَشُولُ[2] بإبرتها للشبا
بِ، وتقذِف بالسّم في الشُّيَّب

يَدُقُّ بمِطرقتَيها القضا
ء وتجرى المقاديرُ في اللَّوْلَب

وتلك الأواعى بأيَمانهم[3]
حقائبُ فيها الغدُ المُختبَى

ففيها الذى إن يُقِم لا يُعدَّ
من الناس، أو يَمض لا يُحسب

وفيها اللَّواءُ، وفيها المنا رُ، وفيها التَّبيعُ، وفيها النَّبى
وفيها المؤخَّرُ خلفَ الزحا مِ، وفيها المقدّمُ في المواكِب

* * *

جميلٌ عليهم قشيبُ[٤] الثيا ب، وما لم يُجمّل ولم يَقشب
كساهم بَنانُ الصَّبا حُلَّةً أعزَّ من المخمِلِ المُذْهَب
وأبهى من الورد تحت الندى إذا رفَّ في فرعه الأهْدب
وأطهَر من ذيلها لم يَلُمّ من الناس ماشٍ، ولم يَسحَب
قطيعٌ يُزَجِّيه راعٍ من الدهـ ـر، ليس بلَيْنٍ ولا صُلَّب
أهابت هِرواتُه بالرِّفا ق، ونادت على الحُيَّدِ الهُرَّب
وصّرفَ قطعانَه، فاستبدّ ولم يخشَ شيئًا، ولم يَرهَب
أراد لمن شاءَ رَعْيَ الجَدِيـ ـب، وأنزل من شاءَ بالمُخصِب
ورَوّى على رِيِّها النَّاهلا تِ، وردّ الظَّماءَ فلم تَشْرَب
وألقى رِقابًا إلى الضاربيـ ـن، وضَنّ بأخرى فلم تُضرَب
وليس يبالي، رضا المستَريـ ـحِ، ولا ضَجَرَ الناقمِ المُتعَب
وليس بمُبْقٍ على الحاضريـ ـن، وليس بباكٍ على الغُيَّب

* * *

فيا وَيْحَهم! هل أحَسُّوا الحيا ةَ؟ لقد لعبوا وهَيَ لم تَلْعَب
تجرَّبُ فيهم وما يعلمو ن، كتجربة الطبِّ في الأرْنب
سَقَتْهم بسُمّ جرى في الأصو ل، ورَوَّى الفروعَ ولم يَنضُب
ودار الزمانُ، فدالَ الصَّبا وشبَّ الصَّغارُ عن المكتب
وجَدَّ الطَّلابُ، وكدّ الشبا بُ وأوغَل في الصَّعب فالأصعب
وعادت نواعِمُ أيّامِه سِنينَ من الدَّأبِ المُنصِب
وعُذِّبَ بالعلم طُلاَّبُه وغصُّوا بِمَنْهَلِهِ الأعذاب
رَمَتْهم به شهواتُ الحيا ةِ، وحُبُّ النَّباهةِ والمَكسب
وزَهوُ الأبُوَّةِ من مُنجِبٍ يفاخرُ مَنْ ليس بالمُنجب
وعقلٌ بعيدُ مَرامى الطَّما حِ، كبيرُ اللُّبانةِ والمأْرَب

وَلوعُ الرّجاءِ بما لم تَنَلْ عقولُ الأوالى ولم تطلُب
تنقَّلَ كالنَّجم من غَيْهَبٍ يَجوبُ العصورَ إلى غَيْهَب
قديمُ الشُّعاعِ كشمسِ النها رِ جديدٌ كِمصباحِها المُلهِب
أبو قْراطُ مثلُ ابنِ سينا الرئيـ ـسِ، وهو ميرُ مثلُ أبى الطَّيِّب
وكلُّهم حَجَرٌ في البنا ءِ، وغرسٌ من المثمرِ المُعقِب

* * *

تُؤلِّفُهم في ظِلال الرخا ءِ وفي كَنَفِ النسبِ الأقرب
وتَكسِرُ فيهم غرورَ الثرا ءِ، وزَهْوَ الولادِة والمنصِب
بيوتٌ مُنَزَّهةٌ كالعتيـ ـق وإن لم تُسَتَّرْ ولم تُحجَب
يُدانى ثراها ثَرَى مكَّةِ ويقربُ في الطُّهر من يَثرب
إذا ما رايتَهمو عندها يموجون كالنحل عند الرُّبى
رأيتَ الحضارةَ في حصنِها هناك، وفي جُنَدِها الأغلب
وتَعرِضُهم مَوكبًا موكِبًا وتسأل عن عَلَم الموكِب
دَعِ الحظَّ يطلَعْ به في غِد فإنَّك لم تَدْرِ من يجتبى
لقد زَيَّنَ الأرض بالعَبْقَرىَّ مُحَلَّى السماواتِ بالكوكب

لُبْنَان

السَّحْرُ من سُود العيونِ لقِيتُهُ والبابلىُّ بلحظهنّ سُقِيتُهُ
الفاتراتِ وما فَتَرْنَ رمايةً بمُسَدَّدٍ بينَ الضلوع مَبيتُه
الناعساتِ الموقظاتى للهوى المُغْرياتِ به وكنتُ سَلِيته
القاتلاتِ بعابثٍ في جَفنه ثملِ الغِرار مُعَرْبِد إصْليته
الشارعاتِ الهُدْبَ أمثالَ القنا يُحيى الطَّعينَ بنظرة ويُميته
الناسجاتِ على سواءِ سطورهِ سَقمًا على منوالهن كُسِيته

* * *

وأغنَّ أكحَل من مَها «بِكْفِيّة» … عِلقت محاجرهُ دمى وعَلِقته
لُبنانُ دارَتُه وفيه كِناسُه … بين القنا الخطّار خُط نَحيته
السلسبيلُ من الجداول ورْدُه … والآسُ من خُضْرِ الخمائل قوتُه
إن قلتُ تمثال الجمال مُنَصبّا … قال الجمال براحتيَّ مَثلْته
دخل الكنيسةَ فارتقبْتُ فلم يُطِل … فأتيت دون طريقِه فزحمته
فازْور. غضبانًا وأعرض نافِرًا … حالٌ من الغِيد الملاحِ عرفتُه
فصرفتُ تلْعابى إلى أترابه … وزَعمتهن لُبانتى فأغرتُه
فمشى إلىّ وليس أوّلَ جؤْذَرٍ … وقعت عليه حبائلي فقنصته
قد جاءَ من سحر الجفون فصادَني … وأتيتُ من سحر البيان فصدْته
لما ظفرتُ به على حَرَم الهُدَى … لابن البتول وللصلاة وهبته[٦]
قالت ترى نجمَ البيان فقلت بل … افق البيان بأرضكم يممته
بلغ السُّها بشموسه وبدُوره … لُبنانُ وانتظم المشارقَ صيته
من كلّ عالى القدر من أعلامه … تتهللُ الفُصْحى إذا سميته
حامى الحقيقة، لا القديم يئوُده … حفظًا ولا طلبُ الجديد يفوته
وعلى المشيد الفخمِ من آثاره … خلُق يبين جلالُه وثبوته
في كل رابيةٍ وكل قرارة … تْبرُ القرائح في التراب لمحته
اقبلتُ أبكي العلم حول رسومهم … ثم أنثنيت إلى البيان بكيته
لبنانُ والخُلد، اختراع الله لم … يُوسَم بأزينَ منهما ملكوته
هو ذِرْوة في الحسن غير مَرُومة … وذَرا البراعة والحجى «بَيروته»
مَلِكُ الهضابِ الشمَّ سلطانُ الرُّبى … هامُ السحاب عروشُه وتَخوته
سيناءُ شاطَره الجلالَ فلا يُرى … إلاَّ سُبُحاته[٧] وسُموته[٨]
والأبلقُ الفردُ انتهت أوصافهُ … في السُّؤْدد العالى له ونعوته
جبل عن آذار يُزْرى صيفُه … وشتاؤه يَئِد القرى جبروته
أبهى من الوَشْى الكريم مروجُه … والذُّ من عَطلِ[٩] النُّحور مُروتُه[١٠]
يغْشى روابيَه على كافورها … مِسْك الوهادِ فَتيقُه وفَتيتُه[١١]
وكأن ايامَ الشباب ربوعُه … وكأن أحلامَ الكعاب بيوتُه
وكأن ريْعانَ الصَّبا ريْحانُه … سِرُّ السرور يَجودهُ ويقوتُه[١٢]

وكـأن أشـداءَ الـنـواهـد تِـيـنُـه وكـأن أقـراط الـولائـد تـوتـه
وكأن هَمس القاع في أذن الصفا[١٣] صوتُ العتابِ ظهوره وخُفوته
وكأن ماءَهما وجَرْسَ[١٤] لُجَينه وَضحُ[١٥] العروس تبينه وتصيتُه[١٦]

* * *

زعـمـاء لُـبـنـان وأهـلَ نَـدِيَـه لبنانُ في ناديكمو عظمتُه
قد زادني إقبالُكم وقبولُكم شَرفًا على الشرف الذي أوليته
تاجُ النيابة في رفيع رءُوسكم لم يُشْر لؤلؤه ولا ياقوتُه
«موسى»[١٧] عدوُّ الرِّقّ حولَ لوائكم لا الظُّلمُ يرْهِبه، ولا طاغوتُه
أنتم وصحابكم إذا أصبحتمو كالشهرِ أكملَ عدَّة موقوتُه
هو غرَّةُ الأيامِ فيه، وكلكم آحادُه في فضلها وسُبوتُه

الْمُؤْتَمرُ[١]

صْرحٌ على الوادى المباركِ ضاحى مُتظاهرُ الأعلامِ والأوْضاحِ
ضافى الجلالة كالعَتيق مُفضل ساحاتِ فضل في رِحابِ سَماح
وكأن رَفْرَفَه رِواقٌ من ضحًى وكأن حائطَه عمودُ صَبَاح
الحقُّ خَلْفَ جَناحٍ استَذرَى[١٨] به ومَرَاشِدُ السلطانِ خلفَ جَناح
هو هيكلُ الحريّةِ القاني، له ما لِلهياكلِ من فِدًى وأضاح
يبنى كما تُبنى الخنادقُ في الوغى تحتَ النبالِ وصَوْبِها السَّحّاح
يَنْهارُ الاستبدادُ حولَ عِراصِه مِثَل انهيارِ الشِّركِ حولَ (صَلاح)[١٩]
وَيكَبُّ طاغوتُ الأمور لوَجهه مُتَحَطِّمَ الأصنامِ والأشباح
هو ما بَنى الأعْزَال بالرَّاحات، أو هو ما بَنى الشهداءُ بالأرواح

---

[١] مؤتمر سياسي اجتمعت فيه كلمة الأحزاب السياسية المصرية على إنقاذ الدستور برياسة المغفور له سعد زغلول باشا سنة ١٩٢٦.

أَخَذتْه (مصرُ) بكل يومٍ قائمٍ وَرْدِ الكواكب أحمرِ الإصْباح
هَبَّتْ سِماحًا بالحياةِ شبابها والشيبُ بالأرْمَاق غَيْرُ شحاح
ومشتْ إلى الخيل الدوَارع وانْبرَتْ للظَّافر الشاكي بغير سِلاح
وَقفَاتُ حقًّ لم تقفْها أمّةٌ إلا أنْثنتْ آمالُها بنجاح
وإذا الشُّعوبُ بَنَوْا حقيقةَ مُلْكِهِم جعلوا المآتمَ حائطَ الأفراحِ

* * *

بشرى إلى الوادى تَهزُّ نَباتَه هَزَّ الربيعِ مَناكِبَ الأدواح
تسرى ملمَّحة الحجول[٢٠] على الرُّبى وتسيل غُرَّتُها بكل بِطاح
التَامَتِ الأحزابُ بعدَ تَصَدُّع وتصافتِ الأقلامُ بعد تَلاحِى
سُحِبَتْ على الأحقاد أذيالُ الهوى وَمَشَى على الضَّغْن الودادُ الماحى
وَجَرَتْ أحاديثُ العتابِ كأنها سَمَرٌ على الأوتارِ والأقداح
تْرمى بِطرْفِكِ في المجامِع لا ترى غيرَ التعانُقِ واشتباكِ الراح

* * *

شمسَ النهارِ، تعلَّمِى الميزانَ من (سَعْدِ) الديار وشيخِها النَّضَّاح[٢١]
مِيلى أنظُريه في النَّدِيَّ كانَّه (عثمانُ) عن أمَّ الكتابِ يُلاحى
كم تاجِ تضحيةِ وتاجِ كرامةٍ للعين حولَ جبينه اللماحِ
والشيبُ مُنْبَثِقٌ كنور الحقَّ من فْودَيْه، أو فجرِ الهدى المِنَصْاحِ[٢٢]
لَبَّى أذان الصُّلحِ أوّلَ قائمٍ والصلحُ خُمس قواعِد الإصلاح
سبقَ الرجَالَ مُصافِحًا ومُعانِقًا يمْنى السّماحِ وهيكَلَ الإسجاح[٢٣]
(عدلي) الجليل ابن الجليل من الملا والماجد ابن الماجد المِسماح
حُلْوُ السجيَّة في قناةٍ مُرَّةٍ ثَمِلُ الشمائل في وَقارٍ صاح

* * *

شَتَّى فضائلَ الرجال، كأنها شَتَّى سلاحٍ من قنًا وصِفاح[٢٤]
فإذا هىَ اجتمعت لِمُلك جَبْهَةً كانت حصونَ مَناعَةٍ ونِطاح
اللهُ ألف للبلاد صدورَها من كل داهيةٍ وكل صُراح

وزراءُ مـمـلـكـةٍ، دَعـائِـمُ دولَـةٍ أعـلامُ مـؤتَـمَـرٍ، أسـودُ صَـبـاحِ[٢٥]
يَبنون بالدستورِ حائطَ مُلْكِهم لا بـالـصَّـفـاحِ ولا عـلـى الأرْمـاحِ
وجَـواهـرُ الـتـيـجـانِ مـا لـم تُـتَّـخَـذْ من مَعدِنِ الدستورِ غيرُ صِحـاحِ

* * *

احْتَل حِصْنَ الحق غيرُ جنودِهِ وتـكـالـبـت أيْـدٍ عـلـى الـمـفـتـاحِ
ضَجَّتْ على أبطالها ثُكْناتُه واستَوْحَشَتْ لِكُماتِها النُّزاحِ
هُـجِـرَت أرائِـكُـهُ، وعُـطِّـلَ عـودُه وخـلا مـن الـغـاديـن والـرُّواحِ
وعَلاه نَسْجُ العنكبوتِ، فزاده كالغارِ من شرفٍ وسمتِ[٢٦] صلاح

* * *

قلْ للبنين مقالَ صدقٍ، واقْتَصِدْ ذَرْعُ الشباب يضيق بالنُّصّاحِ:
أنتم بنو اليوم العصيبِ. نشأْتمو في قَصْفِ أنواءٍ، وعَصْفِ رياحِ
ورأيتمو الوَطَنَ المؤلَّفَ صخرةً في الحادثات وسَيْليها المجتاحِ
وشهدتمو صَدْعَ الصفوفِ وما جَنَى من أمْرِ مُفْتاتٍ ونَهْيِ وَقَاحِ
صوتُ الشعوب من الزئير مُجمَّعًا فإذا تفَرَّقَ كان بعضَ نُبَاحِ
اطْمَتْكُمو الأيامُ، ثم سقتكمو رَنقًا من الإحسانِ غيرَ قَراحِ
وغدا مُنِحْتَ الخيرَ من مُتَكَلِّفٍ ظَهَرَتْ عليه سجيَةُ المنّاحِ
تركَتْكُمو مثلَ المَهيضِ جناحُه لا في الحبال، ولا طليق سَراحِ
مَنْ صَيَّيرَ الأغلالَ زَهْرَ قَلائدٍ وكسا القيودَ محاسنَ الأوضاحِ؟
إن التي تبغون، دون منالِها طولُ اجتهادٍ، واضطرادُ كِفاحِ
سيروا إليها بالأناة طويلةً إن الأناةَ سبيلُ كلَّ فَلاح
وخذوا بناءَ المُلكِ عن دستوركم إن الشَّراعَ مُثَقَّفُ المَّلاح
يت دارَ محمودٍ، سَلِمْتِ، وبورِكتْ أركانُكِ الهرميَّةُ الصُّفَّاح[٢٧]
وازددْتِ من حسنِ الثناءِ وطيبه حجرًا هو الدُّرَّيُّ في الأمداح
الأمةُ انتقلَتْ إليكِ، كأنما أنزلْتِها من بيتها بجناح
بركاتُ شيخٍ بالصعيد مُحمَّل عِبْءَ السنينَ مُؤمَّلٍ نّفاح
بالأمس جادَ على القضيةِ بابنه واليومَ آواها بأكْرَم ساح

النَّسْرُ المِصْريُّ[٢]

أعُقابٌ في عَنان الجوَّ لاح ... أم سحابٌ فرّ من هوُج الرياحْ؟
أم بساطُ الريحِ ردّته النوى ... بعد ما طوَّف في الدهر وساحْ؟
أو كأن البرجَ ألقى حوتَه ... فترامى في السموات الفِساح

* * *

أقبلَتْ مِنْ بُعُدٍ تحسبُها ... نَحْلَةً عَنَّتْ وطَنَّتْ في الرياح
يا سلاحَ العصر بُشَّرْنا به ... كلُّ عصرٍ بكَميًّ وسَلاح
إن عزًّا لم يظَلَّلْ في غدٍ ... بجناحَيْكَ ذليلٌ مُسْتَباح
فتكاثَرْ وتألَّفْ قَيْلَقًا ... تَعْصِمُ السّلمَ وتعلو للكفاح
مصرُ للطير جميعًا مسرحٌ ... ما لنا فيه ذُنابَى أو جَناح
رُبَّ سِرْبٍ قاطعٍ مَرَّ به ... هبط الأرض مَلِيًّا واستراح
لِمَ لا يفتن فتيانَ الحمى ... ذلك الإقدامُ، أو ذاك الطَّماح؟
من فتًى حلّ من الجوَّ بهم ... فتلقَّوْهُ على هامٍ وراح
أنه أوّلُ عُصفورٍ لهم ... هزّ في الجوَّ جَناحيْه وصاح
دَبَّتْ الهِمَّةُ فيه، ومشت ... عزماتٌ منكَ يا (حربُ) صيحاح[٢٨]
ناطَحَ النَّجمَ فتًى علَّمتَه ... في حياةٍ حُرَّةٍ كيف النَّطاح
لك في الأجيالِ تمثالٌ مشى ... وجدوا الرشدَ عليه والصّلاح
جاوز النيل وعبْرَيْه إلى ... أكَم الشام وهاتيك البطاح

* * *

فارسَ الجوَّ، سلامٌ في الذُّرَى ... وعلى الماءِ، ومن كل النواح
ثِبْ إلى النجم، وزاحِمْ ركنَه ... وامتلئ من خُيَلاءٍ ومِراح
إنَّ هذا الفتحَ لا عهدَ به ... لضِفاف النيل من عهد (فتاح)

---

[٢] قيلت بمناسبة قدوم صدقي الطيار المصري الأول من برلين إلى القاهرة طائرا في سنة ١٩٣٠.

تلك أبوابُ السماءَ انفتحت ما وراءَ البابِ يا طيرَ النجاح؟
اسماءُ النيلِ أيضًا حَرَمٌ من طريق الهندِ، أم جَوٌّ مُباح؟

* * *

عينُ شمسٍ مُلِئَتْ من موكب كان للأبطالُ أحيانًا يُتاح
ربّما جلَّل وجهَ الأرض، أو ربّما سدّ على الشمس السراح
إن يَفُتْه الجيشُ أو روعتُه لم يفُتْه النَّشَأْ الزُّهْرُ الصَّباح
وفِدى (فائزةٍ) سُمْرُ القَنا وفِدى حارِسِها بيضُ الصَّفاح
ولقد ابطأتَ حتى يَنمْ للحمى ليلٌ ولم ينَعم صَباح
فابتغى العُذْرَ كِرامٌ، وانْبَرَتْ ألسنٌ في الثَّلْم والهَدْمِ فِصاح
تلتوى الخيلُ على راكبها كيف بالعاصف في يوم الجِماح؟
ليس مَنْ يركبُ سَرْجًا ليِّنًا مثلَ مَنْ يركب أعرافَ الرياح
سِرْ رُوَيْدًا في فضاءٍ سافرٍ ضاحكِ الصفحةِ كالفردوس صاح
طرفت عَيْنًا به الشمسُ، فلو خُيِّرَتْ لم تتحفَّز للرواح
وتكاد الطيرُ من خفَّته تتعالى فيه من غير جَناح
قف تأمل من عُلُوٍّ قُبَّةً رُفِعتْ للفصل والرأْيِ الصُّراح
نزل النوّابُ فيها فتيةً في جَناح وشيوخًا في جَناح
حملوا الحقَّ وقاموا دونَهُ كرَعِيلِ الخيل أو صفَّ الرماح

* * *

يا أبا الفاروقِ، مَنْ ترعى ففى كنَفِ الفضل وفي ظلَّ السَّماح
أنت من آبائك السُّحْب، وما في بناءِ السُّحُبِ الأيدى الشَّحاح
يَدُكَ السَّمْحَةُ في الخير، وفي هِمَّةِ الغَرْسِ، وفي أسْوِ الجراح
نحن افلحنا على الأرض بكم ورجونا في السماوات الفلاح

تُوتْ عَنْخ آمُون وَالبَرْلمان

قُمْ، سابِقِ (الساعةَ) واسْبِقْ وعدَهَا … الأرضُ ضاقَت عنكَ، فاصدعْ غِمْدَها
وامْلأ رماحًا غورَها ونَجْدَها … وافتح أصولَ النيل واستَرِدَّها
شَلاَّلَها، وعَذْبَها، وعِدَّها[٢٩] … واصرفْ إلينا جَزْرَها ومَدَّها
تلك الوجوهُ لا شَكَوْنا فَقْدَها … بَيَّضَتِ القُرْبَى لنا مُسْوَدَّها
سُلِلْتَ من (وادى الملوكِ) فازْدَهَى … والقت الشمسُ عليه رَأْدَها
واسترجَعتْ دولتُه إفرِنْدَها … أبيضَ، ريَّانَ المُتونِ، وَرْدَها
أبْلَى ظُبَى الدهرِ، وفَلَّ حَدَّها … وأخْلَقَ العصورَ، واستجدَّها
سافَرَ أربعينَ قَرْنًا عدَّها … حتى أتى الدارَ، فألقَى عِدنها
إنجلترا، وجَيْشَها، ولُورْدَها … مَسلولَةَ الهِندِيَّ تَحمِى هِنْدَها
قامت على السودانِ تَبْنى سدَّها … وركَزتْ دونَ القناةِ بَنْدَها[٣٠]

* * *

فقال والحسرةُ ما أشدَّها … : ليت جدارَ القبرِ ما تَدَهْدَها[٣١]
وليتَ عَينى لم تفارق رَقْدَها … قُمْ نَبَّنى يا بنتؤورُ: ما دها؟[٣٢]
مِصرُ فَتاتِى لم تُوَقَّرْ جَدَّها … دَقَّتْ وراءَ مَضجِعِى جازْبَنْدَها
وخَلَطتْ ظِباءَها وأسْدَها … وسكبَ الساقى الطَّلا، وبَدَّها[٣٣]
قد سَحبتْ على جلالى بُرْدَها … ليتَ جلالَ الموتِ كان صَدَّها

* * *

فقلت: يا ماجدَها وجَعْدَها[٣٤] … لو لم تكُ ابنَ الشمس كنتَ رِئْدَها[٣٥]
لَحْدُكَ وَدَّتْهُ النجومُ لحدَها … أريتنا الدنيا به وجِدَّها
سلطانَها، وعزَّها، ورَغْدَها … وكيف يُعْطَى المتَّقُون خُلدَها
آثاركم يُخْطِى الحسابُ عَدَّها … انهدَمَ الدهرُ ولم يَهُدّها
أبوابُكَ الَّلاتى قَصَدْنا قَصْدَها … (كارترُ) في وجهِ الوفودِ رَدَّها
لولا جهودٌ لا نريدُ جحْدَها … وحُرمةٌ من قُربك استمدَّها
قلتُ لك: اضربْ يَدَه وقُدَّها … وابعث له من البعوضِ نُكْدَها

***

مِـصُـر الـفـتـاةُ بَـلـغَـتْ أشُـدَّهـا وأثـبـتَ الـدمُ الـزّكِـىُّ رُشْـدَهـا
ولِـعـبتْ عـلـى الـجـبالِ وَحْـدَهـا وجَـرَّبَـتْ إرْخـاءَهـا وشَـدَّهـا
فـأرسـلـتْ دُهـاتَـهـا ولُـدَّهـا[٣٦] في الـغْـرب سدُّوا عنده مَسَدَّهـا
وبَـعَـثَـت لـلـبـرلـمـان جُـنْـدَهـا وحَـشَـدَتْ لـلـمِـهْـرَجانِ حَشْـدَهـا
حَـدَتْ إلـيـه شِـيـبَـهـا ومُـرْدَهـا وابـرزَتْ كَـعـابَـهـا وخَـوْدَهـا
ونـثـرتْ فـوق الـطـريـق وَرْدَهـا واسـتـقَـبـلـت فـؤادَهـا ووَفْـدَهـا
مَـوْئـلَـهـا، وكـهـفَـهـا، ورِدَّهـا[٣٧] وابـنَ الـذيـن قَـوَّمـوا مَـقـدَّهـا
وألَّـفـوا بـعـد انـفـراطِ عِـقْـدَهـا وجَـعـلـوا صـحـراءَ لـيـبـيا حَـدَّهـا
وبَـسـطـوا عـلـى الـحـجـازِ أيْـدَهـا وصـيّـروا الـعَـاتِـىَ فـيـه عَـبْـدَهـا
حـتـى أتـى الـدارَ الـتـي أعـدّهـا لِمصَـر تبْنِى في ذَراها مَجْـدَهـا
فـثـبَّـتَ الـشُّـورى، وشَـدَّ عَـقْـدَهـا وقـلَّـدَ الـجـيـلَ الـسـعـيـدَ عَـهْـدَهـا

سُلْطَتُه إلى بنينا ردَّها

يـا ربَّ قَـوَّ يَـدَهـا، وشُـدَّهـا وافْـتـح لـهـا الـسُّـبْـلَ، ولا تَـسُـدَّهـا
وقِـيـسْ لـكـلَّ خـطْـوَةٍ مـا بـعـدهـا وعـن صـغـيـرات الأمـور حُـدَّهـا
واصرف إلـى جِدِّ الشئونِ جدّها ولا تُـضِـعْ على الضحـايا جُـهْـدَهـا
واكبحْ هوى الأنفُسِ، واكْسِرْ حِقْدَها واجـمـعْ عـلـى الأمَّ الـرَّءُوم وُلْـدَهـا
وامـلأ بـألْـبـانِ الـنُّـبـوغِ نَـهْـدَهـا ولا تَـدَعْـهـا تُـحْـيِ مُـسْـتَـبِـدَّهـا
وتَـنـتِـجـتْ بـراحَـتَـيْـهـا فَـرْدَهـا

مَصْرَعُ اللُّوردِ كِتْشنر

قِفْ بهذا البحرِ وانظُرْ ما غَمَرْ   مظهر الشمس وإقبال القمرْ
واعرِضِ الموجَ مَلِيًّا، هل ترى   غَمْرَةً أَوْدَتْ بخَوَّاض الغُمَر؟
أخذتْ ناحيةَ الحقَّ بهِ   وسبيلَ الناس في خالى العُصرُ
مَنَعَ اللُّبْثَ وإن طال المدَى   فَلَكٌ ما لعصاه مُسْتَقَرٌّ
دائرُ الدُّولابِ بالناس على   جانبَيْهِ المُرْتَقَى والمُنْحَدَر
نقض (الإيوانَ) من آساسهِ   وأتى (الأهرامَ) من أمَّ الحُجَر
ومَحا (الحمراءَ)[38] إلا عمدًا   نَزْعُها من عَضُدِ الأرضِ عَسِر
أين (رومِيَّةُ)؟ ما قَيْصَرُها؟   ما لياليها المُرِنَّاتُ الوَتر؟
أين (وادى الطَّلْحِ)[39] واللاَّئى به   من دُمًى يَسْحَبْنَ في المِسْكِ الحِبَرَ[40]
أين (نابليونُ)؟ ما غاراتُه؟   شَنَّها الدهرُ عليه من غِيَر
أيُّها الساكنُ في ظلَّ المنى   نَمْ طويلاً، قد تَوَسَّدْتَ الزَّهَر
شجَرٌ نامٍ. وظِلٌّ سابغٌ   بَيْدَ أن الصَّلَّ[41] في أصل الشجر
يَذَرُ المرءُ ويَأْتى ما اشتهى   وقضاءُ اللهِ يَأْتى ويَذَر
كلُّ مَحمولٍ على النعش أخٌ   لك صافٍ ودُّهُ بعدَ الكَدَر
إنْ تكن سِلْمًا له لم ينتقع   أو تكن حربًا فقد فات الضَّرر
راكبَ البحرِ، أمَوْجٌ ما ترى؟   أم كتابُ الدهرِ، أم صُحْفُ القَدَر؟
لُجَّةٌ (كاللَّوْحِ)، لا يُحْصَى على   فَلَمِ القُدرةِ فيها ما سطِر
فتلفَّتْ، وتنسَّمْ حكمةً   والمسِ العِبْرَةَ من بين الفقَر[42]
وتَأمَّلْ مَلعبًا أعْجَبُهُ   آيةً جانِبُه المُرْخَى السُّتُر
ههنا تمشى الجوارى مَرَحًا   وجَوارى الدّهرِ يَمْشِينَ الخَمَر[43]
رُبَّ سيفٍ ضرَب الجمع به   في كنوز البحر مطروح الكِسرَ[44]
وَنجاد لم يُطاوَل ضَحْوَةً   ناله الفجرُ عِشاءً بالقِصَر
وسفين آمر فيها البِلى   طالما أوْحَتْ إليه فأْتَمَر
ووجوهٍ ذهب الماءُ بها   في نهار الفَرْقِ، أو ليلِ الشَّعَر
وعيونٍ ساجياتٍ سُجِّيَتْ   برُفاتِ السحرِ، أو فَلَّ الحَوَر[45]

قُلْ لِلَيْثٍ خُسِفَ الغِيلُ به ... بين طِمَّ، وظلامٍ مُعْتَكِر[٤٦]
انظر الفلْكَ: امِنْهَا أثَرٌ؟ ... هكذا الدنيا إذا الموتُ حَضَر
هذه منزلةٌ لو زدتَها ... ضاق عنك السعدُ، أو ضاق العُمُر
فامْضِ شيخًا في هوى المجدِ قضَى ... رحمةَ المجدِ، ورفقًا بالكِبَر
مِيتةٌ لم تَلْقَ منها عَلَزًا[٤٧] ... من وَقار الليْثِ أن لا يُحْتَضَر

* * *

أنُتمُ القومُ حِمَى الماء لكم ... يرَجع الوِرْدُ إليكم والصَّدَر
لُجَجُ الدَّأْماءِ أوطانٌ لكم ... ومن الأوطانِ دُورٌ وحُفَر
لَسْتَ في البحر وحيدًا، فاستَضِف ... فيه آباءَك تنزِلْ بالدُّرَر
رسَبوا فيه كرامًا وطفا ... طائفُ النصرِ عليهم والظَفَر

* * *

نَشَأَ (النيلِ)، إليكم سِيرة ... لكمو فيها عِظاتٌ وعِبَر
إقرأوها يُكْشَف العصرُ لكم ... كلُّ عصرٍ برجالٍ وسِيَر
لا تقولوا: شاعرُ الوادى غَوَى ... مَنْ يُغَالِطْ نفْسَه لا يعتبر
موقفُ التاريخ من فوق الهوى ... ومَقامُ الموتِ من فوق الهَذَر
ليس مَنْ مات بخافٍ عنكمو ... أو قليلِ الفعلِ فيكم والأثَر
شِدْتُمو دنياهُ في أحْسَنِها ... غزوة السودان والفتحَ الأغَرّ
وبنى مملكةَ النُّوبِ بكم ... فاذكروا القتلى، ولا تنسوا البِدّر[٤٨]
واحذَروا من قِسْمَةِ النيلِ فيا ... ضيْعَةَ الوادى إذا النيلُ شُطِر

* * *

رجلٌ ليس ابنَ (قارونَ)، ولا ... بابن (عادىًّ) من العَظْم النَّخِر
ليس بالزاخر في العلم، ولا ... هو ينبوع البيانِ المنفَجِر
رَضعَ الأخلاقَ من ألبانها ... إن للأخلاق وقعًا في الصَّغَر
ورآها صورةً في أمَّةٍ ... ومن القُدْوَةِ ما تُوحِى الصُّوَر
ذلك المجدُ، هذى سُبْلهُ ... بَيِّنٌ فيها سبيلُ المُعْتَذِر

ابْعَدَ الساعونَ يَبغون المَدى والمدى في المجد دانٍ لِنَفَر
كجياد السَّبْقِ، لن تُغنِيَها أدواتُ السْبقِ ما تغنى الفِطَر

* * *

وجَناحٌ السَّلم إلا أنها ساعةَ الرَّوْعِ جَناحٌ من سَقَر
من حديدٍ جانِباها سابغٍ ربَض الموتُ عليه وفَغَر
أشَبهَتْ افواهُها أعجازَها قُنْقُدٌ في اليَمَّ مشروعُ الإبَر
أرهفَتْ سَمْعَ العصا[٤٩] واكتحلت إثْمِدَ الزرقاءِ[٥٠] في عرض السَّدَر[٥١]
وتؤدَّى القولَ، لا يسبِقُها رُسُلُ الأرواحِ في نَقْلِ الفِكَر
خَطَرَتْ في مَحْجَرَيْها ومشَتْ بعيون الملكِ في بحرٍ وبَرّ
غابةٌ تجرى بسلطان الشَّرَى خادرًا في ألف نابٍ وظُفر[٥٢]
وأذا الموتُ إلى النفس مشى وَرَكِبْتَ النجمَ بالموت عَثَر
رُبَّ ثاوٍ في الظُّبَى مُمْتَنِعٍ سَلَّهُ المِقدارُ من جفن الحَذَر
تسَحبُ الفولاذَ في مُلْتَطمٍ بالعوادِى مُتعالٍ مُعْتَكِر
لو أشارَتْ جاءَها ساحلُهُ في حديدٍ وعديدٍ مُنْتَصِر
أو فَدَى الميّتَ حَيٌّ فُدِيَتْ بوَقَاحٍ في الجوارى وخَفِر[٥٣]
بعث البحرُ بها كالموج من لُجَج السَّنْدِ وخُلْجَانِ الخَزَر[٥٤]
لمَسَتْها للمقاديرِ يَدٌ تلْمس الماءَ فَيَزمى بالشّرر
ضربتها وهْى سٌر في الدُّجى ليس دونَ اللهِ تحتَ الليلِ سِرّ
وجَفَتْ قلبًا، وخارَتْ جُؤْجُؤًا ونَزَتْ جَنْبًا، ونَاءَتْ من أخَر
طُعِنَتْ، فانْبَجَسَتْ، فاسْصرخت فأتاها حَيْنُها، فَهْىَ خَبَر[٥٥]

الْبَرْلَمَانُ

على أثر ائتلاف الأحزاب

سكن الزمانُ، ولانت الأقدارُ ولكلَّ أمرٍ غايةٌ وقرارُ
أرْخَى الأعِنَّةَ للخطوبِ وردَّها فَلَكٌ بكلَّ فُجاءَة دوّار
يجرى بأَمرٍ، أو يدور بضدَّه لا النقضُ يُعجزه، ولا الإمرار
هل آذنتنا الحادثاتُ بهدنة؟ وهل استجاب، فسالَم المقدار؟
سُدِلَ الستارُ، وهل شَهِدْتَ روايةً لم يعترضها في الفصول ستار؟
وجَرتْ فما استولَتْ على الأمد المنى وعدَتْ فما حَوَت المدى الأوطار
دون الجلاءِ، ودون يانِع وَرْدِه خطواتُ شعبٍ في القَتادِ تُسار
وبناءُ أخلاقٍ عليه من النُّهى سُورٌ، ومن عِلْم الزمانِ إطار
وحضارةٌ من منطق الوادي لها أصلُ، ومن أدب البلادِ نِجار

* * *

أعْمَى هوى الوطن العزيز عصابة مُسْتَهْترين، إلى الجرائم ساروا
يا سوءَ سنُتَّهم وقُبْحَ غُلُوَّهم عن العقائدَ، بالغُلُوَّ تُضار
والحقُّ أرفعُ مِلَّةً وقضيّةً من أن يكون رسولَه الإضرارُ
أخِذَتْ بذنبهم البلادُ وأمّةٌ بالريف ما يدرون: ما السَّردار؟
في فتنةٍ خُلِطَ البرىءُ بغيرهِ فيها، ولُطِّخَ بالدم الأبرار
لِقَىَ الرجالُ الحادثاتِ بصبرهم حتى انجلَتْ غُنَمٌ لها وغِمار
لانوا لها في شِدَّةٍ وصلابةٍ لينَ الحديدِ مَشَتْ عليه النار
الحقُّ أبلجُ، والكنِانةُ حُرَّةٌ والعزُّ للدستور والإكبارُ
الأمرُ شورَى، لا يَعِيثُ مُسَلَّطٌ فيه، ولا يَطْغَى به جبّار
إن العنايةَ للبلاد تخيَّرَتْ والخيرُ ما تقضى وما تختار
عهدٌ من الشُّورَى الظَّليلةِ نُضَّرتْ آصالُه، واخْضَلَّت الأسحار
تجنى البلادُ به ثمارَ جهودها ولكل جهدٍ في الحياةِ ثمار
بنيانُ آباءٍ مَشَوْا بسلاحهم وبَنِينَ لم يجدوا السلاح فثاروا

فـيـه مـن الـتـلَّ الـمُـدَرَّجِ حـائـطٌ ... ومـن الـمـشـانـق والـسـجـون جـدار
أبـت الـتـقـيُّـدَ بـالـهـوى، وتَـقَـيَّـدَتْ ... بـالـحـق أو بـالـواجـبِ الأحـرارُ
فـي مـجـلـس لا مـالُ مـصـرَ غـنـيـمـةٌ ... فـيـه، ولا سـلـطـانُ مـصـر صَـغـارُ
مـا لـلـرجـال سـوى الـمَـراشـد مـنـهـجٌ ... فـيـه، ولا غـيـرَ الـصَّـلاحِ شِـعـار
يـتـعـاونـون كـأَهـل دارٍ زُلْـزِلَـتْ ... حـتـى تَـقَـرَّ وتَـطـمِـئـنَّ الـدار
يُـجـرون بـالـرفـق الأمـورَ وفُـلْـكـهـا ... والـريـحُ دونَ الـفـلـكِ والإعـصـارُ
ومـع الـمـجـدَّدِ بـالأنـاة سـلامـةٌ ... ومـع الـمـجـدَّد بـالـجِـمـاح عِـثـار
الأمـةُ ائْـتـلَـفَـتْ، ورَصَّ بـنـاءهـا ... بـانٍ زعـامـتُـه هـدًى ومَـنـار
أسـدٌ وراءَ الـسـنَّ مَـعـقـودُ الـحُـبـا ... يـأْبَـى ويَـغـضـبُ لـلـشَّـرَى ويَـغـار
كَـهْـفُ الـقـضِـيَّـةِ لا تـنـام نُـيـوبُـه ... عـنـهـا، ولا تـتـنـاعـس الأظـفـار
يـومَ الـخـمـيـس، وراءَ فَـجْـرك لـلـهـدى ... صـبـحٌ، ولـلـحـقّ الـمـبـيـن نـهـار
مـا أنـت إلاّ فـارِسـيٌّ، لَـيْـلُـهُ ... عُـرسٌ، وصـدرُ نـهـارِه إعـذار
بَـكَـرَتْ تُـزاحِـم مِـهْـرَجَـانَـك أمَـةٌ ... وتـلَـفَّـتَـتْ خـلـفَ الـزحـامِ ديـار
وروى مـواكـبَـك الـزمـانُ لأهـلـه ... وتـنـقَّـلَـتْ بـجـلالـهـا الأخـبـار
أقـبـلْـتَ بـالـدسـتـور أبْـلَـجَ زاهـرًا ... يَـفْـتَـنُّ فـي قَـسَـمـاتِـه الـنُّـظـار
وذُؤابـةُ الـدنـيـا تَـرِفُّ حَـداثـةً ... عـن جـانـبـيـه، ولـلـزمـان عِـذار
يـحـمـى لَـفَـائِـفَـهُ، ويـحـرس مَـهْـدَه ... شـيـخٌ يّـذودُ، وفـتـيـةٌ أنـصـار
وكـأنـه عـيـسـى الـهُـدى فـي مـهـدِه ... وكـأن سـعـدًا يـوسُـفُ الـنـجـار
الـتـاج فُـصِّـل فـي سـمـائـك بـالـضـحـى ... مـنـك الـحـلَـى، ومـن الـضـحـى الأنـوار
يـكـسـو مـن الـدسـتـور هـامـةَ رَبِّـهِ ... مـا لـيـس يـكـسـو الـفـاتـحـيـن الـغـار
بـالـحـق يـفـتـح كـلُّ هـادٍ مُـصـلـحٍ ... مـا لـيـس يـفـتـح بـالـقـنـا الـمِـغْـوارُ

* * *

وطنى، لديكَ — وأنت سَمْحٌ مُفْضِلٌ — ... تُـنْـسَـى الـذنـوبُ، وتّـذكَـر الأعـذار
تـاب الـزمـانُ إلـيـكَ مـن هـفـواتـه ... بـوزارة تُـمْـحَـى بـهـا الأوزار

قصيدة في حفلة

وقال وقد القيت في حفلة نسائية عظيمة انعقدت بدار التمثيل العربي برئاسة السيدة هدى شعراوى:

قُلْ للرِّجَالِ: طغى الأسيرْ   طيرُ الحِجالِ متى يَطيرْ؟
أوْهَى جنَاحَيْهِ الحديـ   ـدُ، وحَزَّ ساقَيْهِ الحرير
ذهب الحِجابُ بصبره   وأطال حيْرتَه السُّفور
هل هُيَّئَتْ دَرَجُ السما   ء له، وهل نُصَّ الأثير؟
وهل استمرَّ به الجَنا   حُ، وهَمَّ بالنَّهْض الشكير؟[٥٦]
وسما لمَنزله من الد   نيا، ومنزلُه خطير؟
ومتى تُساس به الريا   ضُ كما تُساس به الوكور
أوَ كُلُّ ما عند الرجا   لِ له الخواطبُ والمهور؟
والسجنُ في الأكواخ، أو   سجنٌ يقال له: القصور؟

* * *

تاللـه لـو أن الأد   يمَ جميعَه روضٌ ونور
في كل ظل ربوةٌ   وبكلّ وارفةٍ غدير
في كلّ ظلَّ من ذَهبٍ سيا   جٌ، أو من الياقوت سور
ما تَمَّ من دون السما   ءِ له على الأرض الحُبور
إن السماءَ جديرةٌ   بالطير، وهْوَ بها جدير
هي سَرْجُهُ المشدودُ، وهـ   ـو على أعِنَّتها أمير
حُرَّيَّةٌ خُلِق الإنا   ثُ لها، كما خُلِقَ الذكور

* * *

هاجَتْ بناتِ الشعرِ عيـ   ـنٌ من بنات النيل حُور
لي بينهن ولائدٌ   هم من سواد العين نور
لا الشعْر يأْتى في الجما   ن بمثلهن، ولا البحور
من أجلهن أنا الشفيـ   ـقُ على الدُّمَى، وأنا الغيور

أرجـو وآمـل أن سـتـجـــ ـــرى بـالـذى شِـئـنَ الأمـور

***

يا قاسمُ، أنظر: كيف سا ر الفكرُ وانتقل الشعور؟
جـابـت قـضـيَّـتُـكَ الـبـلا دَ، كـأنـهـا مَـثَـلٌ يـسـيـر
مـــا الـــنـــاسُ إلا أوّلٌ يـمـضـى فـيخـلُـفه الأخـير
الـفـكـرُ بـيـنـهـمـا عـلـى بُـعْـدِ المَـزارِ هـو السـفـير
هـذا الـبـنـاءُ الـفـخـمُ لـيـــ ـــس أسـاسُـه إلا الـحَـفـير
إن الـتـي خـلَّـفْـتَ أمـــ ـــسِ، وما سِواكَ لها نصير
نـهـض الـحـفـيُّ بـشـأْنـهـا وسعى لخدمتها الظهير
فـي ذمـة الـفُـضْـلَـى هـدى جِـيـلٌ إلـى هـاد فـقـيـر
أقـبـلْـنَ يـسـأَلْـنَ الـحـضـا رةَ مـا يُـفـيـد ومـا يَـضـيـر
مـا الـسُّـبْـلُ بَـيْـنَـةٌ، ولا كـلُّ الـهُـداةِ بـهـا بـصـيـر

***

مـا فـي كـتـابـكَ ظَـفْـرَةٌ تُـنْـعَـى عـلـيكَ، ولا غـرور
هَـذَّبْـتَـهُ حـتـى اسـتـقـامـت مـن خـلائـقـك الـسـطـور
ووضـعْـتَـه، وعـلـمْـتَ أن حـسـابَ واضـعِـه عـسـيـر
لـك فـي مـسـائـلـه الـكـلا مُ الـعـفُّ والـجـدلُ الـوَقـور
ولـك الـبـيـانُ الـجـذلُ فـي أثـنـائـه الـعـلـمُ الـغـزيـر
مـطـلـبٍ خَـشِـنٍ، كَـثـــ ـــيرٌ في مَزالقه العُثور
مـا بـالـكـتـاب ولا الـحـديـد ـــث إذا ذكـرْتَـهُـمـا نَـكـيـر
حـتـى لَـنـسـألُ: هـل تَـغـا رُ على العقائد، أم تُغير؟
عـشـرون عـامًـا مـن زوا لك ما هي الشئُ الكثير
رُعْـنَ الـنـسـاءَ، وقـد يَـرُو عُ المُشْفِقَ الجلَلُ اليسير
فـنَـسِـيـنَ أنـك كـالـبـدو ر، ودونَ رِفـعـتِـكَ الـبُـدور
تـفـنـى الـسَّـنـونَ بـهـا، ومـا آجـالُـهـا إلا شـهـور

***

لـقـد اخـتـلـفـنـا، والـمُـعـا شِـرُ قد يـخـالـفه الـعَـشـيـر
فـي الـرأْى، ثُـمّ أهـاب بـى وبـك الـمُـنـادِمُ والـسَّـمـيـر
ومـحـا الـرَّواحُ إلـى مـغـا نى الودَّ ما اقترف البُكور
في الرأْى تَضْطَغِنُ العقو لُ وليس تضطغن الصدور

* * *

قل لى بعيشِك: أين أنــ ــت؟ وأين صاحبُك الكبير؟
أيـن الإمـامُ؟ وأيـن إســ ــماعيلُ والملأُ المـنـيـر؟
لـمـا نـزلـتـم فـي الـثـرى تاهت على الشهب القبور
عـصـر الـعـبـاقـرةِ الـنـجـو مِ بنوره تمشى العصور

تكْريمُ حسَنين بك بمُنَاسَبَة طَيَرانه

جِنٌّ على حَرَمِ السماءِ أغاروا أم فتيةٌ ركبوا الجَناح فطاروا؟
من كلَّ أهوجَ في الهواءِ عِنانُه هُوجُ الرياحِ، وسَرْجُه الأعصار
يبغى حجابَ الشمس يطلب عندها عزًا تَحَمَّلـه الجُدودُ وساروا
لم يبقَ منه ومن حضارةِ عهدِه إلاَّ صُوًى مَحجوجةٌ ومنار
ومقالةُ الأجيالِ لم يَلْحَقْ بهم بانٍ، ولم يُدركْهمُ حَفَّار

* * *

طلعوا على الوادى براية عصرهم ولكلَّ عصرٍ رايةٌ وشِعار
اثنان ثم ترى النسور كثيرةً من كلَّ ناحية لها أَوْ كار
سِرُّ النجاحِ ورُكْنُ كلَّ حضارةٍ هِمَمٌ من المتطوعين كِبار
نُسِخَتْ بأبطال السماءِ بطولةٌ في الأرض يوشِكُ ركنُها ينهار
هذا زمانٌ لا ألأعِنَّةُ منزلٌ للبأْس فيه، ولا الأسِنَّةُ دار
ما البأْسُ إلا من جَنَاحَىْ خاطف في البرّ والبحرِ اسمُه الطيّار
أترى السلامة في السماءِ وظلَّها أم بالسماءِ يصولُ الاستعمار؟

حَرَمُ الهدى والحقَّ رِيعَ جلالُه … وغدا وراح بجانِبَيْه دَمار
يا جائبَ الصحراءِ ملْءُ سرابِها … غَرَرٌ، ومِلْءُ تُرابِها أخطار
يكفيك من هِمَمِ الشجاعةِ ليلةٌ … لك من غَوائلها خَلَتْ ونهار
لما اعتمدْتَ على الجناحِ تلفَّتَتْ … بِيدٌ، وقَلَّبَت العيونَ قِفار
في كلِّ صحراءٍ، وكلِّ تَنُوفَةٍ … أرضٌ عليك من السماءِ تَغار
(حَسَنَيْنُ)، لو لم يَعذِروكَ لبادرَتْ … لكَ من لسانِ جراحِكَ الأعذار
لله سرجُك في السماءِ، فإنه … سَرْجُ الأهِلَّةِ ما عليه غُبار
عَرَضَ الخُسوفُ له فما أزْرَى به … ما في الخسوف على الأهِلَّة عار
أوَلَمْ تَطَأْ أرضَ السماءِ، ولم تَدُرْ … حيثُ الشموسُ تَدورُ والأقمار؟
ألقى أبو الفاروق نحوك بالَه … وتشاغلت بك أمَّةٌ ودِيار
مَلِكٌ رُحِمْتَ بقُرْبِهِ وجِوارِه … حتى كأنك للعناية جار

* * *

نْصِبَ السُّرادِقُ والمطارُ، وحَلَّقَتْ … في الجوِّ تَلْمَسُ شَخْصَكَ الأبصار
فلمسْتَ أقْضِيَةَ السماءِ، وأسْفَرَتْ … حتى نظَرْتَ وجوهَها الأقدار
قَدَرٌ على يُمْنَى يَدَيْهِ سلامةٌ … لك حيثُ مِلْتَ، وفي السماءِ عِثار
فإذا سَقَطْتَ على حديد مُضْرَمٍ … صَدَفَ الحديدُ، ولم تَنَلْكَ النار
ماذا لقيتَ من النجائب كُلِّها؟ … قُلْ لِي، أعندَكَ للنجائب ثار؟
هِذى تَعَثَّرُ في الزِّمام، وتلك لا … تمضى، وأخرى في السُّلوك تَحار
فَشَلٌ يُعَظَّمُ كالنجاح عليه من … شَرَفِ الجروحِ ونورِهِنَّ فَخار
لو لم يكن قَتْلَى وجَرْحَى في الوَغى … لم يَعْلُ هامَ الظافرين الغار

صَقْرُ قُرَيْش (عَبْدُ الرَّحمن الدَّاخل)

موشح أندلسى

مَـنْ لِـنـضْـوٍ يـتَـنَـزَّى[٥٧] ألـمـا   بَـرَّحَ الـشـوقُ بـه فـي الـغَـلَـسِ
حَـنّ لـلْـبـانِ ونـاجَـى الـعَـلـمـا   أيـن شـرقُ الأرضِ مـن أنْـدَلُـسِ

* * *

بُـلـبُـلٌ عـلَّـمـه الـبـيـنُ الـبـيـان   بات في حَبْل الشُّجونِ ارْتَبكا
في سماءِ الليلِ مَخلوعَ العِنان   ضـاقـت الأرضُ عـلـيـه شَـبَـكـا
كلما اسْتَوْحَشَ في ظلَّ الجِنانْ   جُنَّ فاسْتَضْحَكَ مِنْ حَيْثُ بكى
ارتـدى بُـرْنُـسَـه والْـتَـثَـمـا   وخَـطـا خُـطْـوَةَ شَـيْـخٍ مُـرْعَـسٍ[٥٨]
ويُـرَى ذا حَـدَبٍ إن جَـثَـمـا   فـإن ارتّـدَّ بـدا ذاً قَـعَـسِ[٥٩]

* * *

فَـمُـهُ الـقـانـى عـلـى لَـبَّـتِـه   كبقايا الدَّمِ في نَصْل دَقيق
مَـدّه فـإنْـشَـقَّ مـن مَـنْـبِـتـه   مَنْ رأى شِقَّيْ مِقَصّ مِنْ عَقِيق؟
وبـكـى شـجـواً عـلـى شـعْـبـتـه   شَجْوَ ذاتِ الثُّكْلِ في السَّنْرِ الرَّقيق
سَـلّ ن فِـيـهِ لـسـانًـا عَـنَـمًـا[٦٠]   مـاضـيًـا فـي الـبَـثَّ لـم يَـحتَـبِـسِ
وتَـرٌ مـن غـيـر ضـربٍ رَنَّـمـا   فـي الـدُّجـى، أو شَـرَرٌ مـن قَـبَـسِ

* * *

نَـفَـرَتْ لَـوْعَـتْـه بـعـدَ الـهـدوءْ   والـدُّجى بيتُ الـجَـوَى والـبُـرَحـا
يَـتـعـايـا بـجَـنـاحٍ ويَـنـوءْ   بـجـنـاحٍ مُـذْ وَهَـى مـا صـلـحـا
سـاءَه الـدهـرُ، ومـا زال يَـسـوءْ   مـا عـلـيـه لـو أسـا مـا جَـرَحَـا
كـلّـمـا أدْمَـى يَـدَيْـه نَـدَمـا   سـالـتـا مـن طَـوْقِـه والـبُـرنُـسِ
فِـنِـيَـتْ أهـدابُـه إلاَ دَمـا   قـام كـالـيـاقـوت لـم يَـنْـبَـجِـسِ[٦١]

* * *

مَدَّ فـي الـلـيـلِ أنـينًـا وَخَـفَـقْ خَفَقَانَ القُرْطِ في جُنح الشَّعَرْ
فـرَغَـتْ مـنـه الـنَّـوى غـيـرَ رَمَـقْ فضلَةَ الجُرحِ إذا الجُرحُ نَغَرْ[٦٢]
يـتـلاشـى نَـزَوَاتٍ فـي حُـرَقْ كـذُبـالٍ آخِـرَ الـلـيـلِ اسْـتَـعَـرْ
لـم يـكـن طَّـوْقًـا، ولـكـنْ ضـرَمـا مـا عـلـى لَـبَّـتـه مـن قَـبَـسِ
رحـمـةُ الـلـهِ لـه! هـل عَـلِـمـا أنّ تلك النفسَ من ذا النَّفَسِ؟

* * *

قُلْتُ للَّيْلِ — ولـلـيـل عَـوَادْ — مَنْ أخو البَثِّ؟ فقال: ابنُ فِراقْ
قلت: ما واديه؟ قال: الشَّجْوُ وادْ لـيـس فـيـه مـن حِـجـازٍ أو عـراقْ
قـلـتُ: لـكـنْ جَـفْـنُـه غـيـرُ جـوادْ قال: شرُّ الدمعِ ما ليس يُراقْ
نَـغْـبِـطُ الـطـيـرَ، ومـا نـعـلـم مـا هـي فـيـه مـن عـذاب بَـئِـسِ
فـدَعِ الـطـيـرَ وحـظًّـا قُـسِـمـا صَـيَّـرَ الأيْـكَ كُـدورِ الأنَـسِ

* * *

ناحَ إذا جَفْناىَ في أسْرِ النجومْ رَسفَا في السُّهْدِ والدّمعُ طليقْ[٦٣]
أيُّها الصارخُ من بحر الهموم ما عسى يُغنى غريقٌ عن غريقْ؟
إن هـذا الـسَّـهـمَ لـى مـنـه كُلُومْ كـلُّـنـا نـازحُ أيْـكِ وفـريـق
قـلَّـب الـدنـيـا تَـجِـدْهَـا قِـسَـمـا صُـرِّفَـتْ مـن أنْـعُـمٍ أو أبْـؤسِ
وانـظـر الـنـاسَ تَـجِـدْ مـن سَـلِـمـا من سهام الدهر شَجَّتْهُ القِسِى

* * *

يا شبابَ الشرقِ عُنْوانَ الشبابْ ثمراتِ الحَسَبِ الزّاكى النَّمير
حَسْبُكم في الكرم الْمَحضِ اللُّبَابْ سِيرةٌ تبقى بقاءَ ابنىَ سَميرْ[٦٤]
في كتاب الفخر (للداخلِ)[٦٥] بابْ لم يَلِجْه من بنى المُلْكِ أميرْ
في الشموس الزُّهْرِ بالشام انتمى ونَـمَـى الأقـمـارَ بـالأنـدلـسِ
قـعـد الـشـرقُ عـلـيـهـم مـأتَـمـا وانثنى الغربُ بهم في عُرُسِ

* * *

هـل لـكـم فـي نَـبَـإٍ خـيـر نَـبَـأْ حِـلْـيـةِ الـتـاريـخِ، مَـأثـورِ عظيمْ

حَلَّ في الأنباءِ ما حَلَّتْ سَبَأْ ... منزلَ الوَسْطَى من العِقْدِ النَّظِيمْ
مِثْلَه المقدارُ يومًا ما خَبَأْ ... لسَليب التاجِ والعرشِ كظيم
يُعْجِزُ القُصّاصَ إلا قَلَمَا ... في سوادٍ مِنْ هَوًى لم يُغْمَسِ
يُؤْثِرُ الصدقَ ويَجْزِى عَلَما ... قلَبَ العالمَ لو لم يُطْمَس؟

* * *

عن عِصامِيَّ نبيلٍ مُعْرِقِ ... في بُناةِ المجدِ ابناءِ الفخَار؟
نهضت دَوْلَتهُم بالمشرقِ ... نهضَة الشمس بأطراف النهارْ
ثم خان التاجُ وُدّ المَفْرِقِ ... ونبَتْ بالأَنْجُمِ الزُّهْرِ الديارْ
غفلوا عن ساهر حولَ الحِمى ... باسطٌ من ساعِدَيْ مُفْترِسِ
حام حولَ الملكِ ثم اقتحما ... ومشى في الدم مَشْيَ الضَّرِسِ

* * *

ثَأْرُ عثمانَ لمروانٍ مَجازْ ... وَدَم السَّبْطِ[٦٦] أثار الأقربونْ
حَسَّنوا للشام ثأْرًا والحجازْ ... فتغالى الناسُ فيما يطلبونْ
مَكْرُ سُوّاسٍ على الدَّهْماءِ جازْ ... ورُعاةٌ بالرعايا يلعبون
جعلوا الحقَّ لبَغْي سُلَّمَا ... فهو كالسَّتر لهم والتُّرُسِ
وقديمًا باسمه قد ظَلَما ... كلُّ ذى مِئْذَنَةٍ أو جَرَسِ

* * *

جُزِيَتْ مَرْوَانُ[٦٧] عن آبائِها ... ما أراقوا من دِماءٍ ودُموعْ
ومن النفسِ ومن أهوائها ... ما يؤدَّيه عن الأصل الفُروعْ
خَلَت الأعوادُ من أسمائها ... وتَغَطَّتْ بالمصالِيب الجُذوعْ
ظَلَمتْ حتى أصابَتْ أظْلَما[٦٨] ... حاصدَ السيفِ، وبىءَ المَحبَسِ
فَطِناً في دعوة الآلِ لما ... هَمس الشَّانِى وما لم يَهْمِسِ

* * *

لبِسَتْ بُرْدَ النبيَّ النَّيِّراتْ ... من بنى العباس نورًا فوقَ نُورْ
وقديمًا عند مَرْوَانٍ تِراثْ ... لزكِيّاتٍ من الأنفُسِ نُورْ

فنجا الداخلُ سَبحْاً بالفُراتْ … تاركَ الفتنةِ تطْغَى وتَنور[69]
غَسَّ[70] كالحُوتِ به واقتحما … بين عِبْرَيْهِ عيونَ الحرَسِ
ولقد يُجْدِى الفتى أن يَعلَما … صَهوةَ الماءِ ومَتْنَ الفَرَس

* * *

صَحِبَ الداخلَ من إخْوَتِهِ … حَدَثٌ خاض الغُمَارَ ابْنَ ثَمَانْ
غلَبَ الموجَ على قُوَّتِه … فكأْن الموجَ من جُندِ الزمانْ
وإذا بالشَّطِّ من شِقْوَتِهِ … صائحٌ صاحَ به: نِلتَ الأمانْ
فانثنى مُنْخَدِعًا مُسْتَسْلِما … شاةٌ اغْتَرَّتْ بعهدِ الأطْلَسِ[71]
خَضَبَ الجندُ به الأرضَ دَما … وقلُوبُ الجندِ كالصخرِ القَسِى

* * *

أيها اليائسُ، مُتْ قبلَ المماتْ … أو إذا شئتَ حياةً فالرَّجا
لا يَضِقْ ذَرْعُك عند الأزماتْ … إن هي اشتدَّتْ وأَمَّلْ فَرَجا
ذلك الداخلُ لاقَى مُظْلِماتْ … لم يكن يأمُل منها مَخْرجا
قد تَوَلَّى عِزُّه وانصَرما … فمضى من غَدِه لم يَيْأَسِ
رامَ بالمغربِ مُلْكًا فرمى … أبعدَ، الغَمْرِ، وأقصى اليَبَسِ

* * *

ذاك — واللهِ — الغِنَى كلُّ الغِنَى … أىّ صعبٍ في المعالى ما سَلَكْ
ليس بالسائل إن هَمَّ: مَتى؟ … لا، ولا الناظرِ ما يُوحِى الفَلَكْ
زايَلَ المُلْكُ ذَوِيهِ فأتى … مُلكَ قومٍ ضَيَّعوه فملَكْ
غَمَراتٌ عارَضَتْ مُقْتَحِما … عالِيَ النفسِ أَشَمَّ المَعْطس[72]
كلُّ أرضٍ حَلَّ فيها، أو حِمَى … منزلُ البدرِ، وغابُ البَيْهَسِ[73]

* * *

نزَلَ النَّاجى على حُكم النَّوَى … وتَوارَى بالسُّرى من طالبيهْ
غيرَ ذى رَحْلٍ ولا زادٍ سوى … جَوْهَرٍ وافاه من بيت أبيهْ
قمرٌ لاقى خُسوفًا فانْزَوى … ليس من آبائه إلا نبِيهْ

لـم يَـجِـدْ أعـوانَـه والـخَـدَمـا جـانـبـوه غـيـرَ (بَـدْرِ) الـكَـيِّـسِ
مـن مَـوَالِـيـه الـثِّـقـاتِ الـقُـدمـا لـم يخنـه فـي الزمـان المُـوئِسِ

* * *

حينَ في إفريقيا انحلَّ الوِئَامْ وتَـوارَى بـالـسُّـرَى مـن طـالـبـيـهْ
مـاتـت الأمَّـةُ فـي غـيـر الـتـئـامْ جَـوْهَـرٍ وافـاه مـن بـيـت أبـيـهْ
يَـمَـنٌ سَـلَّـتْ ظـبـاهـا والـشـآمْ لـيـس مـن آبـائـه إلا نـبـيـهْ
فـرَّق الـجـندَ الـغِـنـى فـانـقَـسـمـا جـانـبـوه غـيـرَ (بَـدْرِ) الـكَـيِّـسِ
أوحَـشَ الـسُّـؤددُ فـيـهـم، وسَـمـا لـم يخنـه فـي الزمـان المُـوئِسِ

* * *

حينَ في إفريقيا أنحلَّ الوِئَامْ واضـمـحـلَّـتْ آيـةُ الـفـتـحِ الـجـلـيـلْ
مـاتـت الأمَّـةُ فـي غـيـر الـتـئـامْ وكـثـيـرٌ لـيـس يـلـتـامُ قـلـيـلْ
يَـمَـنٌ سَـلَّـتْ ظـبـاهـا والـشـآمْ شـامَـهـا[٧٤] هِـنْـدِيَّـةً ذاتَ صَـلـيـلْ
فـرَّق الـجـندَ الـغِـنـى فـانـقَـسـمـا وغـدا بـيـنـهـم الـحـقُّ نَـسِـى
أو حَـشَ الـسُّـؤددُ فـيـهـم، وسَـمـا لـلـمـعـالـى مَـنْ بـه لـم تَـأنَـسِ
رُجِـمـوا بـالـعَـبـقـريِّ الـنَّـابِـهِ البعيدِ الهِمَّةِ الصَّعْبِ القِيادْ
مـدَّ فـي الـفـتـحِ وفـي أطـنـابِـهِ لم يَقِفْ عندَ بِناءِ ابن زِياد[٧٥]
هـجـرَ الـصَّـيْـدَ، فـمـا يُـغْـنَـى بـه وهْوَ بالملك رفيقٌ ذو اصطيادْ
سـئـلْ بـه أنـدلـسًـا: هـل سَـلِـمـا من أخى صَيْدٍ رفيق مَرِسِ؟[٧٦]
جـرِّد الـسـيـفَ، وهـزَّ الـقـلـمـا ورمـى بـالـرأى أمَّ الـخُـلَـس[٧٧]

* * *

بـسـلامٍ شـا شِـراعًـا مـا دَرَى مـا عـلـيـه مـن حَـيـاءٍ وسَـخـاءْ
في جَنَاحِ المَلَكِ الرُّوح[٧٨] جَرى وبـريـحٍ حـفَّـهـا الـلـطـفُ رُخَـاءْ
غـسـل الـيَـمُّ جِـراحَـاتِ الـثَّـرى ومحا الشَّدَّةَ مَنْ يمحو الرَّخاءْ
هـل دَرى أنـدلـسٌ مَـنْ قِـدمَـا دارَه من نحو بيتِ المَقدِسِ؟
بـسـلـيـل الأمَـوِيّـيـن سَـمـا فـتـحُ مـوسـى مُـسْـتَـقِـرَّ الأسُـسِ

* * *

أمــوِيٌّ لــلــعُــلا رِحــلَــتُــهُ والـمـعـالـى بـمـطِـيٍّ وطُـرُقْ
كـالـهـلال انـفـردَتْ نُـقْـلَـتُـهُ لا يُـجـاريـه ركـابٌ فـي الأفُـقْ
بُـنِـيَـتْ مـن خُـلُـق دُولـتُـهُ قد يَشِيدُ الدُّوَلَ الشُّمَّ الخُلُقْ
وإذا الأخـلاقُ كـانـت سُـلَّـمـا نالت النجمَ يَدُ للمُلتَمِسِ
فارْقَ فيها تَرْقَ أسبابَ السما وعلى ناصيةِ الشمسِ اجْلِسِ

* * *

أيّ مُلكٍ من بِناياتِ الهِمَمْ أَسَّسَ الدّاخلُ في الغربِ وشادْ؟
ذلك الناشئ في خيرِ الأمَمْ ساد في الأرض ولم يُخْلَقْ يُساد
حكمَتْ فيه الليالي وحَكمْ في عَواديها قِيادًا بِقيادْ
سُلِب العزَّ بشرقٍ فرَمى جانبَ الغربِ لعزًّ أقْعَسِ
وإذا الخيرُ لعبدٍ قُسِما سنَح السَّعدُ له في النَّحَسِ

* * *

أيُّهَا القلبُ، أحقٌّ أنتَ جارْ للذى كان على الدهر يجِيرْ؟
هاهنا حلّ به الرّكبُ وسارْ وهنا ثاوٍ إلى البعث الأسيرْ
فَلَكٌ بالسعدِ والنحسِ مُدارْ صَرع الجَامَ[٧٩] وألْوَى بالمُديرْ
هاهنا كنتَ تَرى حُوَّ الدُّمَى فاتناتٍ بالشَّفاه اللُّعُسِ[٨٠]
ناقلاتٍ في العَبيرِ القَدَما واطئاتٍ في حَبيرِ السُّندُسِ

* * *

خُذْ عن الدنيا بليغَ العِظَةِ قد تَجَلَّتْ في بليغ الكَلِم
طَرفاها جُمِعا في لَفْظَةٍ فتأمَّلْ طَرفَيْها تَعْلَمِ
الأمانى حُلمٌ في يَقْظَةٍ والمنايا يقظةٌ من حُلُمِ
كلُّ ذى سِقْطَيْنِ[٨١] في الجوَّ سما واقعٌ يومًا وإن لم يُغْرَسِ
وسيلقى حَيْنَهُ نَسْرُ السما يوم تُطْوَى كالكتاب الدرس

***

أين — يا واحدَ مروانَ — عَلَمْ … من دعاك الصقر سَمَّاه العُقابْ؟[82]
رايـةٌ صـرَّفـهـا الـفـرْدُ الـعَـلَـمْ … عن وجوه النصرِ تصريفَ النقابْ
كنتَ إن جرَّدْتَ سيفًا أو قَلَمْ … أبْتَ بالألباب أو دِنْتَ الرِّقابْ
مـا رأى الـنـاسُ سـواه عَـلَـمـا … لـم يُـرَمْ فـي لُـجَّـةٍ أو يـبـسِ
أعَـلـى رُكـن الـسَّـمـاك أدَّعَـمـا … وتـغـطَّـى بـجَـنـاح الـقُـدُسِ

***

قصرُك (المُنْيَةُ) من قُرْطُبَةِ … فـيـه وارَوْكَ، ولـلـهِ الـمَـصـيـرْ
صَـدَفٌ خُـطَّ عـلـى جـوهـرة … بَيْدَ أن الـدهـر نَـبَّـاشٌ بـصـيـرْ
لـم يَدَعْ ظَّلا لـقصر (المُنْيَةِ) … وكـذا عُـمْـرُ الأمـانِـيَّ قـصـيـرْ
كـنـتَ صـقـرًا قُـرَشِـيًّـا عَـلَـمَـا … ما على الصقر إذا لم يُرْمَسِ
إن تـسَـلْ: أيـن قـبـورُ الـعُـظَـمـا؟ … فـعـلـى الأفـواه أو فـي الأنـفُـسِ

***

كـم قـبـورٍ زَيَّـنَـتْ جِـيـدَ الـثـرى … تحتها أنجسُ من مَيْتِ المجوسْ
كان مَنْ فيها وإن جازوا الثرى … قبلَ موتِ الجسم أمواتُ النفوسْ
وعـظـامٌ تـتـزكَّـى عـنـبـرا … من ثناءٍ صِرْنَ أغفالَ الرُّموسْ
فـاتَّـخِـذْ قـبـرَك مـن ذِكـرٍ، فـمـا … تَبْنِ من محموده لا يُطْمَسِ
هَبْكَ من حرص سكْنتَ الهرما … أين بانيه المينعُ الملْمَسِ؟!

رَحْلَة

شـيّـعـتُ أحـلامـي بـقـلـبٍ بـاكِ … ولمحتُ من طُرُق المِلاحِ شِباكي
ورجـعـتُ أدراجَ الـشـبـاب ووِرْدَه … أمـشـي مـكـانَـهـمـا عـلـى الأشـواك
وبـجـانـبـي واهٍ، كـأن خُـفـوقَـه … لـمـا تـلـفَّـتَ جَـهْـشَـةُ الـمـتـبـاكـي

شاكى السلاحِ إذا خلا بضلوعه فإذا أُهِيبَ به فليس بشاك
قد راعه أني طوَيْتُ حبائلي من بعد طول تناولٍ وفكاك
وَيْحَ ابنِ جَنْبى؟ كلُّ غايةِ لذَّةٍ بعدَ الشباب عزيزةُ الإدراك
لم تبقَ منا — يا فؤادُ — بقيّةٌ لفتوّةٍ. أو فَضلةٌ لعِراك
كنا إذا صفَّقْتَ نستبق الهوى ونَشُدُّ شَدَّ العُصبةِ الفُتَّاك
واليومَ تبعث فيّ حين تَهُزُّني ما يبعث الناقوسُ في النُّسَاك
يا جارةَ الوادى، طَرِبْتُ وعادني ما يشبهُ الأحلامَ من ذكراك
مَثَّلْتُ في الذكرى هواكِ وفي الكرى والذكرياتُ صَدَى السنينَ الحاكى
ولقد مررْتُ على الرياض بَربْوَةٍ غَنَّاءَ كنتُ حِيالَها ألقاك
ضحِكَتْ إليَّ وجُوهها وعيونُها ووجدْتُ في أنفاسها ريّاك
فذهبتُ في الأيام أذكر رَفْرَفًا بين الجداولِ والعيونِ حَواك
إذكَرْتِ هَرْوَلَةَ الصبابةِ والهوى لما خَطَرْتِ يُقبَّلان خُطاك؟
لم أدر ما طِيبُ العِناقِ على الهوى حتى ترفَّق ساعدى فطواك
وتأوَّدتْ أعطافُ بانِك في يدى واحمرّ من خَفَرَيْهما خدّاك
ودخَلْتُ في ليلين: فَرْعِك الدُّجى ولثمتُ كالصبّح المنوَّرِ فاكِ
ووجدْتُ في كُنْهِ الجوانحِ نَشْوَةً من طيب فيك، ومن سُلاف لَمَاك
وتعطَّلَتْ لغةُ الكلامِ وخاطبّتْ عَيْنَيَّ في لغة الهوى عيناك
ومَحَوْتُ كلَّ لُبانةٍ من خاطرى ونَسِيتُ كلَّ تَعاتُبٍ وتَشاكى
لا أمسِ من عمرِ الزمان ولا غَدٌ جُمِع الزمانُ فكان يومَ رِضاك

* * *

لُبنانُ، ردّتنى إليكَ من النوى أقدارُ سَيْرٍ للحياة دَرَاك
جمعَتْ نزيلَىْ ظَهرها من فُرقةٍ كُرَةٌ وراءَ صَوالجِ الأفلاك
نمشى عليها فوقَ كلَّ فجاءَةٍ كالطير فوقَ مَكامِنِ الأشراك
ولو أنَّ بالشوق المزارُ وجدتنى مُلْقى الرحالِ على ثَراك الذاكى

* * *

بِنْتَ البِقاعِ وأمَّ بَرَدُونِيَّها طِيبِى كجِلَّقَن واسكبى بَرداك

ودِمَشْقُ جَنَّاتُ النعيم، وإنما … ألفَيْتُ سُدَّةَ عَدْنِهِنَّ رُباك

قَسَمًا لو انتمت الجداولُ والرُّبا … لتهلَّل الفردوسُ، ثُمَّ نَماك

مَرْآكِ مَرْآه وَعَيْنُكِ عَيْنُه … لِمْ يا زُحَيْلَةُ لا يكون أباك؟

تلك الكُرُومُ بقيَّةٌ من بابلٍ … هيْهَاتَ! نَسَّى البابليَّ جَناك

تُبْدِى كَوَشْيِ الفُرْسِ أفْتَنَ صِبْغَةٍ … للناظرين إلى ألَذِّ جِياك

خَرَزاتِ مِسْكٍ، أو عُقودَ الكهربا … أودِعْنَ كافورًا من الأسلاك

فكَّرْتُ في لَبَنِ الجِنانِ وخمرِها … لما رأيْتُ الماءَ مَسَّ طِلاك

لم أنْسَ من هِبَةِ الزمانِ عَشِيَّةً … سَلَفَتْ بظلِّكِ وانقضَتْ بذَراك

كُنْتِ العروسَ على مِنصَّة جِنْحِها … لُبنانُ في الوَشْيِ الكريم جَلاك

يمشى إليكِ اللّحظُ في الديباج أو … في العاج من أيِّ الشِّعابِ أتاك

ضَمَّتْ ذراعيْها الطبيعةُ رِقَّةً … صِنِّينَ والحَرَمُونَ[٨٣] فاحتضناك

والبدرُ في ثَبَج السماءِ مُنَوَّرٌ … سألت حُلاه على الثرى وحُلاك

والنيِّراتُ من السحاب مُطلَّةٌ … كالغِيد من سِتْرٍ ومن شُبّاك

وكأنَّ كلَّ ذُؤابةٍ من شاهِقٍ … ركنُ المجرَّةِ أو جدارُ سِماك

سكنَتْ نواحى الليلِ، إلا أنّةً … في الأيْكِ، أو وَتَرًا شَجِىّ حَراك

شرفًا — عروسَ الأرْزِ — كلُّ خَريدةٍ … تحتَ السماءِ من البلاد فِداك

رَكَزَ البيانُ على ذراك لواءَه … ومشى ملوكُ الشعر في مَغناك

أدباؤكِ الزُّهْرُ الشموسُ، ولا أرى … أرضًا تَمَخَّضُ بالشموس سِواك

من كلّ أرْوَعَ عِلْمُه في شعره … ويراعُه من خُلْقه بمَلاك

جمع القصائدَ مِن رُباك، وربّما … سرق الشمائلَ من نسيم صَباك

(موسى) ببابكِ في المكارم والعلا … وعَصاه في سحر البيانِ عَصاكِ

أحْلَلْتِ شعرى منكِ في عُليا الذُّرا … وجَمَعْتِه برواية الأملاك

إن تُكرمي يا زَحْلُ شعرى إنني … أنكرْتُ كلَّ قصيدة إلاَّك

أنتِ الخيالُ: بديعُهُ، وغريبُه … الله صاغك، والزمانُ رَواك

ذِكَرى اسْتِقْلالِ سُورِيّا وذِكْرَ شُهَدَائهِا

حـيـاةٌ مـا نـريـدُ لـهـا زِيـالا ... ودنـيـا لا نـودّ لـهـا انـتـقـالا
وعيشٌ في أصول الموتِ سمٌّ ... عُصارتُه، وإن بَسَط الظلالا
وأيـامٌ تـطـيـرُ بـنـا سـحـابًـا ... وإن خِيلَتْ تَدِبّ بنا نمِالا
نُريها في الضمير هضوًى وحُبًّا ... ونُسمِعها التبرُّمَ والملالا
قِصارٌ حين نجرى اللهوَ فيها ... طوالٌ حين نقطعها فعالا
ولم تضق الحياةُ بنا، ولكنْ ... زحامُ السوءِ ضيَّقها مَجالا
ولم تقتل براحتها بَنيها ... ولكنْ سابقوا الموتَ اقتتالا
ولو زاد الحياةَ الناسُ سعيًا ... وإخلاصًا لزادتهم جمالا

***

كأن الله إذا قَسَم المعالى ... لأهل الواجب أدّخر الكمالا
ترى جِدًّا، ولست ترى عليهم ... ولوعًا بالصغائر واشتغالا
وليسوا أرغَد الأحياءِ عيشًا ... ولكنْ أنعَمَ الأحياءِ بالا
إذا فعلوا فخيرُ الناس فعلاً ... وإن قالوا فأكرمهُم مَقالا
وإن سَألتْهُمُو الأوطانُ أعطَوْا ... دمًا حرًّا، وابناءً، ومالا

***

بَنِى البلدِ الشقيقِ، عزاءَ جارٍ ... أهاب بدمعه شَجَنٌ فسالا
قضى بالأمس للأبطال حقًّا ... وأضحى اليومَ بالشهداءِ غالى
يُعظّم كلَّ جُهدٍ عبقيًّ ... أكان السّلْمَ أم كان القتالا
وما زلنا إذا دَهَت الرزايا ... كأرحمِ ما يكون البيتُ آلا
وقد أنسى الإساءَةَ من حسودٍ ... ولا أنس الصنيعةَ والفَعالا
ذكرتُ المِهْرَجانَ وقد تجلَّى ... ووفدَ المشرقين وقد توالى
ودارِى بينَ أعراسِ القوافي ... وقد جُلِيَتْ سماءً لا تُعالى
تسلَّلَ في الزحام إلىَّ نِضْوٌ ... من الأحرار تحسبه خيالا
رسولُ الصابرين ألمّ وهنًا ... وبلَّغني التحيةَ والسؤالا

دنا مني فناولني كتابًا ... أحسَّتْ راحتاي له جلالا
وجدتُ دمْ الأسودِ عليه مِسْكًا ... وكان الأصلُ في المِسْكِ الغزالا
كأنّ أسامِيَ الأبطالِ فيه ... حَوَاميمٌ على رَقَّ تتالى
رواةٌ قصائدى قد رتَّلوها ... وغَنَّوْها الأسِنَّةَ والنَّصالا
إذا ركزوا القنا انتقلوا إليها ... فكانت في الخيام لهم نِقالا

* * *

بَنِى سوريَّةَ، التئموا كيومٍ ... خرجتم تطلبون به النِّزالا
سَلُوا الحريةَ الزهراءَ عنَّا ... وعنكم: هل أذاقتنا الوِصالا؟
وهل نِلْنَا كلانا اليومَ إلا ... عراقيبَ المواعدِ والمِطالا؟
عرفتم مهرَها فمهرتموها ... دمًا صَبَغَ السباسبَ والدَّغالا
وقمتم دونها حتى خضبتمْ ... هَوَادِجَها الشريفةَ والحِجالا
دعوا في الناس مفتونًا جبانًا ... يقول: الحربُ قد كانت وَبالا
أيطلب حقَّهم بالروح قومٌ ... فتسمع قائلا: ركبوا الضلالا؟
وكونوا حائطًا لا صدعَ فيه ... وصفًّا لا يُرَقَّع بالكسالى
وعيشوا في ظلالِ السلم كدًّا ... فليس السلمُ عجزًا واتّكالا
ولكن أبْعَدَ اليومين مَرْمًى ... وخيرَهما لكلم نصحًا وآلا
وليس الحربُ مَرْكَبَ كلَّ يومٍ ... ولا الدمُ كُلَّ آونةٍ حلالا

* * *

سأذكر ما حَيِيتُ جدارَ قبرٍ ... بظاهر جِلَّق رَكِبَ الرمالا
مقيمٌ ما أقامت (ميسلونٌ) ... يذكر مصرعَ الأسِد الشِّبالا
لقد أوْحَى إلىّ بما شجانى ... كما توحي القبورُ إلى الثّكالى
تَغيَّبَ عظَمةُ العَظَماتِ فيه ... وأوُلُ سيِّدٍ لَقِيَ النَّبالا
كأن بُناتَهُ رفعوا مَنارًا ... من الإخلاص، أو نصبوا مِثالا
سرجُ الحقَّ في ثَبَجِ الصحارى ... تَهاب العاصفاتُ له ذُبالا
ترى نورَ العقيدةِ في ثراه ... وتَنْشَقُ من جوانبه الخِلالا
مشى ومشَتْ فيالقُ من فرنسا ... تجرّ مَطارِفَ الظفرِ اختيالا

مـلأنَ الـجـوّ أسـلـحـةً خِـفـافًـا ووجـهَ الأرضِ أسـلـحـةَ ثِـقـالا
وأرسَـلْـن الـريـاحَ عـلـيـه نـارًا فما حفل الجنوبَ ولا الشَّمالا
سلوه: هل ترجَّل في هبوبٍ من النيران أرْجَلَت الجِبالا؟
أقـام نـهـارَه يُـلْـقِـى ويَـلْـقَـى فلما زال قرصُ الشمس زالا
وصاح، ترى به قَيْدَ المنايا ولستَ ترى الشَّكِيَم ولا الشَّكالا
فـكُـفَّـن بـالـصـوارم والـعـوالـى وغُيِّب حيثُ جال وحيثُ صالا
إذا مّـرتْ بـه الأجـيـالُ تَـتْـرَى سـمِـعْـتَ لـهـا أزيزًا وابـتـهـالا
تَعلَّق في ضمائرهم صليبًا وحـلَّـق فـي سـرائـرهـم هـلالا

تِمثالُ نَهْضةِ مِصْر

جـعـلـتُ حُـلاهـا وتـمـثـالـهـا عـيـونَ الـقـوافـي وأمـثـالَـهـا
وأرسلتُها في سماءِ الخيال تـجـرُّ عـلـى الـنـجـم أذيـالـهـا
وإنـى لِـغـرَّيـدُ هـذى الـبِـطـاحِ تَـغَـذَّى جَـنـاهـا وسَـلْـسـالـهـا
تـرى مِـصـرَ كـعـبـةَ أشـعـاره وكـلَّ مـعـلَّـقـةٍ قـالـهـا
وتـلـمَـحُ بـين بـيـوتَ الـقـصـيـدِ حِجالَ[٨٤] العروسِ وأحجالها[٨٥]
أدار الـنـسـيـبَ إلـى حـبَّـهـا وولَّـى الـمـدائـحَ إجـلالـهـا
أرَنَّ بـغـابـرهـا الـعـبـقـرىَ وغـنَّـى بـمـثـل الـبُـكـا حـالـهـا
ويَـرْوِى الـوقـائـعَ فـي شـعـره يَروضُ على البأْس أطفالها
وما لمَحوا بعدُ ماءَ السيوفِ فـمـا ضَـرّ لـو لـمَـحـوا آلـهـا

* * *

ويومٍ ظليل الضحى من بشَنسَ أفـاءَ عـلـى مـصـرَ آمـالـهـا
رُوَى ظلُّه عن شباب الزمانِ رفيفَ الحواشى وإخضالها[٨٦]
مشَت مصرُ فيه تُعيد العصورَ ويـغـمـرُ ذكـرُ الـصـبَّـا بـالـهـا
وتَعْرض في المِهرجان العظيمِ ضُـحـاهـا الـخـوالـى وآصـالـهـا

***

وأقبل (رمسيسُ) جَمَّ الجَلال سَنِيَّ المواكبِ، مُختالها
وما دان إلا بِشُورَى الأمور ولا اختال كِبْرًا، ولا استالها[٨٧]
فحيًّا بأبْلجَ مثلِ الصَّباحِ وجوهَ البلادِ وأرسالها
وأوْما إلى ظلماتِ القرونِ فشقّ عن الفنّ أسدالها

***

فمن يُبْلغْ (الكرنكَ) الأقصُريَّ ويُنْبِئ (طِيبةَ) أطلالها
ويُسمِع ثَمَّ بِوادي الملوكِ ملوكَ الديار وأقيالها
وكلَّ مخلَّدةٍ في الدُّمَى هنالك لم نُحْصِ أحوالها
عليها من الوَحْيِ ديباجةٌ ألحَ الزمانُ فما ازدالها
تكاد — وإن هي لم تتصل بروحٍ — تُحَرَّك أوصالها
وما الفنُّ إلا الصريحُ الجميلُ إذا خالَط النفسَ أوحى لها
وما هو الإجمالُ العقول إذا هي أوْلَتْه إجمالها

***

لقد بعث اللهُ عهدَ الفنون وأخرجت الأرضُ مَثَّالها
تعالوْا نرى كيف سوَّى الصَّفاةَ فتاةً تُلمْلِمُ سِربالها
دنت من أبى الهول مَشى الرَّءُومِ إلى مُقْعَدٍ هاج بَلْبالها
وقد جاب في سَكَرات الكَرَى عُرُوضَ الليالى وأطوالها
وألْقى على الرمل أرْواقه[٨٨] وأرْسىَ على الأرض أثقالها
يُخال لإطراقه في الرَّمال سَطِيحَ[٨٩] العصورِ ورَمّالها
فقالت: تَحرَّكْ، فَهمّ الجمادُ كأن الجمادَ وعَى قالها
فهل سَكبَتْ في تجاليده شُعاعَ الحياةِ وسَيَّالها؟
أتذكرُ إذا غضبَت كاللّباة[٩٠] ولمّت من الغِيل أشبالها؟
وألقت بهم في غِمار الخطوبِ فخاضوا الخطوبَ وأهوالها
وثاروا، فجنّ جُنونُ الرياحِ وزُلزِلتِ الأرضُ زِلزالها

وبـات تـلَـمُّـسُـهـم شـيـخَـهـم   حـديـثَ الـشـعـوب وأشـغـالـهـا
ومـن ذا رأى غـابـةً كـافـحـتْ   فـردَّت مـن الأسْـرِ رئـبـالـهـا؟
وأهْيَبُ ما كان بأْسُ الشعوَب   إذا سـلَّـح الـحـقُّ أعـزَلـهـا

* * *

(فؤادُ)، ارفع السَّترَ عن نهضة   تـقـدّم جَـدُّك أبـطـالـهـا
ورُبٌ امـرئ لـم تَـلِده الـبـلادُ   نـمـاهـا، ونـبَّـه أنـسـالـهـا[٩١]
ولـيـس الـلآلـئ مِـلْـكَ الـبـحـورِ   ولـكـنـهـا مِـلْـكُ مـن نـالـهـا
ومـا (كـعـلـيًّ) ولا جـيـلـه   إذا عَرضت مـصـرُ أجـيـالـهـا
بَنَوْا دولـةً مـن بـنـات الأسِـنَّــ   ــةِ لم يشهد (النيلُ) أمثالها
لئن جلَّل البحرَ أسطولُها   لقد لبِس البرُّ قَسطالها[٩٢]
فـأمـا أبـوكَ فـديـنـا الـحـضـا   رةِ لو سالم الدّهرُ إقبالها
تـخـيّـر (إفـريـقـيـا) تـاجَـه   وركَّب في التاج (صُومالها)
ركابُك يا (ابن المُعِزَّ) الغُيوثُ   ويفضُلْنَ في الخير مِنوالها
إذا سِرْن في الأرض نَسَّيْنها   ركـابَ الـسـمـاءِ وأفـضـالـهـا
فَلم تبرح القصَر إلا شفيْتَ   جُدوبَ الـعـقـول وإمـحـالـهـا
لقد ركَّب اللهُ في ساعديك   يـمـيـنَ الـجـدود وشـيـمـالـهـا
تـخُـطُّ وتَبنِى صُروحَ العلومِ   وتـفـتـح لـلـشـرّق أقـفـالـهـا

الحُريّة الحمْراءُ

قيلت في احتفال بيوم ١٣ نوفمبر

في مِهرجانِ الحقَّ أو يوم الدمِ   مُـهَـجٌ من الشـهداءِ لم تتكلم
يبدو على هاتورَ نورُ دمائها   كدمِ الحسينِ على هلال محرّم
يومُ الجِهادِ بها كمصدر نَهارِه   متمايِلُ الأعطافِ مُبْتسِمُ الفم
طلعت تَحُجُّ البيتَ فيه كأنها   زُهْرُ الملائكِ في سماءِ المَوْسم
لم لا تُطِلُّ من السماء وإنما   بين السحابِ قبورُها والأنجم؟

ولقد شَجاها الغائبون، وراعها ... ما حلَّ بالبيت المضيءِ المظلمِ
وإذا نظرتَ إلى الحياة وجدْتَها ... غُرسًا أقيم على جوانب مأْتم
لا بُدَّ للحرّية الحمراءِ من ... سَلوى تُرَقَّد جرحَها كالبَلسم
وتبسُّمٍ يعلو أسِرَّتَها كما ... يعلو فمَ الثَّكْلَى وثغرَ الأيِّم
يومُ البطولة لو شهدْتُ نهارَه ... لنظمْتُ للأجيالِ ما لم يُنْظَم
غُبِنَتْ حقيقتُه، وفات جمالُها ... باعَ الخيالِ العبقرىَّ الملهَم
لولا عوادى النَّفْيِ أو عقباتُه ... والنفىُ حالٌ من عذاب جَهَنَّم
لجمعتُ ألوان الحوادثِ صورةً ... مَثَّلتُ فيها صورةَ المُسْتسلِم
وحكيتُ فيها النيلَ كاظمَ غيظِه ... وحكيتُه مُتغيَّظًا لم يَكْظِم
دَعَت البلادَ إلى الغِمار فغامرتْ ... وطنيّةٌ بمُثَقَّفٍ ومُعلَّم
ثارتْ على الحامى العتيدِ، واقسمْتْ ... بسواه جلَّ جلالُه لا تَحتمى
نثر الكنانةَ ربُّها، وتخيَّرتْ ... يدُه لنُصرتها ثلاثةَ أسْهم
من كلَّ أعزلَ حقُّه بيمينه ... كالسيف في يُمْنَى الكَمِىَّ المُعْلَم
لم يُحجموا في ساعةٍ قد أظفرتْ ... مَلِكَ البحارِ بكلَّ قيْصَرَ مُحجم
وقفوا مَطيَّهمو بسُلَّم قصره ... والبأسُ والسلطانُ دون السُّلَّم
وتقدّموا، حتى إذا ما بلَّغوا ... أوْحَوْا إلى مصرَ الفتاةِ: تقدّمى
سألت من الغاب الشُّبولُ غَلا بها ... لبنُ اللُّباةِ، وهاج عِرْقُ الضَّيْغَم
يومَ النضالِ، كَسَتْكَ لونَ جمالِها ... حرّيّةٌ صَبَغَتْ أديمَكَ بالدم
أصبحتَ من غُرَر الزمان، وأصبحت ... ضحكتْ أسِرَّةُ وجهِكَ المتجهِّم
ولقد يتمْتَ، فكنت أعظمَ رَوْعةً ... يا ليت من «سعد» الحمى لم تَيتم
لِيَنمْ أبو الأشبالِ مِلْءَ جفونِه ... ليس الشُّبولُ عن العرين بُنوَّم

وقال في تكريم الدكتور علي بك إبراهيم الجراح العبقري.

ابتغوا ناصيةَ الشمس مكانا ... وخُذوا القِمَّةَ علمًا وبيانا
واطلبُوا بالعبقريات المدى ... ليس كلُّ الخيلِ يشهدن الرَّهانا
ابعثوها سابقاتٍ نُجُبًا ... تملأُ المضمارَ معنًى وعِيانا
وِثبوا للعزَّ من صَهْوَتِها ... وخذوا المجدَ عِناناً فعنانا

لا تُثِيبوها على ما قلَّدَتْ   من أيادٍ، حسدًا أو شَنآنا

* * *

وضئيلٍ من أساةِ الحيِّ لم   يُعنَ باللحم وبالشحم اختزانا
ضامرٍ في سُفْعَةٍ تحسبه   نِضْوَ صحراءَ ارتدى الشمسَ دِهانا
أو طبيبًا آيبًا من «طيبةٍ»   لم تَزَلْ تَنْدَى يداه زَعْفَرَانا
تُنكر الأرضُ عليه جسمَه   واسمُه أعظمُ منها دَوَرانا
نال عرشَ الطبِّ من «أمحوتب»   وتَلقَّى من يَديَيه الصَّوْلَجانا
يا لأمحوتبَ من مُسْتأْلِهٍ   لم يلد إلا حواريًّا هِجانا
خاشعًا لله، لم يُزْهَ، ولم   يُرْهِق النفسَ اغترارًا وافتتانا
يلمس القدرة لمسًا كلّما   قلب الموت وجسَّ الحيوانا
لو يُرى اللهُ بمصباح لما   كان إلا العلمَ جلّ الله شانا
في خلالٍ لفتَتْ زَهْرَ الرُّبَى   وسجايا أنسَتْ الشَّرْبَ الدَّنانا
لو أتاه مُجَعا حاسدُه   سَلّ من جنب الحسودِ السرطانا
خيرُ مَنْ علَّم في «القصر» ومَن   شقّ عن مُستتِر الداءِ الكِنانا
كلُّ تعليمٍ نراه ناقصًا   سُلَّمٌ رَثٌ إذا استعمل خانا
دَرَكٌ مُستحدَثٌ من دَرَجٍ   ومن الرَّفعة ما حطَّ الدخانا

* * *

لا عَدِمْنا «للسيوطيِّ» يدًا   خُلقَتْ للفتْقِ والرتْقِ بَنانا
تَصْرِف المِشْرَطَ للبُرْءِ كما   صرف الرّمْحُ إلى النصر السَّنانا
مَدّها كالأجل المبسوطِ في   طلب البُرْءِ اجتهادًا وافتنانا
تجد الفولاذَ فيها محسنًا   أخذ الرفقَ عليها واللَّيانا
يدُ «إبراهيمَ» لو جئتَ لها   بذبيح الطيرِ عاد الطيرانا
لم تَخِطْ للناس يومًا كفناً   إنما خاطت بقاءً وكِيانا
ولقد يُؤْسَى ذوو الجرحى بها   من جراح الدهر، أو يُشْفَى الحزانى
نَبغَ الجيلُ على مِشْرطها   في كفاح الموتِ ضربًا وطِعانا
لو أتت قبل نضوج الطبِّ ما   وَجَدَ التنويمُ عونًا فاستعانا

***

يـا طِـرازًا يـبـعـث الـلـهُ بـه		فـي نـواحِـى مُـلْـكِـه آنًـا فـآنـا
مــن رجـالٍ خُـلِـقـوا ألـويـةً		ونـجـومًـان وغـيـوثًـا، ورعـانـا
قـادة الـنـاسِ وإن لـم يـقـربـوا		طَبَعَاتِ الـهندِ والسُّمْرَ اللَّدانا
وغـذاء الـجـيـلِ فـالـجـيـلِ وإن		نَسِىَ الأجيالُ كالطفل اللَّبانا
وهـمـو الأبـطـالُ كـانـت حـربُـهـم		منذ شُنوها على الجهل عَوانا

***

يا أخى — والذخرُ في الدنيا أخٌ —		حاضرُ الخيرِ على الخير أعانا
لك عند ابْنِىَ — أو عندى — يدٌ		لـسـتُ آلـوهـا ادكـارًا وصِـيـانـا
حَـسُـنَـتْ مـنّـى ومـنـه مـوقـعًـا		فجعلنا حِرْزها الشكرَ الحُسانا
هـل تـرى أنـتَ؟ فـإنـى لـم أجِـدْ		كجميلِ الصُّنعِ بالشكر اقترانا
وإذا الـدنـيـا خـلَـتْ مـن خـيِّـرٍ		وخلَتْ من شاكر هانت هَوانا
دفـع الـلـهُ «حُـسَـيْـنًـا» فـي يـدٍ		كيد الألطافِ رِفْقًا واحتضانا
لـو تـنـاوَلْـتُ الـذي قـد لـمـسَـتْ		مـنـه مـا زِدْتُ حِـذارًا وحَـنـانـا
جـرحُـه كـان بـقـلـبـى، يـا أبًـا		لا أنَبَّيه بجُرْحِى كيف كانا؟
لـطـف الـلـهُ فـعـوفـيـنـا مـعًـا		وارْتـهـنَّـا لـكَ بـالـشـكـر لـسـانـا

تحية الشاعر

وقال وهي القصيدة التي ألقيت في دار الأبرا الملكية في حفلة افتتاح مؤتمر تكريمه الذي انعقد فيها

مـرحـبًـا بـالـربـيـع فـي رَيْعَـانِـهْ		وبــأنــوارِه وطِــيــبِ زَمــانِــهْ
رَفَّـت الأرضُ فـي مـواكِـب آذا		رَ، وشبَّ الزمانُ في مِهْرَجانِه
نزل السهلَ ضاحكَ البِشْرِ يمشى		فيه مَشْىَ الأميرِ في بُستانه
عـاد حَـلْـيًـا بِـرَاحـتَـيـهِ وَوَشْـيًـا		طـولُ أنـهـارِهِ وعَـرْضُ جِـنـانـه

لف فـي طَـيْـلَـسـانِـه طُـرَرَ الأر ... ضِ، فطاب الأديمُ من طيلسانه
سـاحـرٌ فـتـنـةُ الـعـيـونِ مُـبـيـنٌ ... فصَّل الماءَ في الرُّبا بجُمانه
عبقريُّ الخيالِ، زاد على الطَّيْـ ... ـف، وأرْبَى عليه في ألوانه
صِبغَةُ اللهّ! أين منها رفَائيـ ... ـلُ ومِنقاشُه وسحرُ بَنانه
رنّم الروضُ جَدولاً ونسيمًا ... وتلا طيرَ أيْكِهِ غصنُ بانه
وشدَت في الرُّبا الرياحينُ هَمسًا ... كتَغَنَّى الطَّروبِ في وجدانه
كلُّ رَيْحَانةٍ بلحنٍ كعُرْسٍ ... أألفَتْ للغناءِ شَتَّى قِيانه
نَغَمٌ في السماءِ والأرضِ شتَّى ... من معاني الربيعِ أو ألحانه
أين نورُ الربيعِ من زهَر الشَّعـ ... ـرِ إذا ما استوى على أفنانه؟
سَرْمَدُ الحسنِ والبشاشةِ مهما ... تلتمسْهُ تجِدْه في إبّانه
حَسَنٌ في أوانِه كلُّ شيءٍ ... وجمالُ القريضِ بعد أوانه
مَلَكٌ ظِلُّهُ على بَبْوَة الخُلـ ... ـدِ، وكُرسيُّه على خُلجانه
أمَرَ اللهُ بالحقيقةِ والحكـ ... ـمةِ فالتقَّتا على صَوْلجانه
لم تَثُرْ أمَّةٌ إلى الحَقَّ إلا ... بهُدَى الشعرِ أو خُطا شَيْطَانه
ليس عَرْفُ النحاسِ أوقَعَ منه ... في شجاعِ الفؤادِ أو في جبانه

* * *

ظلَّلَتنى عنايةٌ من «فؤادٍ» ... ظلَّل اللهُ عرشَهُ بأمانه
ورعاني، رعَى الإلهُ «الفارو ... قَ» طفلاً، ويوم مَرْجُوَّ شانه
مَلِكُ النيلِ من مَصبَّيْهِ بالشـ ... ـطَّ، إلى مَنْبَعَيْهِ من سودانه
هو في المُلك بَدْرُهُ المُتجَلَّى ... حُفَّ بالهَالَتيْنِ من (بَرلمانه)
زادهُ اللهُ بالنيابةِ عِزًّا ... فوقَ عِزَّ الجلالِ من سلطانه

* * *

منبرُ الحقَّ في أمانةِ «سعدٍ» ... وقِوامُ الأمورِ في ميزانه
لم يَرَ الشرقُ داعيًا مثلَ «سعدٍ» ... رَجَّه من بَطاحه ورِعانه[٩٣]
ذكَّرتْه[٩٤] عقيدةُ الناسِ فيهِ ... كيف كان الدخولُ في أديانه
نهضةٌ من فَتَى الشيوخِ وروحٌ ... سريَا كالشبابِ في عُنْفُوَانه

حرَكا الشرقَ من سكونٍ إلى القيــ ــدِ، وثـارَا بِـه عـلـى أرسـانـا
وإذا النفسُ أنْهضَتْ من مريض دَرَجَ البُرءُ في قُوَى جُثمانه

* * *

يا عُكاظًا تألَّفَ الشرقُ فيه من فِلسطينهِ إلى بَغْدانِه
افتقدْنا الحجَازَ فيه، فلم نعْــ ــثُرْ على قُسَّهِ ولا سَحْبانه
حملَتْ مصرُ دونَه هيكلَ الدَّ ين، وروحَ البيانِ من فُرْقانه
وُطدّتْ فيكَ من دعائمها الفُصْــ ــحى، وشُدَّ البيانُ من أركانه
إنما أنتَ حَلْبَةٌ لم يُسخَّر مثلُها للكلامِ يومَ رِهانه
تتبارى أصائلُ الشامِ فيها والمَذاكِى العِتاقُ من لُبنانه
قلَّدتنى الملوك من لؤلؤ البحريْــ ــنِ آلاءَها ومن مَرْجانه
نخْلة لا تزال في الشرق معنًى من بداوته ومن عُمرانه
حنَّ للشامِ حِقبةً وإليْها فاتحُ الغرب من بني مَرْوانه
وحَبتْنى بُمْبَائُ فيها يَراعًا افْرِغَ الوُدُّ فيه من عِقْيانه
ليس تَلْقَى يراعَها الهندُ إلا في ذَرَا الخُلْقِ أو وراءَ ضَمانه
أنْتَضيه انتضاءَ موسى عصاه يَفْرَقُ المستبِدُّ من ثعبانه
يَلْتقِى الوحَى من عقيدةٍ حُرًّ كالحواريَّ في مدَى إيمانه
غيرَ باغٍ إذا تطلَّبَ حقًّا أو لئيمِ اللَّجاجِ في عُدوانه
مُوكِبُ الشعرِ حرّكَ المتنبى في ثراهُ، وهزَّ من حَسّانه
شُرفَتْ مصرُ بالشموسِ من الشر ق نُجومِ البيانِ من أعيانه
قد عَرَفْنا بنَجْمِهِ كلَّ أفْقٍ واستبنّا الكتابَ من عُنوانه
لستُ أنسى يدًا إلاخوانِ صدقٍ منحونى جزاءَ مَا لمْ أعانِه
رُبَّ سامى البيانِ نَبَّهَ شأنى أنا أسمو إلى نَباهة شانه
كان بالسبقِ والميادينِ أوْلَى لو جرى الحظُّ في سَواءِ عنانه
غنما أظَروا يَد اللهِ عندى وأذعوا الجميلَ من إحسانه
ما الرحيقُ الذي يذوقون من كرْ مِى، وإن عِشْتُ طائفًا بِدنانه
وهَبوني الحَمامَ لذَّةَ سجعٍ أينَ فضلُ الحَمام في تَحنانه؟
وَتَرٌ في اللّهاةِ،[٩٥] ما للمُغنَّى من يدٍ في صَفائه ولِيانه

* * *

رُبَّ جارٍ تَلفَّتَتْ مصرُ تُوليـ ـه سؤالَ الكريمِ عن جيرانه
بَعثتْني معزِّيًا بمآقي وطني، أو مُهنِّئًا بلسانه
كان شعري الغناءَ في فرح الشر قِ، وكان العَزاءَ في أحزانه
قد قضى اللهُ أن يؤلفنا الجر حُ، وأن نلتقي على أشجانه
كلما أنّ بالعراقِ جريحٌ لمس الشرقُ جَنْبَه في عُمانه
وعلينا كما عليكم حديدٌ تَتَنزَّى اللُّيُوثُ في قُضبانه
نحن في الفقه بالديار سَواءٌ كلُّنا مشِفقٌ على أوطانه

هوامش

(١) المهار: جمع مهر، والعرابيد جمع عربيد بالكسر، والعربيد الكثير العربدة.
(٢) ترفع: اخذا من قولهم: شالت الناقة ذنبها إذا رفعته.
(٣) الأيمان جمع يمين: وهي اليد اليمنى.
(٤) القشيب: الجديد.
(٥) الإصليت: السيف.
(٦) ابن البتول هو المسيح عليه السلام.
(٧) السبحة: بضمتين: الجلال.
(٨) السمت بالفتح: هيئة أهل الخير.
(٩) عطل النحر من الحلى: خلا.
(١٠) المروت: جمع مرت وهي المفازة بلا نبات.
(١١) فتق المسك. استخرجه بشئ يدخله عليه، والفتيت: المفتوت.
(١٢) يقوته: يطعمه.
(١٣) الصفا: الصخر.
(١٤) الجرس: الصوت.
(١٥) الوضح: حلى من الفضة.
(١٦) تصيته: تجعله يصوت.

(١٧) موسى نمور بك رئيس مجلس النواب اللبناني.

(١٨) استذرى: استظل.

(١٩) صلاح: اسم لمكة.

(٢٠) الحجول: الخلاخيل.

(٢١) النضاح: الرامي بالنبل وهو كناية عن الحامي والدافع.

(٢٢) المنصاح: الخالص.

(٢٣) يقال سجح خلقه: سهل ولان.

(٢٤) الصفح: السيوف.

(٢٥) صباح هنا: أي حرب.

(٢٦) السمت: هيئة أهل الخير.

(٢٧) الصفاح: حجارة عريضة.

(٢٨) طلعت بك حرب مدير بنك مصر.

(٢٩) العد: الماء الجارى له مادة لا تنقطع.

(٣٠) البند: العلم.

(٣١) تدهده: انقض وتدحرج.

(٣٢) بنتاءور: شاعر مصرى قديم.

(٣٣) بد الشئ: فرقه، وهنا بمعنى أراقها.

(٣٤) الجعد: الكريم.

(٣٥) الرئد: الترب.

(٣٦) اللد: الأشداء في الخصومة.

(٣٧) الرد: العماد.

(٣٨) الحمراء: قصر عظيم بالأندلس.

(٣٩) وادى الطلح: منتزه بأشبيلة للمعتمد بن عياد.

(٤٠) الحبر: جمع حبرة، وهي ضرب من برود اليمن.

(٤١) الصل: الثعبان.

(٤٢) الفقر: كل كلام مختار نظما كان أو نثرا.

(٤٣) يمشى الخمر: جملة تقال لمن يختال صاحبه.

(٤٤) الكسر: جمع كسرة: وهي القطعة من الشئ.

(٤٥) الفل: الكسر في حد السيف.

(٤٦) الطم: البحر.

(٤٧) العلز: القلق والهلع من الموت.

(٤٨) البدر: جمع بدرة، وهي عشرة آلاف درهم.

(٤٩) العصا: الفرس المشهورة التي ورد ذكرها في مصرع الزباء، وقد كانت لقصير الذي يقول فيه المثل «لأمر ما جدع قصير أنفه».

(٥٠) وهي زرقاء اليمامه المشهورة بقوة البصر.

(٥١) السدر: البحر.

(٥٢) الخادر: كناية عن أسد، يقال أسد خادر: مقيم في خدره.

(٥٣) الوقاح: ذو الوقاحة، يقال امرأة وقاح الوجه.

(٥٤) بحر الخزر: هو بحر قزوين، والخزر أيضا: جيل من الناس.

(٥٥) الحين: هلاك.

(٥٦) الشكير: صغار الريش بين كباره.

(٥٧) يتنزى: يتوثب.

(٥٨) المرعس: من رعس الرجل: إذا مشى مشيا ضعيفا من الإعياء.

(٥٩) القعس: ضد الحدب، وهو نتوء الصدر.

(٦٠) العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.

(٦١) لم ينبجس: لم يتفجر.

(٦٢) يقال جرح نغاز: أي جياش بالدم.

(٦٣) رسف مشى مشية المقيد.

(٦٤) ابنى سمير: الليل والنهار.

(٦٥) هو عبد الرحمن الداخل أول ملوك بنى أمية في الأندلس.

(٦٦) يعني بالسبط الحسين بن علي صلوات الله عليه.

(٦٧) يعني بمروان: بنى مروان.

(٦٨) الأظلم هنا: هو أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة بني العباس وقد سلب بني أمية ملكهم.

(٦٩) نارت الفتنة: وقعت وانتشرت.

(٧٠) غس: دخل ومضى.

(٧١) الأطلس: الذئب.

(٧٢) المعطس: الأنف.

(٧٣) البيهس: الأسد.

(٧٤) شام: سل.

(٧٥) هو طارق بن زياد مولى موسى بن نصير فاتح الأندلس في عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى.

(٧٦) المرس: الشديد المجرب في الحروب، يقال: أنه لمرس حذر.

(٧٧) الخلس: جمع خلسة وهي الفرصة.

(٧٨) الملك الروح: جبريل.

(٧٩) الجام: الكأس.

(٨٠) اللعس: سواد مستحسن في الشفة.

(٨١) السقط: جناح الطائر.

(٨٢) العقاب: اسم راية الداخل.

(٨٣) هضبتان في زحلة.

(٨٤) الحجال: جمع حجلة، وهي بيت العروس.

(٨٥) الأحجال: الخلاخيل.

(٨٦) أخضل الشئ: ابتل.

(٨٧) استالها: أصله استاله، أي تشبه بالإله.

(٨٨) يقال ألقى أرواقه بالمكان: نزل به وضرب خيمته.

(٨٩) سطيح: اسم لكاهن من كهان العرب، والسطيح أيضًا: البطئ القيام لضعف أو زمانة.

(٩٠) اللباة: لغة في اللبؤة.

(٩١) أنسال: جمع نسل.

(٩٢) القسطال: غبار الحرب.

(٩٣) الرعان: رءوس الجبال.

(٩٤) الضمير عائد على الشرق.

(٩٥) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.

الباب الثالث

سليمان باشا أباظة[1]

مَن ظنَّ بعدَكَ أَن يقولَ رِثاءَ ... فلْيَرْثِ مِن هذا الورى مَن شاءَ

فَجع المَكارمَ فاجعٌ في رَبِّها ... والمجدَ في بانيهِ، والعلياءَ

ونعَى النعاةُ إلى المروءَة كنزَها ... وإلى الفضائل نجمَها الوضَّاءَ

أَأَبا محمدٍ، اتَّئِدْ في ذا النَّوى ... وارفُقْ بآلك، وارحمِ الأَبناءَ

واستبق عِزَّهُم (بطهراءَ) التي ... كانوا النجومَ بها وكنتَ سماءَ[1]

أَدجى بها ليلُ الخطوبِ، وطالما ... مُلِئتْ منازلُها سَنًى وسَناءَ[2]

وإذا سليمان استقلَّ محلَّةً ... كانت بساطًا للندى ورجاءَ[3]

فانظر من الأعواد حولك هل ترى ... من بعدِ طبِّك للعُفاةِ دواءَ[4]

سارت جنازةُ كلِّ فضلٍ في الورى ... لمَّا ركبتَ الآلةَ الحَدْباءَ[5]

وتيتَّمَ الأيتامُ أَوَّلَ مرَّةٍ ... ورمى الزمانُ بِصَرْفِه الفقراءَ[6]

ولقد عَهدتُكَ لا تُضيِّع راجيًا ... واليومَ ضاع الكلُّ فيك رجاءَ

وعلمْتُ أَنك مَنْ يَوَدُّ ومَنْ يَفِي ... فقف الغداة لو استطعتَ وفاءَ

وذكرتُ سعيَكَ لي مريضًا فانيًا ... فجعلتُ سَعْيِيَ بالرثاء جزاءَ

---

١ سليمان باشا أباظة: أحد سراة مصر الكبار، وكان في حياته كبير الأسرة الأباظية الشهيرة، وقد أُسْنِدَت إليه وزارة المعارف العمومية سنة ١٨٨٢، وتوفي سنة ١٩٠١.

والمرءُ يُذْكَر بالجمائل بعدَه فارفع لذِكْرِكَ بالجميل بِناءَ[7]
واعلمْ بأَنك سوف تُذْكَر مَرةً فيقالُ: أَحسنَ، أَو يقالُ: أَساءَ
أَبَنِيه، كونوا للعِدَى مِن بِعده كيداً، وكونوا لِلْوَلِيِّ عَزَاءَ
وتجلَّدُوا لِلخطْب مثلَ ثَباته أيامَ كان يُدافع الأرْزاءَ
والله ما مات الوزيرُ وكنتمُ فوقَ الترابِ أَعزَّةً أَحياءَ

هوامش

(١) طهراء: علم على بلد الفقيد، وهي من أعمال إقليم الشرقية بمصر.

(٢) تدجى الليل وأدجى: كلاهما بمعنى أظلم، والسنى — بالقصر —: الضوء، والسناء — بالمد — الرفعة.

(٣) المحلة في الأصل هي الناحية التي ينزل بها القوم، ولا تقل عن مائة بيت، والمراد هنا بقوله: «استقلَّ محلة» أي أنه كان عميدها المنفرد بزعامتها وبالعمل لرفعتها.

(٤) الأعواد: جمع عود، يطلق على المنبر، وعلى السرير للحي أو الميت. كان رجل من العرب يلقَّب «ذا الأعواد»؛ لأنه كان يحمل دائمًا في سرير، والشعراء العظماء يستعملون الأعواد للموتى، وقلَّما يستعملون النعش؛ تعظيمًا للموت وتكريمًا للميت. قال الشريف الرضي: أرأيت مَنْ حملوا على الأعواد.. إلخ. والعفاة: جمع عافٍ، وهو كل طالب فضل أو رزق.

(٥) الجنازة بكسر الجيم وفتحها، وقيل: بالكسر: هي الميت، وبالفتح هي النعش، وقيل بالعكس، وأرجح تعريف يتناسب مع مألوف عصرنا هو إطلاقها بالكسر على سرير الميت والمشيعين له، والآلة الحدباء: كناية عن النعش، وشكله أحدب كما هو معروف.

(٦) صرف الزمان: نوائبه وحدثاته.

(٧) جمائل: جمع جميلة، والمقصود أن المرء يذكر بصنيعته الجميلة، أو بمأثرته الجميلة، فحذف الموصوف، ثم جمع الصفة واستعملها. أقول: وهذه صنعة قصد بها التجميل الفني في الكلام بذكر الجمائل والجميل في البيت.

مصطفى باشا فهمي[1]

يا أيها الناعي أَبا الوُزراءِ … هذا أَوانُ جلائلِ الأَنباءِ
حُثَّ البريدَ مشارقًا ومغاربًا … واركبْ جناحَ البَرْقِ في الأَرجاءِ[1]
واستبكِ هذا الناسَ دمعًا أو دَمًا … فاليومُ يومُ مدامعٍ ودماءِ
لم تَنْعِ للأحياءِ غيرَ ذخيرةٍ … ولَّتْ، وغيرَ بَقِيَّةِ الكُبَراءِ
رُزْءُ البريَّةِ في الوزير زيادةٌ … فيما أَلَمّ بها منَ الأَرزاءِ
ذهبَتْ على أَثَرِ المشيَّع دولةٌ … برجالها وكرائم الأشياءِ
نَدمانُ (إِسماعيلَ) في آثاره … ذهبوا، وتلك صُبابةُ الندماءِ[2]
وُلِدوا على راحِ العُلا، وترعرعوا … في نعمة الأَملاك والأُمراءِ
أَوْدَى الرَّدى بمُهَذَّبٍ لا تنتهي … إلا إِليه شمائلُ الرؤساءِ
صافي الأديمِ، أَغرَّ، أَبْلَجَ لم يَزدْ … في الشَّيْب غيرَ جلالةٍ ورُواءِ[3]
مُتجنِّبَ الخُيلاءِ إلا عزَّةً … في العزّ حُسنٌ ليس في الخيلاءِ
عَفِّ السرائرِ والمَلاحَظِ والخُطا … نَزِهِ الخلائقِ طاهرِ الأَهواءِ[4]
مُتدرِّعٍ صَبْرَ الكرامِ على الأذى … إن الكرامَ مشاغلُ السفهاءِ

---

[1] مصطفى باشا فهمي: كان إلهامًا موفقًا لأمير الشعراء حين كنَّاه بأبي الوزراء؛ فهو والد الزعيمة صفية زغلول زوجة الزعيم الخالد سعد زغلول، وكان ياورًا للخديو إسماعيل، ووزيرًا في عهد توفيق، فرئيسًا للوزراء، ثم استقال، ثم عاد للرئاسة ولم يتركها إلا لمرضه قبيل الحرب، وقد توفي أول سنة ١٩١٤م.

نـقـمـوا عـلـيـه رأْيَـهُ وصَـنِـيـعَـه … والـحـكـمُ لـلـتـاريـخ فــي الآراءِ
والـرأيُ إِنَ أَخْـلَـصْـتَ فـيـه سـريـرةً … مـثـلُ الـعـقـيـدةِ فـوقَ كـلِّ مِـراءِ[٥]
وإذا الـرجـالُ عـلـى الأُمـور تـعـاقـبـوا … كـشـفَ الـزمـانُ مـواقـفَ الـنُّـظـراءِ
يـا أَيُّـهـا الـشـيـخُ الـكـريـمُ، تـحـيـةً … أَنْـدَى لـقـبـرِكَ مـن زُلالِ الـمـاءِ
هـذا الـمـصـيـرُ، أَكـان طـولَ سـلامـةٍ … أَمْ لـم يـكـن إِلا قـلـيـلَ بَـقـاءِ؟
مـاذا انـتِـفـاعُـك بـالـلـيـالـي بـعـد مـا … مرَّتْ بك الـسـبـعـونَ مَـرَّ عِـشـاءِ؟[٦]
أو بـالـحـيـاةِ، وقـد مـشـى فـي صـفْـوهـا … عادي السنين، وعاشَ عادي الداءِ؟
مَـنْ لـم يُـطـبِّـبْـه الـشـبـابُ فـداؤه … حـتـى يـغـيِّـبَـه بـغـيـر دَواءِ
قـسـمـاتُ وجـهِـك فـي الـتـرابِ ذخـائـرٌ … مـن عِـفَّـةٍ، وتـكـرُّمٍ، وحـيـاءِ[٧]
ولـكـم أَغـارَ عـلـى مُـحَـيَّـا مـاجـدٍ … وطوى محاسنَ مَسمحٍ مِعطاءِ[٨]
كـم مَـوقـفٍ صـعـبٍ عـلـى مَـنْ قـامـه … ذلَّـلْـتَـه، ونـهـضـتَ بـالأَعـبـاءِ
كِـبْـرُ الـغـضـنـفـرِ يـومَ ذلـك زاده … مـن نَـخْـوةٍ وحَـمِـيَّـةٍ وإبـاءِ[٩]
مَـنْ يَـكـذبِ الـتـاريـخَ يَـكْـذِبْ رَبَّـه … ويُـسـيءْ لـلأمـواتِ والأحـيـاءِ
الـسـلـم لـو لـم تُـودِ أَمْـسِ بـجُـرحِـهـا … أَوْدَتْ بـهـذي الـطـعـنـةِ الـنَّـجـلاءِ[١٠]
لـو أُخِّـرَتْ فـي الـعـيـشِ بـعـدكَ سـاعـةً … لـبَـكَـتْ عـلـيـك بـمَـدْمَـع الـخـنـسـاءِ[١١]
انفض غبارَكَ عنك، وانظر، هل ترى … إلاَّ غـبـارَ كـتـيـبـةٍ ولـواءِ؟
يـا ويـحَ وجـهِ الأَرض: أَصـبـح مَـأْتـمًـا … بـعـدَ الـفـوارس مـن بـنـي حَـوَّاءِ
مِـن ذائـدٍ عـن حَـوْضـه، أَو زائـدٍ … فـي مُـلْـكِـه مـن صَـولـةٍ وثـرَاءِ
أَو مـانـعٍ جـارًا يُـنـاضـلُ دونَـه … أو حـافـظٍ لِـعـهـودِه مِـيـفـاءِ[١٢]
يـتـقـاذفـون بـذاتِ هـولٍ، لـم تَـهَـبْ … حَرَمَ المسيحِ ولا حِمى العذراءِ[١٣]
مـن مُـحـدَثـاتِ الـعِـلْـمِ، إلا أنـهـا … إِثْـمٌ عـواقـبـهـا عـلـى الـعـلـمـاءِ
لـهـفـي عـلـى رُكـنِ الـشـيـوخ مُـهـدَّمًـا … والـحـامـلاتِ الـثُّـكْـلَ والـيُـتَـمـاءِ[١٤]
وعـلـى الـشـبـابِ بـكـلِّ أَرضٍ مَـصْـرَعٌ … لـهـمُ، وهُـلْـكٌ تـحـتَ كـلِّ سـمـاءِ
خـرجـوا إِلـى الأَوطـان مـن أَرواحِـهـم … كرمٌ يليق بهم ومَحْضُ سخاءِ[١٥]
مـن كـلِّ بـانٍ بـالـمـنِـيَّـةِ فـي الـصِّـبـا … لم يتَّخِذ عِرْسًا سِوى الهَيْجاءِ[١٦]
الـمُـرضِـعـاتُ سَـكـبْـن فـي وِجْـدانِـه … حُـبَّ الـدِّيـار وبِـغـضـةَ الأَعـداءِ
وقَـررْنَ فـي أُذْنـيـهِ يـومَ فِـطـامِـه … أن الـدمـاءَ مُـهـورةُ الـعـلْـيـاءِ

أَأَبَا البناتِ، رُزِقْتَهُنَّ كرائِمًا ... ورُزِقْت في أَصهارِك الكُرَماءِ
لا تذهَبنّ على الذكورِ بحسرةٍ ... الذِّكْرُ نعمَ سُلالةُ العظماءِ
وأَرى بُناةَ المجدِ يَثْلِمُ مجدَهم ... ما خلَّفوا من طالحٍ وغُثاءِ[17]
إن البناتِ ذخائرٌ من رَحمةٍ ... وكنوزُ حبٍّ صادقٍ ووَفاءِ
والساهراتُ لِعلَّةٍ أَو كَبْرَةٍ ... والصابراتُ لشدَّةٍ وبِلاءِ
والباكياتُكَ حينَ ينقطعُ البكا ... والزائِراتُكَ في العَرَاءِ النائي[18]
والذاكِراتُكَ ما حَيِينَ تحدُّثًا ... بسَوالِفِ الحُرماتِ والآلاءِ
بالأمس عزَّاهنّ فيكَ عقائلٌ ... واليومَ جامَلَهُنَّ فيك رِثائي
وأبيكَ ما الدنيا سِوى معروفِها ... والبِرِّ، كلُّ صَنيعةٍ بجزاءِ
أجَزِعْنَ أَن يجري عليهنّ الذي ... مِن قبلهنّ جرى على «الزهراءِ»؟[19]
عذرًا لهن إذا ذَهْبنَ مع الأسى ... وطلبن عندَ الدمعِ بَعضَ عَزاءِ
ما كلُّ ذِي ولَدٍ يُسمَّى والدًا ... كم من أَبٍ كالصخرةِ الصمَّاءِ
هَبْهُنّ في عقل الرجال وحلمِهم ... أَقلوبُهن سوى قلوب نِساءِ؟

هوامش

(١) البريد: كلمة فارسية، معناها القطع، كانوا يقطعون أذناب وأعراف الخيل المستعملة لنقل رسائلهم؛ علامة لها حتى لا يعوقها أحد في الطريق، وأول اصطناع العرب لهذه الطريقة كان في زمن معاوية، وكانوا يُسمُّون الخيل المستعملة في ذلك خيل البريد، ونحن نطلق كلمة البريد على رسائل البوستة وغيرها كما هو معروف، والمقصود بقوله: «حث البريد» «واركب جناح البرق»: هو الأمر للناعي بإذاعة النعي في الدنيا بأسرع وسائل الإذاعة، والغرض من ذلك هو إظهار ما للنعي من قيمة وخطر وعلو شأن.

(٢) الندمان — بفتح النون الأولى —: جمع نديم، وهو الظريف الكيس، أو المُجَالِس على الشراب. وإسماعيل: هو سمو الخديو إسماعيل.

(٣) الرواء في المرء: هو مظهر السيادة والعظمة.

(٤) الملاحظ: جمع ملحظ: اسم مكان لما تقع عليه اللحاظ. يقول: إنه عفيف القلب، وعفيف الأعين فلا يقع لحظه على الريب.

(٥) المِرَاء: الجدل.

(٦) يقصد سبعين عامًا، ولكنه في استعمال لفظ السبعين يجري مجرى العرب الفصحاء في استعمال هذا اللفظ للدلالة على الكثرة فقط لا العدد بعينه، وفي هذا الباب جاء القرآن الكريم (إن تستغفر لهم سبعين مرة) فليس المقصود عدد الاستغفار، ولكن يراد الدلالة على كثرته.

(٧) القسمات: ملامح وتقاسيم الوجه.

(٨) مسمح — بفتح —: واسع السماحة. وفي القاموس المحيط: «يقال إن فيه لمسمحًا كمسكن. أي متسعًا»، والمعطاء: كثير العطاء.

(٩) الغضنفر: اسم من أسماء الأسد.

(١٠) يشير إلى اتفاق موته مع نشوب الحرب العالمية، كأنه يقول: إن اتفاق موت المرثي مع نشوب الحرب لم يكن إلا لأن المتوفى كان سلمًا لقومه يشبه السلم العام للناس، فهو والسلم توأمان.

(١١) يقول في هذا البيت: إن السلم لو عاشت بعد الفقيد ساعة لبكت عليه بدمع الخنساء، وهي شاعرة عاشت في صدر الإسلام اشتهرت بمراثيها في أخيها صخر، وهذا البيت تأكيد لمعنى البيت قبله.

(١٢) ميفاء: كثير الوفاء.

(١٣) بذات هول: أي مقذوفات موصوفة بأنها ذات هول، وهذا من باب إقامة الصفة مقام الموصوف.

(١٤) الثكل: فقد الأبناء، واليتماء: من اليتم، وهو في الناس فقدُ الأب، ويكون في غير الناس فقدُ الأم.

(١٥) المحض: الخالص من كل شيء.

(١٦) يقال: بنى على فلانة، إذا اتخذها زوجة، والعرس بكسر العين: الزوجة، يصف هذا الشباب السخي بروحه للأوطان بأنه يألف الحروب، ويحبها كما يحبُّ غيره من الناس الزوجات والعرائس والعيشة الوادعة.

(١٧) الغثاء، بضم الغين: الفاسد.

(١٨) العراء النائي: الخلاء البعيد؛ ويعني به هنا القبور.

(١٩) الزهراء: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، والذي جرى عليها هو موت أبيها سيد الخلق ﷺ.

أبو هيف بك[١]

اجعَلْ رِثاءَكَ للرجالِ جَزاءَ ... وابعثْهُ للوطنِ الحزينِ عَزَاءَ

إن الديارَ تُريقُ ماءَ شُئونِها ... كالأُمهاتِ وتندُبُ الأَبناءَ[١]

ثُكْلُ الرجالِ من البنينَ، وإنما ... ثكلُ الممالكِ فَقْدُها العلماءَ

يَجْزَعْنَ للعَلَمِ الكبيرِ إذا هَوى ... جَزَعَ الكتائبِ قد فَقَدْنَ لِوَاءَ[٢]

عَلَمُ الشريعةِ أَدركتْهُ شريعةٌ ... للموتِ يَنْظِمُ حكْمُها الأَحياءَ[٣]

عاني قضاءَ الأَرضِ عِلْمَ مُحصِّلٍ ... واليومَ عالجَ للسماءِ قَضاءَ

ومضى وفيه من الشبابِ بقيّةٌ ... للنفْعِ أرجى ما تكونُ بقاءَ

إنَّ الشبابَ يُحَبُّ جَمًّا حافِلاً ... وتُحَبُّ أَيامُ الشبابِ مِلاءَ[٤]

بالأمس كانت لابن هَيْفٍ غَضبةٌ ... للحقِّ نَذكُرها يدًا بَيضاءَ[٥]

مَشَتِ البلادُ إلى رسالةِ (ملنَرٍ) ... وتحفَّزَتْ أَرضًا لها وسماءَ[٦]

فلمحْتُ أَعرجَ في زَوايا الحقِّ لم ... أَعلمْ عليه ذِمَّةً عَرْجاءَ[٧]

ارتَدَّت العاهاتُ عن أَخلاقِه ... لسُمُوِّهِنَّ وحَلَّتِ الأَعضاءَ

عَطفَتْهُ عَطْفَ القوسِ يومَ رِمايةٍ ... وثَنَتْهُ كالماضي، فزادَ مَضاءَ[٨]

---

[١] هو فقيد العلم والقانون عبد الحميد بك أبو هيف، شغل منصب الأستاذ بكلية الحقوق، ومنصب القيِّم على دار الكتب المصرية، وقد وقف في معارضة مشروع ملنر موقفًا قانونيًا لامعًا؛ فاقترن اسمه من ذلك الحين بأعلام المجاهدين الكبار في قضية البلاد، وقد توفي سنة ١٩٢٦.

لمَّا رأَى (التقريرَ) ينفُثُ سُمَّهُ ... سَبقَ الحُواةَ فأَخرجَ الرَّقْطاءَ[9]
هَتَكَ الحمايةَ والرجال وراءَها ... يتلمَّسون لها السُّتورَ رياءَ
ما قبَّحوا بالصبح من أشباحها ... راحوا إليك فحسَّنوه مَساءَ
يا قيِّمَ الدارِ التي قد أَخْرجَتْ ... للمُدْلِجين مَنارةً زَهراءَ[10]
وترى لديْها الوارِدِين، فلا ترى ... إلا ظِماءً ينزلون رواءَ[11]
وتُجالِسُ العلماءَ في حُجُراتِها ... وتُسامِرُ الحكماءَ والشعراءَ
تَكفيكَ شَيطانَ الفراغِ، وتَعتني ... بالجاهلين تردُّهم عُقَلاءَ
دارُ الذخائر كُنْتَ أَكملَ كُتْبِها ... مجموعةً، وأَتمَّها أَجزاء
لمَّا خلَتْ من كنز علمِكَ أَصبحَتْ ... من كلِّ أَعلاقِ الكنوزِ خَلاءَ[12]
هزَّ الشبابُ إلى رثائك خاطري ... فوجدْتَ فِيّ وفي الشباب وَفاءَ
(عبدَ الحميد)، أَلا أُسِرُّك حادثًا ... يَكسو عِظامَك في البِلَى السَّراءَ؟[13]
قُمْ من صفوف الحقِّ تَلقَ كتيبةً ... ملمومةً، وتَرَ الصفوفَ سَواءَ
وتَرَ الكِنانةَ شِيبَهَا وشبابَها ... دونَ (القضيَّةِ) عُرْضَةً وفِداءَ
جَمَعَ السلامُ الصُّحْفَ مِن غاراتها ... وتألَّفَ الأَحزابَ والزُّعَماءَ
في كلِّ وِجْدانٍ وكلِّ سَريرةٍ ... خلَفَ الودادُ الحقْدَ والبَغْضاءَ
وغَدا إلى دين العشيرةِ ينتهي ... مَنْ خالَفَ الأَعمامَ والآباءَ
لا يحجبون على تجنِّيهم، ولا ... يجدون إلا الصفْحَ والإغْضاءَ
والأَهلُ لا أَهلاً بحَبْلِ وَلائهم ... حتى تراهم بَيْنَهم رُحماءَ
كذب المُرِيبُ يقول: بعدَ غدٍ لنا ... خُلْفٌ يُعِيدُ ويُبْدِئُ الشَّحْناءَ
قلبي يُحدِّثُني وليس بخائني ... إن العقولَ ستقهرُ الأَهواءَ
يا (سعدُ)، قد جَرَت الأُمورُ لغايةٍ ... اللهُ هيَّأَها لنا ما شاءَ[14]
سُبْحانَهُ جمعَ القلوبَ من الهوى ... شَتَّى، وقوَّى حولَهُ الضُّعَفاءَ
الفُلْكُ بعد العُسْرِ يُسِّرَ أَمرُها ... واستَقبلتْ ريحَ الأُمورِ رُخاءَ
وتأَهَّبَتْ بك تستعدُّ لزاخرٍ ... تَطأُ العواصفَ فيه والأَنواءَ
رجَعَتْ براكبها إلى رُبّانها ... تُلقِي الرجاءَ عليه والأَعباءَ
فاشْدُدْ بأَرباب النُّهَى سُكَّانَها ... واجعل مِلاكَ شِراعِها الأَكْفاءَ[15]
مَنْ ذا الذي يختارُ أَهلَ الفضلِ أو ... يَزِنُ الرجالَ إذا اختيارُك ساءَ؟
أَخرجْ لأَبناءِ الحضارة مَجْلِسًا ... يُبقي على اسمك في العصور ثَناءَ

هوامش

(١) ماء الشئون: الدموع.

(٢) الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجماعة أو الفرقة من الجيش لها لواء؛ أي رئيس تلتف وحدتها حوله.

(٣) الشريعة: القانون.

(٤) الملاء: الأغنياء المتمولون، الواحد منهم مليء، ومن معاني الملاء أيضًا: الحسنو القضاء. يقول: إن الشباب يحب كثيرًا على أي حال، ولكن أيام الشباب يحببن أكثر وهن في غنى، من المال الكثير، ومن تولِّي المناصب، كالحال في شباب الفقيد.

(٥) يريد غضبته على مشروع ملنر، وموقفه في طليعة معارضيه.

(٦) اللورد ملنر: هو أحد وزراء إنجلترا، ورسالته التي مشت البلاد إليها وتحفَّزت لها: هي تقريره المشهور، بُعِثَ من لندن مع أربعة من رجالات مصر الساسة، وكادت البلاد تتأثر بهذا المشروع، لولا الفقيد ومعه نفر قليل جدًا قاموا بحملتهم ضدَّه، وفي هذه الحملة نشر الفقيد بحوثًا قانونية في تفنيد المشروع، كانت من أهم مراجع رجال السياسة في رفضه بعد.

(٧) كانت ساق الفقيد مبتورة، وكان يمشي على ساق صناعية.

(٨) في هذا البيت وصف لهيئة الأعرج، بلغ من جماله أنه قد يحبب المشية العرجاء للناس، فتأمل. والماضي: السيف.

(٩) قوله: «سبق الحواة فأخرج الرقطاء» لا يمكن أن يكون هناك أبلغ في الإعجاز وأدق في الإيجاز من هذا الكلام، فقوله: «سبق الحواة» صورة كاملة، تريك كيف وثب الفقيد فوقف أمام المشروع، كما يثب الحاوي، فيقف أمام جحر الحية. وقوله: «فأخرج الرقطاء» أعظم ما يمكن في تصوير ذلك المشروع؛ فقد نبَّه على السمِّ الكامن فيه، بالرغم من جماله الظاهري ونعومته الشبيهة بنعومة الحية.

(١٠) الدار: هي دار الكتب المصرية، وكان الفقيد يشغل منصب مديرها.

(١١) الرواء: الماء الكثير.

(١٢) أعلاق الكنوز: نفائسها.

(١٣) الحادث: هو حادث ائتلاف الأحزاب المصرية في وقت نظم هذه القصية التي تعدُّ من مفاخر المراثي في الشعر العربي.

(١٤) سعد: هو الزعيم الخالد الذكر سعد باشا زغلول، وكان رئيس البرلمان في عهد ذلك الائتلاف.

(١٥) السكان: مؤخر السفينة. وملاك الشيء: قوامه الذي يُمْلَكُ به.

مولانا محمد علي[1]

بَيْتٌ على أَرضِ الهدى وسمائِه ... الـحـقُّ حـائـطُـه وأُسُّ بِـنـائـه
الـفـتـحُ من أَعلامه، والطُّهُر من ... أَوصـافـه، والقُدْسُ من أَسـمـائه
تَحْنو مَناكِبُه على شعب الهدى ... وتُـظِـلُّ سُـدَّتُـه عـلـى سيـنـائـه[1]
مَنْ ذا يُـنـازعُـنـا مَـقـالِـدَ بـابِـه ... وجـلالَ سُـدَّتُـه، وطُـهْـرَ فِـنـائـه؟
ومـحـمـدٌ صـلَّـى عـلـى جَـنَـبـاتـه ... واستقبل السّمحاتِ في أَرجائه؟
والـيـومَ ضَـمَّ الـنـاسَ مـأْتَـمُ أَرضِـه ... وحَوَى الملائكَ مِهْرَجانُ سَمائه
يا (قدسُ)، هَيِّئ من رياضك رَبْوَةً ... لَنزِيل تُربكَ، واحتفل بلقائه[2]
هو من سُيوفِ اللهِ جَلَّ جلالُه ... أو من سيوف الهندِ عندَ قضائه
فَـتَـحَ الـنـبـيُّ لـه مُـنَـاخَ بُـراقـه ... ومَـعـارجَ التشريفِ من إسرائه
بَطَلٌ حقوقُ الشرقِ مِن أَحماله ... وقـضـيّـةُ الإِسـلامِ مِـن أَعـبـائـه
لـم تُـنْـسِـهِ الـهـنـدُ الـعـزيـزةُ رِقَّـةً ... للشرق، أَو سهرًا على أَشيائه
وقَبَاؤه نَسْجُ الهنودِ، فهل تُرى ... دفنوا الزعيمَ مُكَفَّنًا بقَبائه؟[3]
(النيلُ) يذكر في الحوادث صَوْتَهُ ... والتُّرَكُ لا يَنْسَوْنَ صِدْقَ بَلائه

---

[1] هو كبير زعماء الهند المسلمين، توفي سنة ١٩٣١، وكان لا يألو جهدًا في خدمة الإسلام في شتى أقطاره، وقد أقيمت له في القاهرة حفلة تأبين كبيرة أُلْقِيَتْ فيها هذه القصيدة.

قل للزعيم محمدٍ: نزل الأَسى (بالنيل) واستولى على بَطحائه[٤]
فمشى إِليكَ بجَفْنِه وبدمعه وإِلى أَخيك بقلبه وعَزائه[٥]
اجْتَزْتَهُ فحَواك في أَطرافه ولو انتظْرتَ حَواك في أَحشائه
ولقد تعوَّد أَن تمرَّ بأَرضه مَرَّ الغَمامِ بظلِّه وبمائه
نَمْ في جِوار اللهِ ما بِكَ غُرْبَةٌ في ظِلِّ بيتٍ أَنتَ مِن أَبنائه
الفتحُ — وهو قضيةٌ قُدْسِيَّةٌ — يا طالما ناضلتَ دونَ لِوائه
أَفتى بدَفْنِكَ عندَ سيِّدةِ القُرى مُفْتٍ أراد الله من إفتائِه[٦]
بلدٌ بَنُوه الأَكرمونَ قصورُهم وقبورُهم وقفٌ على نُزَلائِه[٧]
قد عِشْتَ تنصره وتَمنحَ أَهله عَوْنًا، فكيف تكونُ من غُرَبائه؟

هوامش

(١) السدة: باب الدار.

(٢) يا قدر: لأنه دفن في القدس.

(٣) القباء بفتح القاف —: نوع من الثياب.

(٤) محمد: هو المرثي.

(٥) يريد بأخيه: مولانا شوكت علي، وقد آلت إليه زعامة المسلمين في الهند بعد أخيه.

(٦) سيدة القرى: المقصودة هي القدس الشريف، ولابد للدفن في هذا الحرم من تصريح ديني يصدره مفتي الإسلام هناك، ولا يُصرَّح بذلك إلا لَمَنْ ثبت نفعه للإسلام وللعرب.

(٧) يقصد بالبلد: فلسطين وسوريا جميعًا، وكثيرًا ما هتف أمير الشعراء بأهل هذه البلاد إعجابًا بأخلاقهم.

سيد درويش[1]

كلَّ يومٍ مِهْرَجانٌ كَلَّلوا ... فيه مَيْتًا برياحين الثناء[1]

لم يعلِّم قومَه حرفًا، ولم ... يُضيءِ الأَرضَ بنور الكَهْرُباء

جُومِل الأَحياءُ فيه وقَضَى ... شَهَوات أَهلُه والأَصدقاء

ما أَضلَّ الناسَ؟ حتى الموتُ لم ... يَخْلُ من زُورٍ لهم، أَو من رِياء[2]

إِنما يُبْكَى شُعاعٌ نابغٌ ... كلَّما مرّ به الدهرُ أَضاء

ملأَ الأَفواهَ والأَسماعَ في ... ضَجَّةِ المَحْيا، وفي صَمْتِ الفناء

حائطُ الفنِّ، وبانِي رُكْنِهِ ... (مَعْبَدُ) الأَلحانِ، (إسحقُ) الغِناء[3]

من أناسٍ كالدَّراري جُدُدٍ ... في سَمواتِ الليالي قُدَماء

غرَس الناسُ قديمًا، وبَنَوْا ... لم يَدُمْ غَرْسٌ، ولم يَخْلُد بناء

غيرَ غَرْسٍ نابغٍ، أو حَجَرٍ ... عَبْقَرِيٍّ فيهما سِرُّ البقاء

من يَدٍ مَوْهُوبَةٍ مُلْهَمَةٍ ... تَغرِسُ الإِحسانَ، أَو تَبْنِي العَلاء

بُلْبُلٌ إِسْكَنْدَرِيٌّ أيْكُهُ ... ليس في الأرض، ولكن في السماء[4]

هَبطَ الشاطِئَ من رابِيَةٍ ... ذاتِ ظِلَّ ورَياحِينَ وماء

---

[1] الشيخ سيد درويش: كان يُعدُّ رحمه الله في طليعة المجددين في الموسيقى العربية، وقد أُلْقِيَتْ هذه القصيدة في حفلة أقيمت لذكراه في سنة ١٩٣١.

يَحْمِل الفنَّ نَميرًا صافيًا ... غَدَقَ النَّبْع إلى جيلٍ ظِماء[٥]
حلَّ في وادٍ على فُسْحَتِه ... عَزَّت الطَّيْرُ بِه إلاَ الحِداء
يملأ الأسحارَ تغريدًا إذا ... صرف الطَّيرَ إلى الأَيْكِ العِشاء
رُبَّما استلْهَم ظَلْمَاءَ الدُّجى ... وأَتى الكوكبَ فاستوحى الضياء
ورمى أُذْنَيْهِ في ناحيةٍ ... يَخْلِسُ الأَصواتَ خَلْسَ الببَّغاء
فتلقَّى فيهما ما راعهُ ... من خَفيٍّ الهمْسِ، أو جَهْرِ النِّداء
أَيها الدرويشُ، قُمْ بُثَّ الجَوى ... واشرَح الحبَّ، وناجِ الشهداء
اضرب العُودَ تَفُهْ أَوتارُه ... بالذي تَهْوَى، وتَنْطِقْ ما تشاء
حَرِّك النَّاي، ونُحْ في غابه ... وتنفَّسْ في الثُّقوبِ الصُّعَداء[٦]
واسكُب العَبْرَةَ في آماقه ... من تَباريحَ، وشَجْوٍ، وعَزاء
واسْمُ بالأَرواحِ، وادفعْها إلى ... عالَمِ الُّلطْفِ وأَقطارِ الصفاء[٧]
لا تُرِقْ دمعًا على الفنِّ فلن ... يَعدِمَ الفنُّ الرُّعاةَ الأُمَناءْ
هو طيرُ اللهِ في رَبْوَتِه ... يبعثُ الماءَ إليه والغِذاء
رَوَّحَ اللهَ على الدنيا به ... فهي مثلُ الدارِ، والفنُّ الفِناء
تكتسي منه ومن آذاره ... نَفحةَ الطِّيبِ وإِشراقَ البَهاء[٨]
وإذا ما حُرِمَتْ رِقَّتَه ... فَشت القَسْوَةُ فيها والجَفاء
وإِذا ما سَئِمَتْ أو سَقِمَتْ ... طاف كالشمس عليها والهواء
وإذا الفنُّ على الْمُلْكِ مشى ... ظهر الحسنُ عليه والرُّواء
قد كسا الكرنكُ مصرًا ما كسا ... من سَنًى أَبْلى اللَّيالي وسَناء
يُرْسِلُ اللهُ به الرُّسْلَ على ... فتراتٍ من ظُهورٍ وخَفاء
كلَّما أَدَّى رسولٌ ومضى ... جاءَ مَنْ يُوفِّي الرِّسالاتِ الأَداء
سَيِّدَ الفنِّ، استرح من عالمٍ ... آخرُ العهدِ بنُعْماهُ البَلاء
ربَّما ضِقْتَ فلم تنعم به ... وسَرى الوَحْيُ فنسَّاك الشقاء
لقد استخلفْتَ فنًّا نابغًا ... دَفع الفنُّ إليه باللَّواء
إن في مُلْكِ فؤادٍ بُلبلاً ... لم يُتحْ أَمثالُه للخُلَفاء[٩]
ناحلٌ كالكُرةِ الصغرى سرى ... صوتُهُ في كُرَةِ الأرضِ الفضاء
يستحي أن يهتفَ الفنُّ به ... وجمالُ العبقرِيَّاتِ الحَياء

هوامش

(١) المهرجان: الاحتفال، معرَّب.

(٢) الزور: الكذب.

(٣) معبد وإسحاق: رجلان من أشهر رجال الغناء والموسيقى.

(٤) كان رحمه الله من نشء الإسكندرية، والأيك: في الأصل هو الشجر الملتف الكثير. يقول: إنه إذا كان لكل بلبل من أيك يتخذه عشًا، فهذا البلبل الإسكندري أيكه ليس محله الأرض، ولكن السماء هي محلُّه اللائق به.

(٥) الغدق — بفتح الغين والدال: الكثير.

(٦) الصعداء — بضم الصاد وفتح العين —: تنفس ممدود.

(٧) عالم اللُّطف: هو عالم المعاني والأرواح، ولا تسمو إليه الأنفس إلا في أوقات الصفاء والانشراح.

(٨) آذار: شهر من فصل الربيع، أعجمي.

(٩) يُرَادُ بالبلبل هنا: الموسيقار النابغة الأستاذ محمد عبد الوهاب، وهو الذي حمل لواء التجديد في الموسيقى بعد الشيخ سيد درويش.

عمر المختار[1]

رَكَـزُوا رُفـاتَـكَ فـي الـرّمـال لِـواءَ يَستنهضُ الوادي صباحَ مَساءَ[1]

يا وَيْحَهم! نصبوا مَنارًا من دمٍ تُوحِي إِلى جيل الغدِ البَغْضاءَ[2]

ما ضرَّ لو جَعلوا العَلاقةَ في غدٍ بـيـن الـشـعـوب مَـوَدَّةً وإِخـاءَ؟

جُرْحٌ يَصيحُ في المدَى، وضَحِيَّةٌ تـتـلـمَّـسُ الـحـريَّـةَ الـحـمـراءَ[3]

يـا أَيّهـا الـسـيفُ الـمـجرَّدُ بـالـفَـلا يكسو السيوفَ على الزمان مَضاءَ

تلك الـصـحـارى غِمْدُ كلِّ مُـهَنَّدٍ أَبْـلَـى فـأَحـسـنَ فـي الـعـدوِّ بَـلاءَ

وقـبـورُ مَـوْتَـى مـن شـبـابِ أُمَـيَّـةٍ وكـهـولِـهـم لـم يـبْـرَحُـوا أَحـيـاءَ

لـو لاذَ بـالـجـوزاءِ مـنـهـم مـعـقِـلٌ دخـلـوا عـلـى أَبـراجِـهـا الـجـوزاءَ[4]

فـتـحـوا الـشَّـمـالَ: سُـهـولَـهُ وجـبـالَـهُ وتـوغَّـلـوا، فـاسـتـعـمروا الـخـضـراءَ

وبَنَوْا حضارتَهم، فطَاوَلَ ركنُها (دَارَ السلامِ)، و(جِلَّقَ) الشَّمَاءَ[5]

خُيِّرتَ فاخْتَرْتَ المبيتَ على الطَّوَى لـم تَـبْـنِ جـاهًـا، أَو تَـلُـمَّ ثَـراءَ[6]

إِنَّ البطولةَ أَن تموتَ من الظَّما لـيـس الـبـطـولـةُ أَن تَـعُـبَّ الـمـاءَ

---

[1] شهيد المسلمين والعرب بطل طرابلس الخالد عمر المختار، هو من الأسرة السنوسية أصحاب الطريقة السنوسية ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من أقطار الإسلام، ظلَّ يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه وقومه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقًا سنة ١٩٣١، وأشيع وقتئذ أنهم سلكوا في إعدامه سبلاً بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنَّه التي نيَّفت على التسعين.

إِفريقيا مَهْدُ الأُسودِ ولَحْدُها ... ضجَّتْ عليكَ أَراجلاً ونساءَ
والمسلمون على اختلافِ ديارِهم ... لا يملِكون معَ المُصَابِ عَزاءَ
والجاهليةُ من وَراءِ قُبورِهم ... يبكون زَيْدَ الخيل والفلْحاءَ[٧]
في ذِمَّة اللهِ الكريمِ وحفظِه ... جسَدٌ (ببْرقة) وُسِّدِ الصحراءَ[٨]
لم تُبْقِ منه رَحَى الوقائِع أَعظُمًا ... تَبْلَى، ولم يُبْقِ الرِّماحُ دِماءَ
كَرُفاتِ نَسْرٍ أَو بَقِيَّةِ ضَيْغَمٍ ... باتا وراءَ السَّافياتِ هَباءَ[٩]
بطلُ البَداوةِ لم يكن يَغْزو على ... «تَنْكٍ»، ولم يَكُ يركبُ الأَجواءَ[١٠]
لكنْ أَخو خَيْلٍ حَمَى صَهَوَاتِها ... وأَدَارَ من أَعرافها الهيجاءَ
لَبَّى قضاءَ الأَرضِ أَمسِ بُمهْجَةٍ ... لم تخْشَ إِلاَّ للسماءِ قَضاءَ
وافاهُ مَرْفوعَ الجبينِ كأَنه ... سُقْراطُ جَرَّ إِلى القُضاةِ رِداءَ
شَيْخٌ تَمالَكَ سِنَّهُ لم ينفجرْ ... كالطفل من خوفِ العِقابِ بُكاءَ
وأَخو أُمورٍ عاشَ في سَرَّائها ... فتغيَّرَتْ، فتوقَّع الضرَّاءَ
الأُسْدُ تزأَرُ في الحديدِ ولن ترى ... في السِّجنِ ضِرْغامًا بكى اسْتِخْذاءَ
وأَتى الأَسيرُ يَجُرُّ ثِقْلِ حَديدِهِ ... أَسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رَقْطاءَ
عَضَّتْ بساقَيْهِ القُيودُ فلم يَنُؤْ ... ومَشَتْ بهَيْكله السّنون فناءَ
تِسْعُونَ لو رَكِبَتْ مَناكِبَ شاهقٍ ... لترجَّلَتْ هَضَباتُه إِعياءَ[١١]
خَفِيَتْ عن القاضي، وفات نَصِيبُها ... من رِفْق جُنْدٍ قادةً نُبلاءَ
والسِّنُّ تَعْصِفُ كُلَّ قَلْبِ مُهَذَّبٍ ... عَرَفَ الجُدودَ. وأَدرَكَ الآباءَ
دفعوا إِلى الجلاَّدِ أَغلَبَ ماجدًا ... ياسُو الجِراحَ، ويُطلِقُ الأُسَراءَ
ويُشاطرُ الأَقرانَ ذُخْرَ سِلاحِهِ ... ويَصُفُّ حَوْلَ خِوانِه الأَعداءَ[١٢]
وتخيَّروا الحبلَ المهَينَ مَنيّةً ... للَّيْثِ يلفِظ حَوْلَهُ الحَوْباءَ[١٣]
حَرموا المماتَ على الصَّوارِمِ والقَنا ... مَنْ كان يُعْطِي الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ
إنـي رأَيتُ يَدَ الحضارةِ أُولِعَتْ ... بالحقِّ هَدْمًا تارةً وبِناءَ
شَرَعَتْ حُقوقَ الناسِ في أَوطانِهم ... إِلاَّ أُباةَ الضَّيْمِ والضُّعَفاءَ
يأَيُّها الشعبُ القريبُ، أَسامعٌ ... فأَصوغَ في عُمَرَ الشَّهيدِ رِثاءَ
أَمْ أَلْجَمَتْ فاكَ الخطوبُ وحَرَّمت ... أُذنَيْكَ حينَ تُخاطَبُ الإِصْغاءَ؟
ذهب الزعيمُ وأَنتَ باقٍ خالدٌ ... فانقُد رِجالَك، واخْتَرِ الزُّعَماءَ
وأَرِحْ شيوخَكَ من تكاليفِ الوَغَى ... واحْمِلْ على فِتْيانِكَ الأَعْباءَ

هوامش

(١) ركز اللواء: غرزه في الأرض. وهذا استعمال لغوي مشتق من الركيزة، وهي قطع الفضة والذهب والمعادن، كان العرب في الجاهلية يحفرون لها في الأرض، ويسمونها الدفائن، فقوله: «ركزوا رفاتك» استعمال أُرِيْدَ به الإشارة إلى أن هذا الرفات من النفائس والذخائر، التي يضنُّ بها ويحرص عليها.

(٢) المنار: موضع النور، وجعلها منارًا من دم: هو لون من التشبيه العجيب، كأنه يعجب كيف جعلوا موضع النور والائتناس محلاً للتنفير والإزعاج.

(٣) الحريَّة الحمراء: هي المكتسية بالدم، إشارة إلى قولهم: الحرية شجرة لا تنبت إلا بالدماء..

(٤) الجوزاء: نجم معروف في السماء.

(٥) دار السلام: بغداد. وجلق: دمشق.

(٦) اللَّم: الجمع.

(٧) الفلحاء: لقب عنترة العبسي، أمَّا زيد الخيل فعلم على فارس بهذا الاسم.

(٨) برقة: هي المنطقة الشرقية من ليبيا، فتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١م، وسُمِّيت باسم عاصمتها القديمة، وقد اشتهرت بوقائعها الحربية المتعددة التي حدثت بين العرب والطليان.

(٩) السافيات: الرياح.

(١٠) تنك: هي الدبَّابة المستعملة في الحروب.

(١١) الشاهق: الجبل. والتسعون: هي التسعون عامًا التي يحدد بها عمر المرثي حين قبضوا عليه ليعدموه.

(١٢) الخوان: مائدة الطعام.

(١٣) الحوباء: النفس.

عبد الحليم العلايلي بك[1]

لقد لَبَّى زعيمُكُم النَّداءَ عَزاءً أَهلَ دِمْياطٍ عَزاءَ
وإن كان المُعَزِّي والمُعَزَّى وكلُّ الناسِ في البَلْوَى سَواءَ
فُجِعْنا كلُّنا بعلائِليٍّ كركنِ النَّجمِ أَو أَسنى عَلاءَ
أَرَقُّ شبابِ دِمْياطٍ عليها وأَنشطُهم لحاجتها قَضاءَ
وخيرُ بيوتِها كرمًا وتَقْوَى وأَصلاً في السِّيادة وانتهاءَ
فتًى كالرمحِ عاليةً وعُودًا وكالصَّمْصام إِفْرِنْدًا وماءَ[1]
وأَعطى المالَ والهِمَمَ العَوالي ولم يُعْطِ الكرامةَ والإباءَ
شبابٌ ضارَعَ الرَّيْحانَ طِيبًا ونازَعَهُ البَشاشةَ والبَهاءَ
وجُنْدِيُّ القضيّةِ منذُ قامَتْ تعلَّمَ تحتَ رايَتِها اللِّقاءَ
ورُوِّعَ شيخُها العالي بيومٍ فكان بمَنْكِبَيْهِ له وقاءَ[2]
سعَى لضميرِه، ولوَجْهِ مصرٍ ولم يَتَوَلَّ ينتظر الجزاءَ
ونَعْشٍ كالغَمامِ يَرِفُّ ظِلاً إذا ذهب الزِّحامُ به وجاءَ

---

[1] عبد الحليم العلايلي: كان عالية دمياط، توفي سنة ١٩٣٢، بعد أن ترك له في القضية المصرية مواقف مذكورة. اشتهر منذ نشأ بعلو الهمَّة ونفوذ الكلمة؛ فانتخب للمجالس النيابية بالنيابة عن دائرة دمياط عدة مرات، وانتخب سكرتير حزب الأحرار الدستوريين؛ فكان في رجالات ذلك الحزب ممَنْ يشار إليهم، وكان من أمير الشعراء بمنزلة الصهر والصديق.

ولـم تـقـع الـعـيـونُ عـلـيـه إلاَّ أَثـارَ الـحـزنَ أَو بـعـثَ الـبـكـاء
عَجبنا كيف لم يَخْضرّ عُودًا وقـد حـمـل الـمـرُوءَةَ والـرُّفـاءَ
مشَـتْ دِمْـيـاطُ فـالـتفتْ عليه تـنـازعُـهُ الـَّخـيـرة والـرجـاءَ
بَـنـي دِمْـيـاطَ، مـا شَـيءٌ بـبـاقٍ سوى الفردِ الذي احتكر البقاءَ
تـعـالـى الـلـهُ، لا يـبـقَـى سِـواه إذا وردتْ بـرِيَّـتُـه الـفـنـاءَ
وأَنـتـم أَهـلُ إيـمـانٍ وتـقـوى فهل تلْقَوْنَ بالعَتْبِ القضاءَ؟
مـلأَتم من بيوتِ الـلـه أَرضًـا ومن داعي البُكورِ لها سماءَ
ولا تـسـتـقـبـلـون الـفـجـرَ إلاّ عـلـى قَـدَمِ الـصـلاةِ إذا أَضـاءَ
وتـرتـقـبـون مَـطْـلَـعَـهُ صِـغـارًا وتَـسْـتـبِـقُـونَ غُـرَّتَـهُ نِـسـاءَ
وكم من مَوْقفٍ ماضٍ وقفتم فـكـنـتـم فـيـه لِـلـوطـن الـفِـداءَ
دفـعـتـم غـارةً شـعـواءَ عـنـه وذُدْتُـمْ عـن حـواضـره الـبَـلاءَ
أخي (عبدَ الحليم) ولسْتُ أَدري أَأَدعو الصِّهْرَ أم أَدعو الإخاءَ؟
وكم صَحَّ الودادُ فكان صِهْرًا وكـان كـأَقَـربِ الـقُـرْبَـى صَـفـاءَ
عجيبٌ تركُكَ الدنيا سقيمًا وكنت النَّحْلَ تملؤها شِفاءَ[3]
وكـنَّـا حـيـنَ يُـعْـضِـل كـلُّ داءٍ نـجـيءُ إلـيـكَ نـجـعـلـك الـدَّواءَ
مـضـت بـك آلـةٌ حَـدْبـاءُ كـانـت على الزمن المَطِيَّةَ والوِطاءَ[4]
وسـارَتْ خـلْـفكَ الأَحـزابُ صـفًّـا وسرْتَ، فكُنْت في الصفِّ اللَّواءَ
تـوَلِّـفُ بـيـنـهـم مَـيْـتًـا، وتـبـنـي كـعـهـدِكَ فـي الـحـيـاة لـهـم وَلاءَ

هوامش

(١) عالية الرمح: نصفه الأعلى الذي يلي السنان. والصمصام: السيف. وإفرنده وماؤه: كلاهما تمييز لجوهره.

(٢) يقصد «بشيخها العالي»: المغفور له سعد باشا زغلول.

(٣) يريد تشبيه المساعي الكثيرة النبيلة التي كان يقوم بها المرثي بعسل النحل.

(٤) الآلة الحدباء: النعش.

حافظ إبراهيم[1]

قد كنتُ أُوثرُ أَن تقولَ رِثائي — يا مُنْصفَ الموْتى من الأَحياءِ

لكنْ سَبَقَتَ، وكلُّ طولِ سلامةٍ — قدرٌ، وكلُّ مَنِيَّةٍ بقضاءِ

الحقُّ نادَى فاسْتَجَبْتَ، ولم تَزلْ — بالحقِّ تحفِلُ عندَ كلِّ نِداءِ

وأَتيْتَ صحراءَ الإمامِ تذوب من — طُولِ الحنينِ لساكن الصحراءِ[1]

فلقيت في الدار الإمامَ محمدًا — في زُمْرَةِ الأَبرارِ والحُنفاءِ[2]

أَثَرُ النعيم على كريمِ جبينه — ومراشدُ التفسيرِ والإفتاءِ

فشكوتما الشَّوْقَ القديمَ، وذُقْتُما — طِيبَ التداني بعدَ طولِ تنائي

إنْ كانت الأُولى منازلَ فُرْقةٍ — فالسمْحَةُ الأُخرى ديارُ لِقاءِ[3]

ووددْتُ لو أَني فداكَ من الرَّدَى — والكاذبون المُرْجِفونَ فِدائي

الناطقونَ عن الضَّغينةِ والهوى — المُوغِرُو المَوْتَى على الأَحياءِ

من كلِّ هَدَّامٍ وَيَبْني مجدَه — بكرائم الأَنقاضِ والأَشْلاءِ

ما حَطَّموكَ، وإنما بكَ حُطِّموا — مَنْ ذا يُحطِّم رَفْرَف الجوزاء؟[4]

أُنظُره، فأَنت كَأَمْسِ شأْنُكَ باذخٌ — في الشرقِ، واسْمُكَ أَرفعُ الأَسماءِ

---

[1] هو المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك، شاعر سبَّاق معدود في الطليعة، وكان يلقَّب بشاعر النيل، توفي سنة ١٩٣٢، فرثاه أمير الشعراء شوقي بك بهذه القصيدة، التي ينبئ مطلعها عن مبلغ تقديره لصاحبه ووفائه له.

بالأمسِ قد حَلَّيْتَني بقصيدةٍ   غرَّاءَ تُحفَظُ كاليدِ البيضاءِ[٥]

غِيظَ الحَسُودُ لها وقمتُ بشكرها   وكما علمتَ مَوَدَّتي ووفائي

في مَحفلٍ بَشَّرْتُ آمالي به   لمَّا رَفعتَ إلى السماءِ لِوَائي

يا مانِحَ السُّودانِ شرْخَ شبابِه   ووَليَّهُ في السّلمِ والهْيجاءِ

لمَّا نزلْت على خمائِله ثوَى   نْبعُ البيانِ وراءَ نَبْع الماءِ

قلَّدْتَهُ السيفُ الحُسامَ، وزدْتَهُ   قلمًا كصدرِ الصَّعْدةِ السمراءِ[٦]

قلمٌ جرى الحِقبَ الطَّوالَ فما جرى   يومًا بفاحشةٍ ولا بهجاءِ[٧]

يكسو بِمدْحَتِه الكِرامَ جلالةً   ويُشَيِّعُ الموْتى بحسنِ ثَناءِ

إسْكَنْدَرِيّةُ يا عروسَ الماء   وخميلةَ الحكماءِ والشعراءِ[٨]

نشأَتْ بشاطِئِكِ الفنونُ جميلةً   وتَرعرعَتْ بسمائِك الزهراءِ

جاءَتْكِ كالطيرِ الكريمِ غرائبًا   فجمعتِها كالرَّبْوَةِ الغنَّاءِ

قد جمَّلوكِ، فصِرْتِ زِنْبَقَةَ الثَرى   للوافدين ودُرَّةَ الدَّأْماءِ

غرَسُوا رُباكِ على خمائلِ بابلٍ   وبَنَوْا قصورَك في سَنا الحمراءِ[٩]

واستحدثوا طُرُقًا مُنوَّرة الهدى   كسبيلِ عيسى في فِجاجِ الماءِ[١٠]

فخُذي كأَمسِ من الثقافة زينةً   وتجمَّلي بشبابِكِ النُّجَباءِ

وتقلَّدي لغةَ الكتابِ؛ فإنَّها   حَجَرُ البِناءِ، وعُدَّةُ الإنشاءِ

بَنَتِ الحضارةَ مَرَّتيْن، ومهَّدتْ   للمُلكِ في بغدادَ والفَيْحاءِ

وسَمَتْ بقرطبةٍ ومصرَ، فحلَّتا   بينَ الممالكِ ذِرْوَةَ العَلياءِ[١١]

ماذا حشدتِ مِن الدموع «لحافظٍ»   وذخَرْتِ من حزنٍ له وبُكاءِ؟

ووجدْتِ مِن وقع البلاءِ بفقدِهِ   إن البلاءَ مَصارِعُ العظماءِ

اللهُ يشهدُ قد وَفيْتِ سخيَّةً   بالدَّمع غيرَ بَخيلةِ الخطباءِ

وأَخذتِ قِسطاً من مَناحةِ ماجدٍ   جَمٍّ المآثِرِ، طيِّبِ الأَنباءِ

هتف الرُّواةُ الحاضرون بشعره   وحدا به البادون في البَيْداءِ[١٢]

لبنانُ يَبكيه، وتبكي الضادُ من   حَلبٍ إلى الفيْحا إلى صَنْعاءِ

عربُ الوَفاءِ وَفَوْا بذمّةِ شاعرٍ   باني الصفوفِ، مُؤلفِ الأَجزاءِ

يا حافظَ الفصحى، وحارسَ مَجْدِها   وإمامَ مَنْ نجَلتْ من البُلغاءِ[١٣]

ما زِلْتَ تهتفُ بالقديم وفضلِهِ   حتى حَمَيْت أَمانةَ القُدماءِ

جدّدت أُسلوبَ (الوليدِ) ولفظَه وأَتيْت للدّنيا بسحر (الطائي)[١٤]
وجريْت في طلبِ الجديدِ إلى المدى حتى اقترنْت بصاحب البُؤساءِ[١٥]
ماذا وراءَ الموت من سَلْوَى، ومن دَعَةٍ، ومن كَرمٍ، ومن إغضاءِ؟
اشرحْ حقائقَ ما رأَيْت، ولم تزل أَهلاً لِشرْح حقائِقِ الأشياءِ
رُتبُ الشجاعةِ في الرِّجالِ جلائلٌ وأَجَلُّهُنَّ شجاعةُ الآراءِ
كم ضِقتَ ذَرْعًا بالحياة وكيْدِها وهتفت بالشكوى من الضرَّاءِ
فهلُمَّ فارِقْ يأَسَ نفسِك ساعةً واطلُعْ على الوادي شُعاعَ رجاءِ
وأَشرْ إلى الدنيا بوجهٍ ضاحكٍ خُلِقتْ أَسِرَّتُهُ من السَّراءِ
يا طالما مَلأَ النَّدِيَّ بشاشةً وهدى إليك حوائجَ الفقراءِ
اليومَ هادنْت الحوادِثَ؛ فاطَّرِحْ عِبْءَ السنين، وأَلْقِ عِبْءَ الداءِ
خلَّفْت في الدنيا بيانًا خالدًا وتركْت أَجيالاً من الأَبناءِ
وغدًا سيذكرك الزمانُ، ولم يَزلْ للدَّهرِ إنصافٌ وحسنُ جزاءِ

هوامش

(١) صحراء الإمام: المقبرة التي دُفِنَ بها، وهذه الصحراء تنسب للإمام الشافعي لوقوع ضريحه — رضي الله عنه — في نطاقها.

(٢) الإمام: هو المرحوم الشيخ محمد عبده العالم الديني الكبير، وقد اشتهر المرحوم حافظ في حياته باكتساب عطفه ورضاه.

(٣) الأولى: الحياة الدنيا.

(٤) الرفرف: ما يجعل عليه طرائف البيت. والجوزاء: نجم معروف في السماء، فالتعبير برفرف الجوزاء: كناية عن أسنى مواضع الشرف والسمو.

(٥) يريد القصيدة التي أنشأها المرحوم حافظ وأنشدها في المهرجان العظيم الذي أقيم في القاهرة، وقد حضرت إليه وفود الأقطار العربية، وظل سبعة أيام تكريمًا لمبايعة أمير الشعراء شوقي بإمارة الشعر في الشرق العربي عامة، وهي التي يقول فيها:

أمير القوافي، قد أتيت مبايعًا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

(٦) الصعدة: قناة الرمح ينبت عودها مستويًا.

(٧) الحقب: جمع حقبة — بكسر الحاء — وهي المدَّة من الزمن أو السنة.

(٨) نظم المرحوم شوقي هذه القصيدة وهو في الإسكندرية، فكان لابد لشاعريته المستوعبة من وصف هذه المدينة وفاء لإقامته فيها وقتئذ.

(٩) بابل: موضع مدينة بالعراق، ينسب إليها السحر والخمر. والحمراء: قصر مشهور في الأندلس.

(١٠) الفجاج — بكسر الفاء: جمع فجٍّ — بفتحها — الطريق الواسع بين الجبلين.

(١١) قرطبة: إحدى عواصم الأندلس الكبرى، وكانت في المغرب مثل بغداد في المشرق، كلتاهما منبع للعلوم والفنون في أزهر عصور الإسلام.

(١٢) البادون: السائرون في البادية.

(١٣) نجلت: أي وُلِدَت.

(١٤) الوليد: هو أبو عبادة البحتري الشاعر العباسي الشهير. والطائي: هو حبيب الطائي الشهير بأبي تمام.

(١٥) البؤساء: كتاب لفكتور هوجو، عرَّبه الفقيد.

محمد تيمور[١]

ضربوا القبابَ على اليَبابِ … وثَوَوْا إلى يوم الحسابِ[١]
هَمَدوا، وكلٌّ مُحَرَّكٍ … يومًا سيسكنُ في التراب
نزلوا على ذِئْبِ البِلَى … فتضيَّفوا شرَّ الذئاب
وكأَنهم صَرْعَى كرَى … بالقاع أَو صَرْعَى شراب
فإذا صَحَوْا وتنبَّهوا … فاللهُ أَعلمُ بالمآب
من كلِّ مُنْفضِّ الوفو … دِ هناك مهجورِ الجَنابِ
مَوْرُوثٍ كلِّ مَضِنَّةٍ … إلا الذَّخِيرة مِن ثواب[٢]
يا نائحاتِ محمدٍ … نُحْتُنَّهُ غضَّ الإهاب
في مَأْتمٍ لم تخْلُ فيـ … ـه المكرماتُ مِن انتحاب
تبكي الكريمَ على العشـ … ـيرة، والحبيبَ إلى الصحاب
حَسْبُ الحِمامِ دُموعُكُـ … ـنَّ المُسْتهِلَّةُ مِن عِتاب[٣]
فارْجِعْنَ فيه لحكمةٍ … أو جِئنَ فيه إلى احْتِساب
في العالم الفاني مَصـ … ـيرُ العالمين إلى ذهاب
مَنْ سارَ لمْ يَثْنِ العِنا … نَ، ومَنْ أَقام إلى اقتراب

[١] محمد تيمور: أديب كبير اشتهر بوضع القصص الاجتماعية، ولكنَّ الموت لم يمهله فاخترم شبابه في سنة ١٩٢١.

يا وارثَ الحَسَبِ الصميـ ـمِ وكاسبَ الأَدبِ اللُّباب
وابنَ الذي عَلِمَ الرجا لُ حياءَه من كل عاب[٤]
وكأَنه في كُتْبِهِ عثمانُ في ظل الكِتاب[٥]
ماذا نقمْتَ مِن الشبا بِ، وأَنت في نِعَم الشباب؟
مُتحليًا هِبَة النبو عِ، مُطوَّق المِنح الرّغاب؟
ولِم الترحُّلُ عن حيا ةٍ أَنت منها في رِكاب؟
لم تعْدُ شاطِئها، ولم تبلغْ إِلى ثَبجِ العُباب؟[٦]
رِفقًا على محزونة الـ أَبياتِ، مُوحِشةِ الحِجاب[٧]
فقدَتْك في العمر الطريـ ـرِ، وفي زها الدنيا الكعاب[٨]
تبكى، وتنْدُب إِلْفها بين الأَفانين الرطاب
وانظر أَباك وثُكْلَه ورُزوحَه تحت المصاب
لو كان يملك سِرَّ يُو شَعَ ردَّ شمْسَك من غِياب[٩]
أَعلِمْت غيرَك منْ جَلا التـ ـمثيلَ في جُدُدِ الثيابِ
وكسا غرائبَ جِدِّهِ حُلَلاً مِن الهزل العُجاب
مُتميزًا حينَ التميُّـ ـزُ ليس من أَرَبِ الشباب
أُفُقُ العُلا كنتَ الشها بَ عليه، لا ذَنَبَ الشهاب
يارُبَّ يومٍ ضاق ذَرْ عُك فيه بالحُسُدِ الغِضاب
سَعْهم فأنت جمعتَهم الشهدُ مائدةُ الذُباب
خُذْ منهُمُ نقْدَ العَفا فِ، ودَع لهم نقْدَ السباب
دونَ النُّبوغ وأَوْجِهِ ما لا تعُدُّ من الصعاب
فإذا بلغت الأَوْجَ كُنْـ ـت الشمس تهزأُ بالضَّباب[١٠]
لا تبعدنَّ؛ فهذه آمالُ قوْمِك في اقتراب
أُشرُفْ بروحك فوقَهم ملكًا يُرَفْرِف في السحاب
وانظر بعينٍ نُزِّهَتْ عن زُخْرُفِ الدنيا الكِذاب
ترَ مِنْ لِدَاتِك أُمَّةً كسَتِ الديارَ جلالَ غاب[١١]
أُسْدٌ تجول بغير ظُفْـ ـرٍ، أَو تصول بغير ناب
جعلوا الثباتَ سِلاحَهم نِعْمَ السلاحُ مع الصواب[١٢]

أَمَّــا الأُمــورُ فــإنــهــا بلغتْ إلى فصْلِ الخِطاب
فــإذا مــلــكْــتَ تَــوجُّــهًــا لــلــه فــي قُــدس الـرحـاب
سَـلْ فـاتـحَ الأَبـوابِ يـفــ ـتـح لـلـكِـنـانـةِ خـيـرَ بـاب

هوامش

(١) القباب: جمع قبة، والمقصود بضرب القباب هنا: هو الكناية عن المقبرة.

(٢) المضنة: هي الشيء النفيس يكون موضعًا للضنِّ به.

(٣) الحمام — بكسر الحاء —: الموت.

(٤) وابن الذي.. إلخ: هو المرحوم أحمد باشا تيمور، كان عالمًا بحَّاثًا اشتهر بالاطلاع الواسع وباقتناء أثمن الكتب.

(٥) يشبه والد الفقيد في إقباله على الكتب في شيخوخته بعثمان بن عفان الخليفة الثالث الذي مات والكتاب العزيز في يده.

(٦) العباب: البحر. وثبجه: وسطه.

(٧) موحشة الحجاب: كناية عن شدة مصاب هذه السيدة، يقول: إن خدرها أفقر من الأنس حتى صار يبعث الوحشة والهلع في قلب صاحبه.

(٨) العمر الطرير: هو سن الشباب، ويقصد بقوله: «الدنيا الكعاب» أنه كان يعيش في دنيا مزهوَّة بنعيمها وثروتها.

(٩) يوشع — كما في التوراة —: هو يوشع بن نون، اصطفاه الله وأرسله لبني إسرائيل بعد موسى، وأمره بمحاربة الجبَّارين، ففي بعض وقائعه ابتهل إلى الله أن تقف الشمس حتى ينتقم من أعدائه، فوقفت ولم تغرب مدة يوم أو نحو ذلك.

(١٠) الأوج: العلو.

(١١) لدات الإنسان: المقاربون له في السن. والغاب: جمع غابة، وهي مأوى الآساد.

(١٢) يصف شباب الأمة المصرية في ثورة سنة ١٩١٩.

يعقوب صرُّوف[1]

سـمـاؤُكِ يـا دنـيـا خِـداعُ سَـرابِ ... وأَرضُـكِ عُـمْـرانٌ وَشِـيـكُ خـراب[1]

ومـا أَنـتِ إِلاَّ جـيـفـةٌ طـالَ حـولَـهـا ... قـيـامُ ضِـبـاعٍ، أَو قُـعـودُ ذِئـاب

وكم أَلـجأَ الـجوعُ الأُسـودَ فـأَقبـلَـتْ ... عـلـيـك بـظُـفْـرٍ لـم يَـعِـفَّ ونـاب

قَعَدْتِ من الأَظعان في مَقْطع السُّرَى ... ومَـرُّوا رِكـابًـا فـي غُـبـارِ رِكـاب

وجُدْتِ عـلـيـهـم فـي الـوَداعِ بـسـاخرٍ ... من اللَّحْظِ عن مَيْتِ الأَحِبَّةِ نابي[2]

أَقاموا، فلم يؤنِسْكِ حـاضرُ صـحبـةٍ ... ومـالـوا فـلـم تـسـتـوحـشـي لـغِـيـاب

تـسُـوقِـيـنَ لـلـمـوتِ الـبَـنـيـنَ كـقـائـدٍ ... يـرى الـجـيـشَ خـلْـقًـا هَـيـنًـا كـذُبـاب

رأى الـحـربَ سُـلـطـانًـا لـه وسـلامـةً ... وإِن آذنــتْ أَجــنــادَه بــتــبــاب[3]

ولـولا غـرورٌ فـي لُـبـانـكِ لـم يـجـد ... بَـنـوكِ مَـذاق الـضُـرِّ شـهـدَ رُضـاب[4]

ولا كـنـتِ لـلأَعـمـى مَـشـاهِـدَ فـتـنـةٍ ... ولـلـمُـقْـعَـدِ الـعـانـي مَـجـالَ وثـاب[5]

ولا ضلّ رأْيُ الناشئ الغِرِّ في الصِّبا ... ولا كَـرَّ بـعـدَ الـفُـرصـةِ الـمـتـصـابـي

ولا حـسـبَ الـحـفَّـارُ لـلـمـوتِ بـعـدَمـا ... بَـنـى بـيـديـه الـقـبـرَ أَلـف حِـسـاب

يـقـولـون: يَـرثِـي كـلَّ خِـلَّ وصـاحـبٍ ... أَجَلْ، إِنما أَقضى حقوقَ صِحابي

---

[1] هو الدكتور يعقوب صرُّوف، أحد صاحبي مجلة المقتطف وجريدة المقطم، كان متبتلاً للعلم، معدودًا في طليعة الكُتَّاب والعلماء الذين يشار إليهم بالبنان، توفي سنة ١٩٢٨.

جَزيْتُهُمُ دمعي، فلمَّا جرى المدَى   جعلتُ عيونَ الشعرِ حُسْنَ ثوابي
كفى بذُرَى الأَعوادِ منبرَ واعظٍ   وبالمستقلِّيها لسانَ صَواب[٦]
دعوتُك يا يعقوبُ من منزلِ البِلَى   ولولا المنايا ما تركْتَ جوابي
أُذكِّرك الدنيا، وكيف ولم يزلْ   لها أَثَرا شَهدٍ بفيك وصاب؟[٧]
حملنا إليك الغارَ بالأَمسِ ناضرًا   وسُقنا كتابَ الحمدِ تِلْوَ كتاب[٨]
وما انْفكّتِ الدنيا وإنْ قلّ لُبْثُها   لسانَ ثوابٍ، أَو لسانَ عِقاب
أَلا في سبيلِ العلمِ خمسون حِجَّةً   مَضتْ بين تعليمٍ وبين طِلاب
قطعتَ طوالَيْ ليلها ونهارِها   بآمال نفسٍ في الكمالِ رغاب
رأَى اللهُ تُلقى إليك صحيفةٌ   فنزّهْتها عن هَوشةٍ وكِذاب[٩]
ولم تتخذْها آلةَ الحقدِ والهوى   ولا منتدَى لغوٍ وسوقَ سِباب
مَشيْنا بنُورَيْ علمِها وبيانِها   فلم نسْرِ إلاّ في شُعاع شِهاب
وعشنا بها جيليْن قمتَ عليهما   معلِّمَ نشْءٍ، أَو إِمامَ شباب
رسائلُ من عَفْوِ الكلامِ كأَنها   حواشي عُيونٍ في الطُّروس عِذاب[١٠]
هي المحْضُ، لا يَشْقى به ابنُ تمِيمَة   غِذاءً، ولا يشقى به ابنُ خِضاب[١١]
سُهولٌ من الفُصحى وقفْتَ بها الهوى   على ما لديها من رُبًى وهِضاب
وما ضِعتَ بين الشرقِ والغربِ مشيةً   كما قيل في الأمثال: حَجْلُ غراب
فلم أَرَ أَنقى منك سُمعةَ ناقلٍ   إذا وسَم النقلُ الرجالَ بعاب
وكم أَخذ القولَ السَّرِيَّ مُعرِّبٌ   فما ردَّه لاسمٍ، ولا لِنصاب
وفدْتَ على الفُصحى بخيراتِ غيرها   فواللهِ ما ضاقت مناكِبَ باب
وقِدْمًا دَنتْ (يونانُ) منها و(فارسٌ)   و(روما) فحلُّوا في فسيح رِحاب
تبتَّلْتَ للعلم الشريفِ كأَنه   حقيقةُ توحيدٍ وأَنت صَحابي
وجشَّمت مَيدان السياسةِ (فارسًا)   وكلُّ جوادٍ في السياسة كابي[١٢]
وكنا و(نمرٌ) في شِغابٍ، فلم يَزلْ   بنا الدهرُ حتى فضَّ كلَّ شِغاب
رأَى الثورة الكبرى، فسلَّ يَراعَه   لتحطيم أغلالٍ وفكِّ رقاب[١٣]
وما الشرقُ إلاَّ أُسرةٌ أَو عشيرةٌ   تلمُّ بنيها عندَ كلِّ مُصاب
سلامٌ على شيخ الشيوخِ ورحمةٌ   تحدَّرُ من أَعطاف كلِّ سَحاب
ورفَّافُ رَيْحانٍ يروحُ ويَغتدي   على طيِّباتٍ في الخِلال رِطاب

وذِكرى وإن لم ننْسَ عهدك ساعةً وشوقٌ وإن لم نفتكر بإياب
وويحَ السَّوافي هل عَرضْنَ على البِلَى جَبينَك، أَم ستَّرْنهُ بحِجاب؟[14]
وهل صُنَّ ماءً كان فيه كأَنه حياءُ بَتولٍ في الصلاة كَعاب[15]
ويا لحياةٍ لم تدَعْ غيرَ سائلٍ أَكانت حياةً، أَم خليَّةَ داب؟[16]
وأَين يدٌ كانتْ وكان بنانُها يَراعَةَ وَشْي، أَو يَراعةَ غاب؟
ولَهْفي على الأَخلاقِ في رُكْنِ هَيْكلٍ ببطن الثرى رَثِّ المعالم خابي
نعيش ونمضي في عذابٍ كلذَّة من العيش، أَو في لذَّةٍ كعذاب
ذهبنا من الأَحلام في كلّ مذهب فلمَّا انتهينا فُسِّرَتْ بذهاب
وكلُّ أَخى عيشٍ وإِن طال عيشُهُ تُرابٌ لعَمْرُ الموتِ وابنُ تُراب

هوامش

(١) السراب: هو ما يرى في وسط النهار كأنه الماء. ووشيك: سريع.

(٢) النابي: المتجافي المتباعد.

(٣) يقال: آذنته بكذا، أي أنذرته. والتباب: الهلاك.

(٤) اللبان — بتشديد اللام مضمومة —: جمع لبانة، وهي الحاجة يطلبها الإنسان من غير احتياج إليها، بل يدافع من علو الهمَّة والرغبة. الرضاب: هو ريق الإنسان ما دام في فمه.

(٥) العانى: المقيد، وهنا سمَّى الأسير بالعاني؛ لأن من شأنه أن يقيد.

(٦) بالمستقليها: أي براكبيها.

(٧) الشهد: عسل النحل. والصاب: المرُّ.

(٨) إشارة إلى الاحتفال بالفقيد في اليوبيل الفضي لمجلته المقتطف. والغار: ورق شجر كانت تتخذ منه أكاليل الظافرين.

(٩) هذه الصحيفة هي مجلة المقتطف التي تعدُّ بحق أمجد صحيفة علمية أدبية في الشرق العربي كله، وكان الفقيد مختصًا بتحريرها.

(١٠) قوله «كأنها حواشي عيون.. إلخ» العيون: هي عيون الماء، ويقصد بحواشيها: النباتات والزهور التي تنبت حواليها.

(١١) المحض: هو الخالص من كل شيء، وابن تميمة وابن خضاب: يقصد بالأول اليفع الناشئ، وبالثاني الشائب الذي يخضب شعره.

(١٢) المقصود بفارس في هذا البيت هو الدكتور فارس نمر، الشريك الثاني للفقيد في مجلتي المقتطف والمقطم، ولكنه الشريك المختصُّ بالسياسة، كما كان الفقيد مختصًا بالعلم، وقوله: وكل جواد في السياسة كابي، إشارة رقيقة إلى المثل القائل: «لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة».

(١٣) يريد أن الدكتور نمر لم يشاغب حبًا في المشاغبة، ولكنه كان متأثرًا بفكرة عامة.

(١٤) السوافي: الرياح.

(١٥) البتول: المنقطعة عن الرجال وعن الدنيا إلى الله تعالى.

(١٦) الداب: بمعنى الدأب.

حسين شيرين بك[1]

أَرأَيت زينَ العابدينَ مُجَهَّزًا نقلوه نقلَ الوَرْدِ من محرابِه[1]
من دار توْأَمِهِ وصِنْوِ حياتِه والأَوَّلِ المألوفِ من أَترابِهِ[2]
ساروا به من باطلِ الدنيا إِلى بُحْبوحَةِ الحقِّ المبينِ وغابِه[3]
ومضَوْا به لسبيل آدمَ قَبله ومَصايرِ الأَقوامِ من أَعقابه
تحنو السماءُ على زَكِيٍّ سَريرِه ويَمَسُّ جِيدَ الأَرضِ طِيبُ رِكابه
وتَطيَّب هامُ الحاملين وراحُهم من طِيب مَحْمِلِه، وطِيبِ ثيابه
وكأَنَّ مصرَ بجانِبَيْهِ رَبْوَةٌ آذارُ آذنها بوَشْكِ ذَهابه
ويكاد من طربٍ لعادته الندى يَنْسَلُّ للفقراءِ من أَثوابه[4]
الطَّيِّبُ ابنُ الطَّيِّبينَ، وربَّما نضح الفتى فأَبان عن أَحسابه
والمؤمنُ المعصومُ في أَخلاقه من كل شائنةٍ، وفي آدابه
أبدًا يراه اللهُ في غَلسِ الدُّجَى من صَحْنِ مَسجده، وحول كِتابه
ويرى اليتامى لائذين بظلِّه ويرى الأَراملَ يَعتصِمْنَ ببابه
ويراه قد أَدَّى الحقوقَ جميعَها لم يَنْسَ منها غيرَ حقِّ شبابه

[1] حسين بك شيرين: كان مثالاً عاليًا من أمثلة مكارم الأخلاق، وكانت بينه وبين أمير الشعراء صداقة تشبه القربى، وقد توفي في سنة ١٩٣١، فنظم فيه هذه القصيدة رثاء له وتعزية لشقيقه إسماعيل بك شيرين.

أَدَّى من المعروف حِصَّةَ أَهْلِه ... وقضى من الأحساب حقَّ صِحابه[٥]

(مهويشُ). أَين أَبوكِ؟ هل ذهبوا به ... لِمَ لمْ يَعد؟ أَيَّانَ يومُ إِيابه؟[٦]

قد وكَّل اللهَ الكريمَ وعَيْنَه ... بكِ، فاحسبيه على كريم رِحابه

ودَعِي البُكا، يكفيه ما حَمَّلْتِه ... من دمعكِ الشاكي، ومن تَشْكابه

ولقد شرِبْتِ بحادث يا طالما ... شربَتْ بناتُ العالمين بِصَابه

كلُّ امرِئٍ غادٍ على عُوَّاده ... وسؤالِهم: ما حالُه؟ ماذا به؟

والمرءُ في طلب الحياةِ طويلةً ... وخُطى المنِيَّةِ من وراءِ طِلابه؟

في برِّ (عَمِّكِ) ما يقوم مكانَه ... في عَطْفه، وحنانِه، ودعابه

(إِسكندريةُ)، كيف صَبْرُكِ عن فتًى ... الصبرُ لم يُخلق لمثلُ مُصابه[٧]

عَطِلَتْ سماؤكِ من بَريق سَحابِها ... وخَبا فَضاؤكِ من شُعاع شِهابه

زَيْنُ الشبابِ قَضَى، ولم تتزوَّدِي ... منه، ولم تتمتَّعي بقرابه

قد نابَ عنكِ؛ فكان أَصدقَ نائبٍ ... والشعْبُ يَهْوَى الصِّدق في نُوَّابه

أَعلمتِه اتَّخذ الأَمانةَ مَرَّةً ... سبَبًا يُبلِّغُه إِلى آرابه؟

لو عاش كان مؤمَّلاً لمواقفٍ ... يرجو لها الوادي كِرامَ شبابه

يَجلو على الأَلبابِ هِمّةَ فِكْره ... ويناولُ الأَسماعَ سحرَ خِطابه

ويَفِي كدَيْدَنِه بحقِّ بلادِه ... ويَفِي بعهد المسلمين كَدابه[٨]

تَقْواكَ (إِسماعيلُ)؛ كلُّ عَلاقةٍ ... سَيَبُتُّها الدهرُ العَضوضُ بنابه[٩]

إِنَّ الذي ذُقتَ العَشِيَّةَ فَقْدَه ... بِتَّ الليالي مُوجَعًا لعذابه

فارقتَ صِنْوَكَ مَرَّتَيْنِ، فَلاقِهِ ... في عالَم الذكرى وبينَ شِعابه[١٠]

من عادة الذكرى تَرُدُّ من النوى ... مَنْ لا يَدَيْنِ لنا بِطَيِّ غِيابه

حُلمٌ كأَحلام الكَرَى وسِناتِه ... مُسْتَعْذَبٍ في صدقه وكِذابه

اسكُبْ دُموعَكَ لا أقول: اسْتَبْقِها ... فأَخو الهوى يَبكي على أَحبابه

هوامش

(١) أراد تشبيهه بعلي زين العابدين ابن سيدنا الحسين رضي الله عنهما، وفي زين العابدين هذا يقول الشاعر الفرزدق:

ما قال «لا» قط إلا في تشهُّده   لولا التشهُّد كانت لاؤه «نعم»

وتجهيز الميت: تهيئته للقبر.

(٢) الصنو: الأخ الشقيق. والتوأم: المولود مع غيره في بطن، وهذه حال الفقيد مع أخيه، والأتراب: لدات المرء وزملاؤه الذين وُلِدُوا في سن متقاربة معه.

(٣) بحبوحة المكان: وسطه.

(٤) الندى: الكرم.

(٥) المعروف هنا بمعنى البرِّ بالناس والقيام بواجب المحتاجين.

(٦) مهويش: اسم تركي، وهو علم على ابنة الفقيد.

(٧) كان الفقيد من الإسكندرية منشأ، وعضو مجلس بلديتها.

(٨) الديدن: العادة.

(٩) إسماعيل بك شيرين شقيق المرثي.

(١٠) يشير هذا البيت إلى أن الفقيد كان مغتربًا في سويسرا طيلة زمن الحرب الكبرى.

محمد عبد المطلب[1]

قام من عِلَّته الشاكي الوَصِبْ وتلقَّى راحةَ الدَّهرِ التَّعِبْ[1]
أَيَّها النفسُ، اصبري واسترجعي هتفَ الناعي بعبد المُطَّلِب[2]
نزل التُّرْبَ على مَنْ قبلَه كلُّ حيٍّ مُنتهاه في التُّرُب
ذهب اللَّيِّنُ في إرشادِه كالأَبِ المُشْفِقِ والجَدِّ الحَدِب
القريبُ العَتْبِ مِنْ مَعْنَى الرِّضا والقريبُ الجِدِّ من معنى اللَّعِب
والأَخُ الصادقُ في الوُدِّ إذا ظَهرَ الإخوانُ بالوُدّ الكَذِب
خاشعٌ في درسه، مُحْتَشِمٌ فَكِهٌ في مجلس الصَّفْوِ طَرِب
قلَّد الأَوطانَ نَشْأً صالحًا وشبابًا أَهلَ دين وحَسَب
ربّما صالتْ بهم في غدِها صَولةَ الدولةِ بالجيش اللَّجِب[3]
جعلوا الأقلاَمَ أَرماحَهُمُ وأَقاموها مقاماتِ القُضُب
لا يميلون إلى البَغْيِ بها كيف يَبغِي مَنْ إلى العلم انتسب؟
شاعِرَ البَدْوِ، ومنهم جاءَنا كلُّ معنًى رَقَّ، أَو لَفْظٍ عَذُب
قد جرت أَلسُنُهُم صافيةً جَريانَ الماءِ في أَصل العُشُب

---

[1] هو الأستاذ محمد عبد المطلب أستاذ الأدب في مدرسة دار العلوم، كان ينظم الشعر مؤثرًا في نظمه طريقة البادين؛ ولذلك كان يلقب بشاعر البدو. وقد توفي سنة ١٩٣١، وأقيمت له حفلة تأبين ألقيت فيها هذه القصيدة.

سَلِمَتْ من عَنَتِ الطبعِ، ومن	كُلْفَةِ الأقلام، أَو حَشْوِ الكُتُب[٤]
قد نزلْتَ اليوم في باديةٍ	عَمَّرت فيها (امْرَأَ القيس) الحِقَب[٥]
ومشى (المجنونُ) فيها ساليًا	نَفَضَ اللَّوْعةَ عنه والوَصَب[٦]
أَعِر الناسَ لسانًا ينظموا	لك فيه الشعرَ أَو يُنْشُوا الخُطَب
قُمْ صِف الخُلْدَ لنا في مُلْكِه	من جلال الخُلْق، والصُّنْعِ العَجَب
وثمارٍ في يواقيتِ الرُّبَى	وسُلافٍ في أَباريق الذهب[٧]
وانثر الشعرَ على الأَبرار في	قُدُس الساحِ وعُلوِيِّ الرحب
واستعِر (رضوانَ) عُودَىْ قَصَبٍ	وتَرنَّمْ بالقوافي في القَصَب[٨]
واسْقِ بالمعنى إِلهيًّا، كما	تتَساقَوْنَ الرَّحِيقَ المنسكِب
كلَّما سبَّحْتَ للعرشِ به	رَفَعَ الرحْمنُ والرُّسلُ الحُجُب
قُمْ تأَمّلْ؛ هذه الدارُ وفَى	لكَ من طُلاَّبها الجمعُ الأَرِب[٩]
وفَتِ الدارُ لباني رُكْنِها	وقضى الحقَّ بنو الدارِ النُّجُب[١٠]
طلبوا العلمَ على شَيخِهُمُ	زمنًا، ثم إِذا الشيخُ طُلِب
غابَ عن أَعينهم، لكنّه	ماثلٌ في كلِّ قلبٍ، لم يَغِب
صورةٌ مُحْسِنَةٌ ما تختفي	ومثالٌ طيبٌ ما يحتجِب
رجلُ الواجبِ في الدنيا مضى	يُنصِفُ الأُخرى ويقضي ما وَجب
عاش عَيْشَ الناسِ في دنياهُمُ	وكما قد ذهب الناسُ ذهب
أَخذ الدرسَ الذي لُقِّنهُ	عُجَمُ الناسِ قديمًا والعرب

هوامش

(١) يريد بالوصب: المتعب من مرض أو من علو الهمَّة.

(٢) الاسترجاع: هو قول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾

(٣) الجيش اللجب: الكثير العدد والعدَّة.

(٤) العنت: المشقة.

(٥) امرؤ القيس: الشاعر الجاهلي المعروف.

(٦) المجنون: مجنون ليلى، من شعراء البادية كامرئ القيس.

(٧) يواقيت الربى: الأكمام المتفتِّحة بالورد والثمار التي تشبه الياقوت. والسلاف: الخمر.

(٨) رضوان: هو الملك القائم على الجنة. والقصب: المزمار أو الناي الذي يترنم به.
(٩) الجمع الأرب: أي الكثير الحصافة والكياسة والدهاء.
(١٠) النُّجُب: جمع نجيب.

يرثي جدته[1]

خُلِقْنا للحياةِ وللمماتِ ومن هذين كلُّ الحادثاتِ
ومَنْ يُولَدْ يَعش ويَمُتْ كأَن لَّمْ يَمُرّ خيالُهُ بالكائنات
ومَهْدُ المرءِ في أَيدي الروَاقي كنعش المرءِ بينَ النائحات[1]
وما سَلِمَ الوليدُ من اشْتكاء فهل يخلو المعمَّرُ من أَذاة؟[2]
هيَ الدنيا، قتالٌ نحن فيه مقاصدُ للحُسام وللقَناة
وكلُّ الناسِ مدفوعٌ إِليه كما دُفِعَ الجبانُ إِلى الثبات
نُرَوَّعُ ما نُرَوَّعُ، ثم نُرمَى بسهمٍ من يدِ المقدورِ آتي
صلاةُ اللهِ يا (تمزارُ) تجزِي ثَراكِ عن التِّلاوةِ والصَّلاة
وعن تسعين عامًا كنتِ فيها مثالَ المحسناتِ الفُضْليات
بَرَرْتِ المؤمناتِ، فقال كلٌّ: لعلكِ أَنتِ أَمُّ المومنات
وكانت في الفضائل باقياتٌ وأنتِ اليومَ كلُّ الباقيات
تبنَّاكِ الملوكُ. وكنتِ منهم بمنزلة البنينَ أو البنات
يُظِلُّون المناقبَ منكِ شتَّى ويُؤْوُنَ التُّقَى والصالحات
وما ملكوكِ في (سوقٍ) ولكنْ لدى ظلِّ القَنا والمرهَفات

[1] جدته هي المرحومة السيدة «تمزار» معتوقة جنتمكان إبراهيم باشا والي مصر، وسترى في القصيدة كيف بلغت الجدة المحترمة تلك المنزلة العالية.

عَنَنْتِ لهم (بمُورَةَ) بنتَ عشرٍ … وسيفُ الموتِ في هامِ الكُمَاةِ[٣]
فكنتِ لهم وللرّحمن صيدًا … وواسطةً لعِقْدِ المُسْلِمات
تَبِعْتِ محمدًا من بعد عيسى … لخيرِكِ في سنيكِ الأُولَيَات
فكان الوالدان هدًى وتَقْوَى … وكان الوِلْدُ هذي المعجزات
ولو لم تَظْهري في العُرْبِ إلاّ … بأَحمدَ كنتِ خيرَ الوالدات[٤]
تجاوزتِ الولائدَ فاخراتٍ … إلى فخر القبائل واللغات
وأَحكم مَنْ تَحكَّمَ في يَراعٍ … وأَبلغِ مَنْ تَبلَّغَ مِن دَواة
وأَبرإ مَنْ تبرَّأَ من عداءٍ … وأَنزهِ مَنْ تنزَّه مِن شَمات
وأَصْوَنِ صائنٍ لأَخيه عِرْضًا … وأَحفظِ حافظٍ عهدَ اللِّدات
وأَقتلِ قاتلٍ للدَّهرِ خُبْرًا … وأَصْبَرِ صابرٍ للغاشيات
كأَني والزمانُ على قتالٍ … مُساجلةً بميدان الحياة[٥]
أَخاف إذا تثاقلَت الليالي … وأُشْفِقُ من خُفوف النائبات
وليس بنافعي حَذَرى، ولكنْ … إباءً أَن أَراها باغِتات
أَمأْمونٌ من الفَلَكِ العوادي … و(برجَلُهُ) يَخُطُّ الدائرات؟
تأَمَّلْ: هل ترى إلاَّ شِباكًا … من الأَيام حَوْلَك مُلْقَيات؟
ولو أَن الجهاتِ خُلقن سبعًا … لكان الموتُ سابعةَ الجهات
لَعًا للنعش، لا حُبًّا، ولكنْ … لأَجْلِكِ يا سماءَ المَكْرُمات[٦]
ولا خانته أَيدي حامِليه … وَإنْ ساروا بصبري والأَناة
فلم أَرَ قبله المريخَ مُلْقًى … ولم أَسمع بدفن النيِّرات
هناكَ وَقفْتُ أَسأَلكِ اتِّئادًا … وأُمسكُ بالصفات وبالصّفاة[٧]
وأنظرُ في تُرابكِ، ثم أُغضِي … كما يُغضي الأَبِيُّ على القَذاة
وأَذكر من حياتكِ ما تقضَّى … فكان من الغداة إلى الغداة

هوامش

(١) المهد: الموضع يهيأ للطفل. والرواقي: جمع راقية، والراقية عند العرب هي الأم أو نحوها، تضع التمائم والتعاويذ على الطفل حفظًا له من العين أو من الشياطين، على زعمهم.

(٢) المعمَّر: هو الذي يمدُّ له في العمر. يقول في هذه الأبيات الثلاثة، إن الدنيا لا ثبات لها، فالإنسان كأنه لم يوجد، فالراقيات والنائحات والمهد والنعش والصغر والكبر في لقاء الأقدار سواءٌ، فلا شيء يردُّ الموت ولا يمنع القدر.

(٣) عننت لهم.. إلخ: مأخوذة من قولهم «عنَّ الصيد للصائد» إذا ظهر. ومورة: علم على صقع بعينه هو الوطن الأول لجدته. والكماة: جمع كمي، وهو الفارس المدجج بالسلاح. بعد أن قال إن جدته كانت متبناة للملوك بيَّن كيف وقع لها ذلك، فقال: إنها لاحت للفرسان المغيرين على وطنها (مورة) فأخذوها أسيرة حرب. وهي لم تجاوز العاشرة، وكان هذا لخيرها؛ حيث أكرمها الله، فنشأت مسلمة. ونزلت من الملوك بمنزلة بناتهم.

(٤) أحمد: هو الاسم الشريف لأمير الشعراء، يقول لجدته في هذا البيت: إذا لم يكن لك نسب في العرب إلا ولادتك لي لكنت بهذا خير أمهات العرب. لقد وضع هذا البيت نفسه توأمًا لبيت المتنبي الذي يخاطب به أمه فيقول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أما

(٥) المساجلة في القتال هي من قولهم: «الحرب سجال يوم لك ويوم عليك».

(٦) لعًا: كلمة دعاء تقال للعاثر، تقول «لعًا له» إذا أردت سلامته و«لا لعًا له» إذا أردت غير ذلك.

(٧) الصفاة: الحجر الصلد، والمقصود بها هنا القبر.

محمد عبده[1]

مُفسِّرَ آيِ الله بالأَمس بيننا ... قُم اليومَ فسِّرْ للورى آيةَ الموتِ
رُحِمْتَ، مَصيرُ العالمين كما ترى ... وكلٌّ هناءٍ أَو عزاءٍ إِلى فَوْت
هو الدهرُ: ميلادٌ، فشغلٌ، فمأْتمٌ ... فذِكرٌ كما أَبقى الصَّدَى ذاهبَ الصَّوت[1]

هوامش

(١) يقول: إن الإنسان يشبه الصوت، وذكره من بعده يشبه الصدى، والصدى هو ما يردُّ على المصوِّت شبيهًا بصوته، ويقال له الرجع أيضًا.

[1] هو الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية. توفي سنة ١٩٠٥، وقد ظهرت أسمى ملكاته في فهم وتفسير القرآن الشريف.

رياض باشا[1]

مَماتٌ في المواكب، أَم حياةُ ونعشٌ في المناكب، أَم عِظاتُ؟
ويَوْمُكَ في البريَّةِ، أَم قيامٌ وموكبُك الأَدلَّةُ والشِّياتُ؟[1]
وخطْبُكَ يا (رياضُ)، أَم الدواهي على أَنواعها والنَّازلات؟
يجِلُّ الخْطبُ في رجلٍ جليلٍ وتَكبرُ في الكبير النائبات
وليس المْيتُ تَبكيه بلادٌ كمَنْ تَبكي عليه النائحات
وهل تَلْقَى مناهيا الرواسي فتَهْوِي، ثُمَّ تُضْمِرها فَلاة؟[2]
وتُكْسَرُ في مراكزها العَوالي وتُدْفَنُ في التراب المُرْهَفات؟[3]
ويُغشَى الليثُ في الغابات ظُهْرًا وكانت لا تَقرُّ بها الحَصاة؟
ويَرْمِي الدهرُ (نادِيَ عينِ شمسٍ) ولا يَحْمِي لِواءَهُم الرُّماة؟[4]
أَجَلْ؛ حُمِلَتْ على النعشِ المعالي ووُسِّدَتِ الترابَ المُكْرُمات
وحُمِّلَتِ المدافعُ ركنَ سلمٍ يُشيِّعه الفوارسُ والمُشاة
وحلَّ المجدُ حُفْرتَه، وأَمسَى يُطِيف به النوائحُ والبُكاة
هَوى عن أَوْج رِفْعتِه (رياضٌ) وحازَتْه القرونُ الخاليات

[1] يقترن تاريخ رياض باشا بتاريخ كبار الحوادث في مصر منذ الخديو إسماعيل إلى أواخر حكم عباس الثاني تقريبًا؛ فتاريخه في الواقع هو تاريخ مصر طيلة هذه الحقبة من الزمن.

كأَن لم يملأِ الدنيا فِعالاً   ولا هَتفَتْ بدولته الرُّواة

نعاه (البرقُ) مُضْطرِبًا، فماجَتْ   نجومٌ في السماء مُحلِّقات

كأَن الشمسَ قد نُعِيَتْ عِشاءً   إليها فهْي حَسْرَى كاسفات

صحيفةُ غابرٍ طُوِيَتْ، وولَّت   على آثارِ مَنْ دَرجوا وفاتوا

يقول الآخرون إذا تَلَوْها: كذلك فَلْيَلِدْن الأُمَّهات

جزى اللهُ الرضا أَبَويْ (رياضٍ)   هما غرَسَا وللوطن النبات

بنو الدنيا على سَفرٍ عَقيمٍ   وأَسفارُ النوابغِ مُرجعات

أَرى الأَمواتَ يَجمعُهم نشورٌ   وكم بُعِثَ النوابغُ يومَ ماتوا

صلاحُ الأَرضِ أَحياءٌ ومَوْتَى   وزينتُها وأَنجُمُها الهُداة

قرائحُهم وأَيديهم عليها   هدىً، ويسارةٌ، ومُحسّنات

فلو طُلِبَتْ لهم دِيَةٌ لقالت   كنوزُ الأَرضِ: نحن هي الدِّيات

أَبا الوطن الأَسيفِ، بكتْكَ مصرُ   كما بكَت الأَبَ الكهلَ البَناتُ

قَضَيْتَ لها الحقوقَ فتًى وكهْلا   ويومَ كبرْتَ وانحنَتِ القَناة

ويومَ النَّهْيُ للأُمراءِ فيها   ويومَ الآمرون بها العُصاة[٥]

فكنْتَ على حكومتها سِراجًا   إذا بَسَطتْ دُجاها المُشْكِلات

يزيد الشيبُ نفسَك من حياةٍ   إذا نقصَتْ مع الشيب الحياة

وتملؤك السُّنُونَ قوًى وعزمًا   إذا قيل: السِّنون مُثَبِّطات

كسيْفِ الهندِ أَبْلَى حين فُلَّتْ   ورَقَّتْ صَفحتاه والظُّبات[٦]

رفيعُ القدرِ بالأَمصار يُرني   كما نَظرتْ إلى النَّجم السُّراة[٧]

كأَنك في سماءِ المُلكِ (يحيى)   وآلُك في السماءِ النِّيرات[٨]

تَسوسُ الأَمرَ، لا يُعطِي نفاذًا   عليك الآمرون ولا النُّهاة

إذا الوزراءُ لم يُعطوا قِيادًا   نبذتهُم كأَنهمُ النَّواة

زَماعُ في انقباضٍ في اختيالٍ   كذلك كان (بسمركُ) الثُّبات[٩]

صِفاتٌ بَلَّغتْك ذُرَى المعالي   كذلك تَرفع الرجلَ الصِّفات

وجدتَ المجدَ في الدنيا لِواءً   تلقَّاه المقاديمُ الأُباة

ويبقى الناسُ ما داموا رَعايا   ويبقى المُقدِمون همُ الرُّعاة

(رياضُ)، طَوَيْتَ قرْنًا ما طوَتْه   مع (المأْمون) (دِجْلَةُ) و(الفرات)[١٠]

تمنَّت منه أَيامًا تحلَّى ... بها الدُّوَلُ الخوالي الباذخات
ووَدّ (القيصران) لَو آنَّ (روما) ... عليها من حَضارته سِمات[١١]
حَباكَ اللهُ (حاشِيَتَيْهِ) عُمْرًا ... وأَعمارُ الكرام مُبارَكات
فقمتَ عليه تجرِبةً وخُبْرًا ... ومدرسةُ الرجال التجرِبات
تمرُّ عليك كالآيات تَتْرَى ... صنائعُ أَهلِهِ والمحدَثات
فأَدركتَ (البخارَ) وكان طفلاً ... فشبَّ، فبايَعْته الصافِنات[١٢]
تُجاب على جناحَيْه الفيافي ... وتحكم في الرياح المنشآت
ويُصعَد في السماءِ على (بروج) ... غدًا هي في العوالم بارِجات[١٣]
وبَيْنما الكهرُباءُ تُعَدُّ خرقًا ... إذا هي كلَّ يومٍ خارقات
ودان البحرُ حتى خِيضَ عُمقًا ... وقِيدَتْ بالعِنان السافيات[١٤]
وبُلِّغَت الرسائلُ، لا جَناحٌ ... يَجوب بها البحارَ، ولا أَداة
كأَن القُطرَ حين يُجيب قُطرًا ... ضمائرُ بينها مُتناجِيات
رَهينَ الرَّمْسِ، حدَّثني مَليًّا ... حديثَ الموتِ تبْدُ لِيَ العِظات[١٥]
هو الخبرُ اليقينُ، وما سواه ... أَحاديثُ المُنى والتُّرَّهات[١٦]
سأَلْتُكَ: ما المنِيَّةُ؟ أَيُّ كأْسٍ؟ ... وكيف مَذاقُها؟ ومَنْ السُّقاة؟
وماذا يُوجِس الإنسانُ منها ... إذا غَصَّت بعلْقَمها اللَّهاة؟[١٧]
وأَيُّ المَصْرَعَيْنِ أَشدُّ: موتٌ ... على عِلْمٍ، أَم الموتُ الفَوات؟[١٨]
وهل تقع النفوسُ على أَمانٍ ... كما وقعَتْ على (الحرم) القطاة؟[١٩]
وتَخْلُد أَم كزعم القول تَبْلَى ... كما تبلَى العِظامُ أَو الرُّفات؟
تعالى اللهُ قابضُها إليه ... وناعِشُها كما انتعش النبات
وجازيها النعيمَ حِمىً أَمينًا ... وعيشًا لا تُكادِّره أَذاة
أَمثلُك ضائقٌ بالحقِّ ذَرْعًا ... وفي بُرْدَيْك كان له حماة؟[٢٠]
أَليس الحقُّ أَن العيشَ فانٍ ... وأن الحيَّ غايتُه الممات؟
فنَمْ ما شِئْت، لا تُوحِشْكَ دنيا ... ولا يَحْزُنْكَ من عيشٍ فَوات
تصرَّمَت الشبيبةُ والليالي ... وغاب الأَهلُ، واحتجت اللِّدات
خَلَتْ (حِلْمِيّةٌ) ممَّنْ بناها ... فكيف البيتُ حولك والبنات؟[٢١]
أَفيه من (المحلة) قوتُ يوم ... ومن نِعمٍ مَلأْنَ (الطوْدَ) شاة؟[٢٢]

وهل لك من حريرهما وِسَادٌ … إذا خَشُنَتْ لجنبَيْك الصَّفاة؟[23]

تَولَّى الكلُّ، لم ينفعك منه … سوى ما كان يَلتقِط العُفاة

عِبادُ اللهِ أَكرمُهم عليه … كِرامٌ في بَرِيَّته، أُساة

كمائدةِ المسيحِ، يقوم بُؤْسٌ … حوالَيها، وتَقعُد بائسات

أَخذتُكَ في الحياةِ على هَناتٍ … وأَيُّ الناس ليس له هَنات؟[24]

فصفحًا في الترابِ إذا التقينا … ولُوشِيَتِ العداوةُ والتِّرات

خُلِقتُ كأَنَّني (عيسى)، حرامٌ … على قلبي الضَّغِينةُ والشَّمات

يُساءُ إِلَّيَّ أَحيانًا، فأَمضي … كريمًا، لا أَقوت كما أقات

وعندي للرجال — وإن تجافَوْا — … مَنازلُ في الحفاوَة لا تُفات

طلعْتَ على (النَّدِيِّ) بعين شمسٍ … فوافَتْها بشمسَيْنِ الغداة

على ما كان يَندو القومُ فيها … توافَى الجمعُ وائْتمر السَّراة[25]

تملَّكهم وقارُك في خشوعٍ … كما نظمَتْ مُقيمَيها الصَّلاة

رأَيتَ وُجوهَ قومِك كيف جَلَّتْ … وكيف تَرعرعَتْ مصرُ الفتاة

أُجيلَ الرأيُ بين يديك حتى … تبيَّنَت الرَّزانةُ والحَصاة[26]

وأَنتَ على أَعِنَّتهم قديرٌ … وهم بك في الذي تقْضِي حُفاة[27]

إذا أَبدى الشبابُ هَوىً وزَهْوًا … أشار إليه حِلْمُكَ والأَناة

فهلاَّ قُمْتَ في النادي خطيبًا … لك الكَلِمُ الكبارُ الخالدات؟

تُفَجِّر حكمةَ (التسعين) فيه … فآذانُ الشَّبِيبةِ صاديات؟[28]

تقول: متى أَرى (الجيرانَ) عادوا … وَضُمَّ على الإِخاءِ لهم شَتات؟[29]

وأَين أُولو النُّهَى مِنَّا ومنهم … عسى يَأْسُون ما جرح الغُلاة؟[30]

مَشَتْ بين العشيرة رُسْلُ شرٍّ … وفَرَّقَت الظْنونَ السَّيِّئات

إذا الثقةُ اضمحلَّتْ بين قومٍ … تمزَّقَت الرَّوابطُ والصِّلات

فثِقْ، فعسى الذين ارتَبْت فيهم … على الأَيام إخوانٌ ثِقات

وربَّ مُحبَّبٍ لا صبرَ عنه … بَدَتْ لك في مَحبَّته بَداة[31]

ومكروهٍ على أَخَذاتِ ظنٍّ … تُحبِّبُه إليك التجربات

بني الأَوطان، هبُّوا، ثم هبُّوا … فبعضُ الموتِ يَجلبه السُّبات[32]

مشى للمجدِ خَطْفَ البرقِ قومٌ … ونحن إذا مشينا (السلحفاة)

يُعِدُّون القُوَى برًّا وبحرًا … وعُدّتُنا الأَماني الكاذبات

هوامش

(١) الشيات: جمع شية، وهي العلامة: يشبِّه يوم ممات رياض بيوم القيامة، ويشبِّه جنازته بأشراط وعلامات القيامة.

(٢) الفلاة: الصحراء.

(٣) العوالي: الرماح. والمرهفات: السيوف.

(٤) نادى عين شمس: موضع المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين ردًا على المؤتمر الذي أقامه أعيان القبط في فترة من خلاف وقع بين الطائفتين المصريتين، لا أعادها الله.

(٥) يشير إلى أيام الثورة العرابية في مصر وإلى لون الحكم قبل تلك الثورة.

(٦) الظبات جمع ظبة — بضم الظاء — حدُّ السيف.

(٧) السرَّاة — بضم السين —: جمع ساري، ولا يكون السرى إلا للمشي بالليل.

(٨) يحيى: هو يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد.

(٩) بسمرك: وزير ألماني ضُرِبَ مثلاً في الحنكة والمهارة والسياسة. والزماع: الذي يزمع الأمر في جرأة وإقدام ثم لا ينثني.

(١٠) المأمون: هو المأمون العباسي، ودجلة والفرات: نهران بالعراق.

(١١) سمات: علامات.

(١٢) الصافنات: الخيل.

(١٣) يريد بالبروج: الطائرات.

(١٤) العنان: الزمام، والسافيات: الرياح.

(١٥) الرمس: القبر.

(١٦) الترهات: جمع ترهة، بتشديد الراء مفتوحة، وهي الباطل.

(١٧) اللهاة — بفتح اللام — اللحمة المشرفة على الحلق من أقصى الفم.

(١٨) الموت الفوات: الموت المفاجئ.

(١٩) القطاة: الحمام، أو طير يشبه الحمام، ويقصد بالحرم: الحرم المكي حيث يحرم صيد الطيور اللائذة به.

(٢٠) حماة: جمع حامٍ، وهو المدافع والمانع من العدوان، والحامي: الأسد لحمايته عرينه.

(٢١) الحلمية: حيث كانت دار الفقيد. وقوله: «وكيف البيت حولك والبنات»: يسأله عن حاله في القبر وعن زاده هناك.

(٢٢) المحلة: محلة روح قرية في إقليم الغربية بمصر، حيث كانت توجد أملاك الفقيد الواسعة.

(٢٣) الصفاة: الحجر والمقصود به هنا القبر.

(٢٤) الهنات: جمع هنة، وهي الشيء الصغير، وقد تعرف أسباب تلك الهنات من قصيدة مطبوعة في الجزء الأول من الشوقيات.

(٢٥) يندو القوم: إذا اجتمعوا ليتشاوروا في ناديهم. والسراة: جمع سري، وهو السيد الشريف.

(٢٦) الحصاة: العقل والرأي.

(٢٧) الحفاة: جمع حفي، وهو هنا بمعنى العالم يتعلم باستقصاء. قال الله تعالى ﴿كأنك حفي عنها﴾؛ أي سائل عنها باستقصاء.

(٢٨) التسعين: هي مدة عمر الفقيد. وصاديات، أي ظامئات.

(٢٩) الجيران: هم القبط والمسلمون في مصر.

(٣٠) الغلاة: هم البالغون حد الإفراط في عقائدهم وآرائهم.

(٣١) البداة، من قولهم: بدا لي في هذا الأمر بداء، أي ظهر لي فيه شيء.

(٣٢) السبات: النوم، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وجعلنا نومكم سباتًا﴾.

عثمان باشا غالب[1]

ضَجَّت؟ لمصرَع (غالبٍ) ... في الأَرضِ (مملكةُ النباتِ)
أَمستْ (بتيجانٍ) عليــ ... ـه من الحِدادُ مُنكَّسات[1]
قامت على (ساقٍ) لغيــ ... ـبته، وأَقعدت الجهات
في مأْتمٍ تَلْقَى الطبيعــ ... ـةَ فيه بين النائحات
وترى (نجومَ الأَرضِ) من ... جَزعٍ مَوَائِدَ كاسفات
والزَّهرُ في (أَكمامِه) ... يَبكي بدمع الغاديات
وشَقائقُ النُّعمانِ آ ... بَتْ بالخدودِ مُخَمَّشات[2]
أَمَّا مُصابُ الطبِّ فيــ ... ـه فسَلْ به مَلأَ الأُساةِ[3]
أَوْدَى الحِمامُ بشيخهم ... ومَآبهم في المعضلات
مُلْقِي الدروس المُسْفِرا ... تِ عن الغُروس المُثمِرات
قد كان حَرْبَ الظلمِ، حر ... بَ الجهلِ، حربَ التُّرَّهات
والمُستضاءَ بنوره ... في الخافيات المظلمات
عَلَمُ الورَى في عِلْمه ... في الغربِ مُغْتَرِبُ الرُّفات
قد كان فيه محلَّ ... إجلالِ الجهابذةِ الثقات

[1] عثمان باشا غالب: كان طبيبًا عظيمًا وعالمًا بالنبات يشار إليه بالبنان، توفي في باريس سنة ١٩٢٠.

ومُـمَـثِّـلَ الـمـصـريِّ فـي	حظَّ الشعوبِ من الهِبات
قُـلْ لـلـمُـريـب: إلـيـكَ، لا	تأْخذْ على الحرِّ الهنات
إن الـنـوابـغَ (أَهـلَ بَـدْ	ر) ما لهم من سيئات[٤]
هم في عُلا الوطنِ الأَدا	ةُ فلا تَحُطَّ مِن الأَدّاة
وهمُ الأُلَي جمعوا الضما	ئرَ والعزائم من شَتات
لهم التَّجِلَّةُ في الحيا	ةِ، وفوق ذلك في الممات
(عـثـمـانُ)، قُـمْ تـرَ آيـةً	اللهُ أَحيا (الموميات)
خرجَتْ بَنِينَ من الثرى	وتحرّكَتْ منه بَنات
واسمَعْ بمصر الهاتفـ	ـين بمجدها والهاتفات
والـطـالـبـيـن لـحـقـهـا	بينَ السَّكِينةِ والثبات
والـجـاعـلـيـهـا قِـبْـلـةً	عندَ الترنُّمِ والصَّلاة[٥]
لاقَـوْا أُبُـوَّتَـهـم عـلـى	غُرِّ المناقبِ والصفات
حـتـى الـشـبـابُ تـراهُـمُ	غلبوا الشيوخَ على الأَناة
وزنوا الرجالَ، فكان ما	أَعْطَوْا على قدر الزِّنات[٦]
قل للمُغالِطِ في الحقا	ئق حاضرٍ منها وآت
الـفـكـرُ جـاءَ رسـولُـه	وأَتى بإِحدى المعجزات
عيسى الشُّعورِ إذا مشى	ردَّ الشعوبَ إلى الحياة

هوامش

(١) التيجان للنبات: هي أكاليل الثمار، كالأكمام.

(٢) شقائق: جمع شقيقة، وهي الموضع ينبت الأعشاب، وشقائق النعمان موضع بعينه كثر فيه النبات المختلف الألوان والشيات، مرَّ عليه النعمان بن المنذر فأعجبه، فقال: هو لي، فلم يعد أحد يمسُّه، ومن ذلك سُمِّي شقائق النعمان، وصار كل موضع ينبت مثل ذلك يقال له: شقائق النعمان، والخدود في شقائق النعمان يقصد بها الورد، وتخميشها: يعني لطمها أو قطعها..

(٣) الملأ: الجماعة من الناس. والأساة جمع آسي: وهو الطبيب.

(٤) أهل بدر: هم أول الغزاة مع محمد ﷺ، شبَّه النوابغ بهم، ووجه الشبه بينهما، هو سبق كل منهما لإحراز أسمى مراتب الشرف والرفعة. نقول: وهذا نوع من وجه الشبه لم نر شاعرًا فطن إليه قبل شوقي حيَّاه الله.

(٥) الترنُّم: أحد ضروب العبادة في المسيحية، كالصلاة عند المسلمين.

(٦) الزنات: جمع زنة (كعدة) وهي المرة من الوزن.

عبد الحي[١]

طُوِيَ البِساطُ وجَفَّت الأَقداحُ … وغدَتْ عواطلَ بعدكَ الأَفراحُ[١]

وانفضَّ نادٍ بالشآم، وسامرٌ … في مصرَ أَنت هزارُه الصَّدَّاح[٢]

وتَقوَّضَتْ للفن أَطْولُ سَرْحةٍ … يُغْدَى إلى أَفيائها وُيراح[٣]

واللهِ ما أَدري وأَنتَ وحيدُه … أَعليه يُبْكى، أَم عليكَ يُناح؟

(إسحاقُ) مات، فلا صَبُوحَ، و(مَعْبَدٌ) … أَوْدَى، فليس مع الغبوقِ فَلاح[٤]

مَلِكُ الغِناءِ أَزاله عن تخْتِهِ … قَدَرٌ يُزيل الراسياتِ مُتاح

في التُّرْب فوقَ (بني سويفَ) يتيمةٌ … ومن الجواهر زَيِّفٌ وصِحاح[٥]

ما زال تاجُ الفن تيّاهًا بها … حتى استبدّ بها الردَى المُجتاح

لو تستطيع كرامةً لمكانها … مَشَتِ الرياضُ إليه والأَدْواح

رُحْماكَ (عبدَ الحيِّ)؛ أُمُّكَ شَيْخَةٌ … قعدَتْ، وهِيضَ لها الغَداةَ جَناح

كُسِرَتْ عَصاها اليوم، فَهْيَ بلا عصًا … وقَضى فَتاها الأَجْوَدُ المِسْماح

اللهُ يعلم، إن يَكُنْ في قلبها … جُرحٌ ففي أَحشاءِ مصرَ جِراح

والناسُ مَبْكِيٌّ وباكٍ إِثْرَهُ … وبُكا الشعوبِ إذا النوابغُ طاحوا

كان الندامَى إن شَدَوْتَ وعاقروا … سِيّانِ صوتُك بينهم والراح[٦]

[١] هو المرحوم عبد الحي المغني، ذاع صيته في مصر وجاوزها إلى الأقطار العربية حتى عُدَّ وحيد عصره وإمام فنه. توفي سنة ١٩١٢م.

فـيـمـا تـقـول مُـغـنِّـيًـا ومُـحـدِّثًـا | تـتـنـافـس الأَسـمـاءُ والأَرواح[7]
فـارقـتَ دنـيـا أَرهَـقـتْـك خَـسـارةً | وغـنِـمْـتَ قُـرْبَ الـلـهِ وهـو رَبَـاح
يـا مُـخـلِـفًـا لـلـوعـد، وَعْـدُك مـالـه | عـنـدي ولا لـك فـي الـضـمـيـر بَـراح
عَـبَـثَـتْ بـه وبـكَ الـمـنـيَّـةُ، وانـقـضـى | سـبـبٌ إِلـيـه بـأُنْـسِـنـا نَـرتـاح
لـمَّـا بـلـغـنـا بـالأَحِـبَّـةِ والـمـنـى | بـابَ الـسـرورِ تـغـيَّـبَ الـمـفـتـاح
زعـمـوا نَـعِـيَّـكَ فـي الـمـجـامـع مـازحًـا | هَـيْـهـاتَ! فـي رَيْـبِ الـمَـنـونِ مِـزاح
الـجِـدُّ غـايـةُ كـلِّ لاهٍ لاعـبٍ | عـنـدَ الـمـنـيَّـةِ يَـجـزع الـمِـفـراح[8]
رَمَـت الـمـنـايـا إِذ رمَـيْـنَـك بُـلْـبُـلا | أَرداه فـي شَـرَكِ الـحـيـاةِ جِـمـاح
آهـاتُـه حُـرَقُ الـغـرامِ، ولـفـظُـه | سـجـعُ الـحَـمـام لَـوَ أَنَّـهُـنَّ فِـصـاح
وذَبَـحْـنَ حَـنْـجَـرةً عـلـى أَوتـارهـا | تُـؤسَـى الـجِـراحُ، وتُـذْبَـحُ الأَتـراح
وفَـلَـلْـنَ مـن ذاك الـلـسـان حـديـدةً | يَـخـشـى لـئـيـمٌ بَـأْسَـهـا ووقـاح
وأَبـحْـنَ راحـتَـك الـبِـلَـى، ولـطـالـمـا | أَمـسـى عـلـيـهـا الـمـالُ وَهْـوَ مُـبـاح
روحٌ تـنـاهـتْ خِـفَّـةً فـتـخـيَّـرتْ | نُـزُلاً تَـقـاصَـرُ دونَـه الأَشـبـاح
قُـمْ غـنِّ ولْـدانَ الـجِـنـانِ وَحُـورَهـا | وابـعـثْ صَـداك فـكـلُّـنـا أَرواح

هوامش

(١) طوي البساط: تعبير يكنى به عن انتهاء عوامل السرور.

(٢) الهزار: طائر حسن الصوت، وهو فارسي، معرب هزاردستان.

(٣) السرحة: الشجرة العظيمة. والأفياء: جمع فيْء، وهو — من الشجر — الظل.

(٤) إسحاق ومعبد: علمان على مغنيين. والصبوح: الشرب أول الصباح. والغبوق. الشرب بالعشي.

(٥) دُفِنَ الفقيد في بني سويف وهي بلدة مشهورة بالقطر المصري. والجواهر الزائفة، هي ضد الجواهر الصادقة الصحيحة.

(٦) الندامي: جمع نديم. وعاقروا: من المعاقرة، وهي شرب الراح. والراح: الخمر، يشبه صوته بالخمر؛ لأن كليهما مسكر.

(٧) يقول: إن حديثه كان مثل غنائه. والمأثور عن عبد الحي أنه كان فكه الحديث النكتة.

(٨) المفراح: كثير الفرح.

محمد ثابت باشا[1]

سِرْ أَبا صالحٍ إلى الله واترك ... مصرَ في مأْتمٍ وحزنٍ شديد
هـذه غـايـةُ الـنـفـوسِ، وهـذا ... مُنتهَى العيشِ مُرِّهِ والرَّغيد
هل ترى الناسَ في طريقك إلاَّ ... نَعْشَ كَهْلٍ تَلاه نعشُ الوَليد؟
إنَّ أَوهَى الخيوطِ فيما بدا لي ... خَيْطُ عيشٍ مُعلَّقٌ بالوريد[1]
مُضْغَةٌ بينَ خفْقَةٍ وسُكونٍ ... ودَمٌ بينَ جَرْيَةٍ وجُمود
أَنزلوا في الثرى الوزيرَ، ووارَوْا ... فيه تسعين حِجَّةً في صُعود
كنتَ فيها على يَدٍ من حرير ... لِلَّيالي، فأَصبحَتْ من حَديد[2]
قد بلوناك في الرياسة حينًا ... فبلوْنا الوزيرَ عبدَ الحميد[3]
آخذًا من لسانِ فارسَ قِسْطًا ... وافرَ القسْمِ من لسان لَبِيد[4]
في ظلال الملوكِ، تُدْنِي إليهم ... كلَّ آوٍ لظلِّكَ الممدود
لستَ مَنْ مَرَّ بالمعالم مَرًا ... إنما أَنت دولةٌ في فقيد
قُمْ فحدِّثْ عن السنين الخَوالي ... وفُتوحِ المُمَلَّكِين الصِّيد[5]
والذي مَرَّ بينَ حالٍ قديمٍ ... أَنتَ أَدرَى به وحالٍ جديد
وصِف العزَّ في زمان (عليٍّ) ... واذكر اليُمْنَ في زمان سعيد[6]

[1] هو أحد باشوات مصر الكبار، عاصر أكثر ولاة مصر من الأسرة العلوية، وتوفي سنة ١٩٠١ بعد أن عمَّر حوالي تسعين عامًا.

كيف أُسْطولُهم على كل بحرٍ وسَرايـاهُـمُ عـلـى كـلِّ بِـيـدِ؟[٧]
قـد تَـولَّـوْا وخـلَّـفـوك وفِـيًّـا فـي زمـانٍ عـلـى الـوَفِـيِّ شـديـد
فـالْـحَقِ الـيومَ بـالكرام كريمًا والْـقَـهـم بـيـنَ جَـنَّـةٍ وخُـلـود
وتـقـبَّـلْ وداعَ بـاكٍ عـلـى فـقــ ــدك، وافٍ لـعـهـدك الـمـحـمـود

هوامش

(١) الوريد: شريان بكسر الشين، وهو عرق رئيسي في جسم الإنسان، يشبه العروق في جسم الإنسان بالخيوط؛ ليتوصل بذلك إلى إثبات ضرورة الضعف في الحياة وعدم بقائها.

(٢) يد من حرير: كناية عن رفاهية العيش.

(٣) بلوناك في الرياسة: أي اختبرناك. والوزير عبد الحميد: هو عبد الحميد الكاتب المشهور.

(٤) القسم: هو العطاء أو الحظ. ولبيد: شاعر عربي قديم. والغرض أن المرثي كان ملمًّا بالفارسية والعربية.

(٥) الصيد جمع أصيد، وهو العزيز الجانب.

(٦) يريد زمان محمد علي الكبير، ورفاهة العيش في زمن الخديو سعيد باشا.

(٧) السرايا: جمع سريَّة — بالياء المشددة مفتوحة — وهي القطعة من الجيش لا يزيد عددها عن الأربعمائة. والبيد: جمع بيداء، وهي الصحراء.

محمد فريد بك[1]

كلُّ حَـيٍّ عـلـى الـمـنـيّـة غـادي تـتـوالـى الـركـابُ والـموتُ حـادي[1]
ذهــب الأَوّلــونَ قَــرْنًــا فــقَــرْنًــا لم يـدُمْ حـاضرٌ، ولم يَبْقَ بـادي[2]
هل تـرى مـنـهُـمُ وتَـسـمعُ عـنـهم غـيـرَ بـاقـي مـآثـرٍ وأَيـادي؟[3]
كُرَةُ الأَرضِ كم رَمَتْ صَوْلجَانًا وطَـوَتْ مـن مـلاعـبٍ وجِـيـاد
والـغـبـارُ الـذي عـلـى صـفـحـتَيْها دَوَرانُ الـرَّحَـى عـلـى الأَجـسـاد[4]
كلُّ قبر من جانب القَفْرِ يبدو عَـلَـمَ الـحـقِّ، أَو مـنـارَ الـمـعَـاد
وزِمـامُ الـرِّكـابِ مـن كـلِّ فَـجٍّ ومَـحَـطُّ الـرِّحـالِ مـن كـل وادي
تطلع الشمسُ حيث تطلع نَضْخًا وتَـنَـحَّـى كـمِـنْـجَـل الـحَـصّـاد[5]
تـلـك حـمـراءُ فـي الـسـمـاءِ، وهـذا أَعوجُ النَّصْلِ مِنْ مِراس الجِلاد
لـيـت شـعـري تـعـمَّـدَا وأَصـرّا أَم أَعــانــا جــنــايــة الــمــيــلاد
كـذب (الأَزهـران)؛ مـالأَمـرُ إِلاَّ قَـدَرٌ رائـحٌ بـمـا شـاءَ غـادي[6]
يـا حَـمـامًـا تـرنَّـمَـتْ مُـسْـعِـداتٍ وبـهـا فـاقـةٌ إِلـى الإِسـعـاد[7]

---

[1] محمد بك فريد: الرئيس الثاني للحزب الوطني، وهو الضحية الغالية للوطنية المصرية، فقد ورث عن والده ثروة طائلة جدًا، بذلها إلى آخر درهم في سبيل طلب الاستقلال لمصر والسودان، وظل يجاهد إلى أن مات معدمًا فقيرًا في سنة ١٩٢٠، محكومًا عليه بالنفي والتشريد، حيث لم يسمح له بالعودة إلى وطنه إلا ميتًا.

ضاق عن ثُكْلِها البُكا، فتغنَّتْ　　رُبَّ ثُكْلٍ سمِعْتَه من شادي[٨]
الأَنَاةَ الأَنَاةَ؛ كلُّ أَليفٍ　　سابقُ الإِلْفِ، أَو مُلاقِي انفراد
هل رَجَعْتُنَّ في الحياة لفَهْمٍ؟　　إن فهمَ الأُمورِ نِصفُ السَّداد
سَقمٌ من سلامةٍ، وعزاءٌ　　من هناءٍ، وفُرْقَةٌ من وِداد
يُجْتَنَى شهدُها على إِبَرِ النحـ　　ـلِ، ويُمْشَى لورْدِها في القَتاد[٩]
وعلى نائمٍ وسَهْرانَ فيها　　أَجَلٌ لا يَنامُ بالمِرْصاد
(لُبَدٌ) صادَه الرَّدَى، وأَظنّ النَّسْـ　　ـرَ من سَهمِه على ميعاد[١٠]
ساقةَ النَّعْشِ بالرئيس، رُوَيْدًا　　مَوْكِبُ الموتِ مَوْضِعُ الاتِّئاد[١١]
كلُّ أَعوادِ مِنبرٍ وسريرٍ　　باطلٌ غيرَ هذه الأَعواد
تستريح المطِيُّ يومًا، وهذي　　تنقلُ العالَمين من عهد عادِ
لا وراءَ الجِيادِ زِيدَتْ جلالاً　　منذ كانت ولا على الأَجياد
أَسأَلتم حَقِيبةَ الموتِ: ماذا　　تحتَها من ذخيرةٍ وعَتاد؟
إنَّ في طَيِّها إمامَ صُفوفٍ　　وحَوارِيَّ نِيَّةٍ واعتقاد[١٢]
لو تركتم لها الزِّمامَ لجاءَت　　وحدَها بالشهيد دارَ الرشاد
انظروا، هل تَرَوْنَ في الجمعِ مصرًا　　حاسرًا قد تجلَّلتْ بسواد؟
تاجُ أَحرارِها غُلامًا وكهلاً　　راعَها أَن تراه في الأَصفاد
وسِّدُوه الترابَ نِضْوَ سِفارٍ　　في سبيلِ الحقوقِ نِضْوَ سُهاد[١٣]
واركزوه إلى القيامة رُمْحًا　　كان للحَشْدِ، والنَّدَى، والطِّراد
وأَقِرُّوه في الصفائح عَضْبًا　　لم يَدِنْ بالقَرار في الأَغماد
نازحَ الدارِ، أَقْصَرَ اليومَ بَيْنٌ　　وانتَهَتْ مِحْنةٌ، وكفَّتْ عوادي[١٤]
وكفَى الموتُ ما تخاف وترجو　　وشَفَى من أَصادقٍ وأَعادي
مَنْ دَنا أَو نأَى فإِنّ المنايا　　غايةُ القربِ أَو قُصارَى البِعاد
سِرْ مَعَ العمرِ حيثُ شِئْتَ تَئُوبا　　وافقد العمر لا تَؤُبْ من رُقاد
ذلك الحقُّ لا الذي زعموه　　في قديمٍ من الحديث مُعاد
وجرى لفظُه على أَلسُنِ النا　　سِ، ومعناه في صدور الصِّعاد[١٥]
يَتحلَّى به القويُّ ولكنْ　　كتحلِّي القتالِ باسم الجهاد
هل تَرى كالترابِ أَحسنَ عدلاً　　وقيامًا على حقوق العباد؟[١٦]

نزل الأَقوياءُ فيه على الضَّعْـ ـفَى، وحلَّ الملوكُ بالزُّهَّاد
صفحاتٌ نَقِيَّةٌ كقلوب الرُّسْـ ـلِ، مَغسولةٌ من الأَحقاد
قُمْ إِنِ اسْطَعْتَ من سريرك، وانظر سِرَّ ذاك اللواءِ في الأَجناد
هل تَراهم وأَنتَ مُوفٍ عليهم غيرَ بُنْيَانِ أُلْفَةٍ واتِّحاد؟[17]
أمةٌ هُيِّئَتْ وقومٌ لخير الدّهْـ ـرِ أَو شرِّه على استعداد
مصرُ تبكي عليك في كل خِدْرٍ وتَصوغُ الرثاءَ في كل نادي
لو تأَمّلْتَها لراعَك منها غُرَّةُ البرِّ في سَوادِ الحِداد
مُنْتهَى ما به البلادُ تُعزَّى رجُلٌ مات في سبيل البلاد
أُمّهاتٌ لا تحملُ الثُّكلَ إِلا للنجيب الجريء في الأَولاد
(كفريدٍ)، وأَين ثاني فريدٍ؟ أَيُّ ثانٍ لواحدِ الآحاد؟
الرئيسِ الجوادِ فيما علمنا وبَلوْنا وابنِ الرئيسِ الجواد؟
أَكلَتْ مالَهُ الحقوقُ، وأَبْلى جِسمَهُ عائدٌ من الهمِّ عادي
لك في ذلك الضَّنَى رِقَّةُ الرو ح، وخَفْقُ الفوادِ في العُوَّاد
عِلَّةٌ لم تَصِلْ فِراشَك حتى وطِئتْ في القلوب والأَكباد
صادفَتْ قُرْحَةً يُلائمها الصبـ ـرُ، وتأْبَى عليه غيرَ الفساد
وعَدَ الدهرُ أَن يكون ضِمادًا لك فيها، فكان شرَّ ضِماد
وإِذا الرُّوح لم تُنَفِّسْ عن الجسـ ـم (فبقراطُ) نافخٌ في رَماد[18]

هوامش

(١) الحادي: هو الذي يغني للقافلة فتنشط في مسيرها.

(٢) الحاضر: ساكن الحضر، والبادي: ساكن البادية.

(٣) الأيادي: جمع يد، ويقصد باليد، العطية أو الصنيعة، ولا تجمع اليد على أيادي إلا بهذا المعنى، فإذا أريد جمع اليد الحقيقية قيل: أيدي.

(٤) المفهوم من المقام أن الرحى المقصودة هي رحى المنون، فاكتفى بتعريفها بأل. كأنه يقول: الرحى المعهودة.

(٥) قوله: وتنحَّى كمجل الحصاد، أي هلالاً شكله كالمنجل في اعوجاجه.

(٦) الأزهران: الشمس والقمر.

(٧) الإسعاد: الإعانة، تقول: أسعدني على كذا، أي أعني عليه.

(٨) الثكل هنا: بمعنى الحزن. والشادي: المغني.

(٩) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبرة..

(١٠) لبد، بضم اللام وفتح الباء: علم على آخر نسور لقمان، زعموا أن لقمان هذا عاش عمر سبعة أنسر، كان آخرها النسر المسمى: لبد، أمَّا قوله «وأظن النسر» فليس المقصود الطائر المعروف بالنسر، وإنما يقصد أحد الكواكب في السماء معروفًا باسم النسر، يقول إن لكل كائن سهم من المنية مقدور.

(١١) ساقة الجيش أو ساقة النعش: هم السائرون في المقدمة. والاتئاد: بمعنى الترفُّق والتمهُّل.

(١٢) الحواري: مفرد الحواريين، وهم الصفوة المختارة من الصحاب.

(١٣) النضو: المهزول الجسم.

(١٤) عوادي الدهر: عوائقه.

(١٥) الصعاد: الرماح.

(١٦) يقول: إنه لم يجد الحق خالصًا في هذه الأرض إلا للقوة، ولم يجد العدل كاملاً إلا في التراب، حيث يسوَّى الأقوياء بالضعفاء، والطامعين بالقانعين.

(١٧) يشير هذا البيت إلى حقيقة تاريخية، هي أن عودة الفقيد ميتًا كانت في زمن اتحاد الأمة المصرية جميعًا على طلب الاستقلال التام، فلم يكن هناك أحزاب مختلفة المطالب وقتئذ.

(١٨) بقراط: هو أبو الطب، كما يقولون.

البنون والحياة الدنيا[١]

الضلوعُ تَتَّقدُ　　　والدموعُ تَطَّرِدُ

أَيُّهَا الشَّجِيُّ، أَفِقْ　　　من عَناءٍ ما تجد

قد جرَتْ لغايتها　　　عَبْرَةٌ لها أَمد

كلُّ مُسْرِفٍ جَزَعًا　　　أَو بُكى؛ سيَقْتَصِد

والزمانُ سُنَّتُه　　　في السُّلُوِّ يجتهد

قل لثاكِلَيْنِ مشَى　　　في قواهما الكَمَد

لم يُعافَ قبلَكما　　　والدٌّ، ولا وَلَد

الذين مِيلَ بهم　　　في سِفَارِهم بَعُدُوا

ما علمنا أَشَقُوا　　　بالرحيل أَم سَعِدوا؟

إن منزلاً نزلوا　　　لا يَرُدُّ مَن يَرِد

كلُّنا إِليه غدًا　　　ليس بالبعيد غَدُ

البنونَ هم دَمُنا　　　والحياةُ والوُرُد[١]

لا تَلَدُّ مثلَهم　　　مُهْجَةٌ، ولا كَبد

يستوون واحِدُهم　　　— في الحنان — والعَدَد

---

[١] نظم أمير الشعراء هذه القصيدة تعزيَّة للكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل «بك» في فقد وحيده سنة ١٩٣٥.

زينـةٌ، ومـصـلـحـةٌ واسـتـراحـةٌ، ودَدْ[٢]
فـتـنـةٌ إذا صَلـحـوا مِـحْـنـةٌ إذا فـسـدوا
شـاغـلٌ إذا مَـرِضـوا فـاجـعٌ إذا فُـقِـدوا
جُرحُـهم إذا انـتُزِعـوا لا تَـلـمُّـه الـضُّـمـدُ
الـعـزاءُ لـيـس لـه آسـيًـا، ولا الـجَـلَـد
قل (لِهيكل) كَلِمًا مـن ورائـهَـا رَشَـد
لـم يَشُبْ مهذَّبَها بـاطـلٌ ولا فَـنَـد[٣]
قد عَجِبْتُ من قَلَمٍ ثـاكـلٍ ويَـنْـجَـرِد
أَنتَ ليثُ معركـةٍ وهـو صـارمٌ فَـرَد
والسيوفُ نَخْوَتُها في الوَطِيس تَتَّقِد[٤]
أنـت نـاقـدٌ أَرِبٌ والأريـبُ يـنـتـقـد
ما تقول في قَدَرٍ بـعـضُ سِنِّـهِ الأَبَد؟
وهْوَ في الحياة على كـلِّ خُـطْـوَةٍ رَصَـد
يَـعـثُـر الأَنـامُ بـه إن سَعَوا، وإن قعدوا
يَنْزِلُ الرجالُ على حُكْمِه وإن جَحَدوا
القضاءُ مُعْضِلةٌ لـم يَحـلَّـهـا أَحَـد
كلَّما نقضْت لها عُـقْـدَةً بـدتْ عُـقـد
أَتعَبَتْ مُعالجها واستراح مُعْتَقِد
عـالَـمٌ مُـدَبِّـرُه بـالـبـقـاءِ مُـنْـفَـرِد
مِن بِلى كَوائِنه كـائـنـاتُـه الـجُـدُد
لا تـقـل بـه إدِدٌ إنّ حُـسْـنـه الإِدَد[٥]
تلتقي نقائضُه غـايـةً وتَّـتـحِـد
الـفَـنـاء فـيـه يـدٌ لـلـبـقـاءِ أَو عَـضُـد
ائْـتِـلافُـه رَشَـدٌ واخـتـلافُـه سَـدَد
جَدَّ في عمارته مُنْصَفٌ ومضْطَهَد
والغنى لخِدمته كالفقير محتشِد
وهـو فـي أَعِـنَّـتِـه مُـمْـعِـنٌ ومُـطَّـرِد

والـحـيـاةُ حَـنْـظَـلَـةٌ　　فـي حـروفـهـا شُـهُـد
هَـيـكـلُ الـشـقـاءِ لـه　　مـن مَـدامِـعٍ عَـمَـد
قـامـت الـنـعـوش عـلـى　　جـانِـبَـيْـهِ والـوُسُـد
عُـرْسُـه ومَـأْتَـمُـهُ　　غـايـتـهُـمـا نَـفَـدُ

هوامش

(١) الورد: جمع وريد، كبريد وبرد.
(٢) الدد — بالفتح — اللهو واللعب.
(٣) الفند: هو الكذب.
(٤) الوطيس: الحرب.
(٥) الإدد — جمع إداة، بالكسر — وهي الداهية.

ثروت باشا[١]

يموت في الغابِ أَو في غيرِه الأسدُ ... كلُّ البلادِ وِسادٌ حين تُتَّسَدُ[١]

قد غَيَّبَ الغربُ شمسًا لا سَقامَ بها ... كانت على جَنَباتِ الشرقِ تَتَّقِد

حدا بها الأَجَلُ المحتومُ فاغتربَتْ ... إِن النفوسَ إِلى آَجالِها تَفِد

كلُّ اغترابٍ مَتاعٌ في الحياةِ سوى ... يوم يُفارِقُ فيه المُهجةَ الجسدُ

نعى الغمامَ إِلى الوادي وساكنِهِ ... برقٌ تمايلَ منه السهلُ والجَلد

برقُ الفجيعةِ لمَّا ثار ثائِرُه ... كادتْ كأَمسِ له الأَحزابُ تَتَّحِد

قام الرجالُ حيارَى مُنصِتين له ... حتى إِذا هدَّ من آمالهم قعدوا

علا الصعيدَ نهارٌ كلُّه شجَنٌ ... وجلَّل الريفَ ليلٌ كلُّه سُهُدُ

لم يُبْقِ للضاحكين الموتُ ما وجدوا ... ولم يَرُدَّ على الباكين ما فقدوا

وراءَ رَيْبِ الليالي أَو فُجاءَتِها ... دمٌ لكلِّ شماتٍ ضاحكٍ رَصَد[٢]

باتت على الفُلْكِ في التابوتِ جَوْهَرَةٌ ... تكادُ بالليل في ظلِّ البِلَى تقِدُ[٣]

---

[١] هو المغفور له عبد الخالق ثروت باشا، كان زعيمًا وطنيًا عظيمًا، وسياسيًا إداريًا خطيرًا، تولَّى رياسة الحكم في البلاد أكثر من مرة، وظفر من السياسة الإنجليزية لمصر بتصريح ٢٨ فبراير، وقد سافر إلى أوربا لبعض المفاوضات السياسية المتممة لاستقلال مصر، فلم يمهله الموت، فقضى بفرنسا في سنة ١٩٢٨، وجيء به ميتًا، وكان بينه وبين أمير الشعراء صداقة حميمة، ومودة قديمة، ظهر أثرهما في هذه المرثية، التي تقرؤها فتحسُّ رجعها يعود إليك من أعماق الخلود.

يُفاخِرُ النيلُ أَصداف الخليج بها ... وما يدبُّ إِلى البحرين أَو يَرِدُ[٤]

إِنّ الجواهرَ أَسناها وأَكرمُها ... ما يقذِفُ المهدُ، لا ما يقذفُ الزَّبَدُ

حتى إِذا بلغ الفلكُ المدى انحدَرتْ ... كأَنها في الأَكُفِّ الصارمُ الفرِد

تلك البقيَّةُ من سيف الحمى كِسَرٌ ... على السرير، ومن رُمح الحِمى قِصَد[٥]

قد ضمّها فزكا نعْشٌ يُطاف به ... مُقدَّمٌ كلِواءِ الحقِّ مُنفرِد

مشتْ على جانبيه مصرُ تَنْشُدُه ... كما تدَلَّهَت الثَّكْلَى، وتَفتقِد[٦]

وقد يموت كثيرٌ لا تُحِسُّهمُ ... كأَنهم من هَوانِ الخطب ما وُجِدوا

ثُكْلُ البلاد له عقلٌ، ونكْبتُها ... هي النجابةُ في الأَولاد، لا العدد

مُكلِّلُ الهامِ بالتصريح، ليس له ... عودٌ من الهام يَحويه ولا نَضد[٧]

وصاحبُ الفضلِ في الأَعناقِ ليس له ... من الصنائعِ أَو أَعناقهم سَنَد

خلا من المِدْفَع الجبَّارِ مَركَبُهُ ... وحلَّ فيه الهدى والرفقُ والرَّشَد

إِن المدافِعَ لم يُخْلَقْ لصُحبتها ... جندُ السلام، ولا قُوّادُه المُجُد

يا بانِيَ الصرح لم يَشغَله مُمتدِحٌ ... عن البناءِ، ولم يصرفه مُنتقِد

أَصمَّ عن غضبِ مِنْ حَوْلِه ورِضىً ... في ثورةٍ تَلِدُ الأَبطالَ أَو تَئِد[٨]

تصريحُك الخطوةُ الكبرى ومرحلةٌ ... يدنو على مثلها، أَو يبعد الأَمَد

الحقُّ والقوةُ ارتدّا إِلى حَكمٍ ... من الفياصل، ما في دينه أَوَد

لولا سِفارتُك المهديّةُ اختصما ... ومَلَّ طُولَ النِّضالِ الذئبُ والنَّقد[٩]

مازِلْت تَطرقُ بابَ الصلح بينهما ... حتى تفتَّحت الأَبوابُ والسُّدَد

وجَدْتها فرصةً تُلْقي الحِبالُ لها ... إِنَّ السياسةَ فيها الصَّيْدُ والطَّرَد[١٠]

طلبْتَها عندَ هُوجِ الحادثاتِ كما ... يمشي إِلى الصيد تحتَ العاصفِ الأَسَد

لمَّا وجدت معُدّاتِ البناءِ بنتْ ... يداك للقوم ما ذمُّوا وما حمدوا

بنيت صَرحك من جُهد البلاد، كما ... تُبْنَى مِن الصَّخَرِ الآساسُ والعُمُد

فيه ضحايا من الأَبناءِ قَيِّمةٌ ... وفيه سَعْيٌ من الآباءِ مُطَّرِد

وفي أَواسِيه أَقلامٌ مُجاهدةٌ ... على أَسنَّتِها الإحسانُ والسَّدَد[١١]

وفيه أَلويةٌ عزَّ الجهادُ بهم ... لولا المنيَّةُ ما مالوا، ولا رقدوا

رميْت في وَتِدِ الذلِّ القديمِ به ... حتى تَزعزعَ من أَسبابه الوتِد

طوى حِمايتَهُ المحتَلُّ، وانبسطتْ ... حمايةُ اللهِ، فاستَذْرَى بها البلد

نَمْ غيرَ باكٍ على ما شِدْتَ من كرمٍ … ما شِيدَ للحقِّ فَهْوَ السَّرْمَدُ الأَبد

يا (ثروةَ) الوطنِ الغالي، كفَى عظةً … للناس أَنك كنزٌ في الثرى بَدَد[12]

لم يُطْغِك الحكمُ في شتَّى مَظاهِرِه … ولا استخفَّك لِينُ العيشِ والرَّغَد

تغْدُو على الله والتاريخِ في ثِقةٍ … ترجو فتُقْدِمُ، أَو تخْشَى فتَتَّئِد

نشأتَ في جَبْهِة الدنيا، وفي فمِها … يدورُ حيثُ تدور المجدُ والحسَد

لكلِّ يومٍ غَدٌ يمضي بَروْعَتِهِ … وما ليومِك يا خيرَ اللِّداتِ غدُ

رَمَتْكَ في قنواتِ القلبِ فانصدعَتْ … منِيَّةٌ ما لها قلبٌ، ولا كَبِد

لمَّا أَناخَتْ على تامُورِك انفجرَتْ … أزكَى من الوَرْدِ، أَو من مائه الوُرُد[13]

ما كلُّ قلبٍ غدا أو راح في دمه … فيه الصديقُ وفيه الأَهلُ والولد

ولم تطاوِلْكَ خوفًا أَن يُناضلَها … منك الدهاءُ ورأيٌ مُنقِذٌ نَجِد

فهل رثى الموت للبرِّ الَّذبِيحِ؟ وهل … شجاه ذاك الحنانُ الساكنُ الهَمِد؟

هَيْهَات! لو وُجِدَتْ للموت عاطفةٌ … لم يَبك من آدمٍ أَحبابَه أَحد

مَشَتْ تَذُودُ المنايا عن وَديعتها … مدينةُ النُّورِ، فارتدَّتْ بها رَمَد[14]

لو يُدفعُ الموتُ رَدَّتْ عنك عادِيَةٌ … للعلم حولَكَ عينٌ لم تنُم ويَد

«أَبا عزيز» سلامُ اللهِ، لا رُسُلٌ … إِليك تحمل تسليمي، ولا بُرُدُ[15]

ونفحةٌ من قوافي الشعر كنت لها … في مجلسِ الراحِ والريْحانِ تحْتشِد

أَرسلتُها وبعثْتُ الدمعَ يكنُفُها … كما تَحدَّرَ حولَ السَّوْسَنِ البَرَد[16]

عطفتُ فيك إِلى الماضي، وراجعني … وُدٌّ من الصغَرِ المعسولِ مُنعقِد

صافٍ على الدهر لم تُقْفِرْ خليَّته … ولا تغيّر في أَبياتها الشُّهُد

حتى لمحتُكَ مَرموقَ الهلالِ على … حداثةٍ تَعِدُ الأَوطانَ ما تَعِد

والشعرُ دمعٌ، ووجدانٌ، وعاطفةٌ … يا ليت شعريَ هل قُلْتُ الذي أَجِد؟[17]

هوامش

(١) هذا المطلع يشير إلى موته بفرنسا.

(٢) رصد: بمعنى مترقب.

(٣) يشير إلى مجيئه من أوربا في نعش على الباخرة. وتقد: تضيء.

(٤) يريد بالخليج: الخليج الفارسي. وبالبحرين: مجموعة جزر عربية بالقرب من الشاطئ الغربي للخليج الفارسي، وعندها يصاد اللؤلؤ.

(٥) القصد — بكسر القاف —: جمع قصدة — بكسرها أيضًا هي القطعة مما يكسر، ويقال: رمح قصد، بكسر الصاد: أي منكسر.

(٦) التدلُّه: ذهاب الفؤاد من عشق أو حزن ونحوهما، وقوله: «تفتقد» من قولهم: وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

(٧) العود هنا: هو السرير، النضد — محركة الضاد — ما نضد من متاع والسرير ينضد عليه، كأنه يعجب لَمَنْ كلل هامات مصر بمجيئه لها بهذا الفوز السياسي في تصريح ٢٨ فبراير، كيف لا يحويه ميتًا سرير متخذ من الهام أو منضد بها، حتى يكون الجزاء من جنس العمل، ومن هذا النحو يقول البيت التالي: «وصاحب الفضل في الأعناق … إلخ».

(٨) يريد بالثورة: ثورة مصر سنة ١٩١٩، والوأد: دفن الأحياء، يريد أنه كان يعمل في بناء صرح الوطن، بدون رغبة في مدح، أو خوف من ذم، في شجاعة لا تخاف الثورة، وهي لا عقل لها.

(٩) النقد: جنس من الغنم قبيح الشكل، من الهزال أو غيره.

(١٠) الطرد: مطاردة الصيد.

(١١) الأواسي: جمع آسية، وهي من البناء: المحكم الدعامة، والسدد: بمعنى السداد، أي الصواب.

(١٢) البدد: المتفرق.

(١٣) التامور: القلب. والورد، جمع وريد: العرق في الجسم.

(١٤) مدينة النور: تطلق في هذا العصر على باريس.

(١٥) البرد: جمع بريد.

(١٦) السوسن: نوع من الزهر، والبرَد: هو ما يتساقط من المطر كحبات الثلج.

(١٧) أي هل قلت الذي يجيش في وجداني؟

عبد العزيز جاويش[1]

أَصاب المجاهدُ عُقْبَى الشهيد وأَلقى عَصاه المضافُ الشَّريد
وأَمسى جَمادًا عدوُّ الجمودِ وباتَ على القيد خَصمُ القيود
حَداه السُّفارُ إِلى مَنزلٍ يلاقي الخفيفَ عليه الوئيد
فقَرَّ إِلى موعدٍ صادقٍ مُعِزُّ اليقينِ مُذِلُّ الجحود
وبات الحَوارِيُّ من صاحِبَيْهِ شَهيدَيْن أَسْرَى إِليهم شهيد
تَسَرَّبَ في مَنْكِبَيْ (مصطفى) كأَمسِ، وبينَ ذِراعَيْ (فريد)[1]
فيالَكَ قبرًا أَكَنَّ الكنوزَ وساجَ الحقوقَ، وحاط العهود
لقد غيَّبوا فيك أَمضى السيوفِ فهل أَنت يا قبرُ أَوفى الغُمود؟
ثَلاثُ عقائدَ في حفرةٍ تَدُكُّ الجبالَ، وتُوهِي الحديد
قعَدْنَ فكُنّ الأَساسَ المتينَ وقام عليها البناءُ المَشِيد
فلا تَنْسَ أَمسِ وآلاءَه أَلا إِن أَمسِ أَساسُ الوجود[2]
ولولا البِلَى في زوايا القبورِ لما ظهرَتْ جِدَّةٌ للمُهود

---

[1] هو الشيخ عبد العزيز جاويش، أحد السابقين في خدمة القضية المصرية، كان زعيمًا سياسيًا دينيًا عظيمًا، وقد كرَّس حياته لخدمة سياسة بلاد الإسلام عامة، ومصر وتركيا خاصة، ثم حُكِمَ عليه بالنفي والتشريد مدَّة طويلة، ثم عاد إلى مصر ولم يلبث إلا بضع سنين، ومات في سنة ١٩٢٩، وله رسائل سياسية كانت مضرب المثل في الفصاحة والقوة في وقتها.

ومَنْ طلب الخُلْقَ من كنزه ... فإن العقيدةَ كنزٌ عَتيد
تعلَّمَ بالصبر، أَو بالثباتِ ... جَلِيدُ الرجالِ، وغيرُ الجليد
طَريدَ السياسةِ منذُ الشبابِ ... لقد آن أَن يَسْترِيحَ الطريد
لقيتَ الدواهِيَ من كيْدها ... وما كالسياسة داهٍ يكيد[٣]
حَمَلْتَ على النفس ما لا يطا ... قُ، وجاوزَتِ المستطاعَ الجهود
وقُلِّبْتَ في النار مثلَ النُّضا ... رِ، وغُرِّبْتَ مثلَ الجُمانِ الفريد
أَتذكر إِذْ أَنتَ تحت (اللواءِ) ... نَبِيهَ المكانةِ، جَمَّ العديد؟[٤]
إذا ما تطلَّعْتَ في الشاطئين ... رَبا الريفُ، وافتنّ فيك الصعيد
وهزَّ النديُّ لك المنكِبَيْنِ ... وراحَ الثرى من زحامٍ يَميد
رسائل تُذرِي بسجع البديعِ ... وتُنْسِى رسائلَ عبدِ الحميد
يَعِيها شيوخُ الحِمى كالحديث ... ويحفظها النَّشْءُ حِفْظ النشيد
فما بالُها نَكِرَتْها الأُمورُ ... وطولُ المدَى، وانتقالُ الجُدود؟[٥]
لقد نسِيَ القومُ أَمسِ القريبَ ... فهل لأَحاديثه من مُعيد؟
يقولون: ما (لأَبي ناصرٍ) ... وللتُّرْكِ؟ ما شأْنُه والهنود؟
وفِيمَ تحمَّل هَمَّ القريبِ ... من المسلمينَ وهَمَّ البعيد؟
فقلتُ: وما ضرَّكم أَن يَقومَ ... من المسلمين إمامٌ رشيد؟
أَتستكثرون لهم واحدًا ... ولَّى القديم نصيرَ الجديد؟
سَعى ليؤلِّف بينَ القلوبِ ... فلم يَعْدُ هَدْي الكتابِ المجيد
يَشُدُّ عُرا الدينِ في داره ... ويدعو إِلى الله أهلَ الجحود
ولِلقومِ حتى وراءَ القفارِ ... دعاةٌ تُغنّي، ورُسْلٌ تشيد
جزى الله مَلْكًا من المحسنين ... رءُوفُ الفؤادِ، رحيمُ الوريد[٦]
كأَنَّ البيانَ بأَيامه ... أَو العِلْمَ تحتَ ظلالِ (الرشيد)[٧]
يُداوِي نداه جِراحَ الكرامِ ... ويدركهم في زوايا اللُّحود
أَجارَ عِيالَك من دهرهم ... وجاملهم في البلاءِ الشديد
تولَّى الوليدة في يُتمها ... وكفكفَ بالعطف دمعَ الوليد
سلامٌ (أَبا ناصرٍ) في التراب ... يُعِير الترابَ رَفِيفَ الوُرود
بَعُدْتَ وعزَّ إِليك البريدُ ... وهل بينَ حَيٍّ ومَيْتٍ بريد؟

أَجَلْ؛ بيننا رسلُ الذكرياتِ | وماضٍ يُطِيفُ، ودمعٌ يجود
وفكرٌ وإن عقلَتْه الحياةُ | يَظَلُّ بوادي المنايا يَرود[8]
أَجَلْ؛ بيننا الخُشُبُ الدائباتُ | وإن كان راكبُها لا يعود
مضى الدهرُ وهْيَ وراءَ الدموعِ | قيامٌ بمُلْكِ الصَّحارى قُعود
وكم حملَتْ من صَديدٍ يَسيلُ | وكم وضَعَتْ من جِناشٍ ودُود
نَشَدْتُكَ بالموت إلا أَبنْتَ | أأَنت شَقِيٌّ به أَم سعيد؟
وكيف يُسَمَّى الغريبَ امرؤٌ | نَزِيلُ الأُبُوَّةِ، ضَيْفُ الجُدود؟[9]
وكيف يُقال لجار الأَوائـ | ـلِ جارِ الأَواخرِ: ناءٍ وَحيد؟

هوامش

(١) هو مصطفى كامل الزعيم الوطني الأول، وفريد: هو محمد فريد الزعيم الوطني الثاني، وكانا صاحبي الفقيد في المبدأ والجهاد.

(٢) الآلاء: النعم.

(٣) الداهي: هو الذي يأتي بالداهية، وهي الأمر العظيم.

(٤) كان الفقيد محرِّر جريدة اللواء في عهدها الأول.

(٥) الجدود هنا: بمعنى الحظوظ.

(٦) هو جلالة فؤاد الأول ملك مصر، حيث تعطَّف على أبناء الفقيد ولم يتركهم بعد وفاة أبيهم لتصاريف الزمن؛ فأنعم عليهم بهبة ملكية وافرة.

(٧) هو هارون الرشيد، وقد اعتزَّ العلم والأدب في عهده اعتزازًا كبيرًا.

(٨) يرود: أي يبحث ويكتشف.

(٩) يقول: إن الميت ينزل في التراب ضيفًا على آبائه وجدوده، إذن فليس يصح أن نعتبره غريبًا ولا وحيدًا.

تعزية ورثاء[1]

كـأْسٌ مِـن الـدنـيـا تُـدارْ　　مَـنْ ذاقـهـا خَـلـع الـعِـذارْ[1]
الــلــيــلُ قــوَّامٌ بــهــا　　فـإذا وَنَـى قـام الـنـهـار
وحَـبـا بـهـا الأَعـمـارَ، لـم　　تدُم الطِّوالُ، ولا القِصار
شَـرِبَ الـصـبـيُّ بـهـا، ولـم　　يـخـل الـمُـعَـمَّـرُ مِـن خُـمـار
وحَـسـا الـكـرامُ سُـلافَـهـا　　وتـنـاول الـهَـمَـلُ الـعُـقـار[2]
وأَصـاب مـنـهـا ذو الـهـوى　　ما قد أَصاب أَخو الوقار
ولـقـد تـمـيـلُ عـلـى الـجـمـا　　د، وتـصـرَع الـفـلَـكَ الـمُـدار
كـأسُ الـمـنـيّـةِ فـي يـدٍ　　عَـسْـراءَ، مـا مـنـهـا فِـرار[3]
تـجـرى الـيـمـينَ، فَـمَـنْ تـو　　لَّـى يَـسْـرَةً جَـرَت الـيَـسـار
أَوْدَى الـجـريءُ إذا جـرى　　والـمـسـتـمـيـتُ إذا أَغـار
لـيـثُ الـمـعـامـعِ، والـوقـا　　ئـع، والمواقِع، والـحِـصار
وَبــقــيَّــةُ الــزُّمَــرِ الــتــي　　كـانـت تَـذود عـن الـذِّمـار
جندُ الخلافةِ، عَسكُر السـ　　ـلـطـانِ، حـامـيـةُ الـديـار

---

[1] وجَّه هذه التعزية إلى صديقه حامد بك خلوصي حين مات والده المرحوم الأميرالاي مصطفى بك خلوصي، وقد كان من الضباط الكرام الذين مجدوا في قمع الثورة في الجزيرة (كريد) أيام كانت تابعة للدولة العثمانية.

ضاقت (كريدُ) جبالُها بك يا (خلوصي) والقِفار
أَيّامُكم فيها — وإن طال المدى — ذاتُ اشْتِهار
عَلِمَ العدوُّ بأَنكم أَنتم لِمِعْصمِها سِوار
أَحْدَقْتُمُ بمقرِّه فتركتموه بلا قرار
حتى اهتدى مَنْ كان ضـ ـلَّ، وثاب من قد كان ثار
واعْتزَّ ركنٌ للولا ية كان مُنْقضَّ الجدِار
عِشْ للعُلا والمجدِ — يا خيرَ البنين — ولِلفخار
أَبكي لدمعك جاريًا ولدمع إخوتِكَ الصِّغار
وأَوَدُّ أَنكُمُ رجا لٌ مثل والدِكم كِبار
وأُريد بيتَكُمُ عما را، لا يُحاكيه عمَار
لا تخرجُ النَّعماءُ منـ ـه، ولا يُزايِلُه اليَسار

هوامش

(١) العذار: الحياء والوقار.

(٢) السلاف والعقار: من أسماء الخمر، يقال: حسا فلان الماء إذا شربه شيئًا بعد شيء.

(٣) يقال للرجل: أعسر، إذا عمل بيده الشمال. والعرب تصف ما ليس محبوبًا بالأعسر إذا كان مذكرًا، وبالعسراء إذا كان مؤنثًا، فيد المنية عسراء، لأنها كذلك.

ذكرى هيجو[١]

ما جلَّ فيهم عيدُك المأْثورُ … إلا وأَنت أَجلُّ يا فكتورُ

ذكروكَ بالمئة السنينَ، وإِنها … عُمرٌ لمثلكَ في النجوم قصير

ستدوم ما دام البيانُ، وما ارتقت … للعالمين مَدارِكٌ وشعور

ولئن حُجِبْتَ فأَنت في نظر الورى … كالنجم لم يُرَ منه إلا النور

لولا التُّقَى لفتحْتُ قبرَك للمَلا … وسأَلتُ: أَين السيِّدُ المقبور؟[١]

ولقلتُ: يا قومُ انظروا إِنجيلَكم … هل فيه من قلم الفقيد سُطور؟

مَنْ بعدَه مَلكَ البيانَ؟ فعندك … تاجٌ فقدتم رَبَّهُ وسرير

مات القريضُ بموت (هوجو)، وانقضى … مُلْكُ البيانِ، فأَنتُمُ جُمهور

ماذا يزيد العيدُ في إِجلاله … وجَلاله بيرَاعِه مَسطور؟

فقدَتْ وجوهُ الكائناتِ مُصَوِّرًا … نزل الكلامُ عليه والتصوير

كُشِفَ الغطاءُ له، فكلُّ عبارةٍ … في طَيِّها للقارئين ضَمير

لم يُعْيِهِ لفظٌ، ولا معنًى، ولا … غرضٌ، ولا نظمٌ، ولا منثور

مُسْلِي الحزينِ يَفُكُّهُ من حزنه … وبَرُدُّه لله وهْوَ قرير

ثأرَ الملوك، وظلَّ عندَ إِبائه … يرجو ويأْمل عفوَه المثؤور

---

[١] نُظِمَت هذه القصيدة في ذكرى شاعر فرنسا الكبير (فيكتور هيجو) لمناسبة مرور مائة عام على وفاته.

وأَعــارَ (واتــرلــو) جــلالَ يَــراعِــه ... فجلالُ ذاك السيفِ عنه قصير[2]
يا أَيُّها البحرُ الذي غمر الثرى ... ومِنَ الثرى حُفَرٌ له وقبور
أَنت الحقيقةُ إِن تَحجَّب شخصُها ... فلها على مرِّ الزمانِ ظهور
ارفعْ جِدادَ العالمين وعُدْ لهم ... كَيْما يُعَيِّد بائسٌ وفقير
وانظرْ إِلى البُؤساءِ نظرةً راحمٍ ... قد كان يُسعد جَمْعَهم ويُجير[3]
الحالُ باقيةٌ كما صَوَّرْتَها ... من عهد آدَم ما بها تغيير
البؤس والنُّعْمى على حاليهما ... والحظُّ يَعدِل تارةً ويجور
ومن القويِّ على الضعيف مُسَيْطِرٌ ... ومن الغنيِّ على الفقير أَمير
والنفسُ عاكفةٌ على شهواتها ... تَأْوِي إِلى أَحقادها وتثور
والعيشُ آمالٌ تَجِدُّ وتنقضي ... والموتُ اَصدقُ، والحياةُ غرور[4]

هوامش

(١) الملأ: جماعة الناس.

(٢) واترلو: علم على موضع من المواضع الذي حصلت فيه الموقعة التي هُزِمَ فيها نابليون هزيمته الكبرى.

(٣) يشير إلى رواية البؤساء، تأليف فكتور هيجو.

(٤) العيش آمال تجد: أي تتجدد.

عبده الحامولي[1]

ساجعُ الشرقِ طار عن أَوْكارِه   وتَوَلَّى فنٌّ على آثاره[1]
غاله نافذُ الجناحين ماضٍ   لا تَفِرُّ النسورُ من أَظفاره
يطْرُق الفرخَ في الغُصون ويَغشَى   (لُبَدًا) في الطويلِ من أَعماره[2]
كان مِزمارَه، فأَصبح داو   دُ كئيبًا يبكي على مِزماره[3]
(عبدُهُ) بَيْدَ أَن كلَّ مُغَنٍّ   عَبْدُه في افتنانِه وابتكاره
مَعْبَدُ الدَّولَتيْنِ في مصرَ، وإِسحا   قُ (السَّمِيَّيْنِ) ربِّ مصرٍ وجاره[4]
في بِساط الرشيدِ يومًا، ويومًا   في حِمَى جعفرٍ وضافي سِتاره[5]
صَفْوُ مُلْكيْهما به في ازديادٍ   ومن الصَّفو أَن يلوذَ بداره
يُخْرِج المالكين من حِشْمَةِ المُلْـ   ـكِ، ويُنْسِي الوقورَ ذِكْرَ وَقاره
رُبَّ ليلٍ أَغارَ فيه القَماري   وأَثارَ الحِسانَ من أَقماره[6]
بصَبًا يُذْكِرُ الرِّياضَ صَباهُ   وحجازٍ أَرق مِن أَسحاره[7]
وغناءٍ يُدارُ لحْنًا فلَحْنًا   كحديثِ النديمِ أَو كعُقاره
وأَنِينٍ لو أَنه من مَشوقٍ   عرف السامعون مَوْضِعَ ناره
يتمنَّى أَخو الهوى منه آهًا   حينَ يُلْحَى تكون من أَعذاره

[1] توفي عبده الحامولي في ١٩٠٢، وكان نادرة الزمن في حسن الصوت وفي ابتكار الألحان، هذا إلى أريحية ومروءة يضرب بهما المثل.

زَفَـراتٌ كـأَنـهـا بَـثُّ (قـيـسٍ) | في معاني الهوى وفي أَخباره[8]
لا يُـجـاريـه فـي تَـفَـنُّـنِـه الـعـو | دُ، ولا يَشْتَكِي إذا لم يُجارِه
يسمع الليلُ منه في الفجر: يا ليـ | ـلُ، فيُصْغِي مُسْتَمْهِلاً في فِراره
فُجِعَ الناسُ يومَ مات (الحمولي) | بـدواءِ الـهـمـومِ فـي عَـطَّـاره
بـأَبـي الـفـنِّ، وابـنِـه، وأَخـيـهِ | الـقـويِّ الـمـكـيـنِ فـي أَسـراره
والأَبـيِّ الـعـفـيـفِ فـي حـالَـتـيْـهِ | والـجـوادِ الـكـريـمِ فـي إيـثـاره
يَـحْـبِـسُ الـلـحـنَ عن غَـنِـيٍّ مُـدِلٍّ | ويُـذيـقُ الـفـقـيـرَ من مُـخـتـاره[9]
يا مُـغـيـثًـا بـصـوتـه فـي الـرزايـا | ومُـعـيـنًـا بـمـالـه فـي الـمَـكـاره
ومُـحِـلَّ الـفـقـيـرِ بـيـن ذَويـه | ومُـعِـزَّ الـيـتـيـمِ بـيـن صِـغـاره
وعِـمـادَ الـصـديـقِ إن مـال دهـرٌ | وشِـفـاءَ الـمـحـزونِ مـن أَكـداره
لستَ بالراحلِ القليلِ فتُنسى | واحـدُ الـفـنِّ أُمَّـةٌ فـي ديـارِه
غـايـةُ الـدهـرِ إن أَتـى أَو تَـوَلَّـى | مـا لـقـيـتَ الـغـداةَ مـن إدبـاره
نزل الجد في الثرى، وتساوَى | مـا مـضـى مـن قـيـامـه وعِـثـاره
وانقضى الداءُ باليقين من الحا | لَيْن، فالموتُ مُنتهَى إقصاره
لَـهْـفَ قـومـي عـلـى مـخـايـلِ عزٍّ | زال عـنّـا بـروضِـهِ وهَـزاره[10]
وعلى ذاهبٍ من العيش، ولَّيْـ | ـتَ فولَّى الأَخيرُ من أَوطاره
وزمـانٍ أَنـت الـرِّضَـى مـن بـقـايـا | هُ، وأَنـت الـعَـزاءُ مـن آثـاره
كـان لـلـنـاس لـيـلُـه حـيـنَ تـشـدو | لـحـقَ الـيـومَ لـيـلُـه بـنـهـاره

هوامش

(١) الأوكار: جمع وكر، وهو عش الطائر.

(٢) لبد: اسم نسر.

(٣) يشبه صوت المرثي في صفائه بمزمار داود النبي صاحب المزامير.

(٤) يشبهه بمعبد وإسحاق. ويقصد بقوله «رب مصر وجاره» ملك مصر وجاره من أرباب الأقطار العربية. يعني أن عبده كان يطرب الأقطار العربية جميعها كما كان معبد وإسحاق كذلك.

(٥) الرشيد: هو هارون الرشيد. وجعفر: هو جعفر البرمكي وزيره، والغرض أن المرثي كان يتنقل من بساط الملوك المشابهين للرشيد، إلى بساط الوزراء المشابهين لجعفر.

(٦) القماري: جمع قمرية، نوع من الحمام حسن التغريد. والأقمار: جمع قمر. يريد أنه كان يطرب الحسان الشبيهات بالأقمار.

(٧) صبا الرياض — بفتح الصاد —: نسيمها. أمَّا كلمة «صبا» الواقعة في أول البيت فمقصود بها نغمة معروفة في فن الغناء، وهي مفتوحة الصاد أيضًا، كأنها سميت بذلك تشبيهًا لها بالنسيم المعروف بالصبا، وكذلك «حجاز»: نغمة معروفة في الغناء أيضًا.

(٨) قيس: هو ابن الملوح الشهير بمجنون ليلى.

(٩) المدِّل بالمال: المتباهي به، يشير هذا البيت على بعض ما يؤثر عن عبده رحمة الله عليه، أنه كان يلجأ إليه الفقراء ليحيي أفراح أولادهم، فيحسن إليهم، ويجيب طلبهم، وينفق من ماله في تشييد الاحتفال اللائق بسهرته. وربما آثر هذه الليلة الفقيرة على دعوة أحد الأغنياء الكبار، ويروى له في هذا الباب حكايات كثيرة.

(١٠) الهزار: طائر حسن الصوت، فارسي.

قاسم بك أمين[١]

يا أَيُّها الدَّمعُ الوَفِيُّ، بَدارِ   نقضي حقوقَ الرفقةِ الأَخيار[١]

أَنا إِن أَهنتُك في ثراهم فالهوى   والعهدُ أَن يُبْكَوْا بدمعٍ جاري[٢]

هانوا وكانوا الأَكرمين، وغُودروا   بالقَفْر بعدَ منازلٍ وديار

لهفي عليهم؛ أُسْكِنوا دورَ الثرى   من بعد سُكْنَى السمعِ والأَبصار

أَين البشاشةُ في وسيم وجوههم   والبشرُ للندماءِ والسُّمّار؟[٣]

كنا من الدنيا بهم في رَوْضةٍ   مَرّوا بها كنسائم الأَسحار

عطفًا عليهم بالبكاءِ وبالأَسى   فتَعهُّدُ الموتى من الإِيثار[٤]

يا غائبينَ وفي الجوانح طيْفُهم   أَبكيكُمُ من غُيَّبٍ حُضَّار

بيني وبينكمُ وإِن طال المدَى   سَفرٌ سأَزمَعُه من الأَسفار

إِني أَكادُ أَرى محِّليَ بينكم   هذا قَرارُكُمُ، وذاك قَراري

أَوَ كُلَّما سَمح الزمانُ وبُشِّرَت   مصرٌ بفردٍ في الرجال مَنار[٥]

فُجِعَتْ به، فكأَنه وكأَنها   نجمُ الهدايةِ لم يَدُمْ للساري؟

إِنّ المصيبةَ في (الأَمين) عظيمةٌ   مَحمولةٌ لمشيئةِ الأَقدارِ

في أَرْيَحيٍّ ماجدٍ مُستَعْظَمٌ   رُزْءُ الممالكِ فيه والأَمصار

---

[١] المرحوم قاسم بك أمين هو الزعيم صاحب دعوة تحرير المرأة في مصر، وقد توفي في سنة ١٩٠٩.

أَوْفَى الرجالِ لعهدِه ولِرأيه وأَبَرّهم بصديقهِ والجار
وأَشَدّهم صَبرًا لمعتقَداتِه وتأَدُّبًا لمجادلٍ ومماري
يَسقي القرائحَ هادئًا مُتواضعًا كالجَدول المُترقْرِقِ المتواري
قلْ للسَّماءِ تَغُضُّ من أَقمارها تحت الترابِ أَحاسنُ الأَقمار
من كل وضَّاءِ المآثر فائتٍ زُهرَ النجوم بزَهْره السيار
تمضي الليالي لا تنال كمالَه بمعيب نقصٍ أَو مَشينِ سرار[٦]
آثارُه بعدَ المواتِ حياتُه إنّ الخلودَ الحقَّ بالآثار
يَا مَنْ تَفَرَّدَ بالقضاءِ وعِلمِه إلا قضاءَ الواحدِ القهّار
ما زِلتَ ترجوه، وتخشى سهْمَه حتَّى رمَى فأَحطْتَ بالأَسرار
هلا بُعثتَ فكنت أَفصحَ مُخْبِرًا عمَّا وراءَ الموتِ من (لازار)؟[٧]
انفُضْ غُبارَ الموتِ عنك وناجِني فعَسَايَ أَعلمُ ما يكون غُباري
هذا القضاءُ الجِدُّ، فارْوِ، وهات عن حُكْمِ المنيةِ أَصدقَ الأَخبار
كَلٌّ وإن شَغَفَتْهُ دُنياه هوًى يومًا مُطلِّقُها طلاقَ (نَوار)[٨]
لله (جامعةٌ) نَهضْتَ بأَمرها هي في المشارق مَصدرُ الأَنوار[٩]
أُمْنِيَّةُ العُقلاءِ قد ظفِروا بها بعد اختلافِ حوادثٍ وطَواري
والعقلُ غايةُ جَرْيه لأَعنَّةٍ والجهلُ غايةُ جَرْيه لعِثَار
لو يعلمون عظيمَ ما تُرْجى له خرجَ الشحيحُ لها من الدينار
تشْرِي الممالكُ بالدَّم استقلالَهَا قوموا اشتروه بفضَّةٍ ونُضار
بالعلم يُبنى الملكُ حقَّ بِنائه وبه تُنال جلائلُ الأَخطار
ولقد يُشاد عليه من شُمِّ العُلا ما لا يُشادُ على القنا الخطَّار[١٠]
إن كان سَرَّك أَن أَقمتَ جِدارها قد ساءَها أَن مالَ خيرُ جِدار
أَضحت من الله الكريم بذمّةٍ مَرْموقةِ الأَعوانِ والأَنصار
كُلِئَتْ بأَنظار (العزيز)، وحُصِّنتْ (بفؤادَ)؛ فهي مَنيعةُ الأَسوار[١١]
وإذا العزيزُ أَعارَ أَمرًا نظرةً فاليمنُ أَعجلُ، والسُّعودُ جَواري
ماذا رأَيتَ من الحجاب وعُسره فدعَوْتنا لِتَرَفُّق ويَسار؟
رأيٌ بَدا لك لم تجدْه مُخالفًا ما في الكتاب وسُنَّةِ المختار
والباسِلان: شجاعُ قلبٍ في الوَغى وشُجَاعُ رأي في وَغى الأَفكار

أَوَدِدْت لو صارت نساءُ النيل ما كانت نساءُ (قُضاعةٍ) و(نِزار)؟[١٢]
يَجمعن في سلم الحياةِ وحربِها بأْسَ الرِّجالِ وخَشيةَ الأَبكار
إن الحجابَ سماحةٌ ويَسارةٌ لولا وحوشٌ في الرجال ضَواري
جَهِلوا حقيقتَه وحِكْمة حُكمه فتجاوزوه إلى أذىً وضِرار
يا قُبّة (الغوري) تحتكِ مأْتمٌ تَبقى شعائرُه على الأَدهار
يُحييه قومٌ في القلوب على المدى إن فاتهم إحياؤه في دار
هيهات! تُنسَى أُمةٌ مدفونةٌ في أَربعين من الزمان قِصار
إن شئتَ يومًا أَو أَردت فحقبةً كلٌّ يمرُّ كليلةٍ ونهار
هاتوا ابنَ (ساعدةٍ) يُؤبِّنُ قاسمًا وخذوا المراثِيَ فيه من (بَشَّار)[١٣]
من كلِّ لائقةٍ لباذخ قدرِه عَصماءَ بينَ قلائدِ الأَشعار

هوامش

(١) بدار: يعني بادر.
(٢) يقول: إن الذين أبذل دمعي وأهينه في ترابهم هم هواي وموضع حبي، وليس عجيبًا أن يبكي الإنسان أهل حبه وهواه.
(٣) السمار: جمع سامر، والسمر: حديث الأصدقاء بالليل.
(٤) الإيثار: هو أن تعطي لغيرك ما أنت محتاج إليه.
(٥) المنار: هو العلم يهتدي الناس به في الطريق.
(٦) سرار — بفتح السين وكسرها —: مشتق من قولهم: استسر القمر، إذا خفي ليلة السرار، وهي آخر ليلة أو ليلتين في الشهر.
(٧) لآزار أو عازار: اسم الرجل الذي أحياه سيدنا عيسى، ويقول لو بعثت لكنت أفصح في إخبارك عن الموت من هذا الرجل.
(٨) نوار: اسم امرأة بعينها كانت زوجة الفرزدق الشاعر، فطلَّقها فندم كثيرًا حتى ضُرِبَ المثل بندامته في كل طلاق نادم.
(٩) هي الجامعة المصرية، وكان للفقيد فضل مذكور في إنشائها.
(١٠) الخطار: أي المهتز، واهتزاز القنا: كناية عن استعداده للقتال.
(١١) العزيز: هو كل ملك لمصر: وكان الخديو عباس وقتئذ، وفؤاد، هو جلالة ملك مصر فؤاد الأول.

(١٢) ليس الغرض نساء هاتين القبيلتين قضاعة ونزار بالذات، وإنما المقصود المرأة العربية الموصوفة في البيت التالي.

(١٣) ابن ساعدة، هو قسُّ بن ساعدة الإيادي، أحد خطباء العرب الحكماء، يضرب به المثل فلا بلاغة الخطب، وبشَّار: هو بشَّار بن برد الشاعر المشهور، يقول إن قاسمًا لا يؤبنه إلا أَمثال قس من الخطباء وأمثال بشار من الشعراء.

تولستوي[1]

(تولستُويُ)، تُجرِي آيةُ العلمِ دمعَها … عليك، ويَبكي بائسٌ وفقيرُ
وشعبٌ ضعيفُ الركنِ زال نَصيره … وما كلَّ يومٍ للضعيف نصير
ويَندُب فلاَّحون أَنت مَنارُهم … وأَنت سراجٌ غيّبوه مُنير
يعانونَ في الأَكواخِ ظُلمًا وظلمةً … ولا يملكون البثَّ وهْوَ يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضى … عليهم، وتَغْشَى دورَهم وتزور
ويَأْسَى عليك الدِّينُ، إِذ لك لُبُّه … وللخادمين الناقمين قُشور
أَيكفر بالإنجيل مَنْ تلك كُتْبُه … أَناجيلُ منها مُنذِرٌ وبَشير؟
ويبكيك إِلفٌ فوق (ليلى) ندامةً … غداةَ مشى (بالعامريِّ) سَرير
تناولَ ناعيكَ البلادَ كأَنه … يراعٌ له في راحَتَيْك صَرير[1]
وقيل: تولَّى الشيخُ في الأَرض هائمًا … وقيل: (بدَيْرِ) الراهباتِ أَسير
وقيل: قَضَى لم يُغْنِ عنه طبيبهُ … وللطبِّ من بطشِ القضاءِ عَذير
إِذا أَنت جاورْت (المعرِّيَّ) في الثرى … وجاور (رَضْوَى) في التراب (ثَبير)[2]
وأَقبلَ جمعُ الخالدينَ عليْكما … وغالَى بمقدار النظيرِ نظير

[1] تولستوي: هو الفيلسوف الروسي الشهير، كان عالمًا عاملاً بما يقول، فتخلى عن ماله الجمِّ ليساوي نفسه بالفقراء، ولعل رواياته ومؤلفاته كانت الأناجيل الأولى للثورة الأخيرة في روسيا وقد توفي سنة ١٩١٠ وهو شيخ كبير.

جَماجِمُ تحتَ الأَرضِ عَطَّرها شذَى | جَنَاهُنَّ مسكٌ فوقها وعَبير
بهنّ يُباهِي بطنُ (حَوَّاءَ)، واحتوَى | عليهن بطنُ الأَرضِ وهْوَ فَخور
فقُلْ يا حكيمَ الدهر حَدِّثْ عن البِلَى | فأَنت عليمٌ بالأُمور خبير
أَحطْتَ من الموتى قديمًا وحادثًا | بما لم يُحَصِّلْ مُنْكرٌ ونَكير[3]
طوانا الذي يطوي السماواتِ في غادِ | ويَنشُرُ بعدَ الطيِّ وهْو قدير[4]
تقادم عَهدانا على الموتِ، واسْتوى | طويلُ زمانٍ في البِلَى وقصير
كأَن لم تَضِقْ بالأَمس عَنِّي كنيسةٌ | ولم يُؤوِني دَيْرٌ هناك طَهور
أَرى راحةً بين الجنادلِ والحصى | وكلُّ فِراشٍ قد أَراح وَثير[5]
نظرنا بنُور الموتِ كلَّ حقيقةٍ | وكنَّا كِلانا في الحياة ضَرير
إِليكَ اعترافي، لا لقَسٍّ وكاهنٍ | ونجْوايَ بعدَ اللهِ وهْوَ غفور
فزهدُك لم يُنْكِرْه في الأَرض عارفٌ | ولا مُتعالٍ في السماءِ كبير
بيانٌ يشَمُّ الوحيُ من نفحاته | وعلمٌ كعلم الأنبياءِ غَزير
سلكتُ سبيلَ المُتْرَفِينَ، ولذَّ لي | بنونَ ومالٌ، والحياةُ غُرور
أَداةُ شتائي الدفءُ في ظلِّ شاهقٍ | وعُدَّةُ صيفي جَنَّةٌ وغَدير
ومُتِّعْتُ بالدنيا ثمانين حِجَّةً | ونضْر أَيّامي غنىً وحُبور
وذكرٌ كضوءِ الشمسِ في كلِّ بَلدةٍ | ولا حَظَّ مثلُ الشمسِ حينَ تَسير
فما راعني إِلا عَذارَى أَجَرْنني | ورُبَّ ضعيفٍ تحْتَمِي فُيجير
أَرَدْتُ جِوارَ اللهِ والعمرُ مُنْقضٍ | وجاورتُه في العمر وهْوَ نَضير
صِبًا، ونعيمٌ بين أَهلٍ ومَوْطنٍ | ولذَّاتُ دنيا، كلُّ ذاك نَزور[6]
بهنّ — وما يدرين: ما الذنبُ؟ — خشيةٌ | ومن عَجَبٍ تَخْشَى الخطيئَة حُور[7]
أَوانسُ في داجٍ من الليل مُوحِشٍ | ولله أَنسٌ في القلوب ونُور
وأَشبهُ طُهْرٍ في النساءِ بِمَرْيَمٍ | فتاةٌ على نَهج المسيحِ تسير
تُسائلُني: هل غيَّر الناسُ ما بهم؟ | وهل حَدَثَتْ غيرَ الأُمور أُمور؟
وهل آثر الإِحسانَ والرفقَ عالمٌ | دواعي الأَذى والشرِّ فيه كثير؟
وهل سلكوا سُبْلَ المحبَّةِ بينهم | كما يتصافى أُسرةٌ وعَشير؟
وهل آنَ مِنْ أَهل الكتابِ تسامُحٌ | خَليقٌ بآدابِ الكتابِ جَدير؟
وهل عالجَ الأَحياءُ بؤسًا وشِقْوَةً | وقلَّ فسادٌ بينهم وشرور؟

قم انظر وأَنت المالئُ الأَرْضَ حكمةً ... أَأَجدى نظيمٌ، أَم أَفادَ نثير؟
أُناسٌ كما تدري، ودنيا بحالها ... ودهرٌ رَخِيٌّ تارةً وعَسير
وأَحوالُ خلقٍ غابرٍ مُتجدِّدٍ ... تشابه فيها أَوَّلٌ وأَخير
تمرَّ تِباعًا في الحياة كأَنها ... ملاعبُ لا تُرْخَى لهنّ سُتور
وحرصٌ على الدنيا، ومَيْلٌ مع الهوى ... وغِشٌّ، وإِفكٌ في الحياة، وزُور
وقام مقامَ الفردِ في كلِّ أُمّةٍ ... على الحكم جَمٌّ يستبدّ غَفير
وحُوِّر قولُ الناس: مَوْلًى وعَبْدُه ... إِلى قولهم: مُستأْجِرٌ وأَجير
وأَضحى نفوذُ المال لا أَمرَ في الورى ... ولا نَهْيَ إِلا ما يرَى ويُشير
تساسُ حكوماتٌ به وممالكٌ ... ويُذْعِن أَقيالٌ له وصدور[٨]
وعصرٌ بنوه في السلاحِ، وحِرْصُهُ ... على السلم يُجْرِي ذكرَه ويُدير
ومن عجبٍ في ظلِّها وهْوَ وارفٌ ... يُصادف شعبًا آمنًا، فيُغير
ويأْخذُ من قوت الفقيرِ وكَسْبِهِ ... ويُؤوي جيوشًا كالحصى ويَمير
ولمَّا استقلّ البرَّ والبحرِ مذهبًا ... تَعَلَّقَ أَسبابَ السماءِ يطير

هوامش

(١) الصرير: التصويت. واليراع: القلم.

(٢) المعري: هو أبو العلاء المعري، وشعره الفلسفي الاجتماعي مشهور. ورضوى وثبير علمان على جبلين: أولهما بالمدينة وثانيهما بمكة: يريد تشبيهه هو والمعري بهذين الجبلين.

(٣) يريد أنه كان يعرف أشرار النفوس جد المعرفة.

(٤) النشر: هو البعث من الموت، وهو أيضًا ضد الطي.

(٥) الفراش الوثير: اللين الناعم.

(٦) نزور: أي قليل.

(٧) الحور: جمع حوراء، وهي الجارية في عينها حور. والحور: اشتداد بياض العين وسوادها.

(٨) أقيال: جمع قيل، وهو الملك. والصدور: جمع صدر، وهو العظيم من الناس كالوزير ونحوه.

عمر بك لطفي[1]

قِفوا بالقبور نُسائِلْ عُمَرْ متى كانت الأَرضُ مَثْوَى القمرْ؟
سلوا الأَرضَ: هل زُيِّنَتْ للعليـ ـم؟ وهل أُرِّجَتْ كالجِنانِ الحُفَر؟
وهل قام (رضوانُ) من خلفها يُلاقي الرَّضِيَّ النَّقِيَّ الأَبَرّ؟
فلو علِمَ الجمعُ مِمَّنْ مَضَى تنَحَّى له الجمعُ حتى عَبر
إِلى جَنَّةٍ خُلِقَتْ للكريم ومَن عَرَفَ اللهَ، أَو مَنْ قَدَر
برَغْمِ القلوبِ وحبَّتِها ورَغْمِ السماعِ، ورَغْمِ البصر
نزولُكَ في التُّرْبِ زَيْنَ الشبابِ سناءَ «النَّدِيِّ» سَنَى «المؤتمر»[1]
مُقيلَ الصديقِ إذا ما هَفا مُقيلَ الكريمِ إِذا ما عثر
حَيِيتَ فكنتَ فخارَ الحياةِ ومُتَّ فكنتَ فخارَ السِّيَر
عجيبٌ رَداكَ، وأَعجبُ منه حياتُك في طولها والقِصَر
فما قبلَها سمعَ العالمون ولا علموا مُصحفًا يُختصر
وقد يَقتلُ المرءَ همُّ الحياةِ وشغلُ الفؤادِ، وكدُّ الفِكر
دَفَنَّا التجاربَ في حُفرةٍ إِليها انتهى بك طولُ السَّفر

[1] توفي عمر بك لطفي في سنة ١٩١١، وكان عالمًا قانونيًا ضليعًا، كما كان في حياته يكاد يتقَّد غيرة على قوميته وحبًا لمصلحة بلاده، وهو في طليعة مؤسسي نقابات التعاون في مصر.

فكم لكَ كالنَّجم من رِحلةٍ　　رأَى البدوُ آثارَهَا والحَضَر
«نِقاباتُك» الغُرُّ تَبكي عليك　　ويَبكي عليك «النَّدِيُّ» الأَغر
ويبكي فريقٌ تخيَّرتَه　　شَريفَ المَرامِ، شَريفَ الوَطَر
ويَبكي الأُلَي أَنتَ علَّمتَهُمْ　　وأَنت غرسْتَ، فكانوا الثمر
حَياتُك كانَتْ عِظاتٍ لهم　　وموتُك بالأَمسِ إحدى العِبَر
سَهِرنا قُبيْلَ الرَّدى ليلةً　　وما دارَ ذكرُ الرَّدى في السمر[2]
فقمتَ إلى حفرة هُيِّئَتْ　　وقمتُ إلى مثلِها تُحْتَفَر
مَددتْ إليك يدًا للوَداع　　ومدَّ يدًا للِّقاءِ القدَر
ولو أَنّ لي علمَ ما في غدٍ　　خَبَأْتُك في مُقْلتِي مِن حذَر
وقالوا: شَكَوْتَ، فما راعني　　وما أَوَّلُ النارِ إلا شَرَر
رثيتُك لا مالكًا خاطري　　من الحُزن، إلا يسيرًا خطر[3]
ففيك عرفتُ ارتجالَ الدُّموعِ　　ومنك عَلِمْتُ ارتجالَ الدُّرر
فمثلُك يُرثَى بآي الكتابِ　　ومثلُك يُفدَى بنصف البشر
فيا قبرُ، كنْ روضةً من رِضًى　　عليه، وكنْ باقةً من زهَر
سقتْك الدموعُ، فإن لم يَدُمْنَ　　كعادتِهنّ سقاك المطر

هوامش

(١) الندى: يريد نادي المدارس العليا، وكان الفقيد رئيسًا له. ويريد بالمؤتمر المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين في هليوبوليس، ردًا على المؤتمر الذي أقامه أعيان الأقباط في أسيوط. والسناء — بالمد —: الضوء، — وبالقصر —: الرفعة.

(٢) السمر: حديث الليل.

(٣) يريد: لا مالكًا من خاطري إلا بقية قليلة الخير لا تغني في رثائك.

عمر بك لطفي[1]

اليومَ أَصْعَدُ دونَ قبرِكَ مِنْبَرا ... وأُقلِّدُ الدنيا رِثاءَك جَوْهَرَا

وأَقصُّ مِن شِعري كتابَ محاسنٍ ... تتقدَّم العلماءَ فيه مسَطِّرا

ذكرًا لفضلك عندَ مصرَ وأَهلِها ... والفضلَ من حُرُماتِه أَن يُذْكَرا

العلمُ لا يُعْلي المراتبَ وحدَه ... كم قدَّم العملُ الرجالَ وأَخَّرا

والعلمُ أَشبهُ بالسماءِ رجالُه ... خُلِطَتْ جَهامًا في السحابِ ومُمْطِرا

طُفنا بقبرِكَ، واستلمنا جَنْدلاً ... كالركنِ أَزْكَى، والحَطيمِ مُطهَّرا[1]

بين التشرُّفِ والخشوع، كأَنما ... نستقبلُ الحرمَ الشريفَ منوَّرا

لو أَنصفوكَ جنادلاً وصفائحًا ... جعلوكَ بالذكر الحكيم مُسَوَّرا

يا مَنْ أَراني الدهرُ صحةَ ودِّه ... والودُّ في الدنيا حديثٌ مُفْتَرى

وسمعتُ بالخُلُقِ العظيمِ روايةً ... فأَرانيَ الخلقَ العظيمَ مُصَوَّرا

ماذا لقيتَ من الرُّقاد وطوله؟ ... أَنا فيك أَلقى لوعةً وتحسُّرا

نَمْ ما بَدا لك آمنًا في منزلٍ ... الدهرُ أَقصرُ فيه من سِنَةِ الكرَى

مازلتَ في حَمْد الفِراشِ وذمِّه ... حتى لقيتَ به الفِراشَ الأَوْثرا[2]

[1] نُظِمَت هذه القصيدة لتُلْقَى في حفلة أقيمت لتأبين عمر بك لطفي بعد الأربعين، أمَّا القصيدة السابقة فقد نُظِمَت عقب الوفاة في سرعة تشبه الارتجال.

لا تَشكُوَنَّ الضُّرَّ من حشراته … حشراتُ هذا الناسِ أَقبحُ مَنظرا

يا سيّدَ (النادي) وحاملَ همِّه … خلَّفتَه تحت الرَّزيَّةِ مُوقَرا[3]

شهدَ الأَعادي كم سَهِرْتَ لمجده … وغدَوْتَ في طلب المزيدِ مُشمِّرا

وكم اتَّقيْتَ الكَيْدَ واستدفعْته … ورميْتَ عُدْوانَ الظنونِ فأَقصرا

ولَبِثْتَ عن حَوْض الشَّبيبة ذائدًا … حتى جزاكَ اللهُ عنه الكَوْثرا

شُبانُ مصرَ حِيالَ قبرِكُ خُشَّعٌ … لا يملكون سوى مدامعهم قِرى[4]

جمعَ الأَسى لك جمعَهم في واحدٍ … كان الشبابَ الواجِدَ المُسْتعْبِرا[5]

لولاك ما عرفوا التعاوُن بينهم … فيما يسُرُّ، ولا على ما كدَّرا

حيث التفَتَّ رأَيتَ حولك منهمُ … آثارَ إِحسانٍ وغرسًا مُثمِرا

كم منطقٍ لك في البلاد وحكمةٍ … والعقلُ بينهما يُباع ويُشْترَى

تمشي إِلى الأَكواخ تُرشِد أَهلَها … مشَي الحواريِّينَ يَهْدون القُرى[6]

متواضعًا لله بينَ عِبادِه … واللهُ يبغضُ عبدَه المتكبِّرا

لم تَدْرِ نفسُك: ما الغُرورُ؟ وطالما … دخل الغُرورُ على الكبار فصغَّرا

في كلِّ ناحيةٍ تَخُطُّ نِقابةً … فيها حياةُ أَخي الزراعةِ لو دَرَى

هي كيمِياؤُكَ، لا خُرافَةُ (جابرٍ) … تَذَرُ المُقِلَّ من الجماعة مُكْثِرا[7]

والمالُ لا تجنى ثِمَارَ رءُوسِه … حتى يصيبَ من الرءُوس مُدَبِّرا

والملكُ بالأموالِ أَمنعُ جانبًا … وأَعزُّ سلطانًا، وأَصدقُ مَظهرا

إِنا لفي زمنٍ سِفاهُ شعوبِه … في ملكهم كالمرءِ في بيت الكِرا[8]

أَسِواكَ مِنْ أَهلِ المبادئِ مَنْ دَعا … للجِدِّ، أَو جمعَ القلوب النُّفَّرا؟

الموتُ قبلَك في البَريَّةِ لم يَهَبْ … طه الأمين، ولا يسوع الخيِّرا[9]

لمَّا دُعيتُ أَتيتُ أَنثُرُ مَدْمَعِي … ولو استطعتُ نثْرتُ جَفني في الثرى

أَبكي يمينَك في التراب غمامةً … والصَّدْرَ بحرًا، والفوادَ غضَنْفَرا

لم أُعْطَ عنك تَصَبُّرًا، وأَنا الذي … عَزَّيْتُ فيك عن الأَمير المَعْشَرا[10]

أَزِنُ الرجالَ، ولي يَراعٌ طالما … خلَع الثناءَ على الكرام مُحَبَّرا

بالأمسِ أَرسلْتُ الرثاءَ مُمَسَّكًا … واليومَ أَهتِفُ بالثناءِ مُعَنْبَرا

غيَّرْتَني حزنًا، وغيَّرك البِلَى … وهواك يأْبَى في الفؤاد تغيُّرا[11]

فعَليَّ حفظُ العهد حتى نَلتقي … وعليك أَن ترعاه حتى نُحشَرا

هوامش

(١) يقول: إننا نطوف بقبرك ونستلم أحجاره، كما يطوف حجَّاج بيت الله فيستلمون الركن والحطيم المطهرين.

(٢) الفراش الأوثر: هو الفراش الأكثر ليونة ونعومة، ويريد به تراب القبر.

(٣) النادي: هو نادي المدارس العليا، وكان الفقيد رئيسًا له. وموقرًا: أي مثقلاً بما يحمله من فقدك.

(٤) القرى — بكسر القاف: ما يقدَّم للضيف من إكرام ونحوه.

(٥) الواجد المستعبر: هو الحزين الباكي.

(٦) الحواريون: هم أصحاب عيسى ابن مريم.

(٧) جابر: هو جابر بن حيَّان صاحب الكيمياء القديمة. والمقلُّ: هو الفقير أو هو الذي لا يملك إلا شيئًا قليلاً.

(٨) بيت الكرا: هو بيت الأجرة.

(٩) يسوع: المسيح.

(١٠) كان أمير الشعراء هو نائب الخديو عباس في تعزية الفقيد.

(١١) يشير إلى قصيدته السابقة في الفقيد.

الأميرة[1]

حَلَفْتُ بالمُسَتَّرَهْ والرَّوْضةِ المعطَّرَهْ[1]
ومجلسِ الزّهراءِ في الـ ـحظائر المنوَّرة[2]
مراقدِ السُّلالةِ الطَّيِّبَـ ـةِ المطهَّره
ما أَنزَلوا إلى الثَّرَى بالأَمسِ إلا نَيِّره[3]
سيروا بها تَقِيَّةً نقيةً مُبَرَّرَه
نُجِلُّ سِتْرَ نَعْشِها كالكُسْوَةِ المُسَيَّره[4]
ونَنْشُقُ الجنَّةَ من أَعوادِه المُنضَّره
في موكِبٍ تَمَثَّل الـ ـحقُّ فكان مَظْهَرَه
دع الجنودَ والبنو دَ والوفودَ المُحْضَره
وكلَّ دمعٍ كَذِبٍ ولَوْعَةٍ مُزَوَّره
لا ينفع الميْتَ سوى صالحةٍ مُدَّخَره
قد تُرْفَعُ السُّوقةُ عنـ ـدَ اللهِ فوقَ القَيْصَرَه[5]
يا جزَعَ العِلْمِ على (سُكَيْنَة) المُوَقَّره![6]
أَمسى برَبْعٍ مُوحِشٍ منها ودارٍ مُقْفِره

[1] هي الأميرة فاطمة إسماعيل، كان لها الفضل الأول في تأسيس وإنشاء الجامعة المصرية، وقد انتقلت إلى دار الجنان في سنة ١٩٢٠.

مَنْ ذا يُؤسِّي هذه الـ ـجامعةَ المُستْعْبِره[٧]
لو عِشْتِ شِدْتِ مثلَها للمرأَةِ المحرَّره
بنيتِ رُكنَيْها، كما يبني أَبوكِ المَأْثُرَه
قرنْتِ كلَّ حجرٍ في أُسِّها بجوهَره
مَفخرةٌ لبيتكم كم قبلها من مَفخرة!
يا بنتَ إسماعيلَ، في الـ ـميْتِ لحيٍّ تَبْصِره[٨]
أَكان عندَ بيتِكم لهذه الدنيا تِرَه؟[٩]
هلاَّ وصَفْتِها لنا مُقبلةً ومُدبره؟
ولونَها صافيةً وطعمَها مكدَّره؟
كالحلم، أَو كالوهم، أَو كالظلِّ، أَو كالزَّهَره؟
(فاطمُ)، مَنْ يُولَدْ يَمُتْ المهدُ جسرُ المقبره[١٠]
وكلُّ نفسٍ في غدٍ مَيِّتةٌ فمُنْشَرَه
وإنه مَنْ يَعملِ الـ ـخيرَ أَو الشَّرَّ يَرَه
وإنما يُنَبَّهُ الـ ـغافلُ عندَ الغَرْغَرَه[١١]
يَلفِظها حَنظلةً كانت بفِيهِ سُكَّره[١٢]
ولن تَزالَ من يَدٍ إلى يَدٍ هذي الكُرَه
أينَ أبوكِ؟ مالُه وجاهُه، والمقدره؟
وادي النَّدَى، وغَيْثُه وعَيْنُه المُفجَّره[١٣]
أَين الأُمورُ، والقصو رُ، والبدورُ المُخْدَره؟
أَين الليالي البيضُ، والـ ـأَصائلُ المزَعْفَره؟[١٤]
وأَين في ركن البلا دِ يَدُه المُعَمِّره؟
وأَين تلك الهِمَّةُ الـ ـماضيةُ المشمِّره؟
تبغي لمصر الشرق أَو أَكثرَهُ مُستعمَرَه
جرى الزمانُ دونَها فردَّه وأَعْثَره
فإن همَمْتَ فاذكر الـ ـمَقادرَ المُقَدَّره
مَنْ لا يُصِبْ فالناسُ لا يَلتمسون المعذِرَة

هوامش

(١) المسترة: الكعبة.

(٢) يقصد فاطمة الزهراء، بنت الرسول صلوات الله عليه، ومجلسها في حجرات النبوة.

(٣) نيِّرة: هي واحدة النجوم النيرة.

(٤) الكسوة: هي كسوة الكعبة المكرَّمة، وتسير من مصر إلى الحجاز كل عام في موكب عظيم الإجلال.

(٥) القيصرة: علم على كل ملكة للروم. والقيصر: علم على ملكها.

(٦) يشبهها بسكينة بنت الحسين في عطفها على العلم والأدب.

(٧) المستعبرة: أي الباكية لفقدها عطفك.

(٨) التبصرة: بمعنى الموعظة.

(٩) ترة: هي الثأر.

(١٠) فاطم: أي فاطمة، وحذفت التاء للترخيم، كقول امرئ القيس.

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل

(١١) الغرغرة: وقت حشرجة الروح في الصدر.

(١٢) يلفظها: أي يلفظ الحياة.

(١٣) الندى: الكرم. والعين: بمعنى النبع.

(١٤) الأصائل: الوقت من بعد العصر إلى المغرب. والمزعفرة: أي الملونة بلون الزعفران. والليالي البيض والأصائل المزعفرة: يقصد بهما الكناية عن السعادة الوارفة الظليلة.

ذكرى مصطفى كامل[1]

لـم يَـمُـتْ مَـنْ لـه أَثَـرْ وحـيـاةٌ مِـنَ الـسِّـيَـرْ
أُدْعُــه غــائــبًــا، وإِن بـعُـدَتْ غـايـةُ الـسـفـر
آيـبُ الـفـضـلِ كـلَّـمـا آبتِ الشمسُ والقمر[1]
رُبَّ نــورٍ مُــتــمَّــمٍ قد أَتانا مِنَ الحُفَر[2]
إِنما الميْتُ مَنْ مشى مَيتَ الخيرِ والجبَر
مَنْ إِذا عاشَ لم يُفِدْ وإِذا مـات لـم يَـضِـر
ليس في الجاهِ والغِنَى مـنـه ظِـلٌّ ولا ثـمـر
قبُح العِزُّ في القُصو رِ إِذا ذَلَّتِ الـقَـصـرَ
أَعْــوَز الــحــقَّ رائــدٌ وإِلى (مصطفى) افْتَقَر
وتـمـنَّـت حِـيـاضُـه هَبَّةَ الصارِمِ الذَّكَر
الـذي يُـنْـفِـذُ الـمُـدى والذي يَركبُ الخطر[3]
أَيُّـهـا الـقـومُ، عـظِّـمـوا واضعَ الأُسِّ والحجر
أُذكروا الخُطبةَ التي هـي مـن آيِـهِ الـكُـبَـر[4]
لـم يَـرَ الـنـاسُ قـبلَـهَـا مِنبرًا تحتَ مُحْتضرَ

[1] لأمير الشعراء عدة قصائد في مصطفى كامل باشا، هذه إحداها، وقد ألقيت في الاحتفال الذي أقيم تمجيدًا لذكراه في فبراير سنة ١٩٢٦.

لـسـتُ أَنـسَـى لِـواءَه … وهو يَمشي إِلى الظَّفَر
حَشَرَ الـنـاسَ تـحـتَـه … زُمَــرًا إِثْــرَهــا زُمَــر
وتَـرى الـحـقَّ حـولَـه … لا ترى البيضَ والسُّمُر[٥]
كـلَّـمـا راح أَو غَـدا … نَفخَ الرُّوحَ في الصُّوَر
يا أَخا النَّفْسِ في الصِّبا … لَذَّةُ الروحِ في الصِّغر
وخـلـيـلاً ذَخَـرْتُـه … لـم يُـقَـوَّمْ بـمُـدَّخَـر
حـالَ بَـيـنـي وبـيـنـه … فـي فُـجـاءَاتِـه الـقَـدَر
كـيـف أَجـزِي مَـوَدَّةً … لم يَشُبْ صَفْوَها كدَر؟
غـيـرَ دَمْـعٍ أَقـولـهُ … قَلَّ في الشَّأْنِ أَو كَثُر؟
وفُـــؤادٍ مُـــعَـــلَّـــلٍ … بـالـخـيـالات والـذُّكَـر؟
لـم يـنـم عـنـك سـاعـةً … في الأَحاديث والسَّمَر؟
قُـمْ تَـرَ الـقـومَ كـتـلـةً … مثلَ مَلمومةِ الصَّخر[٦]
جَـدَّدوا أُلـفـةَ الـهـوى … والإخـاءَ الـذي شُـطِـر
لـيـس لـلـخُـلْـف بـيـنـهم … أَو لأسـبـابـه أَثَـر
أَلَّـفَـتْـهـم روائِـحٌ … غـاديـاتٌ مـن الـغِـيـر
وصـحَـوْا مـن مُـنـوِّمٍ … وأَفـاقـوا مـن الـخَـدَر[٧]
أَقـبـلـوا نـحـوَ حـقِّـهـم … مـا لـهـم غـيْـرَه وَطَـر
جـعـلـوه خَـلِـيَّـةً … شـرعـوا دونَـهـا الإبـر[٨]
وتـواصَـوْا بـخُـطَّـةٍ … وتـداعَـوْا لـمـؤتـمـر[٩]
وقُـصَـارَى أولـي الـنُّـهَى … يَـتـلاقـوْنَ فـي الـفِـكَـر
آذنـونـا بـمـوقـفٍ … من جلالٍ ومن خَطَر
نـسـمـع الـلـيـثَ عـنـده … دون آجـامـه زأَر
قُـلْ لـهـم فـي نَـدِيِّـهـم … : مصرُ بالباب تنتظِر[١٠]

هوامش

(١) ويقول: في كل أوبة شمس، وفي كل عودة قمر، يئوب للفقيد فضل، ويتجدد له ذكر، وإذن فهو لا يحسب ميتًا، وغاية الأمر أنه غائب في سفر بعيد.

(٢) الحفر: القبور.

(٣) الذي ينفذ المدى: يراد به صاحب الطعنات النافذة.

(٤) يريد آخر خطبة للفقيد، وقد ظنَّها الناس يومئذ خطبة الوداع.

(٥) البيض: السيوف. والسمر: الرماح.

(٦) ملمومة: بمعنى مجتمعة، ويقال للدرع: ملمومة، وكذا يقال للكتيبة — وهي الفرقة من الجيش — ملمومة أيضًا.

(٧) الخدر: الكسل، وهو مصدر خدر، كفرح.

(٨) الخليَّة: موضع سكن النحل. شرعوا الإبر: رفعوها استعدادًا للنضال بها، كما يقال: شرع سيفه، إذا انتضاه من غمده.

(٩) تداعوا: تجمَّعوا.

(١٠) يريد بالندي: البرلمان، وكان وقتئذ يهيأ.

المنفلوطي[١]

اخترتَ يومَ الهولِ يومَ وَداعِ ... ونعاكَ في عَصْفِ الرياحِ الناعي[١]

هتفَ النُّعاةُ ضُحىً، فأَوْصَدَ دونهم ... جُرحُ الرئيسِ منافذَ الأَسماعِ

مَنْ ماتَ في فَزَعِ القيامةِ لم يَجِدْ ... قدَمًا تُشَيِّع أَو حفاوة ساعي

ما ضرَّ لو صبَرتْ ركابُك ساعةً ... كيف الوقوفُ إِذا أَهاب الداعي؟

خَلِّ الجنائزَ عنك، لا تحفِل بها ... ليس الغرورُ لميِّتٍ بمتاع

سِرْ في لواءِ العبقريَّةِ، وانتظِمْ ... شتَّى المواكب فيهِ والأَتباع

واصعد سماءَ الذكر من أَسبابها ... واظهر بفضلٍ كالنهار مُذاع

فُجِعَ البيانُ وأَهلُهُ بمصوِّرٍ ... لَبِقٍ بوشْي الممتِعاتِ صَناع

مَرموقِ أَسبابِ الشبابِ وإِن بَدَتْ ... للشيب في الفَودِ الأَحَمِّ رَواعي[٢]

تتخيلُ المنظومَ في منثوره ... فتراهُ تحت روائِع الأَسجاع

لم يَجْحَدِ الفُصحَى، ولم يَهجُم على ... أُسلوبها، أَو يُزْرِ بالأَوضاع

لكنْ جَرى والعصرَ في مِضمارِها ... شَوْطًا، فأَحْرَز غايةَ الإِبداع

حُرُّ البيانِ، قديمُه وجديدُه ... كالشمسِ جدَّةَ رُقعةِ وشُعاعِ

---

[١] هو الكاتب الذائع الصيت مصطفى لطفي المنفلوطي، اشتهر بأسلوب إنشائي خاص لفت إليه أنظار القُرَّاء في عصره، وقد توفي سنة ١٩٢٤.

يونـانُ لـو بِيعت (بـهوميرٍ) لـما … خَسِرَتْ — لعَمْرُكَ — صفْقةُ المبتاع
يا مُرسلَ (النظراتِ) في الدنيا وما … فيـها عـلى ضَـجَـرٍ وضِـيقِ ذِراع[٣]
ومُرَقْـرِقَ (الـعـبراتِ) تـجري رِقَّـةً … لـلـعـالـم الـبـاكـي مـن الأَوجـاع[٤]
مَنْ ضَاقَ بالدنيا فليس حكيمَها … إِنَّ الـحـكـيـمَ بـهـا رَحـيـبُ الـبـاع
هِـيَ والـزمـانُ بـأَرضِـهِ وسـمـائِـه … فـي لُـجَّـةِ الأَقـدارِ نِـضْـو شِـراع[٥]
مَـنْ شَـذَّ نـاداه إِلـيـه فـردَّهُ … قَـدَرٌ كـراعٍ سـائـقٍ بـقـطـاع[٦]
مـا خَـلْـفـهُ إِلا مَـقـودٌ طـائـعٌ … مُـتـلـفِّـتٌ عـن كـبـريـاءِ مُـطـاع
جبارُ ذِهْنٍ، أَو شـديدُ شكيمةٍ … يمضي مُضيَّ العاجزِ المُنصاع
من شَوَّهَ الدنيا إِليك فلم تَجِدْ … في الملكِ غيرَ مُعذَّبين جِياع؟
أَبـكل عـينٍ فـيه أَو وَجْـهٍ تـرى … لـمحـاتِ دمـعٍ أَو رسـومَ دِمـاع؟[٧]
مـا هـكذا الـدنيـا، ولـكنْ نُـقْلـةٌ … دمـعٌ الـقَـريـرِ وعَـبْـرَةُ الـمُـلـتـاع
لا الفقرُ بالعَبَراتِ خُصَّ ولا الغنى … غَـيَرُ الـحـيـاةِ لـهـنّ حُـكْـمُ مـشـاع[٨]
ما زالَ في الكوخِ الوضيعِ بَواعِثٌ … منها، وفي القصرِ الرفيعِ دَواعي
فـي الـقـفـرِ حَـيَّـاتٌ يُـسـيِّـبـهـا بـه … حاوي القضاءِ، وفي الرياضِ أَفاعي
ولَـرُبَّ بُـؤْسٍ فـي الـحـيـاةِ مُـقـنَّـعٍ … أَرْبَـى عـلـى بُـؤْسٍ بـغـيـر قِـنـاع
يا (مصطفى) البلغاءِ، أَيَّ يَراعةٍ … فـقـدوا؟ وأَيّ مُـعـلِّـمٍ بـيَـراع؟
الـيـومَ أَبـصرتَ الـحـيـاةَ؛ فـقـلْ لـنـا … : مـاذا وراءَ سـرابـهـا الـلـمَّـاع؟
وصِفِ المنونَ؛ فكم قعدْتَ ترى لها … شَـبَـحًـا بـكـلِّ قـرَارة ويَـفـاع[٩]
سكن الأَحبّةُ والعِدَى، وفَرغْتَ مِنْ … حِقْدِ الخُصوم، ومِنْ هوى الأَشياع
كـم غـارةٍ شَـنُّـوا عـلـيكَ دفـعْـتَـهـا … تـصِلُ الـجـهـودَ فـكُـنَّ خـيـرَ دِفـاع
والـجـهدُ مُوتٍ فـي الـحـيـاةِ ثِـمـارَه … والـجـهـدُ بـعـدَ الموتِ غيرُ مُضاع
فإذا مضى الجيلُ المِراضُ صدورُه … وأَتـى الـسـلـيـمُ جـوانـبَ الأَضـلاع
فافزعْ إِلى الزمنِ الحكيم؛ فعنده … نـقْـدٌ تـنـزَّهَ عـن هـوى ونِـزاع
فإذا قضى لك أُبْتَ مِن شُمِّ العُلا … بـثَـنِـيَّـةٍ بَـعـدَت عـلـى الـطَّـلاع[١٠]
وأَجـلُّ مـا فـوقَ الـترابِ وتـحـتَـه … قـلـمٌ عـلـيـه جَـلالـةُ الإجـمـاع
تلك الأَنـاملُ نـام عنهنّ البِلَى … عُـطِّـلْـنَ مـن قـلـمٍ أَشَـمَّ شُـجـاع
والـجـبنُ فـي قـلـم الـبليغِ نظيرُه … في السيف مُنْقَصَةٌ وسوءُ سماع

هوامش

(١) يشير بيوم الهول إلى أن وفاة الفقيد كانت في يوم إطلاق الرصاص على الزعيم سعد باشا.

(٢) الفود: أحد الفودين، وهما جانبا الرأس من الأمام، والأحم: الأسود. والرواعي: جمع راعية. ويريد «بالرواعي» الشعرات البيض اللواتي ظهرت في جانبي رأسه.

(٣) النظرات: اسم كتاب للفقيد.

(٤) العبرات: اسم كتاب له أيضًا.

(٥) نضو شراع: أي شراع هزيل متمِّزق لا يكاد يقوى على مصارعة أمواج تلك اللجة، بل لا يكاد يرى في خضمها المحيط.

(٦) القطاع: طائفة من الغنم.

(٧) رسوم دماع: أي آثار تبدو في مجرى الدمع، كأن الدموع لكثرتها تصنع لها طريقًا في موضع مسيلها.

(٨) غير الحياة: نوائبها المغيرة على الناس.

(٩) اليفاع: ما ارتفع من الأرض، كالنجاد. والقرار: ما انخفض منها كالوهاد.

(١٠) الثنية: الطريق في أعالي الجبال ويجمع على الثنايا، وقد تمثَّل الحجاج في خطبته الشهيرة بقول بعضهم: أنا ابن جلا وطلاَّع الثنايا.

عاطف بركات باشا[1]

خَفضْتُ لِعِزَّةِ الموتِ اليَراعا وجَدَّ جلالُ مَنْطِقِهِ، فراعا
كفَى بالموتِ للنُّذْرِ ارتجالاً ولِلعَبَراتِ والعِبَرِ اختراعا
حكيمٌ صامتٌ فضَح الليالي ومَزَّق عن خَنا الدنيا القِناعا
إذا حضر النفوسَ فَلا نعيمًا ترى حولَ الحياةِ ولا مَتاعا
كشفتُ به الحياةَ فلم أَجِدْها ولَمْحةَ مائها إلا خِداعا
وما الجرَّاحُ بالآسي المرجَّى إذا لم يقتل الجُثَثَ اطِّلاعا[1]
فإن تَقُل الرِّثاءَ فقُلْ دموعًا يُصاغ بهنَّ، أَو حِكَمًا تُراعَى
ولا تكُ مثلَ نادبةِ المُسجَّى بَكت كَسْبًا، ولم تَبْكِ الْتِياعا[2]
خلَتْ دولُ الزمانِ وزُلْنَ رُكنًا وركنُ الأَرض باقٍ، ما تَداعى[3]
كأَنَ الأَرضَ لم تَشْهدْ لِقَاءً تكاد له تَميدُ، ولا وَداعا
ولو آبتْ ثواكلُ كلِّ قَرْنٍ وجَدْنَ الشمسَ لم تَثْكَل شُعاعا
ولكن تُضْرَب الأَمثالُ رُشدًا ومنهاجًا لمن شاءَ اتِّباعا
ورُبَّ حديثِ خيرٍ هاجَ خيرًا وذكرِ شجاعةٍ بَعث الشُّجاعا
(معارفُ) مصرَ كان لهنَّ ركنٌ فذُقْنَ اليومَ للركنِ انصِداعا

---

[1] عاطف بركات باشا: أحد رجالات مصر المقدِّمين، وأحد نوابغ جيله المعلمين، ترقَّى إلى منصب وكيل وزارة المعارف، وقد توفي سنة ١٩٣٥.

مضى أَعْلى الرجالِ لها يمينًا وأَرْحَبُهم بحَلَّتها ذِراعا
وأَكثرُهُم لها وَقَفاتِ صِدقٍ إباءً في الحوادث أَو زَماعا
أَتَتْهُ فنالَها نَفَلاً وفَيْئًا فلا هبةً أَتَتْه ولا اصطِناعا[٤]
تنقل يافعًا فيها وكهلاً ومن أَسبابها بَلَغَ اليَفاعا
فتًى عجمَتْه أَحداثُ الليالي فلا ذُلاًّ رأَيْن، ولا اختِضاعا
سَجَنَّ مُهنَّدًا، ونَفَيْن تِبْرًا وزِدْنَ المسك من ضغْطٍ فضاعا[٥]
شديدٌ صُلَّبٌ في الحق حتى يقولَ الحقُّ: لِينًا واتِّداعا[٦]
ومدرسةٍ سَمَتْ بالعلم ركنًا وأَنْهضَتِ القضاءَ والاشتِراعا[٧]
بناها محسنًا بالعلم بَرًّا يَشيد له المعالمَ والرباعا[٨]
وحاربَ دونها صرْعَى قديمٍ كأَنَّ بهم عن الزمنِ انقطاعا
إذا لمحَ الجديدُ لهم تَوَلَّوْا كذي رَمَدٍ على الضوءِ امتناعا
أَخا «سيشيلَ»، لا تذكرْ بحارًا بَعدنَ على المزار ولا بقاعا[٩]
وربِّك ما وراءَ نَواكَ بُعدٌ وأَنتَ بظاهر الفُسْطاطِ قاعا[١٠]
نزلْتَ بعالَم خَرق القضايا وأَصبح فيه نظمُ الدهرِ ضاعا
فَخلِّ الأَربعين لحافليها وقُمْ تَجِد القرونَ مَررْنَ ساعا[١١]
مَرِضتَ فما أَلَحَّ الداءُ إلاَّ على نفْسٍ تعوَّدَت الصِّراعا
ولم يكُ غيرَ حادثةٍ أَصابت مُفلِّلَ كلّ حادثةٍ قِراعا[١٢]
ومَنْ يتجرَّع الآلامَ حيًّا تَسُغْ عند المماتِ له آجتراعا
أَرِقْتَ، وكيف يُعطَى الغمضَ جفنٌ تَسُلُّ وراءَه القلبَ الرُّواعا؟[١٣]
ولم يَهدَأْ وِسادُك في الليالي لعلمك أَنْ ستُفنيها اضطجاعا
عَجِبْتُ لشارحٍ سببَ المنايا يُسَمِّي الداءَ والعِللَ الوِجاعا
ولم تكن الحتوفُ محلَّ شكٍّ ولا الآجالُ تحتملُ النزاعا
ولكنْ صُيَّدٌ ولها بُزاةٌ ترى (السَّرطانَ) منها والصُّداعا[١٤]
أَرَى التعليم لمَّا زلت عنه ضعيفَ الركنِ، مَخذولاً، مُضاعا
غريقٌ حاولت يَدُه شِراعًا فلمَّا أَوْشكَتْ فقد الشِّراعا
سَراةُ القومِ مُنصرفون عنه وصُحْفُ القوم تَقتضِب الدفاعا[١٥]
لقد نسَّاه يومُك ناصباتٍ مِن السّنوات قاساها تِباعا[١٦]

قُم ابنِ الأُمَّهاتِ على أَساسٍ ولا تبْنِ الحصونَ ولا القِلاعا
فهُنَّ يَلِدْن للقَصبِ المذَاكي وهُنَّ يلِدْن للغابِ السِّباعا[17]
وَجدْتُ مَعانيَ الأَخلاق شتَّى جُمِعْن فكنَّ في اللفظ الرّضاعا
عَزاءَ الصابرين (أَبا بهيٍّ) ومثلُك مَنْ أَناب ومَنْ أَطاعا[18]
صَبَرتَ على الحوادث حينَ جَلَّتْ وحينَ الصبرُ لم يَكُ مُستطاعا
وإن النفسَ تهدأُ بعدَ حينٍ إذا لم تَلْقَ بالجزع انتِفاعا
إذا اختلف الزمانُ على حزينٍ مَضى بالدمع، ثم مَحا الدِّماعا.
قُصارَى الفَرْقَدَيْنِ إلى قضاءٍ إذا عثرا به انفصَما اجتماعا
ولم تَحْوِ الكِنانة آل سعدٍ أَشدَّ على العِدا منكم نِباعا[19]
ولم تحمِل كشيخكمُ المُفدَّى نُهوضًا بالأَمانةِ واضطِلاعا
غَدًا فَصْلُ الخِطابِ، فمَنْ بَشيرِي بأَنّ الحقَّ قد غلب الطِّماعا؟
سَلُوا أَهلَ الكِنانةِ: هل تداعَوْا؟ فإن الخصمَ بعدَ غدٍ تَداعى
وما (سعدٌ) بمُتَّجِرٍ إذا ما تعرَّضت الحقوقُ شَرَى وباعا
ولكنْ تحتمِي الآمالُ فيه وتدَّرِعُ الحقوقُ به ادِّراعا[20]
إذا نظرَتْ قلوبُكُمُ إليه علا للحادثات وطال باعا[21]

هوامش

(١) يقال: قتل الأمر اطلاعًا، إذا بحثه طويلاً. والآسي: الطبيب.

(٢) المسجَّي: الميت. والالتياع: شدة الحزن.

(٣) تداعى الركن: أي سقط متهدمًا.

(٤) النفل: مفرد الأنفال، يعني العطايا المكتسبة من الفيء. والفيء: الغنيمة. والاصطناع: هو ما يعبَّر عنه في زماننا بالمحسوبية.

(٥) ضاع المسك والطيب: سطع عطره. لَمَّا قال: «فتى عجمته أحداث الليالي» شرح كيف كان ذلك، فأخبر أنه سُجِنَ فكان أشبه بالمهنَّد، ونفي فكان مثل التبر، وحين اشتدت أحداث الليالي ضغطًا، كان الفقيد أشبه بالمسك الذي يُسْحَقُ فيزيد أرجًا وطيبًا.

(٦) صلب «باللام المشددة»: أي كثير الصلابة. والاتَّداع: من الوداعة، وهي رقة الخلق.

(٧) يشير بهذا البيت إلى أن الفقيد كان هو أول قيم على مدرسة القضاء الشرعي، وقد أنشئت تلك المدرسة لتخريج القضاة الشرعيين، ولم يستغن عنها إلا بعد إصلاح الأزهر والاكتفاء بأبنائه.

(٨) الرباع: جمع ربع: الدار.

(٩) سيشل، إحدى جزر الهند النائية، نُفِي إليها الفقيد، حين اتهمته السلطات الإنجليزية بالتحريض السياسي في ثورة مصر الكبرى.

(١٠) الفسطاط: مدينة مصر. وظاهر الفسطاط: أي ضاحيتها. والقاع في الأصل: هو المنخفض من الأرض، ويريد به هنا موضع القبر حيث دُفِنَ الفقيد.

(١١) الأربعين في هذا البيت، مقصود بها الأيام التي مضت على وفاته، أو السن التي توفي فيها. والساعا: جمع ساعة.

(١٢) القراع: نوع من الحرب والمغالبة.

(١٣) الرواع: من قولهم: ناقة رواع الفؤاد، بضم الراء وفتح الواو، أي شهمة زكية.

(١٤) البزاة: جمع بازي، وهو ضرب من الصقور.

(١٥) سراة القوم: سادتهم. والاقتضاب: بمعنى القطع أو الإيجاز والاختصار.

(١٦) ناصبات، من قولهم: عيش ناصب، أي فيه كدٌّ وجهد. وتباعًا: أي متتابعة.

(١٧) المذاكي: الخيل التي كملت قوتها. والقصب: هو الخط الذي يتراهن عليه المتسابقون.

(١٨) أبا بهي: ينادي بهذه الكنية فتح الله بركات باشا شقيق الفقيد. وأناب: رجع إلى الله.

(١٩) النباع: جمع نبع، وهو شجر للقسي والسهام، ينبت في قمة الجبال. آل سعد: آل زغلول باشا أخوال الفقيد.

(٢٠) تدرع الحقوق به: أي تجعل منه درعًا لها. والدرع: ثوب حديد يلبسه المحارب ليحتمي به من السيوف وأشباهها.

(٢١) طال باعًا: أي طال شأوًا وعظم قوة.

المويلحي[1]

كاتبٌ مُحْسِنُ البيانِ صنَاعُه | استخَفَّ العقولَ حينًا يَراعُه[1]
اِبنُ مصرٍ، وإنما كلُّ أَرضٍ | تنْطِقُ الضادَ مَهْدُهُ ورِباعُه[2]
إنما الشرقُ منزلٌ لم يُفرِّق | أَهلَه إن تفرَّقتْ أَصقاعه[3]
وطنٌ واحدٌ على الشمس والفصـ | ـحي، وفي الدمع والجراحِ اجتماعه
علمٌ في البيان، وابنُ لواءٍ | أَخذَ الشرقَ حِقبةً إبداعه
حَسْبُه السحرُ من تُراثِ أَبيه | إن تَولَّتْ قصورُه وضِياعه[4]
إنما السحرُ والبلاغةُ والحكـ | ـمةُ بَيْتٌ، كلاهما مِصراعه
في يَدِ النَّشْءِ من بيان (المويلِحِي) | مثلٌ يَنْفع الشبابَ اتِّباعه
صُوَرٌ من حقيقة وخيالٍ | هي إحسانُ فِكْرِهِ وابتداعه
رُبَّ سجعٍ كمُرْقِص الشعرِ لمَّا | يَختلِفْ لَحْنُهُ ولا إيقاعه
أَو كَسجعِ الحمامِ لو فصَّلتْهُ | وتأَنَّتْ به، ودَقَّ اختراعه
هو فيه بديعُ كلِّ زمانٍ | ما بديعُ الزمانِ؟ ما أَسجاعه؟[5]
عجِبَ الناسُ من طباعِ المويلحِّي، | وفي الأُسْدِ خُلْقُه وطِباعه
فيه كِبْرُ اللُّيوثِ حتى على الجو | ع، وفيها إباؤُه وامتِناعه

[1] هو الكاتب الكبير محمد المويلحي المتوفي سنة ١٩٣٠، وقد ألقيت هذه القصيدة في حفلة تأبينه.

تعب الموتُ في صَبورٍ على النز ... عِ، قليلٍ إلى الحياةِ نِزاعه[٦]
صارع العيشَ حِقْبَةً، ليت شعري ... ساعةَ الموتِ كيف كان صِراعه؟
قهرَ الموتَ والحياةَ، وقد تحـ ... ـكمُ في رائض السِّباع سِباعه
مُهجةٌ حرّةٌ، وخُلْقٌ أَبِيٌّ ... عَيَّ عنه الزمانُ وارتدَّ باعه
في الثمانين — يا (محمدُ) — عِلْمٌ ... لِعليمٍ، وإن تَناهَى اطِّلاعه[٧]
لِمْ تقاعَدْتَ دونها وتَوانَى ... سائقُ الفُلْكِ، واضمحلَّ شِراعه؟
رُبَّ شَيْبٍ بَنَتْ صُروحَ المعالي ... سَنتاه، وشادت المجدَ ساعه
فيه من هِمَّة الشبابِ، ولكن ... ليس فيه جِماحُه واندفاعه
سيِّدُ المنشئين حَثَّ المطايا ... ومضى في غُباره أَتباعه
حطَّهم (بالإمامِ) للموت رَكبٌ ... يَتلاقى بِطاؤُه وسِراعه
قَنَّعوا بالتراب وجهًا كريمًا ... كان من رُقعةِ الحياءِ قِناعه
كسَنا الفجرِ في ظلال الغوادي ... كرمٌ صفحتاه، هَدْيٌ شُعاعه
يا وحيدًا كأَمسِ في كِسْر بيتٍ ... ضيقٍ بالنَّزيلِ، رحبٍ ذِراعه[٨]
كلُّ بيتٍ تَحلُّه يستوي عنـ ... ـدك في الزُّهدِ ضِيقُهُ واتِّساعه
نمْ مَلِيًّا؛ فلست أَوّلَ ليثٍ ... بفَلاةٍ (الإمام) طال اضطجاعه[٩]
حولَك الصالحون، طابوا وطابَتْ ... أَكَماتُ (الإمامَ) منهم وقاعه[١٠]
قلَّدوا الشرقَ من جمالٍ وخيرٍ ... ما يَئُودُ المُفنِّدين انتزاعه[١١]
أُسَّسَتْ نهضةُ البناءِ بقومٍ ... وبقومٍ سما وطالَ ارتفاعه
كلُّ حَيٍّ — وإن تراختْ منايا ... هُ — قضاءٌ عن الحياة انقطاعه
والذي تحرص النفوسُ عليه ... عالمٌ باطلٌ قليلٌ مَتاعه

هوامش

(١) يقال: يد صناع، أي ماهرة حاذقة، وبيان صناع أيضًا.

(٢) رباع: جمع ربع، وهو الدار.

(٣) أصقاعه، جمع صقع بضم الصاد: الناحية.

(٤) تولَّت القصور: أي ذهبت. والضياع: جمع ضيعة، وهي العقار والأرض المغلَّة.

(٥) بديع الزمان: هو الهمذاني صاحب المقامات المشهورة.

(٦) النزاع للميت: ساعات احتضاره. يقول إنه مع زهده في الحياة فقد طال زمن احتضاره، ولا يكون هذا إلا من قوة الحيوية التي تستطيع مغالبة الموت.

(٧) في الثمانين: يقصد ثمانين عامًا.

(٨) كسر البيت — بكسر الكاف وفتحها: جانبه.

(٩) فلاة الإمام: صحراء الإمام الشافعي، حيث مدفن الفقيد.

(١٠) أكمات: جمع أكمة: المرتفع من الأرض. والقاع: المنخفض منها.

(١١) يئود: بمعنى يثقل ويتعب: والمفندين: المكذبين.

إسماعيل باشا صبري[1]

أَجَلٌ وإن طال الزمانُ مُوافي | أَخْلى يدَيْكَ من الخليلِ الوافِي
داعٍ إلى حقٍّ أَهابَ بخاشعٍ | لبس النذيرَ على هُدًى وعفاف[1]
ذهب الشبابُ، فلم يكن رُزْئى به | دونَ المصابِ بصَفوة الآلَّاف
جَللٌ من الأَرزاءِ في أَمثاله | هِمَمُ العزاءِ قليلةُ الإسعاف
خَفَّتْ له العَبراتُ، وهي أَبِيَّةٌ | في حادثاتِ الدهر، غيرُ خِفاف
ولكلِّ ما أَتلفْتَ من مُستكرَمٍ | إلا مودَّاتِ الرجالِ تَلاف[2]
ما أَنتِ يا دُنيا؟ أَرؤيا نائمٍ | أَم ليلُ عُرْسٍ، أَم بِسَاط سُلاف؟
نَعماؤكِ الرَّيْحانُ، إلا أَنه | مَسَّتْ حَواشِيه نَقيعَ زُعاف[3]
ما زِلْتُ أَصحَبُ فيكِ خُلْقًا ثابتًا | حتى ظفِرْتُ بخُلْقِكِ المتنافي
ذهب الذّبيحُ السمحُ مثل سَمِيَّه | طُهْرَ المُكَفَّنِ، طيِّبَ الأَلفاف[4]
كم بات يذبحُ صدرَه لشكاته | أَتُراه يحسبها من الأَضياف؟[5]
نَزَلتْ على سَحْرِ السَّماح ونَحْرِه | وتقلَّبَتْ في أَكرمِ الأَكناف[6]
لَجَّتْ على الصَّدر الرحيبِ وبرَّحَتْ | بالكاظم الغيْظِ، الصَّفوحِ، العافي

[1] إسماعيل باشا صبري: أحد الشعراء السابقين الفحول، وكان يلقَّب بشيخ الشعراء، وكان أحد رجال الدولة في عصره، فقد تسنَّم أعلى المناصب القضائية، وترقَّى إلى منصب وكيل وزارة الحقَّانية، ثم وافاه الموت سنة ١٩٢٣.

ما كان أَقسَى قلبَها من عِلَّةٍ ... عَلِقتْ بأَرحم حَيَّةٍ وشَغاف[7]
قلبٌ لو انتظم القلوبَ حَنانهُ ... لم يبْق قاسٍ في الجوانح جافي
حتى رماه بالمنيَّة فانجلتْ ... مَنْ يَبتلي بقضائه ويُعافى
أَخْنَتْ على الفلَكِ المُدارِ فلم يَدُرْ ... وعلى العُباب فقرَّ في الرجّاف[8]
ومَضَتْ بنارِ العبقريّةِ، لم تَدَعْ ... غيرَ الرَّمادِ، ودارساتِ أَثافي[9]
حَملوا على الأَكتاف نورَ جلالة ... يذرَ العيونَ حواسدَ الأَكتاف
وتَقلَّدوا النعشَ الكريمَ يتيمةً ... ولكَمْ نعوشٍ في الرقاب زياف
مُتمايلَ الأَعوادِ ممّا مَسَّ من ... كَرَمٍ، ومما ضَمَّ من أَعطاف
وإذا جلالُ الموتِ وافٍ سابغٌ ... وإذا جلالُ العبقريّةِ ضافي
ويْحَ الشبابِ وقد تَخطَّر بينهم ... هل مُتِّعوا بتمسُّحٍ وطَواف؟
لو عاش قدوتُهم وربُّ «لِوائهم» ... نَكَسَ «اللواءَ» لثابتٍ وقَّاف[10]
فلَكَمْ سقاه الودَّ حينَ وِدادُه ... حربٌ لأَهل الحكمِ والإِشراف
لا يومَ للأَقوامِ حتى يَنهضوا ... بقوادمٍ من أَمسِهم وخوافي[11]
لا يُعْجِبنَّكَ ما ترى من قُبَّةٍ ... ضربوا على موتاهُم، وطِراف[12]
هجموا على الحقِّ المبينِ بباطلٍ ... وعلى سبيل القصدِ بالإِسراف[13]
يبنون دارَ اللهِ كيف بدا لهم ... غُرُفاتِ مُثْرٍ، أَو سقيفةَ عافي[14]
ويُزوِّرون قبورَهم كقصورهم ... والأَرضُ تضحك والرُّفاتُ السافي
فُجِعَتْ رُبى الوادي بواحد أَيكِها ... وتجرَّعَت ثُكْلَ الغدير الصافي
فقدتْ بنانًا كالربيع، مُجيدةً ... وشْيَ الرياضِ وصنعَةَ الأَفواف[15]
إن فاته نسَبُ «الرَّضِيِّ» فربَّما ... جَريًا لغاية سُؤْدَدٍ وطِراف[16]
أَو كان دون أَبي «الرَّضيِّ» أُبوَّةً ... فلقد أَعادَ بيانَ «عبدِ مَنافِ»
شرفُ العصاميِّين صُنْعُ نفوسِهم ... مَن ذا يقيس بهم بني الأَشراف؟
قل للمشير إلى أَبيهِ وجَدهِ ... أَعَلِمْتَ للقمرَينِ من أَسلاف؟
لو أَن (عمرانًا) نِجارُك لم تَسُدْ ... حتى يُشارَ إليك في الأَعراف[17]
قاضي القضاة جَرَتْ عليه قضيّةٌ ... للموتِ، ليس لها من استئناف
ومُصَرِّفُ الأَحكامِ مَوكولٌ إلى ... حُكم المنيَّة، مالَه من كافي
ومُنادِمُ الأَملاكِ تحت قِبابهم ... أَمسَى تُنادِمُه ذِئابُ فَيافي[18]

فِي منزلٍ دارت على الصِّيدِ العُلا ... فيه الرَّحَى ومشتْ على الأَرداف[١٩]

وأُزِيلَ من حُسنِ الوُجودِ وعِزِّها ... ما كان يُعبد من وراءِ سِجاف[٢٠]

من كلِّ لمَّاحِ النعيم تَقلَّبتْ ... دِيباجَتاهُ على بِلًى وجَفاف

وترى الجماجِمَ في الترابِ تماثَلتْ ... بعدَ العقولِ تماثُلَ الأَصداف

وترى العيونَ القاتِلاتِ بنظرةٍ ... مَنهوبَةَ الأَجفانِ والأَسياف[٢١]

وتُراعُ من ضِحِكِ الثُّغورِ، وطالما ... فتنَتْ بحُلْو تبسُّمٍ وهُتاف

عَزَت القرونَ الذاهبين غزالةٌ ... دمُهم بذِمّة قرْنِها الرَّعاف[٢٢]

يَجري القضاءُ بها، ويجري الدهرُ عن ... يَدِها، فيا لثلاثةٍ أَحلاف!

ترْمي البريَّةَ بالحُبولِ، وتارةً ... بحبائلٍ من خَيْطها وكفاف[٢٣]

نَسجتْ ثلاثَ عَمائِمٍ، واستحدَثتْ ... أَكفانَ موتى من ثيابِ زفاف[٢٤]

«أَأَبا الحُسين»، تحيةً لثراكَ من ... رُوحٍ وريْحانٍ وعَذْبِ نِطاف

وسَلامُ أَهلٍ وُلَّهٍ وصَحابةٍ ... حَسرَى على تلك الخِلالِ لِهاف

هل في يَدَيَّ سوى قريضٍ خالدٍ ... أُزجيهِ بين يَدَيْكَ للإتحاف؟

ما كان أَكرَمَه عليك! فهل ترى ... أَنى بَعثتُ بأَكرمِ الأَلطاف؟

هذا هو الرَّيحانُ، إلا أَنه ... نَفحاتُ تلك الروْضةِ المِئْناف[٢٥]

والدُّرُّ، إلا أَن مَهْدَ يتيمِه ... بالأَمسِ لُجَّةُ بحرك القذَّاف

أَيامَ أَمرَحُ في غُبارِكَ ناشئًا ... نَهْجَ المِهار على غُبار «خِصاف»[٢٦]

أَتعلَّمُ الغاياتِ كيف تُرامُ في ... مِضمارِ فضلٍ أَو مَجالِ قوافي

يا راكبَ الحدباءِ، خلِّ زِمامَها ... ليس السبيلُ على الدليل بِخافي

دانَ المطيَّ الناسُ، غيرَ مطيَّةٍ ... للحقِّ، لا عَجْلَى، ولا مِيجاف[٢٧]

لا في الجيادِ، ولا النِّياقِ، وإنما ... خُلِقَتْ بغير حوافرٍ وخِفاف

تنتاب بالركبانِ منزلةَ الهدى ... وتَؤُمُّ دار الحقِّ والإنصاف

قد بَلَّغَتْ ربَّ المدائنِ، وانتهتْ ... حيثُ انتهيْتَ بصاحبِ الأَحقاف[٢٨]

نَمْ مِلءَ جَفنِك، فالغُدُوُّ غوافلٌ ... عمّا يَروعُك، والعَشِيُّ غوافي

في مَضجع يكفيك من حسناتِه ... أَن ليس جَنْبُك عنه بالمتجافي

واضحك مِن الأَقدارِ غير معجَّزٍ ... فاليوم لست لها من الأَهداف

والموتُ كنتَ تخافه بك ظافرًا ... حتى ظفِرْت به، فدَعْه كَفاف

قُلْ لي بسابقةِ الودادِ: أَقاتِلٌ هو حين يَنزِلُ بالفَتى، أَم شافي؟
في الأَرضِ من أَبوَيْكَ كنزا رحمةٍ وهوًى، وذلك من جِوارٍ كافي
وبها شبابُك واللِّداتُ، بكيته وبكيتهم بالمدْمَعِ الذَّرَّاف
فاذهب كمصباحِ السماءِ، كلاكما مال النهار به، وليس بطافي
الشمسُ تُخْلَفُ بالنجومِ، وأَنت بالـ ـآثار، والأَخبار، والأوصاف
غلب الحياةَ فتًى يسدُّ مكانَها بالذكرِ، فهو لها بَدِيلٌ وافي

هوامش

(١) النذير: الموت.

(٢) المستكرم: هو كل كريم عليك من مال ونحوه.

(٣) نقيع زعاف: أي سم ناجع بالغ.

(٤) يشبِّه الفقيد بالذبيح، والذبيح قيل: سيدنا إسحاق، والمراد هنا سيدنا إسماعيل، ومن أجل ذلك صار الفقيد سميًا له، والألفاف: يقصد بها الكفن. يريد أنه ذهب طيب المظهر والمخبر.

(٥) الشكاة: هي العلة التي يشكوها المريض.

(٦) السحر: الرئة. والنحر: أعلى الصدر. والأكتاف: جمع كتف، وهو الجانب.

(٧) يريد بقوله «أرحم حية»: القلب. والشغاف (بالفتح): غلاف القلب.

(٨) العباب: هو الموج. والرجاف: البحر.

(٩) الأثافي: جمع أثفية، وهي ما يوضع عليه القدر.

(١٠) رب لوائهم: يقصد به صاحب جريدة اللواء، ومنشئها زعيم الشباب الأول المرحوم مصطفى كامل باشا.

(١١) القوادم والخوافي: ريش في جناح الطائر. وقد ورد في قول بعضهم:

فإن الخوافي قوة للقوادم

(١٢) طراف — على وزن كتاب: بيت من أدم، ويقصد بها المقاصير الموضوعة على بعض القبور.

(١٣) القصد: الاعتدال، وهو في كل شيء ضد الإسراف.

(١٤) العافي: الفقير.

(١٥) الأفواف: الثياب الرقيقة.

(١٦) الطراف: هنا من قولهم: توارثوا المجد طرفًا، أي عن شرف ورفعة. والرضي: هو الشريف الرضي الشاعر المشهور.

(١٧) عمران: أبو موسى (عليه السلام)، وقد نزلت في القرآن المجيد سورة باسم آل عمران، كما نزلت سورة باسم الأعراف.

(١٨) الأملاك: الملوك. والفيافي: الصحاري.

(١٩) الصيد العلا: الملوك. والأرداف: أبناء الملوك، أو الذين يلونهم في المرتبة.

(٢٠) السجاف: الستر، كالكلل ونحوها.

(٢١) يريد «بأسياف العيون»: اللحاظ، وكثيرًا ما تعمل اللحاظ في الناس عمل السيوف، وعبَّر بالأسياف ليجانس بينها وبين الأجفان.

(٢٢) غزالة: هي الشمس. والرعاف: أي قرنها الأحمر الذي يشبه الدم.

(٢٣) الكفاف: حبائل الصائد.

(٢٤) ثلاث عمائم: الشعر الأسود، والأسود فيه شيب، والأبيض، أي أدوار العمر الثلاثة.

(٢٥) الروضة المئناف والأنف: هي التي تحمى فلا يكاد أحد يمرُّ بها أو يجتني منها.

(٢٦) المهار: جمع مهر، وخصاف: فرس مشهور في العرب.

(٢٧) الميجاف: السريعة.

(٢٨) رب المدائن: كسرى. وصاحب الأحقاف: عاد.

فوزي الغزي[١]

جرحٌ على جرحٍ! حَنانَكِ (جِلَّقُ) ... حُمِّلْتِ ما يُوهِي الجبالَ ويُزْهِقُ[١]

صبرًا لباة الشرقِ؛ كلُّ مصيبةٍ ... تبْلَى على الصبر الجميلِ وتخْلقُ[٢]

أَنسيتِ نار الباطشين، وهزّةً ... عَرَتِ الزمانَ، كأَن (روما) تُحرَقُ[٣]

رعناءَ أَرسلها ودسَّ شُواظَها ... في حجرةِ التاريخ أَرْعَنُ أَحمق[٤]

فمشتْ تُحطِّم باليمين ذخيرةً ... وتَلُصُّ أُخرى بالشمال وتَسْرِق؟

جُنَّتْ، فضعضعها، وراضَ جِمَاحَها ... من نَشْئِكِ الحُمْسِ الجنونُ المُطْبِق

لِقِيَ الحديدُ حَمِيَّةً أَمَوِيَّة ... لا تكتسي صَدَأً، ولا هي تُطْرق

يا واضعَ الدّستورِ أَمسِ كخُلْقِه ... ما فيه من عِوَجٍ، ولا هُو ضيِّق

نظمٌ من الشورى، وحكمٌ راشدٌ ... أَدبُ الحضارةِ فيهما والمنطِق

لا تَخْشَ مّما أَلحقوا بكتابه ... يَبقَى الكتابُ وليس يبقَى المُلْحق

مَيْتَ الجلالِ، من القوافي زَفْرةٌ ... تجري، ومنها عبْرَةٌ تترقرق

ولقد بَعثتُهما إِليكَ قصيدةً ... أَفأَنتَ مُنتظِرٌ كعهدكَ شَيِّق؟

أَبكي ليالِينَا القِصار وصحبةً ... أَخذَتْ مُخِيلتُها تجيش وتَبْرُق[٥]

لا أَذكرُ الدنيا إِليك؛ فربَّما ... كرِه الحديثَ عن الأَجاجِ المغرَق[٦]

[١] فوزي الغزي: هو أحد سراة الزعماء في الشام، وأحد ألوية الثورة العربية في نهضتها العظمى، توفي وأقيمت له حفلة تأبين في دمشق، وألقيت فيها هذه القصيدة العصماء، في سنة ١٩٢٠.

طُبعتْ من السّمّ الحياةُ، طعامُها ... وشرابُها، وهواؤها المتنشَّق
والناسُ بين بَطيئها وذُعافِها ... لا يعلمون بأَيِّ سمَّيْها سُقُوا[٧]
أَمَّا الولِيُّ فقد سقاكَ بسمَّه ... ما ليس يَسقيك العدوُّ الأَزرق[٨]
طلبوك والأَجلُ الوَشِيكُ يَحُثُّهم ... ولكلِّ نفسٍ مُدَّةٌ لا تُسبَق
لمَّا أَعان الموتُ كَيْدَ حِبالهم ... عَلِقَتْ، وأَسبابُ المنيةِ تَعلَق
طَرَقَتْ مِهادَك حَيةٌ بَشَريةٌ ... كفرتْ بما تنتابُ منه وتطرُق[٩]
يا (فوز)، تلك دمشقُ خلفَ سَوادِها ... ترمي مكانكَ بالعيون وتَرْمُق[١٠]
ذَكَرَتْ ليالِيَ بدرِها، فتلفَّتَتْ ... فعساك تَطلُع، أَو لعلَّك تُشْرِق
(برَدَى) وراءَ ضِفافِه مُستعبِرٌ ... والحورُ مَحلولُ الضفائر مُطْرِق[١١]
والطيرُ في جَنَباتِ (دُمَّرَ) نُوَّحٌ ... يَجِدُ الهمومَ خَلِيُّهن ويَأْرَق[١٢]
ويقول كلُّ مُحدِّثٍ لسميره ... أَبذاتِ طَوْق بعدَ ذلك يُوثَق؟[١٣]
عَشِقَتْ تَهاويلَ الجمالِ، ولم تَجِدْ ... في العبقريَّة ما يُحَبُّ ويُعْشَق[١٤]
فمشَتْ كأَنَّ بنانَها يَدُ مُدْمِنٍ ... وكأَن ظلَّ السمِّ فيها زِئْبَق
ولو آنّ مقدورًا يُرَدُّ لردَّها ... بحياته الوطنُ المَرُوعُ المُشْفِق
أَشقى القضاءُ الأَرض، بعدَك أُسرة ... لولا القضاءُ من السماءِ لما شَقوا
قَسَتِ القلوبُ عليهمُ وتحجَّرَتْ ... فانظر فؤادَك، هل يلينُ ويَرفُق؟
إِن الذين نزلْتَ في أَكنافهم ... صَفحوا، فما منهم مَغِيظٌ مُحْنَق
سَخِروا من الدنيا كما سَخِرَتْ بهم ... وَأَنْبَتَّ من أَسبابها المُتَعَلَّق[١٥]
يا مأْتمًا من (عبدِ شمسٍ) مثلُه ... للشمس يُصْنعُ في الممات ويُنْسَق
إِن ضاق ظهرُ الأَرضِ عنك فبطنُها ... عمّا وراءَكَ من رُفاتٍ أَضْيق[١٦]
لمَّا جَمَعْتَ الشامَ من أَطرافِه ... وافَى يُعزِّي الشامَ فيك المشرِق
يبكي لواءً من شبابِ أُميّةٍ ... يَحمي حِمَى الحق المبينِ ويَخفق
لمستْ نواصِيها الحصونُ ترومُه ... وتلَمَّسْتهُ فلم تجدْه الفيْلَق[١٧]
ركنُ الزعامةِ حين تطلب رأْيَه ... فيَرَى، وتسْأَلُه الخطابَ فينْطِق
ويكاد من سحرِ البلاغةِ تحتَه ... عودُ المنابرِ يُستخَف فيُورِق[١٨]
(فيحاءُ)، أَين على جِنانِك وردةٌ ... كانت بها الدنيا ترِفُّ وتعْبَق؟[١٩]
علويَّة تجد المسامع طيَّها ... وتُحِسُّ ريَّاها العقولُ وتَنشَق

وأَرائِكُ الزَّهرِ الغصونُ، وعرشُها يَدُ أُمـةٍ وجـبـيـنُـهـا والـمـفْـرق
مَـنْ مُـبْلِـغٌ عنّـي شُـبـولـة جِلَّـقٍ قولاً يَبرُّ علـى الزمان ويصْدُق؟
بـالـلـهِ جلَّ جـلالُـه، بـمـحـمـدٍ بـيـسـوعَ، بـالـغـزِّيِّ لا تـتـفـرّقـوا
قد تُفْسِدُ المرْعَى على أَخواتها شـاةٌ تـنِـدُّ من الـقـطـيـع وتَـمْـرُق

هوامش

(١) جلق (بشدة اللام مفتوحة أو مكسورة): دمشق.

(٢) اللباة: أنثى الأسد.

(٣) يشير إلى ضرب الفرنسيين لها بالمدافع. وحادثة حرق روما: هي إحدى الحوادث التاريخية الكبرى، وهي مضرب المثل منذ صار نيرون مثلاً للظلم والجبروت.

(٤) الشواظ (بضم الشين وكسرها): لهب لا دخان فيه.

(٥) السحابة المخيِّلة: التي تُحْسَبُ ماطرة، أي أن صحبة الفقيد كانت مرجوَّة الخير كما تكون السحابة المخيلة مرجوَّة المطر.

(٦) الأجاج: الملح المرُّ.

(٧) الذعاف: سمُّ الساعة.

(٨) العدوُّ الأزرق: هو الكثير العداوة.

(٩) المهاد: الفراش، وفي هذا البيت إشارة إلى حادثة قتل الفقيد بواسطة زوجته.

(١٠) سواد دمشق: أي القرى التابعة لها.

(١١) بردى: نهر بالشام. المستعبر: بمعنى الباكي. الحور: شجر. ضفائر الحور: غصونه. التي تشبه جدائل الشعر.

(١٢) دمر (بضم الدال وتشديد الميم المفتوحة): عقبة في دمشق. خليهن: الخالي من الهموم، وهو ضد الشجي.

(١٣) ذات الطوق: الحمامة، وهي في هذا البيت كناية عن المرأة.

(١٤) التهاويل: الألوان المختلفة.

(١٥) انبت، أي قُطِعَ.

(١٦) الرفات: بقايا الميت.

(١٧) نواصي الحصون: أعاليها.

(١٨) يستخف، بمعنى يسرُّ ويطرب.
(١٩) فيحاء: دمشق.

كريمة البارودي[١]

أَحيثُ تَلوحُ المُنى تأفلُ؟   كفى عِظةً أَيها المنزلُ![١]
حكيْتَ الحياة وحالاتِها   فهلاًّ تخطَّيْتَ ما تنقل؟
أَمِن جنْحِ ليلٍ إِلى فجرِه   حِمًى يَزْدَهِي، وحِمًى يَعْطل؟[٢]
وذلك يوحِش من ربةٍ   وذلك من رَبَّةٍ يَأْهَل؟[٣]
أجاب النَّعِيُّ لديْكَ البشيرَ   وذاقَ بكأْسَيْهما المحفِل
وأَطرق بينهما والدٌ   أَخو ترْحَةٍ، ليلُه أَلْيَل[٤]
يَفيء إِلى العقل في أَمره   ولكِنَّهُ القلبُ، لا يعقِل
تهاوت عن الوردِ أَغصانُه   وطارَ عن البيْضة البُلْبُل[٥]
وراحت حياةٌ، وجاءَت حياةٌ   وأَظهرَ قدرتَه المُبْدِل
وما غيرُ مَنْ قد أَتى مُدْبِرٌ   ولا غيرُ مَنْ قد مضى مُقبِل
كأَني (بسامي) هلوعُ الفؤادِ   إِذا أَسمعَتْ همْسةٌ يَعجَل
يَرى قدرًا يأَمُلُ اللُّطفَ فيه   وعادِي الرَّدَى دون ما يَأْمُل
يُضيءُ لضِيفانه بِشْرُه   وبين الضلوعِ الغَضَى المُشْعَل[٦]
ويَقْرِيهُمُ الأَنسَ في منزلٍ   ويَجمعُه والأَسى مَنزِل

[١] وجَّه هذه القصيدة يعزي بها المرحوم محمود سامي باشا البارودي في كريمته التي توفيت أثناء زفاف شقيقتها.

فمن غادةٍ في مَجالي الزِّفافِ إِلـى غـادةٍ داؤهـا مُـعْـضِـل
وذي فـي نـفـاسـتِهَا تَنطوي وذي فـي نـفـائـسـهـا تَـرفُـل[٧]
تَـقـسَّـمَ بـيـنـهـمـا قـلـبُـه وخـانـتـه عـيـنـاه والأَرْجُـل
فيا نكدَ الحُرِّ، هل تنقضي؟ ويـا فـرح الـحـرِّ، هل تـكْـمُل؟
ويا صبر (سامي)، بلغْتَ المَدى ويا قلبه السهلَ، كم تَحْمِل؟
لقد زدْتَ من رِقَّةٍ كالصراط ودون صَـلابـتِـكَ الـجَـنْـدَل
يَمرُّ عليك خليطُ الخُطوب ويـجـتـازك الـخِـفُّ والمُـثْـقِل[٨]
ويا رجل الحِلْمِ، خُذ بالرضى فـذلـك مـن مُـتَّـق أَجْـمَـل
أَتحسَب شهدا إِناءَ الزّمانِ وطينتُه الصابُ والحَنْظَل؟
ومـا كـان مِـن مُـرِّهِ يَـعـتـلـي ومـا كـان مِـن حُـلـوهِ يـسْـفـل
وأَنت الذي شربَ المترَعاتِ فـأَيُّ الـبـواقـي بـه تَـحـفِـل؟
أَفي ذا الجلالِ، وفي ذا الوقارِ تُـخِـيـفُـك ضَـراءُ أَو تُـذهِـل؟
أَلـم تـكـن الـمـلْـكَ فـي عـزِّه وبـاعُـك مـن بـاعـه أَطْـوَل؟
وقولُك من فوق قولِ الرِّجالِ وفـعـلُـك من فـعـلـهـم أَنْـبَـل؟[٩]
ستعرِفُ دنياك من ساومتْ وأَن وقـــارَك لا يُــــبْـــذَل
كأَنك (شمشونُ) هذي الحياةِ وكـلُّ حـوادِثـهـا هَـيْـكَـل[١٠]

هوامش

(١) تلوح المنى: بمعنى تشرق، تأفل: بمعنى تغرب.

(٢) جنح الليل (بضم الجيم وكسرها): طائفة منه. يعطل: بمعنى يخلو. والأَصل في العطل: التجرُّد من الحلي.

(٣) الربَّة هنا: يقصد بها صاحبة البيت. يأهل: يمتلئ أو يعمر.

(٤) الترحة: الحزن. الأليل: الشديد السواد.

(٥) تهاوت: أي تساقطت أو تخلَّت.

(٦) الغضى: شجر إذا اشتعل بقي جمره طويلاً.

(٧) النفاسة من قولهم: هذا شيء نفيس، أي ثمين يرغب فيه. والنفائس: الحلي وما أشبهها.

(٨) الخف: الخفيف. المثقل: الثقيل.

(٩) يشير إلى زمن الثورة العرابية، وموقف البارودي منها.

(١٠) شمشون: أحد أنبياء التوراة، وله قصة هناك تدلُّ على أنه أُعْطِي بسطة عظيمة في القوة.

فتحي ونوري[1]

أُنظر إِلى الأَقمار كيف تزولُ ... وإِلى وُجوهِ السَّعْدِ كيف تَحول

وإِلى الجبالِ الشُّمِّ كيف يُميلُها ... عادي الرَّدى بإِشارةٍ فتميل

وإِلى الرِّياح تَخِرُّ دون قَرارِها ... صرْعَى عليهن التُّرَابُ مَهيل

وإِلى النُّسورِ تقاصرت أَعمارها ... والعهدُ في عُمر النُّسورِ يَطول

في كلِّ منزلةٍ وكل سمِيَّة ... قمرٌ من الغُرِّ السُّماةِ قتيل

يهوِي القضاءُ بها، فما من عاصِمٍ ... هيهات! ليس من القضاءِ مُقيل

(فتحُ السماءِ) و(نورُها) سكنا الثرى ... فالأَرضُ وَلْهى، والسماءُ ثَكول

سِرْ في الهواءِ، ولُذ بناصيةِ السُّها ... الموتُ لا يخفَى عليه سبيل[1]

واركبْ جَناحَ النسر لا يَعْصِمْك من ... نسرٍ يُرفرفُ فيه عزرائيل

ولكلّ نفسٍ ساعةٌ، مَنْ لم يَمُتْ ... فيها عزيزًا مات وهْوَ ذليل

أَإِلى الحياةِ سَكنْتَ وهْي مَصارعٌ ... وإِلى الأَماني يَسكنُ المسلول؟

لا تَحفِلنّ ببؤسِها ونعيمِها ... نُعْمى الحياةِ وبؤسُها تضليل

ما بين نَضرَتِها وبين ذُبولِها ... عمرُ الورودِ، وإِنه لقليل

---

[1] فتحي ونوري: هما الطياران العثمانيان اللذان قدما إلى مصر في سنة ١٩١٣ يقودان طيارتهما، فسقطت بهما؛ فماتا، فكان لمصابهما في مصر أسف شديد، وكانت الخلافة الإسلامية وقتئذ ما تَزال تربط المصريين بالعثمانيين.

هذا بَشيرُ الأَمسِ أَصبح ناعيًا ... كالحلم جاءَ بصدِّه التأويل
يجري من العَبراتِ حولَ حديثِه ... ما كان من فرَحٍ عليه يَسيل
ولرُبَّ أَعراسٍ خَبَأْن مآتمًا ... كالرُّقْط في ظلِّ الرياضِ تقيل[٢]
يا أَيُّها الشهداءُ، لن يُنْسى لكم ... فتحٌ أَغرُّ على السماءِ جميل
والمجدُ في الدنيا لأَوَّلِ مُبْتنٍ ... ولمِن يُشيِّد بعده فيُطيل
لولا نفوسٌ زُلْنَ في سُبُل العُلا ... لم يَهْدِ فيها السالكين دَليل
والناسُ باذلُ روحِه، أَو مالِهِ ... أَو علمِه، والآخرون فُضول
والنَّصْرُ غرَّتُه الطلائعُ في الوغَى ... والتابعون من الخميس حُجول[٣]
كم أَلف مِيلٍ نحو مصرَ قطعتمُ ... فِيم الوقوفُ ودون مصرٍ ميل؟
(طوروسُ) تحتكم ضئيلٌ، طرْفُه ... لمَّا طلَعتم في السحاب كَلِيل
تُرخون للريح العِنان، وإِنها ... لكمُ على طُغيانها لذَلول
اِثنين إِثر اثنين، لم يخطر لكم ... أَنَّ المنيّة ثالثٌ وزَميل
ومن العجائب في زمانِك أَن يَفِي ... لك في الحياةِ وفي الممات خليل
لو كان يُفدَى هالكٌ لفَداكمُ ... في الجوِّ نسرٌ بالحياة بَخيل
أَيُّ الغُزاةِ أُولِي الشهادةِ قبلكم ... عرْضُ السماءِ ضريحُهم والطُّول؟[٤]
يَغْدو عليكم بالتحيَّةِ أَهلُها ... ويرفرِفُ التسبيح والتهليل
(إدريسُ) فوقَ يمينهِ ريْحَانةٌ ... ويَسوعُ فوق يمينِه إكليل[٥]
في عالم سُكَّانُه أَنفاسُهم ... طِيب، وهَمْسُ حديثِهم إِنجيل[٦]
إِني أَخاف على السماءِ من الأَذى ... في يومِ يُفْسِد في السماءِ الجيل[٧]
كانت مطهَّرة الأَديمِ، نَقِيَّةً ... لا آدمٌ فيها، ولا قابيل[٨]
يَتوجَّه العاني إِلى رحماتِها ... ويرَى بها برقَ الرجاءِ عليل
ويُشيرُ بالرأْس المُكَلَّلِ نحوَها ... شيخٌ، وباللحظِ البريء بَتول[٩]
واليومَ للشهواتِ فيها والهوى ... سَيْلٌ، وللدَّمِ والدموعِ مسيل
أَضحتْ ومن سُفن الجواءِ طوائفٌ ... فيها، ومن خيل الهواءِ رَعيل[١٠]
وأزيل هيكلُها المصونُ وسِرُّه ... والدهرُ للسرِّ المصونِ مُذيل[١١]
هلِعَت (دِمشْقُ)، وأَقبلَتْ في أَهلها ... ملهوفةً، لم تدر كيف تقول
مَشَت الشُّجونُ بها، وعمَّ غِياطَها ... بينَ الجداولِ والعيونِ ذُبول[١٢]

في كلِّ سهلٍ أَنّةٌ وَمناحةٌ وبكلِّ حَزْنٍ رنَّةٌ وعويل
وكأَنما نُعِيَتْ أُميَّةُ كلُّها للمسجد الأَمَوِيِّ، فهْوَ طُلول[١٣]
خضَعتْ لكم فيه الصفوفُ، وأُزْلِفَتْ لكمُ الصَّلاةُ، وقُرِّبَ الترتيل
من كلِّ نَعْشٍ كالثُّريّا، مَجْدُه في الأَرضِ عالٍ، والسماء أَصيل
فيه شهيدٌ بالكتاب مُكفنٌ بمدامع الروحِ الأَمين غَسيل
أَعواده بين الرجالِ، وأَصلُه بين (السُّهى) و(المُشتَرِي) مَحمول[١٤]
يَمشي الجنودُ به، ولولا أَنهم أَوْلَى بذاكَ مَشى به جِبريل
حتى نزلتمُ بُقعةً فيها الهوى من قبلُ ثاوٍ، والسماحُ نَزيل
عَظُمَتْ، وجلَّ ضَريحُ (يوسفَ) فوقَها حتى كأَنّ الميْت فيه رسول[١٥]
شِعري، إذا جُبْتَ البحار ثلاثةً وحواكَ ظلٌّ في (فروقَ) ظَليل[١٦]
وتداولَتْكَ عصابةٌ عربيّةٌ بينَ المآذنِ والقِلاعِ نُزول
وبَلَغْتَ من بابِ الخِلافةِ سُدَّةً لِستُورِها التمسيحُ والتقبيل
قلْ للإمام محمدٍ، ولآله صبرُ العظامِ على العظيم جميل
تلك الخطوبُ — وقد حملتم شطرَها — ناءَ الفراتُ بشطرها والنيل
إن تَفقِدوا الآسادَ أَو أَشبالَها فالغابُ من أَمثالها مَأَهول
صبرًا؛ فأَجرُ المسلمين وأَجرُكم عند الإله، وإنه لجزيل
يا مَنْ خلافتُه الرَّضِيَّةُ عِصْمَةٌ للحقِّ، أَنت بأَن يُحقّ كفيل
واللهُ يعلم أَنّ في خلفائه عدلاً يُقيم الملكَ حين يَميل
والعدلُ يَرفع للممالك حائطًا لا الجيشُ يرفعه ولا الأُسطول
هذا مقامٌ أَنت فيه محمدٌ والرفقُ عند محمدٍ مأمول[١٧]
بالله، بالإسلام، بالجرحِ الذي ما انفكَّ في جنب الهلال يَسيل
إلا حللت عن السجين وَثاقَه إنَّ الوثاقَ على الأَسودِ ثَقيل[١٨]
أَيقول واشٍ، أَو يُرَدِّدُ شامتٌ صِنديدُ (برقة) مُوثَقٌ مَكبول؟[١٩]
هو من سيوفِك أَغمدُوه لريبةٍ ما كان يُغمَدُ سيفُك المسلول
فاذكر أَميرَ المؤمنين بَلاءَه واستبقه، إن السيوفَ قليل

هوامش

(١) السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

(٢) يريد أن الأحزان تختبئ في الأرواح، كما تكمن الحيَّات الرقط وقت القيلولة في ظلال الرياض، فوجود الحيات في ذلك الجو تسميم له ومانع من الانتفاع به، كما أن انطواء الأحزان في ثنايا الأفراح مسمم لجوها، مانع من الاستمتاع بكل سرورها.

(٣) الخميس: الجيش. الحجول: أصلها من اللون الأبيض يكون في قوائم الفرس كأنه العلامات، يقول: إن الذين يقدمون في أوائل الجيوش، يكونون في جسم النصر أشبه بالغرة، وهي لا تكون إلا في الوجه، على حين أن غيرهم من سائر الجيش يكون أشبه بالحجول، وهي لا تكون إلا في الأيدي والأرجل، وطبيعي أن الوجه أشرف، وإن كانت الحجول بعض سمات الجمال.

(٤) في هذا البيت ترغيب عظيم يساق للطيارين؛ إذ يقول لهم: إن الغزاة — وهم موضع الإجلال والإكبار — تشقُّ قبورهم في الأرض، ولكن أضرحتكم في السماء.

(٥) يسوع: هو عيسى ابن مريم. إدريس: هو أحد الأنبياء الرسل. وقد خصَّ إدريس بالذكر، لما جاء في قصة الإسراء، من أن النبي صلوات الله عليه رآه قائمًا على باب إحدى السماوات السبع، فسأل جبريل: من هذا؟ فقال: أخوك إدريس.

(٦) قوله: «وهمس حديثهم إنجيل»: يقصد أن أحاديثهم طهرٌ وتقديس.

(٧) يريد أنه خائف على جو السماء يوم يتخذه الطيارون ميدانًا للحروب، فيلوثون ذلك الطهر بأذى قتل الناس وتخريب أوطانهم.

(٨) يريد «بقابيل» الإشارة إلى أول دم أراقه الإنسان ظلمًا لأخيه الإنسان.

(٩) الرأس المكلل: الذي يتوِّجه الشيب، وهذه كناية عن حالة الضعف.

(١٠) خيل الهواء: الطيارات. الرعيل: القطعة من الخيل قدر العشرين أو الخمسة والعشرين.

(١١) مذيل: مهين. أي أن الدهر لم يحسن حفظ هذا السرِّ المصون فكأنه إهانة.

(١٢) الغياط: جمع غوطة، وهي الموضع الكثير الماء والشجر. ويقصد «بالعيون» عيون الماء.

(١٣) طلول: جمع طلل. وهو ما شخص من آثار البناء.

(١٤) المشتري: من الكواكب السيَّارة.

(١٥) يقصد «بيوسف» صلاح الدين الأيوبي.

(١٦) جبت: قطعت. فروق: الآستانة، وكانت عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ.

(١٧) كان يخاطب الخليفة محمد رشاد.

(١٨) السجين: هو عزيز بك المصري القائد الحربي العظيم، وكان يجاهد في طرابلس أيام أغار عليها الطليان، وقد وشي به للحكومة التركية، فاعتقلته وزجَّت به في السجن، ولم يخرج إلا بتحقيق وشفاعة مصرية، كانت هذه القصيدة من بعض ظواهرها ومن أجمل مظاهرها.

(١٩) برقة: أحد الأقاليم الليبية حدثت به أهم الوقائع الحربية في تلك الإغارة، وفيها لمع مجد عزيز بك.

علي باشا أبو الفتوح[١]

ما بينَ دمعِي المُسْبَلِ   عهدٌ وبينَ ثَرَى (عَلي)
عهدُ (البقيعِ) وساكنيـ   ـه على الحَيا المتهدِّل[١]
والدَّمعُ مروحَةُ الحزيـ   ـنِ وراحَةُ المُتَمَلْمِلِ
نَمضي، ويَلحَقُ منْ سلا   في الغابرينَ بمَنْ سُلي
كم مِنْ تُرابٍ بالدمو   عِ على الزمان مُبلَّل
كالقبر ما لم يَبْلَ فيـ   ـه من العِظام، وما بلي
ريَّان من مجد يعِـ   ـزُّ على القصور موثَّل
أَمسَتْ جوانِبُه قَرا   رًا للنُّجوم الأُفَّل
وحديثُهم مِسكُ النَّدِ   يِّ، وعَنْبَرٌ في المحفِل
قلْ للنَّعِيِّ: هتكْت دَمـ   ـعَ الصابر المتَجَمِّل[٢]
المُلتقِي الأَحداثَ إِنْ   نزلَتْ كأَن لَّم تَنزِل
حَمَلَ الأَسى (بأَبي الفتو   ح) علَيَّ ما لمْ أَحمِل[٣]
حتى ذَهِلْتُ، ومنْ يَذُق   فقدَ الأَحِبَّةِ يَذْهَل

---

[١] علي باشا أبو الفتوح: أحد نوابغ مصر الذين اشتركوا في تمهيد الطريق لنهضتها، كان حقوقيًا ضليعًا، وأسندت له وكالة وزارة المعارف، فكان موضع الفخر والأمل، وقد توفي سنة ١٩١٣، فعُدَّ موته خسارة وطنية كبرى.

فعتْبتُ في رُكن (القضا ... ءِ) على القضاءِ المُنْزَل
لَهَفي على ذاك الشبا ... بِ وذلك المستقبَل
وعلى المعارف إذ خَلتْ ... من ركنِها والموئِل[4]
وعلى شمائلَ كالرُّبَى ... بينَ الصِّبا والجدول
وحياءِ وجهٍ كان يُؤ ... ثَر عن «يسوعَ» المرسَل
يا راويًا تحتَ الصفيـ ... ـحِ من الكرى والجندل[5]
ومُسرْبلاً حُلَلَ الوزا ... رةِ بات غيرَ مُسَربَل
ومُوَسدًا حُفَرَ الثرى ... بعدَ البناءِ الأَطول
إني التفتُّ إلى الشبا ... ب الغابرِ المتمثَّل
ووقفتُ ما بين المحقَّـ ... ـقِ فيه، والمتخيَّل
فرأيت أَيامًا عَجِلْـ ... ـنَ، وليْتَها لَمْ تَعْجَل
كانت مُوَطَّأَةَ المِها ... دِ لنا، عِذاب المنهَل
ذَهَبَتْ كحُلم، بيْدَ ... أَنَّ الحُلمَ لم يتأَوَّل
إذ نحن في ظلِّ الشبا ... بِ الوارفِ المتهدِّل[6]
جاران في دار النوَى ... مُتقابلانِ بمنزل
أَيْكِي وأَيْكُك ضاحكا ... ن على خمائل مونْبِلي[7]
والدرسُ يجمعُني بأَفـ ... ـضلِ طالبٍ ومُحصِّل
أَيامَ تَبْذُل في سبيـ ... ـلِ العلم ما لم يُبذَل
غَضَّ الشباب، فكيف كنـ ... ـت عن الشبابِ بمعْزِل؟
وإذا دعاكَ إلى الهوى ... داعي الصَّبا لم تحفِل
ولو اطَّلعْتَ على الحيا ... ةِ فعلْتَ ما لم يُفعَل
لم يَدْرِ إلاَّ اللهُ ما ... خَبأَتْ لكَ الدنيا، ولي
تَجري بنا لمُفتَّح ... بينَ الغُيوب ومُقفَل
حتى تبدَّلْنا، وذا ... ك العهدُ لم يَتبدَّل
هاتيك أَيامُ الشبا ... بِ المحسنِ المتفضِّل
مَنْ فاته ظلُّ الشبيـ ... ـبةِ عاش غير مُظلَّل
يا راحلاً أَخلَى الديا ... رَ وفضلُه لم يَرحَل

تـتـحـمـلُ الآمـالُ إثْـــ ـــر شبـابِـه الـمـتـحـمِّـل[8]
مشتِ الشبيبةُ جحْفَلاً تَبكي لِواءَ الجحفل[9]
فانظر سريرَك، هل جرى فوق الدموعِ الهُطَّل؟
الله في وطنٍ ضعيـ ـفِ الركنِ، واهي المعقِل
وأَبٍ وراءَك حُزنُه لِنواك حزنُ المثْكل
يَهَبُ الضِّياعَ العامرا تِ لمَنْ يردُّ له «علي»
ليس الغنيُّ من البريَّـ ـة غير ذي البال الخَلِي
ونَجيبةٍ بين العقا ئِل هَمُّها لا ينسل[10]
دَخَلَتْ منازلَها المنو نُ على الجريء المُشْبل[11]
كسرَتْ جناحَ مُنعَّمٍ ورمَتْ فؤادَ مُدلَّل
فكأن آلكَ من شجٍ ومُتيَّمٍ ومُرمَّل
آلُ «الحسينِ» (بِكربلا في كُربةٍ لا تنجلي)[12]
خلعَ الشبابَ على القنا وبذلْتَه لِلمُعْضِل[13]
والسيفُ أَرحمُ قاتلاً من عِلَّةٍ في مَقتل
فاذهب كما ذهبَ الحسيـ ـنُ إلى الجوارِ الأَفضَل
فكلاكما زينُ الشبا بِ بجنةِ اللهِ العلي

هوامش

(١) البقيع: أحد المزارات المقدَّسة في المدينة المنوَّرة.

(٢) المتجمل: الذي يدفن همه في صدره احتسابًا ويظهر عكسه للناس.

(٣) الأسى: الحزن.

(٤) الموئل: الملجأ الذي يلجأ إليه في الشدة.

(٥) يريد «بالصفيح والجندل»: حجارة القبر. يستعبر بالفقيد — وهو المرفَّه في الحياة — كيف ينام هذا النوم العميق تحت الحجارة الصماء الثقيلة، وهذا حذق في سياق التفجُّع بأسلوب الاستعبار.

(٦) المتهدِّل: من قولهم: تهدَّلت أغصان الشجر، إذا تدلَّت.

(٧) يشير في هذا البيت والذي قبله، إلى أن الفقيد كان هو وأمير الشعراء زميلين وصديقين، كانا يطلبان العلم في جامعة «مونبلييه»، وهي إحدى مدن فرنسا الشهيرة. الأيك في الأصل: عشُّ الطائر. الخمائل: النباتات الكريمة كالحدائق والبساتين.

(٨) الشباب المتحمل، أي الراحل.

(٩) الجحفل: الجيش.

(١٠) لا ينسلي: أي لا يمضي ولا يبارح مكانه من قلبها.

(١١) المشبل: هو الذي يلد الأشبال، وهي أولاد السباع.

(١٢) كربلاء: اسم الموضع الذي قتل فيه سيدنا الحسين (رضى الله عنه).

(١٣) يشبِّه الفقيد بالحسين، بجامع بذل الشباب من كليهما وموت كليهما قبل أوانه، كأنه يرى أن الموت في سن الشباب بمثابة بذل الحياة وخلع ثوبها، وهذا لا ينافي الاعتقاد بالأجل المكتوب، فقد تمثَّل الحسين نفسه عندما رأى أن لا مفرَّ من القتل يقول بعضهم:

فلو ترك القطا ليلاً لنام

جورجي زيدان[1]

ممالكُ الشرقِ، أَم أَدراسُ أَطلالِ وتلك دُولاتُه، أَم رَسْمُها البالي؟[1]

أَصابَها الدهُر إلاَّ في مآثِرِها والدهرُ بالناس من حالٍ إلى حال

وصار ما نتغنَّى من محاسنها حديث ذي مِحنةٍ عن صَفْوِه الخالي

إذا حفا الحقُّ أَرضًا هانَ جانبُها كأَنها غابةٌ من غيرِ رِئبال[2]

وإن تحكَّم فيها الجهلُ أَسلَمَها لفاتكٍ من عوادي الذُّلِّ قتَّال

نوابغ الشرقِ، هُزُّوهُ لعلَّ به من الليالي جُمودَ اليائس السَّالي

إن تنفخوا فيه من روح البيانِ، ومن حقيقةِ العلمِ ينهضْ بعدَ إعضال

لا تجعلوا الدينَ باب الشرِّ بينكُمُ ولا محلَّ مُباهاةٍ وإدلال

ما الدينُ إلا تراثُ الناس قبلَكُمُ كلُّ امرئٍ لأَبيهِ تابعٌ تالي

ليس الغلُّو أَمينًا في مَشُورته مناهجُ الرُّشْدِ قد تخْفَى على الغالي

لا تطلبوا حقّكم بَغْيًا، ولا صَلفًا ما أَبعدَ الحقَّ عن باغٍ ومُختال

ولا يَضيعَنَّ بالإهمال جانبُه فرُبَّ مصْلحةٍ ضاعت بإهمال

---

[1] الأستاذ الكبير المرحوم جورجي زيدان منشئ دار الهلال الغرَّاء هو أحد مؤسسي النهضة الصحفية في البلاد العربية، وأحد أساطين رجال العلم والأدب، الذين يرجع إلى مؤلفاتهم ويحتج بآرائهم، وقد توفي سنة ١٩١٤، بعد أن ترك خلفه من التراث العلمي والأدبي ما يكفي لتسجيل اسمه في طليعة سجل المصلحين.

كم هِمَّةٍ دَفَعَتْ جيلاً ذُرا شرفٍ … ونوْمَة هدمتْ بُنيانَ أَجيال

والعلمُ في فضله، أَو في مفاخِره … ركنُ الممالكِ، صدرُ الدولةِ الحالي

إذا مشَتْ أُمّةٌ في العالَمين به … أَبَى لها اللهُ أَنْ تَمشِي بأَغلال

يقِلُّ للعلم عندَ العارفين به … ما تقدِر النفسُ من حُبٍّ وإِجلال

فقِفْ على أَهله، واطلبْ جواهره … كناقدٍ مُمعِنٍ في كفّ لآل

فالعلم يفعل في الأَرواح فاسدُه … ما ليس يفعل فيها طِبُّ دجَّال

ورُبَّ صاحبِ درْسٍ لو وقفْتَ به … رأَيتَ شِبه عليم بينَ جُهَّال

وتسبق الشمسَ في الأمصار حكمتُه … إِلى كهولٍ، وشُبّانٍ، وأَطفال

(زيدانُ)، إِني مع الدنيا كعهدِك لي … رِضَى الصديقِ، مِقِيلُ الحاسدِ القالي

لي دَوْلةُ الشعر دونَ العصر وائِلَةٌ … مَفاخِري حِكَمي فيها وأَمثالي

إنْ تَمْشِ للخير أَو للشر بي قدمٌ … أُشمِّرُ الذَّيْلَ، أَو أَعثُرْ بأَذيالي

وإِنْ لَقِيتُ ابنَ أُنثى لي عليه يدٌ … جَحَدْتُ في جَنْبِ فضلِ اللهِ أَفضالي

وأَشكر الصُّنع في سِري وفي علني … إن الصنائع تزكو عند أَمثالي

وأَتركُ الغيبَ لله العليمِ به … إن الغيوب صناديقٌ بأَقفال

(كأُرْغُنِ) الدَّيْرِ إكثاري ومَوْقِعُه … وكالأَذانِ على الأَسماع إقلالي[3]

رثَيْتُ قبلك أَحبابًا فُجِعْتُ بِهم … ورُحْتُ من فُرقةِ الأَحبابِ يُرثى لي

وما عَلِمْتُ رفيقًا غير مُؤتمنٍ … كالموت للمرءِ في حِلٍّ وترحال

أَرحْتَ بالَك من دنيا بلا خُلُقٍ … أَليس في الموت أَقصى راحةِ البال؟

طالت عليك عوادي الدهرِ في خَشِنٍ … من التُّراب مع الأَيام مُنهال

لم نأْته بأَخٍ في العيش بعدَ أَخٍ … إلاّ تركنا رُفاتًا عندَ غِربال

لا ينفعُ النفس فيه وهْيَ حائرةٌ … إلا زكاةُ النُّهَى، والجاهِ، والمال

ما تصنعِ الْيومَ مِن خيرٍ تَجِدْه غدًا … الخيرُ والشرُّ مِثقالٌ بمثقال

قد أكملَ اللهُ ذيّاك (الهلالَ) لنا … فلا رأَى الدهرَ نقصًا بعدَ إكمال

ولا يَزَلْ في نفوس القارئين؛ له … كرامةُ الصُّحُفِ الأُولَى على التالي

فيه الروائعُ من علمٍ، ومن أَدبٍ … ومن وقائعِ أَيامٍ وأَحوال

وفيه همةُ نفسٍ زانها خُلُقٌ … هما لباغي المعالي خيرُ مِنوال

علَّمْتَ كلَّ نَئُومٍ في الرجال به … أَنّ الحياة بآمالٍ وأَعمال

ما كان من دُوَلِ الإسلام مُنصرِمًا صَـوَّرْتـه، كـلُّ أَيـامٍ بـتـمـثـال
نرى به القوم في عِزٍّ وفي ضِعَةٍ والـمـلـكَ مـا بـيـنَ إِدبـارٍ وإِقـبـال
وما عَرضْتَ على الأَلبابِ فاكهةً كالعلمِ تُبرِزُه في أَحسنِ القال
وَضعْتَ خيرَ (رواياتِ) الحياةِ، فضَعْ روايةَ الموتِ في أَسلوبِها العالي
وصِفْ لنا كيف تجفو الروحُ هَيْكَلَها ويستبد البِلَى بالهيكل الخالي
وهل تَحِنُّ إِليه بعد فُرقته كما يَحِنُّ إِلى أَوطانه الجالي[٤]
هِضابُ لُبنان من منْعاتِكَ اضطَربَتْ كـأَن لـبـنـانَ مَـرْمِـيٌّ بـزلـزال
كذلك الأَرضُ تبكي فَقْد عالِمها كالأُم تبكي ذهابَ النافعِ الغالي

هوامش

(١) الأدراس: جمع درس، وهو الطريق الخفي أو الثوب الخلق. الأطلال: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار. وهذا المطلع الشعري ملآن بالتفجُّع على ما صارت إليه ممالك الشرق في هذه الأيام، فهو يسال مستنكرًا: أهذه ممالك حقًا؟ أم هي آثار ورسوم من ممالك عظيمة كانت موجودة وذهبت؟

(٢) رئبال: أسد.

(٣) الأرغن: آلة موسيقية معروفة.

(٤) الجالي: النازح أو المهاجر.

شهداء العلم والغربة[١]

أَلا في سبيلِ الله ذاكَ الدمُ الغالي ... وللمجدِ ما أَبقَى من المَثَل العالي

وبعضُ المنايا هِمّةٌ من ورائِها ... حياةٌ لأَقوامٍ، ودُنيا لأَجيال

أَعَيْنَيَّ، جودا بالدموع على دمٍ ... كريمِ المُصَفَّى من شبابٍ وآمال

تناهَتْ به الأَحداثُ من غُربةِ النَّوَى ... إِلى حادثٍ من غُربةِ الدهرِ قتَّال

جرى أَرجُوانيًّا، كُمَيْتًا، مُشَعْشَعًا ... بأَبيضَ من غِسْل الملائِكِ سَلْسَال[١]

ولاذ بقُضبانِ الحديدِ شَهيدُه ... فعادَتْ رَفيفًا من عيونٍ وأَطلال

سلامٌ عليه في الحياةِ، وهامدًا ... وفي العُصُرِ الخالي، وفي العالَمِ التالي

خَليلَيَّ، قُوما في رُبَى الغربِ، واسقيا ... رَياحينَ هامٍ في التراب، وأَوْصال[٢]

من الناعماتِ الراوياتِ من الصبِّا ... ذوت بينَ حِلٍّ في البلاد وتَرحال

نعاها لنا الناعي، فمال على أَبٍ ... هَلوعٍ، وأُم (بالكنانةِ) مِثكال

طَوَى الغربَ نحوَ الشرقِ يَعْدُو سُلَيْكُهُ ... بمضْطَرِبٍ في البرِّ والبحرِ، مِرْقال[٣]

يُسِرُّ إِلى النفسِ الأَسَى غيرَ هامسٍ ... ويُلقِي على القلبِ الشَّجَي غيرَ قَوَّال

[١] شهداء العلم والغربة: هم طائفة من شباب مصر سافروا لتلقي العلم في جامعات أوربا، فاصطدم القطار الذي يقلُّهم من أرض إيطاليا؛ فقتل أحد عشر طالبًا وجيء بهم إلى مصر، فاستقبلت جثثهم استقبالاً رهيبًا، فاشتركت في جنازتهم جميع طوائف البلاد، ومما كان يزيد الهول في هذا المصاب حدوثه والبلاد مشتعلة بثورتها في سنة ١٩٢٠.

سماءُ الحِمَى بالشاطِئيْنِ وأَرضُه … مناحةُ أَقمارٍ، ومَأْتَمُ أَشبال
تُرَى الريحُ تدرِي: ما الذي قد أَعادها … بساطًا، ولكن من حديدٍ وأَثقال؟
يُقِلُّ من الفِتْيَانِ أَشبالَ غابةٍ … غُداةً على الأَخطار رُكَّابَ أَهوال
ثَنَتْهُ العوادي دونَ (أَودِينَ)، فانثَنى … بآخَرَ من دُهْمِ المقاديرِ ذَيّال[٤]
قد اعتَنقا تحتَ الدّخانِ كما التقَى … كَمِيّان في داجٍ من النقْعِ مُنجال[٥]
فسبحانَ مَنْ يَرْمِي الحديدَ وبأْسَه … على ناعم غَضٍّ من الزهر مِنهال
ومَنْ يَأْخذُ السارين بالفجرِ طالعًا … طُلوعَ المنايا من ثَنِيَّات آجال[٦]
ومَن يَجعلُ الأَسفارَ للناس هِمّةً … إِلى سَفَرٍ يَنْوُونَه غيرَ قُفَّال
فيا ناقِليهم، لو تركتم رفاتَهم … أَقام يتيمًا في حِراسةِ لآل[٧]
وبينَ (غَريبالْدى) و(كافورَ) مَضْجَعٌ … لنُزَّاعِ أَمصارٍ على الحقِّ نُزَّال[٨]
فهل عَطَفتْكم رَنّةُ الأَهْلِ والحِمَى … وضَجَّةُ أَترابٍ عليهم وأَمثال؟
لئن فاتَ مصرًا أَن يموتوا بأَرضها … لقد ظَفِرُوا بالبَعْث من تُرْبِهَا الغالي
وما شَغلَتْهُمْ عن هَواها قِيامةٌ … إِذا اعتَلَّ رَهْنُ المحبِسَيْنِ بأَشغال[٩]
حَمَلْتُم من الغرب الشموسَ لمشرق … تَلَقَّى سناها مُظلمًا كاسِفَ البال
عواثرَ لم تَبلغْ صِباها، ولم تَنَلْ … مَدَاها، ولم تُوصَلْ ضُحاها بآصال
يُطافُ بهم نَعْشًا فنعشًا، كأَنهمْ … مَصاحِفُ لم يَعَلُ المُصَلِّي على التالي[١٠]
تَوابيتُ في الأَعناقِ تتْرَى زكيَّةً … كتابوتِ موسى في مَناكب إِسْرال[١١]
مُلفَّفةً في حُلَّةٍ شَفقِيَّةٍ … هِلاليةٍ من رايةِ النيلِ تِمثال
أَظَلَّ جلالُ العلم والموتِ وَفدَها … فلم تُلْقَ إلا في خُشوعٍ وإِجلال
تُفارِقُ داراً من غُرورٍ وباطِلٍ … إِلى مَنزل من جِيرَةِ الحقِّ مِحْلال
فيا حَلَبَةً رَفَّتْ على البحر حِلْيَةً … وهزّتْ بها (حُلوانُ) أَعطافَ مُختال[١٢]
جَرَتْ بين إِيماضِ العواصمِ بالضُّحى … وبينَ ابتسامِ الثَّغرِ بالموكِبِ الحالي
كثيرةَ باغي السبقِ لم يُرَ مِثلُها … على عهدِ إِسماعيلَ ذي الطَّوْلِ والنال[١٣]
لكِ اللهُ؛ هذا الخطبُ في الوهم لم يَقَعْ … وتلك المنايا لم يَكُنَّ على بال
بَلَى، كلُّ ذي نَفسٍ أَخو الموتِ وابنُه … وإِن جَرَّ أَذيالَ الحداثةِ والخال
وليس عجيبًا أَن يموتَ أَخو الصِّبا … ولكن عجيبٌ عَيْشُهُ عِيشةَ السالي
وكلُّ شبابٍ أَو مَشيبٍ رَهينةٌ … بمُعترِضٍ من حادثِ الدهرِ مُغتال

وما الشيبُ من خَيْلِ العُلا؛ فاركَبِ الصِّبا إلى المجدِ تركَبْ مَتْنَ أَقدرِ جَوّال
يَسُنُّ الشبابُ البأْس والجودَ للفتى إذا الشيْبُ سَنَّ البخلَ بالنفس والمال
ويا نشء النيلِ الكريمِ، عزاءَكم ولا تذكروا الأَقدارَ إلا بإِجمال
فهذا هو الحقُّ الذي لا يرُدُّه تأَفُّفُ قالٍ، أَو تلطُّفُ مُحتال[١٤]
عليكم لواءَ العلم؛ فالفوزُ تحتَهُ وليس إذا الأَعلام خانت بخذَّال[١٥]
إذا مالَ صفٌّ فاخلفوه بآخَرٍ وَصولِ مَساعٍ، لا ملولٍ، ولا آل[١٦]
ولا يصلُحُ الفِتيانُ لا علمَ عندَهم ولا يجمعون الأَمر أَنصاف جُهَّال
وليس لهم زادٌ إذا ما تزوَّدوا بيانًا جُزَاف الكيل كالحشَفِ البالي[١٧]
إذا جَزِعَ الفتيانُ في وَقْع حادثٍ فمَنْ لجليلِ الأَمرِ أَو مُعْضِلِ الحال؟
ولولا مَعانٍ في الفِدَى لم تُعانِهِ نُفوسُ الحواريّين أَو مُهجُ الآل[١٨]
فَعَنُّوا بهاتيك المصارعِ بينَكم ترَنُّمَ أَبطالٍ بأَيام أَبطال
أَلستم بَني القومِ الذين تكبَّروا على الضربات السّبعِ في الأَبدِ الخالي؟[١٩]
رُدِدْتُم إلى فِرْعَوْنَ جَدًّا، ورُبَّما رجعتم لعمٍّ في القبائل أَو خال

هوامش

(١) الأرجواني: منسوب إلى الأرجوان، وهو صبغ أحمر يشبه به الدم لشدَّة حمرته. الكميت: حمرة يخالطها السواد. معنى المشعشع: الممزوج بالماء. الغسل (بكسر الغين): ما يغسل به. يصف دم هؤلاء الشهداء بأنه يجري أحمر مشوبًا بسواد ممزوجاً بلون أبيض، كأنه الماء السلسال الذي أصابه من غسل الملائكة.

(٢) الأوصال: الأعضاء.

(٣) سليك: رجل من العرب اشتهر بقوة الجري ويضرب به المثل في السرعة؛ أراد تشبيه الناعي به. مرقال: سريع.

(٤) دُهْم: جمع أدهم، وهو الأسود. ذيَّال: طويل الذيل، والذيل من كل شيء: آخره، ومن الفرس: ذنبه.

(٥) كميان: مثنى كمي، وهو الشجاع المتكمي، أي المتغطي في سلاحه، النقع: الغبار.

(٦) الثنيات: قمم الجبال.

(٧) يريد باليتيم: اللؤلؤ. واللآل بائع اللآلئ وصائدها وصانعها.

(٨) غريبالدى وكافور: بطلان من أبطال الحركة الاستقلالية في إيطاليا.

(٩) رهن المحبسين: أول ما أطلق هذا التعبير كان يطلق على أبي العلاء المعري، والمحبسان هما العمى ولزومه البيت.

(١٠) المصلي: هو الذي يجيء أول الخيل في السبق، التالي: هو الذي يجيء تاليًا له.

(١١) تابوت موسى: هو الذي وضع فيه سيدنا موسى وألقي في البحر، فالتقطه آل فرعون وقاموا على تربيته حتى كبر. إسرال: أي إسرائيل.

(١٢) الحلبة: الخيل التي تجمع للسباق. حلوان: اسم الباخرة التي أقلت رفات الشهداء في عودتهم إلى مصر.

(١٣) النال: العطاء. وفي هذا البيت إشارة إلى السباق الذي كان يقام في مدينة حلوان في عهد إسماعيل باشا.

(١٤) قالٍ: مبغض.

(١٥) عليكم لواء العلم: أي الزموا أو التزموا.

(١٦) آلٍ: من قولهم: هو لا يألو جهدًا.

(١٧) الحشف البالي: التمر اليابس.

(١٨) الحواريون: أصحاب عيسى. والآل: أصحاب محمد صلوات الله عليهما.

(١٩) الضربات السبع: يشير إلى نوازل سماوية امتحن الله بها قدماء المصريين، ويريد بالأبد: الزمن القديم المديد.

سعيد زغلول بك[١]

آل (زغلولَ)، حَسْبُكم من عزاءٍ / سُنَّةُ الموتِ في النَّبِيِّ وآلِه

في خِلالِ الخطوبِ ما راع إلا / أَنها دون صبركم وجَمالِه

حَمل الرُّزْءَ عنكمُ في (سعيدٍ) / بلدٌ شيخُكم أَبو أَحماله[١]

قد دهاهُ من فقْدِه ما دهاكم / وبكى ما بكيْتُمُ من خِلاله

فكما كان ذُخْركم ومُناكم / كان من ذُخْرِه ومن آماله

ليت منْ فكَّ أَسرَكم لم يَكِلْه / للمنايا تمدُّه في اعتقاله

حجبتْ من ربيعِه ما رجوْتم / وطوَتْ رحلة العُلا من هلاله

آنسَتْ صحّةً فمرَّت عليها / وتخطَّتْ شبابَه لم تُباله

إنما مِنْ كِتابِه يُتَوَفَّى المر / ءُ، لا مِنْ شبابِه واكتهاله

لست تدري الحِمامُ بالغاب هل حا / مَ على اللَّيْثِ، أَم على أَشباله

يا (سعيدُ) اتَّئِدْ، ورِفْقًا بشيخٍ / والِهٍ من لواعج الثُّكل واله[٢]

ما كفاه نوائبُ الحقِّ حتى / زِدْتَ في هَمِّه وفي إِشغاله

فَجأَ الدهرُ، فاقتضبْتُ القوافي / من فُجاءَاته وخَطْفِ ارتجاله

قُمْ فشاهدْ لو استطعْتَ قِيامًا / حَسرَةَ الشعرِ، والْتِياعَ خياله

---

[١] تفتَّح شباب سعيد بك زغلول عن رجولة ممتازة، وبشَّر طالعه عن طالع عظيم ولكنه لم يكد يؤتي ثمره حتى اقتطفه الموت، فقضى سنة ١٩٢٢ وكان خاله سعد باشا زغلول متبنيًا له.

كان لي منك في المجامع راوٍ عَجَز (ابنُ الحسين) عن أَمثاله[3]
فطِنٌ للصَّحاح من لُؤلُؤِ القو لِ، وأَدرَى بهنّ مِنْ لأَآله[4]
لم يَكُنْ في غُلُوِّهِ ضيق الصَّد رِ، ولا كان عاجزًا في اعتداله
لا يُعادى، ويُتَّقى أَن يُعادَي ويُخلِّي سبيلَ منْ لم يُواله
فامْضِ في ذمةِ الشبابِ نقيًّا طاهرًا ما ثَنيْت من أَذياله
إنّ للعصر والحياةِ لَلُومًا لستَ مِنْ أَهلِه ولا مِنْ مَجاله
صانكَ اللهُ من فسادِ زمانٍ دَنَّسَ اللومُ مِن ثيابِ رِجاله
سيقولون: ما رثاه على الفضـ ـل، ولكنْ رَثاه زُلْفَى لخاله
أَيُّهم مَنْ أَتَى برأْس كُلَيْبٍ أَو شَفَى القُطْرَ من عَياءِ اختلاله؟
ليس بيني وبين خالِكَ إلا أَنني ما حَيِيتُ في إِجلاله
أَتمنَّى لمصرَ أَن يَجرِيَ الخيـ ـرُ لها مِن يَمينه وشِماله
لسْتُ أَرجوه كالرجال لصَيْدٍ من حَرامِ انتخابِهم أَو حَلاله
كيف أَرجو (أَبا سعيدٍ) لشيء كان يُقْضَى بكُفره وضلاله؟!
هو أَهلٌ لأَنْ يرُدَّ لقومي أَمْرَهم في حقيقة استقلاله
وأَنا المرءُ لم أَرَ الحقَّ إلا كنْتُ مِن حزْبِه ومن عُمَّاله
رُبَّ حرٍّ صَنعْتُ فيه ثناءً عجزَ الناحتون عن تمثاله[5]

هوامش

(١) شيخكم أبو أحماله: هو الزعيم سعد باشا. والبلد: مصر.

(٢) الواله: الذي ذهب عقله أو كاد من شدَّة الوجد.

(٣) ابن الحسين: الشاعر المتنبي: وراوي الشعر وراويته: الذي يروي الشعر ويحفظه.

(٤) اللآل: صانع اللؤلؤ وبائعه.

(٥) يقول: إنني كثيرًا ما أصنع للأحرار قصائد ثناء، فتقوم في تصويرهم وتخليد أشكالهم ومزاياهم مقام التماثيل التي تعجز المثالين الناحتين أن يصنعوا مثالها.

أمين بك الرافعي[1]

مال أَحبابُه خليلاً خليلا ... وتولَّى اللِّداتُ إلا قليلا
نَصلوا أَمسِ من غُبار الليالي ... ومضى وحدَه يَحُثُّ الرحيلا[1]
سكَنتْ منهم الركابُ، كأَن لم ... تضطربْ ساعةً ولم تَمْضِ مِيلا
جُرِّدوا من مَنازِلِ الأَرضِ إلا ... حَجَرًا دارِسًا ورَملاً مَهيلا[2]
وتَعَرَّوْا إِلى البِلَى، فكساهم ... خُشْنةَ اللَّحدِ والدُّجى المسدولا
في يَبابٍ من الثرى رَدَّه المو ... تُ نقيًّا من الحقودِ غَسيلا[3]
طَرَحوا عندَه الهمومَ، وقالوا ... إِن عِبْءَ الحياةِ كان ثقيلا
إِنما العالَمُ الذي منه جئنا ... مَلعبٌ لا يُنوِّع التمثيلا
بطلُ الموتِ في الرواية ركنٌ ... بُنِيَتْ منه هيكلاً وفصولا
كلَّما راح أَو غدا الموتُ فيها ... سَقط السِّترُ بالدموع بَليلا
ذكرياتٌ من الأَحبَّةِ تُمحَى ... بِيَدٍ للزمان تَمحو الطُّلولا
كلُّ رسمٍ من منزلٍ أَو حبيبٍ ... سوف يمشي البِلَى عليه مُحيلا

[1] أمين بك الرافعي، كان كاتبًا سياسيًا عظيمًا، وكان في الصحفيين السياسيين يعدُّ مثالاً عاليًا، لطهارة الذمَّة، ونبل الغاية، ونزاهة الضمير، وله في تمسُّكه برأيه وصلابته على الحق الذي يعتقده مواقف تضحية، لا يصبر عليها إلا من وطَّن نفسه على احتمال جميع مكاره الحياة، وقد وقف حياته منذ نشأته على خدمة القضية المصرية، وظل مجاهدًا في سبيل استقلال مصر حتى مات في سنة ١٩٢٦.

رُبَّ ثُكْلٍ أَساكَ مِن قُرْحةِ الثُّكْـ | ـلِ، ورُزءٍ نسَّاك رُزْءًا جليلا
يا بَناتِ القَريضِ، قُمْنَ مَناحا | تٍ، وأَرْسِلْنَ لَوْعةً وعَويلا
من بَناتِ الهَدِيلِ أَنْتُنَّ أَحْنَى | نغمة في الأَسى، وأَشجى هَديلا[٤]
إن دمعًا تَذْرِفْنَ إثرَ رِفاقي | سوف يَبْكِي به الخليلُ الخليلا
رُبَّ يومٍ يُناحُ فيه علينا | لو نُحِسُّ النُّواح والترتيلا
بمَراثٍ كَتَبْنَ بالدمع عنّا | أَسطُرًا من جوًى، وأُخْرَى غليلا
يَجِدُ القائلون فيها المعاني | يومَ لا يأْذن البِلى أَن نَقولا
أَخذ الموتُ من يدِ الحقِّ سَيفًا | خالِديَّ الغِرارِ، عَضْبًا، صقيلا[٥]
من سيوف الجهادِ فُولاذُهُ الحـ | ـقُّ، فهل كان قَيْنُه جِبريلا؟[٦]
لمسته يدُ السماءِ، فكان الـ | ـبَرْقَ والرعدَ خَفْقَةً وصَليلا
وإباءُ الرجالِ أَمضَى من السيـ | ـفِ على كفِّ فارسٍ مَسلولا
رُبَّ قلبٍ أَصارَه الحُلْقُ ضِرْغا | مًا، وصدرٍ أَصارَه الحقُّ غِيلا[٧]
قيلَ: حَلَّلْهُ. قُلْتُ: عِرقٌ من التِّـ | ـبْرِ أَراحَ البيانَ والتَّحليلا
لم يَزِدْ في الحديد والنارِ إلا | لَمحةً حُرَّةً، وصبرًا جميلا
لم يَخَفْ في حياته شَبَح الفقـ | ـرِ إذا طاف بالرجال مَهولا
جاعَ حِينًا، فكان كاللَّيْثِ آبَى | ما تُلاقيه يومَ جُوعٍ هَزيلا
تأْكل الهِرَّةُ الصِّغارَ إذا جا | عَتْ، ولا تأْكل اللَّباةُ الشُّبولا
قِيلَ: غالٍ في الرأْي. قُلتُ: هَبوهُ | قد يكون الغُلُوُّ رأْيًا أَصيلا
وقديمًا بَنَى الغُلُوُّ نُفوسًا | وقديمًا بَنَى الغلُوُّ عُقولا
وكم استنهضَ الشيوخَ، وأَذكى | في الشباب الطِّماحَ والتأْميلا
ومِنَ الرأيِ ما يكونُ نِفاقًا | أَو يكونُ اتجاهُه التضليلا
ومن النقدِ والجِدالِ كلامٌ | يُشبه البَغْيَ، والخَنا، والفُضولا
وأَرى الصدقَ دِيْدَنًا لسَلِيل الـ | ـرافعيِّينَ والعَفافَ سَبيلا
عاش لم يَغْتَبِ الرجالَ، ولم يَجْـ | ـعَلْ شئونَ النفوسِ قالاً وقِيلا
قد فقدنا به بقيَّة رَهْطٍ | أَيقظوا النيلَ وَادِيًا ونَزيلا
حَرَّكوهُ، وكان بالأَمس كالكهـ | ـفِ حُزونًا، وكالرَّقِيم سُهولا[٨]
يا أَمينَ الحقوقِ، أَدَّيْتَ حتى | لم تَخُنْ مصرَ في الحقوق فَتيلا

ولوِ اسْطعْتَ زِدْتَ مصرَ من الحـ ــقِّ على نيلها المباركِ نيلا
لَسْتُ أنساكَ قابعًا بين دُرْجَيْـ ــكَ مُكبًّا عليهما مَشغولا
قد تواريتَ في الخُشوع، فخالو كَ ضئيلاً، وما خُلِقْتَ ضئيلا
سائل (الشعبَ) عنك، و(العَلَمَ) الخـ ــفَّاقَ، أَو سائل اللواءَ الظليلا[9]
كم إِمامٍ قربْتَ في الصفِّ منه ومُغَنٍّ قَعَدْت منه رَسيلا؟
تُنْشِدُ الناسَ في القَضيَّة لَحْنًا كالحواريِّ رَتَّل الإِنجيلا
ماضيًا في الجهاد لم تتأَخَّر تَزِنُ الصفَّ، أَو تُقيم الرَّعيلا[10]
ما تبالي مَضيْتَ وحدَكَ تَحْمِي حَوْزَةَ الحق، أَم مضَيْتَ قَبيلا
إِن يَفُتْ فيكَ مِنْبَرَ الأَمسِ شِعري إِن لي المنبرَ الذي لن يزولا
جلَّ عن مُنْشِدٍ سِوَى الدهرِ يُلْقيـ ــهِ على الغابرين جيلاً فجيلا

هوامش

(١) نصلوا من غبار الليالي، تعبير كنائي عن الموت؛ إذ غبار الليالي عبارة عن أحداثها، وليس في إمكان الحي التنصُّل من هذه الأحداث إلا بالموت. يقول إن أحبابه وخلانه سبقوه، وتنصلوا من الدنيا وحوادثها، وها هو ماضٍ على أثرهم مسرعًا، ليلحق بهم، وينصل من بلاء الدنيا كما نصلوا.

(٢) يصف خروج الناس من الدنيا وليس في أيديهم من ممتلكاتها إلا الحجر الموضوع تحت رءوسهم، والتراب المهيل فوق قبورهم، فكأنه يقول: ليت شعري لِمَ يتقاتل الناس، ويتكالبون على بناء القصور وشراء الضياع، وهم إذا ماتوا لا يصحبهم من هذه الممتلكات إلا حجر واحد وحفنات من تراب تداري جسومهم وتواري رممهم.

(٣) اليباب: الخراب. يقول: إن هذا اليباب الذي نسمِّيه بالمقابر موضع نقاه الموت من الأكدار، وغسله من الأحقاد، فهو من أجل ذلك صار أروح للأرواح عن المواضع الآهلة بالعمران.

(٤) الهديل: الحمام. وصوت الحمام، والهديل أيضًا: فرخ قالوا إنه كان على عهد نوح، فصاده جارح من جوارح الطير، فليس من حمامة إلا وهي تبكي عليه.

(٥) العضب: السيف، الغرار: حدُّ السيف. وقوله: «خالدي» نسبة إلى خالد بن الوليد. الصقيل: المصقول.

(٦) القين هو الحداد الذي يصنع السيوف.

(٧) الضرغام: من أسماء الأسد. الغيل: موضع الأسد.

(٨) الكهف: كالبيت المنقور في الجبل. الرقيم: يقال هو الكتاب، وإذن فيكون تشبيهه سهول النيل بالرقيم؛ معناه أنها كانت وقتئذ مبسوطة خالية مهيأة لأن يخط فوقها حروف الحياة الأولى. ولو سُئِلَ أحد الحكماء ما هي الحروف الأولى للحياة؟ لأجاب على الفور: هي اليقظة. ولعمري إن ربة الحكمة إذن هي التي ألهمت أمير الشعراء قوله في البيت السابق: «أيقظوا النيل واديًا ونزيلا» ففي تصورُّه الذهني لمعنى اليقظة سبق خياله إلى تشبيه سهول وادي النيل بالرقيم.

(٩) الشعب، والعلم، واللواء: أسماء صحف كان الفقيد يحرِّرها مناضلاً فيها عن مبادئه.

(١٠) الرعيل: طائفة من الخيل. والمراد أنه كان في جيش المجاهدين في القضية المصرية يقوِّم الصفوف إذا مالت، ويردُّ الطوائف إذا نفرت.

الشيخ سلامة حجازي[١]

يا ثَرَى النيلِ، في نَواحيك طيرٌ ... كان دنيا، وكان فرحةَ جِيلِ

لم يَزَلْ يَنْزلُ الخمائلَ حتى ... حلَّ في رَبْوَةٍ على سَلسبيل

أَقعد الرَّوْضَ في الحياة مَلِيًّا ... وأَقامَ الرُّبَى بسِحْر الهَديل[١]

يا لِواءَ الغناءِ في دَوْلةِ الفـ ... ـن، إِليكَ اتجهتُ بالإكليل

عبقريًّا كأَنه زَنْبَقُ الخُلْـ ... ـدِ على فَرْعِه السَّرِيِّ الأَسيل[٢]

أَينَ مِنْ مَسْمَع الزمانِ أَغانـ ... ـيُّ عليهنَّ رَوْعةُ التمثيل؟

أَين صَوتٌ كأَنه رَنّةُ البلبـ ... ـلِ في الناعم الوَريفِ الظليل؟

فيه من نَغْمةِ المزامِير مَعنًى ... وعليه قَداسةُ الترتيل

كلَّما رَنَّ في المسارحِ «إِن كنـ ... ـتُ» انثنَى بالهُتاف والتهليل[٣]

كعِتاب الحبيب في أُذْنِ الصـَّ ... ـب، وهَمْسِ النديمِ حولَ الشَّمول[٤]

كيف إِخوانُنا هناك على الكَوْ ... ثَر بينَ الصَّبا وبينَ القبول؟[٥]

كيف في الخُلد ضَرْبُ أَحمدَ بالعو ... دِ، ونفخُ الأَمين في الأَرغول؟[٦]

---

[١] بلغ الشيخ سلامة حجازي أعلى قمم المجد في فن الغناء والتمثيل في عصره، وقد رؤي أن يعترف له بهذا النبوغ اعترافًا عمليًا. فتألفت جماعة من أهل الفضل واتَّفقوا على نقل جثمانه إلى ضريح يتناسب وهذا التقدير، ورأوا من أفضل الوسائل لهذه الغاية أن يقيموا حفلة تذكارية تمجيداً الذكرى الفقيد، وتم لهم ذلك، وأقيمت الحفلة في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ وأنشدت فيها هذه القصيدة العصماء.

فـرَحٌ كُـلُّـهُ الـنـعـيـمُ وعُـرْسٌ كيف (عثمانُ) فيه كيف (الحَمُولي)؟[٧]
فـهـنـيـئًـا لـكـم ونـعـمـةُ بـالٍ استَـرحـتـم مـن ظِـل كـلِّ ثَـقـيـل
إنــمــا مَــنــزلٌ رُفــاتُــك فــيــه لَـبـقـايـا مـن كـل فـنٍّ جـمـيـل
ذَبُـلَـتْ فـي ثَـراهُ رَيْـحـانـةُ الـفــ ــنِّ، وجَـفَّـتْ رَيْـحـانـةُ الـتـمـثـيـل
قـام يَـجْـزِي (سـلامـةً) فـي ثَـراه وطـنٌ بـالـجـزاءِ غـيـرُ بَـخـيـل
قـد يُـوفِـي الـبِـنـاءَ والـغـرْسَ أَجـرًا ويُـكـافِـي عـلـى الـصَّـنـيـعِ الـجـلـيـل
مُـحسنٌ بـالـبنينَ في حاضرِ الـعَيْــ ــشِ، وفـي سـالـفِ الـزمـانِ الـطـويـل
ويُـعِـدُّ الـضَّـريـحَ مـن مَـرْمَـرِ الـخُـلــ ــدِ الـكـريـمِ الـمـهـذَّبِ الـمـصـقـول[٨]
يدفنُ الـصـالـحـيـن فـي وَرَقِ الـمُـصْــ ــحَـفِ، أَو فـي صـحـائـف الإنـجـيـل
مـصـرُ فـي غَـيـبـةِ الـمُـشـايـعِ، والـحـا سـدِ، والـحـاقـد الـلَّـئـيـمِ الـذَّلـيـل
قـامـت الـيـومَ حـولَ ذِكـراك تَـجـزِي وطـنـيًّـا مـن الـطِّـراز الـقـلـيـل
مـن رجـالٍ بَـنَـوْا لـمـصـر حـديـثًـا وأَذاعـوا مَـحَـاسِـنًـا لـلـنـيـل
هـم سُـقـاةُ الـقـلـوبِ بـالـوُدِّ والـصَّـفْــ ــوِ، وهـم تـارةً سُـقـاةُ الـعـقـول
لـيـس مـنـهـم إلا فَـتًـى عـبـقـريٌّ لـيـس فـي الـمـجـد بـالـدَّعـي الـدخـيـل

هوامش

(١) الهديل: الصوت الحسن الذي يشبه صوت الحمام.

(٢) السري: الجدول.

(٣) إن كنت، يشير إلى أن الفقيد قد ذاعت من أغانيه قصيدة مطلعها:

إن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم فـإنـنـي فـي هـواكـم صـاحـب الألـم

(٤) الشمول: الخمر.

(٥) الصَّبا: ريح مهبها من جهة المشرق وهي من ألطف الرياح.

(٦) أحمد: اسم أحد المعاصرين، اشتهر بضرب العود، وأمين: معاد. آخر اشتهر بالأرغول.

(٧) عثمان: هو محمد عثمان، وكان من المغنين الكبار. والحمولي: هو عبده الحمولي.

(٨) الضريح: هو البناء الذي اتَّفقت لجنة إحياء ذكرى الفقيد على صنعه من المرمر المصقول ليدفن فيه جثمان الفقيد تكريمًا له.

أدهم باشا[1]

مُصابُ بَنِي الدنيا عظيمٌ (بأَدهمِ) ... وأَعظمُ منه حَيْرَةُ الشعرِ في فَمي

أَأَنطقُ والأَنباءُ تَتْرَى بطيِّبٍ ... وأَسكُتُ والأَنباءُ تَتْرَى بمؤلم؟

أَتَيْتُ بغالٍ في الثَّناءِ مُنَضَّدٍ ... فمَنْ لي بِغالٍ في الرِّثاءِ مُنظَّم؟

عَسى الشعرُ أَن يَجْزِي جَريئًا، لفقدِه ... بَكى التركُ واليونانُ بالدمع والدَّم

وكم مِنْ شُجَاعٍ في العِداةِ مُكرَّمٍ ... وكم مِنْ جَبانٍ في اللِّداتِ مُذمَّم

وهل نافعٌ جَرْيُ القَوافي لغايةٍ ... وقد فَتَكَتْ دُهْمُ المنايا بأَدهم؟[1]

رمَتْ فأَصابت خيرَ رامٍ بها العِدَى ... وما السَّهمُ إلا للقضاءِ المحتَّم

فتًى كان سيفَ الهندِ في صورةِ امرئٍ ... وكان فتى الفتيانِ في مَسْكِ ضيْغَم[2]

لَحاهُ على الإقدام حُسَّادُ مَجْدِهِ ... وما خُلِقَ الإقبالُ إلاّ لمُقْدِم

مُزعْزِعُ أَجيالٍ، وغاشِي مَعاقلٍ ... وقائدُ جَرّارٍ، ومُزْجِي عَرَمْرَم[3]

سلوا عنه (ميلونا) وما في شِعابه ... وفي ذِرْوَتَيْهِ مِنْ نُسورٍ وأَعْظُم

لَيَاليَ باتَ الدِّينُ في غير قَبضةٍ ... وزُلْزِلَ في إِيمانه كلُّ مُسْلِم

وقال أُناسٌ: آخرُ العهدِ بالملا ... وهَمَّتْ ظنونٌ بالتُّراثِ المُقَسَّم[4]

فأَطْلَعَ للإسلام والمُلْكِ كوكبًا ... من النصر في داجٍ من الشك مُظلِم

---

[1] أدهم باشا: هو القائد التركي الذي اشتهر في الحروب العثمانية اليونانية.

ورحنا نُباهي الشرق والغربَ عِزَّةً وكُنَّا حديثَ الشامتِ المترحِّم
مَفاخرُ للتاريخ تُحْصَى لأدهم ومَنْ يُقْرِضِ التاريخَ يَرْبَحْ ويَغْنَم
أَلا أَيُّها الساعونَ، هل لَبِسَ الصَّفا سَوادًا، وقد غَصَّ الوُرودُ بزَمْزَم؟
وهل أَقبلَ الرُّكبانُ يَنْعَوْنَ (خالدًا) إلى كلِّ رامٍ بالجِمارِ ومُحْرِم؟
وهل مَسجدٌ تَتْلُونَ فيه رِثاءَه؟ فكم قد تَلَوْتُم مَدْحَهُ بالترنُّم!
وكان إذا خاضَ الأَسِنَّةَ والظُّبى تَنحَّتْ إلى أَن يَعْبُرَ الفارسُ الْكَمِي
ومَنْ يُغْطَ في هذي الدَّنِيَّةِ فُسْحَةً يُعَمَّرْ وإن لاقَى الحروبَ ويَسْلم
(عليٌّ) أَبو الزَّهراءِ داهيَةُ الوغَى دهاهُ ببابِ الدَّارِ سيفُ ابن مُلْجَم
(فروق)، اضْحكِي وابْكِي فَخارًا ولَوْعةً وقُومِي إلى نعش الفقيدِ المعظَّم
كأُمِّ شَهيدٍ قد أَتاها نَعِيُّهُ فخفَّتْ له بينَ البُكا والتبسُّم
وخُطِّي له بينَ السلاطينِ مَضجعًا وقبرًا بجنبِ الفاتح المتقدِّم
بَخِلْتِ عليه في الحياةِ بموكبٍ فتُوبى إليه في الممات بمأْتم
ويا داءُ، ما أَنصَفْتَ إذْ رُعْتَ صدرَهُ وقد كان فيه الملكُ إن رِيعَ يَحتمِي
ويا أَيها الماشونَ حولَ سَريرِه أَحَطْتُم بتاريخِ فَصيحِ التكلُّم
ويا مصرُ، مَنْ شَيَّعْتِ أَعْلَى همامةً وأَثْبَتُ قلبًا مِنْ رَواسِي المقطَّم
ويا قومُ، هذا مَنْ يُقام لمثله مثالٌ لباغي قُدْوَةٍ مُتعلِّم
ويا بحرُ، تدري قدرَ مَنْ أَنتَ حاملٌ؟ ويا أَرضُ، صونيه، ويارَبِّي، ارْحَمِ

هوامش

(١) دُهْم المنايا: أي سود المنايا.

(٢) المسك (بفتح الميم): الجلد. والضيغم: الأسد.

(٣) العرمرم: الجيش الكبير.

(٤) الملأ: الجماعة، ويريد بها الدولة العثمانية. والتراث المقسَّم: البلاد التابعة للدولة في ذلك الوقت.

عثمان باشا الغازي[١]

هالةٌ للهلالِ فيها اعتصامُ ... كيف حامَتْ حِيالَها الأَيَّامُ؟

دخلتْها عليكَ (عثمانُ) في السلـ ... ـم، وقد كنتَ في الوَغَى لا تُرام

وإذا الداءُ كان داءَ المنايا ... صعَّبَتْهُ لأَهلِها الأَحلام

فبرغم (المُشيرِ) أن يَتَوَلَّى ... والخطوبُ المُرَوِّعاتُ جِسام

ويدُ الملكِ تستجيرُ يَدَيْهِ ... والسرايا تدعوه، والأعلام

وبنوه يرجونه وهُمُ الجُنـ ... ـدُ، وهم قادةُ الجنودِ العِظام

مثَّلَتْهم صِفاتُه للبرايا ... رُبَّ فردٍ سادت به أَقوام

بطلَ الشرقِ، قد بَكتْك المعالي ... ورثاك الوَلِيُّ والأَخصام

خَذَل الملكَ زندُه يوم أَوْدَيْـ ... ـتَ، وأَهوَى من راحَتَيْهِ الحُسام

ودَهَى الدينَ والخلافةَ أَمرٌ ... فادحٌ، رائعٌ، جليلٌ، جُسام

علمُ العصر والممالكِ وَلَّى ... وقليلٌ أمثالُه الأَعلام

سَلْ (بلفنا): أَكنتَ تُدْرَكُ فيها ... ولَو أَنّ المحاصِرين الأَنام

خَيَّم الروسُ حولَ حِصْنِكَ، لكن ... أَين مِنْ هامَةِ السِّماكِ الخِيام؟

وأَحاطت بعزمك الجندُ، لكن ... عزمُك الشُّهْبُ، والجنودُ الظلام

---

[١] هو قائد تركي كبير، اشتهر في الحروب العثمانية الروسية.

كلَّما جَرَّدَ (المُحاصِرُ) سيفًا ... قطع السيفَ رأْيُكَ الصَّمصام
وإذا كانت العقولُ كِبارًا ... سَلِمت في المَضايق الأَجسام
وعجيبٌ لا يأْخذُ السيفُ منكم ... ويَنال الطَّوَى، ويُعْطَى الأُوَامُ
فخرجتم إلى العِدا لم تُبالوا ... ما لأُسْدٍ على سُغوب مُقام
تَخرقونَ الجيوشَ جيشًا فجيشًا ... مِثلَما يَخرقُ الخَوَاءَ الغَمام
والمنايا مُحيطةٌ، وحصونُ الرُّ ... وسِ تَحْمِي الطريقَ والأَلغام
ولِنارِ العدوِّ فيكم قُعودٌ ... ولِسيفِ العدوِّ فيكم قِيام
جُرِحَ الليثُ يومُ ذاكَ، فخان الـ ... ـجيشَ قلبٌ، وزُلزِلَتْ أَقدام
ما دفَعْتَ الحُسامَ عجزًا، ولكن ... عَجَّزتَ ضَيْغَمَ الحروبِ الكلام
فأَعادوه خيرَ شيء أَعادوا ... وكذا يَعرِفُ الكرامَ الكِرام
فتقلَّدتَه وكنتَ خليقًا ... سَلَبَتْنا كلَيْكُما الأَيام
ما لها عَوْدَةٌ، ولا لك رَدٌّ ... نِمتَ عنها، ومَنْ ترَكْتَ نِيام
إنما الملكُ صارمٌ ويَراعٌ ... فإذا فارقاه ساد الطَّغام
ونظامُ الأُمورِ عقلٌ وعدلٌ ... فإذا ولَّيا تَوَلَّى النظام
وعجيبٌ خُلِقْتَ للحرب لبْثًا ... وسجاياك كلُّهن سَلام
فهْيَ في رأيكَ القويمِ حَلالٌ ... وهْيَ في قلبك الرحيمِ حَرام
لكَ سيفٌ إلى اليتامَى بغيضٌ ... وحَنانٌ يَحبّه الأَيتام
مُستبدٌّ على قويٍّ، حليمٌ ... عن ضعيفِ، وهكذا الإسلام

بطرس باشا غالي[1]

قبرَ الوزيرِ، تحيَّةً وسَلاما ... الحلمُ والمعروفُ فيكَ أَقاما
ومحاسنُ الأَخلاقِ فيك تغيَّبَتْ ... عامًا، وسوف تُغيَّب الأَعواما
قد كنت صَوْمَعَةً فصِرْت كنيسة ... في ظلِّها صلَّى المُطيفُ وصاما
والقومُ حَوْلَكَ يا بن (غالي) خُشَّعٌ ... يقضونَ حقًّا واجبًا وذِماما
يَسعَوْنَ بالأَبصار نحوَ سَريرِه ... كالأَرض تَنْشُدُ في السماءِ غَماما
يَبكون مَوْئِلَهم، وكَهْفَ رَجَائِهم ... والأَرْيَحيَّ المُفْضِلَ المِقداما
مُتسابقين إِلى ثَراك، كأَنهم ... ناديكَ في عزِّ الحياةِ زِحاما
وَدُّوا غَداةَ نُقِلْتَ بينَ عُيونِهم ... لو كان ذلك مَحشرًا وقِياما
ماذا لقيتَ من الرِّياساتِ العُلا ... وأَخذتَ مِن نِعَمِ الحياةِ جِساما؟
اليوم يُغنِي عنك لَوْعةُ بائسٍ ... وعَزاءُ أَرمَلَةٍ، وحُزنُ يَتامى
والرأيُ للتاريخ فيك؛ ففي غدٍ ... يَزنُ الرجالَ، ويَنْطِقُ الأَحكاما
يَقضي عليهم في البَرِيَّةِ، أَو لهم ... ويُديمُ حَمدًا، أَو يُؤيِّدُ ذاما
أَنت الحكيمُ، فلا تَرُعْكَ منِيَّةٌ ... أَعلِمْت حيًّا غيرَ رِفْدِكَ داما

[1] بطرس باشا غالي، كان رئيس الوزارة المصرية في أيام حكم الخديو عباس الثاني، وقد اغتاله إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠ لأسباب سياسية.

إنّ الذي خلقَ الحياةَ وضِدَّها ... جَعَلَ البقاءَ لِوَجْهِهِ إكراما
قد عِشْت تُحدِثُ للنصارَى أُلْفةً ... وتُجِدُّ بين المسلمين وئاما
واليومَ فوقَ مَشيدِ قبرِك مَيتًا ... وَجَدَ المُوفَّقُ للمقال مَقاما
الحقُّ أَبلجُ كالصبَّاح لِناظرٍ ... لو أَنَّ قومًا حَكَّموا الأَحلاما
أَعَهِدْتَنا والقِبْطَ إلاَّ أُمَّةً ... للأَرضِ واحدة تَروم مَراما؟
نُعْلِي تعاليمَ المسيحِ لأَجلهم ... ويُوَقِّرون لأَجلنا الإسلاما
الدِّينُ للدَّيّانِ جلَّ جلالُه ... لو شاءَ ربُّكَ وَحَّدَ الأَقواما
يا قومُ، بانَ الرّشدُ فاقْصُوا ما جرى ... وخُذوا الحقيقةَ، وانبذوا الأَوهاما
هذي رُبُوعُكُمُ، وتلك رُبوعُنا ... مُتقابلين نعالج الأَياما
هذي قُبورُكُمُ، وتلك قبورُنا ... مُتجاورينَ جَماجما وعِظاما
فبحُرمةِ المَوْتَى، وواجبِ حقِّهم ... عِيشوا كما يَقضي الجوارُ كِراما

يبكي والدته[1]

إِلى اللهِ أَشكو مِن عَوادِي النَّوَى سهما ... أَصابَ سُوَيْداءَ الفؤادِ وما أَصْمَى[1]

من الهاتكات القلبَ أَوَّلَ وَهْلةٍ ... ومَا دَخَلَتْ لحمًا، ولا لامستْ عظما

تَوَارَدَ والنَّاعِي، فأَوْجَسْتُ رَنَّةً ... كلامًا على سمعي، وفي كبدي كَلْما[2]

فما هتَفا حتى نَزَا[3] الجنبُ وانزَوَى ... فيا وَيْحَ جَنْبِي! كمَ يَسيلُ؟ وكم يَدمَى؟

طَوَى الشرقَ نحوَ الغرب، والماءَ للثَّرى ... إِلَيَّ، ولم يَركبْ بِساطًا ولا يَمَّا[4]

أَبانَ ولم يَنْبِسْ، وأَدَّى ولم يَفُهْ ... وأَدْمَى وما داوَى، وأَوْهَى وما رَمَّا

إذا طُوِيَتْ بالشُّهْبِ والدُّهْمِ شُقَّةٌ ... طَوَى الشُّهْبَ، أَو جاب الغُدافِيَّةَ الدُّهْما[5]

ولم أَرَ كالأَحداثِ سهمًا إِذا جرَتْ ... ولا كالليالي راميًا يُبعِدُ المَرْمَى

ولم أَرَ حُكمًا كالمقاديرِ نافذًا ... ولا كلقاءِ الموتِ مِنْ بَينها حَتْما

إِلى حيثُ آباءُ الفَتَى يَذهبُ الفتى ... سَبيلٌ يَدينُ العالَمون بها قِدْما

وما العيشُ إلا الجسمُ في ظلِّ رُوحِهِ ... ولا الموتُ إلا الرُّوحُ فارقَتِ الجِسما

---

[1] نظم أمير الشعراء هذه المرثية الرائعة، على إثر إعلان الهدنة، وهو في منفاه في الأندلس سنة ١٩١٨؛ إذ كان يعلل النفس بالعودة إلى الوطن العزيز ولقاء آله، وفي مقدمتهم والدته الحبيبة، ولكنه ما كاد يتحدَّث إلى نفسه بهذا الأمل المرموق، حتى وافاه البرق بنعيها، فأثَّر هذا المصاب الجسيم في نفسه تأثيرًا بالغًا، ولم تمضِ ساعة حتى كتب هذه المرثية، وقد قيل إنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها بعد، فبقيت مستورة ضمن أوراقه الخاصة، حتى نُشِرَت في الصحف غداة وفاته رحمه الله.

ولا خلْدَ حتى تملأَ الدهرَ حِكْمةً … على نزلاءِ الدهرِ بعدَك أَو عِلْما

زَجَرْتُ تَصاريفَ الزمانِ، فما يَقَعْ … لِيَ اليومَ منها كان بالأَمس لي وَهْما[6]

وقدَّرْتُ (للنعمانِ) يومًا وضِدَّهُ … فما اغْتَرَّتِ البُوسَى، ولا غَرَّتِ النُّعْمَى[7]

شربتُ الأَسى مصروفةً لو تعرَّضتْ … بأَنفاسِها بالفمِّ لم يستفِقْ غَمَّا

فأَتْرِعْ وناوِلْ يا زمانُ؛ فإنما … نديمُكَ (سُقْراطُ) الذي ابْتَدَعَ السُّمَّا[8]

قَتلتُكَ، حتى ما أُبالِي: أَدَرْتَ لي … بكأْسِكَ نَجْمًا، أَم أَدَرْتَ بها رَجْما؟!

لكِ اللهُ مِنْ مَطعونةٍ بقَنا النَّوى … شهيدةِ حربٍ لم تُقارِفْ لها إثما

مُدلَّهةٍ أَزكى مِنَ النارِ زَفْرَةً … وأَنْزَهِ مِنْ دَمْعِ الحَيا عَبْرَة سَحْما[9]

سقاها بَشيرِي وهْيَ تَبكِي صبَابةً … فلم يَقْوَ مَغناها على صَوْبِهِ رَسْما[10]

أَسَتْ جُرحَها الأَنباءُ غيرَ رَفيقةٍ … وكم نازعٍ سهمًا فكان هو السَّهما!

تَغارُ على الحُمَّى الفضائلُ والعُلا … لِما قبَّلَتْ منها، وما ضَمَّت الحُمَّى!

أَكانت تَمَنَّاها وتَهَوَى لِقاءَها … إذا هي سَمَّاها بذي الأَرض مَنْ سَمَّى؟

أَلَمَّتْ عليها، واتَّقتْ ثمراتِها … فلمَّا وُقُوا الأَسْواءَ لم تَرها ذمَّا

فيا حسرتا أَلاَّ تراهم أَهِلَّةً … إذا أَقْصَرَ البدرُ التمامُ مَضوْا قُدْما!

رَياحينُ في أَنف الوَليِّ، وما لها … عدوٌّ تراهم في مَعاطِسِهِ رَغْما

وأَلاَّ يطوفوا خُشَّعًا حولَ نعشِها … ولا يُشبِعوا الركنَ استلامًا ولا لَثْما

حلَفْتُ بما أَسلَفْتِ في المهد مِنْ يَدٍ … وأَوْلَيْتِ جُثماني من المِنَّةِ العُظمى

وقبرٍ مَنُوطٍ بالجلال مُقَلَّدٍ … تَلِيدَ الخلالِ الكُثْر، والطارفَ الجَمّا[11]

وبالغاديات الساقيات نَزِيلَهُ … من الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، والآيِ، والأَسْما

لَما كان لي في الحربِ رأْيٌ ولا هوًى … ولا رُمْتُ هذا الثكلَ للناس واليُتما

ولم يكُ ظلمُ الطيرِ بالرقّ لي رِضًا … فكيف رضائي أَن يَرَى البَشَرُ الظُّلما

ولَم آلُ شُبَّانَ البريّةِ رِقَّةً … كأَن ثمارَ القلب مِنْ وَلَدِي ثَمَّا

وَكُنْتُ على نَهْجٍ من الرأْيِ واضحٍ … أَرى الناس صِنفَيْنِ: الذئابَ أَو البَهْما[12]

وما الحُكْمُ إلا أُولِي البأْسِ دولةً … ولا العدلُ إلا حائطٌ يَعْصِمُ الحُكما

نزلْتُ رُبَى الدنيا، وجَنّاتِ عَدْنِها … فما وَجَدَتْ نفسي لأَنهارها طعما

أُرِيحُ أَرِيجَ المِسْكِ في عَرَصاتِها … وإن لم أُرِحْ (مَرْوانَ) فيها ولا (لَخْما)[13]

إذَا ضَحِكتْ زهوًا إلَيَّ سماؤها … بكيْتُ النَّدَى في الأَرض، والبأْسَ، والحزما

أُطِيفُ برسمٍ، أَو أُلِمُّ بدمْنَةٍ ... أَخال القصور الزُّهْرَ والغُرَفَ الشُّما

فما برحَتْ من خاطري (مصرُ) ساعةً ... ولا أَنتِ في ذي الدار زايَلْتِ لي هَمَّا

إذا جَنَّنِي الليلُ اهْتزَزْتُ إليكما ... فجُنحا إلى سُعْدَى. وجُنحا إلى سَلْمى[14]

فلمَّا بدا للناس صُبْحٌ من المُنَى ... وأَبصرَ فيه ذو البصيرةِ والأَعمى

وقرَّتْ سيوفُ الهندِ، وارتكز القَنا ... وأَقْلَعَتِ البَلْوَى، وأَقْشَعَتِ الغُمَّى

وحَنَّتْ نواقيسٌ، ورَنَّتْ مآذنٌ ... ورَفَّتْ وجوهُ الأَرْضِ تَستقبلُ السلمى

أَتى الدهرُ مِنْ دونِ الهناءِ، ولم يَزَلْ ... وَلوعًا ببُنْيَانِ الرجاءِ إذا تَمَّا!

إذا جال في الأَعيادِ حَلَّ نظامَها ... أَو العُرسِ أَبْلى في معالمه هَدْما

لئن فاتَ ما أَمَّلْتِهِ من مواكبٍ ... فَدُونَكِ هذا الحشدَ والموكبَ الضَّخما!

رثَيْتُ به ذاتَ التُّقى ونظمتُه ... لعنصره الأَزكى وجوهرِهِ الأَسمى

نمتكِ مَناجيبُ العُلا ونَمَيْتِها ... فلم تُلْحَقِي بنتًا ولم تُسْبَقي أُمَّا

وكنتِ إذا هذي السماءُ تخايلتْ ... تواضعْتِ، لكنْ بعد ما فُتِّها نَجما

أَتَيْتِ به لم ينظم الشِّعرَ مثلُه ... وجِئْتِ لأَخلاق الكرامِ به نَظما

ولو نهضَتْ عنه السماءُ، ومَخَّضَتْ ... به الأَرْضُ كان المُزنَ والتبْرَ والكَرْما![15]

هوامش

(١) الكلم (بفتح الكاف): الجرح.

(٢) نزا الجنب: يريد نزا القلب، ويقال: نزا الطائر، إذا همَّ بالطيران.

(٣) عوادي النوى: عوائقه. وقوله: «أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى»: أي أصاب صميم القلب ولم يقتل.

(٤) بساطًا ولا يمًا: أي لم يركب طيارة تسير في الهواء، كما سار بساط الريح بسليمان (عليه السلام)، ولم يركب باخرة تسير على اليمِّ، أي البحر.

(٥) الشهب: البيض. الدهم: السود. جاب: قطع. الغدافية: السوداء، ويقصد بالشهب وبالدهم: الخيل البيضاء والسوداء أو النهار والليل. كأنه يتعجَّب من سرعة هذا النعي في وصوله إليه.

(٦) الزجر: العيافة والتكهُّن، يقول: إنه كان متكهنًا بما صنعه الزمن معه وكان متوقعًا له.

(٧) كان للنعمان بن المنذر يوم بؤس لا يفد فيه عليه أحد إلا قتله، ويوم نعمى لا يُسأل فيه إلا أعطى، ولهذين اليومين حوادث سارت من أجلها أمثال كثيرة للعرب، ويرجع في هذا إلى الكتب الأدبية المطوَّلة مَنْ شاء.

(٨) سقراط: إمام الفلاسفة المتقشفين، حُكِمَ عليه بالإعدام فشرب السمَّ بيده، ولم يرض أن يفرَّ مع أصحابه الذين عزموا عليه بالفرار.

(٩) العبرة السحما: أي السوداء، ولا يكون هذا إلا من أثر الحزن العميق.

(١٠) الرسم: هو هنا مصدر «رسم المطر الديار» إذا عفاها وأبقى أثرها لاحقًا بالأرض.

(١١) التليد: القديم. الطارف: الجديد.

(١٢) البهم (بفتح الباء): صغار الغنم.

(١٣) مروان ولخم: قبيلتان عربيتان، وهما من القبائل التي تولَّت السيادة في بلاد الأندلس زمنًا.

(١٤) الجنح (بضم الجيم وكسرها): طائفة من الليل.

(١٥) يريد أنه يشبه المزن في الكرم، والتبر في العرق والنفاسة، والخمر في السكر الذي يسكر الناس به من شعره.

الملك حسين[١]

لك في الأَرض والسماءِ مآتمْ ... قام فيها أَبو الملائِكِ هاشمْ[١]

قعد الآلُ للعَزاءِ، وقامتْ ... باكياتٍ على الحُسين الفَواطم[٢]

يا أَبا العِلْيَةِ البَهاليلِ، سَلْ آ ... باءَك الزُّهْرَ: هل من الموتِ عاصم؟[٣]

المنايا نَوازلُ الشَّعَرِ الأَبـ ... ـيضِ، جاراتُ كلِّ أَسودَ فاحم[٤]

ما الليالي إلا قِصارٌ، ولا الدُّنـ ... ـيا سِوَى ما رأَيتَ أَحلام نائم

انْحِسارُ الشِّفاهِ عن سنٍّ جَذلا ... نَ وراءَ الكرى إِلى سنِّ نادِم

سنةٌ أَفرحَتْ، وأُخرى أَساءَتْ ... لم يَدُم في النعيم والكربِ حالم

المَناحاتُ في ممالِكِ أَبنا ... ئِكَ بَدْرِيَّةُ العزاءِ قوائم[٥]

تلك (بغدادُ) في الدموعِ، وعمَّا ... نُ وراءَ السَّوادِ، والشامُ واجم[٦]

والحِجَازُ النبيلُ رَبْعٌ مُصَلٍّ ... من رُبوعِ الهُدى، وآخرُ صائم[٧]

واشتركنا، فمِصرُ عَبْرَى، ولبنا ... نُ سَكُوبُ العيونِ باكي الحمائم

قُمْ تأَمَّلْ بَنيك في الشَّرق زَيْنُ التَّـ ... ـاجِ، مِلْءُ السَّرِيرِ، نورُ العواصم[٨]

الزكيّون عُنْصُرًا مثل إِبرا ... هيمَ، والطِّيبون مثل القاسم[٩]

وعليهم إِذا العيونُ رَمَتْهم ... عُوَذٌ من محمدٍ وتَمائم[١٠]

---

[١] هو ملك الحجاز الحسين بن علي، زعيم الحركة العربية في طلب تحرير أصقاع الجزيرة من حكم الأتراك، وقد توفي سنة ١٩٣١ ودُفِنَ بالقدس الشريف.

قد بنَى اللهُ بيتَهم فهْوَ باقٍ ... ما بنى اللهُ ما له من هادِم

دبَّروا الملكَ في العراقِ وفي الشا ... مِ فسَنُّوا الهدى، ورَدُّوا المظالم

أَمِنَ الناسُ في ذَراهم، وطابت ... عربُ الأَرضِ تحتَهم والأَعاجم

وبَنَوْا دولةً وراءَ فِلَسْطِـ ... ـينَ، كعابَ الهدى، فتاةَ العزائم

سَاسَها بالأناةِ أَرْوَعُ (كالدا ... خل)، ماضي الجنانِ يقظانُ، حازم[11]

قُبْرُصٌ كانت الحديدَ، وقد تَنـ ... ـزِل قُضبانَهُ اللُّيوثُ الضَّراغم[12]

كَرِهَ الدَّهرُ أَن يقومَ لِواءٌ ... تُحْشَر البِيدُ تحتَه والعمائِم[13]

قم تحدَّثْ (أَبا عليٍّ) إِلينا ... كيف غامْرتَ في جِوار الأَراقم؟[14]

لم تُبالِ النُّيوبَ في الهامِ خُشْنًا ... وتعلَّقْتَ بالحواشي النَّواعِم

هاتِ حَدِّثْ عن العَوانِ وصِفْها ... لا تُرَعْ في التراب، ما أَنا لائم![15]

كلُّنا واردُ السَّرابِ، وكلٌّ ... حمَلٌ في وَلِيمَةِ الذئبِ طاعم[16]

قد رجوْنا من المغانم حَظًّا ... ووَرَدْنا الوَغَى، فكُنَّا الغنائم

قد بَعثْتَ القضيّةَ اليومَ مَيْتًا ... رُبَّ عظمٍ أَتى الأُمورَ العظائم

أَنتَ كالحقِّ أَلَّف الناسَ يَقظا ... نَ، وزادَ ائتلافَهم وهْوَ نائم

إِنما الهِمَّةُ البعيدةُ غَرْسٌ ... مُتَأَتِّي الجَنَى، بَطِئُ الكمائم[17]

ربّما غابَ عن يدٍ غَرَستْهُ ... وحَوَتْه على المدى يدُ قَادم

حبَّذا موْقِفٌ غُلِبْتَ عليه ... لم يَقِفْهُ للعُربِ قبلك خادم

ذائدًا عن ممالكٍ وشعوبٍ ... نُقِلتْ في الأَكُفِّ نقلَ الدراهم

كلُّ ماءٍ لهم، وكلُّ سماءٍ ... مَوْطِئُ الخيلِ، أَو مَطارُ القَشاعم[18]

لِمَ لَمْ تَدْعُهم إِلى الهِمّةِ الشَّـ ... ـماءِ والعلمِ والطَّماحِ المُزاحم؟

وركوبِ اللِّجاجِ وهْيَ طَواغٍ ... والسماواتِ وهْيَ هُوجُ الشكائم؟[19]

وإِلَى القُطْب والجَلِيدُ عليه ... والصّحاري وما بها من سَمائم؟[20]

اغسلوه بطيِّبٍ من وَضوءِ الرُّسـ ... ـلِ، كالوَرْدِ في رُباه البواسم[21]

وخذوا من وِسادِهم في المُصَلَّى ... رُقْعةً كَفِّنوا بها فرعَ هاشم

واستعيروا لِنعشِه من ذرى المنـ ... ـبر عودًا، ومن شريفِ القوائم

واحملوه على البُراق إِن اسْطَعْـ ... ـتم؛ فقد جَلَّ عن ظهور الرواسم[22]

وأَديروا إِلى العتيق (حُسينًا) ... يَبْتَهلْ رُكنُه، وتدعو الدعائم[23]

واذكروا للأَمير مكَّةَ، والقصـ ـرَ، وعهدَ الصفا، وطِيبَ المواسم
ظَمِئ الحُرُّ للدّيار، وإن كا ن على مَنهلٍ من الخلد دائم
نَقِّلوا النعشَ ساعةً في رُبا الفتـ ـح، وطوفوا برَبِّهِ في المعالم
وقِفوا ساعةً به في ثَرى الأَقـ ـمار من قومِهن وتُرْب الغمائم
وادفِنوه في القُدس بين سُليما نَ وداودَ والملوكِ، الأَكارم
إنما القدسُ منزلُ الوَحْي، مَغْنَى كلِّ حَبْرٍ من الأَوائل عالم
كُنِّفَتْ بالغيوب، فالأَرْضُ أَسْرا رٌ مَدَى الدَّهرِ، والسماءُ طَلاسم
وتَحلَّتْ من البُراقِ بطُغرا ءَ، ومِن حافر البُراقِ بخاتم[٢٤]

هوامش

(١) أبو الملائك: أي أبو الملوك. وهاشم هو أحد جدود النبي صلوات الله عليه.

(٢) الآل: آل البيت النبوي الشريف، والمقصود هنا رجاله، الفواطم: يريد بهن نساء هذا البيت من ذرية السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وزوج الإمام علي كرم الله وجهه.

(٣) عليه (بكسر العين): جمع عليٍّ، وهو الشريف العالي القدر من الناس. البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير. الآباء الزهر: هم المشرقو الوجوه، المشابهون للنجوم الزهر في صفاء اللون والتلألؤ والظهور.

(٤) يقول: إن المنايا تنزل بالشيب كما تنزل بالشباب، فليس هناك من عاصم منه.

(٥) يشبِّه الحزن على الفقيد بالحزن على صرعى بدر، أولى غزوات الرسول ﷺ.

(٦) بغداد: عاصمة العراق، والمراد بها القطر كله. وعمَّان: عاصمة الأردن، كنى بها عن الإقليم جميعه. والشام: يقصد بها سوريا وما إليها من الأقاليم المحصورة بين تركيا وبلاد العرب ونهر الفرات والبحر المتوسط.

(٧) الحجاز النبيل: يقصد الحجاز الذي بقي محافظًا على عهده للفقيد، الربع: الدار.

(٨) العواصم: جمع عاصمة، وهي البلدان الكبيرة التي تقيم فيها الحكومات.

(٩) إبراهيم والقاسم: هما من أولاد النبي صلوات الله عليه.

(١٠) عُوَّذ: جمع عوذة، وهي الرقية تحفظ من العين كالتميمة، وجمع التميمة: تمائم.

(١١) الأناة: الرفق، ويريد «بالأروع»: الملك فيصل، يشبهه بالداخل، وهو عبد الرحمن الداخل صقر قريش مؤسس دولة بني أميَّة في الأندلس.

(١٢) قبرص: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، قضى فيها الملك حسين بقية عمره بعد ما اعتزل الملك، يشبهها أمير الشعراء في حالة إقامة الفقيد فيها بالقفص الحديد الذي يحبس فيه الأسد، وصنع الأقفاص الحديدية لحبس الأسود مألوف لمنظمي الحدائق في عصرنا هذا.

(١٣) العماعم: الجماعات المتفرقون.

(١٤) يشير إلى انضمام الفقيد في صف الحلفاء ضد تركيا في أثناء الحرب الكبرى، وقد كان لهذا الانضمام أثره في نهاية تلك الحرب.

(١٥) العوان: الحرب.

(١٦) كلنا في وليمة الذئب طاعم: يريد كلنا مطعوم مأكول لهذا الذئب.

(١٧) الجنى: الثمار. الكمائم: محلُّ ما تنبت تلك الثمار.

(١٨) القشاعم: النسور، جمع قشعم. ويريد «بالنسور» الطيارين الذين يشبهون النسور.

(١٩) يريد «بركوب السماوات»: ركوب الطيارات، ويريد بهوج الشكائم: اللجم، أي اللجم الصعبة القياد.

(٢٠) السمائم: جمع سموم، وهي الريح الحارة المحرقة.

(٢١) الوضوء (بفتح الواو): ما يتوضأ به.

(٢٢) الرواسم: الإبل، أو الخيل، أو الركائب عامة.

(٢٣) العتيق: مسجد بيت المقدس حيث دُفِنَ الفقيد.

(٢٤) الطغراء: ما يكتب في أوَّل الكتاب. والبراق: هو ركوبة النبي صلوات الله عليه ليلة أسري به.

يرثي أباه[١]

سأَلوني: لِمَ لَمْ أَرْثِ أَبي؟ ورِثاءُ الأَبِ دَينٌ أَيُّ دَيْنْ
أَيُّها اللُّوَّامُ، ما أَظلمَكم! أَينَ لي العقلُ الذي يُسعِد أَيْنْ؟[١]
يا أبي، ما أَنتَ في ذا أَوّلٌ كلُّ نفس للمنايا فرضُ عَيْن
هلكَتْ قبلك ناسٌ وقرَى ونَعى الناعون خيرَ الثقلين[٢]
غايةُ المرءِ وإن طالَ المدَى آخذٌ يأْخذه بالأَصغريْنَ[٣]
وطبيبٌ يَتولَّى عاجزًا نافضًا من طِبِّه خُفَّيْ حُنَين[٤]
إنّ للموتِ يدًا إن ضَرَبَتْ أَوشكَتْ تصْدُع شملَ الفَرْقَدَيْن
تَنفُذ الجوَّ على عِقبانه وتلاقي الليثَ بين الجبلين
وتحطُّ الفرخَ من أَيْكَته وتنال الببَّغا في المئتين
أَنا مَنْ مات، ومَنْ مات أَنا لقي الموتَ كِلانا مَرتين
نحن كنا مهجةً في بدنٍ ثم صِرْنا مُهجةً في بَدَنَيْن[٥]
ثم عُدنا مهجة في بدنٍ ثم نُلقى جُثَّةً في كَفَنَيْن
ثم نَحيا في (عليٍّ) بعدَنا وبه نُبْعَثُ أُولَى البَعْثتين[٦]
انظر الكونَ وقُلْ في وصفِه كلُّ هذا أَصلُه من أبوين

[١] نظم هذه القصيدة حوالي سنة ١٨٩٧ يرثي بها والده الطيب الذكر المرحوم علي بك شوقي رحمه الله.

فإذا ما قيل: ما أَصلُهما؟ قل: هما الرحمةُ في مَرْحَمتين
فقدَا الجنةَ في إيجادِنا ونَعِمْنا منهما في جَنَّتين
وهما العذرُ إذا ما أُغضِبَا وهما الصفّحُ لنا مُسْتَرضَيَيْن
ليتَ شِعري أَيُّ حيٍّ لم يَدِن بالذي دَانا به مُبتدِئَيْن؟
وقفَ اللهُ بنا حيثُ هُما وأَماتَ الرُّسْلَ إلاّ الوالدين[7]
ما أَبِي إلاَّ أَخٌ فارَقْتُه وَدُّه الصِّدقُ، وودُّ الناسِ مَيْن[8]
طالما قُمنا إلى مائدةٍ كانت الكِسْرةُ فيها كِسْرتَيْن
وشَربنا من إناءٍ واحدٍ وغَسلنا بعدَ ذا فيه اليديْن
وتمشَّيْنا يَدي في يدِه مَنْ رآنا قال عنا: أَخوَيْن
نظرَ الدهرُ إلينا نظرةً سَوَّت الشرَّ فكانت نظرتين
يا أَبي والموتُ كأْسٌ مُرّةٌ لا تذوقُ النفسُ منها مَرَّتَين
كيف كانت ساعةٌ قضيَّتْها كلُّ شيء قبلَها أَو بعدُ هَيْن؟
أَشرِبْتَ الموت فيها جُرعةً أَم شرِبْتَ الموتَ فيها جُرعتين؟
لا تَخَفْ بعدَكَ حُزنًا أَو بُكًا جَمدَتْ مِنِّي ومنكَ اليومَ عَيْن
أَنتَ قد علمتني تَرْكَ الأَسى كلُّ زَيْنٍ مُنتهاه الموتُ شَيْن
ليت شعري: هل لنا أَن نلتقِي مَرّةً، أَم ذا افتراقُ المَلَوَين؟[9]
وإذا متُّ وأُودعْتُ الثرى أَنلقَّى حُفرةً أَم حُفْرتين؟

هوامش

(١) يسعد: يعين.

(٢) الثقلان: الإنس والجن. وخير الثقلين، هو سيدنا محمد صلوات الله عليه.

(٣) الأصغران: القلب واللسان.

(٤) خفي حنين: مثل عربي يضرب عند اليأس من الحاجة المطلوبة والرجوع عن الطلب بالخيبة.

(٥) المهجة: الدَّم، وقد يعبَّر بها عن الروح، يقال: خرجت مهجته، أي روحه.

(٦) علي: هو أحد نجلي أمير الشعراء.

(٧) يريد في هذا البيت أن يقرر أن الأبوة ضرب من ضروب الرسالة التي لم تنقطع كما انقطعت رسالة الأنبياء، وإنما هي ستظل قائمة بوظيفتها من طبع الأبناء على

غرار الآباء، مصداقاً للأثر القائل: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

(٨) المين: الكذب. وفي هذا البيت على سهولة أدائه أعظم ألوان المدائح لوالده، فإن الوالد الذي لا يشعر ابنه بسلطة الأب، هو الوالد المشتمل على جميع مكارم الأخلاق، البالغ أعلى درجات الحكمة.

(٩) الملوان: الليل والنهار، الواحد منهما ملا.

مصطفى كامل باشا[1]

المَشرِقانِ عليكَ يَنتحِبان | قاصيُهما في مأْتَمٍ والدّاني
يا خادِمَ الإِسلامِ، أَجرُ مُجاهدٍ | في اللهِ من خُلْدٍ ومِنْ رِضْوان
لمَّا نُعيتَ إِلى الحجازِ مشَى الأَسى | في الزائرينَ ورُوِّعَ الحَرَمان[1]
السّكةُ الكُبرى حِيالَ رُباهُما | مَنكوسةُ الأَعلامِ والقُضْبان[2]
لم تَأْلُها عندَ الشدائدِ خِدمةً | في اللهِ والمختار والسلطان
يا ليتَ مكةَ والمدينة فازتا | في المحفِلَيْن بصوتِكَ الرَّنَّان
ليرى الأَواخرُ يومَ ذاكَ ويسمعوا | ما غابَ من قُسٍّ ومِن سَحْبان[3]
جار التُّراب وأَنتَ أَكرمُ راحل | ماذا لَقِيتَ من الوجود الفاني؟
أَبكِي صِباكَ، ولا أُعاتبُ مَنْ جَنى | هذا عليه كرامةٌ للجاني
يتساءَلون: أَبـ(السُّلالِ) قضَيْت، أَم | بالقلبِ، أَم هل مُتَّ بالسَّرَطان؟
الله يَشهد إِنّ موتَك بالحِجا | والجِدِّ والإقدامِ والعِرفان
إِن كان للأخلاقِ ركنٌ قائمٌ | في هذه الدنيا؛ فأَنت الباني
بالله فَتِّشْ عن فؤادِك في الثّرى | هل فيه آمالٌ وفيه أَماني؟
وِجْدانُك الحيُّ المُقيمُ على المَدى | ولرُبَّ حَيٍّ مَيتِ الوجْدان

[1] هو الزعيم الخالد الذكر مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطني، وقد توفي سنة ١٩٠٨.

النَاسُ جارٍ في الحياةِ لغايةٍ ... ومُضلَّلٌ يَجري بغير عِنان
والخُلْدُ في الدنيا — وليس بهيِّن — ... عُليا المرَاتبِ لم تُتَحْ لجبان
فلو آن رُسْلَ اللهِ قد جَبَنُوا لمَا ... ماتوا على دينٍ من الأَديان
المجدُ والشَّرفُ الرفيعُ صحيفةٌ ... جُعِلتْ لها الأَخلاقُ كالعنوان
وأَحَبُّ مِن طولِ الحياةِ بذِلَّةٍ ... قِصَرٌ يُريكَ تقاصُرَ الأَقران
دَقَّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له: ... إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثواني
فارفعْ لنفسِك بعدَ موتِكَ ذِكرَها ... فالذكرُ للإنسان عُمرٌ ثاني
للمرءِ في الدنيا وجَمِّ شئونِها ... ما شاءَ مِنْ ربحٍ ومِنْ خُسران
فَهي الفضاءُ لراغبٍ مُتطلِّعٍ ... وهي المَضِيقُ لِمُؤثِرِ السُّلْوان
الناسُ غادٍ في الشَقاءِ ورائحٌ ... يَشْقى له الرُّحَماءُ وهْوَ الهاني
ومُنعَّمٌ لم يلقَ إلاَّ لذَّةً ... في طيِّها شجَنٌ من الأَشجان
فاصبر على نُعْمى الحياةِ وبُؤسِها ... نُعْمى الحياةِ وبُؤسُها سِيَّان[٤]
يا طاهرَ الغدَواتِ، والرَّوحاتِ، والـ ... ـخطراتِ، والإِسْرارِ، والإِعْلان
هل قامَ قبلكَ في المدائن فاتحٌ ... غازٍ بغيرِ مُهنَّدٍ وسِنان؟
يدعو إلى العِلْم الشريفِ، وعندَه ... أَن العلومَ دعائمُ العُمران؟
لفُّوك في عَلم البلادِ مُنكَّسًا ... جَزِع الهلال على فتى الفتيان
ما أحْمَرَّ مِنْ خجَلٍ، ولا مِن ريبةٍ ... لكنَّما يَبكي بدمع قاني[٥]
يَزْجُون نعشَك في السَّناءِ وفي السَّنا ... فكأَنما في نعشِكَ القمران
وكأَنه نعشُ الحُسينِ «بكرْبَلا» ... يختالُ بين بُكًا، وبينَ حَنان
في ذِمَّةِ الله الكريمِ وبِرِّهِ ... ما ضمَّ مِن عُرْفٍ ومِن إحسان
ومَشَى جلالُ الموتِ وهُوَ حقيقةٌ ... وجلالُك المصدوقُ يلتقيان
شَقَّتْ لِمَنظرِك الجيوبَ عقائلٌ ... وبَكتْكَ بالدّمع الهَتُونِ غواني[٦]
والخلقُ حولَك خاشعون كعهدِهم ... إذ يُنصِتُون لخطبةٍ وبَيان
يتساءَلون: بأيِّ قلبٍ تُرْتَقي ... بعدُ المنابرُ، أَم بأَيِّ لسان؟
لو أَنّ أَوطانًا تُصوَّرُ هَيْكلاً ... دفنوكَ بينَ جوانحِ الأوطان
أَو كان يُحمَل في الجوارح ميِّتٌ ... حملوك في الأَسماع والأَجفان
أَو صِيغَ من غُرِّ الفضائلِ والعُلا ... كفنٌ لَبِستَ أَحاسنَ الأَكفان

أَو كان للذكر الحكيم بقيةٌ لم تَأْتِ بعدُ؛ رُثِيتَ في القرآن

ولقد نظرتُك والرَّدَى بك مُحْدِقٌ والداءُ مِلْءُ معالمِ الجُثمان

يَبْغِي ويطْغَى، والطبيب مُضلَّلٌ قَنِطٌ، وساعاتُ الرَّحيل دَواني

ونواظرُ العُوَّادِ عنكَ أَمالَها دمعٌ تُعالِج كتْمَهُ وتُعاني

تُمْلِي وتَكتُبُ والمشاغِل جَمَّةٌ ويَداك في القِرطاسِ ترتجفانِ

فهشَشْتَ لي، حتى كأَنك عائدي وأَنا الذي هَدَّ السَّقامُ كِياني

ورأَيتُ كيف تموتُ آسادُ الشَّرَى وعرفتُ كيف مصارعُ الشُّجعان[٧]

ووَجَدْتُ في ذاك الخيالِ عزائمًا ما للمَنونِ بدَكِّهِنَّ يَدان

وجَعلْتَ تسأَلُني الرَّثاءَ، فهاكه من أَدمُعي وسرائري وجَناني

لولا مُغالبةُ الشُّجونِ لخاطري لنظمتُ فيكَ يَتيمةَ الأَزمان

وأَنا الذي أَرثِي الشموسَ إذا هَوَتْ فتعودُ سِيرتها إِلى الدَّوَران

قد كنتَ تهتفُ في الورى بقصائدي وتُجِلُّ فوق النِّيراتِ مكاني

مَاذَا دَهانِي يومَ بِنْتَ فعَقَّني فيكَ القريضُ، وخانني إِمكاني؟

هوِّنْ عليكَ؛ فلا شماتَ بميِّتٍ إِنّ المنيَّة غايةُ الإِنسان

مَنْ للحسودِ بميْتةٍ بُلِّغْتَها عَزَّتْ على (كِسْرَى) أَنوشِرْوان؟

عُوفِيتَ من حَرَبِ الحياةِ وحَرْبِها فهل استرحْت أَم استراح الشاني؟[٨]

يا صَبَّ مِصْرَ، ويا شهيدَ غرامِها هذا ثرَى مِصْرٍ؛ فنَمْ بأَمان

اِخلَعْ على مصرٍ شبابَك عاليًا وآلبسْ شَبابَ الحُورِ والوِلْدان

فلعلَّ مصرًا من شبابِكَ تَرتدِي مجدًا تَتيهُ به على البُلدان

فَلَوَ آنّ بالهَرَمَيْنِ من عَزماتِه بعضَ المَضَاءِ تحرَّك الهَرمان

علَّمْتَ شُبانَ المدائنِ والقُرى كيف الحياةُ تكونُ في الشبان

مصرُ الأَسيفةُ ريفُها وصعيدُها قبرٌ أَبرُّ على عظامِك حاني

أَقسمْتُ إنك في الترابِ طهارةٌ مَلكٌ يَهابُ سؤالَه الملَكان

هوامش

(١) الحرمان: حرما مكة والمدينة.

(٢) السكة الكبرى: يريد سكة حديد الحجاز، وقد كان الفقيد أعظم الدعاة المجاهدين في سبيل إنشائها.

(٣) قس وسحبان: خطيبان عربيان يضرب بهما المثل في الطلاقة الخطابية والفصاحة والحكمة.

(٤) سيَّان: مثلان، الواحد سيٌّ.

(٥) قاني: أحمر.

(٦) العقائل: جمع عقيلة وهي ابنة الرجل المخدرة، أو كريمته. الهتون: من هتن الدمع، إذا قطر. الغواني جمع غانية، وهي الفتاة تغنى بجمالها عن الحلي.

(٧) آساد: جمع أسد. الشرى: طريق في جبل سلمى كثيرة الأسد.

(٨) حربه (كطلبه): سلبه ماله، الشاني: المبغض.

حسن بك أنور[١]

تُسائِلني (كرْمَتِي) بالنهار … وبالليل: أَين سَمِيرِي (حَسَنْ)؟[١]
وأَين النديمُ الشهِيُّ الحديثِ؟ … وأَين الطَّروبُ اللطيفُ الأُذن؟
نَجِيُّ البلابِل في عُشِّها … ومُلْهِمُها صِبْيَةً في الفَن؟
فقلتُ لها: ماتَ، واستشعَرت … ليالِي السرورِ عليه الحَزَن
لَئِنْ ناءَ من سِمَنٍ جسمُه … فما عَرفت رُوحُه ما السِّمَن
وما هو مَيْتٌ، ولكنه … بشاشةُ دهرٍ محاها الزمن
ومَعْنًى خلا القولُ من لفظِه … وحُلمٌ تَطَايَر عنه الوَسَن[٢]
ولا يَذكُر المعهدُ الشرقيُّ … (لأَنورَ) إلا جليلَ المِنَن
وما كان من صَبره في الصِّعابِ … وما كان من عَوْنِه في المِحَن
وخِدمة فنٍّ يُداوِي القلوبَ … ويَشفِي النفوسَ، ويُذْكِي الفِطَن
وما كان فيه الدَّعِيَّ الدخيلَ … ولكنْ مِن الفنِّ كان الرُّكُن[٣]
ولو أَنصف الصحبُ يومَ الوَداعِ … دُفِنْتَ (كإِسحاقَ) لمَّا دُفِن
فغُيِّبْتَ في المِسْكِ، لا في التراب … وأُدْرجْتَ في الوَرْدِ، لا في الكَفَن
وخُطَّ لك القبرُ في رَوْضَةٍ … يَميلُ على الغُصْنِ فيها الغُصُنُ

[١] المرحوم حسن بك أنور: أحد الأعضاء المؤسسين لنادي الموسيقى الشرقي، وكان من الأصدقاء المقرَّبين لأمير الشعراء، وقد توفي سنة ١٩٣٠.

ويَنتجِبُ الطيرُ في ظلِّها ويَخلَعُ فيها النسيمُ الرَّسَن[٤]
وقامت على العود أَوتارُه تُعيد الحنينَ، وتُبدي الشَّجَن
وطارحَكَ (النايُ) شَجْوَ النُّوَاحِ وكنتَ تَئِنُّ إِذا النايُ أَنَّ
ومال فناحَ عليكَ (الكَمانُ) وأَظهر من بَثِّه ما كَمَن
سلامٌ عليكَ سلامُ الرُّبا إِذا نَفَحَتْ، والغوادي الهُتُن
سلامٌ على جِيرةٍ بالإِمام ورَهْطٍ بصحرائه مُرْتَهَن
سلامٌ على حُفَرٍ كالقباب وأُخرى، كُمندرِساتِ الدِّمَن[٥]
وجَمْعٍ تَآلفَ بعدَ الخلافِ وصافَي وصُوفِيَ بعد الضَّغَن
سلامٌ على كلِّ طَوْدٍ هُناك له حَجَرٌ في بناءِ الوطن

هوامش

(١) كان يطلق على دار أمير الشعراء كرمة ابن هانئ.
(٢) الوسن: النعاس.
(٣) الركن: الركن، وقد حركت الكاف من أجل الشعر. والركن من كل شيء: جانبه الأشد والأقوى.
(٤) الرسن: الحبل. ويقال: رسن الفرس: شدَّه بالرسن.
(٥) الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار.

أم المحسنين[1]

أَخَذَتْ نعشَكِ مصرُ باليمينْ   وحَوَتهِ مِن يد الرُّوحِ الأَمينْ[1]

لَقِيَتْ طُهْرَ بَقاياكِ كما   لَقِيَتْ (يَثْرِبُ) أُمَّ المؤمنين

في سَوادَيْهَا، وفي أَحشائها   ووراءَ النَّحْر مِن حَبلِ الوَتِين[2]

خرَجَتْ من قصرِكِ الباكي، إلى   رَمْلَةِ الثَّغْر، إلى القصرِ الحزين

أَخذَتْ بينَ الْيتامى مَذهبًا   ومَشَتْ في عَبَراتِ البائسين

ورمتْ طَرْفًا إلى البحرِ ترى   مِن وراءِ الدَّمعِ أَسرابَ السفين

فبَدَتْ جاريةٌ في حِضْنِها   فَنَنُ الوَرْدْ وفرعُ الياسَمين[3]

وعلى جُؤْجُئِهَا نورٌ الهدى   وعلى سُكَّانها نورُ اليقين[4]

حَملَتْ من شاطِئْ (مَرْمَرَةٍ)   جوهرَ السُّؤدِدِ والكنزَ الثمين[5]

وطَوَتْ بحرًا ببحرٍ، وجَرَت   في الأُجاج المِلْحِ بالعَذْب المَعين

واستقلَّتْ دُرَّةً كانت سَنًى   وسناءً في جِباه المالكين[6]

ذهَبَتْ عن عِلْيَةٍ صِيدٍ، وعن   خُرَّدٍ من خَفِرات البيتِ عِين

والتَّقِيّاتُ بناتُ المُتَّقي   والآمِينات بُنَيَّاتُ الأَمين

لَبِسَتْ في مَطْلَعِ العِزِّ الضُّحى   ونَضَتْهُ كالشموس الآفلين[7]

[1] أم المحسنين: هي والدة سمو الخديو عباس باشا الثاني، وقد توفيت بالآستانة سنة ١٩٣١.

يَــدُهــا بــانــيــةٌ غــارِســةٌ   كيَدِ الشمسِ وإِن غاب الجبين
رَبّة العَرشَيْنِ في دولتها   قد رَكِبْتِ اليومَ عرشَ العالَمين
أُضْجِعَتْ قبلَكِ فيه (مريمٌ)   وتَوارَى بنِساءِ المُرسَلين
إنه رَحْلُ الأَوَالي شَدَّهُ   لهمُ آدمُ رُسْلِ الآخِرين
اِخْلَعي الأَلقابَ إلا لقبًا   عَبقريًّا، هو (أُمُّ المحسنين)
ودَعِي المالَ يَسِرْ سُنَّتَه   يَمْضِ عن قومٍ لأَيدي آخرين
واقْذِفي بالهمِّ في وَجه الثَّرى   واطرحي منْ حالِقٍ عِبْءَ السنين[٨]
واسخري من شانِئٍ أَو شامتٍ   ليس بالمخطِئِ يومُ الشامِتين
وتعزّي عن عَوادي دولةٍ   لم تَدُمْ في وَلَدٍ أَو في قَرين
وازهدِي في موكبٍ لو شِئتِه   لتغطّى وجهُها بالدارعين[٩]
ما الذي رَدَّ على أَصحابه؟   ليس يُحيي مَوكبُ الدّفنِ الدفين
رُبَّ محمولٍ على المِدفع ما   مَنَعَ الحَوْضَ، ولا حاط العَرين[١٠]
باطلٌ من أُممٍ مَخدوعةٍ   يَتحدَّوْنَ به الحقَّ المبين
في (فَروقٍ) ورُباها مأْتمٌ   ذرَفَتْ آماقَها فيه العيون
قام فيها، من عَقِيلات الحِمى   مَلأٌ بُدِّلْنَ مِنْ عِزٍّ بهُون
أُسَرٌ مالت بها الدنيا، فلم   تَلْقَ إلا عندكِ الركنَ الركين
قد خلا (بيبكُ) من حاتمه   ومن الكاسِين فيه الطاعمين[١١]
طارت النعمةُ عن أَيْكَتِه   وانقضى ما كان من خَفضٍ ولِين
اليتامى نُوَّحٌ ناحيةً   والمساكينُ يَمُدُّون الرَّنين
دولةٌ مالت، وسُلطانٌ خلا   دُووِلَتٍ نُعماهُ بينَ الأَقربين
مُنهضُ الشرقِ (عَلِيٌّ) لم يزل   من بنيه سيِّدٌ في (عابدين)
يُصلِحُ اللهُ به ما أَفسدَت   فَتَرَاتُ الدهر من دُنيا ودين
أُمَّ عبَّاسٍ، ومالِي لم أَقُلْ:   أُمَّ مصرٍ من بناتٍ وبنين؟
كنتِ كالورد لهم، واستقبلوا   دولةَ الرَّيْحانِ حينًا بعدَ حِين
فيقال: الأُمُّ في موكبها   ويُقالُ: الحرَمُ العالي المصون[١٢]
(العفيفيُّ) عفافٌ وهُدًى   (كالبَقِيعِ) الطُّهْرِ ضَمّ الطاهرين[١٣]
ادخلي الجنّةَ من رَوْضتِه   إنّ فيها غرفةً للصابرين

هوامش

(١) أخذت نعشك مصر باليمين: تعبير مقصود به القول إن مصر كلها أظهرت اهتمامًا وعناية كبيرين في استقبال نعش الفقيدة. أمَّا الشطر الثاني من البيت فهو كناية عن أن النعش كان يحوي ذخيرة من الذخائر المقدَّسة، ومن أجل ذلك قام جبريل (عليه السلام) أمين الملائكة بحراسته حتى يسلِّم هذه الذخيرة لقومها يدًا بيد.

(٢) النحر: موضع القلادة من الصدر. الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(٣) جارية: سفينة، وفي القرآن الكريم: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأَعلام﴾.

(٤) جؤجؤ السفينة: مقدمها، وسكانها: مؤخرها.

(٥) مرمرة: بحر في بلاد الترك، يقول: إن هذه السفينة لم تحمل من شاطئ تلك البلاد نعش ميتة، وإنما حملت خلاصة السؤدد وجوهر الكنز الثمين.

(٦) السنى، بالقصر: الضوء، وبالمد: الرفعة.

(٧) نضته: خلعته. الآفلين: جمع آفل. والأفول للشموس: المغيب.

(٨) حالق الجبل: أعلاه، كأنه يقول: إن الموت ارتفاع عظيم.

(٩) الدارعين: جمع دارع، أي لابس الدرع.

(١٠) العرين: مأوى الأسد. يقول كثير ممَنْ تحمل نعوشهم فوق المدافع لم يدافعوا عن الحق، ولم يمنعوا العدوان عن الحمى، فما دام هذا المظهر قد يناله في الدنيا غير مستحقه، فهو إذن ليس بذي خطر، وليس بالذي يعتزُّ به حقيقة.

(١١) بيبك: قصر الفقيدة في الآستانة، كان مصيفها كل عام. حاتم: اسم رجل يضرب به المثل في الكرم البالغ، فيقال: كرم حاتمي. وقد اشتهرت الفقيدة بالكرم، ومن أجل ذلك قيل لها أم المحسنين.

(١٢) يشير هذا البيت على أن الفقيدة العظيمة كانت أم خديو وزوجة خديو.

(١٣) العفيفي: علم على الموضع الذي أقيم فيه مدفن الفقيدة بجوار مدفن قرينها.

الدكتور أحمد فؤاد[1]

أَوْحَتْ لطَرْفِكَ فاستهلَّ شُئُونا   دارٌ مَرَرْتَ بها على (قَيْسونا)[1]
غاضَت بشاشتُها، وفَضَّتْ شملَها   دنيا تَغُرُّ السادِرَ المفتونا
نزَلَتْ عَوادِي الدهرِ في ساحاتها   وأَقلَّ رَفْرَفها الخطوبَ العُونا[2]
فتكادُ مِنْ أسف على أَسِي الحِمَى   من كلِّ ناحيةٍ تثور شُجونا
تلك (العيادةُ) لم تكن عَبَثًا، ولا   شَرَكًا لصَيْدِ مَآربٍ وكَمينا
دارُ (ابنِ سِينَا) نُزِّهَتْ حُجُراتُها   عن أَن تَضُمّ ضَلالةً ومُجونا[3]
خَبَتِ المطالعُ مِنْ أَغرَّ مُؤَمَّلٍ   كالفجر ثَغْرًا، والصَّبَاح جَبينا[4]
ومِنَ الوُفودِ، كأَنهم مِنْ حَوْلِه   مَرْضَى (بعيسى الروحِ) يَستشفونا
مَثَلٌ تَصوَّر من حياةٍ حرَّةٍ   للنشْءِ يَنطِق في السكوت مُبينا
لم تُحْصَ من عهدِ الصِّبا حَرَكاتُه   وتَخالُهنَّ من الخُشوع سُكونا
جَمَحَتْ جِراحُ المُعْوِزين، وأَعضلَتْ   أَدْواؤهُم، وتَغَيَّبَ الشافونا[5]
ماتَ الجوادُ بطِبِّه وبأَجره   ولربَّما بذلَ الدواءَ مُعينا
وتَجُسُّ راحتُه العليلَ، وتارةً   تَكسو الفقيرَ، وتُطعِم المِسكينا
أَدَّى أَمانةَ علمِه، ولطالَما   حَمَلَ الصداقةَ وافيًا وأَمينا

[1] كان الدكتور أحمد فؤاد مثالاً نادرًا من أمثلة حسن الخلق، ونابغة من نوابغ الطب المعدودين، وقد توفي سنة ١٩٣١.

وقضى حقوقَ الأَهلِ، يُحسِن تارةً ... بأَبيه، أَو يَصِل القرابة حينا
خُلقٌ ودينٌ في زمانٍ لا ترى ... خُلقًا عليه ولا تُصادِف دينا
أَمُداوِيَ الأَرواحِ قبل جُسومِها ... قُمْ داوِ فيك فؤاديَ المحزونا
روِّحْ بلفظك كلَّ رُوحِ مُعذَّبٍ ... حَيرانَ طار بلُبِّه الناعونا
قد كال للقدَر العِتابَ، ورُبَّما ... ظنَّ المُدَلَّهُ بالقضاءِ ظُنونا[٦]
داوَيْتَ كلَّ مُحطَّمٍ فشفيْتهُ ... ونسِيتَ داءً في الضلوع دَفينا
كبدٌ على دَمِها اتَّكأْتَ ولحْمِها ... فحَمَلْتَ همَّ المسلمين سِنينا
ظلَّتْ وراءَ الحربِ تَشقَى بالنَّوَى ... وتَذوب للوطن الكريمِ حنينا
ناصرتَ في فجر القضيَّة (مصطفى) ... فنَصَرْتَ خُلْقًا في الشَّباب مَتينا[٧]
أَقدمْتَ في العشرين تحتَ لوائِه ... وروائعُ الإِقدام في العشرينا
لم تَبغِ دُنيا طالما أَغضَى لها ... حُمْسُ الدّعاةِ وطَأْطَئُوا العِرنينا[٨]
رُحْمَاكَ (يوسفُ) قِفْ رِكَابَك ساعةً ... واعطِفْ على يعقوبَ فيه حزينا[٩]
لم يَدْرِ خلفَ النعشِ من حرِّ الجَوى ... أُيشُقُّ جَيْبًا، أَم يَشُقُّ وَتينا؟[١٠]
ساروا بمُهجتِه، فحُمِّلَ ثُكْلَها ... وقَضَوْا بعائله، فمالَ غَبينا[١١]
أَتعودُ في رَكْبِ الربيعِ إِذا انثنى ... بَهِجًا يَزُفُّ الوردَ والنَّسرينا؟
هيهات من سَفرِ المنيَّة أَوْبةٌ ... حتى يُهيبَ الصُّبحُ بالسارينا
ويقالُ للأَرض الفضاءِ: تمخَّضي ... فتردَّ شيخًا أَو تمجّ جنينا
الله أَبقى! أَين مِنْ جَسدي يدٌ ... لم أَنْسَ رِفقَ بَنانِها واللِّينا؟[١٢]
حتى تَمَثَّلتِ العِنايةُ صورةً ... تُومِي براحٍ، أَو تُجِيلُ عيونا
فجررَتُ جُثماني، وهانت كُربةٌ ... لولا اعتِناؤكَ لم تكن لِتهونا
إِنّ الشفاءَ من الحياةِ وعونِها ... ما كان آسٍ بالشفاءِ ضَمينا
واليومَ أَرْتجلُ الرِّثاءَ، وأَنزَوِي ... في مأْتمٍ أَبكي مع الباكينا
سبحانَ من يرثُ الطبيبَ وَطِبَّه ... ويُرِي المريض مصارعَ الآسينا!![١٣]

هوامش

(١) قيسون: علم على مسجد بهذا الاسم في شارع محمد علي بالقاهرة كانت دار الفقيد قريبة منه، الشئون: الدموع. يقول: إن المرور على هذه الدار يجعل العين تفيض دمعًا؛ حزنًا لما أصاب تلك الدار من الخمول بعد النباهة، والسكون بعد الحركة، والوجوم بعد الطلاقة والسرور، وهذا لفقد صاحبها طبعًا.

(٢) أقل: حمل. الرفوف: شيء مثل الطاق يجعل عليه طرائف البيت. العون: جمع عوان. الخطوب العون: أي التي نزلت مرَّة قبل هذه. يريد أن هذه الدار قد عرفت عوائق الدهر وخطوبه قبل هذا الخطب الأخير الذي حلَّ بها.

(٣) يشبِّه الفقيد في الطب والأمانة للعلم بابن سينا.

(٤) خبت المطالع: انطفأ نورها.

(٥) أدواء: جمع داء.

(٦) المدله: الذي ذهب فؤاده من همٍّ وعشق ونحوه.

(٧) يشير إلى أنه كان من الأنصار الكبار للزعيم مصطفى كامل باشا.

(٨) حمس: جمع حمس، بكسر الميم، أو أحمس، وهو الصلب في القتال والعقيدة، والحمس: لقب لقريش، ومَنْ تابعهم في الجاهلية لتحمُّسهم والتجائهم للحمساء، أي الكعبة، العرنين: الأنف.

(٩) يشبِّه الفقيد (عليه السلام)، ليمهد لتشبيه أبيه بسيدنا يعقوب (عليه السلام) في صبره على فراق ابنه ومحنته.

(١٠) الوتين: عرق في القلب إذا قطع مات صاحبه.

(١١) المهجة: تطلق على الدم وعلى الروح، يقال: خرجت مهجته، أي روحه.

(١٢) يشير: إلى أن الفقيد كان أحد أطبائه الذين تمثلت عناية الله به في عنايتهم بعلاجه واعتنائهم بشفائه.

(١٣) الآسينا: جمع آسي، وهو الطبيب.

نجل إمام اليمن[١]

مضى الدهرُ بابن إِمامِ اليَمَنْ — وأَوْدَى بزين شبابِ الزمنْ

وباتَت بصنعاءَ تبكي السيوفُ — عليه، وتبكي القنا في عدن[١]

وأَعْوَلَ نجدٌ، وضجَّ الحجازُ — ومالَ الحُسينُ، فعزَّ الحسن

وغَصَّتْ مَناحاتُه في الخيام — وغَصَّتْ مآتمُه في المُدُن

ولو أَنّ مَيْتًا مَشى للعزاءِ — مشى في مآتمه ذو يَزن[٢]

فتًى كاسمِه كان سيفَ الإله — وسيف الرسولِ، وسيفَ الوطن

ولُقِّبَ بالبدْرِ من حُسنه — وما البدرُ؟ ما قدرُه؟ وابنُ مَنْ؟

عزاءً جميلاً إِمامَ الحِمَى — وهوِّنْ جليلَ الرزايا يهُن

وأَنتَ المُعانُ بإِيمانه — وظنُّك في الله ظنٌّ حسن

ولكن متى رقَّ قلبُ القضاءِ؟ — ومن أَيْن لِلموتِ عقلٌ يَزِن؟

يجامِلُك العربُ النازحون — وما العربيَّةُ إلا وطن

ويجمَعُ قومك بالمسلمين — عظيمُ الفروضِ وسمْحُ السُّنَن

وأَنَّ نبيَّهمُ واحدٌ — نبيُّ الصوابِ، نبيُّ اللَّسَن

ومصرُ التي تجمع المسلمين — كما اجتمعوا في ظلال الرُّكُن[٣]

---

[١] هو الأمير سيف نجل الإمام يحيى، وقد توفي غرقًا وهو يحاول إنقاذ رفيق له من الغرق سنة ١٩٣٣.

تُعزِّي اليَمانِينَ في سَيفهم ... وتأْخذ حِصَّتَها في الحَزَن
وتَقعُد في مأْتم ابنِ الإمامِ ... وتبكيه بالعبَرات الهُتُن
وتَنْشُر رَيحانَتَيْ زَنْبَقٍ ... من الشِّعرِ في رَبَواتِ اليمن
تَرفَّانِ فوق رُفاتِ الفقيدِ ... رفيفَ الجنَى في أَعالي الغُصُن
قَضَى واجبًا، فقضَى دونَه ... فتًى خالص السِّر، صافي العَلن
تطوَّحَ في لُجَجٍ كالجبال ... عِراضِ الأَواسِي طِوَالِ القُنَن[٤]
مَشَى مِشْيَة اللَّيْثِ، لا في السلاح ... ولا في الدُّروع، ولا في الجُنَن[٥]
متى صِرتَ يا بحرُ غمدَ السيوفِ ... وكنا عهدناك غِمدَ السُّفن؟
وكنتَ صِوانَ الجُمانِ الكريمِ ... فكيف أُزِيلَ؟ ولِمْ لَمْ يُصَن؟
ظَفِرْتَ بجوهرةٍ فَذَّةٍ ... من الشرف العبقريِّ اليُمُن
فتًى بذَلَ الروحَ دونَ الرِّفاق ... إليكَ، وأَعطى الترابَ البَدن
وهانتْ عليه مَلاهِي الشبابِ ... ولولا حقوقُ العُلا لم تَهُن
وخاضَك يُنقِذُ أَترابه ... وكان القضاءُ له قد كَمَن
غدْرتَ فتًى ليس في الغادرين وما ... خُنْتَ امرأً وافيًا لم يَخُن
في الشجاعةِ حَتْفُ الشجاعِ ... ولا مَدَّ عمرَ الجبان الجُبُن
ولكن إذا حانَ حَيْنُ الفتى ... قضَى، ويَعيش إذا لم يَحِن[٦]
أَلا أَيُّهذا الشريفُ الرَّضِيُّ ... أَبو السُّجَر الرَّماحِ اللُّدُن
شهيدُ المُروءَةِ كان البَقِيعُ ... أَحقَّ به من تراب اليمن
فهل غسَّلوه بدمعِ العُفاةِ ... وفي كلِّ قلبٍ حزينٍ سكن؟
لقد أَغرَقَ ابنكَ صرْفُ الزمانِ ... وأغرقْتَ أَبناءَه بالمِنن
أَتذكر إذ هو يَطوِي الشهورَ ... وإذ هو كالخِشْفِ (حُلْوٌ) أَغنْ؟[٧]
وإذ هو حولَك حسنُ القصورِ ... وطِيبُ الرياضِ، وصَفْوُ الزمَن؟
بشاشتُه لذَّةٌ في العيون ... ونَغْمتُه لذَّةٌ في الأذن؟
يلاعِب طُرَّتَه في يَدَيْكَ ... كما لاعبَ المُهرُ فضل الرَّسَن؟
وإذ هو كالشبل يَحكِي الأَسودَ ... أَدلّ بمِخْلَبِه وافْتَتَن؟[٨]
فشَبَّ، فقامَ وراءَ العَرينِ ... يَشُبُّ الحروبَ، ويُطفِي الفِتَن؟[٩]
فما بالُه صار في الهامدين ... وأَمسى عَفاءً كأَنْ لم يَكُن؟
نظَمْتُ الدموعَ رِثاءً له ... وفصَّلْتُها بالأَسَى والشَّجَن

هوامش

(١) صنعاء: حاضرة اليمن، عدن: إحدى المواني هناك، وهي على خليج عدن المشهور.

(٢) ذو يزن: أحد أقيال اليمن الأقدمين، ولشجاعة هذا الملك في استرداد عرض أبيه وأجداده أضيفت إليه أساطير كثيرة.

(٣) يريد بالركن: الكعبة.

(٤) القنن: جمع قنة، وهي رأس الجبل. الأواسي من البناء: الدعائم.

(٥) الجنن: جمع جنة، بالضم، وهي ما استترت به من سلاح ودروع ونحو ذلك.

(٦) الحين: الأجل.

(٧) الخشف (مثلثة الخاء): الظبي، الأغن: الذي يخرج صوته من خياشيمه وهذا كناية عن ميعة الشباب.

(٨) الشبل: ولد الأسد إذا أدرك الصيد.. أدل بمخلبه: أي تباهى به وتخايل على أقرانه.

(٩) العرين: بيت الأسد. يشبُّ الحروب: يوقدها.

عبد الله بك الطوير [١]

يا قلبُ، ويْحَكَ والمودّةُ ذِمّة ... ماذا صنَعْت بعهدِ (عبدِ اللهِ)؟
جاذَبتني جنبي عَشيّةَ نَعْيِهِ ... وخَفقْتَ خَفْقَةَ مُوجَعٍ أَوّاه[١]
ولَوَ آنْ قلبًا ذابَ إِثرَ حَبيبه ... لهَوى بك الركنُ الضعيفُ الواهي
فعليك من حُسن المروءَةِ آمرٌ ... وعليك مِن حُسن التجلُّدِ ناه
نزل «الطويِّرُ» في الترابِ منازلاً ... تهوِي المكارمُ نحوَها بشفاه
عَرَصاتُها مَمطورةٌ بمدامعٍ ... مَوْطوءَةٌ بمفارِقٍ وجِباه
لولا يمينُ الموتِ فوقَ يمينه ... فيها؛ لفاضَت من جَنًى ومياه[٢]
يا كابرًا من كابرين، وطاهرًا ... مِن آلِ طُهرٍ عارِفٍ بالله
ومُحكِّمًا عَلَم القضاءِ مكانَه ... في المُقسطينَ الجِلَّةِ الأَنزاه[٣]
وحكيمًا اسْتعصَتْ أَعِنَّتُه على ... كذبِ النعيمِ، وتُرَّهاتِ الجاه
وأَخًا سَقى الإِخوانَ مِنْ (راووقِهِ) ... بودادِ لا صَلِفٍ، ولا تيّاه[٤]
قد كان شعري شغلَ نفسِكَ، فاقترح ... من كلِّ (جائلةٍ) على الأَفواه
أُنزِلْتَ منه حينَ فَاتَكَ جَمْعُه ... في منزلٍ بَهِجٍ بنورِكَ زاه
فاقرأ على «حَسّانَ» منه، لعله ... بفتاه في مدحِ الرسولِ مُباه[٥]

---

[١] المرحوم عبد الله بك الطوير، كان أحد رجال القانون في مصر، وقد توفي سنة ١٩١٥.

وانزل بنور الخلدِ جَدّك، واتَّصِلْ ... بـمـلائـكٍ مـن آلـهِ أَشـبـاه[٦]
نـاعيكَ نـاعي حـاتـمٍ أَو جـعـفرٍ ... فـالـنـاسُ بـيـن نـوازِلٍ ودواهِ[٧]

هوامش

(١) خفق القلب: اضطرب في موضعه. الأوَّاه: كثير التأوه. وفي القرآن الكريم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

(٢) اليمين: يراد بها هنا القوة. الجني: الثمار.

(٣) المقسطين: أي العادلين. الجلة (بكسر الجيم): قوم ساعدة عظماء ذوو أخطار. الأنزاه: جمع نزه: وهو العفيف المتكرم.

(٤) الراووق: المصفاة، كالباطية ونحوها من الآنية التي يوضع فيها المشروب. الصلف: مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرًا.

(٥) حسان: هو ابن ثابت، شاعر الرسول صلوات الله عليه.

(٦) جدك: منصوب على نزاع الخافض، أي انزل على جدك، وكان الفقيد منسوبًا لآل البيت النبوي.

(٧) حاتم: هو الطائي المشهور بالكرم. جعفر: لعله يقصد به جعفر االبرمكي، أو عبد الله ابن جعفر أحد أجواد العرب في العصر الأموي، والمقصود تشبيه الفقيد في كرمه بهذين الرجلين اللذين ضرب المثل بكرمهما.

سعد باشا زغلول[١]

شيَّعوا الشمس ومالوا بضحاها ... وانحني الشرقُ عليها فبكاها
ليتني في الركبِ لمَّا أَفلَتْ ... (يوشعٌ)، همَّتْ، فنادَى، فثناها[١]
جَلَّلَ الصبحَ سوادًا يومُها ... فكأَنَّ الأَرض لم تخلع دُجاها[٢]
انظروا تَلْقَوْا عليها شَفَقًا ... من جِراحاتِ الضحايا ودِماها
وتَرَوْا بَينَ يَدَيْها عَبرةً ... من شهيدٍ يقطرُ الورد شَذاها
آذن الحقُّ ضَحاياها بها ... وَيْحَهُ!! حتى إلى الموتى نَعاها
كفّنوها حُرَّةً عُلْوِيّةً ... كَسَتِ الموتَ جلالاً، وكساها
مِصْرُ في أَكفانها إلا الهدى ... لحمةُ الأَكفانِ حقٌّ وسُداها[٣]
خطر النعشُ على الأَرض بها ... يَحْسِرُ الأَبصارَ في النعش سَناها[٤]
جاءَها الحقُّ، ومِنْ عادتها ... تؤثرُ الحقَّ سبيلاً واتِّجاها[٥]
ما دَرتْ مصرٌ: بدفن صُبِّحَتْ ... أَم على البعثِ أَفاقَتْ مِنْ كَراها؟
صَرَخَتْ تَحسبها بنْتَ الشَّرَى ... طلَبَتْ مِنْ مِخْلَب الموتِ أَباها[٦]
وكأَن الناسَ لمَّا نَسَلوا ... شُعَبُ السيلِ طَغتْ في مُلتقاها
وضعوا الرَّاحَ على النعشِ كما ... يَلمَسونَ الرُّكنَ فارتدَّتْ نزاها

---

[١] زعيم مصر الخالد سعد باشا زغلول المتوفى سنة ١٩٢٧.

خَفضوا في يوم (سعدٍ) هامَهم ... و(بسعدٍ) رَفعوا أَمسِ الجِباها
سائلوا «زَحْلَةَ» عن أَعراسها ... هل مَشى الناعي عليها فمحاها؟[٧]
عَطَّلَ المُصْطافَ من سُمَّارِه ... وجَلا عن ضِفَّة الوادي دُماها[٨]
فتحَ الأَبوابَ ليلاً (دَيْرُها) ... وإلى (الناقوسِ) قامتْ بِيعَتاها
صدَع البرقُ الدُّجَى، تنشرُه ... أَرضُ (سوريا)، وتَطويه سَماها[٩]
يَحمِلُ الأَنباءَ تَسرِي مَوْهِنًا ... كعوادي الثُّكل في حَرِّ سُراها[١٠]
عَرَضَ الشكُّ لها فاضطرَبتْ ... تَطأُ الآذانَ هَمْسًا والشِّفاها
قلتُ: يا قوم اجمعوا أَحلامَكم ... كلُّ نفسٍ في وَرِيدَيْها رَداها[١١]
يا عدوَّ القيدِ لم يلمَحْ له ... شبَحًا في خطَّةٍ إلا أَباها
لا يَضِقْ ذَرْعُكَ بالقيد الذي ... حَزَّ في سُوق الأَوالي وبَراها
وقعَ الرُّسْلُ عليه، والْتَوَتْ ... أَرجلُ الأَحرارِ فيه فعَفاها
يا رُفاتًا مِثلَ رَيْحَانِ الضُّحى ... كلَّلَتْ (عَدْنٌ) بها هامَ رُباها[١٢]
وبقايا هيكل من كرمٍ ... وحياة أَتْرَعَ الأَرض حَياها[١٣]
ودَّعَ العدلُ بها أَعلامَه ... وبكتْ أَنظِمةُ الشُّورى صُواها[١٤]
حَضنتْ نعشك، والتفَّتْ به ... رايةٌ كنت من الذل فِداها
ضمَّت الصدرَ الذي قد ضمَّها ... وتلقَّى السهمَ عنها فوقاها
عجبي مِنها ومن قائدها!! ... كيف يَحمِي الأَعزلُ الشيخُ حِماها؟
مِنْبَرُ الوادي ذَوَت أَعوادُه ... مِن أَواسِيها وجَفَّتْ من ذُراها
مَن رَمَى الفارسَ عن صَهْوَتِها ... ودَها الفُصحى بما أَلجمَ فاها؟
قدَرٌ بالمُدْنِ أَلْوَى والقُرَى ... ودَها الأَجبالَ منه ما دَهاها
غال (بَسْطورا) وأَردَى عُصبةً ... لمسَتْ جُرثومةَ الموتِ يَداها
طافت الكأْسُ بساقي أُمّةٍ ... مِن رَحيقِ الوطنيّاتِ سقاها
عَطِلتْ آذانُها من وَتَرٍ ... ساحرٍ رَنَّ مَليًّا فشجاها
أَرغُنٌ هامَ به وِجْدانُها ... وأَذانٌ عَشِقَتْه أُذْناها
كلَّ يومٍ خطبةٌ روحيّةٌ ... كالمزامير وأَنغامِ لُغاها
دَلَّهَتْ مصرًا، ولو أَنَّ بها ... فَلَواتٍ دَلَّهَتْ وَحْشَ فَلاها
ذائدُ الحقِّ وحامي حَوْضِه ... أَنفَذَتْ فيه المقاديرُ مُناها

أَخَذَتْ (سعـدا) مـن (البـيت) يَدٌ تـأْخـذُ الآسـادَ مـن أَصـل شـراهـا
لـو أَصـابَـت غـيـرَ ذي رُوحٍ لـمَـا سَـلِـمَـتْ مـنـهـا الـثُّـريّـا وسُـهـاهـا
تـتـحـدَّى الـطـبَّ فـي قـفَّـازهـا عِـلَّـةُ الـدهـر الـتـي أَعـيـا دَواهـا
مـن وراءِ الإذنِ نـالَـتْ ضَـيْـغَـمًـا لـم يَـنَـلْ أَقـرانَـه إلا وِجـاهـا
لـم تـصـارِحْ أَصْـرحَ الـنـاسِ يَـدًا ولـسـانًـا، ورُقـادًا، وانـتـبـاهـا
هـذه الأَعـوادُ مـن آدَمَ لَـمْ يَـهْـدَ خُـفَّـاهـا، ولـم يَـعْـرَ مَـطـاهـا
نـقَـلَـتْ (خُـوفـو)، ومـالـتْ (بِـمِـنـا) لم يفُت حَيًّا نصيبٌ من خُطاها[١٥]
تـخْـلِـطُ الـعُـمْـريـنِ: شَـيْـبًـا، وصِـبًـا والـحـيـاتـيـن: شَـقـاءً، ورَفـاهـا
زَوْرَقٌ فـي الـدمـعِ يَـطـفـو أَبـدًا عـرَفَ الـضَّـفَّـةَ إلا مـا تـلاهـا
تـهـلَـع الـثَّـكْـلـى عـلـى آثـارِه فـإذا خَـفَّ بـهـا يـومـا شـفـاهـا
تسكُبُ الدمعَ على (سعدٍ) دمًا أمـةٌ مـن صـخـرةِ الـحـقّ بـنـاهـا
مـن لَـيَـانٍ هـو فـي يَـنْـبُـوعِـهـا وإبـاءٍ هـو فـي صُـمٍّ صَـفـاهـا
لُـقِّـنَ الـحـقَّ عـلـيـه كَـهـلُـهـا واستـقَـى الإيـمانَ بـالـحقِّ فَـتـاهـا
بـذَلَـتْ مـالاً، وأَمْـنًـا، ودمًـا وعـلـى قـائـدهـا أَلـقَـت رَجـاهـا
حـمَّـلـتُـه ذِمَّـةً أَوفـى بـهـا وابـتـلَـتْـه بـحـقـوقٍ فـقـضـاهـا
ابـنُ سـبـعـيـنَ تـلـقَّـى دونـهـا غُـربـةَ الأَسـرِ، ووَعْـثـاءَ نَـواهـا[١٦]
سـفـرٌ مـن عَـدَن الأَرضِ، إلـى مـنـزلٍ أَقـرَبُ مـنـه قُـطُـبـاهـا
قـاهـرٌ أَلْـقَـى بـه فـي صـخـرةٍ دفـعَ الـنـسـرَ إلـيـهـا فَـأَواهـا
كـرِهَـتْ مـنـزلَـهـا فـي تـاجـه دُرّةٌ فـي الـبـحـر والـبـرِّ نـفـاهـا
اسـأَلـوهـا، واسـأَلـوا شـانِـئَـهـا لِـمَ لَـم يَـنـفِ مـن الـدُّرِّ سـواهـا؟
ولَـدَ الـثَّـورَةَ سـعـدٌ حُـرّةً بـحـيـاتَـيْ مـاجـدٍ حُـرٍّ نَـمـاهـا
مـا تَـمـنَّـى غـيـرَهـا نـسـلاً، ومَـنْ يَـلِـدِ الـزَّهـراءَ يَـزْهَـدْ فـي سـواهـا
سـالـت الـغـابـةُ مـن أَشـبـالـهـا بـيـن عَـيْـنَـيْـهِ ومـاجَـتْ بـلـبَـاهـا[١٧]
بـارك الـلـه لـهـا فـي فـرعِـهـا وقَضَـى الخيـرَ لِمصـرٍ في جَنـاهـا
أَوَ لـم يَـكـتُـبْ لـهـا دُسْـتـورَهـا بـالـدمِ الـحـرِّ، ويَـرْفَـعْ مُـنـتـداهـا؟[١٨]
قـد كـتـبـتـاهـا، فـكـانـت صـورةً صَـدْرُهـا حـقٌّ وحـقٌّ مُـنـتـهـاهـا
رَقَـدَ الـثـائـرُ إلا ثـورةً في سيل الحقِّ لم تَخمد جُذاها

قد تَولاَّها صبيًّا فكَوَتْ راحَتَيْهِ، وفَتِيًّا فرعاها[١٩]
جالَ فيها قلمًا مُستنهِضًا ولِسانًا كلَّما أَعْيَتْ حَداها[٢٠]
ورمَى بالنفس في بُركانِها فتلقَّى أَوّلَ الناسِ لَظاها
أَعلِمتم بعد (موسى) مِنْ يَدٍ قذَفَتْ في وجه (فِرْعَوْنَ) عَصاها؟[٢١]
وَطِئَتْ نادبةً صارخةً شاهَ وجهُ الرِّق — يا قوم — وشاها[٢٢]
ظَفِرَتْ بالكِبْر من مُستكبِرٍ ظافرِ الأَيَّامِ مَنصورِ لِواها
القَنا الصُّمّ نَشاوَى حولَهُ وسيوفُ الهندِ لم تَصْحُ ظُباها
أَين مِنْ عَيْنَيَّ نفسٌ حُرَّةٌ كنتُ بالأَمسِ بعينيَّ أَراها؟
كلَّما أَقبلت هَزَّتْ نفسها وتَواصَى بِشرُها بي ونداها
وجرَى الماضي، فماذا ادَّكَرَتْ وادِّكارُ النفسِ شيءٌ من وَفاها؟
أَلمحُ الأَيّامَ فيها، وأَرى من وراءِ السِّنِّ تِمثالَ صِباها
لستُ أَدري حينَ تَّندَى نَضرةً عَلَتِ الشَّيْبَ، أَم الشَّيْبُ عَلاها؟
حَلَّت السبعون في هيكلها فَتَداعَى وهْيَ مَوْفورٌ بِناها
رَوْعةُ النادي إذا جدَّتْ، فإِن مَزَحَتْ لم يُذهِب المَزْحُ بَهاها
يَظفَرُ العُذْرُ بأَقصى سُخطِها ويَنالُ الودُّ غاياتِ رِضاها
ولها صبرٌ على حُسَّادها يُشبه السَّفْحَ، وحِلْمٌ عن عِداها
لستُ أَنسَى صفحةً ضاحكةً تأْخذ النفسَ وتَجرِي في هواها
وحديثًا كرِوايات الهوى جَدَّ للصَّبِّ حَنينٌ فرواها
وقناةً صَعْدَةً لو وُهِبَتْ للسِّماكِ الأَعزلِ اختالَ وتاها[٢٣]
أَين منِّي قلمٌ كنتُ إِذا سمتُه أَن يَرثِيَ الشمسَ رَثاها؟
خانني في يوم (سعدٍ)، وجَرى في المراثي فكَبا دونَ مَداها
في نعيم الله نفسٌ أُوتِيَتْ أَنعُمَ الدنيا فلم تَنسَ تُقاها
لا الحِجَى لمّا تَنَاهَى غَرَّها بالمقاديرِ، ولا العِلمُ زَهاها
ذَهَبَتْ أَوَّابةً مُؤمِنَةً خالصًا من حَيْرَةِ الشكِّ هُداها
آنَسَتْ خَلْقًا ضعيفًا ورأَتْ من وراءِ العالَمِ الفانِي إِلها
ما دعاها الحقُّ إِلا سارَعَتْ ليتَه يومَ «وَصيفٍ» ما دعاها[٢٤]

هوامش

(١) يوشع: أحد أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجل الغروب فأجابه وثنى الشمس عن غروبها.

(٢) جلل الصبح: كساه وغطى ضوءه.

(٣) اللحمة: ما سدى به الثوب، السدى: ضد اللحمة.

(٤) يحسر الأبصار: أي يردُّها كليلة ضعيفة.

(٥) الحق الأول: يقصد به الموت. الحق الثاني: يقصد به العدل.

(٦) بنت الشرى: أنثى الأسد.

(٧) يشير البيت إلى أن أمير الشعراء وقت نعي الفقيد كان يصطاف في زحلة إحدى مصايف لبنان.

(٨) السُّمار: جمع سامر، وهم إخوان الحديث في المساء. الضفة من النهر ومن الوادي: الجانب. الدمى: جمع دمية. وهي الصورة يعملها المثال من الرخام.

(٩) صدع: شق وقطع.

(١٠) الموهن: نصف الليل، أو بعده بنحو ساعة.

(١١) الوريدان: مثنى الوريد، أحد شرايين الجسم.

(١٢) عدن: الجنة. هام رباها، أي رءوس ربواتها. الربوات: الأمكنة المرتفعة فيها.

(١٣) أترع: ملأ. الحيا: المطر.

(١٤) الصوى: جمع صوة — بضم الصاد — وهي حجر يوضع في الطريق كعلامة يهتدى بها.

(١٥) خوفو. ومنا: من ملوك مصر الفراعنة.

(١٦) الوعثاء: الطريق العسر، أو المشقة.

(١٧) اللبا: جمع لباة — كقطاة — وهي أنثى الأسد.

(١٨) المنتدى: البرلمان.

(١٩) يشير إلى عمل سعد باشا في الثورة العرابية وهو في مقتبل شبابه.

(٢٠) أعيت: تعبت. حداها، من قولهم: حدا الإبل، أي ساقها وزجرها.

(٢١) إشارة إلى تحدي موسى لفرعون وسحرته بالعصا، فكانت كما ورد في القرآن: «تلقف ما يأفكون».

(٢٢) شاه وجه الرق: أي قبح.

(٢٣) القناة: الرمح. الصعدة: هي التي نبتت مستوية، فلا تحتاج لتثقيف. السماك: أحد كوكبين نيرين، يوصف أحدهما بالرامح؛ لأن أمامه كوكبًا صغيرًا يسمى رمح السماك ورايته، ويوصف الآخر بالأعزل، حيث لا يوجد أمامه شيء. يقول إن له قوامًا له منح للسماك الأعزل في السماء لاختال به وتباهى على السماك الرامح.

(٢٤) وصيف: يقصد مسجد وصيف، وهي القرية التي توجد فيها ممتلكات الزعيم، والتي قضى بها.

الشاعر الموسيقي فردى[1]

فتى العقلِ والنعمة العالِيَهْ — مضى ومَحاسِنُه باقِيهْ

فلا سُوقَةٌ لم تكن أُنْسَهُ — ولا مَلِكٌ لم تَزِن نادِيَه

ولم تَخْلُ مِن طِيبها بَلدةٌ — ولم تَخلُ من ذِكرها ناحيه

يكادُ إذا هو غَنَّى الورَى — بقافيةٍ يُنْطِق القافيه

يَتِيهُ على الماس بعضُ النُّحاسِ — إذا ضَمَّ أَلحانَه الغاليه

وتَحكم في النفس أَوتارُه — على العودِ ناطقةً حاكيه

وتبلغ موضعَ أَوطارِها — وتُفشِي سَريرَتَها الخافيه

وكم آيةٍ في الأَغانِي له — هي الشمسُ ليس لها ثانيه!

إذا ما تَنادَى بها العارِفون — قل: البرقُ والرعدُ مِنْ غاديه

فإن هَمَسُوا بعدَ جَهْرٍ بها — فَخَفْقُ الحُلِيِّ على الغانيه

لقد شاب (فردى) وجاز المَشِيبَ — و(عَيْدا) شَبِيبتُها زاهيه[1]

تُمثِّلُ مِصرَ لهذا الزمانِ — كما هي في الأَعْصُرِ الخاليه

ونذكر تلكَ الليالي بها — وننشد تلك الرُّؤَى الساريه

ونَبكي على عِزِّنا المُنقَضِي — ونَنْدُبُ أَيّامَنا الماضيه

---

[1] الشاعر الموسيقي فردي أحد أعلام إيطاليا العالميين، وقد توفي سنة ١٩٠١.

فـيـا آل (فـردى)، نُـعـزِّيـكُـمُ   ونـبـكـي مـع الأَسـرةِ الـبـاكـيـه
فَـقَـدَنـا بـمـفـقـودِكـم شـاعِـرًا   يَــقِــلُّ الــزمــانُ لــه راويَــه

هوامش

(١) عيدا: رواية تمثيلية للفقيد.

إسماعيل أباظة باشا[1]

سقى اللهُ (بالكَفْر الأَباظيِّ) مَضْجَعًا تَضَّوع كافورًا من الخلد ساريا
يَطيب ثَرى (بُرْدِينَ) من نَفْح طِيبِه كأَنَّ ثرى (يُرْدِينَ) مَسّ الغَواليا[1]
فيا لَكَ غِمدًا من صَفيحٍ وجَنْدَلٍ حوَى السيفَ مَصقولَ الغِرارِ يَمانيا[2]
وكنا استلَلْنا في النوائب غَرْبَهُ فلم يُلْفَ هيّابًا، ولم يُلْف نابيا[3]
إذا اهتزَّ دونَ الحقِّ يَحمِي حِياضَه تأَخَّر عنها باطلُ القومِ ظاميا
طَوَتْهُ يدٌ للموت، لا الجاهُ عاصمًا إذا بَطَشتْ يومًا، ولا المالُ فاديا
تنالُ صِبا الأَعمارِ عند رَفِيفِهِ وعندَ جُفوفِ العُودِ في السِّنِّ ذاويا
وبعضُ المنايا تُنْزلُ الشَّهْدَ في الثرى ويَحْطُطْنَ في التُّرْب الجبالَ الرواسيا
يقولون: يَرثي الراحلين، فوَيْحَهُم! أَأَمَّلْتُ عندَ الراحلين الجَوازيا؟
أَبَوْا حسدًا أَن أَجعل الحيَّ أُسْوَةً لهم، ومثالاً قد يُصادِفُ حاذيا
فلمَّا رثَيْتُ الميْتَ أَقْضِي حقوقَه وَجَدْتُ حسودًا للرُّفات وشانيا
إذا أَنت لم ترْعَ العهودَ لهالكٍ فلستَ لحيٍّ حافظَ العهد راعيا
فلا يَطْوِيَن الموتُ عهدَك من أَخٍ وهَبْهُ بوادٍ غيرِ واديك نائيا
أَقام بأَرضٍ أَنت لاقِيه عندَها وإن بِتُّما تستبعدان التلاقيا

[1] إسماعيل أباظة باشا: أحد سراة الزعماء في البلاد المصرية، كان صاحب الصوت المتبوع في الجمعية التشريعية، وقد توفي سنة ١٩٢٧ بعد أن ترك خلفه تاريخاً حافلاً بالمواقف الوطنية المحمودة.

رَثيْتُ حياةً بالثناءِ خليقةً ... وحلَّيْتُ عهدًا بالمفاخِر حاليا
وعزَّيْتُ بيتًا قد تبارَتْ سماؤُه ... مَشايِخَ أَقمارًا، ومُرْدًا دَراريا[٤]
إلى الله (إسماعيلُ) وانزِلْ بساحةٍ ... أَظلَّ النَّدَى أَقطارَها والنواحِيا
تَرَى الرحمةَ الكبرى وراءَ سمائها ... تَلُفُّ التُّقَى في سَيْبِها والمَعاصيا
لدى مَلِكٍ لا يَمنع الظلَّ لائذًا ... ولا الصَّفحَ توَّابًا، ولا العفوَ راجيا
وأَقسمُ كنتَ المرءَ لم يَنْسَ دِينَهُ ... ولم تُلْهِهِ دُنياؤه وهْيَ ما هيا
وكنتَ إذا الحاجاتُ عَزَّ قضاؤها ... لحاجِ اليتامى والأَرامِلِ قاضيا[٥]
وكنتَ تُصلِّي بالملوكِ جماعةً ... وكنت تقوم الليلَ بالنفس خاليا
ومَن يُعْطَ من جاهِ الملوك وَسِيلةً ... فلا يَصنع الخيراتِ؛ لم يُعْطَ غاليا
وكنتَ الجريءَ النَّدْبَ في كلِّ موقفٍ ... تلفَّتَ فيه الحقُّ لم يَلْقَ حاميا[٦]
بَصُرتُ بأَخلاقِ الرجالِ فلم أَجدْ ... — وإن جَلَّت الأَخلاقُ — للعزم ثانيا
من العزمِ ما يُحيي فُحولاً كثيرةً ... وقدَّمَ كافورَ الخَصِيّ الطَّواشِيا
وما حطَّ مِنْ رَبِّ القصائد مادحًا ... وأَنزلهُ عن رتبةِ الشعر هاجيا
فليس البيانُ الهجوَ إن كنتَ ساخطًا ... ولا هو زُورُ المدحِ إن كنتَ راضيا
ولكنْ هُدى اللهِ الكريمِ ووَحْيُه ... حَملتَ به المصباحَ في الناسِ هادِيا
تُفيض على الأَحياءِ نورًا، وتارةً ... تُضيءُ على الموتى الرَّجامَ الدَّواجيا[٧]
هياكلُ تَفْنَى، والبيانُ مُخلَّدٌ ... أَلا إنّ عِتْقَ الخمرِ يُنْسِي الأَوانيا
ذهبْت (أَبا عبدِ الحميدِ) مُبَرَّءًا ... من الذَّام، محمودَ الجوانبِ، زاكيا[٨]
قليلَ المساوِي في زمانٍ يَرى العُلا ... ذُنوبًا، وناسٍ يَخْلُقون المساويا
طوَيناك كالماضي تَلقَّاه غِمدُه ... فلم تسترح حتى نشرناك ماضيا[٩]
فكنتَ على الأَفواه سيرةَ مُجمِلٍ ... وكنت حديثًا في المسامع عاليا
وَفَيْتَ لمَنْ أَدناكَ في الملك حِقبةً ... فكانَ عجيبًا أَن يَرى الناسُ وافيا
أَثاروا على آثار مَوْتِكَ ضَجّةً ... وهاجُوا لنا الذكرى، وَردُّوا اللياليا
ومَن سابَقَ التاريخَ لم يَأْمَن الهوى ... مُلِجًّا، ولم يَسلَم منَ الحِقْدِ نازيا[١٠]
إذا وضَعَ الأَحياءُ تاريخَ جيلِهم ... عَرفتَ المُلاحي مِنهمو، والمُحابيا
إذا سلم الدستورُ هان الذي مضى ... وهان ممن الأَحداثِ ما كان آتيا[١١]
أَلا كلُّ ذَنْبٍ لِلَيالي لأَجلِه ... سَدَلْنا عليه صَفحَنا والتناسيا[١٢]

هوامش

(١) بردين: قرية الفقيد، وهي من أعمال مديرية الشرقية. الغوالي جمع غالية، وهي المسك.

(٢) الغرار من السيف: حدُّه.

(٣) غرب السيف: حدُّه أيضًا. نابي: كليل لا يقطع.

(٤) يشبه شيوخ الأسرة الأباظية بالأقمار، وشبابها المرد بدراري النجوم، على حين أن هذه الأقمار والنجوم تتبارى في الإشعاع والإضاءة.

(٥) حاج: جمع حاجة.

(٦) الندب: الخفيف عند الحاجة إليه.

(٧) الرجام: القبور. الدواجي — جمع داجية: المظلمة.

(٨) زاكيا: أي ناميًا مباركًا.

(٩) الماضي، في أول البيت: السيف، وفي آخره: من الزمن الماضي.

(١٠) نازيًا: أي واثبًا. والملح المتمادي في الخصومة.

(١١) الأحداث: نوازل الأَيام.

(١٢) سدلنا عليه الصفح: أي سحبنا على كل الذنوب إعراضنا وسترناها بغفراننا.

علي بهجت[١]

أَحــقٌّ أَنــهــم دفَــنــوا عَــلِــيًّــا وحَطُّوا في الثَّرى المرءَ الزكيّا؟
فما تركوا من الأَخلاق سَمْحًا على وجه الترابِ، ولا رَضِيًّا؟
مَضوْا بالضاحك الماضي وأَلْقَوْا إِلى الحُفَر الخَفيفَ السَّمْهَرِيَّا
فَمَنْ عَوْنُ اللغاتِ على مُلِمٍّ أَصاب فصيحَها والأَعجميَّا؟
لقد فَقَدَتْ مُصَرِّفَها حنينًا وبات مكانُه منها خَلِيًّا
ومن يَنْظُرْ يَرَ الفُسْطاطَ تبكي بفائضةٍ من العَبَرَاتِ رِيًّا
أَلم يَمْشِ الثرى قِحَةً عليها وكان رِكابُها نحوَ الثُّرَيّا؟
فَنَقَّبَ عن مواضعها عَلِيٌّ فجَدَّد دارسًا، وجَلا خَفِيّا
ولولا جُهْدُهُ احتجَبَتْ رُسومًا فلا دِمَنًا تُرِيكَ ولا نُؤِيًّا
تلفَّتَت الفنونُ وقد تَوَلَّى فلم تَجِد النصيرَ ولا الوَلِيّا
سَلوا الآثارَ: مَنْ يَغدو يُغالي بها، ويروحُ محتفِظًا حَفِيًّا؟
ويُنْزِلُها الرُّفوفَ كجوهريٍّ يُصَفِّفُ في خزائنها الحُلِيَّا؟
وما جَهِلَ العَتِيقَ الحُرَّ منها ولا غِبِيَ المُقَلَّدَ والدَّعِيَّا

---

[١] رثى أمير البيان «أحمد شوقي» فقيد العلم والعاديات المغفور له «علي بهجت» بهذه اليتيمة العصماء التي قيلت في حفلة تأبينه، وهي كما يراها القارئ الكريم، أخذة من أخذ السحر ومعجزة من معجزات الشعر (نُشِرَت بجريدة الأخبار بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٢٤).

فتىً عاف المشاربَ من دَنايا وصان عن القَذَى ماءَ المُحَيَّا
أَبيُّ النفس في زمنٍ إذا ما عَجَمْتَ بنيهِ لم تجِدِ الأَبيَّا
تعوَّدَ أَن يراه الناس رأْسًا وليس يَرَوْنَه الذنبَ الدَّنيَّا
وَجَدْتُ العلمَ لا يبني نُفُوسًا ولا يغني عن الأَخلاق شَيَّا
ولم أَر في السلاح أَضلَّ حَدًّا مِنَ الأَخلاق إِنْ صَحِبَتْ غَوِيّا
هما كالسيف، لا تُنْصِفْهُ يَفْسُدْ عليكَ، وخُذْهُ مُكتمِلاً سَوِيًّا
غديرٌ أَترعَ الأَوطانَ خيرًا وإِن لم تَمتلئ منه دَوِيًّا
وقد تأْتي الجداولُ في خشوعٍ بما قد يُعْجِزُ السَّيلَ الأَتِيّا
حياةُ مُعَلِّمٍ طفِئَتْ، وكانتْ سراجًا يُعجبُ الساري وَضيًّا
سبقتُ القابسين إِلى سَناها ورُحتُ بنورها أَحْبُو صَبيًّا
أَخذْتُ على أَريبٍ أَلمَعِيٍّ ومَنْ لكَ بالمعلِّم أَلْمَعِيّا؟
ورُب مُعلِّمٍ تلقاه فَظًّا غليظ القلبِ، أَو فَدْمًا غبيًّا
إِذا انتدب البنون لَها سيوفًا من الميلاد ردَّهُمُ عِصيًّا
إِذا رَشَد المعلمُ كان مُوسَى وإِن هو ضَلَّ كان السامِريَّا
ورُبَّ معلِّمِينَ خَلَوْا وفاقوا إِلى الحرية انساقُوا هديًّا
أَناروا ظلمةَ الدنيا، وكانوا لنار الظالمين بها صِلِيًّا
أَرِقْتُ وما نَسِيتُ «بناتِ بومٍ» على «المطريَّة» اندَفعَتْ بُكيّا
بكَتْ وتأَوَّهَتْ، فَوَهِمْتُ شَرًّا وقبلي داخَلَ الوَهْمُ الذَّكِيا
قلبتُ لها الحذَيَّ، وكان مني ضلالاً أَن قلبتُ ما الحذيَّا
زَعَمْتُ الغَيْبَ خلفَ لسانِ طيرٍ جَهِلْتُ لسانَه فزعَمتُ غيّا
أَصاب الغيبَ عند الطير قومٌ وصار البومُ بينهمو نَبيّا
إِذا غَنّاهمو وجدوا سَطِيحًا على فمه، وأَفْعَى الجُرْهُمِيّا
رمى الغربانُ شيخَ تَنوخَ قبلي وراش من الطويل لها دَوِيًّا
نحا من ناجذيْهِ كلُّ لحمٍ وغُودِرَ لحمهُنّ به شَقِيًّا
نَعَسْتُ فما وجدتُ الغَمْضَ حتى نَفَضْتُ على المَناحَةِ مُقْلَتَيّا
فقلتُ: نذيرةٌ وبلاغُ صِدْقٍ وحَقٌّ لم يُفاجئ مَسْمَعَيّا
ولكنَّ الذي بَكَتِ البوَاكِي خليلٌ عزَّ مَصرعُه عَليَّا

ومَن يُفجَعْ بِحُرٍّ عبقريٍّ   يَجدْ ظلمَ المنيّةِ عبقريّا
ومن تَتراخَ مُدَّتُه فيُكثِرْ   من الأَحبابِ لا يُحْصِي النَّعِيَّا
أَخي، أَقبِلْ عَلَيَّ من المنايا   وهاتِ حديثَك العذبَ الشَّهيَّا
فلم أَعدِم إذا ما الدُّورُ نامت   سميرًا بالمقابر أَو نَجِيّا
يُذكِّرني الدُّجَى لِدَةً حَمِيمًا   هنالكَ باتَ، أَو خِلاًّ وَفِيَّا
نَشَدْتُكَ بالمنيّة وهْيَ حقٌّ   أَلم يَكُ زُخْرُفُ الدنيا فَرِيَّا
عَرفْتَ الموتَ معنًى بعد لفظٍ   تَكلَّمْ، واكشِفِ المعنى الخَبِيَّا
أَتاك من الحياة الموتُ فانظُرْ   أَكنتَ تموت لو لم تُلْفَ حَيَّا؟
ولِلأَشياءِ أَضدادٌ إِليها   تصير إِذا صبَرْتَ لها مَليَّا
ومُنْقَلَبُ النجومِ إِلى سكونِ   من الدَّوَرانِ يَطويهنّ طيَّا
فخَبرني عن الماضين؛ إِني   شدَدْتُ الرَّحْلَ أَنتظرُ المُضِيَّا
وَصِفْ لي منزلاً حُمِلوا إِليه   وما لمحوا الطريقَ ولا المُطِيّا
وكيف أَتى الغنيُّ له فقيرًا   وكيف ثَوى الفقيرُ به غَنِيَّا؟
لقد لَبِسُوا له الأَزياءَ شتَّى   فلم يقبل سوى التَّجريدِ زِيَّا
سواءٌ فيه مَنْ وافى نهارًا   ومَنْ قذف اليهودُ به عَشِيّا
ومَنْ قطع الحياة صَدًا وجوعًا   ومَنْ مَرّتْ به شِبَعًا ورِيَّا
ومَيْتٌ ضَجَّتِ الدنيا عليه   وآخَرُ ما تُحِسُّ له نعِيَّا

الباب الرابع

متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع

الْجَامعَةُ الْمِصْرِيَّةُ

«أنشأها في حفلة افتتاح منشآت الجامعة المصرية سنة ١٩٣١»

تـاجَ الـبـلادِ، تـحـيـةٌ وسـلامُ ... رَدَّتك مـصـرُ، وصـحَّـت الأَحـلامُ
العلمُ والمُلكُ الرفيعُ؛ كلاهما ... لك — يا «فؤادُ» — جلالةٌ ومقام
فكأَنك المأْمونُ في سُلطانِه: ... فـي ظـلِّـك الأَعـلامُ، والأَقـلامُ[١]
أَهدَى إِليك الغربُ من أَلقابه ... في العلمِ ما تسمو له الأَعلام
من كلِّ مملكةٍ، وكلِّ جماعةٍ ... يسعى لك التقديرُ والإِعظام
ما هذه الغُرَفُ الزواهرُ كالضُّحى ... الـشَّـامـخـاتُ كـأَنـهـا الأَعـلامُ؟
من كلِّ مرفوعِ العمودِ مُنَوِّرٍ ... كالصبحِ مُنْصَدِعٌ به الإِظلام
تتحطَّم الأُمِّيَّةُ الكبرى على ... عَـرَصـاتِـه، وتـمـزَّقُ الأَوهـام
هذا البناءُ الفاطِميُّ مَنارةٌ ... وقـواعـدٌ لـحـضـارةٍ ودِعـام
مهدٌ تَهَيَّأَ للوليدِ، وأَيكةٌ ... سَيَرِنُّ فيها بُلبلٌ وحَمام
شُرُفاته نورُ السبيلِ، وركنُه ... للعبقريّةِ مَنزلٌ ومُقام
وملاعبٌ تجري الحظوظُ مع الصبَّا ... في ظِلِّهِنَّ، وتُوهَبُ الأَقسام[٢]
يمشِي بها الفِتْيانُ، هذا ما له ... نفس تُسَوِّدُه، وذاك عِصامُ[٣]
أَلقَى أَواسِيَهُ، وطال بركنِه ... نَفْسٌ من الصيِّدِ الملوكِ كُرام[٤]
من آلِ إِسماعيلَ، لا العَمَّاتُ قد ... قصَّرن عن كرم، ولا الأَعمام

لم يُعْطَ هِمَّتَهم، ولا إِحسانَهم ... بان على وادي الملوك هُمام
وبنى فؤادٌ حائطَيْه، يُعِينُه ... شعبٌ عن الغاياتِ ليس يَنام
أُنظر أَبا الفاروقِ غرسَكَ، هل دَنَتْ ... ثمراتُه، وبدت له أَعلامُ؟
وهل انثنى الوادي وفي فمه الجَنَى ... وأَتى العراقُ مُشاطرًا والشام؟
في كلِّ عاصمةٍ وكلِّ مدينةٍ ... شُبانُ مِصْرَ على المناهل حاموا
كم نستعيرُ الآخرِين ونَجْتَدِي ... هيهات! ما للعارِيات دَوام
اليومَ يَرْعَى في خمائلِ أَرضِهم ... نَشَأ إِلى داعي الرَّحيلِ قِيام
حبٌّ غَرَسْتَ بِراحَتَيْكَ، ولم يَزلْ ... يَسقيه من كِلتا يديك غمام
حتى أَنافَ على قوائمِ سُوقِهِ ... ثمرًا تَنوءُ وراءَه الأَكمام
فقريُبه للحاضرين وليمةٌ ... وبعيدُه للغابرين طعام
عِظةٌ لفاروقٍ وصالحِ جيلهِ ... فيما يُنيلُ الصبرُ والإقدام
ونَموذجٌ تَحذُو عليه، ولم يَزَلْ ... بسَراتِهمْ يتشبَّهُ الأَقوام
شيَّدت صَرْحًا للذخائرِ عاليًا ... يَأْوي الجمالُ إِليه والإلهام
رَفٌّ عُيونُ الكُتْبِ فيه طوائفٌ ... وجلائلُ الأَسفارِ فيه رُكام
إِسكندرِيَّةُ، عاد كنزُكِ سالمًا ... حتى كأَنْ لم يلتهمْه ضِرامُ
لمَّتْهُ من لَهَبِ الحريق أَناملٌ ... بَرْدٌ على ما لامَسَتْ، وسَلام
وأَسَتْ جِراحَتَكِ القديمة راحةٌ ... جُرْحُ الزمانِ بعُرْفِها يَلتام
تَهَبُ الطريفَ من الفَخارِ، وربَّما ... بَعَثَتْ تَليدَ المجدِ وهْوَ رِمام
أَرَأَيتَ رُكنَ العلم كيف يُقامُ؟ ... أَرأَيتَ الاستقلالَ كيف يُرامُ؟
العلمُ في سُبلِ الحضارةِ والعُلا ... حادٍ لكلِّ جماعةٍ، وزِمام
باني الممالكِ حينَ تنشُدُ بانيًا ... ومَثابةُ الأَوطانِ حينَ تُضام
قامتْ رُبوعُ العلم في الوادي، فهل ... للعبقريّةِ والنبوغِ قيَام؟
فهما الحياةُ، وكلُّ دُورِ ثقافةٍ ... أَو دُورِ تعليمٍ هي الأَجسام
ما العلمُ ما لم يَصْنعاه حقيقةٌ ... للطالبين، ولا البيانُ كلام
يا مِهرَجانَ العلمِ، حولك فرْحَةٌ ... وعليك من آمال مِصرَ زِحام
ما أَشبهتْكَ مواسمُ الوادي، ولا ... أَعيادُه في الدهر، وهْي عِظام
إِلا نهارًا في بشاشة صُبحِهِ ... قعد البُناةُ، وقامت الأَهرام

وأَطال «خوفو» من مواكبِ عِزِّه ... فاهتزَّت الرَّبَواتُ، والآكام
يُومِي بتاجٍ في الحضارة مُعْرِقٍ ... تعْنُو الجِباهُ لعِزه، والهام
تاجٌ تنقَّلَ في العُصورِ مُعَظَّمًا ... وتألَّفتْ دُوَلٌ عليه جِسام
لمَّا اضطلعتَ به مَشَى فيه الهدى ... ومراشدُ الدستورِ، والإسلام
سَبقتْ مواكبُك الربيعَ وحُسْنَه ... فالنيلُ زهْوٌ، والضِّفافُ وِسام
الجيزةُ الفيحاءُ هَزَّت منكبًا ... سبغ النوالُ عليه والإنعام
لبست زخارفَها، ومشَّتْ طِيبَها ... وتردّدتْ في أَيْكها الأَنغامُ
قد زدتها هَرمًا يُحَجُّ فِناؤه ... ويُشدُّ للدنيا إليه حِزام
تقفُ القرونُ غدًا على درجاتِه ... تُمْلي الثناءَ، وتكتبُ الأَيام
أَعوامُ جهدٍ في الشبابِ، وراءَها ... من جهد خيرِ كهولةٍ أَعوام
بلغَ البناءُ على يديك تمامَهُ ... ولكل ما تبني يداك تمام

بَنْكُ مِصْر

«أُنْشِدَتْ في مجلس الاحتفال بوضع الحجر الأول في أساس «بنك مصر» في مايو ١٩٢٥».

نُراوَحُ بالحوادثِ، أَو نُغادَى ... ونُنكرُها، ونُعطيها القِيادا
ونحمَدُها وما رعتَ الضَّحايا ... ولا جزتِ المواقفَ والجهادا
لحَاها اللهُ؛ باعَتنا خيالاً ... من الأَحلامِ، واشترتِ اتّحادا
مشيْنا أَمسِ نلقاها جميعًا ... ونحنُ اليومَ نلقاها فُرادَى[6]
أَظلَّتْنا عن الإصلاح، حتى ... عَجَزْنا أَن نُناقشَها الفسادا
تُلاقِينا، فلا نَجِدُ الصياصي ... ونَلقاها، فلا نجدُ العَتادا[7]
ومَنْ لَقِيَ السِّباعَ بغيرِ ظفرٍ ... ولا نابٍ تمزَّقَ أَو تفادَى
خَفضنا من عُلُوِّ الحقِّ حتى ... تَوهَّمنا السيادةَ أَن نُسادا
ولمَّا لم نَنلْ للسيفِ رَدًّا ... تنازعْنا الحمائلَ والنِّجادا
وأَقبلنا على أَقوالِ زورٍ ... تجيءُ الغَيَّ تَقلِبُهُ رَشادا
ولو عُدنا إليها بعدَ قرْنٍ ... رَحمنا الطِّرْسَ منها والمِدادا

وكم سحرٍ سمعنا منذُ حينٍ تضاءَلَ بين أَعيُننا ونادى
هنيئًا للعدوِّ بكلِّ أَرضٍ إذا هو حلَّ في بلدٍ تَعادَى
وبُعدًا للسيادةِ والمعالي إذا قَطَعَ القرابةَ والوِدادا
وربَّ حقيقةٍ لابدَّ منها خدعْنا النشْءَ عنها والسَّوادا
ولو طلعوا عليها عالجوها بهمّةِ أَنفسٍ عَظُمت مُرادا
تُعِدُّ لحادثِ الأَيام صبَرًا وآونةً تُعِدُّ له عِنادا
وتخلِف بالنُّهى البيضَ المواضي وبالخُلق المثقَّقةَ الصِّعادا
لمحنا الحَظَّ ناحيةً، فلمَّا بلغناها أَحسَّ بنا، فحادا
وليس الحظُّ إلا عبقريًّا يُحبُّ الأَرْيَحِيَّةَ، والسَّدادا
ونحن بنو زمانٍ حُوَّليٍّ تَنَقَّلَ تاجرًا، ومَشَى، ورَادا
إذا قعد العِبادُ له بِسوقٍ شَرى في السوق، أَو باع العبادا
وتُعجبه العواطفُ في كتابٍ وفي دمع المُشَخِّصِ ما أَجادا
يُؤَمِّننا على الدستورِ أَنَّا نَرى من خلفِ حَوْزَتِه فؤادا
أَبو الفاروقِ نرجوه لفضلٍ ولا نخشى لِما وَهبَ ارتدادا
ملأْنا باسمه الأَفواهَ فخرًا ولقَّبناه بالأَمسِ (المكادا)[8]
نُناجيه، فنسترعِي حكيمًا ونسأَله فنستجدي جَوَادَا
ولم يزلِ المحبَّبَ، والمفدَّى ومرهَمَ كلِّ جُرحٍ، والضِّمادا
تَدفَّق مَصْرِفُ الوادي، فروَّى وصابَ غمامُهُ، فسقى، وجادا
دعا فتنافسَتْ فيه نُفوسٌ بمصرَ لكلِّ صالحةٍ تُنادَى
تُقدِّمُ عونَها ثِقةً ومالاً وأَحيانًا تُقدِّمُهُ اجتهادا
وأَقبلَ من شبابِ القومِ جمعٌ كما بنتِ الكهولُ بنَى، وشادا
كأَن جوانبَ الدارِ الخلايا وهم كالنحل في الدار احتشادا
فيا دارًا من الهِمَمِ العوالي سُقيتِ التِّبرَ، لا أَرْضَى العِهادا[9]
تأَنَّى حينَ أَسَّسَكِ ابنُ حربٍ وحينَ بنَى دعائمَكِ الشِّدادا
ولا تُرجَى المتانةُ في بناءٍ إذا البنَّاءُ لم يُعْطَ أتِّئادا
بنى الدارَ التي كنّا نراها أَمانيَّ المخيَّل، أَو رُقادا
ولم يَبْعُدْ على نفسٍ مَرَامٌ إذا ركِبَتْ له الهِمَمَ البِعادا

ولـم أَرَ بـعـدَ قـدرتِـه تـعـالـى كـمَـقـدِرَةِ ابـنِ آدمَ إِن أَرادا
جرى والناسُ في ريب وشكٍّ يَرومُ السَّبْقَ، فاخترقَ الجيادا
وعـودِيَ دونَـهـا حـتـى بَـنـاهـا ومن شأْنِ المجدِّدِ أَن يُعادى
يَهونُ الكيدُ مِنْ أَعدَى عدُوٍّ عليكَ إِذا الوليُّ سَعى وكادا
فـجـاءَت كـالـنـهـارِ إِذا تـجـلَّـى عُلُوًّا في المشارقِ وانطيادا[١٠]
نـصـونُ كـرائـمَ الأَمـوالِ فـيـهـا ونُـنـزِلـهـا الـخـزائـنَ والـنِّـضـادا
ونُخرجُها، فتكسِبُ، ثُمَّ تأْوِي رُجوعَ النَّحْل قد حُمِّلنَ زادا
ولـم أَرَ مـثـلَـهـا أَرضًـا أغـلَّـتْ وما سُقيَتْ، ولا طَعمَتْ سَمادا
ولا مُـسـتـوْدعًـا مـالاً لـقـومٍ إِذا رجـعـوا لـه أَدَّى وزادا
ومـن عـجـبٍ نُـثـبِّـتُـهـا أُصـولاً وتِلك فروعُها تَغشَى البلادا
كأَنّ القُطْرَ من شوقٍ إِليها سَما قبلَ الأَساسِ بها عِمادا
ولو مَلكتْ كنوزَ الأَرضِ كَفِّي جَعلْتُ أَساسَها ماسًا ورادا
ولو أَن النجومَ عَنَتْ لحُكمي فـرشـتُ الـنـيِّـراتِ لـهـا مِـهـادا

دَارُ بَنْك مصْرَ

«نظمها لتُنْشَدَ في حفلة افتتاح الدار الجديدة لبنك مصر في يونيو سنة ١٩٢٧»

نَـبذَ الـهـوى، وصَـحـا مـن الأَحـلامِ شَـرقٌ تـنـبَّـهَ بـعـدَ طـولِ مَـنـام
ثـابَـتْ سـلامـتُـه، وأَقـبـل صَـحْـوُهُ إِلا بَـقـايـا فَـتْـرَةٍ وسَـقـام
صاحتْ به الآجامُ: هُنْتَ! فلم يَنَمْ، أَعَـلـى الـهـوانِ يُـنـامُ فـي الآجـامِ؟
أُمَـمٌ وراءَ الـكـهـفِ جُـهُـدُ حَـيـاتِـهـم حركاتُ عيشٍ في سُكونِ حِمام
نفضوا العيونَ من الكرَى، واستأنفوا سَـفـرَ الـحـيـاة، ورِحـلـةَ الأَيَّـام
مَنْ ليس في رَكْبِ الزمانِ مُغَبِّرًا فـاعْـدُدْهُ بـيـن غـوابـرِ الأَقـوام
فـي كـلِّ حـاضـرةٍ وكـلِّ قـبـيـلـةٍ هِـمَـمٌ ذَهـبْـنَ يَـرُمْـن كـلَّ مَـرام
مِـن كـلِّ مُـمـتـنـعٍ عـلـى أَرسـانِـه أَو جامعٍ يَعدو بنِصفِ لِجام
يـا مِـصْـرُ، أَنـتِ كِـنـانـةُ الـلـهِ الـتـي لا تُـسـتـبـاحُ، ولـلـكِـنـانـةِ حـامِ

استَقبِلي الآمالَ في غاياتها وتأَمَّلِي الدُّنيا بطَرْفٍ سام
وخُذِي طَريفَ المجدِ بعدَ تَليدِه من راحتَيْ مَلِكٍ أغرَّ هُمام
يُعْنَى بِسُؤْدد قومِه، وحُقوقِهم ويَذودُ دونَ حِياضِهم، ويُحامى
ما تاجُكِ العالي، ولا نُوَّابُه بالحانِثين إليكِ في الإِقسام
جَرَّبْتِ نُعْمَى الحادثاتِ وبُؤسَها أَعَلِمْتِ حالاً آذَنَتْ بدوامِ؟
عَبَسَتْ إلينا الحادثاتُ، وطالما نَزَلَتْ فلم نُغْلَبْ على الأَحلام
وَثَبَتْ بقومٍ يَضْمِدون جِراحَهم ويُرَقِّدون نَوازِيَ الآلام
الحقُّ كلٌّ سلاحِهم وكفاحِهم والحقُّ نِعْمَ مُثَبِّتُ الأَقدام
يَبنون حائطَ مُلْكِهم في هُدنَةٍ وعلى عواقبِ شِحنَةٍ وخِصام
قلْ للحوادث: أَقدِمي، أَو أَحجِمي إنَّا بَنو الإقدامِ والإِحجام
نحن النيامُ إذا الليالي سالَمَتْ فإذا وَثَبْنَ فنحنُ غيرُ نيام
فينا من الصبرِ الجميلِ بقيّةٌ لحوادثٍ خَلْفَ الغُيوبِ جِسام
أَين الوُفودُ المُلتقونَ على القِرَى المُنزَلون مَنازلَ الأكرامِ[١١]
الوارثون القُدْسَ عن أَحبارِه والخالِفونَ أُميَّةً في الشَّام؟
الحامِلو الفُصْحى ونورِ بيانِها يَبنون فيه حضارةَ الإسلام؟
ويُؤلِّفون الشرقَ في بُرْهانِها لمَّ الضياءِ حَواشِيَ الإظلام؟
تاقوا إلى أَوطانِهم، فتحَمَّلوا وهَوَى الديارِ وراءَ كلِّ غرام
ما ضرَّ لو حبَسوا الرَّكائبَ ساعةً وثَنَوْا إلى الفُسطاطِ فضلَ زِمام؟
ليُضيف شاهدُهمْ إلى أَيامِه يومًا أغرَّ مُلمَّحَ الأَعلام
ويرى ويَسمَعَ كيف عادَ حقيقةً ما كان مُمتنِعًا على الأَوهامِ ...
... مِنْ هِمّةِ المحكومِ وهو مُكبَّلٌ بالقيد، لا من هِمَّةِ الحكامِ
مِصرُ التقتْ في مِهرجان مُحمدٍ وتجمَّعَتْ لتحيَّةٍ وسلامِ[١٢]
هَزَّتْ مَناكبَها له، فكأَنه عُرْسُ البيان، وموكبُ الأَقلام
وكأَنه في الفتح عَمُّورِيَّةٌ وكأَنني فيه أَبو تمَّام[١٣]
أَسِمُ العصورَ بحسِنِه، وأَنا الذي يَرْوِي، فينتظمُ العصورَ كلامي
شرفًا محمدُ، هكذا تُبنى العلا: بالصبرِ آونةً، وبالإقدام
هِمَمُ الرجالِ إذا مضتْ لم يَثنِها خدعُ الثناءِ ولا عَوادي الذَّام

وتمامُ فضلِكَ أَن يَعيبَكَ حُسَّدٌ ... يجدون نقصًا عندَ كلِّ تمَام
المالُ في الدنيا منازلُ نُقلةٍ ... من أَين جئتَ له بدارِ مُقام؟!
فرفعتَ إيوانًا كرُكنِ النَّجمِ، لم ... يُضرَبْ على كِسرى، ولا بَهرام
صَيَّرتَ طينتَه الخلودَ، وجئتَ مِنْ ... وادي الملوكِ بجَنْدَلٍ ورَغام
هذا البناءُ العبقريُّ أَتى به ... بيتٌ له فضل وحقٌّ ذِمام
كانت به الأَرقام تُدرَكُ حِسبةً ... واليومَ جاوَز حِسْبَةَ الأَرقام
يا طالما شغف الظنونَ، وطالما ... كثر الرجاءُ عليه في الإلمام
ما زلتَ أَنتَ وصاحباك بِركنه ... حتى استقام على أَعزِّ دِعامِ
أَسَّسْتُمو بالحاسدين جِدارَه ... وبنيتمو بمعاوِل الهدَّام
شَركاتُك الدنيا العريضةُ لم تُنَل ... إلا بطول رعايةٍ وقيام
اللهُ سخَّر للكنانةِ خازنًا ... أَخذ الأَمانَ لها من الأَعوام
وكأَنَّ عهدَك عهدُ يوسُفَ: كلُّه ... ظِلٌّ، وسُنْبُلةٌ، وقَطرُ غَمام
وكأَن مالَ المودِعين وزرعَهم ... في راحتيْك ودائعُ الأَيتام
ما زلتَ تَبني رُكنَ كلِّ عظيمةٍ ... حتى أَتيتَ برابع الأَهرام

دَارُ العُلوم[1]

«أنشدت في الاحتفال الخمسيني لدار العلوم، بمسرح حديقة الأزبكية، في يوليو سنة ١٩٢٧»

اتَّخذتِ السماءَ يا دارُ رُكنا ... وأَوَيْتِ الكواكبَ الزُّهْرَ سَكْنا
وجمعتِ السعادتين، فباتت ... فيك دُنيا الصلاحِ للدين خِدنا
نادَمَا الدهرَ في ذَراكِ، وفَضَّا ... من سُلاف الودادِ دَنًّا فدَنَّا
وإذا الخُلْقُ كان عِقْدَ ودادٍ ... لم ينل منه مَنْ وَشى وتَجنَّى

[1] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

وأَرى العـلـمَ كـالـعـبـادة فـي أَبـ ـــعـدِ غـايـاتِـه: إِلـى الـلـه أَدنـى
واسعَ الـسـاحِ، يـرسـل الـفِـكْرَ فـيـهـا كـلُّ مَـن شـكَّ سـاعـةً أَو تَـظـنَّـى
هـل سـألـنـاً أَبـا الـعـلاءِ وإِن قـلَّـ ــب عـيـنًا فـي عـالـم الـكـونِ وَسْـنَى
كيف يَـهْـزا بـخـالـق الـطـيـرِ مَـنْ لـم يَـعـلـم الـطـيـرَ: هـل بـكـى أَو تـغـنَّـى؟
أَنتِ كـالـشـمـس رفـرفًا، والـسـمـاكـيْـ ــنِ رِواقًـا، وكـالـمَـجَـرَّة صَـحْـنـا
لـو تَـسَـتَّـرْتِ كـنـتِ كـالـكـعـبـة الـغـرَ اءِ ذيـلاً مـن الـجـلال ورُدْنـا
إِن تـكـن لـلـثـواب والـبِـرِّ دارًا أَنـت لـلـحـق والـمـراشـدِ مَـغْـنَـى
قـد بـلـغـتِ الـكـمـال فـي نـصـف قـرنِ كـيـف إِن تـمّـت الـمـلاوة قَـرنـا؟!
لا تَـعُـدِّي الـسـنـيـنَ إِن ذُكـر الـعـ ــلـمُ؛ فـمـا تـعـلـمـيـن لـلـعـلـم سِـنّـا
سوف تـفـنـى فـي سـاحَـتَـيْـكِ الـلـيـالـي وهْـوَ بـاقٍ عـلـى الـمـدى لـيـس يـفـنـى
يـا عـكـاظًـا حـوى الـشـبـابَ فِـصـاحًـا قَـرَشِـيِّـيـن فـي الـمـجـامـع، لُـسْـنـا
بَـثُّـهُـمْ فـي كـنـانـة الـلـهِ نـورًا مِـن ظـلام عـلـى الـبـصـائـر أَخْـنَـى
عـلَّـمـوا بـالـبـيـانِ، لا غُـربـاءَ فـيـه يـومًـا؛ ولا أَعـاجِـمَ لُـكْـنـا
فـتـيـةٌ مـحـسـنـون، لـم يُـخْـلِـفـوا الـعـ ــلـمَ رجـاءً، ولا الـمـعـلِّـمَ ظَـنَّـا
صَـدَعـوا ظُـلـمـةً عـلـى الـريـف حَـلَّـتْ وأَضـاءُوا الـصـعـيـدَ سـهـلاً، وحَـزْنـا
مَـنْ قـضـى مـنـهـمُ تَـفَـرَّق فِـكـرًا فـي نُـهَـى الـنَّـشْءِ، أَو تَـقَـسَّـم ذِهـنـا
نـادِ دارَ الـعـلـوم إِن شـئـتَ: «يـا عـا ئـش»، أَو شـئـتَ نـادهـا: «يـا سُـكـيْـنـا»
قـل لـهـا: يـا ابـنـةَ «الـمـبـاركِ»[١٤] إِيـهِ قـد جَـرَتْ كـاسـمـه أُمـورُكِ يُـمْـنـا
هـو فـي الـمـهـرجـان حَـيٌّ شـهـيـدٌ يَـجْـتَـلِـي غـرْسَ فـضـلِـه كـيـف أَجـنَـى
وهْـوَ فـي الـعُـرْسِ — إِن تـحـجَّـبَ، أَو لـم يَـحْـتَـجِـب — والـدُ الـعـروسِ الـمُـهـنّـا
مـا جـرى ذكـرُه بـنـاديـكِ حـتـى وقـف الـدمـعُ فـي الـشـئـون فـأَثـنـى
رُبَّ خـيـرٍ مُـلِـئـتَ مـنـه سُـرورًا ذَكَّـر الـخـيِّـريـن فـاهـتـجـتَ حُـزْنـا
أَدَرَى إِذ بـنـاك أَنْ كـان يـبـنـي فـوق أَنـف الـعـدو لـلـضـاد حِـصـنَـا؟
حـائـطُ الـمـلـكِ بـالـمـدارس إِن شِـئْـ ــتَ، وإِن شِـئْـت بـالـمـعـاقـل يُـبـنـى
انـظـر الـنـاس، هـل تـرى لـحـيـاةٍ عُـطـلِّـتْ مـن نَـبـاهَـةِ الـذكـرِ مَـعـنـى؟
لا الـغـنـى فـي الـرجـال نـاب عـن الـفـضـ ــلِ وسـلـطـانِـه، ولا الـجـاهُ أَغـنـى
رُبَّ عـاثٍ فـي الأَرض لـم تـجـعـل الأَر ضُ لـه إِن أَقـام أَو سـار وَزنـا

عاش لم ترْمِهِ بعينٍ، وأَودى ... هَمَلاً لم تهَب لناعِيه أُذْنا
نظمَ اللهُ مُلكَه بعبادٍ ... عبقريِّين أَورَثوا المُلكَ حُسنا
شغلتهم عن الحسود المعالي ... إنما يُحسَدُ العظيمُ ويُشنا
من ذكيٍّ الفؤادِ يورِثُ علمًا ... أَو بديعِ الخيالِ يخلُق فنَّا
كم قديمٍ كرُقعةِ الفنِّ حرٍّ ... لم يُقلِّل له الجديدان شأنا
وجديدٍ عليه يختلف الدهـ ... ـرُ، ويفنى الزمانُ قرنًا فقرنا
فاحتفظ بالذخيرتين جميعًا ... عادةُ الفَطْنِ بالذخائر يُعنى
يا شبابًا سَقوْنِيَ الوُدَّ مَحْضًا ... وسقوا شانئي على الغِلّ أَجْنا
كلَّما صار للكهولة شِعري ... أَنشَدوه، فعاد أَمْرَدَ لدْنا
أُسرةُ الشاعرِ الرُّواةُ، وما عَنَّـ ... ـوْهُ، والمرءُ بالقريب مُعَنَّى
هم يضنُّون في الحياة بما قا ... ل، ويُلفَوْنَ في الممات أَضنَّا
وإذا ما انقضى وأَهْلُوهُ لم يَعـ ... ـدَم شقيقًا من الرُّواة أَو ابْنا
النبوغَ النبوغَ حتى تنُصُّوا ... رايةَ العلم كالهلال وأَسنَى
نحن في صورة الممالكِ ما لم ... يُصْبِحِ العلمُ والمعلِّمُ مِنّا
لا تنادوا الحصونَ والسُّفنَ، وادْعُوا العـ ... ـلمُ يُنشِئْ لكم حصونًا وسُفْنا
إنّ رَكْبَ الحضارةِ اخترق الأَرْ ... ضَ، وشقّ السماءَ ريحًا ومُزْنا
وصَحِبْناه كالغبارِ، فلا رَجْـ ... ـلاً شدَدْنا، ولا رِكابًا زمَمْنا
دان آباؤنا الزمانَ مَلِيًّا ... ومَلِيًّا لحادثِ الدهر دِنّا!
كم نُباهِي بلحْدِ مَيْتٍ؟ وكم نحـ ... ـملُ من هادمٍ ولم يَبنِ مَنّا؟!
قد أَنَى أَن نقول: «نحن»، ولا نسـ ... ـمع أَبناءَنا يقولون: «كُنّا»!

إسْكَنْدَرِيَةُ آنَ أَنْ تَتَجَدَّدِي

«نظمها لحفلة افتتاح دار جديدة لبنك مصر في الإسكندرية، في يونيو سنة ١٩٢٩»

أَمسِ انقضى، واليومُ مِرْقاةُ الغدِ ... إسكَنْدَرِيَّةُ، آن أن تتجَدَّدِي
يا غرَّةَ الوادي وسَدَّةَ بابِه ... رُدِّى مكانَكِ في البريةِ يُرْدَدِ

فيضي كأَمسِ على العلوم من النُّهى … وعلى الفنونِ من الجمالِ السَّرْمَدِي

وسِمِي النَّبَالَةَ بالملاحِمِ تتَّسِمْ … وسِمِي الصَّبَابةَ بالعواطف تخلُدِ

وضعِي رواياتِ الخلاعةِ والهوى … لممثِّلين من العصورِ، وشُهَّدِ

لا تجعلي حُبَّ القديمِ وذكرَه … حسراتِ مِضياعٍ، ودفعَ مُبَدِّدِ

إنَّ القديمَ ذخيرةٌ من صالحٍ … تبني المقصِّرَ، أَو تحثُّ المقتدي

لا تفْتَتِنْكِ حضارةٌ مَجلوبةٌ … لم يُبنَ حائطُها بمالِكِ واليَدِ

لو مالَ عنكِ شِراعُها وبُخارُها … لم يبقَ غيرُ الصَّيْدِ والمتصيِّد

وُجدَتْ وكان لغيرِ أَهلِكِ أرضُها … وسماؤها، وكأَنها لم توجَد

جاري النزيلَ، وسابقيه إلى الغنَى … وإلى الحِجا، وإلى العُلا والسُّؤدَدِ

وابني كما يبني المعاهدَ واشرعي … لشبابِك العرفانَ عذْبَ المورْد

إني حَذِرتُ عليك من أَمِّيةٍ … رَبَضتْ كجُنْحِ الغيهَب المتلبِّدِ

أَخزانةَ الوادي، عليكِ تحيَّةٌ … وعلى النَّدِيِّ وكلِّ أَبلَجَ في النَّدِي

ما أَنتِ إلا من خزائنِ يوسفٍ … بالقصدِ، موحِيَةٌ لمن لم يقصِدِ

قُلِّدْتِ من مال البلادِ أَمانةً … يا طالما افتقرَتْ إلى المتقلِّد

وبَلغْتِ من إيمانِها ورجائِها … ما يبلغُ المحرابُ من مُتعبِّد

فلوَ أنَّ أَستارَ الجلالِ سَعَتْ إلى … غيرِ العتيقِ لبِسْتِ مما يَرتدي

إنا نُعَظِّمُ فيكِ أَلوِيَةً على … جَنباتِها حَشْدٌ يَروح ويَغْتدِي

وإذا طعِمْتَ من الخلِيَّةِ شهْدَها … فاشهَدْ لقائدها وللمُتجَنِّد

لا تمنحِ المحبوبَ شُكرَك كلَّه … واقرنْ به شكرَ الأَجيرِ المُجهَد

إسكَندَرِيَّةُ شُرِّفتْ بعِصابةٍ … بيضِ الأَسِرَّةِ، والصحيفةِ، واليد

خدموا حِمى الوطنِ العزيزِ، فبورِكوا … خدَمًا، وبورك في الحمى مِن سَيِّد

ما بالُ ذاك الكوخِ صَرَّحَ وانجلَى … عن حائطَي صَرْحٍ أَشمَّ مُمرَّد؟

مِن كسْرِ بيتٍ، أَو جِدارِ سَقِيفةٍ … رَفع الثباتُ بِنايةً كالفرْقَد

فإذا طلعتَ على جلالةِ رُكنِها … قلْ: تِلك إحدى مُعجزات (محمد)[١٥]

فِتْيَةَ الْوادِي عَرَفْنَا صَوْتَكُمْ

«يُخاطب الشاعر بهذه القصيدة شباب مصر الذين نهضوا بمشروع القرش سنة ١٩٣٢، وهي آخر ما جادت به شاعريته، وكانت تلاوتها يوم وفاته!»

لا يُقِيمَنَّ على الضَّيْمِ الأَسَدْ نزعَ الشِّبلْ من الغابِ الوتِدٍ

كبرَ الشِّبلُ، وشبَّتْ نابُه وتغطَّى مَنْكِباه باللِّبَد

اترُكوه يَمْشِ في آجامِه ودَعوه عن حِمَى الغابِ يَذُد

واعرضوا الدنيا على أَظفارِه وابعثوه في صحاراها يَصِد

فِتيةَ الوادي، عَرَفْنا صَوْتكم مَرْحبًا بالطائرِ الشادِي الغَرِد

هو صوتُ الحقِّ، لم يَبْغِ، ولم يَحمِل الحقدَ، ولم يُخْفِ الحَسَد

وخلا من شهوةٍ ما خالطت صالحًا من عملٍ إلا فسَد

حَرَّك البلبلُ عِطفيْ رَبْوَةٍ كان فيها البومُ بالأَيْكِ انفرَد

زَنْبَقُ المُدْن، ورَيحانُ القُرَى قام في كلِّ طريقٍ وقَعد

باكِرًا كالنَّحل في أَسرابها كلُّ سِربٍ قد تلاقى واحتشد

قد جَنى ما قلَّ من زهْر الرُّبا ثم أَعطى بَدَل الزهر الشُّهُد

بَسَط الكفَّ لمن صادفَه ومَضى يَقْصُرُ خطْوًا ويُمُدّ

يجعلُ الأَوطانَ أُغنِيَّتَه ويُنادِي الناسَ: مَنْ جادَ وجَد

كلَّما مرَّ ببابٍ دَقَّه أَو رأَى دارًا على الدرب قصَدْ

غاديًا في المدْنِ، أَو نحوَ القرى رائحًا يسأَلُ قِرشًا للبلد

أَيُّها الناسُ، اسمعوا، أصغوا له أَخرجوا المال إِلى البِرِّ يَعُدْ

لا ترُدُّوا يَدَهم فارغةً طالبُ العوْنِ لمصرٍ لا يُرَدّ

سيَرى الناسُ عجيبًا في غدٍ يغرسُ القرشُ، ويَبني، ويَلِدْ

يُنهِض اللهُ الصناعاتِ به من عِثارٍ لبِثتْ فيه الأَبد

أَو يَزيد البرَّ دارًا قعدتْ لكفاح السُّلِّ، أَو حربِ الرَّمد

وهْوَ في الأَيدي، وفي قدرتِها لم يَضِقْ عنه ولم يَعجِزْ أَحد

تلك مصرُ الغدِ تبني مُلكها نادت الباني وجاءَت بالعُدَدْ

وعلى المالِ بَنتْ سلطانَها ثابتَ الآساسِ مرفوعَ العَمَد

وأَصارتْ بنكَ مصرٍ كهفها ... حبَّذا الركنُ وأَعظِمْ بالسند
مَثَلٌ مِن هِمَّةٍ قد بَعُدَتْ ... ومداها في المعالي قد بَعُد
ردَّها العصرُ إلى أسلوبِه ... كلُّ عصرٍ بأَساليبَ جُدُد
البنونَ استنهضوا آباءَهم ... ودعا الشبلُ من الوادي الأسد
أَصبحت مصرُ، وأَضحى مجدُها ... هِمَّةَ الوالدِ، أَو شُغلَ الولد
هذه الهِمَّةُ بالأَمس جَرَتْ ... فحَوَتْ في طلب الحقِّ الأَمد
أَيُّها الجيلُ الذي نرجو لِغدْ ... غدْك العِزُّ، ودنياك الرَّغد
أَنت في مَدْرَجَةِ السَّيلِ، وقد ... ضلَّ مَنْ في مَدْرَجِ السيلِ رَقد
قدْت في الحقِّ، فقدْ في مثلهِ ... من نواحي القصدِ أَو سُبْل الرشد
رُبَّ عامٍ أَنت فيه واجدٌ ... فادَّخرْ فيه لعامٍ لا تجِدْ
علِّمِ الآباءَ، واهتف قائلاً: ... أَيُّها الشعبُ، تَعاوَنْ واقتصِد
اجمعِ القرشَ إلى القرشِ يكنْ ... لك من جمعهما مالٌ لُبَدْ
اطلبِ القطنَ، وزاوِلْ غيرَه ... واتَّخذْ سوقًا إذا سُوقٌ كَسَدْ
نحن قبل القطن كنَّا أُمَّةً ... تهبِط الوادي، وتَرْعى، وتَرِدْ
قد أخذنا في الصناعات المَدَى ... وبَنَيْنا في الأَوالي ما خَلَد
وغَزلنا قبلَ إدريسَ الكُسا ... ونسجْنا قبلَ داوُدَ الزَّرَد
إن تكُ اليومَ لواءً قائدًا ... كم لواءٍ لك بالأَمسِ انعقد!

عِيدُ الْجِهَاد[٢]

«نظمها احتفالاً بعيد الجهاد الوطني في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٦»

خَطَوْنا في الجِهادِ خُطًا فِساحَا ... وهادَنَّا، ولم نُلقِ السِّلاحَا
رَضينا في هوى الوطنِ المفدَّى ... دمَ الشهداءِ والمالَ المُطاحا

---

[٢] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

ولمّا سُلَّت البِيضُ المواضي   تقلَّدْنا لها الحقَّ الصُّراحا
فحطَّمْنا الشَّكيمَ سِوَى بقايا   إذا عَضَّتْ أَرَيْناها الجِماحا
وقمنا في شِراعِ الحق نَلْقَى   وندفع عن جوانبه الرِّياحا
نُعالجِ شِدَّةً، ونَروض أُخرى   ونسعى السعَي مشروعًا مباحا
ونستولي على العقبات إلا   كَمِينَ الغيبِ والقَدَرَ المُتاحا
ومَنْ يَصبِرْ يَجِدْ طولَ التمنِّي   على الأَيام قد صار اقتراحا
وأَيامٍ كأَجواف الليالي   فقَدْنَ النجمَ والقمرَ اللِّياحا
قضيناها حِيالَ الحربِ نخشى   بقاءَ الرِّق، أَو نرجو السَّراحا
تَرَكْنَا الناسَ بالوادي قعودا   من الإِعياءِ كالإبل الرَّزاحى
جنود السِّلْم لا ظَفَرٌ جَزاهم   بما صبروا، ولا موتٌ أَراحا
ولا تلْقى سوى حيٍّ كَميْتِ   ومنزوف وإِن لم يُسْقَ راحا
ترى أَسْرَى وما شهدوا قِتالاً   ولا اعتَقلوا الأَسِنَّةَ والصِّفاحا
وجَرْحَى السَّوْطِ لا جَرْحَى المواضي   بما عمل الجواسيسُ اجتراحا
صباحُك كان إِقبالاً وسعدًا   فيا يومَ الرِّسالةِ، عِمْ صبَاحا
وما تألوا نهارَكَ ذكرياتٍ   ولا برهانَ عِزَّتِك التِماحا
تكاد حِلاك في صفحات مصرٍ   بها التاريخُ يُفتتح افتتاحا
جلالُك عن سَنا الأَضحى تَجلَّى   ونُورُك عن هلالِ الفطر لاحا
هما حقٍّ، وأَنت مُلِئْتَ حقًّا   ومَثَّلْتَ الضحيَّةَ والسَّماحا
بَعثنا فيك «هارونًا وموسى»   إلى «فرعونَ» فابتَدَآ الكفاحا[١٦]
وكان أَعزَّ مِن رُوما سيوفًا   وأَطغى من قياصرِها رماحا
يكاد من الفتوح وما سَقَتْهُ   يَخالُ وراءَ هيكلِه «فِتاحا»
ورُدَّ المسلمون فقيل: خابوا   فيا لَكِ خيبةً عادت نجاحا!
أَثارت واديًا من غايَتَيْه   ولامَتْ[١٧] فُرْقةً وأَسَتْ جِراحا
وشَدَّتْ مِن قُوَى قَومٍ مِراضٍ   عزائمهم فردَّتْها صِحاحا
كأَن بِلالَ نُودِيَ: قُمْ فأَذِّنْ   فرَجَّ شِعابَ مكةَ والبِطاحا
كأَن الناس في دينٍ جديدٍ   على جنباته استبَقوا الصلاحا
وقد هانت حياتُهُمُ عليهم   وكانوا بالحياةِ هُمُ الشِّحاحا

فتسمع في مآتمهم غِناءً ... وتسمع في ولائمهم نُواحا
حَواريِّينَ أوفَدْنا ثِقاتٍ ... إذا تُرِكَ البلاغُ لهم، فِصاحا
فكانوا الحقَّ منقبضًا حَييًّا ... تحدَّى السيفَ مُنصلِتا وَقاحا
لهم مِنَّا براءَةُ أَهلِ بدرٍ ... فلا إثمًا نَعُدُّ ولا جُناحا
ترى الشَّحناءَ بينهمو عِتابًا ... وتحسب جِدَّهم فيها مُزاحا
جعلنا الخلدَ منزلَهم، وزدنا ... على الخلدِ الثناءَ والامتداحا
يمينًا بالتي يُسَعَى إليها ... غُدُوًّا بالندامة، أو رَوَاحا
وتَعبَقُ في أنوف الحجِّ رُكنًا ... وتحتَ جِباهِهم رَحْبًا، وساحا
وبالدستور، وهُوَ لنا حياةٌ ... نرى فيه السلامةَ والفلاحا
أَخذناه على المُهَجِ الغوالي ... ولم نأخذه نيلاً مُستماحا
بنينا فيه من دمعٍ رِواقًا ... ومن دمِ كلِّ نابتةٍ جناحا ...
... لما ملأَ الشبابَ كروح سعدٍ ... ولا جعل الحياةَ لهم طِمَاحا
سَلوا عن القضيةَ، هل حَماها ... وكان حِمى القضيةِ مُستباحا؟
وهل نظم الكهولَ الصِّيدَ صَفًّا ... وأَلَّف من تجارِبهم رَداحا؟
هو الشيخُ الفتِيُّ، لو استراحت ... من الدأَب الكواكبُ ما استراحا
وليس بذاقِ النومِ اغتباقًا ... إذا دار الرقادُ، ولا اصطِباحا
فيا لَكَ ضَيْغَمًا سهِر الليالي ... وناضل دونَ غايتِه، ولاحَى
ولا حَطَمَتْ لك الأَيامُ نابًا ... ولا غَضَّت لك الدنيا صِياحا

مَعَالِي الْعَهْد

«نظمها في ميلاد الأمير السابق محمد عبد المنعم»

مَعالي العهدِ قُمْتَ بها فَطِيما ... وكانَ إليكَ مرجِعُها قديما
تنقَّلْ من يدٍ لِيدٍ كريما ... كرُوحِ الله إذ خلفَ «الكَلِيما»[١٨]
تنَحَّى لابنِ مريمَ حينَ جاءَ ... وخلَّى النَّجْمُ لِلقَمَرِ الفَضاءَ
ضياءٌ لِلعيون تَلا ضياءَ ... يَفيضُ مَيامِنًا، وهُدًى عَميما

كذا أَنتم بَنِي البيتِ الكريمِ ... وهل مُتَجَزِّئٌ ضوْءُ النُّجومِ؟
وأَين الشُّهْبُ من شرفٍ صَميمِ ... تأَلَّقَ عِقدُهُ بِكُمُو نَظيما؟
أَرى مُستقبَلاً يَبدو عُجَابا ... وعُنوانًا يُكِنُّ لنا كتابا
وكان «محمدٌ» أَملاً شِهابا ... وكان اليأْسُ شيطانًا رَجيما
وأَشرقتِ (الهياكِلُ) والمباني ... كما كانت وأَزينَ في الزمانِ
وأَصبحَ ما تُكِنُّ من المعاني ... على الآفاق مَسطورًا رَقيما
سأَلتُ، فقيل لي: وضَعَتْهُ طِفلا ... وهذا عِيدُهُ في مِصْرَ يُجْلَى
فقلت: كذلِكم آنَسْتُ قَبْلا ... وكان اللهُ بالنجوَى عليما
(بمُنْتَزَهِ) الإِمارةِ هلَّ فجرَا ... هِلالاً في منازِله أَغَرّا
فباتت مِصرُ حوْلَ المهدِ (ثَغْرَا) ... وباتَ الثَّغرُ للدنيا نديما
لِجيلِكَ في غدٍ جيلِ المعالي ... وشَعْبِ المجدِ والهِمَمِ العوالي ...
... أَزُفُّ نوابغَ الكَلِمِ الغَوالي ... وأُهدِي حكمتي الشَّعْبَ الحكيما
إذا أَقبلتَ يا زمنَ البنينا ... وشَبُّوا فيك واجتازوا السنينا
فدُرْ مِنْ بَعدِنا لهُمُو يَمينا ... وكن لوُرودِك الماءَ الحميما
ويا جيلَ الأَميرِ، إِذا نَشَأْتا ... وشاءَ الجَدُّ أَن تُعطي، وشِئتا
فخذْ سُبُلاً إِلى العلياءِ شَتَّى ... وخَلِّ دَلِيلَكَ الدينَ القويما
وضِنَّ به؛ فإِن الخير فيه ... وخُذْهُ من الكتابِ وما يَليهِ
ولا تأْخُذْهُ من شَفَتَيْ فقيهِ ... ولا تَهجُرْ مع الدين العُلوما
وثِقْ بالنَّفْسِ في كلِّ الشّئونِ ... وكن مما اعتقدتَ على يَقينِ
كأَنك من ضميرِك عند دِينِ ... فمن شَرفِ المَبادئ أَن تُقيما
وإِن تَرُمِ المظاهرَ في الحياةِ ... فرُمْها باجتهادِك والثباتِ
وخُذها بالمساعي باهراتِ ... تُنافِسُ في جلالتها النجوما
وإِن تَخرُجْ لحربٍ أَو سلامِ ... فأَقْدِمْ قبلَ إِقدامِ الأَنام
وكن كالليث: يَأْتي من أَمامِ ... فيَمْلأ كلَّ ناطِقةٍ وُجُوما
وكنْ شَعْبَ الخصائصِ والمزايا ... ولا تَكُ ضائعًا بينَ البَرَايا
وكن كالنحلِ والدُنيا الخلايا ... يمرُّ بها، ولا يَمضِي عَقيما
ولا تطمحْ إِلى طَلَبِ المُحالِ ... ولا تقنعْ إِلى هجرِ المعالي

فإن أَبطأنَ فاصبرْ غيرَ سالِ كصبرِ الأَنبياءِ لها قديما
ولا تقبَلْ لغير اللهِ حُكما ولا تحمِل لغيرِ الدهرِ ظُلما
ولا تَرْضَ القليلَ الدُّونَ قِسْما إذا لم تَقدرِ الأَمرَ المروما
ولا تيأَسْ، ولا تكُ بالضَّجُور ولا تثِقَنَّ من مَجرَى الأُمورِ
فليسَ مع الحوادثِ من قديرِ ولا أَحدٌ بما تأْتِي عليما
وفي الجُهّالِ لا تَضَع الرجاءَ كوَضع الشمْسِ في الوَحَلِ الضيَّاءَ
يَضيعُ شُعاعُها فيه هَباءَ وكان الجهلُ ممقوتًا ذَميما
وبالغِ في التدَبُّرِ والتَحرِّي ولا تَعجَلْ، وثِق من كلِّ أَمر
وكن كالأُسْدِ: عند الماءِ تجرِي وليست وُرَّدًا حتى تَحوما
وما الدنيا بمثوىً للعبادِ فكن ضَيْفَ الرِّعاية والوِدادِ
ولا تَستَكثِرَنَّ من الأَعادي فشَرُّ الناسِ أكثرُهم خُصوما
ولا تجعلْ تودُّدَكَ ابتِذَالا ولا تسمَحْ بحلمِك أَن يُذالا
وكن ما بين ذاك وذاك حالا فلن تُرضِي العدُوَّ ولا الحميما
وصلِّ صلاةَ من يَرْجُو ويَخْشَى وقبلَ الصَّوْمِ صُمْ عن كلِّ فَحْشا
ولا تَحسب بأَن الله يُرشَى وأَن مُزَكِّيًا أَمِنَ الجحيما
لكلِّ جَنًّى زكاةٌ في الحياةِ ومعنى البِرِّ في لفظِ الزكاة
وما لله فينا من جُباةِ ولا هو لاِمْرِئٍ زكَّى غَريما
فإن تكُ عالمًا فاعمل، وفَطِّنْ وإن تك حاكما فاعدِلْ، وأَحسِنْ
وإن تك صانعًا شيئًا فأَتقِنْ وكن للفرْضِ بعدئذٍ مُقيما
وصُنْ لغةً يَحِقُّ لها الصيِّانُ فخيرُ مظاهِرِ الأممِ البَيَانُ
وكان الشعبُ ليس له لِسانُ غريبًا في مواطِنِه مَضِيما
أَلم تَرَها تُنالُ بكل ضَيْرِ وكان الخيرُ إذ كانت بخير؟
أَيَنطِقُ في المَشَارقِ كلُّ طيرِ ويَبقى أَهلُها رَخَمًا وبُوما؟!
فعلِّمْها صغيرَك قبلَ كلِّ ودعْ دَعْوَى تَمَدُّنهم وخَلِّ
فما بالعِيِّ في الدنيا التَّحَلِّي ولا خَرَسُ الفتى فضلاً عظيما
وخُذ لغةَ المُعاصِرِ، فهْيَ دنيا ولا تجعل لِسانَ الأَصلِ نسْيَا
كما نقلَ الغرابُ فضَلَّ مَشْيا وما بلغَ الجديدَ، ولا القديما

لجيلِك يومَ نشأتِه مَقالي ... فأَما أَنتَ يا نجلَ المعالي
فتنظرُ من أَبيكَ إِلى مِثال ... يُحيِّرُ في الكمالات الفُهوما
نصائحُ ما أَردتُ بها لأهدِي ... ولا أَبغي بها جَدْواكَ بَعْدي
ولكنِّي أُحِبُّ النَّفْعَ جهدي ... وكان النفعُ في الدنيا لزوما
فإِن أُقْرِئْتَ — يا مولايَ — شِعري ... فإِن أَباك يَعرِفُه ويَدْرِي
وجَدُّكَ كان شأْوِي حينَ أَجرِي ... فأصرَعُ في سوابِقِها (تَميما)
بنونا أَنتَ صُبْحُهُمُو الأَجَلُّ ... وعهدُكَ عِصْمَةٌ لهمو وظِلُّ
فلِمْ لا نَرْتَجيكَ لهم وكلُّ ... يعيشُ بأَنْ تعيش وأَن تَدوما؟

رِسَالَةُ النَّاشِئَة

«أهداها إلى الأمير السابق محمد عبد المنعم»

أَحمدُك اللهَ وأُطْرِي الأَنبياءْ ... مَصْدَرَ الحِكمةِ طُرًّا والضياءْ
وله الشكرُ على نُعمَى الوجودْ ... وعلى ما نِلتُ من فضلٍ وَجَودْ
أُعْبُدِ اللهَ بعقلٍ يا بُنيّ ... وبقلب من رجاءِ اللهِ حَيّ
أُرْجُه تُعْطَ مَقاليدَ الفَلَكْ ... واخشَهُ خشْيَةَ مَنْ فيه هَلك
أُنظرِ المُلكَ، وأَكبِرْ ما خَلق ... وتمتَّعْ فيه من خيرٍ رَزَق
أَنت في الكون مَحلُّ التَّكرِمَهْ ... كلُّ شيءٍ لك عبدٌ أَو أَمَهْ
سُخِّرَ العالَمُ من أَرضٍ وماءْ ... لكَ، والريحُ، وما تحتَ السَّماءْ
أُذكرِ الآيةَ إِذ أَنتَ جَنينْ ... لك في الظلمةِ للنورِ حَنينْ
كلَّ يومٍ لك شأْنٌ في الظُّلَمْ ... حار فيه كلُّ «بقراطٍ» عَلَمْ
كان في جَنبِكَ شيءٌ من عَلقْ ... حينَ مَسَّتْهُ يدُ اللهِ خفَقْ
صار حِسًّا وحياةً بعدَ ما ... كان في الأَضلاع لحمْا ودما
دقَّ كالناقُوسِ وَسْطَ الهَيْكل ... في انتفاضٍ كانتفاضِ البُلبُل
قلْ لمن طَبَّبَ، أَو مَنْ نَجَّمَا: ... صَنعَةُ اللهِ، ولكن زِغْتُما
آمنا بالله إِيمانَ العَجُوزْ ... إِن غيرَ اللهِ عقلاً لا يَجوزْ

أَيُّها الطالبُ للعِلمِ استمعْ … خيرَ ما في طلب العلم جُمِعْ
هُوَ إن أُوتِيتَهُ أَسْنَى النِّعَمْ … هل تَرى الجُهّالَ إلا كالنَّعَم؟
اُطلبِ العلمَ لِذاتِ العِلم، لا … لظهورٍ باطلٍ بينَ المَلا
عندَ أَهلِ العلمِ للعلم مَذاقْ … فإذا فاتكَ هذا فافتراقْ
طلبُ المحرومِ للعلمِ سُدَى … ليس للأَعمى على الضوءِ هُدى
فإذا فاتَكَ توفيقُ العليمْ … فامتنعْ عن كل تحصيل عَقيم؛
واطلبِ الرزقَ هنا أَو هاهُنا … كم مَعَ الجهل يَسارٌ وغِنَى!
كل ما علَّمَكَ الدهرُ اعلَمِ … التجاريبُ علومُ الفَهِمِ
إنما الأَيامُ والعيشُ كِتابْ … كلَّ يومٍ فيه للعِبرةِ بابْ
إن رُزِقتَ العلمَ زِنْهُ بالبيانْ … ما يُفيدُ العقلُ إن عَيَّ اللسانْ
كم عليمٍ سَقط العِيُّ به … مُظلمٌ لا تَهتَدِي في كُتْبِهِ
وأَديبٍ فاتهُ العلمُ فما … جاءَ بالحكمةِ فيما نَظَما
إن للعلمِ جميعًا فلسفهْ … مَنْ تَغِبْ عنه تَفُتْهُ المعرفة
اِقرإِ التاريخ إذْ فيه العِبَرْ … ضاعَ قومٌ ليس يَدرون الخبر
كن إلى الموتِ على حُبِّ الوطنْ … مَنْ يَخُنْ أَوطانه يومًا يُخَنْ
وطنُ المرءِ حماهُ المفتدَى … يذكرُ المِنَّةَ منه واليَدَا
قد عرفتَ الدارَ والأَهلَ به … كلُّ حُبٍّ شُعْبةٌ من حُبِّهِ
هو محبوبُك بادٍ محتجِبْ … يعرفُ الشوقَ له مَنْ يَغتَرِبْ
لك منه في الصِّبا مَهدٌ رحيمْ … فإذا وُوريتَ فالقبرُ الكريمْ
كم عزيزٍ عندَكَ استَوْدَعْتَهُ … وعهودٍ بعدَكَ استَرْعَيْتَهُ
ودَفينٍ لك فيه كَرُما … تَذرِفُ الدمعَ لِذكْراهُ دَما
كن نشيطًا عاملاً جمَّ الأَملْ … إنما الصحةُ والرزقُ العملْ
كلُّ ما أَتقنتَ محبوبٌ وَجِيهْ … متقَنُ الأَعمالِ سِرُّ اللهِ فيه
يُقبِلُ الناسُ على الشيءِ الحسَنْ … كلُّ شيءٍ بجزاءٍ وثمنْ
اُنظُرِ الآثارَ، ما أَزْيَنَها! … قد حباها الخلدَ مَنْ أَتقنَها
تلك آثارُ بني مِصرَ الأُوَلْ … أتقَنُوا الصنعةَ حتى في الجُعَلْ
أَيُّها التاجرُ، بُلِّغتَ الأَرَبْ … طالعُ التاجرِ في حُسن الأَدب

بابُ حانوتِكَ بابُ الرازِقِ   لا تُفارقْ بابَهُ، أَو فارِقِ
واحترِم في بابِه مَنْ دَخَلا   كلُّهم منه رسولٌ وصلا
تاجرُ القومِ صَدوقٌ وأَمينْ   لفظةٌ مِنْ فيه للقوم يَمينْ
إن للإقدامِ ناسًا كالأَسُدْ   فتَشبَّهْ؛ إنَّ مَنْ يُقْدِمْ يَسُدْ
مِنهموا كلُّ فتًى سادَ وشادْ   منهمو «إِسكندرٌ» و«ابنُ زياد»
وشجاعُ النفسِ منهم في الكروبْ   كشجاع القلبِ في وقتِ الحروبْ
وَابلٌ «سُقراطُ» والشُّجْعَانُ طلّ   إنما مَن يَنْصُرُ الحقَّ البَطَلْ
هُم جَمالُ الدهر حينًا بعد حين   من غُزاة أَو دُعاة مصلحينْ
لهُمُ من هَيْبةٍ عندَ الأُممْ   ما لِراعي غَنَمٍ عندَ الغَنَمْ
قل إذا خاطبتَ غيرَ المسلمينْ:   لكمو دِينٌ رضِيتُم وَلْيَ دِينْ
خلِّ للدَّيَّانِ فيهم شانَهُ   إنه أَولى بهم سبحانَه!
كلُّ حالٍ صائرٌ يومًا لضِدّ   فدَع الأَقدارَ تجري واسْتعِدَ
فلكٌ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ يَدُورْ   لا تُعارِضْ أَبدًا مَجرَى الأُمورْ
قلْ إذا شئتَ: صُرُوفٌ وغِيَرْ!   وإذا شئتَ: قضاءٌ وقدَرْ!
واعمَلِ الخيرَ، فإِن عِشْتَ لَقِي   طيِّبَ الحمد، وإِن مِتَّ بَقِي
مَنْ يَمُتْ عن مِنَّةٍ عندَ يتيمْ   فرحيمٌ سوف يُجزَى من رَحيمْ
كن كريمًا إِن رأى جُرْحًا أَسا   وتَعَهَّدْ وتوَلَّ البُؤَسَا
واسخُ في الشدّةِ وازْدَدْ في الرَّخاءْ   كلُّ خُلْقٍ فاضلٍ دونَ السَّخاءْ
فبِه كلُّ بلاءٍ يُدْفَعُ   لستَ تدْري في غَدٍ ما يَقعُ
جامِلِ الناسَ تَحزْ رِقَّ الجميعْ   رُبَّ قيْدٍ من جميلٍ وَصَنيعْ
عامِلِ الكلَّ بإحسانٍ تحَبْ   فقديمًا جَمَّلَ المرءَ الأَدبْ
وتَجنَّبْ كلَّ خُلْقٍ لم يَرُقْ   إِن ضيقَ الرِّزقِ من ضيق الخُلُقْ
وتواضَعْ في ارتفاعٍ تُعتَبرْ   فهما ضِدَّان كِبْرٌ وكِبَرْ
كلُّ حَيٍّ ما خلا اللهَ يموتْ   فاترُكِ الكبرَ له والجَبَرُوتْ
وأَرِحْ جَنْبَكَ من داءِ الحسَدْ   كم حسودٍ قد توَفَّاهُ الكَمَدْ
وإذا أُغضِبْتَ فاغضَبْ لعَظيمْ   شَرَفٍ قد مُسَّ، أَو عِرْضٍ كريمْ
وتَجَنَّبْ في الصغيراتِ الغضبْ   إنه كالنارِ والرُّشْدُ الحَطبْ

أُطلـبِ الـحـقَّ بِـرِفْـقٍ تُـحْـمَـدِ طـالِبُ الـحـقِّ بـعُـنْـفٍ مُـعـتـدِ
واعْصِ في أُكثرِ ما تأْتي الهَوى كم مُطيعٍ لِهَوَى النفْسِ هَوَى
اذكـرِ الـمـوتَ ولا تـفـزعْ فـمَـنْ يَحقِرِ الموتَ يَنلْ رِقَّ الزمَنْ
أَحببِ الطفلَ وإن لم يَكُ لكْ إنما الطفلُ على الأَرضِ مَلَكْ
هـو لُطْفُ اللـهِ لـو تـعـلـمُـه رَحِـمَ الـلـهُ امـرَءًا يَـرْحَـمُـه
عَـطْـفـةٌ مـنـه عـلـى لُـعْـبَـتِـهِ تُخرجُ المخزونَ من كُرْبَتِهِ
وحـديـثٌ سـاعـةَ الـضِّـيـقِ مَـعَـهْ يَملأُ العيشَ نعِيمًا وسَعَهْ
يا مُدِيمَ الصومِ في الشهرِ الكريمْ صُمْ عن الغِيبةِ يومًا والنَّميمْ
وإذا صَلَّيْتَ خَفْ مَنْ تَعْبُدُ كم مُصَلٍّ ضَجَّ منه المسجدُ!
واجعلِ الحجَّ إلى «أُمِّ القُرَى» غِـبَّ حَـجٍّ لِـبُـيـوتِ الـفُـقـرا
هـكـذا «طـه» ومَـن كـان مـعَـهْ مِـن وَقـارِ الـلـهِ أَلاَّ تَـخْـدَعَـهْ
وتَـسـمَّـحْ وتـوَسَّـعْ فـي الـزكـاهْ إنـهـا مـحـبـوبـةٌ عـنـد الإلـهْ
فـرَضَ البـرَّ بـهـا فـرْضَ حَـكـيـم فـإذا مـا زِدْتَ فـالـلـهُ كـريـم
ليس لي في طِبِّ «جالينوسَ» باعْ بَيْدَ أَنَّ العَيْشَ درسٌ واطِّلاعْ
احذَرِ التُّخْمَةَ إن كنتَ فَهِمْ إن «عزرائيلَ» في خَلْقِ النَّهِم
واتّـقِ الـبـردَ؛ فـكـم خَـلْـقٍ قَـتَـل مَن تَوَقَّاهُ اتَّقى نِصفَ العِلل
اتخذْ سُكناك في طَلْقِ الجوَاءْ بـيـنَ شـمـسٍ، ونـبـاتٍ، وهَـواءْ
خَيْمَةٌ في البيدِ خيْرٌ من قصورْ تَبْخلُ الشمسُ عليها بالمرورْ
فـي غـدٍ تـأْوِي إلـى قـفْـرٍ حـلـكْ يَستَوي الصُّعلوكُ فيه والمَلِكْ
واترُكِ الخمرَ لِمشغوفٍ بها لا يَرَى مَندوحةً عن شُرْبِها
لا تُـنـادِمْ غـيـرَ مـأَمـونٍ كـريـمْ إن عقلَ البعضِ في كفِّ النديمْ
وعن الميسِرِ ما اسْطَعْتَ ابتعِدْ فهْوَ سلُّ المالِ بل سلُّ الكَبِدْ
وتَـعـشَّـقْ، وتَـعَـفَّـفْ، واتّـقِ مـا دَرَى اللذةَ من لم يَعشَقِ!

حَجُّ الأَمِير

«أرسل الأبيات الآتية في برقية إلى شريف مكة سنة حج الخديو عباس»

دامت معاليك فينا يا ابن فاطمةٍ ... ودام منكم لأُفْق البيتِ نِبراسُ
قل للخديوِ إذا وافيتَ سُدَّتَه ... تمشي إليه ويمشي خلفَكَ الناس
حَجُّ الأَميرِ له الدنيا قد ابتَهَجَتْ ... والعَوْدُ والعيدُ أَفراحٌ وأَعراس
فلتَحْيَ ملَّتُنا! فلتَحْيَ أُمَّتُنا! ... فليحي سُلطانُنا! فليحي عباس!

إسْمَاعِيل

«وقال وقد أشرف في مدينة نابلي على الدار التي كان يقيم فيها الخديو إسماعيل»

أَبكيكَ إسماعيلَ مِصرَ، وفي البُكا ... بعدَ التَّذُّكُرِ راحةُ المسْتَعبِر
ومِن القيامِ ببعضِ حقِّك أَنني ... أَرْقى لِعِزَّكَ والنعيمِ المدبِر
هذي بُيوتُ الرُّومِ، كيف سَكنتَها ... بعد القصورِ المزْرِياتِ بقيْصَر؟
ومن العجائبِ أَنَّ نفسَك أَقصَرَتْ ... والدهرُ في إِحراجِها لم يُقصِر
ما زالَ يُخلي مِنكَ كلَّ مَحِلَّةٍ ... حتى دُفِعْتَ إلى المكانِ الأَقفَرِ
نظرَ الزمان إلى ديارِكَ كلِّها ... نظرَ (الرشِيدِ) إلى منازلِ (جعفر)[١٩]

حَرِيقُ ميتْ غَمْر[٣]

اللهُ يحكمُ في المدائنِ والقُرى ... يا (مِيتَ غَمْرَ) خُذِي القضاءَ كما جرى
ما جَلَّ خَطْبٌ ثم قِيسَ بغيْرِه ... إلا وهوَّنَه القِياسُ وصَغَّرَا

[٣] سنة ١٩٠٥، نشرت بمجلة المجلات العربية.

فسَلى (عمورَةَ) أَو (سدُون) تأَسِّيًا ... أَو (مرْتنيقَ) غداةَ وُوريَتِ الثرى
مُدنٌ لقِينَ من القضاءِ ونارِه ... شَررًا بجَنبِ نَصيبِها مُستَصْغَرا
هذِي طُلولُكِ أَنْفُسًا وحِجَارةً ... هل كنتِ رُكنًا من جَهَنَّمَ مُسْعَرا؟!
قد جئتُ أَبكيها وآخذُ عِبرةً ... فوقفتُ مُعْتَبِرًا بها مُستعبِرا
أَجِدُ الحياةَ حياةَ دهرٍ ساعةً ... وأَرى النعيمَ نعيمَ غُمْرٍ مُقْصِرا
وأَعُدُّ من حَزْمِ الأُمورِ وعزمِها ... للنفس أَن ترضَى، وأَلاَّ تَضْجَرا
ما زلتُ أَسمعُ بالشَّقاءِ روايةً ... حتى رَأيتُ بكِ الشَّقاءَ مُصوَّرا
فعل الزمانُ بشمْلِ أَهلِك فِعْلَهُ ... ببنِي أُمَيَّةَ، أَو قَرابةِ جَعْفَرا
بالأَمسِ قد سكنوا الديارَ، فأَصبحوا ... لا يُنظَرون، ولا مساكنُهم تُرَى
فإذا لقِيت لقيت حيًّا بائسًا ... وإذا رأَيت رأَيت مَيْتًا مُنْكَرا
والأُمهاتُ بغير صبرٍ: هذه ... تبكي الصغيرَ، وتلك تبكي الأَصغرا!
من كلِّ مُودِعَةِ الطُّلولِ دموعَها ... من أَجْلِ طفلٍ في الطلولِ استأْخرا
كانت تُؤمِّل أَن تطولَ حياتُه ... واليومَ تسأَلُ أَن يعودَ فيُقبَرا
طلعتْ عليكِ النارُ طلعةَ شُؤْمِها ... فمحتْكِ آساسًا، وغيَّرتِ الذُّرا
مَلَكَتْ جهاتِكِ ليلةً ونهارَها ... حمراءَ يبدو الموتُ منها أَحمرا
لا تَرْهَبُ الطوفانَ في طُغيانِها ... لو قابَلَتْه، ولا تهابُ الأَبْحُرا
لو أَنّ (نيرون) الجمادَ فؤادُه ... يُدْعَى ليَنْظُرَها لعَاف المنظرا
أَو أَنه ابتُلِيَ (الخليلُ) بمثِلها ... — أَستغفِرُ الرحمنَ — ولَّى مُدْبِرا
أَو أَن سَيْلاً عاصمٌ من شرِّها ... عَصمَ الديارَ من المدامِع ما جَرى
أَمْسَى بها كلُّ البيوتِ مُبَوَّبًا ... ومُطَنَّبًا، ومُسَيَّجًا، ومُسَوَّرا
أَسَرَتْهُمُو، وتَمَلَّكَتْ طُرُقاتِهم ... مَنْ فرَّ لم يجدِ الطريقَ مُيَسَّرا
خَفَّتْ عليهم يَومَ ذلك مَوْرِدًا ... وأَضلَّهُمْ قدَرٌ، فضَلُّوا المَصْدَرا
حيثُ التَفَتَّ ترى الطريقَ كأَنها ... ساحاتُ حاتِمَ غِبَّ نِيرانِ القِرى
وترى الدعائمَ في السوادِ كهيكلٍ ... خمدَتْ به نارُ المجوسِ، وأَقْفَرا
وتَشَمُّ رائحةَ الرُّفاتِ كريهةً ... وتشمُّ منها الشاكلاتُ العَنْبَرا
كثُرَتْ عليها الطيرُ في حَوْماتِها ... يا طيرُ، «كلُّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرا»
هل تأْمَنين طوارقَ الأَحداثِ أَن ... تغشَى عليكِ الوَكْرَ في سِنةِ الكَرَى

والناسُ مِنْ داني القُرى وبعيدِها تأْتي لتمشِيَ في الطُّلولِ وتَخْبُرا
يتساءَلون عن الحريقِ وهَوْلِه وأَرى الفرائسَ بالتساؤلِ أَجْدَرا
يارَبِّ، قد خَمَدَتْ، وليس سواك مَنْ يُطفِي القلوبَ المُشْعَلاتِ تَحسُّرا
فتحوا اكتتابًا للإعانة فاكتَتِبْ بالصبرِ، فهْوَ بمالِهم لا يُشترَى
إن لم تكن للبائسين فمَنْ لهم؟ أَو لم تكن للاجئين فمَنْ ترى؟!
فتولَّ جَمْعًا في اليَبَابِ مُشتَّتًا وارحم رَميما في التراب مُبعثَرا
فعَلَتْ بمصرَ النارُ ما لم تأْتِهِ آياتُكَ السبعُ القديمةُ في الوَرَى
أَوَ ما تراها في البلاد كقاهرٍ في كلِّ ناحية يُسيِّر عَسْكرا؟!
فادفعْ قضاءَك، أَو فصيِّرْ نارَه بَرْدًا، وخُذ باللُّطْفِ فيما قُدِّرا
مُدُّوا الأَكفَّ سَخِيَّةً، واستغفِري يا أمَّةً قد آن أَن تَستغفرا
أَوْلَى بعطفِ الموسِرين وبِرِّهم مَنْ كان مِثلَهُمو فأَصبَح مُعْسِرا
يا أَيُّها السُّجَناءُ في أَموالهم أَأَمِنْتُمُوا الأَيامَ أَن تتغيَّرا؟
لا يملكُ الإِنسانُ من أَحوالِه ما تملك الأَقدارُ، مهما قَدَّرا
لا يُبْطِرنَّكَ من حرير مَوْطئٌ فلرُبَّ ماشٍ في الحريرِ تَعثَّرَا
وإذا الزمانُ تنكَّرَتْ أَحداثُه لأَخيكَ؛ فاذكرْه عشي أَن تُذكرا

خُطْبَةُ غَلْيُوم

«وخطب غليوم عاهل ألمانيا خطبة في سنة ١٩٠٦ كان لها وقع عظيم، وأحدثت أزمة أوشكت أن تنتهي إلى حرب أوربية طاحنة، فقال:»

يارَبِّ، ما حكمُكَ؟ ماذا تَرى في ذلك الحُلمِ العريضِ الطويلْ؟
قد قام غليومٌ خطيبًا، فما أَعطاكَ من مُلْكِكَ إلا القليل!
شَيَّد في جنبِكَ مُلكًا له مُلكُكَ إن قِيسَ إليهِ الضَّئيل
قد وَرَّثَ العالَم حيًّا، فما غادَرَ من فجٍّ، ولا من سبيل
فالنصفُ للجرْمانِ في زَعمِه والنصفُ للرومان فيما يقول
يارَبِّ، قلْ: سيْفُكَ أَم سَيْفُه؟ أَيُّهما — يا رَبِّ — ماضٍ ثقيل؟!

إن صَدَقتْ — يارَبِّ — أَحلامُه	فإِنَّ خطْبَ المسلمين الجليل
لا نحنُ جِرمانُ لنا حِصَّةٌ	ولا بِرومانَ فنُعْطَى فَتيل
يا رَبِّ، لا تنسَ رعاياك في	يومِ رعاياك الفريقُ الذليل
جنايةُ الجهلِ على أَهلِه	قديمةٌ، والجهلُ بئسَ الدليل
يا ليتَ لم نَمدُدْ بشرٍّ يَدًا	وليتَ ظلَّ السلمِ باقٍ ظليل!
جَنى علينا عُصْبَةٌ جازَفوا	فَحسْبُنا اللهُ، ونِعْمِ الوكيل!

نَادي الْمُوسِيقى الشَّرْقِي

«وقال يخاطب الملك فؤاد الأول في حفلة افتتاح نادي الموسيقى الشرقي سنة ١٩٢٩».

خَطَّتْ يداكَ الرَّوْضَةَ الغَنَّاءَ	وفرغْتَ من صَرْحِ الفنونِ بِناءَ
مازلتَ تَذهبُ في السُّمُوِّ بِركنِهِ	حتى تجاوزَ رُكنُهُ الجَوْزاءَ
دارٌ من الفنِّ الجميلِ تقسَّمَتْ	للساهرين روايةً ورُواءَ
كالروْضِ تحتَ الطيرِ أَعجبَ أَيْكُه	لَحْظَ العيونِ، وأَعجبَ الإِصغاءَ
ولقد نَزَلْتَ بها، فلم نَرَ قبلَها	فَلَكًا جلا شمسَ النهارِ عِشاءَ
وتوهَّجَتْ حتى تقلَّب في السَّنا	(وادي الملوكِ) حجارةً وفضاءَ
فتلفَّتُوا يتهامسون: لعلَّهُ	فجرُ الحَضارةِ في البلاد أَضاءَ
تلك المعازِفُ في طُلولِ بنائهم	أَكثرْنَ نحوَ بِنائكَ الإِيماء
وتمايَلتْ عيدانُهُنَّ تحيَّةً	وترنَّمَتْ أَوتارُهُنَّ ثناء
يا بانيَ الإِيوانِ، قد نسَّقتَهُ	وَحَذَوْتَ في هِنْدامها (الحمراء)[٢٠]
أَينَ (الغريضُ) يحِلُّه أَو (مَعْبَدٌ)[٢١]	يَتبوَّأَ الحُجراتِ والأَبهاءَ؟
العبقريّةُ من ضَنَائنه التي	يَحبو بها — سُبْحانَه — مَنْ شاءَ
لم بنيتَ الأَيْكَ واستَوْهَبْتَهُ	بَعثَ الهَزارَ، وأَرسَلَ الوَرْقاءَ
فسمعتَ من مُتَفَرِّدِ الأَنغامِ ما	فاتَ (الرشيدَ)، وأَخطأَ النُّدَمَاءَ
والفنُّ ريحانُ الملوكِ، وربَّما	خَلَدُوا على جَنباتِه أَسماء
لولا أَياديه على أَبنائنا	لم نُلْفَ أَمْجَدَ أُمَّة آباءَ

كانت أَوائلُ كلِّ قومٍ في العُلا ... أَرضًا، وكُنَّا في الفخارِ سماء

لولا ابتسامُ الفنِّ فيما حَوْلَهُ ... ظَلَّ الوجودُ جَهامةً وَجَفاءَ

جرِّدْ من الفنِّ الحياةَ وما حَوَتْ ... تَجِدِ الحياةَ من الجمالِ خَلاء

بالفنِّ عالجتِ الحياةَ طبيعةٌ ... قد عالجتْ بالواحةِ الصحراء

تأْوِي إِليها الروحُ من رَمْضائِها ... فتُصيب ظِلاًّ، أَو تُصادِفُ ماءَ

نبضُ الحضارةِ في الممالكِ كلِّها ... يَجري السلامةَ أَو يدقّ الدّاءَ

إِن صحَّ فهْيَ على الزمان صحيحةٌ ... أَو زافَ كانت ظاهرًا وطِلاءَ

انظرْ — أَبا الفاروق — غَرْسَكَ، هل ترى ... بالغرْسِ إلا نعمَةً ونَماء؟

مِنْ حَبَّةٍ ذُخِرَتْ، وأَيدٍ ثابَرَتْ ... جاءَ الزمانُ بجَنَّةٍ فَيْحاءَ

وأَكنَّتِ الفنَّ الجميلَ خميلةٌ ... رَمَتِ الظِّلالَ، ومَدَّتِ الأَفياءَ

بذَلَ الجهودَ الصالحاتِ عصابةٌ ... لا يَسأَلون عن الجهود جَزاءَ

صحِبوا رسولَ الفنِّ لا يأْلونَه ... حُبًّا، وصِدقَ مودَّةٍ، ووَفاءَ

دَفعوا العوائقَ بالثبات، وجاوزوا ... ما سرَّ من قدَر الأُمور وساءَ

إِن التعاوُنَ قوّةٌ عُلْويَّةٌ ... تبنِي الرجالَ، وتُبدِع الأَشياءَ

فلْيَهْنِهِمْ؛ حاز الْتِفاتك سَعْيُهم ... وكسا نديِّهُمُو سَنًا وسَناءَ

لم تبْدُ للأَبصار إلا غارسًا ... لِخوالِفِ الأَجيالِ أَو بَنَّاءَ

تغدو على الفترَاتِ تَرتَجِلُ النَّدَى ... وتروحُ تصطنِعُ اليَدَ البيضاءَ

في مَوكِبٍ كالغَيْثِ سار ركابُه ... بِشْرًا، وحلَّ سعادةً ورخاءَ

أَنت اللِّواءُ التف قومُك حَوْله ... والتاجُ يجعله الشعوبُ لِواءَ

مِنْ كلِّ مِئْذَنةٍ سَمِعْتَ مَحَبَّةً ... وبكلِّ ناقوسٍ لقيتَ دُعاء

يتأَلَّفان على الهُتافِ، كما انبَرَى ... وَترٌ، يُسايِر في البَنان غِناءَ

في دَار الأُوبرَا

«هذه القصيدة لم يتبين لي — على وجه اليقين — سبب إنشادها، وأحسبه نظمها لمناسبة احتفال في دار الأوبرا أقامته جمعية من جمعيات البر بأبناء السبيل»[٢٢]

حَبَّذا السَّاحةُ والظلُّ الظليلْ وثناءٌ في فَمِ الدارِ جميلْ
لم تَزَلْ تجْري به تحت الثَّرى لُجَّة المعروفِ والنَّيْلِ الجزيل
صُنعُ إسماعيلَ، جلَّتْ يدُه كلُّ بُنيانٍ على الباني دليل
أَتُراها سُدَّةً من بابه فتِحَتْ للخير جِيلاً بعدَ جيل؟
مَلعبُ الأَيَّامِ، إلاَّ أَنَّه ليس حظُّ الجِدِّ منه بالقليل
شهد الناسُ بها «عائدةً» وشجَى الأَجيالَ من «فِرْدِى» الهديل
وائتَنفنا في ذَراها دُولةً ركنُها السُّؤدَدُ والمجدُ الأَثيل
أَينعتْ عصرًا طويلاً، وأَتَى دون أَن تُستأْنفَ العصرُ الطويل
كم ضَفرْنا الغارَ في مِحرابها وعقدناه لسبّاقٍ أَصيل
كم بدورٍ وَدَّعَتْ يومَ النَّوَى وشموسٍ شُيِّعَتْ يومَ الرحيل
رُبَّ عُرسٍ مَرَّ للبِرِّ بها ماج بالخيِّرِ والسَّمْحِ المُنيل
ضحِك الأَيتامُ في ليلته ومشى يسترْوِحُ البُرْءَ العليل
والتقى البائسُ والنُّعْمَى به وسعى المأْوَى لأَبناءِ السبيل
ومن الأَرض جَدِيبٌ ونَدٍ ومن الدُّور جَوادٌ وبخيل
يا شبابًا حُنفاءً ضمَّهم منزلٌ ليس بمذمومِ النزيلْ
يصرِفُ الشبان عن وِرْدِ القَذَى ويُنحِّيهمْ عن المَرْعَى الوَبيل
اذهبوا فيه وجِيئوا إخوةً بعضُكم خِدنٌ لبعضٍ وخليل
لا يَضُرَّنكمو قِلَّته كلُّ مولودٍ وإن جلَّ ضئيل
أَرجفتْ في أمركم طائفةٌ تُبَّعُ الظنِّ عن الإنصاف مِيل
اجعلوا الصبرَ لهم حِيلَتكم قلَّتِ الحيلةُ في قالَ وقيل
أَيريدون بكم أَن تجمعوا رِقَّةَ الدين إلى الخُلْقِ الهزيل؟!
حَلَتَ الأَرضُ من الهدْيِ، ومن مُرشدٍ للنُّشءِ كَفيل
فترى الأُسرةَ فَوْضَى، وترى نَشَأً عن سَنَّةِ البِرِّ يَميل
لا تكونوا السَّيْلَ جَهْمًا خَشِنًا كلَّما عَبَّ، وكونوا السلسبيل
رُبَّ عِينٍ سَمْحةٍ خاشعةٍ رَوَّت العُشْبَ، ولم تنسَ النخيل
لا تُماروا الناسَ فيما اعتقدوا كلُّ نفسٍ بكتابٍ وسبيل
وإذا جئتم إلى ناديكمو فاطرحوا خلفكمو العِبءَ الثقيل

هـذه لـيْـلَـتُـكـم فــي «الأَوبِـرا» ... ليلةُ القدرِ من الشهر النبيل
مِـهـرَجـانٌ طـوَّف الـهـادي بـه ... ومـشـى بـيـن يـديْـه جـبْـرَئـيـل
وتــجــلَّــتْ أَوجُــهٌ زَيَّــنــهــا ... غُـرَرٌ مـن لَمْـحَـةِ الخـيـر تَـسيل
فـكأَن الـليـلَ بـالـفجر انجلَى ... وكـأَن الـدارَ فـي ظـلِّ الأَصـيـل
أَيـهـا الأَجـوادُ لا نـحـزيـكـمـو ... لَـذَّةُ الـخـيـرِ مِـنَ الـخـيـر بَـديـل
رجـلُ الأُمَّــة يُــرجَــى عــنــدَه ... لـجلـيـل الـعَـمَـلِ الـعَـوْنُ الـجلـيـل
إِن دارا حُـطْـتُـمـوهـا بـالـنَّـدَى ... أَخـذتْ عـهـدَ الـنَّـدَى أَلاَّ تَـمـيـل

مَصْرَعُ بُطْرُس غالِي باشا

«حينما قُتِلَ بطرس غالي باشا في مصر برصاصة من يد إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠ هاجت النفوس، واستاء كثير من الأقباط، لوقوع الجريمة على زعيم ووزير قبطي، فقال في ذلك:»

بَني القِبْطِ إِخوان الدُّهور، رُوَيْدَكُم ... هَبوه (يسوعًا) فـي البـريّةِ ثانيا
حملتُم لحِكمِ اللهِ صَلبَ (ابن مريمٍ) ... وهذا قضاءُ اللهِ قد غالَ (غاليا)
سديدُ المرامِي قد رماه مُسَدِّدٌ ... وداهـيـةُ السُوَّاسِ لاقى الدَّوَاهـيـا
ووَاللهِ، لو لـم يُطلِق النارَ مُطلِقٌ ... عـلـيـه؛ لأَوْدَى فـجـأَةً، أَو تَـداوِيـا
قـضـاءٌ، ومِـقـدارٌ، وآجـالُ أَنـفُـسٍ ... إِذا هـي حـانـت لـم تُـؤَخَّـرْ ثـوانـيـا
نَـبـيـدُ كـمـا بـادت قـبـائـلُ قـبـلَـنـا ... ويَبقَى الأَنامُ اثْنَيْنِ: مَيْتًا، وناعيا!
تعالوا عسى نطوي الجفاءَ وعهدَهُ ... ونَـنـبِـذُ أَسـبـابَ الـشِّـقـاقِ نَـواحِـيـا
أَلـم تَـكُ (مصرٌ) مهدَنا ثم لَحْدَنا ... وبـيـنـهَـمـا كـانـت لـكـلٍّ مَـغـانـيـا؟
أَلم نكُ من قبل (المسيحِ ابنِ مريمٍ) ... و(موسَى) و(طه) نعبُدُ النيلَ جاريا؟
فهَلاَّ تساقيْنا على حبِّه الهَوَى ... وهـلاَّ فـديْـنـاه ضِـفـافًـا ووادِيـا؟
ومـا زال مـنـكـم أَهـلُ وُدٍّ ورحـمـةٍ ... وفي المسلمين الخيرُ ما زالَ باقيا
فلا يثنِكم عن ذمَّةٍ قتلُ (بُطُرسٍ) ... فقِدْمًا عرفنا القتلَ في الناس فاشيا

تَحيَّةُ غَلْيُوم الثَّاني لِصَلاَح الدِّينِ في القَبْر

عظيمُ الناسِ مَن يَبكي العِظاما ويَندُبُهُم ولو كانوا عِظاما
وأَكرَمُ من غمامٍ عندَ مَحْلٍ فتًى يُحيي بِمدحَتِهِ الكراما
وما عُذرُ المقصِّر عن جزاءٍ وما يَجزِيهُموا إلاَّ كلاما؟!
فهل من مُبلغٍ غليومَ عنِّي مقالاً مُرْضِيًا ذاك المقاما؟
رعاكَ اللهُ من ملِكٍ هُمامٍ تعهَّدَ في الثَّرَى مَلِكًا هُماما
أَرى النِّسيانَ أَظمأَه، فلمَّا وقفْتَ بقبرِه كنتَ الغَماما
تُقرِّبُ عهدَه للناس حتى تركتَ الجليلَ في التاريخِ عاما
أَتدري أَيَّ سلطانٍ تُحيِّي وأَيَّ مُملَّكٍ تُهدي السَّلاما؟!
وقفتَ به تُذَكرُهُ مُلوكًا تَعَوَّدَ أن يُلاقوهُ قِياما!
وكم جَمَعَتْهُمو حربٌ، فكانوا حدائِدَها، وكان هو الحُساما
كِلامٌ للبريّةِ داميَاتٌ وأَنتَ اليومَ مَنْ ضَمَدَ الكِلاما
فلما قلتَ ما قد قلتَ عنه وأَسمعتَ الممالكَ والأَناما
تساءَلَتِ البريّةُ وهْيَ كَلْمَي أَحُبًّا كان ذاكَ أَمِ انتقاما؟
وأَنتَ أَجلُّ أَن تُزرِي بِميْتٍ وأَنتَ أَبرُّ أَن تُؤذِي عظاما
فلو كان الدوامُ نصيبَ مَلْكٍ لنال بحدِّ صارمِهِ الدواما

الْفَنار[٤]

سَمَا يُناغي الشُّهُبا هل مَسَّها فاَلتَهبا؟
كالدَّيْدبانِ أَلزَمُو هُ في البحار مَرْقَبا
شَيَّع منه مَرْكَبًا وقام يَلقَى مركبا

[٤] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

بَشَّرَ بالدارِ وبالْـ ـأَهلِ السُّراةَ الغُيَّبا
وخَطَّ بالنُّور على لوْحِ الظلام: مَرْحَبَا
كالبارق المُلِحِّ لم يُوَلِّ إلا عَقَّبا
يارُبَّ ليلٍ لم تَذُقْ فيه الرُقادَ طَرَبا
بِتْنا نُراعيه كما يَرعَى السُّراةُ الكوكبا
سعادةٌ يعرفها في الناس من كان أَبَا
مَشَى على الماءِ، وجَا بَ كالمسيح العَبَبا
وقام في موضعه مُستشرِفًا مُنَقِّبا
يَرمِي إِلى الظلام طَرْ فًا حائرا مُذَبْذَبا
كمُبْصِرٍ أَدارَ عَيْـ ـنًا في الدُّجَى، وقَلَّبا
كبصر الأَعشى أَصا ب في الظلام، ونَبا
وكالسراج في يَدِ الـ ـريح، أَضاءَ، وخبَا
كلمحةٍ من خاطرٍ ما جاءَ حتى ذَهبا
مُجْتنِبُ العالَم في عُزلته مُجْتنَبا
إلا شراعًا ضلَّ، أَو فُلُكًا يُقاسى العَطَبا

حارس الفنار ودلفين

وكان حارسُ الفَنا رِ رجُلاً مُهذَّبا
يَهوَى الحياة، ويُحبَّ العيشَ سهلًا طيِّبا
أَتتْ عليه سَنَوا تٌ مُبْعَدًا مُغْتَرِبا
لم يَرَ فيها زَوْجَهُ ولا ابنَه المحبَّبا
وكان قد رعَى الخطيبَ، ووَعَى ما خَطَبَا
فقال: يا حارسُ، خَـ ـلِّ السُّخْطَ والتَّعَتُّبا
من يُسعِفُ الناسَ إذا نُودِي كلٌّ فأَبى؟
ما الناسُ إخوَتي ولا آدمُ كان لي أَبا

... ...

أُنظر إِليَّ، كيف أَقضِـ ـي لهُمُ ما وَجَبا؟
قد عشتُ في خِدمتهم ولا تَراني تَعِبا
كم من غريقٍ قمتُ عنـ ـدَ رأسِه مُطَبِّبا
وكان جسمًا هامدًا حرَّكتُه فاضطربا
وكنتُ وطَّأْتُ له مَناكبي، فرَكبا
حتى أَتى الشطَّ، فـ ـبَشَّ مَنْ بِه ورَحَّبا
وطارَدُوني، فانقلَـ ـبْتُ خاسرًا مُخيِّبا
ما نلتُ منهم فِضةً ولا مُنِحْتُ ذهَبا
وما الجزاءُ؟ لا تَسَل كان الجزاءُ عجبا!
أَلقَوْا عليَّ شَبَكا وقطَّعوني إِرَبا
واتخذ الصُّنَّاعُ من شَحميَ زَيْتًا طيِّبا
ولم يَزَلْ إِسعافُهم لِيَ الحياةَ مَذهَبا
ولم يَزَلْ سَجِيَّتي وعملي المُحبَّبا
إِذا سمعتُ صرخةً طِرتُ إِليها طَربا
لا أَجِدُ المُسْعِفَ إلا مَلَكًا مُقرَّبا
والمُسْعِفون في غدٍ يؤلفون مَوْكبا
يقول «رِضوانُ» لهم: هَيَّا ادخُلوها مرحبا
مُذنِبُكم قد غَفر اللهُ لهُ ما أَذنبا

القَمَرُ عَلَى آفَاقِ كَلاَ زُومينَ لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الأَسْني

فدَيْناهُ من زائرٍ مُرْتقَبْ بدا للوُجودِ بمرأًى عَجَبْ
تَهُزُّ الجبالَ تَباشيرُهُ كما هَزَّ عِطفَ الطَّروبِ الطَّرَب
ويُحْلي البحارَ بَلألائه فمنَّا الكئوسُ، ومنه الحبَب
منارُ الحُزونِ إذا ما اعتَلى منارُ السهولِ إذا ما انقلَب
أتانا من البَحْرِ في زوْرَقٍ لُجَيْنًا مَجاذيفُهُ من ذهب

فقلنا: سُليمانُ لو لم يَمُتْ وفِرعوْنُ لو حَمَلَتْهُ الشُّهُب
وكِسرى وما خمدَتْ نارُه ويوسُفُ لو أَنه لم يشِبْ
وهيهاتَ! ما تُوّجُوا بالسَّنا ولا عرشُهم كان فوقَ السُّحُب
أَنَافَ على الماءِ ما بينَها وبينَ الجبالِ وشُمِّ الهضبِ
فلا هو خافٍ، ولا ظاهرٌ ولا سافرٌ، لا، ولا مُنتقِب
وليس بثَاوٍ، ولا راحلٍ ولا بالبعيدِ، ولا المقتَرِب
تَوارَى بنصفٍ خلالَ السُّحُبْ ونصفٌ على جبلٍ لم يَغِب
يجدِّدُها آيةً قد خلت ويذكُرُ ميلادَ خيرِ العَرَب

أَثينا[٥]

«أوفدته الحكومة المصرية إلى (أثينا) عاصمة اليونان لحضور مؤتمر المستشرقين، فقال يخاطبها:»

إِن تسألي عن مِصْرَ (حَوّاءِ) القُرى وقَرارةِ التاريخِ والآثارِ
فالصُّبحُ في (مَنْفٍ) و(ثيبة) واضحٌ مَنْ ذا يُلاقي الصُّبحَ بالإنكار؟
بالهَيْلِ مِن (مَنْفٍ) ومن أَرباضِها مَجْدُوعُ أَنفٍ في الرّمالِ كُفَارِي[٢٣]
خَلَتِ الدُّهُورُ وما التَقَتْ أَجفانُه وأَتَتْ عليه كَلَيْلةٍ ونَهار
ما فَلَّ ساعِدَه الزمانُ، ولم يَنَلْ منه اختلافُ جَوارِفٍ وذَوار
كالدَّهرِ لو مَلكَ القيامَ لِفَتْكةٍ أَو كان غيرَ مُقَلَّمِ الأَظفار
وثلاثةٍ شبَّ الزمانُ حيالها شُمٍّ على مَرِّ الزَّمانِ، كِبار[٢٤]
قامت على النيلِ العَهِيدِ عَهِيدةً تكسوه ثوبَ الفَجْرِ وهْيَ عَوار
من كلِّ مركوزٍ كَرَضْوَى في الثَّرَى متطاولٍ في الجوِّ كالإِعصار
الجنُّ في جَنَباتها مَطروقةٌ ببدائع البنَّاءِ والحفَّار

[٥] نشرت بمجلة رعمسيس سنة ١٩١٢.

والأَرضُ أَضْيَعُ حِيلةً في نَزْعِها — من حيلةِ المصلوبِ في المِسمار
تلك القبورُ أَضَنُّ من غَيْب بما — أَخفَتْ منَ الأَعلاق والأَذخار
نام المُلوك بها الدُّهورَ طويلةً — يجِدون أَروحَ ضَجْعَةٍ وقرارٍ
كلٌّ كأَهلِ الكهف فوقَ سَريرِه — والدهرُ دونَ سَريرِه بهِجار
أَملاكُ مصرَ القاهرون على الوَرَى — المنزَلون منازلَ الأَقمار
هَتَكَ الزمان حِجابَهم، وأَزالهم — بعدَ الصِّيانِ إزالةَ الأَسرار
هيهاتَ! لم يَلمِسْ جلالَهُمُو البِلَى — إلا بأَيدٍ في الرَّغام قِصار
كانوا وظَرْفُ الدهر لا يسمُو لهم — ما بالُهمْ عُرِضُوا على النُّظَّار؟
لو أَمهلوا حتى النُّشُورِ بَدُورِهم — قاموا لخالِقهم بغير غُبار!

ذِكْرى مُحَمَّد فِريد

«أَلقيت في الاحتفال بالذكرى الخامسة للمغفور له مُحَمَّد فريد بك سنة ١٩٢٤»

نُجدِّدُ ذِكرَى عهدِكم ونُعيدُ — ونُدني خَيالَ الأَمسِ وهْوَ بعَيدُ
وللناسِ في الماضي بصائرُ يَهتدِي — عليهِنَّ غاوٍ، أَو يسيرُ رشيد
إِذا الميْتُ لم يَكرُمْ بأَرضٍ ثناؤُهُ — تحيَّرَ فيها الحيُّ كيف يسود
ونحنُ قضاةُ الحقِّ، نَرعى قدِيَمهُ — وإِن لم يَفُتْنا في الحقوقِ جديد
ونعلمُ أَنَّا في البِناءِ دعائمٌ — وأَنتُم أَساسٌ في البناءِ وَطِيد
فريدُ ضحايانا كثيرٌ، وإِنما — مَجالُ الضحايا أَنتَ فيه فريد
فما خلْفَ ما كابَدْتَ في الحقِّ غايةٌ — ولا فوقَ ما قاسيْتَ فيه مَزيد
تغرَّبْتَ عشرًا أَنتَ فيهنَّ بائسٌ — وأَنت بآفاقِ البلادِ شَريد
تجوعُ بِبُلدانٍ، وتَعْرَى بِغيرِها — وتَرْزَحُ تحتَ الداءِ، وهْوَ عَتيد
أَلا في سبيلِ اللهِ والحقِّ طارفٌ — من المالِ لم تَبخلْ به، وتَليد
وَجودُكَ بعدَ المالِ بالنفسِ صابرًا — إِذا جزِعَ المحضورُ وهْوَ يَجود
فلا زِلْتَ تمثالاً من الحقِّ خالصًا — على سِرِّه نَبني العُلا، ونَشِيد
يُعلم نَشْءَ الحي كيف هَوَى الحِمى — وكيف يُحامي دونهُ، ويَذود

النَّخيلُ مَا بَيْنَ الْمُنْتَزَهِ وَأَبي قِير

«نظمها بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١»

أَرى شَجَرًا في السماءِ احتجبْ وشقَّ العَنانَ بمَرْأًى عَجبْ

مآذنُ قامت هُنا أَو هناكَ ظواهِرُها درجٌ من شذَب

وليس يؤذِّنُ فيها الرجالُ ولكن تَصيح عليها الغُرُب

وباسقةٍ من بنات الرمالِ نَمتْ وربَتْ في ظلالِ الكُثُب

كساريةِ الفُلْكِ، أَو كالمِسـ ـلَّةِ، أَو كالفَنارِ وراءَ العَبَب

تطولُ وتقصُرُ خلفَ الكثيبِ إذا الريحُ جاءَ به أَو ذهب

تُخالُ إذا اتَّقدَتْ في الضُّحَى وجَرَّ الأَصيلُ عليها اللهَب

.. وطافَ عليها شُعاع النهارِ مِنَ الصَّحْوِ، أَو مِنْ حَواشي السُّحُب

... وَصِيفةَ فرعونَ في ساحةٍ من القصر واقفةً تَرْتقِب

قد اعتَصَبتْ بفصوص العَقِيقِ مُفصَّلَةً بِشُذورِ الذهب

وناطتْ قلائدَ مَرْجانِها على الصدر، واتَّشَحَتْ بالقَصَب

وشَدَّتْ على ساقِها مِئْزَرًا تَعقَّدَ من رأْسِها للذنَب

أَهذا هو النخلُ مَلْكُ الرِّياضِ أَميرُ الحقولِ، عروسُ العزب؟

طعامُ الفقيرِ، وحَلوَى الغَنيِّ وزادُ المسافرِ والمُغْتَرِب؟

فيا نخلةَ الرملِ، لم تَبخلي ولا قصَّرَتْ نَخَلاتُ التُّرب

وأَعجَبُ: كيف طوَى ذِكْرَكُنَّ ولم يحتفلْ شعراءُ العرب؟!

أَليس حرامًا خُلُوُّ القصا ئدِ من وصفِكنّ، وعُطْلُ الكتُب؟

وأَنتنّ في الهاجراتِ الظِّلالُ كأَنّ أَعالِيَكُنّ العَبَب

وأَنتنّ في البيد شاةُ المُعِيلِ جَناها بجانبِ أُخرى حَلَب

وأَنتنّ في عَرَصاتِ القصورِ حسانُ الدُّمى الزائناتُ الرّحب

جناكنّ كالكرْمِ شتّى المذاقِ وكالشَّهْدِ في كل لون يُحَبّ

الْبَحْرُ الأَبْيَضُ

«نظمها بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١»

أَمِنَ البحرِ صائغٌ عَبْقَرِيٌّ   بالرّمالِ النَّواعِمِ البيضِ مُغْرَى؟!
طاف تحت الضُّحَى عليهنَّ، والجوْ   هَرُ في سُوقِه يُباعُ ويُشْرَى
جِئنَهُ في مَعاصمٍ ونُحورٍ   فكسا مِعْصَمًا، وآخرَ عَرَّى
وأَبَى أَن يُقلِّدَ الدُّرَّ واليا   قوتَ نحْرًا، وقلَّدَ الماسَ نحْرا
وتَرى خاتمًا وراءَ بَنانٍ   وبَنانًا من الخواتمِ صِفْرا
وسِوارًا يَزينُ زَنْدَ كعَابٍ   وسِوارًا من زَنْدِ حسناءَ فرَّا
وترى الغِيدَ لُؤلؤًا ثَمَّ رَطْبًا   وجُمانًا حَوَالَي الماءِ نَثْرا
وكأَنَّ السماءَ والماءَ شِقَّا   صَدَفٍ، حُمِّلا رفيقًا ودُرَّا
وكأَنّ السماءَ والماءَ عُرْسٌ   مُتْرَعُ المِهرَجان لمْحًا وعِطرا
أَو رَبيعٌ من ريشةِ الفنِّ أَبهَى   مِن ربيع الرُّبى، وأَفتنُ زَهْرا
أو تهاويلُ شاعرٍ عَبقريٍّ   طارَحَ البحرَ والطبيعةَ شعرا
يا سِوارَىْ فَيْرُوزَجٍ ولُجَيْنٍ   بهما حُلِّيَتْ معاصِمُ مِصْرا
في شُعاعِ الضُّحَى يعودان ماسًا   وعلى لمْحَةِ الأَصائلِ تِبْرا
ومَشَتْ فيهما النّجومُ فكانت   في حَواشِيهما يواقيتَ زُهْرَا
لكَ في الأَرض موكبٌ ليس يأْلو الـ   ـرِّيحَ والطيرَ والشياطينَ حَشْرا[٢٥]
سِرْتَ فيه على كنوز (سُليما   نَ) تعدُّ الخُطى اختيالاً وكِبْرا
وتَرنَّمْتَ في الركابِ، فقلنا   راهبٌ طاف في الأَناجيل يَقرا
هو لحنٌ مُضَيَّعٌ، لا جوابًا   قد عرفنا له، ولا مُستقَرَّا
لك في طيِّه حديثُ غرامٍ   ظَلَّ في خاطر المُلَحِّنِ سِرَّا
قد بعثنا تحيَّةً وثناءً   لكَ يا أَرفعَ الزواخِر ذِكرا
وغشِيناكَ ساعةً تَنْبشُ المَا   ضيَ نبشًا، وتقتُلُ الأَمسَ فِكرا
وفتحنا القدِيمَ فيك كتابًا   وقرأْنا الكتابَ سطرًا فسَطْرا
ونشَرْنا من طيِّهنَّ الليالي   فلَمَحنا من الحضارةِ فَجْرا
ورأَينا مصرًا تُعلِّمُ (يونا   نَ)، ويونانَ تَقبِسُ العلمَ مصرا

تِلكَ تأْتيكَ بالبيانِ نبيًّا   عبقريًّا، وتِلك بالفنّ سِحْرا
ورأَينا المنارَ في مطلع النَّجْـ   ـمِ على برقِهِ المُلَمَّحِ يُسرى
شاطئٌ مثلُ رُقعةِ الخُلدِ حُسنًا   وأَديمِ الشبابِ طِيبًا وبِشرا
جَرَّ فيْرُوزَجًا على فِضَّةِ الما   ءِ، وجَرَّ الأَصيلُ والصبح تِبرا
كلَّمَا جئتَهُ تهلَّل بِشرًا   من جميع الجهاتِ، وافترَّ ثَغْرا
اِنثنَى مَوْجَةً، وأَقبلَ يُرخِي   كِلَّةً تارةً ويَرفعُ سِترا
شبَّ وانحطَّ مثلَ أَسرابِ طيرٍ   ماضياتٍ تَلُفُّ بالسَّهلِ وَعْرا
رُبما جاءَ وَهْدَةً فتردَّى   في المَهاوِي، وقام يَطفرُ صَخرا
وتَرى الرملَ والقصورَ كأَيْكٍ   ركب الوَكْرُ في نواحيهِ وَكْرا
وتَرى جَوْسَقًا يُزَيِّنُ رَوْضًا   وترى رَبوةً تزيِّنُ مصرا
سَيِّدَ الماءِ، كم لنا من (صلاحٍ)   و(عليٍّ) وراءَ مائكَ ذِكرى![٢٦]
كم مَلأناكَ بالسَّفينِ مَواقِيـ   ـرَ[٢٧] كشُمِّ الجبالِ جُندًا ووَفرا!
شاكياتِ السلاحِ يَخرُجنَ من مصـ   ـرٍ بملمومةٍ، ويَدْخلن مِصرا
شارعاتِ الجناحِ في ثَبَجِ الما   ءِ كنَسْرٍ يشدُّ في السُّحب نَسْرا
وكأَنَّ اللُّجاجَ حينَ تَنَزَّى   وتسدُّ الفِجاجَ كرًّا وفرًّا ...
... أجمٌ بعضُهُ لبعضٍ عدوٌّ   زحَفَتْ غابةٌ لتمزيق أُخرَى!
قذَفَتْ ههنا زئيرًا ونَابًا   ورَمَت ههنا عُواء وظُفرا
أَنتَ تَغلي إِلى القيامةِ كالقِدْ   رِ، فلا حطَّ يومُها لكَ قِدْرا

قِفْ حَيِّ شُبَّانَ الْحِمَى

«نظمها في الطلاب المصريين الذين يطلبون العلم في أوربا»

قِفْ حَيِّ شُبَّانَ الحِمَى   قبلَ الرحيلِ بقافِيَهْ
عَوَّدْتُهُمْ أَمثالَها   في الصالحاتِ الباقيه
من كلِّ ذاتِ إِشارةٍ   ليستْ عليهم خافيه
قلْ: يا شبابُ، نصيحة   مما يُزَوَّدُ غاليه

هـل راعـكـم أَن الـمـدا رسَ في الكنانةِ خاوِيَه؟
هُـجـرَتْ فـكـلُّ خـلِـيَّـة من كلِّ شُـهْـدٍ خـالـيـه
وتـعـطَّـلـتْ هـالاتُـهـا مِـنكـم، وكـانـت حـالـيـه
غَدَتِ السياسةُ وَهْيَ آ مـرة عـلـيـهـا نـاهـيـه
فـهجرتُمُو الوطنَ العز يزَ إِلى البلادِ القاصيه
أَنـتـمْ غـدًا فـي عـالَـمٍ هـو والـحضـارةُ ناحِيهْ
وارَيْتُ فـيـه شَـبـيـبَـتـي وقـضـيـتُ فـيـه ثـمـانِـيـه
ما كنتُ ذا القلبِ الغليـ ـظِ، ولا الطباعِ الجافيه
سِـيـروا بـه تـتـعـلَّـمـوا سـرَّ الـحـيـاةِ الـعـالـيـه
وتـأَمّـلوا الـبُـنْـيَـانَ، وادَّكِــ ــروا الـجـهـودَ الـبـانـيـه
ذوقـوا الـثـمـارَ جَـنِـيَّـةً وَرِدُوا المناهِلَ صافيه
واقضُوا الشبابَ؛ فإِنّ سا عـتَـه الـقـصـيـرةَ فـانـيـه
والـلـهِ لا حَـرَجٌ عـلـيــ ــكم في حديثِ الغانيه
أَو في اشتِهاءِ السِّحْرِ من لَـحْـظِ الـعـيـونِ الـساجيه
أَو في المسارحِ فَهْيَ بالنَّــ ــفْـسِ الـلـطـيـفـةِ راقـيـه

ثَنَى عِطْفَيْهِمَا الْهَرَمَانِ تيهًا

«وقال يحيي الملك فؤاد في إبَّان زيارته للجيزة في ديسمبر سنة ١٩٣٠»

بـأَرضِ الـجـيـزة اجـتـازَ الـغَـمـامُ وحـلَّ سـمـاءَهـا الـبـدرُ الـتـمـام
وزار ريـاضَ إِسـمـاعـيـلَ غـيـثٌ كـوالـدِه لـه الـمِـنـنُ الـجِـسـام
ثَـنَـى عِـطْـفَـيْـهِـمَا الـهرمانِ تِـيـهًا وقـال الـثـالـثُ الأَدنـى: سـلام
هَـلُـمِّـي مَـنْـفُ؛ هـذا تـاجُ خـوفـو كـقُـرْصِ الشمسِ يَعرِفه الأَنام
نَـمـتْـهُ من بـنـي فِـرعَـوْنَ هـامٌ ومـن خـلـفـاءِ إِسـمـاعـيـلَ هـام
تـأَلَّـقَ فـي سـمـائـكِ عـبـقـريًّـا عـلـيـه جـلالـةٌ، ولـه وِسـام
تـرعـرعَـتِ الـحـضـارةُ فـي حـلاهُ وشـبَّ عـلـى جـواهِـرِه الـنـظـام

ونـال الـفنُّ فـي أُولـى الـليالـي وأُخـــراهُـــنَّ عِـــزًّا لا يُـــرام
مشَى فِي جيزة الفسطاط ظِلًّ كِـظـلِّ الـنـيـلِ بُـلَّ بـه الأُوَام
إذا مـا مَسّ تُـرْبًـا عـاد مِـسْـكًـا ونـافسَ تحتَـه الـذهبَ الـرَّغـام
وإِنْ هـو حَـلَّ أرضًـا قـام فيـهـا جِـدارٌ لـلـحـضـارةِ أَو دِعـام
فمدرسةٌ لـحرب الـجهلِ تُـبْنَى ومُسْتَشْفَى يُذادُ به السَّقام
ودارٌ يُستَغاثُ بها فيَمضي إِلى الإِسعافِ أَنجادٌ كِرامُ
أساةُ جِراحةٍ حِينًا، وحينًا مَيازيبٌ إذا انفجر الضِّرام
وأَحواضٌ يراضُ النيلُ فيها وكلُّ نجيبةٍ ولها لجام
أَبا الفاروقِ، أَقبَلْنا صُفوفًا وأَنتَ من الصفوفِ هو الإمام
إِلى البيتِ الحرامِ بك اتَّجهنا ومِصرُ — وحَقِّها — البيتُ الحرام
طلعتَ على الصعيدِ فهَشَّ حتى علا شَفَتَيْ أَبي الهول ابتسام
ركابٌ سارتِ الآمالُ فيه وطافَ به التلفُّتُ والزِّحام
فماذا في طريقك من كُفور أَجلُّ من البيوتِ بها الرِّجام؟
كأَن الراقدين بكل قاعٍ هُمُ الأَيقاظُ، واليَقْظَى النِّيام
لقد أَزَمَ الزمانُ الناسَ، فانظُرْ فعِندَكَ تُفْرَجُ الإِزَمُ العِظام
وبَعْدَ غدٍ يُفارِقُ عامُ بؤسٍ ويَخلُفه من النَّعماءِ عام
يَدورُ بمصرَ حالاً بعدَ حالٍ زمانٌ ما لِحَالَيهِ دَوام
ومِصْرُ بناءُ جَدِّكَ لم يُتَمَّمْ أَليس على يَدَيكَ له تمام؟
فلسنا أُمَّةً قعدتْ بشمس ولا بلدًا بضاعتُه الكلام
ولكنْ هِمَّةٌ في كلِّ حينٍ يَشُدُّ بِناءَها المَلِكُ الهُمام
نَرومُ الغايةَ القُصْوَى، فنَمْضي وأَنت على الطريقِ هو الزِّمام
ونقصر خطوةً، ونَمُدُّ أُخرى وتُلجِئُنا المسافةُ والمرام
ونَصبرُ للشدائدِ في مقامٍ ويَغلِبُنا على صبر مقام
فقوِّ حضارةَ الماضي بأُخرَى لها زَهْوٌ بِعصرِكَ واتّسامُ
تَرفُّ صحائفُ البَرْدِيِّ فيها ويَنطقُ في هياكلها الرُّخام
رَعَتك وواديًا ترعاه عنَّا منَ الرحمنِ عينٌ لا تنام
فإِن يك تاجُ مصرَ لها قِوامًا فمصرُ لتاجِها العالي قِوام
لِتهنأ مصرُ، وليَهْنأ بَنوها فبينَ الرأْسِ والجِسمِ التئام

الأَمِيرَة فَتْحِيةُ

«وقال في برقية يهنئ الأميرة السابقة فتحية»

فتْحِيَّةٌ دنيا تَدومُ، وصِحةٌ   تَبقى، وبهجَةُ أُمَّةٍ، وحياة
مَوْلايَ إِنّ الشمسَ في عليائها   أُنثَى، وكلُّ الطيباتِ بَناتُ!

تَهْنِئَة

«وقال يهنئ الدكتور علي باشا إبراهيم بمناسبة الإِنعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠»

يَدُ الملكِ العلَوي الكريم   على العلمِ هَزَّتْ أَخاه الأَدِبْ
لسانُ الكنانةِ في شكْرِها   وما هو إِلا لسانُ العَرَب
قضَتْ مِصرُ حاجتَها يا (عَلِيُّ)   ونالتْ، ونال بَنوها الأَرَب
وَهَنَّأتُ بالرُّتَبِ العبقَرِيَّ   وهَنَّأتُ بالعبقرِي الرُّتَب
عِليُّ، لقد لقَّبَتْكَ البِلادُ   بآسِي الجِراحِ، ونِعْمَ اللَّقَب
سِلاحُك من أَدواتِ الحياةِ   وكلُّ سلاحٍ أَداةُ العَطَب
ولفظُكَ (بِنْجٌ)، ولكنَّهُ   لطيفُ الصَّبا في جُفون العَصب
أَنامِلُ مِثلُ بَنانِ المسيح   أَواسِي الجِراحِ، مَوَاحِي النُّدَب
تعالِجُ كَفَّاكَ بؤسَ الحياةِ   فكفٌّ تُدَاوِي، وكفٌّ تَهَب
ويستمسك الدَّمُ في راحَتَيْكَ   وفوْقَهُما لا يَقرُّ الذَّهب
كأَنك للموتِ مَوْتٌ أتيح   فلم يَرَ وجْهَكَ إلا هَرَب!

يا قَاهِرَ الْغَرْبِ الْعَتِيدِ

«وقال في حفل تكريم البطل العالمي في حمل الأثقال السيد نصير، في ديسمبر سنة ١٩٣٠»

شرَفًا نُصِيْرُ، ارْفعْ جَبِينَك عاليًا   وتلَقَّ من أَوطانك الإِكليلا

يَهنِيكَ ما أُعطِيتَ من إكرامِها ... ومُنِحْتَ مِن عطف ابنِ إسماعيلا
اليومَ يَومُ السَّابِقين، فكنْ فتًى ... لم يَبْغِ من قصَبِ الرِّهانِ بَدِيلا
وإذا جَرَيْتَ مع السوابق فاقتحِمْ ... غُرَرًا تَسيل إلى المدى وحُجُولا
حتى يراكَ الجمعُ أَوَّلَ طالعٍ ... ويَرَوْا على أعرافِك المِنْدِيلا
هذا زمانٌ لا تَوسُّطَ عِندَه ... يَبْغِي المُغامِرُ عاليًا وجليلا
كنْ سابقًا فيه، أَوِ ابْقَ بِمَعْزِلٍ ... ليس التوسُّطُ للنُبوغِ سبيلا
يا قاهرَ الغربِ العتيدِ، مَلأته ... بثناءِ مِصْرَ على الشِّفاه جَميلا
قلَّبْتَ فيه يدًا تكاد لِشِدَّةٍ ... في البأْسِ ترفع في الفَضاءِ الفِيلا!
إن الذي خَلق الحديدَ وبأْسَه ... جعل الحديدَ لِساعِديْكَ ذليلا
زَحْزَحْتَه، فتخاذلتْ أَجلادُه ... وطَرحْتَه أرضًا، فصَلَّ صَليلا
لِمَ لا يَلِينُ لك الحديدُ, ولم تزَلْ ... تتلو عليه وتقرأُ التَّنزيلا؟
الأَزْمَة اشْتَدَّتْ ورانَ بلاؤُها ... فاَصْدِمْ بِرُكنك رُكنَها ليَميلا
(شمشونُ) أَنت، وقد رَستْ أَركانُها ... فتَمسَّ في أَركانِها لِتَزولا
قلْ لي نُصَيْرُ وأَنت بَرٌّ صادِقٌ ... أَحَمَلْتَ إنسانًا عليك ثقيلا؟
أَحَمَلْتَ دَيْنًا في حياتِك مَرَّةً؟ ... أَحَمَلْتَ يومًا في الضُّلوع غليلا؟
أَحَملتَ ظُلمًا من قريبٍ غادِرٍ ... أَو كاشحٍ بالأَمسِ كان خَليلا؟
أَحملتَ منًّا بالنهارِ مُكرَّرًا ... والليلِ، مِنْ مُسْدٍ إليك جَميلا؟
أَحملتَ طُغيانَ اللئيمِ إذا اغْتَنَى ... أَو نال مِنْ جاهِ الأُمورِ قليلا؟
أَحملتَ في النادي الغبِيَّ إذا التَقَى ... مِن سامِعِيه الحمدَ والتبجيلا؟
تلك الحياةُ، وهذه أَثقالُها ... وُزِنَ الحديدُ بها فعاد ضئيلا!

ابْنُ زَيْدُون

«أنشأها ترحيبًا بديوان ابن زيدون، حين ظهر مطبوعًا لأول مرة في مصر، بعناية الأستاذ الأديب كامل كيلاني»

يا ابْنَ زيدونَ، مَرحَبا ... قد أَطلْتَ التَّغَيُّبا

إنِ ديـوانَـكَ الـذي   ظـلَّ سـرًّا مُـحـجَّـبـا،
يَشْـتـكـي الـيُـتْـمَ دُرُّه   ويُقاسـى التَّـغـرُّبا ...
... صار في كل بَلدةٍ   لـلأَلِـبَّـاءِ مَـطْـلـبـا
جـاءَنـا «كـاملٌ» بـه   عـربـيًّـا مُـهَـذَّبـا
تَجدُ النَّصَّ مُعْجِبا   وتَرى الشَّرح أَعجبا
أَنتَ في القول كلِّه   أَجْملُ الناسِ مَذْهبا
بـأَبـي أَنـتَ هـيْـكـلاً   مِـن فـنـونٍ مُـركَّـبـا
شـاعِـرًا أَم مُـصَـوِّرًا   كنتَ، أَم كنتَ مُطربا؟
تـرسِـل الـلـحنَ كلَّـه   مُبْدِعًا فيه، مُغرِبا
أَحْسَنَ الناس هاتفْا   بـالـغـوانـي مُـشَـبِّـبـا
ونـزيـلَ الـمُـتـوَّجـ   ـينَ، النديمَ المُقرَّبا
كم سَقاهم بشِعره   مِـدْحَـةً أَو تَـعَـتُّـبـا
ومن المدْحِ ما جزَى   وأَذاعَ الـمـنـاقِـبـا
وإِذا الـهَـجْـوُ هـاجَـهُ   لِـمُـعـانـاتـه أَبـى
وراَه رذيــــلـــــةً   لا تُـمـاشِـي الـتـأَدُّبَـا
ما رأَى الناسُ شاعِرا   فاضلَ الخُلْقِ طيِّبا
دَسَّ للناشقين في   زَنبَقِ الشعرِ عَقربا
جُلتَ في الخُلد جوْلةً   هل عن الخلد مِنْ نَبا؟
صف لنا ما وراءَه   من عيونٍ، ومن رُبى
ونـعـيـمٍ ونَـضْـرةٍ   وظـلالٍ مـن الـصِّـبـا
وصِفِ الحورَ موجزًا   وإِذا شئت مُطْنِبا
قم تَرى الأَرضَ مِثلما   كنْتُمو أَمسِ مَلعَبا
وترى العيشَ لم يزلْ   لبَني الموتِ مأْرَبا
وتـرى ذاك بـالـذي   عـنـد هـذا مُـعَـذَّبـا
إِنَّ مَـروانَ عُـصـبـةٌ   يَصنعونَ العجائبَا[٢٨]
طوَّفوا الأَرض مَشرِقًا   بـالأيـادي ومَـغـربـا
هـالـةٌ أَطـلـعـتْـكَ فـي   ذِروة المجدِ كوكبا

أَنت لـلـفـتـحِ تـنـتـمـي | وكفى الفتحُ منْصِبا
لستُ أَرْضَـى بـغـيـره | لــك جَــدًّا ولا أَبــا

الْبُلْبُلُ الْغَرِدُ الَّذي هزَّ الرُّبى

«أُنْشِدَت في الحفلة التي أقامتها رابطة الأدب الجديد، تكريمًا للشاعر الأستاذ «محمود أبو الوفا»، وكانت هذه القصيدة سببًا إلى عناية الحكومة المصرية وقتئذ بالشاعر — أبي الوفا — وتسفيره إلى أوربا لعمل رجْل صناعية بدل ساقه المبتورة!»

وعِصابةٍ بـالـخيرِ أُلِّف شَمْلُهم | والـخـيـرُ أَفـضـلُ عُـصـبـةً ورِفـاقـا
جعلوا التَّعاونَ والبنايةَ هَمَّهم | واسـتـنـهـضـوا الآدابَ والأَخـلاقـا
ولـقـد يُداوُون الـجِراح بِبرِّهـم | ويُـقـاتـلـون الـبـؤسَ والإمـلاقـا
يسمونَ بالأَدب الجديدِ، وتارةً | يَـبْـنُـون لـلأَدبِ الـقـديـمِ رِواقـا
بعثَ اهتمامَهُمو، وهاجَ حنانهم | زمنٌ يُـثـير الـعـطـفَ والإشـفـاقـا
عَرَضَ القُعودُ فكان دون نُبوغِه | قَيدًا، ودونَ خُطَى الشباب وِثاقا
البُلبُلُ الغرِدُ الذي هزَّ الرُّبَى | وشَجَى الغصونَ، وحرَّكَ الأَوراقا
خَلَفَ البَهاءَ على القريض وكأْسِه | فسَقى بعَذبِ نسيبِه العُشَّاقا
في القيد مُمتنِعُ الخُطى، وخياله | يَطوِي البلادَ ويَنشُر الآفاقا
سبَّاقُ غاياتِ البيانِ جَرى بلا | ساقٍ، فكيف إِذا استَردَّ الساقا؟!
لو يَطعمُ الطِّبُّ الصنَّاعُ بَيانَه | أَو لو يُسيغُ لما يقولُ مَذاقا …
… غالى بقيمتِه، فلم يَصنع له | إلا الـجَـنـاحَ مُـحـلِّـقًـا خـفَّـاقـا!

خَليل مُطْرَان[٦]

«نظمها لتُنْشَدُ في حفلة أقيمت بدار الجامعة المصرية في ١٨ يونيو سنة ١٩١٣ لتكريم الشاعر خليل مطران؛ لمناسبة إنعام الخديو عباس حلمي الثاني عليه بوسام، وكانت الحفلة برياسة الأمير محمد علي توفيق شقيق الخديو».

لُبْنَانُ، مَجْدُكَ في المشارق أَوَّلُ ... والأَرضُ رابيةٌ وأَنتَ سَنامُ
ونبوك أَلطفُ مِن نسيمِكَ ظلُّهُمْ ... وأَشمُّ مِن هَضَبَاتِك الأَحلام
أَخرجتَهم للعالمين جَحاجِحًا ... عُرْبًا، وأَبناءُ الكريم كرامُ
بين الرياض وبين أُفْقٍ زاهرٍ ... طلع المَسيحُ عليه والإسلام
هذا أَديبُك يُحتفَى بوِسامِهِ ... وبيانُه للمَشْرقَيْنِ وِسامُ
ويُجَلُّ قدْرُ قِلادةٍ في صدره ... وله القائدُ سِمْطُها الإلهام
صدرٌ حَوالَيْه الجلالُ، ومِلؤهُ ... كرمٌ، وخَشيةٌ مومِنٍ، وذِمام
حَلاَّهُ إِحسانُ الخديوِ، وطالما ... حلاَه فضلُ اللهِ والإِنعام
لِعُلاك يا مُطرانُ، أَم لنهاك، أَم ... لِخلالك التشريفُ والإكرام؟!
أَم للمواقف لم يَقِفْها ضَيْغَمٌ ... لولاك لاضطربت له «الأَهرام»؟!
هذا مقامُ القولِ فيك، ولم يَزَلْ ... لك في الضمائر مَحْفِلٌ ومقام
غالَى بقيمتك الأَميرُ محمدٌ ... وسعى إِليك يحفه الإعظام
في مجمعٍ هزّ البيانُ لواءَه ... بك فيه، واعتزَّتْ بك الأَقلامُ
ابنُ الملوكِ تَلاَ الثناءَ مخلَّدًا ... هَيْهَات يذهبُ للملوكِ كلام!
فمنِ البشِيرُ لبعْلَبَكَّ وبينَها ... نَسَبٌ تُضِئُ بنوره الأَيام؟
يبْلَى المكينُ الفخْمُ من آثارها ... يومًا، وآثارُ الخليل قيام!

---

[٦] زيدت هذه في الطبعة الثانية.

غَانْدِي

«أنشأها تحية لغاندي الزعيم الهندي المشهور، حين مروره بمصر سنة ١٩٣١، في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن»

بَنِي مِصرَ، ارْفَعُوا الغار وحيُّوا بَطلَ الهِندِ
وأَدُّوا واجِبًا، واقضوا حقوقَ العلَمِ الفرد
أَخوكم في المقاساةِ وعَرْكِ الموقفِ النَّكْدِ
وفي التَّضْحِيةِ الكبرى وفي المَطلبِ، والجُهد
وفي الجرح، وفي الدمع وفي النَّفْيِ من المهدِ
وفي الرحلة للحقِّ وفي مرحَلةِ الوفد
قِفوا حيُّوه من قرْبٍ على الفلْكِ، ومن بُعد
وغَطُّوا البَرَّ بالآس وغَطُّوا البحرَ بالورد
على إفريزِ (راجْبُوتا نَ)[٢٩] تمثالٌ من المجد
نبيٌّ مِثلُ (كونْفشْيُو سَ)، أَو من ذلك العهد
قريبُ القوْلِ والفعلِ من المنتظَرِ المهدي
شبيه الرسْل في الذَّوْدِ عن الحقِّ، وفي الزهد
لقد عَلَّم بالحقِّ وبالصبر، وبالقصد
ونادى المشرقَ الأَقصى فلبَّاه من اللحد
وجاءَ الأَنفسَ المرْضَى فداوَاها من الحِقد
دَعا الهندوسَ والإِسلا مَ للأُلفةِ والوُدِّ
بسحرٍ من قُوَى الروحِ حَوَى السَّيْفَيْن في غِمد
وسلطانٍ من النفسِ يُقوِّي رائِض الأَسْدِ
وتوفيقٍ منَ الله وتيْسيرٍ من السَّعد
وحظٍّ ليس يُعطاهُ سِوَى المخلوقِ للخلدِ
ولا يُخَذ بالحَوْلِ ولا الصَّوْلِ، ولا الجُند
ولا بالنسل والمال ولا بالكدحِ والكدِّ
ولكن هِبةُ المولى — تعالى الله — للعبد

سلامُ النيل يا غَنْدِي وهذا الزهرُ من عندي
وإجلالٌ من الأَهرا مِ، والكرْنكِ، والبَرْدِي
ومن مَشْيَخَةِ الوادِي ومن أَشبالِهِ المُرْدِ
سلامٌ حالِبَ الشَّاةِ سلامٌ غازلَ البُرْدِ
ومَن صَدَّ عن المِلح ولم يُقبِل على الشُّهد
ومَنْ تركبُ ساقيْهِ من الهندِ إلى السِّنْدِ
سلامٌ كلَّما صلَّيْـ ـت عُريانًا، وفي اللِّبد
وفي زاويةِ السجن وفي سِلسِلةِ القيدِ
مِنَ (المائِدَةِ الخضْرَا ءِ) [30] خُذْ حَذْرَكَ يا غنْدِي
ولاحظْ وَرَقَ «السِّيرِ» وما في ورق «اللورْدِ»
وكنْ أَبرَعَ مَن يَلعَـ ـبُ بالشَّطْرَنْجِ والنَّرْد
ولاقي العبقريِّينَ لِقاءَ النِّدِّ للنِّدّ
وقل: هاتوا أَفاعيَكم أَتى الحاوي من الهند!
وعُدْ لم تحفِل الذَّامَ ولم تَغتَرَّ بالحمد
فهذا النجمُ لا تَرْقَى إليه هِمَّةُ النقدِ
ورُدَّ الهندَ للأُمَّـ ـةِ من حدٍّ إلى حَدِّ

تَحِيَّةِ أَبُولُّو

«أبولو: مجلة فنية لخدمة الشعر الحيِّ، كان يصدرها مرة كل شهر — في سنة ١٩٣٢ — الدكتور أحمد زكي أبو شادي، فقال يحييها»

أَبولُّو، مَرحَبًا بك يا أَبولُّو فإنك من عُكاظِ الشعرِ ظِل
عُكاظُ وأَنتِ للبُلغاءِ سُوقٌ على جَنَباتِها رحَلوا وحلُّوا
ويَنبوعٌ من الإنشادِ صافٍ صدى المتأَدِّبين به يُقَلُّ
ومَضمارٌ يسوقُ إلى القوافي سوابِقُها إذا الشُّعراءُ قلُّوا
يقول الشِّعرَ قائلُهم رصينًا ويُحسِنُ حين يُكثِرُ أَو يُقِلُّ

ولولا المُحسنونَ بكلِّ أَرضٍ … لما ساد الشُّعُوبُ ولا استقلُّوا
عسى تأْتينَنا بمُعَلَّقاتٍ … نَروحُ على القديمِ بها نُدِلُّ
لعلَّ مَواهبًا خَفِيَتْ وضاعت … تُذاعُ على يَديكِ وتُستَغَلُّ
صحائِفُكِ المدبَّجَةُ الحواشي … رُبَى الوَرْدِ المُفتَّح أَو أَجَلُّ
رياحينُ الرِّياضِ يُمَلُّ منها … ورَيحَانُ القرائِحِ لا يُمَلُّ
يُمَهِّدُ عَبقريُّ الشِّعر فيها … لكلِّ ذخيرةٍ فيها مَحَلُّ
وليس الحقُّ بالمنقوصِ فيها … ولا الأَعراضُ فيها تُستحَلُّ
وليستْ بالمجالِ لِنَقدِ باغٍ … وراءَ يَراعِهِ حَسَدٌ وغِلُّ

أُغْنِيَة

«نظمها بلبنان في صيف سنة ١٩١٣ لتغنيها إحدى القيان»

بِي مِثلُ ما بِكِ يا قُمرِيَّةَ الوادي … ناديتُ ليلى، فقومي في الدُّجَى نادي
وأَرسِلي الشَّجوَ أَسجاعًا مُفصَّلةً … أَو رَدِّدِي من وراءِ الأَيْكِ إِنشادي
لا تكتُمِي الوَجْدَ؛ فالجرحانِ من شَجَنٍ … ولا الصبابةَ؛ فالدمعان من وادِ
تَذَكري: هل تلاقَيْنا على ظمإٍ؟ … وكيف بلَّ الصَّدَى ذو الغُلَّةِ الصادي؟
وأَنتِ في مجلِسِ الرَّيحانِ لاهيةٌ … ما سِرْتِ من سامرٍ إلا إِلى نادي
تذكري قُبلةً في الشَّعرِ حائرةً … أَضَلَّها فَمَشَتْ في فُرْقِكِ الهادي
وقُبلةً فوقَ خدٍّ ناعمٍ عَطِرٍ … أَبهى من الوردِ في ظلِّ النَّدَى الغادي
تذكري منظرَ الوادي، ومجلِسَنا … على الغديرِ، كعُصفورَيْنِ في الوادي
والغُصنُ يحنو علينا رِقَّةً وجَوًى … والماءُ في قدَمَيْنا رائحٌ غادِ
تذكري نغماتٍ هاهُنا وهُنا … من لحنِ شاديةٍ في الدَّوحِ أَو شادي
تذكري مَوْعدًا جادَ الزمان به … هل طِرتُ شوقًا؟ وهل سابقتُ مِيعادي؟
فنلتُ ما نلتُ من سُؤْلٍ، ومن أَملِ … ورحتُ لم أَحصِ أَفراحي وأَعيادي؟

يَا شِرَاعًا وَرَاءَ دِجْلَة

«غنَّاها بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة زيارته لتلك البلاد في سنة ١٩٣١»

يا شراعًا وراءَ دِجلةَ يَجري ... في دموعي تجنبَتكَ العَوادي
سِر على الماءِ كالمسيحِ رُويدًا ... واجْر في اليمِّ كالشعاع الهادي
وأْتِ قاعًا كرفرَفِ الخلدِ طِيبًا ... أَو كَفِرْدَوْسِهِ بشاشةَ وادي
قِفْ، تمهَّلْ، وخُذ أَمانًا لقلبي ... من عيونِ المهَا وراءَ السَّوادِ
والنُّواسِيُّ والنَّدامَى؛ أَمنِهم ... سامرٌ يملأُ الدُّجَى أَو نادِ؟
خَطَرَتْ فوقه المِهارةُ تعدو ... في غُبارِ الآباءِ والأجداد
أُمَّةٌ تُنشِئ الحياةَ، وتَبنى ... كبِناءِ الأُبوَّةِ الأَمجاد
تحتَ تاجٍ من القرابة والمُلْـ ... ـكِ على فَرْقِ أَرْيحيٍّ جواد
ملك الشطِّ، والفراتيْنِ، والبطـ ... ـحاءِ، أَعظِمْ بِفَيْصَلٍ والبلاد

الرَّجُلُ السَّعيد[٧]

«وهي ترجمة أبيات فرنسية عنوانها: L. home heureux لسمو الأمير حيدر فاضل»

عَفِيفُ الجَهْرِ والهمْسِ ... قَضَى الواجِبَ بالأَمْسِ
ولم يَعْرِضْ لِذِي حقٍّ ... بِنُقصانٍ ولا بَخْس
وعِندَ الناس مجهولٌ ... وفي أَلْسُنِهِمْ مَنْسِي
وفيه رقَّةُ القلْبِ ... لآلامِ بَني الجِنْسِ
فلا يَغْبِطُ ذا نُعْمى ... ويَرْثِي لأَخِي البُؤسِ
وللمحرُومِ والعافي ... حَوَالَيْ زادِهِ كُرْسي

٧ نُشِرَت في مجلة الكشكول سنة ١٩٢٥.

وما نَمَّ، ولا هَمَّ ... بِبَعْضِ الكَيْدِ والدَّسِّ
ينامُ الليلَ مَسْرورًا ... قليلَ الهَمِّ والهَجْس
ويُصْبحُ لا غُبارَ على ... سَرِيرَتِهِ كما يُمْسِي
فيا أَسعدَ من يَمشي ... على الأرضِ مِنَ الإِنْس
ومَنْ طَهَّرَهُ اللهُ ... من الرِّيبَةِ والرِّجْسِ
أَنِلْ قَدْرِيَ تَشْريفًا ... وهَبْ لي قُرْبَكَ القُدْسِي
عسى نَفسُكَ أَن تُدمـ ... ـج في أَحلامِها نَفسي
فأَلْقَى بَعض ما تَلْقى ... من الغِبطةِ والأُنْسِ!

الأَثَر

وجَدْتُ الحياةَ طريقَ الزُّمَرْ ... إلى بِعْثَةٍ وشُئون أُخَر
وما باطِلاً يَنزِلُ النازلون ... ولا عَبثًا يُزْمِعونَ السَّفَرْ
فلا تَحتَقِرْ عالَمًا أَنتَ فيه ... ولا تجْحَدِ الآخَرَ المُنْتَظَر
وخُذْ لكَ زادَيْنِ: من سِيرة ... ومن عملٍ صالحٍ يُدَّخَر
وكن في الطريق عفيفَ الخُطا ... شريفَ السَّمَاع، كريمَ النظر
ولا تخْلُ من عملٍ فوقَه ... تَعِشْ غير عَبْدٍ، ولا مُحتَقَر
وكن رجلاً إن أَتَوْا بَعدَه ... يقولون: مَرَّ وهذا الأَثَرْ

السِّتَار

قدَّمْتُ بين يَدَيَّ نَفْسًا أَذنبَتْ ... وأَتيْتُ بينَ الخوْفِ والإقرار
وجَعَلْتُ أَسترُ عن سِواك ذنوبَها ... حتى عَيِيتُ، فمُنَّ لي بستار!

هوامش

(١) المأمون بن الرشيد العباسي، وعصره من أزهى عصور الدولة الإسلامية.

(٢) الأقسام: الحظوظ.

(٣) يشير إلى قول النابغة:

نفس عصام سوَّدت عصاما وعلَّمته الكر والإقداما

وعصام حاجب النعمان بن المنذر، وإليه ينسب كل عصامي.

(٤) الأواسي: الدعائم والأبنية المحكمة.

(٥) يشير إلى حديث التاريخ عن حريق مكتبة الإسكندرية.

(٦) يشير إلى ما كان من حدَّة الخلاف بين زعماء مصر في ذلك التاريخ.

(٧) الصياصي: الحصون. والعتاد: عدَّة الحرب.

(٨) الميكادو: الملك في لغة اليابان.

(٩) العهاد: المطر.

(١٠) الانطياد: الارتفاع.

(١١) يعني وفود البلاد العربية التي اجتمعت لتكريمه ومبايعته بإمارة الشعر في مارس من تلك السنة نفسها.

(١٢) هو المرحوم محمد طلعت حرب باشا مؤسس البنك.

(١٣) قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ذائعة مشهورة.

(١٤) يعني منشئ دار العلوم المرحوم علي مبارك باشا.

(١٥) محمد طلعت حرب.

(١٦) يشير إلى مقابلة سعد زغلول وصاحبيه لممثل بريطانيا في مصر في نوفمبر من سنة ١٩١٨ ليطالبوا باستقلال مصر.

(١٧) لامت: لأمت.

(١٨) روح الله: عيسى، والكليم: موسى، عليهما السلام.

(١٩) جعفر البرمكي، ونكبة البرامكة مشهورة في تاريخ الرشيد.

(٢٠) من قصور بني الأحمر في غرناطة بالأندلس: (الهمبرا).

(٢١) الغريض ومعبد: من أمراء الغناء العربي.

(٢٢) زيدت هذه في الطبعة الثانية.

(٢٣) الكفاري: العظيم الأذنين، يشير إلى تمثال أبي الهول.

(٢٤) يشير إلى الأهرام.

(٢٥) ليس يألو الريح.. إلخ: ليس يقصر عنها.

(٢٦) يريد صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا.

(٢٧) مواقير: موقرة: مثلقة بما تحمل.

(٢٨) يشير إلى أصله «الرومي» وإلى أيادي بني مروان على العروبة، بما فتحوا من بلاد الروم، وبما استعرب من أهلها.

(٢٩) الباخرة التي أَقلَّت غاندي من الهند إلى لندن.

(٣٠) يطير إلى المؤتمر الذي كان مسافرًا إليه للبحث في دستور الهند.

الخصوصيات

أَبُو عَلِي

«وقال عندما بُشِّرَ بابنه علي شوقي»

صارَ شوْقِي أَبا علي　　في الزمان «الترَلَّلِي»
وجَـنـاهـا جـنـايـةً　　لـيسَ فـيـها بـأَوَّلِ!

الزَّمَنُ الأَخِير

«وقال في ذلك أيضًا»

عليٌّ، لو اسْتشرتَ أَباكَ قبْلاً　　فإِن الـخير حظُّ المُسْتشِير
إِذًا لـعَـلِـمْـتَ أَنَّـا فـي غَـنـاءٍ　　وإِن نكُ من لقائِكَ في سرور
وما ضِقنا بِمقدَمِكَ المُفَدَّى　　ولكن جئتَ في الزمَن الأخير!

صَاحِبُ عَهْدِه

«وقال أيضًا»

رُزِقتُ صاحِبَ عهْدي ... وتمَّ لي النسْلُ بَعدي
هُم يَحسُدونِي عليهِ ... ويغبِطوني بِسَعدي
ولا أَراني ونجلي ... سَنَلتقي عند مَجد
وسوْف يَعلَمُ بَيتي ... أَني أَنا النَّسْلُ وحْدي
فيا عليِ، لا تلُمْني ... فما احتِقارُكَ قَصْدي
وأَنتَ مِني كرُوحِي ... وأَنت مَنْ أَنت عندي!
فإِن أَساءَكَ قوْلي ... كذِّبْ أَباكَ بوعْدِ!

يَالَيْلَة!

«وكانت ولادة بنته أمينة ووفاة والده في ساعة واحدة، فقال في ذلك»

يا لَيْلَةً سَمَّيْتُهَا لَيْلَتي ... لأَنها بالناس ما مَرَّتِ
أَذكُرُها، والموتُ في ذِكرها ... على سبيلِ البَثِّ والعِبْرَةِ
لِيَعْلَمَ الغافِلُ ما أَمْسُه؟ ... ما يومُهُ؟ ما مُنْتَهى العِيشَةِ؟
نَبَّهني المقدورُ في جُنْحِها ... وكنتُ بين النَّوْم واليَقْظةِ
الموتُ عَجْلانٌ إِلى والدِي ... والوَضْعُ مُسْتَعْصٍ على زَوْجَتي
هذا فتًى يُبْكَى على مِثلِه ... وهذه في أَوَّلِ النَّشْأَةِ
وتلك في مِصْرَ على حالِها ... وذاكَ رَهْنُ الموْتِ والغُرْبَةِ
والقلبُ ما بَينَهما حائرٌ ... من بَلْدَةٍ أَسْرى إِلى بَلدةِ
حتى بَدا الصُّبحُ، فوَلَّى أَبى ... وأَقبلَتْ بعدَ العَناءِ ابْنَتي
فقلتُ: أَحكامُكَ حِرْنا لها ... يا مُخرجَ الحيِّ منَ الميِّتِ!

أَمِينَة

«وقال حين اكتملت بنته حولاً يصفها في هذا العمر»

أَمِينتي في عامِها ... الأَوّلِ مِثلُ المَلَكِ
صالحةٌ للحُبِّ مِنْ ... كلٍّ، وللتَّبَرُّك
كم خَفَقَ القلبُ لها ... عِندَ البُكا والضَّحِك
وكم رَعَتْها العَيْنُ في الـ ... سُّكونِ والتَّحرُّك
فإن مَشَتْ فخاطِري ... يَسبِقُها كالمُمْسِك
أَلحَظُها كأَنها ... من بَصَرِي في شَرَك
فيا جَبينَ السَّعْدِ لي ... ويا عُيُونَ الفَلَك
ويا بياضَ العيْشِ في ... الأَيَّامِ ذاتِ الحَلَك
إنّ الليالي وهْيَ لا ... تَنْفَكُّ حَرْبَ أَهلِك
لو أَنصَفَتْكِ طِفلةً ... لكنتِ بنتَ المَلِكِ!

طِفْلَةٌ لاَهِيَةٌ

«وقال يهنئها بسنتها الثانية»

أمينةُ، يا بِنتيَ الغاليَة ... أُهَنِّيكِ بالسَّنةِ الثانِية
وأسأَلُ أَنْ تَسلَمي لي السنينَ ... وأَنْ تُرْزَقي العَقلَ والعافية
وأَنْ تُقْسَمي لأَبَرِّ الرجالِ ... وأَنْ تِلدي اَلأَنفُسَ العاليه
ولكنْ سأَلتُكِ بالوالِدَيْن ... وناشدتُك اللُّعَبَ الغاليه
أَتدرِين ما مرَّ من حادِثٍ ... وما كان في السَّنةِ الماضيه؟
وكم بُلْتِ في حُللٍ من حريرٍ ... وكم قد كسَرْتِ منَ الآنِيه؟
وكم سَهَرتْ في رِضاكِ الجفونُ ... وأَنتِ على غَضَبٍ غافِيه؟
وكم قد خَلتْ من أَبيكِ الجيوبُ ... وليسَتْ جُيوبُكِ بالخاليه؟
وكم قد شكا المُرَّ من عَيْشه ... وأَنتِ وحَلواكِ في ناحيه؟

وكم قد مرِضْتِ، فأَسقمتِه وقمتِ، فكنتِ له شافيه؟
ويَضحكُ إن جِئتِه تضحكينَ ويَبكي إذا جِئتِه باكيَه!
ومن عَجَب مرَّتِ الحادثاتُ وأَنتِ لأَحدَاثِها ناسيَه!
فلو حَسَدَتْ مُهجةٌ وُلْدَها حسدْتُكِ من طِفلةٍ لاهيَه!

الأَنَانيَة

«ونظم هذه الحكاية فيها وفي كلب لها أسود صغير»

يا حَبَّذا أَمينةٌ وكلبُها تُحِبُّهُ جدًّا كما يُحبُّها
أَمينتي تحبو إِلى الحَوْليْنِ وكلبُهَا يُنَاهِزُ الشهرَينِ
لكِنَّها بَيضاءُ مثلُ العاجِ وعبْدُها أَسوَدُ كالدَّياجِي
يلزَمُها نهارَها وتلزمُهْ ومِثلَما يُكرِمُها لا تُكرمُهُ
فعندَها من شدَّةِ الإشفاقِ أَن تأْخُذ الصغيرَ بالخِناقِ
في كلِّ ساعةٍ له صِياحُ وقلَّما يَنعَمُ، أَو يرتاحُ
وهذِهِ حادثةٌ لها مَعَهْ تُنبيك كيفَ استأْثرَتْ بالمنفعَهْ
جاءَتْ به إِلَيَّ ذاتَ مَرَّة تَحملُهُ وهْي بِه كالبَرَّهْ
فقلتُ: أَهلا بالعَرُوسِ وابنِها ماذا يكونُ يا تُرى مِن شأْنِها؟
قالت: «غلامي» يا أَبي جَوْعانُ وما لهُ كما لنا لِسانُ
فمُرهُمُوا يَأْتُوا بخبزٍ ولبنْ ويُحضِروا آنِية ذاتَ ثمنْ
فقُمتُ كالعادةِ بالمطلوب وجئتُها أَنظرُ من قريب
فَعَجَنَتْ في اللبنِ اللُّبابا كما تَرانا نُطِعمُ الكلابا
ثم أَرادَتْ أَن تَذوقَ قبلَه فاستَطْعَمَتْ بنْتُ الكِرام أَكلَه
هُناكَ أَلقَتْ بالصَّغيرِ للوَرا واندَفعتْ تَبكي بُكاءً مُفْتَرَى
تقول: بابا، أَنا (دَحَّا) وهْوَ (كُخّ) معناه: بابا، ليَ وحْدِي ما طُبِخ
فقلْ لمنْ يَجهَل خَطْبَ الآنِيَهْ قد فُطِرَ الطِّفلُ على الأَنانِيَه

لُعْبَة

«وقال فيما ينفع أمينة من اللعب، وأشار إلى رأس السنة الميلادية الذي يكثر فيه بيعها»

صِغارٌ بحُلوانَ تَستَبْشِرُ ... ورُؤيَتُها الفرَحُ الأَكبَرُ
تَهُزّ اللواءَ بعيدِ المَسِيحِ ... وتُحيِيهِ من حيثُ لا تَشعُر
فهذا بِلُعْبَتِه يَزدَهِي ... وهذا بحُلَّتِه يَفخَر
وهذا كغُصْنِ الرُّبا يَنْثَني ... وهذا كريح الصَّبا يَخطِر
إذا اجتمَعَ الكلُّ في بُقعة ... حَسبِتَهُموا باقةً تُزهِر
أَو افترقوا واحدًا واحدًا ... حَسِبتَهُموا لؤلؤًا يُنْثر
ومِنْ عَجَبٍ منهُمو المسلِمونَ ... أَو المسلمونَ هُمُ الأَكثر
فلاسِفةٌ كلُّهمْ في اتِّفاقٍ ... كما اتَّفَقَ الآلُ والمعشَر
ديسَمْبِرُ شعبانُ عند الجميعِ ... وشَعبانُ للكلِّ دَيسَمْبِر
ولا لُغةٌ غيْرَ صَوْتٍ شجِيٍّ ... كرَوْضٍ بَلابلُه تَصْفِر
ولا يَزدَرِي بالفقيرِ الغنِيُّ ... ولا يُنكرُ الأَبيَضَ الأَسمر
فياليتَ شِعرِي أَضلَّ الصِغارُ ... أَمْ العقلُ ما عنهمو يُؤثَر؟
سؤال أَقدِّمه للكبار ... لعلَّ الكبارَ به أَخبَر
ولي طِفلةٌ جازَتِ السَّنَتيْنِ ... كبعضِ الملائِك، أَو أَطهَرُ
بعَيْنَيْنِ في مثل لونِ السَّماءِ ... وسِنَّيْنِ يا حَبَّذَا الجَوْهَر!
أَتتنِيَ تسأَلُني لُعبةً ... لِتكسِرَها ضِمْنَ ما تكسِر
فقلتُ لها: أَيُّهذا الملاكُ ... تحِبُّ السَّلامَ، ولا أُنكِر
ولكنَّ قبلَكَ خابَ المسيحُ ... وباءَ بمنشورِه القَيْصَر
فلا تَرْجُ سلْمًا من العالمينَ ... فإِنّ السباعَ كما تُفْطَر
ومَنْ يَعدَمِ الظُّفْرَ بينَ الذِّئابِ ... فإِنّ الذِّئابَ به تَظْفَر!
فإِنْ شِئتَ تحيا حياةَ الكِبار ... يُؤمِّلُكَ الكلُّ، أَو يَحذر
فخذْ، هاكَ (بُندُقةً) نارُها ... سلامٌ عليكَ إذا تُسْعَر
لعلكَ تأْلُفها في الصِّبا ... وتخلُفها كلَّما، تكبَر
ففيها الحياةُ لمن حازَها ... وفيها السعادةُ والمَفْخَر

وفيها السلامُ الوَطِيدُ البناءِ لمن آثرَ السِّلمَ أَو يُؤثِر
فلوبيلُ مُمسِكةٌ موْزَرًا ولوبيلُ تُمْسِكها مَوْزَر[1]
أَجابَتْ وما النُّطْقُ في وُسْعِها ولَكنّها العَيْنُ قد تُخْبِرُ
تقول: عجيبٌ كلامُك لي أَبِالشَّرِّ يا والِدِي تأْمُرُ؟
تَزين لبنتِكَ حبَّ الحروبِ وحُبُّ السلامِ بها أَجدَر!
وأَنتَ امرؤ لا تُحبُّ الأَذى ولا تَبتغيه، ولا تأْمُرُ!
فقلتُ: لأَمرٍ ضَلَلتُ السبيلَ ورُبَّ أَخي ضَلَّةٍ يُعْذَرُ
فلو جيءَ بالرسْل في واحدٍ وبالكتْب في صفحةٍ تُنْشَر
وبالأَوَّلين وما قدَّموا وبالآخِرينَ وما أَخَّروا
ليَنْهَضَ ما بينهُمْ خاطِبا على العَرشِ نصٌّ له مِنْبَر
يقولُ: «السلامُ» يُحِبُّ السلامَ ويأْجُرُكم عنه ما يَأْجُر
لصُمّ العبادُ فلم يسمعوا وكُفّ العِبادُ فلم يُبْصروا

زَيْنُ الْمُهُود[1]

«وقال وقد قبَّلها قبلة في الصباح»

يا شِبهَ سيَّدَةِ البَتُو لِ، وصورةَ الملَك الطَّهورْ
نَسَّى جمالُكِ في الإِنا ثِ جمالَ يوسُفَ في الذكور
زَيْنُ المُهودِ اليومَ أنـ ـتِ، وفي غدٍ زينُ الخُدور
إنّ الأَهِلةَ إن سَرَتْ سارت على نَهج البُدور
بِأَبي جبينٌ كالصَّبَا حِ إذا تهيَّأَ للسُّفور
بَقِيَتْ عليه من الدُّجى تلك الخُيُوطُ من الشُّعور
وكرائمٌ من لؤلؤٍ زيَّنَّ مَرْجانَ النُّحور

[1] زيدت في هذه الطبعة الثانية.

سبحانَ مُؤتِيها يَتا ... ئِمَ في المَراشف، والثُّغور
تَسقي وتُسقَى من لُعا ... بِ النَّحل، أَو طَلِّ الزهور
وكأَنَّ نَفحَ الطِّيبِ حو ... لَ نَضيدِها أَنفاسُ حُور
وغريبةٌ فوقَ الخدو ... دِ، بديعةٌ من وَرْدِ جُور
صفراءُ عند رَواحِها ... حمراءُ في وقتِ البُكور
قبَّلتُها، وشَمَمْتُها ... وسقيْتُها دَمْع السرور

أَوَّلُ خَطْوَه

«وقال يذكر دخول ولده علي في السنة الثانية من عمره»

هذِهِ أَوَّلُ خطوَهْ ... هذِهِ أَوّلُ كبْوَهْ
في طريقي لِعليٍّ ... عنهُ لو يَعقِلُ غُنْوَه[٢]
يأْخُذُ العيشَةَ فيه ... مُرَّةً آنًا، وحُلوَه
يا علِي إِن أَنتَ أَوفيْـ ... ـتَ على سِنِّ الفُتُوَّه
دافِع الناسَ، وزاحِمْ ... وخُذِ العيْشَ بقُوَّه
لا تقلْ: كان أَبي! إِيَّـ ... ـاكَ أَن تَحْذُوَ حَذْوَه!
أَنا لم أَغنَمْ من النا ... سِ سوى فنجان قهوَه
أَنا لم أُجْزَ عن المَدْ ... ح من الأَملاكِ فروَه!
أَنا لم أُجْزَ عن الكتْـ ... ـبِ من القُرَّاءِ حُظوَه!
ضَيَّعَ الكلُّ حيائِي ... وعفافي، والمُرُوَّه!

يَوْمُ فرَاقه

«وقال وقد بكى طفلاه وتشبثا به ألا يخرج»

بكيا لأَجلِ خُروجهِ في زَوْرَةٍ ... يا ليْتَ شِعْري: كيف يومُ فِراقِه؟!
لو كان يَسمَعُ يَومَذاك بُكاهُما ... رُدَّتْ إِليهِ الروحُ من إِشفاقه

مَظْلُوم

«وكتب إلى عزيزه وظهيره صاحب العطوفة المرحوم أحمد مظلوم باشا من باريز، يهنئه بالنيشان المجيدي الأوَّل»

أَقسمْتُ لوْ أَمَرَ الزمانُ سماءَه فسعَتْ لِصَدْرِك شمسُها ونُجُومُها
لِيُنيلَ قدْرَك في المعالي حَقَّه شكَت المعالي أنه مَظلومُها

سَرَّنَا أَنَّكَ ارْتَقَيْت

«وبعث من باريز بهذا التاريخ إلى صاحب السعادة محمود شكري باشا يهنئه برتبة المتمايز» (١٩٠٣)

يا عزيزًا لنا بمصرَ عَلِمنا أَنه بالرِّضا الخديوِيِّ فائِز
سَرَّنا أَنكَ ارتقيْتَ وتَرقَى فكأَنا نحوزُ ما أَنتَ حائز
رتُبةً أَلسُنُ العُلا أَرَّخَتْها أَنت محمودٌ في العُلا المُتمايِز

بَلَّغْتَني أَمَلاً

«وقال يشكر صاحب العطوفة المرحوم أحمد مظلوم باشا علي معروف صنعه معه»

ذِي همَّة دونها في شأْوها الهِممُ لم تتَّخذْ «لا»، ولم تكذِب لها «نعمُ»
بلَّغتني أَمَلاً ما كنْتُ بالغَهُ لولا وفاؤُك — يا مظلومُ — والكرَمُ
ودَادُك العِزُّ والنُّعَمى لخاطِبِه ووُدُّ غيركَ ضحكُ السِّنِّ، والكَلم
أَكلَّما قَعَدَتْ بي عنك معذرَةٌ مَشتْ إِليَّ الأَيادي منكَ والنِّعم؟
تُجِلُّ في قلَم الأَوطانِ حامِلَهُ فكيف يَصبرُ عن إِجلالِك القلم؟

أُصيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصِبْتَ

«وكتب إلى صديقه المفضال سعادة المرحوم إسماعيل باشا صبري يهنئه بالسلامة، على أثر حادثة في القطار»

أتتني الصُّحْفُ عنك مُخبِّرَاتٍ بحادِثةٍ ولا كالحادِثاتِ
بخَطبِكَ في القِطار أَبا حُسَيْنٍ وليس منَ الخُطوبِ الهيِّنات
أُصيبَ المجدُ يومَ أُصِبْتَ فيه ولم تخْلُ الفَضيلةُ منْ شَكاة
وساءَ الناس أَنْ كبَتِ المعالي وأزعجَهُمْ عِثارُ المَكرُمات
ولستُ بناسٍ الآدابَ لمَّا تَراءَتْ رَبِّها مُتلهِّفات
وكان الشِّعْرُ أَجزَعَها فُؤادًا وأَحرَصَها لدَيْكَ على حياة
هجَرْتَ القَوْلَ أَيامًا قِصارًا فكانَتْ فَترةً للمُعْجِزات
وأَن ليالِيًا أَمسكْت فيها لسُودٌ لليَراعِ وللدَّواة
فقلْ لي عن رَضوضِك: كيف أَمْستْ؟ فقَلبي في رُضوضٍ مُؤْلِمات
وهَبْ لي مِنك خَطًّا أَو رسولاً يُبَلِّغُ عَنكَ كلَّ الطَّيِّبات

سأَلْتُكَ بالْوِدَادِ

«وكتب إلى سعادته يهنئه بتعيينه وكيلاً لنظارة الحقَّانية»

سأَلتُكَ بالوِدادِ أَبا حُسيْنٍ وبالذِّمَمِ السَّوالِف والعُهودِ
وحبٍّ كامِنٍ لكَ في فؤادي وآخَرَ في فُؤادِكَ لي أَكيد
أَحَقٌّ أَنَّ مَطْوِيَّ الليالي سَيُنشَرُ بين (أَحمدَ) و(الوليدِ)؟
وأَنَّ مناهِلاً كنّا لدَيْها ستدْنو للتَّأَنُّسِ والوُرود؟
قدومُكَ في رُقِيِّكِ في نَصيبي سُعودٌ في سُعودٍ في سعود
وَفَدْتُ على رُبوعِكَ غِبَّ نَأيٍ وكنتَ البدْرَ مأْمولَ الوُفود
لئِنْ رَفعوكَ مَنزلةً فأَعلى لقدْ خُلِقَ الأَهِلَّةُ للصُّعود
وأُقسِمُ ما لرفعَتِكَ انتِهاءٌ ولا فيها احتمالٌ للمزيد

اهْنَأْ أَخِي

«وكتب إلى صديقه الفاضل صاحب العزَّة حمزة بك فهمي يهنئه برتبة المتمايز الرفيعة»

قالوا: «تمايَزَ» حمزَةُ   قلتُ: «التَّمَايُزُ» من قديمِ
لو لم يَمِيزوهُ بها   لا مْتازَ بالخُلُقِ العظيم
رُتَبٌ كرائِمُ في العُلا   وُجِّهْنَ منكَ إلى كريم
فاهنأْ أَخِي بِوُفودِها   وتلقَّ تَهنِئَةَ الحَميم
وارْقَ المنازلَ كلَّها   حتى تُنِيفَ على النُّجوم

يَانَصِيب

«وقال يعابث صديقه الشاعر خليل بك مطران، وقد جاءه أنه ربح ربحًا»

لقد وافَتْنيَ البُشرى   وأُنْبِئْتُ بما سَرَّا
وقالوا عنْكَ لي أَمسِ   ربِحتَ النِّمرَةَ الكبرى
فيا مُطرانُ، ما أَوْلى   ويا مُطرانُ، ما أَحْرى
لقد أَقبَلتِ الدنيا   فلا تجزَع على الأُخرى
أَخذْتَ الصِّفرَ باليُمنى   وكان الصِّفرُ باليُسرى
وكانت فضَّةً بيضًا   فصارت ذَهبًا صُفرا
وقال البعضُ: أَلفَيْنِ   وقالوا: فوْقَ ذا قَدْرَا

الْمُدَامَةُ

(وقال عن بعض شعراء الترك)

كنْ في التواضُعِ كالمُدا   مَةِ حين تُجْلى في الكُئوسْ
مَشَتِ اتِّئادًا في الصُّدور   فحكُموها في الرءُوسْ

تارِيخ

(وقال يؤرخ ديوانه الأول — الشوقيات — وقد صدر في سنة ١٣١٧هـ)

وجَنَّاتٍ منَ الأَشعار فيها جَنًى لِلمجْتَنِي من كلِّ ذوْق
تأَمَّلْ كمْ تمنَّوْها وأَرِّخْ لِشوقِيَّاتِ أَحمدَ أَيَّ شوْق

أَلْيَقُ دِيوَانٍ ظَهَرَ

وقال يؤرخ الشوقيات أيضًا»

مجمُوعَةٌ لأَحمَدٍ مُعْجِزُه فِيها بهَرْ
تُعَدُّ في تاريخِها أَليَقَ ديوانٍ ظَهَرْ

هوامش

(١) لوبيل: اسم تدلل به أمينة، وموزر: نوع من البنادق سريع الطلقات كان له شهرة قبل الحرب الحاضرة.

(٢) الغنوة: الغنى، يقول: هو في غنى عن سلوك طريقي.

الحكايات

أَنْتَ وَأَنا

يـحـكـونَ أَنَّ رَجُـلا كُـرْدِيًّـا   كان عظيمَ الجسمِ هَمْشَرِيًّا
وكان يُلقِي الرُّعْبَ في القلوبِ   بكَثْرةِ السِّلاحِ في الجُيوبِ
ويُفْزعُ اليَهودَ، والنَّصارَى   ويُرْعِبُ الكِبارَ، والصِّغار
وكلَّما مَرَّ هُناك وهُنا   يَصيحُ بالناس: أَنا! أَنا! أَنا!
نَمَى حديثُه إلى صبيِّ   صغيرِ جِسمٍ، بطلٍ، قويِّ
لا يَعْرِفُ الناسُ له الفُتُوَّهْ   وليس مِمَّنْ يَدَّعون القوَّهْ
فقال للقوْمِ: سأُدْرِيكم بهِ   فتَعلمون صِدْقَه من كِذبهِ
وسارَ نحوَ الهَمْشَرِيِّ في عَجَلْ   والناسُ مما سيكونُ في وَجَلْ
ومَدَّ نحوَه يَميناً قاسِيَهْ   بضربةٍ كادَتْ تكونُ القاضِيَهْ
فلم يُحَرِّكْ ساكِنًا، ولا ارتبَكْ   ولا انتَهى عن زَعمِه، ولا تَركْ
بلْ قال للغالب قوْلاً ليِّنا: الآنَ صرْنا اثنيْن: أَنتَ وأَنا

نَديمُ الْبَاذِنْجَانِ

كان لسُلطانٍ نديمٌ وافِ   يُعيدُ ما قال بِلا اختلافِ
وقد يزيدُ في الثَّنا عليهِ   إذا رأَى شيئًا حَلا لديهِ

وكـان مَـولاهُ يَـرى، ويَـعـلـمُ ويسمعُ التَّملِيقَ، لكنْ يَكتُمُ
فـجلسَا يومًا علـى الـخِوانِ وجـيءَ فـي الأَكل بِباذِنجانِ
فأَكل السلطانُ منه ما أَكلْ وقال: هذا في المذاق كالعسَلْ
قال النديمُ: صدقَ السلطانُ لا يستوي شُهدٌ وباذِنجانُ
هذا الذي غَنى به «الرئيسُ»[1] وقال فيه الشِّعْرَ «جالينوسُ»
يُـذهِـبُ أَلـفَ عِـلَّـةٍ وعِـلَّـهْ ويُبردُ الصَّدْرَ، ويَشْفِي الغُلَّهْ
قـال: ولـكـنْ عـنْـده مـراره ومـا حَـمـدتُ مَـرَّةً آثـارَهْ
قال: نـعـم، مُرٌّ، وهـذا عَيْبُه مُذْ كنتُ يا مولاي لا أحِبُّه
هـذا الـذي مـات بـه «بُقراطُ» وسُمَّ في الكأْسِ به «سُقراطُ»
فالتفتَ السلطان فيمنْ حولَه وقال: كيف تجدون قولَهْ؟
قال النديمُ: يا مَليكَ الناسِ عُذرًا؛ فما في فعلتي من باسِ
جُعلْتُ كيْ أنادِمَ السلطانا ولـم أنـادمْ قَـطُّ بـاذِنـجـانـا

ضِيافَةُ قِطَّة[1]

لـستُ بـنـاسٍ لـيـلـةً مـن رَمَـضَـانَ مَـرَّتِ
تـطـاوَلـتْ مـثـلَ لـيـا لي القطْبِ، واكفهرَّتِ
إذِ انـفـلَتُّ من سُـحـو ري، فدَخلتُ حُجرَتي
أَنظُرُ في ديوان شِعــ ــرِ، أَو كـتـابِ سِـيـرةِ
فلم يَرُعْني غير صوْ تِ كَـمُـواءِ الـهِـرَّة
فقمْتُ أَلـقـي الـسَّمــ عَ في السُّتُورِ، والأَسِرَّة
حتـى ظـفِـرْتُ بـالـتـي عـلـيَّ قـد تَـجـرَّت
فمُذ بدت لي، والتقتْ نَـظَـرتُـهـا ونـظـرتـي

[1] نُشِرَت في سنة ١٩٢٩.

عـاد رَمـادُ لَـحْـظِـهـا مثلَ بَصيصِ الجَمرَة
وردَّدَتْ فـحِـيـحَـهـا كـحَـنَـشٍ بـقَـفْـرَة
ولـبِسَـتْ لـي من ورا ءِ السترِ جلدَ النمرةِ
كرَّتْ، ولكن كالجَبا نِ قـاعـدًا، وفـرَّت
وانـتـفـضـتْ شـوارِبًـا عن مثلِ بيتِ الإبرة
ورفـعـت كـفًّـا، وشـا لـتْ ذَنـبًـا كـالـمـذرة
ثم ارتَقَتْ عن المُوا ءِ، فَـعَـوَتْ، وهَـرَّتِ
لـم أَجـزِهـا بـشِـرَّةٍ عـن غـضـبٍ وشِـرَّة
ولا غَـبـيتُ ضَـعـفَـهـا ولا نَـسِـيـتُ قُـدْرَتـي
ولا رأَيـتُ غـيـرَ أُمٍّ بـالـبـنـيـنَ بَـرَّة
رأَيتُ ما يَعطِفُ نَفْـ ـسَ شاعرٍ من صورة
رأَيـتُ جِـدَّ الأُمَّـهـا تِ فـي بـنـاءِ الأسْـرَة
فلم أَزَلْ حتى اطمَأَنَّ جـأْشُـهـا، وقَـرَّت
أَتَـيْـتُـهـا بـشَـربَـةٍ وجـئـتُـهـا بـكِـسْـرَة
وصُنتُها من جانِبَيْ مَـرْقَـدِهـا بـسـتُـرَتـي
وزِدْتُـها الدِّفءَ، فـقرَّ بْتُ لـهـا مَـجْـمَـرَتـي
ولـو وجـدت مَـصْـيَـدًا لـجِـئـتُـهـا بـفـأْرَة
فاضطجعَتْ تحت ظِلا ل الأَمْـنِ واسـبَـطـرَّت
وقــرأَتْ أَورادَهــا ومـا دَرَتْ مـا قَـرَت
وسَـرَحَ الـصِّـغـارُ فـي ثُـدِيِّـهـا، فـدَرَّت
غُـرٌّ نـجـومٍ سُـبَّـحٌ فـي جَـنَـبَـاتِ الـسُّـرة
اخـتـلـطـوا، وعَـبَّـثُـوا كالعُمْي حَوْلَ سُفْرة
تَـحـسَـبُـهـم ضَـفـادِعًـا أَرسَـلْـتَـهـا فـي جَـرَّةِ
وقـلـتُ: لا بـأْسَ عـلـى طِـفـلِـكِ يـا جُـوَيـرَتـي
تَمَخَّضي عن خمسةٍ إن شِئتِ، أَو عن عَشْرَة
أَنـتِ وأَولادُكِ حـتَّـى يَـكـبـروا فـي خُـفْـرتـي

الصَّيَّادُ وَالْعُصْفُورَة[٢]

حكايةُ الصَّيَّادِ والعُصفوره صارتْ لبعض الزاهدين صوره
ما هَزَءُوا فيها بمستَحِقِّ ولا أَرادوا أَولياءَ الحقِّ
ما كلُّ أَهلِ الزهدِ أَهلُ اللهِ كمْ لاعبٍ في الزاهدين لاه
جعلتُها شِعرًا لتَلْفِتَ الفَطِنْ والشِّعرُ للحكمةِ مُذْ كان وطَن
وخَيْرُ ما يُنْظَمُ للأَديب ما نَطقَتْه أَلسُنُ التَّجْريب
أَلقَى غُلامٌ شَرَكا يَصطادُ وكلُّ مَن فوق الثَّرى صَيَّادُ
فانحدرتْ عُصفورةٌ من الشَّجَرْ لم يَنْهَها النَّهيُ، ولا الحزْمُ زَجَر
قالت: سَلامٌ أَيُّها الغُلامُ قال: على العُصفورةِ السلامُ
قالت: صَبِيٌّ مُنْحَنِي القناةِ؟! قال: حَنَتْها كثرةُ الصلاةِ
قالت: أَراك بادِي العِظامِ! قال: بَرَتْها كثرةُ الصيامِ
قالت: فما يكونُ هذا الصوفُ؟ قال: لباسُ الزاهدِ الموصوفُ
سَلِي إذا جَهِلْتِ عارفيهِ فابنُ عُبيدٍ والفُضَيْلُ فيه
قالت: فما هذِي العَصا الطويلهْ؟ قال: لِهاتِيكِ العَصا سَليله
أَهشُّ في المَرْعَى بها، وأَتَّكي ولا أَرُدُّ الناسَ عن تبرُّكِ
قالت: أَرى فوق التراب حَبَّا مما اشتَهى الطيرُ، وما أَحَبَّا
قال: تَشَبَّهْتُ بأَهل الخيرِ وقلت أَقرِي بائساتِ الطَّيْرِ
فإِنْ هَدَى اللهُ إِليه جائعا لم يَك قرباني القليلُ ضائعا
قالت: فجُدْلى يا أَخا التَنسُّكِ قال: القُطِيه. بارَك اللهُ لكِ
فصَلِيَتْ في الفخِّ نار القارِي ومَصْرَعُ العصفورِ في المِنْقار
وهتَفَتْ تقول للأَغرارِ مقالةَ العارفِ بالأَسرار:
«إِياكَ أَن تَغتَرَّ بالزُّهَّادِ كم تَحتَ ثوبِ الزُّهدِ من صيَادِ!»

---

[٢] زيدت في هذه الطبعة الثانية.

الْبَلَابَلُ التي ربَّاهَا الْبُوم

أُنْبِئْتُ أَنّ سُليمانَ الزَّمَانِ ومَنْ أَصْبى الطُّيُورَ، فناجَتْهُ، وناجاها
أُعطَى بَلابلَهُ يـومـًا — يـؤدبـها لِحرمةٍ عندَه — لِلبُوم يَرعاها
واشتاق يومًا مِنَ الأيامِ رُؤيَتَها فأَقبلَتْ وهْيَ أَعْصَى الطَّيْرِ أفواها
أَصابَها العِيُّ، حتى لا اقتِدَارَ لها بأَنْ تَبُثَّ نبيَّ اللهِ شَكواها
فنالَ سيِّدَها من دائها غَضَبٌ وودَّ لو أَنه بالذَّبحِ داواها
فجاءَه الهُدْهدُ المعهُودُ مُعْتَذِرًا عنها، يقولُ لِموْلاهُ ومولاها:
بلابِلُ اللهِ لم تخرَسْ، ولا وَلِدَتْ خُرْسًا، ولكنَّ بُومَ الشؤْمِ ربَّاها

الدِّيكُ الْهِنْدِيُّ وَالدَّجَاجُ الْبَلَدِي

بَينَا ضِعافٌ من دَجاج الرِّيفِ تَخطِرُ فِي بيتٍ لها طريفِ
إذ جاءَها هِنْدِي كبيرُ العُرْفِ فقام في الباب قيامَ الضَّيْف
يقولُ: حيَّا اللهُ ذي الوُجُوها ولا أَراها أَبدًا مكرُوها
أَتيْتُكم أَنشُرُ فيكم فضلي يومًا، وأَقضي بَينَكم بالعدْلِ
وكلُّ ما عِندَكُمُ حرامُ عليَّ، إلا الماءُ، والمنامُ
فعاودَ الدَّجاجَ داءُ الطَّيْشِ وفتحت لِلعلجِ بابَ العُشِّ
فجالَ فيه جوْلةَ المليكِ يدعو لِكلِّ فرْخةٍ وديكِ
وباتَ تِلكَ الليلةَ السَّعيدَهْ مُمتَّعًا بدارِهِ الجديدَةْ
وباتتِ الدَّجاجُ في أَمانِ تحلمُ بالذِّلةِ والهوانِ
حتى إذا تهلَّلَ الصباحُ واقتبَستْ من نورِهِ الأَشباحُ
صاحَ بها صاحبُها الفصيح يقولُ: دامَ منزلي المَليحُ!
فانتَبهتْ من نَومِها المَشئومِ مذعورَةً من صيحةِ الغَشوم
تقولُ: ما تِلكَ الشروطَ بيننا غَدَرْتنا واللهِ غدرًا بيِّنا!
فضَحِك الهِنْدِيُّ حتى استلقى وقَال: ما هذا العَمَى يا حَمْقى؟!

متى ملكتُمْ أَلْسُنَ الأَربابِ؟ قد كان هذا قبلَ فتحِ البابِ!

الْعُصْفُورُ والْغَديرُ الْمَهْجُورُ

أَلَمَّ عصفورٌ بمجرًى صافِ قد غاب تحتَ الغابِ في الأَلفاف
يَسقي الثَّرَى من حيثُ لا يدرِي الثرى خشيَةَ أَن يُسمَعَ عنه، أَو يُرَى
فاغتَرَفَ العصفورُ من إحسانِه وحَرَّكَ الصَّنيعُ من لِسانِه
فقالَ: يا نورَ عُيونِ الأَرضِ ومُخجِلَ الكوْثرِ يومَ العَرْضِ
هل لكَ في أَن أُرْشِدَ الإنسانا لِيَعْرِفَ المكانَ والإِمكانا؟
فينظُرَ الخيْرَ الذي نظرْتُ ويشكرَ الفضلَ كما شكرْتُ؟
لعلَّ أَن تُشهَرَ بالجمِيل وتُنسِيَ الناسَ حديثَ النِّيل؟
فالتفَتَ الغدِيرُ لِلعُصفور وقال يُهدِي مُهجَةَ المَغْرُورِ
يأَيُّها الشاكِرُ دونَ العالَمِ أَمَّنكَ اللهُ يدَ ابنِ آدمِ
النِّيلُ — فاسمعْ، وافهَمِ الحدِيثا — يُعطِي، ولكنْ يأْخُذُ الخبيثا
من طُولِ ما أَبصرَهُ الناسُ نُسِي وصار كلُّ الذِّكرِ لِلمهندِس
وهكذا العَهدُ بِوُدِّ الناسي وقيمةُ المحسِنِ عندَ الناس
وقد عَرفتَ حالتي، وضِدَّها فقلْ لِمَنْ يسأَلُ عنِّي بَعدَها
إِنْ خفِيَ النافعُ فالنفعُ ظَهَرَ يا سَعْدَ مَنْ صَافَى، وصُوفِي، واستتَر!

الأَفْعَى النِّيليَّةُ وَالْعَقْرَبَةُ الْهِنْدِيَّة

وهذِهِ واقعةٌ مُسْتغرَبهْ في هَوَسِ الأَفعَى وخُبثِ العَقرَبَهْ
رأَيتُ أَفعَى من بناتِ النِّيلِ مُعجَبَةً بِقدِّها الجميلِ
تحتَقِرُ النصْحَ، وتجفو النَّاصِحا وتَدَّعي العقلَ الكبيرَ الرَّاجِحا
عَنَتْ لها رَبيبَةُ السَّباخِ تحمِلُ وَزْنَيْها منَ الأَوساخ

فحسِبَتْها — والحِسابُ يُجدي — ساحرَةً من ساحراتِ الهِندِ
فانخَرَطَتْ مثلَ الحُسامِ الوالجِ واندفعت تِلكَ كسَهْم زالج
حتى إذا ما أَبلَغَتْها جُحْرَها دارتْ عليه كالسِّوارِ دَوْرَها
تقولُ: يا أُمَّ العَمَى والطَّيْشِ أَينَ الفِرَارُ يا عدُوَّ العَيْش؟
إن تلِجي فالموتُ في الولُوج أَو تخرُجي فالهُلكُ في الخروجِ
فسكتَتْ طريدَةُ البُيوتِ واغترَّتِ الأَفعى بذا السكوت
وهجَعَتْ على الطريقِ هجْعهْ فخرجَتْ ضَرَّتُهَا بسُرعَهْ
ونَهضتْ في ذِرْوَةِ الدماغِ واسترْسَلتْ في مُؤلِمِ التَّلْداغِ
فانتبهَت كالحالم المذعور تصيحُ بالويل، وبالثُّبور
حتى وهَت من الفتاةِ القوهْ فنزلت عن رأسها العدُوّهْ
تقول: صبرًا للبَلاءِ، صبرا وإنْ وجَدْتِ قسْوَةً فعُذرا
فرأْسُك الداءُ، وذا الدواءُ وهكذا فلتُرْكبُ الأَعداءُ
مَنْ مَلَكَ الخَصْمَ ونامَ عنه يُصْبحُ يَلقَى ما لقيت منه
لولا الذي أَبصرَ أَهلُ التَّجْرِبَهْ مِنّي لمَا سمُّوا الخبيثَ عقرَبهْ

السَّلُوقِيُّ وَالْجَوَادُ

قال السَّلوقِيُّ مرَّةً للَجوادْ وهْوَ إلى الصَّيْدِ مَسُوقُ القِيادْ
باللهِ قلْ لي يا رفيقَ الهنا فأَنتَ تدْري لي الوفا في الوِداد
أَلستَ أَهلَ البيدِ، أَهلَ الفَلا أَهلَ السُّرى والسَّيرِ، أَهلَ الجِهاد؟
أَلَمْ تكنْ رَبَّ الصفاتِ التي هامَ بها الشاعِرُ في كلِّ واد؟
قال: بلى، كل الذي قلتَه أَنا به المشهورُ بين العباد
قال: فما بالُكَ يا صاحِبي إذا دعا الصيِّدُ، وجَدَّ الطِّراد
تشكو، فتُشكيكَ عصا سيِّدي إنَّ العصا ما خُلِقَتْ للجوَاد
وتَنثني في عَرَقٍ سائِلٍ مُنكَّسَ الرَّأْسِ، ضئيلَ الفُؤاد
وذا السَّلوقيُّ أَبدًا صابِرٌ ينقادُ للمالِكِ أَيَّ انقِياد؟

فقال: مهلا يا كبيرَ النُّهى ... ما هكذا أَنظارُ أَهل الرَّشاد
السرُّ في الطَّيْرِ وفي الوحشِ لا ... في عَظْمِ سيقانِكَ ياذا السَّدادِ
ما الرِّجْلُ إِلا حيثُ كان الهوى ... إِنّ البُطُونَ قادراتٌ شِداد
أَمَا تَرى الطَّيْر على ضَعْفِها ... تَطوي إِلى الحَبِّ مئات البلاد؟

فَأْرُ الْغَيْط وَفَأْرُ الْبَيْت

يُقالُ: كانتْ فأْرَةُ الغِيطانِ ... تَتِيهُ بابنيْها على الفِيرانِ!
قد سَمَّتِ الأَكبَرَ نُورَ الغَيْطِ ... وعَلَّمَتْه المشْيَ فوقَ الخيْطِ
فعَرَف الغِياضَ والمُرُوجا ... وأَتقَنَ الدُّخولَ والخُروجا
وصارَ في الحِرْفةِ كالآباءِ ... وعاش كالفلاحِ في هناءِ
وأَتعَبَ الصَّغيرُ قلبُ الأُمِّ ... بالكِبْر، فاحتارَتْ بما تُسَمِّي
فقال سمِّيني بنورِ القصْرِ ... لأَنني — يا أُمُّ — فأْرُ العصْرِ
إِني أَرى ما لم ير الشَّقيقُ ... فلي طريقٌ، وله طريق
لأَدْخُلَنَّ الدارَ بعدَ الدارِ ... وثْبًا منَ الرَّف إِلى الكرار
لعلَّني إِن ثَبَتَتْ أَقدامي ... ونلتُ — يا كلَّ المنى — مَرامي
آتيكما بما أَرى في البيتِ ... من عسلٍ، أَو جُبْنَةٍ، أَو زيتِ
فعطَفَتْ على الصغيرِ أُمُّهْ ... وأَقبَلَتْ من وَجْدِها تَضُمُّهْ
تقولُ: إِني — يا قتيل القوتِ — ... أَخشى عليكَ ظُلمةَ البُيوتِ
كان أَبوكَ قد رأَى الفلاحا ... في أَن تكون مِثلَه فلاَّحا
فاعملْ بِما أَوصى تُرِحْ جَنانِي ... أَو لا، فسِرْ في ذِمّةِ الرحمنِ
فاستضحَك الفأْرُ، وهزَّ الكِتِفَا ... وقال: من قال بِذا قد خَرِفا
ثم مضى لِما عليه صَمَّما ... وعاهدَ الأُمَّ على أَن تكتُما
فكان يأْتي كل يومِ جَمْعَهْ ... وجُبْنةٌ في فمِه، أَو شمعَهْ
حتى مَضى الشهرُ، وجاءَ الشهرُ ... وعُرِف اللِّصُّ، وشاعَ الأَمر
فجاءَ يومًا أُمَّه مُضْطَرِبا ... فسأَلَته: أَينَ خلَّي الذَّنَبا؟

فقال: ليسَ بالفقيدِ من عَجبْ
في الشهدِ قد غَاصَ، وفي الشهدِ ذَهَبِ

وجاءَها ثانيةً في خَجَلِ
منها يُداري فقْد إِحدى الأَرجُل

فقال: رفٌّ لم أَصِبْهُ عالي
صيَّرَني أَعرج في المعالي

وكان في الثالثةِ ابنُ الفارهْ
قد أَخلفَ العادةَ في الزيارةْ

فاشتغَلَ القلبُ عليه، واشتعلْ
وسارت الأُمُّ له على عَجَل

فصادَفَته في الطريقِ مُلْقَى
قد سُحِقَت منه العِظامُ سَحْقا

فناحتِ الأُم، وصاحتْ: واهَا!
إن المعالي قَتلت فتاها!

مَلكُ الْغِرْبَانِ وَنُدُور الْخَادِم

كانَ لِلغربانِ في العصرِ مَلِيكْ
وله في النخلةِ الكبرى أَرِيكْ

فيه كرسيٌّ، وخِدْرٌ، ومُهودْ
لِصغارِ المُلك أَصحابِ العُهود

جاءَهُ يومًا ندورُ الخادِمُ
وهْوَ في البابِ الأَمينُ الحازِمُ

قال: يا فرْعَ الملوكِ الصالِحينْ
أَنت مازِلْتَ تُحِبُّ الناصِحِينْ

سُوسةٌ كانت على القصرِ تدورْ
جازتْ القصرَ، ودبَّتْ في الجُدور

فابعَث الغِربانَ في إِهلاكها
قبلَ أَن نَهلِكَ في أَشْراكِها

ضَحكَ السُّلطانُ من هذا المَقال
ثم أَدنَى خادِمَ الخيرِ، وقال:

أَنا رَبُّ الشَّوْكَةِ الضافي الجَناح
أَنا ذو المنقارِ، غَلاَّبُ الرياح

«أَنا لا أَنظرُ في هذِي الأُمور»
أَنا لا أبصر تحتي بانُدور!

ثم لمَّا كان عامٌ بعدَ عامْ
قام بينَ الريحِ والنخلِ خِصامْ

وإِذا النخلةُ أَقوى جِذعها
فبدا للرِّيح سهلاً قلعُها

فَهَوَتْ لِلأَرضِ كالتَّلِّ الكبير
وَهَوَى الديوانُ، وانقضَّ السَّرير

فدها السُّلطانَ ذا الخَطْبُ المَهول
ودعا خادمَهُ الغالي يقول:

يا نُدورَ الخيرِ، أَسعِفْ بالصياح
ما تَرى ما فعلَتْ فينا الرياح؟

قال: يا مولايَ، لا تَسأَل نُدور
«أَنا لا أَنظُر في هذِي الأُمور»!

الظَّبْيُ وَالْعِقْدُ وَالْخِنْزير

ظَبْيٌ رأَى صورتَهُ في الماءِ
فرفع الرأْسَ إلى السماءِ
وقال يا خالِقَ هذا الجيدِ
زِنْهُ بِعِقدِ اللؤلؤِ النَّضِيدِ
فسمِعَ الماءَ يقولُ مُفصحَا
طلبْتَ يا ذا الظَّبْيُ ما لن تُمنَحا
إنّ الذي أَعطاكَ هذا الجِيدا
لم يُبق في الحسنِ له مَزيدا
لو أَن حُسنَهُ على النُّحورِ
لم يخرج الدُّر من البُحور
فافتتَن الظبُي بِذِي المقالِ
وزادهُ شوقًا إلى اللآلي
ولم يَنلهُ فمُهُ السقيمُ
فعاش دهرًا في الفَلا يَهيم
حتى تَقضَّى العمرُ في الهُيامِ
وهجْرِ طِيبِ النَّومِ والطعام
فسارَ نحوَ الماءِ ذاتَ مرَّهْ
يَشكو إليه نفعَهُ وضرَّه
وبينما الجارانِ في الكلام
أَقبلَ راعي الدَّيرِ في الظلام
يتبَعُه حيثُ مشى خِنزيرُ
في جِيدِهِ قِلادةٌ تُنير
فاندَفَع الظبْيُ لذاكَ يَبكي
وقال من بعدِ انجلاءِ الشَّكِ
ما آفةُ السعي سوَى الضلالِ
ما آفةُ العمرِ سوى الآمال
لولا قضاءُ الملِكِ القدير
لما سعى العِقدُ إلى الخِنزير
فالتفتَ الماءُ إلى الغزال
وقال: حالُ الشيخِ شرُّ حال
لا عَجَبٌ؛ إن السنينَ مُوقِظهْ
حِفظْتَ عُمرًا لو حَفِظْتَ موْعِظَهْ

وَلِيُّ عَهْدِ الأَسَدِ وَخُطْبَةُ الْحمَار

لمَّا دَعَا داعِي أَبي الأَشبالِ
مُبشِّرًا بأَوَّلِ الأَنجالِ
سعَتْ سباعُ الأَرضِ والسماءِ
وانعقَد المجلسُ للهَناءِ
وصَدَرَ المرسومُ بالأَمانِ
في الأَرضِ للقاصي بها والدَّاني
فضاقَ بالذيُولِ صحنُ الدار
من كلِّ ذي صُوفٍ وذي مِنقار
حتى إذا استكملَتِ الجمعيَّهْ
نادى منادي اللَّيْث في المَعيَّهْ

هل من خطيبٍ محسِنٍ خبيرِ يدعو بطول العمر للأَمير؟
فنَهضَ الفيلُ المشيرُ السامي وقال ما يليقُ بالمقام
ثم تلاه الثَّعْلَبُ السفيرُ يُنشدُ، حتى قيلَ: ذا جرير
واندفعَ القردُ مديرُ الكاسِ فقيلَ: أَحسنتَ أَبا نُواسِ!
وأَوْمأَ الحِمارُ بالعقيرَه يريدُ أَن يُشرِّفَ العشيره
فقال: باسمِ خالِقِ الشعيرِ وباعثِ العصا إِلى الحميرا..
فأَزعج الصَّوتُ ولِيَّ العَهدِ فماتَ من رِعْدَتِه في المَهدِ
فحمَلَ القومُ على الحِمارِ بجُملةِ الأَنيابِ والأظفار
وانتُدبَ الثَّعلبُ لِلتأبينِ فقال في التعريضِ بالمسكين:
لا جَعَلَ اللهُ له قرارَا عاشَ حِمَارًا ومضى حمارا!

الأَسَدُ والثَّعْلَبُ والْعِجْل

نظرَ اللَّيْثُ إِلى عجلٍ سمينْ كان بالقربِ على غيْطٍ أَمينْ
فاشتَهتْ من لحمه نفسُ الرئيس وكذا الأَنفسُ يُصْبيها النفيس
قال للثعلبِ: يا ذا الاحتيال رأْسُكَ المحبوبُ، أَو ذاك الغزل!
فدعا بالسَّعدِ والعُمرِ الطويل ومضى في الحالِ للأَمْرِ الجليل
وأَتى الغَيْطَ وقد جَنَّ الظلام فرأَى العجلَ فأَهداهُ السلام
قائلاً: يَأَيُّها المؤلى الوزيرْ أَنت أَهلُ العفوِ والبرِّ الغزير
حَملَ الذِّئبَ على قتلي الحَسَد فوشَى بي عندَ مَولانا الأَسد
فترامَيْتُ على الجاهِ الرفيع وهْوَ فينا لم يزَل نِعمَ الشَّفيع!
فبكى المغرورُ من حالِ الخبيث ودنا يسأَلُ عن شرحِ الحديث
قال: هل تَجهلُ ياحُلْوَ الصِّفات أَنّ مولانا أَبا الأَفيالِ مات؟
فرأَى السُّلطانُ في الرأْس الكبير موطنَ الحكمةِ والحِذقِ الكثير
ورآكم خيْرَ مَن يُستَوْزَرُ ولأَمْرِ المُلكِ ركنًا يُذخر
ولقد عدُّوا لكم بين الجُدود مثل آبِيسَ ومَعبودِ اليهود

فـأَقـامَـوا لـمـعـالـيـكـم سـرِيـر عن يمين الملكِ السامي الخطير
واسـتَـعـدَّ الـطـيـرُ والـوحـشُ لـذاك فـي انتظار السَّيدِ العالـي هناك
فـإذا قُـمـتـمْ بـأَعـبـاءِ الأُمـورْ وانـتَـهـى الأُنـسُ إلـيـكـم والـسـرورْ
بـرِّئُـونـي عـنـدَ سُـلـطـانِ الـزمـان واطـلـبـوا لـي الـعَـفْـوَ مـنـه والأَمـان
وكـفـاكـم أَنـنـي الـعـبـدُ الـمُـطـيـع أَخـدُمُ الـمُـنْـعِـمَ جـهـدَ الـمـسـتـطـيـع
فـأَحَـدَّ الـعِـجـلُ قـرْنـيْـهِ، وقـال: أَنت مُـنـذُ الـيـومِ جـاري، لا تُـنـال!
فامْضِ واكشف لي إلى الليثِ الطريق أَنـا لا يَـشْـقـى لـديْـهِ بـي رَفـيـق
فـمَـضـى الـخِـلاّنِ تَـوًّا لـلـفَـلاه ذا إلـى الـمـوتِ، وهـذا لـلـحَـيـاه
وهُـنـاك ابـتَـلـعَ الـلـيـثُ الـوزيـر وحـبَـا الـثـعـلـبَ مـنـه بـالـيَـسـيـر
فانثنى يضحكُ من طيشِ العُجولْ وجـرى فـي حَـلْـبَـةِ الـفَـخْـر يـقـولْ:
سلِمَ الـثـعـلـبُ بـالـرأسِ الـصـغـيـر فـفَـداه كـلُّ ذي رأْسٍ كـبـيـرا

الْقرْدُ وَالْفيلُ

قردٌ رأَى الفيلَ على الطَّريقِ مُـهـرولاً خَـوفًـا مـن الـتَّـعْـويـقِ
وكان ذاك القِردُ نصفَ أَعمى يُريد يُحْصِي كلَّ شيءٍ عِلما
فـقـال: أَهـلاً بـأَبـي الأَهـوالِ ومَـرْحـبًـا بِـمُـخْـجِـلِ الـجِـبـالِ
تَفدِي الرُّءُوسُ رأَسَكَ العظِيما فقِف أَشاهدْ حُسْنَك الوَسيما
لـلـهِ مـا أَظـرفَ هـذا الـقَـدَّا وأَلطَف العَظْمَ وأَبهى الجلدا!
وأَمـلَـحَ الأذْنَ فِـ الاسـتِـرسـالِ كـأَنـهـا دائـرةُ الـغـربـالِ!
وأَحسَنَ الخُرطومَ حين تاهَا كـأَنـه الـنـخـلـةُ فـي صِـبـاهـا!
وظَـهـرُك الـعـالـي هـو الـبِـسـاطُ لـلـنـفْـسِ فـي رُكـوبِـه انـبِـسـاطٌ
فـعـدَّهـا الـفـيـلُ مـن الـسُّـعـودِ وأَمَـرَ الـشـاعِـرَ بـالـصُّـعـود
فـجـالَ فـي الـظَّـهْـر بـلا تَـوَانِ حـتـى إذا لـم يَـبـقَ مـن مـكـان
أَوفى على الشيءِ الذي لا يُذكرُ وأَدخَـلَ الأصـبُـعَ فـيـه يَـخـبُـرُ
فاتهَم الفيلُ البَعوضَ، واضطَربْ وضيَّقَ الثَّقْبَ، وصالَ بالذَّنَبْ

فوقَعَ الضربُ على السليمه فلحِقَتْ بأُختِها الكريمه
ونزل البصيرُ[٢] ذا اكتِئابِ يشكو إلى الفيلِ من المُصابِ
فقال: لا مُوجِبَ للندامه الحمد لله على السلامه
من كان في عينيْه هذا الداءُ ففي العَمَى لنفسِه وقاءُ

الشَّاةُ وَالْغُرَابُ

مَرَّ الغُرابُ بشاةٍ قد غابَ عنها الفطيمُ
تقولُ والدمعُ جار والقلبُ منها كلِيم:
ياليْت شِعْريَ يا ابنِي وواحِدِي، هل تَدوم؟
وهل تكونُ بجَنْبي غدًا على ما أَرُوم؟
فقال: يا أُمَّ سعدٍ هذا عذابٌ أَليم
فكَّرتِ في الغَدِ، والفِكـ ـرُ مُقعِدٌ ومُقيم
لكلِّ يومٍ خُطُوبٌ تكفي، وشُغلٌ عظيم
وبينما هُوَ يهذِي أَتى النَّعِيُّ الذَّمِيم
يقول: خَلَّفْتُ سعْدًا والعَظمُ منه هَشيم
رأَى منَ الذِّئْبِ ما قد رأَى أَبوه الكريم
فقال ذو البَيْنِ للأُ م حين ولَّتْ تَهيم:
إن الحكيمَ نبيٌّ لسانُه معصوم
أَلم أَقلْ لكِ توا لكل يومٍ هُموم؟
قالت: صدَقتَ، ولكِنْ هذا الكلامُ قديم
فإن قَوْميَ قالوا: وجْهُ الغُراب مَشوم

أُمَّةُ الأَرَانِب وَالْفِيلُ

يَـحـكـون أَن أُمَّـةَ الأَرانِـبِ قد أَخَذَت من الثَرى بِجانِبِ
وابتَهجَت بالوطنِ الكريمِ ومَوْئِلِ العِيالِ والحريمِ
فاختارَه الفيلُ له طريقَا مُمزِّقًا أَصحابَنا تمزيقا
وكان فيهم أَرنبٌ لبيبُ أَذهَبَ جُلَّ صُوفِه التَّجريب
نادى بهم: يا مَعشَر الأَرانبِ من عالِم، وشاعرٍ، وكاتب
اتَّحِدوا ضِدَّ العَدُوِّ الجافي فالاتحادُ قوّةُ الضِّعاف
فأَقبَلوا مُستَصْوِبين رايَهْ وعقدوا للاجتماعِ رايه
وانتخبوا من بينِهم ثلاثه لا هَرَمًا راعَوْا، ولا حَداثه
بل نظروا إِلى كمالِ العقلِ واعتَبروا في ذاك سِنَّ الفضْل
فنهض الأَوَّلُ للخِطاب فقال: إِنّ الرأْيَ ذا الصواب
أَن تُتَركَ الأَرضُ لذي الخُرطومِ كي نستريحَ من أَذى الغَشوم
فصاحَت الأَرانبُ الغَوالي: هذا أَضَرُّ من أَبي الأَهوال
ووثبَ الثاني فقال: إِني أَعهَدُ في الثعلبِ شيخَ الفنِّ
فلندْعُه يُمِدّنا بحِكمتِهْ ويأخذ اثنْينِ جزاءَ خدمته
فقيل: لا يا صاحبَ السُّمُوِّ لا يُدفعُ العدوُّ بالعدوِّ
وانتَدَبَ الثالثُ للكلامِ فقال: يا معاشِرَ الأَقوامِ
اجتمِعوا؛ فالاجتِماع قوَّهْ ثم احفِروا على الطريق هُوَّة
يهوي إِليها الفيلُ في مرورِه فنستَريحُ الدهرَ من شرورِه
ثم يقولُ الجيلُ بعدَ الجيلِ قد أَكلَ الأَرنبُ عقلَ الفيل
فاستَصْوَبوا مقالهُ، واستَحْسَنوا وعملوا من فَوْرِهم، فأَحسَنوا
وهلكَ الفيلُ الرفيعُ الشَّانِ فأَمستِ الأُمَّةُ في أَمان
وأَقبلَتْ لِصاحِبِ التدبيرِ ساعيَةً بالتاجِ والسرير
فقال: مهلاً يا بَني الأَوطانِ إِنّ محلِّي لَلمَحَلُّ الثاني
فصاحبُ الصَّوتِ القويِّ الغالبِ مَنْ قد دعا: يا مَعشَرَ الأَرانبِ

حكَايَةُ الْخُفَّاش وَمَليكَةُ الْفرَاش

مـرَّتْ علـى الـخُـفـاشِ   مـلـيـكـةُ الـفَـراشِ
تـطـيـرُ بـالـجـمـوعِ   سـعـيًـا إلـى الـشـمـوعِ
فـعـطَـفـتْ ومـالـت   واستضحكَتْ فقالت:
أَزْرَيْتَ بالغرامِ   يـا عـاشـق الـظـلامِ
صِفْ لي الصديقَ الأَسْودَا   الـخـامـلَ الـمُـجَـرَّدا[3]
قـال: سـأَلـتِ فـيـه   أَصـدَقَ واصِـفـيـهِ
هـو الـصـديـقُ الـوافـي   الـكـامـلُ الأَوصـافِ
جِـوارُهُ أَمـانُ   وسـرُّه كـتـمـانُ
وطـرفُـه كـلـيـلُ   إذا هـفـا الـخـلـيـلُ
يـحـنـو عـلـى الـعشَّـاق   يَـسـمـعُ لِـلـمـشـتـاق
وجُـمـلـةُ الـمـقـالِ   هـو الـحـبـيـبُ الـغـالـي
فـقـالـتِ الـحـمـقـاءُ   وقـولُـهـا اسـتِـهـزاءُ
أَين أَبو المِسْكِ الخَصِي   ذو الثَّمَنِ المُسْتَرْخَصِ[4]
مِـنْ صـاحِـبـي الأَمـيـرِ   الـظـاهِـرِ الـمـنـيـرِ؟[5]
إن عُـدَّ فـيـمـن أَعـرِفُ   أَسـمُـو بِـه وأَشـرُفُ
وإن سُـئِـلـتُ عـنـهُ   وعـن مـكـانـي مـنـهُ
أُفـاخِـرُ الأَتـرابـا   وأَنـثـنـي إعـجـابَـا
فـقـال: يـا مَـلـيـكـهْ   ورَبَّـةَ الأَريـكـهْ
إنّ مـنَ الـغُـرورِ   مـلامَـةَ الـمـغـرورِ
فـأَعـطِـنـي قـفـاك   وامضي إلى الـهـلاك
فـتـرَكـتْـه سـاخِـرَهْ   وذهَـبـتْ مُـفـاخِـرَهْ
وبـعـدَ سَـاعـةٍ مـضَـتْ   من الزمان فانقضَتْ
مَـرَّتْ عـلـى الـخُـفَّـاشِ   مَـلـيـكـةُ الـفَـراشِ
نـاقـصـةَ الأَعـضـاءِ   تـشـكـو مـن الـفَـنـاءِ
فـجـاءَهـا مُـنـهَـمِـكـا   يُضحِكه منها البُكا

قال: أَلم أَقل لكِ هَلكْتِ أَو لم تَهلِكي
رُبَّ صديقٍ عبدِ أَبيَضُ وجهِ الوْدِّ
يَفديك كالرَّئيسِ بالنَّفْسِ والنفيسِ
وصاحِبٍ كالنُّورِ في الحُسْنِ والظهورِ
مُعْتَكِر الفؤادِ مُضَيِّع الوداد
حِبالُه أَشراكُ وقُرْبُه هلاكُ؟

الأَسَدُ وَوَزِيرُهُ الحِمَارُ

اللَّيثُ مَلْكُ القِفارِ وما تَضمُّ الصَّحاري
سَعت إِليه الرعايا يومًا بكلِّ انكسار
قالت: تعيشُ وتبقَى يا دامِيَ الأَظفار
ماتَ الوزيرُ فَمَنْ ذا يَسوسُ أَمرَ الضَّواري؟
قال: الحمارُ وزيري قَضى بهذا اختِياري
فاسْتَضْحَكت، ثم قالت: «ماذا رأَى في الحِمارِ؟»
وخلَّفتْهُ، وطارت بِمُضحِكِ الأَخبار
حتى إِذا الشَّهْرُ ولَّى كليْلةٍ أو نَهار
لم يَشعُرِ اللَّيثُ إِلا ومُلكُهُ في دَمار
القردُ عندَ اليمين والكلبُ عند اليسَار
والقِطُّ بين يديه يَلهو بِعظمَةِ فار!
فقالَ: مَن في جُدودي مثلي عديمُ الوقار؟!
أَينَ اقتِداري وبَطشي وهَيْبتي واعتباري؟!
فجاءَهُ القردُ سرًّا وقال بعدَ اعتذار:
يا عاليَ الجاه فينا كن عاليَ الأَنظار
رأَيُ الرعِيَّةِ فيكم من رأيكم في الحمار!

النَّمْلةُ والمُقَطَّمُ

كانتِ النملةُ تمشي — مرَّةً تحتَ المُقطَّمْ
فارتخى مَفصِلُها من — هَيبةِ الطَّوْدِ المعظَّمْ
وانثنتْ تنظرُ حتى — أَوجَدَ الخوْفُ وأَعدَم
قالتِ: اليومَ هلاكي — حلّ يومي وتحتم!
ليت شعري: كيف أَنجو — إنْ هوى هذا — وأَسلم؟
فسعَتْ تجري، وعينا — ها ترى الطَّوْدَ فَتَنْدَم
سقطتْ في شبرِ ماءٍ — هو عند النملِ كاليمّ
فبكت يأْسًا، وصاحت — قبلَ جَرْيِ الماءِ في الفمْ
ثمّ قالتْ وهْيَ أَدرَى — بالذي قالت وأَعلَم:
ليْتني لم أَتأَخَّر — ليتني لم أَتقدَّم
ليتني سَلَّمْتُ، فالعا — قِلُ مَنْ خاف فسَلَّم!
صاحِ لا تخشَ عظيما — فالذي في الغيْبِ أَعظم

الغزالُ والكلبُ

كان فيما مَضى من الدهرِ بَيتٌ — من بيوتِ الكرامِ فيه غزالُ
يَطعَم اللَّوْزَ والفطيرَ ويُسقى — عسلا لم يَشُبْه إلا الزُّلال
فأتى الكلبَ ذاتَ يومٍ يُناجيـ — ـهِ وفي النفسِ تَرحَةٌ وملال
قال: يا صاحِبَ الأَمانةِ، قل لي — كيف حالُ الوَرَى؟ وكيف الرجال؟
فأَجابَ الأَمينُ وهو القَئولُ الصَّ — ـادِقُ الكامل النُّهَى المِفضال
سائلي عن حقيقةِ الناس، عذرًا — ليس فيهم حقيقةٌ فتقال
إنما هُم حِقدٌ، وغشٌّ، وبُغضٌ — وأَذاةٌ، وغيبةٌ، وانتحال
ليت شعري هل يستريحُ فؤادي؟ — كم أَداريهم! وكم أَحتال!
فرِضا البعض فيه للبعضِ سُخْطٌ — ورضا الكلِّ مطلبٌ لا يُنال

ورضـا الـلـهِ نَـرتـجـيـهِ، ولـكـن لا يُـؤدِّي إلـيـه إلا الـكـمـال
لا يَغُرَّنْكَ يا أَخا البيدِ من مَوْ لاك ذاك الـقَـبـولُ والإقـبـال
أَنتَ في الأَسْرِ ما سَلِمتَ، فإن تَمـ ـرض تقطَّعْ من جسمِك الأَوصال
فاطلبِ البِيدَ، وارض بالعُشبِ قوتًا فـهـنـاك الـعـيشُ الـهـنـيُّ الـحـلال
أَنـا لـولا الـعـظـامُ وهْـيَ حـيـاتـي لم تَطِب لي مع ابن آدمَ حال

الثَّعْلَبُ والدِّيك

بـرز الـثـعـلـبُ يـومًـا في شعـار الـواعِـظـيـنـا
فمشى في الأَرضِ يَهذي ويَـسُـبُّ الـمـاكـريـنـا
ويـقـولُ: الـحـمـدُ لـلـ ـهِ إلـهِ الـعـالـمـيـنـا
يـا عِـبـاد الـلـه، تُـوبُـوا فـهْـوَ كـهـفُ الـتـائِـبـيـنـا
وازهَدُوا في الطَّير؛ إنّ الـ ـعيْشَ عيشُ الزاهِدينا
واطـلـبـوا الـدِّيك يـؤذنْ لـصـلاةِ الـصُّـبـحِ فـيـنـا
فـأَتـى الـديـكَ رسـولٌ مـن إمـام الـنـاسِـكـيـنـا
عَـرَضَ الأَمْـرَ عـلـيـه وهْـوَ يـرجـو أَن يَـلـيـنـا
فـأَجـاب الـديـكُ: عُـذرًا يـا أَضـلَّ الـمُـهـتـديـنـا!
بـلِّـغِ الـثـعـلـبَ عـنـي عن جدودي الصالحينا
عن ذوي التِّيجان ممن دَخل البَطْنَ اللعِينا
أَنهم قالوا وخيرُ الـ ـقولِ قولُ العارفينا
«مُخطئٌ مَن ظنّ يومًا أَنّ لـلـثـعـلـبِ ديـنـا»

النَّعْجَةُ وَأَوْلَادُهَا

اسمَعْ نفائس ما يأْتيكَ مِنْ حِكَمي وافهمْهُ فَهمَ لبيبٍ ناقِدٍ واعِي
كانت على زَعمِهِمْ فيما مَضى غَنَمٌ بأَرضِ بغدادَ يَرعَى جَمْعَها راعي
قد نام عنها، فنامَتْ غيْرَ واحدةٍ لم يدْعُها في الدَّياجِي للكَرَى داعي
أُمٌّ الفَطيمِ، وسعْدٍ، والفَتى عَلفٍ وابنِ امِّهِ، وأَخيه مُنْيةِ الرَّاعي
فبينَما هي تحتَ الليْلِ ساهرةٌ تُحْييهِ ما بين أَوجالٍ وأَوجاع
بَدَا لها الذِّئْبُ يَسعَى في الظلامِ على بُعْدٍ، فصاحت: أَلا قوموا إِلى الساعي!
فقامَ راعي الحِمى المرعِيِّ مُنْذَعِرًا يقولُ: أَين كِلابي أَين مِقلاعي؟
وضاقَ بالذِّئْبِ وجهُ الأَرض من فَرَق فانسابَ فيه انسيَابَ الظَّبْي في القاع
فقالتِ الأُمُّ: يا لَلفخرِ! كان أَبي حُرًّا، وكان وفِيًّا طائلَ الباع
إِذا الرُّعاة على أَغنامها سَهِرَتْ سَهْرتُ من حُبِّ أَطفالي على الرّاعي!

الْكَلْبُ والقطُّ وَالْفَأْر

فأَرٌ رأَى القِطَّ على الجِدارِ مُعَذَّبًا في أَضيَقِ الحِصار
والكلبُ في حالِته المعهوده مُسْتَجْمِعًا للوثبةِ الموعودة
فحاولَ الفأرُ اغتنامَ الفُرصة وقال أَكفِي القِطَّ هذِي الغُصَّةْ
لعله يَكْتُبُ بالأَمانِ لي ولأَصحابي من الجيران
فسارَ للكلبِ على يَدَيْهِ ومَكَّنَ الترابَ من عينَيه
فاشتغل الرَّاعي عن الجِدار ونَزلَ القِطُّ على بِدار
مُبْتَهِجًا يفكر في وليمَه وفي فريسةٍ لها كريمه
يجعلها لِخَطْبِه علامه يذكُرها فيذكرُ السَّلامة
فجاءَ ذاكَ الفأرُ في الأَثناءِ وقال: عاشَ القِطُّ في هَناءِ
رأَيتَ في الشِّدَّةِ من إِخلاصِي ما كان منها سببَ الخَلاص
وقد أَتيْتُ أَطلبُ الأَمانا فامنُنْ به لِمعشَري إِحسانا

فـقـال: حـقًّـا هـذه كـرامَـه غـنـيـمـةٌ وقـبـلَـهـا سَـلامَـه
يَكفيك فخرًا يا كريمَ الشِّيمَه أَنك فـأرُ الـخـطْـبِ والـولـيـمـه
وانقَضَّ في الحالِ على الضَّعِيفِ يـأكـلُـه بـالـمِـلـحِ والـرغـيـف
فقلت فـي المقـام قوْلاً شاعا «مَنْ حفِظَ الأَعداءَ يومًا ضاعا»

سُلَيْمَانُ وَالْهُدْهُدْ

وقفَ الهُدْهُدُ في با بِ سُـلـيـمـانَ بِـذِلَّـهْ
قال: يا مولايَ، كن لي عِيشَتي صارت مُمِلَّه
مـتُّ مـن حَـبَّـةِ بُـرٍّ أَحدَثتْ في الصدر غُلَّه
لا مِياهُ النِّيلِ تُرْويـ ـها، ولا أَمواهُ دِجْله
وإذا دامَـت قـلـيـلا قتلتْنِي شرَّ قِتْلَه
فـأَشـار الـسـيِّدُ الـعـا لي إلى مَن كان حوْلَه:
قد جَنَى الهدهُدُ ذنْبا وأَتى في اللؤم فَعْلَه
تِلك نارُ الإثمِ في الصَّدْ رِ، وذي الشكوَى تَعِلَّه
مـا أَرَى الـحَـبَّـة إلا سُرِقت من بيتِ نمله
إن لـلـظـالـم صَـدْرًا يَشتَكي من غير عِله!

سُلَيْمَانُ وَالطَّاوُوس

سـمـعـتُ بـأَن طـاوُوسًـا أَتـى يـومًـا سـلـيـمـانـا
يُجَرِّرُ دون وفْدِ الطَّيْـ ـرِ أذيـالا وأَردانـا
ويُظْـهِـرُ ريشَـهُ طـوْرًا ويُخفي الرِّيشَ أَحيانا
فـقـال: لـدَيَّ مـسـأَلـةٌ أَظـنُّ أَوانَـهـا آنـا
وها قد جئتُ أَعرضُها عـلـى أَعـتـابِ مـولانـا:

أَلستُ الرَّوْضَ بالأَزها ... رِ والأَنوارِ مُزْدانا؟
أَلم أَستوفِ آيَ الظَّرْ ... ف أَشكالا وأَلوانا؟
أَلم أصبح ببابِكمُ ... لِجَمْعِ الطَّيرِ سُلطانا؟
فكيف يَليقُ أَن أَبقَى ... وقوْمِي الغُرُّ أَوثانا؟!
فحُسنُ الصوتِ قد أَمسَى ... نصيبي منه حِرمانا
فما تَيَّمْتُ أَفْئِدَةً ... ولا أَسكَرْتُ آذانا
وهذِي الطَّيْرُ أَحقَرُها ... يزيدُ الصَّبَّ أَشجانا
وتَهتزُّ الملوكُ له ... إذا ما هَزَّ عِيدانا؟
فقال له سُليمانُ ... لقد كان الذي كانا
تعالت حِكمةُ الباري ... وجلَّ صنيعُهُ شانا
لقد صَغَّرتَ يا مغرو ... رُ نُعمَى الله كُفرانا
ومُلك الطيْر لم تحفِل ... به، كِبرا وطغيانا
فلو أَصبَحتَ ذا صوْت ... لمَا كلَّمْتَ إِنسانا!

الْغُصْنُ وَالْخُنْفُسَاء

كان بِرَوْضٍ غُصُنٌ ناعمٌ ... يقولُ: جلَّ الواحدُ المنفردْ
فقامتي في ظَرفِها قامتي ... ومثلُ حُسني في الورى ما عُهِدْ
فأَقبلت «خُنفُسَةٌ» تنثَني ... ونجلُها يمشي بِجنبِ الكبِدْ
تقول: يا زَيْنَ رياضِ البَها ... إنّ الذي تطلُبُهُ قد وُجِد
فانظر لِقَدِّ ابني، ولا تفتَخر ... ما دام في العالم أُمٌّ تَلد!

الْقُبَّرَةُ وَابْنُهَا

رأيتُ في بعضِ الرياضِ قُبَّرَهْ تُطَيِّرُ ابنَها بأَعلى الشَّجَره
وهْيَ تقولُ: يا جمالَ العُشِّ لا تعتَمِدْ على الجَناح الهَشِّ
وقِفْ على عودٍ بجنبِ عودِ وافعل كما أَفعلُ في الصُّعودِ
فانتقلَت من فَننٍ إلى فَنَنْ وجَعَلَتْ لِكلِّ نقلةٍ زَمَنْ
كيْ يَسْتريحَ الفرْخُ في الأَثناءِ فلا يَمَلُّ ثِقَلَ الهواءِ
لكنَّهُ قد خالف الإشارهْ لمَّا أَراد يُظهرُ الشَّطارهْ
وطار في الفضاءِ حتى ارتفعا فخانه جَناحُه فوقعا
فانكَسَرَتْ في الحالِ رُكبتاهُ ولم يَنَلْ منَ العُلا مُناهُ
ولو تأَنى نالَ ما تَمنَّى وعاشَ طولَ عُمرِهِ مُهَنَّا
لكلِّ شيءٍ في الحياة وقتُهُ وغايةُ المسْتَعْجلين فوْتُه!

النَّعْجَتَان

كان لِبعضِ الناسِ نعجتان وكانتا في الغيْطِ ترعيانِ
إحداهما سمينةٌ، والثانِيه عِظامها منَ الهُزالِ باديَه
فكانتِ الأُولى تُباهِي بالسِّمَنْ وقولِهم بأَنها ذاتُ الثُّمَنْ
وتَدَّعي أَن لها مقدارا وأَنها تستَوْقفُ الأَبصارا
فتصبِرُ الأُختُ على الإدلالِ حاملةً مَرارةَ الإذلال
حتى أَتى الجزّارُ ذاتَ يومِ وقلبَ النعجةَ دون القوْمِ
فقال لِلمالِكِ: أَشْتريها ونقدَ الكيسَ النفيسَ فيها
فانطلقتْ من فورِها لأُختِها وهْيَ تَشكُّ في صلاح بختِها
تقولُ: يا أُختاهُ خبِّريني هل تعرِفينَ حاملَ السِّكين؟
قالت: دَعِيني وهُزالي والزَّمَن وكلِّمي الجزّارَ ياذاتَ الثَّمَنْ!
لكلِّ حال حُلُوها ومُرُّها ما أَدَبُ النعجةِ إلا صبرُها

السَّفِينَةُ وَالْحَيَوَانَات

لـمَّـا أَتـمَّ نـوحٌ الـسَّـفِـيـنـهْ — وحَـرَّكَـتْـهـا الـقُـدْرَة الـمُـعِـيـنـهْ
جَـرى بـهـا مـا لا جَـرَى بِـبـالِ — فما تعالى الموْجُ كالجِبالِ ...
... حتى مَشَى اللَّيْثُ مع الحِمار — وأَخَـذ الـقِـطُّ بـأَيـدِي الـفـارِ
واسـتَمَعَ الـفيلُ إِلى الـخِنزيرِ — مُـوتَـنِـسًـا بـصـوتِـه الـنَّـكـيـرِ
وجـلـس الـهِـرُّ بـجـنب الـكـلبِ — وقـبَّـل الـخـروفُ نـابَ الـذِّئـبِ
وعَـطـفَ الـبـازُ عـلـى الـغـزالِ — واجـتـمـع الـنـملُ عـلـى الأَكَّـال
وفَلَت الفرْخَةُ صُوفَ الثعلبِ — وتـيَّـمَ ابـنَ عِـرْسَ حُـبُّ الأَرنـبِ
فـذهـبَـتْ سـوابِـقُ الأَحـقـادِ — وظَـهـر الأحـبـابُ فـي الأعـادي
حتى إِذا حَطُّوا بسَفْحِ الجُودِي — وأَيـقـنـوا بـعَـوْدةِ الـوجـودِ
عادوا إِلى ما تَقتَضيهِ الشِّيمهْ — وَرَجَـعـوا لـلـحـالـةِ الـقـديـمـة
فقِسْ على ذلك أَحوالَ البشَرْ — إِن شمِلَ المحذورُ، أَو عَمَّ الخَطَر
بيْنا ترَى العالَمَ في جِهادِ — إِذْ كلهم على الزمان العادي

الْقِرْدُ فِي السَّفِينَة

لم يَتَّفِقْ مما جَرَى في المركَبِ — ككَذِبِ القردِ على نوحِ النبي
فـإِنـه كـان بـأَقـصـى الـسَّـطـحِ — فـاشـتـاقَ مـن خِـفـتِـه لـلـمَـزْحِ
وصـاحَ: يـا لَـلـطَّـيْـر والأَسـمـاكِ — لِـمـوْجَـةٍ تـجِـدُّ فـي هَـلاكـي!
فـبَـعـثَ الـنـبـي لـه الـنـسـورا — فـوجَـدَتْـه لاهـيًـا مـسـرورا
ثـم أَتـى ثـانـيـةً يـصـيـحُ — قد ثُقِبَتْ مَرْكبُنا يا نوحُ!
فأَرسَل النبيُّ كلَّ مَن حَضرْ — فلم يرَوْا كما رأى القِرْدُ خَطَر
وبينما السَّفيهُ يومًا يَلعبُ — جادَتْ به على المِياهِ المركَبُ
فسمِعوه في الدُّجَى يَنوحُ — يـقـولُ: إِنـي هـالِـكٌ يـا نـوحُ
سَقطْتُ من حماقتي في الماءِ — وصِرْتُ بين الأَرضِ والسماءِ

فـلـم يـصَـدِّقْ أَحـدٌ صِـيـاحَـهْ وقـيـلَ حـقًّـا هـذه وقـاحَـهْ
قد قال في هذا المقامِ مَن سَبَقْ أَكذبُ ما يُلفى الكذوبُ إِن صَدق
مَن كـان مَـمـنُـوًّا بِـداءِ الـكـذِبِ لا يَـتُرِكُ اللـهَ، ولا يُـعـفِـي نبـي!

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَالنَّمْلَةُ فِي السَّفِينَةِ

قد وَدَّ نوحٌ أَن يُباسِطَ قَوْمَهُ فدعا إِليهِ معاشِرَ الحيوانِ
وأَشار أَنْ يَلِيَ السفينةَ قائدٌ منهم يكونُ من النّهى بمكان
فتقدَّمَ اللّيثُ الرفيع جلالُه وتعرَّضَ الفيلُ الفخيمُ الشان
وتلاهُما باقي السِّباعِ، وكلهُمْ خَرُّوا لـهـيـبـتـهِ إِلـى الأَذقـان
حتى إِذا حيُّوا المؤيَّدَ بالهدى ودَعَوْا بطولِ العزِّ والإِمكان
سَبَقَتْهمُ لخطابِ نوحٍ نملةٌ كانت هناكَ بجانِبِ الأَرْدان
قالت: نبيَّ اللهِ، أَرضي فارسٌ وأَنـا يَـقـيـنًـا فـارسُ الـمـيْـدانِ
سأديرُ دِفَّتَهَا، وأَحْمِي أَهلَها وأَقـودُهـا فـي عـصـمـةٍ وأَمـان
ضحِكَ النبيُّ وقال: إِنّ سَفينتَي لِهِيَ الحياة، وأَنتِ كالإِنسان
كل الفضائِلِ والعظائمِ عنده هو أَوَّلٌ، والغيْرُ فيها الثاني
ويودُّ لو ساسَ الزَّمانَ، ومالَهُ بـأَقـلِّ أَشـغـالِ الـزمـان يَـدان

الدُّبُّ فِي السَّفِينَة

الـدُّبُّ مـعـروفٌ بـسـوءِ الـظـنِّ فـاسـمعْ حديثَهُ الـعـجـيبَ عَنِّي
لمَّا استطال المُكْثَ في السَّفينهْ مـلَّ دوامَ الـعـيـشـةِ الـظـنـيـنـة
وقال: إِن الموْتَ في انتظاري والـمـاءُ لا شـكَّ بِـه قـراري
ثم رأَى مَوْجًا على بُعدٍ عَلا فـظـنَّ أَن فـي الـفـضـاءِ جـبـلا
فـقـال: لا بُـدَّ مـن الـنـزولِ وصَلْتُ، أَو لم أَحْظَ بالوُصولِ

قد قال مَن أَدَّبَهُ اختبارُهْ: السعيُ للموتِ ولا انتِظارُه!
فأَسلمَ النفسَ إِلى الأَمواجِ وهْيَ مع الرياحِ في هياجِ
فشرِبَ التعيسُ منها، فانتفَخْ ثم رَسا على القرارِ، ورسَخ
وبعدَ ساعتَينِ غِيضَ الماءُ وأَقلَعَتْ بأَمْرِهِ السماءُ
وكان في صاحِبنا بعضُ الرَّمَق إذ جاءَهُ الموتُ بطيئًا في الغرَقْ
فلمحَ المركبَ فوْقَ الجُودِي والرَّكبُ في خيْرٍ وفي سُعودِ
فقال: يالَجَدِّيَ التعيسِ أَسأَت ظني بالنبي الرئيسِ!
ما كان ضَرَّني لو امتثَلتُ ومِثلَما قد فعلوا فعلتُ؟!

الثَّعْلَبُ فِي السَّفِينَةِ

أَبو الحُصَيْنِ جالَ في السَّفِينَهْ فَعَرَفَ السَّمينَ والسَّمينه
يقولُ: إنَّ حالَه استَحالا وإِنَّ ما كان قديمًا زالا
لِكوْنِ ما حَلَّ من المصائبِ من غَضَبِ اللهِ على الثعالِبِ
ويُغْلِظُ الأَيْمَانَ للديوكِ لِما عَسَى يَبقى من الشكوك
بأَنهمْ إن نَزَلوا في الأَرضِ يَرَوْنَ منه كلَّ شيءٍ يُرْضي
قيل: فلما تَركوا السفينه مَشى مع السَّمين والسمينه
حتى إذا ما نَصَفوا الطَّرِيقا لم يُبق منهمْ حَوْلَهُ رَفيقا
وقال: إذْ قالوا عَديمُ الدِّينِ لا عَجَبٌ إن حَنَثَتْ يَميني
فإِنما نحن بَنى الدَّهاءِ نَعْمَلُ في الشّدَّةِ للرَّخاءِ
ومَنْ تخاف أَن يَبيعَ دينَهْ تَكفيكَ منه صُحْبَةُ السفينه!

اللَّيْثُ وَالذِّئْبُ فِي السَّفِينَة

يقال إِنّ الليْثَ في ذي الشِّدَّهْ رأَى من الذِّئبِ صَفا المودَّه
فقال: يا مَنْ صانَ لي مَحلَّي في حالَتيْ ولايتي وعَزْلي
إِنْ عُدْتُ للأَرض بإِذنِ اللهِ وعاد لي فيها قديمُ الجاهِ
أَعطيكَ عِجْليْنِ وأَلفَ شاة ثم تكونُ والِيَ الوُلاةِ
وصاحِبَ اللِّواءِ في الذِّئابِ وقاهِرَ الرعاةِ والكلابِ
حتى إِذا ما تَمَّتِ الكرامَهْ ووَطِئَ الأَرضَ على السلامَه
سَعَى إِليه الذِّئبُ بعدَ شهرِ وهْوَ مُطاعُ النَّهي ماضي الأَمْرِ
فقال: يا مَنْ لا تُداسُ أَرضُه ومَنْ له طُولُ الفَلا وعَرْضُه
قد نِلتَ ما نِلتَ منَ التكريمِ وذا أَوان الموْعِدِ الكريمِ
قال: تجرَّأْتَ وساءَ زعمُكا فمَن تكونُ يا فتَى؟ وما اسمُكا؟
أَجابَه: إِن كان ظنِّي صادِقا فإِنَّني والي الوُلاةِ سابِقَا!

الثَّعْلَبُ وَالأَرْنَبُ فِي السَّفِينَةِ

أَتى نبيَّ اللهِ يومًا ثعلبُ فقال: يا مولايَ، إِني مُذْنِبُ
قد سوَّدَتْ صحيفتِي الذُّنوبُ وإِن وجدْتُ شافعا أَتوب
فاسأَلْ إِلهي عَفوَهُ الجليلا لِتائِبٍ قد جاءَهُ ذليلا
وإِنني وإِن أَسأتُ السَّيْرا عَمِلْتُ شرًّا، وعملتُ خيرا
فقد أَتاني ذاتَ يومٍ أَرنبُ يرتَعُ تحتَ منزلي ويَلعَبُ
ولم يَكن مراقِبٌ هُنالكا لكنَّنَي تَركتُهُ معْ ذلكا
إِذ عِفتُ في افتراسِهِ الدَّناءَهْ فلم يَصِلهُ من يدي مَسَاءَهْ
وكان في المجلِسِ ذاك الأَرنَبُ يَسمعُ ما يُبدِي هُناكَ الثعلَبُ
فقال لمَّا انقطعَ الحديثُ: قد كان ذاكَ الزُّهدُ ياخبيث
وأَنت بينَ الموتِ والحياةِ من تُخمةٍ أَلقتْك في الفلاةِ!

الأَرْنَبُ وَبِنْتُ عِرْسٍ فِي السَّفِينَة

قد حَمَلَتْ إِحدى نِسا الأَرانِبِ — وحلَّ يومُ وضعِها في المركَبِ
فقلِقَ الرُّكابُ من بكائها — وبينما الفتاةُ في عَنائها ...
... جاءَت عجوزٌ من بَناتِ عِرسِ — تقولُ: أَفدِي جارَتي بنفسي
أَنا التي أُرْجَى لِهذِي الغايهْ — لأَنني كنتُ قديمًا «دَايَهْ»
فقالتِ الأَرنبُ: لا ياجارَه — فإِن بعدَ الأُلفةِ الزِّياره
مالي وُثوقٌ ببناتِ عِرْسِ — إِني أُريدُ دايةً من جنسي!

الْحِمَارُ فِي السَّفِينَة

سِقط الحِمارُ منَ السَّفينةِ في الدُّجى — فبكى الرِّفاقُ لِفَقدِهِ، وتَرَحَّمُوا
حتى إِذا طلعَ النَّهارُ أَتت بِه — نحوَ السفينةِ مَوْجَةٌ تَتقدَّمُ
قالتْ: خُذُوهُ كما أَتانِي سالمًا — لم أَبْتَلِعْهُ؛ لأَنه لا يُهضَمُ!

سُلَيْمَانُ عليه السَّلاَم وَالحَمَامَة

كان ابنُ داوُدٍ يُقَـ — ـرِّبُ في مجالسِهِ حمامَهْ
خدَمَتْه عُمْرًا مِثلَما — قد شاءَ صدْقًا واستِقامه
فمضَتْ إِلى عُمَّالِه — يومًا تَبَلِّغُهمْ سَلامَه
والكتْبُ تحتَ جَناحِها — كُتِبَتْ لها فيها الكرامه
فأَرادتِ الحمقاءُ تَعـ — ـرِفُ من رسائِله مَرامَه
عَمدَتْ لأَوَّلِها، وكا — ن إِلى خليفتهِ برامه[٦]
فرأَتْهُ يأْمُرُ فيه عا — مِلَه بتاجٍ للحمامه
ويقولُ: وَفُّوها الرِّعا — يةَ في الرَّحيلِ، وفي الإِقامه

ويُشيرُ فـي الثانِي بأَن   تُعطَى رِياضًا في تِهامه
وأَتـتْ لِـثـالـثـهـا، ولـم   تَستَحْي أَن فضَّتْ خِتامه
فـرأَتْـه يـأْمُـرُ أَن تـكـو   نَ لها على الطَّيْرِ الزعامه
فـبـكـت لـذاك تـنـدُّمًـا   هَيهاتَ لا تُجدِي النَّدامه!
وأَتـت نَـبـيَّ الـلـهِ وهْـــ   ـيَ تقولُ: يارَبِّ السَّلامه!
قالت: فَقَدْتُ الكتْبَ — يا   مولايَ — في أَرضِ اليَمامه
... لِـتَـسَـرُّعِـي لـمَّـا أَتـا   ني البازُ يدفعُني أَمامه!
فـأَجـابَ: بَـل جِـئتِ الـذي   كادت تقومُ لهُ القيامَه
لـكـنْ كـفـاكِ عـقـوبـةً   مَن خانَ خانتهُ الكرامَه!

الأَسَدُ وَالضِّفْدَع

انـفـعْ بِـمـا أُعطِيتَ مـن قـدرَةٍ   واشفع لذي الذنبِ لَدَى المجمعِ
إِذ كيفَ تسمو لِعُلا يا فتَى   إِن أَنتَ لم تنفع ولم تَشفعِ؟
عـنـدي لـهـذا نـبـأ صـادقٌ   يُعجِبُ أَهلَ الفضل فاسمع، وعِ
قالوا: استَوى الليثُ على عرشهِ   فجيءَ في المجلِسِ بالضَّفدَعِ
وقـيـل لـلـسُّـلـطـانِ: هـذِي الـتـي   بـالأَمـسِ آذتْ عـالِـيَ الـمِـسـمَـعِ
تُـنـقـنِـقُ الـدَّهـرَ بـلا عِـلَّـةٍ   وتَـدَّعـي فـي الـمـاءِ مـا تَـدَّعِـي
فانظر — إِليك الأَمرُ — في ذنبِها   ومُـرْ نُـعـلِّـقْـهـا مـن الأَربَـعِ
فـنـهـضَ الـفـيـلُ وزيـرُ الـعُـلا   وقـال: يـا ذا الـشَّـرَفِ الأَرفـعِ
لا خيْرَ في الملكِ وفي عِزِّهِ   إِنْ ضاقَ جاهُ الليثِ بِالضِّفدَعِ
فـكـتـبَ الـلـيـثُ أَمـانًـا لـهـا   وزاد أَنْ جـاد بِـمُـسـتـنْـقَـعِ!

النَّملةُ الزَّاهدَة

سعْيُ الفتَى في عَيْشِهِ عِبادَهْ وقـائِـدٌ يَـهـديـهِ لـلـسـعـادهْ
لأَنّ بـالـسَّـعـي يـقـومُ الـكوْنُ واللـهُ للسَّاعِينَ نِعْمَ العَونُ
فـإِن تـشـأ فـهـذِه حِـكـايـهْ تُـعَدُّ في هـذا الـمـقـامِ غـايـهْ
كانت بأَرضٍ نَملـةٌ تَنْبالـهْ لم تَسْلُ يومًا لذَّةَ البطالهْ
واشتَهرَتْ في النمل بالتَّقشُّفِ واتَّصفَتْ بالزُّهْدِ والتَّصَوُّفِ
لكن يقومُ الليْلَ مَن يَقتاتُ فـالـبطْنُ لا تَـمـلؤُه الـصـلاةُ
والنملُ لا يَسعَى إِليهِ الحبُّ ونَملتي شَقَّ عليها الدأْبُ
فخرجَتْ إِلى التِماسِ القوتِ وجـعـلـتْ تـطـوفُ بـالـبُـيـوتِ
تـقـولُ: هل من نَملـةٍ نَقيَّهْ تُنْعِمُ بالقوتِ لذِي الوَلِيَّهْ؟
لقد عَيِيتُ بالطَّوى المُبَرِّحِ ومُـنـذ لـيْـلـتـيْـن لـم أَسـبِّـحِ
فصاحَتِ الجاراتُ: يا لَلعارِ لم تترُكِ النملةُ للصرصارِ!
متى رضينا مثلَ هذِي الحالِ؟ متى مددنا الكفَّ للسُّؤالِ؟!
ونحن في عين الوُجودِ أُمَّهْ ذاتُ اشـتِـهـارٍ بـعُـلـوِّ الـهـمّـهْ
نـحـمِلُ مالا يصبِرُ الجِمالُ عن بـعـضِـه لـو أَنـهـا نِـمـالُ
أَلم يقلْ من قولِه الصوابُ: مـا عِـنـدنـا لـسـائـلٍ جَـوابُ؟!
فامضي؛ فإِنَّا يا عجوزَ الشُّومِ نَرَى كمالَ الزُّهْدِ أَن تصومي!

الْيَمَامَةُ وَالصَّيَّاد

يمامةٌ كانت بأَعلى الشَّجرهْ آمِـنَـةً فـي عُـشِّـهـا مُـسْـتَـتِـره
فـأَقـبـلَ الـصَّـيّـادُ ذات يَـومِ وحـامَ حـوْلَ الـرَّوضِ أَيَّ حَـوْمِ
فـلـم يـجِـدْ لـلـطَّـيْـر فـيـه ظِـلاًّ وهـمَّ بـالـرحـيـلِ حـيـنَ مَـلاَّ
فـبـرَزَتْ مـن عُـشِّـهـا الـحـمـقـاءُ والـحُـمْـقُ داءٌ مـالَـه دواءُ
تـقـولُ جَـهْـلا بـالـذي سـيَـحـدُثُ: يـا أَيُّـهـا الإِنـسـانُ، عَـمَّ تـبـحـثُ؟

فالتَفَتَ الصيادُ صوبَ الصوتِ ونَحْوَه سدَّدَ سهْمَ الموتِ
فسَقَطَت من عرشِها المَكينِ ووقعَت في قبضَةِ السِّكِّينِ
تقول قولَ عارف مُحقِّق: «مَلَكْتُ نفْسِي لو مَلَكْتُ مَنْطِقي!»

الْكلْبُ وَالْحَمَامَة

حِكايةُ الكلبِ معَ الحمامَه تشهدُ للجنسَيْنِ بالكرامَهْ
يُقالُ: كان الكلبُ ذاتَ يومِ بينَ الرِّياضِ غارقًا في النَّوم
فجاءَ من ورائه الثعبانُ مُنتفِخًا كأنه الشيطانُ
وهَمَّ أن يَغدِرَ بالأَمينِ فرقَّتِ الورْقاءُ لِلمِسكينِ
ونَزلتْ توًّا تُغيثُ الكلبَا ونقَرَتْهُ نقرةً، فهبَّا
فحمدَ اللهَ على السلامَهْ وحَفِظ الجميلَ للحمامَهْ
إِذ مَرَّ ما مرَّ من الزمانِ ثم أَتى المالكُ للبُستانِ
فسَبَقَ الكلب لتلك الشجرَهْ ليُنْذرَ الطيرَ كما قد أَنذرَهْ
واتَّخذ النَّبْحَ له علامَهْ ففهِمَتْ حديثَهُ الحمامهْ
وأَقلعتْ في الحالِ للخلاصِ فسَلِمتْ من طائِرِ الرَّصاصِ
هذا هو المعروفُ يا أَهلَ الفِطَنْ الناسُ بالناسِ، ومَن يُعِن يُعَنْ!

الْكَلْبُ وَالْبَبَّغَاءُ

كان لبعض الناسِ بَبَّغاءُ ما ملَّ يومًا نُطقَها الإِصغاءُ
رفيعةُ القدْرِ لَدَى مولاها وكلُّ مَنْ في بيتِه يهواها
وكان في المنزلِ كلبٌ عالي أَرْخَصَهُ وجودُ هذا الغالي
كذا القليلُ بالكثيرِ يَنقُصُ والفضلُ بعضُه لبعضٍ مُرْخِصُ
فجاءَها يومًا على غِرارِ وقلبُهُ من بُغضِها في نارِ

وقـال: يـا مـلـيـكـةَ الـطُّـيـورِ ويـا حـيـاةَ الأُنـسِ والـسـرورِ
بحسنِ نُطقِكِ الذي قد أَصبى إلا أَرَيْـتِـنـي الـلِّـسـانَ الـعـذْبـا
لأَنـني قد حِرْتُ في التفكُّر لـمَّ سـمـعـتُ أَنـه مـن سُـكَّـر!
فأَخْرَجتْ من طيشِها لسانها فـعـضَّـهُ بـنـابـه، فـشـانَـهـا
ثم مضى من فورِهِ يصيحُ: قـطـعـتُـه لأَنـه فـصِـيـحُ!
وما لـهـا عنديَ من ثأْرٍ يُعدُّ غيرَ الذي سمَّوْهُ قِدْمًا بالحسدْ!

الْحمَارُ وَالْجَمَل

كان لبعضِهمْ حِمارٌ وجَملْ نـالـهُـمـا يـومًـا من الـرِّق مَـلَـلْ
فـانـتـظـرَا بَـشـائِـرَ الـظَّـلـمـاءِ وانـطَـلـقـا مـعًـا إِلـى الـبَـيْـداءِ
يـجـتـلِـيـانِ طـلـعـةَ الـحـرِّيَّـهْ ويَـنـشَـقـانِ ريـحَـهـا الـزكـيَّـهْ
فاتفَقا أَن يَقضيا العُمْرَ بها وارتـضَـيـا بـمـائِـهـا وعُـشـبِـهـا
وبـعـدَ لـيـلـةٍ مـن الـمـسـيـرِ الـتـفـت الـحِـمـارُ لِـلـبـعـيـرِ
وقـال: كـربٌ يـا أَخـي عـظـيـمُ فقفْ؛ فمشيَ كلُّهُ عقيمُ!
فـقـال: سَـلْ فِـداكَ أُمِّـي وأَبـي عسى تنالُ بي جليلَ المطلبِ
قال: انطلقْ معي لإِدراكِ المُنى أَو انتظِر صاحبَكَ الحرَّ هنا
لابْـدّ لـي مـن عَـوْدة لـلـبَـلـدِ لأَنـنـي تـركـتُ فـيـه مِـقـوَدِي!
فقال سر والزَمْ أَخاكَ الوَتِدا فـإِنـمـا خُـلِـقْـتَ كـي تُـقـيَّـدا!

دُودَةُ الْقَزِّ وَالدُّودَةُ الْوَضَّاءَة

لِـدودةِ الـقـزِّ عـنـدي ودودةِ الأَضـــــواءِ
حـكـايـةٌ تـشـتَـهـيـهـا مـسـامـعُ الأَذكـيـاءِ
لـمَّـا رأَت تِـلـكَ هـذِي تـنُـيـرُ فـي الـظـلـمـاءِ

سَعَتْ إِليها، وقالت: تعيشُ ذاتُ الضِّياءِ!
أَنا المؤمَّلُ نفعي أَنا الشهيرُ وفائي
حلا ليَ النَّفعُ حتى رضيتُ فيه فنائي
وقد أَتيْتُ لأَحظى بوجهكِ الوضَّاءِ
فهل لنُورِ الثُّرَى في مَوَدّتي وإِخائي؟
قالت: عَرَضتِ علينا وجهًا بغيرِ حياءّ
مَن أَنتِ حتى تُداني ذَاتَ السَّنا والسَّناءِ؟!
أَنا البديعُ جمالي أَنا الرفيعُ عَلائي
أَين الكواكبُ مني؟! بل أَين بدرُ السماءِ؟!
فامضي؛ فلا وُدَّ عندي إِذ لستِ من أَكفائي!
وعند ذلك مرَّتْ حسناءُ معْ حسناءِ
تقولُ: للهِ ثوبي في حُسنِه والبَهاءِ!
كم عندنا من أَيادٍ للدودةِ الغرَّاءِ!
ثم انثَنتْ فأَتتْ ذي تقولُ للحمْقاءِ:
هل عندكِ الآنَ شَكٌّ في رُتبتي القَعساءِ؟!
وقد رأَيتِ صنيعي وقد سمعتِ ثَنائي؟!
إِن كان فيك ضياءٌ إِن الثناءَ ضيائي
وإِنه لضياءٌ مؤيَّدٌ بالبقاءِ!

الْجَمَلُ وَالثَّعْلَبَ

كان على بعضِ الدُّروبِ جَملُ حَمَّلهُ المالكُ ما لا يُحملُ
فقال: يا للنَّحسِ والشقاءِ! إِن طال هذا لم يَطُلْ بقائي
لم تحمِلِ الجبالُ مثلَ حِملي أَظنُّ مولاي يُريد قتلي!
فجاءَهُ الثعلبُ من أَمامِهْ وكان نالَ القصدَ من كلامِهْ
فقال: مهلاً يا أَخا الأحمالِ ويا طويلَ الباعِ في الجِمالِ

فأَنتَ خيرٌ من أَخيكَ حالاً لأَنــنـي أَتـعَـبُ مـنـك بـالاً
كـأَن قُـدّامِـي أَلـفَ ديـكِ تسأَلني عن دمها المسفوكِ
كأَنّ خَلفي أَلفَ أَلفِ أَرنبِ إِذا نهضتُ جاذبتني ذَنَبي
ورُبَّ أُمٍّ جئتُ في مُناخِها فجعتُها بالفتكِ في أَفراخِها
يبعَثُني مِنْ مَرْقدي بُكاها وأَفتحُ العيْن على شكواها
وقد عرفتَ خافيَ الأَحمالِ فاصبِرْ، وقلْ لأُمَّةِ الجِمال:
ليسَ بحملٍ ما يَمَلُّ الظهرُ ما الحِمْلُ إِلا ما يُعاني الصَّدْرُ

الْغَزَالَةُ والأَتَانُ

غـزالـةٌ مـرَّتْ عـلـى أَتـانِ تُقبِّلُ الفَطِيمَ في الأَسنانِ
وكان خلف الظَّبْيةِ ابنُها الرَّشا بِوُدِّها لوْ حَمَلتْه في الحَشا
فـفـعـلـتْ بـسـيِّـد الـصِّـغـارِ فِعْلَ الأَتَانِ بابنِها الحمارِ
فـأَسـرع الـحـمـارُ نحوَ أُمِّهِ وجاءَها والضحْكُ مِلْءُ فمِهِ
يصيحُ: يا أُمّاه، ماذا قد دها حتى الغزالةُ استَخفَّت ابنَها؟!

الثَّعْلَبُ الَّذي انْخَدَع

قد سمِعَ الثعلبُ أَهلَ القرَى يدعونَ مُحتالاً بيا ثعلبُ!
فـقـال حـقًّـا هـذه غـايـةٌ في الفخْرِ لا تُؤْتَى ولا تُطْلب
مَن في النُّهى مِثلِي حتى الورَى أَصبَحْتُ فيهم مَثلاً يُضْرب
ما ضَرَّ لو وافيْتُهم زائرًا أُرِيهِمُ فوقَ الذي استغرَبوا
لعلَّهم يُحْيُون لي زينةً يَحضُرُها الدِّيكَ أَوِ الأَرنب
وقَصَدَ القوْمَ وحياهُم وقام فيما بينهم يَخطُب
فأُخِذَ الزائِرُ من أُذنِه وأُعطِيَ الكلبَ بِه يلعَب!
فلا تَثِق يومًا بِذي حِيلةٍ إِذْ رُبَّما يَنخَدِعُ الثعلب!

ثُعَالَةُ وَالْحِمَارُ

أَتـى ثـعـالَـةَ يـومًـا — من الضَّواحي حِمارُ
وقال إن كنتَ جاري — حـقًّـا ونـعـمَ الـجـار
قل لـي فـإنـي كئيبٌ — مُـفـكـرٌ مُـحـتـار
في موْكِبِ الأَمسِ لمَّا — سرنا وسارَ الكِبار ...
... طرَحْتُ مولاي أَرضًا — فـهـل بـذلـك عـار
وهـل أَتـيْتُ عظـيمًا! — فـقـال: لا يـا حِـمـار!

الْبَغْلُ وَالْجَوَادُ

بـغـلٌ أَتـى الـجـوادَ ذات مَـرَّهْ — وقـلـبُـهُ مُـمـتـلِـئٌ مَـسَـرَّهْ
فقال: فضلي قد بدا يا خِلِّي — وآنَ أَن تـعْـرِفَ لـي مَـحـلِّـي
إِذ كنتَ أَمْسِ ماشيًا بجانبي — تعجَبُ من رقصيَ تحتَ صاحبي
أَخـتـالُ، حـتـى قـالـتِ الـعـبـادُ: — لـمَـنْ مِـن الملوكِ ذا الـجـوادُ؟
فضَـحِـكَ الحِصانُ من مقالِهِ — وقال بـالـمـعـهـود من دلالِـهِ:
لم أَر رقصَ البغلِ تحتَ الغازي — لـكـن سـمـعـتُ نـقـرَةَ الـمِـهـمـازِ!

الْفَأْرَةُ وَالْقِطَّةُ

سَـمِـعْـتُ أَنَّ فـأْرَةً أَتـاهـا — شـقـيـقُـهـا يَـنـعَـي لـهـا فَـتـاهـا
يصيحُ: يا لي مِن نُحوسِ بَختي — مَنْ سَلَّط القِطَّ على ابنِ أُختي؟!
فـوَلـوَلـتْ وعـضَّـتِ الـتُّـرابَـا — وجَـمَـعَـتْ لـلـمَـأْتَـمِ الأَتـرابـا
وقـالـتِ: الـيَـومَ انقضَت لذَّاتي — لا خيْرَ لي بعدَكَ في الـحـيـاةِ
من لـي بـهـرٍّ مـثـلِ ذاك الـهـرِّ — يُريحُني من ذا العذابِ المرِّ؟!

وكـان بـالـقـرْبِ الـذي تـريـد ... يَسمَعُ ما تُبْدِي وما تُعيدُ
فـجـاءَهـا يـقـولُ: يـا بُـشْـراكِ ... إن الـذي دَعَـوْتِ قـد لـبَّـاك!
فـفَـزِعـت لـمَّـا رأَتـه الـفـارَهْ ... واعتَصَمَتْ منه ببيْتِ الجارَهْ
وأَشـرفـتْ تـقـولُ لـلـسَّـفـيـهِ: ... إن مُتُّ بعدَ ابني فَمَنْ يَبكيه؟!

الْغَزَالُ وَالْخَرُوفُ وَالتَّيْسُ وَالذِّئْبُ

تَـنـازَعَ الـغـزالُ والـخـروفُ ... وقـال كـلٌّ إنـه الـظَّـريـف
فـرأَيـا الـتِّـيْـسَ؛ فـظَـنَّـا أَنّـه ... أَعطاهُ عقلاً مَنْ أَطالَ ذقنَه!
فـكلَّـفـاه أَن يُـفَـتِّـشَ الـفَـلا ... عن حَكَمٍ له اعتِبارٌ في المَلا
ينظُرُ في دَعواهُما بالدِّقَّهْ ... عساهُ يُعطِي الحقَّ مُسْتحِقَّه
فسـارَ لـلـبحـثِ بِـلا تَـوانـي ... مُـفـتَـخِـرًا بـثِـقـةِ الإِخـوانِ
يـقـول: عِـنـدي نـظـرةٌ كـبـيـرهْ ... تَرفعُ شأْنَ التَيْسِ في العَشيرهْ
وذاكَ أَنَّ أَجـدَرَ الـثَّـنـاءِ ... بالصِّدْقِ ما جاءَ من الأَعداءِ
وإِنـنـي إِذا دَعَـوْتُ الـدِّيـبَـا ... لا يستطيعانِ له تكذيبا
لـكـوْنـه لا يَـعـرفُ الـغـزالا ... وليس يُلقِي للخروفِ بالا
ثم أَتى الذِّيبَ، فقال: طِلْبَتي ... أَنتَ، فسِرْ معي، وخُذْ بلحيتي!
وقـادَه لـلـموضِـع الـمـعـروفِ ... فقامَ بين الظَّبيِ والخروفِ
وقال: لا أَحكمُ حَسْبَ الظاهِر ... فـمزَّقَ الـظَّـبْـيَـيْـنِ بـالأَظـافِـرِ
وقال للتيْس: انطلقْ لِشأْنِكا ... ما قتَل الخَصْمَيْن غيْرُ ذَقنكا!

الثَّعْلَبُ وَالأَرْنَبُ وَالدِّيكُ

من أَعـجَـبِ الأَخـبـارِ أَن الأَرنـبـا ... لمَّا رأى الدِّيكَ يَسُبُّ الثعْلبا
وهْـوَ عـلـى الـجِـدارِ فـي أَمـانِ ... يَـغـلـبُ بـالـمـكـانِ، لا الإِمـكـانِ

داخَـلـهُ الـظـنُّ بـأَنَّ الـمـاكـرا أَمْسى من الضَّعفِ يُطيقُ الساخِرا
فـجـاءَهُ يَـلْـعَـنُ مـثـل الأَوَّلِ عِدادَ ما في الأَرضِ من مُغفَّلِ
فعصَفَ الثعلبُ بالضعيفِ عَصْفَ أَخيه الذِّيبِ بالخروف
وقال: لي في دَمِكَ المسفوكِ تسليةٌ عن خيْبتي في الديكِ!
فالتفتَ الديكُ إِلى الذبيح وقال قولَ عارفٍ فصيح
ما كلُّنا يَنفعُهُ لسانُهْ في الناس مَن يُنطقُه مَكانُهْ!

الثَّعْلَبُ وَأُمُّ الذِّئْبِ

كان ذئبٌ يَتغدَّى فجرتْ في الزَّوْر عَظمَهْ
أَلزَمَتْهُ الصَّوْمَ حتى فَجعَتْ في الروح جِسْمَهْ
فأَتى الثعلَبُ يبكي ويُعزِّي فيه أُمَّه
قال: يا أُمَّ صديقي بيَ مما بكِ غُمَّهْ
فاصبِري صبرًا جميلاً إِنّ صبْرَ الأُمِّ رحْمه!
فأَجابتْ: يا ابنَ أُختي كلُّ ما قد قلتَ حِكمَهْ
ما بيَ الغالي، ولكن قولُهُم: ماتَ بِعظْمَه!
ليْته مثلَ أَخيه ماتَ محسودا بتُخْمَه!

هوامش

(١) المقصود «ابن سينا» الطبيب العربي.
(٢) البصير: الأعمى.
(٣) تعني الليل والخفاش لا يأنس إلا بالظلام.
(٤) أبو المسك الخصي: كافور الإخشيد وكان عبدًا أسود.
(٥) تعني الضوء.
(٦) رامة، وتهامة، واليمامة: أمكنة.

ديوان الأطفال

مجموعة من الشعر السهل، نظمها لتكون للأطفال أدبًا وثقافة.

الْهِرَّةُ والنَّظَافة

هِـرَّتـي جِـدُّ أَلـيـفَـهْ	وهْـي لـلـبيـتِ حليـفهْ
هـي مـا لـم تـتـحـرَكْ	دُمْيةُ البيتِ الظريفه
فـإذا جـاءَتْ وراحـتْ	زِيدَ في البيتِ وصِيفه
شغْلها الفارُ: تُنقِّي الرَّ	فَّ مـنـه والـسَّـقـيـفَـهْ
وتقومُ الظهرَ والعصـ	ـرَ بـأَورادٍ شـريـفـه
ومن الأَثوابِ لم تمـ	ـلِكْ سوى فروٍ قطيفه
كلما استَوسَخَ، أَو آ	وَى البراغيثَ المُطِيفه
غـسَـلْـتُـه، وكـوَتْـه	بـأَسـالـيـبَ لـطـيـفـه
وحَّدَتْ ما هو كالحمَّا	م والـمـاءِ وظـيـفـه
صَيَّرَتْ ريقتَها الصَّا	بونَ، والشاربَ لِيفه
لا تَمُرَّنَّ على العين	ولا بـالأَنـفِ جـيـفـه
وتـعـوَّدْ أَن تُـلاقَـى	حسَنَ الثوبِ نظيفه
إِنما الثوْبُ على الإِنسـ	ـان عُنوانُ الصحيفة

الْجَدَّةُ

لـي جَـدَّةٌ تَـرْأَفُ بـي   أَحنَى علـيَّ مِن أَبى
وكـلُّ شـيءٍ سـرَّني   تذهب فيه مَذهبي
إن غضِبَ الأَهلُ علـيَّ   كلُّهم لم تَغضَب
مشى أَبى يومًا إِلـيَّ   مِـشـيةَ المؤدِّبِ
غَضبانَ قد هَدَّدَ بالضرْبِ،   وإن لم يَضربِ
فلم أَجِد لي منهُ   غيرَ جَدَّتي من مَهرَبِ
فجعَلتني خلفَها   أَنجو بها، وأَخْتبي
وهْيَ تقولُ لأَبي   بِلهجة المونِّبِ:
ويحٌ له! ويحٌ لهـ   ـذا الولدِ المُعَذَّبِ!
أَلم تكن تصنعُ ما   يَصنعُ إذا أَنت صبي؟

الْوَطَن

عُصفورتانِ في الحِجا   زِ حَلَّتا على فنَن
في خامِلٍ من الرِّيا   ضِ، لا نَدٍ، ولا حسَن
بينا هُما تَنتَجِيا   نِ سَحَرًا على الغُصُن
مَرَّ على أَيكِهما   ريحٌ سَرَى مِنَ اليَمَنْ
حيَّا وقال: دُرَّتا   نِ في وِعاءٍ مُمَتَهَن!
لقد رأيتُ حَوْلَ صَنـ   ـعَاءَ، وفي ظلِّ عَدَن[1]
خمائلاً كأَنها   بقِيَّةٌ من ذِي يزَن[2]
الحَبُّ فيها سُكَّرٌ   والماءُ شُهْدٌ ولبَن
لم يَرها الطَّيْرُ ولم   يَسمَعْ بها إلا افتَتَن
هيَّا اركباني نأْتِها   في ساعة منَ الزمن
قالتْ له إحداهما   والطَّيْرُ مِنهنّ الفطِنْ:

يا ريحُ أَنتَ ابنُ السَّبيـ ـل، ما عَرَفْتَ ما السَّكن
هَب جنةَ الخُلدِ اليمن لا شيءَ يَعدِلُ الوطن!

الرِّفْقُ بالْحَيَوَان

الحيوانُ خَلْقُ له عليْكَ حَقُّ
سَخَّرَه اللهُ لكا وللعِبادِ قَبْلَكا
حَمُولةُ الأَثقالِ ومَرْضِعُ الأَطفالِ
ومُطْعمُ الجماعةْ وخادِمُ الزِّراعة
مِنْ حقِّهِ أَن يُرْفَقا به وأَلا يُرْهَقا
إِن كَلَّ دَعْهُ يَستَرِحْ وداوِه إِذا جُرِحْ
ولا يَجُعْ في دارِكا أَو يَظْمَ في جِوارِكا
بهيمةٌ مِسكِينُ يشكو فلا يُبينُ
لسانُه مقطوعُ وما له دُموع!

الأُمُّ

لولا التُّقى لقلتُ: لم يَخلُقْ سِواكِ الوَلدا!
إِن شِئتِ كان العَيْرَ، أَو إِن شئتِ كان الأَسدا
وإِن تُردْ غَيًّا غَوى أَو تَبْغِ رُشْدًا رَشدا
والبيْتُ أَنتِ الصوتُ فيـ ـه، وهْوَ للصَّوتِ صَدى
كالبّبَّغا في قفصٍ: قِيلَ له، فقَلَّدا
وكالقضيبِ اللِّدْنِ: قدْ طاوَع في الشَّكلِ اليَدا
يأْخُذُ ما عَوَّدْتِه والمرءُ ما تعوَّدا!

وَلَدُ الْغُرَاب

ومُمهَّد في الوكرِ من ولدِ الغرابِ مُزقَّقِ
كرُوَيهِبٍ مُتَقلِّسٍ مُتأزِّرٍ، مُتَنطِّقِ[3]
لبسَ الرَّمادَ على سَوا دِ جَناحِه والمَفرِقِ
كالفحْمِ غادرَ في الرَّما دِ بقِيَّةً لم تُحرَقِ
ثُلثاهُ مِنقارٌ ورأ سٌ، والأَظافِرُ ما بقِي
ضخمُ الدِّماغِ على الخُلُوِّ مِنَ الحِجَى والمنطِقِ
مِنْ أُمِّهِ لقي الصغِـ ـيرُ منَ البَليّةِ ما لقِي
جَلبَتْ عليهِ ما تَذو دُ الأُمّهاتُ وتَتّقي
فُتِنت به، فَتوَهّمَتْ فيه قُوًى لم تخلق
قالت: كبِرْتَ، فثِب كما وثب الكِبارُ، وحلِّق
ورَمَتْ به في الجوِّ، لم تَحرِصْ، ولم تَسْتَوثِق
فَهَوى، فمُزِّق في فِنا ءِ الدارِ شرَّ مُمزَّق
وسَمِعتُ قاقاتٍ تُردَّ دُ في الفضاءِ وترتَقي[4]
ورأَيتُ غِربانًا تَفرَّ قُ في السماءِ وتلتقي
وعرفتُ رَنّةَ أُمِّهِ في الصارِخاتِ النُّعَّقِ
فأَشرْتُ، فالتَفَتَتْ، فقلـ ـتُ لها مَقالَةَ مُشْفِق:
أَطلِقته؛ ولو امتَحنـ ـتِ جَناحَه لم تُطلِقي
وكما تَرَفَّقَ والِدَا كِ عليكِ لم تَتَرَفَّقي!

النِّيل

النِّيلُ العَذْبُ هو الكوْثرُ والجنةُ شاطئُه الأَخضَرْ
ريَّانُ الصَّفْحَةِ والمنظَر ما أَبهَى الخُلدَ وما أَنضَر!
البحرُ الفَيَّاضُ، القُدْسُ الساقي الناسَ وما غرَسوا

وهو المِنْوالُ لما لبِسوا والمُنْعِمُ بالقطنِ الأَنوَر
جعلَ الإحسانَ له شَرْعَا لم يُخْلِ الواديَ من مَرْعى
فَترَى زرعًا يَتلو زرعا وهُنا يُجنَى، وهُنا يُبْذَر
جارٍ ويُرَى ليس بجارِ لأَنـاةٍ فـيـه ووقـار
يَنصَبُّ كتَلٍّ مُنْهارِ ويَضِجُّ فَتحسَبُه يَزأَر
حَبَشِيُّ اللَّوْنِ كجِيرتِه من مَنْبَعِه وبُحيْرَتِه
صَبَغَ الشَّطَّيْنِ بسُمْرَته لوْنًا كالمسكِ وكالعَنبَر

الْمَدْرَسَة

أَنا المدرَسةُ اجعَلني كـأُمٍّ، لا تَمِلْ عنِّي
ولا تفْزَعْ كمأخوذٍ من البيتِ إلى السِّجن
كأَنـي وجْـهُ صَيَّادٍ وأَنت الطيرُ في الغصن
ولا بُدَّ لك اليوْمَ — وإلا فغدًا — مِنِّي
أَوِ استَغْنِ عن العقلِ إذنْ عَنِّيَ تستغني
أَنا المِصْباحُ للفِكرِ أَنا المِفتاحُ للذِّهْن
أَنا البابُ إلى المجدِ تعالَ ادخلْ على اليُمْن
غدًا تَرْتَعُ في حَوْشِي ولا تشبَعُ من صَحْنِي
وأَلقاكَ بإِخوانٍ يُدانونَكَ في السِّنِّ
تُنادِيهمْ بيا فِكري ويا شَوقي، ويا حُسني
وآباءٍ أَحَبُّوكَ وما أَنت لهم بابن

نَشِيدُ مصْر

بَنـى مِـصرٍ مَـكانُـكمُـو تَـهَـيَّا … فَـهَـيَّـا مَـهـدُوا لـلـمُـلـكِ هـيَّـا
خُذوا شـمسَ الـنـهارِ له حُـلِـيَّا … أَلَـم تَـكُ تـاجَ أَوَّلِـكـم مَـلِـيَّـا؟!
على الأَخلاق خُطُّوا المُلكَ وابنوا … فـلـيـسَ وراءَهـا لـلـعِـزِّ رُكـن
أَليس لكم بِوادِي النِّيل عَدْنُ … وكوثرُها الذي يَجري شهيّا؟!
لـنـا وطـنٌ بـأَنـفـسِـنـا نَـقـيـه … وبـالدُّنيا الـعـريـضـةِ نَـفـتـديه
إذا مـا سِـيـلَـتِ الأَرواحُ فـيـه … بَـذَلـنـاهـا كـأَنْ لـم نُـعْـطِ شـيَّـا
لنا الهَرَمُ الذي صحِبَ الزمانا … ومـن حَـدَثـانِـه أَخـذ الأَمـانـا
ونحنُ بنو السَّنا العالي، نمانا … أَوائـلُ عَـلَّـمـوا الأُمَـمَ الـرُّقِـيـا
تـطـاوَلَ عـهُـدهُـمْ عِـزا وفـخـرَا … فـلـمـا آل لـلـتـاريـخِ ذُخْـرا
نشأنا نشأَةً في المجدِ أُخرى … جَعَلنا الحقَّ مَظْهرَها العَلِيّا
جعلنا مِصْرَ مِلَّةَ ذي الجَلالِ … وَأَلَّفْنَا الصليبَ على الهلالِ
وأَقـبَـلـنـا كـصـفٍّ مـن عَـوالِ … يُـشـدُّ الـسَّـمْـهَـرِيُّ الـسَّـمْـهَـرِيّـا
نـرومُ لِـمـصـرَ عِـزًّا لا يُـرَامُ … يَـرِفُّ عـلـى جـوانـبِـه الـسَّـلامُ
ويـنَـعـمُ فـيـه جِـيـرانٌ كِـرامُ … فـلـن تَـجدَ الـنَّـزيـلَ بـنـا شـقـيَّـا
نقومُ على البِنايةِ مُحسِنينا … ونـعـهَـدُ بـالـتَّـمـامِ إِلـى بـنـيـنـا
إِليْكِ نَموتُ — مِصْرُ — كما حَيينا … ويَـبـقـى وجـهُـكِ الـمَـفْـدِيُّ حـيَّـا

نَشِيدُ الْكَشَّافَةِ

نـحنُ الكَشَّافةُ في الوادي … جِبريلُ الروحُ لنا حادِي
يارَبِّ، بِعيسى، والـهادي … وبموسى خذُ بيَدِ الوطنِ
كشَّافةُ مِصرَ، وصِبيَتُها … ومـنـاةُ الـدارِ، ومُـنـيـتُـهـا
وجمالُ الأَرضِ، وحليتُها … وطـلائـعُ أَفـراحِ الـمـدُنِ
نَبتدِرُ الـخـيرَ، ونَـستـبِقُ … ما يَرضَى الخالقُ والخُلُقُ

بالنفسِ وخالِقِها نثِقُ ونَزيدُ وُثوقًا في المِحَن
في السَّهلِ نَرف رَياحِينا ونجوبُ الصَّخر شياطينا
نبْني الأَبدانَ وتبنينا والهِمَّةُ في الجسم المَرِنِ
ونُخَلِّي الخلقَ وما اعتقدوا ولوَجه الخالِقِ نجتهدُ
نأسو الجْرحَى أَنَّى وُجدُوا ونُداوِي مِنْ جَرْح الزَّمَن
في الصِّدْقِ نشأَنا والكَرَمِ والعِفَّةِ عن مَسِّ الحُرَمِ
ورعايةِ طفلٍ أَو هَرِمِ والذوْدِ عن الغِيدِ الحُصُنِ
ونُوافي الصَّارخَ في اللُّجَجِ والنارِ الساطعةِ الوَهَجِ
لا نسأَلُهُ ثمنَ المُهَجَ وكفى بالواجِبِ من ثمنِ
يارَبِّ، فكثِّرْنا عدَدا وابذُل لأُبوَّتِنا المَدَدا
هَيِّئْ لهمُ ولنا رَشَدا يارَبِّ، وخُذ بِيَد الوطن

هوامش

(١) صنعاء وعدن: من بلاد اليمن.

(٢) ذو يزن: من ألقاب ملوك اليمن في التاريخ القديم.

(٣) رويهب: راعب صغير، والمتقلس، والمتأزر، والمتنطق: الذي يلبس القلنسوة، والإزار، والنطاق، كالرهبان.

(٤) القاقات: نعيق الغربان.

من شعر الصبا

قصرَ الأعزةِ، ما أعزَّ حماكا!

«وقال في صباه يهنئ الخديو توفيق بعيد الفطر ويشير إلى صلة أنفذها إليه وهو في الدراسة بأوربا»

قـصْـرَ الأَعِـزَّةِ، مـا أَعَـزَّ حِـمـاكـا! وأَجَـلَّ فـي الـعَـلـيَـاءِ بَـدْرَ سَـمـاكـا!

تتسـاءَلُ الـعـربُ الـمُـقَـدَّسُ بيْتُـها: أَأُعِـيـدَ بـانِـي رُكـنـه فـبَـنـاكـا؟!

وتـقـولُ إِذْ تـأَتِـيكَ تَـلتـمِـسُ الـهُـدَى: سِـيَّـانِ هـذا فـي الـجـلال وذاكـا

يا مُلتَقى القمَرَيْنِ، ما أَبهاكَ! بل يا مَجْمَعَ البَحْرَين، ما أَصفاكا!

إِنّ الأَمَـانـةَ، والـجـلالـةَ، والـعُـلا فـي هـالـةٍ دارتْ عـلـى مـغْـنـاكـا

ما الـعِـزُّ إِلا فـي ثرَى الـقَـدَمِ الـتي حَـسَـدَتْ عـلـيـهـا الـنـيِّـراتُ ثـراكـا

يـا سـادِسَ الأُمَـراءِ مـن آبـائِـه مـا لـلإِمـارةِ مَـنْ يُـعَـدُّ سِـواكـا

التُرَّكُ تَقرأُ باسمِ جَدِّك في الوَغَى والـعُـرْبُ تَـذكرُ في الكتاب أَباكا[١]

نَسَبٌ لوِ انتَمَت النُّجومُ لِعقْدِه لـتَـرَفَّـعَـتْ أَن تَـسـكـنَ الأَفـلاكـا

شرَفًا — عزيزَ العصرِ — فُتَّ مُلوكَهُ فـضْـلاً، وفـاتَ بَـنـيـهِـمُ نَـجـلاكـا

لـك جنَّـةُ الـدنـيا، وكوْثرُها الـذي يـجـري بـه الـمـلـكِ شَـرْطُ غِـنـاكـا

ولـك الـمـدائـنُ والـثُّـغـورُ مَـنـيـعـةً في مَجْمَعِ البحرين تحتَ لِوَاكا

مُـلْـكٌ رعـيْـتَ الـلـهَ فـيـه، مـؤيَّـدًا بـاسـم الـنـبـيِّ، مـوَفَّـقًـا مَـسـعـاكـا

فأَقمتَ أَمْرًا — يا أَبا العباسِ — مأْ مونَ السبيلِ على رَشيد نُـهاكا

إِن يَعرضوهُ على الجبال تَهنْ له وهِـيَ الـجـبـالُ، فـمـا أَشَـدَّ قُـواكـا!

بسياسة تقفُ العقولُ كليلةً لا تستطيع لكُنْهِها إدراكا
وبحكمةٍ في الحكمِ توفيقيَّةٍ لك يَقتَفي فيها الرجالُ خُطاكا
مَولايَ، عيدُ الفطرِ صُبحُ سُعودِه في مِصرَ أسفَر عن سنا بُشْراكا
فاستقبلِ الآمالَ فيه بشائِرًا وأشائرًا تُجْلَى على عَلياكا
وتلقَّ أَعيادَ الزمان مُنيرةً فهناؤه ما كان فيه هَناكا
أَيَّامُكَ الغرُّ السعيدةُ كلُّها عيدٌ، فعيدُ العالمين بَقاكا
فليَبْقَ بيتُكَ، ولَيَدُمْ ديوانُه ولْيَحْيَ جُندُكَ، ولْتَعِشْ شُوراكا
ولْيَهنِني بك كلّ يومٍ أَنني في أَلفِ عيدٍ من سُعودِ رضاكا
يأَيها الملك الأَريبُ، إِليكها عذراءَ هامتْ في صفاتِ عُلاكا
فطوتْ إِليكَ البحرَ أَبيضَ نِسبةً لِنظيرِهِ الموروِدِ من يُمناكا
قدِمَتْ على عيدٍ لبابك بعدما قدِمَتْ عليَّ جديدةً نُعماكا
أَوَ كلَّما جادَت نَداكَ رَوِيَّتي سَبَقتْ ثَنايَ بالارتجالِ يداكا؟!
أَنتَ الغنيُّ عن الثناءِ، فإِن تُرِدْ ما يُطربُ الملكَ الأَديبَ فهاكا!

قَصْرُ الْمُنْتَزَه

«وقال يصف قصر المنتزه العامر بالإسكندرية بعد رؤية معالمه الشائقة بدعوة من الجناب العالي سنة ١٨٩٥»

مُنتَزهُ العبّاسِ للمجتَلي آمنتُ باللهِ وجَنَّاتِهِ!
العيشُ فيه ليس في غيرِهِ يا طالبَ العيشِ ولذّاتِهِ
قصورُ عزٍّ باذخاتُ الذُّرَى يودُّها كسرَى مَشيداتِه
من كل راسي الأَصل تحت الثرى مُحيرِ النجمِ بِذِرواتِه
دارتْ على البحرِ سلاليمُهُ فبتن أَطواقًا لِلَبَّاتِه
مُنتظِماتٌ مائجاتٌ به مُنمقاتٌ مثلَ لُجَّاتِه
من الرخامِ النَدْرِ، لكنها تُنازعُ الجوهَرَ قيماته
من عملِ الإِنسِ، سوى أَنها تُنسي سليمانَ وجِنَّاته

والـريـحُ فـي أَبـوابِـه، والـجـوا ... ري مـائـلاتٌ دون سـاحـاتـه
وغـابُـه مَـنْ سـارَ فـي ظلِّـهـا ... يَأْتـي على البُسفورِ غاباتِه
بالطولِ والعرضِ تُباهِي، فذَا ... وافٍ، وهـذا عـنـد غـايـاتِـه
والرَّمْلُ حال بالضُّحى مُذهَبٌ ... يُـصَـدِّئُ الـظـلُّ سَـبـيـكـاتِـه
وتُـرْعـةٌ لـو لـم تـكـن حُـلـوَةً ... أَنْسَتْ «لَمَرْتِينَ» بُحَيْراتِه[٢]
أَوْ لـم تـكنْ ثَمَّ حياةَ الثرَى ... لم تُبْقِ في الوصفِ لحيّاتِه
وفـي فـمِ الـبـحـرِ لِمـنْ جـاءَهُ ... لِـسـانُ أَرضٍ فـاقَ فُرْضـاتِـه
تَـنْـحَـشِـدُ الـطَّـيْـرُ بـأَكـنـافِـه ... ويَجـمـعُ الـوحـشُ جـمـاعـاتِـه
مِـنْ معِزٍ وَحْشِيَّةٍ، إن جَـرَتْ ... أَرَتْ مِـن الـجـرْيِ نِـهـايـاتِـه
أَو وثَبتْ فالنَّجْمُ من تحتِها ... والـسُّـورُ فـي أَسْرِ أَسِـيـراتِـه
وأرنـبٌ كـالـنَّملِ إن أحصيَتْ ... تَـنْـبُـتُ فـي الـرَّمـلِ وأَبـيـاتـه
يَعلـو بـهـا الصَّيْدُ ويـعـلو إذا ... مـا قـيْـصَـرٌ أَلـقَـى حِـبـالاتـه
ومـن ظِـبـاءٍ فـي كِـنـاسـاتِـهـا ... تَـهـيـجُ الـلـعـاشِـقِ لَـوْعـاتِـه
والـخَـيْـلُ فـي الـحـيِّ عـراقِـيَّـةٌ ... تَحمِي وتُحمَى في بُيوتاته
غُـرٌّ كـأَيـامِ عـزيـزِ الـوَرَى ... مُـحـجَّـلاتٌ مِـثـل أَوقـاتـه

«وقال يهنئ الخديو توفيق بقدوم نجليه من سياحتهما بأوربا»

ما باتَ يُثني على علياكَ إنسانُ ... إلا وأَنـت لـعَـيْـنِ الـدَّهْـرِ إنـسـانُ
ومـا تَـهـلَّـلـتَ إِذْ وافـاكَ ذو أَمَـلٍ ... إلا وأَدهَـشَـه حُـسْـنٌ وإِحـسـان
لله ساحَتُكَ المسعودُ قاصِدُها ... فـإِنـمـا ظِـلُّـهـا أَمْـنٌ وإِيـمـان
لئِنْ تَباهى بِك الدِّينُ الحنيف لَكَمْ ... تـقـوَّمَـتْ بـك لـلإسـلامِ أَركـان
تُـراقِـبُ الـلـهَ فـي مُـلـكٍ تـدَبِّـرُه ... فأَنت في العدْلِ والتَّقوى سُليمان
أَنجَى لك اللهُ أَنجالاً يُهيِّئُهم ... لـرِفـعَـةِ المُـلـكِ إقـبـالٌ وعِـرْفـان
أَعِـزَّةٌ أَيـنَـمـا حـلَّـتْ ركـائِـبُـهـم ... لـهـم مـكـانٌ كما شاءُوا وإِمكان
لم تثنِهِمْ عن طِلابِ العِلمِ في صِغَرٍ ... في عزِّ مُلكِك — أَوطارٌ وأَوطان
تـأَبـى الـسـعـادةُ إلا أَن تُسايَرهم ... لأنـهـم لِمـلـوكِ الأَرضِ ضـيـفـان
نجلانِ قد بلغا في المجدِ ما بَلغا ... مُـعَـظَّـمٌ لـهـمـا بـيـن الـورى شـان

يكفيهما في سبيلِ الفخرِ أَن شَهِدَتْ ... بفضلِ سَبقِهما روسٌ وأَلمان
هُما هُما، تعرِفُ العَلياءُ قدرَهُما ... كِلاهُما كَلِفٌ بالمجدِ يَقظان
ما الفَرْقَدانِ إذا يومًا هُما طلعا ... في مَوكِبٍ بهما يَزهو ويزدان؟
يا كافِيَ الناس بعد الله أَمْرَهُمُ ... النَّصرُ إلا على أَيديكَ خِذْلان
ويا مُنِيلَ المعالي والنَّدى كرمًا ... الربح من غيرِ هذا البابِ خُسران
مولايَ، هل لِفتى بالبابِ مَعذرَةٌ ... فعقلهُ في جلالِ الملكِ حيرانُ؟!
سعى على قدمِ الإخلاصِ مُلتَمِسًا ... رضاك، فهْوَ على الإقبالِ عُنوان
أَرى جَنابَكَ رَوضًا للندى نَضِرًا ... لأَنّ غُصنَ رجائي فيه رَيَّان
لا زالَ مُلككَ بالأنجالِ مُبتَهِجا ... ما باتَ يُثني على عَلياكَ إنسان

«وقال مهنئًا للخديو عباس بولادة إحدى الكريمات»

أعطى البريةَ إذ أَعطاكَ باريها ... فهل يُهنِّيك شعري أَم يُهنِّيها؟
أَنت البرية، فاهنأ، وهْيَ أَنت، فمَنْ ... دعاكَ يومًا لِتهنا فهْو داعيها
عيدُ السماءِ وعيدُ الأَرضِ بَينهما ... عيدُ الخلائِقِ قاصيها ودانيها
فبارَكَ اللهُ فيها يومَ مَولِدِها ... ويومَ يرجو بها الآمالَ راجيها
ويومُ تُشرِقُ حوْلَ العرشِ صبيتُها ... كهالةٍ زانتِ الدنيا دَراريها
إنّ العنايةَ لمَّا جامَلَتْ وعَدَتْ ... أَلا تَكُفَّ وأَن تَتْرَى أياديها[٣]
بكلِّ عالٍ من الأَنجالِ تحسَبه ... من الفراقِدِ لو هَشَّتْ لرائيها
يقومُ بالعهدِ عن أَوفى الجدودِ به ... عن والدٍ أَبلجِ الذِّمَّاتِ عاليها
ويأْخذُ المجدَ عن مصرٍ وصاحبها ... عنِ السَّراةِ الأَعالي من مواليها
الناهضين على كرسيٍّ سُؤددها ... والقابضين على تاجَيْ مَعاليها
والساهرين على النيل الحفيِّ بها ... وكأسِها وحُمَيَّاها وساقيها
مولاي، للنفسِ أن تُبدي بشائِرَها ... بما رزقتَ، وأَن تهدي تهانيها
الشمسُ قدرًا، بلِ الجوْزاءُ منزلةً ... بَل الثُّرَيَّا بل الدنيا وما فيها
أُمُّ البنينَ إذا الأَوطانُ أَعْوزَها ... مُدبِّرٌ حازمٌ أَو قلَّ حاميها
مِنَ الإناثِ سِوى أَنّ الزمان لها ... عبدٌ، وأَنَّ الملا خُدّامُ ناديها
وأَنها سرُّ عباسٍ وبضعتُهُ ... فهْيَ الفضيلةُ، مالي لا أُسمِّيها؟!

أَغرُّ يستقبلُ العصرُ السلامَ به ... وتشرقُ الأَرضُ ما شاءَتْ لياليها
عالي الأَريكةِ بين الجالسين، له ... منَ المفاخر عليها وغاليها
عباسُ، عِشْ لنفوسٍ أَنت طِلْبَتُها ... وأَنت كلُّ مُرادٍ من تناجيها
تُبدي الرجاءَ وتدعوهُ ليَصْدُقها ... والله أَصدق وعدًا، وهْوَ كافيها

بَيْني وَبَيْنَ أَبي الْعَلاَءِ

بيني وبين أَبي العلاءِ قضيَّةٌ ... في البرِّ أَسْتَرْعِي لها الحُكماءَ
هُوَ قدْ رأَى نُعْمى أَبيه جِنايةً[٤] ... وأَرَى الجِنايةَ من أَبي نعْماءَ

دَوَاءُ الْمُتَيَّم

دَاوِ الـمُـتَـيَّـمَ، دَاوِهِ ... من قَبْلِ أَنْ يَجِدَ الدَّوا
إِنَّ النَّواصِحَ كلَّهُمْ ... قالوا بتبدِيلِ «الهوا»[٥]
فتَحْتُمُوا بابًا على صَبِّكم ... لِلصّدِّ، والهَجْرِ، وطُولِ النَّوى
فلا تَلومُوهُ إِذا ما سَلا ... قد فُتِحَ البابُ ومرَّ «الهوا»

وَكَتَبَ عَلَى صُورَةٍ مُهْدَاةٍ لِصَدِيق

سَعَتْ لكَ صُورَتِي، وأَتاكَ شَخْصِي ... وسارَ الظِّلُّ نحوَكَ والجِهاتُ
لأَنّ الرُّوحَ عِنْدَكَ وهْيَ أَصلٌ ... وحيثُ الأَصلُ تَسْعَى المُلْحَقات
وهبْها صورَةً مِن غيْرِ رُوح ... أَليس من القَبُولِ لها حياةُ؟!

هوامش

(١) هو توفيق بن «إسماعيل».

(٢) لامرتين: شاعر فرنسا العظيم، وقصيدته عن «البحيرات» ذائعة وقد تُرْجِمَت إلى العربية مرات.

(٣) تترى: متواترة متتابعة، وقد استعملها الشاعر هنا بمعنى تتواتر.

(٤) يشير إلى قول أبي العلاء المعرى:

هذا جناه أبي عليَّ، وما جنيت على أحد

وأبو العلاء لم يتزوج ولم ينجب.

(٥) يستعمل الشاعر كلمة «الهوا» على طريقة الإيهام عند البديعيين فيقصد معنى ويوهم معنى غيره، والهوا «مقصور الهواء» غير الهوى بمعنى العشق والمحبة.

محجوبيات

«كان بين الشاعر والدكتور محجوب ثابت صلة متينة من الود، وكان بينهما مسامرات ومداعبات أوحت إلى الشاعر ببعض ما ننشره بعد من شعر الفكاهة».

بَيْنَ مَكْسُويني وَالأُوتُومُبيلِ

«كان للدكتور محجوب ثابت حصان يرتاد به ما شاء من أحياء القاهرة في أيام الثورة، وكان أصدقاؤه يُسمُّون حصانه «مكسويني» وهو اسم بطل أيرلندي مشهور انتحر جوعًا؛ يكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه وعدم العناية به».

«وقد استبدل به الدكتور محجوب سيارة، فنظم الشاعر هذه القصيدة يداعب الدكتور ويعزي حصانه. وقد نُشِرَت هذه القصيدة في سنة ١٩٢٤».

لكم في الخطِّ سيَّارَهْ حديثُ الجارِ والجارَهْ
(أَوفْر لانْدُ) يُنبِّيكَ بها القُنْصُلُ (طَمَّارَه)[١]
كسيَّارةِ (شارْلوتَ) على السَّواقِ جبَّارَهْ[٢]
إذا حَرَّكَهَا مالتْ على الجنْبَيْنِ مُنْهَارَهْ!
وقد تَحْرُنُ أَحيانًا وتمشِي وحدَها تارَهْ
ولا تُشْبعُها عَيْنٌ مِنَ (البِنزينِ) فوَّارَهْ
ولا تُرْوَى من الزَّيْتِ وإن عامَتْ به الفاره

تَرى الشارعَ في ذُعْرٍ إِذا لاحَتْ من الحاره
وصِبْيانًا يَضِجُّونَ كما يَلقَوْن طَيَّاره
وفي مَقدَمِها بوقٌ وفي المُؤْخِرِ زَمّاره
فقد تَمشي مَتى شاءَتْ وقد ترجِعُ مُختاره
قضى اللهُ على السَّوَّا ق أَن يجعلها داره!
يُقَضّى يَومَهُ فيها ويَلْقَى الليلَ ما زاره!
أَدُنيا الخيلِ (يا مَكسِي) كدُنيا الناسِ غدّاره؟!
لقد بَدَّلك الدهرُ من الإقبالِ إدباره
فصبرًا يا فتَى الخيلِ فنفْسُ الحرِّ صَبَّاره
أَحقٌّ أَنّ (مَحجوبًا) سَلا عنك بفَخَّاره؟
وباعَ الأَبْلَقَ الحُرَّ (بأوفرْ لانْد) نَعَّاره؟
ولم يَعرِفْ له الفضلَ ولا قدَّرَ آثاره
قد اختارَ لك الشَّلْحَ وما كنتَ لتَختاره
فسَلْه: ما هو الشَّلْحُ؟ عسى يُنْبيكَ أَخباره
كأَن لم تَحمِلِ الرَّا يةَ يومَ الرَّوْع والشَّاره[3]
ولم تَركبْ إلى الهوْلِ ولم تحمِلْ على الغاره
ولم تَعطِفْ على جَرْحَى من الصِّبيةِ نَظَّاره
فمضروبٌ برَشَّاش ومَقلوبٌ بغَدّاره
ولا واللهِ ما كلَّفـ ـتَ (محجوبًا) ولا باره
فلا البِرْسيمُ، تَدْرِيهِ ولا تعرِف نَوَّاره!
وقد تَرْوَي على (صُلْتٍ) إذا نادَمْتَ سُمَّاره[4]
وقد تَسكَرُ من خَوْدٍ على الإفريزِ مِعْقاره
وقد تشبَعُ يا ابنَ الليْلـ ـلِ من رَنَّةِ قِيثاره!
عسَى اللهُ الذي ساقَ إلى (يوسُفَ) سَيّاره
فكانت خَلفهم دُنيا له في الأَرضِ كباره
يهيِّي لك هَوّارًا كريمًا وابنَ هَوَّاره[5]
فإن الحظَّ جَوّالٌ وإنّ الأَرضَ دَوّاره!

مَكْسويني ...

«وهذه مداعبة أخرى قيلت في مكسويني حصان الدكتور محجوب أيام الثورة المصرية حين كان الدكتور يرتاد بار اللواء وجريدة الأهرام»

تفدِّيك — يا مَكسُ — الجيادُ الصَّلادِمُ   وتفدي الأساةُ النُّطْسُ مَن أَنتَ خادمُ
كأَنكَ — إِن حاربتَ — فوْقكَ عنترٌ   وتحتَ ابن سينا أَنت حين تسالِمُ
ستُجْزَى التماثيلَ التي ليس مِثلُها   إِذا جاءَ يومٌ فيه تُجزَى البهائِم
فإِنك شمسُ، والجيادُ كواكبٌ   وإِنك دينارٌ، وهُنَّ الدراهم
... مثالٌ بِساحِ البرْلمانِ مُّنصَّبٌ   وآخرُ في (بارِ اللِّوا) لك قائم
ولا تظفرُ (الأَهرامُ) إلا بثالثٍ   «مزاميرُ» داودٍ عليه نَواغِمُ[٦]
وكم تَدَّعِي السُّودانَ يا مَكس هازِلاً   وما أَنت مُسْوَدٌّ، ولا أَنت قاتم
وما بكَ مما تُبصرُ العينُ شُهبَةٌ   ولكن مشِيبٌ عَجَّلتْهُ العظائم
كأَنك خيْلُ التركِ شابَت مُتونُها   وشابت نَواصيها، وشاب القوائم
فيا رُبَّ أَيامٍ شهدْتَ عصيبةٍ   وقائعُها مشهورةٌ والملاحِم!

ذَخِيرَةٌ

«وهذه مداعبة أخرى — لم تكمل — نظمها في أيام الثورة وهو يشير فيها إلى ألفي جنيه كان الدكتور محجوب قبل اكتنزها وحرص عليها في بنك حسن باشا سعيد ...»

قل لابن سِينا: لا طَبيـ   ـبَ اليومَ إلا الدرْهمُ
هو قبلَ بقراطٍ وقبْـ   ـلَكَ للجِراحةِ مَرْهم
والناسُ مُذ كانوا عليـ   ـه دائرون وحُوَّم
وبِسحْرِه تعلو الأَسا   فِلُ في العيونِ وتعظُم
يا هل تُرى الأَلفانِ وقـ   ـفٌ لا يُمسُّ ومَحرَم؟!
بنكُ «السَّعيدِ» عليهما   حتى القيامةِ قيِّم
لا «شِيكَ» يظهَرُ في البُنو   ك ولا «حِوالَةَ» تُخصَم!

وأَعَفُّ مَنْ لاقيتَ يلقــ ـــهُ فــلا يــتــكــرّم!
... ...

بَرَاغِيثُ مَحْجُوب

بَرَاغِيثُ مَحجوب لم أَنسَها ولم أَنسَ ما طَعِمَتْ من دمي
تشقُّ خَراطيمُها جَوْرَبى وتنفُذُ في اللحم والأَعظُمِ!
وكنتُ إذا الصيّفُ راح احتَجمْـ ـتُ فجاءَ الخريفُ فلم أحجَم
تُرَحِّبُ بالضَّيف فوقَ الطـ ـريقِ، فبابِ العيادةِ، فالسُّلَّم
قد انتشَرَت جوْقَةً جَوقةً كما رُشَّتِ الأَرضُ بالسِّمسِم!
وتَرقصُ رَقصَ المَواسي الحِدادِ على الجِلدِ، والعَلَقِ الأَسحم
بواكيرُ تَطلعُ قبل الشِّتاءِ وتَرفعُ أَلوِيةَ الموْسِمِ
إذا ما «ابنُ سينا» رَمى بلغمًا رأَيتَ البراغيثَ في البَلغم
وتُبصِرُها حول «بيبا» الرئيس[7] وفي شارِبيْهِ وحولَ الفَم!
وبيْنَ حفائِرِ أَسنانِه مع السُّوسِ في طلبِ المَطْعَم!

هوامش

(١) الشيخ طمارة: كان إمامًا بالمفوضية المصرية في واشنطن.
(٢) يعني شارلي شابلن الممثل الهزلي المشهور.
(٣) يشير إلى ملازمته أباه في أبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩.
(٤) مشرب عام في القاهرة كان يرتاده الصفوة من سكان القاهرة ونزلائها.
(٥) هوارة: قبيلة عربية يشتهر بنوها بالكرم، ومنها بطن تستوطن صعيد مصر.
(٦) نحسبه يعني المأسوف عليه داود بركات رئيس الأهرام لذلك العهد.
(٧) ابن سينا، والرئيس: كناية عن الدكتور محجوب نفسه، ومن الأشياء الحبيبة إليه التدخين في «البيبا».